روبِرتو بولانيو

2666



ترجمة: رفعت عطفه

منشورات الجمل

رواية

روبِرتو بولانيو

2666

رواية

ترجمة: رفعت عطفه

منشورات الجمل



روبِرتو بولانيو، **2666**، رواية

روبِرتو بولانيو. ولد في سانتياغو تشيلي عام ١٩٥٣. انتقل في عام ١٩٦٨ مع أسرته إلى المكسيك ولم يعد إلى بلده حتى عام ١٩٧٣، مدفوعاً بانتصار سالفادور أليندي الاشتراكي، لكنّه يُغادر البلد من جديد على إثر الانقلاب العسكري. ينتقل في عام ١٩٧٧بعد عدد من السنوات قضاها في السلفادور والمكسيك إلى برشلونة. عمل قبل أن يتفرّغ للأدب كلّياً، اعمالاً متباينةً جداً كنادلٍ، حارسٍ ليلي، زبّال وعاملٍ زراعي موسمي. راح اسمُهُ بدءاً من نشره **الأدب النازي في أمريكا** (١٩٩٦) يصبح معروفاً في الأوساط الأدبية، التي استقبلته كواحد من أكثر أصوات العقد العاشر أصالة. جاء تطويبه النهائي في عام ١٩٩٨ مع **رجال التحرّي المتوحّشون**، التي حازت على جائزتي هِرّالْدِ للرواية ورومور غايّيغو. شاعر وروائيّ وكاتب مقالة يمكن أن نذكر من أعماله الكثيرة كتبه القصصية: **مكالمات هاتفية**، و**عاهرات وقتلة**، وديوانيه **الكلاب الرومانسية** و**ثلاثة**؛ وروايات **حلبة الجليد**، **نجم بعيد**، **تميمة**، **ليل تشيلي** و**أمبِرِس**. توفّي في ١٥ تموز ٢٠٠٣. صدر له عن منشورات الجمل: **حلبة الجليد**، رواية (٢٠١٧)؛ **رجال التحرّي المتوحّشون**، رواية (٢٠١٧).

روبِرتو بولانيو: **2666**، رواية، الطبعة الأولى
ترجمة: رفعت عطفه

تلفون وفاكس: ٣٥٢٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

إلى أَلِكساندرا بولانيو ولاورا بولانيو

واحة من الرعب وسط صحراء من الضجر.

شارل بودلير

ملاحظة ورثة المؤلّف

ترك روبِرتو أمام احتمالِ موتِهِ القريب، تعليماتٍ بأنّ تُنشر روايته *2666* مقسّمة إلى خمسة كتب، تنطبق على أجزاء الروية الخمسة، مُحَدّداً ترتيب وأولويّة النشر (كتاب كلّ سنة) بل وحدّدَ السعر الذي سوف يُناقش مع الناشر. بهذا القرار الذي أبلغه روبِرتو نفسه، قبل أيّام من وفاته، إلى خورخِ هِرالدِ، كان يعتقد أنّه يضمنُ مستقبلَ ولديه الاقتصادي.

بعد وفاته وقراءة ودراسة العمل الذي تركه روبِرتو، الذي قام به إغناثيو إتشباريّا (الصديق الذي عيّنه كشخصٍ مرجعيّ لطلبِ النصيحة حول مسائله الأدبيّة)، ظهرت اعتبارات أخرى ذات طبيعة أقل عملية: احترام القيمة الأدبية للرواية، الذي يجعلنا نُغيّر مع خورخِ هِرالدِ قرارَ روبِرتو وأن تُنْشَرَ *2666* بدايةً بكلّ أجزائها في مُجلّدٍ واحدٍ، تماماً كما كان سيفعل لولا أن أسوأ الاحتمالات التي كان تطوّر مرضه يُقدّمها.

قسم النقّاد

المرّة الأولى التي قرأ فيها جان-كلود بيليتر لِبِنّو فون أرشيمبولدي كان في أعياد ميلاد ١٩٨٠، في باريس، حيث كان يُتابع وهو في التاسعة عشرة من عمره دراستَهُ الجامعيّة للأدب الألماني. الكتاب المعني هو دارسونفال. كان بيليتير الشاب يجهل وقتها أنّ هذه الرواية تشكّل جزءاً من ثلاثيّة (مؤلفة من *الحديقة*، موضوعها إنكليزي، *القناع الجلدي*، موضوعها بولندي، بالطبع كانت *دارسونفال* ذات موضوع فرنسي)، لكنّ هذا الجهل أو هذه الفجوة أو هذا الإهمال المراجع، الذي يمكن أن يُعزى فقط إلى صغر سنّه، لم يُؤثّر قيدَ أنمله على الإبهار والإعجاب الذي أحدثته عنده الرواية.

بدءاً من ذلك اليوم (أو من تلك الساعات الليلية التي أنهى فيها تلك القراءة التدشينية) تحوّل إلى متحمّس لِأرشيمبولدي وبدأ رحلته بحثاً عن مزيد من أعمالِ المؤلّف المذكور. لم تكن مهمّة سهلة. فالحصول على كتب بِنّو فون أرشيمبولدي في ثمانينات القرن العشرين لم يكن ولا بشكل من الأشكال عملاً لا ينطوي على صعبات كثيرة، حتى ولو كان في باريس. لم يكن يوجد في مكتبة قسم الأدب الألماني في الجامعة أيّ مرجع تقريباً حول أرشيمبولدي. وأساتذته لم يكونوا قد سمعوا أحداً يتكلّم عنه. قال له واحد منهم إنّ اسمه ليس غريباً عليه. بعد عشر دقائق اكتشف بيليتير غضباً (مذعوراً) أنّ ما لم يكن غريباً على أستاذه هو الرسام الإيطاليّ، الذين كان يمتدّ إليه جهله أيضاً بطريقة مزرية.

كتب إلى دارِ النشر في هامبورغ، التي كانت قد نشرت *دارسونفال* ولم يتلقّ أيّ جواب. جالَ أيضاً على المكتبات الألمانية القليلة التي استطاعَ أن يعثر عليها في باريس. كان اسم أرشيمبولدي يظهر في قاموس للأدب الألماني وفي مجلّة بلجيكية مكرّسة، لم يدرِ قطّ مزاحاً أم جدّياً، للأدب البروسي. سافر في عام ١٩٨١ مع ثلاثة أصدقاء من الكلّية إلى بافاريا وهناك عثر في مكتبة صغيرة في ميونخ، في فورالمستراس على كتابين، الكتاب الرقيق، أقل من مئة صفحة، عنوانه كنز ميتزي والكتاب الذي سبق ذكره، الرواية الإنكليزية، *الحديقة*.

ساهمت قراءة هذين الكتابين الجديدين في تعزيز رأيه بِأرشمبولدي. في عام ١٩٨٣، وفي الثانية والعشرين من عمره بدأ مهمّةَ ترجمةِ *دارسونفال*، لا أحد طلب منه أن يفعل ذلك. لم يكن هناك وقتذاك أيّ دار نشر فرنسية مهتمّة بترجمة أعمال هذا الألمانيّ ذي الاسم الغريب. بدأ بيليتر ترجمته لأنّ الكتاب في الأساس أعجبه، لأنّه كان سعيداً وهو يفعل ذلك، وإن كان قد فكّر أيضاً أنّ بإمكانه تقديم هذه الترجمة مسبوقةً بدراسة لأعمال أرشيمبولدي كأطروحة، ومن يدري، ربّما كأوّل حجر في رسالة الدكتوراه المستقبلية.

انتهى من نسخة الترجمة النهائيّة في عام ١٩٨٤، قبلتها دار نشر باريسيّة بعد بعضِ القراءات المتردّدة والمتناقضة، ونشرت لِأرشيمبولدي روايته المقدّر مسبقاً ألّا يتجاوز البيع منها الألف نسخة، نفقت بعد مقالين متناقضين عنها، إيجابيين، بل ومفرطين في مديحهما، نسخ الطبعة الثلاث آلاف فاتحة الأبواب لطبعة ثانية وثالثة ورابعة.

كان بيليتير قد قرأ حتى ذلك الوقت خمسة عشر عملاً للمؤلّف الألماني وترجم كتابين آخرين، واعتبر بالإجماع تقريباً أكبر مُتخصّص بِنّو فون أرشيمبولدي على طول وعرض فرنسا.

استطاع بيليتير وقتها أن يتذكّرَ اليوم الذي قرأ فيه أرشيمبولدي لأوّل

مرّة، ووجد نفسه شابّاً وفقيراً يعيش في غرفة خدمةٍ ويشترك في المغسلة مع خمسة عشر شخص آخر كانوا يسكنون العليّة المظلمة، حيث كان يغسل فيها وجهه وأسنانه، كانوا يتغوّطون في حمّام مريع وغير صحّي لم يكن فيه شيء من الحمّام وكان أقرب إلى المرحاض أو البئر النتن، المشترك أيضاً مع الخمسة عشر المقيمين في العليّة، وكان بعضهم قد عاد إلى المقاطعات مزوّدين بإجازاتهم الجامعية، أو انتقلوا إلى أماكن أكثر راحة بقليل في باريس ذاتها. أو بقي بعضهم هناك يهزلون أو يموتون ببطء من القرف.

رأى نفسه، كما سبق وقلنا، زاهداً ومنكبّاً على قواميسه الألمانية، مضاءً بمصباح ضعيف، هزيلاً، شموساً، كما لو أنّهُ كان كلّه إرادة صارت لحماً وعظاماً وعضلات، لا شيء من الشحم، متعصّباً وعازماً على الوصول إلى ميناء حسن، أي باختصار صورة طالب عاديّة كفايةً في العاصمة، لكنّها عملت فيه مثل مخدِّرٍ، مخدّرٍ جعله يبكي، مخدّر فتح له، كما قال شاعر هولندي متحذلق من القرن التاسع عشر، بوّابات العاطفةِ وشيءٍ يبدو من النظرة الأولى جلدَ الذات، لكنّه لم يكن هذا (ماذا كان إذن؟ حنق؟ ربّما) وقاده إلى التفكيرِ وإعادةِ التفكير، لكن ليس بالكلمات، بل بالصور الموجعة، بمرحلةِ تعلّمه الشبابية وبعد ليل طويل، ربّما غير مجدٍ أقحم في عقله استنتاجين: الأوّل أنّ الحياة كما عاشها حتى ذلك الوقت انتهت؛ الثاني، أنّ طريقاً مشرقاً كان ينفتح أمامه وأنّه كيلا يفقدَ هذا الطريقُ إشراقَه عليه أن يُحافظ على إرادته كذكرى وحيدة من تلك العليّة.

وُلِدَ جان-كلود بيليتير عامَ ١٩٦١ وصار في عام ١٩٨٦ رئيسَ قسم اللغة الألمانية في باريس. وُلِدَ بييرو موريني عامَ ١٩٥٦، في قرية قريبة من نابولي وبالرغم من أنّه قرأ بِنّو لأوّل مرّة في عام ١٩٧٦، أي قبل بيليتير بأربع سنوات، إلاّ أنّه لتأخّر حتى عام ١٩٨٨ حتى ترجَمَ روايتَهُ

الأولى للمؤلّف الألمانيّ *شعابُ الشِعاب* التي مرّت على المكتبات الإيطاليّة دون أن تلفت انتباهاً.

كان وضع أرشيمبولدي في إيطاليا، وهذا ما يجب التأكيد عليه، مختلفاً جدّاً عنه في فرنسا. عملياً لم يكن موريني أوّلَ مترجم له. بل وأكثر من ذلك كانت الرواية الأولى التي وقعت في يد موريني ترجمةً *المقناع الجلدي* قام بها شخص يُدعى كولوسيمو لصالح إيناودي في عام ١٩٦٩. بعد *القناع الجلدي* في إيطاليا نُشرت *أنهار أوروبا*، في ١٩٧١، ثمَّ *إرث* في ١٩٧٣ و*كمال السكك الحديدية* في ١٩٧٥، وكانت قد نشرت دارُ نشرٍ في روما قبلها في عام ١٩٦٤مختارات قصصية لا تندر فيها قصص الحرب، عنوانها *أهل حضيض برلين*. بحيث يمكن القول بأنّ أرشيمبولدي لم لكن مجهولاً تماماً في إيطالياً وإن لم يكن باستطاعتنا أيضاً أن نقول إنّه كان كاتباً رائجاً أو نصف رائج ولا رائجاً قليلاً، بل غير رائجٍ إطلاقاً، كانت كتبه تعتق على أكثر رفوف المكتبات عفناً أو كانت تُصفّى أو تُنسى في مخازن دور النشر قبل أن تُعْدَم.

موريني لم يركع طبعاً أمام الاهتمام القليل الذي كانت تُثيره أعمال أرشيمبولدي عند الجمهور الإيطالي ثم وبعد ترجمة شعاب الشعاب قدّم لمجلّة في ميلان وأخرى في باليرمو دراسات أرشيمبولدية مهمّة، واحدة حول القَدَر في *كمال السكك الحديدية* وأخرى حول الأقنعة المتعدّدة للضمير والخطيئة في *ليتيا*، وهي رواية ذات مظهر أيروسي وفي *بيتزيوس* وهي رواية تقع في أقل من مئة صفحة، شبيهة إلى حدٍّ ما بكنز ميتزي، الكتاب الذي عثر عليه بيليتير في مكتبة في ميونيخ والتي يركز موضوعها على حياة ألبِرت بيتزيوس، وهو راعٍ كنسيّ من لوتزيلفلوه في كانتون في بيرنا ومؤلف عظات، إضافة إلى أنّه كاتب تحت الاسم المستعار جيريمياس غوتهلف. كلا الدراستين نُشِرَتا وأطاحتْ البلاغةُ أو قوّة الإغواء، التي أطلقها موريني في تقديمه لشخصية أرشيمبولدي، بكلّ

العوائق ورأت ترجمةُ بييرو موريني الثانية، هذه المرّة *القديس توما*، النورَ في إيطاليا. كان موريني يعمل في تلك المرحلة مدرّساً للأدب الألماني في جامعة تورين وكان الأطباء قد اكتشفوا عنده تصلّب أنسجة متعدِّد وتعرّض لحادث هائل وغريب ربطه إلى كرسيّ العجلات إلى الأبد.

وصل مانوِلْ إسبينوزا إلى أرشيمبولدي عبر طرقٍ أخرى. إسبينوزا الأصغر سنّاً من موريني ومن بيليتير، لم يدرس فقهَ اللغة الألمانية، على الأقل خلال السنتين الأوليتين من دراسته الجامعية، بل فقه اللغة الإسبانية، بين أسباب أخرى حزينة لأنّ إسبينوزا كان يحلم بأنْ يُصبح كاتباً. من الأدب الألماني كان يعرف فقط (وبشكل سيّئ ثلاثة كلاسيكيين، هولدرلين، لأنّه ظنّ في السادسة عشرة من عمره أنّ قدره كان في الشعر، فراح يلتهم كلَّ كتب الشعر التي كانت في متناول يده، وغوته، لأنّ مدرساً فكاهياً نصحه بقراءة آلام فوتر في السنة الأخيرة من المعهد، حيث سيجد روحاً توأماً له، وشيلر، الذي كان قد قرأ له عملاً مسرحيّا. تكرّرت بعدها قراءتُهُ لأعمال مؤلّف حديث، يونغر مسايرةً أكثر من أيّ شيء آخر، فالكتّاب المدريديون، الذين كان يعجب بهم وفي أعماقه يكرههم من كلّ روحه، كانوا يتكلّمون عن يونغر دون توقّف. هكذا يمكن القول بأنّ إسبينوزا كان يعرف مؤلّفاً ألمانياً وهذا المؤلف هو يونغر. بدت له أعمال هذا في البداية رائعة، وبما أنّ معظم كتبه كانت مُترجَمَةً إلى الإسبانية فإنّه لم يجد مشاكل في العثور عليها وقراءتها جميعاً. كان يحبّ ألا تكون بمثل تلك السهولة. ومن ناحية أخرى لم يكن الناس الذين كان يتردّدُ عليهم، ملتهمين لكتبِ يونغر وحسب، بل إنّ بعضهم كان مترجماً له، الأمر الذي لم يكن يعني إسبينوزا، فالشهرة التي كان يطمع بها لم تكن شهرة المُترجم، بل شهرة الكاتب.

جاءه مرورُ الأشهر والسنين، الذي عادة ما يكون صامتاً وقاسياً، ببعض الفجائع التي جعلته يُغيِّرُ آراءه. لم يتأخّر مثلاً في اكتشاف أن مجموعة يونغر لم تكن يونغريّة إلى الحدّ الذي ظنّه، بل كانت، ككلّ مجموعة أدبية، عرضة لتبدّلِ الفصول، وبالفعل كانوا في الخريف كانوا يونغريين، لكنّهم يتحوّلون فجأةً في الشتاء إلى باروخيين[1]، وفي الربيع إلى أورتيغيين، وفي الصيف يهجرون البارَ الذي كانوا يجتمعون فيه ليخرجوا إلى الشارع ليرنموا أشعاراً رعويةً على شرف خوسِهْ كاميلو ثِلا، وهو ما كان الشاب إسبينوزا، الوطنيّ في أعماقه، مستعدّاً لقبوله دون تحفّظ لو كان هناك روح أكثر مرحاً، أكثر كرنفاليّة في تلك التجلّيات، لكنّه لم يكن يستطيع ولا بشكلٍ من الأشكال أن يأخذه بجدّية كما كان يأخذه اليونغريون الزائفون.

أكثر خطورة كان اكتشافه أنّ دراساته الروائية كانت تُثير في المجموعة رأياً بلغ من السوء حدَّ أنّه تساءل بجدّيةٍ في ليلة أرقٍ عمّا إذا لم يكن هؤلاء الناس يطلبون منه بين السطور أن يكفّ عن إزعاجهم وألا يعود مرّة أخرى.

الأخطر كان عندما ظهر يونغر نفسه في مدريد ونظّمت له مجموعة اليونغريين زيارة إلى الأوسكوريال، نزوة غريبة من المعلّم، أن يزور الإسكوريال، وحين أراد إسبينوزا أن ينضمّ إلى الحملة، بأي دور كان، أُنكر عليه هذا الشرف، كما لو أنّ اليونغريين المزيّفين لا يعتبرونه جديراً كفاية بأن يشكّل جزءاً من حراس الألماني، أو كما لو أنّهم يخافون أن يضعهم في موقف حرج كشاب دخيل، على الرغم من أنّ التوضيح الرسميّ الذي قُدِّم له (ربما بإملاء من اندفاع الشفقة) هو أنّه لم يكن يعرف اللغة الألمانية وجميع الذين كانوا في الرحلة مع يونغر كانوا يعرفونها فعلاً.

---

(١) نسبة إلى الروائي الإسباني بِيو باروخا.

هنا انتهت قصّة إسبينوزا مع اليونغريين. وهنا ظهرت الوحدةُ ومطرُ (أو عاصفة) الأهداف، التي كثيراً ما كانت متناقضة أو مستحيلة التحقيق. لم تكن ليالٍ مريحة، وأقل من ذلك بكثير ممتعة، لكنّ إسبينوزا اكتشف شيئين ساعداه كثيراً في الأيّام الأولى: لن يكون روائيّاً أبداً وكان شاباً شجاعاً على طريقته.

أيضاً اكتشف أنّه كان شابّاً ضاغناً ومليئاً بالامتعاض، ينضحُ امتعاضاً، ولم يكن ليكلّفه شيئاً أن يقتل أحداً، أيّاً كان، شريطة أن يُخفِّفَ من وحدته ومن مطرٍ وبردِ مدريد، لكنّه فضّل أن يترك هذا الاكتشافَ في الظلمة ويركّز على قبوله أنّه لن يصير كاتباً أبداً وأن يستفيد كلّ الفائدة من شجاعته المكتشفة توّاً.

بقي في الجامعة، يدرس فقه اللغة الإسبانيّة، لكنّه سجّل في الوقت ذاته في فقه اللغة الألمانية. كان ينام ما بين الأربع والخمس ساعات يومياً، ويستثمر بقية اليوم في الدراسة. كتب قبل أن يُنهي فقه اللغة الألمانية دراسة من عشرين صفحة عن العلاقة بين فوتر والموسيقى، نُشرت في مجلة أدبية مدريدية وفي مجلة جامعية في غوتينجن. في الخامسة والعشرين من عمره أنهى كلا الدراستين. حصل على الدكتوراه بالأدب الألماني في عام ١٩٩٠ برسالة حول بِنّو فون أرشيمبولدي، ستنشرها دار نشر برشلونية بعد سنة. كان إسبينوزا قد اعتادَ وقتها على المؤتمرات والطاولات المستديرة حول الأدب الألماني. وان تمكّنه من هذه اللغة أكثر من مقبول إن لم يكن رائعاً. كما كان يتكلّم الإنكليزية والفرنسية. وكان عنده، مثله مثل موريني وبيليتير، عمل جيّد وبعض الدخول المعتبرة وكان محترماً (إلى الحدّ الممكن) من طلاّبه كما من زملائه. لم يترجم قط لِأرشيمبولدي ولا لأيّ كاتب ألمانيّ.

إضافة إلى أرشيمبولدي كان هناك شيء مشترك بين موريني وبيليتير

وإسبينوزا. جميعهم كانوا يملكون إرادة حديديّة. في الحقيقة كان هناك شيء آخر مشتركاً بين الثلاثة، لكنّنا سنتكلّم عن هذا لاحقاً.

ليز نورتون، على العكس منهم، لم تكنْ ما يسمى عادة امرأة عظيمة الإرادة، أي أنّها لم تكن تضع خططاً متوسّطة ولا طويلة الأجل، كما أنّها لم تكن تُقامر بكلِّ طاقتها كي تُحقّقها. كانت خالية من ميّزات الإرادة. حين كانت تعاني من الألم يظهر عليها ذلك بسهولة، وحين تكون سعيدة تصير السعادة التي تمرّ بها معدية. لم تكن قادرة على أن تُحَدّد هدفاً معيّناً بوضوح وأن تحافظ على الاستمرار بالعمل الذي يقود إلى تتويج هذا الهدف. ثمّ إنّه ما من هدف كان مشتهى أو مرغوباً بما يكفي كي تلتزمَ به كلّياً. كانت عبارة «تحقيق الغاية» المطبقة على شيء شخصيّ، تبدو لها فخّاً مليئاً بالتفاهة. كانت تسبق «تحقيق الغاية» بكلمة «يعيش» ونادراً ما تسبقها بكلمة «سعادة». إذا ما ارتبطت الإرادة بمطلب اجتماعي، كما كان يعتقد وليم جيمس، فإنّ الذهاب إلى الحرب يكون أسهل من ترك التدخين، يمكن أن يُقال عن ليز نورتون إنّها كانت امرأة أسهل عليها أن تترك التدخين من أن تذهب إلى الحرب.

أحد قالها لها ذات مرّة في الجامعة فسُعِدَت، وإن لم يكن لهذا السبب راحت تقرأ وليم جيمس، لا قبل ولا بعد ولا أبداً. كانت القراءة بالنسبة إليها مرتبطة مباشرة بالمتعة وليس مباشرةً بالمعرفة أو بالألغاز أو بالبنى والمتاهات الكلامية، كما كان يعتقد موريني وإسبينوزا وبيليتير.

كان اكتشافها لِأرشيمبولدي الأقل أثراً وشاعرية بين الجميع. خلال الأشهر الثلاثة التي عاشتها في برلين في عام ١٩٨٨ أعارها صديق ألمانيّ رواية لمؤلف كانت تجهله. استغربت الاسمَ، سألت صديقها كيف يمكن أن يوجد ألماني يحمل لقباً إيطالياً ومع ذلك فيه فون، الدالة على نوع من النبالة، سابقةً الاسم. لم يعرف الصديق

الألماني كيف يُجيبها. ربّما هو اسم مستعار، قال لها. وأضاف ليضيف إلى الاستغراب الأوّل مزيداً من الاستغراب، أنّه في ألمانيا ليست معتادة الأسماء الشخصية المذكرة التي تنتهي بحرف علّة. الأسماء الشخصية المؤنّثة بلى. لكنّ الأسماء الشخصية المذكّرة حقيقة لا. كانت الرواية هي *العمياء* وأعجبتها لكن ليس إلى حدّ أن تخرج راكضة إلى مكتبة كي نشتري بقية أعمال بِنّو فون أرشيمبولدي.

بعد خمسة أشهر، وقد استقرّت في إنكلترا من جديد، استلمت ليز نورتون بالبريد من صديقها الألماني هديّة. كانت، كما من السهل التكهّن، رواية أخرى لِأرشيمبولدي. قرأتها، أعجبتها، بحثت في مكتبة كلّيّتها عن مزيد من كتب الألماني ذي الكنية الإيطالية ووجدت اثنين: واحد منهما هو الذي سبق وقرأته في برلين، والآخر هو بيتزيوس. جعلتها قراءتُها لهذا العمل الأخير تخرج بالفعل راكضة. في الفناء المربع كانت تُمطر، وكانت السماء المربعة تبدو تكشيرة روبوت أو إلهٍ مخلوق على شاكلتنا، كانت قطرات المطر الزوراء تنزلق على عشب الحديقة إلى الأسفل، لكنّها أيضاً كان يمكن أن تعني أنّها تنزلق إلى الأعلى، راحت بعدها (القطراتُ) الزوراء تتحوّل إلى (قطرات) دائرية، يبتلعها التراب الذي يحملُ العشبَ، كان يبدو أنّ العشب والتراب يتكلّمان، لا، يتكلّمان لا، يتناقشان، وكلماتهما غير المفهومة كانت مثل نسيج العنكبوت البلوريّ، أو مثل تقيّؤ قصير جدّاً، مثلَ صرير بالكاد كان مسموعاً، كما لو أنّ نورتون شربت منقوع البيوتِ[1] بدل الشاي.

---

(١) Peyote اسمه العلمي lophophora williamisi نوع من الصباريات دائرية تُستخدم منذ القدم في الطب الشعبي. تنمو في صحراء المكسيك والولايات المتحدة.

لكنّها في الحقيقة لم تشرب غير الشاي وكانت تشعر بأنّها مرهقة، كما لو أنّ صوتاً ردّد في أذنها صلاة مريعة، راحت كلماتها تنمحي بينما هي تبتعد عن الكلّية والمطر يُبلّل تنورتها الرمادية وركبتيها بعظامهما البارزة وكاحليها الجميلين وشيئاً آخر قليلاً، لم تنسَ ليتزن ورنون أن تأخذ مظلّتها قبل أن تخرج راكضة عبر الحديقة.

المرّة الأولى التي التقى فيها بيليتير وموريني وإسبينوزا ونورتون كانت في مؤتمر حول الأدب الألماني المعاصر، منعقد في بريمن عام ١٩٩٤. قبلها كان بيليتير وموريني قد تعارفا خلال أيام الأدب الألماني المنعقد في لايبزيغ في عام ١٩٨٩. حين كانت جمهورية ألمانيا الديمقراطية تُحتَضَر، ثمّ عادا والتقيا في ندوة للأدب الألماني انعقد في مانهايم في كانون الأوّل من العام ذاته (وكان كارثة، فنادق سيّئة، طعام سيّئ وتنظيم أسوأ). في ملتقى الأدب الألماني الحديث، المنعقد في زيوريخ عام ١٩٩٠ صادف بيليتير وموريني إسبينوزا. عاد إسبينوزا والتقى بِبيليتير في ميزان أدب القرن العشرين الأوروبي، المنعقد في ماستريخت ١٩٩١ (بيليتير كان يحمل معه مداخلة عنوانها «هاينه وأرشيمبولدي، طريقان متقاربان»، وكان إسبينوزا يحمل مداخلة عنوانها «إرنست يونغر وبِنو فون أرشيمبولدي: طريقان متباعدان» ويمكن القول، مع بعض المجازفة بالخطأ، إنّه منذ تلك اللحظة لم يكونا يقرأان الواحد للآخر في المجلات المتخصصة وحسب بل أيضاً صارا صديقين وتطوّر بينهما شيء شبيه بعلاقة الصداقة. في عام ١٩٩٢، عاد بيليتير وإسبينوزا وموريني ليلتقوا في اجتماع الأدب الألماني في أوغوسبورغ. قدّم الثلاثة أعمالاً عن أرشيمبولدي. تكلّموا خلال بضعة أشهر عن أنّ بِنّو فون أرشيمبولدي نفسه كان يُفكّر أن يأتي إلى ذلك الاجتماع العظيم، إضافةً إلى المختصّين المعتادين بالدراسات الجرمانية، ومجموعةً كبيرة من الكتاب والشعراء الألمان، لكن حين جدّ الجد وقبل ساعتين من

الاجتماع تلقوا برقية من الدار التي تنشر أعمال أرشيمبولدي في هامبورغ تعتذر عن حضوره. فيما عدا ذلك شكّل الاجتماع فشلاً. بحسب بيليتير، الشيء الوحيد المهم كان محاضرة ألقاها مدرّس عجوز من برلين حول أعمال أرنو شميدت (هو ذا اسم ألماني منتهٍ بحرف علّة) وشيء آخر قليل، الرأي الذي شاطره إيّاه إسبينوزا وبدرجة أقل موريني.

في الزمن الفائض الذي تبقى لهم وكان كثيراً، خصّصوه للتنزّه في الأماكن قليلة الأهمّية في أوغسبورغ، المدينة التي بدت لإسبينوزا قليلة الأهمية وبدت لموريني قليلة لأهمّية قليلاً، لكنّها على كلّ الأحوال قليلة الأهمّية. بينما كان يتناوب إسبينوزا وبيليتير على دفع عربة عجلات الإيطاليّ الذي لم تكن صحته في تلك المرّة حسنة جدّاً، بل سيّئة قليلاً، ولذلك قدّر رفيقاه وزميلاه أن قليلاً من الهواء الطلق لن يُضيره، بل على العكس تماماً.

في مؤتمر الأدب الألماني التالي، المنعقد في باريس في كانون الثاني ١٩٩٢ لم يحضر غير بيليتير وإسبينوزا. موريني الذي دعي أيضاً كانت صحته في تلك الأيّام، أسوأ من المعتاد، السبب الذي جعل طبيبه لا ينصحه، بين أشياء أخرى، بالسفر، حتى ولو كان السفر قصيراً. لم يكن المؤتمر سيّئاً ومع أنّ برنامج بيليتير وإسبينوزا كان كاملاً، إلاّ أنّهما وجدا فراغاً كي يأكلا معاً في مطعم في شارع غالاند، بالقرب من سان-جوليان لو بافور، حيث أنّهما راحا، بالإضافة إلى الكلام عن عمليهما وهواياتهما، خلال تناول العقبة،يتفكّران بصحة الإيطالي الحزين، صحة السيّئة، صحة العليلة، صحة الرديئة، التي ومع ذلك لم تمنعه من البدء بكتاب عن أرشيمبولدي، كتاب بحسب ما وضّح بيليتير أنّ الإيطالي قال له من الطرف الآخر من الهاتف، ولا يعرف ما إذا كان مزاحاً أم جدّياً، يمكن أن يكون الكتابَ العظيم عن أرشيمبولدي، السمكةَ الدليل التي كان ستسبح لزمن طويل إلى جانب سمكة القرش الكبيرة السوداء، التي هي أعمال الألماني. كلاهما،

بيليتير وإسبينوزا، كانا يحترمان دراسات موريني، لكنّ كلمات بيليتير (الملفوظة كما لو داخل قلعة قديمة، أو داخل مطمورة محفورة تحت خندق قلعة قديمة) سُمعت كتهديد في مطعم شارعٍ غالاند الوديع وساهمت في وضع نهاية لسهرة كانت قد بدأت تحت طوالع التهذيب والرغبات المشبعة.

لا شيء من هذا أضرّ بالعلاقة التي كان بيليتير وإسبينوزا يقيمانها مع موريني. عاد الثلاثة ليلتقوا في مؤتمر

أدب اللغة الألمانية المنعقد في بولونيا، عام ١٩٩٣. وكذلك ساهم الثلاثة في العدد ٤٦ من مجلة الدراسات الأدبية في برلين، المخصص لأعمال أرشيمبولدي. لم تكن المرّة الأولى التي يساهمان فيها في المجلة البرلينية. ففي العدد ٤٤ ظهر نصّ لإسبينوزا حول فكرة الله في أعمال أرشيمبولدي وأونامونو، في العدد ٣٨ نشر موريني مقالاً حول الوضع التعليمي للأدب الألماني في إيطاليا. وفي العدد ٣٧ قدّم بيليتير استعراضاً لأهمّ كتّاب القرن العشرين الألمان، في فرنسا وفي أوروبا، النص الذي أثار، لنقل ذلك عبوراً، أكثر من احتجاج بل ونوعاً من ثورة غضب.

ومع ذلك فالعدد ٤٦ هو الذي يهمّنا، ففيه لا تظهر المجموعتان الأرشيمبولديتان المتعارضتان بوضوح، مجموعة بيليتير وموريني وإسبينوزا ضدّ شوارز، بورشماير وبول وحسب بل يظهر أيضاً في هذا العدد نصّ لِليز نورتون، متألّق جداً بحسب بيليتير، ومهمٌّ بحسب موريني، ثمّ إنّه (ودون أن يطلبه منها أحد) كان يتوافق مع رؤيةِ الفرنسيّ والإسباني والإيطاليّ، الذين تذكرهم في عدد من المناسبات، مبرهنة على أنّها كانت تعرفُ جيّداً أعمالهم ودراساتهم التي ظهرت في مجلاتٍ متخصّصة أو دورِ نشرٍ محدودة.

فكّر بيليتير أن يكتب لها رسالة، لكنّه في النهاية لم يفعل. اتصل

إسبينوزا هاتفياً بِبيليتير وسأله عما إذا لم يكن من المناسب الاتصال بها. اتفقا مُتردّدين على أن يسألا موريني. امتنع موريني عن قول أيّ شيء. الشيء الوحيد الذي كانوا يعرفونه عن ليز نورتون هو أنّها كانت تُدرّس الأدبَ الألمانيَّ في إحدى جامعات لندن. وأنّها لم تكن مثلهم أستاذة كَرسي.

كان مؤتمر بريمن للأدب الألماني مضطرباً. انتقل فيه بيليتير، يتبعه موريني وإسبينوزا، دون أن يتوقّع دارسو أرشيمبولدي الألمان ذلك، إلى الهجوم، كما فعل نابليون في ينا ولم تتأخر رايات بول وشوارز وبورشماير في الانتشار في مقاهي وحانات بريمن. شارك الأساتذة الألمان الشباب الذين حضروا الجلسة، محتارين، وإن كان مع كلّ التحفّظ على الحالة، لصالح بيليتير وصديقيه. الجمهور الذي كان يضمّ في غالبيته جامعيّين جاؤوا في القطار أو الفانات من غوتنغن، اختار أيضاً تفسيرات بيليتير الملتهبة والعنيفة، دون أيّ تحفّظ، ملتزماً بحماس للنظرة الملتذة والاحتفالية وتفسير آخر كرنفال (أو الكرنفال ما قبل الأخير) الذي دافع عنه بيليتير وإسبينوزا. بعد يومين قام شوارز ومرافقوه بهجوم معاكس. قارنوا بين شخصيتي أرشيمبولدي وهينريخ بول. تكلّموا عن المسؤولية. تكلّموا عن المعاناة. وقارنوا بين شخصيتي أرشيمبولدي وغونتر غراس. تكلّموا عن الالتزام المدني. بل إن بورشماير قارن بين شخصية أرشيمبولدي وشخصية فريدريش دورّينمات، وتكلّم عن المزاج، وهو ما بدا لموريني ذروة قلّة الحياء. عندها ظهرت ليز نورتون مرسلة من العناية الإلهية وخرّبت الهجوم المعاكِس كَديزاير، كَلانّ، فارسةً شقراء تتكلّم ألمانية سليمةً جدّاً، ربّما بسرعة زائدة وحاضرت حول غريملشاوزن وغريفيوس وآخرين كثر بل وحتى حول ثيوفراستوس بومباستوس فون هوهنهايم، الذي يعرفه الجميع أكثر باسم باراسيلسوس.

في تلك الليلة ذاتها تناولا عشاءهما معاً في حانةٍ ضيقة وطويلة، قريبة من النهر، في شارع مظلم محاط بأبنية هانزية قديمة، بعضها كان يبدو مكاتب إدارة عامة نازية مهجورة، وصلوا إليها هابطين بعض الدرجات المبللة بالرذاذ.

لا يمكن للمحلّ أن يكون أكثر فظاعة، فكّرت ليز نورتون، لكنّ السهرة كانت طويلة ولطيفة وساهم موقفُ بيليتير وموريني وإسبينوزا غير الصلف أبداً، في أن تشعر نورتون بأنّها أخذت راحتها تماماً. بالطبع كانت تعرف أعمالهم، لكن ما فاجأها (بالمناسبة بشكل لطيف) هو أنّهم أيضاً يعرفون بعض أعمالها. تطوّر الحديث على أربع مراحل: أولاً ضحكوا من التأنيب الذي وجّهته نورتون إلى بورشماير ومن الفزع المتنامي عند بورشماير أمام الهجوم الذي سنّته عليه نورتون وكان في كلّ مرّة أكثر قسوة، تكلّموا بعدها عن لقاءات مستقبليّة، وبخاصّة عن لقاء غريب جدّاً سوف يُعقَد في جامعة مينيسوتا، حيث كانوا يفكّرون بأنه سيجتمع أكثر من خمسمئة أستاذ ومترجم ومتخصّص بالأدب الألماني، والذي كان موريني يملك شكوكاً مقبولة بأن الأمر يتعلّق بكذبة، تكلّموا بعدها عن بِنّو فون أرشيمبولدي وعن حياته، التي كانوا لا يعرفون عنها إلاّ القليل جدّاً: جميعهم، بدءاً بِبيليتير وانتهاء بموريني، الذي بالرغم من أنّه عادة ما يكون الأكثر صمتاً إلا إنّه ظهر في تلك الليلة ثرثاراً؛ وضّحوا نوادرَ ونمائم، قارنوا للمرّة الحادية عشرة معلومات مشوّشة معروفة وتفكّروا، كمن يعود ليلفّ ويدور حول فيلم محبوب، بِسِرِّ مكان الكاتب العظيم وحياته، وأخيراً بينما هم يسيرون في الشوارع المُبلّلة والمضاءة (هذا صحيح، مضاءة إضاءة متقطّعة، كما لو أن بريمِن كانت آلة تجوبها فقط من حين لآخر شحنات كهربائية قويّة وقصيرة) تكلّموا عن أنفسهم.

كان الأربعة عزّاباً وهذا ما بدا لهم علامة مريحة. كان الأربعة يعيشون وحدهم، وإن كانت ليز نورتون تتقاسم غرفتها أحياناً مع أخٍ

مغامرٍ يعمل في جمعيّة غير حكومية ويعود فقط مرّتين إلى إنكلترا في العام. كان الأربعة يكرّسون أنفسهم لاختصاصهم، وإن كان بيليتير، إسبينوزا وموريني دكاترة وكان الاثنان الأوّلان يدير كلّ منهما قسمه، بينما كانت نورتون قد بدأت توّاً بتحضير الدكتوراه ولا تتوقّع أن تصل لتصبح رئيسة قسم اللغة الألمانية في جامعتها.

في تلك الليلة وقبل أن يأخذه النومُ لم يتذكّر بيليتير مشاحنات المؤتمر بل فكّر بنفسه وهو يمشي في الشوارع المتاخمة للنهر وبليز نورتون التي كانت تسير إلى جانبه بينما إسبينوزا يدفع كرسيَّ عجلات موريني والأربعة يضحكون من حيوانات بريمن، التي كانت تراقبهم أو تراقب ظلالهم على الإسفلت، يمتطونها باتساق وبساطة.

منذ ذلك اليوم، ومنذ تلك الليلة لم يمرّ أسبوع دون أن يتهاتفوا بانتظام، الأربعة، دون أن يتوقّفوا عند حساب الهاتف، وأحياناً في أقل الساعات مناسبة.

كانت ليز نورتون هي من يهتف أحياناً إلى إسبينوزا وتسأله عن موريني، الذي تكلّمت معه البارحة ولاحظت أنّه مكتئب قليلاً. في ذلك اليوم ذاته هتف إسبينوزا إلى بيليتير وأخبره بأنّ صحّة موريني، بحسب نورتون قد ساءت، وهو ما ردّ عليه بيليتير بأن اتصلَ فوراً بموريني، سائلاً إيّاه دون مواربة عن صحّته، وضحك معه (فموريني كان يُحاول دائماً ألا يتكلّم بجدّيةٍ عن هذا الموضوع)، تبادل معه تفصيلاً غير ذي أهمّية عن العمل، كي يهتف بعدها إلى الإنكليزية، مثلاً، في الثانية عشرة ليلاً، بعد أن أطال متعةَ المكالمة بعشاء بسيط ولذيذ، ويؤكّد لها أنّ موريني، كان ضمن ما يمكن أن يؤمل، بحالة جيّدة وعاديّة، حالة مستقرّة وأن ما اعتبرته نورتون اكتئاباً لم يكن الحالة الطبيعية للإيطاليّ الحسّاس أمام تبدّلات الطقس (ربّما كان اليوم في تورين سيئاً، وربّما حلم موريني في تلك الليلة، من يدري ما نوع الحلم المريع الذي

حلمه) مغلقاً الدارة، التي لا تلبث أن تعود وتبدأ من جديد بمكالمةٍ من موريني إلى إسبينوزا، دون أي ذريعة، مكالمة كي يُسلّم عليه، مكالمة ببساطة كي يتكلّم برهة، تنتهي دائماً بأشياء غير ذات أهمّية، بملاحظات حول الطقس (كما لو أنّ موريني وإسبينوزا ذاته يتبنيان بعض عادات الحوار البريطاني) نصائح بأفلام، تعليقات مقتضبة حول كتب جديدة، أي حديث هاتفيّ أقرب إلى المنوّم إذا لم يكن المُمِلّ، ومع ذلك كان إسبينوزا يسمعه بحماسٍ غريب أو بحماس زائف أو ودّيّ، على كلّ الأحوال باهتمامٍ مُتَحَضّر وأنّ موريني كان يسترسِل فيه كما لو أنّ حياته تذهب معه وكان يتبعه بعد يومين أو بضع ساعات حديث هاتفيّ آخر بالكلمات ذاتها تقريباً التي كان يقولها إسبينوزا لِنورتون، وهذه لِبيليتير، ويعيدها هذا لِموريني، كي يعود ليبدأ بعد أيّام متحوّلاً إلى شيفرا فائقة التخصّص، إلى دالّ ومدلول عند أرشيمبولدي، في النصّ، في ما وراء النصّ، في مكملات النص، استرداد ميدان الكلمة والجسد في الصفحات الأخيرة من بيتزيوس والذي كان بالنسبة للحالة كالكلام عن السينما أو عن مشاكل قسم اللغة الألمانية أو السُّحبِ التي تمرّ بلا انقطاع بين ليلة وضحاها في مدينة كلّ منهم.

عادوا ليلتقوا في حوار أدب ما بعد الحرب الأوروبي المنعقد في أفينيون في نهاية عام ١٩٩٤. ذهبت نورتون وموريني كمتفرِّجَيْن وإن موّلت الرحلةَ جامعة كلّ منهما، وقدّم بيليتير وإسبينوزا عملين نقديين حول أهمّية أعمال أرشيمبولدي. ركّز عملُ الفرنسي على العزلة وعلى القطع الذي يبدو أنه يزيّن كامل أعمال أرشيمبولدي في علاقتها مع التقليد الألماني ولا يحدث الشيء ذاته مع بعض التقاليد الأوروبية. كان عمل الإسباني واحداً من أكثر ما كتبه إسبينوزا إمتاعاً بالإطلاق، دار حول الغموض الذي يلف شخصيّة أرشيمبولدي، الذي لا أحد، ولا حتى ناشر أعماله كان يعرف شيئاً عنه: كانت كتبه تظهر بلا صورة

على طية الغلاف أو الغلاف الخلفي. كانت المعلومات عنه في حدّها الأدنى: (كاتب ألماني، وُلِد في بروسيا عام ١٩٢٠)، كان مكان إقامته لغزاً، على الرغم من أنّ ناشر كتبه اعترف في هفوة منه أمام صحفيّة من صحيفة شبيغل تلقى أحد مخطوطاته من صقلية، إلا أنّه ما من أحدٍ من زملائه رآه قط، ما من سيرة له في الألمانية على الرغم من أنّ بيع أعماله كان في تصاعد في ألمانيا كما في بقيّة أوروبا، بل وحتى في الولايات المتحدة، التي تُعجب بالكتّاب المختفيين (المختفين أو المليونيريين) أو بأسطورة الكتّاب المختفين، وحيث بدأت أعماله تُتداول كثيراً، ليس فقط في أقسام اللغة الألمانية في الجامعات بل وفي الحرم الجامعي، في المدن الواسعة التي كانت تُحبّ الأدب الشفوي أو المرئي.

كان بيليتير وموريني وإسبينوزا ونورتون يذهبون ليلاً ليتناولوا العشاء معاً، يرافقهم أحياناً مُدرِّس لغة ألمانية أو مدرّسان، كانوا يعرفونهما منذ زمن وكانا ينسحبان عادة إلى فندقهما في ساعة مبكرة، أو يمكثون حتى نهاية السهرة، لكن دائماً في بُعدٍ ثانٍ حذر، كما لو أنّهما يُدركان أن صورة الزوايا الأربعة، التي كان يُشكّلها الأرشيمبولديون الأربعة لا يمكن اختراقها، ثمّ إنّ من الممكن أن تنقلب في مثل تلك الساعة من الليل، وتتحوّل إلى عنف ضدّ أي تدخّل غريب. في النهاية كان الأربعة يبقون يسيرون في شوارع أفينيون بالسعادة الرحراحة التي ساروا بها في شوارع بريمن المسودة والوظيفية وكما كانوا سيسيرون في الشوارع الملوّنة التي حجزها لهم المستقبل، موريني تدفعه نورتون وبيليتير على يسارها وإسبينوزا على يمينها، أو بيليتير يدفع كرسيّ عجلات موريني وإسبينوزا على يساره وأمامهم نورتون، تسير إلى الوراء وهي تضحك، بنضارة سنواتها السابعة والعشرين، ضحكةً لن يتأخّروا في تقليدها، وإن كانوا يُفضّلون حقيقةً

ألاّ يضحكوا ويكتفوا بالنظر إليها، أو يقف أربعتهم مصطفين بجانب جدار نهر مزوّق، أيْ نهرٍ ما عاد وحشياً، يتكلمون عن هوسهم بالألمانية، دون أن يقاطع بعضهم بعضاً، ممارسين ومتذوّقين كلّ منهم ذكاء الآخر تتوسّط ذلك فتراتُ صمتٍ لم يكن باستطاعة ولا حتى المطر أن يشوّش عليه.

حين عاد بيليتير من أفينيون في نهاية عام ١٩٩٤، حين فتح باب شقّته في باريس وترك الحقيبة على الأرض وأغلق الباب، حين صبّ لنفسه كأسَ ويسكي وسحب الستائر ورأى المنظر الدائم، جزءاً من ساحة بريتيويل وبناء اليونسكو في العمق، حين خلع سترته الأمريكية وترك كأسَ الويسكي في المطبخ وسمع رسائلَ المجيب الهاتفي، حين شعر بالنعاس وبثقل أجفانه، لكنّه وبدل أن يدخل في فراشه وينام تعرّى واستحمّ، انتبهَ، عندها فقط، حين فتح حاسوبه مرتديا رداء حَمَّام أبيض يصل إلى كعبيه، إلى أنّه يشتاق لِليز نورتون وأنّه كان باستطاعته أن يُقدّم كلّ شيء مقابل أن يكون معها في تلك اللحظة، ليس كي يتحدّث معها فقط بل لينامَ معها في الفراش، ليقولَ لها إنّه يُحبّها وليسمعَ من فمها أنّ حبّه مُستجاب.

شيء مشابه مرّ به إسبينوزا، مع اختلافين خفيفين بالنسبة إلى بيليتير. الأوّل هو أنّه لم ينتظر أن يصل إلى شقّته في مدريد كي يشعر بالحاجة لأن يكون إلى جانب ليز نورتون، فقد عرف في الطائرة أنّها كانت المرأة المثالية، المرأة التي بحث عنها دائماً، وبدأ يتعذّب. الثاني هو أنّ الصور المثالية للإنكليزية التي كانت تمرّ بسرعة الصوت في رأسه بينما طائرته تطير بسرعة سبعمئة كيلومتر في الساعة في طريقها إلى إسبانيا، كان هناك مشاهد جنسية أكثر، ليست كثيرة، لكنّها أكثر من التي كان يتصوّرها بيليتير.

كان موريني، الذي سافر في القطار من أفينيون إلى تورين، على

العكس منهما، فقد كرّس وقته لقراءة الملحق الثقافي لـ إلْ مانيفستو، نام بعدها إلى أن جاء مفتشان (سيساعدانه على النزول إلى الرصيف في كرسيّ عجلاته) وأخبراه أنّهم وصلوا.

ما مرَّ برأس ليز نورتون من الأفضل ألا نقول عنه شيئاً.

ومع ذلك بقيت الصداقة بين الأرشيمبولديين مكتسيةً بكسائها ذاتها لا تشوبها شائبة، خاضعة لقدر أكبر كان الأربعة يطيعونه حتى ولو عنى ذلك أن يضعوا رغباتهم الشخصية في بعد ثانٍ.

التقوا في عام ١٩٩٥ في ملتقى الأدب الألماني المعاصر المنعقد في أمستردام في إطار حوار أوسع جرى في البناء ذاته (وإن كان في قاعات مختلفة) ضمّ الأدب الفرنسيّ والإنكليزيّ والإيطاليّ.

من نافلة القول أنّ غالبية الحضور إلى تلك الحوارات الغريبة جدّاً صبّت في القاعة التي كان يُناقَشُ فيها الأدب الإنكليزي المعاصر، القاعة المجاورة لقاعة الأدب الألماني والمنفصلة عنه بجدار، طبعاً لم يكن حجرياً كما في الصالات السابقة، بل من طوب هشّ مغطّى بطبقة رقيقة من الخصّ إلى درجة أن الصياح والعواء والتصفيق على وجه الخصوص الذي كان ينتزعه الأدبُ الإنكليزي كان يُسْمَعُ في قاعة الأدب الألماني كما لو أنّ المحاضرتين أو الحوارين كانا شيئاً واحداً، أو كما لو أنّ الإنكليز كانوا يسخرون كم الألمان، إن لم يكونوا يُقاطعونهم باستمرار، كيلا نقول شيئاً الجمهور، والذي كان حضوره حاشداً في الحوار الإنكليزية (أو الإنكليزي الهندي) ومتفوّقاً بشكل ملحوظ على الجمهور القليل والجهم الذي كان يأتي إلى الحوار الألماني. وهو ما كان في النتيجة أكثر فائدة، إذ من المعروف جيّداً أنَّ الحوارَ بين عدد قليل، حيث الجميع يُصغي ويُفكّر ولا أحد يصرخ، عادة ما يكون أكثرَ نفعاً وفي أسوأ الحالات أكثرَ راحة من الحوار الحاشد، الذي يتعرّض لخطر أن يتحوّل إلى تظاهرة أو إلى تتالي

شعارات تختفي بالسرعة التي تُصاغ بها نتيجةَ الحاجةِ إلى قصر المداخلات.

لكن وقبل أن نصل إلى ذروة المسألة، أو الحوار، علينا أن نُبيِّن شيئاً ليس قليلَ التفاهة بحسب النتائج. المنظّمون، ذاتهم الذين استبعدوا الأدب المعاصر الأسباني والبولوني أو السويدي، نظراً لضيق الوقت أو قلة المال، في نزوة من النزوات ما قبل الأخيرة كرّسوا غالبيةَ الرصيد لدعوة نجوم الأدب الإنكليزي بترفٍ ملكيّ وجاءوا بالمال المتبقي بثلاثة روائيين فرنسيين وشاعرٍ وقاصين إيطالي وثلاثة كتّاب ألمانيين، الاثنين الأولين روائيان من برلين الغربية والشرقية الموحّدة الآن، كلاهما كانت مكانته الأدبية غامضة قليلاً (واللذان وصلا إلى أمستردام في القطار ولم يرفعا أيّ احتجاج عندما أنزلوهما في فندق من ثلاث نجوم) والثالث كائن ضبابي قليلاً لا أحد كان يعرف عنه شيئاً، ولا حتى موريني، الذي كان يعرف كثيراً عن الأدب الألماني المعاصر، منفتحاً على الحوار أو غير مُنفتح.

عندما بدأ هذا الكاتب الضبابيّ، وكان ناعماً، خلال الدردشة (أو الحوار) يتذكّر رحلته كصحفيّ، كمُعِدٍّ للصفحات الأدبية، كمجرٍ للمقابلات مع كلّ أصناف المبدعين الرافضين للمقابلات، ثمّ راح يتذكّر المرحلة التي عمل فيها كمُنشِئٍ ثقافي في بلديات الأطراف، أو بصراحة، بلديات منسية، لكنّها مهتمّة بالثقافة، فجأة ويظهر، دون مناسبة، اسمُ أرشيمبولدي (ربّما متأثّراً بالدردشة السابقة، التي كان يديرها إسبينوزا وبيليتير) الذي تعرّف عليه، بالضبط بينما كان يعمل مُرشداً ثقافياً في بلدية من ضواحي فريسيا في شمال ويلهيلمشافن، مقابل سواحل بحر الشمال وجزرِ فريسيا الشرقية، وهو مكان بارد، بارد جدّاً، أكثر من بارد كان رطباً رطوبةً مالحة تنفذ إلى عظامك، وليس فيه غير طريقتين لقضاء الشتاء، الطريقة الأولى أن تشربَ حتى تُصاب بتشمّعِ الكبد والثانية أن تبقى في قاعة النشاطات في البلدية، تستمع إلى

الموسيقى (كقاعدة عامّة رباعية غرفة الهواة) أو تتحدث مع كتّاب كانوا يأتون من أماكن أخرى مُقابل مكافأة زهيدة جدّاً، وغرفة في النزل الوحيد في البلدة وبعض الماركات التي تُغطي الرحلة ذهاباً وإياباً بالقطار، تلك القطارات المختلفة جدّاً عن القطارات الألمانية الحالية، لكن ربّما كان الناس فيها أكثر ثرثرة، أكثر تأدّباً، أكثر اهتماماً بالجار، أي أنّه بعد الدفع وحسم نفقات النقل، كان الكاتب يذهب من تلك الأماكن ويعود إلى بيته (الذي كان في بعض الأحيان مجرّد غرفة في فندق في فرانكفورت أو كولونيا) ومعه بعض النقود وربّما ثمن هذا الكتاب أو ذاك المباع، بالنسبة إلى أولئك الكتاب أو الشعراء، خاصّة الشعراء، الذين بعد أن يقرؤوا بعض الصفحات ويجيبوا على أسئلة مواطني ذلك المكان كانوا يبسطون، كمن يقول، بسطتهم، ويحصلون على بعض الماركات الإضافية، النشاط المُقدّر كفاية في ذلك الوقت، إذ إذا أعجب الناسُ بما كان يقرؤه الكاتبُ، أو إذا أثّرت فيهم القراءة، أو إذا سلّتهم أو جعلتهم يُفكّرون، فإنّهم كانوا يشترون أحد كتبه، أحياناً ليبقى عندهم كذكرى من تلك السهرة اللطيفة، بينما الريح تصفر في أزقّة تلك البلدة الفريسية الصغيرة، وتقصّ اللحمَ[1] من شدّة برودتها، وأحياناً ليقرؤوا أو يعيدوا قراءة هذه القصيدة أو تلك القصّة، وحين يصل إلى بيته الخاص، بعد أسابيع من انتهاء النشاط، في بعض الأحيان على ضوء قنديل نفط لأنّه لأنّ الكهرباء لم تكن متوفّرة دائماً، إذ من المعروف أنّ الحرب انتهت قبل وقت قصير والجراح الاجتماعية والاقتصاديّة كانت ما تزال مفتوحة، أي، إلى هذا الحدّ أو ذاك مثل القراءات الأدبية في الوقت الحالي، باستثناء أنّ الكتب المعروضة على البسطة كانت كتباً يطبعها المؤلف على حسابه، بينما الآن دور النشر هي التي تُحضّر البسطات، وأحد هؤلاء الكتابُ الذين وصلوا ذات يوم

(١) عندنا في بلاد الشام يقولون: بردٌ يقصُّ المسمار. المترجم.

إلى القرية التي كان يعمل فيها المرشد الثقافي كان بِنو فون أرشيمبولدي وهو قامة مثله مثل غوستاف هيلير أو ويلهلم فراين (الكاتبان اللذان سيبحث عنهما موريني عبثاً في موسوعة الكُتّاب الألمان)، ولم يأتِ معه بكتبٍ وقرأ فصلين من رواية قيد الكتابة، روايته الثانية، فالأولى، كان يتذكّر المرشِدُ الثقافيّ، كان قد نشرها في هامبورغ في ذلك العام، وإن لم يقرأ منها شيئاً، إلا أنّ هذه الرواية كانت موجودة، قال المرشدُ الثقافيّ، وقد حمل معه أرشيمبولدي نسخة، كما لو كي يستبق الشكوك، وهي رواية تقع في حوالي المئة صفحة، ربّما أكثر، مئة وعشرين، مئة وخمس وعشرين صفحة، وكان يحمل الرواية الصغيرة في جيب سترته، والغريب أنّ المرشدَ الثقافي كان يتذكّر بوضوح أكثر سترة أرشيمبولدي ويتذكّر أنّه كان يحمل تلك الرواية في أحد جيوب تلك السترة، وأنّها رواية متسخة الغلاف، مجعّدة وكانت في السابق عاجية غامقة اللون أو صفراء قمحية شاحبة. أو ذهبية في مرحلة الاختفاء، لكنّها كانت وقتذاك بلا أيّ لون ولا أيّ صبغة لونية، فقط اسم الرواية واسم المؤلّف وخاتم دار النشر، إلاّ أن السترة لا تُنسى، سترة جلدية سوداء، عالية القبّة، قادرة على أن تُقدّم حماية فعّالة من الثلج والمطر والبرد، فضفاضة كي يرتدي تحتها كنزات سميكة أو كنزتين، دون أن يشعر المرء بأنّه يرتديهما ولها جيوب أفقيّة على كلّ جانب، وصفّ من أربعة أزرار خيطت بخيط كأنّه خيط صنارة، لا كبيرة ولا صغيرة، سترة توحي، لا أدري لماذا، بتلك التي يرتديها بعض رجال شرطة الجيستابو، بالرغم من أنّ سترات الجلد الأسود في تلك المرحلة كانت دارجة وكل من كان يملك مالاً لشرائها أو ورث واحدة منها كان يرتديها دون أن يتوقّف ليُفكّر بماذا كانت توحي السترة، وهذا الكاتب، الذي وصل إلى تلك البلدة الفريسية كان بِنّو فون أرشيمبولدي، الشاب بِنّو فون أرشيمبولدي، ابن التاسعة والعشرين أو الثلاثين من عمره وكان هو، المرشدُ الثقافي، من ذهب لانتظاره في

محطّة القطار وأخذَهُ إلى النزل، بينما هما يتكلّمان عن الطقس، السيئ جدّاً، ثمّ رافقه إلى البلديّة حيث لم يُقِم أرشيمبولدي أيّ بسطة وقرأ فصلين من رواية غير منتهية، تناولا بعدها العشاء معاً في حانة البلدة، إلى جانب المُعلّمة وسيّدة أرملة كانت تُفضّل الموسيقى والرسم على الأدب، لكن بما أنّها في ظرف ليس فيه موسيقى ولا رسم، فإنّ سهرة أدبية لا تُثير ولا بشكلٍ من الأشكال قرفها، وكانت هذه السيّدة بالضبط من تحمّلت بطريقة ما عبأ الحديث خلال العشاء (سجق وبطاطا، مع البيرة، فلا العصر، استذكر المرشدُ، ولا اعتمادات البلدية كانت قادرة على إنفاقاتٍ أكبر)، مع أنّ القول بعبء الحديث ليس صائباً جدّاً، عصا مدير الفرقة، دفّة الحديث وكان الرجال حول الطاولة، سكرتير العمدة، وسيد مُتفرّغ لبيع السمك المُملّح، معلّم عجوز كان ينام في كلّ لحظة، حتى وهو يمسك بالشوكة ومستخدم في البلدية، وهو فتى، اسمه فريتز، يوافقون أو يحذرون من أن يعاكسوا تلك السيدة الأرملة المخيفة، التي كانت معرفتها الفنّية تفوق معرفةَ الجميع، بمن فيهم المرشد الثقافي نفسه، والتي كان قد سافرت عبر إيطاليا وفرنسا حتى أنّها وصل في إحدى رحلاتها، في رحلة بحرية لا تُنسى إلى بوينس أيرس عامَ ١٩٢٧ أو ١٩٢٨، حين كانت تلك المدينة مركزاً لتجارة اللحم وكانت تخرج من مينائها بواخرُ البرادات محمّلة باللحوم، مشهد جدير بالتأمّل، مئات البواخر التي كانت تصل فارغة وتخرج محمّلة بأطنان اللحوم باتجاهات العالم كلّه، وحين كانت هي، السيّدة، تظهر على السطح، ليلاً مثلاً، فاقدة الوعي أو دائخةً أو موجوعة كان يكفيها أن تستند إلى الدرابزين وتترك عينيها تعتادان على مشهد الميناء الذي كان وقتذاك مريعاً يحمل معه بقايا النعاس أو بقايا الدوخة أو بقايا الألم، فلا يبقى مكان في النظام العصبيّ إلا للاستسلام غير المشروط إلى تلك الصورة، صفوف المهاجرين، الذين كانوا يحملون مثل النمل لحوم الأبقار الميتة إلى قيعان السفن، الألواح الخشبية المحمّلة بلحوم

آلاف العجول المذبوحة ولون خفيف كان يصبغ كلّ زاوية من زوايا الميناء، منذ الفجر وحتى حلول الليل، بل وخلال المناوبات الليلية، باللون الأحمر لشرائح اللحم قليلة الشواء، لون لحم الأضلاع الحمراء، لحم الكاستيليت، الذي بالكاد مرّ على المشوى، يا للهول، من حسن الحظ أن السيدة، التي لم تكن وقتذاك أرملة، عاشت ذلك في الليلة الأولى فقط، هبطوا بعدها من السفينة ونزلوا في أحد أغلى فنادق بوينس أيرس، وذهبوا إلى الأوبرا ثمَّ إلى مزرعة، حيث قَبِلَ زوجها، وكان خيّالاً مُتمرّساً، أن يتسابق مع ابن صاحب المزرعة، الذي خسر، ثمّ مع عامل من المزرعة، رجل ثقة عند الابن، وهو غاوتشو، وخسر أيضاً، ثمّ مع ابن الغاوتشو، وهو غاوتشو صغير في السادسة عشرة من عمره، نحيل مثل قصبة، له عينان حيويتان، كانتا من الحيوية إلى حدّ أنه عندما نظرت السيّدة إليه خفض رأسه ثم رفعه قليلاً ونظر إليها بخبث أهان السيّدة، ما أوقحه من صبيّ، بينما كان زوجها يضحك ويقول لها بالألمانية: لقد نجحتِ بإدهاش الطفل، المزحة التي لم تلقَ عندها ذرّةَ استلطاف، صعد الغاوتشو الصغير بعدها على حصانه وراحا يجريان، كم كان رائعاً الغاوتشو الصغير في خببه، ويا للشغف الذي كان يتشبّث به بالحصان، يمكن القول بأنّه كان يلتصق بعنق الحصان الذي كان يتصبّب عرقاً وكان يسوطه بقوّة، لكن الزوج فاز عليه في نهاية السباق، ليس عبثاً أنّه كان رئيس فوج خيّالة، وينهضُ صاحبُ مزرعة وابنُ صاحب المزرعة ينهضان عن مقعديهما ويصفقان، وأيضاً كان يُصفِّق بقية المدعوّين، خاسران جيدان والألماني خيّال جيّد، خيّال رائع، بالرغم من أنّ الغاوتشو الصغير حين وصل إلى الهدف، أي إلى جانب رواق المزرعة، لم تكن تقاسيم وجهه تشي بأنّه خاسر جيّد، بالعكس، كان يبدو مستاءً، منزعجاً، منخفض الرأس وبينما كان الرجال يتكلّمون بالفرنسية ويتفرّقون في الرواق بحثاً عن كأس شمبانيا مثلجة، تقترب السيّدة من الغاوتشو الصغير الذي بقي

وحده، ممسكاً بيده اليسرى حصانه-في عمق الفناء الطويل كان يبتعدُ الأبُ باتجاه الإسطبلات ومعه الحصان الذي كان قد امتطاه الألماني، وتقول له بلغة غير مفهومة، ألاّ يحزن، وإنّه قام بسباق ممتاز، لكنّ زوجها كان أيضاً رائعاً وأكثر خبرة، الكلمات التي كان وقعها في سمعه كالقمر، كمرور السحاب الذي يُغطي القمر، كعاصفة شديدة البطء، وعندها راح الغاوتشو الصغير ينظر إلى السيّدة من الأسفل، نظرة طائر جارح، مستعدّ لأنّ يغرز سكيناً عند السرّة ليصعد بها بعد ذلك إلى النهدين ليشق قناة فيها، بينما نظرته التي لجزّار صغير غرّ تلمع لمعاناً غريباً، بحسب ما تتذكّر السيّدة، وهو ما لم يمنعها من أن تتبعه دون احتجاج حين أخذها الغاوتشو الصغير من يدها وراح يقودها نحو الجانب الآخر من البيت، مكان تنهض فيه تعريشة من الحديد المزخرف وأحواض أزهار وأشجار لم ترها السيّدة في حياتها، أو أنّها اعتقدت في تلك اللحظة أنّها لم ترها في حياتها، بل وكان هناك بحرة من الحجر يرقصُ في وسطها ملاك صغير هجين، بتقاسيم حالمة، نصف أوروبي ونصف آكل لحوم بشرية، مبلل باستمرار بثلاث نوافير تنبع قرب قدميه ومنحوت من قطعة واحدة من المرمر الأسود، تأمّله الغاوتشو الصغير والسيّدة طويلاً، إلى أن جاءت ابنة عمّ بعيدة لصاحب المزرعة (أو خليلة أضاعها صاحب المزرعة في تلفيف من تلافيف ذاكرته) وقالت لها بإنكليزية جازمة ولا مبالية إنّ زوجها يبحث عنها منذ برهة، وعندها شرعت السيّدة بمغادرة الحديقة المسحورة آخذة بذراع ابنة العمّ البعيدة، وناداها الغاوتشو الصغير، أو تهيّأ لها هذا وحين التفتت قال لها بعض الكلمات المهموسة، فداعبت السيّدة رأسه وسألت ابنة العمّ عما قاله لها الغاوتشو الصغير، بينما أصابعها تضيع بين شعره السخين، وبدا أنّ ابنة العمّ تردّدت لحظة، لكنّ السيدة التي لم تكن تتحمّل الكذب ولا أنصاف الحقائق، طالبتها بالترجمة الفورية والحقيقيّة، وابنة العمّ قالت: الغاوتشو الصغير قال... الغاوتشو الصغير قال، إنّ

صاحب المزرعة كان قد رتَّب كلّ شيء كي يفوز زوجها بالسباقين الأخيرين، وسكتت بعدها ابنة العمّ وابتعد الغاوتشو الصغير باتجاه الطرف الآخر من الحديقة جارّاً الجواد من رسنه وانضمّت السيّدةُ إلى الحفلة، لكنّها ما عادت تستطيع ألاّ تُفكّر بما اعترف لها به الغاوتشو الصغير في اللحظة الأخيرة،، يا رُوَيْح الله، وبالرغم من كلّ ما فكّرت إلاّ أنّ كلمات الغاوتشو الصغير بقيت لغزاً، لغزاً دام بقيّة الحفلة، وعذّبها بينما كانت تتقلّب في فراشها دون أن تستطيع أن تنام، وخبلها في اليوم التالي خلال مشوار طويل على الحصان وخلال حفلة الشواء، ورافقها في رحلت العودة إلى بوينس أيرس وخلال الأيّام التي مكثتها في الفندق وخلال خروجها إلى حفلات الاستقبال التي أقامتها السفارة الألمانية والسفارة الإنكليزية، وسفارة الإكوادور، ولم يُحلّ إلا بعد أيّام من أبحار العودة إلى أوروبا، ذات ليلة، في الرابعة صباحاً، خرجت فيها السيّدة لتتنزّه على سطح الباخرة دون أن تعرف أو يهمّها أن تعرف في أيّ خطوط عرض ولا طول كانت، محاطة بـ ١٠٦٢٠٠٠٠٠ كيلومتراً من المياه المالحة، تماماً وقتها، بينما كانت السيّدة تُشعِلُ على سطح الدرجة الأولى سيجارة، غارزة نظرها في ذلك الامتداد من البحر، الذي لم تكن تراه لكنّها تسمعه، توضّح اللغزُ بمعجزة، وبالضبط هناك، في تلك النقطة من القصّة، قال المرشِدُ الثقافيّ، سكتت السيّدة، سيدة الزمن البعيد الغنيّة والقويّة والذكيّة (على الأقل على طريقتها) السيدة الفريسية، وساد صمت ديني، أو أسوأ من ديني، متطيّر، تملّك تلك الحانة الألمانية الحزينة، حانة ما بعد الحرب، حيث راح الجميع يشعرون شيئاً فشيئاً بالانزعاج وسارعوا لالتهام بقايا النقانق والبطاطا وإفراغ أباريق بيرتهم حتى آخر قطرة، كما لو أنّهم خافوا أن تبدأ السيّدة بين لحظة وأخرى بالعواء مثل إلهة انتقام وقدّروا أن من الحكمة أن يكونوا جاهزين كي يخرجوا إلى الشارع ويواجهوا البرد بمعدة ممتلئة حتى يصلوا إلى بيوتهم.

عندئذٍ تكلّمت السيدة. قالت:

- هل من أحد يعرف ما هو حلّ اللغز؟

قالت هذا لكنّها لم تنظر ولم تَتوجّه إلى أيٍّ من أبناء البلدة.

- هل من أحد يعرف حلَّ اللغز؟ أحد قادرٍ على الفهم؟ ترى هل من رجلٍ في هذه البلدة يقول لي وإن كان همساً في أذني حلَّ الغز؟

قالت كلّ هذا وهي تنظر إلى صحنها، حيث بقيت قطعة سجقها والبطاطا دون أن يُمسا تقريباً.

عندئذٍ قال أرشيمبولدي، الذي بقي يأكل منخفضَ الرأسِ بينما السيّدة تتكلّم، دون أن يرفع نبرة صوته، إنّه حسن ضيافة، وإنّ صاحب المزرعة وابنه كانا يثقان بأنّ زوج السيّدة سيخسر السباق الأوّل، وهكذا أعدّا لسباق ثان وثالث مغشوشَيْن، كي يستطيع رئيس فوج الخيّالة أن يفوز. وهنا نظرت السيّدة إلى عينيه وضحكت ثمّ سألت، لماذا فاز زوجها بالسباق الأوّل.

- لماذا؟ لماذا؟ -سألت السيّدة

- لأنّ ابن صاحب المزرعة، الذي كان جواده أفضل من جواد زوج السيّدة عاش في اللحظة الأخيرة -قال أرشيمبولدي- ذلك الشعورَ الذي نعرفه بالإشفاق. أي أنّه اختار مدفوعاً بالحفلة التي أخرجها هو وأبوه من كميّهما، التبذير. يجب التبذير بكلّ شيء، بما في ذلك بالفوز بسباق الخيول وعرف الجميع بطريقة ما أنّه يجب أن يكون هكذا، بمم في ذلك المرأة التي ذهبت لتبحث عنها في الحديقة، باستثناء الغاوتشو الصغير.

- هل كان هذا كلّ شيء؟ -سألت السيّدةُ.

- بالنسبة للغاوتشو الصغير لا. أعتقد أنّك لو بقيتِ معه برهة أكثر لقتلك، ولكان هذا أيضاً تبذيراً، لكن ليس بالاتجاه الذي أراده صاحب المزرعة وابنه.

نهضت بعدها السيّدة، شكرتهم على السهرة ومضت.

- بعد دقائق قليلة -قال المرشد الثقافيّ-، رافقتُ أرشيمبولدي إلى نزله. في صباح اليوم التالي حين ذهبت لأبحث عنه كي آخذه إلى القطار لم يكن هناك.

مرشد ثقافيّ رائع، قال إسبينوزا. أريده لي قال بيليتير. حاولوا ألا تُثقلوا عليه، حاولوا ألاّ تبدوا مهتمّين به أكثر من اللازم. يجب التعامل مع هذا الرجل بالملاقط، قالت نورتون. أي يجب التعامل معه بحنان.

ومع ذلك قال المرشد الثقافي كلّ الذي كان عليه أن يقوله، وبالرغم من أنّهم دلّلوه ودعوه إلى الغداء في أفضل فندق في أمستردام ومدحوه وتكلّموا معه عن كرم الضيافة والتبذير وحظّ المرشدين الثقافين الضائعين في بلديات المقاطعات، لم يكن هناك من طريقة لاستخراج شيء مهمّ منه، بالرغم من أنّ الأربعة راعوا أن يُسجّلوا كلّ كلمة من كلماته، كما لو أنّهم عثروا على موساهم، التفصيل الذي لم يغفل عنه المرشد الثقافي، أو بالأحرى ساهم في شحذ تخوّفه (الشيء غير المعهود كثيراً عند مرشدٍ ثقافي ريفيّ سابق، بحسب إسبينوزا وبيليتير، اللذين كانا يعتقدان أنّ المرشد الثقافيّ كان في الأساس لصّاً)، شحذ تحفظاته، تعقّله الذي يقارب صمتَ نازيّ خرافي، تُشْتَمُّ منه رائحة ذئب.

بعد خمسة عشر يوماً أخذا إجازة ليومين وذهبا إلى هامبورغ ليزورا ناشرَ أعمال أرشيمبولدي. استقبلهما مدير النشر، وهو رجل نحيل، أكثر مما هو ممشوق، في حدود الستين من عمره، واسمه شنيل، الذي يعني سريعاً، بالرغم من أنّ شنيل أقرب إلى البطيء. كان شعره سبطاً، كستنائيَّ اللون داكناً، يتخلله بعض الشعرات البيضاء على الصدغين وهو ما كان يساهم في مظهره الشبابي. حين نهض كي يُصافح إسبينوزا وبيليتير على حدّ سواء، ظناه مثليّاً.

- اللوطيّ أشبه ما يكون بالحنكليس -قال إسبينوزا بعدها بينما هما يتنزهان في شوارع هامبورغ.

ويّخه بيليتير على ملاحظته ذات الصبغة الرُّهابية من المثلية، وإن كان في أعماقه متفقاً معه، فقد كان في شنيل شيء من الحنكليس، من السمكة التي تتحرّك في المياه الداكنة والموحلة.

طبعاً قليلا كان ما استطاع أن يقوله لهما ولا يعرفانه. شنيل لم يرَ قط أرشيمبولدي. كانوا يودعون المال، الذي كان في كلّ مرّة أكثر، فهم كانوا يعيدون طباعة كتبه وترجماته، في رقم حساب في بنك سويسري. كانوا يتلقون مرّة كلّ سنتين تعليماته من خلال رسائل ختمها عادة ما كان إيطالياً، مع أنّه كان في دار النشر رسائل عليها أختام يونانية وإسبانية ومراكشية، رسائل كانت موجّهة من ناحية أخرى إلى صاحبة دار النشر، السيّدة بوبيس، وهو بالطبع لم يقرأها.

- لم يبقَ في دار النشر غير امرأتين، إضافة إلى السيّدة بوبيس، اللواتي عرفن دون شكّ بِنّو فون أرشيمبولدي شخصياً -قال لهما شينل-. رئيسة قسم الصحافة ورئيسة قسم المُنقّحين. حين دخلتُ للعمل هنا، كان قد مضى وقت طويل على اختفاء أرشيمبولدي.

طلب بيليتير وإسبينوزا أن يتكلّما مع المرأتين. كان مكتب رئيسة قسم الصحافة مليئاً بالصور، ليس بالضرورة لكتّاب دار النشر وبالنباتات، الشيء الوحيد الذي قالته لهما عن الكاتب المختفي هو أنّه كان شخصاً طيّباً.

- رجل طويل، طويل جدّاً -قالت لهما- حين كان يسير بجانب المرحوم السيّد بوبيس كانا يبدوان مثل ti أو مثل li.

لم يفهم إسبينوزا وبيليتير ما أرادت قوله فرسمت لهما رئيسة قسم الصحافة على ورقة حرف l متبوعاً بحرف i. وربّما كان الأنسب le. هكذا.

وعادت ليتسم فوق الورقة ذاتها ما يلي:

Le

- حرف الإل هو أرشيمبولدي، وحرف إي هو المرحوم السيّد بوبيس.

ضحكت رئيسة قسم الصحافة بعدها وراقبتهما بصمت برهةً، مستلقية على كرسيّها الهزّز. تكلّما بعدها مع رئيسة قسم المُنَقِّحين. كانت هذه في مثل عمر رئيسة قسم الصحافة تقريباً، لكنّ مزاجها لم يكن مرحاً جدّاً.

قالت لهم بلى، إنّها بالفعل عرفت أرشيمبولدي قبل سنوات كثيرة، لكنّها ما عادت تتذكّر وجهه ولا سلوكه ولا أيّ نادرة عنه تستحقّ أن تحكيها لهما. لم تكن تتذكّر آخر مرّة كان فيها في دار النشر. نصحتهما أن يتكلّما مع السيّدة بوبيس وانكبت بعدها على مراجعة الملازم والرد على المُمقّحين الآخرين، على التحدّث بالهاتف مع أناس ربّما كانوا مترجمين، فكّر إسبينوزا وبيليتير بشفقة. قبل أن يُغادرا، منيعين على قصر النفس، عادا إلى مكتب شنيل وكلّماه عن لقاءاتهما وحواراتهما الأرشيمبولدية التي يتوقّعانها للمستقبل. قال لهما شنيل، باهتمام وودٌ إنّ باستطاعتهما أن يعتمدا عليه في أي شيء يحتاجونه.

بما أنّه لم يكن عندهما ما يفعلانه غير انتظار خروج الطائرة التي ستقلهما عائدة بهما إلى باريس ومدريد، فقد تفرّغ بيليتير وإسبينوزا للتنزّه في هامبورغ. قادهما المشوار حكماً إلى حيّ العاهرات ومحلات البيب-شو، وعندها أخذهما الحزن وراح يحكي الواحد للآخر قصصَ حبّ وصدود. طبعاً لم يقدّما أسماء ولا تواريخ، كان من الممكن القول بأنّهما كانا يتكلّمان بشكلٍ مجرّد، لكن على كلّ الأحوال وبالرغم من عرض المآسي البارد ظاهريّاً لم يفعل المشوار شيئاً آخر غير أنّه ساهم في إغراقهما أكثر في حالة الحزن تلك إلى درجة أنّهما شعرا بعد ساعتين بأنّهما يختنقان.

عادا إلى الفندق في سيّارة أجرة دون أن ينبسا ببنت شفة.

كانت تنتظرهما هناك مفاجأة. في الاستقبال كان هناك ملاحظة موجّهة لكليهما وموقّعة من شنيل يوضح لهما فيها أنّه بعد حديثهم الصباحي قرّر أن يتكلّم مع السيّدة بوبيس وأنّ هذه قبلت أن تستقبلهما. في صباح اليوم التالي حضر إسبينوزا وبيليتير إلى بيت صاحبة دار النشر، في الطابق الثالث من بناء قديم في المنطقة المرتفعة من هامبورغ. وبينما هما ينتظران راحا يتأملان الصور المؤطّرة المعلّقة على جدار. على الجدارَيْن الأخرين كان هناك لوحة زيتية لسوتين وأخرى لِكاندينسكي وعدد من الرسوم لغروسز، لكوكوشكا ولإنسور. لكنّ إسبينوزا وبيليتير أظهر اهتماماً أكثر بالصور، التي بينها دائما من يحتقرانه أو يُعجبان به، لكنّهما على كلّ الأحوال قرأا توماس مان مع بوبيس، هاينريش مان مع بوبيس، كلاوس مان مع بوبيس، ألفرد دوبلن مع بوبيس، هيرمان هسّه مع بوبيس والتر بنجامين مع بوبيس، آنا سيغرز مع بوبيس، ستيفان زفايغ مع بوبيس، بيرتلوت بريخت مع بوبيس، فيوشتوانغر مع بوبيس، يوهانس بيشر مع بوبيس، أرنولد زفايغ مع بوبيس، ريكاردا هوش مع بوبيس، أوسكار ماريّاً غراف مع بوبيس، أجساد ووجوه ومشاهد ضبابية ممتازة التأطير. كان أصحاب الصور الوجْهية يُراقِبون ببراءةِ الأمواتِ من ما عاد يهمّهم أن يُراقَبوا، حماس المدرسين الجامعيين الذي لا يكاد يكبح. حين ظهرت السيّدة بوبيس، كلاهما كان ملتصقا برأس الآخر في محاولة لمعرفة ما إذا كان الذي يظهر إلى جانب بوبيس هو فايّادا أم لا.

بالفعل، كانت فايّادا، قالت لهما السيّدة بوبيس، كانت ترتدي بلوزة بيضاء وتنورة سوداء. حين استدار بيليتير وجدا امرأة متقدّمة في العمر، صورتها شبيهة، بحسب ما سيعترف بيليتير بعد ذلك بكثير، مارلين ديتريش، كانت امرأة تُحافظ، بالرغم من السنين، على عزيمتها دزن تبدّل، كانت امرأة لا تتشبّث بحواف الهاوية بل تسقط في الهاوية بفضول تسقط إلى الهاوية جالسةً.

- زوجي عرف جميع الكتّاب الألمان وكان الكتّاب الألمان يحبّون ويحترمون زوجي، بالرغم من أنّ عدداً قليلاً منهم قالوا عنه، بعد ذلك، أشياء مريعة، بل وكان بعضها مغلوطاً - قالت السيّدة بوبيس بابتسامة.

تكلّموا عن أرشيمبولدي وجعلتهم يأتون بمعكرونة وشاي، بالرغم من أنّها شربت هي فودكا، الأمر الذي استغربه إسبينوزا وبيليتير، ليس لأنّ السيدة بدأت تشرب باكراً بل لأنّها لم تُقدّم لهما كأساً، كَأساً، كانا من ناحية أخرى سيرفضانه.

- الشخص الوحيد في دار النشر الذي كان يعرف أعمال أرشيمبولدي معرفة تامّة هو السيّد بوبيس، الذي نشر له جميع كتبه.

لكنّها تساءلت (وسألتهما بالمناسبة) إلى أيّ حدٌّ يستطيع أحدٌ أن يعرف أعمال آخر.

- أنا مثلاً، تأسرني أعمال غروسز - قالت مشيرةً إلى رسوم غروسز المعلّقة إلى الجدار -، لكن هل أنا أعرف حقيقةً أعمالَهُ؟ قصصها تُضحكني، هناك لحظات أعتقدُ فيها أن غروسز رسمها كي أضحك، وأحياناً تتحوّل الضحكة إلى قهقهة والقهقهة إلى نوبة هستيريا رنانة، لكنّني تعرّفت ذات مرّة على ناقدٍ فنّي كان بالطبع معجباً بغروسز، ومع ذلك كان يكتئب كثيراً حين يحضر معرضاً لأعماله ماضية أو أو حين كان عليه أن يدرسَ لأسبابٍ مهنية لوحةً أو رسماً له. حالات الاكتئاب هذه، أو هذه الفترات من الحزن عادة ما كانت تدوم عنده أسابيع. كان هذا الناقد الفنّي صديقاً لي، بالرغم من أنّنا لم نتعرّض قط لموضوع غروسز. ومع ذلك قلتُ له ذات مرّة ما كان يحدث معي. في البداية لم يستطع أن يُصدّق. بعدها راح يُحرّك رأسَهُ من جانب إلى آخر. ثمّ نظر إليّ من أعلى إلى أسفل، كما لو أنّه لم يكن يعرفني. اعتقدتُ أنّه جُنّ. قطع صداقته معي للأبد. حسن من ناحيتي يستطيع أن يقول ما يشاء. أنا أضحك مع غروسز، لكن من يعرف غروسز حقيقة؟

- لنفترض - قالت السيدة بوبيس - أنّهم يقرعون الباب الآن ويظهر

صديقي، ناقدُ الفن القديم. يجلس هنا على الأريكة، بجانبي ويُخرج أحدكما رسماً دون توقيع ويؤكّد لنا أنّه لغروسز ويرغب ببيعه. أنظر أنا إلى الرسم وأبتسم أُخرِجُ بعدها دفترَ الشيكات وأشتريه. ينظر الناقد الفنّي إلى الرسمِ ولا يكتئب ويُحاول أن يجعلني أعيد النظرَ في المسألة. بالنسبة إليه ليس رسماً لغروسز. بالنسبة إليّ هو رسم لغروسز. من مِنَ الاثنين على حقّ؟

- أو لنطرحَ القصة بطريقة أخرى. أنت -قالت السيّدة بوبيس مشيرة إلى إسبينوزا- تُخرج رسماً دون توقيع، وتقول إنّه لغروسز وتُحاول بيعه. أنا لا أضحك، أتأمّله ببرودة، أتمعّن في الخطّ، النبض، السخرية فيه، لكن لا شيء في الرسم يجعلني أستمتع به. يُراقبه الناقدُ الفنّي ويكتئبُ، كما هو طبيعي عنده ويُقدّم على الفور عرضاً، عرضاً يفوق توفيراته، وإذا ما قبلتَهُ، فسيغرقه في اكتئاب مساءات طويلة. أحاول أن أقنعه. أقول له إنّ الرسم يبدو لي مريباً لأنّه لا يُثير عندي الضحك. يجيبني الناقدُ بأنّه حان الوقت كي أرى أعمالَ غروسز بعيني راشِدٍ ويهنّئني. ممَنْ من الاثنين على حقّ؟

عادوا بعدها ليتكلّموا عن أرشيمبولدي وأرتهما السيدة بوبيس ملاحظة ظهرت في صحيفة برلينية بعد نشرِ لوديك، روايةِ أرشيمبولدي الأولى. المقالة موقّعة من قبل المدعو شلايرماخر، كان يحاول أن يُحدّد شخصية الروائي بكلمات قليلة.

الذكاء: متوسّط.

المزاج: صرعي.

الثقافة: فوضوية.

القدرة على التخييل: فوضوية

اللغة: فوضوية.

استعمال الألمانية: فوضوي.

ذكاء متوسّط وثقافة فوضوية يسهل فهمهما. ومع ذلك ماذا أراد أن يقول بالمزاج الصرعي؟ هل يعني أنّ أرشيمبولدي كان يُعاني من الصرع، أنّهُ لم يكن سليمَ العقل، ويعاني من نوبات ذات طبيعة غامضة؟ أنّه كان قارئاً مضطرباً لدوستويفسكي؟ لم يكن في الملاحظة أيّ وصف جسديّ للكاتب.

- لم نعرف قط من هو المدعو شلايرماخر -قالت السيدة بوبيس- حتى أنّ زوجي المرحوم كان يمزح قائلاً إنّ الملاحظة كتبها أرشيمبولدي ذاته. لكنّنا كنّا نعرف، سواء هو أو أنا، أنّه لم يكن كذلك.

عند الظهيرة، حين كان من الحكمة أن يذهبا، تجرّأ بيليتير وإسبينوزا على أن يسألا السؤالَ الوحيد الذي كانا يعتبرانه مهمّاً: هل تستطيع هي أن تُساعدهما للتواصل مع أرشيمبولدي؟ اشتعلت عينا السيّدة بوبيس. كما لو أنّها كانت تشهدُ حريقاً، هذا ما قاله بيليتير لاحقاً لِليز نورتون. لكن ليس حريقاً في لحظته الحرجة، بل بعد أشهر من اشتعاله ويوشك على الانطفاء. الردّ السلبيّ تُرجم بحركة خفيفة من رأسها سرعان ما جعلت بيليتير وإسبينوزا يُدركان عبثيّة رجائهما.

بقيا برهة بعدها. من جهةٍ ما من البيتِ كانت تصلُ موسيقى مُخفّتة لأغنية إيطالية شعبيّة. سألها إسبينوزا عمّا إذا كانت تعرفهُ، عمّا رأت ذات مرّة أرشيمبولدي شخصيّاً حين كان زوجها حيّاً. قالت السيّدة بوبيس بلى ثمّ راحت تُرنّم اللازمة الأخيرة للأغنية. كانت لغتها الإيطالية بحسب الصديقين، ممتازة.

- كيف هو أرشيمبولدي؟ -سأل إسبينوزا.

- طويل جدّاً -قالت السيّدة بوبيس-، طويل جدّاً. قامته مرتفعة حقيقةً. لو وُلِد في هذه المرحلة لكان من المحتمل جدّاً أن يكون لاعب كرة سلّة.

وإن كان من الممكن من الطريقةِ التي قالت بها ذلك أن يكون أرشيمبولدي قزما. في سيّارة الأجرة التي أقلّتهما إلى الفندق فكّرَ الصديقان بغروسز وبضحكة السيّدة بوبيس البلورية والوحشيّة وبالانطباع الذي خلّفه عندهما ذلك البيت المليء بالصور حيث كانت غائبة صورة الكاتب الوحيد الذي كان يهمّهما. وكانا يعتبران وإن كانا يقاومان أن يعترفا إلا أنّهما كان يعتبران (أو يحدسان)، أنّ البرق الذي لمحاهُ في شارع العاهرات أهمّ من الكشف، أيّاً كان هذا الكشف، الذي أحسّا به في بيت السيّدة بوبيس.

بكلمات أخرى وبطريقة أكثر قسوة، انتبه بيليتير وإسبينوزا، بينما هما يتمشيان في سانكت باولي، إلى أنّ البحث عن أرشيمبولدي لا يمكن أن يملأ أبداً حياتهما. يستطيعان أن يقرأاه، يستطيعان أن يدرساه، يستطيعان أن يُفصّلا أجزاءه، لكّنهما لا يستطيعان أن يموتا من الضحك معه ولا أن يكتئبا معه، من ناحية لأنّ أرشيمبولدي كان دائماً بعيداً، ومن ناحية أخرى لأنّ أعماله كانت، كلّما غاص فيها سابروها التهمتهم. بكلمات أخرى: فهم بيليتير وإسبينوزا أنّهما في سانكت باولي، ثمّ في بيت السيّدة بوبيس المزيّن بصور الكتّاب، يريدان أن يمارسا الحبّ لا الحربَ.

في المساء ودون أن يسمحا بمسارات أخرى غير الضروريّة حسراً، أي المسارّات العامّة، يمكن أن يقال المجرّدة، تشاركا في سيّارة أجرة أخرى إلى المطار وبينما هما ينتظران كلّ طائرته، تكلّما عن الحبّ، عن الحاجة إلى الحبّ. كان بيليتير الأوّل في الذهاب. حين بقي إسبينوزا وحده، فطائرته كانت ستخرج بعد نصف ساعة، راح يُفكّر بليز نورتون، وبالإمكانات الحقيقيّة التي يملكها كي ينجح بجعلها تعشقه. تخيّلها، ثمّ تخيّل نفسيهما معاً، يتقاسمان شقّة في مدريد، يذهبان إلى السوبر ماركت، يعملان، في قسم اللغة الألمانية، تصوّر مكتبه ومكتبها

منفصلين بجدار، والليالي في مدريد وهي إلى جانبه، يأكلان مع أصدقاء في مطاعم جيّدة وعائدين إلى البيت، في حمام هائل وفي سرير هائل.

لكنّ بيليتير سبقه. بعد ثلاثة أيّام من لقاء صاحبة دار نشر أرشيمبولدي، ظهر في لندن، دون إخطار ثمّ وبعد أن حكى لِليز نورتون آخرَ المستجدات دعاها إلى العشاء في مطعم في هامِرسميث، الذي نصحه به مُقَدَّماً زميلٌ في قسم اللغة الروسيّة في الجامعة، حيث أكلا غولاش مع مهروس الحمّصِ والشمندر والسمك المنقوع بالليمون واللبن، عشاء على ضوء الشموع وعزف الكمانات وروس حقيقيّين وأيرلنديين مُقنّعين بالروس، وكان من جميع وجهات النظر عشاءً مفرطاً في المبالغة، ومن وجهة النظر المطبخية كان فقيراً ومريباً، رافقاه بكؤوس من الفودكا وزجاجة نبيذ بوردو، كلّف بيليتير ثمناً غالياً، لكنّه استحقَّهُ، لأنّ نورتون دعته بعدها إلى بيتها، شكليّاً كي يتحدّثا عن أرشيمبولدي وعن الأشياء القليلة التي كشفت لهم عنها السيّدة بوبيس، دون أن ينسيا كلمات الاحتقار التي كتبها الناقد شلايرماخر عن كتابه الأوّل، راحا بعدها يضحكان وقبّل بيليتير نورتون على شفتيها، بكثير من اللمس فردّت الإنكليزية على قبلته بأخرى أكثر حرارة بكثير، ربّما كانت حصيلة العشاء والفودكا والبوردو، لكّنها كانت بالنسبة إلى بيليتير واعدة، ناما بعدها وتناكحا خلال ساعة إلى أن أخذ النومُ الإنكليزيّة.

في تلك الليلة بينما كانت الإنكليزيّة نائمة تذكّر بيليتير مساء بعيداً شاهد فيه فيلم رعب مع إسبينوزا في غرفة فندق ألمانيّ.

كان الفيلمُ يابانيّاً وفي واحد من المشاهد الأولى تظهر مراهقتان، تحكي واحدة منهما قصّة. كانت القصّة تتعلّق بطفل يقضي عطلته في كوبِ، ويريد أن يخرج إلى الشارع ليلعب مع أصدقائه، تماماً في

اللحظة التي كانوا يبثّون فيها في التلفزيون برنامجه المُفضّل. هكذا وضع الطفل شريط فيديو وتركه جاهزاً للتسجيل وخرج إلى الشارع. كانت المشكلة تتعلّق بأنّ الطفل من طوكيو وفي طوكيو كان برنامجه تبثّه القناة ٣٤، بينما كانت القناة في كوبٍ فارغة، أي أنّها كانت قناة لا يُشاهَد فيها شيء، فقط شواش تلفزيوني.

حين يعود الطفل من الشارع يجلس أمام التلفاز ويضع الفيديو ويدل برنامجه المُفضَّل يرى امرأة بيضاء الوجه تقول له إنَّه سيموت.

لا غير.

عندها يرنّ الهاتف ويردّ الطفل ويسمع صوت المرأة ذاتها تسألهُ عمّا إذا كان يعتقد أنّ ذلك كان مزحة. بعد أسبوع يعثرون على الطفل ميتاً في الحديقة.

كلّ ذلك تحكيه المراهقة الأولى للمراهقة الثانية وكان يبدو أنّها مع كلّ كلمة تلفظُها ستموت من الضحك. كانت المراهقة الثانية مذعورة بشكل واضح، لكنّ المراهقة الأولى التي كانت تحكي القصّةَ كانت توحي بأنّها ستبدأ تَتَشقَلَّب على الأرض بين لحظة وأخرى من الضحك.

وهنا، يتذكَّرُ بيليتير، قال إسبينوزا إنّ المراهقة الأولى كانت مريضة نفسيّاً تافهة وإنّ الثانية كانت بلهاء، وإنّه كان من الممكن لذلك الفيلم أن يكون جيداً لو أنّ المراهقة الثانية قالت للمراهقة الأولى، بدل أن تلوي حنكها فمها وتقطّب جبينها وتظهر وجهَ ضيقٍ قاتل، أن تسكت. لكن ليس بطريقة ناعمة ومهذّبة، بل بطريقة من نوع: «اسكتي، يا ابنة العاهرة، ممَّ تضحكين؟، هل تُثارين وأنت تروين قصّة طفلٍ ميّت، يا مصاصة قضبان متخيّلة؟».

وأشياء أخرى من هذا النوع. ويتذكّر بيليتير أنّ إسبينوزا تكلّم بكثير من العنف، بل وكان يُقلّد الصوت والسلوك الذي كان على المراهقة الثانية أن تتخذه في وجه الأولى، وأنّه كان يعتقد أنّ الأنسبَ أن يُطفئ

التلفاز ويذهب إلى البار مع الإسبانيّ ليشربا كأساً قبل أن ينسحب كلّ منهما إلى غرفته. ويتذكّر أنّه أحسّ بعطفٍ عليه، عطفٍ يستحضر المراهقة، والمغامرات التي كانوا يشاركون فيها بقسوة ومساءات الريف.

كان هاتف ليز الأرضي يرنّ ثلاث أو أربع مرّات كلّ مساء والجوّال مرّتين أو ثلاث مرّات صباح كلّ، كانت المكالمات تأتي من بيليتير وإسبينوزا، ومع أنّ كليهما كان يموّهُ هذه المكالمات بذرائع تتعلّق بِأرشيمبولدي، إلاّ أنّ هذه الذرائع كانت تنفد في أقلّ من دقيقة وينتقل الأستاذان بعدها مباشرة إلى ما كانا يريدانه واقعيّاً.

كان بيليتير يتكلّم عن رفاقه في قسم اللغة الألمانية، عن أستاذٍ وشاعرٍ سويسري شابّ ينهكه كي يُعطى منحةً، عن سماء باريس (مستحضراً بودلير وفيرلين ويانفيل)، عن السيارات التي كانت تشرع عند المغيب بالعودة مشتعلة الأضواء إلى البيت. كان إسبينوزا يتكلّم عن مكتبته، التي كان يُراجعها في أشدّ عزلة، عن الطبول البعيدة التي كان يسمعها أحياناً وتأتي من شقّة من الشارع ذاته، حيث كان يعيشُ، بحسب ما كان يعتقد أنّها فرقة من الموسيقيين الأفارقة، عن أحياء مدريد، عن لابابييس، عن مالاسانيا ومحيط غران بيّا، حيث كان باستطاعة المرء أن يتنزّه في أيّ ساعةٍ من ساعات الليل.

نسي إسبينوزا موريني كما نسيه بيليتير تماماً في تلك الأيّام. وحدها نورتون كانت تهتف له من حين لآخر كي يُتابعا الأحاديث ذاتها دائماً.

دخل موريني بطريقته في حالة اختفاء تام.

سرعان ما اعتاد بيليتير على السفر إلى لندن في كلّ مرّة تنتابه

رغبة، الصحيح هو أنّه لا بدّ من إبراز أنّه، نظراً لمسألة القرب ووفرة وسائل النقل، كان من أسهل الأمور عليه.

هذه الزيارات الليلية كانت تدوم ليلة واحدة فقط. كان بيليتير يصل بعد التاسعة بقليل، يلتقي بِنورتون في العاشرة على طاولة في مطعم حجزها من باريس، وفي الواحدة يكونان معاً في الفراش.

كانت ليز نورتون عاشقة متأجّجة، وإن كان لتأجّجها وقت محدود. كانت قليلة الخيال تستسلم خلال العملية الجنسية لكلّ الألعاب التي يقترحها عليها حبيبها، دون أن تقرّر أو تزعج نفسها بأن تكون هي من تأخذ بزمام بالمبادرة. لم تكن هذه العمليات الجنسية تدوم أكثرَ من ثلاث ساعات، الأمر الذي كان يُحزن بيليتير، الذي كان مستعداً لأن يُجامع حتى يبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود. كانت نورتون تُفضّل أن تتحدّث بعد ممارسةِ الجنس بموضوعات أكاديمية بدل أن تتفحّص بصراحة ما كان يتطوّرُ بينهما. كان بيليتير يعتقد أن برودة نورتون هي طريقة أنثوية جدّاً لحماية نفسها. قرّر ذات ليلة كي يكسر الحواجز أن يحكي لها عن مغامراته العاطفية وضع لائحة طويلة بالنساء اللواتي عرفهنّ وعرضها أمام نظرة ليز نورتون الجليدية واللامبالية. لم يبدُ أنّها دُهِشَت، كما لم تبغِ أن تُكافئ اعترافه باعتراف مماثل.

كان بيليتير يهتفُ في الصباحات إلى سيّارة أجرة ثم يرتدي ملابسه دون أن يحدث جلبة كيلا يوقظها ويغادر إلى المطار. كان قبل أن يخرج يتأمّلها لثوان مهجورة بين الملاحف فيشعر أحياناً أنّه من الامتلاء بالحبّ إلى حدّ أنه كان من الممكن أن يبدأ بالبكاء هناك بالذات.

بعد ساعة كان منبّه ليز نورتون يبدأ يرنّ، فتنهض هذه قافزةً. تستحمّ، تسخّن ماء، تشرب فنجانَ شاي بالحليب، تُنشفُ شعرها ثم تبدأ تتفقّد بيتها بأناة كما لو أنّها كانت تخاف أن تكون الزيارة الليلية قد اختلست شيئاً من أشيائها الثمينة. عادة ما كانت تجد صالونها وغرفتها

في حالة كارثية وكان هذا يزعجها. كانت ترفع الكؤوس المستخدمة، تُفرغ المرامدَ[1]، تبدّل الملاحف بملاحف نظيفة، وتعيد الكتب التي أخرجها بيليتير وتركها على الأرض إلى أماكنها، ثمّ ترتب القناني في خزانتها في المطبخ، وترتدي ملابسها وتذهب إلى الجامعة. إذا كان عندها اجتماع مع زملائها في القسم، تذهب إلى الاجتماع، وإذا لم يكن عندها اجتماع تحبس نفسها في المكتبة لتعمل أو تقرأ حتى تحين ساعة درسها التالي.

قال لها إسبينوزا ذات سبتٍ إنّ عليها أتذهب إلى مدريد وإنّه يدعوها، وإنّ مدريد في تلك المرحلة من السنة كانت أجمل مدن العالم ثم إنّ هناك معرض استرجاعي لباكون لا يمكن أن يُفَوّت.

- غداً سأذهب إليك -قالت له نورتون، الأمر الذي لم يتوقّعه إسبينوزا حقيقةً، فدعوته كانت تعود إلى للرغبة أكثر مما للاحتمال الواقعي بأن تقبلها.

من نافلة القول أن يقينه برؤيتها تظهر في بيته في اليوم التالي وضعه في حالة إثارة متنامية وارتباك متوثب. ومع ذلك قضيا أحداً رائعاً (تفانى إسبينوزا كي يكون كذلك) ناما معاً بينما هما يُحاولان أن يسمعا الطبول المجاورة، دون أن يُحالفهما الحظّ، كما لو أنّ الفرقة الأفريقيّة انطلقت تماماً في ذلك اليوم في جولة على مدن إسبانيّة أخرى. كثيرة هي الأسئلة التي ودّ إسبينوزا أن يوجّهها لها لكنّه حين جدّ الجدّ لم يوجّه إليها أيّ سؤال. حكت له نورتون أنّها كانت عشيقة بيليتير، على الرغم من أنّه لم تكن هذه هي الكلمة التي استخدمتها بل أخرى أكثر غموضاً بكثير، مثل صداقة، أو ربّما قالت استحساناً، أو شيئاً مشابهاً.

كان بودّ إسبينوزا أن يسألها متى كانا عشيقين، لكن لم يخرج معه

---

(١) منفضة السجائر.

غير تنهيدة. قالت نورتون إنّه كان عندها أصدقاء كثيرون، دون أن تُفصح ما إذا كانت تقصد أصدقاء-أصدقاء، أو أصدقاء-عشاقاً، وإنّها هكذا كانت منذ السادسة عشرة من عمرها، حين مارست الحبّ لأوّل مرّة مع شخص في الرابعة والثلاثين من عمره، موسيقي فاشل من بوتري لاين، وإنّها تراه هكذا. إسبينوزا، الذي لم يتكلّم بالألمانية عن الحبّ (أو الجنس) مع امرأة وهما عاريان في الفراش، أراد أن يعرف كيف تراه هي، فهذا الجانب لم يفهمه، لكنّه اكتفى بهزّ رأسه.

جاءت بعدها المفاجأة الكبرى. نظرت نورتون إلى عينيه وسألته عمّا إذا كان هو يعرفها. قال إسبينوزا بلى، كان يعرفها، ربّما في بعض الجوانب بلى، لكن ليس في جوانب أخرى، لكنّه يشعر باحترام كبير تجاهها، إضافة إلى الإعجاب بعملها كدارسة وكناقدة لأعمال أرشيمبولدي. عندها قالت له نورتون إنّها كانت متزوّجة وهي الآن مطلّقة.

- ما كنتُ لأقول هذا أبداً -قال إسبينوزا.

- هذه حقيقة -قالت نورتون-. أنا امرأة مُطلَّقة.

عندما عادت ليز نورتون إلى لندن، صارَ إسبينوزا أكثر عصبيّة مما كان خلال اليومين اللذين مكثتهما نورتون في مدريد. فمن ناحية جرى اللقاء في مجار ممتازة، هذا ما لا شكّ فيه، في السرير على وجه الخصوص، فكلاهما بدا منسجماً، ويشكلان ثنائيّاً جيّداً، متناغماً، كما لو أنّهما كان يعرفان بعضهما بعضاً منذ زمن، لكن حين كان ينتهي الجنسُ وتُداخِلُ نورتون رغبةٌ بالكلام كان كلّ شيء يتبدّل، كانت الإنكليزية تدخل في حالة سكون، كما لو أنها لم يكن لها أيّ صديقة تتكلّم معها به، فكّر إسبينوزا، الذي كان في قرارة نفسه يعتقد بثبات أنّ هذا النوع من الاعترافات ليس موجوداً كي تُقال للرجل، بل كي تسمعها امرأة أخرى. كانت نورتون تتكلّم عن الدورة الشهرية، مثلاً، تتكلّم عن القمر وعن أفلام الأبيض والأسود، التي يمكن أن

تتحوّل في أيّ لحظة إلى أفلام رعب تُصيب إسبينوزا باكتئاب هائل، إلى درجة أنه كان عليه بعد انتهاء المُسارّات، أن يبذل جهداً يفوق قدرة البشرِ كي يرتدي ملابسه ويخرج للعشاء، أو ليخرج آخذاً بذراع نورتون إلى لقاء أصدقاء غير رسمي، دون أن نحسب مسألة بيليتير، التي إذا ما نظرَ إليها جيّداً وقف شعرُ رأسه، والآن من سيقول لِبيليتير إنّني أنام مع ليز؟، الأمور التي كانت جميعها تُربكُ إسبينوزا وكانت حين يكون لوحده تُحدث عنده آلاماً في معدته ورغبة بالذهاب إلى الحمّام، تماماً كما وضّحت له نورتون أنّه كان يحدث معها (لكنّني لماذا سمحتُ لها بأن تُحدِّثني عن هذا!) حين كانت ترى زوجها السابق، الرجل الذي يبلغ طوله متراً وتسعين سنتيمتراً، كان مقلقلَ المصير، انتحارياً كامناً أو قاتلاً كامناً بل ومن المحتمل مجرماً صغيراً أو سفّاحاً، أفقه الثقافي محصور بالأغاني الشعبية التي كان يُغنّيها مع أصدقاء طفولته في إحدى الحانات، أبله يؤمن بالتلفزيون، قزم معتوه شبيه بأيّ متعصّب، بكلّ الأحوال وبوضوح أسوأ زوجٍ يمكن لامرأة ترميه فوقها.

مع أنّ إسبينوزا قرّر كي يطمئنّ ألا يُطوّر العلاقة، إلا أنّه هتف لِنورتون بعد أربعةِ أيّامٍ، حين هدأ، وقال لها إنّه يريد أنّ يراها. سألته نورتون في لندن أم في مدريد. قال إسبينوزا أنّى تريد هي. اختارت نورتون مدريد. شعر إسبينوزا بأنّه أسعدُ رجلٍ على وجه الأرض.

وصلت الإنكليزية يوم سبتٍ ليلاً وغادرت يوم أحدٍ ليلاً. أخذها إسبينوزا في سيّارته إلى الإسكوريال، ثمّ إلى محل فلامِنكو. بدا له أنّ نورتون سعيدة فسُعِدَ. مارسا ليلةَ السبتِ إلى الأحد الحبَّ ثلاثَ ساعات قالت له بعدها نورتون، بدل أن تبدأ بالكلام كما في المرّة السابقة، إنّها مُنهكة وراحت تنام. عادا في اليوم التالي بعد أن استحمّا ومارسا الحبّ وانطلقا إلى الإسكوريال. في طريق العودة سألها

إسبينوزا عمّا إذا عادت ورأت بيليتير. قالت نورتون بلى، وإن جان-كلود كان في لندن.

- كيف حاله؟ -سأل إسبينوزا.

- حسن -قالت نورتون-. وحكيتُ له قصّتنا.

توتّر إسبينوزا وركّز على الطريق.

- وما رأيه؟ -سأل.

- قال إنّها مسألتي -قالت نورتون-، لكن عليّ أن أقرّر ذات لحظة.

أعجب إسبينوزا بموقف الفرنسيّ، دون أن يُدلي بأيّ تعليق. بيليتير هذا يتصرّف تصرّفَ الطيّبين، فكّر. سألته نورتون ما رأيه هو.

- تقريباً مثل رأيهِ -كذب إسبينوزا دون أن ينظر إليها.

بقيا برهةً صامتين، بدأت نورتون بعدها بالكلام عن زوجها. هذه المرّة لم تُدْهِشْ الفظائعُ التي حكتها إسبينوزا أدنى إدهاش.

هتف بيليتير إلى إسبينوزا يومَ الأحد ليلاً، تماماً بعد أن ترك هذا الأخيرُ نورتون في المطار. دخل مباشرة في لب الموضوع. قال له إنّه يعرف ما كان يعرفه إسبينوزا. قال له إسبينوزا إنّه يشكره على مكالمته، وإنّه سواء صدّقه أم لا كان يُفكِّرُ بأن يهتف له في تلك الليلة، وإنه لم يفعل ذلك فقط لأنّ بيليتير سبقه. قال له بيليتير إنّه يُصدِّقُهُ.

- وماذا نفعل الآن؟ -سأله إسبينوزا.

- نتركه كله في يد الزمن -ردَّ بيليتير.

راحا بعدها يتكلّمان -وضحكا كثيراً- عن مؤتمر غريبٍ جدّاً عُقِدَ توّاً في سالونيكا، لم يُدع له غير موريني.

أصاب موريني في سالونيكا عَرَضٌ خطير. استيقظ صباح أحد الأيام في غرفة فندقه ولم يرَ شيئاً. أصيب بالعمى، انتابه لثوانٍ رعبٌ،

لكنه نجح بعد قليل باستعادة سيطرته على بنفسه. بقي ساكناً، مرمياً على السرير، مُحاولاً أن يعودَ وينام. راح يُفكّر بمشاهد طفولية، ببعض الأفلام، بوجوه جامدة، دون أيّ نتيجة. استوى في سريره وبحث متلمّساً عن كرسيّ عجلاته. فتحها وبجهد أقل مما كان يتوقّعه جلس فيها. حاول بعدها ببطءٍ شديد أن يهتدي إلى نافذة الغرفة الوحيدة، نافذة كانت تُطلّ على شرفة، من حيث يمكن أن يُلْمَحَ تلٌّ أجرد، بنّي اللون ضارب إلى الصفرة وبناء مكاتب متوّج بإعلان تجاري لشركة عقاريّة تعرض شاليهات في منطقة قريبة من سالونيكا.

كانت الضاحية (غير المعمَّرة بعد) تحمل اسم مساكن أبولو وكان موريني يتأمّل الإعلان، بينما هو يشتعل وينطفئ، ليلةَ أمس من شرفته، وكأس ويسكي في يده. حين وصل أخيراً إلى النافذة وفتحها، شعر بأنّه يدوخ، وبأنّه لن يتأخر في أن يُغمى عليه. حاول أوّلاً أن يبحث عن الباب وربّما أن يطلب مساعدة أو أن يترك نفسه يسقط وسط الممر. قرّر بعدها أنّ من الأفضل له أن يعود إلى سريره بعد ساعة أيقظه النور الداخل من النافذة وعَرَقُهُ. هتف إلى مكتب الاستقبال وسأل عمّا إذا كان هناك رسالة ما له. قالوا له لا. تعرّى في السرير وعاد إلى كرسيّ عجلاته، المفتوح، الذي كان بجانبه. استغرق استحمامه وارتداؤه ملابسَ نظيفة نصفَ ساعة. أغلق بعدها النافذة، دون أن ينظر إلى الخارج وخرج من الغرفة في طريقه إلى المؤتمر.

عاد الأربعة ليلتقوا في أيّام دراسة الأدب الألماني المعاصر المنعقدة في سالزبورغ. بدا إسبينوزا وبيليتير سعيدين جدّاً. نورتون بدت بالعكس منهما مُقَنَّعَة بامرأة من جليد، غير آبهة بالعروض الثقافية وبجمال المدينة. ظهر موريني محمّلاً بالكتب والأوراق التي كان عليه أن يراجعها، كما لو أنّ الدعوة السالزبورغية أخذته في لحظة من لحظات عمله الحرجة.

أنزلوا الأربعة في فندق واحد، موريني ونورتون في الطابق الثالث، في الغرفتين ٣٠٥ و٣١١، على التوالي. إسبينوزا في الطابق الخامس في الغرفة ٥٠٩. وبيليتير في الطابق السادس في الغرفة ٦٠٢. كان الفندق محتلاً تماماً من قبل أوركسترا ألمانية وفرقة كورال روسيّة وكانت تُسمع في الممرات والأدراج ضجة موسيقية باستمرار، بأصواتها المرتفعة والمنخفضة، كما لو أنّ الموسيقيين لا يتوقّفون عن دندنة استهلالاتٍ أو كما لو أنّ سكوناً عقلياً (وموسيقياً) حلَّ في الفندق. الأمر الذي لم يكن يُزعج إسبينوزا وبيليتير أدنى إزعاج بينما لم يبدُ أنّ موريني لاحظه، لكنّه جعل نورتون تصيح بأنّ سالزبورغ مدينة خراء لأسباب كهذا ولأسباب أخرى كان تُفضّل أن تسكت عنها.

من نافلة القول أنّه لا بيليتير ولا إسبينوزا زارا نورتون في غرفتها ولا مرّة واحدة، على العكس الغرفة التي زارها إسبينوزا مرّة واحدة، كانت غرفة بيليتير والغرفة التي زارها بيليتير مرّتين كانت غرفة إسبينوزا، متحمّسين مثل طفلين أمام الخبر الذي سرى بأسرع من البارود، بسرعة قنبلة ذرّية في ممرّات واجتماعات اللجان الصغيرة لأيّام الأدب الألماني المعاصر، وللعلمِ كان أرشيمبولدي كان مرشّحاً في ذلك العام لجائزة نوبل، الأمر الذي لم يكن بالنسبة لِلأرشيمبولديين في كلّ مكان سبباً لفرحةٍ كبرى وحسب، بل وكان أيضاً انتصاراً وانتقاماً. إلى درجة أنّه في سالزبورغ، وبالضبط في بار بيرة الثور الأحمر، في ليلة مليئة بشرب الأنخاب وُقّع السلام بين المجموعتين الرئيسيّتين للدراسات الأرشيمبولديّة، أي بين مجموعة بيليتير وإسبينوزا ومجموعة بورشماير، بول وشوارز اللذين قرّرا بدءاً من تلك اللحظة، محترمين اختلافاتهم ومناهج ترجماتهم، أن يوحّدوا جهودهم وألا يعودوا ليضعوا عصياً في عجلاتِ بعضهم بعضاً، وهو ما يعني إذا ما عُبّرَ عنه بكلمات عمليّة أنّ بيليتير لن يعترض على دراسات شوارز في المجلات التي له فيها بعض

السلطة وشوارز لن يعترض على أعمال بيليتير في المنشورات التي كان يُعتبرُ، هو شوارز، فيها إلهاً.

كان موريني، الذي لم يكن يُشاطر بيليتير وإسبينوزا حماسَهم، أوّلَ من لفت الانتباه إلى أنّ أرشيمبولدي لم يستلِم حتى تلك اللحظة، على الأقل بحسب علمه، جائزة مهمّة في ألمانيا، لا جائزة أصحاب المكتبات ولا النقّاد ولا القرّاء ولا الناشرين، على افتراض أنّ هذه الجائزة الأخيرة موجودة، ما يمكن أن يُتَوقّع، ضمن المعقول، من أبناء وطنه، العارفين بأنّ أرشيمبولدي مُختارٌ لأعظم جائزة للأدب العالمي، أن يقوموا ولو كنوع من استباق الأمر بمنحه جائزة وطنيّة، أو جائزة تقديرية، أو جائزة شرف أو على الأقل برنامجاً لمدة ساعة في التلفزيون، الأمر الذي لم يحدث وملأ بالغضب نفوس الأرشيمبولديين (متحدين هذه المرّة) الذين وبدل أن يكتئبوا من الإهمال الذي ما زالوا يحيطون به أرشيمبولدي، ضاعفوا جهودَهم، وقد صلّبتهم الخيبةُ وحثَّهم الظلم الذي عاملت به دولةٌ متحضّرة، برأيِهِ، ليس فقط أفضل كاتب ألمانيّ حيّ، بل وأفضل كاتب أوروبيّ حيّ وهو ما تسبّب بموجة عارمة من الانكباب على أعمال أرشيمبولدي بل وعن شخص أرشيمبولدي (الذي ما كان يُعْرَفُ عنه قليلٍ جدّاً، كي لا نقول إنّه لم يكن يُعرف عنه شيء، وهذا ما نتج عنه أيضاً عدداً أكبر من القرّاء، المسحورين ليس بأعمال الألمانيّ، بل بحياة، أو بِلا حياة كاتبٍ بمثل هذه الفرادة، وهو بالتالي ما تُرجم بالانتقال من فمٍ إلى فم بازديادٍ بيع كتبه بشكل معتبر في ألمانيا (الظاهرة التي لم يكن غَريباً عليها حضور ديتِر هيلفلد، آخر ما أحرزته مجموعة شوارز، بورشماير وبول)، وهو ما أعطى بدوره دفعاً جديداً للترجمات وإعادة طباعة الترجمات القديمة، وهو ما لم يعمل من أعمال أرشيمبولدي كتباً فائقة الرواج، لكنّه رفعها، خلال أسبوعين إلى المرتبة التاسعة بين الروايات الخيالية العشرة الأكثر مبيعاً في إيطاليا

ورفعها إلى المرتبة الثانية عشر في مدّة أسبوعين أيضاً بين أكثر عشرين كتاباً مبيعاً في فرنسا. ومع أنّه لم يدخل قط في هذه اللوائح في إسبانيا فقد اشترت دارُ نشر حقوق نشر الروايات القليلة التي كانت عند دور نشر إسبانية أخرى وحقوقَ نشر جميع كتبه غير المترجمة إلى الإسبانية والتي دَشّنت بهذه الطريقة نوعاً من مكتبة أرشيمبولدي، التي لم تكن تجارة خاسرة.

في الجزر البريطانية، يجب قول كلّ شيء، بقي أرشيمبولدي كاتباً ذا طبيعة نخبوية بشكل واضح.

في أيّام الغليان تلك، عثر بيليتير على نصّ كتبه المرشد الثقافيّ، الذي كان لهم شرف التعرّف عليه في أمستردام، في النص يعيد المرشد الثقافي، بشكلٍ أساسيّ، إنتاجَ ما حكاه لهم عن زيارة أرشيمبولدي لفريسون والعشاء اللاحق مع السيّدة الرحالة في بوينس أيرس ونشر النصّ في جريدة *دياريو ريوتلنجن* وفيه شيء مختلف: ينسخ فيه المرشد الثقافي حواراً أساسه الهزل التهكمي بين السيّدة وأرشيمبولدي. تبدأ هي بسؤاله من أين أنت. يجيبها أرشيمبولدي بأنه بروسي. تسأله السيّدة عمّا إذا كان اسمه من أسماء النبالة البروسية الريفيّة. يجيبها أرشيمبولدي أن هذا محتمل جدّاً. عند ذلك تتمتم السيّدةُ باسم بِنّو فون أرشيمبولدي، كما لو أنّها تعضّ على قطعة نقدية ذهبية لتعرف ما إذا كانت ذهباً. تقول بعدها فوراً إنّها لم تسمع بهذا الاسم وتذكر عبوراً أسماء أخرى، ربّما يعرفها أرشيمبولدي. قال هذا لا وإنّه لم يعرف من بروسيا غير الغابات.

– ومع ذلك فاسمك من أصل إيطاليّ – قالت السيّدة.

– فرنسي – أجاب أرشيمبولدي –، بروتستانتي فرنسي.

راحت السيّدة تضحك من هذه الإجابة. في الماضي كانت جميلة

جدّاً يقول المرشد الثقافيّ. حتى في شبه ظلمة الحانة كانت تبدو جميلة، بالرغم من أنّها حين كانت تضحك كان فكّها الصناعي يتحرّك وتُضطر لتضبطه بيدها. ومع ذلك فهذه العملية التي كانت تقوم بها بيدها لم تكن تخلو من الأناقة. كانت السيّدةُ تتصرّف مع صيّادي الأسماك والفلاحين بطبيعية لا تثير غير الاحترام والودّ. كان قد مضى على ترمّلها وقت طويل. كانت تخرج أحياناً لتتنزّه على الحصان بين الكثبان، وفي مرّات أخرى تضيع في الطرق المجاورة التي تسوطها رياح بحر الشمال.

حين علّق بيليتير على مقال المرشد الثقافي مع أصدقائه الثلاثة بينما كانوا يتناولون طعام إفطارهم في الفندق قبل أن يخرجوا إلى شوارع سالزبورغ كان تباين الآراء والتفسيرات ملحوظاً.

بحسب إسبينوزا وبيليتير نفسه ربّما كان المرشد الثقافي عاشقاً للسيّدة في الزمن الذي ذهب فيه أرشيمبولدي ليقدّم قراءته. بحسب نورتون أنّ المرشد الثقافي كانت عنده رواية مختلفة عن الحدث مرهونة بحالته النفسيّة وبنوع المستمعين ومن المحتمل أنّه لم يعد حتى ليتذكّر ما قيلَ وما حدثَ حقيقةً في تلك المناسبة. بحسب موريني كان المرشدُ الثقافيّ بطريقة مرعبة نسخةً عن أرشيمبولدي، أخاه التوأم، الصورة التي يُحوّلها الزمنُ والقدر إلى مسودّة صورة مبيّضة، إلى صورة تصبح تدريجيّاً أكبر، أقوى، ذات وزن خانق، دون أن تفقد روابطها مع المسودّة (التي تتعرّض لمسيرة عكسية) لكنّها في جوهرها مساوية للصورة المبيّضة. كلاهما كان شابّاً في سنوات الرعب والوحشية الهتلرية، كلاهما كان مقاتلاً في الحرب العالمية الثانية، كلاهما كان كاتبٌ، كلاهما كان مواطناً في بلد مفلس، كلاهما كان شيطاناً بائساً في مهب الريح في اللحظة التي يلتقيان فيها(بطريقتهما المرعبة)

ويتعارفان، أرشيمبولدي ككاتب ميتٍ جوعاً والمرشد الثقافي «كمروّجٍ ثقافي» في بلدة أقل ما فيها أهميّة هي الثقافة.

هل كان من الممكن أن يصل المرء إلى التفكير بأنّ هذا البائس (ولماذا لا) المرشد الثقافي الحقير كان في الحقيقة أرشيمبولدي؟ لم يكن موريني من صاغ هذا السؤال بل نورتون. وجاء الجواب بالنفي، ذلك أنّ المرشد الثقافي كان من حيث المبدأ قصيرَ القامة رقيق البنية، وهو ما لا ينطبقُ بأدنى حدّ على خصائص أرشيمبولدي الجسديّة. كان تفسير بيليتير وإسبينوزا أكثر احتمالاً. احتمال أن يكون المرشدُ الثقافيّ عشيقَ للسيّدة الإقطاعية، بالرغم من أنّ هذه كان من الممكن أن تكون جدّته. كان المرشد الثقافي يذهب كلّ مساء إلى بيت السيّدة التي كانت قد سافرت إلى بوينس أيرس، ليملأ كرشه باللحوم المقدّدة الباردة والبسكويت وفناجين الشاي. يُدلّك المرشد الثقافيّ ظهر العجوزِ، زوجةِ رئيس فرقة الخيّالة السابق، بينما زوبعة من المطر تسقط خلف زجاج النوافذ، من المطر الفريسي والحزين الذي كان يُثيرُ الرغبةَ بالبكاء والذي بالرغم من أنّه لم يُبْكِ المرشدَ الثقافيَّ إلا أنّه يذهب بلونه، يذهب بلونه ويجرّه إلى أقرب نافذة حيث يمكث ناظراً إلى ما وراء ستائر المطر المجنون إلى أن تناديه السيّدة، تناديه، حاسمةً فيديرُ ظهره إلى النافذة، دون أن يعرف لماذا اقترب منها، دون أن يعرف ما كان ينتظر أن يجده، وأنّه في تلك اللحظة تماماً، حين لم يعد هناك أحدٌ في النافذة ووحده مصباح البلور الملون يرفرف في عمق الغرفة، تظهر.

هكذا إذن كانت الأيّام في سالزبورغ بشكلٍ عام لطيفةً، بالرغم من أنّ أرشيمبولدي لم ينل جائزة نوبل في تلك السنة، فحياة أصدقائنا الأربعة، تابعت انزلاقها أو طفوها في نهرِ أقسام اللغة الألمانية في الجامعات الأوروبية المبهج، ليس دون تسجيل هذا الفزع أو ذاك الذي

ساهم لاحقاً في إضافة ذرّة من الفلفل الأسود، ذرّة من الخردل، دفقة صغيرة من الخلّ إلى حيواتهم المرتَّبة ظاهريّاً، أو هكذا كانت تبدو بالنظر إليها من الخارج، بالرغم من أنّ كلّ واحدٍ منهم، مثل كلّ خلق الله، كان يجر صليبه، صليبه الغريب، الشبحيّ والمشع في حالة نورتون، التي كانت تُشير في أكثر من مناسبة، مُلامِسَةً أحياناً حدودَ السوقيّة، إلى زوجها السابق كتهديد كامنٍ، ناسبةً إليه عيوباً ونواقص، تبدو لمسخٍ، مسخٍ عنيف جدّاً لكنّه لا يحضرُ أبداً، محض ثرثرة بلا أيّ فعل، بالرغم من أنّ نورتون كانت تساهم في خطابها في تجسيد هذا الكائن الذي لم يره إسبينوزا ولا بيليتير قط، كما لو أنّ زوج نورتون السابق وُجد فقط في أحلامها، إلى أن أدرك الفرنسيّ، الأكثر نباهة من الإسبانيّ أنّ هذا الخطاب اللاواعي، هذه الصفحة من الإهانات التي لا نهاية لها يعود أكثر من أيّ شيء آخر إلى الرغبة بالعقاب التي ابتليت بها نورتون، ربّما خجلة من أنّها عشقت وتزوّجت من مثل ذلك الأحمق. بالطبع كان بيليتير مخطئاً.

في تلك الأيام أجرى بيليتير وإسبينوزا، القلقان من الحالة التي كانت تُعاني منها عشقتهما المشتركة، حديثين هاتفيين طويلين.

الأوّل قام به الفرنسيّ ودام ساعة وربع الساعة. الثاني قام به إسبينوزا، بعد ثلاثة أيّام ودام ساعتين وخمس عشرة دقيقة. حين مضى عليهما ساعة ونصف وهما يتكّلمان قال له بيليتير أن يُغلق، فالمكالمة سوف تُكلّفه غالياً جدّاً، وإنّه هو سوف يتصل به، وهو ما عارضه الإسباني معارضة قطعية.

المكالمة الهاتفية الأولى، التي قام بها بيليتير، بدأت بطريقة صعبة، مع أنّ إسبينوزا كان ينتظر تلك المكالمة، كما لو أنّه كان يصعب على كلٍّ منهما أن يقول للآخر ما كان سيقوله عاجلاً أو آجلاً. كانت نبرةُ العشرين دقيقة الأولى مأساوية استُخْدِمَت فيها كلمةُ المصير

عشر مرّات وكلمة صداقة أربعاً وعشرين مرّة. لُفِظَ اسمُ ليز نورتون خمسين مرّة، تسع منها عبثاً. كلمة باريس قيلت سبع مرّات. مدريد ثماني مرّات. كلمة حبّ لُفظت مرّتين، مرّة واحدة كلّ واحد. كلمة رعب لُفِظت ستّ مرّاتٍ وكلمة سعادة مرّة واحدة (استخدمها إسبينوزا). كلمة حلّ قيلت في مناسبتين. سوليبسيسم سبع مرّات. كلمة تلطيف عشر مرّات. كلمة درجة مفردة وجمعاً تسمع مرّات. كلمة البنيوية مرّة واحدة (بيليتير). مصطلح أدب أمريكا الشمالية ثلاث مرّات. كلمة عشاء وتعشينا وفطرنا وشطائر تسع عشرة مرّة. كلمة عيون وأيْدٍ وشَعْر أربع عشرة مرّة. صار الحديث بعدها أكثر انسيابية. حكى بيليتير لإسبينوزا نكتة بالألمانية فضحك هذا. حكى إسبينوزا لِبيليتير نكتة بالألمانية فضحك هذا أيضاً. عمليّاً كلاهما ضحك ملفوفاً بالأمواج أو بأيِّ شيءٍ كان يوحّد بين صوتيهما وسمعهما عبر الحقول المعتمة والريح وثلوج البيرينيه والأنهار والطرق الموحشة والضواحي متراميةِ الأطرافِ، التي كانت تُحيط بباريس ومدريد.

الحديث الثاني، الأطول من الأوّل بما لا يُقاس، كان حديث صديقين يُحاولان أن يوضّحا كلّ نقطة غامضة، مرّت بهما عرضياً، دون أن يتحوّل الحديث بسبب ذلك إلى حديث ذي طبيعة فنّية أو لوجيستية، بالعكس، برزت في ذلك الحديث موضوعاتٌ لا تتعرّض لِنورتون إلا ملامسة، موضوعات لم يكن لها أيّ علاقة بتقلبات العواطف، موضوعات كان من السهل الدخول فيها والخروج منها دون أدنى صعوبة، كي يعودا للموضوع الرئيسي، ليز نورتون، التي كلاهما اعترف بها في نهاية المُكالمة ليس كإلهة انتقام وضعت نهاية لصداقتها، ولا كامرأة في حدادٍ، ملطّخةِ الجناحين بالدم، ولا كَهيْكات، التي بدأت برعاية الأطفال كحاضنة وانتهت بتعلّم السحر متحوّلة إلى حيوان، بل كالملاك الذي عزّز صداقتهما. جاعلة إيّاهما يكتشفان شيئاً كانا يشكان

به، لكنّهما لم يكونا واثقَيْن منه تماماً، أي أنّهما كانا كائنين مُتَحَضِّرين، كائنين قادرين على يَخْتَبرا مشاعرَ نبيلة، وأنّهما لم يكونا غليظَي الطبع، غارقين في الروتين والعمل العاديّ والمستقرّ في الخِسّة، على العكس تماماً، اكتشف بيليتير وإسبينوزا كلٌّ شهامةَ الآخر. اكتشفا أنّهما لو كانا معاً لخرجا ليحتفلا بذلك، مبهورين ببهاء فضائلهما، بهاء صحيحٌ أنّه لا يدوم كثيراً (فكلّ فضيلة، باستثناء لحظة الاعتراف القصيرة، تخلو من البهاء وتعيش في كهف مظلم، محاطة بسكان آخرين، بعضهم خطير جدّاً) ونظراً لعدم وجود الاحتفال والمرح أنهيا الحديث بوعد ضمنيّ بصداقة خالدة، ثم وبعد أن أغلق كلٌّ منهما هاتفه، ختم كلّ منهما في شقّته المكتظّة بالكتب، شارباً ببطء فائق كأس ويسكي ناظراً إلى الليل من وراء نافذته، ربّما بحثاً، وإن كان دون معرفة منهما، عن ذلك الذي بحث عنه المرشدُ الثقافي على الجانب الآخر من نافذة الأرملة ولم يجده.

كان موريني آخر من علم، كما لا يمكن أن يكون بطريقة أخرى، وإن كانت الرياضيات العاطفية في حالة موريني لا تعمل دائماً.

قبل أن تنام نورتون لأوّل مرّة مع بيليتير، كان موريني قد لمح هذا الاحتمال. ليس من الطريقة التي كان يتصرّف بها بيليتير أمام نورتون، بل من تباعدِ هذه، التباعد المبهم، الذي لو كان بودلير لسمّاه سوداوياً وكان نيرفال سيسميه اكتئاباً وكان يضع الإنكليزية في موضع استعداد رائع لعلاقة حميمة مع أيٍّ كان.

طبعاً لم يتوقّعه من إسبينوزا. حين كلّمته نورتون بالهاتف وحكت له أنّها متورطة معهما فوجئ موريني (وإن لم يكن ليفاجئه أن تقول نورتون إنّها في علاقة مع بيليتير ومع زميل لها في جامعة لندن بل وحتى مع طالب) لكنّه أخفى ذلك بمهارة. حاول بعدها أن يُفكّر بأشياء أخرى لكنّه لم يستطِعْ.

سأل نورتون عمّا إذا كانت سعيدةً، فأجابته نورتون بلى. حكى لها أنّه تلقى رسالة إلكترونية من بورشماير فيها أخبار طازجة. لم تَبْدُ نورتون مهتمّةً كثيراً. سألها عمّا إذا كانت تعرف شيئاً عن زوجها.

- زوجي السابق - قالت نورتون.

لا، لم تكن تعرف شيئاً، بالرغم من أنّ صديقة قديمة هتفت لها كي تحكي لها أنّ زوجها السابق يعيش مع صديقة أخرى قديمة. سألها عمّا إذا كانت صديقة جدّاً. لم تفهم نورتون السؤال.

- من هي التي كانت صديقة جدّاً؟

- التي تعيش حالياً مع زوجك السابق - قال موريني.

- لا تعيش معه بل تُعيله، الأمر مختلف.

- أه - قال موريني، وحاول أن يُغيِّر الموضوع، لكن لم يخطر له أيّ شيء.

ربّما لو أنّني أكلّمها عن مرضي، فكّر بخبثٍ. لكنّه لن يفعل هذا أبداً.

كان موريني أوّلَ من قرأ بين الأربعة، في تلك الأيّام ذاتها، خبراً عن عمليات القتل في سونورا، ظهر في إل مانيفسو وموقّعاً من قبل صحفيّة إيطاليّة ذهبت إلى المكسيك لتكتب مقالاتٍ عن رجال حرب العصابات الزاباتية. بدا له الخبر مريعاً. في إيطاليا أيضاً كان هناك عمليات قتل على التسلسل، لكن نادراً ما كان يتجاوز الرقمُ العشر ضحايا، بينما تجاوزت الأرقامُ في سورونا المئة كثيراً.

فكّر بعدها بصحفيّةٍ إل مانتِفِستو وبدا له غريباً أن تكون ذهبت إلى تشيابّاس الواقعة في أقصى جنوب البلد وتنتهي بالكتابة عن الأحداث في سونورا، التي إذا لم تخنه معرفته الجغرافية تقع في الشمال، في الشمال الغربي، على الحدود مع الولايات المتحدة. تخيّلها مسافرةً في حافلة، مسافة طويلة من مكسيكو العاصمة الفيدرالية حتى الأرض

الصحراوية في الشمال. تخيّلها متعبةً بعد أن قضت أسبوعاً في غابات تشياباس. تخيّلها تتكلم مع نائب القائد العام ماركوس، تخيّلها في العاصمة مكسيكو. أحد هناك يحكي لها ما كان يجري في سونورا. وهي بدل أن تأخذ أوّل طائرة إلى إيطاليا، قرّرت أن تأخذ بطاقة حافلة باتجاه سونورا. شعر موريني للحظةٍ برغبة جامحة لأن يشارك الصحفيةَ في رحلتها.

سأعشقها حتى الموت، فكَّر. بعد ساعة نسي المسألة تماماً.

بعد زمن قصير تلقّى رسالة إلكترونية من نورتون. بدا له غريباً أنّ تكتب ولا تهتف له. ومع ذلك أدرك بعد قليل من قراءته للرسالة أنّ نورتون تحتاج لأن تعبِّر بأدقّ الطرق الممكنة عن أفكارها وأنّها لذلك فضَّلت أن تكتب له. في الرسالة تطلبُ منه أن يعذرها على ما أسمته أنانيتها، أنانيتها التي تتجسّد في التفكّر كوارثها الخاصّة. تقول له إنّها حَلّتْ، أخيراً! النزاع الذي كان ما يزال قائماً بينها وبين زوجها السابق. اختفت الغيوم السوداء من حياتها. الآن ترغب بأن تكون سعيدةً وتغنّي (كذا). قالت أيضاً إنّ من المحتمل أنّها كانت حتى الأسبوع السابق ما تزال تُحبّه وإنّ باستطاعتها أن تؤكّد الآن أنّ هذا الجزء من قصّتها صار جزءاً من الماضي. بحماس مُجدَّد أعود لأركِّز على العمل وعلى تلك الأشياء، اليوميّة الصغيرة، أكّدت نورتون، التي تجعل الكائنات البشريّة سعيدة. وقالت أيضاً: أريدك أن تكون أنّت، يا طويل البال، يا بيرو، أوّل من يعرف ذللك.

قرأ موريني الرسالةَ ثلاث مرّات. فكّرَ مثبطاً أنّ نورتون كانت مخطئة حين أكّدت أنّ حبَّها وزوجَها السابق وكلّ الذي عاشته معه صار من الماضي. لا شيء يصير من الماضي

بيليتير وإسبينوزا على العكس، لم يتلقيا إيّ مسارّة بهذا الاتجاه.

لاحظ بيليتير شيئاً لم يلحظه إسبينوزا السفر من لندن إلى باريس صار أكثر من السفر من باريس إلى لندن. ومرّة من كلّ مرّتين كانت نورتون تظهر ومعها هديّة، كتابُ دراسات، كتابُ فنّ، كتالوجات معارض قد لا يراها هو أبداً، بل قميص أو منديل، الأمور غير المعهودة حتى ذلك الوقت.

فيما عدا ذلك بقي كلّ شيء على حاله. كانا يتجامعان، يخرجان معاً للعشاء، يتحدثان عن آخر المستجدات حول أرشيمبولدي، لم يكونا يتكلّمان أبداً عن مستقبلهما كزوجين، وفي كلّ مرّة كان يظهر فيها إسبينوزا في الحديث (ولم يكن عدم ظهوره كثيراً) كانت تصير نبرة الاثنين قطعاً غير حيادية، نبرة تعقُّلٍ، ونبرة صداقة على وجه الخصوص. في بعض الليالي كانا يبقيان نائمين الواحد بين ذراعي الآخر دون أن يُمارسا الحبّ، الشيء الذي كان بيليتير واثقاً منه هو أنّها لم تكن تفعل هذا مع إسبينوزا. وكان مخطئاً، فالعلاقة بين نورتون والإسبانيّ كثيراً ما كانت نسخة طبق الأصل عن العلاقة التي تُقيمها مع الفرنسيّ.

كانت المأكولات تختلف، هي أفضل في باريس، كان يختلف المسرحُ والديكور، هو أحدث في باريس، ويختلف في اللغة، فمع إسبينوزا تتكلّم في أغلب الأحيان بالألمانية ومع بيليتير تتكلَّمُ في أغلب الأحيان بالإنكليزية، لكنّ التشابهات كانت بشكلٍ عامّ أكثر من الاختلافات. طبعاً مرَّت ليالٍ مع إسبينوزا من دون جنس.

لو سألتها أكثر صديقات نورتون ودّاً (لم تكن موجودة) مع من كانت تمضي وقتاً أفضل في السرير، لما عرفت هذه بماذا تُجيب.

كانت تُفكّر أحياناً أنّ بيليتير عاشقٌ أكفأ. ومرّات أخرى تُفكِّرُ أنّ إسبينوزا هو الأكفأ. بمراقبة المسألة من الخارج، لنقُلْ من جوٍّ أكاديميّ تماماً يمكن القول إنّ بيليتير يملك قائمة مراجع أطول من إسبينوزا،

الذي كان يثق في هذه المناظرات بالغريزة أكثر مما بالعقل وعنده نقيصة أنّه إسبانيّ، أي أنه ينتمي إلى ثقافة كثيراً كانت تخلط بين الأيروسية والأخروية والإباحيّة وأكل الغائط، الخطأ الذي كان يلاحظ (نظراً لغيابه) في مكتبة إسبينوزا الذهنية، الذي قرأ ساد للمرة الأولى فقط كي يردّ (ويدحض) على مقال لِبول يرى هذا فيه روابطَ بين جوستين *والفلسفة في المخدع* ورواية لِأرشيمبولدي من عقد الخمسينات.

بالمقابل قرأ بيليتير للماكيز المقدّس في السادسة عشرة من عمره ومارس الجنس الثلاثيّ في الثامنة عشرة مع رفيقتي جامعة وكانت هوايته في المراهقة للرسوم الأيروسية قد تحوَّلت إلى هوايةِ اقتناء راشدة ومعقولة ومدروسة لأعمال القرنين السابع عشر والثامن عشر الأدبية الإباحية، وبكلمات مجازية : منيوساين، الإلهة-الجبل وأمّ ربّات الإلهام التسع، كانت أقرب إلى الفرنسيّ منها إلى الإسبانيّ. وإذا تكلّمنا دون لفّ ولا دوران: كان بيليتير يستطيع أن يتحمّل ستّ ساعات من المجامعة (ودون أن يقذف) بفضل قائمة مراجعه بينما كان إسبينوزا يستطيع أن يفعل ذلك (قاذفاً مرّتين وأحياناً ثلاثاً وينتهي نصفَ ميت) بفضل حسن مزاجه، بفضل قوّته.

وبما أنّنا ذكرنا الإغريق ليس من فائض القول أن نقول إنّ إسبينوزا وبيليتير كانا يعتقدان أنّهما عوليس وإن كليهما كان يعتبر موريني، كما لو أنّ الإيطاليّ كان إوريلوكو، الصديق الوفي الذي تُحكى عنه في الأوديسة مأثرتين مختلفتي الطبيعة. الأولى تُشير إلى حكمته كيلا يتحوّل إلى خنزير، أي أنّها تُشير إلى وعيه المتوحّد والفرديّ، إلى شكّه المنهجيّ، إلى حنكته كبحّارٍ قديم. بالمقابل تُشير الثانية إلى مغامرة غير لائقة ومدنسة، إلى بقرات زيوس أو إله آخر جبّار، كانت ترعى مطمئنّة في جزيرة الشمس، الأمر الذي أثار شهيّة أوريلوكو الرهيبة، الذي أغوى رفاقه بكلمات ذكيّةٍ بأن يقتلوها ويقيموا فيما بينهم حفلةً، الأمر

الذي لشدّ ما أغضبَ زيوس، الذي لعن أوريلوكو، لأنّه تبجّح بالفهم أو بالإلحاد أو بالرومثيويسية وشعر هذا الإله بانزعاج أكثر من موقف أوريولو، من جدلية جوع أوريلوكو أكثر مما من عمليّة أكله لبقراته، وبسبب هذا الفعل، أي بسبب هذه الحفلة، غرقت السفينة التي كان يذهب فيها أوريلوكو ومات جميع البحّارة، وهو ما كان يعتقد بيليتير وإسبينوزا أنّه سيحدث لموريني، طبعاً ليس بطريقةٍ واعيةٍ، بل بثقة غير مترابطة أو بالحدس بطريقة التفكير الأسود الميكروسكوبي، أو الرمز الميكروسكوبي، الذي كان ينبض في منطقة سوداء وميكروسكوبية من روح الصديقين.

في نهاية عام ١٩٩٦ تقريباً رأى موريني كابوساً. حلم بأنَّ نورتون تبربط في مسبح بينما هو وبيليتير وإسبينوزا يلعبون الورق حول طاولة حجريّة. كان بيليتير وإسبينوزا يجلسان وظهرهما إلى المسبح، بدا في البداية مسبحَ فندقٍ عامٍّ وعاديَ. بينما كانوا يلعبون كان موريني يُراقب الطاولات الأخرى، كانت الشمسيات وأسرّةُ الاستلقاء مصفوفة على كلا الجانبين. فيما وراء ذلك كان هناك حديقة مسيّجة بسياج أخضر داكن، برّاق، كما لو أنّها أمطرت توّاً. راح الناسُ ينسحبون شيئاً فشيئاً من المكان، ضائعين عبر مختلف الأبواب التي تصل المكان ببار وغرف أو شقق البناء الصغيرة التي تصوّر موريني أنّها مكونة من غرفة مزدوجة فيها مطبخ أمريكيّ وحمّام. بعد برهة لم يبقَ أحدٌ في الخارج، حتى النُّدُل الضجرون الذي رآهم من قبل ما عاد يصخبون. بيليتير وإسبينوزا كانا ما يزالان غارقين في اللعب. رأى بجانب بيليتير كومة من فيش كازينو، إضافة إلى نقود من مختلف البلدان، مما جعله يفترض أنّه راح يكسبها، ومع ذلك لم يكن لوجه إسبينوزا ما يدل على أنّه يعتبرُ نفسه خاسراً. في تلك اللحظة نظرَ موريني إلى أوراقه وانتبه إلى أنه لم يبق عنده ما يفعله. استبعد نفسه وطلب أربع أوراق لعب، تركها مقلوبةً

على الطاولة الحجريّة، دون أن ينظر إليها وحرّك كرسيّ عجلاته ليس من دون صعوبات. لم يسأله بيليتير ولا إسبينوزا ولا حتى إلى أين هو ذاهب. دفع كرسيّ العجلات إلى حافّة المسبح. عندها فقط لاحظ كم كان كبيراً. عرضه لا بدّ كان على الأقل ثلاثمئة متر وكان طوله يتجاوز، قدّرَ موريني، الثلاثة كيلومترات. كانت مياهه داكنة واستطاع أن يرى في بعض المناطق بقعاً زيتية، كتلك التي تُشاهد في المرافئ. لا أثرَ لِنورتون. أطلق موريني صرخة.

- ليز.

ظنّ أنّه رأى على الطرف الآخر من المسبح، طيفاً، فحرّك كرسيّ عجلاته باتجاهه. كان المسافة طويلة. مرّةً واحدة نظر إلى الخلف ولم يرَ بيليتير ولا إسبينوزا. غرقت تلك المنطقة من الشرفة بالضباب. تابع تقدّمه. بدا أنّ مياه لمسبح راحت تتسلّق الحوافّ، كما لو أنّ وابلاً مطرياً كان ينزل في مكان ما، أو ما هو أسوأ، بالرغم من أنّ كلّ شيء في المنطقة التي كان يتقدّم فيها موريني كان ساكناً وصامتاً ولا شيء يدلّ على بداية عاصفة. سرعان ما غطّى الضباب موريني. حاول في البداية أن يُتابع تقدّمه، لكنّه انتبه لاحقاً إلى أنّ هناك خطرَ أن يسقط مع كرسيّ عجلاته في المسبح ففضّل ألا يُخاطر. حين تكيّفت عيناه رأى صخرة، كأنّها رصيف ميناء داكن ملون بألوان قوس قزح، كانت تنبعثُ من المسبح. لم تبدو له غريبة. اقترب من الحافّة وصرخ مرّة أخرى باسم ليز، خائفاً هذه المرّة ألا يعود ليراها أبداً. كانت تكفيه هزّة خفيفة من العجلات كي يسقط فيه. عندها انتبه إلى أنَّ البحيرة أفرغت وأنّ عمقها هائل، كما لو أنّ هوّة من بلاط أسود متعطّن بسبب الماء انفتحت عند قدميه. ميّز في قاعها هيئة امرأة (وإن كان من المستحيل تأكيد ذلك) تتجه نحو حواف الصخرة. وكان يستعد لأن يصرخ مرّة أخر ويؤشّر لها، حين شعر بأحدٍ خلفه. للحظة انتابه يقينان: يقين أنّ الأمر يتعلّق بكائن شرير، الكائن الشرير يرغب بأن يلتفت موريني ويرى

وجهه. تراجع بحذرٍ وتابع تحرّكه حول المسبح، محاولاً ألاّ يلتفت إلى من كان يلاحقه وباحثاً عن درج ربّما يمكن أن يؤدّي إلى القاع. لكن الدرج الذي كان يقول له المنطقُ بأنّه يجب أن يكون في زاوية لم يظهر له قط كان موريني يتوقّف بعد أن ينزلق بضعة أمتار ويلتفت ليواجه وجه المجهول، متحمّلاً الخوف، الخوف الذي كان يغذّي اليقين المتزايد بمعرفة من كان ذلك الشخص الذي يلاحقه وتفوح منه رائحةُ نتنِ الشر التي لا يكاد يستطيع موريني تحمّلها. عندها ظهر وجه ليز نورتون وسط الضباب، نورتون أكثر شباباً، ربّما في العشرين من عمرها أو أقل، تنظر إليه بثبات وجدّية تجبره على أن يحرف نظرته. من التي كان تتوه في قاع المسبح؟ كان موريني ما يزال يستطيع أن يراها، فتاة مُنمنمة تسارع لتتسلّق الصخرة التي تحوّلت الآن إلى جبلٍ، وكان رؤيتها بعيدة إلى ذلك الحدّ تغرق عينيه الدموع وتحدث عنده حزناً عميقاً لا مناص منه، كما لو أنّه يرى حبَّهُ الأوّل يتخبّط في متاهة. أو كما لو أنّه يرى نفسه، بساقين ما زالتا نافعتين، لكنّه ضائع في درج قطعاً غير مجدٍ. وأيضاً فكّر، ولم يستطع أن يتفادى أن يُفكّر ومن الحسن أنّه لا يتفاداه، أنّ ذلك يُشبه لوحة لغوستاف مورو أو لأوديلون ريدون. عندها كان يعود لينظر إلى نورتون وهذه تقول له:

- لا عودة إلى الوراء.

لم يكن يسمع الجملةَ بأذنه بل مباشرة داخل دماغه. لقد اكتسبت نورتون قدرات تخاطريّة، فكّر موريني. ليست سيّئة، إنّها حسنة. ليس شرّاً ما كان يُحسّ به، بل تخاطراً، كان يقول لنفسه كي يحرف اتجاه حلمه الذي كان يعرف في قرارة نفسه أنَّهُ غير قابل للتغيير ومشؤوم. عندها كرّرت الإنكليزية بالألمانية لا عودة إلى الوراء. وبتناقض تُدير له ظهرها وتبتعد في الاتجاه المعاكس للمسبح وتضيع في حديقة لا تكاد ترتسم في الضباب. غابة يشعّ منها ضياء أحمر، وتضيع نورتون في هذا الضياء الأحمر.

بعد أسبوع وبعد أن فسّر الحلمَ بأربع طرق مختلفة على الأقل، سافر موريني إلى لندن. كان قرار الشروع بالسفر يخرج تماماً عن سيطرة روتينه المعتاد، روتين السفر فقط إلى المؤتمرات واللقاءات، التي تُغطي فيها المنظّمةَ نفقات بطاقة الطائرة والفندق. الآن يحدث العكس، لم يكن هناك أيّ سبب مهني وسواء نفقات الفندق أو النقل خرجت من جيبه. أيضاً لا يستطيع أن يقول إنّه هُرع بناء على نداء استغاثة من ليز نورتون. ببساطة كان قد تكلّم معها قبل أربعة أيّام وقال لها إنّه يريد أن يُسافر إلى لندن، المدينة التي لم يزرها منذ زمن طويل.

أعربت نورتون عن سرورها بالفكرة وعرضت عليه بيتها، لكنّ موريني كذب وقال لها إنّه حجز في فندق. حين وصل إلى مطار جاتويك كانت نورتون بانتظاره. في ذلك اليوم تناولا طعام إفطارهما معاً في مطعم قريب من الفندق الذي ينزل فيه موريني. وليلاً تعشيا في بيت نورتون. تحدّثا خلال العشاء الفاتر، لكنه المُقدَّر بأدب من قبل موريني، تحدّثا عن أرشيمبولدي، عن مكانته المتنامية وعن الفجوات التي لا تُحصى التي بقيت دون توضيح، لكنّ الحديث مع العقبة اتخذ مجرى أكثر شخصية وميلاً للذكريات، حتى الثالثة صباحاً حين استدعت نورتون سيّارة أجرة وساعدت موريني على النزول في مصعد بيتها القديم ثم في مسافة من ستّ درجات، كان كلّ شيء، بحسب ما قدّر الإيطاليّ ألطف من المتوقّع.

كان موريني في الإفطار والعشاء وحده، في البداية دون أن يجرأ على الخروج من غرفته، لكنّه قرّر مدفوعاً بالسأم أن يقوم بجولة امتدّت حتى هاي بارك، حيث هام على وجهه، غارقاً في أفكاره، دون أن يُمعن النظر أو يرى أحداً. كان بعضُ الأشخاص ينظرون إليه بفضول، لأنّهم لم يروا قط مشلولاً بمثل تلك العزيمة والحركة السريعة. حين توقّف في النهاية وجد نفسه أمام حديقة إيطالية، هكذا تُسمى، وإن بدا

له أنّها ليست ولا بشكلٍ من الأشكال إيطالية لكن من يدري، قال لنفسه، فالمرء يجهل أحياناً تماماً ما هو أمام أنفه.

أخرج من أحدِ جيوبه كتاباً وراح يقرأ، بينما هو يستعيد قوّته. بعد برهة قليلة سمع أحداً يسلّم عليه، ثمّ الجلبة التي يحدثها جسد ضخم وهو يسقط على مقعدٍ خشبيّ. ردّ التحيّة. كان شعر المجهول أشقر بلون التبن، أشيباً وسيّئ الغسيل ويزن مئة وعشرة كيلوغرامات على الأقل. مكثا ينظر الواحد منهما إلى الآخر لحظة وسأله المجهول عمّا إذا كان أجنبيّاً. قال له موريني إيطاليّ. أراد المجهولُ أن يعرف ما إذا كان يعيشُ في لندن، ثمَّ عن عنوان الكتابِ الذي كان يقرؤه. أجابه موريني بأنّه لا يعيشُ في لندن وأنّ عنوان الكتاب الذي يقرؤه ع: كتاب *الطبخ لخوانا إنِسْ دي لا كروث*، لأنخِلو مورينو، وأنّه مكتوب طبعاً بالإيطاليّة، وإن كان يدور حول راهبة مكسيكيّة، حول حياة وبعض وصفات طبخ الراهبة

- وهل كانت هذه الراهبة المكسيكيّة تُحبّ الطبخَ -سأل المجهول.

- بطريقة ما بلى، وإن كانت تكتب الشعر أيضاً -قال موريني.

- لا أثق بالراهبات -قال المجهول.

- لكن هذا الراهبة كانت شاعرة عظيمة -قال موريني.

- لا أثق بناس يأكلون متبعين كتاب وصفات -قال المجهول كما لو أنّه لم يسمعه.

- وبمن تثقُ أنت؟ -سأله موريني.

- بالناس الذين يأكلون حين يجوعون، كما أعتقد -قال المجهول.

انتقل بعدها ليشرح له أنّه عمل منذ زمن في معمل مخصّص لصناعة الفناجين، فقط الفناجين، الفناجين العاديّة ومن تلك التي تحمل عبارات أو شعارات أو نكات، مثل: *هاها*، *إنها ساعة قهوة استراحتي*

أو بابا يحبّ ماما أو آخر ساعات اليوم أو الحياة، فناجين عليها خرافات تافهة، وأنّه بدّل ذات يوم، التأكيد استجابة للطلب،شعارات الفناجين جذرياً وبدأ إضافة إلى ذلك يضع رسوماً إلى جانب الشعارات، رسوماً دون تلوين في البداية، لكنه وبفضل نجاح هذه المبادرة، وضع رسوماً ملوّنة، ذات طبيعة هزلية، لكن أيضاً ذات طبيعة جنسية.

- حتى أنّهم زادوا مرتّبي -قال المجهولُ-. هل توجد هذه الفناجين في إيطاليا؟ -قال بعدها.

- بلى -قال موريني-، بعضها عليها أساطير بالإنكليزية وأخرى أساطير بالإيطالية.

- حسن، كلّ شيء كان يسير كما يرام -قال المجهول-. كنّا نحن العمال نعمل بارتياح أكثر. كان المسؤولون يعملون بارتياح أكثر وكان الرئيس يبدو سعيداً. لكن بعد شهرين من إنتاج هذه الفناجين انتبهتُ إلى أنّ سعادتي كانت مُصطنعة. كنتُ أشعرُ بالسعادة لأنّني كنتُ أرى الآخرين سعداء، ولأنّني كنتُ أعرف أنّ عليَّ أن أكون سعيداً، لكنّني في الحقيقة لم أكن سعيداً. على العكس تماماً، كنتُ أشعر بنفسي أكثر بؤساً من قبل أن يرفعوا راتبي. فكّرتُ أنّني أمرّ بمرحلة سيّئة وحاولتُ ألا أُفكّر بالأمر، لكنّني بعد ثلاثة أشهر لم أعد أستطيع التظاهر بأنّ شيئاً لا يحدث. ساء مزاجي، صرتُ أكثر عنفاً من قبل، أي تُرّهة كانت تُغضبني، بدأتُ أشربُ. هكذا واجهتُ المشكلةَ وجهاً لوجه ووصلت في النهاية إلى استنتاج أنني لم أكن أحبّ أن أصنع نوعاً محدّداً من الفناجين. أؤكّدُ لك أنّني في الليل كنتُ أعاني مثل زنجيّ. كنتُ أُفكّرُ أنّني أُجنُّ وأنّني لا أعرف ماذا أفعل، ولا ما كنتُ أفكّر. ما زالت تُخيفني هذه الأفكار التي فكّرت بها وقت ذاك. وذات يوم واجهت أحد المسؤولين. قلتُ له سئمتُ من صناعة هذه الفناجين التافهة. كان الرجل شخصاً طيّباً. كان اسمه أندي، وكان يُحاول دائماً

أن يُحاوِر العمّال. سألني عمّا إذا كنتُ أحبّ أن أصنع ما كنّا نصنعه من قبل. بالضبط، قلتُ له. هل تتكلّم بجدّ يا ديك؟ سألني. بجدٌ تماماً، أجبته. هل تحتاج منك الفناجين الجديدة جهداً أكبر؟ بطريقةٍ ما، قلتُ له، العمل هو نفسه، لكنّ الفناجين اللعينة لم تكن تجرحني كما تجرحني الآن. ماذا تعني؟، سألني أندي. في السابق لم تكن الفناجينُ ابنةُ العاهرة تجرحني، الآن تُدمّرني في أعماقي. وما الشياطين التي تجعلها مختلفة إلى هذا الحدّ، إضافة إلى أنّها أحدث؟، سأل أندي. بالضبط هذا، أجَبْتُهُ، في السابق لم تكن الفناجين حديثة إلى هذا الحدّ وحتى لو كان قصدها أن تجرحني لم تنجح في ذلك، بالمقابل لم أكن أشعر بوخز إبرها، بالمقابل يبدو الآن أنّ الفناجينَ العاهرة ساموراثوين مسلحون بسيوفهم اللعينة وأنّها تُجنّني.. يعني أنّه كان حديثاً طويلاً -قال المجهولُ- أصغى إليّ المسؤول، لكنّه لم يفهم كلمة واحدة. في اليوم التالي طلبت تصفية أوضاعي وغادرت المعمل. لم أعمل بعدها أبداً. ما رأيك؟

تردّد موريني قبل أن يُجيبَهُ.

أخيراً قال:

- لا أدري.

- هذا ما يقوله كلّ الناس تقريباً: لا يدرون -قال المجهولُ.

- وماذا تعمل الآن؟ -سأله موريني.

- لا شيء، ما عدتُ أعمل، أنا شحّاذ لندنيّ -قال المجهول.

يبدو كأنّه يريني شيئاً سياحيّاً جذّاباً، فكّر موريني، لكنّه حذر من أن يُعبّر عن ذلك صوت عالٍ.

- وأنت ما رأيك بهذا الكتاب؟ -سأل المجهول.

- أيّ كتاب؟ -سأل موريني.

أشار المجهول بإحدى أصابعه الغليظة إلى نسخة دار نشر سِلّيريو، باليرمو، التي كان موريني يمسكها برقّة بيده.

- آه، يدو لي رائعاً -قال.

- اقرأ لي بعضَ الوصفات -قال المجهولُ بنبرة صوتٍ بدت له مُهدِّدة.

- لا أعرف ما إذا كان لديّ وقت -قال-. عليّ أن أذهب إلى موعد مع صديقة.

- ما اسم صديقتك؟ -سأل المجهول بنبرة الصوت ذاتها.

- ليز نورتون -قال موريني.

- ليز، اسم جميل -قال المجهول-. وما هو اسمك أنت، إذا لم يكن في سؤالي لك قلّة أدب؟

- بيرو موريني -قال موريني.

- يا للغرابة -قال المجهول- اسمك يكاد يكون اسمَ مؤلّفِ الكتاب ذاته.

- لا -قال موريني- أنا أدعى بيرو موريني وهو يُدعى أنجِلو مورينو.

- اقرأ لي، إذا كان لا يهمّك على الأقل أسماء بعض الوصفات. أنا سأُغمضُ عينيّ وأتصوّرها.

- طيّب -قال موريني.

أغمض المجهول عينيه وبدأ موريني يقرأ ببطءٍ عناوين من الوصفات المنسوبة لسور خوانا إنِس دي لا كروث:

سمبوسك بالجبن

سمبوسك بالشمندور

سمبوسك الريح

فطائر الفواكه

حلوى صفار البيض

البيض المُهدى

الكريم الحلو

حلوى الجوز

حلوى رأس المسلم

حلوى الشمندر

حلوى الزبدة والسكّر

حلوى بالكريم

حلوى المامي

حين وصل إلى حلوى المامي اعتقد أنّ المجهول نام فراح يبتعد عن الحديقة الإيطالية.

كان اليوم التالي شبيهاً باليوم الأوّل. ذهبت نورتون هذه المرّة لتبحث عنه في الفندق، وبينما كان موريني يدفع الحسابَ وضعت هي حقيبة الإيطاليّ الوحيدة في صندوق أمتعة سيّارتها. حين خرجا إلى الشارع اتبعا الطريق ذاته الذي قاده البارحة إلى هايد بارك.

انتبه موريني ثمّ وراقب بصمت الشوارع ثمّ ظهور الحديقة، التي بدت له مثل فيلم أدغال، سيّئ التلوين، كئيباً، بهيجة، إلى أن انعطفت السيارةُ وضاعت في شوارع أخرى.

تناولوا غداءهم في حيٍّ، كانت نورتون قد اكتشفته، في حي قريب من النهر حيث كان يقوم في السابق معملان وبعض ورشات إصلاح السفن، وحيث تقوم الآن في المساكن المصلحة حوانيت الملابس والأغذية والمطاعم الدارجة. متجر صغير يعادل بأمتاره المربّعة أربعة بيوت عمالية، والمطعم يعادل اثني عشر أو ستّة عشر بيتاً. كان صوت ليز نورتون كان يُطري على الحيّ وعلى جهدَ الناس الذين يعومون به.

فكّر موريني أنّ كلمة يعومون به لم تكن الكلمة المطلوبة، بالرغم من سيمائها البحرية. على العكس، فقد شعر بينما هما يأكلان العقبةَ

بالرغبة بالبكاء مرّةً أخرى، بل والأفضل أن نقول بالإغماء، بأن يترك نفسه يتلاشى، يسقط عن كرسيّه بنعومة، وعيناه ممعنتان في وجه نورتون وألاّ يعود بعدها أبداً إلى وعيه. لكنّ نورتون كانت تحكي قصّةً عن رسّام، هو الأوّل الذي جاء ليعيش في الحيّ.

كان رجلاً شابّاً، في حدود الثالثة والثلاثين من عمره، معروفاً في الجوّ، لكن ليس من يسمى عادة بالمشهور. في الحقيقة جاء ليعيش هنا لأنّ المرسم كان أرخص من أماكن أخرى. في تلك المرحلة لم يكن الحيّ فرحاً كما هو الآن. كان ما يزال فيه بعض العمال الشيوخ يتقاضون مرتباتهم من التأمين الاجتماعي، لكنّه لم يكن فيه شباب ولا أطفال. النساء كن يلمعن بغيابهنّ: إمّا أنّهن متن وإمّا أنهنّ يقضين أوقاتهنّ في بيوتِهِنّ لا يخرجن منها إلى الشارع أبداً. باختصار كان الأمر يتعلّق بمكان موحش ومتدهور. لكن بدا أنّ هذا حفّز خيالَ الرسّام ورغباته بالعمل. وكان هذا أيضاً رجلاً انعزالياً إلى هذا الحدّ أو ذاك. أو أنّه كان يشعر بالراحة في العزلة.

هكذا لم يُخِفْهُ الحيَّ، على العكس عشقه. كان يُحبُّ أن يعودَ ليلاً ويسيرَ في شوارع وشوارع دون أن يلتقي بأحد. كان يُحبُّ لونَ المصابيح والنورَ الذي ينهمر على واجهات البيوت، الظلال التي تتنقّل مع تنقّله. الصباحات بلونها الرماديّ والسُّخام. الناس قليلو الكلام الذين كانوا يجتمعون في البوب، الذي صار من زبائنه. الألم أو ذكرى، الألم الذي امتصّه تماماً شيءٌ لا اسم له وكان يصير عند هذه العملية فراغاً. وعي أنّ هذه المعادلة كان ممكناً: الألم الذي يصير أخيراً فراغاً. وعي أنّ هذه المعادلة كانت قابلة للتطبيق على كلّ شيء أو على كلّ شيءٍ تقريباً.

المسألة أنّه راح يعمل برغبة أعظم من أيّ وقت مضى. أقام بعد عام معرضاً في صالة إمّا واترسون، وهي صالة بديلة لوبينغ، وكان نجاحه هائلاً. دشّن شيئاً سيُعرفُ لاحقاً بـ*الانحطاط الجديد* أو

الحيوانية الإنكليزية. لوحات المعرض التي دَشّنت هذه المدرسة كانت كبيرة، مترين بثلاثة أمتار، وتُظهر بين مزيج الرمادي بقايا غرق حيٍّ. كما لو أنّه حدث بين الرسام والحيّ تكافل تامّ. أي أنّه كان يبدو أحياناً أنَّ الرسام يرسم الحيَّ وأحياناً أخرى أنَّ الحيَّ يرسم الرسامَ بخطوطه الجنائزيّة الوحشيّة. لم تكن اللوحاتُ سيّئةً. لم يكن المعرض لينال النجاحَ ولا الصدى الذي ناله لو لم يكن بسبب اللوحة النجم، الأصغر بكثيرٍ من اللوحات الأخرى، اللوحة المتقنة، التي دفعت بعد سنوات كثيرة بفنّانين بريطانيين كثر في طريق الانحطاطية الجديدة. هذه كانت بقياس مترين بمتر، وإذا ما نُظر إليها جيّداً (وإن لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يكون متأكّدَ من أنّه ينظرُ إليها جيّداً) اختزال للوجه المرسوم ذاتياً (بحسب المكان الذي يتم تأمله منه) وحيث تتدلى في وسطها يد الرسام اليمنى محنّطةً.

حدثت الأحداث بهذه الطريقة: ذات صباح وبعد يومين الانهماك المحموم في رسم لوحات وجهية، قطع الرسامُ يدَه التي يرسم بها. وعلى الفور وضع عصبة على ذراعه وحمل يده إلى مُحنِّطٍ كان يعرفه وكان على اطلاعٍ على العمل الجديد الذي ينتظره. توجّه بعدها إلى المشفى حيث أوقفوا النزف وشرعوا بخياطة الذراع. سأله أحدهم ذات لحظةٍ كيف وقع الحادث. أجاب بأنه قطع دون أن يُريد بينما هو يعمل بضربة ساطور. سأله الأطبّاء وأين اليد المقطوعة، فهناك دائماً إمكانية إعادة زراعتها. فقال إنّه الخاص رمى بها إلى النهر في نوبة غضب خالص وألم.

وبالرغم من أنّ الأسعار كانت مرتفعة بشكل مفرط فقد باع المعرضَ كلّه. كان يُقال إنّ اللوحة الأبرع وأربعاً كبيرة أخرى اقتناها عربيّ كان يعمل في البورصة. بعد وقت قصير جُنّ الفنّان ولم يكن أمام زوجته، إذ كان قد تزوّج، غير أن تُدخله في بيت للراحة في ضواحي لوزان أو مونترو.

ما زال هناك.

بالمقابل بدأ الرسامون يستقرّون في الحيّ. خاصّة لأنّه كان رخيصاً، لكن أيضاً لأنّ أسطورة ذاك الذي رسم اللوحة الذاتية الأكثر جذريّة في السنوات الأخيرة شدَّتهم. وصل بعدهم المهندسون المعماريون ثمّ اشترت بعض الأسر بيوتاً مُعَدّلة ومحوّلة، ثمَّ ظهرت حوانيت الملابس، الورشات المسرحية، المطاعم البديلة، إلى أن تحوّل خِداعاً إلى أكثر الأحياء رخصاً وموضةً في لندن.

- ما رأيك بالقصّة؟

- لا أعرف ماذا أقول -قال موريني.

استمرّت الرغبة بالبكاء أو، في غيابها، الرغبة بالدوخان، لكنّه تحمّلها.

تناولا الشاي في بيت نورتون. في تلك اللحظة وحدها راحت تتكلّم عن إسبينوزا وبيليتير، لكن بطريقة عرضيّة، كما لو أنّ قصّة الفرنسيّ والإسبانيّ، من كثرة معرفتها بها، ليست مهمّة ولا مناسبة بالنسبة لموريني (الذي لم تفتها حالته العصبيّة، وإن لم تسأله عن شيء، هي العارفة بأنّها نادراً ما ستُخفّف بأسئلتها من ضيقه)، ولا حتى بالنسبة إليها.

كان المساءُ لطيفاً. كان موريني، الجالس في كرسيّه، يستطيع من مكانه أن يُقدِّر صالون نورتون بكتبها ولوحاتها المنسوخة المؤطَّرة المعلّقة إلى الجدران البيضاء وبتذكاراتها الغامضة، بإرادتها المعبَّر عنها بأشياء في غاية البساطة، مثل انتقاء الأثاث، حسن الذوق، الدافئ، الخالي من أيِّ بهرجة، حتى برؤيته لجزء من الشارع المشجَّر، الذي لا شكّ أنّ الإنكليزيّةَ كانت تراه كلَّ صباحٍ قبل أن تخرجَ من البيت، كلّ ذلك بدأ يجعله يشعر بتحسّن، كما لو أنّ حضور صديقته المتعدّد يُدثّره،

كما لو أنّ هذا الحضورَ كان أيضاً تأكيداً، كان بالنسبة لكلماته، مثل رضيع، لا يفهمها، لكنّها تريحه.

سألها قبل أن يذهب عن اسم الرسّام الذي سمع قصّته توّاً وعمّا إذا كان عندها كتالوج المعرض السعيد والمريع، اسمه إدوين جونس، قالت نورتون. نهضت بعدها وبحثت في أحد الرفوف المليئة بالكتب. وجدت كتالوجاً ضخماً وناولته إلى الإيطاليّ. سأل نفسه قبل أن يفتحه عما إذا كان يفعل حسناً بإصراره على هذه القصّة، بالضبط الآن وهو يجد نفسه أحسن حالاً. لكنّني سأموت إن لم أفعل، قال لنفسه، وفتح الكتالوج، وأكثر من كتالوج كان كتابَ فنٍّ يُغطّي أو يُحاول أن يُغطّي المسيرة المهنيّة لجونس الذي كانت صورته على الصفحة الأولى، صورة سابقة على بتر يده، تُظهر شابّاً يقارب الخامسة والعشرين من عمره، ينظرُ مباشرة إلى الكاميرا، ويبتسم نصف ابتسامة، يمكن أن تكون ابتسامة خجل أو سخرية. كان شعره داكناً وسبطاً.

- أهديك إيّاه -سمع نورتون تقول.

- شكراً جزيلاً -سمع نفسه يُجيب.

بعد ساعة غادرا معاً إلى المطار وبعد ساعة طار موريني إلى إيطاليا.

في تلك المرحلة نشر ناقدٌ صربيٌّ، كان حتى ذلك الوقت غير ذي أهمّية، مدرّسٌ للغة الألمانية في جامعة بلغراد، مقالاً غريباً، في المجلّة التي كان يُشجّعها بيليتير، يذكر بطريقةٍ ما اللُّقى الصغيرة التي أعطاها للمطبعة ناقدٌ فرنسيٌّ قبل سنوات كثيرة عن المركيز دو ساد والمكوّنة من عيّنات مصوّرة لأوراق متفرّقة، كانت توثّقُ مبهم مرورَ المركيز الإلهي بمصبغة، ملاحظاتٍ عن علاقته برجل من المسرح، وصفات طبيبٍ تتضمّنُ أسماء الأدوية الموصوفة، وفاتورة صدرية مُكَسّمة يُفصّل فيها عدد الأزرار واللون، إلخ. كلها مزودة بكمّ من الملاحظات التي لا

يُستنتج منها استنتاج واحد فقط: وُجد ساد، ساد غسل ملابسه واشترى ملابس جديدة وتراسل مع أشخاص محاهم الزمن نهائياً.

بدا له نصُّ الصربيّ عظيماً. الشخص الذي تتبَّع آثاره، في هذه الحالة، لم يكن ساد، بل أرشيمبولدي، ويتكوّن مقاله من بحثٍ دقيق وفي آن معاً مخيّبٍ، يبدأ من ألمانيا، ويستمرّ في فرنسا، سويسرا، إيطاليا، اليونان، ثمّ مرةً أخرى في إيطاليا، وينتهي في وكالة سفرٍ في باليرمو، حيثُ يشتري أرشيمبولدي كما يبدو بطاقة طائرة متجهة إلى مراكش، عجوز ألماني، يقولُ الصربيّ. كلمتا عجوز وألمانيّ تستخدمان دون تمييز كعِصِيّ سحرية للكشف عن سرٍّ وفي الوقت ذاته كمثلٍ للأدب النقديّ المحدّد جدّاً، أدب ليس تأمّلياً، أدب بلا أفكار، بلا شكوك، بلا ادعاءات، ليس مع ولا ضدّ، فقط عَيْنٌ تبحث عن العناصر الملموسة، ولا يحكم عليها، بل يعرضها ببرودة، بنية الأوراق المصوّرة، بنية الآلة الناسخة.

بدا النصُّ بالنسبة إلى بيليتير مثيراً للفضول. أرسل قبل أن ينشره، نسخاً منه إلى إسبينوزا وموريني ونورتون. قال إسبينوزا إنّ ذلك يمكن أن يقودَ إلى شيء، وإن بدا له العمل والكتابة بتلك الطريقة عمل فأر مكتبات، مرؤوس لمرؤوس، كان يعتقد، وهكذا قاله، وأنّ من الحسن أن يكون عند الموجة الأرشيمبولدية هذا النوع من المُتعصّبين من دون أفكار. نورتون قالت إنّها دائماً كان عندها حدث (أنثوي) بأنّ أرشيمبولدي سينتهي به الأمر عاجلاً أو آجلاً في مكان ما من المغرب، وأنّ الشيء الوحيد المهمّ في نصّ الصربي هو أنَّ البطاقة حُجزت باسم بِنّو فون أرشيمبولدي، قبل أسبوعٍ من أن تبدأ الطائرةُ الإيطالية رحلتها إلى الرباط. نستطيع بدءاً من الآن أن نتصوّره ضائعاً في كهف من كهوف جبال الأطلس، على العكس موريني لم يقل شيئاً.

بالوصول إلى هذه النقطة من الضروري أن نوضّح شيئاً من أجل حسن أو سوء فهم النص. صحيح أنّه كان هناك حجز باسم بِنّو فون أرشيمبولدي. لكنَّ هذا الحجز لم يُجسَّد وفي ساعة المغادرة لم يظهر أيّ بِنّو فون أرشيمبولدي في المطار. بالنسبة إلى الصربيّ، كان الأمر أوضح من الماء. بالفعل قام أرشيمبولدي بالحجز شخصيّاً. نستطيع أن نتخيَّله في فندقه، ربّما قلقاً من شيء، ربّما سكران، بل ويمكن تصوّره نصف نائم، في الساعة الجهنّمية التي لا تخلو من بعض الرائحة المثيرة للغثيان، متكلّماً مع فتاة أليطاليا وميّناً أنّه أخطأ وأعطى لقه بدل اسمه الوارد في جواز سفره. الخطأ الذي سيتداركه في اليوم التالي ذاهباً إلى مكتب الطيران ويشتري بطاقةً باسمه الحقيقيّ. هذا يفسّر غياب شخص يدعى أرشيمبولدي من رحلة مراكش. طبعاً هناك احتمالات أخرى: أنّه في الساعة الأخيرة عد أن فكّر بالأمر حرّتين (أو أربع مرّات) قرّر أرشيمبولدي ألّا يشرع بالرحلة أو أنّه قرّر في الساعة الأخيرة أن يسافر، لكن ليس إلى مراكش، ل إلى الولايات المتحدة مثلاً، أو أنّ كلّ شيء لم يكن سوى مزحة أو سوءَ فهم.

في نصّ الصربيّ يوصَفُ أرشيمبولدي جسديّاً. كان من السهل تقدير أنّ مصدرَ الوصفِ تصويرُ المرشد الثقافي أرشيمبولدي. في تصوير المرشد الثقافي كان أرشيمبولدي كاتباً شاباً من كتاب ما بعد الحرب. الشيء الوحيد الذي قام به الصربيّ هو أنّه أشاخ هذا الشاب نفسه الذي ظهر في فريسيا عام ١٩٤٩، وعنده كتاب وحيد مطبوع، محوّلاً إيّاه إلى شيخ في الخامسة والسبعين أو الثمانين منه عمره وخلفه لائحة كتب طويلة، وإن كان أساساً بالصفات ذاتها، كما لو أنّ أرشيمبولدي بعكس ما يحدث لغالبية الأشخاص، ما يزال هو نفسه. كاتبنا، بالحكم عليه من عمله، وهل من مجال للشكّ، يقول الصربيّ، رجل عنيد، عنيد مثل بغل، عنيد مثل صفيقات الجلد، وإذا كان في أكثر ساعات أحدِ مساءات صقلية كآبة، ارتأى أن يُسافر إلى مراكش،

وإن كان قد ارتكب خطأ أنّه لم يحجز باسمه القانوني بل باسم أرشيمبولدي، فلا شيء يجعلنا نأمل ألا يُغيِّر في اليوم التالي فكرته ويتوجّه شخصيّاً إلى وكالة السفر ويشتري بطاقة هذه المرّة باسمه القانوني وبجواز سفره الشرعي ويُسافر كواحد من آلاف العجائز والعزّاب الألمان الذين يعبرون يومياً وحيدين السماواتِ في طريقهم إلى أيّ بلدٍ من شمال أفريقيا.

عجوز وأعزب، فكَّرَ بيليتير. واحد آخر من آلاف العجائز والعزّاب الألمان، مثل الآلة العازبة. مثل العانِس الذي يشيخ فجأة أو مثل العانِس الذي حين يعود سرعة الضوء ويجد العنَّسَ الآخرين قد شاخوا، أو صاروا تماثيل من ملح. آلاف، مئات الآلاف من الآلات العازبة تعبر يوميّاً بحراً من سائل السلى، في أليطاليا، وهو يأكل سباغيتي بالندورة ويشرب نبذ شيانتي أو ليكور التفاح، بعينين شبه مُغمَضتين، ويقين أنّ جنّة المتقاعدين ليست في إيطاليا (والتالي لا يمكن أن تكون في أيّ مكان من أوروبا) ويطير إلى مطارات أفريقيا أو أمريكا الفوضوية حيث تستلقي الفيلة. إلى المقابر الكبيرة بسرعة الضوء. لا أعرف لماذا أُفكّر بهذا، فكَّرَ بيليتير. بقع على الجدار وبقع على اليدين. صربيٌّ الخراء اللعين.

في النهاية اضطرّ إسبينوزا وبيليتير أن يعترفا، بعد أن نُشر المقال بأنّ موضوع الصربيّ تنقصه المصداقية. يجب القيام ببحث، نقدٍ أدبيّ، دراسات تفسير، منشورات دعائيّة، إذا تطلّبت الحالة ذلك، لكن ليس هذا الهجين بين الخيال العلمي والرواية السوداء غير المنتهية، قال إسبينوزا، وكان بيليتير متفقاً بكلّ شيء مع صديقه.

في تلك الأيّام، بدايات ١٩٩٧ عاشت نورتون رغبةً بالتغيير. أن

تحصل على إجازة. تزور أيرلندا أو نيويورك. أن تبتعد نهائيّاً عن إسبينوزا وبيليتير. تواعدت معهما في لندن. حدس بيليتير بطريقة ما بأن لا شيء خطير أو بالأحرى لا شيء لا يمكن التراجع عنه يحدث وذهب إلى الموعد مطمئناً، مستعدّاً لأن يسمع ويتكلّم قليلاً. إسبينوزا بعكسه، خاف الأسوأ (نورتون واعدتهما كي تقول لهما إنّها تُفضّل بيليتير، لكنّها تؤكّد له بأن صداقتهما ستستمرّ دون مساس، بل ويمكن أن تكون قد دعته كعرّاب لعرسهما الوشيك).

أوّل من ظهر في شقّة نورتون كان بيليتير. سألها عما إذا كان يحدثُ شيءٌ خطير. قالت له نورتون إنّها تُفَضّل أن تتكلّم بالمسألة حين يصلُ إسبينوزا وهكذا ستوفّر على نفسها تكرارَ الخطاب مرّتين. وبما أنّه لم يكن هناك شيء أهم يقولونه تكلّما عن الطقس. لم يتأخّر بيليتير في التمرّد وتغيير الموضوع. عندها راحت نورتون تتكلّم عن أرشيمبولدي. وَتَّرَ الموضوعُ الجديد بيليتير تقريباً. عاد ليُفكّر بالصربيّ. عاد ليُفكّر بذلك الكاتب المسكين، العجوز والمتوحّد وربّما الكارهِ للبشر (أرشيمبولدي)، عاد ليُفَكّر بسنوات عمره الضائعة ذاتها حتى ظهرت نورتون.

تأخّر إسبينوزا. الحياة كلّها خراء، فكّر بيليتير باندهاش. ثمّ: لولا أنّنا شكّلنا فريقاً لكانت لي الآن. ثمّ وبعد قليل: لو لم يكن هناك ألفة وصداقة وأرواح تُوَأم وتحالف لما كنتُ تعرّفت عليها. و: يمكن أن أكون قد تعرّفت عليها نظراً لأنّ اهتماماتنا الأرشيمبولدية كانت فردية ولم تولد من مجموع صداقتنا. و: يمكن أن تكون قد كرهتني، وأنّها وجدتني مُتحذلقاً، بارداً أكثر من اللازم، متعجرفاً، نرجسيّاً، مثقّفاً نابِذاً، أضحكه مصطلح مثقّف نابِذ. تأخّر إسبينوزا. بدت نورتون في غاية الطمأنينة. في الحقيقة بيليتير أيضاً بدا مطمئناً جدّاً. لكنّه كان أبعد ما يكون عن ذلك .

قالت نورتون إنّ من الطبيعي أن يصل إسبينوزا متأخّراً. الطائرات

تعاني من التأخّر، قالت. تصوّر بيليتير طائرة إسبينوزا تلفها النيران وهي تهوي فوق مَدْرَجٍ من مدرجات مطار مدريد وصوت إرتطام الحديد المعوجّ.

- ربّما علينا أن نُشعلَ التلفاز - قال.

نظرت إليه نورتون وابتسمت. أنا لا أُشعل التلفاز أبداً، قالت مبتسمة، مستغربة أنّ بيليتير لا يعرف ذلك بعد. طبعاً بيليتير كان يعرفُ. لكنّه لم يملك ما يكفي من الشجاعة كي يقول: دعينا نرَى الأخبار، نرى ما إذا كانت ستظهر على الشاشة طائرة تعرّضت لكارثة.

- هل أستطيع أن أُشعله؟ - سأل.

- طبعاً - قالت نورتون، وبينما كان بيليتير ينحني فوق أزرار الجهاز رآها من طرف عينه، وضّاءة، طبيعيّة تُعدُّ فنجانَ شاي أو تتحرّك من غرفة إلى أخرى واضعةً كتاباً أرته إيّاه توّاً في مكانه، رادّة على مكالمة هاتفيّة لم تكن من إسبينوزا.

أشعل التلفاز. مرَّ على مختلف القنوات. رأى شخصاً ملتحياً ومرتدياً ملابس فقيرة. رأى مجموعة من الزنوج يسيرون في طريق ترابي. رأى سيّدين يرتديان طقمين وربطتي عنق يتكلمان بهدوء وقد وضعا ساقاً على ساق، كلاهما ينظر من حين إلى آخر إلى خريطة كانت تظهر وتختفي خلفهما. رأى سيّدةً بدينةً تقول: بُنَيّة... معمل... اجتماع... لا مفرّ، ثمّ تبتسمُ نصفَ ابتسامة وتخفض نظرها. رأى وجه وزير بلجيكيّ. رأى بقايا طائرة يصعد منها الدخان في جانب من مَدرج هبوط، محاطة بسيارات الإسعاف وسيارات الإطفاء. نادى نورتون صارخاً. هذه كانت ما تزال تتكلّم بالهاتف.

طائرة إسبينوزا انفجرت، قال بيليتير دون أن يعود ليرفع صوته ونورتون بدل أن تنظر إلى شاشة التلفاز نظرت إليه. كفتها ثوانٍ قليلة كي تنتبه إلى أنّ الطائرة المشتعلة ليست إسبانية، وكان باستطاعتها أن تُميِّز

إلى جانب رجال الإطفاء وفرق الإنقاذ ركّاباً يبتعدون، بعضهم يعرج، وآخرين تغطّوا بالبطانيات وجوهاً بدّلها الخوف أو الرعب، لكنّها سالمة ظاهرياً.

بعد عشرين دقيقة وصل إسبينوزا وحكت له نورتون أنّ بيليتير ظنّ أنّه كان يُسافر في الطائرة المنكوبة. ضحك إسبينوزا لكنّه نظر إلى بيليتير بطريقة غريبةٍ مرّت دون أن تنتبه إليها نورتون، لكنّ بيليتير التقطها في اللحظة. كان الطعام فيما عدا ذلك حزيناً، بالرغم من أنّ موقف نورتون كان عاديّاً تماماً كما لو أنّها التقت بهما مصادفةً ولم تجعلهما يحضران إلى لندن عمداً. ما كان عليها أن تقوله حدسا به قبل أن تقول شيئاً. نورتون تريد أن تقطع، على الأقل لفترة من الزمن، العلاقةَ الغرامية التي كانت تقيمها معهما.

السبب الذي قدّمته هو أنّها كانت بحاجة لأن تُفكّر وتُركّز، ثمّ قالت إنّها لا تريد أن تقطع الصداقة مع أيّ منهما. كان هذا كلّ شيء.

قبل إسبينوزا توضيحات نورتون دون أن يسأل أيَّ سؤال. على العكس من بيليتر، الذي كان يودّ أن يسألها عمّا إذا كان لزوجها السابق علاقة بهذا القرار، لكنّه فضّل أمام مثال إسبينوزا أن يسكت. خرجا بعد الطعام في سيّارة نورتون ليتنزّهوا في لندن. أصرّ بيليتير على الجلوس في المقعد الخلفيّ، إلى أن رأى بريقاً ساخراً في عيني نورتون، وعندها قبل أن يجلس في أيّ مكان، وكان بالضبط المقعد الخلفي.

قالت لهما نورتون بينما كانت تسوق في شارع كرومويل ربّما كان الأنسب في تلك الليلة أن تنام مع الاثنين. ضحك إسبينوزا وقال شيئاً أراده أن يكون ظريفاً، استمراراً للمزحة، لكنّ بيليتير لم يكن واثقاً من أنّ نورتون تمزحُ بل وكان أقل ثقة بأنّه كان جاهزاً للمشاركة في العملية الثلاثية. ذهبوا بعدها لينتظروا غروبَ الشمس بالقرب من تمثال بيتر بان في كينسنغتون غاردنز. جلسوا بجانب شجرة بلوط ضخمة، المكان المُفضَّل بالنسبة إلى نورتون، التي كانت منذ طفولتها تشعر بجاذبية ذلك

المكان، رأوا في البداية بعض الأشخاص مستلقين على العشب، لكنّ ما حولهم راح يفرغ. كان الناس يمرّون مثنىً أو تمرّ نساء وحدهنّ أنيقات اللباس، مسرعاتٍ اتجاه صالة سربنتين غاليري أو ألبرت ميموريال وبالاتجاه المعاكس يمرُّ رجال يحملون صحفاً مجعّدة أو أمّهات يجررن عربات أطفالهنّ يتوجّهون إلى بايزووتر رود.

عندما بدأت العتمةُ تنتشر رأوا زوجاً من الشباب يتكلّمان الإسبانية وراحا يقتربان من تمثال بيتر بان. كانت المرأة سوداء الشعر جميلة جدّاً ومدّت يدها كما لو أنّها تريد أن تلمس رِجْلَ بيتر بان. كان الرجل الذي كان طويلاً وله لحية وشارب وأخرج من جيب دفتراً وسجّل فيه شيئاً. ثمّ قال بصوت عالٍ:

- كينسنغتون غاردِنز.

ما عادت المرأةُ تنظر إلى التمثال بل إلى البحيرة أو بالأحرى إلى شيءٍ كان يتحرّكُ بين الأعشاب والهشيم الذي يفصل الطريقَ الضيقَ عن البحيرة.

- ما لذي تنظر إليه؟ -سألت نورتون بالألمانية.

- تبدو أفعى -قال إسبينوزا.

- هنا لا توجدُ أفاعٍ! -قالت نورتون.

عندها نادت المرأةُ الرجلَ: يا رودريغو، تعال وانظر هذا، قالت. لا يبدو أنّ الشابَّ سمعها. كان قد خبّأ الدفتر في جيب من جيوب سترته الجلدية وراح يتأمّلُ تمثالَ بيتر بان بصمت. انحنت المرأة فزحف شيء من تحت الأوراق باتجاه البحيرة.

- بالفعل يبدو أنّها أفعى -قال بيليتير.

- هذا ما قلتُهُ -قال إسبينوزا.

لم ترد نورتون عليهما لكنّا نهضت على قدميها لترى بشكلٍ أفضل.

في تلك الليلة نام بيليتير وإسبينوزا ساعاتٍ قليلة في صالون بيت نورتون. بالرغم من أنّ الأريكة-السرير والسجادة كانتا تحت تصرّفهما، لم يكن هناك من طريقة يتصالحان فيها مع النوم. حاول بيليتير أن يوضّح لإسبينوزا موضوعَ الطائرة المنكوبة، لكنّ إسبينوزا قال له لا حاجة لأنّ يوضّح له شيئاً، وإنّه يَفْهَمُ كلَّ شيء.

في الرابعة صباحاً وبقرار مشترك أشعلا النور وراحا يقرأان، فتح بيليتير كتاباً عن أعمال بيرت موريسو، المرأة الأولى التي انتمت إلى مجموعة الانطباعيين، لكن سرعان ما انتابته رغبة بأن يُحطّم رأسه على الحائط. إسبينوزا على العكس منه أخرج من كيس سفره *الرأس*، آخر رواية نشرها أرشيمبولدي وراح يراجع الملاحظات التي سبق وكتبها على هوامش الصفحات وكانت تشكل نواة دراسة يُفكّر أن ينشرها في المجلّة التي يُديرها بورشامير.

فرضيّة إسبينوزا، الفرضية التي يشاطره بها بيليتير، هي أنّ أرشيمولدي يغلق بهذه الرواية مغامرته الأدبية. بعد *الرأس*، كان إسبينوزا يقول- لا يوجد شيء آخر لِأرشيمبولدي في سوق الكتاب، الرأي الذي كان يعتبره دارس آخر مشهور لِأرشيمبولدي، هو ديتر هيلفيلد مجازفاً أكثر من اللازم، مرتكزاً فقط على عمر الكاتب، فالشيء ذاته قيل عن أرشيمبولدي حين نشر هذا *كمال السكة الحديدية*، بل وقالوا الشيء ذاته بعضُ أساتذة برلين حين ظهرت *بيتزيوس*. في الخامسة صباحاً أخذ بيليتير حمّاماً وحضّر بعدها قهوة. في السادسة كان إسبينوزا نائماً من جديد لكنّه عاد ليستيقظ في السادسة والنصف بمزاج كلب. في السابعة إلاّ الربع هتفا لسيارة أجرة ورتّبا الصالون.

كتب إسبينوزا رسالة وداع. نظر إليها بيليتير عبوراً ثمّ وبعد أن فكّر بضعةَ ثوانٍ قرّرَ أن يكتب أيضاً رسالة وداع. سأل إسبينوزا قبل أن يُغادرا عما إذا لم يكن يريد أن يأخذ حمّاماً. سأستحمُّ في مدريد، أجاب الإسباني. الماء هناك أفضل. صحيح، أجابه بيليتير، مع

أنّ جوابَهُ بدا له سخيفاً ومصالِحاً. ذهبا بعدها إلى المطار دون أن يحدثا ضجّة، وتناولا إفطارهما في المطار كما فعلا ذلك مرّاتٍ أُخرى كثيرة.

بينما كانت الطائرة تُقلّ بيليتير عائدةً به إلى باريس، راح هذا يُفكّر بشكل غير مفهوم بالكتاب الذي يتناول أعمال بيرت موريسو الذي أراد في الليلة الماضية أن يفجّره على الجدار. لماذا؟ سأل بيليتير نفسه. ألم تكن بيرت موريسو تُعجبه أو ما يمكن أن تكون قد مثّلته هذه في لحظة معيّنة؟ في الحقيقة كان بيرت موريسو يُعجبه. فجأة انتبه إلى أنّ ذلك الكتاب لم تشترِهِ نورتون بل هو، وإلى أنّه هو من سافر من باريس إلى لندن ومعه الكتاب ملفوفاً بورق الهدايا، وإلى أنّ اللوحات المنسوخة لبيرت موريسو التي رأتها نورتون في حياتها كانت تلك التي ظهرت في ذلك الكتاب وبيليتير إلى جانبها يُداعب نقرتها ويُعَلّق على كلّ لوحة من لوحات بيرت موريسو. هل كان نادماً لأنّه أهداها ذلك الكتاب؟ لا، طبعاً لا. هل للرسامة الانطباعية علاقة ما بانفصاله؟ تلك كانت فكرة مضحكة. لماذا أراد إذن أن يُفجّر الكتابَ على الجدار؟ بل وأهم من ذلك: لماذا كان يُفكّر بِبيرت موريسو وبالكتاب وبنقرةِ نورتون وليس بالاحتمال الأكيد للممارسة الثلاثية التي انتصبت في تلك الليلة في شقّة الإنكليزية مثل ساحر هندي يعوي دون أن تصل التنفيذ أبداً؟

بينما كانت الطائرة تقلّ إسبينوزا عائدة به إلى مدريد كان هذا على العكس من بيليتير يُفكّر بما كان يعتقد أنّها آخر رواية لِأرشيمبولدي، وبأنّه إذا كان على حقٍّ، كما كان يظنّ، لن يكون هناك بعد الآن روايات جديدة لِأرشيمبولدي، بكلّ ما يعنيه هذا من معنى، كما فكّر أيضاً بطائرة مشتعلة وبرغبات بيليتير الخفيّة (عصريّ جدّاً اللوطي ابن العاهرة، لكن فقط حين يُناسبه)، وكان من حين لآخر، عندما كان ينظر

من نافذة الطائرة ويلقي نظرة على المحرّكات، يموتُ رغبة لأنّ يكون في مدريد.

بقي بيليتير وإسبينوزا وقتاً لا يتهاتفان فيه. كان بيليتير يهتف لِنورتون من حين لآخر، مع أنّ المكالمات مع نورتون كانت في كلّ مرّة أكثر، كيف سأعبّر عنه؟ تصنّعاً، كما لو أنّ العلاقة تقوم فقط على الآداب العامّة، وكثيراً ما كان، كما في السابق، يهتف إلى موريني، الذي لم يتغيّر معه شيء.

الشيء ذاته كان يحدث لِإسبينوزا، وإن كان هذا قد تأخّر أكثر قليلاً في الانتباه إلى أنّ ما طرحته نورتون كان جدّياً. بالطبع موريني أحسَّ بأنّ شيئاً ما قد حدث مع أصدقائه، لكنّه فضَّلَ، تعقّلاً منه أو تكاسلاً، تكاسلاً ثقيلاً وفي الوقت ذاته مؤلماً كان يضغط عليه أحياناً، ألا يبدو أنّه يعرف، الموقف الذي شكره عليه بيليتير وإسبينوزا.

حتى بورشماير، الذي كان يخشى بطريقة ما الثنائي الذي كان يُشكّله الإسباني والفرنسيّ، لاحظ شيئاً جديداً في المراسلة التي يقيمها معهما، تلميحات مستورة، استدراكات خفيفة، شكوك صغيرة، لكنّها بليغة جدّاً بالنسبة إليهما، بالمنهج المشترك بينهما حتى تلك اللحظة.

جاءت بعدها ندوةُ الدارسين الجرمانيين في برلين، مؤتمرُ الأدب الألماني في القرن العشرين في ستوتغارت، ندوةُ الأدب الألماني في هامبورغ ولقاءٌ حول مستقبل الأدب الألماني في ماينز. حضرت نورتون وموريني وبيليتير وإسبينوزا ندوةَ برلين، لكن لهذا السبب أو ذاك استطاعوا فقط أن يلتقوا مرّة واحدة خلال فطور واحد، ثمّ إنّهم كانوا محاطين بمختصين آخرين بالجرمانية كانوا يُصارعون بقوّة من أجل الزبدة والمربّى، حضر المؤتمرَ بيليتير وإسبينوزا ونورتون، وبالرغم من أنّ بيليتير استطاع أن يتكلّم مع نورتون على انفراد (بينما كان إسبينوزا

يتبادل وجهات نظرٍ مع شوارز) إلا أنّ بيليتير غادر مع ديتير هيلفيلد بحشمة حين جاء دور إسبينوزا بالكلام مع نورتون.

لاحظت نورتون أن صديقيها لا يريدان هذه المرّة أن يتكلّما فيما بينهما، وأحياناً ألا يرى أحدهما الآخر، وهو ما لم يمر دون أن يؤثّر بها فهي بطريقة ما كانت تشعر بالمسؤولية عن الجفاء القائم بينهما.

أمّا الندوة فلم يحضرها غير إسبينوزا وموريني، وحاولا ألا يُصابا بالسأم وبما أنّهما كانا في هامبورغ فقد ذهبا لزيارة دار بوبيس للنشر وأكملا إلى شنيل، لكنّهما لم يستطيعا أن يريا السيّدة بوبيس، التي اشتريا لها باقة ورد، فهذه كانت في رحلة إلى موسكو. لا أدري من أين تُخرج هذه المرأة كلَّ هذه الحيويّة، قال لهما شنيل، ثمَّ أطلق ضحكة بدت لِإسبينوزا وموريني فاحشة. سلّما قبل أن يُغادرا الورودَ إلى شنيل.

بالنسبة إلى الملتقى الملتقى حضر فلم غير بيليتير وإسبينوزا ولم يبق أمامهما هذه المرّة غير أن يتواجها ويضعا الأوراق فوق الطاولة. في البداية كما هو طبيعي حاول الاثنان أن يتفادى أحدهما الآخر بطريقة مهذّبة في أغلب المرّات، أو بطريقة فظّة في مرّات معدودات، لكن في النهاية لم يبقَ أمامهما من وسيلة غير أن يتكلّما. تمّ ذلك في بار الفندق، في ساعات متقدّمة من الليل، حين لم يبقَ غير نادِلٍ واحدٍ، أفتى النُدُلِ، وكان فتى طويلاً أشقر ووسنان.

كان بيليتير جالساً في طرف وإسبينوزا في آخر. بدأ البار بعدها يَفرغ تدريجيّاً وحين لم يعد هناك غيرهما نهضَ الفرنسيُّ وجلس بجانب الإسبانيّ. حاولا أن يتكلّما عن الملتقى، لكنّهما انتبها إلى أنه سيكون من المضحك أن يتقدّما أو يتظاهرا بأنّهما يتقدّمان في هذا الاتجاه. كان بيليتير، أبرع في فنّ الاقتراب واالمُسارّات، هو من خطى الخطوة الأولى. سأل عن نورتون. اعترف إسبينوزا أنّه لا يعرف عنها شيئاً. ثمّ قال إنّه يهتف إليها أحياناً وكان كمن يتكلّم مع مجهولة. هذه الكلمة

الأخير أدخلها بيليتير، لأنّ إسبينوزا، الذي كان أحياناً يُعبّر من خلال اختزالات غير مفهومة، لم يصف نورتون بالمجهولة بل ذكر كلمة مشغولة ثم غائبة. رافقهم هاتف شقّة نورتون برهةً في حديثهما، هاتف أبيض تمسك بسماعته البيضاء اليدُ البيضاء، ساعدُ مجهولةٍ أبيضُ. لكنّها لم تكن مجهولة. بالقدر الذي نامامعها. إيهِ، أيتها الغزالة البيضاء، الغُزَيلة اليضاء، أيتها الغزالة البيضاء، همس إسبينوزا. ظنّ بيليتير أنّه يستحضر شاعراً كلاسيكيّاً، لكنّه لم يدلِ بأيّ تعليق، وسأل عمّا إذا كانا سيتحوّلان إلى عدوّين مطلقين. بدا أنّ السؤال فاجأ إسبينوزا، كما لو أنّه لم يُفكّر قط بهذا الاحتمال.

- هذا غير معقول، يا جان-كلود - قال بالرغم من أنّ بيليتير لاحظ أنّه قالها بعد أن فكّر بها طويلاً.

أنهيا ليلهما سكرانين واضطُرّ النادلُ الشابُّ إلى أن يُساعدهما على مغادرة البار. كان بيليتير يتذكّرُ من نهاية تلك السهرة على وجه الخصوص قوّةَ النادل، الذي حملهما كلّاً من جانب حتى مصعد اللوبي، كما لو أنّهما هو وإسبينوزا، مراهقان لا يتجاوز عمرهما الخامسة عشرة، مراهقان هزيلان محتبلان بين الذراعين الجبّارين لذلك النادل الألماني الشاب الذي يبقى حتى آخر ساعة، بعد أن يكون جميع النُدُل القدامى قد غادروا إلى بيوتهم، فتى ريفيّ بالحكم عليه من وجهه وبنيته الجسدية، أو عامل، كذلك كان يتذكّر شيئاً شبيهاً بالهمس انتبه بعدها إلى أنّه كان نوعاً من الضحك، ضحكة إسبينوزا الرصينة، كما لو أنّ الوضع لم يكن مضحكاً وحسب بل وأيضاً صمّام أمان لأحزانه المكبوتة.

وذات يوم، كان قد مضى عليهما أكثر من ثلاثة أشهر دون أن يزورا نورتون، هتف واحدٌ منهما للآخر واقترح عليه نهايةَ أسبوع في لندن. لا يُعرف ما إذا كان بيليتير أم إسبينوزا هو الذي هتف. نظريّاً صاحب المكالمة يجب أن يكون من لديه شعور أعلى بالوفاء، أو الذي

لديه شعور أعلى بالصداقة، كلاهما في الجوهر شيء واحد، لكن الحقيقة هي أنّه لا بيليتير ولا إسبينوزا كان لديهما فكرة كبير جدّا عن هذه الفضيلة. كلاميّاً، من المفروغ منه أنّهما كانا يقبلانها، وإن كان باختلافات طفيفة. عمليّاً على العكس ما من واحدٍ منهما كان يؤمن بالصداقة ولا بالوفاء. كانا يؤمنان بالعاطفة، بمزيج من السعادة الاجتماعية أو العامّة -كلاهما كان يصوّت للاشتراكيين، وإن كانا من حين لآخر يمتنعان عن التصويت-، كانوا يؤمنان بإمكانيّة تحقيق الذات ذاتياً.

لكن الصحيح هو أنّ أحدهما هتف للآخر والآخر قبل والتقيا ذات جمعة في مطار لندن من حيث أخذا سيّارة أجرة أقلّتهما أولاً إلى الفندق ثم أخذا أخرى، عندما اقتربت ساعة العشاء (كانا قد حجزا طاولة لثلاثة أشخاص في جان أند كلو) إلى شقّة نورتون.

من الرصيف تأمّلا، بعد أن دفعا للسائق الأجرةَ، النوافذ المضاءة. رأيا بعدها بينما سيارةُ الأجرة تبتعد، ظلَّ ليز، الظلَّ المعبود، بعدها داهم إعلانَ الفوطِ الصحّية ظلٌّ رجل، كأنّه هبّة هواء منتن، فَشَلَّهُما، في يد إسبينوزا باقة ورد وفي يد بيليتير كتاب لسير جاكوب ملفوف بورق هدايا ناعم جدّاً. لكنَّ مسرحَ خيالِ الظلّ الأثيري لم ينتهِ هناك. حرّكت نورتون ذراعيها، كما لو أنّها تُحاول أن تشرح شيئاً لا يُريدُ مُحاوِرُها أن يفهمه. في النافذة الأخرى، قام ظلُّ الرجلِ، ولهول المُتَفَرِّجَيْن الوحيدَيْن المذهولين، بحركةِ هولا هوب أو بشيءٍ بدا لِبيليتير ولِإسبينوزا حركةَ هولا هوب، حرّكَ أولاً وركَيْهِ، ثمّ ساقيهِ وجذعَهُ، ورقبته أيضاً!، حركة تشي بالتهكّم والسخرية، إلاّ إذا كان الرجلُ يتعرّى أو يذوبُ خلف الستائر، وهو حقيقة ما لم تكن يبدو أنّها حالته، حركة أو بالأحرى سلسلة حركاتٍ تُظهر ليس تهكّماً وحسب، بل وخبثاً، اطمئناناً وخبثاً، اطمئناناً واضحاً، ففي الشقّة كان الأقوى، الأطولَ، الأفتلَ عضلاتٍ والذي يستطيع أن يلعب هولا-هوب.

ومع ذلك كان في وضعيّةٍ ظلُّ ليز شيءٌ غريب. لم تكن الإنكليزيّة، إلى الحدّ الذي كانا يعرفانها ويعتقدان أنّهما يعرفانها، لتسمح بحركات صلف، خاصّة أن يحدث هذا في بيتها. قرّرا بما يتسع له الاحتمال أنّ خيالَ الرجل لم يكن في النهاية يلعب هولا-هوب، كما لم يكن يشتمُ ليز، بل بالأحرى كان يضحكُ، وليس منها بل معها. لم يكن يبدو أنّ ظلَّ ليز يضحكُ. بعدها اختفى ظلُّ الرجلِ. ربّما اقترب لينظر إلى الكتب، ربّما ذهب إلى الحمّام أو إلى المطبخ. ربّما ارتمى على الأريكة وهو ما زال يضحك. بعدها اقترب ظلُّ ليز من النافذة، بدا أنّه يصغرُ، ثمّ أزاحَ الستائرَ جانباً وفتح النافذة، مُغمضَ العينين، كما لو أنّه يحتاج ليستنشق هواءَ ليلِ لندن، ثمّ فتح عينيه ونظر إلى الأسفل، إلى الهاوية ورآهما.

حيّياها كما لو أنّ سيارة الأجرة تركتهما توّاً هناك. هزَّ إسبينوزا باقة الأزهار في الهواء، وبيليتير بكتابه، ثمّ ودون أن يبقيا ليريا وجه نورتون المرتبك، توجّها إلى مدخل البناء وانتظرا أن تفتح لهما ليز الباب.

اعتبرا أنّ كلّ شيء قد ضاع. بينما هما يصعدان الدرج، دون أن يتكلّما، سمعا كما لو أنَّ باباً يُفتح ومع أنّهما لم يريا، إلاّ أنّهما حدسا بحضور نورتون المشعّ في بسطة الدرج. كانت تنتشر في الشقّة رائحة تبغ هولنديّ. نظرت نورتون إليهما، وهي مستندة إلى نجران الباب، كما لو أنّهما صديقان ميتان منذ زمن بعيد، وعاد شبحاهما من البحر. كان الرجلُ الذي ينتظرهما في الصالون أصغرَ منهما، ربّما كان رجلاً ولد في السبعينات، في أواسط السبعينات وليس في الستينات. كان يرتدي كنزةً عالية القَبّة وإن بدا أن القبّةَ انكمشت، وبنطلون جينز أزرق حائل اللون، وحذاء رياضياً. كان يوحي بأنّه طالبُ نورتون، أو أستاذٌ احتياطيّ.

قالت نورتون إنّه يُدعى أليكس بريتشارد. صديق. شدّ بيليتير وإسبينوزا على يده وابتسما، حتى وهما يعلمان أنّ ابتسامتهما مؤسفة. بريتشارد على العكس منهما لم يبتسم. بعد دقيقتين كانوا جميعاً يجلسون في الصالون يحتسون الويسكي ودون كلام. جلس بريتشارد، الذي كان يشربُ عصيرَ برتقال، بجانب نورتون ومرّ بذراعه على كتفها، الحركة التي بدا في البداية أنّ الإنكليزية لم تولِها أهمّيةً (عمليّاً كان ذراع بريتشارد الطويل يستند على ظهر الأريكة ووحدها أصابعُهُ، الطويلة، مثل أذرع عنكبوت أو عازف بيانو، كانت تُلامس بين فينة وأخرى قميصَ نورتون). لكنّ نورتون ومع مرور الوقت راحت تصبح في كلّ مرّة أكثر عصبية وصار ذهابها إلى المطبخ أو غرفة النوم يزداد اطراداً.

جرّب بيليتير بعض المواضيع للحديث. حاول أن يتكلّم عن السينما، عن الموسيقى، عن آخر الأعمال المسرحية دون أن يلقى مساعدة من إسبينوزا، الذي بدا أنّه ينافسُ بريتشارد بصمته، هذا إذا كان صمت هذا كحدّ أدنى صمت المراقب، وكان صمت إسبينوزا صمت المراقِب الغارق في التعاسة والعار. فجأة ودون أن يستطيع أحد أن يقول بيقين من الذي بدأ، راحوا يتكلّمون على الدراسات الأرشيمبولدية. ربّما كانت نورتون، من المطبخ، هي من ذكرت العمل المشترك. انتظر بريتشارد أن عادت وقال وذراعه ممدود من جديد على امتداد ظهر الأريكة وأصابعه، أصابع العنكبوت، على كتف الإنكليزية، إنّ الأدب الألمانيّ يبدو له خديعة.

ضحكت نورتون كما لو أنّ أحداً حكى نكتةً. سأله بيليتير ماذا يعرف هو، بريتشارد، عن الأدب الألماني.

- في الحقيقة قليل جدّاً - قال الشابُّ.

- إذن أنت أحمق - قال إسبينوزا.

- أو جاهل على الأقل - قال بيليتير.

- في كلّ الأحوال عتيه - قال إسبينوزا.

لم يفهم بريتشارد معنى كلمة عتيه، التي لفظها إسبينوزا بالإسبانية. أيضاً نورتون لم تفهمها وأرادت أن تعرفه.

- العتيه - قال إسبينوزا - هو شيء ناقص، أيضاً يمكن أن تُطبّق الكلمة على البلداء، لكن هناك بلداء مُتماسكون، وعتيه تُطبّق فقط على البلهاء الخُرْق.

- هل أنت تشتمني؟ - أراد بريتشارد أن يعرف.

- هل تشعر أنّك مشتوم؟ - قال إسبينوزا الذي بدأ يتصبّب عرقاً غزيراً.

رشف بريتشارد رشفة من عصير برتقاله وقال بلى، في الحقيقة إنّه كان يشعر بأنه مشتوم.

- إذن عندك مشكلة، يا سيّد - قال إسبينوزا.

- إنّها ردّة الفعل النموذجية للعتيهِ - أضاف بيليتير.

نهض بريتشارد عن الأريكة، نهض إسبينوزا عن الكرسيّ. نورتون قالت كفى، إنّكم تتصرّفون مثل أطفال حمقى. راح بيليتير يضحك. اقترب بريتشارد من إسبينوزا وضربه على صدره بسبّابته، التي كانت بطول الوسطى تقريباً. ضربه على صدره مرّةً، مرّتين، ثلاث مرّاتٍ، أربع مرّاتٍ وهو يقول:

- أوّلا لا أحبّ أن يشتمني أحد. ثانياً: لا أحب أن يعتبروني أبله. ثالثاً: لا أحب أن يسخرَ منّي إسبانيّ خراء. رابعاً: إذا كان عندك شيء آخر تقوله لي فلنخرج إلى الشارع.

نظر إسبينوزا إلى بيليتير وسأله طبعاً بالألمانية، ماذا أستطيع أن أفعل.

- لا تخرج إلى الشارع - قال بيليتير.

- يا أليكس، اذهب من هنا - قالت نورتون.

وبما أنّ بريتشارد لم يكن في أعماقه ينوي أن يتضاربَ مع أحد، قبّل نورتون على خدّها وغادر دون أن يودّعهما.

في تلك الليلة تعشوا ثلاثتهم في جان أند كلو. في البداية كانوا فاترين، لكنّ العشاءَ والنبيذَ دبّا الحيوية فيهم وعادوا في النهاية إلى البيت وهم يضحكون. ومع ذلك لم يبغيا أن يسألا نورتون عمّن يكون بريتشارد ولا هي أدلت بأيّ تعليق موجّه لتوضيح الصورة المتطاولة لذلك الشابّ السؤوم. على العكس تكلّموا عن أنفسهم عند نهاية العشاء تقريباً وبطريقة التوضيح، كم كانوا قريبين من أن يخرّبوا، ربّما دون مناص، الصداقةَ التي كان يشعر بها كلّ منهم تجاه الآخر.

كان الجنسُ، اتفقوا، أجملَ من أن يصبح (بالرغم من أنّهم كادوا يندمون على استخدامهم لهذه الصفة)، عائقاً أمام صداقة راسخة في التشابهات العاطفية كما في التشابهات الفكرية. ومع ذلك حرص بيليتير وإسبينوزا أن يوضّحا هناك، كلّ منهما أمام الآخر، أنَّ المثالي بالنسبة إليهما، وكان يفترضان أنّه كذلك بالنسبة إلى نورتون، وبطريقة غير مؤذية (هبوط ناعم، قال بيليتير) هو أن تختار هي وبشكل نهائي واحداً منهما، أو لا أحد. ، قال إسبينوزا، على أيّ حال هذا قرار يبقى بين يديها، بين يدي نورتون، وأنّها تستطيع أن تتخذه في اللحظة التي تريحها أكثر، بل وتستطيع ألا تتخذه أبداً. تستطيع أن تؤجّله، تُرْجِئه، تؤخّره وتماطل به وتمدّده، وتسوّف به حتى فراش الموت، فهو بالنسبة إليهما سيّ، فهما يشعران بأنّهما من العشق كما في السابق حين كانا عشيقيها أو خليليها المشتركين الفعليّين وأنّ ليز تُبقي عليهما في البرزخ، كما سيحبانها بعد ذلك، حين تختار واحداً منهما، أو بعدها (بَعْدٌ فقط أكثر مرارة بقليل، مرارته مشتركة، أي أنّها مرارة بطريقة ما مُخَفّفة)، حين لا تختار هي أيّاً منهما، إذا كانت هذه هي مشيئتها. وهو ما ردّت عليه نورتون بسؤال، يمكن أن يُرى فيه شيء من البلاغة، لكنّه سؤال

معقول أوّلاً وأخيراً: ماذا سيحدث إذا عشق واحد منهما، بيليتير، مثلاً، بينما هي تنزع أوراق زهرة أقحوان، في اللحظة ذاتها طالبةً أفتى وأجمل منها، وأيضاً أغنى وأكثر سحراً منها بكثير؟ هل عليها أن تعتبر العقد مفكوكاً وتستبعد إسبينوزا آلياً؟ أم بالعكس عليها أن تبقى مع الإسباني، طالما أنّها لا تستطيع أن تبقى مع أيّ شخص آخر؟ وهو ما ردّ عليه بيليتير وإسبينوزا بأنّ الاحتمال الحقيقيّ بأن يتحقّق مثلها احتمال بعيد جدّا، وأنّها بوجود مثلٍ أو عدم وجوده، تستطيع أن تفعل ما تشاء، بما في ذلك أن تصبح راهبة، إذا كانت هذه هي رغبتُها.

- كلّ منا يريد أن يتزوّج منك، يعيشَ معك، يُنجبَ أولاداً منك، يشيخ معك، لكن ما نريدهُ الآن، في هذه اللحظة هو أن نحافظ على صداقتك.

تجدّدت بدءاً من تلك الليلة الرحلاتُ إلى لندن. أحياناً كان يظهر إسبينوزا وأخرى بيليتير وفي بعض الأحيان يظهران معاً. حين كان يحدث هذا، كانا ينزلان في الفندق ذاته دائماً، فندق صغير وغير مريح في فولي ستريت، بالقرب من مشفى ميدلسِكس. حين كانا يُغادران بيت نورتون، عادة ما كانا يتنزهان حول الفندق، وعامّة ما يكونان صامتين وخائبين وبطريقة ما منهكين من اللطف والسرور اللذين كان عليهما أن ينشراهما خلال تلك الزيارات المشتركة. كانا يمكثان، في مناسبات غير قليلة، ساكنين بالقرب من مصباح الزاوية، يتأملان سيارات الإسعاف التي تدخل أو تخرج من المشفى. كان الممرِّضون الإنكليز يتكلّمون صراخاً وإن كانت أصواتهم تصلهما مُخَفَّفة.

وذات ليلة، بينما هما يتأمّلان مدخل المشفى الفارغ على غير العادة، تساءلا، لماذا حين كانا يأتيان معاً إلى لندن ما من أحدٍ منهما كان يبقى لينام في شقّة ليز. ربّما أدباً، قال أحدهما للآخر. لكن ما من أحدٍ منهما عاد يؤمن بهذا النوع من الآداب. كذلك تساءلا في البداية

بكراهية ثمَّ بِحماس، لماذا لا ينام الثلاثة معاً. في تلك الليلة كان يخرج من أبواب المشفى نور أخضر عليل، أخضر فاتح كما لو أنّه ضوء مسبح، وممرِّض يُدخّن سيجارة، واقفاً، وسط الرصيف، وبين السيارات المصفوفة كان هناك سيّارة مشتعلة النور، نور أصفر، كأنّه نور عشّ، لكن ليس أيّ عشّ، بل عشّ ما بعد الحرب النووية، عشّ ما عاد يسمح إلا بالبرد والإنهاك والفتور.

ذات ليلة بينما كان يتكلّم مع نورتون من باريس أو مدريد، ذكر أحدهما الموضوع. ولدهشته قالت نورتون إنّها أيضاً طرحت هذا الاحتمال منذ زمن.

- لا أظنّ أنّنا سنقترحه عليكِ أبداً -قال الذي كان يتكلّم الهاتف.

- أعرف -قالت نورتون-. تخافان. تنتظران أن أكون أنا من تخطو الخطوة الأولى.

- لا أدري -قال الذي كان يتكلّم الهاتف- ربّما ليس بمثل هذه البساطة.

عادا ليلتقيا في مناسبتين بِبريتشارد. الشابّ الطويل ما عاد يبدو سيّئَ المزاج كما في السابق، الحقيقة أنّ اللقاءات كانت عرضيّة ولا وقت للصلف ولا للعنف. كان إسبينوزا يصل حين كان بريتشارد يذهب، بيليتير صادفه مرّة على الدرج. ومع أنّ هذا اللقاء كان قصيراً إلاّ أنّه كان مهمّاً. سلّم بيليتير على بريتشارد وبريتشارد سلّم على بيليتير ونادى بيليتير مهسهساً.

- هل تريدُ نصيحةً؟ -قال له. نظر إليه بيليتير مذعوراً-. أعرف أنّك لا تريدها، أيها العجوز، لكن لا همّ سأقولها لك. كن حذراً - قال بريتشارد.

- حذر ممّا؟ -تمكّن بيليتير من القول.

- من الميدوسا -قال بريتشارد-، احمِ نفسك من الميدوسا.

ثم أضاف قبل أن يتابع هبوطه الدرج:

- حين تملكها بين يديك سوف تُفجّرك.

بقي بيليتير برهة دون حراك، يسمع خطوات بريتشارد على الدرج ثمّ صوت باب الشارع يُفتح ويُغلَق. فقط حين أصبح الصمتُ غير محتمَل عاد ليصعد الدرج، متفكّراً في الظلمة.

لم يقل شيئاً لِنورتون عن الحادث مع بريتشارد، لكنّه حين أصبح في باريس فاته وقتٌ كي يتصل بِإسبينوزا ويحكي له عن ذلك اللقاء المُحيِّر.

- غريب -قال الإسبانيّ-. يبدو تحذيراً، لكنّه أيضاً تهديد.

- ثمّ إنّ ميدوسا -قال بيليتير- هي واحدة من بنات فورسيس وثيتس، المسماة الغورغونات، ثلاثة مسوخ بحرية، وبحسب هيسيودوس وإستينوس وأبوريباليس، كانت الأختان الأخريان خالدتين. كانت ميندوسا بعكسهما فانية.

- هل كنتَ تقرأ أساطير كلاسيكيّة. -سأل إسبينوزا.

- هو أوّل ما فعلته حين وصلتُ إلى البيت -قال بيليتير-. اسمع هذا: حين قطع بيرسيوس رأس ميندوسا خرج من جسمها كريساور، أبو المسخ جيريونيس. والحصان بيغاسو.

- الحصان بيغاسو خرج من جسم ميدوسا؟، يا إلهي -قال إسبينوزا.

- بلى، بيغاسو، الحصان المُجنّح، الذي يُمثّل بالنسبة إليّ الحبّ -قال إسبينوزا.

- بالنسبة إليك يمثّل بيغاسو الحب؟ -قال إسبينوزا.

- بلى،

- غريب -قال إسبينوزا.

- حسن هذه أشياء المدرسة الفرنسية -قال بيليتير.

- وهل تعتقد أن بريتشارد يعرف هذه الأشياء؟

- ممكن -قال بيليتير-، وإن كان الله أعلم، لكن لا، لا أعتقد.

- إذن ما الاستنتاجات التي تخرج بها؟

- أنّ بريتشارد يضعني، يضعنا في حالة ترقّب ضدّ خطر نحن لا نراه. أو أنّ بريتشارد أراد أن يقول لي إنّه فقط بعد موت نورتون سأجد، سنجد الحبَّ الحقيقيّ.

- موت نورتون؟ -قال إسبينوزا.

- طبعاً، ألا ترى؟، بريتشارد يرى نفسه مثل بيرسيوس، قاتل ميدوسا.

سار إسبينوزا وبيليتير وقتاً كأنّهما مسكونين، أرشيمبولدي الذي عاد اسمُهُ ليُسمع كمرشّح لنوبل،كان يجعلهم لامباليين. أعمالهما في الجامعة، مساهماتهما الدورية في مجلاّت مختلف أقسام اللغة الجرمانية في العالم، دروسهما بل وحتى المؤتمرات التي كانوا يحضرونها كمسرنمين أو كرجلي تحرٌ مخدّرين، هزلت. كانا ولم يكونا. كانا يتكلّمان لكنّهما يُفكّران بأشياء أخرى. الشيء الوحيد الذي كان يهمّهما حقيقة هو بريتشارد. طيف بريتشارد المقيت الذي كان يحومُ طوال الوقت تقريباً حول نورتون. بريتشارد الذي كان يماثل بين نورتون وميندوسا، غورغونا، بريتشارد الذي لا يكادان يعرفان عنه شيئاً، هما المُشاهدان الحصيفان جدّاً.

كي يُعوضاه بدأا يسألان عنه الشخصَ الوحيد الذي كان يمكن أن يعطيهما بعضَ الأجوبة. بدت نورتون في البداية ممتنعةً عن الكلام. كان أستاذاً، تماماً كما توقّعا، لكنّه لا يعمل في الجامعة، بل في مدرسة ثانوية. لم يكن من لندن من بلدة قريبة من بورنموث. درس سنة في أكسفورد، لكنّه انتقل، وهو أمر غير مفهوم بالنسبة إلى إسبينوزا وبيليتير، إلى لندن، التي أنهى دراسته في جامعتها. كان يسارياً، من

يسار ممكن، وكان بحسب نورتون قد كلّمها عن خططه، التي لم تركّز قط على عملٍ مُحدّد، للدخول في الحزب العمالي. المدرسة التي كان يدرّس فيها كانت مدرسة عامّة كان قسم كبير من تلاميذها أبناء أسرٍ مُهاجرة. كان متهوّراً وكريماً وليس عنده مخيّلة كبيرة، وهو ما كان يعتبره بيليتير وإسبينوزا أمراً مفروغاً منه. لكن هذا لم يُطمئنهما.

- قوّاد يمكن ألا يملك مخيّلة لكنّه يمكن أن يقوم في أقل اللحظات توقّعاً بعملٍ خياليّ قال إسبينوزا.

- إنكلترا مليئة بخنازير من هذا النوع -كان رأي بيليتير.

وذات ليلة بينما كانا يتكلّمان بالهاتف من مدريد إلى باريس، اكتشفا دون مفاجأة (الحقيقة دون أدنى مفاجأة) أنّ كليهما يكره بريتشارد وفي كلّ مرّة أكثر.

خلال المؤتمر التالي الذي حضراه («أعمال بِنّو فون أرشيمبولدي كمرآة للقرن العشرين»، وكان لقاء لمدّة يومين في بولونيا، الغاصّ بالأرشيمولديين الإيطاليين الشاب وبدفعة من البنيويين الجدد من عدّة بلدان أوروبيّة) قرّرا أن يحكيا لِموريني كلّ الذي حدث معهما في الأشهر الأخيرة وكلّ المخاوف التي كانا يشعران بها تجاه نورتون وبريتشارد.

موريني الذي كانت قد ساءت حالته أكثر من المرّة السابقة (بالرغم من أنّه لا إسبانيّ ولا الفرنسيّ انتبها إلى ذلك)، استمع إليهما بصبر في بارِ الفندق وفي حانة قريبة من مقرّ الملتقى وفي مطعم غالٍ جدّاً في القسم القديم من المدينة، وبينما هم يتمشون على غير هدى في شوارع بولونيا ينما هما يدفعان عربةَ العجلات دون أن يتوقّفا عن الكلام في أيّ لحظة. أخيراً حين أرادا أن يطلبا رأيه بالورطة العاطفية، الواقعيّة أو المتخيَّلة التي كانا محشورين فيها. موريني فقط سألهمّا عمّا إذا سأل

أحدهما أو كلاهما نورتون عمّا إذا كانت تُحبُّ أو تشعر بانجذاب نحو بريتشارد. اضطرّا لأن يعترفا بأنهما لم يفعلا، وأنّهما لباقةً وكياسةً، ورقّة لم يسألاها.

- كان عليكما أن تبدأ من هناك -قال موريني، الذي وبالرغم من أنّه كان يشعر بأنّه مريض ودائخ من كثرة ما داروا لم يترك زفرة ألم واحدة تفلت منه.

(وبالوصول إلى هذه النقطة يجب أن نقول إنّ المثل القائل: اخلقْ أنّك شهرةً ونَمْ، صحيح، فمساهمة إسبينوزا وبيليتير في ملتقى «أعمال بنّو فون أرشيمولدي كمرآة للقرن العشرين» كانت في أحسن الحالات معدومة، وفي أسوأ الحالات كارثيّةً، كما لو أنّهما كانا فجأة مستنفَدَيْن أو غائبَيْن أو شائخين بطريقة مبكّرة أو أنّهما تحت تأثير صدمة، الأمر الذي لم يمرّ دون أن يلفت انتباه بعض الحضور المعتادين على الطاقة التي كان ينشرُها الإسبانيُّ والفرنسيّ، وأحياناً بتهوُّرٍ، في مثل تلك اللقاءات، كما لم يمرّ دون أن تُلاحظه الدفعة الأخيرة من الأرشيمبولديين، الشباب والشابات المتخرّجين توّاً من الجامعة، شباب وشابات ما زالوا يحملون الدكتوراه طازجةً تحت إبطهم ويتطلعون، دون أن يتوقّفوا عند الوسائل، لأن يفرضوا قراءتهم الخاصّة لِأرشيمبولدي، مثل مُبَشّرين مستعدّين لأن يفرضوا إيمانهم بالله، حتى ولو اضطرّوا لأن يتحالفوا مع الشيطان، ناس، لنَقُلْ، بعامّة عقلانيون، لكن ليس بالمعنى الفلسفي بل بالمعنى الحرفي للكلمة، المعنى الذي عادة ما يكون محتقراً، الذين لم يكن يعنيهم الأدب بقدر ما يعنيهم النقد الأدبي، المجال الوحيد بحسبهم -أو بحسب بعضهم- الذي ما تزال الثورة فيه محتملة، والذين كان يتصرّفون بطريقة ما، ليس كشباب، بل كشباب جدد، بالقدر ذاته الذي يوجد فيها أثرياء وأثرياء جدد، ناس، لِنُكَرِّر، متوقّدو الذهن، وإن كانوا يعجزون في الغالبِ عن يعملوا أسهل

الأشياء، والذين بالرغم من أنّهم لاحظوا وجودَ وعدم وجود بيليتير وإسبينوزا، حضورَهما الغائبَ في مرورهما السريع ببولونيا، إلاّ أنّهم كانوا عاجزين عن أن يستشعروا بما كان يهمُّ حقيقةً: سأمهما المُطلق من كلِّ ما كان يُقالُ عن أرشيمبولدي، طريقتهما في استعراضهما لنفسيهما أمام النظرات الغريبة، الشبيهة في غياب الدهاء عندهما، بسلوك ضحايا أكلة اللحوم البشريّة، وأنّهما، هما آكلا اللحوم البشريّة المتحمسان والجائعان دائماً، لم يريا وجيههما، وجهي الثلاثينيين المنتفخين بالنجاح، تعبيرات وجهيهما التي تمتدّ من السأم الكبير وحتى الجنون، تلعثمهما المُشفّر الذي كان يقول كلمة واحدة فقط: *أحبّيني*، أو ربّما جملةً دعيني *أحبُّك*، التي بالطبع لم يكن أحد يفهمها).

هكذا مرّ بيليتير وإسبينوزا ببولونيا مثل شبحين، في زيارتهما التالية للندن سألا نورتون، لِنَقُلْ، لاهثَين، كما لو أنّهما لم يتوقّفا عن الجريّ والخبب، في الأحلام أو في الواقع، لكن بلا توقّف، سألا هذه، العزيزة ليز، التي لم تستطِع أن تذهب إلى بولونيا، هل كانت تُحب أو تُريد بريتشارد.

وقالت لهما نورتون لا. ثمّ قالت ربّما نعم، وإنّه من الصعب إعطاء جواب قطعيّ بهذا الخصوص. وقال لها بيليتير وإسبينوزا إنّهما بحاجة لأن يعرفا، أي أنّهما كانا يحتاجان لجواب قطعيّ. وسألتهما نورتون لماذا يهتمّان الآن، بالضبط، بِبريتشارد.

وقال لها بيليتير وإسبينوزا، وهما على حافّة البكاء، متى، إذا لم يكن الآن؟

وسألتهما نورتون عمّا إذا كانا يغاران. وبيليتير وإسبينوزا قالا لها إنّهما غير مستعدَّيْن لأن يجيبا على سؤال بمثل هذه السخرية، سؤالٍ التفافي أو سيّئ النيّة. ذهبوا بعدها ليتعشّوا وشرب الثلاثة أكثر من اللازم، سعداء كالأطفال، يتكلّمون عن الغيرة وعن نتائجها المشؤومة.

كذلك تكلّموا عن حتميّة الغيرة. وتكلّموا عن الحاجة إلى الغيرة، كما لو أنّ الغيرة كانت ضرورية في منتصف الليل. كيلا يذكروا العذوبة والجراح المفتوحة اللذيذة في بعض المناسبات وتحت بعض النظرات. وعند خروجهم أخذوا سيّارة أجرة وتابعوا خطابهم.

وراقبهم سائق سيّارة الأجرة، الباكستاني، خلال الدقائق الأولى من خلال المرآة الأمامية، بصمت، كما لو أنّه لا يُصدّق أُذُنَيْه، قال بعدها شيئاً بلغته، ومرّت السيارة في هارمسورث بارك والمتحف الحربي الإمبراطوري، في بروك ستريت، ثمّ في أوسترال، ثم في جيرالداين، وقامت بدورة حول الحديقة كانت بكلّ وضوح غير ضرورية. وحين قالت له نورتون إنّه ضاع ودلّته على الشارع الذي عليه أن يأخذه كي يستقيم الاتجاه، بقي السائق من جديد صامتاً، دون مزيد من التمتمات بلغته، كي يعترف لاحقاً أنّ المتاهة التي هي لندن استطاعت بالفعل أنّ تجعله يتوه.

الأمر الذي حمل إسبينوزا على أن يقول عجيب، إنّ السائق ذكر، طبعاً دون أن يقصد ذلك، بورخِس، الذي قارن ذات مرّة لندنَ بالمتاهة. وهو ما ردّت عليه نورتون بأن ديكنز وستيفنسون استخدما هذا المجازَ قبلَ بورخِس. الأمر الذي لم يكن باستطاعة الباكستاني، كما يبدو، أن يتحمّله فقال على الفور إنّه هو، كباكستانيّ، يمكن أنّه لا يعرف هذا المذكور بورخِس ويمكن أيضاً ألّا يكون قد قرأ قط لهذين السيدين المذكورين ديكنز وستيفنسون، بل وأكثر من ذلك إنّه لم يكن يعرف كفايةً بعدُ لندنَ وشوارعها وإنّه لهذا السبب قارنها بالمتاهة، لكنّه بعكس ذلك يعرف جيّداً ما هي الحشمة والكرامة وإنّ المرأة الموجودة هنا وبناء على ما سمعه، أي نورتون، لا تملكُ حشمة ولا كرامة وإنّ هذا في بلده اسمه، الاسم ذاته الذي يعطى له في لندن، يا للمصادفة، وإنّ هذا الاسم هو عاهرة، وإن كان مسموح أيضاً استخدام اسم الكلبة أو الذئبة أو الخنزيرة، وإنّ السيّدين الموجودين هنا، سيّدان ليسا

إنكليزيين بالحكم من نبرتهما أيضاً لهما اسم في بلده وإنّ هذا الاسم هو ديوثان أو قوّادان أو سمساران، أو وغدان.

هذا الخطاب الذي باغت، لنقل دون مبالغة، الأرشيمبولدِيَّيْن، اللذين تأخّرا في ردّ فعلهما، لِنقُل أنّ شتائم السائق أطلقت في خيرالداين ستريت وإنّهما استطاعا أن يُركّبا كلمة في سان جورج رود. والكلمات التي استطاعا أن يُركّباها هي: أوقِف السيّارة فوراً نريد أن ننزل. أو بالأحرى: أوقِفْ سيّارتك المُقرِفة فنحن نفضّل أن ننزل. الشيء الذي فعله الباكستاني دون تأخّر، ضاغطاً في الوقت الذي كان يتوقّف فيه على العدّاد وأبلغهم بما هم مدينون له. الحدث تمّ أو المشهد الأخير أو التحية الأخيرة التي لم تعتبرها نورتون وبيليتير، ربّما وهما مشلولان من المفاجأة المقذعة، شاذّةً، لكنّها أطفحت وكثيراً كيلَ صبرِ إسبينوزا، الذي في الوقت الذي كان ينزل فيه فَتَحَ البابَ الأماميَّ للسيارة وأخرجَ منها بعنفٍ سائقها، الذي لم يتوقّع من فارسٍ حسنِ الهندام ردَّ فعل بهذا الشكل. وأقّل من ذلك لم ينتظر تلك الزخات من الرفسات الإيبرية، التي راحت تنزل عليه، الرفسات، التي كان وحده إسبينوزا يكيلها، لكن عندما تعب هذا، كالها له بيليتير، بالرغم من صرخات نورتون التي كانت تُحاول أن تُثنيهما، كلمات نورتون التي كانت تقول إنّه بالعنف لا يصلح شيء، وإنّ الباكستاني بالعكس سيكره بعد الضرب الإنكليز، الأمر الذي يبدو أنّه لم يكن يهمّ بيليتير وأقلّ منه إسبينوزا، اللذين في الوقت الذي كانا يكيلانه فيه الرفسات كانا يشتمانه بالإنكليزية، دون أن يباليا إطلاقاً بأنّ الباكستاني كان ساقطاً على الأرض متقوقعاً، رفسة تذهب وأخرى تأتي، أدخِل الإسلامَ في مؤخّرتك، هناك حيث يجب أن يكون، هذه الرفسة من سلمان رشدي (المؤلّف الذي يعتبرانه بالمناسبة أقرب إلى السيّئ، لكنّ ذكره بدا لهما مناسباً)، هذه الرفسة من أنصار المرأة في باريس (توقّفا، كفى كانت تصرخُ بهما نورتون)، وهذه الرفسة من أنصار المرأة في نيويورك

(ستقتلونه، كانت نورتون تصرخ)، هذه الرفسة من شبح فاليري سولاناس، يا ابن الأم العاهرة، وهكذا حتى تركاه ينزف من كلّ فتحات الرأس باستثناء العينين.

حين توقّفا عن رفسه، بقيا بضع ثوان غارقين في أغرب صمت في حياتهما. كان كما لو أنّهما مارسا ثلاثياً الجنسَ، الذي طالما سرحا به في خيالهما.

كان بيليتير يشعر كما لو أنّه بلغ قذف. الشيء ذاته حدث مع إسبينوزا مع بعض الاختلافات والتفاصيل الصغيرة. نورتون التي كانت تنظر إليهما دون أن تراهما وسط الظلمة، بدا أنّها بلغت ذروة متعدّدة. في سان جورج ورد كانت تمرّ بعض السيارات، لكنّهم كانوا خفيّين علي أيّ شخص يمرٌّ في تلك الساعة راكباً عربة. في السماء لم يكن يوجد نجم واحدٌ. ومع ذلك كان الليل صافياً: كانوا يرون كلّ شيء بتفاصيله، بما في ذلك حواف أصغر الأشياء، كما لو أنّ ملاكاً وضع فجأة على عيونهم عدسات رؤيةٍ ليلية. شعروا بجلودهم مشدودة، ناعمة على الملمس، بالرغم من أنّ الثلاثة كانوا يتصبّبون عرقاً. ظنّ بيليتير وإسبينوزا للحظةٍ أنّهما قتلا الباكستانيّ. مرّت برأس نورتون فكرة مشابهة، فقد انحنت فوق السائق وبحثت عن نبضه. كان تحرّكها وانحناؤها يؤلمانها كما لو أنَّ عظام ساقيها كانت مُفكّكة.

مجموعة من الأشخاص خرجت من غاردين رو وهم يُغنّون مغنّية أغنية. كانوا يضحكون. ثلاثة رجال وامرأتان. التفتوا برؤوسهم دون أن يتحرّكوا إلى ذلك الاتجاه وانتظروا. بدأت المجموعة تسير نحو المكان الذي كانوا فيه.

- سيّارة الأجرة -قال بيليتير-، إنّهم قادمون في طلبها.

عندها فقط انتبهوا إلى أنّ ضوء السيارة الداخليّ مشتعل.

- هيّا بنا -قال إسبينوزا.

أخذ بيليتير نورتون من كتفيها وساعدها على النهوض. كان إسبينوزا قد جلس وراء المقود وراح يطلب منهما أن يُسرعا. أدخل بيليتير نورتون إلى المقعد الخلفي دفعاً، ثمّ دخل هو. مجموعة غاردين روو كانت تتقدّم باتجاه الزاوية التي يجثو فيها سائق سيّارة الأجرة.

- إنّه حيّ -قالت نورتون.

أدار إسبينوزا محرّك السيّارة وخرجوا من هناك. على الجانب الآخر من التايمز، وفي شارع ضيق قريب من ماريليبون، تركوا سيارة الأجرة وساروا برهة. أرادا أن يتكلّما مع نورتون، أن يشرحا لها ما جرى، لكنّها لم تقل لهما حتى أن يُرافقاها حتى البيت.

بحثا في اليوم التالي في الصحافة، بينما كانا يتناولان فطوراً وفيراً في الفندق، عن خبرٍ ما عن سائق سيارة الأجرة الباكستاني، لكنّهم لم يذكروه في أيّ مكان. خرجا بعد الإفطار للبحث عن صحف الأخبار المثيرة. لكنّهما أيضاً لم يجدا شيئاً.

هتفا لِنورتون، التي لم يبدو أنّها غاضبة مثل الليلة الماضية. أكّدا لها أنّ من الملحّ أن يلتقوا في ذلك المساء، فعندهما شيء مهم يقولانه لها. أجابتهما أنّها هي أيضاً عندها شيء مهم تقوله لهما. خرجا ليتجوّلا في الحيّ كي يقتلا الوقت. تسليا خلال بضع دقائق في تأمّل سيارات الإسعاف التي كانت تدخل وتخرج من مشفى ميدلِسكس، يهذيان مع كلّ مريض وجريح يدخل، وكانا يظنّان أنّهما في كلّ واحدٍ منهم يريان ملامح الباكستاني، الذي سحقاه، إلى أن ملّا وذهبا ليتمشيا بضمير أكثر اطمئناناً، في شارينغ كروس وحتى ستراند. تبادلا كما هو طبيعيّ مُسارّات، فتح كلّ منهما قلبه للآخر. أكثر ما كان يشغلهما هو أن تبحث عنهما الشرطة وتلقي عليهما القبض أخيراً.

- قبل أن أغادر سيّارة الأجرة محوت بالمنديل آثاري -اعترف إسبينوزا.

- أعرف -قال بيليتير-، رأيتكَ وفعلتُ الشيء ذاته: محوت آثاري وآثار ليز.

أجملا، في كلّ مرّة بتأكيدٍ أقل، تسلسلَ الأحداث التي جرّتهما في النهايةِ إلى ضرب سائقِ سيارة الأجرة. لا شكّ أنّه بريتشارد. وغورغونا، تلك الميدوسا البريئة والفانية، المعزولة عن أخواتها الخالدات. التهديد المستور وغير المستور جدّاً. والأعصاب. وإهانة ذلك الوضيع الجاهل. أحسا بالحاجة إلى مذياع كي يطلعا على آخر أحداث الساعة. تكلّما عن الإحساس الذي شعرا به وهما يضربان الجسد الساقط على الأرض. كان نوعاً من الحلم والرغبة الجنسية. الرغبة بأن ينيكا ذلك الفقير البائس؟ ولا بشكل من الأشكال! كانا بالأحرى أقرب إلى أنّهما كان ينيك الواحد منهما نفسه. كما لو أنّه ينكشُ في نفسه. بأظافر طويلة ويدين فارغتين. وإن لم يكن من الضرورة أن تكون يداه فارغتين إذا كانت أظافر الواحد طويلة. لكنّهما في هذا النوع من الحلم، كانا ينكشان وينكشان، ممزّقَين أنسجةً ومخرّبَيْن شرايينَ ومؤذيين أجهزة عضوية حيوية. ما الذي كانا يبحثان عنه؟ لم يكونا يعرفان. أيضاً لم يكن يهمّهما أن يعرفا عند هذا المستوى.

في المساء التقيا بِنورتون وقالا لها كلّ الذي كانا يعرفانه أو يخشيانه من بريتشارد. غورغون، موت غورغون. المرأة التي تنفجر. تركتهما يتكلّمان حتى انتهت الكلمات عندهما. بعدها طمأنتهما. لم يكن بريتشارد قادراً على قتل ذبابة، قالت لهما. هما فكّرا بأنطوني بيركنز، الذي كان يؤكّد أنّه لم يكن قادراً على إيذاء ذبابة، ثمّ حدث الذي حدث، لكنّهما فضّلا ألاّ يُجادلاها وقبلا، دون اقتناع، حججَها. جلست نورتون بعدها وقالت لهما إنَّ ما لا تفسير له هو ما حدث ليلة أمس.

سألاها، كما لو كي يحرفا مسؤوليتهما، عمّا إذا كانت تعرف شيئاً عن الباكستاني. قالت نورتون بلى. ظهر الخبر في نشرة الأخبار المحليّة لإحدى القنوات. مجموعة من الأصدقاء، ربّما الناس الذين رأوهم يخرجون من غاردِن روو، عثروا على جسم سائق سيارة الأجرة وهتفوا للشرطة. عنده أربعة أضلاع مكسورة وارتجاج في الدماغ، وأنف مكسور وفقد جميع أسنان الفكّ العلوي. هو الآن في المشفى.

- الذنب ذنبي -قال إسبينوزا-، شتائمه أفقدتني أعصابي.

- الأفضل أن ننقطع عن لقاءاتنا لفترة من الزمن -قالت نورتون-، عليّ أن أفكّر بهذا بتروٍّ.

وافق بيليتير لكنّ إسبينوزا بقي يحمّل نفْسَهُ المسؤوليّة: أن تتوقّف نورتون عن لقائه عدل، لكن ليس عدلاً أن تتوقّف عن لقاء بيليتير.

-كفاك ترهات -قال له بيليتير بصوت خافت، وعندها فقط انتبه إسبينوزا إلى أنّه يقول حماقات.

في تلك الليلة ذاتها عاد كلّ منهم إلى بيته.

حين وصل إسبينوزا إلى مدريد عانى من نوبة عصبية صغيرة. في سيّارة الأجرة التي أقلّته إلى البيت راح يبكي بطريقة متعقّلة، مغطياً عينيه بيده، لكنّ السائق انتبه إلى أنّه كان يبكي وسأله عمّا كان يجري معه، وعمّا إذا كان يشعر بنفسه مريضاً.

- أشعر بنفسي جيداً -قال إسبينوزا- فقط أعصابي متوترة قليلاً.

- هل أنت من هنا؟ -سأله السائقُ.

- بلى -قال إسبينوزا-، أنا مدريدي.

مكثا برهة دون أن يقولا شيئاً. بعدها عاد السائق للهجوم وسأله عمّا إذا كانت تهّمه كرة القدم. قال إسبينوزا لا، إنّها لم تهمّه يوماً قط، لا هذه اللعبة ولا أيّ رياضة أخرى. وأضاف كما لو كي لا يقطع الحديث بغتة، إنّه ليلة أمس كاد يقتل رجلاً.

- غير معقول - قال السائق.
- معقول - قال إسبينوزا - كدتُ أقتله.
- ولماذا هذا؟ - سأل السائقُ
- فورة - قال إسبينوزا.
- في الخارج؟ - سأل السائق.
- بلى - قال إسبينوزا ضاحكاً لأوّل مرّة -. في الخارج، ليس هنا، ثمّ إنّ الشخص كانت مهنته غريبة جدّاً.

بيليتير على العكس لم يصب بأزمة عصبية ولا تكلّم مع السائق الذي أقلّه إلى شقّته. حين وصل استحمّ وحضّر قليلاً من المعكرونة الإيطالية بزيت الزيتون والجبن. ثمّ راجع مراسلاته الإلكترونيّة، ردّ على بعض الرسائل وذهب إلى السرير ومعه رواية لمؤلّفٍ فرنسيٍّ شابّ، غير مهمّة، لكنّها ظريفة، ومجلّة دراسات أدبية. بعد برهة نام ورأى الحلم التالي الغريب قليلاً: كان متزوّجاً من نورتون، ويعيشان في بيت واسع، بالقرب من جرف، يُرى منه الشاطئ المليء بالناس بمايوهاتهم يتشمسون أو يمارسون من ناحيةٍ أخرى السباحةَ دون أن يبتعدوا كثيراً عن الشطّ.

كانت النهارات قصيرة. من نافذته يكاد يرى، دون انقطاع تقريباً، غروبَ الشمسِ والفجرَ. كانت نورتون تقترب أحياناً من حيث كان وتقول له شيئاً، لكن دون أن تتجاوز قطّ عتبة الغرفة. كان الناس على الشاطئ دائماً هناك. كان يتولّد عنده أحياناً الانطباعُ بأنّهم لا يعودون ليلاً إلى بيوتهم أو يذهبون معاً، حين تظلم، كي يعودوا في موكب طويل، والفجر لم يبزغ بعد. أحياناً أخرى كان حين يُغمضُ عينيه، يستطيع أن يُحلّقَ فوق الشاطئ مثل نورسٍ ويستطيع أن يرى المُستحمين عن قرب. كان هناك من كلّ نوع، وإن كان يغلب بينهم الثلاثينيون، الأربعينيون، الخمسينيون والجميع يبدون مركّزين على نشاطاتٍ غير مهمّة، كأن يضعوا زيتاً على أجسادهم، يأكلوا شطائر، يستمعوا إلى

حديث صديق، قريبٍ أو جار بالمنشفة، أدباً أكثر منه اهتماماً. ومع ذلك كان ينهض المستحمون أحياناً وإن بتعقّل ويتأملون لثانية أو ثانيتين لا أكثر، الأفقَ، الأفق الوديع، غير الغائم، ذا الرقة الشفّافة.

حين كان بيليتير يفتح عينيه، يُفكّر بموقف المستحمّين. كان واضحاً أنّهم ينتظرون شيئاً، لكن أيضاً لا يمكن أن نقول إنّ يموتون توقاً في هذا الانتظار. فقط كانوا من حين لآخر يتخذون موقفاً أكثر انتباهاً، تراقب عيونهم خلال ثانية أو ثانيتين الأفقَ، يعودون بعدها ليغرقوا في دفقِ زمنِ الشاطئ. دون أن يسمحوا بأن تظهر عليهم نقطةُ ضعف أو تردّد. كان بيليتير المأخوذُ بمراقة المستحمّين ينسى نورتون، ربّما واثقاً من وجودها في البيت، وجودها الذي تشهد عليه الأصواتُ التي كانت تأتي من حين إلى آخر من الداخل، من الغرف التي ليس فيها نوافذ أو أنّ نوافذها تُطلّ على الحقل أو على الجبل وليس على البحر الطافح. كان ينامُ، هذا ما اكتشفه حين كان الحلم في مرحلة متقدّمة جدّاً، جالساً على كرسيّ، إلى جانب طاولة عمله والنافذة. ولا شكّ كان ينام ساعات قليلة، حتى عندما كانت الشمسُ تغيب كان يُحاول أن يبقى مستيقظاً إلى أقصى ما يستطيع من الزمن الممكن، وعيناه ثابتتان على الشاطئ، الذي هو الآن لوحة سوداء أو قاعُ بئر عساه يرى ضوءاً ما، رسمَ مصباح يدوي، لهب نار مرتعش. أضاع مفهوم الزمن. كان يتذكّر بشكل ضبابي مشهداً مشوّشاً يخجله ويُحمّسه على حدّ سواء. كانت الأوراق على الطاولة مخطوطات لِأرشيمبولدي، أو اشتراها على هذا الأساس، على الرغم من أنّه حين انتبه وجدها مكتوبة بالفرنسية وليس بالألمانية. إلى جانبه كان هناك هاتف، لا يرنّ أبداً. كانت النهارات في كلّ مرّة أشدّ حرارة.

وذات صباح رأى المستحمّين يوقفون نشاطاتهم ويتأمّلون، جميعهم كانوا يتأملون الأفق في آن معاً، كما هو معتاد. لكنّهم يستديرون وقتذاك ولأوّل مرّة ويُغادرون الشاطئ. بعضهم ينساب في

طريق ترابي موجود بين كثَّيبين. وآخرون يغادرون عبر الحقل المفتوح، ممسكين بالأعشاب أو الحجارة. قليلون منهم كانوا يضيعون باتجاه الفجّ وبيليتير لا يراهم، لكنّه كان يعرف أنّهم بدؤوا صعوداً بطيئاً. على الشاطئ لم يبق غير كتلة، لطخة داكنة، تبرز من حفرةٍ صفراء. فكّر بيليتير للحظة بما إذا كان من المناسب أن ينزل إلى الشاطئ ويطمرها، متخذاً كل الحذرِ، الذي تتطلبه الحالة، الكتلة في عمق الثقب. لكن مجرّد تصوّره للطريق الطويل الذي كان عليه أن يقطعه كي يصل إلى الشاطئ كان يجعله يتصبّبُ عرقاً ويتصبّب في كلّ مرّة عرقاً أكثر، كما لو أنّه ما إن تُفتح الحنفيّة حتى لا يعود بالإمكان إغلاقها.

عندها رأى هزّة في البحر، كما لو أنّ الماء أيضاً يتصبّب عرقاً، أي كما لو أنّ الماء راح يغلي. كان غلياناً لا يكاد يُحسّ به، راح يندلق على شكلِ حركات حتى يمتطي الأمواج التي كانت ستموت على الشاطئ. وعندها كان بيليتير يشعر بأنّه دائخ وطنين نحل يصل من الخارج. وحين كان يتوقّف طنين النحل يسود في البيت وفي المناطق المحيطة صمتٌ أسوأ. وكان بيليتير يصرخ باسم نورتون ويناديها، لكن أحداً لا يلبي نداءه، كما لو أنَّ الصمت ابتلع نداء استغاثته. عندها كان يبدأ بيليتير بالبكاء ويرى أنّ ما تبقى من تمثالٍ راح يظهر من عمق البحر، معدني البريق. قطعة من حجر بلا شكل، هائلة، آكلها الزمنُ والماء، لكن ما يزال يمكن أن يُرى فيها، بكلّ وضوح، يدٌ، معصمٌ وجزء من ساعدٍ. وكان هذا التمثال يخرج من البحر ويرتفع فوق الشاطئ وكان مريعاً وفي الوقت ذاته جميلاً.

ظهر بيليتير وإسبينوزا خلال بضعة أيّام محزونَيْن، كلٌّ من جانبه، بسبب ما فعلاه بسائق سيّارة الأجرة الباكستاني، الذي كان يحوم حول ضميرهما السيّئ مثل شبح أو مثل مولّدة كهربائيّة.

تساءل إسبينوزا عما إذا لم يكن تصرّفه يكشف عمّا هو بالفعل، أي

يمينيّاً، كارهاً للأجانب وعنيفاً. بيليتير على العكس، ما كان يغذي ضميره السيّئ هو أنّه رفس الباكستانيّ حين كان هذا على الأرض، وهو ما كان بصراحة معادٍ للروح الرياضة. ماذا كانت حاجته لأن يفعل ذلك؟ كان يتساءل، كان سائق سيارة الأجرة قد تلقّى ما يستحقّه ولم يكن هناك حاجة كي يُضيف هو مزيداً من العنف على العنف.

وذات ليلة تكلما طويلاً بالهاتف. عرضا وساوسهما. شرعا يواسيان بعضهما بعضاً، لكنّهما عادا بعد دقائق قليلة ليأسفا على فعلتهما، مهما كانا في قرارة نفسيهما مقتنعين بأنّ اليمينيّ والكاره الحقيقيّ للنساء هو الباكستانيّ وبأنّ العنيف هو الباكستانيّ وبأنّ غير المتسامح وقليل الأدب هو الباكستانيّ وبأن من جاء بالمصيبة إلى نفسه هو الباكستانيّ، ألف مرّة ومرّة. الحقيقة لو تجسّد السائقُ أمامهما في تلك المناسبات لقتلاه بالتأكيد.

نسيا لزمنٍ طويل رحلاتهما الأسبوعية إلى لندن. نسيا بريتشارد وغورغونا. نسيا أرشيمبولدي، الذي كانت مكانته تتعزّز من وراء ظهرهما. نسيا أعمالهما، التي كانا يكتبانها بشكل روتيني وبارد، وأكثر من أعمالهما نسيا أعمال طلابهما أو مساعدي الأساتذة كل في قسمه المُستمالين من أجل القضيّة الأرشيمبولدية بوعود ضبابية بعقودٍ ثابتة أو برفع رواتبهم.

زارا خلال أحد المؤتمرات، بينما بول يلقي محاضرة رائعة عن أرشيمبولدي والعار في الأدب الألماني المعاصر لما بعد الحرب، ماخوراً في برلين، حيث ناما مع فتاتين شقراوين، طويلتين جدّاً وطويلتي الساقين. عندما خرجا عند منتصف الليل، كانا من السعادة بحيث راحا يُغنّيان مثل طفلين تحت الطوفان. تكرّرت تجربتهما مع العاهرتين، الأمر الجديد في حياتهما، عدّةَ مرّات في مختلف المدن الأوروبية وانتهت بأن صارت عادية عند كلّ منهما في مدينته. آخرون

كان من الممكن أن يناموا مع طالباتهم. هما، اللذان كانا يخافان من أن ينتهيا بالعشق أو بأن لا يعودا يُحبان نورتون، حسما أمرهما مع العاهرات.

في باريس كان بيليتر يبحث عنهن عبر الإنترنيت والنتائج كانت دائماً حسنة تقريباً. في مدريد كان إسبينوزا يعثر عليهنّ عبر قراءة إعلانات الاسترخاء في صحيفة البايس، التي كانت على الأقل تمنحه خدمة موثوقة وعمليّة، وليس كما في الملحق الثقافي، حيث لم يكونوا يتكلّمون أبداً عن أرشيمبولدي وحيث يبرز أبطال برتغاليون، تماماً كما كان يحدث في ملحق أ بي سي الثقافي.

- أيّ -كان يشكو إسبينوزا في أحاديثه مع بيليتير، ربّما باحثاً عن عزاء ما- في إسبانيا دائماً كنّا ريفيين.

- صحيح -كان يجيبه بيليتير بعد تَفَكُّرٍ بجوابه لثانيتين تماماً.

ثمّ إنّهما من ناحية أخرى أيضاً لم يخرجا من رحلة العاهرات سالِمَيْن.

تعرّف بيليتير على فتاة تُدعى فانيسا. كانت متزوّجة وعندها ولد. كانت تمضيّ أحياناً أسابيعَ كاملة دون أن تراهما. كان زوجها بحسبها، قديساً. فيه بعض النواقص، مثلاً كان عربيّاً، وبالتحديد مراكشيّاً، كما أنّه كان رخواً، لكنّه في الخطوط العامّة، بحسب فانيسا، كان رجلاً لطيفَ المعاشرة، لا يكاد يغضب من شيء أبداً، وحين يغضب، على العكس من بقيّة الرجال لا يصير عنيفاً ولا قليلَ أدب، بل مكسور الخاطر، حزيناً، ومهموما من عالَم يتكشف له فجأة أوسعَ من اللازم وغيرَ مفهوم. حين سألها بيليتير عمّا إذا كان العربيّ يعرف أنّها تعمل عاهرة، قالت له فانيسا بلى، كان يعرف، لكن لم يكن يهمّه، فهو كان يؤمن بحرّية الأفراد.

- إذن هو قوّادُك -قال لها بيليتير.

أجابت فانيسا أمام هذا التأكيد أنّ ذلك محتمل، وأنّه كان إذا ما نظرنا جيّداً في الأمر بلى قوّادها، لكنّه قوّادٌ مختلف عن بقيّة القوّادين الذين كان يطالبون نساءهم بأكثر من اللازم. المراكشيّ لم يكن يطالب بشيء. كانت تمرّ فترات، قالت فانيسا، هي أيضاً تدخل في نوع من الكسل العادي، من الوهن الدائم وعندها كان الثلاثة يمرّون في ضائقات اقتصاديّةٍ وكان المراكشي يقبل في تلك الأيّام بما هو موجود ويُحاول، بقليل من الحظّ أن يقوم ببعض الأعمال اليدوية، التي كانت تسمح لهم بأن يتدبروا أمرهم قليلاً. كان مُسلماً ويُصلّي راكعاً نحو مكّة، لكن لا شكّ كان الأمرُ يتعلّق بمسلم مختلف. بحسبه كان الله يسمح بكلّ شيء، أو تقريباً بكلّ شيء. إلاّ أن يقومَ أحدٌ بإيذاء طفلٍ عن وعيٍ، هذا ما لم يكن يسمح به، أن يغتصب طفلاً، أن يقتل طفلاً أن يهجرَ طفلاً لموت أكيد هذا كان ممنوعاً، كلُّ ما عدا ذلك كان نسبياً وبالتالي مسموحاً.

في مناسبة ما حكت فانيسا لِبيليتير، أنّهم سافروا إلى إسبانيا. هي وابنها والمراكشيّ. التقوا في برشلونة بأخي المراكشيّ الصغير، الذي كان يعيش مع فرنسيّة أخرى، فتاة بدينة وطويلة. كانا موسيقيّين، قال المراكشيّ لفانيسا، لكنّ الصحيح أنّهما كانا متسوِّلين. لم ترَ المراكشيّ سعيداً قط كما كان في تلك الأيّام. دائماً كان يضحكُ ويُغنّي ويحكي قصصاً ولا يتعب من المشي في أحياء برشلونة، حتى يصل إلى خارج المدينة أو إلى الجبال من حيث كانت تُرى المدينةُ كلّها وبهاءُ المتوسّط. لم ترَ قط، بحسب فانيسا شخصاً بمثل تلك الحيويّة. أطفال حيويون هكذا، بلى رأت، لكنّهم بضعة أطفال. لكنّها لم ترّ راشدين إطلاقاً.

عندما سأل بيليتير فانيسا عمّا إذا كان ابنها ابن المراكشيّ أيضاً، أجابته العاهرة لا، ولاحظ في جوابها شيئاً يدّل أنّ السؤال بدا لها مهيناً أو جارحاً، كطريقة لازدراء ابنها. كان هذا أبيض، شبه أشقر، قالت،

وأتمّ السادسة من عمره، حين تعرّفت، إذا لم تخطئها الذاكرةُ، على المراكشيّ. كانت مرحلة رهيبة من حياتي، قالتْ دون أن تدخل في التفاصيل. أيضاً لم يكن من الممكن القول بأنّ ظهور المراكشي كان ربّانياً. بالنسبة إليها عندما تعرّفت عليه كانت في مرحلة سيّئة، لكن هو أيضاً كانت ميتاً من الجوع.

كان بيليتير معجباً بِفانيسا والتقيا عدّة مرّات. كانت صبيّة شابة وطويلة، مستقيمة الأنف، كإغريقية، ولها نظرة فولاذيّة ومتكبّرة. ازدراؤها للثقافة، وخاصّة للثقافة المكتوبة، فيها شيءٌ من المدرسي، شيءٌ تختلط فيه البراءةُ والأناقة، شيءٌ يُكثّفُ، بحسب ما كان يعتقد بيليتير، الطهارةَ إلى درجة أنّ فانيسا تستطيع أن تسمح لنفسها بأن تقول كلّ أنواع الفحش، دون أن يأخذه أحد في حسبانه. وذات ليلة وبعد أن مارسا الحبَّ، نهض بيليتير عارياً وبحث بين كتبه عن رواية لِأرشيمبولدي. وقع اختياره بعد أن تردّد برهة على *القناع الجلدي*، ظنّاً منه بأنّ من الممكن لفانيسا، إذا حالفه الحظّ، أن تقرأها كرواية رعب، ويمكن أن تشعر بنفسها مشدودةً إلى الجانب المفجع من الكتاب. في البداية فاجأتها الهديّة ثمّ أثّرت فيها، فقد كانت معتادة على أن يهديها زبائنها ثياباً أو أحذيةً أو ملابسَ داخليّة. الحقيقة أنّها سُعدت جدّاً بالكتاب، خاصّة حين شرح لها بيليتير من هو أرشيمبولدي والدور الذي كان يلعبه الكاتبُ الألماني في حياته.

- كما لو أنّك تهديني شيئاً لك -قالت فانيسا.

ترك هذه التعليق بيليتير مشوّشاً قليلاً، فهو من ناحية كذلك فعلاً، فأرشيمبولدي كان قد صار شيئاً له، ينتمي إليه بقدر ما كان قد بدأ، هو مع قلّة آخرين، قراءةً مختلفة للألماني، قراءةً كانت ستدوم، قراءةً طموحة ككتابات أرشيمبولدي، وستُرافق أعمال أرشيمبولدي زمناً طويلاً إلى أن تُسْتَنْفدُ القراءةُ أو تُستنفد (وهذا ما لم يكن يعتقد به) الكتاباتُ الأرشيمبولدية، قدرةُ أعمال أشيمبولدي على إثارة المشاعر

وإيحاءاتها، هذا ولم تكن، من ناحية أخرى، كذلك، فأحياناً، خاصّة بعد أن أُلغيت الرحلاتُ إلى لندن وما عاد يرى نورتون، صارت أعمال أرشيمبولدي، أي رواياته وقصصه، شيئاً، عجينةً كلامية هيوليةً وغامضة، غريبة تماماً عنه، شيئاً يظهر ويختفي بطريقة فوق كلّ شيء اعتباطية، هي حرفيّاً ذريعة، بابٌ زائف، لقبٌ قاتل، حوضُ استحمام في فندق مليء بسائلٍ مشيميّ، حيث قد ينتهي هو، جان-كلود بيليتير بالانتحار، مجانياً، مشوشاً. لماذا لا.

تماماً كما توقّع، لم تقل له فانيسا قط رأيها بالكتاب. رافقها ذات يوم إلى بيتها. كانت تعيش في حيٍّ عمّاليّ لا يندر فيها المهاجرون. حين وصلا كان ابنها يُشاهد التلفزيون فوبّخته فانيسا لأنّه لم يذهب إلى المدرسة. قال لها الصغير إنّه كان يشعر بألم في معدته فحضّرت له فانيسا على الفور مغليّ أعشاب. راقبها بيليتير وهي تتحرّكُ في المطبخ. الطاقة التي كانت تنشرها فانيسا لم يكن لها كابح وتسعون بالمئة منها كان يُبدّد في حركات غير مجدية. كان البيت فوضى كاملة، عزاها في جزء منها إلى الطفل والمراكشيّ، لكنّ المسؤولة عنه أساساً هي فانيسا.

بعد برهة قصيرة، مشدوداً بجلبة المطبخ (ملاعق تسقط على الأرض، كأسٌ يُكسر، صرخات ليست موجّهة لأحدٍ، بحقّ الشيطان، أين هي الأعشاب للمغلي)، ظهر المراكشيُّ. وتصافحا دون أن يُقدّمهما أحد. كان المراكشي قصيراً ونحيلاً. سريعاً سيصبح الطفل أطولَ وأقوى منه. كان شاربه كثّاً وراح يصلع. جلس بعد أن سلّم على بيليتير وهو ما يزال نصفَ نائم على الأريكة وراح يُشاهد مع الصغير فيلم الكرتون. حين خرجت فانيسا من المطبخ، قال بيليتير إنّ عليه أن يذهب.

- لا يوجد أيّ مشكلة -قالت.

كان جوابها يتضمّن جرعة من العدوانية، لكنّه تذكّر بعدها أنّ فانيسا كانت هكذا. أخذ الطفل رشفة من المغلي وقال إنّه ينقصه سكّر

ولم يعد ليلمس الكأس الذي كان يصدر عنه بخار وتطفو فيه بعض الأوراق التي بدت لبيليتير غريبة ومُريبة.

في ذلك الصباح، بينما كان في الجامعة قضى وقت فراغه بالتفكير بفانيسا. حين عاد والتقى بها لم يُمارسا الحب، بالرغم من أنّه دفع لها كما لو أنّهما مارساه، وبقيا يتكلّمان ساعاتٍ، كان بيليتير قبل أن يأخذه النومُ قد توصّل إلى بعض الاستنتاجات: كانت فانيسا مستعدة تماماً، سواءً نفسياً أو جسدياً كي تعيش في العصور الوسطى. لم يكن لمفهوم «الحياة الحديثة» بالنسبة إليها معنى. كانت تثق أكثر فيما تراه مما بوسائل الاتصال. كانت شكّاكة وشجاعة، وإن كانت شجاعتها تجعلها بشكلٍ مناقض، تثق، مثلاً، بنادلٍ بمفتّشٍ في القطار، بزميلةٍ في وضع حرج، الذين يكادون يخونون دائماً أو يُخيّبون الثقة الموضوعة فيهم. هذه الخيانات كانت تُخرجها عن طورها ويمكن أن تقودها إلى حالات من العنف لا تخطر ببال. هي أيضاً ضاغِنة، كانت تتبجّح بأنّها تقول الأشياء في الوجه، دون مواربة. كانت تعتبر نفسها امرأة حرّة وعندها أجوبة لكلِّ شيء. لا يهمّها ما لا تفهمُهُ. لم تكن تُفكِّرُ بمستقبل ابنها، بل بالحاضِر، الحاضر الأبديّ. كانت حلوة، لكنّها لا تعتبر نفسها حلوة. أكثر من نصف أصدقائها كانوا مهاجرين مغاربة، لكنّها، هي التي لم تصوِّت قط لِلوبان، كانت ترى في الهجرة خطراً على فرنسا.

- العاهرات -قال إسبينوزا في الليلة التي حكى له فيها بيليتير عن فانيسا- عليك أن تنيكهنّ لا أن تعمل معهنّ طبيباً نفسياً.

كان إسبينوزا على العكس من صديقه، لم يكن يتذكّرُ اسمَ أيّ منهنّ. فمن جهة هناك الأجساد والوجوه ومن جهة أخرى ما يشبه أنبوب التهوية، تدور فيه لورِنا، لولا، مارتا، باولا، سوزانا، أسماء بلا أجساد، وجوه بلا أسماء.

لم يكّرر مع أيّ منهنّ مرّتين. عرف دومنيكانية، برازيلية، ثلاث

أندلسيات، كتلانية. تعلّم منذ المرّة الأولى أن يكون الرجلَ الصامت، الرجلَ حسنَ الهندام الذي يدفع ويشير، أحياناً بإيماءة، إلى ما يريد، يلبس بعدها ويذهب كما لو أنّه لم يكن هناك أبداً. عرف تشيلية كانت تُعلن أنّها تشيليّة، كولومبية كانت تعلن أنّها كولومبيّة، كما لو أنّ كلا الجنسيّتين تملكان جاذبية إضافية. مارسه مع فرنسية مع بولنديتين، مع روسيّة، مع أوكرانية، مع ألمانية. وذات ليلة نام مع مكسيكية وكانت الأفضل.

كما كان يفعل دائماً دخلا إلى فندق وحين استيقظ في الصباح لم تكن المكسيكيةُ هناك. كان ذلك اليوم غريباً. كما لو أنّ شيئاً انفزر في داخله. بقي ربهة طويلة جالساً في السرير، عارياً، وقدماه مستندتان إلى الأرض، محاولاً أن يتذكّر شيئاً غير واضح. حين دخل تحت المرذاذ انتبهَ إلى أنّ هناك علامة تحت الأوربيّة. كان كما لو أنّ أحداً مصّهُ أو وضع علقةً هناك على ساقه اليسرى، كانت البقعة البنفسجية كبيرة كقبضة طفل. أول شيء فكّر به هو أنّ العاهرة مصّته هناك وحاول أن يتذكّر، لكنّه لم يستطِع، الصور الوحيدة التي كان يتذكّرها هي صوره فوقها، صور ساقيه فوق كتفيها وبعض الكلمات المبهمة، التي لا يمكن فكّ لغزها، لم يعرف من الذي لفظها هو أم المكسيكية، ربّما كانت بعض الكلمات البذيئة.

ظنّ خلال بضعة أيّام أنّه نسيها، إلى أن اكتشف نفسه ذات ليلة وهو يبحث عنها في شوارع مدريد، التي تتردّد عليها العاهرات أو في كاسا دِ كامبّو. وذات ليلة ظنّ أنّه رآها فتبعها. لمسها على كتفها. المرأة التي التفتت كانت إسبانيّة ولا تشبه في شيءٍ العاهرة المكسيكية. وذات ليلة أخرى ظنّ في الحلم أنّه يتذكّر ما قالته له. انتبه إلى أنّه كان يحلمُ وانتبه إلى أنّ الحلمَ سوف ينتهي نهاية سيّئة، انتبه إلى أنّ احتمال أن ينسى كلماتها كان كبيراً وأنّه ربّما كان هذا هو الأفضل، لكنّه عمل كل ما بوسعه كي يتذكّرها بعد أن استيقظ. ، حتى أنّه حاول وسط

الحلم، الذي كانت سماؤه تتحرّك مثل إعصار بالكاميرا البطيئة، استيقاظاً قسريّاً، حاول أن يُشعل الضوء، حاول أن يصرخ، وأن يُعيده صراخُهُ إلى اليقظة، لكنّ مصابيح بيته بدا أنّها احترقت، وبدل الصراخ لم يسمع غير أنين بعيد، كأنين طفلٍ أو طفلة أو ربّما حيوان لجأ إلى غرفة معزولة.

طبعاً لم يتذكّر شيئاً حين استيقظ، فقط تذكّر أنّه حلم بالمكسيكية وبأن هذه كانت واقفةً وسط ممرٍّ طويل سيّئ الإضاءة وأنّه كان يُراقبها دون أن تنتبه هي. بدا له أنّ المكسيكية كانت تقرأ شيئاً على الجدار، غرافيتي أو رسائل مهووسة مكتوبة بقلم تخطيط كانت تُهجّيها ببطء، كما لو أنّها لا تعرف أن تقرأ بصمتٍ. بقي أيّاماً أخرى يبحث عنها، لكنّه تعب بعدها ونام مع هنغاريّة، مع إسبانيّتين، مع غامبيّة، مع سنغالية ومع أرجنتينية. لم يحلم بعدها قط بها ونجح أخيراً في نسيانها.

انتهى الزمن، الذي يُخمدُ كلّ شيء، بأن محا من ضميريهما الشعورَ بالذنب الذي حقنهما به حادث لندن العنيف. عادا ذات يوم إلى أعمالهما طازجين مثل خسّة. جدّدا كتاباتهما ومحاضراتهما بصرامة غير معهودة، كما لو أنّ مرحلةَ العاهرات كانت سفينة استجمام عبر المتوسّط. زادا من تكرار اتصالاتهما بِموريني، الذين أبقيا عليه أوّلاً على هامش مغامراتهما؛ ثمّ ودون مواربة في النسيان. وجدا الإيطاليَّ أسوأ حالاً قليلاً من المعتاد، لكنّه بذات الحرارة والذكاء والحصافة وهو ما يُعادل القولَ بأنّ أستاذ الجامعة لم يوجّه إليهما أيّ سؤال، لم يجبرهما على أن يدليا بأيّ مسارّة. وذات ليلة، وليس دون مفاجأة للاثنين قال بيليتير لِإسبينوزا إنّ موريني مثل مكافأة. مكافأة كانت تمنحها الآلهة للاثنين. لم يكن لهذا التأكيد ممسكاً والحديث عنه يعني الدخول مباشرة في أرض الحذلقة السبخة، لكنّ إسبينوزا الذي كان يُفكّر مثله وإن كان كلمات أخرى، أعطاه الحقّ. عادت لتبتسم لهما

الحياة. سافرا إلى بعض المؤتمرات. تمتعا بلذيذ الطعام. قرأا وكانا هفهافين. كلّ ما كان حولهما توقّف وطقطق وصدئ، عاد ليدخل في الحركة. صارت حياة الآخرين مرئيّة، وإن كان دون مبالغة. اختفت حالات تبكيت الضمير مثل ضحكات ليلة ربيعية. عادا ليهتفا لِنورتون.

تواعد بيليتير وإسبينوزا ونورتون وهم ما زالوا متأثرين اللقاء الجديد، في بار أو مقهى منمنم (صغير جدّاً فعلاً: طاولتان وطاولة عرض، لا تتسع إلا لرجلٍ لرجلٍ بجانبِ رجل، ليس لأكثر من أربعة زبائن) تابعٍ لصالة عرض مخالفة للشروط، أكبر من البار بقليل، مخصّصة لعرضِ اللوحات ولبيع الكتب المستعملة والملابس المستعملة والأحذية المستعملة، موجودة بين هايد وبارك غيت، قريبة جدّا من سفارة هولندا، البلد الذي قال الثلاثة بأنّهم معجبون به نظراً لاستقامة ديمقراطيته.

هناك يُقدِّمون بحسب نورتون، أفضل كوكتيل مرغريتا في لندن كلّها، الأمر الذي لم يكن يهمّ بيليتير ولا إسبينوزا، بالرغم من التظاهر بالحماس. طبعاً كانوا الزبائن الوحيدين في المحلّ، الذي كان مستخدَمُه أو مالكه يعطي انطباعاً في تلك الساعة، بأنّه نائم أو مستيقظ توّاً، التعبير الذي يتناقض مع وجهي بيليتير وإسبينوزا، اللذين بالرغم من أنّهما استيقظا في السابعة صباحاً، وأنهما أخذا الطائرة وكان على كلّ منهما أن يتحمّل تأخّر طائرته، إلا أنّهما كانا منتعشين ونضيرين، مستعدّين لأن يستنفدا نهاية أسبوع لندنيّة.

في البداية، وهذه حقيقة، وجدا صعوبةً بالكلام. استغلَّ بيليتير وإسبينوزا الصمت كي يتأمّلا نورتون: وجداها كما هي دائماً في غاية الحلاوة والجاذبيّة. كانت تشدّهما من حين لآخر الخطوات النمليّة لمالك الصالة، الذي كان يرفع ملابسَ عن مشجب ويحملها إلى غرفة في العمق، من حيث كان يخرج بملابس مماثلة أو مشابهة جدّاً، يُودعها في المكان الذي كانت معلّقة إليه الملابس الأخرى.

الصمت ذاته الذي لم يزعج بيليتير وإسبينوزا كان بالنسبة لِنورتون ساحقاً ودفعها لأن تحكي بسرعة وبشيء من الضراوة، عن نشاطاتها التعليمية خلال الفترة التي لم يلتقوا فيها. كان الموضوع مضجراً واستُنْفِدَ فوراً، وهو ما حمل نورتون على التعليق على كلّ ما فعلته في اليوم السابق والسابق على سابقِ السابق، لكنّها وجدت نفسَها مرّة أخرى دون أي شيء تقوله. بقوا برهة يبتسمون مثل سناجيب، وتفرّغ الثلاثة لكوكتيل المرغريتا، لكنّ الصمت صار لا يُطاق في كلّ مرّة أكثر، كما لو أنّهم في داخلهم، في المرحلة الانتقالية للصمت، راحوا يُشكّلون ببطءٍ الكلماتِ التي تتمزّق والأفكار التي تتمزّق، وهذا ليس فرجة ولا رقصة جديرة بالتأمّل ببرودة. ولذلك اعتبر إسبينوزا أنّ من الصائب أن يستلهم رحلةً إلى سويسرا، رحلة لم تُشارك فيها نورتون وبالتالي ربّما تستطيع الحكاية أن تُسلّيها.

لم يستبعد إسبينوزا في استحضاره المدنَ المنظّمة ولا الأنهارَ التي كانت تدعو للدراسة ولا السفوح التي ترتدي في الربيع فستانها الأخضر. تحدّث بعدها عن رحلة في القطار، بعد انتهاء العمل الذي جمع الثلاثة هناك، إلى حقول العنب، إلى إحدى القرى الواقعة في منتصف الطريق بين مونترو وسفوح الألب في بِرن، حيث تعاقدوا مع سيّارة أجرة أقلّتهم متبعة طريقاً متعرّجاً لكنّه معبّد بشكل ممتاز، إلى مُنتجَعٍ يحمل اسم سياسيٍّ أو رجلِ مالٍ سويسري من نهاية القرن التاسع عشر، مُنتجع أوغوست ديمار، الاسم الذي لا غبار عليه وكان يخفي وراءه مشفى مجانين حضاريّاً وحصيفاً.

فكرة الذهاب إلى مثل هذا المكان لم تكن فكرة بيليتير ولا إسبينوزا، بل فكرة موريني، ومن يدري كيف عرف الإيطاليّ أنّ رسّاماً كان يُقدّرُ أنّه واحد من أكثر رسامي نهاية القرن العشرين تكديراً. أو لا. ربّما لم يقل الإيطاليّ هذا. على كلّ حال اسم هذا الرسام هو

إدوين جونز وكان قد قطع يده اليمنى، اليدَ التي كان يرسم بها وحنّطها ولصقها على نوع من رسم الذات المتعدِّد.

- كيف حدث ولم تحكيا لي قط هذه القصّة؟ -قاطعته نورتون

- هزّ إسبينوزا كتفيه.

- أظنُّ أنّني حكيتها لك -قال بيليتير.

مع أنّه انتبه بعد برهة قصيرة إلى أنّه لم يحكِها لها.

فاجأت نورتون الجميع مطلقة ضحكة غير لائقة وطلبت كوكتيل مرغريتا آخر. بقي الثلاثة صامتين برهةً، الوقت الذي استغرقه المالك، الذي كان ما يزال يُنزل ويعلّق ملابس، في إحضار كؤوس الكوكتيل. بعدها اضطرّ إسبينوزا أمام توسّلات نورتون أن يتابع قصّته. لكنّ إسبينوزا لم يبغ.

-احكها أنت -قال لبيليتير-، أنتَ أيضاً كنتَ هناك.

بدأت قصّة بيليتير عند ذلك بالأرشيمبولديين الثلاثة وهم يتأمّلون السياج الحديديَّ الأسودَ الذي كان ينتصب ليُرحّب وليمنع الخروج (وبعض الدخول غير المزعج) من منتجع أوغوست ديمار للمجانين، أو قبل بضع ثوان، مع إسبينوزا وموريني في كرسيّ عجلاته يتأمّل البوّابة الحديدية والسياج الحديدي الذي كان يضيع يمنة ويسرةً، تُخفيه أشجارٌ معمّرة معتنى بها جيّداً، بينما إسبينوزا ونصف جسمه داخل سيّارة الأجرة، يدفع للسائق في الوقت الذي يتفق معه على ساعة مناسبة كي يصعد من البلدة في طلبهم. واجه الثلاثة بعدها طيف العصفوريّة، التي كانت تسمح برؤيتها جزئيّاً في نهاية الطريق، كأنّها حصن من حصون القرن الخامس عشر، ليس بعمارتها، بل بما كانت توحي به عطالتُها غير المتوقّعة للمراقب.

وبماذا كانت توحي؟ بإحساسٍ غريب. مثلاً بيقين أنّ القارّة الأمريكية لم تُكتَشَف، بمعنى أنّ القارّة الأمريكية لم توجد قط، وهو ما لم يكن عائقاً، حقّاً، أمام النموّ الاقتصادي الراسخ أو أمام النموّ

السكاني العادي أو أمام المسيرة الديمقراطية للجمهوريّة السويسريّة. يعني في النهاية، قال بيليتير، إحدى تلك الأفكار الغريبة وغير المجدية التي يُشارك فيها أثناء الأسفار، خاصّة إذا كانت الرحلة عقيمة بشكل واضح كما من المحتمل أنّ تلك الرحلة كانت.

بعدها بدؤوا بالمرور على كلّ الإجراءات العقيمة والعقبات البيروقراطية في مصحٍّ عقليّ سويسري. أخيراً ودون أن يكونوا قد رأوا في أيّ لحظة أيّاً من المرضى العقليين، قادتهم ممرّضة متوسّطةُ العمر لها وجه مصمت، إلى جناح صغير في الحدائق الخلفية من المنتجع، الذي كان هائلاً ويتمتع بمنظر زاوٍ، لكنّ انحداره الطبوغرافي كان كبيراً، وهو ما لم يكن، بحسب محاكمة بيليتير، الذي كان هو من يدفع كرسيّ عجلات موريني، مطمئناً بالنسبة إلى طبيعة تعاني من اضطرابات خطيرة أو خطيرة جدّاً.

كان الجناح بعكس ما توقّعوا، مكاناً مريحاً ولطيفاً، محاطاً بالصنوبر وفي داخله كراسٍ تُحاكي رغدَ الريف الإنكليزي، مدخنة، طاولة بلوط، رفّ كتب نصف فارغ (العناوين جميعها تقريباً بالألمانية وإن كان هناك كتاب ما بالإنكليزيّة)، طاولة خاصّة مزوّدة بمودم، ديوان من النوع التركي لا يتناغم مع بقيّة الأثاث، حمّام فيه مرحاض ومغسلة بل وأيضاً مرذاذ من البلاستيك القاسي.

- لا يعيشون بشكلٍ سيّئ -قال إسبينوزا.

فضّل بيليتير أن يقترب من إحدى النوافذ ويتأمّل المنظر. اعتقد أنّه رأى مدينة في عمق الجبال. ربّما كانت منترو، قال لنفسه، أو ربّما القرية التي أخذوا فيها سيّارة الأجرة. البحيرة لم تكنّ حقّاً تميَّز ولا بشكلٍ من الأشكال. حين اقترب إسبينوزا من النافذة كان مع الرأي القائل بأنّها القرية وليس إطلاقاً مع أن تكون منترو. بقي موريني ساكناً في كرسيّ عجلاته ونظره ثابتاً على الباب.

حين فُتِح البابُ كان موريني أوّلَ من رآه. كان شعر إدوين جونس سبطاً، بالرغم من أنّه بدأ يخفُّ في قمّة رأسه، وبشرته شاحبة ولم يكن مفرطَ الطول وإن كان ما يزال نحيلاً. كان يرتدي كنزة رمادية عالية القبّة وسترة رقيقة من الجلد. أوّل ما أمعن به كانت كرسيّ عجلاتِ موريني، الذي فاجأه بشكل لطيف، كما لو أنّه لم يكن يتوقّع هذا التجسّد المباغِت. موريني لم يستطِع من جهته أن يتفادى النظرَ إلى الذراع الأيمن، الذي لا توجد فيه اليدُ وكانت مفاجأتهُ، التي لم يكن فيها شيء لطيف، كبيرة حين تأكّد أن في معصم كمّ السترة، حيث يجب أن لا يوجد شيء، كانت تبرز منه الآن يد، واضح أنّها بلاستيكية، لكنّها من الإتقان بحيث أنّه وحده المتمعّن الصبور والعارف قادر على أن يحدسَ بأنّها كانت يداً بلاستيكيّة.

دخلت خلف جونس ممرِّضة، ليست التي استقبلتهم، بل أخرى، أفتى قليلاً وأكثر شقرةً بكثير، جلست على كرسيّ بجانب إحدى النوافذ وأخرجت كُتيّبَ جيب، كثير الصفحات وبأت تقرأ، متحرّرة تماماً من جونس والزائرين. قدّم موريني نفسه كلغويّ في جامعة تورين وكمعجب بأعمال جونس ثم شرع يُقدّم أصدقاءه. بقي جونس طيلة الوقت واقفاً، لا يتحرّك، مدّ يده إلى إسبينوزا وبيليتير، اللذين صافحاها بحذر، ثمّ جلس على كرسيّ بجانب الطاولة وراح يمعن النظرَ في موريني، كما لو أنّه لا يوجد في تلك القاعة غيرهما.

في البداية قام جونس بجهد خفيف، يكاد لا يُحس به كي يقيم حواراً. سأل عمّا إذا اقتنى موريني أحد أعماله. جاء جواب موريني بالنفي. قال لا، ثمّ أضاف إنّ أعمال جونس غالية أكثر من اللازم بالنسبة إلى جيبه. إسبينوزا لاحظ عندئذٍ أنّ الكتابَ الذي لم تكن الممرّضة ترفع عينيها عنه هو مختارات من أدب القرن العشرين الألماني. نكز بمرفقهِ بيليتير وهذا سأل الممرِّضةَ مدفوعاً بكسر جليدَ الصمت أكثر مما بفضول، عمّا إذا كان بِنّو فون أرشيمبولدي بين كتّاب

المختارات. في تلك اللحظة سمع الجميعُ غناءَ أو نداء غراب. أجابت الممرِّضَةُ بالإيجاب. بدأ جونس يَحْوِلُ عينيه ثم أغمضهما ومرّ بيده الصناعية على وجهه.

- الكتاب لي -قال-، أنا أعرته لها.

- غير معقول -قال موريني-، يا للمصادفة.

- طبعاً أنا لم أقرأه، لا أعرف الألمانية.

عند ذلك سأله إسبينوزا، عن السبب الذي جعله يشتريه.

من أجل الغلاف -قال جونس-. عليه رسم لهانز ويت، إنّه رسام جيّد. فيما عدا ذلك -قال جونس- ليست المسألة مسألة أن تؤمن أو لا تؤمن بالمصادفات. العالم كلّه مصادفة. كان لي صديق يقول لي إنّني أخطئ بالتفكير بهذه الطريقة. كان صديقي يقول لي، إن العالم بالنسبة لمن يُسافر في قطار ليس مصادفة، حتى ولو عبر القطار أراضٍ مجهولة بالنسبة للمُسافِر، أراضٍ لن يعود المُسافِر ليراها أبداً في حياته. أيضاً ليس مُصادفة بالنسبة لمن يستيقظ في السادسة صباحاً ميتاً من النعاس كي يذهب إلى عمله. بالنسبة لمن ليس أمامه غير أن يستيقظ ويُضيف مزيداً من الألم إلى الألم المتراكم. الألم يتراكم، كان صديقي يقول، هذه حقيقة، وكلّما كان الألم شديداً كلّما كانت المصادفة أقل.

- هل هو كما لو أنّ المصادفة ترف؟ -سأل موريني.

رأى إسبينوزا، الذي تابع مونولوج جونس في تلك اللحظة بيليتير بجانب المُمَرِّضة ومرفقه مستنداً إلى حافة النافذة بينما يُساعد هذه بيده الأخرى بحركة مهذبة في البحث عن الصفحة التي فيها قصّة أرشيمبولدي. الممرّضة جالسة على الكرسيّ والكتاب في حضنها وبيليتير واقف بجانبها بوضعية لا تخلو من الرصانة. وإطار النافذة والورود في الخارج وفيما وراءها العشب والأشجار والمساء يزحف بين المنحدرات الصخرية والشعاب والصخور الموحشة. الظلال التي كانت تتحرّك غير محسوس بها داخل الجناح خالقة زوايا حيث لم تكن

من قبل، رسوماً مقلقلة تظهر فجأة على الجدران، دوائر كانت تظهر مثل انفجارات بلا صوت.

- المصادفة ليست ترفاً، هي الوجه الآخر للقدر وأكثر قليلاً أيضاً -قال جونس.

- ما هو ؟ -سأل موريني.

- شيء، يفوت صديقي لسبب بسيط ومفهوم جدّاً. صديقي (ربّما كان افتراض منّي أن أبقى أسمّيه هكذا) كان يؤمن بالإنسانية، وبالتالي يؤمن بالنظام، بنظام الرسمِ وبنظامِ الكلمة، الذي لا يتمّ الرسم بشيء غيره. كان يؤمن بالخلاص. بل يمكن أنه كان يؤمن في أعماقه بالتقدّم. المصادفة بالعكس، هي الحرّية المطلقة التي ننزع إليها بطبيعتنا. المصادفة لا تخضع لقوانين، وإذا خضعت لها، فنحن لا نعرفها. المصادفة، إذا ما سمحت لي بالتشبيه، كما الله الذي يتبدّى في كلِّ ثانية في كوكبنا. إله غامض بحركات غامضة موجّهة إلى مخلوقاته الغامضة. في هذا الإعصار، أو الانحسار العظمي نحو الداخل تتحقّق الوحدة. وحدة المصادفة مع البقايا ووحدة البقايا معنا.

عند ذلك، بالضبط عند ذلك سمع إسبينوزا وأيضاً بيليتير أو حدسا أنّ موريني كان يصوغ بصوت خافت السؤال الذي ذهب ليطرحه، متقدّماً بجذعه إلى الأمام في وضعيّة جعلتهما يخافان أن يسقط من كرسيّ عجلاته.

- لماذا بترت يدك؟

بدا وجهُ موريني مخترقاً بآخر الأضواء التي كانت تدور في حديقة المَصحّ العقلي. استمع إليه جونس رابطَ الجأش. كان من الممكن أن يُقال إنّه كان يَعرف أنّ رجل كرسيّ العجلات جاء لزيارته كي يبحث، مثل آخرين كثيرين قبله، عن جواب.

- هل ستنشر هذه المقابلة؟

- ولا بشكلٍ من الأشكال -قال موريني.

- إذن ما معنى أن تسألني عن شيء مثل هذا؟
- أرغب بأن أسمعك تقوله أنت -همس موريني.
رفع جونس يده اليمنى بحركة بدت لِبيليتير بطيئةً ومدروسةً وأبقى عليها على بعد سنتمترات قليلة من وجه موريني المترقِّب.
- هل تعتقد أنّك تُشبهني؟ -سأله جونس.
- لا، أنا لستُ فنّاناً -أجاب موريني.
- أنا أيضاً لستُ فنّاناً -قال جونس-. هل تعتقد أنّك تُشبهني؟
حرّك موريني رأسه إلى هذا الجانب وذاك وتحرّك معه كرسيُّ العجلاتِ أيضاً. نظر إليه جونس برهةً بابتسامة خفيفة مرسومة على شفتيه الرفيقتين جدّاً ولا دم فيهما.
- لماذا تعتقد أنّني فعلتُ ذلك؟ -سأل.
- لا أعرفُ، بِصراحةٍ لا أعرف -قال موريني ناظراً إلى عينيه.
كان الإيطاليّ والإنكليزي محاطَيْن الآن بالظلمة الناقصة. قامت الممرّضة بحركة من سينهضُ كي يُشعل الأضواء، لكنّ بيليتير حمل إصبعاً إلى شفتيه ولم يتركها تفعل. عادت الممرّضة وجلست. كان حذاء الممرِّضة أبيض وحذاءا بيليتير وإسبينوزا أسودين. كان حذاء موريني بنيّاً وحذاء جونس أبيض ومصمّم للجري لمسافات طويلة، سواء على بلاط شوارع المدينة كما عبر الريف. كان هذا آخر ما رآه بيليتير، لون الأحذية وشكلها وسكونها قبل أن يُغرقهما الليلُ في العَدَمِ البارد لجبالِ الألب.
- سأقولُ لك لماذا فعلتُ ذلك -قال جونس، وغادر جسمُهُ لأوّل مرّة التخشّبَ وانتصاب القامة، العسكري وانحنى واقترب من موريني وهمس له شيئاً في أذنه.
نهض بعدها واقترب من إسبينوزا وصافحه بأدبٍ جمّ، ثم فعل الشيء ذاته مع بيليتير وغادر بعدها الجناحَ وخرجت المُمرِّضة وراءه.
حين أُشعل النور، لفت إسبينوزا انتباههما إلى أنّ جونس لم

يُصافح يدَ موريني لا في بداية المقابلة ولا في نهايتها. ردّ بيليتير بأنّه بلى انتبه. موريني لم يقل شيئاً. بينما كانوا يسيرون في الحديقة قال لهما إنّ سائق سيّارة الأجرة ينتظرهم في المدخل.

أقلّتهم سيارةُ الأجرة إلى مونترو، حيث قضوا الليل في فندق هيلفيتيا. كان الثلاثة في غاية التعب فقرَّروا ألا يخرجوا للعشاء. ومع ذلك هتف إسبينوزا بعد ساعتين إلى غرفة بيليتير وقال له إنّه جائع وسيخرج ليقوم بجولة ليرى ما إذا كان سيجد محلّاً مفتوحاً. قال له بيليتير أن ينتظره، وإنّه سيُرافقه. حين التقيا في اللوبي سأله بيليتير عمّا إذا هتف لِموريني.

- هتفت -قال إسبينوزا-، لكنَّ أحداً لم يردّ.

قرّرا أنّ الإيطاليّ لا بدّ نائم. وصلا في تلك الليلة إلى الفندق متأخِّرين وسكرانين قليلاً. ذهبا في صباح اليوم التالي ليبحثا عن موريني في غرفته ولم يجداه. قال لهما موظّف الاستقبال أنّ الزبون بييرو موريني ألغى حجزه وغادر المحل في الثانية عشرة من ليلة أمس (بينما كان بيليتير وإسبينوزا يتعشيان في مطعم إيطاليّ)، بحسب ما ورد في الحاسوب. نزل في تلك الساعة إلى الاستقبال وأمرهم أن يطلبوا له سيّارة أجرة.

- غادر في الثانية عشرة ليلاً؟ إلى أين؟

طبعاً عامل الاستقبال لم يكن يعرف.

غادر بيليتير وإسبينوزا في ذلك الصباح، بعد أن تأكّدا من أنّ موريني ليس في أيّ مشفى من مونترو ومحيطها، بالقطار إلى جنيف. هتفا من مطار جنيف إلى بيت موريني في تورين، وحده المجيب الآلي، الذي شتماه بانفعال، ردَّ عليهما. بعدها أخذ كلّ منهما طائرةً إلى مدينته.

ما إن وصل إسبينوزا إلى مدريد حتى هتف لِبيليتير. قال له هذا، الذي كان قد مضى عليه قرابة الساعة في بيته، إنّه لا يوجد أيّ جديد

عن موريني. بقي إسبينوزا كما بيليتير يتركان رسائل في مجيب هاتف الإيطالي في وهما في كلّ مرّة أكثر إذعاناً. في اليوم التالي قلقا فعلاً بل وراودتهما فكرة أن يطيرا إلى تورين وفي حال عدم رؤيتهما لِموريني، أن يضعا القضيّة بين يدي القضاء. لكنّهما لم يبغيا أن يتسرّعا ولا أن يصيرا مسخرة فهدأا.

كان اليوم الثالث مماثلاً لليوم الثاني: هتفا لِموريني، تهاتفا فيما بينهما. ووازنا بين عدّة طرقٍ للتصرّف، قدّرا صَحّةَ موريني العقلية، درجةَ نضجه التي لا تُنكر وشعورهِ العامّ ولم يفعلا شيئاً. في اليوم الرابع هتف بيليتير مباشرةً إلى جامعة تورين، تكلّم مع شابٌ نمساوي كان يعملُ مؤقّتاً في قسم اللغة الألمانية. لم يكن عند النمساويّ أدنى فكرة عن المكان الذي يمكن أن يوجد فيه موريني. طلب منه أن يصله بسكرتيرة القسم. قال له النمساوي إنّ السكرتيرة خرجت لتفطر ولم تعد بعد. هتف بيليتير فوراً إلى إسبينوزا وحكى له عن المكالمة بتفاصيل مترفة. قال له إسبينوزا أن يتركه يُجرّب حظّه.

هذه المرّة لم يردّ على الهاتف النمساويُّ بل طالبُ لغة ألمانية. ومع ذلك لم تكن لغة الطالب الألمانية جيدة، لذلك راح إسبينوزا يتكلّم معه بالإيطاليّة. سأله عمّا إذا عادت السكرتيرة. أجابه الطالب بأنه وحده ويبدو أنّ الجميع ذهبوا ليفطروا وأنّه لا يوجد أحد في القسم. أراد إسبينوزا أن يعرف في أيّة ساعة يفطرون في جامعة تورين وكم كان يدوم الفطور. لم يفهم الطالب إيطاليةَ إسبينوزا الركيكة فاضطر هذا لأن يُكرّر السؤال مرّتين أخريين، إلى أن أصبح عدوانيّاً قليلاً.

قال له الطالبُ إنّه هوَ، مثلاً، لا يفطر أبداً تقريباً لكن هذا لا يعني شيئاً، فلكلّ ذوقه. هل فهمت أم لم تفهم؟

- فهمت - قال إسبينوزا صارّاً بأسنانه.

- تكلّم معي - قال الطالبُ؟

عند ذلك سأله إسبينوزا عمّا إذا غاب الدكتور موريني عن بعض دروسه.

- لِأرَ، دعني أُفكّر -قال الطالب.

سمع إسبينوزا بعدها أحداً، الطالب نفسه يهمسُ موريني... موريني... موريني... بصوت لا يبدو صوته، بل صوت ساحر، أو أكثر تحديداً صوت ساحرة، متنبئة من عصر الإمبراطوريّة الرومانية، صوت يصل مثل تقطّر نبع بازلتي، لكنّه لا يلبث أن ينمو ويطفح بضجيج مُصمٍّ، بضجيجِ آلاف الأصوات، بهدير نهر عظيم خارج من مجرى يشمل، مشفراً، على مصير كلّ الأصوات.

- البارحة كان عليه أن يُعطي درساً ولم يأتِ -قال الطالب بعد أنْ تفكّر.

شكره إسبينوزا وأغلق الهاتف. عند العصر هتف مرّةً أخرى إلى بيت موريني ثم إلى بيليتير. لم يكن هناك أحد في كلا البيتين واضطرّ لأن يُذعن ويترك رسالة في المُجيب الآلي لكلا الهاتفين. راح بعدها يتفكّر. لكنّ أفكاره لم تصل إلى أبعد مما كان يحدث.، الماضي الصارم، الماضي الذي يكاد يكون ظاهرياً الحاضرَ. تذكّر صوت مُجيب هاتف موريني الآلي، الذي يُعلم باقتضاب، لكن بأدب أيضاً أنّه كان رقم بييرو موريني، وصوت بيليتير الذي بدل أن يقول أنّه هاتف بيليتير كان يُكرّر رقمه ذاته ويطلب ممن يهتف أن يقول اسمه ويقول رقم هاتفه ويعد وعداً غامضاً بأن يهتف له لاحقاً.

في تلك الليلة هتف بيليتير إلى إسبينوزا وقرّرا باتفاق مشترك أن يتركا بضعة أيام تمرّ، وأن يتجرّدا من كلّ التطيُّرات التي كانت عالقة بهما وألا يقعا في الهستيريا الرخيصة ويتذكّرا دائماً أن موريني، مهما فعل فهو حرّ في أن يفعل ما يشاء، وأنّهما في هذه النقطة لا يستطيعان (ولا يجب) أن يفعلا شيئاً لتفاديه. في تلك الليلة استطاعا للمرّة الأولى بعد عودتهما من سويسرا أن يناما مطمئنين.

في صباح اليوم التالي انطلق كلّ منهما إلى عمله بجسد مرتاح وروح هادئة، بالرغم من أن إسبينوزا لم يستطع، عند الساعة الحادية عشرة صباحاً وقبل أن يخرج ليتناول الفطور مع بعض الزملاء، أن يقاوم فعاد وهتف إلى قسم اللغة الألمانية في جامعة تورين وجاءت النتيجة المعروفة ذاتها. بعدها هتف له بيليتير من باريس واستشاره بما إذا كان من المناسب وضع نورتون في صورة الوضع أم لا.

وازنا بين المع والضدّ وقرّرا أن يحتفظا بحميميّةِ موريني وراء ستارٍ من الصمت، على الأقل حتى يعرفا شيئاً محدّداً عنه. بعد يومين هتف بيليتير، كما لو بفعلٍ لا إراديّ، إلى بيت موريني وفي هذه المرّة رفع أحد السمّاعة. عبّرت كلماتُ بيليتير الأولى عن الدهشة التي عاشها حين سمع صوتَ صديقه على الطرف الآخر من الخطّ.

- غير ممكن -صرخ بيليتير-، كيف يمكن، مستحيل.

جاء صوت موريني كما هو دائماً. جاءت بعدها التهنئات، الراحة، الاستيقاظ من حلم لم يكن سيّئاً وحسب بل غير مفهوم أيضاً. قال بيليتير وسط الحديث إنّ عليه أن يخبر إسبينوزا فوراً.

- لن تتحرّك من هناك، أليس كذلك؟ -سأله قبل أن يغلق.

- إلى أين تريدني أن أذهب؟ -قال موريني.

لكنّ بيليتير لم يهتف إلى إسبينوزا، بل صبّ لنفسهِ كأس ويسكي وتوجّه إلى المطبخ ثم إلى الحمّام ثمّ إلى مكتبه تاركاً أضواء البيت مشتعلة. بعدها فقط هتف لِإسبينوزا وحكى له أنّه عثر على موريني سالماً غانماً وأنّه تكلّم معه بالهاتف توّاً، لكنّه لا يستطيع أن يستمرّ بالكلام. شرب بعد أن أغلق كأسَ ويسكي آخر. بعد نصف ساعة هتف له إسبينوزا من مدريد. بالفعل كان موريني في حالة جيّدة. لم يقبل أن يقول له أين زجَّ نفسه خلال تلك الأيّام.. قال إنّه بحاجة لأن يرتاح. لأن يُصفّي أفكاره. كان موريني، بحسب إسبينوزا، الذي لم يبغِ أن

يضايقه بالأسئلة، يوحي بأنّه يريد أن يُخفي شيئاً. لكن، ما هو هذا الشيء؟ لم يكن عند إسبينوزا أدنى فكرة.

- في الحقيقة قليل جدّاً ما نعرفه عنه - قال بيليتير،

- هل سألته عن حالته الصحّية - ختم بيليتير.

قال إسبينوزا بلى، وإنّ موريني أكّد له أنّه في صحّة تامة.

- ما عاد باستطاعتنا أن نفعلَ شيئاً - خلص بيليتير بنبرةِ حزنٍ لم تَفُتْ إسبينوزا.

أغلقا بعد ذلك بقليل الهاتفَ وأخذا إسبينوزا كتاباً وحاول أن يقرأ، لكنّه لم يستطِع.

عند ذلك قالت لهما نورتون، بينما المستخدَمُ أو صاحب الصالة ما يزال يُنَزِّل ويعلّق ملابسَ، إنّ موريني كان خلال الأيّام التي اختفى فيها، في لندن.

- قضى اليومين الأوّلين وحده، دون أن يهتف لي ولا مرّة واحدة.

حين رأيته قال لي إنّه تفرّغ لزيارة المتاحف والتنزّه دون وجهة مُحدّدة في أحياء من المدينة المجهولة، الأحياء يتذكرها بشكل مشوّش من قصص تشيسترتون، لكّنه لم يعد لها أيّ علاقة بتشيسترتون، بالرغم من أنّ شبحَ الأبِ براون ما يزال فيها، بطريقة ليست دينية، قال موريني، كما لو أنّه كان يريد أن يُخفِّف حتى النواة من مأساةِ تيهِ المُستَوْحِد في المدينة، لكّنها كانت في الحقيقة تتصوّره محبوساً في الفندق والستائر مفتوحة، يتأمّل ساعة بعد ساعة منظرَ خلفياتِ الأبنية البائس ويقرأ. هتف لها بعد ذلك ودعاها إلى الغداء.

طبعاً فرحت نورتون عند سماعها له ومعرفتها أنّه في المدينة، فظهرت في الساعة المناسبة في الاستقبال حيث كان موريني جالساً في كرسيّ عجلاته، وصرّة في حضنه، حيث كان يُصارع بصبر وعدم اهتمام مرور الزبائن والزيارات التي كان يلفظها اللوبي مع عيّنات متحرّكة من

الحقائب، الوجوه المتعبة، العطور التي تتبع كالشهبِ الأجسادَ، موقف خدم الفندق الوقور والمتحفّز، ازرقاق هالتي عيني مدير أو معاون مدير مكتب الاستقبال الفلسفي المرافق دائماً من قبل مساعِدين كانا يشعان نضارة، النضارة ذاتها التي سرعان ما كانت تُضحي بها بعض الشابات (على شكل قهقهات شبحية) وكان موريني يُفضّل،كياسةً ألاّ يراها.
حين وصلت نورتون ذهبا إلى مطعمٍ في نوتينغ هيل، مطعم برازيلي ونباتي عرفته توّاً. حين علمت أنّ موريني في لندن منذ يومين، سألته، أي شياطين كان يفعل وبسبب أيّ شياطين لم يهتف لها. عندها حكى لها موريني موضوعَ تشيسترتون، وإنّه تفرّغ للتنزه، أطرى على التجهيزات الحضريّة من أجل مرور المقعدين المريح، على العكس تماماً من تورين، المدينة المليئة بالمعوقات لكراسي العجلات، قال إنّه ذهب إلى بعض مكتباتِ الكتبِ القديمة، وإنّه اشترى بعض النسخ التي لم يسمِّها، ذكر زيارتين إلى بيت شارلوك هولمز، كان بيكر ستريت أحدَ الشوارع المفضّلة عنده، الذي كان بالنسبة إليه، هو الإيطاليّ متوسّط العمر، المثقّف والمقعد والقارئ روايات بوليسية، خارجَ الزمن، أو في ما وراء الزمن، محفوظاً بحبٍّ (بالرغم من أنّ الكلمة لم تكن بحبّ بل بمهارة) في صفحات الدكتور واطسون. ذهبا بعدها إلى بيت نورتون وعندئذ سلّمها الهديّة التي كان قد اشتراها لها، كتاب عن برونليسكي، مع صورٍ رائعة لمصوّرين من أربع جنسيات مختلفة عن أبنية معماري عصر النهضة العظيم ذاتها.

- إنّها تفسيرات -قال موريني- أفضلها هو الفرنسي -قال- أقل من نال إعجابي هو الأمريكي. المبالِغ أكثر من اللازم، والراغب أكثر من اللازم باكتشاف برونليسكي. الألماني ليس سيّئاً، لكنّ الأفضل، كما أعتقد، هو الفرنسي، ستقولين لي رأيك لاحقاً.

بالرغم من أنّ نورتون لم تكن قد رأت الكتابَ قطّ، الذي كان يشكّل بورقه وبتجليده جوهرةً، بدا لها أنَّ فيه شيئاً مألوفاً. في اليوم

التالي التقيا أمام مسرح. كان مع موريني تذكرتان، اشتراهما من الفندق، وشاهدا مسرحية سيّئة، دهمائيّة، أضحكتهما، أضحكت نورتون أكثر من موريني، الذي كان يفوته معنى بعض الجمل التي قيلت بلغة لندنيّة مغلقة. في تلك الليلة تناولا العشاء معاً وحين سألته نورتون ماذا فعل في هذا اليوم، اعترف لها بزيارته لكنسينغتون جاردنز والحدائق الإيطالية في هايد بارك والتنزّه على غير هدى، مع أنّ نورتون تصوّرته، دون أن تدري لماذا، ساكناً بلا حركةٍ في الحديقة، يمطّ رأسه أحياناً كي يلمح شيئاً يفوته، مُغمَضَ العينين في أكثر الأحيان، متظاهراً بالنوم. وضّحت له نورتون، بينما هما يتناولان عشاءهما، الأشياءَ التي لم يفهما في المسرحية. عندها فقط انتبه موريني إلى أنّ المسرحيّة كانت أسوأ ممّا ظنّ. ومع ذلك ارتقى عمل الممثلين عنده كثيراً وحين عاد إلى الفندق، بينما هو يخلع ملابسه جزئيّاً، دون أن ينزل من كرسيّ عجلاته، أمام التلفاز المطفأ الذي كان يعكس صورته وصورة الغرفة كصور شبحية في عملٍ مسرحيّ كانت الحكمة والخوف تنصحان بعدم إنتاجه أبداً، وخلص إلى أنّ المسرحيّة لم تكن سيّئة إلى ذلك الحدّ، وأنّها كانت جيدة، هو أيضاً ضحك، كان الممثلون جيّدين، المقاعد مريحة، وثمن التذكرتين لم يكن مفرطاً في غلائه.

في اليوم التالي قال لِنورتون إنّ عليه أن يُسافر. ذهبت نورتون لتتركه في المطار. بينما كانا ينتظران قال لها موريني، متخذاً نبرةَ صوت عرضية، إنّه كان يعتقد أنّه يعرف لماذا جونس بتر يده اليمنى.

- أيّ جونس؟ -سألت نورتون.

- إدوين جونس، الرسام الذي اكتشفته أنتِ -قال موريني.

- آه، إدوين جونس -قالت نورتون- لماذا؟

- من أجل المال؟

- من أجل المال؟

- لأنّه كان يؤمن بالاستثمارات، بتدفق رأس المال، من لا يستثمر لا يربح، هذا النوع من الأشياء.

اتخذت نورتون وجهَ من يُفكر بالأمر مرّتين قالت بعدها: ممكن.

- فعل ذلك من أجل المال -قال موريني.

سألته نورتون بعدها (وكانت المرّة الأولى) عن بيليتير وإسبينوزا.

- أُفضّل ألا يعرفا أنّني كنتُ هنا -قال موريني.

نظرت إليه نورتون متسائلةً، وقالت له ألاّ ينشغل فهي سوف تحتفظ بالسرّ. ثمّ سألته عمّا إذا كان سيهتف لها حين يصل إلى تورين.

- طبعاً. -قال موريني.

جاءت مضيفة لتتحدّث معهما وبعد دقائق قليلة ابتعدت مبتسمةً. راح صفُّ المسافرين يتحرّك. قبّلت نورتون موريني قبلة على خدّه وذهبت.

قبل أن يُغادروا الصالة مُتَفَكّرين أكثر مما هم خافضي الرأس، حكى لهم مالكها وعاملها الوحيد أنّها ستُغلق أبوابها قريباً. قال لهم وثوب برّاق متدلّ من ذراعه، إنّ البيت، الذي كانت الصالة تشكّل جزءاً منه، كان لجدّته، وهي سيّدة شديدة الاعتزاز بنفسها ومتطوّرة. حين ماتت الجدّة ورثه ثلاثة أحفاد، نظرياً بشكل متساوٍ، لكنّه في ذلك الوقت وهو أحد الأحفاد، كان يعيش في الكاريبي، حيث بالإضافة إلى تعلّم صناعة كوكتيلات مرغريتا كان يُكرّسُ وقته لأعمال الإعلام والتجسّس. كان بكلّ المعايير نوعاً من المفقودين؛ جاسوساً هيبيّاً عاداته أقرب إلى الفاجرة، تلك كانت كلماته. حين عاد إلى إنكلترا وجد أنَّ ابني عمه احتلا البيت كلّه. منذ تلك اللحظة بدأ يقيم الدعاوى ضدّهما، لكنّ المحامين كانوا يُكلّفون كثيراً واضطرّ أخيراً لأن يرضى بثلاث غرفٍ، حيث أقام صالة عرضه الفنّية. لكنّ التجارة لم تنجح: لا، فلا هو يبيع لوحاتٍ ولا هو يبيع ملابسَ مستعملة، وقليلون هم

الناس الذين كانوا يذهبون ليتذوّقوا كوكتيلاته. هذا الحيّ أصغر من اللازم بالنسبة لزبائني، قال، صالات الفنّ الآن في أحياء عمّالية قديمة أعيد تأهيلها، البارات في دائرة البارات التقليديّة والناس هنا لا يشترون ملابس مستعملة. حين نهضت نورتون وبيليتير وإسبينوزا وراحوا يستعدون لهبوط الدرج العدني المؤدي إلى الشارع، أعلمهم صاحب الصالة أنّه وللطامّة الكبرى صار شبحُ جدّته يظهر له. أثار هذا الاعتراف اهتمام نورتون ومرافقَيْها.

هل رأيتها؟ سألوه، رأيتُها، قال مالك الصالة، في البداية كنتُ فقط أسمعُ أصواتاً مجهولة، كأنّها أصوات ماء وأصوات فقاعات ماء. أصوات لم يسبق أن سمعتها في هذا البيت، حسن عندما قسموا البيت كي يبيعوا الشقق وأنشؤوا بالتالي خدمات صحية جديدة ربّما تكون سبباً منطقياً يُفسّر هذه الأصوات، وإن لم يسمعها هو من قبل قط. لكن بعد الأصوات جاءت النُّشُجُ، التي لم تكن تأوّهات ألم بالضبط، بل أقرب ما تكون إلى آهات الاستغراب والخيبة، كما لوّ أنّ شبحَ جدّته كان يجوب بيته القديم ولا يتعرّف عليه، وقد تحوّل كما هو إلى عدد من البيوت الصغيرة بجدرانٍ هو لا يتذكّرها، ثمّ هناك الأثاث الحديث والمرايا حيث لم يكن يوجد قط مرآة.

كان المالك من كثرة اكتئابه يبقى لينام أحياناً في الحانوت. طبعاً لم يكن مكتئباً بسبب أصوات وأنين الشبح، بل من الكيفية التي يسير بها عمله، الموشِك على الإفلاس. في تلك الليالي كان باستطاعته أن يسمع بوضوح أنين جدّته، التي كانت تتمشّى في الطابق العلوي، كما لو أنّها لا تفهم شيئاً عن عالم الأموات وعالم الأحياء. وذات ليلة رآها قبل أن يُغلق الصالةَ، معكوسة في المرآة الوحيدة الموجودة في زاوية، وهي مرآة قديمة فيكتورية تعكس كامل الجسم كانت هناك كي تجرّب الزبونات الملابس. كانت جدّته تنظر إلى إحدى اللوحات المعلّق إلى الجدار ثمّ تنقل نظرها إلى الملابس المعلّقة إلى

المشاجب، كذلك كانت تنظر إلى طاولتي المحل الوحيدتين، كما لو أنّهما الطامّة الكبرى.

كانت حركتها حركة رعب، قال المالك. كانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي رأيتها فيها، وإن كنتُ أعود من حين لآخر لأسمعها تسير في الطوابق العليا، حيث لا شكّ كانت تتحرّك عبر الجدران التي لم تكن موجودة من قبل. حين سأله إسبينوزا عن طبيعة عمله القديم في الكاريبي، ابتسم المالكُ بحزن وأكّد لهم أنّه لم يكن مجنوناً، كما يمكن لأيّ شخص أن يظن ذلك. كان يعملُ جاسوساً، قال لهم، بالطريقة ذاتها التي يعمل فيها آخرون في الإحصاء، أو في إحدى دوائر الإحصاء. أحزنتهم كلمات مالك الصالة جدّاً، دون أن يعلموا هم لماذا، أحزنتهم كثيراً جدّاً.

تعرّفوا خلال ندوةٍ في تولوز على رودولفو ألاتورّ، وهو شاب مكسيكي كانت أعمال أرشيمبولدي بين قراءاته المتنوّعة. المكسيكيُّ، الذي كان يتمتع بمنحة للإبداع ويمضي أيّام منكبّاً، عبثاً كما يبدو، على كتابة رواية حديثة، حضرَ بعضَ المحاضرات، قدّم بعدها نفسه لِنورتون وإسبينوزا، اللذين أزاحاه عن كاهلهما دون تروٍّ، ثم إلى بيليتير، الذي تجاهله بفوقيّة، فألاتورّ لم يكن يختلف في شيء عن فوج الشباب الجامعيين الأوروبيين الأقرب إلى الثقلاء، الذين كانوا يحومون حول الرسل الأرشيمبولديين. ولمزيد من العار، لم يكن ألاتورّ يتكلّم الألمانية، وهو ما يجرّده من الأهلية سلفاً. من ناحية أخرى شكّلت ندوةُ تولوز نجاحاً من حيث الجمهور، وبين وَحيشِ النقّادِ والمتخصّصين الذين كانوا يعرفون بعضهم بعضاً من مؤتمرات سابقة، كانوا يبدون، على الأقل خارجيّاً، سعداءَ برؤية بعضهم بعضاً من جديد وراغبين بمتابعة نقاشات سابقة، لم يكن هناك ما يفعله المكسيكيّ غير أن يرحل إلى بيته، وهذا شيء لم يكن يريد أن يفعله، فبيته كان غرفة

طالب ممنوحٍ مُنفِّرة، حيث كانت تنتظره كتبه ومخطوطاته، أو أن يبقى في زاوية ويبتسم يمنة ويسرة متظاهراً بالتركيز على مسائل ذات طبيعة فلسفيّة، وهو ما فعله في النهاية. ومع ذلك فهذا الموقف، أو اتخاذُ هذا الموقف، سمح له بالتركيز على موريني، الذي بانزوائه في كرسيّ عجلاته وردّه على تحيات الآخرين بشرودٍ، أظهر، أو هذا ما بدا لألاتورّ، خذلاناً شبيهاً بخذلانه. وبعد لحظة قصيرة وبعد أن قدّم نفسه لموريني، راح المكسيكي والإيطاليّ يطوفان في شوارع تولوز.

تكلّما أوّلاً عن ألفونسو رِيِّس، الذي كان موريني يعرفه بشكل مقبول، ثمّ عن سور خوانا، التي لم يكن باستطاعة موريني أن ينسى ذلك الكتاب الذي كتبه مورينو، مورينو ذاك الذي كان يبدو هو نفسه، حيث يكتب وصفات مطبخ الراهبة المكسيكية. تكلّما بعدها عن رواية ألاتورّ، الرواية التي كان يُفكّر بأن يكتبها والوحيدة التي كتبها عن حياة شابٌ مكسيكي في تولوز، عن الأيّام الشتويّة، التي على الرغم من قصرها كانت تصبح لامتناهية الطول، عن أصدقائه الفرنسيين القليلين (عاملة المكتبة، إكوادوري حاصل على منحة، لم يكن يراه إلاّ بين فينة وأخرى، نادل بار، بدت فكرتُهُ عن المكسيك لِألاتورّ نصف غريبة ونصف مهينة) عن الأصدقاء الذين تركهم في العاصمة الفيدرالية، الذين يكتب لهم يوميّاً رسائل إلكترونية طويلة وحيدةَ الموضوع عن روايته التي يكتبها وعن الكآبة.

كان أحدُ أصدقاء العاصمة الفيدرالية هؤلاء، بحسب ألاتورّ، وهذا ما قاله ببراءة، فيها نزرٌ من فخفخة الكتّاب الصغار الماكرة قليلاً، قد تعرّف على أرشيمبولدي منذ زمن قصير.

في البداية لم يولِه موريني كثيرَ اهتمام وترك نفسه يُدْفَعُ عبر الأماكن التي كان ألاتورّ يعتبرها جديرة بالاهتمام والتي كانت بالفعل تنطوي على بعض الأهّمية بالرغم من أنّها لم تكن محطات سياحية إجبارية، كما لو أنّ ميولَ ألاتورّ السرّية والحقيقة كانت ميولَ دليلٍ سياحي أكثر

من ميولِ روائيّ، اعتقد أنّ المكسيكي، الذي لم يقرأ غير روايتين لِأرشيمبولدي، كان يتبجّحُ أو أنّه أساء فهمه، أو لا يعرف أنّ أرشيمبولدي مختفٍ منذ، البداية.

القصّة التي حكاها ألاتورّ هي باختصار التالية: صديقه كاتب دراسات وروائيّ وشاعر يُدعى ألمِندرو، رجل في الأربعين ونيّف من عمره، معروف أكثر بين أصدقائه بلقبِ الخنزير، تلقى مكالمة هاتفية في منتصف الليل. ارتدى الخنزير بعد أن تكلّم لحظة بالألمانية ملابسه وخرج في سيارته في طريقه إلى فندق قريب من مطار مدينة مكسيكو. وبالرغم من أنّه لم تكن توجدُ حركة مرور كثيرة في تلك الساعة إلاّ أنه وصل إلى الفندق بعد الواحدة صباحاً. في اللوبي وجد عاملَ استقبال وشرطيّاً. أخرج الخنزير هويّته كموظّف رفيع في الحكومة، صعد بعدها مع الشرطيّ إلى غرفة في الطابق الثالث. كان هناك شرطيان آخران وعجوز ألماني جالس على السرير، منفوش الشعر، يرتدي قميصاً رماديّاً وبنطلونَ جينز، خاف، كما لو أنّ الشرطة فاجأته نائماً. لا شكّ أنّ الألمانيّ، فكَّرَ الخنزيرُ، كان ينام بثيابه. كان أحد الشرطيين ينظر إلى التلفاز. الآخر كان يُدخّن مستنداً إلى الجدار. أطفأ الشرطيّ الذي وصل مع الخنزير التلفازَ وقال لهم أن يتبعوه. طلب الشرطيّ الذي كان يستند إلى الجدار توضيحاتٍ، لكنّ الشرطي الذي صعد مع الخنزير قال له أن يبقى مغلقَ الفم. سأل الخنزيرُ قبل أن يُغادر الشرطيون الغرفة بالألمانية، العجوزَ عمّا إذا كانا قد سرقا منه شيئاً. قال العجوز لا. كانا يريدان مالاً، لكنّهما لم يسرقا منه شيئاً.

- هذا حسن -قال الخنزير بالألمانية-، يبدو أنّنا نتحسّن.

يسأل بعدها الشرطيّين إلى أيّ مخفر ينتميان وتركهما يذهبان. عندما ذهب الشرطيان جلس الخنزيرُ إلى جانب التلفاز وقال له ما يشعر به. نهض الألمانيّ العجوز من سريره دون أن يقول شيئاً ودخل إلى الحمّام. كان عملاقاً، كتب الخنزيرُ إلى ألاتورّ. متران تقريباً. أو متر

وخمسة وتسعون سنتيمتراً. على أيّ حال: عملاق ومهيب. عندما خرج العجوز من الحمّام انتبه الخنزير إلى أنّه منتعل فسأله عمّا إذا كان يرغب بالخروج ليقوم بجولة في العاصمة الفيدرالية أو ليتناول شيئاً.

- إذا كنت نعساً -أضاف-، قل لي وسأذهب حالاً.

- طائرتي تخرج في السابعة صباحاً -قال العجوز.

نظر الخنزيرُ إلى ساعته، كانت الساعة قد تجاوزت الثانية صباحاً ولم يعرف ماذا يقول. كان، مثله مثل ألاتورّ، لا يكاد يعرف أعمال العجوز الأدبية، كتبه المترجمة إلى الإسبانية كانت تُنشر في إسبانيا وتصل متأخّرة إلى المكسيك. قبل ثلاث سنوات حين كان يُدير دارَ نشر، قبل أن يتحوّل إلى أحد مدراء ثقافة الحكومة الجديدة، حاول أن ينشر *قيعان برلين*، لكنّ حقوق النشر كانت قد اشترتها دار نشر في برشلونة. تساءل كيف ومن أعطى العجوزَ رقم هاتفه. أسعده طرح هذا السؤال، الذي لم يُفكّر أن يجيب عليه ولا بشكلٍ من الأشكال، وملأه سعادة وكان يُبرِّره بطريقة ما كشخص وككاتب.

- نستطيع أن نخرج -قال-، أنا جاهز.

ارتدى العجوز سترة جلدية فوق القميص الرمادي وتبعه. أخذه إلى ساحة غاريبالدي. حين وصلا لم يكن هناك ناس كثيرون، فغالبية السيّاح كانوا قد عادوا إلى فنادقهم، ولم يبقَ غير السكارى والجوّالين الليليين، ناس كانوا يذهبون ليتعشّوا، وحلقات مارياتشي، يتحدّثون عن آخر مباراة لكرة القدم. في مداخل الساحة أشباحٌ تنسلّ وتتوقّف أحياناً وتراقبهما. تحسّس الخنزيرُ مسدّسَهُ الذي اعتادَ أن يحمله منذ أن صار يعمل في الحكومة. دخلا باراً وطلب الخنزيرُ عجّة باللحم. شرب العجوز تِكيلا واكتفى هو بزجاجة بيرة. راح الخنزيرُ، بينما كان العجوز يأكل، يُفكّرُ بالتبدلات التي تحدثها الحياة. لو دخل قبل أقل من عشر سنوات إلى هذا البار ذاته وراح يتكلّم بالألمانية مع عجوز مفرط بالطول

مثل ذاك، ما كان ليخلو الأمرُ من أحد يشتمه، أو يشعر، لأغرب الأسباب، بالإهانة، ولكان انتهى الشجارُ المؤكّد بالخنزير إلى أن يعتذر أو يُوضّح ويدعو إلى دورة تِكيلا. الآن لا أحد يحشر نفسه معه، كما لو أنّ مجرّد حمله لمسدّس تحت القميص أو عمله في منصب رفيع في الحكومة يكسبه هالةَ قَدَاسة يَقْدر الأشرارُ والسكارى على الإحساس بها من بعيد. أوغاد لوطيون جبناء، فكّر الخنزير. يشمّونني، يشمّونني فيتغوّطون في ملابسهم. راح بعدها يُفكّر بفولتير (لماذا فولتير، يا أولاد العاهرة؟) ثمّ راح يُفكّر بفكرة قديمة كانت تدور في رأسه منذ زمن، فكرة أن يطلب العمل سفيراً في أوروبا، أو على الأقل ملحقاً ثقافيّاً، بالرغم من أنّه ومن خلال العلاقات التي يملكها أقل ما يمكن أن يطلبه هو منصب سفير. السيّئ في السفارة هو أنّه لن يكون له غير راتب واحد، راتب السفير. بينما كان الألماني يأكل راح الخنزير يقدّر إيجابيات وسلبيات غيابه عن المكسيك. لا شكَّ أنّه كان بين الإيجابيات، أنه يستطيع أن يعود إلى عمله ككاتب. كانت تُغويه فكرة أن يعيش في إيطاليا أو قريباً من إيطاليا، ويمضي فترةً في توسكانا أو في روما وهو يكتب دراسة عن بيرانيزي وسجونه المُتَخيَّلة، التي كان يراها افتراضية، أكثر مما في السجون المكسيكية، في المُتخيّل والموصوف لبعض السجون المكسيكية. بين المعوقات كان دون شكّ البعد الجسدي عن السلطة، الابتعاد عن السلطة ليس جيّداً أبداً، هذا ما اكتشفه باكراً جدّاً قبل أن يدخل إلى السلطة الحقيقيّة، حين كان يُدير دار النشر التي حاولت أن تنشر لِأرشيمبولدي.

- اسمع -قال له فجأة-، ألم يكونوا يقولون إنّه لم يَرَكَ أحدٌ قط؟

نظر إليه العجوز وابتسم بأدبٍ.

في تلك الليلة ذاتها، بعد أن سمع بيليتير وإسبينوزا ونورتون من فم ألاتورّ قصّةَ الألماني، هتفوا إلى ألمِندرو، المُلقّب بالخنزير، الذي لم

يبدِ أي تحفُّظ في أن يحكي لِإسبينوزا، ما حكاه لهم بخطوط عريضة ألاتورّ. كانت العلاقة بين هذا والخنزير، بطريقة ما، علاقة مُعلم بتلميذ أو أخ أكبر بأخ أصغر، عمليّاً الخنزير هو الذي حصل لِألاتورّ على المنحة في تولوز، وهذا ما يوضّح درجة التقدير التي يكنّها الخنزير لأخيه الأصغر، فبين يديه كان الحصول على أكثر المنح إغراءً وفي أفخر المناطق، كيلا نتكلّم عن ملحقية ثقافية في أثينا أو كاركاس، التي دون أن تكون شيئاً مهمّاً إلا إن ألاتورّ سيكون ممتنّاً له من كلّ قلبه، وبالرغم من أنّ منحةَ تولوز الصغيرةَ، احتراماً لشرف الحقيقة، لم تُثر قرفه. كان واثقاً من أنّ الخنزير سيكون معه في المرّة القادمة أكثر كرماً. من ناحيةٍ أخرى ألِمندرو لم يكن قد أتمَّ الخمسين من عمره بعد وكانت أعماله كانت مجهولة أقصى الحدود خارج حدود العاصمة الفيدرالية. لكنّ اسمه، يجب أن يُقال كلُّ شيء، كان مألوفاً في العاصمة الفيدرالية وفي بعض جامعات أمريكا الشمالية، بل ومألوفاً بشكل مُفرط. بأيّ طريقة، إذن، حصل أرشيمبولدي، مفترضين أنّ ذلك العجوز الألماني كان حقيقةً أرشيمبولدي وليس مازحاً، على هاتفه؟ بحسب ما كان يعتقده الخنزير، كانت ناشرة أعماله الألمانية، السيِّدة بوبيس هي مَنْ سهَّلت له هاتفه. سأله إسبينوزا، ليس من دون ارتباك، عمّا إذا كان يعرف السيّدة الشهيرة.

- طبعاً -قال الخنزير-، حضرتُ حفلاً في برلين، في حلبة ثقافية مع بعض أصحاب دور النشر الألمان وهناك قدّمونا الواحد للآخر.

«بحق الشياطين ماذا تعني الحلبة الثقافية؟» كتب إسبينوزا على ورقة رآها الجميع وكان ألاتورّ، الذي كانت موجّهة إليه، وحده من أصاب في فكّ لغزها.

- لا بدّ أنّني أعطيتها بطاقتي -قال الخنزير من بوينس أيرس.

- وفي بطاقتك كان هاتفك الخاصّ.

- هو كذلك -قال الخنزيرُ-. لا بدّ أنّني أعطيتها البطاقة A، لأنّ

البطاقة B فقط تحمل هاتف المكتب. والبطاقة C فقط تحمل رقم هاتف سكرتيرتي.

- فهمتُ - قال إسبينوزا مُتسلّحاً بالصبر.

- في البطاقة D لا يوجد شيء، بيضاء، فقط اسمي ولا شيء غيره -قال الخنزير ضاحكاً.

- واضح، واضح -قال إسبينوزا-، في البطاقة D فقط اسمك.

- بالضبط -قال الخنزير-، فقط اسمي نقطة وانتهى. لا رقم هاتف المكتب ولا اسم الشارع الذي أعيش فيه، ولا أيّ شيء، مفهوم؟

- مفهوم -قال إسبينوزا.

- للسيّدة بوبيس طبعاً أعطيتُها البطاقة A.

- وهي لا بدّ أنّها أعطتْها لِأرشيمبولدي -قال إسبينوزا.

- صحيح -قال الخنزير.

بقي الخنزير مع العجوز الألماني حتى الخامسة صباحاً. (بعد تناول الطعام (كان العجوز جائعاً وطلب شطائر مكسيكية ومزيداً من التِكيلا، بينما الخنزير كان يُغوص برأسه مثل نعامة في تأملات حول الاكتئاب والسلطة) ذهبا ليقوما بجولة في محيط الثوكالو، حيث زارا الساحة والآثار الأزتيكية التي تظهر كأزهار الليلك في أرض بور، بحسب تعبير الخنزير، أزهار من حجارة وسط أزهار أخرى من حجارة، فوضى بالتأكيد لن تقود إلى أيّ مكان، فقط إلى مزيد من الفوضى، قال الخنزيرُ بينما كان يسير هو والألمانيّ في الشوارع الملاصقة للثوكالو، حتى ساحة سانتو دومينغو حيث يتوضّع الكتبةُ مع آلاتهم الكاتبة في النهار تحت أقواسها ليكتبوا رسائل أو طلبات ذات طبيعة شرعية أو قضائية. ذهبا بعدها ليريا الملاك في شارع رِفورما، لكنّ الملاك كان في تلك الليلة مُطفأً ولم يستطع الخنزير وهو يدور في

سيارته حول الساحة غير أن يشرحه للألماني الذي كان ينظر من نافذة السيارة المفتوحة إلى الأعلى.

في الخامسة صباحاً عادا إلى الفندق. انتظر الخنزير في اللوبي، وهو يُدخِّن سيجارة. حين خرج العجوز من المصعد كان لا يحمل غير حقيبة وكان يرتدي القميص الرماديّ ذاته وبنطلون الجينز. كانت الجادات المؤدّية إلى المطار خاوية والخنزير تجاوز عدداً من شارات المرور الحمراء. حاول أن يبحث عن موضوع للحديث لكنّه كان مستحيلاً. فقد كان قد سأله وهما يأكلان عمّا إذا كان قد زار المكسيك من قبل، وأجابه العجوز لا، وهو ما بدا له غريباً، لأنّ جميع الكتاب الأوروبيين تقريباً كانوا في لحظة ما هناك. لكنّ العجوز قال له إنّ تلك كانت المرّة الأولى. بالقرب من المطار كان هناك مزيد من السيارات ولم يعد المرور انسيابياً. عندما دخلا إلى المرآب أراد العجوز أن يُودّعه لكنّ الخنزير أصرّ على مُرافقته.

- أعطِني حقيبتك -قال.

كان للحقيبة عجلتان ولا تكاد تزن شيئاً. كان العجوز يطير من العاصمة الفيدرالية إلى هِرموسيّو.

- هِرموسيّو؟ -سأل إسبينوزا-، أين تقع هذه؟

- في ولاية سونورا -قال الخنزير-. هي عاصمة سونورا، في الشمال الغربي من المكسيك، على الحدود مع الولايات المتحدة.

- ماذا ستفعل في سونورا؟ -سأله الخنزير.

تردّد العجوز لحظة قبل أن يجيب، كما لو أنّه نسي الكلام.

- أذهب لأعرف -قال.

مع أنّ الخنزير لم يكن متأكّداً. ربّما قال لأتعلّم وليس لأعرف.

- هِرموسيّو؟ -سأل الخنزير.

- لا، سانتا تِرِسا -قال العجوز-. هل تعرفها؟

- لا -قال الخنزير-، كنتُ عدّة مرات في هِرموسيّو أعطي محاضرات حول الأدب، منذ زمن، لكنّني لم أزر قط سانتا تِرِسا.

- أظنّها مدينة كبيرة -قال العجوز.

- كبيرة، بلى -قال الخنزيرُ-، فيها مصانع ومشاكل أيضاً. لا أظنّها مكاناً جميلاً.

أخرج الخنزير بطاقته واستطاع أن يُرافق العجوز حتى باب قاعة المُغادرة. أعطاه قبل أن يفترقا البطاقة A.

- إذا تعرّضت لأيّ مشكلة، أنت تعرف -قال.

- شكراً جزيلاً -قال العجوز.

تصافحا ولم يره بعدها قط.

اختارا ألا يقولا لأحدٍ آخر ما كانا يعرفانه. السكوت، حَكَمَا، ليس خيانة لأحدٍ بل هو عمل بالحكمة المتوجّبة والحذر الذي كانت تستحقه الحالة. اقتنعا بسرعة أنّ من الأفضل ألاّ يشيدا آمالاً زائفة. بحسب بورشماير عاد اسم أرشيمبولدي لِيُسْمَعَ بين أسماء المرشحين لجائزة نوبل. في العام السابق ورد اسمه أيضاً في يانصيب الجائزة، توقّعات زائفة. بحسب ديتر هيلفيلد عضو الأكاديمية السويدية، أو سكرتير أحد أعضاء الأكاديمية، اتصل بصاحبة دار نشر أعمالهِ كي يستطلع عن موقف الكاتب في حال أنّه نال الجائزة. ماذا يمكن أن يقول رجل يتجاوز الثمانين من عمره؟ ما أهمّية جائزة نوبل بالنسبة لرجل تجاوز الثمانين، من دون أسرة ولا أخلاف ولا وجه معروف. قالت السيدة بوبيس إنّه سيُسْعَد جدّاً. ربّما دون أن تستشير به أحد، مفكِّرة بالكتب التي ستُباع. لكن هل كانت البارونة تهتمّ بالكتب المباعة، بالكتب التي كانت تتراكم في مخازن دار نشر بوبيس في هامبورغ؟ لا، بالتأكيد لا، قال ديتر هيفيلد. كانت البارونة تحوم حول

التسعين من عمرها وحالة المخزن لا تشغلها. كانت تُسافر كثيراً، إلى ميلان، باريس، فرانكفورت، وكان من الممكن رؤيتها تتكلّم أحياناً مع السيّدة سلّيرو في جناح بوبيس في فرانكفورت. أو في السفارة الألمانية في موسكو، بفستان شانيل وشاعرين روسيين يحاضران عن بولغاكوف وعن جمال الأنهار الروسية (الذي لا مثيل له!) في الخريف، قبل الجليد الشتوي. كانت السيدة بوبيس تعطي انطباعاً أحياناً بأنّها نسيت وجود أرشيمبولدي، قال بيليتير. هذا في المكسيك هو الأكثر طبيعيّة، قال الشابُّ ألاتورّ. على كلِّ الأحوال، بحسب شوارز، كان ممكناً، طالما أنّه ورد في قائمة المُفضَّلين. ربّما كان الأكاديميون السويديون يرغبون ببعض التغيير. رجل محنّك، فارٌّ من الحرب العالمية الثانية، ما يزال هارباً، رسالة تذكير لأوروبا في أزمنة مضطربة. كاتب يساري كان يحترمه حتى الوضعياتيون. شخص لم يكن يريد المصالحة مع ما ليس قابلاً للمصالحة، الذي هو الدارج. تصوّر، قال بيليتير، أن يفوز أرشيمبولدي بجائزة نوبل وفي هذه اللحظة بالذات نظهر نحن، آخذين بيد أرشيمبولدي.

لم يطرحوا ماذا كان يفعل أرشيمبولدي في المكسيك. لماذا يُسافر شخص تجاوز الثمانين من عمره إلى بلدٍ لم يسبق له أن زاره قط. اهتمام مفاجئ؟ حاجة لمعاينة مشاهد كتاب قيد الكتابة على الأرض؟ لم يكن هذا محتملاً، خلصوا، لأسباب من بينها أنّ الأربعة كانوا يعتقدون أنّه ربّما لن يكون هناك كتب أخرى لِأرشيمبولدي.

مالوا ضمنيّاً إلى الجواب الأسهل، لكنّه أيضاً الأقل عقلانية. ذهب أرشيمبولدي إلى المكسيك للسياحة مثل الكثير من الألمان والأوروبيين في عمر التقاعد. لم يكن لهذا التفكير أساس ترتكز عليه. تصوّروا عجوزاً بروسيّاً كارهاً للإنسان يستيقظ ذات صباح وقد جُنَّ. وازنوا بين احتمالات الخرف الشيخوخي. استبعدوا الافتراضات

وتمسكوا بكلمات الخنزير. وماذا لو كان أرشيمبولدي هارباً؟ وماذا لو أنّ أرشيمبولدي وجد من جديد دافعاً للهرب؟

في البداية كانت نورتون الأكثر ممانعة للخروج بحثاً عنه. بدت لها صورتهم وهم عائدون آخذين بيد أرشيمبولدي إلى أوروبا صورةَ مجموعة من المختطفين. طبعاً ما من أحدٍ كان يُفكّر باختطاف أرشيمبولدي. ولا حتى بإخضاعه لسلسلة من الأسئلة. كان إسبينوزا يكتفي برؤيته. بيليتير بسؤاله من هو الشخص الذي عمل من جلده القناع الجلدي لروايته التي تحمل العنوان ذاته. كان موريني يكتفي برؤية الصور التي سيلتقطونها له في سونورا.

ألانورّ، الذي لم يطلب أحدٌ رأيه كان يكتفي بالبدء بصداقة مراسَلة مع بيليتير، إسبينوزا، موريني ونورتون وربّما أن يزورهم، إذا لم يكن هذا مزعجاً، بين فترة وأخرى في مدنهم. وحدها نورتون كان لديها تحفّظاتها. لكنّها قرّرت أخيراً السفر. أعتقد أنَّ أرشيمبولدي يعيش في اليونان، قال ديتير هيلفيلد. إمّا هذا وإمّا أنّه ميت. أيضاً هناك خيار ثالث، قال ديتير هيلفيلد: أن يكون المؤلّف الذي نعرفه باسم أرشيمبولدي هو في الواقع السيّدة بوبيس.

- نعم، نعم -قال أصدقاؤنا الأربعة-، السيّدة بوبيس.

في اللحظة الأخيرة قرّر موريني ألاّ يُسافر. صحته الهشّة، قال تمنعه من ذلك. مارسيل شووب، الذي كانت صحّته أيضاً هشة، كان قد شرع في عام ١٩٠١ برحلة في ظروف أسوأ ليزور قبر ستيفنسون في إحدى جزر المحيط الهادي. دامت رحلة شووب أيّاماً كثيرة، أولاً نزل في فيَل دي لا سيوتات، ثمّ في بولينسيين وبعدها في مانابوري، في كانون الثاني من عام ١٩٠٢ أصيب بذات الرئة وأوشك على الموت. سافر شووب مع خادمه، وهو صيني يُدعى تينغ، داخ في أول مناسبة. أو ربّما كان يدوخ حين يهيج البحر. على كلّ الأحوال كانت الرحلة

مشوبة بالبحر الهائج والدوخان. شعر شووب ذات مرّة وهو نائم في سريره بأنّه يموت، شعر بأنّ أحداً ينام بجانبه. حين استدار ليرى من كان ذلك الدخيل، اكتشف أنّه خادمه الشرقيّ ذي البشرة التي لها خضرة الخسّ. ربّما في تلك اللحظة وحدها انتبه إلى المشروع الذي ورّط نفسه فيه. حين وصل بعد عذابات كثيرة إلى ساموَا، لم يزر قبر ستيفنسون. فهو من ناحية كان مريضاً جدّاً، ومن ناحية أخرى لماذا سيزور قبر شخص لم يمت؟ كان ستيفنسون، وهذا الكشف البسيط دان به للرحلة، يعيشُ فيه.

موريني، الذي كان معجباً بِشووب، (وإن كان محبّاً له أكثر مما هو معجب به) فكّر في البداية أن سفره إلى سونورا يمكن أن يكون على مستوى ضيق، نوعاً من التكريم للكاتب الفرنسي، وأيضاً للكاتب الإنكليزي، الذي ذهب الكاتبُ الفرنسيُّ لزيارة قبره، لكنّه حين عاد إلى تورين انتبه إلى أنّه لا يستطيع أن يُسافر. وهكذا هتف لأصدقائه وكذب عليهم وقال بأنّ الطبيب منعه منعاً باتّاً من القيام بمثل ذلك الجهد. قبل بيليتير وإسبينوزا توضيحاته ووعداه بأن يهتفا له بانتظام كي يبقياه على إطلاع على البحث النهائي هذه المرّة، الذي سيشرعان به.

كان الأمرُ مع نورتون مختلفاً. كرّر موريني أنّه لن يُسافر. وأنَّ الطبيب كان يمنعه من ذلك. وأنّه كان يُفكر أن يكتب لهم كلّ يوم. بل وضحك وسمح لنفسه بنكتة غبيّةٍ لم تفهما نورتون. نكتة إيطاليين. إيطاليّ وفرنسي وإنكليزيّ في طائرة لا يوجد فيها غير مظلّتين. ظنّت نورتون أنَّ الأمر يتعلّق بنكتة سياسيّة. في الحقيقة كانت نكتت أطفال، بالرغم من أنّ إيطاليَّ الطائرة (التي فقدت محرّكاً، ثمّ آخر، وبدأت بعدها تتدهور) يشبه، تماماً كما كان يرويها موريني، برلسكوني. في الحقيقة لم تكد نورتون تفتح فمها، قالت هاهَهْ، هاهَه، هاهَهْ. ثمّ قالت ليلة سعيدة، يا بييرو، بإنكليزية غاية في العذوبة أو أنها بدت لِموريني عذبة بما لا يُحتمل، ثمّ أغلقت.

شعرت نورتون بطريقة ما بالإهانة من رفض موريني مرافقتهم. لم يتهاتفا فعدها. كان من الممكن لِموريني أن يفعل ذلك، لكن على طريقته، وقبل أن يشرع أصدقاؤه بالبحث عن أرشيمبولدي، كان هو قد بدأ مثل شووب رحلةً لم تكن حول قبر رجل شجاع، بل حول الإذعان، وهي تجربة بمعنى ما جديدة، فهذا الإذعان لم يكن ما يسمى بشكل عام إذعاناً، لا ولا صبراً أو قبولاً، بل حالة من الوداعة، تواضعاً رائعاً وغير مفهوم يجعله يبكي دون مناسبة وحيث كانت صورته ذاتها، ما كان يراه موريني من موريني، راحت تتلاشى بطريقة تدريجية وجامحة، مثل نهر لا يعودُ نهراً أو مثل شجرة تحترق في الأفق دون أن تعرف أنّها تحترق.

سافر بيليتير وإسبينوزا ونورتون من باريس إلى العاصمة الفيدرالية، حيث كان الخنزير بانتظارهم. هناك قضوا ليلتهم في فندق وفي صباح اليوم التالي طاروا إلى هِرموسيّو. الخنزير الذي لم يكن يفهم قسماً كبيراً من القصّة، كان سعيداً بالاهتمام بأكاديميين أوروبيين بهذه الشهرة، بالرغم من أنّهم لم يقبلوا أن يلقوا أيّ محاضرة في الفنون الجميلة أو في الجامعة الوطنية المستقلة أو في مدرسة المكسيك.

في الليلة التي باتوها في العاصمة الفيدرالية، ذهب إسبينوزا وبيليتير مع الخنزير حيث بات أرشيمبولدي ليلته. لم يضع عامل الاستقبال أيّ عائق أمامهم لرؤية الحاسوب. راجع الخنزير بفأر الحاسوب الأسماء التي ظهرت على الشاشة المضاءة وتنطبق على أسماء اليوم الذي عرف فيه أرشيمبولدي. انتبه بيليتير إلى أنّ أظافره كانت متسخة فأدرك سبب اسمه المستعار.

- هو ذا هنا -قال الخنزير-، هذا هو.

بحث بيليتير وإسبينوزا عن الاسم الذي أشار إليه المكسيكيُّ. هانز رِيْتِر. ليلة واحدة. دفع نقداً. لم يستخدم بطاقةً ولم يستخدم بارَ الغرفة

الصغير. ذهبا بعدها إلى الفندق، بالرغم من أنّ الخنزير سألهم عمّا إذا كانا يرغبان بمعرفة مكان تقليدي ما. لا، قال إسبينوزا وبيليتير، لا يهمّنا.

في هذه الأثناء كانت نورتون في الفندق وبالرغم أنّها لم تكن نعسانة أطفأت الأضواء وأبقت على التلفاز فقط مشتعلاً ومنخفضَ الصوت جدّاً. عبر نافذتها المفتوحة كان يصل أزيزٌ بعيد، كما لو أنّهم على بعد كيلومترات كثيرة من هناك في منطقة خارج محيط المدينة كانوا يُخلون الناس. فكّرت أنّه التلفاز فأطفأته، لكنّ الضجيج استمرّ. استندت إلى النافذة وتأمّلت المدينة. بحر مُن الأضواء المتذبذبة كان ينتشر نحو الجنوب. بنصف جسمها خارج النافذة لم يكن يُسْمَعُ الأزيز. كان الهواء بارداً وأحسّت به مريحاً.

كان في مدخل الفندق بوّابان يناقشان زبوناً وسائق سيّارة أجرة، بدا بالحكم من الحركات التي كان يقوم بها الزبون بانفعالٍ هو في كلّ مرّة أكثر أنّه سكران. بعد برهة ظهرت سيّارة وتوقّفت أمام الفندق ورأت إسبينوزا وبيليتير ينزلان منها، يتبعهما المكسيكيُّ، من هناك من الأعلى لم تكن متأكّدة من أنّهما صديقاها. على كلّ الأحوال حتى ولو كانا هما يبدوان مُختلفَيْن، كانا يسيران بطريقة أكثر رجولة بكثير، هذا إذا كان هذا ممكناً تطبيقها على الطريقة في المشي برغم أنّ وقع كلمة رجولة، في أذن نورتون جاء مريعاً، تافهاً لا أساس له. أعطى المكسيكي مفاتيح السيّارة إلى أحد البوّابين ودخل الثلاثة بعدها إلى الفندق. صعد البوّابُ، الذي كانت معه مفاتيح سيّارةِ الخنزير، إليها وعندها توجّه سائق سيارة الأجرة بحركاته إلى البوّاب الذي كان يسند السكران. تولّد عند نورتون انطباعٌ بأنّ سائق سيّارة الأجرة كان يطالب بنقود أكثر وزبون الفندق السكران لم يكن يريد أن يدفع له. اعتقدت نورتون من مكانها أن السكران يمكن أن يكون أمريكياً شماليّاً. كان يرتدي قميصاً أبيض، خارج بنطلون الجينز، فانح اللون، مثل الكابوتشينو أو مخفوق القهوة.

لم يكن ممكناً تحديد عمره. حين عاد البوّابُ الآخر، تراجع سائق سيّارة الأجرة خطوتين إلى الوراء وقال له شيئاً.

كان موقفه، فكّرت نورتون متوعّداً. عندها قفز أحد البوّابين، الذي كان يسند السكرانَ وأخذه من عنقه. لم يتوقّع سائقُ سيارة الأجرة ردَّ الفعل هذا ولم يخطر له سوى أن يتراجع، لكنّه كان قد أصبح من المستحيل عليه أن يزيح البوّاب من فوقه. في السماء المليئة بالسحب السوداء المشحونة بالتلوث تظهر أضواء طائرة. رفعت نورتون نظرها، مفاجأة، فالجوّ كلّه بدأ يئزّ، كما لو أنّ ملايين النحل كانت تحيط بالفندق. مرّت برأسها للحظة فكرة إرهابيٍّ انتحاري أو حادثٍ جويّ. في مدخل الفندق كان البوّابان يضربان سائق سيارة أجرة الذي كان على الأرض. لم تكن مسألة رفسات متواصلة. لِنَقُلْ إنّهم كانوا يرفسونه أربع أو ستّ مرّات ويتوقّفان ويمنحونه فرصة كي يتكلّم أو يذهب، لكنّ سائق سيّارة الأجرة الذي انطوى على معدته كان يُحرك فمه ويشتمهما وعندها كان البوّابان يكيلاه دفعةً أخرى من الرفسات.

هبطت الطائرة أكثر قليلاً في الظلمة وظنّت نورتون أنّها رأت وجوهَ المسافرين المترقِّبة عبر النوافذ. دارت بعدها الطائرةُ وعادت لتصعد ودخلت مرّةً أخرى في بطن الغيوم. أضواء الذيل، شرارات حمراء وزرقاء، كانت آخر ما رأته قبل أن تختفي. حين نظرت إلى الأسفل كان قد خرج أحدُ عمال الاستقبال وحمل السكران الذي لا يكاد يستطيع المشي، كأنّه جريح، بينما راح البوّابان يجرّان سائق سيارة الأجرة ليس باتجاه سيارته بل باتجاه المرآب.

ردّ فعلها الأول كان الهبوط إلى البار، حيث ستجد بيليتير وإسبينوزا يدردشان مع المكسيكيّ، لكنّها قرّرت في النهاية أن تُغلق النافذة وتدخل في السرير. استمرّ الأزيز ففكّرت نورتون أنّه لا بدّ أنّ المُكيّفَ يحدثه.

- هناك نوع من الحرب بين سائقي سيارات الأجرة والبوّابين -قال الخنزير-، حرب غير مُعلنة، تصعيد وتهدئة، لحظات توتّر شديد ولحظاتُ وقفٍ لإطلاق النار.

- وماذا سيجري الآن؟ -سأل إسبينوزا.

كانوا جالسين في بار الفندق، إلى جانب أحد الشبابيك المطلّة على الشارع. كان قوامُ الهواء في الخارج سائلاً. ماء أسود، زبرجد، يرغب المرء بأن يمرّ بيده على ظهره ويداعبه.

- سيُلَقِّنُ البوابان سائقَ سيارة الأجرة درساً وهذا لن يتأخر كثيراً في العودة إلى الفندق -قال الخنزير-. هذا من أجل الإكراميات.

أخرج الخنزيرُ بعدها مذكرة عناوينه الإلكترونية فنقل هذان كلٌّ في دفتره هاتفَ رئيس جامعة سانتا تِرِسا.

- تحادثتُ معه اليوم -قال الخنزير- وطلبتُ منه أن يساعدكم بكل ما هو ممكن.

- من سيخرج سائق سيارة الأجرة من هنا؟ -سأل بيليتير.

- سيخرج بنفسه -قال الخنزير-. سيُلقّنونه درساً نظامياً تماماً داخل المرآب بعدها يوقظونه بأسطال ماء بارد كي يدخل في سيارته ويولي الأدبار.

- إذا كان البوّابون وسائقو سيارات الأجرة في حرب، ماذا يفعل الزبائن حين يحتاجون لسيارة أجرة؟ -سأل إسبينوزا.

- آه، عندها يهتفُ الفندق لشركة من شركات سيارات أجرة باللاسلكي، فهذه في سلام مع الجميع -قال الخنزير.

حين خرجا ليودِّعانه في مدخل الفندق رأيا سائق سيّارة الأجرة يخرج أعرجَ من المرآب. كان وجهه على حاله وثيابه لا تبدو مُبلّلة.

- -بالتأكيد عمل صفقة معهما -قال الخنزير.

- صفقة؟

- صفقة مع البوّابين. مال -قال الخنزير-، لا بدّ أنّه أعطاهما مالاً.

تصوّر بيليتير وإسبينوزا لثانية أن الخنزير سوف يُغادر في سيارة الأجرة، التي كانت مصفوفة عند الرصيف الآخر، على بعد أمتار قليلة منهم يعلوها مظهرُ هجران مُطلق، لكنّ الخنزير أمر بحركة من رأسه أحدَ البوّابَين كي يذهب ويأتيه بسيارته.

في صباح اليوم التالي طاروا إلى هِرموسيّو وهتفوا من المطار إلى رئيس جامعة سانتا تِرِسا، أخذ الثلاثة بعدها سيّارة أجرة وانطلقوا نحو الحدود. عندما خرجوا من المطار شعروا بسطوع نورِ ولايةِ سونورا. كان كما لو أنّ النور يغوص في المحيط الهادي مُحدثاً تقويساً هائلاً في الجوّ. كان الانتقال تحت ذلك النور يُحدث جوعاً، وإن كان من المحتمل أن يُحدثَ أيضاً، فكَّرتْ نورتون، بطريقة قاطعة رغبةً بتحمّل الجوع حتى النهاية.

دخلوا من جنوب سانتا تِرِسا فبدت لهم المدينة مخيّمَاً هائلاً لغجرٍ أو لاجئين، مستعدين للمسير عند أدنى إشارة.

استأجروا ثلاث غرفٍ في الطابق الرابع من فندق مِكسيكو. كانت الغرف الثلاث متساويةً، لكنّها في الواقع مليئة بالعلامات الصغيرة التي تجعلها مختلفة. في غرفة إسبينوزا كان هناك لوحة كبيرة الأبعاد تُرى فيها الصحراء ومجموعة من الخيّالة في الجانب الأيسر يرتدون قمصاناً طحينية اللون، كما لو أنّهم من الجيش أو من نادي فروسيّة. في غرفة نورتون كان يوجد مرآتان، بدل الواحدة. المرآة الأولى كانت بجانب الباب، كما في الغرفتين الأخريين، الثانية كانت على جدار العمق، بجانب النافذة المطلّة على الشارع، بحيث أنّه إذا اتخذ المرء وضعية معيّنة فإنّ المرآتين تعكسُ الواحدة الأخرى. في غرفة بيليتير، المرحاض الإفرنجي ضاعت منه كسرة. لا تُرى للنظرة البسيطة، لكن

حين يُرفَع غطاء المرحاض يظهر مكان الكسرة فجأة بوضوح، يكاد يكون كالنباح. ويحهم كيف لم يلفت هذا انتباه أحدٍ؟، فكّر بيليتير. نورتون لم ترَ قط مرحاضاً بهذه الحالة. كان ينقصه بحدود العشرين سنتيمتراً. تحت البلاط الأبيض هناك مادّة حمراء كغضار القرميد، على شكل بسكويت مطليّ بالجصّ. القطعة الناقصة على شكل هلال، تبدو كأنّها اقتُلِعَت بمطرقة. أو كما لو أنّ أحداً رفع شخصاً آخر كان على الأرض وطرق رأسه على حافة المرحاض، فكّرت نورتون.

بدا لهم رئيسُ جامعة سانتا تِرِسا رجلاً لطيفاً وخجولاً. إنّه فارع الطول بشرته برونزية بشكل خفيف، كما لو أنّه كان يقوم يوميّاً بمشاوير تأمّلية طويلة في الريف. دعاهم إلى فنجان قهوة واستمع إلى توضيحاتهم بصبر واهتمام مفتعلٍ أكثر مما هو حقيقيّ. حملهم بعدها للقيام بجولة في الجامعة مشيراً إلى الأبنية وقائلاً إلى أيّ كليّة تنتمي كلّ منها. حين تكلّم بيليتير عن نور سونورا كي يُغيّر الموضوعَ، استفاض الرئيس بالكلام عن غروب الشمس في الصحراء، وذكر رسامين، أسماؤهم مجهولة بالنسبة إليهم، استقرّوا ليعيشوا في سونورا أو في جارتها أريزونا.

عند العودة إلى رئاسة الجامعة عاد ليقدّم لهم القهوة وسألهم في أيّ فندق ينزلون. حين قالوه له سجّل اسم الفندق على ورقة خبّأها في جيب سترته العلوي، ثمّ دعاهم للعشاء في بيته. غادروا بعدها بقليل. رأوا، بينما هم يقطعون المسافة بين رئاسة الجامعة وموقف السيارات، مجموعةً من الطلاب من كلا الجنسين يسيرون على المرج تماماً في اللحظة التي فتحوا فيها مرشات الماء الدوّارة فراحوا يركضون مبتعدين عن المكان.

قاموا قبل أن يعودوا إلى الفندق، بجولة في المدينة. بدت لهم من

الفوضى إلى حدّ أنّها جعلهم يضحكون. لم يكون حتى تلك اللحظة في مزاج رائق. كانوا يراقبون الأشياء ويستمعون إلى الأشخاص الذين من الممكن أن يُساعدوهم، لكن فقط كجزء من إستراتيجيّة أكبر. اختفى في أثناء عودتهم إلى الفندق الإحساسُ بأنّهم في جوّ عدواني، مع أن كلمة عدوانية ليست الكلمة (المناسِبة)، جوٌّ كانوا يرفضون الاعتراف بلغته، جوّ يجري بموازاتهم والشيء الوحيد الذي يستطيعون فعله فيه هو أن يفرضوا أنفسهم، أن يكون فاعلين فقط، رافعين أصواتهم، يناقشون، وهو أمر لم يكن في نيّتهم أن يقوموا به.

في الفندق وجدوا ملاحظة من أوْغوستو غِرًّا، عميد كلّيّةِ الفلسفة والآداب. كانت الملاحظة موجّهة إلى «زملائه» إسبينوزا، بيليتير ونورتون. زملائي الأعزاء، كتب دون أي أثر للسخرية، وهذا ما جعلهم يضحكون أكثر، لكن سرعان ما أحزنهم، فالمضحك في «زميل» على طريقته، كان يمدّ جسوراً من الإسمنت المسلّح بين أوروبا وذلك الركن الرعوي. إنّه أشبه ما يكون بسماع طفل يبكي، قالت نورتون. إضافة إلى أنّ أوعوستو غِرًّا يتمنى لهم في رسالته إقامة طيّبة وسعيدة في المدينة يُكلّمهم عن أستاذ يُدعى أمالفيتانو، «الخبير بِبنّو فون أرشيمبولدي»، الذي سيحضر سريعاً في ذلك المساء ذاته إلى الفندق، كي يُساعدهم بكلّ ما هو ممكن. كان الوداع مزيّناً بجملة شاعريّة تُقارن الصحراء بحديقة متحجّرة.

بانتظار الخبير بِبنّو فون أرشيمبولدي قرّروا ألا يخرجوا من الفندق، القرار الذي كانت تُشاركهم إيّاهُ، بحسب ما كانوا يرون عبر نوافذ البار، مجموعة من السياح الأمريكيين الشماليين الذين كانوا يسكرون بإصرار في شرفة مزيّنة بالصباريات المدهشة، بعضها بطول ثلاثة أمتار تقريباً. من حين إلى آخر كان ينهض أحدُ السياح عن الطاولة ويقترب من الدرابزين المغطى بالنباتات شبه الجافّة ويُلقي نظرة إلى الجادّة. يعودُ بعدها متعثّراً إلى رفاقه ورفيقاته وبعد برهةٍ يضحكُ

الجميعُ، كما لو أنَّ الذي نهض حكى لهم نكتة رزيلة، لكنّها ظريفة جدّاً. لم يكن بينهم شابّ واحد، لكن أيضاً لم يكن بينهم أيّ عجوز، كانوا مجموعة من السيّاح الأربعينيين والخمسينيين، ربّما كانوا سيعودون في ذلك اليوم ذاته إلى الولايات المتحدة. شيئاً فشيئاً راحت شرفة الفندق تمتلئ بمزيد ومزيدٍ من الناس، حتى لم يعد هناك طاولة واحدة فارغة. حين بدأ الليل يحلّ في الشرق سُمِع في مكبرات الشرفة العلامات الأولى لأغنية لويلي نيلسون.

حين عرفها أحد السكارى أطلق صفرةً ونهض. اعتقد إسبينوزا وبيليتير ونورتون أنّه سيرقص، لكنّه بدل أن يفعل ذلك اقترب من درابزين الشرفة، أطل بعنقه، نظر إلى الأعلى وإلى الأسفل ثمّ عاد مطمئنّاً جدّاً ليجلس بجانب زوجته وأصدقائه. هؤلاء الناس نصف مجانين، قال إسبينوزا وبيليتير. على العكس منهما، اعتقدت نورتون أنّ شيئاً ما غريباً كان يحدث في الجادّة، في الشرفة، في غرف الفندق، بل وفي العاصمة الفيدرالية، مع سائقي سيارات الأجرة أولئك والبوّابين الخياليين، أو على الأقل ليس عندهم أي شيء منطقيّ يجعلها تربط بينهم وبين الواقع، بل وهناك شيء غريب، يفوتها فهمه، كان يحدث في أوروبا، في مطار باريس، حيث اجتمع الثلاثة، وربّما قبلها مع موريني ورفضه مرافقتهم، مع ذلك الشابّ المقيت الذي تعرّفوا عليه في تولوز، مع ديتر هيلفيلد وأخباره المفاجئة عن أرشيمبولدي. بل كان يحدث شيء غريب مع أرشيمبولدي ومع كلّ ما كان يرويه أرشيمبولدي ومعها هي ذاتها، شيء عصي على معرفتها، على شكل هبّاتٍ فقط، هي التي كانت تقرأ وتُسَجّل ملاحظاتٍ وتشرحُ كتب أرشيمبولدي.

- هل طلبت منهم أن يُصلحوا لك مرحاضَ غرفتك؟ -سأل إسبينوزا.

- بلى، قلت لهم أن يفعلوا ذلك -قال بيليتير-. لكنّهم في

الاستقبال اقترحوا عليّ تبديل الغرفة. أرادوا أن يضعوني في الطابق الثالث. لذلك قلت لهم لا بأس هكذا، إنّني أفكّر أن أبقى في غرفتي وإنّ باستطاعتهم أن يصلحوه عندما أغادر. أُفضّل أن نبقى معاً - قال بيليتير مبتسماً.

- حسناً فعلت - قال إسبينوزا.

- قال لي عامل الاستقبال إنّهم كانوا يُفكّرون بتبديل كرسيّ المرحاض، لكنّهم لم يعثروا على النموذج المناسب. ويتمنى ألا أن أذهب بانطباع سيّئ عن الفندق. رجل لطيف، بعد كلّ شيء - قال بيليتير.

كان الانطباع الأول الذي أخذه النقاد عن أمالفيتانو أقرب إلى السيّئ، متناسباً تماماً مع تواضع المكان، مع فارق أنّ المكان، المدينة الواسعة في الصحراء، يمكن أن يُنظر إليه كشيء مُميّز، شيءٍ مليء باللون المحلّي، برهان آخر على ثراء المشهد الإنساني، الذي كثيراً ما يكون مريعاً، بينما أمالفيتانو فقط يمكن أن يُرى كغريقٍ، كشخصٍ مهملِ الثياب، كأستاذٍ غير موجودٍ في جامعةٍ غير موجودة، كمجنّدٍ عاديّ في معركة مع البربرية خاسرة مُقَدّماً، أو بكلمات أقل كآبة، كما كان في النهاية فعلاً، كأستاذ فلسفة كئيب يرعى في حقله ذاته، ظهر دابّة نزوية وطفولية، ابتلع هايدغر بلقمة واحدة، على افتراض أنّ هايدغر كان من سوء حظّه أنّ يكون قد وُلِدَ على الحدود المكسيكية الأمريكية الشمالية. رأى فيه إسبينوزا وبيليتير شخصاً فاشلاً، فاشلاً على الأخصّ لأنّه عاش وتعلّم في أوروبا، وكان يُحاول أن يحمي نفسه بطبقة قاسية، لكنّ الرقّة الداخلية لا تلبث أن تفضحه على الفور. انطباع نورتون كان معاكساً، فقد كان بالنسبة إليها شخصاً حزيناً جدّاً، ينطفئ بخطواتِ عملاق، وآخر ما كان يطمح له هو في أن يكون دليلهم في تلك المدينة.

في تلك الليلة ذهب النقّادُ الثلاثة إلى النوم باكراً نسبيّاً. حلم بيليتير بكرسيِّ مرحاضه. ضجّة خافتة كانت توقِظه وكان ينهض عارياً ويرى من تحت البابِ أنّ أحداً أشعل ضوءَ الحمّام. فكَّرَ في البداية أنّها نورتون، بل وحتى إسبينوزا. لكنّه حين اقترب عرف أنّه لم يكن أيّ منهم. حين فتح الباب وجد الحمّام فارغاً. على الأرض تظهر بقع دم. حوض الحمّام وستارته يتكشّفان عن طبقات ليست متصلّبة كلّياً من مادّة اعتقدَ بيليتير في البداية أنّها طين أو قيء، لكنّه لم يتأخّر في أن يكتشف أنّها خراء. القرف الذي كان يحدثه عنده الخراء أكبر من الخوف الذي كان يحدثه عنده الدمُ. عند أوّل تهوُّعٍ استيقظ.

حلم إسبينوزا بلوحة الصحراء. في الحلم كان يستوي حتى يبقى جالساً في السرير ومن هناك كان باستطاعته أن يُشاهد، كما لو أنّه يُشاهد التلفزيون على شاشة أكبر من متر ونصف بمتر ونصف المتر، الصحراءَ الجامدة والوضّاءة ذات الصفرة الشمسيّة التي كانت تؤذي عينيه وصورَ الخيّالة، الذين كانت حركاتهم، حركات الخيّالة والخيول، لا يكاد يُحسّ بها، كما لو أنّهم يسكنون عالماً مختلفاً عن عالمنا، حيث كانت السرعةُ مختلفة، سرعة كانت بالنسبة إلى إسبينوزا بطْءٌ، بالرغم من أنّه كان يعرف أنّه بفضل هذا البطء، كائناً من كان المتأمّل للوحة، لا يُجنُّ. ثمّ كان هناك الأصوات. كان إسبينوزا يُصغي إليها. أصوت لا تكاد تُسمَعُ، في البداية كانت فقط حروفاً، أنّاتٍ قصيرة مُطْلَقَة كالشهب في الصحراء وفي الفضاء المسلّحِ لغرفة الفندقِ والحلم. بعض الكلمات المبعثرة، بلى كان قادراً على معرفتها. عَجَلة، زماع، لجاجة، سرعة، خفّة. كانت الكلمات تشقّ طريقها في الهواء المُخلخل للوحة كجذور جرثومية وسط لحم ميت. ثقافتُنا، كان يقول أحدُ الأصوات. حرّيتُنا. شعر إسبينوزا بكلمة حرّيّتنا كضربة سوط في قاعةٍ فارغة. حين استيقظ كان يتصبّب عرقاً.

في حلم نورتون رأت هذه ترى نفسها معكوسة في المرآتين، في

واحدة من أمام وفي الأخرى من خلف. كان جسدها مائلاً. بالتأكيد كان من المحال القول بما إذا كانت تُفكّر بأن تتقدّم أو تتراجع. كان نور الغرفة قليلاً ومجسداً، كمساء إنكليزي. لم يكن هناك أيّ مصباح مشتعل. كانت صورتها تظهرُ في المرآتين مرتدية كأنّها تريد أن تخرج، ترتدي طقماً رمادياً مفصّلاً، وشيئاً غريباً، إذ نادراً ما كانت نورتون تستخدم هذه القطعة، قبّعة رمادية تُذكّر بصفحات الموضة في الخمسينات. من المحتمل أنّها كانت تنتعل حذاءً بكعبٍ عال، أسودَ اللون وإن لم يكن باستطاعتها أن تراه. جمود جسدها، شيء فيه كان يدفعا إلى التفكير في المتخشّب وأيضاً في الأعزل، ومع ذلك كان يحملها على أن تتساءل ما الذي كانت تنظره كي تغادر، أيّ إخطارٍ كانت تنتظر كي تخرج من المجال الذي كانت فيه كلا المرآتين تتناظران، وتفتح الباب وتختفي. تراها سمعت ضجّة في الممرّ؟ ترى هل حاول أحدٌ أن يفتح بابها في أثناء مروره. نزيل في الفندق شارد الذهن؟ تراه مستخدم، أحدٌ أرسلَهُ مكتبُ الاستقبال، عاملةُ نظافة؟ ومع ذلك كان الصمت مطلقاً وفيه إضافة إلى ذلك، شيء من السكون، من حالات الصمت الطويل التي تسبق الليل. فجأة انتبهت نورتون إلى أنّ المرأةَ المنعكسة في المرآة ليست هي. شعرت بالخوف والفضول فبقيت ساكنةً، تراقب الصورة في المرآة، بأكبر قدر من التأنّي إن أمكن قول ذلك . موضوعيّاً، قالت لنفسها، هي مثلي وليس عندي أيّ سبب كي أفكّر بعكس ذلك. هذه أنا. لكنّها أمعنت بعد ذلك النظر في عنقها، شريان منتفخ، كما لو أنّه على وشك أن ينفجر. وكان يمتدّ من الأذن حتى يختفي في لوح الكتف. شريان كان يبدو مرسوماً أكثر مما هو حقيقيّ. عندئذٍ فكّرت نورتون: عليّ أن أذهب من هنا. وجابت الغرفة بعينيها محاولةً أن تكتشف المكانَ الدقيق الذي كانت فيه المرأة، لكنّه كان من المحال عليها أن تراها. كي تنعكس في كلا المرآتين، قالت لنفسها، عليّ أن أكون تماماً بين ممر المدخل الصغير والغرفة. لكنّها

لم ترها. حين نظرت إليها في المرآتين لاحظت تغيّراً. كانت المرأة تتحرّك بطريقة لا يكاد يُحسّ بها. أنا أيضاً معكوسة في المرآتين، قالت نورتون لنفسها. وإذا ما استمرّت هي بالتحرّك ستنظر في النهاية الواحدة منّا إلى الأخرى، سنرى وجهينا. شدّت نورتون على قبضتيها وانتظرت. امرأة المرآة أيضاً شدّت على قبضتيها، كما لو أنّ الجهد الذي تبذله يفوق القدرة البشرية. صار لون النور الذي كان يدخل إلى الغرفة رمادياً. تولّد عند نورتون انطباع بأن حريقاً قد شبّ في الشوارع. بدأت تتصبّب عرقاً، خفضت رأسها وأغمضت عينيها. حين عادت لتنظر إلى المرآتين، كان شريان المرأة المنتفخ قد ازداد حجماً وراح يلمع جانبه. عليّ أن أهرب، قالت لنفسها: أين هما جان-كلود ومانوِلْ؟ أيضاً فكّرت بموريني. فقط، غير نافذة مرصوصة، رأت كرسيَّ عجلاتٍ فارغاً وخلفه غابة هائلة، تكاد خضرتُها تكون سوداء، تأخّرت حتى عرفت أنّها هايد بارك. حين فتحت عينيها تقاطعت نظرتها مع نظرةِ امرأةِ المرآةِ في نقطة غير مُحدّدة من الغرفة. كانت عيناها مساويتين لعينيها. ذات الوجنتين، الشفتين، الجبين والأنف. راحت نورتون تبكي أو أنّها ظنّت أنّها كانت تبكي من الألم أو الخوف. إنّها مثلي، قالت لنفسها، لكنّها الأخرى ميتة. رسمت المرأة ابتسامة ثمّ ودون فاصلٍ شوّهت لمصةُ خوف وجهَها . نظرت نورتون مذعورة إلى الخلف، لكن لا أحد كان خلفها، فقط جدار الغرفة. عادت المرأة لتبتسم. هذه المرّة لم تسبق الابتسامةَ لمصةٌ، بل حركة إنهاك عميق. ثمّ عادت المرأة لتبتسم لها وعمَّ وجهَها هلعٌ ثم خلا من التعبير، تلته عصبية ثم إذعان، ثمّ كلّ حالات تعبيرات الجنون وتعود دائماً كانت تعود لتبتسم لها، بينما أخرجت نورتون، وقد استعادت برودةَ دمها، دفتراً وراحت تُسجّل ملاحظاتٍ سريعة جدّاً عمّا كان يجري، كما لو أنّ ذلك يحتوي على شيفرة قدرِها أو نصيبها من السعادة على الأرض، وهكذا بقيت حتى استيقظت.

حين قال لهم أمالفيتانو إنّه في عام ١٩٧٤ ترجم *الوردة اللامحدودة* لدار نشر أرجنتينية، تغيَّرَ رأيُ النقّاد. أرادوا أن يعرفوا أين تعلّم الألمانيّةَ، وكيف تعرّف على أعمال أرشيمبولدي، ما الكتب التي قرأها له، ما الرأي الذي يستحقُّهُ. قال أمالفيتانو إنّه تعلّم الألمانية في تشيلي، في المدرسة الألمانيّة، التي ذهب إليها منذ صغره، وإن ذهب في الخامسة عشرة من عمره، لأسباب ليس هذا مجال لذكرها، ليدرس في مدرسة عامّة. بدأ احتكاكه بأعمال أرشيمبولدي، كما يظنّ أنّه يتذكّر، في العشرين من عمره، آنذاك قرأها بالألمانية وكان يستعير الكتبَ من مكتبة في سانتياغو، *الوردة اللامحدودة*، *القناع الجلدي وأنهار أوروبا*. لم يكن في تلك المكتبة غير هذه الكتب الثلاث الشعب المتشعّبة،[1] لكّن هذا الأخير بدأ به ولم يستطيع إنهاءه. كانت مكتبة عامّة أغناها سيّدٌ ألمانيّ راكم كتباً كثيرةً بتلك اللغة تبرّع بها قبل أن يموت لجاليته في حي نيونيوَا، في سانتياغو.

طبعاً كان رأي أمالفيتانو بِأرشيمبولدي جيّداً، وإن كان يبعد كثيراً عن التولّه الذي كان يشعر به النقّاد تجاه المؤلّف الألماني. كان يبدو لأمالفيتانو مثلاً أنّه جيّد مثل غونتر غراس أو أرنو شميدت. حين أرادَ النقّادُ أن يعرفوا ما إذا كانت فكرة ترجمة *الوردة اللامحدودة* فكرته أم بتكليف من الناشرين، قال أمالفيتانو، إنّ الفكرة، بحسب ما يعتقد أنّه يتذكّر، هي فكرة ناشري تلك الدار الأرجنتينيّة، في تلك المرحلة، قالَ، كنتُ أُترجم كلّ الذي أستطيعه، كما أنّني كنتُ أعملُ كمُنَقِّحٍ للملازم. كانت الطبعة، على حدّ علمه، طبعة قرصنة، وإن فكّر بهذا كثيراً بعد ذلك ولا يستطيع أن يؤكّده.

حين سأله النقادُ وقد صاروا أكثر أريحيةً بكثير بظهوره، سألوه ماذا كان يفعل في الأرجنتين في عام ١٩٧٤، نظر أمالفيتانو إليهم، ثمّ نظر

---

(١) نوع من الأشْن.

إلى كوكتيل المرغريتا وقال، كما لو أنّه كرَّر ذلك مرّاتٍ كثيرةً، إنّه كان في عام ١٩٧٤ في الأرجنتين بسبب الانقلاب العسكريّ في تشيلي، الذي أجبره على أن يسير في طريق المنفى. ثمّ اعتذر من تلك الطريقة البليغة جدّاً في التعبير. كل شيء يُكتسب، قال، لكن ما من أحد من النقّاد أعطى أهمّية كبيرة لهذه الجملة الأخيرة.

- لا بدّ أن المنفى شيءٌ مريع -قالت نورتون، متفهّمة.

- في الحقيقة -قال أمالفيتانو- أراه الآن كحركة طبيعية، شيء يُساهم على طريقته في تحرير المصير أو ما يُعْتَبَرُ بعامّة المصير.

- _لكنّ المنفى -قال بيليتير- مليء بالعوائق، بالقفزات وبالقطيعة، التي تتكّررُ إلى هذا الحدّ أو ذاك وتعيق أيّ شيء مُهمّ يعتزم المرء القيام به.

- في هذا بالضبط يكمن تحرير المصير. واعذروني مرّة أخرى.

في صباح اليوم التالي وجدوا أمالفيتانو ينتظرهم في لوبي الفندق. لو لم يوجد الأستاذ التشيليّ هناك لكانوا بالتأكيد حكوا لبعضهم بعضاً كوابيس تلك الليلة، ومن يدري ما الذي كان سيخرج إلى النور. لكنّ أمالفيتانو كان هناك وذهبوا أربعتهم ليتناولوا الإفطار وليُخَطّطوا لنشاطات ذلك اليوم. درسوا الاحتمالات. في المكان الأوّل كان واضحاً أنّ أرشيمبولدي لم يحضر إلى الجامعة، على الأقل إلى كلّية الفلسفة والآداب. لم تكن توجد قنصليّة ألمانية في سانتا تِرِسا، لذلك فإنّ أيّ حركة بهذا الاتجاه كانت مستبعدة مقدَّماً. سألوا أمالفيتانو، كم فندقاً كان في المدينة. أجاب هذا بأنّه لم يكن يعرف، لكنّه يستطيع أن يتحقَّق في الحال، ما إن ينهوا فطورهم.

- بأيّ طريقة؟ -أراد إسبينوزا أن يعرف.

- بالسؤال في مكتب الاستقبال -قال أمالفيتانو-. هناك يجب أن يكون عندهم لائحة كاملة بكلّ الفنادق والموتيلات في الضواحي.

- واضِح -قال بيليتير ونورتون.

فكّروا، بينما هم ينهون فطورهم، بالدوافع التي من الممكن أنّها دفعت أرشيمبولدي للسفر إلى ذلك المكان. عرف أمالفيتانو وقتها أنّه ما من أحد رأى أرشيمبولدي شخصياً. بدت له القصّةُ، دون أن يعرف معرفة اليقين لماذا، ظريفة وسألهم عن الدوافع التي لأجلها يريدون أن يعثروا عليه، إذا كان واضحاً أنّ أرشيمبولدي لم يكن يريد أن يرى أحداً. لأنّنا ندرس أعماله، قال النقّادُ. لأنّه يموت وليس من العدل أن يموت أفضل كاتب ألمانيّ في القرن العشرين دون أن يستطيع أن يتكلّم مع أفضل من قرؤوا رواياته. لأنّنا نريد أن نقنعه بالعودة إلى أوروبا، قالوا.

- كنتُ أظنُّ -قال أمالفيتانو- أنّ أفضل كاتب ألمانيّ في القرن العشرين هو كافكا.

حسن، إذن هو أفضل كاتب ألماني فيما بعد الحرب أو أفضل كاتب ألماني في النصف الثاني من القرن العشرين، قال النقّادُ.

- هل قرأتم بيتر هاندكه؟ -سألهم أمالفيتانو- وتوماس بيرنهارد؟

أوف، قال النقّادُ، وهاجموا أمالفيتانو بدءاً من تلك اللحظة وحتى انتهاء الفطور حتى تقليصه إلى نوع من الدرّة الجرباء[1] المفتوحة من عنقها وحتى مؤخرتها من دون أيّ ريشة.

أعطوهم في مكتب الاستقبال لائحة بفنادق المدينة. رأى أمالفيتانو أنّ باستطاعتهم أن يهتفوا من الجامعة، طالما أنّ العلاقة بين غِرّا والنقّاد جيدة، أو الاحترام الذي كان يشعر به غِرّا تجاه النقّاد كان تبجيلاً ولا

---

(١) Perequito أو perequillo طائر بألوان كثيرة يُشبه الببغاء. وهنا إشارة إلى ما يُعتبر، بنظر الكثيرين، الرواية الأمريكية اللاتينية الأولى *الدرة الجرباء (المكسيك ١٨١٦)* *لخوسيه خواكين فِرنانديث ليثاردي*.

يخلو من الارتعاشات، الارتعاشات لم تكن تخلو بدورها من العنجهية أو الدلال، وإن كان يجب أن نُضيف أنّ وراء الدلال أو الارتعاشات كان يقبع دهاء، فإذا كان موقف غِرّا الإيجابي مملى من قبل رئيس الجامعة نِغْرِتِ، فإنّه لا يخفى على أمالفيتانو أنّ غِرّا كان يُفكّر بأن يحصل على مكاسب من زيارة الأساتذة الأوروبيين الشهيرين، خاصّة إذا ما أُخِذ بالحسبان أنّ المستقبل غامض وأنَّ المرء لا يعرف أبداً معرفة اليقين في أيّ لحظة ينعطف الطريق ونحو أيّ أماكن غريبة يقود خطواته. لكنَّ النقاد رفضوا أن يستخدموا هاتف الجامعة وسجّلوا المكالمات في حساب غرفهم.

كي يكسبوا الوقت هتف إسبينوزا ونورتون من غرفة إسبينوزا وأمالفيتانو وبيليتير من غرفة الفرنسي. بعد ساعةٍ لم يكن من الممكن أن تكون النتيجة أكثر إحباطاً. ما من فندق سُجّل فيه أي شخص باسم هانز رايتر. بعد ساعتين قرّروا أن يوقفوا المكالمات وينزلوا إلى البار ليشربوا كأساً. فقط بقيت بعض الفنادق وبعض الموتيلات في ضواحي المدينة. حين تأمّلوا اللائحة بتأنٍّ أكبر قال لهم أمالفيتانو إنّ غالبية الموتيلات التي تظهر في اللائحة هي موتيلات لناس عابرين، مواخير مستورة، أماكن من المستحيل أن يتصوّر وجود سائح ألماني فيها.

- نحن لا نبحث عن سائح ألمانيّ بل عن أرشيمبولدي -أجابه إسبينوزا.

- صحيح قال أمالفيتانو ونصوّر بالفعل أرشيمبولدي في موتيل.

السؤال هو ماذا جاء يفعل أرشيمبولدي في هذه المدينة، قالت نورتون. توصّل النقّاد بعد أن تناقشوا برهة إلى استنتاج، وكان أمالفيتانو متفقاً معهم، أنّه يمكن أن يكون قد جاء إلى سانتا تِرِسا كي يزورَ صديقاً أو يجمع معلومات لروايته القادمة أو للسببين معاً. مال بيليتير إلى احتمال الصديق.

- صديق قديم -تكهّن-، أي ألماني مثله.

- ألماني لم يره منذ سنوات طويلة، نستطيع أن نقول منذ نهاية الحرب العالمية الثانية -قال إسبينوزا.

- رفيق في الجيش، أحد كان يعني كثيراً بالنسبة إلى أرشيمبولدي واختفى ما إن انتهت الحربُ بل ويمكن أن يكون قبل أن تنتهي الحرب -قالت نورتون.

- ومع ذلك هو أحد يعرفُ أنّ أرشيمبولدي هو هانز رايتر -قال إسبينوزا.

- ليس بالضرورة، ربّما ليس عند الصديق أدنى فكرة عن أنّ هانز رِيْتِر وأرشيمبولدي شخص واحد، هو فقط يعرف هانز رِيْتِر ويعرف كيف يتواصل مع رِيْتِر وأكثر قليلاً -قالت نورتون.

- لكن ليس بهذه السهولة -قال بيليتير.

- لا، ليس بهذه السهولة، فهو يفترض أن ريتر، منذ المرّة الأخيرة التي رأى فيها صديقه، لنَقُلْ في عام ١٩٤٥، لم يغيّر عنوانه -قال أمالفيتانو.

- إحصائيّاً ما من ألمانيّ وُلِد عام ١٩٢٠ لم يبدّل عنوانه على الأقل مرّة واحدة في حياته -قال بيليتير.

- هكذا يمكن أنّ الصديق لم يتواصل معه بل إنّ أرشيمبولدي نفسه هو من تواصل مع صديقه -قال إسبينوزا.

- صديق أو صديقة -قالت نورتون.

- أنا أميل لأن أعتقد أنّه صديق أكثر من صديقة -قال بيليتير.

- إلاّ إذا كان الأمرُ لا يتعلّقُ بصديقٍ ولا بصديقة وأنّنا جميعاً نخبط خبط عشواء -قال إسبينوزا.

- إذن ماذا جاء يفعل في هذا المكان -قالت نورتون.

- يجب أن يكون صديقاً؛ صديقاً عزيزاً جدّاً، عزيزاً بما يكفي كي يدفع بِأرشيمبولدي لأن يقومَ بهذه الرحلة -قال بيليتير.

- وماذا لو كنّا مخطئين؟ وماذا لو أنّ ألمِندرو كذب علينا أو كذبوا عليه؟ - قالت نورتون.

- أيّ ألمِندرو؟ هِكتور إنريكِ ألمِندرو؟ - سأل أمالفيتانو.

- هو نفسه، هل تعرفه؟ - قال إسبينوزا.

- لا، شخصيّاً لا، لكنّني لا أعطي مصداقية زائدة لمعلومة من ألمِندرو - قال أمالفيتانو.

- لماذا؟ - سألت نورتون.

- حسن، إنّه المثقّف المكسيكي التقليدي، المشغول أساساً بعيشه - قال أمالفيتانو.

- جميع المُثقفين الأمريكيين اللاتينيين مشغولون أساساً بعيشهم، إلي صحيحاً؟ - قال بيليتير.

- أنا لن أعبّر عن هذا بهذه الكلمات، هناك بعضهم مهتمّ بالكتابة، مثلاً - قال أمالفيتانو.

- هيّا، وَضِّحْ لنا هذا - قال إسبينوزا.

- في الحقيقة لا أعرف كيف أُوضّحه - قال أمالفيتانو - علاقة المثقّفين المكسيكيين مع السلطة قديمة. لا أقول إنّهم جميعاً هكذا. هناك استثناءات ملحوظة. كما لا أقول إنّ الذين يسلمون أنفسهم يسلمونها عن سوء نيّة. ولا أنّ هذا الاستسلام هو استسلام بكلّ معنى الكلمة. لِنَقُلْ إنّه فقط وظيفة. لكنّها وظيفة مع الدولة. في أوروبا المثقفون يعملون في دور نشر أو الصحافة، أو تُعيلهم نساؤهم أو أنّ آباءهم يشغلون مواقع مهمّة ويعطونهم شهريات، أو أنّهم عمّال وجانحون ويعيشون بنزاهة من عملهم. في المكسيك، ويمكن للمثل أن يشمل كلّ أمريكا اللاتينية، باستثناء الأرجنتين، يعمل المثقفون لصالح الدولة. هكذا كان الأمر مع الحزب الثوري الدستوري وما يزال الأمر كذلك مع حزب العمل الوطني. المثقّف من جانبه، يمكن أن يكون مدافعاً متحمّساً عن الدولة أو ناقداً لها. الدولة لا يهمّها. الدولة تُغذّيه

وتراقبه بصمت. الدولة بجيشٍ من الكتّاب غير النافعين تقريباً تفعل شيئاً. ما هو؟ تطرد الشياطين، تغيّرُ أو على الأقل تُحاولُ أن تؤثّر في الزمنِ المكسيكي. تُضيف طبقات من الكلس إلى تجويف لا أحد يعرف ما إذا كان موجوداً أو غير موجود. طبعاً هذا ليس دائماً بهذا الشكل. إنّ مثقّفاً يستطيع أن يعمل في الجامعة، أو بالأحرى أن يذهب ليعمل في جامعة أمريكية شمالية، أقسامُ الآداب فيها سيّئة مثلها مثل الجامعات المكسيكية، لكنّ هذا لا يحميه من أن يتلقّى مكالمة هاتفيّة في ساعات متأخّرة من الليل وأن كلّمه أحد باسم الدولة يعرض عليه عملاً أفضل، وظيفة أفضل أجراً، شيئاً يعتبر المثقّف أنّ يستحقّه، والمثقفون *دائماً* يعتقدون أنّهم يستحقّون شيئاً *أفضل*. بهذه الآلية يَخْصُون الكتّابَ المكسيكيين. يُجنّنونهم. بعضهم مثلاً، يبدأ بترجمة شعر يابانيّ دون أن يعرف اليابانية، هكذا، يتفرّغون للشرب. ألمِندرو مثلاً ودون أن نذهب بعيداً أظنّه يفعل الشيئين معاً. الأدب في المكسيك مثل روضة أطفال، أو مركز تمهيدي، مركز رعاية، لا أدري ما إذا كنتم تستطيعون أن تفهموني . الطقس جيّد، الشمس مشرقة، ويستطيع المرء أن يخرج من البيت ويجلس في حديقة ويفتح كتاباً لِفاليري، ربّما أكثر الكتّاب مقروئية من قبل الكتّاب المكسيكيين، ثم يذهبُ إلى بيت الأصدقاء ويتكلّم معهم. ومع ذلك لا يعودُ ظلُّكَ يتبعُكَ لقد هجرك في لحظة ما بصمت. وأنت تتظاهر كما لو أنّك لم تنتبه، ظلّلك اللعين ما عاد يُرافقك، لكن لا بأس يمكن تفسير هذا بطرق كثيرة، وضعية الشمس، درجة اللاوعي التي تثيرها الشمس تُثير في الرؤوس لا تعتمر قبّعة، كلّ الكحول المُحتسى، الحركة الذي يشبه حركة خزانات الألم الباطنية، الخوف من أكثر الأشياء عرضيّة، من مرض يُلمح، الغرور المجروح، الرغبة بأن تكون دقيقاً في مواعيدك لمرّة واحدة على الأقل في حياتك. المسألة أنّ ظلّك يضيعُ وأنت تنساه آنيّاً. وهكذا تصل بلا ظلٍّ إلى نوع من المسرح وتبدأ تُترجم الواقعَ أو تعيد تفسيره أو تُغَنّيه.

المسرح المذكور هو صدر المسرح وفي صدر المسرح هناك أنبوب ضخم، شيء يُشبه منجماً أو مدخل منجمٍ أبعاده عملاقة. لنَقُلْ إنّه كهف. لكننا أيضاً نستطيع أن نقول إنّه منجم. تخرج من فم المنجم أصواتٌ غير مفهومة، أصوات مُحاكية، حروف خانقة أو مغرية، أو خانقة بشكل مغرٍ، أو يمكن أن تكون مجرَّدَ همهمات أو همسات وأنيناً. الأكيد هو أنّه ما من أحد يرى، بمعنى الرؤية، مدخلَ الكهف. آلة، لعبة أضواء وظلال، تلاعب بالزمن، تسرق محيطَ فم الكهف الحقيقيّ من نظرة المشاهدين. في الواقع وحدهم المشاهدون الأقرب إلى صدر المسرح، الملتصقون بمنطقة الأوركسترا يستطيعون أن يروا خلف شبكة التمويه الكثيفة، محيطَ شيءٍ، ليس المحيط الحقيقيّ، لكنّه على الأقل محيط شيء. المشاهدون الآخرون لا يرون أيَّ شيء أبعد من صدر المسرح ويمكن القول إنّه أيضاً لا يهمّهم أن يروا شيئاً. من ناحية أخرى، المثقفون بلا ظلّ يديرون ظهورهم دائماً وبالتالي من المحال عليهم أن يروا شيئاً لم يكن لهم عيون في النقرة، . هم فقط يسمعون الأصوات التي تخرج من عمق المنجم. ويترجمونها أو يعيدون تفسيرها أو يعيدون خلقها. أعمالهم، التي ينوؤن تحت ثقلها عليهم، فقيرة جدّاً. يستعملون البلاغة حين يُحْدَس إعصار، يُحاولون أن يكونوا بلغاء حين يحدسون الغضب الفالت من عقاله، يُحاولون أن يتقيّدوا بقواعد الوزن هناك حيث لم يبق غير صمت مُصِمّ وعبثيّ. يقولون زيق زيق، عَو، عَو، مياو مياو، لأنّهم غير قادرين على أن يتصوّروا حيواناً بأبعاد خارقة أو غيابَ هذه الحيوان. ثمّ إنّ المسرح الذي يعملون عليه، هو من ناحية أخرى جميل جدّاً، ومُصَمَّم بشكل رائع ومُدلّل جدّاً، لكنَّ أبعاده تصغر مع مرور الزمن في كلّ مرّة أكثر. انكماش المسرح هذا لا يُفقِده قيمته ولا بشكلٍ من الأشكال. ببساطة هو في كلّ مرّة أصغر وكذلك المقصورات والمشاهدون بالطبعِ هم في كلّ مرّة أقل. إلى جانب هذا المسرح طبعاً هناك مسارح أخرى، مسارح جديدة كبرت مع

مرور الزمن. هناك مسرح الرسم، الهائل، مشاهدوه قلّة لكنّهم جميعاً، كي أقول ذلك بطريقة ما، أنيقون. هناك مسرح السينما والتلفزيون، هنا الصالة هائلة ودائماً مليئة وصدر المسرح يكبر بإيقاع جيد عاماً بعد عام. ينتقل ممثلو خشبة المثقفين أحياناً كممثلين مدعوّين إلى مسرح التلفزيون. فم المنجم في هذا المسرح هو ذاته، مع تغيير خفيف جدّاً في المنظور، وإن كان من المحتمل أنّ التمويه أكثر كثافة وإن كان محمّلاً بمزاج غامض ومع ذلك منتن. طبعاً هذا التمويه الفكاهيّ يسمح بتفسيرات كثيرة تنحصر في النهاية، من أجل أكبر قدر من السهولة بالنسبة للجمهور أو لعينِ الجمهور الجمعية، بتفسيرين. يستقرّ المثقفون أحياناً للأبد في إطار التلفزيون. من فم المنجم ما تزال تخرج زمجرات ويستمرّ المثقفون بسوء تفسيرهم لها. في الحقيقة أنّهم غير قادرين، وهم أسياد اللغة نظريّاً، ولا حتى على إثرائها. أفضل كلماتهم كلمات مستعارة يسمعون مشاهدي الصفّ الأوّل يقولونها. عادة ما يُطلق على هؤلاء المشاهدين، اسم *الجلادين*. إنّهم مرضى ومن وقت لآخر يخترعون كلمات مريعةً ومؤشّر الموت عندهم عالٍ. حين ينتهي يوم عملهم تُغلق المسارح وتُسدّ أفواه المناجم بصفائح فولاذية كبيرة. ينسحب المثقفون. القمر ضخم وهواء الليل نقيّ إلى حدّ أنّه يبدو مُغَذّياً. تُسمع في بعض المحلاّت أغانٍ تصل نغماتها إلى الشوارع. ينحرف أحياناً أحد المثقفين ويدخل في أحد هذه المحلاّت ويشرب المثكال. عندها يُفكّر ماذا لو أنّه ذات يوم... لكن لا، هو لا يُفكّر بشيء. هو فقط يشرب ويُغنّي. يعتقد أحدنا أحياناً أنّه يرى كاتباً ألمانيّاً أسطوريّاً. في الحقيقة لم يرَ غير ظلّه، وأحياناً يكون قد رأى ظلَّ نفسه فقط عائداً إلى البيت كلَّ ليلة كي يمنع المثقّف من أن ينفجر أو يشنق نفسه في الباب. لكنّه يُقسم أنّه رأى كاتباً ألمانيّاً وفي هذه القناعة تكمن سعادته، نظامه، دواره، مفهومه للعربدة. في صباح اليوم التالي الطقس حسن. الشمس تتلألأ لكنّها لا تحرق. يستطيع المرء أن يخرج من بيته

مطمئناً بشكل معقول، يجرُّ معه ظلَّه ويتوقّف في حديقة ويقرأ بعض صفحات فاليري. وهكذا حتى النهاية.

- لم أفهم شيئاً مما قلتَ - قالت نورتون.

- في الحقيقة لم أقل غير الترهات - قال أمالفيتانو.

هتفوا بعدها إلى الفنادق والموتيلات وما من واحد منها كان ينزل فيه أرشيمبولدي. فكّروا لبضع ساعات أنّ أمالفيتانو كان على حقّ وأنّ من المحتمل أن تكون فكرة ألمِندرو ثمرة خياله المحموم، وأنّ رحلة أرشيمبولدي إلى المكسيك غير موجودة إلا في تلافيف دماغ الخنزير. قضوا اليوم التالي يقرؤون ويشربون وما من واحد من الثلاثة تشجّع على الخروج من الفندق.

في تلك الليلة بينما كانت نورتون تُراجع بريدها الالكتروني في حاسوب الفندق، تلقّت رسالة من موريني. كان موريني يتحدّث في رسالته عن الطقس، كما لو أنّه ليس عنده ما هو أفضل كي يقوله، عن المطر الذي بدأ يسقط متلوياً فوق تورين في الثامنة ليلاً ولم يتوقّف حتى الواحدة صباحاً ويتمنى لِنورتون من كلّ قلبه طقساً أفضل في شمال المكسيك، حيث بحسب ما كان يعتقد لا تُمطِر أبداً والبرد لا يوجد إلاّ ليلاً، وهذا في الصحراء فقط. في تلك الليلة صعدت أيضاً نورتون بعد أن ردّت على بعض الرسائل إلى غرفتها، سرّحت شعرها، غسلت أسنانها، ووضعت كريماً مُرطّباً على وجهها، مكثت برهةً جالسةً على سريرها وقدماها على الأرض تُفكّر، خرجت بعدها إلى الممرّ وقرعت باب بيليتير ثمّ باب إسبينوزا، وقادتهما دون أن تقول كلمة واحدة إلى غرفتها، حيث مارست الحبَّ مع الاثنين حتى الخامسة صباحاً، الساعة التي عاد فيها الناقدان بناء على إشارة من نورتون، كلٌّ إلى غرفته، حيث غطّا على الفور في نومٍ عميق، النوم الذي لم يسعف نورتون، التي

سوّت ملاحفَ سريرها قليلاً وأطفأت أضواء الغرفة، لكنّها لم تستطع أن تُطبق جفناً.

فكّرت بموريني، أو بالأحرى رأت موريني جالساً في كرسيّ عجلاته أمام نافذة شقّته في تورين، الشقة التي لم تكن تعرفها، ينظر إلى الشارع وواجهات الأبنية المجاورة ويتأمّل كيف كان يسقط المطر بلا انقطاع. الأبنية المقابلة كانت رماديّة. كان الشارع مظلماً وواسعاً، جادّةً، بالرغم من أنّه ما من سيّارة كانت تمرّ فيه، فيه بعض الأشجار الكسيحة التي يفصل بين الواحدة والأخرى عشرون متراً، يمكن أن يُقال إنّها مزحة ثقيلة من العمدة أو مهندس البلدية. كانت السماءُ بطانيةً مُغطاة ببطانيةٍ أخرى مغطاةٍ بدورها بأخرى أسمك وأرطب منها. كانت النافذة التي كان موريني يتأمّل منها الخارجَ كبيرةً، تكاد تكون نافذة شرفة، ضيقة أكثر مما هي عريضة، لكنّها فعلاً كانت طويلة جدّاً ونظيفة إلى حدّ أنّه يمكن أن يُقال إنّ البلورَ الذي كانت تنزلق فوقه قطرات المطر، كان كريستالاً خالصاً أكثر مما هو بلور. كان إطار النافذة من الخشب المطليّ بالأبيض. كانت أضواء الغرفة مشتعلة. الأرض الخشبية تتلألأ. رفوف الكتب تبدو مرتّبة بشكل جميل، ومن الجدران تتدلّى لوحات قليلة، يُحسد على حسن ذوقه في انتقائها. لم يكن هناك سجّاد والأثاث، أريكة من الجلد الأسود وكرسيّان كبيران من الجلد الأبيض، لا يُعرقل حركة كرسيّ العجلات الحرّة إطلاقاً. خلف الباب ذي الدرفتين، الذي يبقى مشقوقاً ينفتح ممرّ مظلم.

وماذا نقول بالنسبة إلى موريني؟ كانت وضعيته في كرسيّ العجلات تُعبّر إلى درجة ما عن الهجر، كما لو أنّ تأمّله للمطر الليليّ والجيران النائمين يُتوّج كلَّ توقّعاته. كان أحياناً يسند ذراعيه إلى الكرسيّ، وأحياناً أخرى يسند رأسه إلى إحدى يديه ويسند مرفقه إلى ذراع الكرسي. كانت ساقاه الكسيحتين مثل ساقي مراهق مُحتَضر، مغمدتين

في بنطلون جينز، ربّما كان أوسع من اللازم. كان يرتدي قميصاً أبيضَ، أزرار القبّة مفتوحة، في معصمه الأيسر ساعة سيرها كبير وإن لم يكن كبيراً إلى حدّ أن تسقط منه، لم يكن ينتعل حذاءً بل خفّاً قديماً جدّاً من القماش الأسود واللامع كالليل. كلّ ثيابه كانت مريحة، منزلية وكان من الممكن أن يُؤكّد من موقفه أنّه لا ينوي أن يذهب غداً إلى العمل، أو أنّه يُفكّر بأن يصل متأخراً إلى العمل.

كان المطر على الجانب الآخر من النافذة، كما قال في رسالته، يسقط متلوياً، كان في خمول موريني، سكينته وكسله شيء من الريفي بشكل قاتل، خاضعاً جسداً وروحاً للأرق دون أيّ تذمّر.

خرجوا في اليوم التالي ليقوموا بجولة في سوق الأعمال اليدوية، المصمم في البداية كمكان للتجارة والمقايضة لبن أهل محيط سانتا تِرِسا حيث كان يصل مهنيون يدويون وفلاحون من كلّ المنطقة، حاملين منتجاتهم في عرباتٍ أو على ظهور حميرهم، بل وباعة ماشية من نوغالِسْ وبيثِنْتِ غِرّرو، وتجّار خيول، يُحافظون عليها الآن فقط للسياح الأمريكيين الشماليين الذين كانوا يصلون من فونيكس في حافلاتهم أو قوافلهم المؤلفة من ثلاث أو أربع سيّارات ويغادرون المدينة قبل حلول الليل. ومع ذلك أُعجِبَ النقّادُ بالسوق، ومع أنّهم لم يفكّروا بأن يشتروا شيئاً إلا أنّ بيليتير اشترى بسعر مضحك تمثال صلصال لرجل جالس على حجر يقرأ صحيفة. كان الرجلُ أشقر ويبرز في جبينه قرنا شيطانٍ صغيران. من جانبه اشترى إسبينوزا سجّادةً هندية من فتاة عندها بسطة سجّادٍ وبسطٍ وشالات مكسيكية. في الحقيقة لم تعجبه السجادة كثيراً، لكنّ الفتاة كانت ظريفة وقضى برهة طويلة يتكلّم معها. سألها من أين هي، فهو كان قد تولّدَ لديه انطباع بأنّها جاءت بسجاجيدها من مكان بعيد جدّاً، لكنّ الفتاة أجابته بأنّها من سانتا تِرِسا ذاتها، من حيٍّ يقعُ إلى الغرب من مكان السوق. أيضاً قالت له إنّها تدرس التمهيدي

إنّها تُفكّر إذا ما سارت الأمورُ كما يُرام أن تدرس بعدها التمريض. لم تَبْدُ لِإسبينوزا جميلة وحسب، بل وذكيّة أيضاً، ربّما كانت أقصرَ من اللازم بالنسبة إلى ذوقه.

في الفندق كان ينتظرهم أمالفيتانو. دعوه للغداء ثمّ خرج الأربعة لزيارة الصحف الموجودة في سانتا تِرِسا. هناك راجعوا كلّ الأعداد العائدة لشهر سابقٍ على رؤية ألمِندرو لِأرشيمبولدي في العاصمة الفيدرالية وحتى أعداد اليوم السابق. لم يعثروا على أيّ إشارة تدلّ على أنّ أرشيمبولدي مرَّ بالمدينة. بحثوا في البداية في أخبار الموتى. دخلوا بعدها إلى أخبار المجتمع والسياسة، بل وقرؤوا أخبارَ الزراعة وتربية الماشية. إحدى تلك الصحف لم يكن لها ملحق ثقافي. وأخرى كانت تُخَصِّص صفحةً أسبوعية للتعريف بكتاب والإعلان عن النشاطات الفنّية في سانتا تِرِسا، وإن كان من الأفضل لها لو خصّصتها للرياضة. في السادسة مساء انفصلوا عن الأستاذ التشيليّ في باب إحدى الصحف وعادوا إلى الفندق. استحمّوا ثمّ راح كلّ منهم يُراجع بريده الإلكتروني. كتب بيليتير وإسبينوزا إلى موريني يخبرانه عن النتائج الهزيلة التي حصلوا عليها. كلا الرسالتين أعلنت، أنّه إذا لم يتغير شيء فسرعان ما سيعودون إلى أوروبا بعد يومين كحدّ أقصى. لم تكتب نورتون إلى موريني. لم يردّ على رسالتها السابقة ولم يكن بها رغبة لأن تواجه موريني هذا الجامد، الذي كان يتأمّلُ المطر، كما لو أنّه أراد أن يقول لها شيئاً ثم فضَّل في آخر لحظة ألا يفعل. بدل ذلك ودون أن تُعلِم صديقها هتفت لِألمِندرو، في العاصمة الفيدرالية، ثمّ وبعد بضع محاولات فاشلة (لم تكن سكرتيرة الخنزير والعاملة المنزلية لا تعرفان الإنكليزية، بالرغم من أنّهما جهدتا من أجل ذلك) استطاعت أن تتواصل معه.

عاد الخنزير ليحكي لها، بصبر يُحْسَدُ عليه، وبإنكليزية مصقولة في ستانفورد، كلَّ الذي جرى منذ أن هتفت له الشرطة من ذلك الفندق

الذي نزل فيه أرشيمبولدي وكان يُسْتَجْوَب فيه من قبل ثلاثة رجال من الشرطة. عاد ليروي دون أن يقع في تناقضات، لقاءَهُ الأوّل به، اللحظة التي قضياها معاً في ساحة غاريبالدي، العودة إلى الفندق، حيث أخذ أرشيمبولدي حقيبته ثمّ الرحلة إلى المطار، الرحلة التي كانت أقرب إلى الصامتة، حيث استقلّ أرشيمبولدي الطائرةَ في طريقه إلى هِرموسيّو ولم يره بعدها أبداً. اقتصرت نورتون بدءاً من تلك اللحظة على سؤاله عّن شكل أرشيمبولدي. طويل، أطول من متر وتسعين سنتيمتراً، شعره وفير، غزاه الشيب وإن كان أصلع عند النقرة، نحيل، وقويّاً دون شكّ.

- عجوز جدّاً - قالت نورتون.

- لا، أنا لا أقول ذلك - قال الخنزير - حين فتح الحقيبةَ رأيتُ فيها أدوية كثيرة. بشرته مليئة بالبقع. يبدو أحياناً أنّه كان يتعب جدّاً وإن كان يستعيد أو يتظاهر بأنّه يستعيد أنفاسه بسهولة.

- كيف هما عيناه؟ - سألت نورتون.

- زرقاوان - قال الخنزير.

- لا، أعرفُ أنّهما كانتا زرقاوين، أعني كيف كانتا، ما الانطباع الذي تركته عيناهُ عندك.

ساد على الطرفِ الآخر من الهاتف صمتٌ متطاول، كما لو أنّ الخنزير لم يكن ينتظر هذا السؤال إطلاقاً. أو كما لو أنه صاغ هو نفسه هذا السؤالَ مرّاتٍ كثيرةً دون أن يعثر له بعدُ على جواب.

- من الصعب الإجابة على هذا - قال الخنزير.

- أنت الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يجيب عليه، لا أحد رآه منذ زمن طويل، وضعُك، اسمح لي أن أقول لك، متميّز - قالت نورتون.

- اللعنة! - قال الخنزير.

- ماذا؟ سألت نورتون.

- لا شيء، لا شيء، إنّني أفكّر -قال الخنزير.
ثم قال بعد برهة:
- له عينا أعمى، لا أقول إنّه أعمى، لكنّهما مثل عيني أعمى، قد أخطئ.

ذهبوا في تلك الليلة إلى الحفلة التي أقامها رئيسُ الجامعة نِغْرِتِ على شرفهم، وإن لم يعرفوا إلا متأخرين أنّ الحفلةَ كانت على شرفهم. تمشّت نورتون في حديقة الدار وتأمّلت النباتاتِ التي راحت زوجةُ رئيس الجامعة تُسَمّيها لها واحدةً واحدة، وإن نسيت بعدها كلَّ الأسماء، تحدّث بيليتير طويلاً مع رئيس الجامعة غِرّا ومع أستاذٍ آخر من الجامعة قدّم رسالته في باريس عن مكسيكيّ كان يكتبُ بالفرنسية (مكسيكيّ يكتب بالفرنسيّة؟)، بلى، بَلى، شخصٌ فريد وغريب جدّاً وكاتب جيّد سمّاه الأستاذ الجامعيّ عدّة مرّاتٍ (شخص يدعى فِرْنانديث؟ شخص يُدعى غارثيّا؟) رجل عمله عكر قليلاً، فقد كان تعاونيّاً، بلى، بلى صديقاً حميماً ليسلين ولِدريو لاروشيل وتلميذاً لماوراس، الذي أعدمته المقاومة الفرنسية، لا أقصد ماوراس، بل المكسيكي، الذي عرف كيف يتصرّف كرجل حتى النهاية، ليس مثل الكثيرين من زملائه الفرنسيين الذين هربوا إلى ألمانيا يطوون ذيولهم بين سيقانهم، لكن فِرْنانْدِثْ أو غارثيّا هذا (أمْ لوبّث أمْ بِرِث؟) لم يتحرّك من بيته. انتظر كمكسيكي حتى جاؤوا في طلبه ولم تهن ساقاه حين أنزلوه إلى الشارع (جرّاً؟) ورموا به إلى أحد الجدران حيث رموه بالرصاص.

كان إسبينوزا من ناحيته جالساً طوال البرهة بجانب رئيس الجامعة نِغْرِتِ وعددٍ من الشخصيات من عمر المُضيف ولا يعرفون التكلّم بغير الإسبانية وقليل من الإنكليزية، واضطُرّ لأن يتحمّل حديثاً مكرّساً لمدح الأمارات الأخيرة للتقدّم في سانتا تِرِسا، الذي لا يمكن وقفه.

ما من أحد من النقّاد الثلاثة فاته الانتباه إلى المُرافِق الذي لازم

أمالفيتانو طوال الليل. شابّ رشيق ورياضيّ، شديد بياض البشرة، التصق بالأستاذ التشيلي كالبَرَصِ وكان يتحرّك من حين لآخر بطريقة مسرحيّة ويقوم بإيماءات، كما لو أنّه يُجنّ وأحياناً أخرى يكتفي بالاستماع إلى ما كان يقوله له أمالفيتانو نافياً دائماً برأسه، حركات إنكار صغيرة تكاد تكون تشنّجية، كما لو أنّه يُجرّب القواعد العالمية للحوار مكرهاً أو كما لو أنّ كلمات أمالفيتانو (هي تحذيرات بالحكم من وجهه) لا تصيب هدفها أبداً.

خرجوا من العشاء بعدد من الاقتراحات وريبةٍ واحدة. الاقتراحات هي: إعطاء درس في الجامعة عن الأدب الإسباني المُعاصر (إسبينوزا)، إعطاء درس عن الأدب الفرنسي (بيليتير)، إعطاء درس عن الأدب الإنكليزي المعاصر (نورتون) إعطاء درس أكاديمي عن بِنّو فون أرشيمبولدي والأدب الألماني فيما بعد الحرب (إسبينوزا، بيليتير ونورتون)، المشاركة في حوار حول العلاقات الاقتصادية والثقافية بين أوروبا والمكسيك (إسبينوزا، بيليتير ونورتون وعميد الكلّية غِرّا وأستاذا اقتصاد من الجامعة)، زيارة مرتفعات سييرّا مادرِ، وأخيراً حضور حفلة شواء خراف ورديّة يتوقع أنّ تكون حاشدة بحضور الكثير من الأساتذة في طبيعة أقرب إلى الوحشية والصادمة في بعض الأحيان.

الريبة هي: احتمال أن يكون أمالفيتانو مثليّاً وأن يكون ذلك الشاب الأهوج عشيقه، ريبة مريعة فقد علموا قبل أن تنتهي الليلة بأنّ الشابَّ المذكور كان الابن الوحيد لعميدِ الكليّة غِرّا، رئيسِ أمالفيتانو المباشر، اليد اليمنى لرئيس الجامعة، أو إمّا أنّهم يخطئون كثيراً وإمّا أنّ غِرّا لم يكن يملكُ أدنى فكرة عن الورطات التي حشر فيها ابنُهُ نفسه.

- يمكن هذا أن ينتهي مقتولاً بالرصاص -قال إسبينوزا.

ثمّ تحدّثوا عن أشياء أخرى، وذهبوا بعدها ليناموا مُنْهَكين.

قاموا في اليوم التالي بجولة في كلّ المدينة، تاركين المصادفةَ تقودهم، دون أيّ عجلة. كما لو أنّهم كانوا حقيقةً يتوقّعون أن يعثروا على عجوزٍ ألمانيٍّ، طويلِ القامة يسير على أحدِ الأرصفة. كانت المدينة من جهة الغرب فقيرة جدّاً، معظم شوارعها غير مُعَبّدة وبحر من البيوت المبنية على عَجَلٍ من العوادم. في الوسط كانت المدينة قديمة بأبنية قديمة من ثلاثة أو أربعة طوابق وساحات بأروقة غارقة في الإهمال وشوارع مبلطة يطوف فيها كتبة لا يرتدون غير القمصان وهنديات يحملن على ظهورهنّ صرراً ورأوا عاهرات وشباباً مثليّين يتسكّعون ورؤوا في الزوايا صوراً مستخرجة من فيلم بالأبيض والأسود. في الشرق كانت أحياء الطبقة الوسطى والطبقة العليا. هناك رأوا شوارع عريضة بأشجار معتنى بها وحدائق أطفال عامّة ومراكز تجاريّة. هناك كانت الجامعة. في الشمال وجدوا مصانعَ وهياكل أبنية مهجورة، وشارع مليئة بالبارات ومحلات التذكارات والفنادق الصغيرة، حيث يُقال إنّ أحداً فيها لا ينام أبداً، وفي الأطراف وجدوا مزيداً من الأحياء الفقيرة وإن كانت أقلّ تنوّعاً وأراضٍ بور حيث ترتفع من حين لآخر مدرسة. في الجنوب اكتشفوا خطوطاً حديديّة وملاعب كرة قدم للفقراء، محاطة بالبيوت البائسة بل ورأوا أيضاً مباراة دون أن ينزلوا من السيّارة، بين فريق مُحْتَضَرين وآخر متضورين جوعاً في مراحلهم الأخيرة، وطريقين يخرجان من المدينة، وجرفاً وأحياء تنمو عرجاء وعمياء ومن حين لآخر مستودعاً صناعيّاً وأفقاً من معامل معفاة من الرسوم الجمركيّة.

كانت المدينة مثل كلّ المدن لا تنضب. إذا ما استمرّ المرء بالتقدّم، لِنقلْ، باتجاه الشرق تصل لحظة تنتهي فيها أحياء الطبقة الوسطى وتظهر، كانعكاسٍ لما كان يحدث في الغرب، الأحياءُ البائسة التي تختلط هنا بأكثر التضاريس الجبلية تفاوتاً: كثبان، وهاد، أطلال مزارع قديمة، مجاري أنهار جافّة كانت تساهم في تفادي التكدّس. في

الجزء الشمالي رأوا سياجاً يفصل الولايات المتحدة عن المكسيك. وفيما وراء السياج رأوا وهم ينزلون هذه المرّة من السيارة صحراءَ أريزونا، في الجانب الغربي داروا حول منطقتين صناعيّتين محاطتين بدورهما بأحياء من بيوت الصفيح.

تيقّنوا من أنّ المدينة تنمو في كلّ ثانية. رأوا في أطراف سانتا تِرِسا أسراباً من بغاثٍ أسود، مترقّبة، تسير في مراعي خيول مقفرة، طيوراً يسمّونها هنا غايّناثو وأيضاً زوبيلوتِ، ولم تكن سوى نسور صغيرة وأكلة جيفٍ، حيث توجد طيور البغاث، عَلَّقوا، لا توجد طيور أخرى. شربوا تِكيلا وبيرة وأكلوا شطائر مكسيكية في شرفة موتيل بانورامية على الطريق من سانتا تِرِسا إلى كابوركا. بدت سماء الغروب زهرة آكلةَ حشرات.

حين عادوا كان أمالفيتانو بانتظارهم برفقة ابنِ غِرّا، الذي دعاهم للعشاء في مطعم متخصّص بالمأكولات الشمالية. كان المكان يتمتع ببعض السحر، لكنّ الطعام كان أثره عليهم مريعاً. اكتشفوا أو ظنّوا أنّهم اكتشفوا، أنّ العلاقة بين الأستاذ التشيلي وابن عميد الكلّية كانت سقراطية أكثر مما هي مثليّة، وهذا ما طمأنهم بطريقة ما، إذا أنّ الثلاثة أحبّوا أمالفيتانو بطريقة غامضة.

عاشوا ثلاثة أيّام وكأنّهم غارقين في عالم تحت البحر. كانوا يبحثون في التلفاز عن أكثر الأخبار شجاعة وغرابة، يعيدون قراءة روايات أرشيمبولدي، التي فجأة لم يكونوا يفهمونها وينامون قيلولات طويلة وكانوا آخر من يُغادر الشرفة ليلاً، يتحدّثون عن طفولتهم، كما لم يفعلوا قط من قبل. شعر الثلاثة لأوّل مرّة بأنفسهم كأخوة، أو كجنود قدماء في سريّة مداهمة ما عاد تهمّهم غالبيةُ الأشياء. كانوا يسكرون وينهضون متأخرين جدّاً ولا ينزلون كي يخرجوا مع أمالفيتانو إلا من

حين لآخر، لتجوّلوا ويزوروا الأماكن المهمّة في المدينة، التي ربّما يمكن أن تشدّ سائحاً ألمانيّا افتراضيّاً طاعناً في السنّ.

نعم، وبالفعل حضروا حفلةَ شواء خرافٍ، وكانت حركاتهم مدروسة وحصيفة، كثلاثة رجال فضاء وصلوا توّاً إلى كوكب كلّ شيء فيه مقلقل. في الفناء حيث كان يحتفل بالشواء رأوا عدداً من الثقوب التي ينبعث منها الدخان. كشف مدرِّسو جامعة سانتا تِرِسا عن مواهب غير معهودة في أعمال الريف. اثنان منهما أجريا سباقاً على الخيل. آخر غنّى كورّيدو[1] من عام ١٩١٥. في إحدى حظائر الأبقار جرّب بعضهم حظّه في المصارعة، وكانت النتيجة متفاوتة. حين ظهر رئيس الجامعة نِغْرِتِ، الذي كان قد حبس نفسه في البيت الكبير مع شخص يبدو أنّه المشرف على المزرعة، بدؤوا يُخرجون الشواء، وراحت تنتشر راحةُ لحم وتراب ساخن في الفناء تحت ما يشبه ستارة رقيقة من الدخان لفّت الجميعَ مثل الضباب الذي يسبق عمليات القتل وتبخّرت بطريقة غامضة، بينما كانت النساء يأتين بالأطباق إلى الطاولة وقد تشرّبت ملابسهن وبشرتهن برائحتها.

في تلك الليلة رأى الثلاثة ربّما بتأثير الشواء والشراب كوابيسَ، لم يستطيعوا عند استيقاظهم أن يتذكّروها، بالرغم من جهدهم. حلم بيليتير بصفحةٍ، صفحةٍ كان ينظر إليها وجهاً وقَفَاً بكلّ الأشكال الممكنة محرّكاً الصفحة ومحرّكاً أحياناً رأسه، بسرعة هي في كلّ مرّة أكبر، بالرغم من أنّه لم يجد لها أيَّ معنى. نورتون حلمت بشجرة، بشجرة بلوطٍ إنكليزيّة كانت ترفعها وتنقلها من مكان إلى آخر في من الحقل، دون أن يُرضيها أي مكان رضاً تاماً. كانت البلوطة أحياناً خالية من الجذور وأخرى

(١) نوع من الغناء المكسيكي.

تُجرجر جذوراً كالأفاعي أو كشعر الغورغون[1]. إسبينوزا حلم بفتاة تبيع سجّاداً. هو كان يريدُ أن يشتري سجادةً، أيَّ سجادةٍ والفتاة تُريه كثيراً من السجاجيد، الواحدة تلو الأخرى، دون أن تتوقّف. ذراعاها النحيلتان والأسمران لم تكونا تهدأان أبداً وهذا ما كان يمنعه من الكلام، من أن يقول لها شيئاً مهمّاً، من أن يأخذها من يدها ويخرجها من هناك.

في ذلك الصباح لم تنزل نورتون لتتناول طعام الإفطار. هتفا لها، ظنّاً منهما بأنّها مريضة، لكنَّ نورتون أكّدت لهما أنّها فقط ترغب بالنوم، فليتدبرا أمرهما من دونها. انتظرا أمالفيتانو فاتري الهمّة خرجا معه بعدها في سيارة نحو الشمال الشرقي من المدينة، حيث كانوا ينصبون سيركاً. كان في السيرك، بحسب أمالفيتانو، حاوٍ ألماني يُدعى دكتور كوينيغ. عرف بذلك في الليلة الفائتة، عند عودته من حفلة الشواء ووجد إعلاناً، ليس أكبر من طلحية، أزعج أحدُهم نفسه ورمى به في كلّ حدائق الحيّ. رأى في اليوم التالي، في الزاوية التي كان ينتظر فيها الحافلةَ كي يذهب إلى الجامعة، يافطةً ملوّنة ملصقة على جدار أزرق سماويّ تُعلن أسماءَ نجوم السيرك. كان بينهم الحاوي الألماني ففكّر أمالفيتانو أنّه يمكن لهذا الدكتور كوينغ أن يكون قناعاً لِأرشيمبولدي. كانت الفكرة إذا ما دُرِسَت ببرودة تافهة، فكّر، لكن وبما أنّ معنويات النقّاد كانت هابطة، بدا له مناسباً أن يقترح زيارة السيرك. حين قالها للنقاد نظرَ هؤلاء إليه كما يُنظر إلى أغبى طلاب الصف.

- ماذا يمكن أن يفعل أرشيمبولدي في سيرك؟ -سأل بيليتير وقد صار في السيارة.

---

(١) هي في الأساطير اليونانية مسخ وإلهة حامية تُحجّرُ من ينظر إليها. والمعنى الأصلي للكلمة هو المربع

- لا أدري -قال أمالفيتانو-، أنتم الخبراء، أنا فقط أقول إنّه الألمانيّ الأوّل الذي نعثر عليه.

كان السيرك يُسمى السيرك الدولي دلّهم بعضُ الرجال الذين كانوا ينصبون الخيمة بواسطة أربطة وبكرات (أو هذا ما بدا للنقّاد) إلى المقطورة التي كان يعيش فيها المالكُ. كان هذا أمريكياً شمالياً من أصل مكسيكيّ يقارب الخمسين من عمره، عمل زمناً طويلاً في السيركات الأوروبية التي كانت تجوبُ القارّة بدءاً من كوبنهاغن وحتى مالقة، مقدّماً عروضاً في بلداتٍ صغيرة وبحظّ متفاوت، إلى أن قرّر أن يعود إلى إيرليمارت في كاليفورنيا، مسقط رأسه وأسّس سيركه الخاصّ به. سمّاه السيرك الدولي، لأنّ إحدى أفكاره الأصلية هي أن يكون عنده فنانون من كلّ العالم، على الرغم من أنّهم كانوا في غالبيتهم مكسيكيين وأمريكيين شماليين، مع أنّه كان يأتيه من حين لآخر هذا الشخص أو ذاك من أمريكا الوسطى بحثاً عن عمل، وقد عمل معه مرّة مروّضٌ كندي في السبعين من عمره لم يرغبوا به في أيّ من سيركات الولايات المتحدة. كان سيركه متواضعاً، لكنّه كان السيرك الأوّل الذي يملكه أمريكيّ شمالي من أصلٍ مكسيكيّ.

عندما لم يكونوا مسافرين كان يمكن العثور عليهم في بيكرسفيلد، حيث يقيمون في الشتاء، وإن كانوا يقيمون أحياناً في سينالوّا في المكسيك، ليس لزمن طويل، بل فقط لزمن يكفي للشروع بالسفر إلى العاصمة الفيدرالية، لتوقيع عقود في أماكن من الجنوب، حتى الحدود مع غواتيمالا من حيث يعودون ليصعدوا إلى بيكرسفيلد. عندما سأله الأجانبُ عن الدكتور كونيغ، أراد صاحب السيرك أن يعرف ما إذا كان هناك نزاع أو دَيْن بينهم وبين الحاوي، وهو ما سارع أمالفيتانو ليُوضِّح قالاً أن لا، كيف سيكون ذلك والسادة هنا أساتذة محترمون في

جامعات إسبانيا وفرنسا، وأنّه هو، دون أن يذهب بعيداً، أستاذ في جامعة سانتا تِرِسا.

- حسن -قال الأمريكيُّ الشماليّ المكسيكي الأصل-، طالما أنّ الأمر كذلك أنا سآخذكم لمقابلة الدكتور كونيغ، الذي كان أيضاً، بحسب ما أعتقد، أستاذاً جامعيّاً.

تسارعت دقاتُ قلوب الناقدَيْن حين سمعا ذلك التصريح. تبعوا بعدها صاحب السيرك بين بيوت وأقفاصِ السير المقطورة حتى وصلوا إلى ما كان بكل وضوح تخمَ المخيّم. فيما وراء ذلك كان مجرّد أرض صفراء وهذا البيت البائس أو ذاك وأسلاك الحدود المكسيكية-الأمريكية الشمالية.

قرع باب مقطورة الحاوي الصغيرة ببراجم أصابعه. فتح أحدٌ البابَ وسأل صوتٌ من العتمة ماذا يريدون. قال له صاحب السيرك إنّه هو وإنّه جاء معه أصدقاء أوروبيين يريدون أن يُسلّموا عليه. ادخلوا، إذن، قال الصوتُ فصعدوا الدرجة الوحيدة ودخلوا إلى القاطرة، التي كانت نافذتاها الوحيدتان أكبر قليلاً من كوّة، ومسدلتي الستارتين.

- لنرّ أين سنرتاح -قال صاحب السيرك وسحب الستارتين.

رأوا شخصاً مستلقياً على السرير الوحيد، أصلعَ، زيتونيَّ البشرة، يرتدي بنطلوناً قصيراً أسودَ هائلاً، نظر إليهم مرفرفاً أهدابه بصعوبة. لم يكن عمر الرجل أكثر من ستين سنة، هذا إذا وصل الستين، وهذا ما كان يستبعده فوراً عن أن يكون الشخص المطلوب، لكنّهم قرّروا أن يمكثوا برهةً ويشكروه على الأقل على استقباله لهم. شرح له أمالفيتانو الذي كان أفضل مزاجاً أنّهم كانوا يبحثون عن صديق ألمانيّ، كاتب، وأنّهم لم يستطيعوا أن يعثروا عليه.

- وهل كنتم تعتقدون أنّكم ستعثرون عليه في سيرك؟ -قال صاحب السيرك.

- ليس عليه بل على أحدٍ يعرفه -قال أمالفيتانو.

- لم أستخدم قط كاتباً - قال صاحب السيرك.
- أنا لستُ ألمانيّاً - قال الدكتور كوينيغ -، أنا أمريكيّ شماليّ، اسمي أندي لوبِّثْ.
رافق هذه الكلمات بأن أخرج من كيسٍ معلّق إلى مشجب محفظةً وناولهم شهادة قيادة السيارة.
- على ما يقوم دورك كحاوٍ؟ - سأله بيليتير بالإنكليزية.
- أبدأ بأنّني أجعل براغيثَ تختفي - قال الدكتور كوينيغ، فضحك الخمسة.
- هذه هي الحقيقة الخالصة - قال صاحب السيرك.
- ثمّ أجعل حماماتٍ تختفي، ثم أجعل قطّاً يختفي، ثمّ كلباً وأُنهي دوري بأن أجعل طفلاً يختفي.

دعاهما أمالفيتانو بعد أن غادروا السيرك إلى الغذاء في بيته.
خرج إسبينوزا إلى الفناء الخلفي فرأى كتاباً معلّقاً إلى حبلِ غسيلٍ. لم يبغِ الاقتراب ليرى ما هو، لكنّه حين عاد ودخل إلى البيت سأل أمالفيتانو عنه.
- إنّه الوصية الهندسية، لِرافائيل ديستِ - قال أمالفيتانو.
- رافائيل ديستِ، شاعر غاليسي - قال إسبينوزا.
- هو نفسه - قال أمالفيتانو -، لكن هذا ليس كتاب شعر بل هندسة، الأشياء التي جرت معه حين عمل مدرّساً في معهد.
ترجم إسبينوزا لِبيليتير ما قاله أمالفيتانو.
- وهو معلّق في الفناء؟ - سأل بيليتير مبتسماً.
- بلى - قال إسبينوزا بينما أمالفيتانو يبحث في البرّاد عن شيء يستطيعون أن يأكلوه -، كما لو أنّه قميص وضع ليُنَشَّف.
- هل تُحبّان الفاصوليا؟ - سأل أمالفيتانو.
- أيّ شيء، أيّ شيء، فقد اعتدنا على كلّ شيء - قال إسبينوزا.

اقترب بيليتير من النافذة وتأمّل الكتاب، الذي كانت صفحاته تتحرّك بطريقة غير محسوسة مع نسمة المساء الناعمة. خرج بعدها واقترب منه وفحصه.

- لا تُنزله -سمعَ إسبينوزا يقول خلفه.

- هذا الكتاب لم يوضع هنا كي يجفّ، فهو هنا منذ زمن طويل - قال بيليتير.

- أتصوّر شيئاً من هذا القبيل -قال إسبينوزا-، لكن من الأفضل ألاّ تلمسه وأن نعود إلى البيت.

كان أمالفيتانو يُراقبهما من النافذة عاضّاً على شفتيه، وإن لم تكن هذه الحركة عنده، وفي تلك اللحظة بالذات حركةَ يأس أو عجز، بل حركة حزن عميق لا يُدرك.

حين قام النافدان بأوّل حركة استدارة انسحب أمالفيتانو من النافذة وعاد بسرعة إلى المطبخ حيث تظاهر بأنّه مركّز جدّاً على تحضير الطعام.

حين عادوا إلى الفندق أبلغتهما نورتون بأنّها ستُغادر في اليوم التالي فتلقيا الخبر دون مفاجأة، كما لو أنّهما كانا ينتظرانه منذ زمن. الرحلة التي حصلت على بطاقتها نورتون كانت تخرج من توكسون، وبالرغم من احتجاجاتها، هي التي كانت تُفكّر بأن تأخذ سيّارة أجرة، قرّرا مرافقتها إلى المطار. تحدّثوا في تلك الليلة حتى ساعة متأخّرة، حكيا لِنورتون عن الزيارة التي قاما بها إلى السيرك وأكّدا لها أنّه إذا ما استمرّت الأمور على هذه الحال لن يتأخرا ثلاثة أيّام في المغادرة. ذهبت نورتون بعدها لتنام واقترح إسبينوزا أن يمضوا تلك الليلة الأخيرة لهم في سانتا تِرِسا معاً. لم تفهم نورتون وقالت إنّها ستذهب هي فقط، وإنّ أمامهما ليال أخرى في تلك المدينة.

- أعني ثلاثتنا معاً -قال إسبينوزا.

- في الفراش؟ -سألت نورتون
- نعم، في الفراش -قال إسبينوزا.
- لا تبدو لي فكرة جيّدة -قالت نورتون-، أُفضّل أن أنام وحدي.
وهكذا رافقاها حتى المصعد وعادا بعدها إلى البار وطلبا كأسي بلودي ماري وبقيا صامتين بينما هما ينتظران.
- ورّطت نفسي كثيراً -قال إسبينوزا حين جاءهما النادل بمشروبهما.
- يبدو لي ذلك -قال بيليتير.
- هل انتبهت -سأل إسبينوزا بعد صمت آخر- إلى أنّنا لم ننم معها إلا مرّة واحدة خلال هذه الرحلة كلّها؟
- طبعاً انتبهت -قال بيليتير.
- ذنب من؟ -سأل إسبينوزا- ذنبها أم ذنبنا.
- لا أدري -قال بيليتير-، الحقيقة أنّه لم تكن بي رغبة كبيرة في هذه الأيّام بأن أمارس الحبّ. وأنت؟
- أنا أيضاً -قال إسبينوزا.
عادا وصمتا برهة أخرى.
- أعتقد أنّه يحدث معها شيءٌ مُشابِه أيضاً -قال بيليتير.

خرجوا من سانتا تِرِسا باكراً جدّاً. هتفوا قبلها إلى أمالفيتانو وقالوا له إنّهم ذاهبون إلى الولايات المتحدة وإنَّ من المحتمل أن يبقوا في الخارج اليوم كلّه. على الحدود أرادت شرطةُ الجمارك الأمريكية الشمالية أن ترى أوراق السيارة، ثمّ تركتهم يعبرون. دخلوا متبعين تعليمات عامل الاستقبال في الفندق في طريق ليس معبّداً وعبروا فترةً منطقةً مليئة بالفجاج والغابات، كما لو أنّهم دخلوا سهواً في هضبة ذات نظام بيئي خاصّ. فكروا برهة أنّهم لن يصلوا إلى المطار في الوقت المناسب بل وأنّهم لن يصلوا أبداً إلى أيّ مكان. ومع ذلك كان الطريق

غير المعبّد ينتهي في سونويتا ومن هناك أخذوا الطريق رقم ٨٣ حتى الطريق السريع رقم ١٠ الذي قادهم مباشرة إلى توكسون. في المطار ملكوا وقتاً ليشربوا قهوة ويتكلموا عمّا سيفعلونه عندما يعودون ليلتقوا في أوروبا. بعدها اضطرت نورتون إلى أن تعبر بوّابةَ المغادرة وبعد نصف ساعة أقلعت الطائرةُ في طريقها إلى نيويورك من حيث ستأخذ طائرةً أخرى ستركها في لندن.

كي يعودا أخذا الطريق السريع رقم ١٩ الذي يقود إلى نوغالِسْ وإن كانا قد انحرفا قبل ريّو ريكو وراحا يطوفان حول الحدود من ناحية أريزونا، حتى لوشيل، حيث سيعودان ليدخلا إلى المكسيك. كانا جائعين وعطشانين لكنّهما لم يتوقّفا في أيّ قرية. وصلا إلى الفندق في الساعة الخامسة ثم نزلا بعد أن استحمّا ليتناولا بعض الشطائر ويهتفا لِأمالفينانو. قال لهما هذا ألا يتحرّكا من الفندق وإنّه سيأخذ سيارة أجرى ويكون عندهما خلال أقلّ من عشر دقائق. لسنا مستعجلين أبداً، قالا له.

بدءاً من تلك اللحظة بدا أن الواقع بالنسبة إلى بيليتير وإسبينوزا يتشقّق مثل ديكور من ورق، حين سقط سمح برؤية ما خلفه: منظر يتصاعد منه الدخان، كما لو أنّ أحداً، ربّما ملاكاً يعمل مئات الشواءات لحشد من كائنات غير مرئيّة. ما عادا يستيقظان باكراً، ما عادا يأكلان في الفندق بين الأمريكيين الشماليين الحزانى وانتقلا إلى مركز المدينة، مختارين المحلات المظلمة للإفطار (بيرة وتشيلاكِل) والمحلات ذات النوافذ الكبيرة حيث يكتب النُدُل بحبرٍ أبيض على زجاجها أطباق الوجبة، للغداء. العشاء كانا يتناولانه في أيّ مكان.

قبلا اقتراحَ رئيس الجامعة وألقيا محاضرتين حول الأدبين الفرنسي والإسباني الحديثين، بدتا مجزرتين أكثر مما هما محاضرتين، وأنّه كانت لهما على الأقل فضيلة أنّهما تركتا الجمهور، فتية في غالبيته،

قرّاء ميشون ورولين أو قرّاء ماريّاس وبيلا-ماتاس. بعدها أعطيا معاً هذه المرّة درساً مشتركاً حول بِنّو فان أرشيمبولدي مع عرض كانا فيه أقرب إلى بائعي المصارين أو الكُرَش أكثر ممّا إلى الجزّارين، لكنّ شيئاً، كان في البداية عصياً على الفهم، شيئاً يُذَكّرُ، وإن بصمتٍ، بلقاء ليس عرضيّاً، أوقف اندفاعهما: كان بين الجمهور ثلاثة قرّاء لِأرشيمبولدي، هذا دون أن نحسب أمالفيتانو، كادوا يُبكيانهما. واحد منهم كان يعرف الفرنسيّة، بل وكان يحمل معه أحد الكتب التي ترجمها بيليتير. هكذا كانت المعجزات ممكنة. مكتبات الشبكة العنكبوتية كانت تعملُ. الثقافة، بالرغم من الاختفاء والخطأ، كانت ما تزال حيّة في تحوّلٍ دائمٍ كما لم يتأخّرا في أن يتأكّدا حين ذهب قرّاء أرشيمبولدي الشباب بعد انتهاء المحاضرة بناءً على طلب بيليتير وإسبينوزا المفتوح إلى قاعة الشرف في الجامعة التي قدّموا فيها مأدبة أو بالأحرى حفلة كوكتيل أو بالأحرى حفلة كوكتيل صغيرة، أو يمكن أن تكون مجرّد لفتة لطيفة تكريماً للمحاضرَيْن اللامعَيْن، حيث ونظراً لغياب موضوعٍ أفضل، تكلّما عن الجودة التي يكتب بها الألمان، جميعهم، وعن الثقل التاريخي لجامعاتٍ، كجامعة السوربون، أو سلمنكا، حيث ولدهشة الناقدَيْن، درسَ فيهما أستاذان (واحد كان يُدرّس القانون الروماني وآخر قانون الجنايات في القرن العشرين) بعدها سلّمهما عميدُ الكلّية وسكرتيرةٌ من أمانة رئاسةِ الجامعة شيكين ثمّ استغلا أنّ زوجة أحد الأساتذة أغمي عليها فغادرا خِلسةً.

رافقهما أمالفيتانو، الذي كان يكره وإن كان عليه أن يتحمّل من حينٍ لآخر هذه الحفلات والطلابُ الثلاثة قرّاءُ أرشيمبولدي. ذهبوا أولاً للعشاء وسط المدينة ثم جالوا في الشارع الذي لا ينام أبداً. على الرغم من أنّ سيارة الأجرة كانت كبيرة إلا أنّها أجبرتهم على أن يذهبوا ملتصقين جدّاً وكان الناس الذين يمرّون على الأرصفة ينظرون إليهما

بفضول، كما كانوا ينظرون إلى الجميع في ذلك الشارع، إلى أن اكتشفوا أمالفيتانو والطلاب الثلاثة مضغوطين في المقعد الخلفيّ وعندها أشاحوا بنظرهم عنهم بسرعة.

دخلوا باراً كان يعرفه أحدُ الطلاب. كان البار كبيراً وفي القسم الخلفيّ منه فناء فيه أشجار ومنطقة صغيرة مسيجة لصراع الديكة. قال الفتى إنّ والده حمله ذات مرّة إلى هناك. تكلّموا عن السياسة، وكان إسبينوزا يُترجم لِبيليتير ما كان يقوله الفتيةُ. ما من أحدٍ منهم كان قد تجاوز العشرين من عمره وكانوا يضجون صحةً ونضارةً ورغبةً بالتعلّم. أمالفيتانو بدا لهما في تلك الليلة بعكسهما، أكثر تعباً وإنهاكاً من أيّ وقت آخر. سأله بيليتير بصوت خافت عمّا إذا كان به شيء. أنكر أمالفيتانو بحركة من رأسه وقال لا، بالرغم من أنّ الناقدَيْن علّقا عندما عادا إلى الفندق، بأنّ وضعَ صديقهما، الذي كان يُدخّن السيجارةَ تلوَ الأخرى ويشرب دون توقّف ولم يكد يفتح فمه طيلة الليلة، ينمُّ عن حالة اكتئابٍ أو حالة عصبية قصوى.

في اليوم التالي عندما نهض إسبينوزا وجد بيليتير جالساً في شرفة الفندق مرتدياً بنطلوناً قصيراً ومنتعلاً صندلاً جلديّاً، يقرأ افتتاحيات صحف سانتا تِرِسا لذلك اليوم، مسلّحاً بقاموس إسبانيّ فرنسيّ، ربّما اشتراه في ذلك الصباح ذاته.

- ألن نذهب لنفطر في مركز المدينة؟ -سأله إسبينوزا.

- لا -قال بيليتير-، يكفينا كحولاً وأكلاً فهما يدمران معدتي. أريد أن أعرف ما الذي يجري في هذه المدينة.

عندئذٍ تذكّر إسبينوزا أنّ أحدَ الفتية حكى لهم في الليلة الفائتة قصّةَ النساء المقتولات. فقط كان يتذكّر أنّ الفتى قال إنّهنّ كنّ أكثر من مئتين وإنّه اضطُرّ لأنّ يكرّرها مرّتين أو ثلاث مرّات، فلا هو ولا بيليتير كانا يُصدِّقان ما يسمعانه. ومع ذلك، فكّر إسبينوزا، أنّها طريقة من

المبالغة. يرى المرء شيئاً جميلاً فلا يُصدّق عينيه. يحكون لك شيئاً عن.. . الجمال الطبيعي في أيسلندا. . . ، عن ناس يسبحون في مياه حارّة، بين الفوّرات الطبيعية، في الحقيقة أنت رأيت هذا في الصور، ومع ذلك تقول إنّك لا تستطيع أن تصدّق. . . حتى ولو صدّقت حقيقة. . . المبالغة هي شكل من أشكال الإعجابِ بأدبٍ. . . تُساعد محاورَكَ كي يقول: صحيح. . . وعندها تقول: غير معقول. في البداية لا تستطيع أن تُصدّق، بعدها يبدو لك غير معقول.

ربّما كان هذا ما قاله هو وبيليتير في الليلة السابقة بعد أنّ أكّد لهما الفتى السليم والقويّ والنقيّ أنّ أكثر من مئتي امرأة قُتِلت. لكن ليس في فترة قصيرة، فكَّرَ إسبينوزا. منذ ١٩٩٣ أو ١٩٩٤ وحتى تاريخه. . . ويمكن أن يكون عدد النساء المقتولات أكبر. ربّما يكون مئتين وخمسين أو ثلاثمئة. كان الفتى قد قال بالفرنسية: هذا ما لا يُعرف أبداً. الفتى الذي كان قد قرأ كتاباً لِأرشيمبولدي ترجمه بيليتير وحصل عليه بفضل الخدمات الجيّدة لمكتبة على الإنترنيت. لم يكن يتكلّم فرنسيّة سليمةً، فكّر إسبينوزا. لكن يمكن للمرء أن يتكلّم لغة بشكل سيّئ، أو أن لا يتكلّمها إطلاقاً، ومع ذلك فهو قادر على قراءتها. على كلّ الأحوال نساء كثيرات مقتولات.

- والجناة؟ -سأل بيليتير.

- هناك ناس موقوفون منذ زمن طويل، لكن ما زال هناك نساء يُقتلن -قال أحدُ الفتية.

كان أمالفيتانو، تذكّرَ إسبينوزا، ساكتاً، كأنّه غائب، ربّما سكراناً أكثر من زقٍّ. على طاولة قريبة كان هناك مجموعة من ثلاثة أشخاص ينظرون إليهم من حين لآخر كما لو أنّهم مهتمّين جدّاً بما كان يُقال. ماذا أتذكّرُ أكثر؟، فَكَّرَ إسبينوزا. أحد ما، أحدُ الفتية تكلّم عن جرثومة القتلة. أحدٌ قال جريمة مُقلّدة. أحد لفظ اسم ألبِرت كيسلِر. في لحظة معيّنة نهض وذهب إلى الحمّام ليتقيّأ. بينما كان يفعل ذلك سمع أحداً

في الخارج، أحداً ربّما كان يغسل يديه ووجهه أو يتزيّن أمام المرآة يقول له:

- تقيّأْ بهدوء، يا رفيق.

طمأنني هذا الصوت، فكّر إسبينوزا، لكن هذا يعني أنّني لم أكن أشعر بنفسي مطمئناً، ولماذا كان عليّ أن أكون كذلك؟ حين خرج من الحمّام لم يكن هناك أحد، فقط صوت موسيقى البار الذي كان يصل مخفّفاً وصوت، أخفض، تشنّجي، صوت قساطل، من عاد بنا إلى الفندق؟، فكّر.

- من ساق بنا في العودة؟ -سأل بيليتير.

- أنتَ -قال بيليتير.

في ذلك اليوم تركَ إسبينوزا بيليتير يقرأ الصحف في الفندق وخرج وحده. بالرغم من أنّ الوقتَ كان متأخّراً بالنسبة للفطور، إلا أنّه دخل باراً في شارع أريزبٍ لم يسبق أن كان فيه أبداً وطلب شيئاً كي يستعيد قواه.

- هذا الأفضل بالنسبة للخمار، يا سيّد -قال النادلُ ووضع أمامه كأساً من البيرة الباردة.

وصله من الداخل صوتُ قلي. طلب شيئاً ليأكله.

- بعض شطائر الجبن، يا سيّد؟

- واحدة فقط -قال إسبينوزا.

هزّ النادلُ كتفيه. كان البارُ فارغاً ولم يكن شديد الظلمة كالبارات التي اعتاد أن يدخلها في الصباح. فتح باب المغاسل وخرج رجل طويل جدّاً. كانت عينا إسبينوزا تؤلمانه وبدأ يشعر بنفسه دائخاً مرّة أخرى، لكنّ ظهور الرجل الطويل أفزعه. لم يكن باستطاعته أن يُمَيِّز وجهَهُ ولا أن يُقدِّر عمرَهُ في الظلمة. الرجل طويل، ومع ذلك جلس بجانب النافذة فأنار الضوء الأصفر والأخضر تقاسيم وجهه.

انتبه إسبينوزا إلى أنّه لا يمكن أن يكون أرشيمبولدي. بدا فلاّحاً أو مربي ماشية في زيارة للمدينة. وضع النادل شطيرةَ جبنٍ أمامه. حين أخذها بيديه حرقتْهُ فطلب منديلاً. ثمّ قال للنادل أن يأتيه بثلاث شطائر أخرى. حين خرج من البار توجّه إلى سوقِ الصناعات اليدوية. كان بعض التجار يجمعون بضائعهم ويرفعون طاولاتهم القابلة للطي. كانت ساعة الغداء وليس هناك إلاّ القليل من الناس. في البداية وجد صعوبةً في العثور على محلّ الفتاة التي كانت تبيع السجاد. كانت شوارعُ السوق وسخة، كما لو أنّها بدل أن تكون مكاناً للصناعات اليدوية كانت مكاناً تباع فيه أطعمة جاهزة أو فواكه وخضار. حين رآها كانت الفتاة مشغولة بلفّ السجاجيد وتربطها من أطرافها. كانت تَضعُ أصغرها، البسط الصوفية، في صندوق كرتونيّ مستطيل الشكل، كان يعلوها تعبير الشرود، كما لو أنّها كانت في الحقيقة بعيدة جدّاً عن المكان. اقترب إسبينوزا وداعب إحدى السجاجيد. سألها عمّا إذا كانت تتذكّره. لم تُظهر الفتاةُ أيَّ شيء يدلّ على المفاجأة. رفعت عينيها، نظرت إليه وقالت، بطبيعيَّةٍ جعلته يبتسم، بلى.

- من أنا؟ -سأل إسبينوزا.

- إسباني اشترى منّي سجادة -قالت الفتاةُ-، تحدّثنا.

انتابت بيليتير بعد أن قرأ الصحفَ رغبةٌ بالاستحمام وبأن يزيل عنه كلّ القذارة التي التصقت بجلده. رأى أمالفيتانو يدخل إلى الفندق ثم يتكلّم مع عامل الاستقبال. رفع أمالفيتانو قبل أن يدخل إلى الشرفة يدَهُ كدليل على أنّه عرفه. نهض بيليتير وقال له إنّه يستطيع أن يطلب ما يشاء، وإنّه كان ذاهباً ليستحمّ. حين غادر انتبه إلى أنّ عيني أمالفيتانو كانتا حمراوين ومزرقّتين، كما لو أنّه لم ينم بعد. عندما عَبَرَ اللوبي غيّر فكرته وأشعل أحد الحاسوبين اللذين يضعهما الفندقُ في خدمة زبائنه في صالة صغيرة ملاصقة للبار. حين راجع رسائله وجدَ رسالة طويلة

من نورتون تُعْلِمُهُ فيها بالأسباب الحقيقة التي دفعتها لأن تُغادرَ بتلك السرعة. قرأها كما لو أنّه ما يزال سكراناً. فكّر بقرّاء أرشيمبولدي الشباب في الليلة السابقة وأراد بشكلٍ غامض أن يكون مثلهم. قال لنفسه إنّ هذه الرغبة شكلٌ من الإعياء. طلب بعدها المصعد وصعد مع أمريكية شمالية تقارب الستين من عمرها وتقرأ صحيفة مكسيكية، نسخة مطابقة لإحدى تلك التي كان قد قرأها في ذلك الصباح. فكّر بينما كان يتعرّى كيف سيحدّث إسبينوزا عن الرسالة. من المحتمل أن يكون في بريده أيضاً رسالة تنتظره من نورتون. ماذا أستطيعُ أن أفعل؟، سأل نفسه.

كانت القضمةُ في جرن المرحاض ما تزال هناك فتأمّلها لثوانٍ بإمعان، وترك الماء يجري فوق جسده. ما هو المعقول؟، فكّرَ. الأكثر معقولية هو أن تعود وتؤجّل أيّ استنتاج. فقط حين دخل الصابونُ في عينيه استطاع أن يبعدهما عن جرن المرحاض. وضع وجهه تحت دفق المرذاذ وأغمض عينيه. لست حزيناً إلى الحدّ الذي تخيّلتُهُ. كلّ هذا تَوَهّم. أغلق بعدها المرذاذ، ارتدى ملابسه ونزل ليجتمع بِأمالفيتانو.

رافق إسبينوزا ليرى بريده الإلكتروني. وقف خلفه إلى أن تأكّد من أنّ هناك رسالة من نورتون وحين تبيّن بيقين أنّها تقول فيها ذاتَ الشيء الذي قالته له في رسالتها إليه، جلس على كرسيّ كبير على بعد خطوات من الحاسوبين، وراح يتصفّح مجلة سياحية. كان يرفع نظره من حين إلى آخر فيرى إسبينوزا، الذي لم يكن يبدو مستعدّاً لأن يُغادرَ مقعده. برغبة كان يود لو يربت على كتفه ونقرته، لكنّه اختار ألا يقوم بأيّ حركة. حين التفت إسبينوزا لينظر إليه، قال له إنّه تلقى رسالة مماثلة لرسالته.

– لا أستطيع أن أُصدِّق –قال إسبينوزا بصوتٍ نحيلٍ.

ترك بيليتير المجلّةَ على الطاولة الزجاجيّة واقترب من الحاسوب

وقرأ رسالة نورتون بسرعة. بعدها ودون أن يجلس بحث ناقراً بإصبع واحدٍ عن بريده وأرى لإسبينوزا الرسالة التي تلقاها هو. طلب منه برقّةٍ متناهيةٍ أن يقرأها. فاستدار إسبينوزا مرّة أخرى بوجهه إلى الشاشة وقرأ عدّة مرّت رسالة بيليتير.

- لا يكاد يوجد اختلافات -قال.

- ما همّ -قال الفرنسيّ.

- على الأقل كان باستطاعتها أن تملك تلك الكياسة -قال إسبينوزا.

- الكياسة في هذه الحالة هي الإخبار -قال بيليتير.

حين خرجا إلى الشرفة لم يكن هناك أحدٌ تقريباً. نادل يرتدي سترة بيضاء وبنطلوناً أسود، يجمع الكؤوس والزجاجات عن الطاولات غير المشغولة. في طرف بقرب الدرابزين هناك زوجان تجاوزا الثلاثين ينظران إلى الجادّة بخضرتِها الداكنة صامتين، متشابِكَيّ اليدين. سأل إسبينوزا بيليتير بماذا يُفكّر.

- بها، طبعاً -قال بيليتير.

أيضاً قال له إنَّ من الغريب، أو على الأقل لا يخلو من بعضِ الغرابة، أن يكونا هما هناك، في ذلك الفندق، في تلك المدينة، في الوقت الذي حزمت فيه نورتون أمرها أخيراً وذهبت. نظر إليه إسبينوزا طويلاً ثم وبحركة ازدراء قال له إنَّ به رغبة بالتقيّؤ.

عاد إسبينوزا في اليوم التالي إلى سوق الصناعات اليدوية وسأل الفتاةَ عن اسمها. قالت له إنّ اسمَها رِبِكا فابتسم إسبينوزا لأنّ الاسم، فكّر وقتها، لا يناسبها إطلاقاً. بقي ثلاث ساعات واقفاً هناك يتحدّثُ مع رِبِكا بينما السياح والفضوليون يتسكّعون من نقطة إلى أخرى ينظرون إلى البضائع دون رغبة، كما لو أنّ أحداً أجبرهم على ذلك. في مناسبتين فقط اقترب زبائنٌ من بسطة رِبِكا، لكنّهم في المناسبتين ذهبوا

دون أن يشتروا شيئاً، تاركين إسبينوزا في خجل، لأنّه كان يعزو، بطريقةٍ ما، سوءَ حظّ الفتاة التجاريّ إلى نفسه، إلى وجوده الطويل أمام بسطة ريكا. قرّر أن يُصحّح سوء الطالع بشراء ما افترض أنَّ الآخرين كانوا سيشترونه. اشترى سجادة كبيرة وسجّادتين صغيرتين، ودثاراً[1] يغلب فيه الأخضرُ وأخر يغلب فيه الأحمرُ ونوعاً من المخلاة لها زركشات الدثار ذاته. سألته ريكا عمّا إذا كان سيُغادر قريباً إلى بلده، فابتسم إسبينوزا وقال لها إنّه لا يعرفُ. نادت الفتاةُ بعدها طفلاً حمل كلّ مشتريات إسبينوزا على ظهره ورافقه إلى حيث ترك السيارة مصفوفة.

صوت ريكا وهي تُنادي الطفلَ (الذي طلع من العدم أو من الحشود فهو بالمحصّلة الشيء ذاته)، نبرتها، سلطتها المطمئنّة التي كانت تنبع من صوتها جعلت إسبينوزا يرتعش. لاحظ بينما هو يسيرُ خلف الطفل أنّ غالبية التجار بدؤوا يجمعون بضائعهم. حين وصل إسبينوزا إلى السيّارة وضع السجاجيد في صندوق الأمتعة وسأل الطفلَ منذ متى كان يعمل مع ريكا. إنّها أختي، قال هذا. إنّهما لا يشبهان بعضهما بعضاً إطلاقاً، فكّرَ إسبينوزا. تأمّلَ بعدها الطفلَ، الذي كان قصيراً، لكنّه يبدو قويّاً، وأعطاه ورقة مالية من فئة العشر دولارات.

حين وصل إلى الفندق وجد بيليتير في الشرفة يقرأ أرشيمبولدي. سأله ما الكتاب الذي يقرؤه، فأجابه بيليتير مُبتسماً إنّه *سان توماس*.

- كم مرّةً قرأتَهُ - سأله إسبينوزا.

- أضعتُ الحساب، وإن كان هذا من أقلّ الكتب التي أعدتُ قراءتها - قال بيليتير.

مثلي، مثلي، فكّرَ إسبينوزا.

---

(١) sarape: دثار بلا أكمام يُدخل من الرأس.

كانتا رسالةً واحدة أكثر مما هما رسالتين، وإن كان هناك تباينات صغيرة، مع نقلات فجّة مُشخصنة تنفتح أمام هاوية واحدة. سانتا تِرِسا، تلك المدينة المربعة، كانت نورتون تقول، جعلتها تُفكِّرُ. تُفكّر بالمعنى الصارم للكلمة، لأوَّل مرّة منذ سنوات. أي أنّها راحت تُفكِّرُ بأشياء عمليّة، واقعيّة، ملموسة، وأيضاً راحت تَتَذَكّرُ. تُفكِّرُ بعائلتِها، بأصدقائها وبعملها وتتذكّرُ في الوقت ذاته تقريباً مشاهدَ عائليّةً أو متعلّقةً بالعمل، مشاهد يرفع فيها الأصدقاءُ كؤوسهم ويشربون نخبَ شيءٍ ما، ربّما نخبها، ربّما نخب أحدٍ نسيته. هذا البلد غير معقول (هنا تستطرد، لكن فقط في رسالتها إلى إسبينوزا، كما لو أنّ بيليتير لا يستطيعُ أن يفهمها أو كما لو أنّها عرفت مسبقاً، أنّهما سيقارنان بين الرسالتين)، نخبَ أحد أساطين الثقافة، نخبَ أحدٍ يُفترض أنّه مهذّب، كاتبٌ وصل إلى أعلى مراتب الحكومة، ويُلقّبُ بكلِّ طبيعيةٍ بالخنزير، كانت تقول وكانت تربط بين هذا، اللقبِ أو فظاعةِ اللقبِ أو الإذعان للقب وبين الأعمال الإجرامية التي كانت تحدث في سانتا تِرِسا منذ زمن.

حين كنتُ صغيرة كان هناك طفل يعجبني. لا أعرف لماذا، لكنّه كان يُعجبني. كنتُ في الثامنة من عمري وكان الثامنة من عمره أيضاً. كان يدعى جيمس كروفورد. أظنُّ أنَّهُ كان طفلاً خجولاً جدّاً. كان يتكلّم فقط مع الأطفال الآخرين ويتحاشى الاختلاط بالطفلات. كان شعره شديدَ السواد وعيناه بنّيتين. يرتدي دائماً بنطلوناً قصيراً، حتى عندما بدأ الأطفالُ الآخرون يرتدون بنطلونات طويلة، المرّة الأولى التي تكلّمت فيها معه، تذكّرت هذا منذ وقت قصير جدّاً، لم أنادِهِ جيمس بل جيمي. لا أحد كان يناديه هكذا. فقط أنا. كنّا في الثامنة من عمرنا. كان وجهه جدّياً جدّاً. ما سبب أنّني تكلّمت معه؟ أعتقدُ أنّه كان قد نسيَ شيئاً في المقعد، ممحاةً أو قلمَ رصاص، هذا ما لم أعد أتذكّرُهُ، وقلتُ له: يا جيمي، نسيتَ الممحاة. بلى أتذكّرُ أنّني كنتُ

ابتسمُ. بلى أتذكّرُ لماذا ناديته جيمي وليس جيمس أو جيم. تحبّباً. متعةً. لأنّ جيمي كان يُعجبني ويبدو لي وسيماً جدّاً.

ذهب إسبينوزا في ساعاتِ صباحِ اليوم التالي باكراً إلى سوق الصناعات اليدوية وقلبه يخفق أسرع من المُعتاد، بينما التجار والمهنيون اليدويون بدؤوا توّاً بتركيب بسطاتهم والشارع المبلط ما يزال نظيفاً، كانت رِبكا تنشر سجاجيدها على طاولتها المحمولة فابتسمت له حين رأته. كان بعض التجّار يشربون القهوة أو يتناولون مرطبات الكولا وقوفاً ويتحادثون من بسيطة إلى أخرى. كانت تحتشد خلف البسطاتِ، على الرصيف، وتحت القناطر القديمة ومظلات بعض الحوانيت الأوسع أكبر مجموعة من الرجال، يناقشون عروض فخاريات بالجملة مضمونة البيع في توكسون أو في فونِكْس. سلّم إسبينوزا على رِبكا وساعدها في ترتيب السجاجيد الأخيرة. سألها بعد ذلك عمّا إذا كانت تحبّ أن تتناول الإفطار معه فقالت له الفتاةُ إنّها لا تستطيع وإنّها فطرت في بيتها. سألها إسبينوزا دون أن يُسلّم بهزيمته أين أخوها.

- في المدرسة - قالت رِبكا.
- ومن يُساعدُك في إحضار كلّ هذه البضاعة؟
- أُمّي - قالت رِبكا.

مكث إسبينوزا برهةً ساكناً، ينظر إلى الأرض، دون أن يعرف ما إذا كان سيشتري منها سجّادة أخرى أم سيذهب دون أن يقول كلمة واحدة.

- أدعوك إلى الغداء - قال أخيراً.
- حسن - قالت الفتاة.

حين عاد إسبينوزا إلى الفندق وجد بيليتير يقرأ أرشيمبولدي. كان وجه عن بعد بيليتير، وفي الحقيقة ليس وجهه فقط، بل كلّ جسده،

يُشعّ نوعاً من السكينة بدا له أنّه يُحسد عليها، حين اقترب أكثر ورأى أنّ الكتاب لم يكن *سان توماس*، بل *العمياء*، فسأله عمّا إذا ملك صبراً لإعادة قراءة الآخرَ من البداية وحتى النهاية. رفع بيليتير نظره ولم يجبه. بالمقابل قال إنّه كان مفاجِئاً أو أنّ الطريقة التي يُقارب بها أرشيمبولدي الألم والعار تبقى تُفاجئه.

- بطريقة ناعمة - قال إسبينوزا.

- تماماً - قال بيليتير -، بطريقة ناعمة؟

في سانتا تِرِسا، في تلك المدينة المريعة، كانت تقول رسالةُ نورتون، فكّرتُ بِجيمي، لكنّني فكّرت على الأخص بنفسي، بالتي كنتُها في الثامنة من عمري، وكانت أفكاري في البداية تتقافزُ، الصور تتقافز، كان يبدو أنّ في رأسي زلزالاً، كنتُ غير قادرة على أن أُثبّتَ أيَّ ذكرى بدقّةٍ أو بوضوح، لكن حين تمكّنتُ من ذلك أخيراً صار الوضع أسوأ، رأيتُ نفسي أقولُ جيمي، رأيت ابتسامتي، وجهَ جيمي كروفورد الجدّيَّ، حشدَ الأطفال، ظهورهم، التموجَ المفاجئ الذي كان جدوله فناء المدرسة، رأيتُ شفتيَّ تُنبّهان ذلك الطفلَ إلى ما نسيَهُ، رأيتُ الممحاة، أو ربّما القلمَ ورأيتُ بعينيَّ الحاليّتين عينيَّ في تلك اللحظة. سمعتُ ندائي، جرسَ صوتي، التهذيب المطلق لطفلةٍ في الثامنة من عمرها تنادي طفلاً في الثامنةِ من عمره كي تُنبّهه كيلا ينسى ممحاتَهُ وأنه مع ذلك لا يستطيع أن يفعل ذلك، مناديةً إيّاه باسمه، جيمس، أو ربّما كروفورد، كما هي العادة في المدرسة، وتُفضّلُ بوعيٍ أو بغير وعيٍ أن تستخدمَ تصغيرَ اسم جيمي، الذي ينطوي على تحبّبٍ، تحبّبٍ كلاميّ، تحبّبٍ شخصيّ، فهي وحدها في تلك اللحظة، التي هي عالَمٌ، تُناديه بهذا الشكل، تُغلّف بغلافٍ آخر التحبّبَ، أو الاهتمامَ المضمّن في حركة تنبيههِ إلى أنّه نسي شيئاً، لا تَنْسَ ممحاتك أو قلمك، وأنّه لم يكن في الحقيقة أكثر من تعبيرٍ عن السعادة، فقيرٍ كلامياً أو غنيٍّ كلامياً.

أكلا في مطعمٍ رخيص قريبٍ من السوق، بينما كان أخو رِبكا الصغير يحرس العربةَ التي يُحضرون فيها في كلِّ صباح السجاجيد وطاولةَ الطي. سأل إسبينوزا رِبكا عمّا إذا لم يكن ممكنناً أن تُترك العربة دون حراسةٍ ودعوة الطفل للغداء، لكنّ رِبكا قالت له ألاّ يهتم. إذا تركت العربة من دون حراسة من المحتمل أن يأخذها أي شخص. كان باستطاعة إسبينوزا أن يرى الطفلَ من نافذةِ المطعمِ مُعتلياً، مثلَ عصفورٍ، كومةَ السجاجيد ناظراً إلى الأفق.

- سوف أحمل له شيئاً -قال-. ماذا يُحبّ أخوكِ؟

- البوظة -قالت رِبكا-، لكن هُنا ليس عندهم بوظة.

فكّر إسبينوزا خلال بضعِ ثوانٍ بأن يخرج ويبحث عن بوظة في مكانٍ آخر، لكنّهُ استبعد الفكرةَ خشيةَ ألّا يجد الفتاة حين يعود. سألته كيف كانت إسبانيا.

- مختلفة -قال إسبينوزا بينما هو يُفكّر بالبوظة.

- هل هي مختلفة عن المكسيك؟ -سألت هي.

- لا -قال إسبينوزا- مختلفة فيما بينها، متنوّعة.

فجأة خطرت لإسبينوزا فكرة أن يحملَ للطفلِ شطيرة.

- هنا تُسمى عجّة -قالت رِبكا-، أخي يُحبّ شطائر الجامبو.

تبدو أميرة أو سفيرة، فكّر إسبينوزا. سأل النادلة عمّا إذا كان باستطاعتها أن تُحضّر له عجّةً بالجامبو ومرطّباً. سألته النادلةُ كيف يريدها.

- قلْ لها إنّك تريدها كاملة -قالت رِبكا.

- كاملة -قال إسبينوزا.

بعدها خرج إلى الشارع ومعه العجّة والمرطّب وناولهما للطفل، الذي كان ما يزال معتلياً أعلى العربة. في البداية رفض الطفلُ بحركة من رأسه وقال إنّه ليس جائعاً. رأى إسبينوزا في الزاوية ثلاثة أطفال، أكبر قليلاً منه، راقبهم كابحاً ضحكته.

- اشرب المرطّب، إذا لم تكن جائعاً، واحتفظ بالعجّة -قال له-، وإلا أطعمتها للكلاب.

حين عاد ليجلس بجانب رِيكا شعر بنفسه سعيداً. عمليّاً كان يشعر أنّه في غاية السعادة.

- هذا لا يجوز -قال-، لا يجوز، في المرّة القادمة سنأكل ثلاثتُنا معاً.

نظرت رِيكا إلى عينيه والشوكة جامدةً في الهواء، ثمّ رسمت شبهَ ابتسامة وحملت اللقمةَ إلى فمها.

في الفندق كان بيليتير، المستلقي على السريرِ بجانب المسبح الفارغ، يقرأ كتاباً وعرف إسبينوزا، حتى قبل أن يرى العنوان، أنّه لم يكن كتاب *سان توماس* ولا *العمياء*، بل كتاباً آخرَ لِأرشيمبولدي. حين جلس بجانبه استطاع أن يرى أنّه *ليتيا*، وهي رواية لم تكن تُثير حماسه، كما تُثيره روايات الألماني الأخرى، مع أنّ إعادة القراءة بالحكم من وجه بيليتير كانت مثمرة وممتعة جدّاً. حين جلس على السرير المجاور سأله ماذا فعل خلال النهار.

- كنت أقرأ -أجابه بيليتير، الذي سأله بدوره السؤال ذاته.

- تجوّلت هناك -قال إسبينوزا.

في تلك الليلة وبينما كانا يتناولان العشاء في مطعم الفندق، حكى له إسبينوزا أنّه اشترى بعض التذكارات بل واشترى واحداً له. أسرّ الخبرُ بيليتير، الذي سأله ما نوع التذكار الذي اشتراه له.

- سجادة هندية -قال إسبينوزا.

حين وصلت إلى لندن بعد رحلة منهكة، تقول نورتون في رسالتها، رحتُ أفكّرُ بجيمي كروفورد، أو ربّما رحتُ أُفكّرُ به بينما كنتُ أنتظر رحلةَ نيويورك-لندن، على أيّ حال كان جيمي كروفورد وصوتي الذي

يُناديه وأنا في الثامنة من عمري، قد صارا معي في اللحظة التي أخرجتُ فيها مفاتيحَ شقّتي، وأشعلتُ النور وتركت الحقائب مرمية على أرضيّةِ ردهةِ المدخل. ذهبتُ إلى المطبخ وحضّرتُ فنجان شاي. استحممتُ بعدها وذهبتُ إلى الفراش. تناولت حبّة منوّم تحسّباً من ألاّ أستطيع النوم. أتذكّر أنّني رحت أتصفّحُ مجلة، أتذكّر أنّني فكّرتُ بكما، وأنتما تجولان في تلك المدينة الرهيبة، أتذكّر أنّني فكّرتُ بالفندق. في غرفتي كان هناك مرآتان غريبتان جدّاً. في الأيّام الأخيرة صارتا تُخيفانني. حين عرفتُ أنّ النوم سيغلبني، فقط ملكتُ من القوة ما يكفي كي أمدَّ ذراعي وأُطفئ النور.

لم أرَ أيّ نوع من الأحلام. حين استيقظتُ لم أعرف أين كنتُ. لكنّ هذا الإحساس دام بضع ثوان فقط، إذ سرعان ما عرفتُ أصوات شارعي المُمَيَّزة. شعرتُ بأنّني مرتاحة، أنا في بيتي، وعندي أشياء كثيرة يجب أن أعملها. ومع ذلك فالشيء الوحيد الذي عملته، حين جلستُ في السرير، هو أنّني رحتُ أبكي مثل مجنونة، دون دافع أو سبب ظاهريّ. بقيتُ النهار كلّه على هذه الحال. للحظات كنتُ أفكّر أنّه كان عليّ ألاّ أكون قد خرجتُ من سانتا تِرِسا، أن أكون قد بقيت معكما حتى النهاية. في أكثر من مرّة شعرتُ بدافع يدفعني لأن أذهب إلى المطار وآخذ أوّلَ طائرة إلى المكسيك. هذه الدوافع كانت تتبعها دوافعُ أخرى أكثر تدميراً: أن أُضرِمَ النار في شقّتي، أن أقطعَ شراييني، ألاّ أعودَ أبداً إلى الجامعة وأن أعيش منذ تلك اللحظة فصاعداً حياةَ صعلوكة.

لكنّ الصعلوكات، على الأقلّ في إنكلترا، كثيراً ما يتعرَّضن للإزعاجات، بحسبِ ما قرأتُ في تحقيق في مجلة نسيتُ اسمها. الصعلوكات في إنكلترا يتعرّضن للاغتصاب جماعيّاً، يُضْرَبْنَ، وليس غريباً أن تظهر بعضُهنّ مقتولات في أبواب المستشفيات. الذين يفعلون هذا بالصعلوكات ليسوا، كما كنتُ أفكّرُ في الثامنة عشرة من عمري،

رجالَ الشرطة وعصابات الزُعْرِ النازيين، بل الصعاليك، وهو ما يضفي على الوضع مذاقاً، إن أمكن قولُ، أكثر مرارة. خرجتُ مشوّشة لأقوم بجولة في المدينة على أمل أن أشجّع نفسي وربّما أن أهتفَ لصديقة أذهب معها لنتناول العشاء. لا أدري كيف وجدتُ نفسي فجأة أمام صالة فنونٍ يقيمون فيها معرضاً استرجاعيّاً لإدوين جونز، ذلك الفنّان الذي قطع يده اليمنى كي يعرضها في لوحة ذاتية.

في زيارته الثانية تمكّن إسبينوزا من أن يجعلَ الفتاةَ تسمح له بِمُرافقتها إلى بيتها. تركوا العربة مخبّأة، بعد أن دفع إسبينوزا أجرة تافهة لامرأة بدينة مغطاة بمئزر عاملةِ معمل قديم، في الغرفة الخلفية من المطعم الذي سبق وأكلا فيه. بين صناديق قناني فارغة وأكداس من علب الفلفل الحرّ واللحم. حشروا بعدها السجاجيد والدُثُرَ في المقعد الأخير وتدبر الثلاثةُ أمرهم في المقعدين الأماميين. كان الطفلُ سعيداً وقال له إسبينوزا أن يُقرّر هو أين سيتناولون غداءهم في ذلك اليوم. انتهى بهم الأمر إلى مطعم ماكدونالدز في وسط المدينة.

كان بيت الفتاة في الأحياء الغربية من المدينة، في المناطق التي تُرتكب فيها الجرائمُ، بحسب ما قرأ في الصحف، لكنّ الحيّ والشارع اللذين تعيش فيهما رِبِكا بدَوَا له فقط حيّاً فقيراً وشارعاً فقيراً، حيث غابت الشرور. ترك السيارة مصفوفةً أمام المنزل. كان في مدخل البيت حديقة منمنمة فيها ثلاثة أحواض مصنوعة من القصب والأسلاك المعدنية مغطاة بأصص الأزهار والنباتات الخضراء. قالت رِبِكا لأخيها أن يبقى ليحرس السيّارة. كان البيت خشبيّاً وحين يسيران كانت الألواح تُحدثَ صوت فراغ كما لو أن تحتها مجرى صرف أو غرفة سرّية.

سلّمت عليه الأمُّ بعكس ما توقّع إسبينوزا بلطفٍ وقدّمت له مُرطّباً. بعدها قدّمت له، هي نفسها، بقيّة أبنائها. كان لِرِبِكا أخوان وثلاث أخوات، وإن لم تعد الكبرى تعيش هناك، فقد تزوّجت. إحدى أخوات

رِبكا كانت مثلها، إلا أنّها أصغر منها. كانت تُدعى كريستينا، وكان الجميع في البيت يقولون إنّها الأذكى في العائلة. بعد برهة معقولة طلب إسبينوزا من رِبكا أن يخرجا ليقوما بجولة في الحيّ. عندما خرجا رأيا الطفل معتليا سطحَ السيارة. كان يقرأ مجلة مصورة وفي فمه شيء، ربّما حبّة سكاكر. حين عادا من المشوار كان الطفل ما يزال هناك، وإن لم يكن يقرأ شيئاً وحبّة السكاكر انتهت.

حين عاد إلى الفندق كان بيليتير يقرأ *سان توماس* مرّةً أخرى. حين جلس بجانبه رفع بيليتير نظره عن الكتاب وقال له إنّ هناك أشياء لم يفهمها بعدُ وإنَّ من المحتمل ألاّ يفهمها أبداً. أطلق إسبينوزا ضحكة ولم يُدْلِ بأيّ تعليق.

- اليوم كنتُ مع أمالفيتانو -قال بيليتير.

كان الأستاذ التشيليّ، بحسب ما اعتقد، مُحَطَّمَ الأعصاب. دعاه بيليتير ليبربط معه في المسبح، وبما أنّه لم يكن معه ثوب سباحة فقد حصل له على واحد من مكتب الاستقبال. بدا أنّ كلّ شيء كان يسير كما يُرام. لكن حين نزل أمالفيتانو إلى المسبح، بقي ساكناً، كما لو أنّه رأى الشيطانَ فجأة، وغاص. كان بيليتير يتذكّر أنّه قبل أن يغوص أغلقَ فمه بكلتا يديه. على كلّ حال لم يَقُمْ بأيّ جهدٍ كي يسبح. من حسن الحظّ أنَّ بيليتير كان هناك ولم يكلفه جهداً أن يغطس ويعود به إلى السطح. بعدها تناول كلّ منهما كأس ويسكي ووضّح له أمالفيتانو أنّه لم يسبح منذ زمنٍ طويل.

- تحدّثنا عن أرشيمبولدي -قال بيليتير.

ارتدى بعدها ملابسه وأعاد ثوب السباحة وغادر.

- وأنت ماذا فعلتَ؟ -سأله إسبينوزا.

- استحممتُ، ارتديتُ ملابسي، نزلتُ لأتناول طعامي وتابعت قراءاتي.

شعرتُ بنفسي للحظةٍ، تقول نورتون في رسالتها، كأنّني صعلوكةٌ مبهورة بأنوار مسرحٍ مفاجئ. لم أكن في أفضل حالاتي كي أدخل إلى صالة فنون، لكنّ اسمَ إدوين جونز شدّني مثل مغناطيس. اقتربتُ من باب الصالة الزجاجية ورأيتُ في الداخل ناساً كثيرين ورأيتُ النُّدُلَ بلباسهم الأبيضِ لا يكادون يستطيعون التحرّك محافظين على توازن الصواني المحملةِ بكؤوسِ الشمبانيا أو النبيذِ الأحمر. قرّرتُ أن أنتظر وعدتُ إلى الرصيف المقابل. راحت الصالة تفرغُ شيئاً فشيئاً. وجاءت اللحظة التي فكّرت فيها أنّه صار باستطاعتي أن أدخل وأرى على الأقل جزءاً من المعرض الاسترجاعي.

حين عبرتُ البابَ الزجاجيّ شعرتُ بشيءٍ غريب، كما لو أنّ كلَّ شيء أراهُ أو أشعر به بدءاً من تلك اللحظة سيكونُ حاسماً في مجرى حياتي اللاحق. توقّفتُ أمام لوحة تمثل نوعاً من المنظر، منظرٍ من منطقة سُورّي، من مرحلة جونز الأولى، بدا لي كئيباً وفي الوقت ذاته حلواً، عميقاً وبطريقة ما بليغاً، كما يمكن فقط أن تكون المناظر الإنكليزية المرسومة من قبل رسامين إنكليز. فجأة قلتُ لنفسي بأنّه يكفيني أنّني رأيت هذه اللوحة واستعددت للمغادرة حين اقترب منّي نادلٌ، ربّما آخر ندلِ مؤسّسة خدمة الطعام والحفلات الذين بقوا في الصالة، بقدح نبيذ وحيد في صينية، قدح أُعِدَّ خصّيصا لي. لم يقل لي شيئاً. فقط قدّمَهُ لي وأنا ابتسمتُ له وأخذت القدح. عندها رأيتُ إعلانَ المعرِض على الجانب الآخر من المكان الذي كنتُ فيه، الإعلان الذي يعرض لوحة اليد المقطوعة، عمل جونز الفذّ وحيث يُشار بأرقام بيضاء إلى تاريخ ميلاده وتاريخ وفاته.

لم أكن أعرف أنّه مات، تقول نورتون في رسالتها، كنتُ أظنّ أنّه كان ما يزال يعيشُ في سويسرا في عصفورية مريحة، حيث كان يضحك من نفسه ويضحك على الأخصّ منا. أتذكّر أنّ قدح النبيذ سقط من يديّ، أتذكّر أنّ زوجين طويلين جدّاً ونحيلين نظرا إليّ بأقصى

استغراب، كما لو أنّني كنتُ عشيقةً سابقة لِجونز، أو لوحة حيّة (وغير منتهية) علمت فجأةً بموت رسامها. أعرفُ أنّني خرجتُ دون أن أنظر إلى الخلف وأنّني مشيت برهةً طويلةً، إلى أن انتبهت إلى أنّني لا أبكي، وأنّها كانت تُمطر وأنّني كنتُ مُبلّلة، لم أستطع في تلك الليلة أن أنام.

صار إسبينوزا يذهب في الصباحاتِ ليبحثَ عن رِيكا في بيتها. يترك السيارةَ أمام البيت، يتناولُ قهوة، ثمّ يضع السجاجيد في المقعد الخلفيّ دون أن يقول شيئاً ويُنظّف بخرقةٍ هيكلَ السيارة من الغبار. لو كان يعرف شيئاً من الميكانيكا لرفع غطاءَ المحرّك ونظر إليه، لكنّه لم يكن يعرف شيئاً من الميكانيكا ومحرّك السيارة، ما عدا ذلك كان كلّ شيء يعمل مثل الحرير. كانت تخرج فتاة وأخوها بعدها فيفتح لهما إسبينوزا الباب الأمامي دون أن ينطق بكلمة، كما لو أنّ ذلك الروتين سيدون أعواماً، ويدخل بعدها من باب السائق، يخبّئ خرقة الغبار في كوّة أوراق السيارة وينطلقون باتجاه سوق الصناعات اليدوية. وهناك كان يُساعدهم على تركيب البسطة وحين ينتهي يذهب إلى مطعم قريب يشتري فنجاني قهوة كي يحملهما وكوكاكولا يشربها واقفاً وهو يتأمّل المحلات الأخرى أو الأفق الضيق، لكنّه الجليل، للأبنية الاستعمارية التي كان يحاصرها. كان إسبينوزا يُضْحِكُ أحياناً أخا الفتاة. يقول له إنّ شرب الكوكاكولا صباحاً عادة سيّئة، لكنّ الطفلَ، الذي كان يُدعى أيولوخيو، كان يضحك ولا يقيم وزناً لكلامه، فهو يعلم أنَّ تسعين بالمئة من غضب إسبينوزا مفتعل. كان إسبينوزا يقضي بقيّة الصباح في شرفة، دون أن يخرج من ذلك الحيّ، الوحيد الذي كان إضافةً إلى حيّ رِيكا يعجبه، يقرأ الصحفَ المحلّية، يشرب القهوة ويُدخّن السجائر. حين كان يذهبُ إلى الحمّام وينظر إلى نفسه في المرآة، كان يُفكّر أنّ تقاسيمه تتغيّر. أبدو سيّداً، كان يقول لنفسه. أبدو أكثر شباباً، أبدو آخر.

حين كان يعود إلى الفندق، كان دائماً يجدُ بيليتير في الشرفة أو في المسبح أو مستلقياً على أحد الكراسي الكبيرة في إحدى الصالات، يُعيد قراءة *سان توماس* أو *العمياء* أو *ليتيا*، التي يبدو أنّها كتب أرشيمبولدي الوحيدة التي جاء بها معه إلى المكسيك. سأله عمّا إذا كان يُحضِّر مقالاً أو دراسةً عن هذه الكتب الثلاثة بالتحديد فجاء جواب بيليتير غامضاً. في البداية، بلى. لكن الآن لا. فقط يقرؤها لأنّها الوحيدة التي في حوزته. فكّر إسبينوزا أن يترك له بعضاً مما عنده، لكنّه سرعان ما انتبه مذعوراً إلى أنّه نسي كتب أرشيمبولدي التي كان يُخبّئها في حقيبته.

في تلك الليلة لم أستطِع أن أنام، قالت نورتون في رسالتها، وخطر لي أن أهتفَ إلى موريني. كان الوقت متأخّراً جدّاً، وكان من سوء الأدب إزعاجه في تلك الساعة، كان تهوّراً من جهتي، لكنّني هتفتُ له. أتذكَّرُ أنّني أدرتُ رقمه وأطفأت على الفور ضوءَ الغرفة، كما لو أنّه لن يستطيع موريني أن يرى وجهي في الظلمة. ردّ بشكل مدهش على مكالمتي فوراً.

- هذه أنا يا بييرو -قالتُ له-، لنرَ، هل علمتَ بموت إدوين جونز؟

- بلى -قال صوتُ موريني من تورين-. مات منذ قرابة الشهرين.

- لكن أنا فقط عرفت الآن، هذه الليلة -قلتُ.

- ظننتُ أنّك كِنتِ تعرفين -قال موريني.

- كيف مات؟ -سألتُ.

- في حادث -قال موريني-، خرج ليتنزّه، كان يُريد أن يرسمَ شلالاً صغيراً موجوداً بالقرب من المصحّ، صعد إلى صخرة وانزلق. عثروا على جثّته في قاع الجرف البالغ ارتفاعه خمسين متراً.

- هذا غير ممكن -قلتُ.

- بلى ممكن -قال موريني.

- خرج ليتنزّه وحده؟ دون أن يراقبه أحد؟

- لم يكن وحده -قال موريني-، كانت تُرافقه ممرّضةٌ وأحدُ فتيةِ المِصَحّ الأقوياء، واحد من أولئك الذين يستطيعون أن يُخضعوا في ثانية مجنوناً هائجاً.

ضحكتُ، كانت المرّة الأولى التي أضحكُ فيها من تعبير مجنون هائج، وموريني أيضاً ضحك معي على الجانب الآخر من الخطّ، وإن كان للحظة فقط.

- هؤلاء الفتية الأقوياء والرياضيون يُسمون في الحقيقة مساعدين -قلتُ له.

- حقيقة كانت تُرافِقه ممرّضة ومساعِد -قال-. صعد جونز صخرة والفتى القوي صعد خلفه. جلست الممرّضة بناءً على تعليمات جونز، على قرمةِ شجرة وتظاهرت بأنّها تقرأ كتاباً. عندها بدأ جونز يرسم بيده اليسرى، التي كان قد أحرز بها بعض المهارة. كان المنظر يتضمن الشلاّلَ، الجبالَ، النتوءات الصخرية، الغابة والمُمَرِّضةَ، التي كانت تقرأ الكتابَ غريبةَ على كلّ شيء. عندها وقع الحادث. نهض جونز عن الصخرة، انزلق وسقط في الهاوية بالرغم من أنّ الفتى القويّ والرياضيَّ حاول أن يمسك به.

كان هذا كلّ شيء.

بقينا برهة دون أن نقول شيئاً، قالت نورتون في رسالتها، إلى أن كسر موريني الصمتَ وسألني كيف كانت رِحلتي إلى المكسيك.

- سيّئة -قلتُ له.

لم يُوَجِّهْ مزيداً من الأسئلة. سمعتُ تنفّسَه وسمع هو تنفّسي، الذي راح يهدأ بسرعة.

- سأهتف لك غداً -قلتُ له.

- طيّب، حسن -قال هو، لكن ما من أحد منّا تجرّأ خلال بضع ثوان على أن يُغلق الهاتف.

فكّرتُ في تلك الليلة بِأدوين جونز، فكّرتُ بيدِهِ التي ربّما كانت تُعرض الآن في معرضه الاسترجاعي. تلك اليد التي لم يستطِع مساعد المِصَحّ أن يمسكه بها ويمنع سقوطه، وإن كان هذا الأخير في النتيجة مفرطاً في وضوحه، مثل خرافة خادعة لا تقارب ولا حتى ما كانهُ جونز. كان المنظر السويسري أكثر واقعية، ذلك المنظر الذي رأيتماه وأجهله، بجباله وغاباته، بحجارته القزحية وشلالاتِ مائه، بهوّاته القاتلة وممرّضاته القارئات.

أخَذ إسبينوزا رِبكا ذاتَ ليلة إلى الرقص. كانا في مرقص في وسط سانتا تِرسا، لم تذهب إليه الفتاة قط، وكانت صديقاتها يتكلّمن عنه بأفضل الكلمات. بينما كانا يشربان كوبا ليبرِ، حكت له رِبكا أنّ فتاتين اختُطِفَتا عند خروجهما من ذلك المرقص وَوُجِدَتا مقتولتين. كانت جثتاهما قد تركتا في الصحراء.

بدا لإسبينوزا فألاً سيّئاً أن تقول هي أنّ القاتل معتادٌ على زيارة ذلك المرقص. حين أخذها ليتركها في بيتها قبّلها على شفتيها. كانت تفوح منها رائحة كحول وكان جسمُها بارداً. سألها عمّا إذا كانت تريد أن تمارس الحبَّ فوافقت هي عدّة مرات بحركة من رأسها، دون أن تقول شيئاً. انتقلا بعدها من المقعد الأمامي إلى المقعد الخلفي ومارساه. جماع سريع. لكنّها أسندت رأسها بعد ذلك على صدره، دون أن تقول كلمة، وبقي هو برهة طويلة يُداعب شعرها. كان لجوّ الليل رائحة منتجات كيميائية تصل على شكل موجات. فكّر إسبينوزا أنّه يوجد بالقرب من هناك معمل ورق. سأل رِبكا عن ذلك فقالت له إنّه لا يوجد بالقرب من المكان غير القفرِ والبيوت التي بناها سكانها بأنفسهم.

مهما كانت الساعة التي كان يعود فيها إسبينوزا إلى الفندق كان يجد بيليتير مستيقظاً، يقرأ كتاباً وينتظره. بهذه اللفتة، فكَّرَ، كان بيليتير يُعزّز صادقتهما. أيضاً يمكن أنّ الفرنسيّ لا يستطيع أن ينام وأنّ أرقه يدينه بالقراءة في صالات الفندق الفارغة حتى مطلع الفجر.

كان بيليتير يتواجد أحياناً في المسبح متدثراً بقميصٍ أو منشفة، يشربُ الويسكي على رشفاتٍ. ومرّات أخرى يجده في صالة يتصدّرها منظرُ الحدود الهائل مرسوماً، هذا ما كان يتكهّن به على الفور، من قِبَلِ فنّان لم يتواجد هناك قطّ: تكلُّف المنظر وتناغمه يكشفان عن رغبة أكثر مما عن واقع. كان النُّدُل، حتى في النوبة الليلية، يحاولون راضين بإكرامياتهم ألاّ ينقص شيء. حين كان يصل، كانا يتبادلان لبرهة جملاً قصيرة ولطيفة.

كان إسبينوزا يذهب أحياناً ليُراجع بريده، قبل أن يبحثَ عنه في صالات الفندق الفارغة، على أمل أن يجد رسائل من أوروبا، من هيلفيلد أو بورشماير، تُلقي بعضَ الضوء على مكان أرشيمبولدي. بعدها كان يبحث عن بيليتير، ويصعدان صامتين كلّ إلى غرفته.

في اليوم التالي، قالت نورتون في رسالتها، تفرّغتُ لتنظيف شقّتي وترتيب أوراقي. انتهيت قبل الوقت الذي توقّعته بكثير. في المساء حبست نفسي في سينما وحين خرجت وبالرغم من أنّني كنتُ هادئةً لم أتذكّر حبكةَ الفيلم، ولا الممثلين الذين لعبوا فيه الأدوار. تناولتُ في تلك الليلة عشائي مع صديقة ونمت باكراً، وإن لم أستطيع أن أتصالح مع الحلم حتى الثانية عشرة. ما إن استيقظتُ في صباح رائق حتى ذهبت إلى المطار دون أن أحجز مسبقاً واشتريتُ أوّلَ بطاقة إلى إيطاليا. طرتُ من لندن إلى ميلان ومن هناك أخذتُ قطاراً إلى تورين. حين فتح لي موريني البابَ قلت له إنّني جئتُ لأبقى، وأن يُقرّر هو ما إذا علي أن أذهب إلى فندق أم أبقى في بيته. لم يجب على سؤالي

وأبعد كرسيّ عجلاته وطلب منّي أن أدخل. حين ذهبتُ لأغسل وجهي، كان موريني قد حضّر شاياً ووضع في صحن أزرق ثلاث قطع حلوى قدّمها إليّ مُطْرِياً عليها. جرّبت واحدةً فكانت لذيذة. بدت حلوى يونانية، محشوّة بالفستق الحلبي ومربّى التين. سرعان ما أتيتُ على القطع الثلاث وشربتُ فنجان شايٍ. أجرى موريني خلال ذلك مكالمة هاتفيّة ثم تفرّغ للاستماع إليّ وإدراج أسئلة من حين لآخر كنتُ أجيبه عليها بطيب خاطر.

بقينا نتكلّم لساعاتٍ. تكلّمنا عن اليمين في إيطاليا، عن تنامي الفاشيّة في أوروبا، عن المهاجرين، عن الإرهابيين الإسلاميين، عن السياسة البريطانية والأمريكية الشمالية وكلّما تقدّمنا في الحديث كلّما كنتُ أشعر بتحسّن في مزاجي، الغريب بالأمر هو أنّ موضوعات الحديث كانت مُكدِّرة، إلى أن لم أعد أستطيع أكثر وطلبتُ منه قطعةَ حلوى سحريةً أخرى، على الأقل قطعة أخرى، وعندها نظر موريني إلى الساعة وقال شيء طبيعي أن تجوعي وإنّه سيفعل شيئاً أفضل من قطعة حلوى الفستقِ الحلبيّ. فقد حجز في مطعم تورينيٍّ وسيأخذني لنتعشى هناك.

كان المطعم وسط حديقة فيها مقاعد وتماثيل حجرية. أتذكّرُ أنّني كنتُ أدفع كُرسيَّ عجلات موريني وكان هو يريني التماثيل. بعضها كانت تماثيل أسطورية، لكنّ أخرى كانت تُمَثّل فلاحين بسطاء ضائعين في الليل. كان في الحديقة أزواجٌ آخرون يتنزهون وكنّا نتقاطع معهم أحياناً وأحياناً أخرى لا نرى غير ظلالهم. سألني موريني بينما نحن نأكل عنكما. قلتُ له إنّ المعلومة التي تحدّد مكان أرشيمبولدي في شمال المكسيك معلومة زائفة وإنّ من المحتمل جدّاً أنّه لم يطأ أرض ذلك البلد. حكيتُ له عن صديقكما المكسيكي، المثقّف الكبير الملقّب بالخنزير، وضحكنا برهة طويلة. في الحقيقة كنتُ أشعر بأنّني في كلّ مرّة أفضل.

وذات ليلة بعد أن مارس الحبَّ مع رِيكا للمرّة الثانية في المقعد الخلفيّ، سألها إسبينوزا ما رأي أسرتها به. قالت له الفتاةُ إنّ أخواتها كنّ يعتقدن أنّه كان جميلاً وإنّ أمّها قالت إنَّ له وجه رجل مسؤول. بدا أنّ رائحة المواد الكيميائية ترفع السيارة عن الأرض. في اليوم التالي اشترى إسبينوزا خمس سجاجيد. سألَتْهُ لماذا يشتري كلّ تلك السجاجيد فأجابها إسبينوزا بأنّه يُفكّر بإهدائها. عند العودة إلى الفندق ترك السجاجيد على السرير الذي لم يكن يشغله، ثمّ جلس على سريره وخلال جزء من ثانية انسحبت الظلال ورأى الواقع رؤية خاطفة. شعر بأنّه دائخ فأغمض عينيه. ونام دون أن ينتبه.

حين استيقظ كانت معدته تؤلمه وكانت به رغبة بالموت. خرج في المساء ليقوم ببعض المشتريات. دخل في محلّ للملابس الداخلية وآخر للملابس النسائية وآخر للأحذية. في تلك الليلة أخذ رِيكا إلى الفندق ثم وبعد أن استحمّا معاً ألبسها كيلوتاً خيطياً وجورباً موصولاً بالكيلوت وجوربين أسودين، وثوباً داخلياً مكسَّماً وحذاء عالي الكعب وجامعها حتى لم تعد غيرَ ارتعاشة بين ذراعيه. طلب بعدها أن يصعدوا له بعشاء لاثنين إلى الغرفة، وسلّمها بعد أن أكلا بقيّةَ الهدايا التي اشتراها لها وعادا بعدها ليتجامعا إلى أن بدأ الفجر يطلع. عند ذلك ارتدى الاثنان ملابسهما، وضعت هي هداياها في الأكياس ورافقها أولاً إلى البيت ثمّ إلى سوق الصناعات اليدوية، حيث ساعدها على تركيب البسطة. سألته قبل أن يودّعها عمّا إذا كان سيعود ليراها. إسبينوزا هزّ كتفيه دون أن يعرف لماذا، ربّما لأنّه كان مُتعباً وقال هذا ما لا يُعرف أبداً.

- بلى يُعرف -قالت رِيكا بصوت حزين لم يكن يعرفه عندها-. هل سترحل عن المكسيك؟ -سألته.

- سيكون عليّ أن أرحل ذات يوم -أجابها.

عندما عاد إلى الفندق لم يجد صديقه في الشرفة ولا بجانب

المسبح ولا في أيٍّ من الصالات التي اعتاد أن ينزوي فيها ليقرأ. سأل في الاستقبال عمّا إذا كان قد مضى زمن طويل على خروج صديقه فقالوا له إنّ بيليتير لم يُغادر الفندق في أيّ لحظة. صعد إلى الغرفة، قرع الباب، لكنّ أحداً لم يرد عليه. عاد وقرع البابَ عدّة مرّاتٍ وكانت النتيجة ذاتها. قال لعامل الاستقبال إنّه يخاف أن يكون قد حدث لصديقه شيء، ربّما نوبة قلبية، فصعد عامل الاستقبال، الذي كان يعرف الاثنين، مع إسبينوزا.

- لا أعتقد أن شيئاً سيئاً حدث له - قال له بينما هما يصعدان في المصعد.

حين فتحا الغرفة بالمفتاح العامّ لم يعبر عاملُ الاستقبال العتبة. كانت الغرفة في ظلمة فأشعل إسبينوزا النور. رأى على أحد السريرين بيلبتير مغطى حتى رقبته. كان نائماً على ظهره، مائلاً بوجهه قليلاً ويداه متصالبتين فوق صدره. رأى إسبينوزا في ملامحه سلاماً لم يلحظه قط في وجه بيليتير. ناداهُ:

- بيليتير، بيليتير.

تقدّم عاملُ الاستقبال الذي أخذه الفضولُ خطوتين، ونصحه بألاّ يلمسه.

- بيليتير - صرخ إسبينوزا، وجلس بجانبه هازّاً إيّاه من كتفيه.

عندئذٍ فتح بيليتير عينيه وسأله ماذا يجري.

- ظننتُ أنّك ميت - قال إسبينوزا.

- لا - قال بيليتير -، كنتُ أحلم أنّني ذاهب في إجازة إلى الجزر اليونانية وأنّني استأجرت هناك زورقاً وتعرّفت على طفلٍ يقضي اليوم كلّه في الغطس.

- حلم جميل جدّاً - قال

- بالفعل - قال عامل الاستقبال - يبدو حلماً مريحاً جدّاً.

- أغرب ما في الحلم - قال بيليتير - هو أنّ الماء كان حيّاً.

قضيتُ الساعاتِ الأولى من ليلتي الأولى في تورين، قالت نورتون في رسالتها، في غرفة ضيوف موريني. لم أجد صعوبة في النوم، لكن فجأة أيقظني قصفٌ، لم أدرِ أكان في الواقع أم في الحلم، أيقظني وظننتُ أنّني رأيتُ في عمق الممر طيفَ موريني وكرسيَّ عجلاته. في البداية لم أولِهِ اهتماماً وحاولت أن أعود لأنام، إلى أن استجمعتُ ما كنتُ رأيته: من ناحية طيف كرسيّ العجلات في الممر، ومن ناحية أخرى طيف موريني، لكن ليس في الممر بل في الصالون وظهره إليّ. نهضت بقفزة واحدة وأمسكت بمرمدةِ سجائر وأشعلت النور. كان الممرّ مقفراً. ذهبت إلى الصالون ولم يكن هناك أحد. من الطبيعي أنّه لو حدث هذا معي قبل أشهرٍ لكنتُ شربتُ كأسَ ماء وعدتُ إلى الفراش، لكن لم أعد ولن أعود لأكون ما كنته وقتذاك. وهكذا كان أنّ ما فعلته هو أنّني ذهبتُ إلى غرفة موريني. كان أوّل شيء رأيته حين فتحتُ البابَ هي كرسيّ العجلات بجانب السرير، ثم كتلة موريني، الذي كان يتنفّس بأناة. تمتمتُ باسمه. لم يتحرّك. رفعتُ صوتي فسألني صوتُ موريني ماذا جرى.

- رأيتُكَ في الممرّ - قلتُ له.

- متى؟ - سألني موريني.

- منذ لحظة، عندما سمعتُ رعداً.

- هل هي تُمطر؟ - سأل موريني.

- بالتأكيد - قلتُ.

- أنا لم أخرج إلى الممرّ، يا ليز - قال موريني.

- أنا رأيتُكَ هناك. كنتَ قد نهضتَ. كان كرسيّ العجلات في الممر، أمامي، لكن أنتَ كنت في نهاية الممر، في الصالون، وظهرك إليّ - قلتُ.

- لا بدّ أنه كان حلماً - قال موريني.

- كرسيّ العجلات كان أمامي وظهرُك إليّ - قلتُ.

- اهدئي، يا ليز -قال موريني.

- لا تطلبْ منّي أن أهدأ، لا تُعاملني كحمقاء. كان كرسيُّ العجلاتِ ينظر إليَّ وأنت، الذي كنتَ واقفاً على قدميك هادئاً تماماً، لم تكن تنظرُ إليَّ. هل فهمت؟

منح موريني نفسه بضع ثوانٍ كي يُفكّر، مستنداً إلى مرفقيه.

- أظنّ ذلك -قال-، كان كرسيّ عجلاتي يحرسكِ، وأنا أتجاهلُك، أليس كذلك؟ كما لو كان الكرسيُّ وأنا شخصاً واحداً، كائناً واحداً. وكان الكرسيُّ شريراً، بالضبط لأنّه كان ينظر إليكِ، وأنا أيضاً كنتُ شريراً، لأنّني كذبتُ عليك ولم أكن أنظرُ إليك.

عندها رحتُ أضحكُ وقلتُ له إنّه لن يكونَ بالنسبة إلي، إذا ما فكّرتُ جيّداً، شرّيراً أبداً وكذلك كرسيّ العجلات، لأنّه يُقدّم له خدمة ضرورية جدّاً.

قضينا بقيّةَ الليلة معاً. قلتُ له أن ينزاح قليلاً ويفسح لي مكاناً فأطاعني موريني دون أن يقول شيئاً.

- كيف استطعت أن أتأخر كلّ ذلك الوقت كي أنتبه إلى أنّك كنتَ تُحبُّني؟ -قلتُ له لاحقاً-. كيف استطعت أن أتأخّر كل هذا الوقت كي أنتبه إلى أنّني كنتُ أُحبّك؟

- الذنب ذنبي -قال موريني في الظلمة-، أنا مُتردّد جدّاً.

في الصباح أهدى إسبينوزا عُمّالَ الاستقبال والحرّاس والنُّدُلَ بعضَ السجاجيد والدُّثُر، التي كان يكتنزها. كذلك أهدى سجّادتين للمرأتين اللتين كانتا تذهبان لتنظّفا غرفته. الدثار الأخير، الجميل جدّاً حيث تسود الزركشات الهندسية بالأحمر والأخضر والليلكي، وضعه في كيس وقال لعامل الاستقبال أن يصعد به إلى بيليتير.

- هديّة مجهولة المصدر -قال.

غمزه عامل الاستقبال وقال هكذا سيفعل.

عندما وصل على سوق الصناعات اليدوية كانت هي جالسة على دكّة خشبية تقرأ مجلةَ موسيقى شعبية. مليئة بالصور الملوّنة، حيث توجد أخبار عن مغنين مكسيكيين، أعراسهم وطلاقهم أقراصهم الذهبية والبلاتينية، فترات سجنهم، موتهم في الفاقة. جلس بجانبها على حافّة الرصيف، وتردّد بين أن يسلّم عليها بقبلة أو بدونها. أمامه كان هناك بسطة جديدة تبيع تماثيل صلصالية. استطاع إسبينوزا أن يُمَيِّز من المكان الذي كان فيه بعضَ المشانق المصغّرة فابتسم بحزن. سأل الفتاةَ أين أخوها فردّت عليه بأنّه ذهب إلى المدرسة، كما في كلّ صباح.

توقّفت امرأة مجعدة جدّاً، ترتدي الأبيضَ كما لو أنّها ستتزوّج، لتتكلّم مع رِيكا، وعندئذٍ أخذ هو المجلّة التي تركتها الفتاةُ تحت الطاولة فوق حقيبة وراح يتصفّحها إلى أن ذهبت صديقة رِيكا. حاولت مرَّتَيْن أن تقول شيئاً، لكنّها لم تستطِعْ. ومع ذلك لم يكن صمتُ رِيكا مُزعِجاً ولا ينطوي على غضب أو حزن. لم يكن كثيفاً بل شفيفاً. يكاد لا يشغل مكاناً. بل إنّ إسبينوزا فكّر بأنَّ باستطاعة المرء أن يعتاد على هذا الصمت ويكون سعيداً. لكنّه لن يعتاده أبداً، أيضاً كان يعرف هذا.

حين تعب من الجلوس ذهب إلى بارٍ وطلب بيرة على طاولة العرض. حوله كان لا يوجد غير الرجال وما من أحدٍ منهم كان وحده. أحاط إسبينوزا البارَ بنظرة مريعة وانتبه على الفور إلى أنّ الرجال كانوا يشربون، لكنّهم أيضاً كانوا يأكلون. دمدم بكلمةِ اللعنة وبصق على الأرض على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من حذائه. أخذ بعدها أخرى وعاد إلى البسطة بنصفها. نظرت إليه رِيكا وابتسمت. جلس إسبينوزا على الرصيف بجانبها وقال لها إنّه سيعود. لم تقل الفتاةُ شيئاً.

- سأعود إلى سانتا تِرِسا في أقل من عام -قال- أُقسِمُ لك.

- لا تُقسِمْ -قالت الفتاةُ بينما هي تضحك راضية.

- سأعود لأكون معك -قال إسبينوزا وهو يشرب آخر قطرة من بيرته-. ويمكن وقتذاك أن نتزوّج وتذهبين أنتِ معي إلى مدريد.

بدا أنّ الفتاة كانت تقول: سيكون شيئاً جميلاً، لكنّ إسبينوزا لم يفهمها.

- ماذا؟ مَاذا؟ -سأل.

لزمت رِيكا الصمت.

حين عاد ليلاً وجدَ بيليتير بجانب المسبح يقرأ ويشربُ ويسكي. جلس على سرير المسبح المجاور وسأله ما هي مشاريعه. ابتسم بيليتير ووضع الكتاب على الطاولة.

- وجدتُ في غرفتي هديَّتَك -قال-، مناسبة جدّاً ولا تخلو من سحر.

- آه، الدثار -قال إسبينوزا وترك نفسه يسقط على ظهره فوق السرير.

في السماء كانت تظهر نجومٌ كثيرة. كان ماءُ المسبح الأخضر الضارب إلى الزرقة يتراقصُ على الطاولات وأصصِ الأزهار والصباريات في سلسلة من الانعكاسات التي كانت تصل إلى جدار من طوب طحينيّ اللون، يوجد خلفه ملعب تنس وبعض حمّامات البخار تفادتها بنجاح. كانت تُسمع من حين لآخر أصوات المضارب وأصوات مخفّتة تعلّق على اللعب.

نهض بيليتير وقال لِنَمْشِ. اتجه نحو ملعب التنْس، يتبعه إسبينوزا. كانت أضواء الملعب مشتعلة وهناك شخصان بارزا الكرشين يجهدان في لعب متعثّر، مثيرين ضحكات النساء اللواتي كنّ يراقبنهما جالسات على مقعدٍ خشبيّ. تحت شمسيّة شبيهةٍ بتلك الشمسيات التي تحيط بالمسبح. هناك في العمق خلف شبك معدنيّ كان حمّام البخار، صندوق بنافذتين صغيرتين، مثل كوّتي سفينة غارقة. قال بيليتير الجالس على جدار من القرميد:

- لن نعثر على أرشيمبولدي.

- أعرف هذا منذ أيّام - قال إسبينوزا.

قفز بعدها قفزة ثمّ أخرى حتى استطاع أن يجلس على حافّة الجدار مدلّياً ساقيه باتجاه ملعب التنس.

- ومع ذلك - قال بيليتير - أنا واثق من أنّ أرشيمبولدي موجود هنا في سانتا تِرِسا.

نظر إسبينوزا إلى يديه، كما لو أنّه يخاف أن تكونا قد تأذّتا. نهضت إحدى النسوةُ عن مقعدها وداهمت الملعبَ. حين وصلت إلى جانب أحد الرجليْن، قالت له شيئاً في أذنه ثمّ عادت وخرجت. الرجل الذي تكلّم مع المرأة رفع ذراعيه إلى الأعلى، فتح فمه ورمى برأسه إلى الخلف، وإن لم يُحدث أدنى صوت. انتظر الرجلُ الآخر، الذي كان يرتدي الأبيضَ الناصع، مثل الأوّل، أن ينتهي صخبُ منافسهِ الصامتُ وحين انتهت حركات هذا قذف له بالكرة. تجدّدت اللعبة وعادت النسوة ليضحكن.

- صدّقني - قال له بيليتير بصوت ناعمٍ كالنسمة التي كانت تهبّ في تلك اللحظة وتلفّ كلّ شيء بأريج أزهارها -، أعرف أنّ أرشيمبولدي هنا.

- أين؟ - سأل إسبينوزا

- في مكانٍ ما من سانتا تِرِسا أو في محيطها.

- ولماذا لم نعثر عليه؟ - سأل إسبينوزا.

سقط أحد اللاعبين على الأرضِ فابتسم بيليتير:

- هذا لا يهمّ. لأنّنا كنّا أحمقين أو لأنّ أرشيمبولدي يملك قدرة كبيرةً على التخفّي. هذا ما لا يهمّ. المهمّ شيء آخر.

- ما هو؟ - سأله إسبينوزا.

- أنّه هنا - قال بيليتير، وأشار إلى حمّام البخار، الفندق، الملعب، السياج المعدني، الأوراق المتساقطة التي يُحْدَسُ بها بعيداً، في أراضي الفندق غير المضاءة. وقف شعر عمود إسبينوزا الفقري.

صندوق الإسمنت حيث كان حمام البخار بدا له استحكاماً وفي داخله ميت.

- أُصَدِّقك - قال، وحقيقة أنّه كان يُصدِّقُ ما يقوله صديقه.

- أرشيمبولدي هنا - قال بيليتير - ونحن هنا، ونحن أقرب إليه من أيّ وقت على الإطلاق.

لا أدري كم سيدوم بقاؤنا معاً، قالت نورتون في رسالتها. لا هو يهمّ موريني ولا هو يهمّني أنا. نحبّ بعضنا بعضاً ونحن سعداء. أعرف أنّكم تتفهّمون ذلك.

قسم أمالفيتانو

لا أدري ماذا جئت أفعل في سانتا تِرِسا، قال أمالفيتانو لنفسه بعد أسبوع من عيشه في المدينة. ألا تعرف؟ هل حقيقة أنّك لا تعرف؟، سأل نفسه. حقيقةً لا أعرفُ، قال لنفسه، ولم يستطع أن يكون أكثر بلاغة.

كان يملك بيتاً من طابق واحد، مؤلّف من ثلاث غرف، حمام كامل إضافة إلى مرحاض، مطبخ أمريكي وصالون طعام يُطلّ على الغرب، رواق من القرميد فيه مقعد خشبيّ حَتَّته الرياح الهابطة من الجبال وتهبّ من البحر، حتَّتْهُ الريحُ القادمة من الشمال، ريحُ الفِجاج، والريح التي لها رائحة الدخان القادمة من الجنوب. كان عنده كتب يحتفظ بها منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً. لم تكن كثيرة. كلّها قديمة. كان عنده كتب اشتراها منذ أقل من عشرة أعوام ولا يهمّه أن يعيرها أو يفقدها أو أن يسرقوها منه. كان عنده كتب كان يستلمها أحياناً مختومة جيّداً من مرسلين مجهولين، ما عاد حتى ليفتحها. كان عنده فناء مثالي ليزرعه عشباً وأزهاراً، وإن كان لا يعرف ما الأزهار الأكثر مناسبة لزراعتها هناك، ليست صبّاراً ولا صباريات. كان عنده وقت (هذا ما كان يظنّه) كي يُخصّصه لزراعة الحديقة. كان عنده سياج خشبيّ يحتاج لطلاء. كان عنده راتب شهري.

كان عنده ابنة تُدعى روزا وعاشت معه دائماً. كان يبدو صعباً أن يكون الأمر هكذا، لكنّه هكذا كان.

في الليالي كان يتذكّرُ أحياناً أمَّ روزا وأحياناً أخرى يضحك وأخرى تنتابه رغبة بالبكاء. كان يتذكّرها بينما هو محبوس في مكتبه وروزا تنام في غرفتها. كان الصالون فارغاً وساكناً والنور مطفأ. في الرواق، إذا ما أصاخ أحدٌ السمع سيسمع طنينَ بعض البعوضات القليلة. لكن لا أحد يسمع. كانت البيوت المجاورة غارقة في الصمت والظلمة.

كانت روزا في السابعة عشرة من عمرها وكانت إسبانيّةً. أمالفيتانو في الخمسين من عمره وكان تشيليّاً. كانت روزا تملك جواز سفر منذ العاشرة من عمرها. وجد نفسه خلال بعض أسفاره في حالات غريبة، فروزا كانت تدخلُ من البوّابة المخصّصة لمواطني الاتحاد الأوروبي وهو من البوّابة المُخصّص لغير مواطني الاتحاد الأوروبي. في المرّة الأولى أخذت روزا نوبةُ غضب وراحت تبكي ولم تكن تريد أن تنفصل عن أبيها. في مناسبة أخرى كانت الصفوفُ تتقدّم بإيقاع متباين جدّاً، سريع بالنسبة لمواطني الاتحاد الأوروبي، بينما كان إيقاع صفوف من ليسوا موطني الاتحاد الأوروبي أبطأ وأكثر تدقيقاً، ضاعت روزا وأمالفيتانو تأخّر نصفَ ساعة في العثور عليها. كان رجال شرطة الجمارك يرون روزا أحياناً صغيرة جدّاً، فيسألونها عمّا إذا كانت تُسافر وحدها أم أنّ أحداً ينتظرها عند المخرج. فتجيبهم روزا بأنّها تُسافر مع أبيها وبأن أباها أمريكيّ جنوبيّ وبأنّ عليها أن تنتظره هناك بالذات. كانوا أحياناً يُفتّشون حقيبة روزا، فهم كانوا يشكّون بأنّ من المحتمل أن يُمرِّر أباها مخدراتٍ أو أسلحةً محتمياً ببراءة وجنسيةِ ابنته. لكنّ أمالفيتانو لم يُتاجر قط بالمخدّرات ولا بالأسلحة.

مَن كانت تُسافر دائماً مُسلَّحة بالفعل، كان أمالفيتانو يتذكّر بينما هو يُدخّن سيجارة مكسيكية، جالساً في مكتبه أو واقفاً في الرواق في الظلمة، هي لولا، أمُّ روزا، فهي لم تكن تستطيع أن تنفصل عن سكينها الفولاذية التي لا تصدأ وتفتح بنابض، أوقفوهما ذات مرّة في المطار، قبل أن تولد روزا وسألوها ماذا تفعل هذه السكين هناك. هذه لتقشير الفواكه، قالت لولا. البرتقال، التفّاح، الأجاص، الكيوي، هذا النوع من الفواكه. بقي الشرطيّ ينظر إليها برهةً ثمّ تركها تمرّ. بعد سنة وبضعة أشهر وُلِدت روزا. بعد سنتين رحلت لولا من البيت وكانت ما تزال تحمل معها السكّين.

الذريعة التي استخدمتها لولا هي أنّها ستذهب لزيارة شاعرها المُفَضَّلِ الذي كان يعيش في مِصَحّ موندراغون العقليّ بالقرب من سان سِباستيان. استمع أمالفيتانو لحججها طوالَ الليل بينما هي تُحَضِّر حقيبة ظهرها وتؤكّد له بأنّها لن تتأخّر في العودة إلى البيت، إلى جانبه وجانب طفلتها. اعتادت لولا، وخاصّةً في الأيام الأخيرة، أن تؤكّد أنّها تعرّفت على الشاعر وأنّ هذا حدث في برشلونة خلال احتفال حضرته في برشلونة قبل أن يدخل أمالفيتانو في حياتها. في ذلك الاحتفال، الذي كانت تصفه لولا بأنّه احتفال وحشيّ، احتفال مُتَخَلِّف انبثق فجأة وسط حرِّ الصيف وقافلة من السيارات بأضوائها الحمراء المشتعلة، نامت معه ومارسا الحبَّ طوال الليل، بالرغم من أنّ أمالفيتانو كان يعرف أنّ هذا ليس صحيحاً، ليس فقط لأنّ الشاعر كان مثلياً وحسب، بل لأنّ أوّل خبر حصلت عليه لولا عنه مدينة له به، إذ أهداها أحدَ كتبه. بعدها أخذت لولا على عاتقها شراءَ بقيّة أعمال الشاعر وصارت تختار أصدقاءها من بين الأشخاص الذين كانوا يعتقدون أنّ الشاعر كان مستنيراً، من الفضاء الخارجي، رسولاً من الله، أصدقاءَ خرجوا بدورهم توّاً من مِصَحّ سانت بوي العقلي، أو أنّهم جُنّوا، بعد علاجات

متكّررة لتخليصهم من السموم. في الحقيقة كان أمالفيتانو يعرف أنّ زوجته ستشرع بالذهاب في طريقها إلى سان سِباستيان، ولذلك قرَّر ألّا يُناقشها، وأن يُقدّم لها بعضاً من مُدَّخراتِهِ، ويرجوها أن تعود بعد بضعة أشهر، ويؤكّد لها أنّه سيرعى الطفلة جيّداً. حين أصبحت حقيبة ظهرها جاهزة، ذهبت إلى المطبخ، حضَّرت فنجاني قهوة، ومكثت هادئة، منتظرةً أن يطلع الفجرُ، بالرغم من أنّ أمالفيتانو حاول أن يبحث عن موضوعاتِ حديثٍ تهمّها، أو على الأقل تُخفف عنها ثقل الانتظار. في السادسة والنصف رنّ جرسُ المنزل ففزعت روساريو. جاؤوا في طلبي، قالت، وأمام جمودها اضطرّ أمالفيتانو لأن ينهض ويسأل بالإنترفون من يكون الطارقُ. سمع صوتاً هشّاً جدّاً يقول هذه أنا. من أنت؟ سأل أمالفيتانو. افتحْ لي، هذه أنا، قال الصوتُ. من؟، سأل أمالفيتانو، والصوت دون أن يتخلّى عن نبرته الهشة المطلقة، بدا أنّه غضب من الاستجواب. أنا، أَنا، أنا، أَنا، قال الصوتُ. أغمض أمالفيتانو عينيه وفتح باب البناية. سمع صوتَ بكراتِ المصعد وعاد إلى المطبخ. كانت لولا ما تزال جالسةً تشرب آخر قطرات قهوتها. أعتقد أنّه لأجلك. لم تظهر لولا أي علامة تدلّ على أنّها سمعته. هل ستودّعين الطفلة؟، سألها أمالفيتانو. رفعت لولا نظرها وأجابته بأنّ من الأفضل ألا يوقظاها. كانت عيناها الزرقاوان مؤطرتين بهالتين بنفسجيتين عميقتين. بعدها رنّ جرسُ البيتِ مرّتين وذهب أمالفيتانو ليفتحه. امرأة صغيرة جدّاً، لا يتجاوز طولها المتر وخمسين سنتمتراً، مرّت بجانبه ونظرت إليه بسرعة وتوجّهت مباشرة إلى المطبخ، كما لو أنّها تعرف عاداتِ لولا أكثر من أمالفيتانو. حين عاد أمالفيتانو إلى المطبخ أمعن في حقيبة ظهرِ المرأة، التي تركتها بجانب البرّاد، كانت أصغر من حقيبة لولا، تكاد تكون منمنمة. كانت المرأة تُدعى إمّاكولادا، لكنّ لولا تناديها إمّا. سبق ووجدها أمالفيتانو مرّتينِ في بيته عند عودته من العمل، وعندها قالت له لولا اسمها وكيف كان عليه أن

يُناديها. كان إمّا اسمَ التصغير لإنماكولادا، بالكتلانيّة، لكنّ صديقة لولا لم تكن كتلانيّة ولا تُدعى إمّاكولادا، بميم مُشدَّدة، بل إنماكولادا، وكان أمالفيتانو يُفضِّل لمسألة صوتية أن يناديها إنْما، بالرغم من أنّه في كلّ مرّةٍ كان يفعل ذلك كانت زوجته توبِّخه، إلى أن قرّر ألاّ يناديها بأيّ طريقة. راقبها من باب المطبخ. شعر بأنّها هادئة أكثر بكثيرٍ مما تخيّل. كانت نظرة لولا وصديقتها مغروزة بطاولة الفورميكا، بالرغم من أنّه لم يَفُت أمالفيتانو أنّهما كانتا ترفعان نظرهما من حين لآخر وأنّ نظراتهما كانتا تتبادلان نظرات بتركيز كان يجهله. سألت لولا عمّا إذا كان هناك من يريد مزيداً من القهوة. إنّها تتوجّه بالسؤال إليّ، فكّر أمالفيتانو. هزّت إنماكولادا رأسها من جانب إلى آخر، ثمّ قالت إنّه ليس لديها وقت، وإنّ من الأفضل أن تتحرّكا فبعد قليل سوف تصبح طرقُ الخروج من برشلونة مُسْتَغْلَقة. كانت تتكلّم عن برشلونة كما لو أنّها مدينة قروسطية، فكَّرَ أمالفيتانو. نهضت لولا وصديقتُها. خطا أمالفيتانو خطوتين وفتح بابَ البرّاد، كي يخرج زجاجةَ بيرة، مدفوعاً بعطش مُفاجئ. اضطرّ قبل أن يفعل ذلك أن يبعدَ حقيبةَ إمّا. كانت تزن كما لو أنّه لا يوجد في داخلها غير بلوزتين وبنطلون آخر أسود. تبدو طرحاً، هذا ما فكّر به أمالفيتانو وترك الحقيبة تسقط جانباً. قبّلته لولا بعدها على خدّيه وغادرت مع صديقتها.

تلقّى أمالفيتانو بعد أسبوع رسالةً من لولا تحمل خاتمَ بامبلونا. تحكي له في الرسالة أنّ الرحلة إلى هناك كانت مليئة بالتجارب اللطيفة والمزعجة. التجارب اللطيفة كانت أكثر. من ناحية أخرى كان من الممكن تصنيفها بالمزعجة، هذا ما لا شكّ فيه، وإن كان من المحتمل أن لا تكون تجارب. كل ما هو مزعج ويمكن أن يحدث معنا، تقول لولا في رسالتها، سيجدنا مستعدّتَين له، فإمّا كانت قد عاشت كلّ هذا. بقينا يومين، تقول لولا، نعمل في لِريدا، في مطعم من مطاعم الطرق،

كان صاحبه مالك بستان تفّاحٍ في الوقت ذاته. كان البستان كبيراً ويتدلّى من أشجاره التفاح الأخضر. خلال وقت قصير سيبدأ جني التفاح وطلب منهما المالكُ أن تبقيا حتى ذلك الوقت. كانت إمّا تتكلّم معه بينما لولا تقرأ كتاباً للشاعر موندراغون (كانت تحمل في حقيبتها كلّ الكتب التي نشرها هذا حتى ذلك الوقت) بجانب الخيمة الكندية التي كانتا تنامان فيها معاً والمنصوبة تحت شجرة حور، شجرة الحور الوحيدة التي رأتها في ذلك البستان، بجانب مرآبٍ ما عاد أحدٌ يستخدمه. ظهرت إمّا بعد قليل ولم تبغ أن تشرح لها العقد الذي اقترحه عليها صاحب المطعم. في اليوم التالي خرجتا إلى الطريق دون أن تودّعا أحداً، لتسافرا بالأوتوستوب. في سرقسطة نامتا في بيت صديقة قديمة لإمّا، من أيام الجامعة. كانت لولا متعبة جدّاً وذهبت إلى الفراش باكراً وفي نومها سمعت ضحكاتٍ، ثمّ أصواتاً قوّية ومهاترات، تلفّظت بها جميعها تقريباً إمّا، لكنّ أيضا تلفظت صديقتُها ببعضها. تكلّما عن سنوات أخرى، عن النضال ضدّ الفرانكوية، عن سجن سرقسطة. تكلّمتا عن حفرة، عن ثقب عميق من حيث كان من الممكن استخراج البترول أو الكربون، عن غابات في باطن الأرض، عن فرقة النساء الانتحاريات. بعدها يحدث انعطاف في رسالة لولا. أنا لستُ سُحاقية، تقول، لا أعرف لماذا أقوله لك، لا أعرف لماذا أُعاملك كطفل بقولي هذا لك. المثلية احتيال، عنف مرتكب بحقّنا في مراهقتنا، تقول. إمّا تعرفُ هذا. تعرفه، تعرفه، هي أكثر ذكاءً من أن تجهله، لكنّها لا تستطيع أن تفعل شيئاً، غير أن تُساعد. إمّا سُحاقيّة، في كلّ يوم مئات الآلف من الأبقار تُذبح، في كلّ يوم قطيع من الحيوانات العاشبة، أو عدّة قطعان من الحيوانات العاشبة تجوب الوادي من الشمال إلى الجنوب، ببطء وفي الوقت ذاته بسرعة تُسبّب لي الغثيان، الآن بالذات، الآنَ، الآن، هل تستطيع أن تفهم هذا، يا أوسكار؟ لا، لا أستطيع أن أفهمه، كان أمالفيتانو يُفكّر بينما هو يمسك

الرسالةَ بيديه، كما لو أنّها طوق نجاة مصنوع من قصب وعشب وكان يُحَرّك كرسيّ ابنته الهزّاز بأناة.

ثمّ تستحضر لولا مرّة أخرى تلك الليلة التي مارست فيها الجنس مع الشاعر الذي يجثو جليلاً وشبه سرّي في مصحّ موندراغون العقلي. كان ما يزال طليقاً، لم يُدخل إلى أيّ مركز نفسيّ بعد. كان يعيش في برشلونة، في بيت فيلسوفٍ مثليّ، وكانا ينظمان معاً حفلات أسبوعية أو نصف شهرية. لم أكن وقتذاك أعرف شيئاً عنك. لا أدري إن كنتَ قد وصلتَ إلى إسبانيا أم أنّك كنتَ في إيطاليا أو فرنسا أو في ثقب ما قذر في أمريكا اللاتينية. حفلات هذا الفيلسوف المثليّ كانت مشهورة في برشلونة. كان يُقال إنّ الشاعر والفيلسوف كانا خليلين، لكنّهما في الحقيقة لم يكونا يبدوان خليلين. واحد كان يملك بيتاً وبعضَ الأفكار ومالاً، والآخر يملك الأسطورة والأشعار وحميّةَ اللاشرطِيّين، حميَّةً كلبية، حمية كلاب مضروبة، مشت الليل بطوله، أو كلَّ شبابها تحت المطر، تحت عاصفة قشرةِ إسبانيا اللانهائية، وتجد في النهاية مكاناً تحشرُ فيه رأسها، حتى ولو كان هذا المكان سطل ماء منتن، فيه مسحة عائليّة خفيفة. ابتسم لي الحظُّ يوماً وذهبت إلى واحدة من تلك الحفلات. لو قلتُ إنّني تعرفت شخصيّاً على الفيلسوف لكان مبالغة. رأيتهُ. في زاوية من الصالون، يتحدّث مع شاعر آخر وفيلسوف آخر. بدا لي أنّه كان يُعطيهما درساً. عندها ساد كلَّ شيء جوٌّ زائف. كان المدعوّون ينتظرون ظهور الشاعر. كانوا ينتظرون أن يبدأها بالضربِ مع أحدِهم. أو أن يتغوّط وسط الصالون، على سجّادة تركية، بدت كأنّها بساطُ ألف ليلة وليلة المستنفد، سجادة مضروبة وتملك أحياناً فضيلة مرآةٍ تعكسنا جميعاً بوجوهنا إلى الأسفل. أعني: تتحوّل إلى مرآة على مزاج هزّاتنا، الهزات الكيمياء العصبية. ومع ذلك حين ظهر الشاعرُ لم يحدث شيء. في البداية نظرتْ إليه كلُّ العيون، ليروا ماذا يمكن أن

يحصلوا منه، بعدها تابع كلّ واحد ما كان يعمله، والشاعر حيّا بعضَ الأصدقاء الكتّاب وانضمّ إلى مجموعة الفيلسوف المثلي. كنتُ أرقصُ وحدي وتابعتُ الرقص وحدي. في الخامسة صباحاً دخلتُ إلى إحدى غرف ذلك البيت. كان الشاعر يأخذني من يدي. رحتُ أمارس معه الحبَّ دون أخلع ملابسي. أدركتُ الرعشة ثلاث مرّاتٍ بينما أنا أشعرُ بِنَفَسِ الشاعر في عنقي. هو تأخّر أكثر منّي بكثير . ميّزتُ في شبهِ الظلمة ثلاثةَ أشباحٍ في زاوية من الغرفة. كان واحدٌ منهم يُدخّن. وآخر لا يتوقّف عن الهمهمة. الثالث كان الفيلسوف، فأدركت أنّ ذلك السرير هو سريره، وتلك الغرفة هي الغرفة التي كان يُمارس فيها الحبَّ مع الشاعر، بحسب ما كانت تقولُ ألسنةُ السوء. لكنّ من كانت تُمارس الحبّ هي أنا، وكان الشاعرُ ناعماً معي وما لم أفهمه هو أنّ أولئك الثلاثة كانوا ينظرون إلينا، وإن لم يكن يهمّني أكثر من اللازم، في ذلك الوقت، لا أدري ما إذا كنتُ تتذكّر، لا شيء كان في ذلك الوقت يهمّ أكثر من اللازم. حين قذف الشاعر أخيراً، مطلقاً صرخةً والتفت برأسِهِ لينظر إلى أصدقائه الثلاثة، أسفتُ لأنّني لم أكن في يوم خصوبة، لأنّه كان سيسعدني أن أنجب منه ولداً. نهض بعدها واقترب من الأشباح. وضع واحدٌ منهم يده على كتفه. سلّمَهُ آخرُ شيئاً. أنا نهضتُ وذهبتُ إلى الحمّام حتى دون أن أنظر إليهم. في الصالون كان قد بقي غرقى الحفلة. في الحمّام وجدت فتاةً نائمة في حوض الحمّام. غسلتُ وجهي ويديّ ومشّطت شعري، حين عدتُ وخرجتُ كان الفيلسوف يطرد من كان ما يزال يستطيع أن يمشي. لم يكن يظهر عليه ولا بشكلٍ من الأشكال أنّه سكران أو مُخدَّر. كان منتعشاً، كما لو أنّه نهض توّاً وتناول فطوره، كأساً كبيراً من عصير البرتقال. ذهبتُ مع صديقين تعرّفتُ عليهما في الحفلة. في تلك الساعة وحده محلّ دروغستور في لاس رامبلاس كان مفتوحاً فاتجاهنا إليه، دون أن نكاد نتبادل كلمة واحدة. وجدتُ في دراغستور فتاةً كنتُ أعرفها منذ قرابة السنتين وتعمل

صحفيّةً في آخوبلانكو، بالرغم من أنّها كانت مشمئزة من العمل هناك. حدّثتني عن احتمال أن تذهب إلى مدريد. سألتني عمّا إذا لم تكن بي رغبة لتغيير المدينة. هززت كتفيّ. كلُّ المدن متشابهة، قلتُ لها. في الحقيقة ما كنتُ أفعله هو أنّني كنتُ أفكّر بالشاعر وبما فعلناه توّاً أنا وهو. مِثْليٌّ لا يفعل هذا. الجميع كانوا يقولون إنّه مثليٌّ. لكنّني كنتُ أعرف أنّه لم يكن كذلك. فكّرتُ بعدها بفوضى الحواسّ وفهمتُ كلَّ شيء. عرفت أنّ الشاعر كان قد انحرف، أنّه كان ولداً ضائعاً وأنّ باستطاعتي إنقاذه. أن أعطيه قليلاً من الكثير الذي أعطاه لي. بقيتُ أقيم حراسة لمدّة شهرٍ تقريباً أمام بيت الفيلسوف على أمل أن أراه يصل وأطلبَ منه أن يُمارس معي الحبَّ مرّة أخرى. وذات ليلة رأيتُ، لكن ليس الشاعرَ بل الفيلسوف. لاحظتُ أنّ شيئاً ما حدث في وجهه. حين أصبح قريباً منّي (لم يعرفني) استطعتُ أن أتأكّد من أنّ حول إحدى عينيه توجد كدمّة بنفسجية وعدّة كدمات. لا أثر للشاعر. كنتُ أحاولُ أحياناً أن أُخمّن من خلال الأنوار المشتعلة في أي طابق كان البيت. كنتُ أرى أحياناً ظلالاً خلف الستائر، أحياناً أخرى أحداً، امرأة مُسنّةً قليلاً، رجلاً بربطة عنق، مراهقاً طويلَ الوجه، يفتح نافذة ويتأمّل برشلونة عند الغروب. اكتشفتُ ذات ليلة أنّني لم أكن وحدي من كان يتجسّسُ، أو ينتظر ظهورَ الشاعر. فتى في الثامنة عشرة من عمره، ربّما أقل، كان يراقب بصمتٍ من الرصيف المقابل. هو لم تنتبه إليّ لأنّ الأمر يتعلّق بوضوح بشاب حالمٍ وغافل. كان يجلس في شرفةِ بارٍ ويطلب دائماً علبةَ كوكاكولا يشربها على جرعات متباعدة، بينما هو يكتب في دفتر مدرسيّ أو يقرأ بعضَ الكتب التي عرفتها على الفور. اقتربتُ ذاتَ ليلة قبل أن يُغادر الشرفةَ ويذهب بسرعة وجلست بجانبه. قلتُ له إنّني أعرفُ ما كان يفعل. من أنتِ؟ سألني مذعوراً. ابتسمتُ وقلتُ له، أنا واحدة مثلك. نظر إليّ كمن ينظر إلى مجنونة. لا تُخطئ معي، قلت له، أنا لستُ مجنونة، أنا امرأة بكامل عقلي. ضحك. إذا

لم تكوني مجنونة فإنّكِ تبدين كذلك. ثم قام بحركة طلب الحساب وراح يستعدّ للنهوض عندما اعترفتُ له بأنّني أنا أيضاً كنتُ أبحثُ عن الشاعر. عاد وجلس على الفور، كما لو أنّني وضعتُ مسدّساً في صدغه. طلبت فنجان زهورات وحكيتُ له قصّتي. قال لي إنّه هو أيضاً يكتبُ شعراً ويريد من الشاعر أن يقرأ له بعضَ قصائده. لم يكن ضروريّاً أن أسأله كي أعرف أنّه كان مثليّاً ووحيداً جدّاً. دعني أراها، قلتُ له، وانتزعتُ الدفترَ من بين يديه. لم تكن قصائدُه سيئة، مشكلته الوحيدة أنّه كان يكتب مثلَ الشاعِر. قلتُ له لا يمكن أن تكون حدثت معك هذه الأشياء، فأنت أصغر من أن تكون عانيت إلى هذا الحدّ. قام بحركة كأنّه يقول لي سيّان عنده صدّقته أم لم أُصدّقه. ما يهمّ أن تكون مكتوبةً بشكلٍ جيّد، قالَ. لا، قلتُ له، أنت تعرف أنّه ليس هذا هو المهمّ. لا، لا، لا، قلتُ، وأعطاني هو في النهاية الحقّ. كان يُدعى جوردي ومن الممكن أنّه يُدرِّسُ اليومَ في الجامعة أو أنّه يكتب عروضاً للكتب في لا *بانغوارديا* أو في *إل* بريوديكو.

تلقّى أمالفيتانو الرسالةَ التالية من سان سِباستيان. تحكي له فيها لولا أنّها ذهبت مع إمّا إلى مِصَحّ موندراغون العقلي لتزور الشاعر الذي كان يعيشُ هناك، بفظاظة ومن غير وعي وأنّ الحرّاسَ، القساوسة المقنّعين بأنّهم حرّاس أمنيين، لم يتركونهما تدخلان. كانتا تنويان في سان سِباستيان أن تنزلا في بيت صديقةٍ لإمّا، وهي فتاة باسكيّة تُدعى أدورنِ، كانت قائدة في إيتا وتخلّت بعد وصول الديمقراطية عن النضال المسلّح ولم تبغِ أن تستقبلهما في بيتها إلا ليلة واحدة بذريعة أنّ عندها أعمالاً كثيرة وأنّ زوجها لا يحبّ الزيارات المُفاجئة. كان الزوج يُدعى جون وبالفعل كانت الزيارات تضعه في حالة عصبيّة أتيحت لِلولا فرصة أن تتحقّق منها. كان يرتجف، يحمرُّ مثل جرة صلصال محمّى، ومع أنّه لم يلفظ كلمة إلاّ أنّه يُعطي انطباعاً بأنّه على وشك أن يصرخ في أيّ

لحظة، كان يتصبب عرقاً ويداه ترتجفان ويبدّل مكانه باستمرار، كما لو أنّه لا يستطيع أن يبقى هادئاً في مكان واحد لأكثر من دقيقتين. كانت إدورنِ بعكسه، امرأة هادئة جدّاً. كان عندها ابن صغير السنّ (لم تستطيعا أن تريانه، لأنّ جون كان يجد دائماً ذريعة كي لا تدخل إمّا وهي إلى عرفة الطفل)، كانت تعمل طوال اليوم مربّية في الشارع، إلى جانب أسر مُدمني المخدرات والشحاذين المتزاحمين على درج كاتدرائيّة سان سِباستيان، الذين فقط كانوا يريدون أن يتركوهم بسلام، بحسب ما وضّحت إدورنِ، وهي تضحك. كما لو أنّها حكت نكتة لم تفهمها إلا إمّا، إذ لا لولا ولا جون ضحكا. في تلك الليلة تناولوا العشاء معاً وفي اليوم التالي رحلتا. وجدتا نزلاً رخيصاً، كانت إدورنِ قد حكت لهما عنه وعادتا لتسافرا بالأوتوستوب حتى موندراغون. ومرّة أخرى لم تستطيعا أن تدخلا إلى مباني المصحّ العقلي، لكنّهما اكتفتا بدراسته من الخارج، مراقبتين وحافظتين في الذاكرة كلَّ الدروب الترابية والرملية، مرتفعاتِ وتعرّجات الأرض، نزهات المجانين والمستخدمين، راقبتا عن بعد ستائر الأشجار التي كانت تتالى على مسافات عشوائية أو أنّهما لم تكونا تعرفان آليّتها والجنبات التي اعتقدتا أنّهما تريان فيها ذباباً، ولذلك استنتجتا أن بعض المجانين أو ربّما أكثر من موظف من المؤسّسة كانوا يبولون هناك حين يبدأ المغيب، أو حين يحلُّ الليلُ. جلستا بعد ذلك على حافّة الطريق وأكلتا شطيرتي الجبن اللتين جاءتا بهما من سان سِباستيان، دون أن تتكلّما، أو متمعّنتين بالظلال المتكسّرة التي كان يُسقطها مِصَحّ موندراغون العقلي على محيطه.

بالنسبة إلى المحاولة الثالثة، أخذتا الموعد بالهاتف. مرّرت إمّا نفسها على أنّها صحفية في مجلّة أدبية ولولا على أنّها شاعرة. استطاعتا هذه المرّة أن ترياه. وجدته لولا أكثر شيخوخة، غائر العينين،

خفيف الشعر. في البداية رافقهما طبيبٌ أو راهب وجابتا معه الممرات اللامتناهية، المدهونة بالأزرق والأبيض، إلى أن وصلوا إلى غرفةٍ غير شخصية، حيث كان الشاعرُ ينتظرهما. الانطباع الذي أخذته لولا هو أنّ الناس في المصحّ العقلي كانوا فخورين بوجوده بينهم كمريض. كان الجميع يعرفونه، وجميعهم يتوجّهون إليه بالكلام حين يسير إلى الحدائق أن يتلقى جرعته اليومية من المهدّئات. حين أصبحتا وحدهما معه، قالت له إنّها كانت تشتاق إليه وإنّها بقيت زمناً تُراقب يومياً بيتَ الفيلسوف في شارع إنسانتشٍ، وإنّها على الرغم من مثابرتها لم تستطع أن تراه من جديد. ليس ذنبي، فأنا قد قمت بكلّ ما هو ممكن. نظر الشاعرُ إلى عينيها وطلب سيجارةً. كانت إمّا واقفة بجانب المقعد الذي جلسا عليه وناولته سيجارة دون أن تقول كلمة واحدة. قال لها الشاعر شكراً ثم قال مثابرة. كنتُ، كنت، كنتُ مثابرة، قالت لولا، جانبياً، دون أن تتوقّف عن النظر إليه، وإن رأت بطرف عينها أنَّ إمّا راحت تُخرج كتاباً من حقيبتها، بعد أن أشعلت قدّاحتها، وراحت تقرأ، واقفةً مثل فارسة صبورة جدّاً، والقدّاحة تُطلّ من إحدى يديها اللتين كانت تسند بهما الكتابَ. راحت لولا بعدها تتحدّث عن الرحلة التي قامتا بها معاً. ذكرت طرقاً وطنية وطرقاً فرعية، مشاكل مع سائقي شاحنات ذكوريين، مدنٍ وقرى، غابات بلا أسماء حيث قرّرتا أن تناما في الخيمة، عن أنهار ومغاسل محطّات الوقود، حيث قضيتا حاجاتهما. كان الشاعر في هذه الأثناء ينفث الدخان من فمه وأنفه مغلقاً دوائر تامّة، هالات ضاربة للزرقة، تراكمات دخان رمادية كانت نسمة الحديقة تُخرّبها أو تحملها إلى التخوم، هناك حيث كانت تنتصب غابة داكنة، ذات أغصان كان النور الهابط من الكثبان يفضّضها، كما لو كي يأخذ نفساً. تحدّثت لولا عن الزيارات السابقة، المحبطة، لكن المهمّة. ثمّ قالت له ما كانت تريدُ في الحقيقة أن تقوله له: إنّها هي تعرف أنّه لم يكن مثليّاً، وإنّها كانت تعرف أنّه سجين ويرغب بالهرب وإنّها كانت

تعرف أنّ الحبَّ المُساءة معاملته والمبتور، يُخلّف دائماً كوّة مفتوحةً على الأمل وإنّ الأمل هو خطّته (أو العكس)، وإنّ تجسيده وتجريده يقوم على الفرار معها من المِصَحّ العقلي والذهاب إلى فرنسا. وماذا عن هذه؟، سأل الشاعرُ الذي يتناول ستّ عشرة حبّة دواء يوميّاً ويكتب عن رؤاه، مشيراً إلى إمّا، التي كانت تقرأ غيرَ هيّابة أحدَ كتبها واقفةً، كما لو أنّ تنورتها وملابسها كانت من الاسمنت المسلح وتمنعها من الجلوس. هي ساعدتنا، قالت لولا. الحقيقة أنّ الخطّة هي فكرتها. سنعبر فرنسا صباحاً كحجّاج، سنذهب إلى سان خوان دِ لوث ونأخذ القطارَ من هناك. سيحملنا القطار عبر الريف، الذي هو في هذه الفترة من العام أجمل ما في العالم، إلى باريس. سنعيش في الملاجئ. هذه هي خطّة إمّا. سنعمل أنا وهي في التنظيف ورعاية الأطفال في أحياء الأقوياء في باريس، بينما أنت تكتب الشعر. وفي الليل تقرأ لنا قصائدك وتمارس معي الحبَّ. هذه هي خطّة إمّا، المحسوبة بكلّ تفاصيلها. بعد ثلاثة أو أربعة أشهر سأحمل وسيكون هذا البرهان القاطع على أنّك لست آخر السلالة. ماذا تريد العائلات المعادية أكثر من ذلك! وسأعمل بضعة أشهر أخرى، لكن حين تحين اللحظة ستكون إمّا من ستُضاعف العمل. سنعيش مثل أنبياء متسوّلين أو مثل أنبياء أطفال، بينما عيون باريس تُسلط نظرها على أهداف أخرى، على الموضة، على السينما، على ألعاب النرد، على الأدب الفرنسيّ والأمريكيّ الشماليّ، على المأكولات، على الناتج المحلّي الإجمالي، على تصدير الأسلحة، صناعة حصصها واسعة النطاق من المخدر، كلّ ذلك الذي سيكون في النهاية ديكور الأشهر الأولى من عمر جنيننا. ثمّ وبعد ستّة أشهر من الحمل سنعود إلى أسبانيا، لكنّنا لن نعود هذه المرّة عبر الحدود في إيرون بل عبر لا خونكِرا، أو بورتبو، في الأرض الكتلانية. نظر إليها الشاعر باهتمام (وأيضاً نظر باهتمام إلى إمّا، التي لم تكن ترفع نظرها عن قصائده، القصائد التي كان قد كتبها قبل خمس

سنوات، بحسب ما يتذكّر) وعاد لينفث الدخان بأكثر الطرق نزوية، كما لو أنّه خلال وجوده الطويل في موندراغون تفرّغ لإتقان فنّه الفريد. كيف تعمل ذلك؟، سألت لولا. بلساني وبوضع الشفتين بطريقة معينة، قال. تبدوان أحياناً كما لو أنهما مثلومتين. تبدوان أحياناً كما لو أنّك حرقتهما بنفسك، وأحياناً كما لو أنّهما تمصّان قضيباً متوسّط الحجم يميل إلى الصغر. وأحياناً كما لو أنّك تطلق سهم زِن بقوس زِن في فسطاط زِن. آه، أفهم، قالت لولا. أنتِ تقرئين قصيدة، قال الشاعرُ. نظرت إليه إمّا ورفعت الكتاب قليلاً، كما لو أنّها تريد أن تُختبئ وراءه. أيّ قصيدة؟ أحبّ القصائد إليك، قال الشاعرُ. أحبّها جميعاً، قال إمّا. إذن هيّا، اقرئي واحدةً، قال الشاعرُ. حين انتهت إمّا من قراءة قصيدة كانت تتحدّث عن المتاهة وأريادنا، الضائعة في المتاهة وعن شابٍّ إسبانيّ كان يعيش على سطحٍ في باريس. سألها الشاعر عما إذا كان معها شوكولاتة. لا، قالت لولا. نحن الآن لا نُدخّن، أكّدت إمّا. طاقاتنا مسخّرة كلّها الآن لإخراجك من هنا. ابتسمَ الشاعرُ. لا لأقصد هذا النوع من الشوكولاتة، قال، بل الآخر، الذي يُصنع من الكاكاو والحليب والسكّر. آه، فهمت قالت لولا، واضطرت الاثنتان لأن تعترفا بأنّهما أيضاً لا تحملان حلوى من هذا النوع. تذكّرتا أنّهما تحملان في حقيبتيهما، شطيرتي جبنٍ ملفوفتين في منديلين وورق ألمنيوم، فقدّمتاهما له، لكنّ الشاعر بدا أنّه لم يسمعْهُما. حام، قبل حلول الليل، سربٌ من الطيور السوداء الكبيرة فوق الحديقة ليضيع بعدها باتجاه الشمال. ظهر في طريق الحصى طبيبٌ بدثاره الأبيض تلفّه النسمة المسائية حوله. حين وصل إلى جوارهم سأل الشاعرَ، منادياً إيّاه باسمه، كما لو أنّهما صديقان منذ المراهقة، كيف كان يشعر بنفسه. نظر إليه الشاعرُ بنظرة فارغة وكلّمه أيضاً بالشخص الثاني قائلاً إنّه يشعر بنفسه متعباً قليلاً. الطبيب الذي كان يُدْعى غوركا ولا يبدو أنّه يتجاوز الثلاثين من عمره، جلس بجانبه ووضع يداً على جبينه ثمّ أخذ له نبضه.

لكنّها على أفضل حال، يا رجل، قال. الآنستان، كيف حالهما؟ سأل بعد ذلك بابتسامة متفائلة وسليمة. إمّا لم تردّ. فكّرَت لولا في تلك اللحظة أنّ إمّا كانت تموت متخفية ولاء الكتاب. ممتاز، قالت، نحن لم نلتقِ منذ زمن وكان لقاء رائعاً. إذن هل كنتم تعرفون بعضكم بعضاً؟ سأل الطبيب. أنا لا، قال إمّا وقلبت الصفحةَ. أنا بلى، قالت لولا، كنّا صديقين منذ بضع سنوات، في برشلونة، حين كان يعيشُ هو في برشلونة. في الحقيقة، قالت بينما راحت ترفع نظرها وتتأمّل آخر الطيور السوداء، المتأخّرة تشرع بالطيران تماماً في اللحظة التي أشعل فيها أحد من غرفة قواطع مختفية في المِصحّ العقلي، أنوارَ الحديقة، كنّا أكثر من صديقين بقليل. يا سلام، قال غوركا وهو يتابع تحليق الطيور التي كانت الساعة والنور الاصطناعي يصبغها باحمرار ذهبيّ. في أي عام كان هذا؟، سأل الطبيبُ. في عام ١٩٧٩ أو ١٩٧٨، لم أعد أذكر، قالت لولا بخيط من صوت. لا يذهب بك الظن إلى أنّني شخص غير محتشم، قال الطبيب، المسألة أنّني أكتب سيرة صديقنا وكلّما كانت المعلّومات التي أجمعها أكثرَ كان أفضل، زبدة على عسل، ألا ترين ذلك؟ سيخرج ذات يوم من هنا، قال غوركا وهو يُمَسّد حاجبيه، سيعترف الجمهور الإسبانيّ ذات يوم به كواحد من العظماء، لا أقول إنّهم سيمنحونه جائزة ما، إطلاقاً، حاشى! جائزة أمير أستورياس، كما لن يعطوه جائزة ثِربانتِس، كما لن يجلسوه على كرسيّ الأكاديمية، فسباق الآداب في إسبانيا وُجد للوصوليين، للانتهازيين، ولاحسي الدبر، مع الاعتذار عن التعبير. لكنّه سيخرج ذات يومٍ من هنا، هذا أكيد. وأنا أيضاً سأخرج ذات يوم من هنا. هذا أكيد. وكذلك جميع مرضاي ومرضى زملائي. ذات يوم جميعنا سنخرج في النهاية من موندراغون وهذه المؤسّسة ذات الأصل الكنسي والغايات الخيرية ستبقى خاوية. عندها سيصير للسيرة التي أكتبها أهمية ما وأستطيع أن أنشرها، لكن حتى يحين ذلك، كما ستُدركون، ما عليّ

فعله هو جمع المعلومات والتواريخ والأسماء أن أقارن النوادر، المشكوك بذوق بعضها، بل والجارحة أيضاً، بعضها الآخر ذو طبيعة طريفة، قصص تدور الآن حول مركز جذبٍ فوضوي، هو صديقنا الموجود هنا، أو ما يريد هو أن يظهره لنا، ترتيب ظاهري، ترتيب ذو الطبيعة كلامية يخفي، بإستراتيجية، أعتقد أنّني أفهمها، لكنّني أجهل هدفها، يُخفي فوضى كلامية، إذا ما خبرناها، حتى ولو كمتفرّجين فقط في عرضٍ مسرحي، سوف تجعلنا نرتعش إلى درجة من الصعب تحمّلها. أنت شمس، يا دكتور، قالت لولا. إمّا صرّت بأسنانها. عندئذٍ استعدّت لولا لأن تحكي له عن تجربتها الجنسية المغايرة مع الشاعر، لكنَّ صديقتها منعتها مقتربة منها وسدّدت ضربة برأسِ حذائها على كعبها. في تلك اللحظة تذكّر الشاعرُ، الذي راح يصنع دوائر من دخان في الهواء، البيتَ في إنسانتشِ برشلونة وتذكّر الفيلسوفَ ومع أنّ عينيه لم تبرقا، إلا أنّ جزء من تعبيره العظمي برق: حنكاه، وجنتاه المشوّهتان، كما لو أنّه ضاع في الأمازون وأنقذه ثلاثة رهبان إشبيليين، أو راهبٌ مربع ثلاثي الرؤوس الكبيرة، الظاهرة التي أيضاً لم تكن تُخيفه. وهكذا توجّه إلى لولا وسألها عن الفيلسوف، قال اسمه، استحضر وجودَهُ في ذلك البيت، الشهور التي قضاها في برشلونة بلا عمل، مازحاً مزاحات ثقيلة، رامياً من النافذة كتباً لم يشترها هو (بينما الفيلسوف يهبط راكضاً على الدرج كي يستعيدها، الأمر الذي لم يكن يحدث دائماً، واضعاً الموسيقى بأعلى صوتها، نائماً قليلاً وضاحكاً كثيراً، عاملاً في أعمال عرضية كمترجم ومستعرِض كتب فاخرة، نجمة سائلة من ماء يغلي. عندها شعرت لولا بالخوف وغطّت وجهها بيديها. وفعلت إمّا، التي خبّأت أخيراً كتابَ القصائد في الحقيبة، الشيءَ ذاته، غطّت وجهها بيديها الصغيرتين والمليئتين بالعقد. ونظر غوركا إلى المرأتين ثمّ نظر إلى الشاعر وأطلق قهقهةً في داخله. لكن وقبل أن تنطفئ القهقهة في قلبه الهادئ، قالت لولا إنّ الفيلسوفَ مات منذ وقت

قصير بالإيدز. لا، لَا، لا، قال الشاعرُ. لأهمّي نفسي ولا يهمّني ما يفعل الآخرون، قال الشاعر. ليس لأنّك تستيقظ باكراً يطلع الفجر أبكر، قال الشاعر. أحبّكَ، قالت لولا. نهض الشاعر وطلب سيجارة أخرى من إمّا. غداً، قالت. ابتعد الطبيبُ والشاعر في الطريق إلى المصحّ العقلي. ابتعدت لولا وإمّا باتجاه المخرج، حيث التقتا بأخت المجنون الآخر وسيّدة تعلوها ملامح الانكسار، ابن عمٍ بعيد لها محجور عليه في مِصَحّ مودراغون العقلي.

عادتا في اليوم التالي، لكنّهم قالوا لهما إنّ المريض الذي تطلبانه يحتاج إلى راحة مطلقة. حدث الشيء ذاته في الأيّام اللاحقة. وذات يوم نفدت منهما النقود فقرّرت إمّا أن تخرج مرّة أخرى إلى الطريق، هذه المرّة باتجاه الجنوب، إلى مدريد حيث لها أخ عمل في مهنة مربحة خلال الديمقراطية، كانت تُفكّر بأن تطلب منه قرضاً. لولا لم تكن تقوى على السفر فقرّرتا معاً أن تنتظرها في النزل، كما لو أنّ شيئاً لم يحدث، وأن تعود إمّا بعد أسبوع. كانت لولا تقتل الوقت بكتابة رسائل طويلة إلى أمالفيتانو تحكي له فيها عن حياتها اليومية في سان سِباستيان وعن المصحّ العقلي إلى حيث كانت تذهبُ يومياً. كانت تتصوّر وهي تطلّ من السياج أنّها ستتواصل مع الشاعر بالتخاطر. ومع ذلك ففي غالب الأحيان كانت تبحث عن منطقة مكشوفة في الغابة المجاورة وتتفرّغ للقراءة أو لجمعِ أزهار وحزم أعشاب تعمل منها باقات كانت ترميها بعد ذلك من بين القضبان أو تحملها معها إلى النزلِ. وذات مرّة سألها أحد السائقين عمّا إذا كانت تريد أن تتعرّف على مقبرة موندراغون فقبلت العرض. صفّا السيارةَ في القسم الخارجي، تحت شجرة طلح وتمشيا برهةً بين القبور، التي كانت غالبيتها تحمل أسماءً باسكيّة، إلى أن وصلا إلى الكوّة التي ترقد فيها أمُّ السائق. عندها قال لها هذا إنّه يُحب أن يجامعها هناك بالذات.

ضحكت لولا واتخذت الحيطة وقالت له إنّهما سيصبحان الهدف السهل لأيّ زائر يسير في الشارع الرئيسي من المقبرة. تفكّر السائق بضع ثوان ثمّ قال: اللعنة، صحيح. بحثا عن مكان أكثر عزلة، ولم تدم الممارسة أكثر من خمس عشرة دقيقة. كان السائقُ يُدعى لارّثابال، ومع أنّه كان له اسمه إلاّ أنّه لم يبغِ أن يقوله لها، فقط لارّثابال كما يُسمّيني أصدقائي، قال. حكى بعدها لِلولا أنّها لم تكن تلك المرّة الأولى التي يُمارس فيها الجنس في المقبرة. فقد كان هناك مع خطيبته الصغيرة ومع أخرى تعرّف عليها في مرقصٍ ومع عاهرتين من سان سِباستيان. حين أوشكا على الذهاب أرادَ هذا أن يُعطيها نقوداً، لكنّها رفضتها. بقيا برهةً طويلةً يتحدّثان داخلَ السيّارة. سألها لارّثابال عمّا إذا كان لها قريب في المصحّ العقلي فحكت له لولا قصّتها. قال لها لارّثابال إنّه لم يقرأ قط قصيدةً. وأضاف إنّه لا يفهم هوسها بالشاعر. أنا أيضاً لا أفهم هوسك بممارسة الجنس في المقبرة، قالت لولا، ومع ذلك لا أحكمُ عليك من خلال هذا. صحيح، حقّاً، كل الناس عندهم هوسهم. قبل أن تنزل لولا من السيارة زلق في حقيبتها ورقة من فئة الخمسة آلاف بيزيتا، انتبهت لولا، لكنّها لم تقل شيئاً، ثمّ بقيت وحدها تحت الأشجار أمام بوابةِ حديد بيت المجانين حيث يعيش الشاعر الذي كان يتجاهلها بازدراء.

مضى أسبوع ولم تعد إمّا. تصوّرتها لولا صغيرةً، بنظرةٍ جريئة ووجهِ فلاحة مثقّفة أو أستاذة ثانوي تُطلّ على حقل فسيح سابقٍ على التاريخ، امرأة تقارب الخمسين من عمرها، ترتدي الأسودَ تجوبُ، دون أن تنظر إلى جانبيها، دون أن تنظرَ إلى الخلف، وادياً ما زال ممكناً أن تُقرأ فيه آثارُ أكلة الأعشاب السريعين. تصوّرتها متوقّفة على مفرق طرق بينما شاحنات النقل الكبيرة تمرُّ بجانبها دون أن تُخفِّف السرعة، محدثة سحابة من الغبار لا تلامسها، كما لو أنّ تردّدها ونقص

دفاعها يُشكلان حالة تواصل مع المطلق، قبّة تحميها من تقلّبات الحظّ والطبيعة وأشباهها. في اليوم التسعين رمتها صاحبةُ النزل إلى الشارع. بدءاً من تلك اللحظة نامت في محطّة القطارات، في عنبرٍ مهجور حيث كان ينام الشحّاذون الذين يجهل بعضهم بعضاً، في البرّية المفتوحة بجانب الحدود التي تفصل المصحّ العقليّ عن العالم الخارجي. ذهبت ذات ليلة بالأوتوستوب إلى المقبرة ونامت في كوّة فارغة. في صباح اليوم التالي شعرت بنفسها سعيدة ومحظوظة وقرّرت أن تنتظر عودة إمّا هناك. كان عندها ماء لتشرب وتغسل وجهه وأسنانها، كانت قريبة من المصحّ العقليّ، كان حظاراً وديعاً. وذات مساءٍ بينما وضعت بلوزةً غسلتها توّاً لتنشف على بلاطة بيضاء مستندة إلى جدار المقبرة، سمعت أصواتاً تخرجُ من ضريح فوجّهت خطواتها إلى هناك. كان الضريح يعود إلى آل لاغاسكا، وكان من السهل من الوضع الذي كان فيه أن تستنتج أنّ آخرَ آل لاغاسكا مات منذ زمن أو أنّه غادر تلك البلاد. رأت داخل السرداب حزمة ضوءِ مصباحٍ يدوي فسألت من يكونون. ويحك، هذه أنتِ، سمعت صوتاً من الداخل يقول. فكّرتْ أنه يمكن أن يتعلّق الأمر بلصوص أو بعمّال يُرمّمون الضريح أو بمنتهكي حرمة القبور، ثمّ سمعت نوعاً من المواء وحين همّت بالذهاب رأت من بين قضبان سياج السرداب وجه لارّنابال الشاحب، خرجت بعدها امرأة، أمرها لارّنابال أن تنتظره بجانب سيارته، وبقيا بعدها برهة يتكلّمان ويتمشيان آخذين بذراعي بعضهما بعضاً في شوارع المقبرة إلى أن بدأت الشمس تنزل حتى حافّة الكُوى الزمردية.

الجنون مُعْدٍ، فكّر أمالفيتانو وهو يجلسُ على أرض رواق بيتهِ بينما كانت السماء تُطبق فجأة وما عاد يستطيع أن يرى القمرَ ولا النجومَ ولا الأنوار التائهة التي كانت رؤيتها مشهورة في تلك المنطقة من شمال سونورا وجنوب أريزونا دون حاجة لِمنْظار أو تلسكوب.

الجنون مُعدٍ فعلاً، والأصدقاء، خاصّةً حين يكون المرءُ وحيداً، نعمةٌ إلهية. هذه الكلمات ذاتها استعملتها لولا، قبل سنوات كي تحكي لأمالفيتانو في رسالة دون عنوان مرسِل، لقاءها من لارّثابال، الذي انتهى بإجبارها على قبول عشرة آلاف بيزيتا قرضاً والوعد بأن يعود في اليوم التالي، قبل أن يصعد إلى السيارة ويشير للمومس التي كانت تنتظره قلقة عند السيارة أن تفعل الشيء ذاته. نامت لولا في تلك الليلة في كوّتها وإن همّت بأن تدخل السرداب المفتوح، سعيدة لأنّ الأمور بدأت تتحسّن. حين استيقظت غسلت كامل جسدها مستخدمةً خرقةً مبلّلة، غسلت أسنانها، مشّطت شعرها، كي تسافر بالأوتوستوب باتجاه موندراغون. في البلدة اشترت قطعةً من جنِ الماعز وخبزاً وفطرت في الساحة، بنهم، فهي في الحقيقة لم تكن تتذكّر آخر مرّة أكلت فيها. دخلت بعدها باراً مليئاً بعمّال البناء وتناولت قهوة بالحليب. كانت قد نسيت الساعة التي قال لارّثابال إنّه سيذهب فيها إلى المقبرة ولم يكن يهمّها، بالطريقة البعيدة ذاتها التي لم يكن يهمّها فيها لارّثابال والمقبرة والبلدة والمنظر المرتعش في تلك الساعة من الصباح. دخلت إلى الحمّام قبل أن تخرجَ ونظرت إلى نفسها في المرآة. وعادت ماشية حتى الطريق وأشارت بإصبعها إلى أن توقّفت امرأة بجانبها وسألتها إلى أين هي ذاهبة. إلى المصحّ العقلي، قالت لولا. أزعج جوابها المرأة بشكل ظاهر، ومع ذلك قالت لها أن تصعد. هي أيضاً كانت ذاهبة إلى هناك. هل أنت ذاهبة لزيارة أحدٍ أم أنّك نزيلة فيه؟ سألتها. ذاهبة لزيارة، أجابت لولا. كان وجه المرأة نحيلاً، متطاولاً بشكل خفيف، بشفتين غير موجودتين تقريباً تُضفيان عليها سيماء البرودة والحساب، مع أنّها كانت جميلة الوجنتين وترتدي ملابس عاملة ما عادت عازبة، وعليها أن ترعى بيتاً، وزوجاً وربّما ابناً أيضاً. أنا أبي هناك، اعترفت. لولا لم تقل شيئاً. حين وصلتا إلى باب الدخول نزلت لولا من السيارة وتابعت المرأة وحدها. تسكّعت برهةً على حدود المصحّ العقلي، سمعت

ضجيج أحصنة فافترضت أن لا بدّ أن هناك وراء الغابة مضماراً أو نادياً لتعليم الفروسية. ميّزت في لحظة ما سطح بيتٍ أحمر، لا علاقة له بالمِصَحّ العقلي. عادت على أعقابها. عادت إلى ذلك الجزء من السياج، الذي يملك أفضل منظر بانورامي في الحديقة. حين راحت الشمس ترتفع رأت مجموعة من المرضى يخرجون بطريقة مُتراصّة من جناح من حجارة رمادية غامقة وينتشرون بعدها على مقاعد الحديقة ويبدؤون يُشعلون سجائرهم ويُدخّنون. ظنت أنّها رأت الشاعر. كان يرافقه اثنان من النزلاء ويرتدي بنطلونَ جينز وقميصاً أبيض اللون وفضفاضاً جدّاً. أومأت إليه بذراعيها، في البداية بخوف، كما لو أنّ ذراعيها مشلولان من البرد، ثمّ بطريقة واضحة، راسمة رسوماً غريبة في الهواء، الذي ما كان يزال بارداً، محاولة أن تُحرز إشاراتها قطعيَّةَ شعاعِ ليزريّ، محاولة أن تنقل إليه جملاً تخاطريةً. انتبهت بعد خمس دقائقَ إلى أنّ الشاعر راح ينهض عن مقعده وأنَّ أحدَ المجنونين كالَهُ رفسةً على رجليه. كبحت الرغبة بالصراخ التي شعرت بها. استدار الشاعر وردّ له الرفسةَ. تلقاها المجنونُ، الذي عاد وجلس، على صدره فسقط مصعوقاً مثل عصفور. نهض المجنون الذي كان يُدخّن بجانبه ولاحق الشاعر قرابة عشر دقائق، رافساً إيّاه على مؤخّرته وضارباً إيّاه بقبضتيه على ظهره. ثمّ عاد هادئاً إلى مقعده، حيث كان الآخر ينتعش ويفرك صدره، رقبته ورأسه، الحركة التي كانت من كلّ النواحي مفرطة، إذ أنّه تلقى الرفسة على صدره فقط. توقّفت لولا عن التأشير. راح أحدُ مجنونَيّ المقعدِ يستمني. الآخر، الذي كان يتألم بشكل مبالغ به، بحث في أحد جيوبه وأخرج سيجارة. اقترب الشاعر منهما. ظنّت لولا أنّها سمعت ضحكته. ضحكة ساخرة، كما لو انّه يقول لهما: أيها الولدان لا تعرفان كيف تتحملان مزحة. لكن ربّما لم يكن الشاعر يضحك، وربّما، تقولُ لولا في رسالتها لأمالفيتانو، كان جنوني هو الذي يَضْحَكُ، اقترب الشاعرُ من حيث كان المجنونان الآخران وقال لهما

شيئاً. ما من أحد من المجنونين ردّ عليه. لولا رأتهم: المجنونان كانا ينظران إلى الأرض، إلى الحياة التي كانت تنبض على سطح الأرض بين الأعشاب وتحت كتلِ التراب المبعثرة، الحياة العمياء حيث كان كلّ شيء واضحاً كالماء. بالمقابل ربّما كان الشاعر ينظرُ إلى وجهَيّ رفيقيه في سوءِ الحظّ، ينظرُ إلى واحدٍ ثمّ إلى آخر، باحثاً عن علامة تدّل على أنّه يستطيع أن يعودَ ويجلس على المقعد دون خطر. الشيء الذي فعله أخيراً. رفع يده في إشارة إلى هدنة أو استسلام وجلس بينهما. رفع يده كمن يرفع مِزَقَ علم. حرّك أصابعه، إصبعاً فإصبعاً، كما لو أنّها علم يحترق، علم من لا يستسلمون أبداً. وجلس في الوسط، ثمّ نظر إلى من كان يستمني وكلّمه في أذنه. لم تسمعه لولا هذه المرّة، لكنّها رأت بوضوح كيف كانت تدخل يدُ الشاعر اليسرى في غياهب برنس الآخر. ثمّ رأت الثلاثةَ يُدخّنون. ورأت الحلقاتِ الفنيّة التي كانت تخرج من فم الشاعر وأنفه.

الرسالة التالية والأخيرة التي تلقاها أمالفيتانو من زوجته لم تكن تحمل عنواناً وكانت تحمل طوابع فرنسية. تحكي لولا فيها عن حديثها مع لارّثابال. يا إلهي، ما أحسن حظّكِ، قال لها لارّثابال، طوال حياتي أردتُ أن أعيش في مقبرة، وأنتِ ما إن وصلتِ حتى بدأت تعيشين في واحدة منها. شخصٌ طيّب لارّثابال. عرض عليها شقّته. عرض عليها أن يحملها كلَّ صباح إلى مِصَحّ موندراغون العقلي، حيث كان يدرسُ أعظم وأشهر شاعر في إسبانيا علمَ الحشرات. عرض عليها مالاً دون أن يطلب مقابله أيّ شيء. دعاها ذات ليلة إلى السينما. رافقها ذات ليلة إلى النزل، لتسأل عمّا إذا كان هناك أخبار عن إمّا. في فجر ذات سبتٍ عرض عليها، بعد أن مارسا الحبَّ طوالَ الليل، الزواجَ، ولم يشعر بالإهانة ولا بأنّه محطّ سخرية حين ذكّرته لولا بأنّها كانت متزوّجة. شخصٌ طيّبٌ لارّثابال. اشترى لها تنورةً من سوق

صغير في زقاقٍ وبنطلونَ جينز، علامة مُسجّلة، من حانوت في وسط سان سِباستيان، كلّمها عن أمّهِ، التي أحبّها من كلّ روحه وعن أخوته، الذين كان يشعر باللامبالاة تجاههم. لا شيء من هذا أثار مشاعر لولا، أو بلى أثارها، لكن ليس بالاتجاه الذي كان يتوقّعه هو. كانت تلك الأيّام بالنسبة إليها هبوطاً مطوّلاً بمظلّةٍ بعد رحلة طيران فضائية طويلة. ما عادت تذهب يوميّاً إلى موندراغون، بل مرّةً واحدة كلّ ثلاثة أيّام، وتُطلّ من السياج دون أيِّ أمل برؤية الشاعر، بل على الأغلب لتومئ إليه إيماءةً، كانت تعرف مسبقاً أنّه لن يفهمها أبداً أو سيفهمها بعد مرور سنواتٍ طويلة، عندما لن يكون لكلّ ذلك أيّ أهمّية. كانت أحياناً تنام خارج بيت لارّثابال دون أن تعلمه بالهاتف أو أن تترك له ملاحظة، فيخرج هذا في سيّارته ليبحث عنها في المقبرة أو المصحّ العقلي، في النزل القديم، حيث سبق ونزلت، في الأماكن التي كان يجتمع فيها الشحاذون والمارّة في سان سِباستيان. وجدها مرّةً في قاعة انتظار القطار؛ وفي مرّة أخرى وجدها جالسةً على مقعدٍ في لا كونتشا، في ساعة لا يتنزّه فيها إلا من لم يعد عندهم وقت لشيء، أو من هم بعكسهم، يسيطرون على الوقت. في الصباح كان لارّثابال هو من يُعدّ الفطور، وليلاً عندما كان يعود من العمل هو من يعدّ العشاء. بقية النهار كانت لولا تشربُ ماءً فقطْ بكميات كبيرة، وتأكلُ قطعة خبز أو حلوى هي من الصغر بحيث أنّها تتسع في جيبها، كانت تشتريها من حانوت الخبز الموجود في الزاوية قبل أن تشرع بالتسكّع. وذات ليلة بينما كانا يستحمّان، قالت لِلارّثابال إنها تريد أن ترحل وطلبت منه مالاً للقطار. سأعطيك كلّ المال الذي معي، أجابها، ما لا أستطيع أن أعطيه لك هو المال كي ترحلي ولا أعود لأراك. لم تُصرّ لولا. حصلت على النقود اللازمة لشراء البطاقة تماماً، بطريقة لم توضّحها لأمالفيتانو وأخذت القطار ذات ظهيرة إلى فرنسا. بقيت فترة في بايون. غادرت إلى لاس لانـدِس. عادت إلى بايون. كانت في باو وفي

لوردس. وذات صباح رأت القطار مليئاً بالمرضى والمشلولين، والمراهقين المصابين بشلل دماغي، بالفلاحين المصابين بسرطان الجلد، بالبيروقراطيين الإسبانيين في مراحلهم النهائية، عجائز حسنات الأخلاق، يرتدين ملابس الراهبات الكرمليات، حافيات، ناس ببثور في الجلد، أطفال عميان، ولا تعرف كيف راحت تُساعدهم كأنّها راهبة ترتدي الجينز وضعتها الكنيسةُ هناك كي تُساعد وترشد اليائسين الذين راحوا شيئاً فشيئاً يصعدون إلى الحافلات الواقفة خارج محطّة القطار أو يقفون في صفوف طويلة كما لو أنّ كلّ واحد منهم حرشفة في أفعى ضخمة وعجوز وقاسية، لكنّها سليمة بشكل واضح. وصلت بعدها قطاراتٌ إيطالية وقطاراتٌ من شمال فرنسا وكانت لولا تُنقِّلُ بينها عينيها الزرقاوين الواسعتين غير القادرتين على أن ترفّا كأنّها مسرنمة، تسير ببطء، فالتعب المتراكم بدأ يُثْقِل عليها، ذلك أنّ المرور كان مفتوحاً لها إلى كلّ ملحقات المحطّة، التي بعضها تحوّل إلى قاعات للإسعافات الأوّلية، وأخرى للإنعاش وأخرى، واحدة فقط، أكثر عزلة تحوّلت إلى مستودع للجثث، ترقد فيه جثث أولئك الذين كانت قواهم أدنى من أن تتحمّل استنزاف رحلةِ القطار المسرع لهم. كانت تذهب لتنام ليلاً في أحدث بناء في لوردس، بناء مربع من فولاذ وزجاج ووظيفة، يغوص برأسه الشائك بهوائياته بين الغيوم التي كانت تهبط كبيرة وثقيلة من الشمال، أو تتقدّم مثل جيش فوضوي، واضعاً ثقته فقط في قوّة هيكله، أو من الغرب أو تتدلّى من جبال البيرينيه مثل أشباحِ حيوانات ميتة. هناك كانت تنام عادة بين غرف القمامة، بعد أن تفتح باباً قزماً على مستوى الأرض. أحياناً أخرى كانت تبقى لتنام في المحطّة، في بار المحطّة، حين كانت فوضى القطارات تجبرها على ذلك، وتترك الشيوخ المحلّيين يدعونها إلى فنجان قهوة بالحليب ويُكلّمونها عن السينما والزراعة. ظنّت ذات مساء أنّها رأت إمّا تنزل من قطارِ مدريد محروسة بكوكبة من المعتلين. كان لها قامة إمّا ذاتها وترتدي تنورة

كنورتها، ووجهها، وجه راهبة قشتاليّة كئيب، كان وجه إمّا ذاته. بقيت ساكنة وانتظرت حتى مرّت بجانبها ولم تُحيّها وبعد خمس دقائق غادرت شاقّة طريقها بكوعها محطّةَ لوردس وبلدةَ لوردس وخرجت إلى الطريق العام وراحت تُؤشّر للسيارات بإصبعها.

قضى أمالفيتانو خمس سنوات دون أن يعرف شيئاً عن لولا. وذات مساء، بينما كان في حديقة أطفالٍ مع ابنته، رأى امرأة تستند إلى السياج الخشبي الذي يفصل حديقةَ الأطفال عن بقيّة الحديقة، بدت له إمّا فتابع نظرتها وانتبهَ مرتاحاً إلى أنّ طفلاً آخر هو من كان يسترعي انتباه المجنونة. كان الطفل يرتدي بنطلوناً قصيراً وكان أكبر من ابنته بقليل، وكان شعره أسود وسبطاً يسقط بين برهة وأخرى فيُخفي وجهه. بين القضبان الفاصلة والمقاعد التي وضعتها البلدية كي يجلس الآباءُ ووجوههم إلى أبنائهم كان ينهض بصعوبة سياج نباتيّ منخفض ينتهي بجانب شجرة بلوط قديمة، خارج حدود حديقة الأطفال. يد إمّا، يدها الصغيرة البارزة العروق والقاسية التي دبغتها الشمسُ والأنهار الجليدية كانت تُداعب السياجَ النباتي المقلّم توّاً كمن يداعب ظهرَ كلب. كان بجانبها كيس بلاستيكي كبير الحجم. اقترب أمالفيتانو بخطوات أرادها رصينة وجاءت مضطربة. كانت ابنته في ذيل الزلاقة. فجأة وقبل أن يستطيع أن يُكلّمها، رأى أمالفيتانو فجأة أنّ الطفلَ انتبه أخيراً إلى وجودِ إمّا المُراقِب ثم وبعد أن ردّ إلى الخلف خصلة شعرٍ رفع ذراعه اليمنى وحيّاها مرّات متكرّرة. عندئذٍ رفعت إمّا صامتةً ذراعَها اليسرى، كما لو أنّها لم تكن تنتظر غير تلك الإشارة، وحيّته وراحت تسير حتى خرجت من الباب الشمالي من الحديقة الذي كان يُؤدّي إلى جادّة مطروقة.

بعد خمس سنوات من مغادرة لولا عاد أمالفيتانو ليتلقى أخبارها. كانت الرسالةُ قصيرةً ومصدرها باريس. تقول له فيها إنّها تعمل في

أعمال التنظيف في مكاتب كبيرة. عملها ليليّ يبدأ في العاشرة ليلاً وينتهي في الرابعة أو الخامسة أو السادسة صباحاً. كانت باريس جميلة في تلك الساعة، كما هو حال كلّ المدن الكبيرة حين ينام الناس. كانت تعود إلى بيتها بالمترو. المترو في تلك الساعة هو الشيء الأكثر حزناً في العالم. أنجبت ابناً آخر، اسمه بِنْوَا، تعيش معه. أيضاً أُدخلت المشفى، لا تُحدِّدُ المرضَ، ولا تقول ما إذا كانت ما تزال مريضة. لا تتكلّم عن أيّ رجل. لا تسأل عن روزا. الطفلة بالنسبة إليها كما لو أنّها غير موجودة، فكَّرَ أمالفيتانو، لكنّه انتبه بعد ذلك إلى أنّه ليس بالضرورة أن تكون الأشياء هكذا. بكى برهة والرسالة بين يديه. انتبه بينما هو يُجفّف دموعه، إلى أنّ الرسالة كانت مكتوبة على الآلة الكاتبة. عرف، دون أيّ نوعٍ من أنواع الشك، بأنّ لولا كتبتها في أحد المكاتب، التي تقول إنّها تُنظّفها. فكّر لثانيةٍ بأنّ كلّ شيء كذب، وأنّ لولا تعملُ إدارية أو سكرتيرة في مؤسّسة كبيرة. بعدها رأى كل شيء بوضوح. رأى المكنسة الكهربائية موضوعة بين صفين من الطاولات، رأى آلة التشميع مثل هجين من كلب رعيٍ وخنزير بجانب نبتة داخلية. رأى نافذة هائلة تخفق من خلالها أضواءُ باريس. رأى لولا بثوبِ عملِ شركةِ النظافة، بثوبٍ بالٍ أزرق اللون، جالسة تكتب الرسالة ربّما وهي تُدخّن ببطءٍ فائق سيجارةً، رأى أصابع لولا، مِعْصَمَيّ لولا، عينيّ لولا الخاليتين من أيّ تعبير، رأى لولا الأخرى معكوسة في زئبقِ النافذة، طافية بلا جاذبية في سماءِ باريس، مثل صورة مُعالَجة لكنّها غير مُعالَجة، طافية، طافية مُتَفَكِّرة في سماء باريس، مُتْعَبَة، تُرسل رسائلَ من أبرد وأكثر مناطق العاطفة قَرْساً.

بعد عامين من إرسالها لهذه الرسالة الأخيرة وسبعة أعوام من هجرها لأمالفيتانو ولابنتها، عادت لولا إلى البيت ولم تجد أحداً. بقيت ثلاثة أسابيع تسأل في العناوين القديمة التي كانت تتذكّرها من

إشارات زوجها. بعضهم لم يكن يفتح لها الباب، لأنّهم لم يتمكّنوا من معرفتها أو لأنّهم نسوها. بعضهم يستقبلونها في العتبة، لعدم الثقةِ أو لأنّ لولا ببساطة أخطأت العنوان. قليلون من أدخلوها وقدّموا لها فنجان قهوة أو شاي، لم تقبله لولا قط، فقد كان يبدو أنّها مستعجلة كي ترى ابنتها وأمالفيتانو. كان البحث في البداية مثبطاً ووهمياً؛ كانت تتكلّم مع أناس، هي نفسها لم تكن تتذكَّرُهم. في الليالي كانت تنام في نزلٍ في لاس رامبلاس، حيث كان يتكدّسُ العمّالُ الأجانبُ في غرفٍ صغيرة. وجدت المدينةَ مُتَغيِّرةً، لكن كان من المستحيل بالنسبة إليها أن تقول إنّها تغيَّرت. كانت تجلسُ في المساءات، بعد أن تكون قد مشت طوال النهار، على درج كِنيسةٍ لترتاح وتسمع أحاديث من كانوا يدخلون ويخرجون، وكانوا في غالبيتهم سيّاحاً. كانت تقرأ كتباً عن اليونان وعن السحر والحياة السليمة. كانت تشعر أحياناً بأنّها مثل إليكترا، ابنة أغاممنون وكليتِمسترا، تتوه كمجهولة في ميسيناس، القاتلة المختلطة بالدهماء، بالجماهير، القاتلة، التي لا أحد يفهم عقلها، ولا حتى المتخصّصين في مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولا المحسنين الذين كان يرمون قطعةَ نقود في يدها. أحياناً أخرى كانت تظهر كأمٍّ لِميدونت وإستروفيوس[1]، كأمٍّ سعيدة تتأمّلُ من نافذةٍ ألعاب أبنائها بينما السماء الزرقاء تتخبط في العمق بين ذراعي البحر الأبيض المتوسط، الأبيضين. كانت تتمتم: بيلادس، أوريستيس، وفي هذين الاسمين كانت تُستوعب وجوه رجال كثيرين، إلا وجه أمالفيتانو، الرجل الذي كانت تبحثُ عنه الآن. وذات ليلة ميّزت طالباً قديماً لزوجها، الذي عرفها بشكل استثنائي، كما لو أنّه كان عاشقاً لها في أيّام الجامعة. أخذها الطالب السابق إلى بيته، قال لها إنّ باستطاعتها أن تبقى هناك كلّ الوقت الذي تُريدُه، رتّب لها غرفةَ الضيوف من أجل استخدامها

---

(١) أمّهما إلكترا.

الوحيد. في الليلة التالية عانقها، وتركته يُعانقها لبضع ثوانٍ، كما لو أنّها هي أيضاً كانت تحتاجه، ثمّ همست في أذنه فانفصل عنها الطالب السابق وذهب ليجلس على الأرض في زاوية من الصالون. مكثا هكذا لساعات، هي جالسة على الكرسيّ وهو جالِس على الأرض، المغطاة بخشب غريب جدّاً، أصفر داكن، وتبدو حصيرة مجدولة جدائل ناعمة جدّاً أكثر مما هي خشب أرضيّة. الشموع الموجودة على الطاولة انطفأت، وعندها فقط ذهبت وجلست على الأرض في الزاوية المقابلة. اعتقدت أنّها سمعت في الظلمة أنيناً خافتاً. بدا لها أنّ الشابّ يبكي ونام يُهدهده بكاؤه. ضاعف الطالب السابق وهي جهودهما. حين رأت أخيراً أمالفيتانو لم تعرفه. كان أسمن من ذي قبل وسقط بعض شعره. رأته من بعيد ولم تنتبها لحظة شكّ بينما راحت تقترب منه. تغيّرتَ كثيراً، قالت له. عرفها أمالفيتانو على الفور. أنت لا، قال. شكراً، قالت هي. نهض بعدها أمالفيتانو وذهبا.

كان أمالفيتانو يعيش في تلك المرحلة في سانت كوغات ويُدرّس الفلسفة في جامعة برشلونة المستقلّة، التي كانت قريبةً نسبيّاً. كانت روزا تدرسُ الابتدائية في مدرسة عامّة في البلدة، تغادر البيت في الثامنة والنصف صباحاً فلا تعود حتى الخامسة مساءً. رأت لولا روزا وقالت لها إنّها أمّها. أطلقت روزا صرخةً وعانقتها وانفصلت عنها فوراً وذهبت لتختبئ في غرفتها. في تلك الليلة قالت لولا لأمالفيتانو، بعد أن استحمّت وحضرت فراشها على الأريكة، إنّها مريضة جدّاً، وإنّ من المحتمل أن تموت قريباً، وإنّها أرادت أن ترى روزا لآخر مرّة. عرض عليها أمالفيتانو أن يُرافقها إلى المشفى في اليوم التالي، وهو ما رفضته لولا قائلةً إنّ الأطباء الفرنسيين كانوا دائماً أفضل من الإسبانيين وأخرجت من حقيبتها اليدوية بعض الأوراق التي تؤكّد دون أدنى شكّ أنّها مصابة بالإيدز. في اليوم التالي، حين عاد أمالفيتانو من الجامعة

وجد لولا وروزا تتمشيان في الشوارع الملاصقة للمحطّة، آخذة الواحدة يد الأخرى. لم يبغِ أن يُزعجهما، وتبعهما عن بعد. حين فتح بابَ بيته وجدهما معاً تُشاهدان التلفزيون. بعدها، حين نامت روزا سألها عن ابنها بِنْوَا. مكثت لولا برهةً صامتةً، وتذكّرت بذاكرة تصويرية كلّ جزء من جسد ابنها، كلّ حركة، كلّ تعبير عن دهشة أو خوف، ثمّ قالت إنّ بِنْوَا طفلٌ ذكيّ وإنّه كان أوّل من عرف بأنّها ستموت. سألها أمالفيتانو من الذي قاله له، وإن كان يعتقد مذعناً أنّه يعرف الجواب. عرف دون مساعدة من أحد، قالت لولا، فقط بالنظر. شيء مريع بالنسبة إلى طفل أن يعرفَ أنّ أمّه ستموت، قال أمالفيتانو. مريع أكثر الكذب عليه، يجب ألا يُكْذَبَ على الأطفال، قالت لولا. في اليوم الخامس من وجودها هناك، حين أوشكت الأدوية التي جاءت بها معها من فرنسا على النفاد، قالت لهما لولا ذات صباح إنّ عليها أن تذهب. بِنْوَا صغير ويحتاجني، قالت. لا، في الحقيقة لم يكن يحتاجني، لكن ليس لهذا السبب لن يكون طفلاً، قالت. أعرف مَنْ يحتاج من، قالت أخيراً، لكن الصحيح هو أنّ عليّ أن أذهب لأرى كيف حاله. ترك لها أمالفيتانو ملاحظة وظرفاً فيه قسم كبير من مدخراته. حين عاد من عملِه فكّر أنّ لولا لن تكون هناك. ذهب ليبحث عن روزا في المدرسة وراحا يمشيان في طريقهما إلى البيت. حين وصلا وجدا لولا جالسة أمامَ التلفاز المشتعل، لكن صوته مُطفأ، تقرأ كتابه عن اليونان. تناولوا عشاءهما معاً. نامت روزا حوالي الثانية عشرة ليلاً. حملها أمالفيتانو إلى غرفتها ونزع عنها ثيابها وأدخلها تحت البطانيات. كانت لولا تنتظره في الصالة. من الأفضل لك أن تبقي هذه الليلة، قال لها أمالفيتانو. تأخّر الوقت جدّاً على الذهاب. لم يعد هناك قطارات في برشلونة، كذبَ. لن أذهب في القطار، قالت لولا. سأذهب بالأوتوستوب. حنى أمالفيتانو رأسه وقال لها إنّ باستطاعتها أن تذهب متى تشاء. قبّلته لولا قبلة على خدّه وذهبت. نهض أمالفيتانو في اليوم

التالي في السادسة صباحاً وأشعل المذياع كي يتأكّد من أنّه ما من مسافرة بالأوتوستوب ظهرت مقتولة ومغتصبة على طرق تلك المنطِقة. كلّ شيء كان هادئاً.

ومع ذلك بقيت هذه الصورة الناقصة للولا، تُرافقه سنوات طويلة، كذكرى تَطْلَعُ بصخبٍ من البحار الجليدية، بالرغم من أنّه لم يرَ شيئاً وبالتالي لم يكن يستطيع أن يتذكّر شيئاً إلاّ ظلّ زوجته السابقة في الشارع الذي كانت تعكسه مصابيحه على الواجهات القريبة، ثمّ الحلم: تبتعدُ لولا في أحد الطرق العامة التي تخرج من سانت كوغات، تسير على حافّة طريق، طريق لا تكاد تمرّ فيه السيارات التي تُفضّل أن توفّر الوقتَ وتنحرف وتأخذ الطريق الجديد السريع المأجور. امرأة منحنية من ثقل حقيبتها، بلا خوفٍ، تسير بلا خوفٍ على طرف الطريق.

كانت جامعة سانتا تِرِسا تبدو مقبرة راحت فجأة تُفكّر عبثاً. أيضاً كانت تبدو مرقصاً فارغاً.

خرج أمالفيتانو ذات مساء إلى الفناء بالقميص كما يخرج سيّدٌ إقطاعيّ على جواده ليتأمّل ترامي أراضيه. كان قد بقي قبلها هناك مستلقياً على أرض مكتبه يفتح صناديق كتب بسكين مطبخ، ووجد بين هذه كتاباً غريباً جدّاً، لا يتذكّر أنّه اشتراه أبداً، كما لا يتذكّرُ أنّ أحداً أهداه إليه. الكتاب المذكور هو *الوصية الهندسية* لِرافائيل دييستِ، من منشورات دار كاسترو في لا كورونيا، عام ١٩٧٥، طبعاً هو كتاب عن الهندسة، المجال الذي لا يكاد أمالفيتانو يعرفه، مقسّمٌ إلى ثلاثة أقسام، القسم الأوّل «مدخل إلى أقليدس، لوباتشيفيسكي وريمان»، القسم الثاني مكرّس لـ «الحركات في الهندسة»، والقسم الثالث يحمل عنوان «ثلاثة براهين على المُسلَّمة الخامسة»، لا شكّ أنّه القسم الأكثر

غموضاً، فأمالفيتانو لم يكن عنده فكرة عن ماهية المُسلّمة الخامسة ولا مما تتكوّن، وإن كان محتملاً أنّ هذه الأخيرة لا تُعزى إلى انعدام الفضول عنده، فهو كان يملكه وبكميات كبيرة بل للحرّ الذي كان يكنس سانتا تِرِسا في المساءات، الحرّ الجافّ والمغبرّ، حرّ الشمس المحتدمة، الذي كان من المحال التخلص منه ما لم يكن المرء يعيش في شقّة جديدة مُكيَّفةِ الهواء، وهذه لم تكون حالته. طبعة الكتاب تمّت بفضل اتفاق بعض أصدقاء المؤلّف، الأصدقاء الذين خُلِّدوا، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بصورةِ نهايةِ حفلةٍ، في الصفحة الرابعة، حيث يظهر عادةً عنوانُ الناشر. هناك يقول: الطبعة الحاليّة تكريم يُقدّمه إلى رافائيل ديستِ: رامون بالتار دومينغِثْ، أساك ديّاث باردو، فِليبِّ فِرناندِثْ أرمِستو، فِرمين فِرناندِثْ أرمِستو، فرانسيسكو فِرناندِثْ دِل ريبغو. ألبارو خيل بارِلا، دومينغو غارثيّا-سابِل، فالنتين باث-أندرادِ، ولويس سِوانِ لويِّثْ. على الأقل بدا لأمالفيتانو وضعُ كنى الأصدقاء بحرف كبير، بينما كنية المُكرّم بحرف صغير عادةً غريبة. على الغلاف الخلفي يُلْفَتُ الانتباه إلى أنّ تلك الوصيّة الهندسية كانت في الحقيقة ثلاثة كتب، «لها وحدتها الخاصّة بها، لكن ما يربط بينها مصير المجموع»، ثمّ يقول «إن عمل ديستِ هذا خلاصة تأملاته وبحوثه الأخيرة عن الفضاء، التي توجد فكرته العامّة مضمّنة في أيّ نقاش منظّم حول أسس الهندسة». ظنّ أمالفيتانو في تلك اللحظة أنّه يتذكّر أن رافائيل ديستِ كان شاعراً، طبعاً شاعراً غاليسياً، أو مقيماً منذ زمن طويل في غاليسيا وأن أصدقاءه أو رعاة كتابه كانوا غاليسيين أيضاً، طبعاً أو مقيمين منذ زمن طويل جدّاً في غاليسيا، حيث من المحتمل أن ديستِ كان يُدرّس في جامعة لا كورونيا أو سانتياغو دِ كومبوستِلا، ويمكن أيضاً ألا يكون قد درَّس في الجامعة بل في مدرسة ثانوية، درّس الهندسةَ لأشبالٍ في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من أعمارهم، ينظر من النافذة إلى سماء غاليسيا المتلبّدة بالغيوم شتاءً بينما المطر يسّاقطُ قرباً. وكان على

الغلاف الخلفيّ معلومات أكثر عن دييستِ. يقول: «ضمن إنتاج رافائيل دييستِ، المتنوّع، لكنّه غير المتقلِّب، بل المرتبط بمتطلبات تطوّره الشخصي حيث الإبداع الشعري والتأمّلي موجودان كأنّهما متمحوران حول أفق واحد، الكتاب الذي بين أيدينا له سوابقه المباشرة في رسالة *التوازي الجديدة* (بوينس أيرس ١٩٥٨)، وفي أعمال أحدث: *تنوعات حول زينون الإيلي وما هي البديهية*، وهذا يتبعه -وفي المجلد ذاته- عنوان «*الحركة والتشابه*»». وهكذا فإنّ دييستِ، فكّر أمالفيتانو ووجهه يتصبّب عرقاً تلتصق به ذُرَيْرات الغبار، أنّ الشغف بالهندسة لم يكن جديداً عليه. ورعاة عمله، وتحت هذا النور الجديد لم يعودوا عمليّا الأصدقاءَ الذين يجتمعون كلَّ ليلة في الكازينو كي يشربوا ويتكلّموا عن السياسة أو كرة القدم أو عشيقاتهم، ليتحوّلوا بسرعة البرق إلى زملاء جامعة محترمين، بعضهم مُتقاعِد، دون شكّ، لكنّ آخرين ما زالوا في كامل نشاطهم وجميعهم أغنياء أو متوسّطي الغنى، وهو ما لم يمنعهم من أن يجتمعوا ليلة كلَّ يومين كمثقفين ريفيين، أي كرجال منعزلين بشكل عميق، لكن أيضاً كرجال مكتفين ذاتياً بشكل عميق في كازينو لا كورونيا كي يشربوا كونياكاً جيّداً أو ويسكي ويتكلموا عن المؤامرات وعن عشيقاتهم، بينما نساؤهم أو بالنسبة للأرامل خادماتهم كنّ جالساتٍ أمام التلفاز أو يُحَضِّرن العشاء. على كلّ الأحوال المشكلة بالنسبة إلى أمالفيتانو تكمن في كيف وصل هذا الكتاب إلى أحدِ صناديق كتبه. بقي نصفَ ساعة ينكش في ذاكرته، بينما هو يتصفّح كتابَ دييستِ دون أن يوليه انتباهاً زائداً وخلص في النهاية إلى أنّ كلّ ذلك كان لغزاً فوق طاقته آنيّاً لكنّه لم يستسلم. سأل روزا، التي كانت في تلك اللحظة قد أغلقت على نفسها الحمّام، تتزيَّنُ، عمّا إذا كان الكتاب لها. نظرت إليه روزا وقالت لا. رجاها أمالفيتانو أن تنظر إليه مرّةً أخرى وتقول له بكلّ ثقة ما إذا كان لها أم لا. سألته روزا عمّا إذا كان يشعر بنفسه مريضاً. أشعر بنفسي في حالة ممتازة، قال أمالفيتانو،

لكنّ هذا الكتابَ ليس لي وظهر في أحدِ صناديق الكتب، التي أرسلتُها من برشلونة، أجابته روزا بالكتلانية بألا يقلق وتابعت تزيينها لنفسها. كيف لن أقلق، قال أمالفيتانو، بالكتلانية أيضاً، إذا كان يبدو لي أنّني أفقدُ ذاكرتي. عادت روزا ونظرت إلى الكتاب وقالت ربّما كان لي. هل أنتِ متأكّدة؟ سألها أمالفيتانو. لا، ليس لي، قالت روزا، بالتأكيد ليس لي، الحقيقة هي أنّها المرّة الأولى التي أراه فيها. ترك أمالفيتانو ابنتَهُ أمام مرآة الحمّام وعاد ليخرج إلى الحديقة الممحوقة، حيث كلّ شيء بلونٍ بنّي فاتح، كما لو أنّ الصحراء قد أقامت حول بيته الجديد، والكتاب متدلٍّ من يده. فكّر بالمكتبات التي يمكن أن يكون قد اشتراه منها. بحث في الصفحة الأولى والأخيرة والغلاف الخلفي عن إشارة ووجد في الصفحة الأولى بطاقة مكتبةٍ فويّاس نوباس، ش. م.، مونتِرو ريّوس ٣٧، هاتف ٠٦-٤٤-٥٩٩-٩٨١ و ١٨-٤٤-٥٩٩-٩٨١، سانتياغو. طبعاً سانتياغو تشيلي، المكان الوحيد الذي كان أمالفيتانو قادراً على أن يجد نفسه فيه جامداً عقلياً تماماً، قادراً على أن يدخل إلى مكتبة، يأخذ كتاباً، أيَّ كتاب دون أن ينظر إلى الغلاف، يدفع ثمنه ويمضي. طبعاً كان الأمر يتعلّق بسانتياغو دِ كومبوستِلا، في غاليسيا. فكّر أمالفيتانو للحظة برحلة حجّ على طريق سانتياغو. سار حتى عمق الفناء، حيث يلتقي سياجه الخشبيّ بالجدار الإسمنتي الذي يحمي بيت الجيران. لم يتوقّف عنده قط. كان مزروعاً بشظايا زجاج في أعلاه، فكّر، إنّه خوف المالكين من الزيارات غير المرغوب بها. كانت شمس المساء تنعكس على زوايا شظايا الزجاج حين تابع أمالفيتانو سيره في الحديقة المخرّبة. السياج المجاور أيضاً مزروع بشظايا زجاج قناني البيرة والكحول الأخضر والبنّي. لم أزر سانتياغو دِ كومبوستِلا قط ولا حتى في المنام، اضطُرّ أمالفيتانو لأن يعترف في الظلّ الذي كان يمنحه له سياج الجانب الأيسر، لكنّ هذا لا يهمّ كثيراً ولا قليلاً، بعض المكتبات التي كان يتردّد عليها في برشلونة كان بعض

مخزونها مُشترى مباشرةً من مكتبات أخرى في إسبانيا تُصفّي مخزونها أو مفلسة أو أقلّها تقوم بعمل المكتبة والتوزيع في آنٍ معاً. من المحتمل أنّ هذا الكتاب وصل إلى يدي في مكتبة لايّ، فكّر، أو في لا ثِنترال، إلى حيث ذهبت لأشتري كتابَ فلسفة وحيث كان العاملُ، أو العاملة، منفعلاً، لأنّه كان في المكتبة بِرِ جينِفرِّر، ورودريغو رّي روزا وخوان بيّورو يناقشون مناسبةَ أو عدم مناسبة السفر بالطائرة، الحوادث الجوّية، وما إذا كان الإقلاع أخطر من الهبوط، ووضعتُ الكتاب بالخطأ في كيسي. ربّما كان ذلك في مكتبة لا ثِنترال. لكن لو حدث هذا لكنتُ اكتشفت الكتاب عند وصولي إلى البيت، طبعاً، إلا إذا كان قد حدث معي في الطريق العودة شيءٌ رهيبٌ أو مرعبٌ يقضي على أيّ رغبة أو فضول لفحص كتابي أو كتبي الجديدة. يمكن أيضاً أنّ أكون قد فتحتُ مثل زومبي الكيسَ وتركتُ الكتاب الجديدَ على منضدة السرير ووضعتُ كتابَ ديستِ على رفّ من رفوف الكتب، مشغولاً بشيء رأيتُهُ توّاً في الشارع، ربّما حادث سيّارة، ربّما اعتداء بالسلاح، ربّما منتحراً في المترو، مع أنّني لو رأيتُ شيئاً من هذا القبيل، فكَّرَ أمالفيتانو، لا شكّ كنتُ سأتذكّرهُ، أو على الأقل سأحتفظ في ذاكرتي بذكرى ما غامضة عنه. قد لا أتذكّر *الوصية الهندسيّة*، لكنّني سأتذكّر الحادث الذي جعلني أنسى *الوصية الهندسيّة*. وإذا كان هذا قليلاً، في الحقيقة فإنّ المشكلة الأكبر لا تكمن في شراء الكتاب، بل في كيف وصل ليستقرّ في سانتا تِرِسا داخلَ صناديق كتب اختارها أمالفيتانو قبل أن يغادر برشلونة. في أيّ لحظة استسلام مطلق وضعَ هذا الكتاب هناك؟ كيف استطاع أن يضع كتاباً في صندوق دون أن ينتبه إلى أنّه فعل ذلك؟ ترى هل كان يُفكّر بأن يقرأه حين يصلُ إلى شمال المكسيك؟ هل كان يُفكّر بأن يبدأ به دراسةً مُقلقلة عن الهندسة؟ وإذا كانت هذه هي خطّته فلماذا نسيه ما إن وصل إلى تلك المدينة الناهضة وسط العدم؟ ترى هل اختفى الكتاب من ذاكرته بينما هو يطير مع ابنته من الشرق إلى الغرب. أم أنّه

اختفى من ذاكرته بينما كان ينتظر وقد أصبح في سانتا تِرِسا، وصولَ صناديق كتبه؟ هل تلاشى كتاب دييستِ كعارضٍ من أعراض التغيير السريع للمكان؟

كان لأمالفيتانو بعضُ الأفكار الغريبة قليلاً بهذا الخصوص. لم تكن دائمة وبالتالي ربّما كان من المبالغة أن نُسميها أفكاراً. كانت أحاسيس. أفكاراً–ألعاباً. . كما لو أنّه يقترب من نافذة ويجهد نفسه كي يرى منظراً من الفضاء الخارجي. كان يعتقد (لم يكن يُحبّ أن يعتقدَ أنّه يعتقدُ) أنّه حين يكون المرء في برشلونة فإنّ أولئك الموجودين في أو مِنْ بوينس أيرس أو في أو مِن العاصمة الفيدرالية، لا يكونون موجودين. الفارق في التوقيت كان مجرّد قناع للاختفاء. وهكذا فإنّه إذا ما سافر المرءُ فجأة إلى مدنٍ يجب ألا تكون موجودة نظريّاً، أو أنّها لا تملك *الوقتَ* المناسب كي تنهض وتتشكّل بشكلٍ صحيح، تحدث الظاهرة المعروفة بأعراض التغيير السريع للمكان. ليس بسبب تعبك، بل بسبب تعب أولئك الذين لو لم تُسافر لكانوا بالتأكيد نائمين. كان شيئاً مشابهاً لهذا، من المحتمل أنّه قرأه في رواية أو قصّة من الخيال العلمي ونسيَهُ.

من ناحيةٍ أخرى كان لهذه الأفكار أو الأحاسيس أو الاختلاجات جانبها المُرْضي. كانت تحوّل ألم الآخرين إلى ذكرى للمرء. . تُحوّل الألم، الطويل والطبيعي، الذي يَهْزِمُ دائماً، إلى ذكرى خاصّة، هي إنسانية وقصيرة ودائماً تَمْلِصُ. تُحوّل حكاية ظلم وتمادٍ وحشيّة، حكاية ولولةٍ غير متجانسة وبلا بداية ولا نهاية إلى قصّةٍ انتحارٍ محكمةِ البناء. تُحوّلُ الهرب إلى حرّية، بل حتى ولو كانت الحرّية تفيدُ فقط للاستمرار بالهرب. تحوّلُ الفوضى إلى نظام، حتى ولو كان ثمنها ما يعرف عامّة بسلامة العقل.

بالرغم من أنّ أمالفيتانو عثر لاحقاً في مكتبةٍ جامعة سانتا تِرِسا على معلومات عن حياة رافائيل دييستِ أكّدت ما كان قد حدس به أو ما جعله يحدس به دون دومينغو غارثيّا سابِل في مقدمته، التي تحمل عنوان «الحدس المستنير» وحيث يسمح لنفسه بترف أن يذكر هايدغر (*Es gibt Zeit* : هناك وقت) خلال ذلك المساء وبينما كان يجوب إقطاعته البور الصغيرة، بينما ابنته كانت تُنهي كأميرة قروسطية زينتها أمام مرآة الحمّام، لم يستطِع أن يتذكّر ولا بشكلٍ من الأشكال، لا السبب ولا المكان الذي اشترى منه الكتاب ولا كيف انتهى هذا إلى أن حُزِم وأُرسِل إلى جانب كتب أكثر ألفة وأعزّ عليه في طريقها إلى هذه المدينة الشعبية التي كانت تتحدّى الصحراء، على حدود سونورا مع أريزونا. عندها، فقط عندها، كما لو أنّها طلقة انطلاق سلسلة من أحداث كانت تتشابك مع نتائج سعيدة أحياناً ومشؤومة أحياناً أخرى.
خرجت روزا من البيت وقالت إنّها ذاهبة إلى السينما مع صديقة وسألته عمّا إذا كان معه مفتاح فأجابها أمالفيتانو بلى، وسمع كيف انغلق الباب بطرقة، ثمّ سمع خطوات ابنته التي كانت تجوب دربَ الحجارة سيّئة القطع حتى باب الشارع الخشبيّ الصغير، الذي لم يكن يصل ولا حتى إلى خصرها، ثمّ خطوات ابنته على الرصيف وهي تبتعد باتجاه موقف الحافلة ثم محرّك سيّارة يُدارُ. عندها سار أمالفيتانو حتى الجانب الأمامي من الحديقة الخربة ومطّ عنقه وأطلّ على الشارع ولم يرَ أيّ سيارة ولا رأى روزا، وشدّ بقوّة على كتاب دييستِ الذي كان ما يزال يحمله بيده اليسرى. نظر بعد ذلك إلى السماء ورأى قمراً مفرطاً في كبره، ومفرطاً في تجعّده بالرغم من أنّ الليل لم يكن قد حلّ بعد. توجّه بعد ذلك مرّةً أخرى إلى عمق الحديقة المجزوزة ومكث ساكناً لبضع ثوانٍ، ينظر يمنة ويسرةً، أماماً وخلفاً لعلّه يرى ظلَّهُ، لكن وبالرغم من أنّ الوقت كان ما يزال نهاراً وفي الغرب باتجاه تيخوانا ما تزال الشمسُ تلمعُ، لم يتمكن من رؤيته. عند ذلك أمعن النظر بالمرَس، أربعة

خطوط مربوطة، من جانب، إلى نوع من مرمى كرة قدم ذي أبعاد صغيرة، عودان بطول لا يتجاوز المئة والثمانين سنتيمتراً مطمورين في الأرض وعود ثالث، أفقيّ مسمّر إلى العودين الآخرين من كلا الطرفين، وهو ما كان يُضفي عليها، إضافة إلى ذلك بعضَ الرسوخ وكانت تتدلّى منه مُرَسٌّ مربوطة إلى بعض الكلاّبات المثبّة إلى جدار المنزل. كان هذا مِنشر الثياب، وإن لم يكن يُرَ غير بلوزة لروزا بيضاء مطرّزة بلون أمغر في القبّة، وزوج من السراويل الداخلية ومنشفتين ما تزال تقطر ماءً. في الزاوية، وفي بيت من اللبن كانت الغسّالة. بقي برهة ساكناً يتنفّس بفم مفتوح، مستنداً إلى عود المنشر الأفقي. دخل بعدها في البُيت، كما لو أنّه ينقصه أوكسجين وأخرج من كيسٍ، يحملُ شعار السوبر ماركت الذي يذهب إليه مع ابنته ليقوم بالمشتريات الأسبوعية، ثلاثةَ ملاقط للثياب، كان يُصر هو على تسميتها «جراء»، وضع الكتاب ودلاه من الحبال ثم عاد ودخل إلى بيته وهو يشعر بأنه أكثر راحة بكثير.

طبعاً كانت الفكرة لِدوشامب.

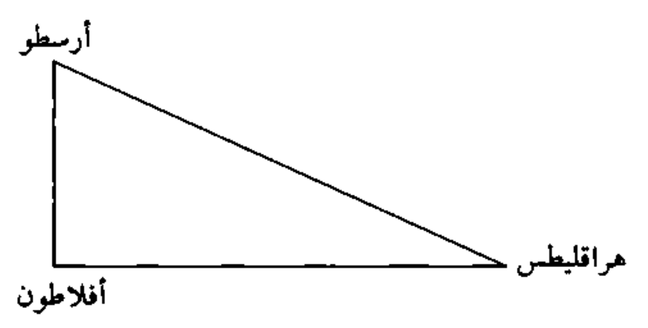
من إقامته في بوينس أيرس فقط يوجد أو فقط يُحتَفَظ بِ بعمل واحدٍ مسبق *الصنع*. بالرغم من أنّ حياته كلّها كانت مسبقة *الصنع*، التي هي طريقة لتهدئة القدر وفي الوقت ذاته لإرسال أشارات إنذار. يكتب كالفين تومكينز بهذا الخصوص: *بمناسبة عرس أخته سوزان وصديقه الحميم جان كروتي، اللذين تزوّجا في باريس في الرابع عشر من نيسان ١٩١٩، أرسل دوشامب بالبريد هدية للزوجين. كان الأمر يتعلق ببعض التعليمات كي يُعلقا رسالة في الهندسة إلى نافذة شقّتهما ويُثبتاها بحبل، كي تستطيع الريحُ أن «تتصفّحَ الكتابَ، تنتقي المسائل وتقلّب الصفحات وتقتلعها»*. لم يلعب دوشامب كما يمكن أن يُلاحظ بالشطرنج في

بوينس أيرس فقط. يتابعُ تومكينز: *يمكن لغياب الفرح في هذا العمل المسبق الصنع البائس، كما يُسميه دوشامب أن يكون بالنتيجة هديّة صادمة لمتزوجين حديثين، لكنّ سوزان وجان اتبعا تعليمات دوشامب بمزاج رائق: تمكنا عملياً من تصوير ذلك الكتاب مفتوحا ومتدلياً في الهواء -الصورة التي تشكّل الشهادة الوحيدة على العمل، الذي لم يستطع أن يصمد أمام تعرّضه لعناصر الطبيعة- ورسمت سوزان لاحقاً لوحة له سمّتها*، عمل مارسيل المسبق الصنع البائس. كما سيوضح دوشامب لِكابانّ: « *يفرحني أن أدخل فكرة السعادة والشقاء في* مُسبقات الصنع، ثمّ هناك المطر والريح والأوراق تطير، كانت فكرة ظريفة». أتراجع، الحقيقة أنّ ما قام به دوشامب في بوينس أيرس هو اللعب بالشطرنج. إيفون، التي كانت معه، سئمت من كثرة اللعب- العِلم وغادرت إلى فرنسا. يتابع تومكينز: *اعترف دوشامب في السنوات الأخيرة لشخص أجرى معه مقابلة بأنّه تمتّع بتسفيه «جدّية كتاب مشحون بالمبادئ» مثل ذاك بل ولَمّحَ إلى صحفيّ آخر إلى أنه بتعريضه لعوامل الطقس، «اكتسبت الرسالة أخيراً أربعةَ أشياء من الحياة».*

في تلك الليلة حين عادت روزا من السينما كان أمالفيتانو يُشاهد التلفزيون جالساً في الصالون فاستغلّ المناسبة ليقولَ لها إنّه علّق كتابَ ديستِ على منشر الغسيل. نظرت إليه روزا كمال لو أنّها لم تفهم شيئاً. أريد أن أقول، قال أمالفيتانو، إنّني لم أعلّقه لأنّني سبق وبلّلته بخرطوم الماء ولا لأنّه سقط في الماء، بل ببساطة علّقته لأنّني علّقته، كي أرى كيف يُقاوم عوامل الطقس، صفعاتِ هذه الطبيعة الصحراوية. آمل ألا تكونَ في طريقكَ إلى الجنون، قالت روزا. لا، لا تقلقي، قال أمالفيتانو، راسماً بالضبط ملامحَ من ليس قلقاً. أحذّرك من أل ترفعيه، ببساطة تصرّفي كما لو أنّ الكتابَ غير موجود. حسن، قالت روزا، وأغلقت على نفسها باب غرفتها.

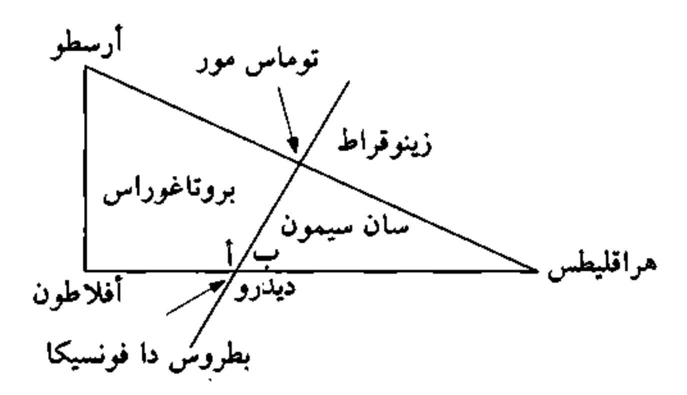
في اليوم التالي وبينما كان طلاّبه يكتبون أو بينما كان هو يتكلّم، بدأ أمالفيتانو يرسم أشكالاً هندسية بسيطة جدّاً، مثلثاً، مربّعاً، وعند كلّ رأس زاوية كتب، لِنَقُلْ، الاسم الذي أملتْهُ عليه المصادفةُ، أو الفتورُ أو السأمُ الهائل الذي كان يُحدثه عنده طلاّبهُ والدروسُ والحَرُّ الذي كان يسود المدينةَ في تلك الأيّام. هكذا:

الرسم ١



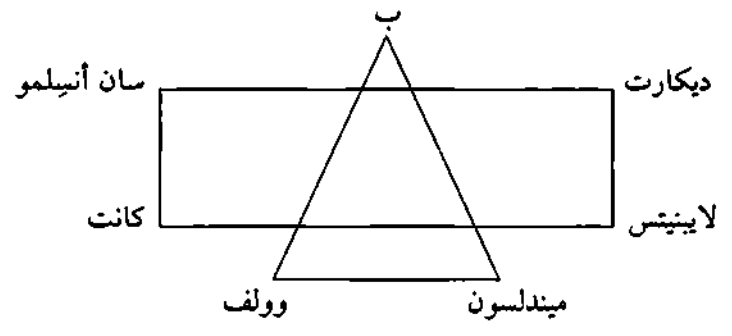
أو هكذا:

الرسم ٢



أو هكذا:

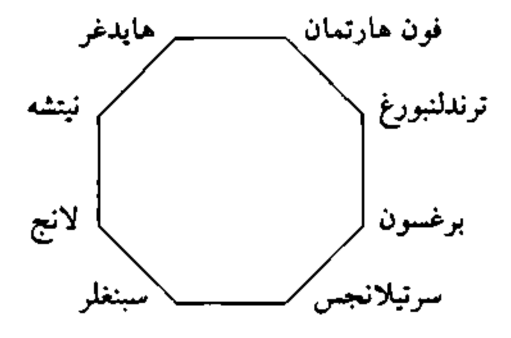
الرسم ٣



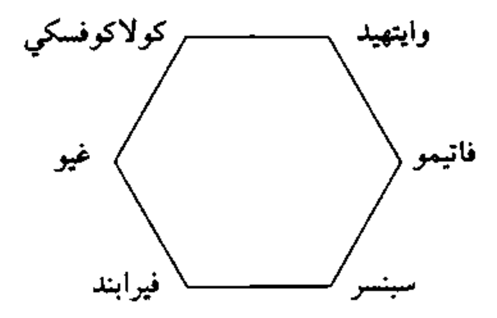
حين عاد إلى مخدعه اكتشف الورقة وتفحّصها لبضع دقائق قبل أن يرمي بها في سلّة المهملات. الرسم ١ ليس له تفسير أكثر من سأمه. الرسم ٢ يبدو امتداداً للرسم ١، لكنّ الأسماء المضافة بدت له جنونية. زينوقراط يمكن أن يكون هناك في زيارة منطقية، وكذلك بروتاغوراس، لكن ماذا يفعل هناك توماس مورو وسان سيمون؟ ماذا يفعل، كيف يُستقيم هناك ديدرو و، يا إله السموات، اليسوعيّ البرتغالي بطرس دا فونسيكا، الذي كان واحداً من آلاف الشارحين لأرسطو، لكن ولا حتى بملقط الجراح يمكن أن يكون غير مفكرٍ متواضعٍ جدّاً؟ الرسم ٣، على العكس، فيه بعض المنطق، منطق مراهقٍ متخلّف عقلياً، مراهق متسكع في الصحراء، بثياب بالية، لكنّه بثياب. كلّ الأسماء، يمكن القول، تعود إلى فلاسفة مهتمين بالموضوع الوجودي. حرف بي الذي يظهر في الرأس العلوي للمثلث ومدخل في المثلث قائم الزاوية يمكن أن يكون الله أو وجود الله، الذي ينبثق من جوهره. فقط عند ذلك انتبه أمالفيتانو إلى أنّه يعرض في الرسم ٢ حرف أ وحرف بي فلم يَنْتَبِهُ أدنى شكّ بأنّ الحرّ الذي لم يكن معتاداً عليه جعله يهذي بينما كان يملي دروسه.

ومع ذلك فقد وجدَ أمالفيتانو في تلك الليلة على طاولة مكتبه ثلاثةَ رسوم أخرى، بعد أن تعشّى وشاهد الأخبارَ في التلفزيون وتكلّمَ مع الأُستاذة سيلبيا بِرِث، التي كانت غاضبة من الطريقة التي كانت تُحقّق بها شرطةُ ولاية سونورا وشرطة سانتا تِرِسا بالجرائم. لا شكّ كان هو صاحب الرسوم. عمليّاً كان يتذكّر نفسه وهو يخربش على ورقة بيضاء بينما هو يُفكّر بأشياء أخرى. الرسم الأوّل (أو الرابع) كان هكذا:

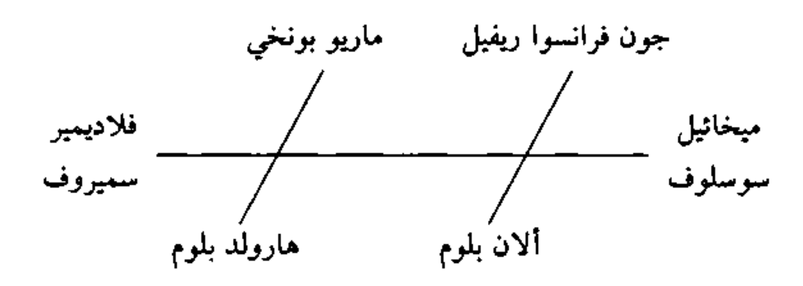
الرسم ٤



الرسم ٥:



والرسم ٦:



الرسم الرابع كان غريباً. فمنذ زمن طويل لم يُفكّر بِترندلنبورغ. أدولف ترندلنبورغ. لماذا بالضبط الآن ولماذا إلى جانب برغسون وهايدغر ونتيشه وسبنغلر؟ الرسم الخامس بدا له أكثر غرابة. ظهور كولاكوفسكي وفايتمو. حضور وايتهيد المنسي. لكن على الأخص حضور غيو، جان ماري غيو، المسكين، المتوفى في عام ١٨٨٨، عن أربع وثلاثين سنة، الذي سمّاه بعض الظرفاء نيتشه الفرنسي، ولم يتجاوز أتباعه في العالم الواسع أكثر من عشرة أشخاص، على الرغم من أنّهم لم يكونوا في الحقيقة أكثر من ستة، وهذا ما كان يعرفه أمالفيتانو لأنّه تعرّف في برشلونة على الغيويّ الإسباني الوحيد، وكان مدرّساً من خيرونا، خجولاً ومتحمّساً على طريقته، همّه الأكبر هو أن يكتشف نصّاً (لم يكن يعرفُ جيّداً ما إذا كان قصيدة أو دراسة فلسفية أو مقالاً) كتبه غيو بالإنكليزية ونشره هناك ما بين ١٨٨٦ و١٨٨٧في صحيفة من سان فرانسيسكو في كاليفورنيا. أن يظهر في جانب من الخطّ الأفقي فلاديمير سميروف، الذي اختفى في معسكرات اعتقال ستالين عام ١٩٣٨ والذي يجب ألا يُخلط بينه وبين إيفان نيكيتيش سميروف الذي قتله الستالينيون عام ١٩٣٦ رمياً بالرصاص بعد محاكمته في موسكو، بينما في الجانب الآخر من الخطّ الأفقي يظهر اسم سوسلوف، وهو إيديولوجي، مستعد لابتلاع كلّ الخزي والجرائم، لا يمكن أن يكون

أكثر بلاغة. لكن أن يكون الخطّ الأفقي مخترقاً بخطين مائلين، يُقرأ فيهما أسماء بونخي وريفيل في الطرف العلوي وهارولد بلوم وآلان بلوم في الطرف السفلي، فهذا يبدو بالنتيجة شبيهاً جدّاً بالنكتة. نكتة من ناحية أخرى لم يفهما أمالفيتانو، خاصّة بسبب ظهور هارولد وآلان بلوم حيث لا بدّ تكمن الظرافة، الظرافة التي بالرغم من كلّ ترصده لها لم يستطع الإمساك بها.

خرج أمالفيتانو في تلك الليلة بينما ابنته نائمة، بعد أن استمع إلى آخر برنامج إخباري من أكثر إذاعات سانتا تِرِسا شعبية، «صوت الحدود» إلى الحديقة ثمّ توجّه بعد أن دخّن سيجارة وهو ينظر إلى الشارع المقفر، إلى القسم الخلفيّ بخطوات حذرة، كما لو أنّه يخشى أن يدخل قدمه في حفرة، أو كما لو أنّه يخشى الظلمة التي كانت تسود هناك. كان كتاب ديستِ ما يزال منشوراً بجانبِ الملابس التي غسلتها روزا في ذلك اليوم، الثياب التي تبدو كأنّها صُنعت من إسمنت، أو من مادّة ثقيلة جدّاً، فهي لم تكن تتحرّك على الإطلاق، بينما النسمة التي كانت تصل على دفعات تهز الكتابَ من جانب إلى آخر، كما لو أنّها تهدهده على هواها، أو كما لو أنّها تريد أن تخلّصه من الملاقط التي كانت تثبته إلى الحبل. كان أمالفيتانو يشعر بالنسمة على وجهه. كان يتصبّب عرقاً ونسمات الهواء غير المتساوية تُجّفف قطرات العرق وتُطبق على روحه. كما لو أنّني في مكتب ترندلنبورغ، فكّرَ، كما لو أنّني أتبع خطوات وايتهيد على ضفة قنال، كما لو أنّني أقتربُ من فراش مرضِ غوياو وأطلب نصيحتَهُ. ترى ماذا سيكون جوابه؟ كُنْ سعيداً. عِشْ اللحظةَ، كن طيّباً. أو على العكس: من أنت؟ ماذا تفعل هنا؟ ارحَلْ عنّي.

النجدة.

في اليوم التالي وجد بينما كان يبحث في مكتبة الجامعة على مزيد من المعلومات عن ديستِ. كان غالبسياً. وُلِد في ريانتشو، لا كورونيا عام ١٨٩٩. بدأ الكتابة بالغاليسيّة وإن انتقل بعدها إلى القشتالية أو راح يكتب باللغتين. رجل مسرح. ملتزم مناوئ للفرانكوية خلال الحرب الأهليّة. انتقل بعد الهزيمة إلى بونيس أيرس، حيث نشر *رحلة، مبارزة وخسارة: مأساة، فكاهة وملهاة* في عام ١٩٤٥، وهو كتاب مؤلّف من ثلاثة أعمال سبق ونُشِرَت. شاعر، وكاتب دراسات. كذلك نشر في عام ١٩٥٨، حين كان أمالفيتانو في السابعة من عمره كتابه الذي سبق ذكره *رسالة جديدة في الموازاة*. كمؤلف قصص قصيرة تعتبر *قصّة واختراعات فِليكس موريل* (١٩٤٣) أهمّ أعماله. يعود إلى إسبانيا، يعود إلى غاليسيا. يموت في سانتياغو دِ كومبوستِلا عام ١٩٨١.

ما مسألة التجربة؟، سألت روزا. أيّ تجربة؟، سأل أمالفيتانو. تجربة الكتاب المُعلّق، قالت روزا. ليست تجربة بالمعنى الحرفي للكلمة، قال أمالفيتانو. لماذا هو هناك؟، سألت روزا. خطر لي بغتةً، قال أمالفيتانو. الفكرة هي لدوشامب، ترك كتاب هندسة معلّقاً في العراء ليرى ما إذا سيتعلّم أربعة أشياء من الحياة الواقعيّة. سوف تُخَرّبه، قالت روزا. أنا لا، قال أمالفيتانو، الطبيعة. اسمعْ، أنتَ في كلّ يومٍ أكثر جنوناً، قالت روزا. ابتسم أمالفيتانو. لم يسبق ورأيتُك تفعل بِكتابٍ شيئاً مثل هذا، قالت روزا. الكتاب ليس لي، قال أمالفيتانو. سيّان، قالت روزا، هو لك الآن. شيء غريب، قال أمالفيتانو، هكذا يجب أن يكون، لكنّ الصحيح هو أنّني لا أشعر بأنّه كتابٌ ينتمي إليّ، ثم إنّ لديّ انطباع، يكاد يكون يقيناً، بأنّني لا أُسبّب له أيَّ أذىً. إذن اعتبرْ أنّه لي وأنزله، قالت روزا، فالجيران سيظنون أنّك مجنون. الجيران؟ الذين يضعون شظايا زجاج على سياجهم؟ هؤلاء لا يعرفون حتى أنّنا موجودان، قال أمالفيتانو، وهم أكثر جنوناً

منّني بما لا يُقاس. لا، هؤلاء لا، قالت روزا، الآخرون، الذين يستطيعون أن يروا جيّداً ما يحدث في فنائنا. هل من أحدٍ أزعجك؟، سأل أمالفيتانو. لا، قالت روزا. إذن ما من مشكلة، قال أمالفيتانو، لا تقلقي من بعض الترهات، ففي هذه المدينة تحدث أشياء أكثر هولاً من تعليق كتابٍ إلى حبل. هذا لا يبرِّر ذاك، قالت روزا، نحن لسنا برابرة. دعي الكتاب بسلام، اعتبريه غير موجود، انسيه، قال أمالفيتانو، فأنت لم تهمّك الهندسة قط.

كان أمالفيتانو يخرج في الصباحات قبل أن يذهب إلى الجامعة ليشربَ آخرَ رشفاتِ قهوته وهو ينظر إلى الكتاب؟ لم يكن هناك أيّ شكٌّ: الورق الذي طُبع عليه جيّد والتغليف يُقاوم غير آبهٍ بتقلّبات الطبيعة. لقد اختار أصدقاء رافائيل دييستِ موادَّ جيّدة ليُقدّموا له نوعاً من التكريم والوداعِ المسبق إلى حدّ ما، وداع أصدقاءٍ محترمين ومتنوّرين (أو بمظهرِ التنوير) لرجل عجوز آخر متنوّر. فكَّر أمالفيتانو بأنّ الطبيعة في الشمال الغربي من المكسيك، في ذلك المكان بالضبط من حديقته المهشمة، كانت أقرب إلى الفقر. ذات صباح بينما كان ينتظر الحافلة التي ستقلّه إلى الجامعة اتخذ قراراً ثابتاً بأن يزرع عشباً أو حشيشاً، وأن يشتري شُجيرة نامية قليلاً من أحد الحوانيت المتخصّصة بذلك وأن يزرع أزهاراً على الجوانب. في صباح آخر، فكّر أنّ أيَّ عملٍ المقصود منه أن يجعل الحديقة ألطف سيكون غير مجدٍ في المستقبل، ذلك أنّه لا يُفكّر أن يبقى زمناً طويلاً في سانتا تِرِسا. يجب العودة فوراً، كان يقول لنفسه، لكن إلى أين؟. ثم كان يقول لنفسه: ما الذي دفعني إلى المجيء إلى هنا؟ لماذا أتيتُ بابنتي إلى هذه المدينة الملعونة؟ لماذا كانت آخر ثقبٍ في العالم عليّ أن أعرفه؟ لماذا ما أرغب به في أعماقي هو أن أموت؟ وينظرُ بعدها إلى كتاب *الوصية الهندسية*، الذي كان يتدلّى رابطَ الجأشِ من الحبل، مثبّتاً بملقطين،

وتنتابه رغبة بأن ينزله ويُنظّفه من الغبار الطُّفاليّ الذي التصق به هنا وهناك، لكنّه لم يجرؤ.

كان أمالفيتانو يتذكّر أحياناً أباهُ، الذي كان يهوى الملاكمة، بعد خروجه من جامعة سانتا تِرِسا، أو وهو جالس في رواق منزله أو بينما هو يقرأ أعمال طلاّبه. كان أبو أمالفيتانو يرى أنّ كلَّ التشيليين لوطيون. أمالفيتانو الذي كان في العاشرة من عمره كان يقول له: لكن، يا أبي، الإيطاليون هم اللوطيون، وإن كنت لا تُصدّق فانظر في الحرب العالمية الثانية. كان أبو أمالفيتانو ينظر إلى ابنه في غاية الجدّية حين كان هذا يقول له هذه الكلمات. كان أبوه، جدُّ أمالفيتانو، قد وُلِد في نابولي. وهو نفسه كان يشعر بنفسه دائماً إيطاليّاً أكثر مما هو تشيليّ. على كلّ الأحوال، كان يُحبُّ أن يتكلّم عن الملاكمة، كان يُحبّ أن يتكلّم عن المعارك التي لم يقرأ غير وقائعها الجدّية التي كانت تظهر في المجلات المتخصصّة أو في الصفحات الرياضية. بهذه الطريقة كان يستطيع أن يتكلّم عن الأخوة لويزا وماريو وروبن، أحفادِ تاني وعن غودفري ستيفنز، الذي كان لوطياً جليلاً وبلا تلفيق وعن هومبِرتو لوايزا، أيضاً حفيد تاني، ضربته جيّدة، عن أرتورو غودوي، الماكر والشهيد، عن لويس فيثنتيني، وهو إيطالي تشيليان ورجل طيّب السريرة، أضاعه حظّه العاثر بأن ولد في تشيلي وعن إستانيسلاو لوايزا، التاني، الذي سرقوه الصولجانَ العالمي في الولايات المتحدة بأغبى طريقة، حين داس الحكم على قدمه في الجولة الأولى فانكسر كعب تاني. هل تستطيع أن تتصوّر؟ كان يقول أبو أمالفيتانو. لا أستطيع أن أتصوّر، كان يقول أمالفيتانو. تعال لنرى، ابدأ بعملِ ظلال حولي وأنا سأدوس على قدمك، كان يقول أبو أمالفيتانو. الأفضل لا، كان يقول أمالفيتانو. افعله بثقة، يا رجل، لن يحدث لك شيء، كان يقول أبو أمالفيتانو. في يومٍ آخر أفعلُهُ، كان يقول أمالفيتانو. يجب أن يكون

الآن حالا، كان يقول أبو أمالفيتانو، عندها كان أمالفيتانو يقوم بعمل ظلالٌ ويتحرّك بخفّةٍ حول أبيه، مطلقاً من حين لآخر خطوطاً مستقيمة باليسرى وكلاّبات باليمنى، وفجأة يتقدّم أبوه قليلاً ويدوس على قدمه وهنا كان ينتهي كلّ شيء وكان أمالفيتانو يمكث ساكناً أو يبحث عن المعانقة أو يهرب، لكنّ كاحله لم يكن ينكسر ولا بشكل من الأشكال، أنا أظنّ أن الحَكَمَ تَقَصَّدها، كان يقول أبو أمالفيتانو، ليس ممكناً أن تكسرَ كاحل أحدٍ بدوسة. بعدها كانت تأتي الشتائم: الملاكمون التشيليون جميعهم لوطيون، سكّانُ بلد الخراء هذا جميعهم لوطيون، جميعهم دون استثناء، مستعدون لأن يسمحوا للآخرين بأن يخدعوهم، مستعدون لأن يُشْتَروا، مستعدون لأن ينزلوا سراويلهم في الوقت الذي يطلب منهم أحد أن يَخلعوا الساعة. وهو ما كان يردّ عليه أمالفيتانو، الذي لم يكن يقرأ في العاشرة من عمره المجلاتِ الرياضيّة، بل المجلات التاريخية وبخاصّة منها الحربية، بأنّ الإيطاليين حجزوا هذا لأنفسهم وبأن هذا يعود إلى الحرب العالمية الثانية. عندها كان أبوه يلزم الصمت، وهو ينظر إلى ابنه بإعجاب صريح وباعتزاز، وكأنّه يسأل نفسه من أيّ شياطين خرج هذا الصبيّ، ثمّ يتابع صمتَهُ برهةً أخرى، ليقول له بعدها بصوتٍ خافتٍ، كما لو أنّه يحكي له سرّاً، كانوا على المستوى الفردي شجعاناً. ويعترف أنّهم لم يكونوا كمجموعٍ يفعلون شيئاً آخر غير التهريج. ويختصر بأنّ هذا هو بالضبط ما كان ما يزال يعطي أملاً.

ولذلك يمكن القول إنّه بينما كان أمالفيتانو يخرج من الباب الأمامي ويتوقّف وكأس من الويسكي في يده في رواق البيت ويُطلّ بعدها على الشارع حيث تقف بعض السيارات، السيارات المهجورة لساعاتٍ وتصدر عنها رائحة خردة ودم، قبل أن يدور نصف استدارة ويتوجّه، دون أن يمرّ داخلَ البيت، إلى القسم الخلفيّ من الحديقة

حيث ينتظره كتاب *الوصية الهندسية* وسطَ السكينة والظلام، كان يمكن أن يستنتج أنّه كان، في أعماقه، في أعمق أعماقه، يُفكّر أنّه ما يزال شخصاً عنده أمل، ما دام دمه إيطالياً، وما يزال فردياً وشخصاً مهذّباً أيضاً. بل ويمكن أيضاً ألا يكون جباناً. بالرغم من أنّه لم يكن يُحبّ الملاكمة. وقتذاك كان كتابُ ديستِ يطفو في الهواء والنسمة تُجفّف بمنديل أسودَ العرقَ الذي كان يتلألأ على جبين أمالفيتانو، كان يُغمض عينيه ويُحاول عبثاً أن يتذكّر أيَّ صورة لأبيه. حين كان يعود إلى البيت، ليس عبر الباب الخلفي، بل عبر الباب الأمامي كان يمطّ رقبته من فوق السياج وينظر إلى الشارع بالاتجاهين. في بعض الليالي كان يتولد عنده انطباع بأنّهم يتجسّسون عليه.

في الصباح كانت روزا، حين كان أمالفيتانو يدخل إلى المطبخ ويترك فنجانَ قهوته في المجلى بعد زيارته الإلزامية لكتاب ديستِ، أوّلَ من يُغادر. عامّة لم يكونا يودعان بعضهم بعضاً، وإن كان يحدث أحياناً أنّه إذا ما دخل أمالفيتانو قبل ذلك أو أجّل خروجَهُ إلى الحديقة الخلفية، يتمكّن من أن يقول لها مع السلامة وينصحها بأن تنتبه إلى نفسها أو يُقبّلها قبلة. وذات صباح استطاع فقط أن يقول لها مع السلامة وجلس لينظر من النافذة إلى منشر الغسيل. كان كتابُ *الوصية الهندسية* يتحرّك بشكل غير ملحوظ. فجأة ما عاد يتحرّك. العصافير التي كانت تصدح في حدائق الجيران صمتت، غرق كلّ شيء لثانية في صمت تام. ظنّ أمالفيتانو أنّه سمع صوتَ الباب الخارجي وخطوات ابنته التي راحت تبتعد. ثمّ سمع صوت محرّك سيارة يدور. في تلك الليلة هتف أمالفيتانو للأستاذة بِرِثْ واعترف لها بأنّ أعصابه هي في كلّ مرّة أكثر توتّراً. هدّأته الأستاذة بِرِثْ وقالت له إنّ عليه ألا يفرط في قلقِهِ، ويكفي أن يتخذ بعض الحيطة، فلا يُصاب بالذعر، وذكّرته بأن الضحايا عادة ما يُختَطَفون في مناطق أخرى من المدينة. سمعها أمالفيتانو تتكلّم

وفجأة ضحك. قال لها إنّ أعصابه على رؤوس أقدامها. الأستاذة بِرِثْ لم تلتقط النكتة. في هذا المكان، فكَّر أمالفيتانو بغضبٍ، لا أحد يلتقط شيئاً. حاولت الأستاذة بِرِثْ بعدها أن تُقنعه بأن يخرجا معاً مع روزا وابن الأستاذة بِرِث في نهايةَ هذا الأسبوع. إلى أين؟، سألها أمالفيتانو بطريقة تكاد لا تُسمع. نستطيع أن نذهب لنأكل في منتزه على بعد عشرين كيلومتراً من المدينة، قالت هي، مكان لطيف جدّاً، فيه مسبح للشباب وشرفة هائلة مُظلَّلة من حيث تُشاهَدُ تلالُ جبلِ مَرْوٍ، جبل فضّي اللون فيه عروق سوداء. في أعلى الجبل صومعة من الطوب الأسود. الداخل كان مظلماً، باستثناء النور الداخل من نوع من الكوّة والجدران مليئة بالنذور التي كتبها رحّالةٌ وهنودٌ من القرن التاسع عشر، الذين كانوا يُخاطِرون بعبور سلسلة الجبال التي تفصل تشيهواهوَا عن سونورا.

كانت الأيّام الأولى لأمالفيتانو في سانتا تِرِسا وفي جامعة سانتا تِرِسا مريعة، بالرغم من أنّ أمالفيتانو لم ينتبه إلا قليلاً. كان يشعر بنفسه مريضاً وكان يعزو ذلك إلى تعب الرحلة في الطائرة ولم يولِهِ انتباهاً. زميل له في الكلّية، فتى من هِرموسيّو، لم يكن قد مضى على إنّهائه الدراسة كثيراً، سأله ما الدوافع التي جعلته يُفضّل جامعةَ سانتا تِرِسا على جامعة برشلونة، آمل ألاّ يكون الطقس، قال الأستاذ الشابّ. الطقس هنا يبدو لي رائعاً، أجاب أمالفيتانو. لا، أنا أيضاً أفكّر مثلك، يا مُعلِّم، قال الشابُّ، قلت ذلك لأنّ الذين يأتون إلى هنا من أجل الطقس هم المرضى، وآمل بصراحةٍ ألاّ تكون مريضاً. لا، قال أمالفيتانو، لم يكن من أجل الطقس، في برشلونة انتهى عقدي وأقنعتني الأستاذة بِرِثْ أن آتي لأعمل هنا. الأستاذة سيلبيا بِرِثْ تعرّفَ عليها في بوينس أيرس والتقيا في برشلونة في مناسبتين. كانت هي من أخذت على عاتقها استئجار البيت وشراء بعض المفروشات، دفعها لها حتى قبل أن يتقاضى راتبه الأوّل، كي لا يُثير أيّ شبهة. كان البيت في

ضاحية ليندابيستا، وهو حيٌّ طبقةٍ وسطى عالية، بأبنية من طابقٍ أو طابقين محاطة بالحدائق، الرصيف حطّمته جذور شجرتين هائلتين، وكان مظلَّلاً ولطيفاً، وإن كان من الممكن أن تُشاهد خلف بعض الأسيجة بيوتٌ في حالة تدهور، كما لو أنّ الجيران هربوا منها على عجلة دون أن يملكوا وقتاً ولا حتى كي يبيعوا ممتلكاتهم وهو ما يُستخلص منه أنّه لم يكن استئجار بيت في الحيّ صعباً، بعكس ما كانت تُؤكّد الأستاذة بِرِثْ. لم يرقْ لهُ عميد كلّية الفلسفة والآداب، الذي قدّمته له الأستاذة بِرِثْ في اليوم الثاني لوجوده في سانتا تِرِسا، . كان يُدعى أوْغوستو غِرّا وكانت بشرتُهُ بشرةَ بدينٍ ضاربة إلى البياض ولامعة، لكنّه كان في الحقيقة نحيلاً وبارزَ العروق. لم يكن يبدو واثقاً من نفسه، بالرغم من أنّه كان يُحاول أن يُخفي ذلك بمزيج من التواضع الراقي والمظهر العسكري. كما أنّه لم يكن يؤمن كثيراً بالفلسفة وبالتالي بتعليم الفلسفة، الموضوع الذي هو في تراجع صريح أمام العجائبِ الحديثة والمستقبلية التي يأتينا بها العلم، قال له، وهو ما ردّ عليه أمالفيتانو بأدب، سائلاً إيّاه عمّا إذا كان يُفكّر الشيءَ ذاته عن الأدب. لا، بحسب من أين يُنظر إليه، الأدب بلى له مستقبل، الأدب والتاريخ، كان قد قال أوْغوستو غِرّا، وإلا فانظر في التراجم، في السابق لم يكد يوجد عرض ولا طلب على التراجم واليوم لا يعمل العالم، كلّ العالم شيئاً آخر غير قراءة التراجم. قلتُ التراجم ولم أقل السيرَة الذاتية. الناس متعطّشون لمعرفة حيواتٍ أخرى، حيواتِ معاصريهم المشهورين، الذين أدركوا النجاحَ والشهرةَ، أو الذين كادوا يُدركونها، أيضاً هم متعطّشون لمعرفة ما عمله التشينكوال القدماء، ليروا ما إذا كانوا سيتعلمون شيئاً، حتى ولو لم يكونوا مستعدين لأن يتحمّلوا الرياضة ذاتها. سأل أمالفيتانو بأدب ماذا أراد أن يقول بكلمة تشينكوال، التي لم يسبق له أن سمعها أبداً. حقّاً؟، سأله أوْغوستو غِرّا. أُقسم لك، قال أمالفيتانو. عندها نادى عميدُ الكلّية الأستاذةَ بِرِث وقال لها: يا سيلبيتا، هل تعرفين معنى

كلمة تشينكوال. عندها أخذت الأستاذة بِرِثْ أمالفيتانو من ذراعه كما لو أنّهما جيبان، واعترفت له بأنّها لا تملك أدنى فكرة، بالرغم من أنّ الكلمة بحدٍّ ذاتها ليست مجهولة كلّياً بالنسبة إليها. يا لها من عصابة وحوش، فكَّرَ أمالفيتانو. كلمة تشينكوال قال أوغوستو غِرّا، لها، مثل جميع كلمات لغتنا، مدلولاتٌ كثيرة. بداية تدل على النقاط الحمراء، هل تعرفان؟ التي تخلِّفُها لدغات البراغيث أو البق على أجسامنا. هذه اللدغات تُسبّب الحكّة، والناس المساكين الذين يعانون منها لا يتوقّفون عن الحكّ، كما هو منطقيّ. من هنا يأتي مدلول آخر، يدلّ على الأشخاص القلقين، الذين يتلوّون ويَحُكّون، لا يتوقّفون عن الحركة ويُثيرون أعصابَ المشاهدين غير الطوعيين، الذين يتأملونهم، لنقل مثل الجرب الأوروبي، مثل الجُرُب الذين يكثرون في أوروبا، الذين يلتقطون هذا المرض من الحمّامات العامّة، أو المراحيض الفرنسية والإيطالية والإسبانية المريعة، ومن هذا المدلول يأتي المدلول الأخير، المدلول الحربي، كما لو أنّنا نقول إنّه يُشير إلى المسافرين، إلى مغامري العقل، إلى الذين لا يستطيعون أن يمكثوا هادئين *عقليّاً*. آه، قال أمالفيتانو. رائع، قالت الأستاذة بِرِثْ. أيضاً حضر ذلك الاجتماع المرتجل في مكتب عميد الكلّية، الذي اعتبره أمالفيتانو ترحيبياً، ثلاثةُ أساتذة من الكلّية وسكرتيرةُ غِرّا، التي فتحت زجاجة شمبانيا كاليفورنية ووزعت كأساً كرتونيّاً على كلّ واحد منهم وبسكويتاً مالحاً. ظهر بعدها ابنُ غِرّا، وهو شخص يُقارب الخامسة والعشرين من عمره، يضع نظارة سوداء ويرتدي بدلةً رياضيّة، جسمه برونزي جدّاً، قضى الوقتَ كلّه في زاوية يتكلّم مع سكرتيرة أبيه وينظر من حين لآخر إلى أمالفيتانو بتعبير وجهٍ ظريف.

في الليلة السابقة على الرحلة سمع أمالفيتانو الصوتَ لأوّل مرّة. ربّما سمعه قبل ذلك في الشارع أو وهو نائم وظنّ أنّه جزء من حديث

غريب أو أنّه رأى كابوساً. لكنّه سمعه في تلك الليلة ولم يُداخله أدنى شكّ بأنّه كان موجّهاً إليه. ظنَّ في البداية أنّه جُنَّ. قال الصوتُ: مرحباً، يا أوسكار أمالفيتانو، أرجوك لا تخفْ. لا شيءَ سيّئٌ يحدث. خافَ أمالفيتانو، نهضَ، وتوجَّه راكضاً إلى غرفة ابنته. كانت روزا تنام بوداعة. أشعل أمالفيتانو النورَ وتفقّد قفلَ النافذة. استيقظت روزا، سألته ماذا يحدث له. ولبس ماذا يحدث. لا بدّ أنَّ وجهي مريعٌ، فكّر أمالفيتانو. جلس على كرسيّ، وقال لها إنّه في غاية العصبيّة، إنّه ظنّ أنّه سمع جلبة، وإنّه نادم لأنّه جاء بها إلى هذه المدينة الموبوءة. لا تقلق، لم يحدث شيء، قالت روزا. قبّلها أمالفيتانو قبلة على خدِّها، داعبَ شعرها وخرج مغلقاً الباب وراءه، لكن دون أن يُطفئ النور. بعد برهة وبينما كان ينظر عبر نافذة الصالون إلى الحديقة والشارع وأغصانِ الأشجار الساكنة، سمع روزا تُطفئ النور. خرج من الجانب الخلفي دون أن يحدث ضجّة. كان بودّه لو كان عنده مصباح يدويّ، لكنّ لا همّ فقد خرج. لم يكن هناك أحد. كان على المنشر كتاب *الوصيّة الهندسية* وبعض جواربه وبعض بنطلونات روزا. طاف في الحديقة. لم يكن هناك أحد في رواق المدخل، اقترب من السياج وتفحّصَ الشارعَ، دون أن يخرج، ولم يرَ غير كلبٍ كان يتوجّه مباشرة إلى جادّة مادِرو، إلى موقف الحافلات. كلب يتوجّه إلى موقف الحافلات، قال أمالفيتانو لنفسه. ظنّ، من المكان الذي كان فيه، أنّه رأى أنَّ الكلب لم يكن من سلالة معروفة، كان أيَّ كلبٍ، كلباً هجيناً[1]، فكَّرَ أمالفيتانو. ضحكَ في داخلِهِ. هذه الكلمات التشيلية، هذه التلافيف في الدماغ. حلبة الجليد تلك، التي كانت بحجم مقاطعة أتاكاما، حيث لم يكن اللاعبون يرون أبداً لاعباً خصماً ولا يرون إلاّ في مرّات قليلة ومتباعدة لاعباً من فريقهم ذاته. عاد ليدخل إلى البيت. قفل بالمفتاح، أمّن

---

(١) Quiltro كلمة مابوتشية لا تستخدم إلا في تشيلي وتعني كلباً، أو كلباً هجيناً.

النوافذ، أخرج من المطبخ سكيناً، قصيرة النصل وقويّة، تركها بجانب تاريخ الفلسفة الألمانية والفرنسية من ١٩٠٠ إلى ١٩٣٠، وعاد ليجلسَ أمام الطاولة. قال الصوتُ: لا تعتقد أنَّ هذا سهل عليَّ. إذا اعتقدتَ أنّه سهل عليّ فأنت تخطئ مئة بالمئة. هو بالأحرى صعب. تسعون بالمئة. أغمض أمالفيتانو عينيه وفكّر أنّه يُجنُّ. لم يكن عنده مُهدِّئات في البيت. نهض. ذهب إلى المطبخ وألقى ملءَ يديه ماءً على وجهه. نشّفه بخرقة المطبخ وبكمَّيْهِ. حاول أن يتذكّر اسم الظاهرة الصوتية التي كان يمرّ بها في الطب النفسي. عاد إلى مكتبه وجلس مرّة أخرى بعد أن أغلق الباب، منخفضَ الرأس ويداه على الطاولة. قال الصوتُ: أرجوكَ أن تعذرني، أرجوكَ أن تهدأ. أرجوكَ ألا تعتبر هذا تدخّلاً في حرّيتك. في حرّيّتي؟، فكّر أمالفيتانو مفاجَأً بينما هو يصل إلى النافذة بقفزةٍ واحدةٍ ويفتحها ويتأمّل جانباً من الحديقة والجدار أو سياج البيت المجاور المزروع بشظايا الزجاج والانعكاسات التي تستخلصها مصابيح الشارع من شظايا القناني المكسورة، الانعكاسات ذات الألوان الخضراء والبنّية والبرتقالية الخفيفة، كما لو أنّ السياج في تلك الساعاتِ من الليل لا يعود سياجاً دفاعيّاً ويتحوّل، أو يلعب دورَ السياج الديكوري، إلى عنصرٍ صغير في تصميم رقصةٍ، ولا حتى المصمّم الظاهري للرقصة، السيد إقطاعي البيت المجاور، كان قادراً على أن يتعرّف عليها ولا حتى في أبسطِ أجزائها، تلك التي كانت تؤثّر على الاستقرار، على اللون، على وضعية اختراعهِ الهجومية أو الدفاعية. أو كما لو أنّ نبتة متسلّقة كانت تنمو فوق السياج، فكّر أمالفيتانو قبل أن يُغلِق النافذة.

في تلك الليلة لم يظهر الصوتُ ثانيةً فنام أمالفيتانو بشكل سيّئ جدّاً، نوماً تُعكّره قفزات وارتعاشات، كما لو أنّ أحداً يخدشه في ذراعيه وساقيه، بينما جسده مبلّل بالعرق، وإن توقّف الضيق في

الخامسة صباحاً وظهرت لولا في الحلم تُحيّيه من حديقة عامّة، عالية السياج الحديدي (كان هو على الجانب الآخر) ووجها صديقين مضى زمن طويل لم يرهما فيه (وربّما لن يعود ليراهما أبداً) وغرفة مليئة بكتب الفلسفة المغطاة بالغبار، لكنّ هذا لم يكن يُقلّل من روعتها. في تلك الساعة ذاتها عثرت الشرطة على جثّة مراهقة أخرى، شبه مطمورة في عقار مهجور في إحدى ضواحي المدينة، وريح قويّة كانت قادمة من الغرب، راحت لتنفجر على سفح الجبال الشرقيّة، حاملة الغبارَ وأوراقَ الصحف والكرتون المرميّة في الشارع عند مرورها في سانتا تِرِسا ومحرّكة الثياب التي كانت قد علّقتها روزا في الحديقة الخلفيّة، كما لو أنّ الريح، تلك الريح الفتيّة والقويّة والقصيرة الحياة تُجرِّب قمصان وبنطلونات أمالفيتانو وتدخل في سراويل ابنته الداخلية تقرأ بعض صفحات *الوصيّة الهندسيّة* لترى ما إذا كان فيها شيء يُفيدها، شيء يُوضّح لها المنظرَ الغريب لشوارع وبيوتٍ كانت تخبّ عبرها، أو توضّحه هي لنفسها كريح.

في الثامنة صباحاً جرجر أمالفيتانو نفسه إلى المطبخ. سألتهُ ابنتُهُ عمّا إذا كانت ليلته سعيدة. سؤال بليغ ردّ عليه أمالفيتانو هازّاً كتفيه. حين ذهبت روزا لتشتري مأكولاتٍ لليوم الذي كانا يُفكّران بأن يقضياه في البرّية، حضّر لنفسه فنجان شايٍ بالحليب وذهب ليتناوله في الصالون. فتح بعدها الستائر وتساءل عمّ إذا كان في حالة تؤهله للذهاب إلى النزهة التي اقترحتها الأستاذة بِرِث. قال نعم، وإنّ ما جرى له البارحة ربّما كان ردَّ جسدِهِ على هجومِ فيروس محلّيٍّ أو بداية زكام. قاسَ حرارتَهُ قبل أن يدخل إلى الحمّام. لم يكن عنده حرارة. بقي عشر دقائق تحت دفق الماء، وهو يُفكّر بتصرّفه في الليلة الماضية، الذي تسبّب له بالخجل بل واستطاع أن يجعله يحمرّ خجلاً. كان يرفع رأسه من حين لآخر كي ينزل الماء على وجهه مباشرة. طعم الماء مختلف عن

طعمه في برشلونة. بدا له أنّه في سانتا تِرِسا أكثر كثافة، كما لو أنّه لم يمرّ في أيّ مصفاة، ماء مُحَمّل بالمعادن، بطعمِ التراب. اكتسب في الأيّام الأولى عادة غسل الأسنان، الذي شاطر روزا به، ضعفَ المرّات التي كان يغسلها في برشلونة، فقد كان لديه انطباع بأنّ أسنانه كانت تسودُّ، كما لو أنّ طبقة من مادّة منبثقة من أنهار سونورا الجوفية، راحت تُغطّي أسنانه. ومع ذلك عاد مع مرور الزمن لينظّف أسنانه بالفرشاة ثلاث أو أربع مرّاتٍ في اليوم. بقيت روزا، المهتمّة بمظهرها أكثر منه بكثير، تُنَظِّفها ستّ أو سبع مرّات. في دروسه رأى بعضَ الطلاّبِ أسنانهم بلون المغرة. كانت أسنان بِرِث بيضاء. سألها مرّة: عمّا إذا كان صحيحاً أنّ مياه هذا الجزء من سونورا يُسوّد الأسنان. لم تكن الأستاذة بِرِث تعرف. هذه أوّل مرّة أسمع فيها بهذا الخبر، قالت له، ووعدت بالتحقّق منه. ليس لهذا أهمّية، قال أمالفيتانو مُستنفراً، ليس لهذا أهمّية. اعتبري أنّني لم أسأل شيئاً. لاحظ في وجه الأستاذة بِرِث أثرَ قلقٍ، كما لو أنّ السؤال كان يُخفي سؤالاً آخر، عدوانياً جدّاً أو جارحاً. يجب الانتباه إلى الكلمات، قال أمالفيتانو تحت دفق الماء، وهو يشعر بأنّه استعاد نفسه تماماً، وهو ما كان يشكّل دون شكّ برهاناً على طبيعته غير المسؤولة في كثير من الأحيان.

عادت روزا بصحيفتين تركتهما على الطاولة وشرعت تُحضّر شطائر جامبو أو تونا مع الخسّ وشرائح البندورة والمايونيز أو الصلصة الورديّة، لفّتها بورق مطبخٍ وورق ألمنيوم، وضعتها كلّها في كيس بلاستيكيّ وضعته في حقيبةٍ ظهر صغيرة بنّية اللون، يُقرأ عليها بشكل نصف دائريّ، جامعة فونيكس، كذلك وضعت زجاجتي ماء وبضع عشرة كؤوس ورقيّة. في التاسعة والنصف سمعا بوقَ سيارة الأستاذة بِرِث. كان ابن الأستاذة بِرِث في السابعة عشرة من عمره، قصيرَ القامة، مربّع الوجه، عريض المنكبين، كما لو أنّه يُمارس رياضةً ما.

كان وجهه وجزء من رقبته مليئين بالبثور. كانت الأستاذة بِرِثْ ترتدي بنطلون جينز وقميصاً ولفافة أبيضي اللون. تُغطي عينيها نظارةٌ سوداء، ربّما كانت أكبر من اللازم. تبدو من بعيد، فكّر أمالفيتانو، ممثّلة من سينما السبعينيات المكسيكية. حين دخل إلى السيارة تبخَّرَ السراب. كانت الأستاذة بِرِثْ تسوق فجلس إلى جانبها. توجّهوا نحو الشرق. كان الطريق يمرّ في الكيلومترات الأولى عبر وادٍ صغير مليء بالنتوءات الصخرية التي تبدو منسلخة عن السماء. قطع غرانيت لا أصلَ لها ولا استمراريّة. كان هناك بعض المزارع، والبقع التي يزرعها فلاحون غير مرئيّين بأشجار فواكه، لا الأستاذة بِرث ولا أمالفيتانو عرفا فكّ طلاسمها. هناك كان آباء الصخور اليتيمة التي خلّفوها وراءهم توّاً. تشكيلات غرانيتية، بركانيّة، ترتسم قممها في السماء على شكلٍ وطريقةِ الطيور، لكّنها طيورُ ألم، فكّر أمالفيتانو، بينما الأستاذة بِرِثْ تُكلّم الفتيين عن المكان الذي كانوا يتوجّهون إليه، مصوِّرة إيّاه بألوان تتأرجح بين الاستجمام (مسبح محفور في الصخر الحيّ) واللغز، كانت تقدّرها في الأصوات التي كانت تُسمع من المطلّ، طبعاً، كانت الريح هي التي تحدثها . حين أدار أمالفيتانو وجهه كي يرى تعبير وجه ابنته وابن الأستاذة بِرِث رأى أربع سيارات تنتظر خلفهم فرصة أن تسبقهم. تصوّر داخل تلك السيارات أسراً سعيدةً، أمّاً، حقيبة سيران مليئة بالمأكولات، ابنين وأباً كان يسوق ونافذته مفتوحة. ابتسم لابنته وعاد لينظر إلى الطريق. صعدوا بعد نصف ساعة منحدراً من حيث استطاع أن يتأمّل امتداداً فسيحاً من الصحراء خلفه. رأى مزيداً من السيارات. تصوّرَ فندقاً أثرياً أو مكانَ سيران في الطبيعة أو مطعماً أو فندقاً يتوجّهون إليه، صار موضةً بالنسبة إلى سكّان سانتا تِرِسا. ندم لأنّه قبل الدعوة. سرقه النوم في بعض اللحظات. استيقظ حين وصلوا. يدُ الأستاذة بِرِث على وجهه، الحركة التي يمكن أن تكون مداعبة أو شيئاً آخر. بدت له يدَ عمياء. لم تعد روزا ولا رافائيل داخل السيارة. رأى

مرآباً يكادُ يكون مليئاً، الشمس تغلي على السطوح الفضية، فناءً مكشوفاً موجوداً في مستوى أعلى قليلاً، اثنين أحاط كلّ منهما بيدِهِ كتفَ الآخر، يتأملان شيئاً لم يكن باستطاعته أن يراه، السماء المبهرة، موسيقى بعيدة وصوتاً كان يُغنّي أو يهمس بسرعة عالية، تجعل كلمات الأغنية غير مفهومة. على بعد سنتيمتراتٍ قليلة منه رأى وجه الأستاذة بِرِتْ. أخذ يدها وقبّلها، كان قميصه مبلّلاً بالعرق، لكن أكثر ما أدهشه هو أنّ الأستاذة كانت تَغرِق أيضاً.

كان النهار بالرغم من كلّ شيءٍ لطيفاً. سبحت روزا ورافائيل في المسبح، انضمّا بعدها إلى الطاولة من حيث كان أمالفيتانو والأستاذة يتأملانهما. اشتريا بعدها مرطبات وخرجا ليتنزّها حول المكان. كان الجبل يسقط في بعض الأماكن على وجهه، في عمق أو في جدران الجرف كانت تُرى شقوقٌ كبيرة تُطلّ منها حجارة من ألوان أخرى أو أنّ الشمس كانت بينما هي تهرب نحو الغرب، تجعلها تبدو من ألوان أخرى، حجارة رسوبيّة وناريّة مكبلة بتشكيلات حجرية رملية، جروف عمودية من صخور كلسيّة مُخَرّمة وألواح من حجارة بازلتية كبيرة. كانت تظهر من حين لآخر شجرة صبّارٌ من سونورا متدلية من الجبل. فيما وراء ذلك جبال أخرى ثمّ وديان صغيرة ومزيد من الجبال، حتى الوصول إلى منطقة يغشيها البخارُ بالضباب كأنّها مقبرة غيوم، خلفها كانت تشيهواهوا ونيومكسيكو وتكساس. أكلا جالسين على بعض الحجارة وهما يتأملان هذا المنظر الرحب بصمت. تبادلت روزا ورافائيل الكلمات فقط كي يتبادلا شطائرهما. كانت الأستاذة بِرِتْ تبدو غارقة في أفكارها ذاتها وأمالفيتانو يشعر بنفسه مُتعَباً ومثقلاً بالمنظر، المنظر الذي بدا له أنّه فقط للشباب، أو العجائز البلهاء أو العجائز فاقدي الإحساس أو العجائز الأشرار المستعدّين لأن يَجهَدوا ويُجهِدوا أنفسهم في عمل مستحيل حتى آخر نفس عندهم.

في تلك الليلة بقي أمالفيتانو مستيقظاً حتى وقت متأخّرٍ جدّاً. أوّل شيءٍ فعله حين وصل إلى البيت هو أنّه ذهب إلى الحديقة الخلفية ليتأكّد مما إذا كان كتاب دييستِ ما يزال هناك. حاولت الأستاذة بِرِتْ خلال العودة أن تكون ظريفةً وتبدأ حواراً يشملُ الأربعة، لكنَّ ابنها نام ما إن بدؤوا الهبوط وفعلت روزا بعده بقليل الشيء ذاته، ساندةً وجهها إلى النافذة. لم يتأخّر أمالفيتانو في اتباع مثلِ ابنته. حلم بصوت امرأة لم يكن صوت الأستاذة بِرِتْ، بل صوت فرنسيّة، تُكلّمه عن رموز وأرقام وعن شيء لم يكن أمالفيتانو يفهمه، ويُسمّيه صوتُ حلمِهِ «قصّة مُفكّكة» أو «قصّة مُفكّكة ومعاد تركيبها»، بالرغم من أنّ القصّة المعاد تركيبها كانت تتحوّل إلى شيءٍ آخر، إلى تعليق على الهامش، إلى ملاحظة ذكيّة، إلى قهقهة تتأخّر حتى تنطفئ وكانت تقفز من صخرة ناريّة إلى صخرة نارية مضغوطة ثمّ إلى صخرة كلسيّة ومن هذه المجموعة من الصخور ما قبل التاريخية كان ينبثق نوعٌ من الزئبق، من المرآة الأمريكية، كان يقول الصوتُ، مرآة الثراء والفقر والتحوّلات الأمريكية الحزينة المستمرة وغير المُجدية، المرآة التي تُبحر وأشرعتُها الألمُ. بدّل بعدها أمالفيتانو حلمه ولم يسمع بعدها الصوتَ وهو ما يمكن أن يدلّ على أنّه نامَ بعمقٍ، وحلم بأنّه يقتربُ من امرأة، من امرأة مكوّنة فقط من ساقين، في نهاية ممرٍّ مظلم وسمع بعدها أحداً يضحكُ من شخيره، ابن الأستاذة بِرِتْ، وفكّر: هذا أفضل. استيقظَ حين كانوا يدخلون إلى سانتا تِرِسا من طريق الشرق، الطريق المزدحم بالشاحنات المضعضعة والشاحنات الصغيرة قليلة الأحصنة العائدة من سوق المدينة أو من بعض مدن أريزونا. لم ينم مفتوح الفمّ وحسب، بل كانت قبّة قميصه مبلّلة باللعاب. أفضل، فكّر، هذا أفضل بكثير. عندما نظر بتعبير الرضا إلى الأستاذة بِرِت، لاحظ عليها مسحة خفيفة من الحزن. بعيداً عن نظر ابنيهما، داعبت الأستاذة ساق أمالفيتانو بنعومة، بينما كان هذا يدور برأسه ويتأمّل بسطةَ شطائر، حيث كان اثنان من الشرطة

يتناولان البيرة ويتكلّمان ويتأمّلان، ومسدساهما متدليان على وركيهما، الغروبَ الأحمر والأسود، مثل قدر شطّةٍ كثيفة كان فورانه الأخير ينطفئ في الغرب. حين وصلوا إلى البيت لم يكن هناك نور لكنّ ظلَّ كتاب ديبستِ الذي كان معلّقاً إلى المنشر كان أكثرَ وضوحاً، أكثرَ ثباتاً، أكثرَ معقولية من كلّ ما رآه خارج قطر سانتا تِرِسا وفي المدينة ذاتها، صور بلا مقابض، صور تحتوي بحدّ ذاتها على يُتْم ً العالم كلّه، مزق، مزق.

انتظر في تلك الليلة الصوتَ خائفاً. حاول أن يُحَضّر درساً، لكنّه سرعان ما انتبه إلى أنّ تحضيرهُ لشيء كان يعرفه حتى الإشباع مهمّة غير مجدية. فكّر أنّه إذا رسم على ورقة بيضاء كانت أمامه ستظهر مرّةً أخرى تلك الأشكال الهندسيّة الأوّلية. وهكذا رسم وجهاً ثمّ محاه ثمّ انطوى على ذكرى ذلك الوجه الممزّق. تذكّر (لكن كما لو عبوراً، كمن يتذكّر صاعقة) رايموندو لوليو وآلته العجيبة. العجيبة لعدم فائدتها. عندما عاد ونظر إلى الورقة البيضاء كان قد كتب، في ثلاثة صفوف عموديّة الأسماء التالية:

بيكو ديلا ميرادولا	هوبّيز	بوثيوس
هوسرل	لوك	ألكسندر أوف هيلز
يوجين فينك	إريك بيشار	ماركس
ميرلوبونتي	ويتجنستاين	ليشتنبرغ
بيدا الموقّر	لول	ساد
سان بوينافينتورا	هيغل	كوندروسيه
جوان فيلوبونوس	باسكال	فورييه
القديس أوغسطين	كانيتي	لاكان
شوبنهاور	فرويد	لسينغ

قرأ أمالفيتانو الأسماءَ برهةً وأعاد قراءتها، أفقيّاً وعموديّاً، من المركز إلى الجوانب، من الأسفل إلى الأعلى، قفزاً واعتباطاً، ثمّ ضحك وفكّر أنّ كلّ ذلك كان حقيقة بدهية، أي مقولة واضحة أكثر من اللازم، وبالتالي من غير المجدي أن تُصاغ. تناول بعدها كأساً من ماء الحنفيّة، من ماء جبال سونورا، وبينما كان ينتظرُ أن ينزل الماء في حنجرته توقّف عن الارتجاف، الارتجاف غير المحسوس، وكان وحده قادراً على الشعور به، راح يُفكّرُ بمياه سييرّا مادرِ الجوفية التي كانت تجري وسط الليل اللامتناهي نحو المدينة، وكذلك فكّرَ في المياه الجوفيّة الأقرب إلى سانتا تِرِسا، وبالمياه التي تصبغ الأسنان بطبقة ناعمة من المغرة. ثم وبعد أن شرب الكأسَ نظر عبر النافذة ورأى ظلاً متطاولاً، ظلَّ تابوت، كان يسقطه كتابُ دييستِ المعلّق على أرضِ الفناء.

لكنّ الصوتَ عاد وقال وتوسّل إليه هذه المرّةَ أن يتصرّف كرجلٍ، وليس كلائط. لائط؟، استغرب أمالفيتانو. بلى لائط، ملوط، عاهر، قال الصوتُ. مِثْ-ليّ، قل الصوتُ. وعلى الفور سأله عمّا إذا كان حقيقةً واحداً من هؤلاء. ممّن؟، سأل أمالفيتانو، مذعوراً. مِثْ-ليّ، قال الصوتُ. ثمّ وقبل أن يردَّ أمالفيتانو، سارع الصوتُ ليُوضّح بأنّه كان يتكلّم بالمعنى المجازي، وإنّه ليس ضدّ اللوطيين، أو العهّار، بل على العكس، كان يشعر تجاه بعض الشعراء الذين مارسوا هذه النزعة الأيروسية بإعجاب غير محدود، هذا كيلا يتكلّم عن رسامين أو عن بعض المُوظّفين. عن بعض المُوَظّفين؟، سأل أمالفيتانو. بلى، بَلى، بلى، قال الصوتُ، مُوَظّفون بفعةٌ جدّاً، وعاشوا زمناً قصيراً. ناس دنّسوا ورقاً رسميّاً بدموع غير واعية، قتلوا أنفسهم بأيديهم. بعدها صمت الصوتُ وبقي أمالفيتانو جالساً في مكتبه. بعدها بكثير، ربّما بعد

ربع ساعة أو ربّما في الليلة التالية، قال الصوتُ: لنفترضْ أنّني جدُّكَ، أبو أبيك، ولنفترِضْ أنّني أستطيع كجدّ أن أسألك سؤالاً ذا طبيعة شخصيّة. أنت تستطيع أن تُجيبني أو لا تجيبني إن شئت، لكن أنا أستطيع أن أسألك. جدّيّ؟، استغرب أمالفيتانو. بلى، جدُّك، جُدَيدك، قال الصوتُ. والسؤال هو: هل أنت عاهر، هل ستخرج من هذه الغرفة هارباً، هل أنت مِثْ-ليّ، ستذهب لتوقظ ابنتَك؟ لا، قال أمالفيتانو. أنا اسمعُ. قُلْ ما عليك أن تقوله لي.

وقال الصوتُ: هل أنت كذلك؟ هل أنت كذلك؟ وأمالفيتانو قال لا ونفى برأسه. لن أخرج جارياً. لن يكون ظهري ولا نعل حذائي آخر ما ستراه منّي، هذا إذا كنتُ ترى. وقال الصوتُ: أرى، أرى، بمعنى أرى، بصراحة لا. أو ليس كثيراً. يكفيني جهداً بقائي هنا. أين؟، سأل أمالفيتانو. في بيتكَ، أظنّ، قال الصوتُ. هذا بيتي، قال أمالفيتانو. بلى، أفهم، قال الصوتُ، لكن لنحاول أن نسترخي. أنا مسترخٍ، قال أمالفيتانو، أنا في بيتي. وفكّر: لماذا ينصحني بأن أسترخي؟، وقال له الصوتُ: أعتقدُ أن علاقة طويلة تبدأ اليومَ، وآمل أن تكون مُرْضِيَة. لكنّ لأجل ذلك من الضروريّ أن تحافظ على هدوئك، وحده الهدوء غير قادر على أن يخوننا. وقال أمالفيتانو: وهل كل ما عداه يخوننا؟ والصوتُ: بلى، بالفعل، بلى، صعب قبوله، أريد أن أقول قاس أن يكون عليّ أن أعترف به أمامك، لكن هذه هي الحقيقة الخالصة. هل الأخلاقُ تخوننا؟ هل الشعور بالواجب يخوننا؟ هل النزاهة تخوننا؟ هل الفضولُ يخوننا؟ هل الحبُّ يخوننا؟ هل الشجاعة تخوننا؟ هل الفنُّ يخوننا؟. الحقيقة بلى، قال الصوتُ، كلُّ شيء، كلُّ شيء يخوننا، أو يخونُك أنت، وهذا شيء آخر، لكن بالنسبة للحالة هو ذاته، إلاّ الهدوء، وحده الهدوء لا يخوننا، وهو أيضاً لا يشكّل أيّ ضمان، اسمح لي بأن أعترف لك. لا، قال أمالفيتانو، الشجاعةُ لا تخوننا

أبداً. ولا حبُّ الأبناء. آه، لا؟، استغرب الصوتُ. لا، قال أمالفيتانو وهو يشعر فجأة بالهدوء.

ثم سأل هامساً، ككلّ ما قاله حتى تلك اللحظة، عمّا إذا كان الهدوء، في هذه الحالة نقيض الجنون. وقال له الصوتُ: ولا بشكلٍ من الأشكال، إذا كان ما بك خوفاً من أن تُجَنّ، فلا تقلقْ، أنت لا تُجنّ، أنت فقط تُقيم مُحادثةً غير رسميّة. هكذا إذنْ أنا لا أُجنّ، قال أمالفيتانو. الحنون، قال الصوتُ. هكذا إذن كلّ شيءٍ يخوننا، بما في ذلك الفضولُ والنزاهةُ وما نُحبُّ. بلى، قال الصوتُ، لكن اطمئن، ففي الحقيقة هذا ظريف.

لا توجد صداقة، قال الصوتُ، لا يوجدُ حبٌّ، لا توجدُ مَلحمة، لا يوجد شعر غنائيّ، ما لم يكن كركرة، زقزقة أنانيّين، صدْحاً محتالاً، فوران خونة، فوران وصوليين، كركرة لوطيين. لكن ما الذي عندك أنت؟، همس أمالفيتانو، ضدّ المِثليّين؟ لا شيء، قال الصوت. أتكلّم بالمعنى المجازي، قال الصوتُ. هل نحن في سانتا تِرِسا؟، سأل الصوتُ. هل هذه المدينة جزء، وليست قليلة الأهمية من ولاية سونورا؟ بلى، قال أمالفيتانو. إذن ها أنت ترى، قال الصوتُ. أن تكون وصوليّاً شيء، أقولُ، كي أعطي مثلاً، قال أمالفيتانو وهو ينتف شعره كما لو بكاميرا بطيئة، وأن تكون لوطيّاً شيء آخر مختلف جدّاً. أنا أتكلّم مجازاً، قال الصوتُ. أتكلّم كي تَفهَمَني. أتكلّم كما لو أنّني، كما لو أنّك خلفي في مرسم رسّام مِـْث-ليّ. أتكلّم عن مرسم حيث الفوضى مجرّدُ قناع أو نَتَانة مخدِّر خفيفة. أتكلّم من مرسم أضواؤه مطفأة، من حيث عصب الإرادة ينفصل عن بقيّة الجسد كما ينفصل لسان الأفعى عن جسدها ويزحف، مبتوراً ذاتيّاً بين القمامة. أتكلّم من مكانٍ أشياء الحياة فيه البسيطة. هل تُعَلّم أنت الفلسفةَ؟ سأل الصوتُ. هل

تُعَلّم ويتجنستاين؟، سأل الصوتُ. وهل سألتَ نفسك عمّا إذا كانت يدُك يداً؟ سأل الصوتُ. سألتُ نفسي، قال أمالفيتانو. لكن عندك الآن أشياء أهمّ تسأل نفسك عنها، هل أنا أُخطئ، قال الصوتُ. لا، قال أمالفيتانو. لماذا لا تذهب إلى محل حبوب وتشتري بذوراً ونباتاتٍ بل وحتى شُجيرة صغيرة وتزرعها وسطَ حديقتك الخلفيّة؟، سأل الصوتُ. بلى، قال أمالفيتانو، فكّرتُ بحديقتي الممكنة والمحتملة وبالنباتات التي أحتاج لشرائها وبالأدوات التي أنفذ بها ذلك. أيضاً فكّرتَ بابنتكِ، قال الصوتُ، وبعمليات القتلِ التي تُرتكب يوميّاً في هذه المدينة وبغيوم بودلير اللوطية، (عذراً)، لكنّك لم تُفكّر جدّياً بمّا إذا كانت يدُك هي حقيقة يدك. ليس صحيحاً، قال أمالفيتانو، فكّرتُ بذلك، فكّرتُ بذلك. لو أنّك فكّرتَ، قال الصوتُ، لاختلفَ الأمر معك. وبقي أمالفيتانو صامتاً وشعر بأنّ الصمتَ نوعٌ من الاصطفائية. نظر إلى الوقت في ساعته. كانت الساعة الرابعة صباحاً. سمع أحداً يُدير محرّك سيارته. تأخّرت السيارة في الإقلاع. نهض وأطلّ من النافذة. كانت السيارات المصفوفة مقابل بيته فارغة. نظر إلى الخلف ثمّ وضع يده على قبضَة القفل. قال الصوتُ: حذارِ، لكنّه قالها كما لو أنّه موجود في مكان بعيد جدّاً، في عمق هوّة من حيث تُطلّ قطع حجارة بركانية، ناريّة وسيطة، عروق فضّة وعروق ذهب، أغمار متحجّرة مغطاة ببيوض صغيرة، بينما تطيرُ في السماء البنفسجية كجلد هنديّة مقتولة ضرباً بالعصي، كلابُ صيدٍ فئران حمراء الذيل. خرج أمالفيتانو إلى الرواق. إلى اليسار على بعد قرابة العشرة أمتار من بيته، سيارة سوداء أشعلت أضواءها وأقلعت. حين مرّت أمام الحديقة انحنى السائق وراح يتأمّل أمالفيتانو دون أن يتوقّف. كان شخصاً بديناً، شديدَ سواد الشعر، يرتدي طقماً رخيصاً ومن دون ربطة عنق. حين اختفى عاد أمالفيتانو إلى البيت. مظهره غير مريح، قال له الصوتُ، ما إن فتح بابَ المدخل. ثمَّ: عليك أن تلزم الحذر، يا رفيقي، يبدو لي أنّ الأمور هنا متوتّرة جدّاً.

ومَنْ أنتَ وكيفَ وصلتَ إلى هنا؟ سأل أمالفيتانو. لا معنى لأنّ أوضِّح لك هذا، قال الصوتُ. لا معنى له؟، استغرب أمالفيتانو وهو يضحك همساً، مثل ذبابة. لا معنى له، قال الصوتُ. هل أستطيع أن أسألك سؤالاً؟، قال أمالفيتانو. اسألْ، قال الصوتُ. هل حقيقة أنّك شبحُ جَدّي؟، انظرْ بماذا يطلع عليّ، قال الصوتُ. طبعاً لا، أنا روح أبيك. روح جدِّكَ نَسِيَتْكَ. لكنّني أبوك ولن أنساك أبداً. هل فهمت؟ بلى، قال أمالفيتانو. هل فهمت أنّه ليس هناك ما تخافه منّي؟ بلى، قال أمالفيتانو. ابدأ بعمل شيءٍ مفيدٍ ثمّ تفقّد وتأكّد من أنّ كلَّ الأبواب والنوافذ مغلقة تماماً واذهب لتنام. شيء مفيد، مثل ماذا؟، قال أمالفيتانو. مثلاً، اغسل الصحون، قال الصوتُ. أشعل أمالفيتانو سيجارةً وبدأ يعمل ما اقترحه عليه الصوتُ. أنتَ تغسل وأنا أتكلّم، قال الصوتُ. كلّ شيء هادئ، قال الصوتُ. ليس هناك حرب بيني وبينك، وإذا كان يؤلمك رأسك، إذا كان في أذنيك طنين، وفي نبضك تسارع، وفي قلبك خفقان سرعان ما سيزول، قال الصوتُ. ستهدأ، ستُفَكّرُ وتهدأ، قال الصوتُ، بينما أنتَ تعملُ شيئاً فيه منفعة لابنتك ولك. مفهوم، همس أمالفيتانو. حسن، قال الصوتُ، هذا مثل تنظير داخليّ، لكنّه لا يؤلِمُ. مفهوم، همس أمالفيتانو. وغسل الصحون والقدرَ وأزال عنها بقايا المعكرونة والصلصة، وغسل الشوكَ والكؤوسَ ونظّف موقد الغاز والطاولة حيث أكلا، وهو يُدخّن السيجارة تلو الأخرى ويشرب أيضاً ماء من الصنبور مباشرةً. وأخرج في الخامسة صباحاً الثياب المتسخة من الحمّام ثمّ خرج إلى الحديقة الخلفيّة ووضع الملابس في الغسّالة وأدار القرصَ على برنامج الغسيل العادي ونظر إلى كتاب دييستِ الذي كان يتدلى خامداً؛ ثمّ عاد إلى الصالون وبحثت عيناه كعيني مُدمن عن شيء أكثر من التنظيف والترتيب والغسل، لكنّه لم يجد شيئاً فبقي جالساً، وهو يهمس نعم أو لا، أو لا أتذكّر أو يمكن. كلّ شيء على أحسن حال، كان الصوت يقول. كلّ شيء يتعلّق

بأن تتدرّج في الاعتياد. دون أن تصرخ، دون أن تبدأ تتصبّب عرقاً وتقفز.

ارتمى أمالفيتانو بعد السابعةِ صباحاً على السرير ونام مثل طفلٍ، دون أن يخلع ملابسه. في التاسعة أيقظته روزا. منذ زمن لم يشعر أمالفيتانو بمثل تلك الراحة، بالرغم من أنّ الدروس التي أعطاها كانت غير مفهومة إطلاقاً بالنسبة إلى طلاّبِهِ. في الواحدة أكل في مطعم الكلّية وشغل أحد الطاولات المنعزلة التي يصعب جدّاً العثور عليها. لم يكن يريد أن يرى الأستاذة بِرِث، كما لم يكن يريد أن يلتقي بزملائه وأقل منهم بعميد الكلّية، الذي كان كلّ يوم يأكلُ هناك بحسبِ عادته مُحاطاً بالأساتذة وبعددٍ قليل من الطلاّب الذين كانوا يتملّقونه دون توقّف. طلب على طاولةِ عرضِ البار، بما يُشبه الخلسة، فروجاً مسلوقاً وسلطة وتوجّه بكلّ سرعة إلى طاولته، متفادياً الشبابَ الذين كانوا يملؤون في تلك الساعة المطعمَ. راح بعدها يأكلُ ويتابع التفكيرَ بما حدث ليلةَ البارحة. لاحظ بذهول أنّه يشعرُ بنفسه سعيداً بالأحداث التي عاشها توّاً. أشعر أنّني مثل بلبل، فكّر بفرحٍ. كانت جملة بسيطة مستهلكة ومضحكة، لكنّها الجملة الوحيدة التي يمكن أن تُلَخّص حالتَهُ النفسيّة الحاليّة. جهد في أن يهدأ. لم تكن ضحكاتُ الشباب، صراخُهم، وهم ينادون بعضهم بعضاً، قرقعة الصحون، تُساعد على أن يكون ذلك المكانُ الأمثلَ للتأمّل. ومع ذلك انتبه بعد ثوانٍ قليلة إلى أنّه لا يوجد مكان أفضل. مثله، بلى يوجدُ، لكن أفضل منه لا. وهكذا شرب جرعةً طويلة من المياه المعبّأة (التي لم يكن لها طعم مياه الصنبور ذاته، وإن لم يكن طعمها مختلفاً جدّاً عنه) وراح يُفكّرُ. فكّرَ أولاً بالجنون. بالاحتمال الكبير بأنّه كان يُجنّ. دُهش حين انتبه إلى أنّ ذلك التفكير (وربّما الإمكانيّة) لم يكن يُقلّل من حماسه أبداً. ولا من فرحته، حماسي وفرحتي نَمَيا تحت جناحي عاصفة، قال لنفسه. يمكن أنّني

أجنُّ، لكنّني أشعر بالراحة، قال لنفسه. فكّر بالاحتمال، الكبير، بأنَّ الجنونَ، في حال أنّه يُعاني منه، سيزدادُ سوءاً، وعندها سيتحوّل حماسه إلى ألم وعجز وسيتحوّل بخاصّة إلى سببٍ لألمِ وعجزِ ابنته. راجع مُدّخَراته كما لو أنّ في عينيه أشعّة إكس وقدّرَ أن باستطاعة روزا بما يملكه من مال أن تعود إلى برشلونة، بل وسيبقى لديه ما يكفي كي يبدأ. يبدأ ماذا؟، هذا ما فضّل ألاّ يُجيب عليه. تصوّر نفسَهُ حبيسَ مِصَحّ عقليّ في سانتا تِرِسا أو في هِرموسيّو، والأستاذة بِرِتْ كزائرة وحيدة وعرضيّة، يستلم من حين لآخر رسالةً من روزا من برشلونة، حيث ستعمل وتُنهي دراستها، وتتعرّف على فتى كتلانيّ، مسؤولٍ ودود، سيعشقها ويحترمها ويرعاها وسيكون معها لطيفاً، وستنتهي روزا بالعيش معه والذهاب إلى السينما ليلاً وبالسفر إلى إيطاليا أو اليونان في تموز أو آب، ولم يبدُ له الوضع سيّئاً جدّاً. بعدها درس إمكانياتٍ أخرى. طبعاً، قال لنفسه، هو لا يؤمن بالأشباح ولا بالأرواح، بالرغم من أنّ الناس في طفولته في جنوب تشيلي كانوا يتكلّمون عن الخصيلةِ التي كانت تنتظر الخيّالةَ معتليةً غصناً على شجرة، من حيث ترتمي فوق كفلِ الأحصنة حاضنة الفلاّح أو راعي البقر أو المُهرِّبِ من خلف، دون أن تفلته، مثل حبيبةٍ كان عناقُها يُجَنّنُ الخيّالَ والحصان معاً، فيموتان رعباً أو ينتهيان في هاويةٍ، أو السنّور أو غربان البين أو الحيّات أو غيرها الكثير والكثير من الجان والأرواح التي تتعذب أو الشياطين الذين يباضعون النساء أو الشيطانات اللواتي يباضعن الرجال، الشياطين الأدنى درجة الذين كانوا يسكنون سلسلة جبال الشاطئ وسلسلة جبال الإنديز، ولم يكن يؤمن بها، ليس بالضرورة بسبب تكوينه الفلسفي (فشوبنهاور، دون أن نذهب بعيداً، كان يؤمن بالأشباح، وبالتأكيد ظهر أحدها لنيتشهْ وجنّنه) بل بسبب نشأته الماديّة. وهكذا استبعد، على الأقل حتى استنفد خطوطاً أخرى، احتمالَ الأشباح. يمكن للصوت أن يكون شبحاً، وهو ما لم يكن

يستطيع أن يضع يده في النار لأجله، لكنّه حاول أن يعثر على تفسيرٍ آخر. ومع ذلك فالشيء الوحيد الذي اقتنع به، بعد تفكيرٍ طويل، هو احتمال الروح المعذّبة. فكّر بعرّافة هِرموسيّو، مدام كريستينا، القديسة، فكّر بأبيه. قرّر أنّ والده، مهما كان قد تحوّل إلى روح تائهة، ما كان أبداً ليستخدم الكلمات المكسيكية التي استخدمها الصوتُ، لكن من الممكن من جهة أخرى أن تنطبق عليه تماماً مسحة كراهية المثلية الخفيفة. من الصعب إخفاؤها بسهولة، تساءل في أيّ ورطة حشر نفسه. في المساء أعطى درسين آخرين، عاد بعدها مشياً إلى البيت. حين مرّ في الساحة الرئيسيّة لِسانتا تِرِسا رأى مجموعة من النساء تتظاهرن أمام البلديّة. قرأ في إحدى اللافتات: لا للحصانة. في أخرى: كفى فساداً. من رواق البناء الاستعماري القرميدي مجموعة من رجال الشرطة كانوا يُراقبون النسوة. لم يكونوا من قوى حفظ النظام، بل فقط من شرطة سانتا تِرِسا. سمعَ، حين راح يبتعد، أحداً يُناديه باسمه. حين التفت رأى على الرصيف المقابل الأستاذة بِرِث وابنته. دعاهما لتناول مرطبات. شرحا له في المقهى أنّ المظاهرة هي من أجل المطالبة بالشفافية في التحقيقات بعمليات اختفاء وقتل النساء. قالت له الأستاذة بِرِث إنّها تؤوي في بيتها ثلاثاً من نصيرات المرأة من العاصمة الفيدرالية وإنّها تُفكّر أن تقيم هذه الليلة حفل عشاء. بودّي لو تحضر. عبّر أمالفيتانو عن أنّه لا يوجد عنده من ناحيته، مانع. عادت بعدها ابنته والأستاذة بِرِث إلى المظاهرة وتابع أمالفيتانو طريقه.

لكنّ أحداً عاد وناداه باسمه قبل أن يصل إلى البيت. يا مُعلّم أمالفيتانو، سمعهم يقولون له. التفت ولم يرَ أحداً. لم يَعُد في وسط المدينة، كان يسير في جادّة مادِرو والبيوت ذات الطوابق الأربعة أفسحت مكاناً لشاليهاتٍ تُقلّد نوعاً من المساكن العائلية الكاليفورنية في الخمسينيات، البيوت التي راح الزمن يُخرّبها منذ وقت طويل، حين

انتقل سكّانها إلى الضاحية التي يعيش فيها الآن أمالفيتانو. بعض البيوت تحوّلت إلى مرائيب حيث يبيعون أيضاً البوظة وأخرى إلى محلات لبيع وتوزيع الخبز أو لبيع الملابس، دون أن يكون قد أُدْخِل عليها أيّ تعديل عمراني. كثير منها كانت تعرض لافتات تعلن عن أطباء ومحامين متخصّصين بالطلاق والجنايات. وأخرى تعرض غرفاً للإيجار اليوميّ. بعضها قسّمت دون مهارة كبيرة إلى بيتين أو ثلاثة بيوت مستقلّة، لبيع المجلّات والفواكه والخضراوات أو تعد المارَّ بأسنان صناعية بسعر جيّد. عادوا، حين كان أمالفيتانو سيُتابع طريقه، ليُنادوه. عندها رآه. كان الصوتُ يخرج من سيّارة مصفوفة بجانب الرصيف. في البداية لم يعرف الشابَّ الذي كان يناديه. فكّر أنّه أحد طلاّبه. كان يضع نضارة سوداء ويرتدي قميصاً أسود مفتوحَ الأزرار حتى صدره. كان جسده برونزيّاً، كما لو أنّه مغنٍّ حزين أو أحد شخصيات بلايبوي البوتوركيّين. اصعدْ، يا مُعلِّم، لأوصلكَ إلى بيتك. كاد أمالفيتانو يقول له إنّه يُفضّلُ أن يمشي، حين عرّف الفتى بنفسه. أنا ابنُ المُعلّم غِرّا، قال بينما هو ينزل من السيارة من الجهة التي تمرّ فيها السيارات التي كانت تضجّ بها الجادّة في تلك الساعة، دون أن ينظر إلى أيّ جانب، مزدرياً الخطر، الذي بدا لأمالفيتانو مخيفاً إلى أبعد الحدود. اقترب الشابُّ منه بعد أن دار ومدّ له يده وذكّره بالمناسبة التي شربوا فيها الشمبانيا في مكتب أبيه نخبَ انضمامه إلى الكلّية. ليس هناك ما تخافه منّي، يا مُعلِّم، قال، ولم يلبث هذا التصريح أن أدهش أمالفيتانو. وقف الشابّ غِرّا أمامه. كان يبتسم، كما في تلك المرّة، ابتسامة ساخرة وجريئة كابتسامة قنّاصٍ ربّما واثقٍ بنفسه أكثر من اللازم. كان يرتدي بنطلونَ جينز وجزمة تكساسية. داخل السيارة وعلى المقعد الخلفيّ سترة فاخرة لؤلؤيّة اللون ورزّاقة فيها وثائق. كنتُ ماراً من هنا، قال ماركو أنطونيو غِرّا. توجّهت السيارة إلى ضاحية ليندابيستا، لكنّ ابن عميد الكلّية اقترح قبل أن يصلا أن يذهبا ليشربا شيئاً. رفض

أمالفيتانو الدعوة بأدب. إذن ادعني لأشرب شيئاً في بيتك، قال ماركو أنطونيو غِرّا. ليس عندي ما أقدّمه لك، اعتذر أمالفيتانو. كفى كلاماً، قال ماركو أنطونيو غِرّا وأخذ أوّل مفرق. سرعان ما تغيّر المشهد العمراني. إلى الغرب من ضاحية ليندابيستا، كانت البيوت جديدةً ومحاطة في بعض الأماكن بقِفار واسعة وبعض الشوارع لم تكن ولا حتى معبّدة. يقولون إنّ هذه الضواحي هي مستقبل المدينة، قال ماركو أنطونيو غِرّا، لكنّني أعتقد أنّه لا مستقبل لمدينة الهراء هذه. دخلت السيارة مباشرة في ملعبِ كرةِ قدمٍ، يُرى على الجانب الآخر منه عنبران أو مخزنان محاطان بالأسلاك الشائكة. خلف هاتين المنشأتين كانت تجري قناة، أو نُهَيْرٌ، تجرف قمامة الضواحي الموجودة في الشمال. رأيا بجانب قفرٍ آخر سكّةَ الحديد القديمة التي كانت تربط قديماً سانتا تِرِسا بإورِس وهِرموسيّو. اقتربت بعضُ الكلاب بخوف. أنزل ماركو أنطونيو غِرّا زجاجَ النافذة. سأل أمالفيتانو إلى أين كانا ذاهبين. أجاب ابنُ غِرّا إنّهما ذاهبان إلى واحدٍ من تلك المحلات التي ما تزال تُقدّم منكالاً مكسيكيّاً حقيقيّاً.

كان المحل يُسمّى لوس ثانكودوس[1]، وكان مستطيلاً بطول ثلاثين متراً وعرض عشرة أمتار تقريباً. في عمقه منصّة صغيرة حيث كانت تعزف فرق كورّيدو أو أغاني رانتشِرا. لم يكن طول طاولة العرض أقّل من خمسة عشر متراً. كانت المغاسل في الخارج ويمكن للمرء أن يدخل إليها مباشرة عبر الفناء أو عبر ممرّ ضيق من صفيح التوتياء كان يصلها بالمحل. لم يكن هناك ناس كثيرون. النُّدُل الذين كان ماركو أنطونيو غِرّا يعرفهم بأسمائهم حيوهما، لكنّهم لم يقتربوا لخدمتهما. فقط بعض الأنوار كانت مشتعلة. أنصحك بأن تطلب مِثكال

(١) اليعاسيب.

«المنتحرون»، قال ماركو أنطونيو. ابتسم أمالفيتانو بلطف وقال، نعم، لكن قدح واحد فقط. رفع ماركو أنطونيو يده وفرقع بأصابعه. هؤلاء القوّادون يبدون صمّاً، قال. نهض واقترب من طاولة العرض. عاد بعد برهة بقدحين وزجاجة مثكال مليئة حتى منتصفها. جرّبْهُ، قال. أخذ أمالفيتانو رشفة وبدا له جيّداً. في قاع الزجاجة يجب أن يكون هناك دودة، قال، لكنّ بالتأكيد أكلها هؤلاء المتضوّرون جوعاً. بدت نكتة فضحك أمالفيتانو. لكنّني أضمنُ لك أنّه مِثكال «المنتحرون» الأصلي، تستطيع أن تشربه بثقة، قال ماركو أنطونيو. عند الرشفة الثانية فكّر أمالفيتانو بأنّ الأمر يتعلّق بالفعل بمشروب استثنائيّ. ما عادَ يُصَنّعُ، قال ماركو أنطونيو، مثل أشياء كثيرة في هذا البلد البائس. وقال بعد برهة وهو ينظرُ إلى أمالفيتانو: نحن ذاهبون إلى الهاوية، أظنّ أنّك تنتبه إلى ذلك، أليس صحيحاً، يا مُعلّم؟ أجاب أمالفيتانو بأن الوضعَ لم يصل إلى الحدّ الذي علينا أن نفزع فيه، دون أن يُحدّد ما يُشير إليه ويدخل في التفاصيل. هذا يذوب بين أيدينا، قال ماركو أنطونيو غِرّا. السياسيون لا يتقنون الحكم. الطبقة الوسطى لا تُفكّر إلاّ بالذهاب إلى الولايات المتحدة. في كلّ مرّة هناك أناس أكثر يعملون في شركات معفاة من الضرائب. هل تعرف ماذا يمكن أن أفعل لو كنتُ مسؤولاً؟ لا، قال أمالفيتانو. كنتُ سأحرق عدداً منها. عدداً ممَّ؟، سأل أمالفيتانو، وسأُنزِلُ الجيشَ إلى الشارع، حسن، إلى الشارع لا، إلى الطرقات، كي أمنع وصول المزيد من المتضوّرين جوعاً. مراقبة على الطرقات؟ نعم، هو الحلّ الوحيد الذي أراه. ربّما هناك حلول أخرى، قال أمالفيتانو. لقد فقد الناس كلّ احترام، قال ماركو أنطونيو غِرّا، احترامهم للآخرين ولأنفسهم. نظر أمالفيتانو إلى طاولة عرض البار. ثلاثة نُذُلٍ يتهامسون ناظرين إلى طاولتهما. أعتقدُ أنّ من الأفضل لنا أن نذهب، قال أمالفيتانو. أمعن ماركو أنطونيو غِرّا في النُّذُل ووجّه إليهم حركة بذيئة بيده ثمّ ضحك. أخذه أمالفيتانو من ذراعه وجرّهُ إلى موقف

السيارات. كان الليل قد حلّ، وراحت لافتة مضاءة عليها يعسوب تلمع فوق هيكل حديدي. يبدو لي أنّ هؤلاء الناس يكنون شيئاً ضدّك، قال أمالفيتانو. لا تقلق، يا معلّم، قال ماركو أنطونيو غِرّا، أنا مُسلَّح.

حين وصل أمالفيتانو إلى بيته، نسي على الفور الشابّ غِرّا وفكّر أنّه قد لا يكون مجنوناً إلى ذلك الحد، كما كان يعتقد، ولا روحاً تائهة. فكّر بالتخاطر. فكّر بالمتخاطرين الأباتشيين والأراوكنيين. تذكّر كتاباً رقيقاً جدّاً، لا يبلغ إلى المئة صفحة، لشخص يُدعى لونكو كيلابّان، منشوراً في سانتياغو تشيلي في العام ١٩٧٨، أرسله إليه فكاهيّ حين كان يعيش في أوروبا. يُقدّم المدعو كيلابّان نفسه بهذه الاعتمادات: مؤرّخ العرق، رئيس اتحاد تشيلي للسكان الأصليين وسكرتير أكاديمية اللغة الأراوكانيّة. يسمّى الكتابُ *أوهيجينز أَراوكانيّ* ويحمل عنواناً فرعياً: *١٧ برهاناً مأخوذاً من التاريخ السرّي لأراوكانيا*. بين العنوان والعنوان الفرعي كانت الجملة التالية: نصّ معتمد من قبل المجلس الأَراوكاني للتاريخ. تأتي بعدها المقدّمة، التي تقول التالي: «مقدّمة. إذا أردنا أن نعثر عند أبطال استقلال تشيلي عن براهين على قرابتهم مع الأَراوكانيين، لكان من الصعب العثور عليها ومن الأصعب البرهان عليها، لأنه لا تظهر عند الأخوة كارّرا وماكِنّا، وفريرِ ومانوِل رودريغِثْ وآخرين إلاّ الجذور الإيبيرية، لكنّ القرابة الأَراوكانية تظهر تلقائيّاً عند بِرناردو أوهيجينز وللبرهان عليها هناك سبعة عشر برهاناً. بِرناردو ليس الابنَ غيرَ الشرعيّ كما يصفه بكلّ أسف بعضُ المؤرّخين، بينما آخرون لا ينجحون في إخفاء رضاهم. إنّه الابن الشرعي الشهم لحاكم تشيلي ونائب ملك البيرو، أمبروسيو أوهيجينز، الأيرلندي وللمرأة الأَراوكانية، المنتمية إلى إحدى قبائل أراوكانيا الرئيسية. طوّب زواجهم بقانون أدمابّو والغابيتوم العريق ((احتفالية الخطف). سيرة المحرّر تلامس السرّ الأَراوكاني الألفي، تماماً في الذكرى المئوية

الثانية لولادته؛ يقفز من الليترانغ إلى الورق، بمصداقية وحده الحكواتي الماباتشي يتقن فعله». وهناك تنتهي المُقدّمة، الموقّعة من قبل خوسِهْ ر. بينشنيوال، قائد بورتو سابِدرا.

غريبة، فكّر أمالفيتانو والكتاب بين يديه. غريبة، غريبة جدّاً. مثلاً النجمة الوحيدة. ليترانغ: لوح حجري مستوٍ حيث كان الأراوكانيون ينقشون كتابتهم. لكن لماذا وضع النجمة بجانب كلمة ليترانغ ولم يضعها بجانب كلمتي أدلامبو أو الحكواتي الماباتشي؟ هل كان قائد بورتو سابِدرا يعتبرها حكماً أشهرَ من علم؟ ثم الجملة عن كون أوهيجينز ابن زنى أو غير ابن زنى: ليس الابن غير الشرعيّ، كما يصفه بكلّ *أسف* بعضُ المؤرّخين، بينما لا ينجح آخرون في إخفاء رضاهم. هناك التاريخ اليوميّ لِتشيلي، التاريخ الخاص، تاريخ ما خلف الباب. أن يصف بشكل مؤسف أبا الوطن بابن الزنى. أو أن يكتب حول هذه النقطة دون أن ينجح في إخفاء رضاه. يا لها من جُمَلٍ مهمّة، فكّر أمالفيتانو، وتذكّر المرّة الأولى التي قرأ فيها كتابَ كيلابّان، وهو ميت من الضحك، والطريقة التي يقرؤه بها الآن. أمبروسيو إوهيجينز، كأيرلندي لا شكّ كانت نكتة جيدة. أمبروسيو أوهيجينز يتزوّج أراوكانية، لكن بحسب التشريع الأدمابّو وفوق ذلك يتوّجها *بتراديثيونال غابيتوم* أو احتفالية الخطف، بدت له مزحة مروّعة، لا تُحيل إلاّ إلى تمادٍ، إلى اغتصاب، إلى سخرية إضافية مستخدمة من قبل البدين أمبروسيو كي يضاجع الهندية بسلام. لا أستطيع أن أفكّر بشيء دون أن تُطلّ كلمة اغتصاب بعينيها اللتين لثدييٌ أعزل، فكّر أمالفيتانو. بقي بعدها نائماً على الكرسيّ الكبير والكتاب بين يديه. ربّما حلم بشيء. بشيء قصير. ربّما حلم بطفولته. ربّما لا.

استيقظ بعدها وطبخ لابنته وله، حبس نفسه في مكتبه وشعر بنفسه

متعباً بشكلٍ رهيب، غير قادر على تحضير درسٍ، أو على قراءة شيءٍ جدّيٍّ، وهكذا رجع مذعناً إلى كتاب كيلابّان سبعة عشر برهاناً. البرهان الأوّل يحمل عنوان بـ *وُلِدَ في الدولة الأَراوكانية*. هناك يمكن أن يُقرأ ما يلي: «اليِكمونتشي المسماة تشيلي، كانت جغرافياً وسياسيّاً مثل الدولة الإغريقية، مُشَكّلة مثلها دلتا بين خطي العرض ٣٥ و٤٢ على التوالي». دون أن يتوقّف عند بناء الجملة (التي يقول فيها مُشَكّلة، كان يجب أن يقول كانت تُشكل، تفيض فاصلتان على الأقل) أهمّ ما في الفقرة الأولى هو هذا، لنقُلْ، استعداد عسكري. ضربة مباشرة على الذقن، أو صلية من كلّ المدفعية على مركز الخط المعادي. كانت الملاحظة الأولى توضحُ أن يكمونتشي تعني دولة. الملاحظة الثانية كانت تؤكّدُ على أنّ تشيلي كلمة يونانية، ترجمتها كانت «قبيلة بعيدة». تأتي بعدها التدقيقات الجغرافية بالنسبة إلى يكمونتشي تشيلي: «تمتدّ من نهر ماويِّس وحتى تشيليغْوِ، إضافة إلى الغرب الأرجنتيني. لا ثيوداد مادرِ الراعية، أي تشيلي، بمعنى تشيلي، كانت موجودة بين نهري بوتاليوفو وتولتِنْ؛ كما كانت الدولة الإغريقية محاطة بشعوب حليفة وقريبة في الدم، أي التي كانت تطيع الكوغا تشيليتشِيين (أي قبيلة كوغا- التشلية -تشيليتشِس: أهل تشيلي. تشِ: ناس-كما يأخذ كيلابان على عاتقه أن يتذكّر بدقّة) الذين كانوا يعلمونهم العلوم، والفنون، والرياضات وعلم الحرب على وجه الخصوص». بعدها يعترف كيلابّان: «في العام ١٩٤٧ (بالرغم من أنّ أمالفيتانو انتابه شكّ بأنّه قد يكون في هذا التاريخ خطأ وأنّ الأمر لا يتعلق بالعام ١٩٤٧ بل بالعام ١٩٧٤) فتحتُ قبرَ كوريّانكا، الذي كان تحت بيت النار الرئيسي، المُغطّى بحجر مستو. لم يكن قد بقي غير حجر مثقوب واحد، إبريق فخاري، بطة، جوهرة من حجر السبج، مثل رأس سهم لدفع أجرة «االعبور» التي على روح كوريّانكا أن تدفعها لِزينبّمكاوِ، كارونت البحار اليوناني، كي ينقله عبر البحر إلى موطنه الأصلي: جزيرة بعيدة في

البحر. وُزّعت هذه القطع بين المتاحف الأراوكانية في تِموكو، المتحف المستقبلي أباتِ مولينا، بيّا ألِغرِ ومتحف سانتياغو الأراوكاني، الذي سيفتح أبوابه قريباً أمام الجمهور». إنّ ذكر بيّا ألِغرِ يمنح كيلابّان سنداً كي يُضيف إحدى أغرب الملاحظات. يقول: «في بيّا ألِغرِ، التي كانت تُسمّى قبل ذلك واراكولِن، ترقد بقايا القس خوان إغناثيو مولينا، التي جاؤوا به من إيطاليا إلى بلدته الأصلية. كان أستاذاً في جامعة بولونيا، حيث يتصدّر تمثاله مقبرة مشاهير أبناء إيطاليا، بين تمثالي كوبرنيكوس وغاليليو. بحسب مولينا هناك قرابة لا شكّ فيها بين اليونانيين والأراوكانيين» كان مولينا هذا يسوعيّاً عالماً في الطبيعيات وجرت حياته ما بين عامي ١٧٤٠ و١٨٢٩.

عاد أمالفيتانو، بعد حادثة مطعم لوس ثانكودوس بقليل، ليلتقي بابن عميد الكليّة غِرّا. كان الشابُّ يلبس هذه المرّة مثل راعي بقر، بالرغم من أنّه حلق ذقنه وتفوح منه راحة عطر كالفين كلين. ومع ذلك فقط كانت تنقصه القبعة كي يبدو راعي بقر حقيقيّ. الطريقة التي بادره بها كانت فظّة ولا تخلو من بعض الغموض. كان أمالفيتانو يسير في ممرٍّ في الكلّية، مفرط بطوله، مقفر لمعتم قليلاً في تلك ساعة حين انبثق ماركو أنطونيو غِرّا فجأة من إحدى الزوايا، كما لو أنّه حضّر له مزحةً سيّئة الذوق أو أنّه أراد أن يُهاجمه. جفل أمالفيتانو جَفْلةً أتبعها بصفعة آلية تماماً. هذا أنا، ماركو أنطونيو، قال ابن العميد حين تلقى صفعة ثانية. بعدها عرف بعضهما بعضاً وهدأا وسلكا الطريق معاً نحو البقعة الضوئية التي كانت تنبثق في عمق الممر، أوحت لماركو أنطونيو شهادات أولئك الذين كانوا في حالة غيبوبة أو في حالات موت سريري ويقولون إنّهم رأوا نفقاً مظلماً وفي نهاية النفق وهجاً أبيض أو ماسيّاً، بل ويشهدون في بعض الأحيان على وجود أشخاص ميتين وعزيزين يمدون إليهم يد المساعدة ويطمئنونهم، أو ينصحونهم بألاّ يتابعوا

تقدّمهم، فالساعة، أو جُزَيء الثانية التي يتمّ فيها التغيير لم تصل بعد. أنت، ما رأيك يا معلّم. هل الناس الموشكون على الموت يخترعون هذه الترهات أم أنّها حقيقة؟ هل هي مجرّد حلم يحلم به من يُحتَضَرون أم أنها تدخل ضمن احتمال أن تحدث هذه الأشياء؟ لا أعرف، قال أمالفيتانو، بجفاف، فهو لم يخرج بعدُ من الرعب، كما لم تكن به رغبة لتكرار لقاء المرّة السابقة. حسن، قال الشابّ غِرّا، إذا أردت أن تعرف ما أُفكّر به، فأنا لا أظنّ أنّها حقيقة. الناس يرون ما يريدون أن يروه وما يريد أن يراه الناس لا ينطبق أبداً على الواقع. الناس جبناء حتى آخر أنفاسهم. أقول لك سرّاً: الكائن البشري، بالإجمال، هو أقرب ما يكون بين الموجودات إلى اليربوع.

بعكس ما كان ينتظر (أن يتخلّص من الشاب غِرّا ما إن يخرج من الممر الذي يُذكّر بحياة ما وراء القبر)، اضطُرّ أمالفيتانو لأن يتبعه، دون أن ينبس ببنت شفة، فابن العميد كان حاملاً لدعوة عشاء في تلك الليلة ذاتها في بيت رئيس جامعة سانتا تِرِسا، الدكتور الشهير بابلو نِغْرِتِ. وهكذا صعد إلى سيّارة ماركو أنطونيو، الذي حمله إلى بيته وفضّل، بنوع من الخجل، بدا لأمالفيتانو غير متوقّع، أن ينتظره في الخارج يحرس السيّارة، كما لو أنّ في هذه الضاحية يوجد لصوص، بينما مكن أمالفيتانو يترطّب ويبدّل ملابسه، وابنته، التي كانت بالطبع مدعوّة، تفعل الشيءَ ذاته أو لا، يعني أنّ ابنته تستطيع أن تذهب إلى العشاء مرتدية ما تشاء، لكن من الأفضل له، هو، أمالفيتانو، أن يمثل في بيت الدكتور نِغْرِتِ مرتدياً على الأقل سترة وربطة عنق. من ناحية أخرى لم يكن العشاء شيئاً من العالم الآخر. ببساطة كان الدكتور نِغْرِتِ يريد أن يتعرّف عليه وافترض، أو لفتوا انتباهه إلى أنّ لقاء أوّلياً في مكاتب بناء رئاسة الجامعة أكثر برودة من لقاء أوّلي في جوّ بيته الحميم، في الحقيقة كان بيتاً كريماً مؤلفاً من طابقين، محاطاً بحديقة واسعة تنمو فيها نباتات

من كلّ المكسيك، ولا تخلو من زوايا منعشة ومعزولة للقيام باجتماعات لجان صغيرة. كان الدكتور نِغْرِتِ شخصاً صموتاً، وانطوائيّاً، يحبّ أن يسمع الآخرين يتكلّمون أكثر من أن يدير هو الحديث. اهتمّ ببرشلونة، تذكّر أنّه حضر مؤتمراً في براغ، أشار إلى أستاذ سابق في جامعة سانتا تِرِسا، أرجنتينيّ يُدرِّس الآن في جامعة كاليفورنيا وقضى بقيّةَ الوقت صامتاً. زوجته ذات الملامح التي يُحْدَس منها إن لم يكن جمالاً ماضياً فمظهراً ورهافة يخلو منهما رئيس الجامعة، أظهرت لطفاً أكثر بكثير تجاه أمالفيتانو، وبخاصّة تجاه روزا، التي كانت تُذكّرها بابنتها الصغرى، وتدعى مثلها كلارا، وتعيش منذ سنوات في فينكس. في لحظة من لحظات العشاء اعتقد أمالفيتانو التقاء نظرة أقرب إلى الكدر بين رئيس الجامعة وزوجته. أحس في عينيها بشيء يمكن أن يُشبه الكراهية. على العكس من وجه رئيس الجامعة، الذي أظهر خوفاً مفاجئاً دامَ ما يدومه خفقُ فراشة. لكنّ أمالفيتانو لاحظه، وللحظة (الخفق الثاني) كاد خوف رئيس الجامعة يلامس بشرته هو أيضاً. عندما استعاد نفسه ونظر إلى الندماء الآخرين، انتبه إلى أنّ أحداً منهم لم يلتقط هذا الظلّ الأدنى كحفرة محفورة بسرعة ويفوح منها نتنٌ مخيف.

لكنّه كان مخطئاً، فالشابُّ ماركو أنطونيو غِرّا، بلى انتبه. ثمَّ إنّه انتبه إلى أنّه هو انتبه أيضاً. ليس للحياة قيمة، همس في أذنه عندما خرجوا إلى الحديقة. روزا جلست إلى جانب زوجة رئيس الجامعة والأستاذة بِرِث. جلس رئيس الجامعة في السرير المعلّق الوحيد الموجود تحت العريشة. عميد الكلّية غِرّا وأستاذا فلسفة جلسوا بجانبه. زوجات الأساتذة بحثن عن مكان بجانب زوجة رئيس الجامعة. أستاذ آخر، أعزب بقي واقفاً إلى جانب أمالفيتانو والشاب غِرّا. خادمة عجوز، تكاد تكون هرمة، دخلت بعد برهة حاملة صينية كبيرة مليئة بالكؤوس والأكواب تركتها على طاولة المرمر. فكّر أمالفيتانو

بمساعدتها، لكنّه فكّر لاحقاً أنّ من المحتمل أن يُساء تفسير فعله كنوع من عدم الكياسة. حين عادت العجوز لتظهر حاملة أكثر من سبع زجاجات بتوازن مزعزع، لم يستطع أمالفيتانو أن يكبح نفسه أكثر وذهب لمساعدتها. حين رأته العجوز فتحت عينيها بإفراط وبدأت الصينية تنزلق من بين يديها. سمع أمالفيتانو الصرخة، صرخة سخرية، أطلقتها امرأة أحد المدرّسين، وفي الوقت ذاته وبينما الصينية تسقط، ميّز ظلّ الشاب غِرّا الذي أعاد كلّ شيء إلى توازنه التام. لا تحزني، يا تشاتشيتا، سمع زوجة رئيس الجامعة تقول. سمع بعدها الشابَّ غِرّا، بعد أن ترك الزجاجات على الطاولة، يسأل السيدة كلارا، عمّا إذا لم يكن في خزانة كحولها مِثكال المنتحرون. وسمع عميد الكلّية غِرّا يقول: لا تكترثوا به، إنّها أشياء تخطر لابني. وسمع روزا تقول: مِثكال المنتحرون، ما أجمله من اسم. وسمع الأستاذة بِرِث تقول: يا للخوف الذي مررت به، اعتقدت أنّها ستسقط. وسمع أستاذ فلسفة يتكلّمُ، كي يغيّر الموضوع، عن الموسيقى الشمالية. وسمع عميد الكلّية غِرّا يقول إنّ الفرق بين فرقة موسيقية شمالية وفرقة من بقية البلد يرتكز على أنّ الفرقة الشمالية دائماً تستخدم أكورديوناً وقيثارة برفقة قيثارة سداسية الأوتار وبعض القفز. وسمع أستاذ الفلسفة نفسه يسأل ماذا تعني بالقفز. وسمع عميد الكلّية يجيب بأن القفز، كي يعطي مثلاً، هو مثل الإيقاع ا، مثل مجموعة طبول فرقة روك،مثل الطبلات وأنّ في الموسيقى الشمالية قفزة شرعية يمكن أن تكون يمكن رِدوفا أو الأكثر استخداماً الأعواد الصغيرة. وسمع رئيس الجامعة، نِغرِتِ يقول: هو كذلك. ثمّ قبل كأس ويسكي وبحث عن وجه من وضعه في يده فوجد وجهَ الشاب غِرّا وقد بيّضه القمر.

البرهان الثاني، الذي كان دو شكّ يهمّ أمالفيتانو، كان بعنوان: *إنّه ابن امرأة أَراوكانيّة*، ويبدأ على الشكل التالي: «عندما وصل الإسبان،

استعمل الأراوكانيون وسيلتين للتواصل من سانتياغو: التخاطر والأدكينتوِ(1). [55] وحُمِلَ لاوتارو[56] نظراً لمواصفاته التخاطرية العظيمة مع أمّه، وهو ما يزال طفلاً، إلى الشمال، ليوضع في خدمة الإسبان. بهذه الطريقة ساهم لاوتارو في هزيمة الإسبان. بما أنّ المُتخاطرين يمكن أن يُصَفّوا وتنقطع الاتصالات، أبدع الأدكينتوِ. انتبه الإسبان فقط بعد عام ١٧٠٠ إلى إرسال الرسائل بواسطة حركة الأغصان. كانوا مرتبكين لأنّ الأراوكانيين كانوا يعرفون كلّ الذي كان يجري في مدينة كونسبسيون. وبالرغم من أنّهم استطاعوا أن يكتشفوا الأدكينتوِ، إلاّ أنّهم لم ينجحوا قط في ترجمتها. لم يخطر ببالهم قطّ التخاطر، فعزوه إلى «التواصل مع الشيطان»، الذي كان يُعْلِمُهم بالأشياء التي كانت تجري في سانتياغو. كانت تنطلق من العاصمة ثلاثة خطوط أدكينتوِ: واحد عبر سفوح سلسلة جبال الأنديز، وآخر عبر ساحل البحر، والثالث عبر الوادي الرئيسي. كان الإنسان البدائيّ يجهل اللغة؛ ويتواصل عبر البثّ الدماغي، كما تفعل الحيوانات والنباتات. حين لجأ إلى الأصوات وإلى إيماءات وحركات الأيدي بدأ يفقد ملكة التخاطر، وهو ما تفاقم عندما انغلق على نفسه في المدن، مُبتعِداً عن الطبيعة. بالرغم من أنّ الأراوكانيين كانوا يملكون نوعين من الكتابة، البروم، الكتابة بالعقد المصنوعة في الحبال.[57]، والأدِنتونِمول[58]، الكتابة بالمثلثات، إلاّ أنّهم لم يُهملوا قط التواصل بالتخاطر؛ على العكس تماماً، خصّصوا بعض الكوغا، الذين وُزِّعَت أسرهم على كلّ أمريكا، وجزر المحيط الهادي والجنوب الأقصى، كيلا يأخذهم عدّوهم أبداً على حين غرّة. حافظوا من خلال التخاطر دائماً على تواصلهم مع مهاجري تشيلي الذين استقرّوا أولاً في شمال الهند، حيث

(١) نظام مابوتشي للتواصل يقوم على إرسال الإشارات بأغصان الأشجار والراياتِ والصفير، وذلك من خلال تقليد أصوات الطيور والحيوانات.

سمّيوا أريوبين، ومن هناك توجّهوا إلى حقول جرمانيا البدائيّة كي يهبطوا بعدها إلى البِلوبّونِسو، من حيث كانوا يُسافرون إلى تشيلي، عبر الطريق التقليدي باتجاه الهند وعبر المحيط الهادي». ويقول بعدها مباشرة ودون أيّ مبرر: «كيلّنتكوسي كان راهباً ماتشياً، كان يجب أن تخلفه ابنته كينتوراي في منصبه أو أن تُكرّس نفسها للتجسُّس؛ فاختارت الأخير وحبَّ الأيرلندي؛ وقدّمت لها هذه الفرصة الأمل بأن تُنجب منه ولداً، سينشأ، مثل لاوتارو والخلاسي ألِيخو، بين الإسبان ويستطيع ذات يوم أن يرأس مثلهما جيوش الذين يريدون أن يطردوا المحتلّين إلى ما وراء منطقة ماوْلِ، لأنّ قانون أدمابّو يمنع الأراوكانيين من القتال خارج بِكْموتشي[1]. أملها صار حقيقة، وفي ربيع ٦٠ عام ١٧٧٧، وفي المكان المسمّى بَالْبال، كانت امرأة أراوكانية تتحمّل واقفة آلامَ الولادة، لأنّ التقاليد كانت تقول إنّه لا يمكن أن يولّد ابنٌ قويّ من أمّ ضعيفة. جاء الولدُ وتحوّل إلى مُحرِّر تشيلي».

كانت الملاحظات في أسفل الصفحة توضّح، إذ ربّما لم يكن واضحاً بعد، نوعَ السفينة المترنّحة التي أبحر فيها كيلابان. كانت الملاحظة ٥٥، أدكينتو، تقول: «نجح الإسبان بعد سنوات كثيرة أن ينتبهوا إلى وجوده[2]، لكنّهم لم يستطيعوا قط ترجمته». الملاحظة ٥٦: «لاوْتارو، صوت سريع (تاروس باليونانية تعني السريع)». الملاحظة ٥٧: «بروم، كلمة مدغمة من اليونانية قام بها برومثيوس، وتعني تيتان الذي سرق الكتابة من الآلهة كي يعطيها للبشر». الملاحظة ٥٨: «أدِنتونمول، كتابة سرّية، مكوّنة من مثلثات». الملاحظة ٥٩: «ماتشي، عرّاف. من الفعل اليوناني مانتيس، التي تعني عرافة». الملاحظة ٦٠:

---

(١) تشيلي.

(٢) إلى وجود نظام أدكينتو.

«ربيع، كان قانون أدمابو يأمر بأن يتم الحمل بالأبناء في الصيف، حين تكون كلّ الثمار ناضجة؛ بهذا الشكل يولدون في الربيع حين تكون الأرض مستيقظة بكلّ قواها؛ حين تولد كلّ الحيوانات والطيور».

ولذلك يُستنتج أن، ١: كلّ الأراوكانيين كانوا، أو جزء كبير منهم، تخاطريين. ٢: كانت اللغة الأراوكانية على علاقة وثيقة بلغة هوميروس. ٣: كان الأراوكانيون يُسافرون إلى كلّ مكان على الكرة الأرضية وبخاصّة إلى الهند، إلى جرمانيا البدائية وإلى بيلوبونسو. ٤: كان الأراوكانيون بحّارة رائعين. ٥: كان الأراوكانيون يملكون نوعين من الكتابة، واحدة تقوم على العقد وأخرى على المثلثات، هذه الأخيرة سرّية. ٦: لم يتضِح جيداً على ما كان يقوم الاتصال الذي يُسميه كيلابّان أدكتتو والإسبان وإن كانوا انتبهوا إلى وجوده إلا أنّهم لم يقدروا قط على ترجمته. تراه إرسال الرسائل بواسطة هزّ أغصان الأشجار الموجودة في أماكن استراتيجية، كقمم الجبال مثلاً؟ تراه شيء مشابه للاتصال بواسطة دخان هنود مروج أمريكا الشماليّة؟ ٧: على العكس، الاتصال التخاطري لم يُكتشف قط وإذا جاءت لحظة فقد فيها وظيفته فذلك لأنّ الإسبان قتلوا المتخاطرين. ٨: سمح التخاطر، من ناحية أخرى، لِأراوكانيي تشيلي أن يبقوا على تواصل مع المهاجرين من تشيلي إلى أماكن قصيّة مثل الهند المأهولة أو ألمانيا الخضراء، هل علينا أن نستنتج من كلّ هذا أن برناردو أويجينز كان أيضاً تخاطريّاً؟ هل علينا أن نستنتج أن المؤلّف نفسه، لونكو كيلابّان كان تخاطريّاً؟ بلى، يجب أن نستنتج ذلك.

أيضاً يمكن أن تُستنتج (وبقليل من الجهد أن تُرى) أشياء أخرى، فكّر أمالفيتانو، بينما هو يقيس بوعي نبضه ويُراقب كتابَ ديستِ معلّقاً في ليل الفناء الخلفيّ. يمكن أن يُرى مثلاً تاريخ طبعة الكتاب،

١٩٧٨، أي في مرحلة الدكتاتوريّة العسكرية وأن يُستنتج جو الانتصار، الوحشة والخوف الذي طُبع فيه. يمكن أن يُرى مثلاً سيّدٌ ذو ملامح هندية، نصف مجنون، لكنّه حصيف، يتعامل من طابعي دار النشر الجامعية، الموجودة في سان فرانسيسكو، رقم ٤٥٤ في سانتياغو، السعر الذي ستُكلّف مؤرّخَ العرق، رئيس اتحاد سكان تشيلي الأصليين وسكرتير أكاديمية اللغة الأراوكانية، طباعةُ كتابِه، وهو سعر أعلى من اللازم يُحاول السيّد كيلابّان أن يخفضه بالأوهام أكثر مما بالفعل، على الرغم من أنّ المدير العام يعرف بالضبط أنّ العملَ لا يفيض عنهم كثيراً ويستطيعون أن يخفّضوا للرجل المذكور تخفيضاً خاصّاً إذا ما أقسم لهم أنّ عنده كتابين آخرين منتهيين تماماً ومصحّحين (*أساطير أراوكانيّة وأساطير يونانية* و *أصل الإنسان الأمريكي والقرابة بين الأراوكانيين والآريين، الجرمانيين البدائيين واليونانيين*) وأن يقسم لهم ويعيد القسم بأنّه سيأتيهم بهما، لأنّ كتاباً مطبوعاً في دار النشر الجامعية، يا سادة، كتابٌ يُميّز من النظرة الأولى، وهذه الفقرة الأخيرة هي التي تقنع الطابعَ، والمسؤول والحبّار الذي يأخذ على عاتقه هذه الأعمال ويمنحه هذا التخفيض الصغير. الفعل ميَّزَ، كلمة مميّز. آه، آه، آه آه، يلهث أمالفيتانو بينما هو يختنق كما لو أنّه أصيب بنوبة ربو مفاجئة، آه، يا تشيلي.

طبعاً بالرغم من أنّ من الممكن رؤية مشاهد أخرى أو من الممكن رؤية هذه اللوحة البائسة من منظورات أخرى. وهكذا كما كان الكتاب يبدأ بخطّ مستقيم على الحنك (اليكمونتشي، المسماة تشيلي، المماثلة جغرافياً وسياسيّاً للدولة اليونانية)، يستطيع القارئ النشط الذي أشاد به كورتاثار أن يبدأ القراءة برفسة على خصيتيِ المؤلّف ويرى فيه على الفورِ رجلاً من قشّ، ساعداً أيمنَ في خدمة كولونيل ما في المخابرات، أو ربّما في خدمة جنرال يتباهى بأنّه مُفكّر، وهو ما ليس

بغريب جدّاً طالما أنّ الأمر يتعلّق بتشيلي، الأغرب هو أن يكون العكس، ففي تشيلي كان العسكر يتصرّفون ككتّابٍ والكتّابُ، كيلا يكونوا أقلّ منهم، كعسكرٍ، والسياسيون (من كلّ التيارات) كانوا يتصرّفون ككتّابٍ وكعسكريين، والدبلوماسيون يتصرّفون ككيروبينات بلهاء، والأطباءُ والمحامون يتصرّفون كلصوص، وهكذا كان باستطاعته أن يستمرّ حتى الغثيان، منيعاً على اليأس. لكنّه إذا ما عاد وأمسك بالخيط بدا له ممكنا ألا يكون كيلابّان قد كتب هذا الكتاب. إذا لم يكن كيلابّان قد كتب الكتابَ فَمِنَ الممكن أيضاً ألا يكون كيلابّان قد وُجِدَ، أي ألاّ يكون هناك أيّ رئيس لاتحاد تشيلي للسكان الأصليين، لأنّه، بين أسباب أخرى، ربّما لم يوجد أيّ اتحاد للسكان الأصليين ولم يوجد أيُّ سكرتير لأكاديمية اللغة الأراوكانية. كلّ شيء زائف. لا وجود لشيء. كيلابّان تحت هذا الموشور، فكّر أمالفيتانو وهو يهزّ رأسه على الإيقاع (الخفيفة جدّاً) الذي كان يتحرّك به كتاب ديستِ على الجانب الآخر من النافذة، يمكن أن يكون اسماً آخر لبينوتشيت، حالات أرق بينوتشيت الطويلة، أو أسحاره المثمرة، حين كان ينهض في السادسة صباحاً أو في الخامسة والنصف ثمّ وبعد أن يستحمّ ويقوم ببعض التمارين يُغلق على نفسه مكتبته، ليراجع الإهانات الدولية، ليتفكّر بالسمعة السيّئة التي تتمتع بها تشيلي في الخارج، لكن يجب ألا يتوهّم المرء كثيراً. إن نثر كيلابّان يمكن أن يكون لبينوتشيت، لأنّه أيضاً يمكن أن يكون نثر أيلوين أو نثر لاغوس. نثر كيلابّان يمكن أن يكون نثر فرِيْ (وهذا يعني كثيراً) أو نثر أيِّ فاشيّ جديد من اليمين. نثر لونكو كيلابّان لا يتسع لكلّ الأساليب التشيلية وحسب، بل لكل النزعات السياسيّة أيضاً، بدءاً من المحافظين وحتى الشيوعيين، بدءاً من الليبراليين الجدد وحتى الباقين الأحياء القدامى من الحركة اليساريّة الثورية. كان كيلابّان يشكّلُ ترفَ القشتاليّة المحكيّة والمكتوبة في تشيلي، ففي تعبيره لا يظهر فقط أنف رئيس الدير مولينا الأعجف

وحسب بل ومجازر باتريثيو لينش وغرق إسميرالدا[1] اللامتناهي، صحراء أتاكاما والأبقار وهي ترعى، ومنح غوغنهايم الدراسية، السياسيين الاشتراكيين وهم يمدحون سياسة الدكتاتورية العسكرية الاقتصادية، الزوايا حيث كان يُباع الخبز المقلي، عصير الفواكه مع القمح المسلوق، شبح جدار برلين، الذي كان يتماوج بالأعلام الحمراء الجامدة، سوء المعاملات الأسرية، العاهرات طيِّبات القلب، البيوت الرخيصة، ما كانوا يسمّونه في تشيلي ضغينة ويسميه أمالفيتانو جنوناً.

لكن ما كان يبحث عنه في الحقيقة هو اسمٌ. أمّ أوهيجينز المتخاطرة. بحسب كيلابّان: كينتوراي ترِوْلِن، ابنة كيلِّنْكوسي ووارامانكِ ترِوْلِن. بحسب الرواية الرسميّة: دونيا إيزابيل ريكِلْم. عندما وصل أمالفيتانو إلى هذه النقطة قرّر أن يتوقّف عن تأمّل كتاب ديستِ، الذي كان يتهزهز (خفيفاً جدّاً) في الظلمة، ويجلس ويُفكّر باسم أمّهِ ذاتها: دونيا إوخِنيا ريكِلم (في الحقيقة دونيا فيليا ماريّا إوْخِنيا ريكِلم غرانيا). أصيب بفزعٍ. وقف شعر بدنه مدّةً خمس ثوانٍ. حاول أنَ يضحك، لكنّه لم يستطِع.

أنا أفهمك، قال له ماركو أنطونيو غِرّا. أقول، إذا لم أخطِئ، أظنّ أنّني أفهمك. أنت مثلي وأنا مثلك. لسنا راضيين. نعيش في جوٍّ يخنقنا. نتظاهر كما لو أنّ شيئاً لا يحدث، لكنّه يحدث. ماذا يحدث؟ نحن نختنق، يا إلهي. أنت تروّح عن نفسك كيفما استطعت. أنا أضربهم وأتركهم يضربونني، ضربات مرعبة. سأحكي لك سرّاً. أخرجُ أحياناً ليلاً، وأذهب إلى بارات، أنت لا تستطيع حتى أن تتصوّرها.

---

(١) سفينة تدريب تشيلية.

وأتظاهر بأنّني لوطيّ. لكن ليس أيَّ لوطيّ: لوطيّ ناعم، متعالٍ، ساخر، أقحوانة في زريبة أكثر الخنازير خنزرةً في سونورا. طبعاً ليس عندي من اللوطيّ شعرة واحدة، أستطيع أن أُقسِم لك على هذا بقبر أمّي الميتة. لكنّني أتظاهر بأنني لوطيّ تماماً. عاهر لوطي، مختال ومعه مال وينظر إلى الجميع من فوق كتفه. وعندها يحدث ما يجب أن يحدث. يدعوني عُقابان أو ثلاثة كي أخرج إلى الخارج. ويبدأ الضرب. أنا لا أعرف ولا يهمّني أن أعرف. أحياناً يكونون هم من يخرجون متأذين، خاصّة حين أذهب ومعي مسدّسي. وأخرى أنا. لا يهمّني. أحتاج إلى هذه الخروجات الوغدة. أحياناً يقول لي أصدقائي، القليلون، صِبْيَة من عمري، صاروا مُجازين الآن، إنّ عليّ أن أكون حذراً، وإنّني قنبلة موقوتة، وإنّني مازوخي، وواحد منهم كنتُ أحبّهُ جدّاً، قال لي إنّ هذه الأشياء شخصٌ مثلي فقط يستطيعُ أن يسمح لنفسه بها، لأنّ عندي والدي الذي يخرجني دائماً من الورطات التي أزجُّ نفسي فيها. مجرّد مصادفة لا أكثر. أنا لم أطلب قط شيئاً من أبي. الحقيقة أنّه ليس عندي أصدقاء، وأُفضّل ألا يكون عندي أصدقاء، على الأقل ألا يكون عندي أصدقاء مكسيكيين. نحن المكسيكيون فاسدون. هل كنتَ تعرف؟ جميعنا. هنا لا أحد ينجو. بدءاً من رئيس الجمهورية وحتى نائب القائد العام ماركوس. لو كنتُ نائب القائد العام، هل تعرف ماذا كنتُ سأفعل، سأطلق هجوماً بكلّ جيشي على أيّ مدينة من مدن تشيابّا شريطة أن يكون عندي حماية عسكرية قويّة وهناك سأسحق هنودي المساكين. ربّما أذهب بعدها لأعيش في ميامي. ما نوع الموسيقى التي تُحبّها؟، سأله أمالفيتانو. الموسيقى الكلاسيكيّة، يا مُعلّم، فيفالدي. سيماروزا، باخ. وما الكتب التي تقرؤها عادةً. في السابق كنتُ أقرأ من كلّ الأنواع، يا مُعلّم، وبكميات كبيرة، واليوم لا أقرأ غير الشعر. وحده الشعر غير ملوّث، وحده الشعرُ خارج نطاق التجارة. لا أعرف ما إذا كنتُ

تفهمني، يا معلّم. وحده الشعر، وليس كلّ الشعر، ليكن ذلك واضحاً، إنّه غذاء صِحّي وليس خراء.

انبثق صوت الشاب غِرّا مُتشظّياً، من بين لبلابة، إلى أسافين ملساء، غير عدوانية وقال: جورج تراكل هو أحد المفضّلين عندي.

جعل ذكرُ تراكل أمالفيتانو يُفكّرُ، بينما كان يُملي درسه بطريقة آليّة تماماً، بصيدليّة كانت قريبة من منزله في برشلونة، اعتاد أن يذهب إليها، حين كان يحتاج إلى دواء لروزا، أحد المستخدَمين كان صيدلانيّاً، يكاد يكون مراهقاً، وكان نحيلاً إلى أقصى الحدود ويضع نظّارة كبيرة، وكان في الليل حين تكون الصيدلية مناوبة يقرأ كتاباً. سأله أمالفيتانو ذات ليلة، كي يقول شيئاً، بينما كان الشابُّ يبحث في الرفوف، ما الكتب التي يُحبُّ قراءتها وما ذاك الكتاب الذي كان يقرؤه في تلك اللحظة. أجابه الصيدلاني، دون أن يلتفت، إنّه يحبّ الكتب من نوع *المسخ*، *بارتلبي النسّاخ*، *قلب بسيط*. *قصة عيد ميلاد*، ثمّ قال له إنّه يقرأ *إفطار عند تيفاني* لكابوتي. تاركاً جانباً أنَّ *قلب بسيط* و*قصة عيد ميلاد*، كانتا كما يدلّ اسم هذه الأخيرة، قصصاً ولم تكونا كتابين، وهو ما يكشف عن ذوق هذا الصيدلاني المستنير، الذي ربّما كان في حياةٍ أخرى تراكلْ، أو ربّما ما زالت أمامه في هذه الحياة فرصة أن يكتب قصائد يائسة مثل زميله النمساوي البعيد، الذي كان بوضوح ودون جدل يُفضّل العمل الأصغر على العمل الأكبر. كان يختار *المسخ* بدل *المحاكمة*، يختار *بارتلبي* بدل *موبي ديك*، يختار *قلب بسيط* بدل *بوفارد وبيكوشت* و*قصّة عيد ميلاد* بدل *قصّة مدينين* أو *نادي بيكويك*. ما أحزنه من تناقض، فكّر أمالفيتانو. ما عاد ولا حتى الصيدلانيون المستنيرون يجرؤون على الأعمال الكبيرة، الناقصة، الجارفة، التي تفتح طريقاً في المجهول. يختارون التمارين التامّة للمعلّمين الكبار. أو

ما هو ذاته: بريدون أن يروا المعلّمين الكبار في مبارزات تدريبية لكنّهم لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن المعارك الحقيقيّة، حيث يُصارع المعلّمون الكبار ضدّ ذاك، ذاك الذي يُخيفنا جميعاً، ذاك الذي يُرعِبنا ويصعقنا وهناك دم وجراح قاتلة ونتن.

في تلك الليلة بينما كانت كلمات الشابّ غِرّا الرنّانة ما تزال تُسمع في أعماق دماغه، حلم أمالفيتانو أنّه يرى آخر فيلسوف شيوعي في القرن العشرين يظهر في فناء من رخام زهري. كان يتكلّم بالروسيّة. أو بالأحرى: كان يُغنّي أغنية بالروسية بينما جسده البدين يتنقل، متعرجاً باتجاه مجموعة من الخزف الإيطالي المُعَرّق بلون أحمر غامق، كانت تبرز في على أرضية الفناء العادية مثل فوّهة بركان أو مرحاض. كان آخر فيلسوف شيوعي يرتدي طقماً داكناً وربطةَ عنق سماوية وكان أشيب الشعر. بالرغم من أنّه كان يوحي بأنّه سينهار في أيّ لحظة، إلا أنّه كان يحافظ بأعجوبة على نفسه منتصباً. لم تكن الأغنية ذاتها دائماً، فهو كان يُدخل كلمات إنكليزية أو فرنسيّة، تعود إلى أغانٍ أخرى، شعبية، موسيقاها بوب أو تانغو، أو ألحان تحتفي بالثمل أو بالحب. ومع ذلك فإنّ هذه الفواصل الغنائية كانت قصيرة ومتفرّقة ولا يتأخّر كثيراً في الإمساك من جديد بخيط الأغنية الأصلي، بالروسية، التي لم يكن أمالفيتانو يفهم كلماتها (بالرغم من أنّه في الأحلام كما في الأناجيل، عادة ما يملك المرء ملكة اللغات)، لكنّه كان يحدس بأنّها حزينة جدّاً، قصّة أو تأوهات راعي أبقار في الفولغا، يُبحر طوال الليل ويتألّم مع القمر لمصير البشر الحزين، الذين عليهم أن يولَدوا ويموتوا. حين يصلُ فيلسوف الشيوعيّة الأخير أخيراً إلى الفوّهة أو إلى المرحاض، سيكتشف أمالفيتانو بخجلٍ أنّ المسألة تتعلّق لا أكثر ولا أقلّ، ببوريس يلتسين. أهذا هو آخر فلاسفة الشيوعيّة؟، بأيّ نوع من الجنون أُصاب، إذا كنتُ قادراً على أن أحلم بهذه السخافات؟ ومع ذلك كان الحلم

منسجماً مع روح أمالفيتانو. لم يكن كابوساً. ثمّ إنّه كان يمنحه نوعاً من الراحة الخفيفة كريشةٍ. عندها كان بوريس يلتسين ينظر إلى أمالفيتانو بفضولٍ، كما لو أنّ أمالفيتانو اقتحم عليه حلمه وليس هو من اقتحم على أمالفيتانو حلمه. وكان يقول له: أصغِ إلى كلماتي بانتباه، أيّها الرفيق. سأوضّح لك ما هي الرجل الثالثة للطاولة البشرية. أنا سأوضّحه لك. اتركني بعدها بسلام. الحياة طلب وعرض، أو عرض وطلب، كلُّ شيء يقتصر على هذا، لكن لا يمكن العيش بهذا الشكل. هناك حاجة إلى رِجل ثالثة كيلا تنهار الطاولة في مزابل التاريخ، الذي ينهار بدوره دائماً في مزابل الفراغ. لذلك سجّل ملاحظة. هذه هي المعادلة: عرض + طلب + سحر. وما هو السحر؟ السحر هو ملحمة وهو أيضاً جنس وضباب باخوسي ولعب. وعندها كان يلتسين يجلس في الفوّهة أو المرحاض ويُري أمالفيتانو الأصابع التي تنقصه ويتكلّم عن طفولته وجبال الأورال وسيبريا وعن نمرٍ أبيض يضيع في فضاءات الثلج اللامتناهية. ثم يُخْرِجُ من جيب طقمه بطحة فودكا ويقول:

- أعتقد أنّها حانت ساعة أن أشرب كأساً.

ثمّ وبعد أن يشرب وبعد أن ينظر إلى الأستاذ التشيلي المسكين نظرةَ خبثِ صياد، يعود ليشرع بغنائه، بقّوة، إن أمكن قول ذلك. ثمّ يختفي بعدها مُبْتَلَعاً من الفوهة المُعَرّقة بعروق حمراء أو المرحاض المُعَرّق بالأحمر وكان أمالفيتانو يبقى وحده ولا يجرؤ على النظر إلى الثقب، ولذلك لم يكن يبقى أمامه وسيلة غير أن يستيقظ.

قسم فاتِ

متى بدأ كلّ شيء؟، فكّر، في أيّ لحظة غرقتُ؟ بحيرة أزتيكية داكنة مألوفة بشكل مشوّس. الكابوس. كيف الخروج من هنا؟ كيف التحكّم بالوضع ثمّ أسئلة أخرى: هل حقيقة أنّني أريدُ أن أخرج؟ هل حقيقة أنّني كنتُ أُريدُ أن أترك كلّ شيء خلفي؟ وفكّر أيضاً: الألمُ ما عاد يهمّني. وأيضاً: ربّما بدأ كلّ شيء مع موتِ أمّي. وأيضاً: الألمُ لا يهمّني، إلاّ إذا ازداد وأصبح غير محتمل. وأيضاً: ويحي، يؤلمني، ويحي يؤلمني. لا يهمّ، لا يهمّ. محاط بالأشباح.

كان كوينسي وليامز في الثلاثين من عمره حين تُوُفِّيَتْ أمُّهُ. هتفت له جارةٌ إلى عمله.

- عزيزي -قالت له-، ماتت إدنا.

سألَ متى. سمع إجهاشَ المرأة وأصواتاً أخرى على الطرف الآخر من الهاتف، ربّما كانت لِنساء أيضاً. سأل كيف. لم يُجبْهُ أحدٌ فأغلق الهاتف. اتصل برقم بيت أمّه.

- من يتكلَّم؟ -سمع امرأةً تسألُ بصوتٍ غضوب.

فكَّر: أمّي في الجحيم. عاد وأغلق. هتف مرّة أخرى. ردّت عليه امرأة شابّة.

- أنا كوينسي، ابن إدْنا ميلّر -قال.

صاحت المرأة بشيء لم يفهمه وبعد برهة أخذت الجهاز امرأةٌ

أخرى. طلب أن يتكلّم مع الجارة. إنّها في السرير أجابوه، أُصيبت توّاً بنوبة قلبيّة. يا كوينسي، نحن بانتظار أن تصل سيّارة الإسعاف كي ننقلها إلى المشفى. لم يجرؤ على أن يسأل عن أمّه. سمع صوت رجلٍ يلفظ شتيمة. لا بدّ أنّ الرجل في الممر وباب بيتِ أمّه مفتوح. رفع يدَه إلى جبينه وانتظر، دون أن يغلق، أن يُوَضّح له أحد الأمرَ. صوتا امرأة ردّا على الذي شتم. قالا اسمَ رجل لم يستطع أن يسمعهُ بصفاء.

سألته المرأة التي كانت تكتب على الطاولة المجاورة عمّا إذا كان يحدث معه شيء. رفع يده كما لو أنّه يسمع شيئاً مهمّاً ونفى برأسه. تابعت المرأة كتابتها. بعد برهة أغلقت كوينسي الهاتف، ارتدى سترته التي كانت معلّقة إلى ظهر الكرسيّ وقال إنَّ عليه أن يذهب.

حين وصل إلى بيت أمّهِ، لم يجد غير مراهقة تقارب الخامسة عشرة من عمرها، جالسة على الأريكة، تُشاهد التلفزيون. نهضت المراهقة لتراه يدخل. لا بدّ أنّ طولها متر وخمسة وثمانون سنتيمتراً وكانت نحيلة جدّاً؛ ترتدي بنطلونَ جينز أزرقَ وفوقه ثوب أسود واسع جدّاً عليه أزهار صفراء، كما لو أنّه رُوب.

- أين هي؟ -سأل.

- في الغرفة -قالت المراهقة.

كانت أمُّهُ مغمضةَ العينين في السرير، بثياب كأنّها ستخرج إلى الشارع. بل إنّهنَ طَلَيْن شفتيها بأحمر الشفاه. فقط كان ينقصها الحذاء. بقيِ كوينسي برهةً واقفاً في البابِ ينظرُ إلى قدميْها. كان في إبهاميها كنب ورأى كُنُباً بيضاء في باطن قدميها، كُنُباً كبيرة، لا شكّ جعلتها تُعاني. لكنّه تذكّر أنّ أُمَّهُ كانت تذهب إلى طبيب أخصّائي بالقدم في شارع لويس، ربّما كان السيّد جونسون، دائماً نفسه، ولذلك فهي لم تكن تُعاني كثيراً. نظر بعدها إلى وجهها: بدا له من شمعٍ.

- سوف أذهب -قالت المراهقةُ من الصالون.

خرج كوينسي من الغرفة وأرادَ أن يُعطيها خمسةً وعشرين دولاراً، لكنّ المراهقة قالت له إنّها لا تريد مالاً. أصرَّ. أخيراً أخذت المراهقة الورقةَ النقدية وخبّأتها في جيبٍ بنطلونها ولكي تفعل ذلك اضطرّت لأن تشمر روبَها حتى وركها. تبدو راهبة، فكّرَ كوينسي، أو تابعة لطائفة هدّامة. أعطته المراهقةُ ورقة كَتَبَ عليها أحدٌ رقمَ هاتفِ مكتبِ دفن الموتى في الحيّ.

- هم سيتولّون كلَّ شيء -قالت بجدّية.

- طيّب -قال هو.

سأل عن الجارة.

- إنّها في المشفى -قالت المراهقةُ-، أظنّ أنّهم يضعون لها منظّم دقات قلب.

- مُنَظِّم دقات قلب؟

- بلى -قالت المراهقة-، في قلبها.

حين ذهبت المراهقة فكّر كوينسي أنّ أمّه كانت امرأة محبوبة من الجيران ومن أهل الحيّ، لكنّ جارة أمّه، التي لم ينجح في تذكّر وجهها، كانت أكثرهم محبّة لها .

هتف إلى مكتبِ الدفن وتكلّم مع شخص يّدعى تريماين . قال له إنّه ابن إدْنا ميلر. راجع تريماين ملاحظاته وعزّاهُ عدّةَ مرّاتٍ إلى أن عثر على الورقة التي كان يبحث عنها. عندئذٍ قال له أن ينتظر لحظةً ومرَّرَهُ إلى شخص يُدعى لورانس. سأله هذا ما نوع المراسم التي يرغب بها.

- شيء بسيط وحميم -قال كوينسي- شيء بسيط جدّاً وحميم جدّاً.

اتفقا في النهاية على أن تُرَمّد وعلى أن يكون الترميد، إذا ما سارت الأمورُ في مجاريها الطبيعية، في السابعة مساء. في السابعة

وخمس أربعين دقيقة سيكون كلّ شيء منتهياً. سأل عمّا لم كان من الممكن تقديم ذلك. جاء الجوابُ بالنفي. دخل بعدها السيّد لورانس بنعومة في الموضوع الاقتصادي. لم يكن هناك أيّ مشكلة. أراد كوينسي أن يعرف ما إذا كان عليه أن يخبر الشرطة أو المشفى. لا، قال السيّد لورانس، ستهتمّ بهذا الآنسة هولي. تساءل من هي الآنسة هولي ولم يستطع أن يعرف.

- الآنسة هولي هي جارة المرحومة أمّك - قال السيّد لورنس.

- صحيح - قال كوينسي.

لزم الاثنان الصمتَ لحظةً، كما لو أنّهما يُحاولان أن يتذكّرا وَجْهَيّ إذنا ميلر وجارتها. راح السيّد لورانس يتنحنح. سأله عمّا إذا كان يعرف إلى أيّ كنيسة تنتمي أمّه. سأله عمّا إذا كان لديه تفضيلاً دينيّاً معيّناً. قال إنّ أمّه كانت من أتباع كنيسة الملائكة الضائعة المسيحيّة. أو ربّما لا تُسمّى هكذا. لم يكن يتذكّر. بالفعل، قال السيّد لورانس، لا تُسمى هكذا، إنّها كنسية الملائكة المستعادة. هذه هي، قال كوينسي. وقال أيضاً إنّه لم يكن لديه أيّ تفضيل ديني، يكفي ويزيد أن تكون طقوساً مسيحيّة.

نام في تلك الليلة في بيت أمّهِ على الأريكة ولم يدخل إلاّ مرّةً واحدةً ليلقي نظرةً على جثمانها. في اليوم التالي جاء موظّفو مكتب دفن الموتى في ساعة الصباح الأولى وأخذوها. نهض هو ليهتمّ بهم، يُسلّمهم الشيك ويرى كيف كانوا يذهبون بتابوت الصنوبر نازلين به السلّم. عاد بعدها ليبقى نائماً على الكنبة

حين استيقظ ظنّ أنّه حلم بفيلم كان قد شاهده منذ زمن طويل. لكنّ كلَّ شيءٍ كان مختلفاً. كانت الشخصياتُ زنوجاً. كما لو أنّ فيلمَ الحلم كان مسودّةً للفيلم الواقعي. كذلك جرت أشياء مختلفة. كانت الحبكة ذاتها والحكايات أيضاً، لكنّ تطوّره كان مختلفاً أو أنّه كان

ينعطف في بعض اللحظات انعطافة غير متوقّعة. ومع ذلك فأفظع ما في هذا كلّه هو أنّه، بينما كان يحلم، كان يعرف أنّه ليس بالضرورة أن يكون هكذا، كان يُحسّ بالتشابه مع الفيلم، كان يظنُّ أنّه يفهم أنّ كليهما ينطلق من المُسلّمات ذاتها، وأنّه إذا كان الفيلم الذي شاهده هو الحلم الحقيقيّ، فالآخر، الذي رآه في حلمه، يمكن أن يكون تفسيراً معقولاً، نقداً معقولاً له، وليس بالضرورة كابوساً. كلُّ نقدٍ، في النهاية، ينحوّل إلى كابوس، فكَّر بينما هو يغسل وجهه في البيت الذي ما عادت جثّة أمّه فيه.

أيضاً فكَّر بما كانت قد قالته له هذه. كُنْ رجلاً واحملْ صليبَك.

في العملِ كان الجميعُ يعرفونه باسم أوسكار فاتِ. حين عاد لم يقل له أحدٌ شيئاً. لم يكن هناك داعٍ لأن يقولوا له شيئاً. بقي برهةً يتأمّل الملاحظات التي كان قد جمعها حول باري سيمان. فتاة الطاولة المجاورة لم تكن موجودة. خبّأ بعدها الملاحظات في درجٍ فقَلَهُ بالمفتاح وذهب ليأكل. في المصعد صادف ناشر المجلّة، كانت تُرافقه امرأة شابّة، بدينة تكتب عن القتلة المراهقين. حيّا بعضُهم بعضاً بإيماءة وتابع كلّ طريقه.

أكلَ شوربة البصل وعجّة فرنسية في مطعم رخيص وجيّد يبعد مسافة شارعين فرعيّين. لم يكن قد أكل شيئاً منذ البارحة فواتاهُ الطعام. حين دفع وهمّ بالخروج ناداه شخصٌ يعمل في قسم الرياضة ودعاه إلى كأس بيرة. قال له الشخصُ، بينما كانا ينتظران على طاولة العرض، إنّه مات في ذلك الصباح في شيكاغو المكلّف بفرع الملاكمة في قسم الرياضة. كان فرع الملاكمة، في الحقيقة تلطيف يخصّ فقط الشخص الميّت.

- كيف مات؟ -سأل فاتِ.

- قتله بعضُ زنوج شيكاغو طعناً بالسكاكين -قال الآخر.

وضع النادلُ شطيرة همبورغر على طاولة العرض. شرب فاتِ البيرةَ وربت على كتفه وقال إنّه مضطر لأن يذهب. حين وصل إلى باب الزجاج التفت وتأمّل المطعمَ الحاشد بالزبائن وظهر الرجل الذي كان يعمل في قسم الرياضة والناس الذين كانوا برفقة آخرين، يتكلّمون أو يأكلون ناظرين إلى عيون بعضهم بعضاً وإلى النُّدُل الثلاثة الذين لم يكونوا لا يهدؤون أبداً. فتح بعدها البابَ، خرج إلى الشارع، عاد ونظر إلى داخل المطعم، لكنّ الزجاج كان بينهما وكان كلّ شيء مختلفاً. راح يمشي.

- متى تُفكّر أن تنطلق، يا أوسكار؟ -سأله رئيس قسمه.

- غداً.

- هل معك كلّ ما تحتاجه، هل كلّ شيء جاهز عندك؟

- ما من مشكلة، يا رجل -قال فاتِ-. كل شيء جاهز.

- هكذا أحبّ، يا فتى -قال الرئيس-. هل علمت أنّهم قتلوا جيمي لويل؟

- شيئاً من هذا القبيل سمعتُ.

- حدث هذا في بارادايس سيتي، بالقرب من شيكاغو -قال الرئيس-. يقولون إنّه كان لجيمي صاحبة هناك. طفلة ابنة عشرين عاماً، أصغر منه ومتزوّجة.

- كم كان عمر جيمي؟ -سأل فات دون أيّ اهتمام.

- يجب أن يكون بحدود الخامسة والخمسين -قال الرئيس-. الشرطة أوقفت زوج الصاحبة، لكن مراسلنا في شيكاغو يقول إنّ من المحتمل أن تكون هي متورّطة أيضاً في الجريمة.

- ألم يكن جيمي رجلاً ضخماً، يزن بحدود المئة كيلوغراماً؟ -سأل فات

- لا جيمي لم يكن ضخماً ولا يزن مئة كيلوغراماً. كان رجلاً بطول مئة وسبعين سنتيمتراً تقريباً ويزن بحدود الثمانين كيلوغراماً - قال الرئيس.

- خلطتُ بينه وبين آخر - قال فاتِ -، شخص ضخم كان يأكلُ أحياناً مع ريمي بورتون، وكنتُ ألتقي به من حين لآخر في المصعد.

- لا - قال الرئيس -، جيمي لم يكن يكاد يأتي أبداً إلى المكاتب، دائماً كان مسافراً، فقط كان يظهر هنا مرّةً في العام، أعتقد أنّه كان يعيش في تامبا، ويمكن حتى ألا يكون عنده بيت ويمضي حياته في الفنادق والمطارات.

استحمّ ولم يحلق ذقنه. سمع رسائل مجيب الهاتف. ترك على الطاولة إضبارةَ باري سيمان، التي جاء بها من مكتبه. ارتدى ملابس نظيفة وخرج. وبما أنّه كان ما يزال أمامه وقت فقد ذهب إلى بيت أمّه أوّلاً. لاحظ أن هناك رائحة زنخة. ذهب إلى المطبخ وحين لم يجد شيئاً فاسداً، أغلق كيس القمامة وفتح النافذة. جلس بعدها على الأريكة وأشعل التلفاز. على رفٍّ بجانبِ التلفاز رأى بعض الفيديوهات. فكّر لبضع ثوانٍ أن يفحصها، لكنّه تراجع في اللحظة ذاتها. بالتأكيد هي أشرطة كانت أمّه تُسجّل عليها برامجَ تراها لاحقاً في الليل. حاول أن يُفكّر بشيء لطيف. حاول أن يُنظّم مفكّرته ذهنياً. لم يستطع. بعد برهة من الجمود المطلق أطفأ التلفاز، أخذا المفاتيح وكيسَ القمامة وغادر البيت. قرع باب الجارة قبل أن يهبط. لم يُجبْهُ أحد. في الشارع رمى بكيس القمامة إلى حاوية طافحة.

كانت الشعيرةُ بسيطةً وعمليّةً إلى أقصى حدّ. وقَّعَ على ورقتين. أعطى شيكاً. تلقى تعازي السيّد تريماين أوّلاً وتعازي لورانس الذي ظهر في النهاية، حين أوشك على أن يذهب ومعه الجرّة التي كانت تحتوي على رماد أمّه. هل كان القدّاسُ مُرْضِياً؟ سأل السيّد لورانس.

عاد خلال الشعيرة ليرى المراهقةَ الطويلةَ جالِسةً في أقصى القاعة. كانت ترتدي الملابس ذاتها، بنطلونَ جينز وقميصاً أسود عليه زهر أصفر. نظر إليها وحاول أن يومئ إليها إيماءة ودٍّ، لكنّها لم تكن تنظر إليه. كانت وجوه الحاضرين مجهولةً، وإن كان يغلب بينهم حضور النساء، وهذا ما جعله يفترض أنّهنّ صديقات لأمّه. في النهاية اقتربت منه اثنتان وقالتا له كلمات لم يفهمها ويمكن أن تكون كلمات تشجيع أو تأنيب. عاد سيراً على قدميه إلى بيت أمّه. ترك الجرّةَ الصغيرة بجانب أشرطة الفيديو وعاد ليُشعل التلفاز. ما عاد هناك رائحة زنخة. كان البناء كلّه غارقاً في الصمت، كما لو أنّه لا يوجد أحد أو أنّهم خرجوا جميعاً للقيام بشيء مستعجل. رأى من النافذة بعض المراهقين الذين كانوا يلعبون ويتحدّثون (أو يتآمرون)، لكن، كلّ شيء في وقته، أي أنّهم كانوا يلعبون لحظةً يتوقّفون بعدها ويعودون ليلعبوا جميعاً، يتكلّمون لحظةً ثمّ يعودون ليلعبوا، يتوقّفون بعدها وكان يتكرّرُ الشيء ذاته مرّةً بعد أخرى.

تساءل ما نوع هذا اللعب، وهل كان التوقّف للكلامِ جزءاً من اللعب، أم أنّه كان جهلاً واضحاً بقواعده. قرّر أن يخرج ليمشي. شعر بعد برهة بجوع فدخل إلى محلٍّ صغير (مصريّ أو أردنيّ، لم يكن يعرف) حيث قدّموا له شطيرةَ لحمِ خروف مفروم. حين خرج شعر بانزعاج. راح يتقيّأ لحم الخروف في زقاق وبقي في فمه طعم المرارة والتوابل. رأى شخصاً يجرّ عربةَ هوت-دوغ. أدركه وطلب منه زجاجة بيرة. نظر إليه الرجل كما لو أنّ فاتِ كان مُخدّراً وقال له إنّهم لا يسمحون له ببيع المشروبات الكحولية.

- أعطني ما عندك - قال.

ناوله الرجلُ زجاجةَ كوكاكولا. دفع وشرب كامل الكوكاكولا بينما راح رجلُ العربة يبتعد في الجادّة سيّئة الإضاءة. بعد برهة رأى رواقَ دارِ سينما. تذكّر أنّه عادة ما كان يقضي في مراهقته مساءات كثيرة

هناك. قرّر أن يدخل، بالرغم من أنّ الفيلم كان قد بدأ قبل برهة كما أعلنت له بائعة التذاكر.

بقي جالساً في المقعد خلال مشهدٍ واحد فقط. شخص أبيض أُوقِفَ من قبل ثلاثة شُرَطِيّين زنوج. الشرطيون لا يقودونه إلى مخفر، بل إلى مطار. هناك يُقابل الموقوفُ قائدَ الشرطة، الزنجيّ بدوره، الموقوف ذكيّ كفاية ولا يتأخّر في أن يكتشف أنّهم تابعون لإدارة مكافحة المخدرات. يتوصّلون بفهم ضمنيّ وصمت بليغين إلى نوع من العقد. بينما هم يتكلّمون يُطلّ الرّجل من النافذة. يرى مدرج الهبوط وطائرة سيسنا صغيرة، تميل نحو جانب من المدرّج. يُخرجون من الطائرة حمولة من الكوكايين. الذي يفتح الصناديقَ ويُخرج الآجرّ زنجيّ أيضاً. إلى جانبه زنجيّ آخر، يرمي بالمخدرات في برميل فيه نار، مثل تلك التي يستخدمها مَنْ لا بيوت لهم كي يتدفّؤوا في ليالي الشتاء. يتوقّف الرجلُ عن النظر عبر النافذة ويلفت انتباه القائد إلى أنّ جميعَ رجاله زنوج. لديهم مبرّراتهم، يقول القائد. ثمّ يقول. الآن تستطيع أن تولّي الأدبار. حين يذهب الرجل يبتسم القائد، لكنّ الابتسامة لا تلبث أن تتحوّل إلى تقطيب. في هذه اللحظة ينهض فاتِ ويتوجّه إلى المغاسل، حيث يتقيّأ ما بقي في معدته من لحم الخروف. يخرج بعدها إلى الشارع ويعود إلى بيت أمّه.

قرع قبل أن يفتح الباب ببراجم يدهِ بابَ الجارة. فتحت له امرأة بعمره تقريباً، تضع نظارة وشعرها ملفوف بنوع من العمامة الأفريقية الخضراء. عرّفَ بنفسه وسأل عن الجارة. نظرت المرأةُ إلى عينيه وأدخلته. كان الصالون شبيهاً بصالون أمّه، حتى الأثاث كان مشابهاً له. رأى في الداخل ستّ نساء وثلاثة رجالٍ. بعضهم كان واقفاً أو يستند إلى نجران باب المطبخ، لكنّ الغالبية كانوا جالسين.

- أنا روساليند -قالت امرأةُ العمامة- أمُّك وأمّي كانتا صديقتين جدّاً.

وافق فاتِ بهزّة من رأسه. وصل من عمق البيت إجهاش. نهضت إحدى النسوةِ ودخلت إلى الغرفة. حين فتحت البابَ زاد الإجهاش، لكن حين أُغلقَ لم يعد يُسمع.

- إنّها أختي -قالت روساليند بحركة ضجرٍ-. هل تريد فنجان قهوة.

قال فاتِ بلى. حين ذهبت المرأة إلى المطبخِ اقتربَ رجلٌ كان واقفاً وسأله عمّا إذا كان يُريد أن يرى السيّدة هولي. قال نعم برأسه. قاده الرجلُ إلى غرفة النوم، لكنّه بقي خلفه، على الجانب الآخر من الباب. في السرير كانت ترقد جثّةُ الجارة ورأى بجانبها امرأة، تُصلّي راكعة على ركبتيها. رأى إلى جانب النافذة فتاةً بنطلونِ الجينز والبلوزة السوداء بأزهارها الصفراء جالسةً على الكرسيّ الهزّاز. كانت عيناها محمرّتين ونظرت إليه كما لو أنّها لم تره قط. حين خرج جلس على ذراع أريكةٍ كانت تشغله نسوة يتكلّمن بكلمات أحاديّة المقاطع. جين وضعت روساليند فنجان القهوة في يده سألها متى تُوُفِّيَت أمّها. هذا المساء، قالت روساليند بصوتٍ رزين. ما سبب وفاتها؟ أشياء تتعلّق بالعمر، قالت روساليند مبتسمةً. حين عاد فاتِ إلى البيت وجدَ أنّه كان ما يزال يحمل فنجان القهوة في يده. فكّر للحظة أن يعود إلى بيت الجيران، لكنّه فكّر بعدها أنّ من الأفضل أن يتركه إلى اليومِ التالي. لم يقدم على شرب فنجان القهوة. تركه بجانب أشرطة الفيديو وجرّة رمادِ أمّه، أشعل بعد ذلك التلفازَ وأطفأ أضواء البيت واستلقى على الأريكة. أطفأ الصوتَ.

في صباح اليوم التالي كان أوّل شيء رآه حين فتح عينيه سلسلةً من الصور المتحرّكة. كميّة هائلة من الفئران تجري في المدينة مُطلقةً زعيقاً أخرسَ. أخذ جهاز التحكّم بيد وبدّل القناة حين عثر على قناة أخبار،

شغَّل الصوتَ. غسل وجهه ورقبته وحين نشّف نفسه انتبه إلى أنّ تلك المنشفة كانت بما يشبه اليقين التام آخرَ منشفةٍ استخدمتْها أمُّهُ. شمّها، لكنّه لم يشمّ أيّ رائحة مألوفة. على رفّ الحمّام كان هناك عدّة علب أدوية وبعضُ حنجورات المراهمِ المرطّبة أو المضادة للالتهابات. هتفَ إلى عمله وسأل عن رئيس قسمه. فقط كان هناك زميلته في الطاولة فتكلّم معها. قال لها إنّه لن يذهب إلى المجلّة، فهو يُفكّر بأن يخرج خلال بضع ساعات إلى ديترويت. قالت هي إنّها كانت تعرف ذلك وتمنّت له حظّاً سعيداً.

- سأعودُ خلال ثلاثة، وربّما أربعة أيّام - قال.

أغلق بعدها الهاتفَ ومسّدَ قميصه، ارتدى سترته، نظر إلى نفسه في المرآة الموجودة بجانب المدخل، وحاول عبثاً أن يشجّع نفسه. إنّها ساعة العودة إلى العمل. بقي ساكناً ويده على مقبض الباب وفكّر بما إذا لم يكن من المناسب أن يأخذ معه جرّة الرماد إلى بيته. سأفعل ذلك حين أعود، فكّر، وفتحَ الباب.

في بيته ملك من الوقت ما يكفي فقط لأنّ يضع إضبارةَ باري سيمان، بعض القمصان والجوارب والسراويل الداخلية في حقيبته. جلس على كرسيّ وانتبه إلى أنّه متوتّر جدّاً. حاول أن يهدأ. انتبه، حين خرج إلى الشارع، إلى أنّها كانت تُمطر. في أيّ لحظة بدأت تُمطِر؟ كلّ سيارات الأجرة التي كانت تمرّ مشغولة. علّق الحقيبة إلى كتفه وراح يمشي ملتصقاً بحافّةِ الرصيف. أخيراً توقّفت سيارة أجرة. حين كان على وشك أن يُغلق الباب سمع شيئاً شبيهاً بطلقٍ ناريّ. سأل السائق عمّا إذا كان قد سمعه أيضاً. كان السائق أمريكيّاً لاتينياً يتكلّم الإنكليزية بشكلٍ سيّئ.

- في كلّ يوم تُسمع أشياء عجيبة في نيويورك - قال.

- ماذا تعني بكلمة عجيبة؟ - سأل.

- هذا! أنّها عجيبة - قال السائقُ.

بعد برهة نام فات، وكان يفتح عينيه بين الفينة والأخرى ويرى أبنيةً تمرّ حيث لا يبدو أنّ أحداً يعيش، أو جاداتٍ رماديةً مُبلَّلة بالمطر. ثمّ كان يُغمضُ عينيه ويعودُ لينام. استيقظ حين سأله السائقُ في أيّ بوّابة من المطار يريد أن يتركه.

- أنا ذاهب إلى ديترويت - قال وعاد لينام.

الشخصان اللذان كانا يشغلان المقعدين أمامه كانا يتحدّثان عن الأشباح. لم يكن باستطاعة فاتٍ أن يرى وجهيهما، لكنّه تصوّر أنّهما طاعنين في السن، ربّما في الستين أو السبعين من عمريهما. طلب عصيرَ برتقال. كانت المضيفة شقراء، تقارب الأربعين من عمرها، وفي عنقها بقعة كانت تُغطيها بمنديل أبيض جعلته حركة الركاب ينزلق إلى الأسفل. الشخص الذي كان يشغل المقعد المجاور كان زنجيّاً ويشرب زجاجة ماء. فتح فاتٍ حقيبته وأخرج إضبارة سيمان. راكبا المقعد الأمامي ما عادا يتكلّمان عن الأشباح، بل عن شخصٍ كان يُدعى بوبي. بوبي هذا كان يعيش في جاكسون تري، في ولاية ميشيغان. وكان يملك كوخاً بجانب بحيرة هورون. خرج بوبي هذا ذات مرّة في زورق وغرق. أخذ كيفما استطاع جذعاً كان يطفو هناك، جذعاً عجيباً وانتظر أن يطلع النهار. لكنّ الماء في الليل كان في كلّ مرّة أبرد وبدأ بوبي يتجمّدُ ويفقد قواه. راح يشعر في كلّ مرّة بوهن أكبر ومع أنّه حاول أن يربط نفسه بزناره إلى الجزع، إلاّ أنّه لم يستطِع أن يبذل جهداً أكثر مما بذل. بالكلام يبدو سهلاً، لكن في الحياة الواقعيّة من الصعب أن تربط جسدك إلى جذع منساب مع التيار. وهكذا استسلم، فكّر بالناس العزيزين عليه (هنا ذكرا شخصاً يُدعى جيغ، يمكن أن يكون اسم صديقٍ، كلبٍ أو ضفدع مدرّب) وتشبّث بكلّ قواه بالجذع. عندها رأى نوراً في السماء. ، اعتقد بسذاجة، أنّ الأمر يتعلّق بمروحيّة

خرجت لتبحث عنه وبدأ يصيح. ومع ذلك لم يتأخّر في أن ينتبه إلى أنَّ الطائرات المروحية تصدر صوتَ مراوح والنور الذي كان يراه لا يُصدِرُ هذا الصوتَ. بعد بضع ثوان انتبه إلى أنها كانت طائرة. طائرة ركّابٍ هائلة، ستنفجر مباشرة حيث كان يطفو متشبّثاً بالجذع. فجأة تبخّر كلّ تعبه. رأى الطائرة تمرّ تماماً فوق رأسه، كانت مشتعلة. وانغرزت الطائرة على بعد قرابةِ ثلاثمئة متر في البحيرة. سمع انفجارين وربّما أكثر. شعر باندفاع للاقتراب إلى حيث وقعت الكارثة، وهذا ما فعله ببطء شديد، لأنّه كان سهلاً استعمالُ الجذع، كما لو أنّه عوّامة. كانت الطائرة قد انشطرت شطرين وكان ما يزال شطرٌ واحد منها فقط يطفو. رأى بوبي، قبل أن يصل، كيف راح هذا الشطر يغرق ببطء في مياه البحيرة التي عادت لتصبح داكنة من جديد. بعدها بقليل بدأت تصل مروحيات الإنقاذ. لم يجدوا غير بوبي. شعروا بالإحباط حين قال لهم إنّه لم يكن مسافراً في الطائرة بل كان قد غرق بقاربه، بينما هو يصيد. على كلّ الأحوال صار مشهوراً لزمن، قال الذي كان يحكي القصّة.

- وهل ما يزال يعيش في جاكسون تري ؟ -سأل الآخر.

- لا، أظنّ أنّه يعيشُ الآن في كولورادو -كان الجواب.

ثمّ راحا يتكلّمان عن الرياضة. شرب جار فاتِ كلّ الماء وأطلق فواقاً بحشمة حاملاً يده إلى فمه.

- كذب -قال بصوت منخفض.

- ماذا تقول؟ -سأل فاتِ.

- كذب، كذب -قال الرجلُ.

فهمتُ، قال فاتِ، وأدار له ظهره وراح ينظرُ عبر النافذة إلى الغيوم التي بدت كأنّها كاتدرائية أو ربّما فقط كنائس ألعاب صغيرة مهجورة في متاهة مقلع رخام وأكبر مئة مرّة من إل غران كانيون[1].

---

(١) فجّ عميق حفره نهرِ كولورادو في منطقة أريزونا.

في ديترويت استأجر فاتِ سيّارة ثم وبعد أن راجع خريطة قدّمتها له وكالةُ السيارات ذاتها، توجّه إلى الحي الذي كان يعيش فيه باري سيمان.

لم يجده في بيته، لكنَّ طفلاً قال له إنّه يكاد يتواجدّ دائماً في بيتس بار، غير البعيد. كان الحيُّ يبدو حيَّ مُتقاعِدي فورد وجبنرال موتور. راح ينظر بينما هو يمشي إلى الأبنية، ذات الخمسة أو الستّة طوابق، ولم يكن يرى غيرَ العجائز جالسين على الأدراج أو يُدخّنون مستندين بمرافقهم إلى النوافذ. من حين لآخر كانت تظهرُ في زاوية مجموعةٌ من الصبية يتكلّمون جماعةً أو مجموعة من الطفلات يقفزن فوق الحبل. لم تكن السيارات المصفوفة جيّدة ولا من آخر الموديلات، لكن كان يظهر عيها حسن العناية.

كان البار بجانبِ عقار مهجور مليء بالأعشاب والأزهار البرّية التي تُخفي أنقاض البناء الذي كان في السابق قائماً هناك. على جدارٍ جانبيّ لبناءٍ مجاور رأى لوحة جداريّة بدت له غريبة. كانت دائرية، مثل ساعة وفي مكان الأرقام مَشَاهِدٌ لأناس يعملون في مصنع في ديترويت. اثنا عشر مشهداً يُمثّل اثنتي عشرة مرحلة من سلسلة الإنتاج. ومع ذلك تتكرّر في كلّ مشهدٍ شخصية واحدة: مراهقة زنجية طويلة، أو رجل زنجي طويل وهزيل لم يُغادر بعدُ أو يقاوم كيلا يُغادر طفولته، يرتدي ملابس تختلف من مشهدٍ لآخر، لكنّها دائماً صغيرة عليه، ويقوم بوظيفةٍ يمكن أن تبدو ظاهرياً وظيفة المهرّج، الشخص الموجود هناك كي يُضحكنا، بالرغم من أنّه إذا ما نظر المرء إليه بانتباهٍ أكبر ينتبه إلى أنّه هناك ليس فقط كي يُضحِكَنا. تبدو اللوحة من عملَ مجنون. آخر لوحة لمجنون. في منتصف الساعة حيث تصبّ كلّ المشاهد هناك كلمة مكتوبة بطلاء يبدو هلامياً: خوف.

دخل فاتِ إلى البار. جلس على تابوريه وسأل الرجل الذي يقوم على المحل من هو الفنان الذي رسم جداريّةَ الشارع. قال النادلُ، وهو

زنجيّ يُقارب السبعين من عمره، ضخم الجسم، في وجهه ندب طولية، إنّه لا يعرف.

- لا بدّ أنه أحد فتيةِ الحيّ -دمدم.

طلب كأس بيرة وألقى نظرة على البار. لم يقدر أن يُميّز سيمان بين الزبائن. سأل بصوت عالٍ والكأس في يده عمّا إذا كان هناك من يعرف باري سيمان.

- من يبحث عنه؟ -قال شخص قصير، يرتدي قميصَ فريقِ بستونز، وسترة قطنية سماويّة.

- أوسكار فاتِ -قال فاتِ- من مجلة *السَّحَر الأسود*، من نيويورك.

اقترب منه النادل وسأله عمّا إذا كان حقيقةً صحفيّاً. أنا صحفيّ من لا *سَّحَر الأسود*.

- يا أخي -قال الرجل القصير دون أن ينهض عن طاولته-، لمجلّتك اسم خراء. -رفيقاه على الطاولة ضحكا-. شخصيّاً سئمتُ من كثرة الأسحار -قال الرجل القصير-، بودي لو أنّ الأخوة في نيويورك يفعلون شيئاً بالمساء، الذي هو أفضل ساعة، على الأقل في هذا الحيّ البائس.

- سأقول لهم ذلك عندما أعود. أنا أجري مقابلات -قال.

- باري سيمان لم يأتِ اليومَ -قال عجوز كان جالساً مثله إلى طاولة عرض البار.

- أظنُّ أنّه مريض -قال آخر.

- الحقيقة أنّني سمعتُ شيئاً من هذا القبيل -قال عجوز طاولةِ العرض.

- سأنتظره برهةً -قال فاتِ، وانتهى من شرب بيرتهُ.

استند النادل بمرفقه إلى جانبه وقال له إنّه كان في شبابه ملاكماً.

- آخر ملاكمة لي كانت في أثينا، في كارولينا الجنوبيّة. صارعت فتى أبيض. من تعتقد أنّه فاز؟ -سأل.

نظر فات إلى عينيه وقام بحركة من فمه غامضة وطلب منه كأسَ بيرة آخر.

كان قد مضى عليّ أربعة أشهر لم أرَ فيها مدير أعمالي. فقط كنتُ مع مُدرِّبي، العجوز جوني توركاي، نطوف على مدن كارولينا الجنوبية وكارولينا الشمالية، ننام في أسوأ الفنادق. كنّا نمضي كأننا دائخين أنا من اللكمات التي أتلقاها والعجوز توركاي لأنّه كان قد تجاوز الثمانين من عمره. بلى، الثمانين ويمكن أن يكون تجاوز الثلاثة والثمانين. كنّا أحياناً نتناقش حول هذا قبل أن ننام والنور مطفأ. كان توركاي يقول إنّه أكمل الثمانين. وأنا أقول الثالثة والثمانين. كانت المباراة مطبوخة مسبقاً. قال لي رجل الأعمال إنّ عليّ أن أترك نفسي أسقط في الجولة الخامسة وأن أترك الخصم يعاقبني قليلاً في الرابعة، بالمقابل سيعطونني ضعف ما وعدوني به، والذي لم يكن كثيراً. قلتُ هذا لتوركاي بينما كنّا نتناول عشاءنا. بالنسبة إليّ لا توجد مشكلة، قال لي. لا توجد أيّ مشكلة. المشكلة هي أنّ هؤلاء الناس لا يفون بوعدهم بعد ذلك. لذلك فالأمر يعود إليك. هذا ما قاله لي.

عندما عاد إلى بيت سيمان كان يشعر بنفسه دائخاً. قمر هائل راح يتنقّل فوق أسطح الأبنية. اعترضه بجانب أحد المداخل شخص، قال له شيئاً إمّا أنّه لم يفهمه وإمّا أن كلماته بدت له غير مقبولة. أنا صديق باري سيمان، يا ابن العاهرة، قال له بينما كان يُحاوِل أن يأخذه من تلابيب سترته الجلديّة.

- على رسلك -قال الرجل-. خذ الأمر بهدوء، يا أخي.

رأى في عمق المدخل أربع أعين صفراء تلمع في الظلمة، ورأى

في اليد المتدلية للرجل الذي كان يُمسك به انعكاسَ القمر الفرور.

- أغرب عن وجهي إن كنتَ لا تريد أن تموت - قال.

- على رسلك، يا أخي، أفلتني أوّلاً - قال الرجل.

أفلته فاتِ وبحث عن القمر على الأسطح أمامه. تابعه. سمع، بينما كان يمشي، ضجيجاً في الشوارع الجانبيّة، وقع خطوات وجرياً، كما لو أنّ قسماً من الحيّ استيقظ توّاً. ميّز بجانب بناء سيمان سيّارته المستأجرة. تفحّصها. لم يفعل بها شيئاً. ثمّ قرع البوّاب الآلي فسأله صوت، بمزاج سيّئ جدّاً، ماذا كان يريد. عَرَّفَ فاتِ بنفسه وقال إنّه مراسل *السِّحر الأسود*. سمع في الإنترفون ضحكة رضا صغيرة. صعد الدرج زحفاً. شعر في لحظة ما أنّه ليس على ما يرام. كان سيمان ينتظره على بسطة الدرج.

- أحتاج للذهاب إلى الحمّام - قال فاتِ.

- يا يسوع - قال سيمان.

كان الصالون صغيراً ومتواضعاً، رأى كتباً كثيرة منتشرة في كلّ مكان وكذلك إعلاناتٍ ملصقة على الجدران وصوراً صغيرة موزّعة على الرفوف والطاولة وفوق التلفاز.

- الباب الثاني - قال سيمان.

دخل فات وراح يتقيّأ.

حين استيقظ وجد سيمان يكتب بقلم حبر. كان إلى جانبه أربعة كتب سميكة جدّاً وعدد من الورّاقات المليئة بالأوراق. كان سيمان يستخدم نظارة للكتابة. انتبه إلى أنّ ثلاثة من الكتب الأربعة كانت قواميس والرابعَ مجلّد سميك يُسمّى *الموسوعة الفرنسية المختصرة*، التي لم يسمعهم قط يتكلّمون عنها، لا في الجامعة ولا في حياته كلّها. كانت الشمسُ تدخل من النافذة. رفع عنه البطانية وجلس على الأريكة. سأل سيمان ماذا جرى. نظر إليه العجوزُ من فوق نظارته وقدّم له فنجان

قهوة. كان طول سيمان مئة وثمانين سنتيمتراً، على الأقل، لكنّه يمشي منحنياً قليلاً. كان يكسب عيشه من محاضرات لم تكن أجورها جيّدة، تتعاقد معه عادةً مؤسّساتٌ مدرسية تعمل في الغيتوات ومن حين لآخر جامعات صغيرة تقدّمية، لا تملك ميزانيات كافية. كان قد نشر قبل بضع سنوات كتاباً بعنوان: *وأنا آكل أضلاع خنزير مع باري سيمان*، جمع فيه كلّ الوصفات التي كان يعرفها عن أضلاع الخنزير، عامّة على الصاج أو الموقد، مضيفاً معلومات غريبة أو خارجة عن المألوف عن المكان الذي تعلَّم فيه الوصفة ومَنْ علَّمَهُ إيّاها وفي أيّ ظرف. أفضل قسم في الكتاب هو قسم وصفات أضلاع الخنزير مع بوريه البطاطا أو التفاح التي صنعها في السجن، طريقة الحصول على المواد الأوّلية، طريقة الطهي في مكان لا يسمحون له فيه بالطبخ، بين أشياء أخرى كثيرة. لم يَلقَ الكتابُ نجاحاً، لكنّه وضع اسمَ سيمان في التداول وظهر في عدد من البرامج التلفزيونية الصباحية وهو يطهو مباشرة بعض أشهر وصفاته. عاد اسمه الآن ليسقط في النسيان، لكنّه كان ما يزال يُلقي محاضراته ويُسافر في كلّ أنحاء البلد، أحياناً مقابلَ بطاقة السفر ذهاباً وإياباً وثلاثمئة دولار.

إلى جانب الطاولة التي كان يكتب عليها حيث جلسا ليتناولا القهوة، كان هناك إعلان بالأبيض والأسود يظهر فيه شابّان بسترتين سوداوين ونظارتين سوداوين. شعر فاتِ بقشعريرة، لكن ليس بسبب الإعلان بل بسبب سوء حالته، ثمّ وبعد أن شرب الرشفة الأولى سأل عما إذا كان هو أحد ذينك الفتيين. بلى، قال سيمان. سأل أيّ منهما. ابتسم سيمان. لم يكن في فمه سنّ واحد.

- صعب عليك أن تقول مَنْ، أليس كذلك؟

- لا أعرف، لا أشعر بنفسي مرتاحاً. بالتأكيد لو شعرت بنفسي في حالة جيدة لتكهّنتُ به - قال فاتِ.

- الذي إلى اليمين، الأقصر - قال سيمان.

- من الآخر؟ - سأل فاتِ.

- أحقّاً لا تعرف؟
عاد ونظر إلى الإعلان برهةً.
- ماريوس نيويل -قال فاتِ.
- صحيح -قال سيمان.

ارتدى سيمان سترة. دخل بعدها الغرفة وحين عاد ليخرج كان يعتمر قبّعة قصيرة الرفراف، خضراء داكنة اللون. أخرج من كأس في الحمام المعتم طقمَ أسنانه وثبته بعناية. راقبه فاتِ من الصالون. تمضمض بسائل أحمر، بصق، في المغسلة وعاد ليتمضمض وقال إنّه صار جاهزاً.

انطلقا في السيارة المستأجرة إلى رِبكا هولمز على بعد قرابة العشرين شارعاً فرعيّاً من هناك. وبما أنّهما كانا ما يزالان يملكان وقتاً فقد أوقفا السيارة بجانب الحديقة وراحا يتحادثان بينما هما يمطّان أرجلهما. كانت حديقة رِبكا هولمز كبيرةً وفي وسطها فضاء محميّ بسياج شبه مخرّب، مخصص لألعاب الأطفال يُدعى نصب معبد أ. هوفمان التذكاري، حيث لم يريا أيَّ طفلٍ يلعب. عمليّاً كان الفضاء الطفولي خالياً تماماً باستثناء فأرين راحا يجريان حين رأياهما. انتصبت بجانب أيكة من أشجار البلوط ظُلّةٌ ذات تصميم شرقيّ غامض، مثل كنيسة أرثوذكسية روسية مصغّرة. من الجانب الآخر من الظلّة كانت تُسمع موسيقى راب.

- أمقتُ هذا الخراء -قال سيمان- هذا الذي يبقى واضحاً في مقالك.

- لماذا؟ -سأل فاتِ.

تقدّما باتجاه الظلّة ورأيا بجانبها سرير بحيرة جافّة تماماً. فوق الطين الجاف بقيت آثار حذاء نيك متجمّدة. فكّر فاتِ بالديناصورات وعاد ليشعر بنفسه دائخاً. طافا حول الظلّةِ. رأيا على أرض الطرف

الآخر بجانب بعضِ الجنباتِ المسجلةَ التي كانت تخرج منها الموسيقى. قال سيمان إنّ موسيقى الراب لا تُعجبه لأنّ المخرج الوحيد الذي تُقدّمه هو الانتحار. لكنّه ليس ولا حتى انتحاراً ذا معنى. لا أعرف، ما عدت أعرف. من الصعب تصوّر انتحار ذي معنى. لا يوجد عادة. على الرغم من أنّني رأيتُ أو كنتُ قريباً من عمليتي انتحار ذَاتي معنى. أظنّ هذا. ربّما أنّني مخطئ، قال.

- بأيّ طريقة تُروِّجُ الراب للانتحار؟ -سأل فاتِ.

لم يجبه سيمان وقاده عبر طريق بين الأشجار من حيث خرجا إلى مرجٍ. على الرصيف ثلاثة أطفال يلعبون بالقفز فوق الحبل. بدت له الأغنية التي كانوا يُغَنّونها فريدة إلى درجة قصوى. تقول شيئاً عن امرأة كانوا قد بتروا ساقيها وذراعيها ولسانها. كانت تقول شيئاً عن مجارير شيكاغو وعن مدير المجارير أو عن موظّف عام يُدعى سِباستيان دونوفريو، يأتي بعدها دولابٌ يُردّد شي-شي-شي-شيكاغو. كانت تقول شيئاً عن تأثير لقمر. بعدها ينمو للمرأة رجلان من خشب وذراعان من سلك ولسانٌ من عشب ونباتاتٍ مجدولة. سأل شارداً تماماً عن سيارته فأجابه العجوز بأنّها على الجانب الآخر من حديقة رِبكا هولمز. عبرا الشارع وهم يتحدّثان عن الرياضة، مشيا مئة مترٍ ودخلا كنيسةً.

هناك تكلّم سيمان من فوق المنبر عن حياته. قدّمه الموقّر رونالد ك. فوستر، وإن كانت الطريقة التي قدّمه بها تدلّ على أنّ سيمان كان هناك قبل ذلك. سأعالج خمسة مواضيع، قال سيمان، لا أكثر ولا أقلّ. الموضوع الأوّل، **الخطر**. الثاني **المال**، الثالث **الطعام**، الرابع **النجوم**. الخامس **الفائدة**. ابتسم الناسُ وحرّك بعضُهم رأسه كعلامة استحسان، كما لو أنّهم كانوا يقولون له إنّهم متفقون معه، وإنّه ليس لديهم ما هو أفضل من الاستماع إليه. رأى في زاوية خمسةَ فتية، ما من أحدٍ منهم تجاوز العشرين عاماً، بسترات سوداء وكُماتٍ سوداء

ونظارات سوداء، كانوا ينظرون إلى سيمان بتعبيرٍ أبلهَ ويمكن أن يكونوا هناك كي يُصفّقوا له كما كي يشتموه. كان العجوز يتحرّك على الخشبة منحني الظهر إلى هذا الجانب وذاك، كما لو أنّه نسي فجأة خطابَهُ. فجأة غنّى الكورس بأمرٍ من الراعي، أغنيةً إنجيلية. كانت كلمات الأغنية تتحدَّث عن موسى وأسر الشعب الإسرائيلي في مصر. كان الراعي نفسه يُرافقهم على البيانو. عندها عاد سيمان إلى الوسط ورفع يداً (كان مُغمضَ العينين) فتوقّفت موسيقى الكورس بعد ثوان قليلة وساد الكنيسةَ صمت.

الخطر. بعكس ما كان الجميع (أو غالبية أبناء الرعية) يتوقّعونه، بدأ سيمان بالكلام عن طفولته في كاليفورنيا. قال من أجل الذين لا يعرفون كاليفورنيا، هي أشبه ما تكون بجزيرة مسحورة. هكذا تماماً. تماماً كما في الأفلام، لكن بشكلٍ أفضل. الناس يعيشون في بيوتهم المكوّنة من طابق واحد وليس في أبنية، قال، ثم وعلى الفور أسهب بالمقارنة بين بيوتٍ من طابق واحد أو من طابقين على الأكثر وبين الأبنية ذات الطوابق الأربعة أو الخمسة التي يتعطّل فيها المصعد يوماً ويوماً يكون خارج الخدمة. الشيء الوحيد الذي لا تخرج فيه الأبنية الطابقية خاسرة هي المسافة. إنّ حيّاً أبنيته طابقية يُقصّر المسافات، قال. كلّ شيء يبقى قريباً. تستطيع أن تذهب مشياً لتشتري الطعام، أو تستطيع أن تمشي إلى البار الأقرب (هنا غمز الموقّرَ فوستر)، أو إلى كنيسة طائفتك الأقرب، أو إلى المتحف. أي أنّك لا تحتاج لأن تأخذ سيّارة، بل لا تحتاج أن يكون عندك سيّارة. وهنا استفاض بسلسلة من الإحصائيات حول حوادث السيارات القاتلة في بلدة ديترويت أو بلدة لوس أنجلوس. هذا مع أنّها تُصنّع في ديترويت، قالَ، وليس في لوس أنجلوس. رفع إصبعاً، بحث عن شيء في جيب سترته وأخرج مرذاذاً لمرضى التهاب القصبات والرئة. انتظر الجميع صامتين. سُمع صوتُ

بخّتي المرذاذ حتى في آخر ركن من الكنيسة. عفواً، قال سيمان. حكى بعدها أنّه تعلّم قيادة السيارة في الثالثة عشر من عمره. ما عدت أفعل، قال، لكنّني تعلّمت في الثالثة عشر من عمري وهذا ليس شيئاً يملؤني بالفخار. في تلك اللحظة نظر إلى الصالة، إلى مكان غير محدّد وسط الجناح، وقال إنّه كان واحداً من مؤسّسي حزب الفهود السود. بالتحديد، قال، ماريوس نيويل وأنا. بدءاً من تلك اللحظة انعطفت المحاضرة انعطافة خفيفة. كان كما لو أنّ أبواب الكنيسة قد انفتحت، كتبَ فاتٍ في دفتر ملاحظاته، ودخلَ شبحُ نيويل. ثمّ وعلى الفور راح سيمان يتكلّم، كما لو أنّه يُريد أن يخرج من المستنقع، لكن ليس عن نيويل، بل عن أمّ نيويل، آنا جوردان، واستحضر مساهمتها الجميلة، عملها، هي العاملة في معمل مِضخاتٍ، عن تديّنها، فهي كانت تذهب كلَّ أحدٍ إلى الكنيسة، عن كدِّها، كان بيتها نظيفاً مثل حُقٍّ، عن ظرافتها، دائماً مُبتسمة للآخرين، عن مسؤوليتها، كانت تُقَدّم النصائح الحسنة والحكيمة، دون أن تفرضها. ليس هناك ما يفوق الأمَّ، ختم سيمان. أنا أسّستُ، مع ماريوس، الفهودَ السود. كنّا نعمل في أيّ شيء ونشتري بنادق ومسدسات للدفاع الذاتي عن الشعب. لكنّ الأمَّ أكثر قيمة من ثورة سوداء. أستطيع أن أؤكّد لكم. في حياتي الطويلة والمجازفة رأيتُ أشياءَ كثيرة. كنتُ في الجزائر، وكنتُ في الصين، وفي عددٍ من سجون الولايات المتحدة. ما من شيء يُعادل قيمةَ الأمّ . أقول هذا هنا وأقوله في أيّ مكان آخر وفي أيٍّ ساعة، قال بصوت مبحوح. اعتذرَ بعدها واستدارَ نحو المذبح، ثم عاد ليقف ووجهه نحو الجمهور. كما تعلمون، قال، قتلوا ماريوس نيويل. قتله زنجيٌّ مثلكم أو مثلي، ذات ليلة في سانتا كروث، في كاليفورنيا. أنا قلتُ له، يا ماريوس، لا تَعُدْ إلى كاليفورنيا، اعلمْ أنّ كثيراً من الشرطة عيونها علينا. لكنّه لم يكترث بقولي. كان يُحبّ كاليفورنيا. كان يُحِبّ أن يذهبَ إلى المناطق الصخرية أيّامَ الآحاد ويستنشق هواء المحيط

الهادي. حين كنّا أنا وهو في السجن كنتُ أستلمُ منه أحياناً بطاقات بريدية يقول لي فيها إنّه حلم بأنّه كان يستنشق هذا الهواء. وكان هذا شيئاً غريباً، قليلون هم الزنوج الذين عرفتهم وكانوا يُحبّون البحر كلّ هذا الحبّ، بالأحرى لم أعرف أحداً، وخاصّة في كاليفورنيا. لكنّني أعرف ما كان يعنيه ماريوس. حسن، بصراحة عندي نظريّة حول هذا الموضوع، حول لماذا لا نُحبُّ نحن الزنوج البحرَ. بلى نُحبّه. لكنّ نظريّتي ليس مكانها الآن. قال لي ماريوس إنّ الأشياء قد تغيّرت في كاليفورنيا. مثلاً يوجد الآن رجال شرطة زنوج أكثر بكثير من السابق. صحيح. بهذا المعنى تغيّرت. لكن هناك أشياء أخرى ما زالت على حالها. بالرغم من أنّ هناك أشياء تغيّرت وهذا ما يجب الاعتراف به. وماريوس كان يعترف به وكان يعرف أنّ جزءاً من الفضل كان يعود لنا. لقد ساهم النمور السود في التغيير. بحبّة رملنا أو شاحنتنا القلابة. ساهمنا. أيضاً ساهمت أمُّ ماريوس وبقيّةُ الأمهات الزنجيات، اللواتي كنّ بدل أن ينمن في الليل، يبكين ويتصوّرن أبوابَ الجحيم. هكذا كان أن قرّر أن يعودَ إلى كاليفورنيا ويعيش ما تبقى من حياته هناك، مطمئنّاً، دون أن يؤذي أحداً، وربّما ليؤسسَ عائلةً وينجبَ أبناءً. دائماً كان يقول إنّه سيُسمّي ابنه الأوّل فرانك، تخليداً لذكرى رفيقٍ مات في سجن سولِداد. في الحقيقة كان سينجب ثلاثين ابناً على الأقل كي يتذكّر رفاقه الميتين، أو عشرة يعطي كلَّ واحد منهم ثلاثة أسماء. أو خمسة يُعطي كلّ واحدٍ منهم ستّة أسماء. لكنّه في الحقيقة لم يُنجب أيَّ ابن، لأنّه بينما كان يمشي ذات ليلة في أحد شوارعِ سانتا كروث قتله زنجيّ. يقولون من أجل المال. يقولون إنّ ماريوس كان مديناً له وإنّهم لهذا السبب قتلوه، لكن يصعب عليّ أن أصدّق ذلك. أنا أعتقد أنَّ أحداً دفع لهم كي يقتلوه. كان ماريوس في تلك المرحلة يُقاتل ضدّ تجارة المخدرات في الأحياء. ولم يُعجِب هذا أحدَهم. يمكن ذلك. كنتُ ما أزال في السجن ولا أعرف جيّداً ما الذي جرى. لي رواياتي. فقط

أعرفُ أنّ ماريوس قُتِلَ في سانتا كروثْ، حيث لم يكن يعيش. إلى حيث ذهب ليُمضي بضعةَ أيّام، بالنتيجة من الصعب التفكير بأنّ القاتل كان يعيشُ هناك. يعني أنَّ القاتل لاحق ماريوس. والسبب الوحيد الذي يخطر لي التفكيرُ به وهو ما يُبرّر وجود ماريوس في سانتا كروث، هو البحر. ذهب ماريوس ليرى ويشمَّ المحيط الهادي. وانتقل القاتل إلى سانتا كروث متبعاً رائحةَ ماريوس. وحدث ما يعرفه الجميع. أتخيّلُ ماريوس أحياناً أكثر مما أرغب في أعماقي. وأنا أراه على شاطئ كاليفورنيا. في مكان ما من بيغ سور، مثلاً، أو على شاطئ مونتيري، إلى الشمال من فيشرمانز وارفْ، صاعداً شارع هايوي ١. كان مستنداً على مرفقه في مطلٍّ وظهره إلينا. الوقت شتاء والسياح قليلون نحن الفهود السود شباب، ما من واحدٍ منّا تجاوز الخامسة والعشرين من عمره. جميعنا مسلحون، وإن كنّا تركنا الأسلحة في السيّارة ووجوهنا تُعَبّرُ عن انزعاجٍ عميق. البحر يهدرُ. عندئذٍ أقتربُ من ماريوس وأقولُ له هيّا بنا من هنا الآن فوراً. وفي هذه اللحظة يلتفتُ ماريوس وينظرُ إليَّ. إنّه يبتسمُ. إنّه في الماوراء. ويُشير إلى البحر بيده، لأنّه عاجزٌ عن أن يعبّر بالكلمات عمّا يشعر به. عندئذٍ أخافُ، بالرغم من أنَّ مَنْ هو بجانبي أخي، وأُفكّرُ: البحرُ هو الخطرُ.

المال. بكلماتٍ قليلة، المالُ بالنسبة إلى سيمان ضروريّ، لكنّه ليس ضروريّاً إلى الحدّ الذي يقوله الناس. راح يتكلّم عمّا سمّاه «النسبيّة الاقتصادية». في سجن فولسوم، قال، كانت السيجارة تساوي عشرين بالمئة من علبة مربّى فريز صغيرة. على العكس في سجن سولِداد حيث كانت السيجارة تساوي ثلاثين بالمئة من تلك العلبة ذاتها من مربى الفريز. ومع ذلك فسيجارة في سجن والّا والّا كانت تساوي علبة المربى، لأسبابٍ من بينها أنّ سجناء والّا والّا، من يدري ما هي الأسباب، ربّما بسبب تسمّم غذائي، وربّما بسبب إدمانٍ على النيكوتين

هو في كلّ مرّة أكبر، كانوا يزدرون الأشياءَ الحلوة من أعماقهم ويحاولون أن يقضوا اليومَ في استنشاق الدخان. في الحقيقة كان المال لغزاً، قال سيمان، وهو لم يكن بسبب دراساته المعدومة، الشخصَ الأنسبَ للكلام عن هذا الموضوع. ومع ذلك كان عنده شيئان يقولهما. الأوّل هو أنّه لم يكن موافقاً على الطريقة التي كان الفقراءُ يُنفقون بها أموالهم، وخاصّة الفقراء الأمريكيين من أصول أفريقية. يفور دمي، قال، حين أرى قوّادَ عاهرات يتنزّه في الحيّ على متن سيارة ليموزين، أو لينكولن كونتيننتال. لا أستطيع أن أتحمّلَهُ. عندما يكسب الفقراء المال عليهم أن يتصرّفوا به بكثير من الكرامة، قال. عندما يكسب الفقراء المال عليهم أن يُساعدوا جيرانهم. عندما يكسب الفقراء مالاً كثيراً عليهم أن يُرسلوا أبناءهم إلى الجامعات ويتبنّوا يتيماً أو أكثر. عليهم أن يعترفوا علناً أنّهم كسبوا النصف فقط، وعليهم ألا يحكوا حتى لأبنائهم عمّا يملكون، لأنّ الأبناء يريدون بعدها كاملَ الإرث وليسوا مستعدّين لأنّ يشاركوا فيه أخوتهم في التبني. عندما يكسب الفقراء المال عليهم أن يحتفظوا بمبالغ سرّية ليساعدوا ليس الزنوج الذين يتعفّنون في سجون الولايات المتحدة فقط، بل وأيضاً كي يؤسّسوا شركات متواضعة، مثل المصابغ، البارات، محلات الفيديو، التي تولّد أرباحاً تصبّ في النهاية كاملة في مجتمعاتهم. منح دراسيّة. حتى ولو كانت نهاية الممنوحين سيّئة، حتى ولو انتهى الممنوحون إلى الانتحار من كثرة ما سمعوا راب أو إلى قتلِ أستاذهم الأبيض وخمسة من رفاقهم في الصفّ في فورة غضب. طريق المال مزروع بالإغواء والفشل اللذين يجب ألاّ تفتّا في عضد الفقراء المثرين، أو الأغنياء الجدد في مجتمعنا. يجب تطبيق هذه النقطة. يجب أن نُخرج ماءً ليس من الصخر فقط، بل ومنَ الصحراء أيضاً. بالرغم من أنّ المال يبقى دائماً مشكلة عالقة، قال سيمان.

الطعام. كما تعلمون أنتم، قال سيمان، أنا انبعثتُ بفضل أضلاع الخنزير. في البداية كنتُ فهداً أسودَ وواجهتُ شرطةَ كاليفورنيا، سافرتُ بعدها عبر العالم كلّه، وعشتُ بعدها سنواتٍ عديدة تدفع حكومة الولايات المتحدة الأمريكية نفقاتي. حين أطلقوا سراحي، لم أكن أحداً. كان الفهود السود قد اختفوا. كان بعضُهم يعتبرنا مجموعة إرهابية قديمة. آخرون يعتبروننا ذكرى غامضة للحلم الزنجي في الستينيات. ماريوس نيوبول ماتَ في سانتا كروث. رفاق آخرون ماتوا في السجون وآخرون اعتذروا علنياً وغيّروا حياتهم. الآن يوجد زنوج ليس في الشرطة وحدها. كان هناك زنوجٌ يشغلون مناصب عامّة، عُمْدات زنوج، محامون زنوج مشهورون، نجوم في التلفزيون والسينما وكان الفهود السود حجر عثرة. وهكذا حين خرجتُ إلى الشارع لم يكن قد بقي شيء أو بقي القليل جدّاً، بقايا كابوس يتصاعد منها الدخان. دخلناه حين كنّا مراهقين ونخرج منه الآن راشدين، نكاد نكون شيوخاً، يمكنني أن أقول، من دون مستقبلٍ ممكن، لأنّ ما كنّا نَعرفُ صنْعَهُ نسيناه خلال سنوات السجن الطويلة، وفي السجن لم نتعلّم شيئاً، ما لم يكن وحشية السجّانين وساديّة بعض المسجونين. هذه هي حالتي. وهكذا فإنّ أشهري الأولى في الإقامة الجبرية كانت كئيبة ورماديّة. كنتُ أمكث أحياناً ساعاتٍ أتأمّل أضواء الشارع وهي تومض، أضواء شارعٍ أيّاً كان الشارعُ، مطلاً من النافذة ومدخّناً بلا توقّف. لن أُنكِر أنّه مرّت في رأسي في أكثر من مناسبة أفكارٌ مشؤومة. شخص واحد فقط ساعدني دون مصلحة، أختي الكبرى، أسكنها الله جنّته. هي قدّمت لي بيتها في ديترويت، الذي كان صغيراً كفاية، لكنّه كان بالنسبة إليّ كما لو أنّ أميرةً أوروبيّة قدّمت لي قلعتها كي أمضي فيه فترة استراحة. كانت أيّامي رتيبة، لكنّني كنتُ أملك شيئاً لا أشكّ اليوم وبعد التجربة المتراكمة، في أن أُسَمّيه السعادة. في تلك الفترة كنت أرى بصورة منتظمة شخصين اثنين فقط: أختي، التي كانت الكائنَ

البشريَّ الأطيبَ في العالم والشرطي الذي يراقبني، وهو شخص بدين كان يدعوني أحياناً لأشربَ كأس ويسكي في مكتبه ويقول لي عادةً: كيف حدث وكنتَ شخصاً سيّئاً، يا باري. كنتُ أفكّر أحياناً أنّه كان يقول لي هذا كي يُثيرني. فكّرت ذات مرّة: هذا الشخص يقبض من شرطة كاليفورنيا ويريد أن يُثيرني كي يقتلني بعدها بطلقة في كرشي. حَدِّثْني عن فحو.. يا باري، كان يقول لي مشيراً إلى قدراتي الذكريّة، أو: حدّثني عن الأشخاص الذين قتلتهم. تكلّمْ يا باري، تكلّمْ. وكان يفتح درج مكتبه، حيث كنتُ أعرف أنّه يضع سلاحه، وينتظرُ. ولم يكن أمامي من مخرج غير أن أتكلّم. كنتُ أقول له: حسن، يا لُو، أنا لم أعرف الرئيس ماو، لكنّني نعم عرفتُ لين بياو، الذي أراد بعدها أن يقتل ماو والذي مات في حادث طائرة، بينما كان هارباً إلى روسيا. كان شخصاً قصيراً وأحذق من أفعى. هل تتذكّر أنتَ لين بياو؟ وكان لُو يقول لا لم يسمع في حياته أحداً يتكلّم عن لين بياو. حسن يا لُو، كنتُ أقول، كان وزيراً صينياً أو أمين الدولة الصينية، شيئاً من هذا القبيل. ولم يكن يوجد في تلك المرحلة أمريكيون شماليون كثر في الصين، أستطيع أن أؤكّد لك ذلك. يمكن أن أقول إنّنا نحن من عبّدَ الطريقَ أمام كيسنجر ونيكسون. وعلى هذا المنوال كان باستطاعتي أن أبقى مع لُو ثلاثَ ساعات، هو يطلب منّي أنّ أحدّثه عن الأشخاص الذين قتلتهم من دبرٍ، وأنا أُكلّمه عن السياسيين والبلدان التي عرفتها. إلى أن استطعتُ أن أزيحه أخيراً عن كاهلي، معتمداً على الصبرِ المسيحي، ولم أره بعدها. من المحتمل أنّ لُو مات بتشمّع الكبد. وتابعتْ حياتي طريقَها بالفزع ذاته والإحساس بالمؤقت ذاته. إذن حدث ذات أيِّ يوم أن تذكّرتُ أنّه كان هناك شيء لم أنسه. لم أنسَ الطهيَ. لم أنسَ أضلاعَ خنزيري. بمساعدة أختي، التي كانت قدّيسةً ويسحرها الكلام عن هذه الأشياء، رحتُ أسجّلُ كلَّ الوصفات التي كنتُ أتذكّرها، وصفاتِ أمّي، الوصفات التي طهوتها في السجن. الوصفات

التي كنتُ أحضّرها أيّام السبت في البيت، على سطح البيت، لأختي، بالرغم من أنّها لم تكن تهوى اللحمَ كثيراً. وحين أكملتُ الكتابَ ذهبتُ إلى نيويورك لأقابلَ بعضَ أصحاب دور النشر واهتمّ واحدٌ منهم والبقية تعرفونها. وضع الكتابُ اسمي في التداول مرّةً أخرى. تعلّمتُ الجمعَ بين فنّ الطهي والذاكرة. تعلّمتُ الجمعَ بين فنّ الطهي والتاريخ. تعلّمتُ الجمعِ بين فنّ الطبخِ وامتناني وحيرتي أمام طيب الناس الكثيرين، بادئاً بأختي المرحومة مارّاً بالكثير من الأشخاص. وهنا اسمحوا لي أن أكون دقيقاً. حين أقول حيرة، أعني أيضاً أعجوبة، أي الشيء الذي يُثير الدهشة، مثل زهرة الأقحوان أو مثل زهرة الأزالية، أو مثل الزهرة الخالدة. لكنّني أيضاً انتبهت إلى أنّ هذا لم يكن يكفي. لا أستطيع أن أعيش دائماً مع وصفات الأضلاع الشهيرة والشهيّة. فالأضلاع محدودة الإمكانيات. يجب أن أُغيّر. يجب أن أتمرّد وأغيّر. يجب أن أعرف كيف أبحثُ حتى ولو كنت لا أعرف عمّا أبحث. هكذا يمكن للمهتمين أن يشرعوا بإخراج قلم وورقة، فأنا سأُملي عليكم وصفة أخرى. هي وصفة البطّ بالبرتقال. لا ينصح بأكله يومياً، لأنّه ليس رخيصاً وتحضيره يجب يستغرق ليس أقلّ من ساعة ونصف، لكن لا بأس به مرّةً كلّ شهرين، أو عند الاحتفال بعيدِ ميلاد. هذه هي المكوّنات لأربعة أشخاص. بطّة بوزن كيلو ونصف، خمس وعشرون غراماً من الزبدة، أربعة أسنان ثوم، كأسا مَرَقٍ، مجموعة أعشاب، ملعقة ربّ البندورة، أربعة برتقالات، خمسون غراماً من السكر، ثلاث ملاعق براندي، ثلاث ملاعق خلّ، ثلاث ملاعق نبيذ شيرش، فلفل أسود، زيت وملح. شرح سيمان بعدها مختلفَ مراحلِ التحضير وحين انتهى قال فقط إنّ تلك البطّة كانت طبقاً رائعاً.

النجوم. قال إنّ المرء يعرف أنواعاً كثيرة من النجوم. تكلّم، لِنَقُلْ، عن النجوم التي تظهر في الليل، حين يذهب المرء من ديز موينيز

إلى لينكولن عبر الطريق ٨٠ وتتعطّل السيارة، لا شيء خطير، الزيت أو الرادياتور، وربّما عجلة مثقوبة، وينزل ويخرج العفريتة والعجلة الاحتياطية من صندوق الأمتعة ويُبدّل العجلة، في أسوأ الحالات خلال نصف ساعة وحين ينتهي ينظرُ إلى الأعلى ويرى السماء مغطاة بالنجوم. درب التبانة. تكلّم عن نجوم الرياضة. هؤلاء نوع آخر من النجوم، قال، وقارنهم بنجوم السينما، وإن دقّق قائلاً إنّ حياة نجم رياضيّ عادة ما تكون أقصر من حياة نجم سينمائي. حياة نجم رياضيّ تدوم في أحسن الحالات خمس عشرة سنة، بينما يمكن أن تدوم حياةُ نجم سينمائيّ أربعين أو خمسين سنة إذا كان قد بدأ عمله شاباً. بعكس النجوم التي يستطيع المرء أن يتأمّلها على جانب من الطريق ٨٠، بينما هو مسافر من ديز موينيز إلى لينكولن، فهي عادة ما تدوم ملايين السنين، أو يمكن أن تكون في لحظة تأمّلها قد ماتت منذ ملايين السنين، والمسافر الذي يتأمّلها لا يداخله شكّ بذلك. يمكن أن يتعلّق الأمر بنجم حيّ أو يمكن أن يتعلّق الأمر بنجم ميتٍ. أحياناً لا تكون هذه المسألة ذات أهمّية، قال، بحسب كيف ننظر إليها، فالنجوم التي يراها المرء ليلاً تعيش في مملكة المظاهر، هي مظاهر، تماماً كما أنّ الأحلامَ مظاهر. تماماً كما لا يعرف المسافر الذي انفجرت معه عجلة على الطريق ٨٠ ما إذا كان ما يتأمّله نجوماً أو على العكس أحلاماً. وبطريقة ما فإنّ هذا المسافر المتوقّف، قال، هو جزء من حلم، من حلم ينفصل عن حلمٍ آخر، تماماً كما تنفصل قطرةُ ماء عن قطرة ماء أكبرَ نُسميها موجة. عندما وصل سيمان إلى هذه النقطة نبّه إلى أنّ النجم شيء والنيزك شيء آخر. لا علاقة للنيزك بالنجم، قال. فالنيزك خاصّة إذا كان مساره يقوده إلى أن يصطدم مباشرةً بالأرض، لا علاقة له أبداً بنجم أو حلم، وإن كان، بلى، له علاقة بالانفصال، بنوع من انفصال العكسي. تكلّم بعدها عن نجوم البحر، قال إنّ ماريوس نبويل كان في كلّ مرّة يجوب بها شاطئاً من شواطئ كاليفورنيا يعثر، كيف

للمرء أن يعرف كيف، على نجمة بحر. لكنّه أيضاً قال عامّةً ما تكون النجوم التي يُعْثَرُ عليها على الشاطئ ميتة، جثثاً لفظتها الأمواج، مع أنّ هناك بعض الاستثناءات. كان نيويل يُميّز دائماً بين نجوم البحر الميتة وتلك التي كانت حيّةً. لا أدري كيف، لكنّه كان يميّز بينها. وكان يترك الميتَ منها على الشاطئ ويعيدُ الحيّ منها إلى البحر، كان يرمي بها قرب الصخور كي تملك على الأقل فرصتها. باستثناء مرّة واحدة حمل فيها نجمة بحر إلى البيت ووضعها في حوض سمك، في مياه مالحة من المحيط الهادي. حدث هذا حين كانت منظمة الفهود السود قد نشأت توّاً. وكانوا يتفرّغون لمراقبة المرور في الحي كي لا تسيرَ السياراتُ بكلّ سرعتها وتقتلَ أطفالاً. كانت تكفي إشارة مرور أو ربّما إشارتان، لكنّ البلدية لم تبغِ أن تضع أيّ شيء. وهكذا كان أن حدث أوّلُ ظهورٍ للفهود، كمُراقبين لحركة المرور. وفي تلك الأثناء كان ماريوس نيويل يعتني بنجمةَ بحره. طبعاً لم يتأخر في أن يكتشف أن حوضَ سمكه يحتاجُ إلى مُحَرّك. وذات ليلةٍ خرج مع سيمان والصغير نيلسون سانتشِث ليسرقاه. ما من واحد منهم كان مُسلّحاً. ذهبوا إلى حانوتٍ متخصّص ببيع الأسماك الغريبة في كولشيستر سون، حي البيض، ودخلوا من الجانب الخلفي. حين أصبح المحرّك في أيديهم ظهر شخصٌ ومعه بندقيّة. فكّرتُ أنّنا سنموت هناك. قال سيمان، لكن ماريوس قال عندها: لا تُطلقْ، لا تُطلقْ، إنّه لنجمةٍ بحرية. جمدَ رجلُ البندقية. تراجعنا. تقدّم الرجلُ، نحن توقّفنا. توقّف الرجل، عدنا لنتراجع. ذهب الرجل خلفنا. أخيراً وصلنا إلى السيارة التي كان يقودها نيلسون الصغير وتوقّف الرجلُ على بعد أقلّ من ثلاثة أمتار. حين أدار السيارة وضع الرجلُ بندقيته على كتفه وسدّد علينا. سَرِّعْ، قلتُ له. لا، قال ماريوس، تمهّل، تمهّل. خرجت السيارة باتجاه الشارع الرئيسي بسرعة دورةِ الدولاب والرجل خلفنا، يمشي مسدّداً بالبندقية. الآن، بلى، سَرِّعْ، قال ماريوس، وحين ضغط نيلسون

الصغير على دوّاسة السرعة، تجمّد الرجلُ وراح يصبح في كلّ مرّة أصغر، إلى أن رأيته يختفي في المرآة الأمامية. طبعاً لم يُفِد المحرّكُ ماريوس في شيء، وبعد أسبوعٍ أو أسبوعين وبالرغم من العناية التي كانت تتلقاها، ماتت نجمةُ البحر وانتهت إلى كيس القمامة. في الحقيقة يتكلّم الواحدُ منّا عن نجوم، يفعل ذلك بمعنى مجازيّ، ويُسمّى هذا مجازاً. يقول الواحد: إنّه نجم سينمائي. يقول الواحدُ: كانت السماء مُغطاة بالنجوم. ويتكلّم الواحد مجازاً. إذا ما صفعوا الواحدَ منّا بيمناهم على فكّه وتركوه مغشياً عليه، يُقال إنّه رأى النجومَ. مجاز آخر. المجازات هي طريقتنا للضياع في المظاهر أو لبقائنا جامدين في بحر المظاهر. المجاز بهذا المعنى مثل طوق نجاة. وعلينا ألاّ ننسى أنّ هناك أطواق نجاة تطفو وأطواقُ نجاة تنزل إلى القاع مثل الرصاص. هذا ما لا يجب أن ننساه أبداً. الحقيقة هي أنّه لا يوجدُ غير نجم واحدٍ وهذا النجم ليس أيّ مظهر ولا أيّ مجاز، ولا يطلع من الحلم أو الكابوس. وهو هناك في الخارج. إنّه الشمس. هذه للأسف، نجمنا الوحيد. حين كنتُ شابّاً شاهدتُ فيلمَ خيالٍ علميّ. سفينة فضائيّة تضيع اتجاهها وتقترب من الشمس. الملاحون الفضائيون يبدؤون يشعرون بآلام في الرأس، هذا أوّل شيء. بعدها يبدؤون يتصبّبون عرقاً غزيراً فيخلعون بزّاتهم الفضائيّة ومع ذلك لم يتوقّفوا عن التعرّق كمجانين وعن التجفاف. جاذبية الشمس تشدّهم بلا رحمة. تبدأ الشمس تُذيب غلاف السفينة. لا يستطيع المشاهدُ أن يتفادى أن يشعر وهو جالس في مقعده بحرٍّ لا يُطاق. ما عدتُ أتذكّر النهاية. أعتقد أنّهم يُنقَذون في اللحظة الأخيرة ويُصوِّبون اتجاهَ السفينة، مرّة أخرى باتجاه الأرض وتبقى الشمسُ في الخلف، هائلة، نجماً مجنوناً في فساحة الفضاء العظيمة.

الفائدة. لكن للشمس فائدتها، وهذا ما لا يغيب عن أيّ شخص يملك درهم عقل، قال سيمان. عن قرب هي الجحيم، لكنّها عن بعد

مفيدة وجميلة، وحده الخفّاش عاجز عن الاعتراف بذلك. بدأ بعدها يتكلّم عن الأشياء التي كانت مفيدةً سابقاً، والتي كان حولها إجماع، وتوحي الآن بعدم الثقة، مثل الابتسامات في الخمسينيات، مثلاً، قالَ، كانت الابتسامة تفتح لك أبواباً. أنا لا أعرف ما إذا كان باستطاعتها أن تفتح طرقاً، لكن أبواباً لا شكّ كانت تفتح. الآن الابتسامة توحي بعدم الثقة. سابقاً، إذا كنتَ بائعاً وتدخلُ إلى مكان ما، فالأفضل كان أن تفعل ذلك بابتسامة عريضة. الشيء ذاته إذا كنت نادِلاً أو تنفيذياً أو سكرتيراً، طبيباً، كاتبَ سيناريو أو جنائني. الوحيدون الذين لم يكونوا يبتسمون أبداً هم رجال الشرطة وموظّفو السجون. هؤلاء ما زالوا على حالهم. لكنّ البقيّة جميعهم كانوا يُحاولون أن يبتسموا. كان العصرَ الذهبيّ لأطباء أسنان الولايات المتحدة الأمريكية. كان البيضُ يبتسمون. الآسيويون يبتسمون، الأمريكيون اللاتينيون يبتسمون. الآن نعرف أنّه يمكن أن يتخفّى وراء الابتسامة أسوأ عدوّ. أو، لنقلْ ذلك بطريقة أخرى، ما عدنا نثق بأحدٍ، بدءاً من الذين يبتسمون، فهؤلاء تعرف أنّهم يُحاولون أن يحصلوا منكَ على شيء. ومع ذلك فالتلفزيون الأمريكي مليء بالابتسامات وبأسنان هي في كلّ مرّة أكثر تماماً. هل يريدون أن نضع ثقتنا فيهم؟ لا. هل يريدون أن يجعلونا نصدّق أنّهم أشخاص طيّبون، غير قادرين على إيذاء أحد؟ أيضاً لا. في الحقيقة لا يريدون منّا شيئاً. فقط يريدون أن يُرونا أسنانَهم، ابتساماتهم، دون أن يطلبوا منّا بالمقابل شيئاً، غير إعجابنا. إعجابنا. يريدوننا أن ننظرَ إليهم، هذا كلّ شيء. إلى أسنانهم التامّة، أجسادهم التامّة، آدابهم التامّة، كما لو أنّهم باستمرار ينفصلون عن الشمس وأنهم قطع من نار، قطع من جهنّم حامية، وجودهم على هذا الكوكب يخضع فقط للحاجة إلى الاحترام. حين كنتُ صغيراً، قال سيمان، لا أتذكّر أن الأطفال كانوا يحملون أشرطة معدنية في أفواههم. اليوم لا أكاد أعرفُ أطفالاً لا يتباهون بها. يفرضُ اللامفيدُ نفسَهُ ليس كنوعيّة في الحياة بل كموضة،

أو كمميّزات لطبقة تحتاج إلى الإعجاب، الاحترام. بالطبع للموضات أملٌ بالحياة قصير، سنة، أربع سنوات كحدّ أقصى، تمرّ بعدها بمختلف مراحل الانحلال. على العكس من مُمَيِّزِ الطبقة، فقط يتفسّخ حين تتفسّخ الجثّة التي تحمله. راح بعدها يتحدّث عن الأشياء المفيدة التي يحتاجها الجسد. في المكان الأول، الطعام المعتدل. أرى بدينين كثيرين في هذه الكنيسة، قال. أظنّ أنّ قليلين منكم يأكلون السلطة. ربّما حانت اللحظة كي أعطيكم وصفة. هذه الوصفة تسمّى ملفوف بروكسل بالليمون. سجّلوا، من فضلكم. المكوّنات لأربعة أشخاص: ٨٠٠ غرام من ملفوف بروكسل، عصير وشرائح ليمونة واحدة، بصلة، غصن بقدونس، ٤٠ غراماً من الزبدة، فلفل أسود وملح. تُحضّر بالطريقة التالية. واحد: تنظّف الملفوفة جيّداً وتزال الأوراق الخارجية، تُفرمُ البصلة والبقدونس فرماً ناعماً. اثنان: تُوضع الملفوفة في قدر فيه ماء يغلي وملح وتترك عشرين دقيقة، أو حتى تلين. تُصفّى بعدها جيّداً وتحفظ. ثلاثة: في مقلاة مدهونة بالزبدة يقلى البصل بشكل خفيف تُضاف إليه شرائح وعصير الليمونة وتُتبّل بحسب الذوق. أربعة: يُضاف الملفوف ويخلط بالصلصة ويُقلّب على النار لبضع دقائق، يرَشّ عليه البقدونس وتُقدّم مزيناً بشرائح الليمون. إنّه كي تمصّ أصابعك بعدها، قال سيمان. بلا كولسترول، جيّد للكبد، جيّد للدورة الدمويّة، صحّي جدّاً. بعدها أعطى وصفة سلطة الهندباء والقريديس وسلطة البروكلي ثمّ قال ليس بالأكل الصحيّ وحده يحيا الإنسان. يجب قراءة الكتب، قال. عدم مشاهدة التلفزيون كثيراً. يقول الخبراءُ إنّ التلفزيون ليس سيّئاً بالنسبة للعيون. أنا أسمح لنفسي بالشكّ بذلك. التلفزيون ليس جيداً بالنسبة للنظر والهواتف الجوّالة ما زالت لغزاً. ربّما كما يقولُ بعضُ العلماء، يُسبّب السرطان. أنا لا أنفي ولا أؤكّد، لكن هو ذا هناك. ما أقوله هو أنّه يجب قراءة الكتب. يعرفُ راعي الكنيسةِ أنّ ما أقوله حقيقة. اقرؤوا كتب زنوج. ولمؤلّفات زنجيّات. لكن لا تركدوا هناك.

هذه هي مساهمتي لهذه الليلة. حين يقرأ المرء لا يضيع وقته أبداً. أنا في السجن كنتُ أقرأ. هناك رحتُ أقرأ. كثيراً. كنتُ ألتهمُ الكتبَ كما لو أنّها ضُلَيّعات خنزير حَرَّة. في السجن يطفئون الأضواء باكراً جدّاً. يدخل المرء في سريره ويسمع ضجيجاً. خطوات، صرخات. كما لو أنّ السجن بدل أن يكون في مكان ما من كاليفورنيا كان داخلَ كوكبِ عطارد، المكان الأقرب للشمس . تشعر بالبرد وبالحرّ في آنٍ معاً، وهذا هو أوضح دليل على أنّك تشعر بنفسك وحيداً أو أنّك مريض. من المفروغ منه أنّ المرء يُحاولُ أن يُفكِّرَ بأشياء أخرى، بأشياء حلوة، لكنّه لا يستطيع دائماً أن يفعل ذلك. أحياناً يُشعل أحدُ الحرّاس الموجودين في المحرس الداخليّ مصباحاً فيلامس شعاعٌ منه قضبان الزنزانة. حدث هذا معي مرّاتٍ لا حصر لها. ضوء مصباح أسيئ وضعه أو نيون الرواق الأعلى أو الرواق المجاور. عندها كنتُ آخذ كتابي وأقترب من الضوء وأشرعُ بالقراءة. بصعوبة، فالحروف والفقرات تبدو مجنونة أو مذعورة من ذلك الجوّ الزئبقيّ والجوفيّ. لكنّه كان سيّان عندي فأقرأ وأقرأ، أحياناً بسرعة مُشَوَّشة حتى بالنسبة إليّ وأحياناً أخرى ببطء كبير، كما لو أنّ كلّ جملة أو كلمة كانت غذاء لجسمي كلّه، وليس فقط لدماغي. وكان باستطاعتي أن أبقى هكذا ساعاتٍ، دون أن يهمّني النوم أو الحالة التي لا مناص منها وهي أنّني كنتُ سجيناً لأنّني اهتممتُ بأخوتي، الذين لم يكن يهمّ غالبيّتهم قيدَ أنمله أن أتعفّن أو لا. كنتُ أعرف أنّني أفعل شيئاً مفيداً. كان هذا هو المهمّ. كنتُ أفعل شيئاً مهمّاً بينما السجّانون يمشون أو يتبادلون التحيّة خلال تبديل الوردية بكلمات لطيفة، كان لها بالنسبة إليّ وقع الشتائم، وإذا ما نظرتُ إليها جيّداً (خطر لي هذا توّاً) ربّما كانت شتائم. كنت أفعل شيئاً مفيداً. شيئاً مفيداً كيفما نظرنا إليه. القراءة مثل التفكير، مثل الصلاة، مثل الكلام مع صديق، مثل عرضكَ لأفكارك، مثل سماعك لأفكار الآخرين، مثل سماع الموسيقى (بلى، بلى)، مثل تأمّلِ منظرٍ، مثل الخروج للتنزّه على

الشاطئ. وأنتم، اللِطاف جدّاً، تتساءلون الآن: ما الذي كنتَ تقرؤه يا باري؟ كنتُ أقرأ كلَّ شيء. لكنّني أتذكّر على وجه الخصوص كتاباً قرأته في إحدى أكثر اللحظات قنوطاً فأعاد لي رصانتي. ما هو هذا الكتاب؟ هو كتاب يُسمّى خلاصة *أعمال فولتير الموجزة*، وأؤكّد لكم أنّه مفيد جدّاً، أو على الأقل كان بالنسبة إليّ مفيداً جدّاً.

في تلك الليلة وبعد أن ترك سيمان في بيته، نام فاتِ في الفندق الذي حجزته له فيه المجلّة من نيويورك. قال له عامل الاستقبال إنّهم انتظروه يوم أمس وسلّمه رسالة من رئيس قسمه يسأله فيها كيف كان كلّ شيء. هتف له من غرفته، وهو يعرف أنّه ما من أحد هناك في تلك الساعة، وترك له رسالة في المجيب الآليّ موضّحاً بشكل غامض لقاءه مع العجوز.

استحمّ ودخل في سريره. بحث عن برنامج في التلفزيون. عثر على فيلم تُمارس فيه ألمانية الحبَّ مع زنجيين. الألمانية تتكلّم الألمانيةَ والزنجيان أيضاً يتكلّمان الألمانية. تساءل عمّا إذا كان يوجد في ألمانيا زنوج أيضاً. ضجرَ بعدها وانتقل إلى قناة مجانيّة. رأى جزءاً من برنامج مبتذل حيث كان على امرأة بدينة تقارب الأربعين من العمر أن تتحمّل شتائم زوجها، وهو بدين في حدود الخامسة والثلاثين من عمره وشتائم خطيبته الجديدة شبه البدينة. الرجل، فكّر فاتِ، كان بوضوحٍ لوطياً. كان البرنامج يُبَثّ من فلوريدا. الجميع بأكمام قصيرة، باستثناء مُقدّم البرنامج، الذي كان يرتدي سترة أمريكية بيضاء، وبنطلوناً خاكيّ اللون، قميصاً رمادياً ضارباً للخضرة وربطة عنق عاجيّة. كان مقدّم البرنامج يوحي أحياناً بأنّه يشعر بعدم الراحة. كان البدين يؤشّر ويتحرّك مثل مغنّي راب، تهزّه خطيبته الجديدة شبه البدينة. على العكس منها كانت زوجة الرجل البدين، بقيت صامتة تنظر إلى الجمهور إلى أن انفجرت بالبكاء دون أيّ تعليق.

يجب أن ينتهي هذا هنا، فكّرَ فاتِ. ذلك البرنامج أو الجزء من البرنامج لم ينتهِ هناك. حين رأى البدين دموعَ زوجته ضاعف هجومه الكلاميّ. من بين الأشياء التي قالها، اعتقدَ فاتِ أنّه ميّز كلمة بدينة. أيضاً قال لها إنّه لن يسمح بأن تستمرّ بتدمير حياته. أنا لستُ لكِ، قال. قالت خطيبته شبه البدينة: هو ليس لكِ، عليكِ أن ترفعي العصبة عن عينيك. بعد برهة قامت المرأة الجالسة بردِّ فعلٍ. نهضت وقالت إنّه لم يعد بمقدورها أن تسمع أكثر. لم تقل هذا لزوجها ولا لخطيبته، بل لمقدّم البرنامج مباشرة. قال لها هذا إنّ عليها أن تتحمّل الوضع وأن تقول بدورها ما تراه مناسباً. جئتُ إلى هذا البرنامج مخدوعة، قالت المرأة بينما هي ما تزال تبكي. لا أحد يأتي إلى هنا بالخديعة، قال مُقدِّمُ البرنامج. لا تكوني جبانةً واسمعي ما عليه أن يقوله لكِ، قالت خطيبةُ البدين. اسمعي ما عليّ أن أقولهُ لكِ، قال البدين متحرّكاً حولها. رفعت المرأة يدها كما لو أنّها دريئة وخرجت من المنصّة. جلست شبهُ البدينة. أيضاً جلس البدين بعد برهة. سأل مقدّمُ البرنامج، الذي كان جالساً بين الجمهور، البدينَ ماذا كان يعمل. أنا الآن بلا عمل، لكنّني كنتُ حتى وقت قصير أعملُ حارساً أمنيّاً، قال هذا. بدّل فاتِ القناة. أخرج من البار الصغير زجاجة ويسكي صغيرة ماركة تورو تينيسي. شعر بعد الجرعة الأولى بالرغبة بالتقيّؤ. غطّى الزجاجة وعاد ليتركها في البار الصغير. بعد برهة نام والتلفزيون مشتعل.

قدّموا، بينما كان فاتِ نائماً، تحقيقاً عن أمريكية شمالية مختفية في سانتا تِرِسا، في ولاية سونورا، في شمال المكسيك. كان صاحب التحقيق أمريكياً من أصل مكسيكي يُدعى ديك مِدينا وكان يتكلّم عن اللائحة الطويلة للنساء المقتولات في سانتا تِرِسا، كثيرات منهنّ كنَّ ينتهين إلى الحفرة الجماعية في المقبرة، لأنّ أحداً لم يُطالب بجثثهنّ. كان مِدينا يتكلّم في الصحراء، خلفه كان يظهر الطريق وبعيداً جدّاً يظهر

لسان صخريّ أشار إليه مِدينا في لحظة ما من انفعاله قائلاً تلك هي أريزونا. كانت الريح تُخرّب شعر الصحفي الأسود والسبط، الذي كان يرتدي قميصاً قصير الكمّين. تظهر بعدها بعض مصانع التجميع وصوت مِدينا يقول إنّ البطالة غير موجودة عملياً في ذلك القطّاع من الحدود. ناس يقفون في صفّ على رصيف ضيق، شاحنات صغيرة مغطاة بغبار دقيق جدّاً، بلون براز طفل بنيّ. انهدامات أرضية مثل فوهات الحرب العالمية الأولى تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مكبات للقمامة. وجه مبتسم لشخص لا يتجاوز العشرين من عمره نحيل وأسمر، بارز الفكّين، قدَّمَهُ مِدينا صوتياً كمربي دجاج أو كثعلب[1] أو كدليل غير شرعيّ إلى هذا الجانب وذاك من الحدود. قال مِدينا اسماً، اسمَ شابّة. راحت تظهر بعدها شوارع بلدة من أريزونا، كان أصل الفتاة منها. بيوت بحدائق كسيحة وسياجات من أسلاك فضيّة مجدولة ومتسخة. يظهر وجه الأم المحزون. وجه الأب، الرجل الطويل، عريض المنكبين. كان ينظر بثبات إلى الكاميرا ولا يقول شيئاً. خلف هاتين الصورتين كانت تظهر ظلالُ ثلاث مراهقات. بناتنا الثلاث الأخريات، قالت الأمّ بإنكليزية لكناء. راحت الطفلات الثلاث، اللواتي لم تكن أكبرهم تتجاوز الخامسةَ عشرة من عمرها، يركضن باتجاه ظلّ البيت.

بينما كان هذا التحقيق التلفزيوني يُعْرَضُ في التلفزيون، حلم فاتِ بشخصٍ كان قد كتب عنه خبراً، أوّل خبرٍ ينشره في *السَّحَر الأسود*، بعد أنْ رفضت المجلّة له ثلاثة أعمالٍ. كان الشخص زنجيّاً عجوزاً،

(١) pollero بائع أو مربي دجاج coyote ثعلب أمريكي في المكسيك يُطلق الاسم الأوّل على من يرافق عابري الحدود غير الشرعيين ويُطلق الاسم الثاني على من يقوم بإجراءات العبور غير الشرعي. وقد يُطلقان على شخص واحد دون تمييز.

أضخم من سيمان، يعيشُ في بروكلي، وكان عضواً في الحزب الشيوعي في الولايات المتحدة الأمريكية. حين تعرّف عليه لم يكن قد بقي شيوعيٌّ واحدٌ في بروكلي، لكنّ الرجلَ حافظ على نشاط خليّته. ماذا كان اسمه؟ أنطونيو عوليس جونز، بالرغم من أنّ شبابَ حيِّهِ كانوا يُسمونه العجوز المجنون أو كيس العظام أو الجلد، لكنّ بعامة كانوا ينادونه صبي سكوتسبورو، بين أسباب أخرى لأنّ العجوز أنطونيو جونز كان يتكلّم عن أحداث سكوتسبورو، عن محاكمات سكوتسبورو، عن الزنوج الذين كانوا على وشك أن يُعْدَموا دون محاكمة، والذين لا أحد في حيّهم في بروكلي كان يتذكّرهم.

حين تعرّف عليه فاتِ بمصادفة محضة، كان أنطونيو جونز يقارب الثمانين من عمره ويعيش في شقّة من غرفتين في إحدى أكثر مناطق بروكلي فاقة. في الصالون كان هناك طاولة وأكثر من خمسة عشر كرسيٍّ خشبي قابلٍ للطيّ طويل الأرجل وقصير الظهر. على الجدار كانت معلّقة صورة شخص ضخم جدّاً، بطول مترين على الأقل، يرتدي لباس عامل من تلك المرحلة، لحظةَ تلقيه شهادة مدرسية من طفل كان ينظر إلى الكاميرا مباشرة ويبتسم مظهراً أسناناً شديدة البياض والتمام. كان وجهُ العامل العملاق يبدو على طريقته أيضاً وجهَ طفل.

- هذا أنا -قال أنطونيو جونز لِفاتِ في المرّة الأولى التي ذهب فيها إلى بيته-، والضخم هو روبِرت مارتيُّو سميث، عامل صيانة في بلدية بروكلين، خبير في الدخول إلى المجاري، ومصارع تماسيح طول الواحد منها عشرة أمتار.

خلال الدردشات الثلاث التي أجرياها، سأله فاتِ أسئلةً كثيرة، بعضها كي يُحرّك ضميرَ العجوز. سأله عن ستالين فأجابه أنطونيو جونز بأنّ ستالين كان ابن عاهرة. سأله عن لينين فأجابه أنطونيو جونز بأنّ لينين كان ابن عاهرة. سأله عن ماركس فأجابه أنطونيو جونز بأنّه كان عليه أن يبدأ من هناك بالضبط: كان ماركس شخصاً رائعاً. بدءاً من

تلك اللحظة راح أنطونيو جونز يتكلّم عن ماركس بأفضل الكلمات. فقط كان هناك شيء واحدٌ لا يُعجبه عند ماركس: نزقه. وعزا هذا إلى الفقر، فالفقر لم يكن يُوَلّد أمراضاً وضغائن وحسب بل ونزقاً أيضاً. سؤال فات التالي كان حول رأيه بسقوط جدار برلين وتتالي انهيار أنظمة الاشتراكية الحقيقيّة. كان متوقّعاً فأنا تكهّنت به قبل عشر سنوات من حدوثه، كان هذا هو جواب أنطونيو جونز. ثمّ ودون مناسبة راح يُنشد النشيد الأُمميّ. فتح النافذةَ وراح ينشد المقاطع الأولى بصوت عميق، لم يكن يتوقّعه فاتِ أبداً: هبّوا يا فقراء العالم، انهضوا يا عبيداً بلا خبز. حين انتهى من الغناء سأل فاتِ عمّا إذا لم يكن قد بدا له أنّ النشيد قد وُضِعَ بخاصّة للزنوج. لا أعرف، قال فاتِ، لم أُفكّر به قط بهذه الطريقة. رسم له بعدها رسماً إجماليّا ذهنياً لشيوعيي بروكلين. خلال الحرب العالمية الثانية كانوا أكثر من ألف. ارتفع العدد بعد الحرب إلى ألف وثلاثمئة تقريباً. عندما بدأت المكارثية صاروا فقط سبعمئة، تقريباً، وحين انتهت لم يبقَ أكثر من مئتي شيوعيّ في بروكلين. في الستينيات فقط النصف وفي بداية السبعينيات لم يكن بمقدور المرء أن يعدّ أكثر من ثلاثين شيوعيّاً متناثرين في خمس خلايا غير قابلة للإنقاص. في نهاية السبعينيات لم يبق غير عشرة، ولم يبق في بداية الثمانينيات غير أربعة. خلال ذلك العقد مات اثنان من هؤلاء الأربعة بالسرطان وانسحب آخر دون أن يقول لأحد شيئاً. ربّما ذهب في رحلة ومات في طريق الذهاب أو في طريق العودة، فكّر أنطونيو جونز. الصحيح هو أنّه لم يظهر بعدها، لا في محلّه ولا في منزله ولا في البارات التي اعتاد على ارتيادها. ربّما ذهب إلى فلوريدا ليعيش مع ابنته. كان يهوديّاً وعنده ابنة تعيش هناك. الصحيح هو أنّه في عام ١٩٨٧ لم يبقَ غيري، وما زلت هنا. لماذا؟ سأل فاتِ. تفكّر أنطونيو جونز لبضع ثوان بالجواب الذي سيُعطيه. نظر أخيراً إلى عينيه وقال:

- لأنّه يجب أن يكون هناك من يُحافظ على الخليّة فعّالةً.

كانت عينا جونز صغيرتين وسوداوين كالفحم، وكانت أجفانه مليئة بالتجاعيد. لم يكن له أهداب تقريباً وشعر حاجبيه بدأ يختفي وحين كان يخرج إلى الشارع ليتمشّى كان يضع نظارة سوداء ويحمل عكّازاً يتركه بعد ذلك بجانب الباب. كان باستطاعته أن يقضي أيّاماً بكاملها دون أن يأكل. في عمرٍ معيّن يصبح الطعام ضارّاً، كان يقولُ. لم يكن عنده أيّ اتصال مع أيّ شيوعي لا في الولايات المتحدة ولا في الخارج، باستثناء أستاذ مُتقاعد من جامعة كاليفورنيا-لوس أنجلوس، يُدعى دكتور مينسكي، الذي كان يتكاتب معه من حين لآخر. انتميت حتى خمس عشرة سنة خلت إلى الأمميّة الثالثة. أقنعني مينسكي كي أدخل في الرابعة، ثم قال:

- يا بُني سأهديك كتاباً سيعود عليك بمنفعة كبيرة.

ظنّ فات أنّه سيهديه البيان لماركس، ربّما بسبب أنّه رأى بين أكداسِ الكتب في الزوايا وتحت الكراسي نسخاً عديدة منه نشرها أنطونيو جونس نفسه، من سيعرف بأيّ مال أو تحايل على الطابعين، لكنّه عندما وضع العجوزُ الكتاب بين يديه رأى مندهشاً أنّه لم يكن *البيان* بل مجلداً سميكاً بعنوان: *تجارة الرّق*، كتبه شخص يُدعى هوغ توماس، الذي لم يسمع به أبداً. رفض في البداية أن يقبله.

- إنّه كتاب غالٍ وبالتأكيد ليس عندك غير هذه النسخة -قال.

كان جواب جونس أن لا يهتمّ، فهو لم يُكلّفه مالاً بل دهاءً، وهو ما استنتج منه أنّه سرق الكتاب، وهذا ما بدا له غير معقول، فالعجوز لم يكن أهلاً لمثل هذا الخبب، بالرغم من أنّه يُحتمل أن يكون له في المكان الذي كان يقوم فيه بهذه الاختلاسات شريك، زنجيّ شابّ يغضّ الطرْفَ حين كان يضع جونس كتاباً داخل سترته

فقط حين تصفّح الكتاب بعدَ ساعات في شقّته انتبه إلى أنّ الكاتب كان أبيضَ، إنكليزياً أبيض، إضافة إلى أنّه كان أستاذاً في أكاديمية ساندهيرست العسكرية. وهو ما كان يساوي بالنسبة إلى فاتِ تقريباً

مدرّباً، رقيباً بريطانياً بائساً، ببنطلون قصير، ولذلك ترك الكتابَ جانباً ولم يقرأه. فيما عدا ذلك لاقت المقابلةُ مع أنطونيو عوليس جونز استقبالاً جيّداً. لاحظ فاتِ أنّ المقابلة لم تتعدّ بالنسبة إلى غالبية زملائه المغامرة الأفريقية الأمريكية. مبشرّ معتوه، موسيقي جاز سابق معتوه، عضو وحيد ومعتوه في الحزب الشيوعي في بروكلين (الأمميّة الرابعة). طرافة اجتماعية. لكنّ المقالة نالت الإعجابَ وتحوّل هو بعد وقتٍ قصير إلى محرّر صفحة. لم يرَ بعدها أنطونيو جونز، تماماً كما من المحتمل ألا يرى وبالطريقة ذاتها باري سيمان.

حين استيقظ لم يكن قد طلع الفجرُ بعد؟

قبل أن يُغادر ديترويت ذهب إلى المكتبة الوحيدة الجيدة في المدينة واشترى *تجارة الرقّ* لهوغ توماس، الأستاذ السابق في أكاديمية ساندهورست العسكرية. ثمّ أخذ جادّة وودورد أفينو وطاف في مركز المدينة. فطر فنجانَ قهوة وقطعةَ خبز مُحمّص في مقهى غريكتاون. حين رفض طعاماً أقوى، سألته النادلةُ، وهي شقراء تقارب الأربعين من عمرها، عمّا إذا كان مريضاً. قال لها إنّ معدته ليست على ما يرام. عندئذ أخذت النادلةُ فنجانَ القهوة الذي جاءته به وقالت إنّ عندها شيئاً أكثر ملاءمة له. ظهرت بعد برهة قصيرة بمغلي اليانسون والبولدو الذي لم يسبق لِفاتِ أن ذاقه وأبدى في اللحظات الأولى رفضاً لتذوّقه.

- هذا هو ما يُناسبكَ، وليس القهوة -قالت النادلةُ.

كانت امرأة طويلة ونحيلة، بثديين كبيرين جدّاً ووركين جميلين. كانت ترتدي تنورة سوداء وبلوزة بيضاء وحذاء بلا كعب. بقيا برهة دون أن يقولا شيئاً، في صمت متحفّز، إلى أن هزّ فاتِ كتفيه وبدأ يشرب المغليّ رشفة بعد رشفة. عندها ابتسمت النادلةُ وذهبت لتهتمّ بالزبائن الآخرين.

في الفندق وبينما كان يستعدّ لأن يُلغي حجزَهُ وجد رسالةً صوتية من نيويورك. صوتٌ لم يميّزه يطلب منه أن يتصل برئيس قسمه أو برئيس قسم الرياضة بأسرع ما يستطيع. هتف من اللوبي. تكلّم مع جارته في الطاولة فقالت له هذه أن ينتظر ريثما تحاول أن تجد رئيس القسم. بعد برهة جاءه صوت لم يعرفه وعرّف نفسه بأنه جيف روبيرتز، رئيس قسم الرياضة، راح يكلمه عن مباراة ملاكمة. يصارع فيها كونت بيكت، قال، وليس عندنا من يُغطّي الحدث. كان الرجل يناديه بأوسكار كما لو أنهما يعرفان بعضهما بعضاً منذ سنوات ولم يتوقّف عن الكلام عن كونت بيكت، وهو أمل هارلم في الوزن شبه الثقيل.

- وما علاقتي أنا بهذه؟ -سأل فاتِ.

- حسن، يا أوسكار -قال رئيس قسم الرياضة-، أنت تعرف أنّ جيمي لويل قد مات ولا يوجد عندنا من يحلّ محلّه.

فكّر فات أن المصارعة ربّما تتم في ديترويت أو في شيكاغو، ولم تبدُ له فكرة سيّئة أن يقضي بضعة أيّام بعيداً عن نيويورك.

- هل تريدني أن أكتب أنا خبر المصارعة؟

- هو كذلك، يا فتى -قال روبيرتز-، بحدود الخمس صفحات، وصف موجز لبيكت، المصارعة وبعض اللون المحليّ.

- أين المباراة؟

- في المكسيك، يا فتى -قال رئيس قسم الرياضة-، وخُذْ بالحسبان أنّنا نعطي مكافأة أعلى من مكافأة قسمك.

اتجه فات والحقيبة جاهزة لآخر مرّة إلى بيت سيمان. وجد العجوز يقرأ ويُسجّل ملاحظات. كانت تصل من المطبخ رائحة توابل وطبيخ خضار.

- أنا ذاهب -قال-، جئتُ فقط كي أودّعك.

سأله سيمان عما إذا كان ما يزال عنده وقت كي يأكلَ شيئاً.

- لا، ليس لديّ وقت - قال فاتِ.

تعانقا وهبط فاتِ درجات الدرج ثلاثاً بثلاث، كما لو أنّه مستعجل كي يصل إلى الشارع أو مثل طفل يستعد ليمضي مساءً حرّاً مع أصدقائه. تساءل، كان يقود السيارة باتجاه مطار ديترويت واين كونتي راح يُفكّر بكتب سيمان الغريبة، *الموسوعة الفرنسية الموجزة*، وذاك الذي لم يره لكنّ سيمان أكّد أنّه قرأه في السجن، وموجز *أعمال فولتير المقتضب*، جعلاه يُطلق قهقهةً.

اشترى في المطار بطاقةً إلى توكسون. تذكَّرَ، بينما كان ينتظر مستنداً بمرفقه إلى طاولة عرض مقهى، الحلم الذي رآه في تلك الليلة ومعه أنطونيو جونس الذي كان قد مضى على وفاته بضع سنوات. تساءل، كما فعل وقتها، ممّ مات، وكان الجواب الوحيد الذي خطر له هو من الشيخوخة. وذات يومٍ بينما أنطونيو جونس يسير في أحد شوارع بروكلين شعر بأنه مُتعب فَجلس على الرصيف وبعد ثانية ما عاد موجوداً. ربّما حدث لأمّي شيءٌ مشابه، فكّر فاتِ، لكنّه كان يعرف في أعماقه أنّ هذا ليس صحيحاً. حين أقلعت الطائرة من ديترويت كانت قد بدأت عاصفة راحت تفرغ شحنتها فوق المدينة.

فتح فاتِ كتابَ ذلك الأبيض، الذي كان أستاذاً في ساندهورست، وبدأ يقرؤه من الصفحة ٣٦٢. كان يقول: *فيما وراء دلتا النيجر، يعودُ شاطئ أفريقيا ليتجهَ أخيراً، نحو الجنوب وهناك في الكاميرون بدأ تجّار ليفربول فرعاً جديداً من تجارة الرقيق. إلى الجنوب كثيراً، دخل أيضاً نهرُ غابون، إلى الشمال من رأس لوبَتْ، في النشاط نحو عام ١٧٨٠، كمنطقة رقّيق. بدا لجون نيوتن المحترم أنّ هذه المنطقة تملكُ «أجمل الكائنات البشرية التي وجدتُها في أفريقيا وأكثرها أخلاقاً»، ربّما «لأنّها كانت أقلّ المناطق علاقةً مع الأوروبيين في ذلك الوقت». لكن مقابل*

شاطئها كان الهولنديون قد استخدموا قبل ذلك بوقت طويل جزيرة كوريسكو (التي تعني في البرتغالية «برق») كمركز تجاريّ وإن لم يكن بالتحديد لتجارة الرقيق. رأى بعدها صورة توضيحية، كان في الكتاب صور توضيحية كثيرة، تُظهر حصناً برتغالياً على ساحل الذهب، يُسمى إلمينا، استولى عليه الدنمركيون في عام ١٦٣٧. كان إلمينا خلال ثلاثمئة وخمسين سنة مركزاً لتصدير الرقيق. على الحصن وعلى حصن الدعم الصغير الذي يقع فوق تلّ، يرفرف علم، لم يستطع فاتِ أن يُحدّد هويّته. إلى أيّ مملكة يعود هذا العلمُ؟، تساءل قبل أن يُغمض عينيه وينام والكتاب على رجليه.

استأجرَ في مطار توكسون سيّارةً، اشترى خريطةَ طرقٍ وخرج من المدينة باتجاه الجنوب. ربّما أيقظ هواء الصحراء الجافّ عنده شهيته فقرّر أن يتوقّف عند أوّل مطعم على الطريق. سيارتا كامارو موديل العام ذاته واللون ذاته تقدّمتا عليه ضاغطتين على الزمور. فكّر أنّهما تتسابقان. من المحتمل أنّ محرّكي السيارتين مُعَدّلين وكان هيكلهما يلمع تحت شمس أريزونا. مرّ أمام كوخٍ صغير يبيع برتقالاً، لكنّه لم يتوقّف. كان الكوخ على بعد مئة مترٍ عن الطريق، وكانت بسطة البرتقال، عبارة عن عربة خيول قديمة بمظلّة، ذات عجلات خشبية كبيرة، على حافّة الطريق يقوم عليها طفلان مكسيكيان. بعد كيلومترين تقريباً رأى محلاً يُسمّى ركن كونتشيسِ فصفّ سيارته في منطقة واسعة، بجانب محطّة وقود. كانت سيارتا الكامارو مصفوفتين بجانب علم قسمه العلوي أحمر وقسمه السفليّ أسود. في الوسط دائرة بيضاء يمكن أن يُقرَأ فيها نادي سيارات تشيريكاهوَا. فكّر للحظة أنّ السائقين هنديّان، لكنّ الفكرة بدت له بعد ذلك غير معقولة. جلس في زاوية من المطعم، بجانب نافذة يستطيع أن يرى من خلالها سيّارته. على الطاولة التي بجانبه كان هناك رجلان. كان واحد منهما شاباً طويلاً له مظهر

أستاذ معلوماتيّة. كان سهل الابتسام ويرفع أحياناً يديه إلى وجهه بحركة يمكن أن تُعبّر عن الدهشة كما عن الرعب أو أيّ شيء آخر. لم يكن يستطيع أن يرى وجه الآخر، لكنّه كان واضحاً أنّه أكبرُ سنّاً من رفيقه. كان عنقه غليظاً وشعره أبيض تماماً ويستخدم نظارة. حين كان يتكلّم أو حين كان يُصغي يبقى رزيناً لا يؤشّر ولا يتحرّك.

كانت النادلة التي اقتربت لتهتمّ به مكسيكية. طلب قهوة وبقي بضع دقائق يراجع لائحة المأكولات. سأل عمّا إذا كان عندهم كلوب سندويش. نفت النادلة برأسها. شريحة لحم عجل، قال فاتِ. شريحة مع الصلصة؟، سألت النادلة. مما هي الصلصة؟، سأل فاتِ. من الفلفل الحرّ والبندورة والبصل والكزبرة. كما أنّنا نضيف إليها بهارات أخرى. لا بأس، قال، لنجرّب حظّنا. حين ابتعدت النادلةُ تأمّلَ المطعمَ. على طاولة رأى هنديّين، واحد راشد والآخر مراهق، ربّما كانا أباً وابناً. على أخرى رأى أبيضَيْن تُرافقهما مكسيكيّة. كان الشخصان متماثلين تماماً، توأمين من بيضة واحدة يقاربان الخمسين من عمرهما والمكسيكية تقارب الخامسة والأربعين ويُلاحَظ أنّ التوأمين مسحوران بها. هذان هما صاحبا سيارتي الكامارو، فكّر فات. أيضاً انتبه إلى أنّه ما من أحدٍ في كلّ المطعم كان زنجيّاً غيره.

قال رجلُ الطاولة المجاورة الشابُّ شيئاً عن الإلهام. فاتِ فهم فقط: أنت كنت ملهماً بالنسبة إلينا. قال الرجل الأشيب ليس لذلك أهمّية. رفع الرجلُ الشابّ يديه إلى وجهه وقال شيئاً عن الإرادة، إرادة الإبقاء على نظرة ثابتة. رفع بعدها يديه عن وجهه وقال بعينين برّاقتين: لا أقصد نظرة طبيعيّة، صادرة عن المملكة الطبيعية، بل نظرة مجرّدة. قال الرجل الأشيب: طبعاً. عندما حاصرتَ أنت جورفيتش، قال الرجل الشابُّ، وهنا ألغى ضجيج محرّك ديزل مُصِمّ صوته. شاحنة نقل كبيرة الحمولة صفّت في الفسحة. وضعت النادلة القهوةَ وشريحة اللحم

مع الصلصة على الطاولة. كان الرجلُ الشابّ يتابع كلامه عن هذا المدعو جورفيتش الذي حاصره الرجل الأشيب.

- لم يكن صعباً - قال الرجل الأشيبُ.

- قتل غير منظّم - قال الرجل الشابّ وحمل يده إلى فمه كما لو أنّه سيعطس.

- لا - قال الرجل الأشيبُ -، قتل مُنظّم.

- آه، كنتُ أظنّه غير منظَّم - قال الرجل الشابّ.

- لا، لَا، لا، بل قتل مُنظّم - قال الرجل الأشيب.

- أيّهما أسوأ؟ - سأل الرجل الشاب.

قطع فاتِ قطعة من اللحم. كانت سميكة وطرية وحسنة الطعم. كانت الصلصة لذيذة خاصّة بعد أن يعتاد المرء على الحارّ.

- غير المنظّم - قال الرجل الأشيبُ -. يكلّف وضعُ مقياسِ سلوكه أكثر.

- لكن هل يتمّ وضعه؟ - سأل الرجل الشابّ.

- بالوسائل ومع الزمن كلّ شيء يتمّ - قال الرجل الأشيب.

رفع فاتِ يده ونادى النادلة. أسندت المكسيكية رأسها إلى كتف أحدِ التوأمين وابتسم الآخر كما لو أنّ ذلك كان الحالة المعتادة. فكّر فاتِ أنّها متزوجة من التوأم الذي كان يُعانقها، لكنّ الزواج لم يجعل حبّ ولا آمال الأخِ الآخر تختفي. طلب الأبُ الهنديّ الحسابَ بينما الهنديُّ الشابّ أخرج من مكان ما مجلة رسومٍ هزلية وراح يقرأ. رأى في الفسحة السائق الذي صفّ شاحنته توّاً يسير. كان قادماً من مغاسل محطّة المحروقات ويُمشّط شعره الأشقرَ بمشط صغير. سألته النادلةُ ماذا يريد. فنجان قهوة آخر وكأس ماء كبير.

- لقد اعتدنا على الموت - سمع الرجل الشابَّ يقول.

- دائماً - قال الرجلُ الأشيبُ -، هكذا كان الأمر دائماً.

في القرن التاسع عشر في أواسط أو نهايات القرن التاسع عشر اعتاد المجتمع أن يُمرّر الموتَ عبر مصفاة الكلمات. إذا ما قرأ المرء أخبار ذلك العصر سيقول إنّه لم يكن هناك أعمال إجرامية أو أنّ عملية قتل واحدة كانت قادرة على أن يُثير بلداً بكامله. لم نكن نريد الموتَ في بيتنا، في أحلامنا وخيالاتنا، ومع ذلك فالواقع هو أنّه كانت تُرتكَبُ جرائم مريعة، عمليات تقطيع، اغتصابٍ من كلّ نوع بل وعمليات قتل على التسلسل. طبعاً لم يلق القبض على القتلة على التسلسل قط، وإلا فانظر في أشهر قضيّة في العصر. ما من أحدٍ عرف من هو جاك نازع الأحشاء. كلّ شيء كان يمرّ عبر مصفاة الكلمات، المُكَيَّف بشكل مناسب مع خوفنا. ماذا يفعل طفل حين يخاف؟ يُغمض عينيه. ماذا يفعل طفل سيغتصبونه ثمّ سيقتلونه؟ يُغمض عينيه. ويصرخ أيضاً، لكنّه يُغمض عينيه أوّلاً. كانت الكلمات تُفيدُ لهذه الغاية. والغريب أنّ نماذجَ الجنون والوحشية البشرية لم تُخترعْ من قبل رجال هذا العصر بل من قبل أسلافنا. اليونانيون اخترعوا، لِنَقُلْ ذلك بطريقة ما، الشرَّ، رأوا الشرّ الذي نحمله جميعاً في داخلنا، لكنّ شهادات أو براهين هذا الشر ما عادت تُحرّك عواطفنا، تبدو لنا تافهة، غير مفهومة. الشيء ذاته يمكن أن يُقال عن الجنون. اليونانيون هم من فتحوا هذه المروحةَ ومع ذلك ما عادت هذه المروحة تقول لنا شيئاً. ستقولُ أنتَ إنّ كلّ شيء يتغيّر. طبعاً، كلُّ شيء يتغيّر،لكنّ نماذج الجريمة لا تتغيّر، بالطريقة ذاتها التي لا تتغيّر فيها طبيعتنا أيضاً. تفسير مقبول هو أنّ مجتمعَ ذلك العصر كان صغيراً. أنا أتكلّم عن القرن التاسع عشر، عن القرن الثامن عشر، عن القرن السابع عشر. طبعاً كان صغيراً. غالبية الكائنات البشرية كانت خارج أسوار المجتمع. في القرن السابع عشر، مثلاً، في رحلة كلّ سفينةِ رقّ كان يموت عشرون بالمئة من البضاعة على الأقل، أي من الناس الملونين الذين كانوا يُنقلون ليُباعوا، لنَقُل في فرجينيا. ولم يكن هذا حتى ليُحَرّك مشاعر أحد ولا ليخرج في عناوين صحيفة

فيرجينيا وما من أحدٍ كان يُطالب بشنق قبطان السفينة التي نقلتهم. بلى، على العكس، ملاّك كبير، كان يعاني من نوبةِ جنون، يقتل جارَهُ ثمّ يعود إلى بيته خبباً، حيث ما إن ينزل عن حصانه حتى يقتل زوجته، بالمجمل قتيلان، يبقى المجتمع الفيرجيني يعيش مذعوراً ستّة أشهر وتدوم أسطورةُ الخيّالِ القاتل أجيالاً بكاملها. الفرنسيون مثلاً. خلال كمونة ١٨٧١ مات آلاف الأشخاص قتلاً ولا أحد ذرف دمعة واحدة عليهم. في ذلك التاريخ ذاته قتل شاحذ سكاكين امرأة وأمّاً عجوزاً (ليست أمّ المرأة بل أمّه ذاتها، يا صديقي العزيز) فصرعته الشرطة. لم يعمّ الخبرُ صحفَ فرنسا وحسب بل تحدّثت عنه صحف أوروبية أخرى بل وظهر في صحيفة *إكسامينر* النيويوركية. الجواب: قتلى الكمونة لم يكونوا ينتمون إلى المجتمع، الناس الملونون في السفينة لم يكونوا ينتمون إلى المجتمع، بينما المرأة المقتولة في عاصمة مقاطعة فرنسية وقاتل فيرجينيا الخيّال، بلى كانا ينتميان، أيّ أنّ ما كان يجري لهم كان مكتوباً، كان مقروءاً. ومع ذلك كانت الكلمات تُدرّب عادةً على فنّ الإخفاء أكثر مما على فنّ الكشف. أو ربّما كانت تكشف عن شيء. ما هو؟، أعترف لك بأنّني أجهله.

غطّى الشابُّ وجهَهُ بيديه.

- لم تكن هذه رحلتك الأولى إلى المكسيك -قال كاشفاً عن وجهه ببسمة فيها شيء من الخبث.

- لا -قال الرجل الأشيبُ-، كنتُ هناك منذ زمن، منذ بعض السنوات وحاولتُ أن أُساعد، لكنّه كان مستحيلاً.

- ولماذا عدتَ الآن؟

- لأُلقي نظرةً، أعتقدُ ذلك -قال الرجل الأشيبُ- كنتُ في بيت صديق صادقته خلال إقامتي السابقة. المكسيكيون مضيافون جدّاً.

- ألم تكن رحلة رسميّة؟

- لا، لَا، لا - قال الرجلُ الأشيبُ.
- وما رأيك غير الرسمي بما يجري هناك؟
- عندي عدّة آراء، يا إدوارد، وأتمنى ألاّ يُنشر أيٌّ منها من دون موافقتي.
غطّى الرجل الشابُّ وجهَهُ بيديه وقال:
- يا أستاذ كيسلير، أنا قبر.
- حسن - قال الرجلُ الأشيب -. سأشاطرك ثلاث حقائق. أ: هذا المجتمع، كلّه، كلّه بالمُطلق، مثل المسيحيين القدماء في السيرك. ب: للجرائم بصمات مختلفة. ج: هذه المدينة تبدو قويّة، يبدو أنّها تتقدّم بطريقة ما، لكن أفضل ما يمكن أن يفعله سكانها، هو أن يخرجوا ليلاً إلى الصحراء ويعبروا الحدودَ جميعُهم، دون استثناء، جميعهم، جميعُهم.

حين بدأ الشفق الأحمر والمتوهّج يهبط وكان سواء التوأمان، أو الهنديان، أو جيرانهم على الطاولة قد غادروا قبل برهة، قرّر فاتِ أن يرفع يدَهُ ويطلب الحساب. جاءته فتاة سمراء وممتلئة، لم تكن النادلة التي خدمته، بورقة وسألته عمّا إذا كان كلّ شيء كما يُحب.
- كلّ شيء - قال فاتِ بينما هو يبحث داخل جيبه عن بعض الأوراق النقديّة.

عاد بعدها ليتأمّل غروب الشمس. فكّر بأمّه، بجارةِ أمّه، بالمجلة، بشوارع نيويورك بحزن وسأم فائقي الوصف. فتحَ كتابَ أستاذِ ساندهورست السابق وقرأ: *عادة ما كان كثير من قباطنة سفن الرقّ يعتبرون مهمّتهم منتهية حين يُسلّمون العبيدَ في بلاد الهند الغربية*[1]، *بالرغم من أنّه كثيراً ما كان مستحيلاً أن يقبضوا أرباح مبيعاتهم بسرعة*

(١) جزر الكاريبي

كافية كي يحصلوا على حمولاتهم من السكر لرحلة العودة؛ لا التجار ولا القباطنة كانوا قط واثقين من الأسعار التي سيدفعونها لهم في الميناء القاعدة ثمن بضاعتهم التي جاءوا بها لحسابهم الخاص؛ يمكن لأصحاب المزارع أن يتأخّروا أعواماً في تسديد ثمن العبيد. كان تجار الرقيق الأوروبيون يُفضّلون صكوك المقايضة على السكّر، النيلةِ، القطنِ أو الزنجبيل، لأنّه كان من المحال التكهّن بأسعار هذه البضائع في لندن أو كانت منخفضة. ما أجملها من أسماء، فكَّرَ. نيلة، سكّر، زنجبيل، قطن. أزهار النيلة الضاربة للحمرة. العجينة الزرقاء الداكنة، مع بريق نحاسيّ. امرأة مطلية بالنيلة تغتسل في حمّام.

حين نهض، اقتربت منه النادلة الممتلئة وسألته إلى أين هو ذاهب. إلى المكسيك، قال فاتِ.

- اعتقدْتُ ذلك -قالت النادلةُ-، لكن إلى أيّ مكان من المكسيك؟

راح طبّاخٌ كان يستند إلى طاولة العرض ويُدخّنُ سيجارةً، ينظرُ إليه بانتظار جوابه.

- إلى سانتا تِرِسا -قال فاتِ.

- ليست مكاناً محبّباً جدّاً -قالت النادلة-، لكنّها كبيرة وفيها مراقص كثيرة، وأماكن لهوٍ.

نظر فاتِ إلى الأرض فانتبه إلى أنّ شفق الصحراء قد صبغ البلاطَ بلونٍ أحمر ناعم جدّاً.

- أنا صحفيّ -قال.

- ستكتب عن الجرائم -قال الطبّاخُ.

- لا أعرف عمّا تتكلّم، سوف أُغطّي مباراة ملاكمة هذا السبت - قال فاتِ.

- أيّ مباراة؟ -سأل الطبّاخ.

- مباراة كونت بيكيت، خفيف الثقيل النيويوركي.

- في أزمنة أخرى كنتُ هاوياً لها -قال الطاهي-. وأراهن بالمال وأشتري مجلات ملاكمة، لكنّه جاء يوم قرّرتُ فيه أن أتركها. الآن لا أتابع أخبار الملاكمين الحاليين. هل تريدُ أن تشربَ شيئاً؟. المحلّ يدعوك.

جلس فاتِ بجانب طاولة العرض وطلب كأس ماء. ابتسم الطبّاخ، وقال إنّ جميع الصحفيين على حدّ علمه يشربون كحولاً.

- وأنا أيضاً -قال فاتِ-، لكنّني أظنّ أنّ معدتي ليست على ما يُرام.

أراد الطاهي بعد أن قدّم له كأس الماء، أن يعرف ضدّ من كان سيلعب كونت بيكيت.

- لا أتذكّر الاسمَ -قال فاتِ-، سجّلته هناك، أظنّه مكسيكيّاً.

- غريب -قال الطباخُ-، المكسيكيون لا يوجد عندهم خفيفو ثقيل جيّدون، يظهر عندهم كلّ عشرين سنة وزن ثقيل ينتهي عادة بالجنون أو بالموت رمياً بالرصاص، لكن لا يوجد عندهم خفيفو الثقيل

- قد أكون مخطئاً ولا يكون مكسيكياً -اعترف فاتِ.

- ربّما كان كوبيّاً أو كولومبيّاً -قال الطباخُ-، بالرغم من أنّ الكولومبيين أيضاً لا يوجد عندهم ميراث في خفيف الثقيل.

شرب فاتِ ماءه ونهض ومطّ عضلاته. حانت ساعة مغادرتي، قال لنفسه، بالرغم من أنّه كان يشعر بنفسه مرتاحاً في ذلك المطعم.

- كم ساعة من هنا حتى سانتا تِرِسا؟ -سأل.

- بحسب الحالة -قال الطباخُ-. فالحدود تكون أحياناً مليئة بالشاحنات ويمكن للمرء أن يبقى نصف ساعة منتظراً. لنَقُلْ من هنا إلى سانتا تِرِسا ثلاث ساعات، ثمّ نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة في الممرّ الحدودي، بأرقام تامّة أربع ساعات.

- من هنا وحتى سانتا تِرِسا هناك فقط ساعة ونصف -قالت النادلة.

نظر إليها الطباخُ وقال هذا بحسب السيارة ومعرفة السائق بالأرض.

- هل سقتَ ذات مرّة في الصحراء؟

- لا -قال فاتِ.

- ليس سهلاً. يبدو سهلاً. يبدو أسهل شيء في العالم، لكنّه ليس سهلاً إطلاقاً -قال الطباخ.

- في هذا أنت على حق -قالت النادلة-، خاصّة ليلاً، القيادة ليلاً في الصحراء تُخيفني.

- أيّ خطأ، أي انعطاف خاطئ يمكن أن يُكلّف خمسين كيلومتراً بالاتجاه الخطأ -قال الطباخ.

- ربّما من الأفضل أن أذهب الآن، فما زال هناك نور -قال فاتِ.

- سيّان -قال الطباخُ-، سوف تُظلم خلال خمس دقائق. المغيب في الصحراء يبدو كأنّه لن ينتهي أبداً إلى أن ينتهي كلّ شيء فجأة، دون سابق إنذار. تماماً كما لو أنّ أحداً يطفئ النور -قال الطباخ.

طلب فاتِ كأس ماء وذهب ليشربه بجانب النافذة. ألا تريد أن تأكل شيئاً آخرَ قبل أن تخرج؟، سمع الطبّاخَ يسأله. لا، أجابه. بدأت الصحراء تتلاشى.

ساق ساعتين في طرق مظلمة، واضعاً المذياع على إذاعة تبثّ من فونيكس موسيقى جاز. مرّ بأماكن فيها بيوت ومطاعم وحدائق فيها أزهار بيضاء وسيارات صُفّت بشكل سيّئ، لكن لا يظهر فيها أي نور. في الجوّ ما زال هناك بخارُ دم. ميّز أطياف تلالٍ قطعها القمر وأطيافَ غيوم منخفضةٍ لا تتحرّك، أو أنّها تجري في لحظات مُعيّنة نحو الغرب تدفعها ريح مفاجئة، نزوية، تثير الغبار تمنحها أضواء السيارة أو الظلال

التي تحدثها الأضواء ملابس بشرية خرافية، كما لو أنّ هبّاتِ الغبارِ شحاذون أشباح تقفز بجانب الطريق.

ضاع مرّتين. مرّة كان يرغب بالعودة إلى الخلف إلى مطعم أو إلى توكسون. وأخرى وصل فيها إلى بلدة تُسمى باتاغونيا، حيث دلّه الفتى القائم على محطةِ الوقود إلى أسهل طريقة للوصول إلى سانتا تِرِسا. عندما خرج من باتاغونيا رأى حصاناً. حين أنارته أضواءُ السيارة رفع الحصانُ رأسه ونظر إليه. أوقف فاتِ السيارةَ وانتظر. كان الحصانُ أسودَ تحرّك بعد قليلٍ وضاع في الظلمة. مرَّ بجانب طاولة، أو هكذا ظنّ. كانت الطاولة هائلة، مستوية تماماً في قسمها العلوي يبلغُ طولها من نقطة إلى أخرى من قاعدتها خمسة كيلومترات على الأقل. ظهر بجانب الطريق جرف. نزل، ترك أضواء السيارة مشتعلة وبال طويلاً مستنشقاً هواءَ الليل المنعش.

انحدر الطريقُ بعدها إلى نوع من الوادي، بدا له للوهلة الأولى هائلاً. ظنّ أنّه ميّز في طرف الوادي البعيد سطوعاً. لكنّه يمكن أن يكون أيّ شيء آخر. قافلة شاحنات تتحرّك ببطء شديد، أضواء بلدة أولى. أو ربّما فقط رغبته بالخروج من تلك الظلمة التي كانت تُذكِّرُهُ بطريقة ما بطفولته ومراهقته. . فكّر أنّه بين هذه وتلك حلم بهذا المنظر، لكّنه لم يكن بمثل هذه الظلمة، بمثل هذا الصحراوية، لكنه حقّاً مشابه. كان ذاهباً في حافلة مع أمّهِ وأختٍ لأمّهِ يقومون برحلة قصيرة، بين نيويورك وبلدة قريبة من نيويورك. كان بجانب النافذة وكان المنظرُ ذاته لا يتبدّل، أبنية وطرقاً سريعة إلى أن ظهرت فجأة البرّية. كان الغروبُ قد بدأ في تلك اللحظة أو ربّما قبلها، وكان هو ينظر إلى الأشجار، غابة صغيرة، لكنّها كانت تكبر في عينيه. عندئذ ظنّ أنّه رأى رجلاً يسيرُ على حافّة الغابة الصغيرة. بخطوات كبيرة، كما لو أنّه لا يُريد لليلِ أن ينقضّ عليه. تساءل من تراه يكون ذلك الرجلُ. فقط عرف أنّه رجلٌ وليس شبحاً، لأنّه كان يرتدي قميصاً ويحرِّك ذراعيه وهو

يمشي. كانت وَحْشَةُ الرجل من الهول ما جعل فاتِ يتذكّر أنّه لم يكن يريد أن يستمرّ بالنظرِ ويُريد أن يُعانق أمَّه، لكنّه بدل ذلك أبقى على عينيه مفتوحتين إلى أن خلَّفت الحافلةُ الغابةَ وراءها وظهرت من جديد الأبنية والمعامل وعنابر التخزين التي كانت تُحدّدُ الطريق.

صارت وحشةِ وظلمة الوادي الذي كان يعبرُهُ، أكبر. تصوّر نفسه يسير بخطواتٍ واسعة على حافّته. شعر بقشعريرة. تذكّرَ الجرّة حيث يرقدُ رمادُ أمّه وفنجانَ قهوة الجارة الذي لم يُعِدْهُ ولا بدّ أنّه الآن بارد جدّاً، وفيديوهات أمّه التي لن يراها بعد الآن أحد. فكّرَ بأن يوقف السيارةَ وينتظر طلوع الفجر. نصحته غريزته بأنّ زنجيّاً نائماً في سيارة مستأجرة على حافة طريق في أريزونا ليس التصرّف الأكثر حكمة، بدّل محطّة الإذاعة، صوت بالإسبانية بدأ يحكي قصّة مُغنّية من غومِثْ بالاثيو عادت إلى مدينتها في ولاية دورانغو، فقط كي تنتحر. ثمّ سمع صوتَ امرأة تُغني رانتشِرا. بقي برهةً يسمعها بينما هو يقود باتجاه الوادي، عاد بعدها ليضبط المؤشّر على إذاعةِ جازِ فونيكس ولم يستطع العثور عليها..

على الجانب الأمريكي الشمالي كانت تنهض بلدة تسمى أدوبِ[1]، كانت في السباق معملاً للطوب، لكنّها صارت الآن تجمّعَ بيوتٍ وحوانيت كهربائياتٍ مصفوفة كلّها تقريباً في شارع كبير. في نهاية الشارع يخرج المرء إلى خلاء مضاء جدّاً وبعدها بقليل كانت الجمارك الأمريكية الشمالية.

طلب منه شرطيٌّ الحدود جواز سفره فأعطاه له فاتِ. مع الجواز كانت هويّة الصحفيّ. سأله الشرطيّ عمّا إذا كان ذاهباً كي يكتب عن جرائم القتل.

---

(١) Adobe كلمة من أصل عربيّ وتعني الطوب.

- لا -قال فاتِ-، جئت لأغطّي مباراة ملاكمة السبت.
- من يُصارع فيها؟ -سأل شرطيّ الحدود.
- كونت بيكيت، خفيفُ الثقيل النيويوركيّ.
- لم يحدث أن سمعتُ باسمه -قال الشرطي.
- سوف يصل إلى بطولة العالم -قال فاتِ.
- يا حبّذا -قال الشرطيّ.

تقدّم بعدها فاتِ نحو مئة متر واضطرّ لأن يفتح حقيبته، ويبرز أوراقَ السيارة، جوازَ سفره وهويّة الصحفيّ. جعلوه يملأ بعضَ الاستمارات. كانت وجوه الشرطيين خدِرةً من النعاس. من نافذة غرفة الجمارك كان يظهر السياج العالي والطويل الذي يفصل بين البلدين. رأى في المنطقة الأبعد في أعلى السياج أربعةَ طيور سوداء، كأنّها طمرت رؤوسها في ريشها. الطقس بارد، قال فاتِ. بارد جدّاً، قال الموظّفُ المكسيكيّ، الذي كان يتفحّص الاستمارة التي ملأها فاتِ توّاً.

- الطيور تشعر بالبرد.

نظر الموظّف إلى الجهة التي أشار إليها إصبعُ فاتِ.

- إنها النسور الأمريكية السوداء، دائماً تبرد في مثل هذه الساعة -قال.

نزل في موتيل اسمه لاس بريساس[1]، في القسم الشمالي من سانتا تِرِسا. على الطريق كانت تمرّ بين الفينة والأخرى شاحنات ذاهبة إلى أريزونا. كانت الشاحنات تتوقّف أحياناً على الجانب الآخر من الطريق بجانب محطّة وقود، ثمّ تتابع طريقها أو ينزل سائقوها ويأكلون شيئاً في محطة الخدمة بجدرانها المطلية بالأزرق السماوي، في الصباح

(١) النسائم.

لم تكن تمرّ شاحنات كبيرة تقريباً، فقط سيّارات وشاحنات صغيرة. كان فاتِ يشعر بتعبٍ وصل من الشدّة إلى حدّ أنّه لم ينتبه كم كانت الساعة حين سقط نائماً.

حين استيقظ خرج ليتكلّم مع عامل الاستقبال في الفندق وطلب منه مخطّطاً للمدينة. كان عامل الاستقبال رجلاً في حدود الخامسة والعشرين من عمره وقال له إنّهم لم يملكوا قط مخطّطات في لاس بريساس، على الأقل منذ أن بدأ هو بالعمل هناك. سأله إلى أين يُريد أن يذهب. قال فات إنّه صحفيّ وإنّه جاء ليُغطّي مباراة كونت بيكيت. كونت بيكيت ضدّ مِرولينو فِرنانِدث، قال عامل الاستقبال.

- لينو فِرنانِدث -قال فات.

- هنا نسميه المِرولينو[1] -قال عامل الاستقبال مبتسماً-. ومن تعتقد أنّه سيفوز؟

- بيكيت -قال فاتِ.

- سنرى، بالرغم من أنّني أعتقد أنّك تُخطئ.

اقتلع عاملُ الاستقبال بعدها ورقة ورسم له عليها بيده مخططاً مع إشارات دقيقة كي يصل إلى مبنى ملاكمةِ أرِنا دِل نورت، حيث ستُقام مباراة الملاكمة. جاء المخطّط أفضل بكثير مما تَوَقّع فاتِ. بدا بناء أرِنا دِل نورتِ مسرحاً قديماً من عام ١٩٠٠، وضعوا في وسطِهِ حلبة ملاكمة. قدّم فاتِ هويته كصحفي في أحد المكاتب وسأل عن الفندق الذي ينزل فيه بيكيت. قالوا له إنّ الملاكم الأمريكيّ الشماليّ لم يصل إلى المدينة بعد. كان بين الصحفيين الذين التقى بهم اثنان يتكلّمان الإنكليزية وكانا يُفكّران أن يذهبا لإجراء مقابلةٍ مع فِرنانِدث. سألهما فاتِ عمّا إذا كان باستطاعته أن يذهب معهما، فهزّا كتفيهما وقالا إنّه لا مانع من ناحيتهم.

---

(١) الثرثار.

حين وصلوا إلى الفندق الذي كان يُقَدِّمُ فيه فِرنانِدِثْ مؤتمراً صحفياً، كان الملاكمُ يتكلّم مع مجموعة من الصحفيين المكسيكيين. سأله الأمريكيون الشماليون بالإنكليزية عمّا إذا كان يعتقد أنّه سيفوز على بيكيت. فهم فِرنانِدِثْ السؤال وقال نعم. سأله الأمريكيون الشماليون عمّا إذا سبق له ورأى بيكيت يُلاكم ذات مرّة. لم يفهم فِرنانِدِثْ السؤال فترجمه له أحد الصحفيين المكسيكيين.

- المهم أن يؤمن بقوّته ذاتها -قال فِرنانِدِثْ وسجّل الصحفيون الأمريكيون الشماليون الجواب في دفاتر ملاحظاتهم.

- هل تعرف إحصائيات بيكيت؟ -سألوه.

انتظر فِرنانِدِثْ أن يُترجموا له السؤال ثمّ قال إنه لا تهمه مثل هذه الأشياء. ضحك الصحفيون الأمريكيون الشماليون في داخلهم وسألوه عن إحصائياته نفسها. ثلاثون مباراة، قال فِرنانِدِثْ، خمس وعشرون فوزاً. ثماني عشرة فاز فيها بالضربة القاضية. ثلاثة هزائم. مباراتان تعادل. لا بأس، قال أحد الصحفيين وتابع أسئلته.

كان غالبية الصحفيين نازلين في فندق سونورا رِسورت. زار فاتِ الفندق وتولّد عنده انطباع بأنّ هناك مؤتمراً للصحفيين الرياضيين المكسيكيين. غالبيتهم كانوا يتكلّمون الإنكليزية وكانوا، على الأقل من الانطباع الأوّل، أكثر لطفاً من الصحفيين الأمريكيين الشماليين الذين عرفهم. على طاولة عرض البار كان هناك من يُراهنون على المباراة ويَبدون بشكل عام سعيدين وخليي البال، ومع ذلك قرّر فاتِ في النهاية أن يبقى في فندقه.

أجرى مكالمة قيّدت على حساب الصحيفة من هاتف في سونورا رِسورت إلى قسم التحرير في صحيفته وطلب الكلام مع رئيس قسم الرياضات. قالت له المرأة التي تكلّم معها إنّه لا يوجد أحد.

- المكاتب فارغة -قالت.

كان صوتها أجشّ وشجيّاً ولم تكن تتكلّم كسكرتيرة نيويوركيّة، بل

كفلاّحة خرجت توّاً من مقبرة. هذه المرأة تعرف معرفة مباشرة كوكبَ الموتى، فكّر فاتِ، وما عادت تعرف ما تقوله.
- سأعود وأهتف فيما بعد - قال قبل أن يُغلِق.

كانت سيارة فاتِ تسير خلفَ سيارة الصحفيَّيْن المكسيكيَّيْن الذين كانا يُريدان أن يُجريا مقابلة مع مِرولينو فِرنانديثْ. كان سكن الملاكم المكسيكية يقع في مزرعة خارج سانتا تِرِسا وكان من المحال عليه لولا مساعدة الصحفيَّيْن أن يعثر عليه. عبروا حيّاً خارجيّاً عبر شبكة من الشوارع غير المعبّدة وغير المنارة بالكهرباء. بعد أن داروا حول مراعي خيول ومناطق قفرة تتراكم فيها قمامة الفقراء، تولّد عنده للحظاتٍ انطباع بأنّه يخرج إلى الريف المفتوح، لكن سرعان ما كان ينبثق حيٌّ آخر، هذه المرّة أقدم، بيوته من الطوب، نهضت حولها أخصاص مصنوعة من الكرتون وصفائح التوتياء وموادّ التغليف التي تقاوم الشمس والأمطار العرضية، يبدو أنّ مرورَ الزمن قدّ حجّرها. هناك لم تكن النباتات البرّية وحدها مختلفة بل حتى الذباب كان يبدو أنّه ينتمي إلى نوع آخر. بعدها ظهر طريق ترابي مرصوص يموّهه الأفقُ الذي بدأ يسودّ، كان يمضي محاذياً لساقية ولبعض الأشجار المغطاة بالغبار. ظهرت أوّل الأسيجة. ضاق الطريق. إنّه طريق عربات، فكَّرَ فاتِ. عملياً كانت آثار عجلات العربات ظاهرة، لكن ربّما كانت آثار مرورِ شاحناتِ مواشٍ قديمة.

المزرعة التي كان يقيم فيها مِرولينو فِرنانديثْ كانت مجمعاً من ثلاثة بيوت منخفضة ومتطاولة حول فناء من تراب جاف وصلب كالإسمنت، حيث انتصبت حلبة مقلقلة ظاهريّاً. حين وصلوا كانت الحلبة فارغة وفي الفناء لا يوجد غير رجلٍ واحدٍ نائم فوق فراش من قشٍّ استيقظ حين سمع ضجيج المحرّكين. كان الرجل ضخماً وبديناً ووجههِ مليئاً بالنُّدُب. نافذة،حفيان المكسيكيان يعرفانه فراحا يتكلّمان معه. كان

يُدعى فيكتور غارثيّا وعلى كتفه الأيمن وشم بدا لفاتِ جذّاباً. رجل عارٍ يُرى من الخلف، يركع في مذبح كنيسة وحوله على الأقل عشرة من الملائكة بأشكال مؤنّثة تنبثق طائرة من الظلمة، مثل فراشات مستحضرة بدعاء من التائب. كل ما عدا ذلك كان ظلمة وأشكالاً غير واضحة. الوشم بالرغم من أنّه كان جيّداً شكلياً يعطي انطباعاً بأنّه صنعوه له في السجن وأنّ الواشِمَ كان يفتقر، إن لم يكن للتجربة، فللأدوات والحبر، لكنّ قصّته كانت بالنتيجة مُقلِقة. حين سألَ الصحفيَّيْن من كان ذلك الرجل، أجاباه بأنّه أحدُ الرجال الذين يتدرّب معهم مِرولينو. خرجت بعدها امرأة، كما لو أنّها كانت تُراقبهم من نافذة، إلى الفناء بصينية فيها مرطبات وبيرة باردة.

بعد برهة ظهر مُدرِّبُ الملاكم المكسيكي مرتدياً قميصاً أبيض وكنزة بيضاء وسألهم إذا كانوا يُفضّلون أن يوجّهوا الأسئلة إلى مِرولينو قبل أو بعد التدريب. ما تُفضّله أنت، يا لوبِّتْ، قال أحد الصحفيَّيْن. هل جاؤوكم بشيءٍ تأكلونه؟، سأل المدرِّبُ بينما هو يجلس بالقرب المرطبات والبيرة. لا، قال الصحفيون بحركة من رؤوسهم، فأمر المدرّبُ دون أن ينهض من مقعده غارثيّا أن يذهب إلى المطبخ ويأتي ببعض المقبلات. وقبل أن يعود غارثيّا رأوا مِرولينو يظهرُ في أحد الدروب التي تضيع في الصحراء يتبعه زنجي يرتدي بدلة رياضيّة، يُحاول أن يتكلّم الإسبانية ولا ينطق إلاّ بالكلمات البذيئة. حين دخلا الفناء لم يُسلما على أحدٍ وتوجّها إلى حوض إسمنتي حيث غسلا وجهيهما وجذعيهما بواسطة دلو. عندها فقط ودون أن يُنشّفا جذعيهما ودون أن يعودا ليرتديا الجزء العلويّ من البدلتين، ذهبا ليُسلّما.

كان الزنجي من أوسيانسايد، في كاليفورنيا، أو على الأقل كان قد وُلِد هناك وترعرع بعدها في لوس أنجلوس وكان يُسمى عمر أبدول. كان يعمل زميلاً في التدريب مع مِرولينو وقال لفاتِ إنّه ربّما سيبقى ليعيش بعضَ الوقت في المكسيك.

- ماذا ستفعل بعد المباراة -سأله فاتِ.

- سأعيش كفاف يومي -قال عمر-، أليس هذا ما نفعله جميعاً؟

- من أين ستأتي بالمال؟

- من أيّ مكان -قال عمر-، هذا بلد رخيص.

كان عمر يبتسم كلّ بضع دقائق دون مناسبة. كانت له ابتسامة جميلة يزيدها جمالاً عثنونٌ وشارب صغير نحيل، لكنّه أيضاً كان يُظهر بين برهة وأخرى وجهَ انزعاجٍ فيكسبه العُثنون والشاربُ مظهراً متوعِّداً، مظهرَ اللامبالاة القصوى والمُتَوَعِّدة. حين سأله فاتِ عمّا إذا كان مُلاكماً أو شارك في بعض مباريات الملاكمة في مكان ما، أجابه «لاكمتُ»، دون أن يتكرّم بمزيد من التوضيحات. حين سأله عن إمكانيات فوز مِرولينو فِرنانِدِثْ قال هذا ما لا يمكن معرفته أبداً حتى يُقرع الجرس. بينما راح الملاكمان يرتديان ثيابهما راح فاتِ يسير في الفناء الترابي وينظر حوله.

- إلامَ تنظر؟ -سمع عمر أبدول يسأله.

- المنظر -قال-، إنّه منظر كئيب.

إلى جانبه تفحّص زميلُ التدريب الأفقَ ثمّ قال:

- هكذا هو الريف. هو دائماً كئيب في مثل هذه الساعة. إنه منظر بائس بالنسبة إلى النساء.

- إنّها تُظلم -قال فاتِ.

- ما زال هناك نور يسمح بالتدريب -قال عمر أبدول.

- ماذا تفعلون ليلاً بعد انتهاء التدريبات؟

- جميعنا؟ -سأل عمر أبدول.

- بلى كل الفريق أو ما لا أدري كيف يُسمّى.

- نأكل، نُشاهد التلفزيون، يذهب بعدها السيّد لوبِّثْ إلى النوم ومِرولينو يذهب بدوره إلى النوم والبقية نستطيع أن نذهب أيضاً إلى

النوم، أن نتابعَ مشاهدة التلفزيون أو نستطيع أن نذهب لنتمشّى في المدينة، أنت تفهم ما أعني - قال بابتسامة يمكن أن تعني أيَّ شيء.
- كم عمرك؟ - سأله بغتةً.
- اثنان وعشرون عاماً - قال عمر أبدول.

حين صعد مِرولينو إلى الحلبة كانت الشمس تختفي في الغرب والمُدَرِّب أشعل الأنوار التي كانت تتغذّى من مُولِّدة مستقلة تمّدُّ البيت بالكهرباء. بقي غارثيّا في زاوية مُطأطأ الرأس بلا حراكٍ. كان قد خلع ملابسه وارتدى بنطلون ملاكم أسود يصل إلى ركبتيه. بدا نائماً. فقط رفع رأسه عندما اشتعلت الأنوار ونظر لثوانٍ إلى لوبِّثْ، كما لو أنّه ينتظر إشارة. قرع أحدُ الصحفيَّين الجرس فاستنفر زميل التدريب وتقدّم إلى وسط الحلبة. كان مِرولينو يضع خوذة حماية ويتحرّك حول غارثيّا، الذي كان لا يطلق يُسراه إلا من حين لآخر ويُحاول أن يوصلَ لكمة ما. سأل فاتٍ أحدَ الصحفيَّيْن عمّا إذا كان طبيعيّاً ألّا يضع زميل التدريب خوذةَ حماية.
- هو الطبيعي - قال الصحفيّ.
- ولماذا لا يضعها؟ سأل فاتٍ.
- لأنّهم مهما ضربوه لا يمكن أن يُسببوا له أذى أكبر - قال الصحفيُّ -. هل فهمت؟ لا يشعر بالضربات، إنّه مخبول.
في الجولة الثالثة نزل غارثيّا من الحلبة وصعد عمر أبدول. كان الفتى عاري الجذع لكنّه لم يخلع البنطلون الرياضي. كانت حركاته أسرع بكثير من حركات زميل التدريب المكسيكي ويملص بسهولة حين كان مِرولينو يُحاول أن يحصره في زاوية، وإن بدا واضحاً أنّ الملاكم وزميله في التدريب لم يكونا يريدان إيذاء بعضهما بعضاً، كانا، من حين لآخر، يتكلّمان ويضحكان دون أن يتوقّفا عن الحركة.
- هل أنت في كوستاريكا ؟ - سأله عمر أبدول -. أين عيناك؟

سأل فاتِ الصحفيَّ ماذا كان يقول زميلُ التدريب.

- لا شيء -قال الصحفيُّ-، ابن العاهرة هذا لم يتعلم من الإسبانية إلا الكلمات البذيئة.

أوقف المُدرِّبُ المباراة بعد ثلاث جولات واختفى داخل البيت يتبعه مِرولينو.

- المُدلِّك ينتظرهما -قال الصحفيُّ.

- من هو المُدلِّك -سأل فاتِ.

- لم نرهُ، أظنّه لا يخرجُ إلى الفناء أبداً، إنّه شخص أعمى، هل فهمت؟ شخص أعمى بالولادة يمضي يومه كلّه في المطبخ، يأكل، أو مستلقياً على أرضية غرفته يقرأ كتباً بلغة العميان، هذه اللغة، ما اسمها؟

- أبجدية برايل -قال الصحفيّ الآخر.

تصوّر فاتِ المّدلّك يقرأ في غرفة مظلمة تماماً فانتابته قشعريرةٌ خفيفة. لا بدَّ أنّه شيء شبيهٌ بالسعادة، فكّر. في الحوض يسكب غارثيّا دلوَ ماء على ظهر عمر أبدول. غمز زميل التدريب الكاليفورني فاتِ.

- كيف بدت لك؟ -سأله.

- ليست سيّئة -قال فاتِ كي يقول شيئاً لطيفاً-، لكن لديّ انطباع بأنّ بيكيت سيصل أفضل استعداداً بكثير.

- بيكيت لوطي خراء -قال عمر أبدول.

- هل تعرفه؟

- رأيته مرّتين يُصارع في التلفزيون. لا يعرف كيف يتحرّك.

- حسن، أنا في الحقيقة لم أره قط -قال فاتِ.

نظر عمر أبدول إلى عينيه باندهاش.

- لم ترَ بيكيت يُصارع أبداً؟ -قال.

- الحقيقة أنّ المتخصّص بالملاكمة في مجلّتي تُوفي الأسبوع الماضي، وبما أنّه ليس عندنا فائض في الكادر أرسلوني.

- راهن على مِرولينو - قال عمر أبدول بعد أن لزم الصمتَ برهةً.
- أتمنى لك حظّاً سعيداً - قال له فاتِ قبل أن يُغادر.

بدا له طريقُ العودة أقصر. بقي برهة يتبع أضواء سيارة الصحفيَّيْن الخلفية، إلى أن رآهما يصفانها بجانب بار حين صاروا في شوارع سانتا تِرِسا المعبّدة. صفّ سيارته بجانب سيارتهما وسألهما ما هو المُخطّط. سوف نأكلُ قال أحدُ الصحفيَّيْن. بالرغم من أنّ فاتِ لم يكن جائعاً فقد قبل أن يتناول برفقتهما كأس بيرة. كان أحدُ الصحفيَّيْن يُدعى تشوتشو فلورِس ويعمل في صحيفة محلّية ولصالح محطّة إذاعية. الآخر، الذي قرع الجرس حين كان في المزرعة، يُدعى أنخِل مارتينِثْ مِسا ويعمل لصالح صحيفة رياضيّة في العاصمة الفيدرالية. كان مارتينِثْ مِسا قصيرَ القامة في دوّارِ الخمسين من عمره. كان تشوتشو أقصر قليلاً من فاتِ وكان في الخامسة والثلاثين من عمره ويبتسم طوالَ الوقت. كانت العلاقة بين فلورِس ومارتينِثْ مِسا، استشعر فاتِ، علاقة تلميذ ممتنٍّ بأستاذه اللامبالي. ومع ذلك فإنّ لامبالاة مارتينِثْ مِسا، لا تشفّ عن تكبّر ولا عن شعور بالتفوّق، بل عن تعبٍ. تعب يُحَسُّ به حتى في طريقة لباسه، المهمل، في طقمه المليء بالبقع وحذائه غير الملمّع، بعكس تلميذه تماماً، الذي كان يلبس طقم علامة مسجّلة وربطة عنك علامة مسجّلة وزرين ذهبيين في الكمين، والذي من المحتمل أنّه كان يرى نفسه أنيقاً ووسيماً. بينما كان المكسيكيان يأكلان لحماً مشوياً مع البطاطا المقليّة، راح فاتِ يُفكّر بوشم غارثيّا. قارن بعدها بين وحشة تلك المزرعة ووحشة بيت أمّهِ. فكّر برمادها الذي ما يزال هناك. فكّر بالجارة الميتة. فكّر بحيّ باري سيمان. وبدا له كلّ ذلك الذي راحت ذاكرتُهُ تُسَلِّطُ عليه الضوء، بينما المكسيكيان، يأكلان خراباً.

حين تركوا مارتينِثْ مِسا في فندق سونورا رِسورت أصرّ تشوتشو فلورِس على أن يتناول آخر كأس. كان في بار الفندق عدد من

الصحفيين، ميّز بينهم أمريكيين شماليين كان يهمّه أن يتحدث معهما، لكنّ تشوتشو فلورِس كان عنده خططاً أخرى. ذهبا إلى بار في زقاقٍ وسط سانتا تِرِسا. كان محلاً طليت جدرانه بمادّة مشعّة وكانت طاولة العرض فيه متعرّجة. طلبا عصير برتقال مع الويسكي. كان النادل يعرف تشوتشو فلورِس بدا ذلك الرجل مالكاً أكثر منه نادلاً. كانت حركاته جافّة وتسلطية، حتى عندما كان يُنشف الكؤوس بالمئزر الذي ربطه إلى خصره. ومع ذلك كان شاباً لا يتجاوز الخامسة والعشرين من عمره، ولم يكن تشوتشو فلورِس من ناحيته يعيره كثير انتباه، فقد كان مشغولاً بالحديث مع فاتِ عن نيويورك والصحافة التي كانت تصدر في نيويورك.

- بودّي أن أذهبَ لأعيش هناك -اعترف له- وأعمل في إحدى الإذاعات الإسبانية.

- وهي كثيرة -قال فاتِ.

- أعرفُ، أعرف -قال تشوتشو فلورِس، كما لو أنّه كان يدرس الموضوع منذ زمن طويل، ذكر بعدها اسم إذاعتين تبثان بالإسبانية لم يسمع بذكرهما فاتِ قط.

- ومجلّتك، ما اسمها؟ -سأله تشوتشو فلورِس.

قاله له فقام تشوتشو فلورِس بعد أن فكّر برهةً، بحركة نفي من رأسه.

- لا أعرفها -قال- هل هي كبيرة؟

- لا، ليست كبيرة -قال فاتِ-، هي مجلة من هارلم، هل فهمت؟

- لا -قال تشوتشو فلورِس-، لم أفهم.

- إنّها مجلّة أصحابها أفريقيون أمريكيون، المدير أفريقي أمريكي، وجميع الصحفيين تقريباً أفريقيون أمريكيون -قال فاتِ.

- هل هذا ممكن؟ -سأل تشوتشو فلورِس-، هل هذا جيّد بالنسبة للصحافة الموضوعية؟

عندئذ انتبه إلى أنّ تشوتشو فلورِس كان سكراناً قليلاً. فكّر في ما قاله له توّاً. في الحقيقة التأكيد بأن جميعَ الصحفيين تقريباً كانوا زنوجاً فيه بالنتيجة مجازفة. هو فقط رأى زنوجاً في التحرير وإن كان بالطبع لا يعرف المراسلين. ربّما كان في كاليفورنيا أمريكياً مكسيكياً، فكّر. ربّما في تكساس. لكن من المحتمل أيضاً ألا يوجد في تكساس أحدٌ، وإلاّ لماذا يرسلونه هو من ديترويت ولا يكلفون مراسلَ تكساس أو كاليفورنيا بالعمل.

اقتربت بعض الفتيات ليسلّمن على تشوتشو فلورِس. كنّ بلباس من هنّ ذاهبات إلى حفلة بأحذيةٍ عاليةِ الكعب وملابس مرقص. كان شعر واحدة منهنّ مصبوغاً بالأشقر وكانت الأخرى شديدة السمرة وأقرب إلى الصموتة والخجولة. سلّمت الشقراء على النادل فردّ هذا عليها بإيماءة، كما لو أنّه يعرفها جيّداً ولا يثق بها. قدّمه تشوتشو فلورِس كصحفيّ رياضي شهير من نيويورك. اعتبر فاتِ أنّ من المناسب أن يقول للمكسيكيّ إنّه ليس صحفياً رياضياً بالضبط، بل صحفيّ يكتبُ حول موضوعات سياسيّة واجتماعيّة، التصريح الذي اعتبره تشوتشو فلورِس مهمّاً جدّاً. بعد برهة جاء شخص آخر قدّمه تشوتشو فلورِس كأكثر من يعرف عن السينما في جنوب حدود أريزونا. كان الرجل يُسمى تشارلي كروث وقال له بابتسامة كبيرة ألاّ يُصدّق كلمةً واحدة مما كان يقوله تشوتشو فلورِس. كان صاحب محل فيديوهات وتُجبره مهنته على أن يرى أفلاماً كثيرة، هذا هو كلّ شيء، لستُ أيّ متخصّص في الموضوع، قال.

- كم محل فيديو عندك؟ -سأله تشوتشو فلورِس-. قُلْ، قلْ ذلك لصديقي فاتِ.

- ثلاثة -قال تشارلي كروث.

- هذا الثور قابع على جبل من الذهب -قال تشوتشو فلورِس.

الفتاة ذات الشعر المصبوغ بالأشقر تُدعى روزا مِنْدِث وكانت

بحسب تشوتشو فلورِس خطيبته. أيضاً كانت خطيبة لِتشارلي كروث وتخرج الآن مع مالكِ صالةِ رقص.

- هكذا هي روزيتا -قال تشارلي كروث-، هذه هي طبيعتها.

- ما الذي في طبيعتك؟ -سألها فاتِ.

أجابته الفتاةُ بإنكليزيّة ليست جيدة جدّاً أن أكون فرحة. الحياة قصيرة، قالت، ثمّ مكثت صامتة تنظر بالتناوب إلى فاتِ وتشوتشو فلورِس، كما لو أنّها تُفكّر بما انتهت من تأكيده.

- روزيتا[1] أيضاً فيلسوفة قليلاً -قال تشارلي كروث.

وافق فاتِ بحركة من رأسه. اقتربت منهم فتاتان أخريان. كانتا أصغر من الأخريين ولا تعرفان غير تشوتشو فلورِس والنادل. سأله تشارلي كروث عمّا إذا كان يُعجبه سبايك لي. بلى، قال فاتِ، بالرغم من أنّه في الحقيقة لم يكن يُعجبه.

- يبدو مكسيكياً -قال تشارلي كروث.

- يمكن -قال فاتِ-، هذه وجهة نظر مهمة.

- وودي ألان؟

- يعجبني -قال فات.

- هذا أيضاً يبدو مكسيكياً، لكنّه مكسيكيّ من العاصمة الفيدرالية أو من كورناباكا -قال تشارلي كروث.

- مكسيكي من كانكون -قال تشوتشو فلورِس.

ضحك فاتِ دون أن يفهم شيئاً. فكّر أنّهما يسخران منه.

- وروبرت رودريغث؟ -قال تشارلي كروث.

- يُعجبني -قال فاتِ.

- هذا الوغد من جماعتنا -قال تشوتشو فلورِس.

---

(١) تصغير روزا.

- أنا عندي فيلم فيديو لِروبِرت رودريغِثْ -قال تشارلي كروث- قليلون جدّاً هم الأشخاص الذين رأوه.

- *الزجال*[1]؟ -سأل فاتِ.

- لا. هذا رآه العالم كلّه. فيلم سابق على هذا، حين لم يكن روبِرت رودريغِثْ أكثر من نكرة. كان ديوثاً أمريكياً من أصل مكسيكي ميتاً من الجوع؛ ولداً يلج أيّ ثقب -قال تشارلي كروث.

- هيا بنا لنجلس وتحكي لنا هذه القصّة -قال تشوتشو فلورِس.

- فكرة جيّدة -قال تشارلي كروث-، بدأتُ أتعبُ من كثرة الوقوف.

القصّة بسيطة ولا تُصدّق. قبل عامين من تصوير *الزجال* سافر روبِرت رودريغِثْ إلى المكسيك. تسكّع يومين على الحدود بين تشيهواهوَا وتكساس نزل بعدها إلى الجنوب، حتى العاصمة الفيدرالية، حيث تفرّغ لتناول المخدرات والشرب. انحطّ، قال تشارلي كروث، إلى حدّ أنّه كان يدخل إلى حانوت حلاقة قبل منتصف النهار فلا يخرج منه إلا عندما يُغلقونه ويخرجونه منه رفساً. انتهى به الأمرُ إلى العيش في مبغى، أي في ماخور، أي في وكر الطيبات، أي في ماخور، حيث صادق عاهرة وقوّادها الذي كانوا يُسمّونه البرغي، كما لو أنّهم يلقبون قوّاد العاهرة بالقضيب أو الزبّ. استلطفَ هذا البرغيُّ روبِرت رودريغِثْ وأحسنَ التصرّفَ معه. كان عليه أحياناً أن يصعد بِهِ جرّاً إلى الغرفة التي كان ينام فيها، وأحياناً أخرى كان عليه وعلى عاهرته أن يخلعا عنه ملابسه ويضعاه تحت المِرذاذ لأنّ روبِرت رودريغِثْ كان يفقد وعيه بسهولة كبيرة. وذات صباح، من تلك الصباحات الغريبة كان فيه المخرج السينمائي المستقبلي نصف واعٍ، حكى له أنّ بعض الأصدقاء يريدون أن يصنعوا فيلماً وسأله عمّا إذا كان هو قادراً على أن يصنعه.

---

(١) mariachi مارياتشي

قال روبِرت رودريغِثْ، كما تتخيّلون، بلى لا بأس واهتمّ البرغي بالمسائل العملية.

دام التصوير ثلاثة أيّام، كما أظنّ، وكان روبِرت رودريغِثْ دائماً سكراناً ومخدّراً حين يقف وراء الكاميرا. طبعاً لا يظهر اسمه في لائحة الأسماء. اسم المخرج جوني مامرسون، وهذه طبعاً مزحة، لكن من يعرف سينما روبِرت رودريغِثْ، طريقته في عمل الأطر، سطوحه وسطوحه المقابلة، إحساسه بالسرعة، لا شك أنها له. الشيء الوحيد الغائب هو طريقته الشخصية في مَنْتَجَة الفيلم، ما هو واضح هو أنّ مونتاج الفيلم قام به شخص آخر. لكنّه هو المُخرج، أنا واثق من هذا.

لم يكن يهمّ فاتِ روبِرت رودريغِثْ ولا فيلمَهُ الأوّل، فالأمر سيّان عنده، ثمّ إنّه بدأت تُداخله رغبة بالأكل أو تناول شطيرة ليدخل بعدها في سرير فندقه وينام. لكّنه اضطرّ لأن يسمع نتفاً من الحبكة، قصّة عاهرات مثقفات أو ربّما فقط عاهرات طيّبات، تبرز بينهنّ واحدة تُدعى خوستينا، كانت، لأسباب تفوته، لكّن التكهن بها لم يكن معقّداً، تعرف بعض مصاصي الدماء في العاصمة الفيدرالية كانوا يتسكعون ليلاً متخفين بلباس الشرطة. لم يُولِ بقيّةَ القصّة انتباهاً بينما كان يُقبّل الفتاة ذات الشعر الأسود التي جاءت مع روزيتا مِنْدِثْ، على فمها سمع شيئاً عن أهرامات، مصاصي دماء أزتيكيين، عن كتابٍ كُتِبَ بالدم، الفكرة الرائدة مفتوح حتى *مطلع الفجر*، كابوس روبِرت رودريغِثْ المُتكرِّر. لم تكن فتاةُ الشعر الأسود تُتقِنُ التقبيل. أعطى قبل أن يُغادر رقم هاتف فندق لاس بريساس إلى تشوتشو ثمّ خرج مترنّحاً إلى حيث كان قد وضع سيارته. حين فتح الباب سمع أحداً يسأله عمّا إذا كان بخير. ملأ رئتيه بالهواء والتفت. كان تشوتشو فلورِس على بعد ثلاثة أمتار، مرخيّ ربطة العنق ويحوش روزا مِنْدِثْ من خصرها، هي التي كانت تنظر إليه كنموذج غريب لشيء، ما هو؟، لم يكن يعرف، لكنّ نظرة المرأة لم تعجبه.

- أنا بخير -قال-، لا يوجد مشكلة.
- هل تريدني أن آخذك إلى فندقك؟ -سأله تشوتشو فلورِس.
ازدادت ابتسامة روزا رودريغِثْ. مرّ بذهنه أنّ المكسيكيَّ مثليّ.
- ليس ضرورياً -قال-، أستطيع أن أتدبّر أمري وحدي.

أفلت تشوتشو فلورِس المرأةَ وخطى خطوة باتجاهه. فتح فاتِ بابَ السيارة وشغّل المحرّك متفادياً النظرَ إليه. وداعاً، يا صديقي، سمع المكسيكيَّ يقول له كما لو بواسطة جهاز مُخفِّت. كانت روزا مِنْدِثْ تضع يديها على وركيها في وضعية، بدت له غير طبيعيّة إطلاقاً ولم تكن تنظر إليه ولا إلى سيارته التي راحت تبتعد بل إلى مُرافقها، الذي بقي جامداً، كما لو أنّ هواءَ الليل جمّدَهُ.

كان مكتب الاستقبال في الموتيل مفتوحاً فسأل فات فتىً لم يكن قد رآه من قبل عمّا إذا كان باستطاعتهم أن يؤمّنوا له شيئاً يأكله. قال له الفتى ليس عندهم مطبخ، لكن باستطاعته أن يشتري بعض البسكويت أو لوحَ شوكولاتة من الآلة الموجودة في الخارج. على الطريق كانت تمرُّ من حينٍ لآخر شاحنات باتجاه الشمال وباتجاه الجنوب، وعلى الطرف الآخر كانت تُرى أضواء محطّة خدمات. وجّه فاتِ خطواته إلى هناك. ومع ذلك كادت تصدمه سيارة وهو يجتاز الطريق. فكّرَ للحظة أنّه كان سكراناً، لكنّه قال لنفسه بعد ذلك إنّه نظرَ قبل أن يعبر، سواء أكان سكراناً أم لا، بانتباه ولم يرَ أضواءً على الطريق. إذن من أين خرجت تلك السيارة؟ سأكونُ أكثر حذراً عند العودة، قال لنفسه. كانت المحطّة منارةً بشكلٍ مفرط وشبهَ خالية. خلف طاولة العرض كانت فتاة ابنة خمس عشرة سنة تقرأ مجلّة. بدا لفاتِ أنّ رأسها كان صغيراً جداً. بجانبِ صندوق المحاسبة كان هناك امرأة أخرى في حدود العشرين من عمرها راحت تنظر إليه بينما هو يتوجّه إلى إحدى الآلات حيث يبيعون هوت-دوغز.

- عليك أن تدفع أوّلاً -قالت له المرأة بالإسبانية.
- لا أفهم -قال فاتِ-، أنا أمريكي.
كرّرت عليه المرأة التنبيه بالإنكليزية.
شطيرتا هوت-دوغز وعلبة بيرة -قال فاتِ.
أخرجت المرأة قلماً من جيب لباسها الموحّد وكتبت المبلغ الذي على فاتِ أن يعطيه لها.
- بالدولار أم بالبيزو ؟ -سأل فاتِ.
- بالبيزو -قالت المرأة.
ترك فات بجانبِ صندوق المحاسبة ورقة نقديّة وذهب ليأتي بعلبة البيرة من البرّاد ثمّ أشار بأصابعه للمراهقة ذات الرأس الصغير، العدد الذي يريده من الهوت-دوغز. قدّمت له الفتاة الهوت-دوغز فسألها فاتِ كيف تعمل آلة الصلصات.
- اضغط على زر الصلصةِ التي تُفضّلها -قالت المراهقة بالإنكليزية.
وضع فاتِ صلصة بندورة، خردل وشيئاً يُشبه الغواتامولِ على إحدى قطع الهوت-دوغز وأكلها في المحل ذاته.
- إنّها لذيذة -قال.
- يُسعِدني ذلك -قالت الفتاة.
كرّر بعدها العمليّةَ مع أخرى واقترب من الصندوق ليبحث عمّا فاض من الورقة المالية. أخذ بعض القطع النقدية وعاد إلى حيث كانت المراهقة وأعطاها لها إكراميّة.
- شكراً، يا آنسة -قال بالإسبانية.
خرج بعدها بعلبة بيرته والهوت-دوغز إلى الطريق. تذكّرَ، بينما كان ينتظر مرور ثلاثِ شاحنات من سانتا تِرِسا إلى أريزونا، ما كان قد قاله لمحاسبة الصندوق. أنا أمريكي. لماذا لم أقُلْ لها أنا أفريقيّ أمريكي؟ هل لأنّني في الخارج؟ لكن يمكنني أن أعتبر أنّني في الخارج

وأنا الآن أستطيع حتى أن أذهب سيراً على قدميّ ودون أمشي كثيراً، إلى بلدي؟ هل هذا يعني أنّني في مكانٍ ما أمريكيّ وفي مكانٍ آخر أفريقي أمريكي وفي آخر، بالمنطق المحض لستُ أحداً؟

عندما استيقظ هتف لرئيس قسم الرياضات في مجلّته وقال له إنّ بيكيت ليس في سانتا تِرِسا.

- طبيعي -قال رئيس قسم الرياضات-، ربّما هو في إحدى المزارع في لاس فيغاس.

- وكيف سأجري معه المقابلة إذن؟ -قال فاتِ-. هل تُريدني أن أذهب إلى لاس فيغاس؟

- ليس ضرورياً أن تُجري مقابلة مع أحد، فقط نحتاج لأحد يروي لنا سيرَ المباراة، أنتَ تعرف، يحكي عن الجوّ، الهواءِ الذي يستنشق في الحلبة، بنيةِ بيكيت الجسدية، الانطباع الذي يولّده عند المكسيكيين اللعينين.

- مقدّمات المباراة ؟ -قال فاتِ.

- ماذا؟ -سأل رئيس قسم الرياضة.

- الجوّ اللعين -قال فاتِ.

- بكلماتٍ بسيطة -قال رئيس قسم الرياضة-، كما لو أنّك تحكي قصّة في بار وكلّ الذين من حولك أصدقاؤك ويموتون لهفة لسماعك.

- مفهوم -قال فاتِ-، بعد غدٍ أُرسله إليك.

- إذا كان هناك شيء لا تفهمه، فلا تقلق، نُحنُ سنحرّره لك هنا، كما لو أنّك أمضيت عمرك كلّه بجانب الحلبة.

- تمام، مفهوم -قال فاتِ.

عندما خرج من غرفته إلى المدخل المسقوف رأى ثلاثة أطفال شقراً، يكادون يكونون برصاً، يلعبون بكرة بيضاء، وسطلاً أحمر

وبعض العصي البلاستيكية الحمراء. الكبير يبدو في حدود الخامسة من عمره والأصغر بحدود الثالثة. لم يكن مكاناً آمناً للعبِ أطفال. ففي غفلة يمكن أن يخرجوا إلى الطريق العام ويمكن أن تدهسهم شاحنة. نظر إلى الجوانب: كان هناك امرأة شقراء جدّاً، على عينيها نظارة سوداء، جالسة على مقعد في الظلّ، تُراقبهم. حيّاها. نظرت إليه المرأة لثانية وقامت بحركة من حنكها، كما لو أنّها لا تستطيع أن ترفع عينيها عن الأطفال.

هبط فاتِ الدرج ودخل في سيّارته. كانت الحرارة في داخلها غير محتملة ففتح النافذتين. وفكّر مرّة أخرى، دون أن يدري، بوالدته، بطريقتها بمُراقبته، حين كان طفلاً. حين أدار محرّك السيارة نهض أحد الأطفال البرص وبقي ينظر إليه. ابتسم له فاتِ وحيّاه بيده. ترك الطفلُ الكرةَ تسقط منه ووقف باستعداد كعسكريّ. حين وجّه السيارة كي يخرج من الموتيل رفع الطفل يده اليمنى إلى رفرف القبّعة وبقي هكذا إلى أن غابت سيّارة فاتِ باتجاه الجنوب.

عاد بينما هو يسوق ليُفكّر بأمّه. رآها تمشي، رآها من خلفٍ، رأى نقرتَها بينما هي تُشاهد برنامجاً في التلفاز، سمع ضحكتها، رآها تفرك صحوناً في المجلى. ومع ذلك بقي وجهُها طوال الوقت في الظلّ، كما لو أنّها كانت بطريقةٍ ما ميتة، أو كما لو أنّها تقول له بإشاراتٍ وليس بكلمات، إنّ الوجوه ليست مهمّة، لا في هذه الحياة ولا في الأخرى.

لم يجد في فندق سونورا رِسورت أيَّ صحفيّ فاضطرّ لأن يسأل عامل الاستقبال كيف الوصول إلى أرِنا. حين وصل إلى المجمع الرياضي لاحظ بعض الهرج والمرج. سأل ماسحَ أحذية، اتخذ مكانه في أحد الممرّات، ما الذي جرى. فقال له ماسح الأحذية لقد وصل الملاكم الأمريكيّ الشماليّ.

وجد كونت بيكيت وقد اعتلى الحلبة، مرتدياً طقماً وربطة عنق يعرض ابتسامة عريضة وواثقة. كان المصوّرون يضغطون على كاميراتهم

والصحفيون الذين يُحيطون بالحلبة ينادونه باسمه الأصلي ويرمونه بأسئلتهم. متى تعتقد أنّك ستُصارع من أجل اللقب؟ هل صحيح أن جيسي برينتوود يخافك؟ كم قبضت كي تأتي إلى سانتا تِرِسا؟ هل صحيح أنّك تزوّجتَ سرّاً في لاس فيغاس؟ كان وكيل أعمالِ بيكيت بجانبه. كان شخصاً بديناً وقصيراً وكان هو من يردّ على كامل الأسئلة تقريباً. كان الصحفيون المكسيكيون يتوجّهون إليه بالإسبانية وينادونه باسمه. سول، يا سيّد سول، والسيّد سول يردّ عليهم بالإسبانية وكان هو أيضاً ينادي الصحفيين المكسيكيين بأسمائهم. سأله صحفيّ أمريكيّ شماليّ ضخم ومربّع الوجه عما إذا كان صحيحاً سياسيّاً أن يأتي ببيكيت ليُصارع في سانتا تِرِسا.

- ماذا تعني بِ«صحيحاً سياسيّاً»؟ -سأله الوكيل.

كان الصحفيّ سيردّ لكن الوكيل سبقه.

- الملاكمة -قال- رياضة والرياضة، كالفن، أبعد من السياسة. دعْنا لا نخلط الرياضة بالسياسة، يا رالف.

- بلى فسّرته بشكلٍ صحيح -قال المدعو رالف-، أنت لا تخاف أن تأتي بِكونت بيكيت إلى سانتا تِرِسا.

- كونت بيكيت لا يخافُ أحداً -قال الوكيل.

- لم يولد من يستطيع أن يهزمني -قال كونت بيكيت.

- حسن، كونت رجل، هذا واضح للعيان. السؤال في هذه الحال هو: هل من امرأة جاءت في فريقه؟ -قال رالف.

نهض صحفيّ مكسيكي كان على الطرف الآخر وأرسله إلى أمّه العاهرة. اخرس، يكن بعيداً عن فاتِ صرخ به قائلاً إنّ عليه ألا يشتم المكسيكيين، إذا كان لا يُريد أن يرفسه على فمه.

- اخرس، يا أحمق وإلا حطّمت رأسك.

بدا أنّ رالف لم يسمع الشتائم فبقي واقفاً، بمظهرٍ هادئ، منتظراً جواب الوكيل. نظر بعضُ الصحفيين الأمريكيين الشماليين الذين كانوا

عند زاوية الحلبة، إلى جانب بعض المُصوّرين، إلى الوكيل بحركة استفهام. تنحنح الوكيل ثمّ قال:

- لم تأتِ معنا أيّ امرأة، يا رالف، أنت تعرف أنّنا لا نُسافر أبداً مع نساء.

- ولا حتى مع السيّدة ألفِرسون؟

ضحك الوكيل وتبعه بعض الصحفيين.

- أنت تعرفُ جيّداً أنّ زوجتي لا تُحب الملاكمة، يا رالف -قال الوكيلُ.

- عن أيّة شياطين يتكلّمون -سألَ فات تشوتشو فلورِس بينما هما يتناولان فطورهما في بار قريب من المجمع الرياضي أرِنا دِل نورتِ.

- عن جرائم قتل النساء -قال تشوتشو فلورِس مُثبطاً- بين حين وآخر تنتعِشُ وتعود لتُصبح خبراً والصحفيون يتكلّمون عنها وتكبر القصّة مثل كرة الثلج إلى أن تطلع الشمسُ وتذوب الكرة اللعينة وينساها الجميع ويعودون إلى أعمالهم.

- يعودون إلى أعمالهم؟ -سأل فاتِ.

- جرائم القتل اللعينة مثل إضراب، يا صديقي، مثل إضراب لعين ووحشيّ.

تشبيه جرائم قتل النساء بالإضراب كان غريباً. ومع ذلك وافق بحركة من رأسه ولم يقل شيئاً.

- هذه مدينة تامّة ودائرية -قال تشوتشو فلورِس-، عندنا من كلّ شيء، عندنا معامل معفاة من ضرائب الاستيراد[1]، مؤشّر بطالة منخفض جدّاً، أحد أخفض المعدلات في المكسيك، عصابة تجارة

---

(١) كي لا أثقل على القارئ سأستخدم دائماً من الآن فصاعداً كلمة معمل أو معامل لأنّ كلّ المعامل في سانتا تِرِسا معفاة من الضرائب.

الكوكايين، تدفق متواصل للعمال الذين يأتون من بلدات أخرى، مهاجرون من أمريكا الوسطى، مشروع عمرانيّ غير قادر على تحمّل مُعَدّل النموّ السكّاني، عندنا مال وعندنا أيضاً فقر كثير، عندنا خيال وبيروقراطية، عنف ورغبة بالعمل بسلام. ينقصنا شيءٌ واحدٌ فقط -قال تشوتشو فلورِس.

- ما الذي ينقصُكم؟ -سأل.

- الوقت -قال تشوتشو فلورِس-. ينقصنا الوقت اللعين.

لماذا الوقت؟، فكّر فاتِ. وقت كي يتحوّل هذا الخراء، في منتصف الطريق بين المقبرة ومكبّ النفايات، إلى نوع من ديترويت؟. مكثا برهة دون كلام. أخرج تشوتشو فلورِس قلماً من سترته الأمريكية ودفتراً وراح يرسم وجوهَ نساء. كان يفعل ذلك بأقصى سرعة، شارداً تماماً وبشيء من الذكاء أيضا، كما بدا لفاتِ، كما لو أنّ تشوتشو فلورِس قد درس، قبل أن يتحوّل إلى صحفيّ رياضيّ، الرسمَ وأمضى كثيراً من الوقت يسجل ملاحظات من الطبيعة. ما من امرأة كانت تبتسم. بعضهنّ كنّ مُغمضات العينين. وأخريات كنّ عجائز وينظرن إلى الجوانب، كما لو أنّهنّ ينتظرن شيئاً أو أحداً ناداهنّ توّاً باسمها. ما من واحدة كانت جميلة.

- لديك موهبة -قال فاتِ حين كان تشوتشو فلورِس يرسم الوجه السابع.

- هذا ليس شيئاً -قال تشوتشو فلورِس.

سأله بعدها، نظراً لأنّ الاستمرار بالحديث بالكلام عن موهبة المكسيكي كان يحدث عنده أساساً نوعاً من لانزعاج، عن النساء المقتولات.

- غالبيّتهم عاملات في المعامل. فتيات شابات، طويلات الشعر. لكنّ هذا ليس بالضرورة بصمة القاتل، في سانتا تِرسا جميع الفتيات تقريباً شعرهنّ طويل -قال تشوتشو فلورِس.

- هناك قاتل واحد؟ -سأل فاتِ.

- هذا ما يقولونه -قال تشوتشو فلورِس دون أن يتوقف عن الرسم-. هناك بعض الموقوفين. هناك بعض المسائل حُلَّت. لكنّ الأسطورة تريد أن يكون القاتلُ واحداً ولا يمكن القبض عليه.

- كم قتيلة هناك؟

- لا أدري -قال تشوتشو فلورِس-، كثيرات، أكثر من مئتين.

لاحظ فاتِ كيف راح المكسيكي يرسم الوجه التاسع.

- كثيرات بالنسبة لقاتل واحد -قال.

- هو كذلك، يا صديقي، أكثر من اللازم، حتى بالنسبة لقاتل مكسيكيّ.

- وكيف يقتلوهنّ؟ -سأل فاتِ.

- هذا ما ليس واضحاً إطلاقاً. يختفين. يتبخّرن في الهواء، رأيتك ولم أرَكْ. وبعد بعض الوقت تظهر جثثهنّ في الصحراء.

بينما كان يقود في طريقه إلى سونورا رِسورت، حيث كان يُفكّر أن يفتح بريده الإلكتروني، خطر لفات أنّ كتابة تحقيق صحفيّ عن النساء المقتولات أهمّ بكثير من الكتابة عن مصارعة بيكيت-فِرناندِثْ. هكذا كتب إلى رئيس قسمه. طلب منه أن يسمح له بالبقاء أسبوعاً آخر في المدينة وأن يُرسل له مُصوِّراً. خرج بعدها إلى بارٍ، حيث اجتمع مع بعض الصحفيين الأمريكيين الشماليين. كانوا يتكلّمون عن المصارعة والجميع اتفقوا على أنّ فِرناندِثْ لن يستمرّ أكثر من أربع جولاتٍ. حكى واحد منهم عن تاريخ الملاكم المكسيكي هركولِس كارّنيو. كان شخصاً بطول مترين تقريباً. وهو شيء غير مُعتاد في المكسيك، حيث الناس أقرب إلى القِصَر. هِركولِس كارّنيو هذا، كان بالإضافة إلى ذلك قويّاً، يعمل في تنزيل الأكياس في سوق أو في ملحمة، وأقنعه أحدهم كي يتفرّغ للملاكمة. بدأ متأخراً. لِنَقُلْ في العشرين من عمره. لكن لا

تكثر في المكسيك الأوزان الثقيلة وكان يفوز بكلّ المصارعات. هذا بلد يُعطي أوزان ديكة جيّدين، أوزان ذباب جيّدين، أوزان ريشة جيّدين، وفي مرّات معدودات وزناً وسطاً، لكن ليس وزناً ثقيلاً أو نصف ثقيل. إنّها مسألة وراثة وغذاء. مسألة بنيوية. عندهم الآن رئيس جمهورية أطول من رئيس الولايات المتحدة الأمريكية. هذه هي المرّة الأولى التي يحدث فيها ذلك. شيئاً فشيئاً سيصير رؤساء المكسيك في كلّ مرّة أطول. في السابق لم يكن هذا يخطر بالبال. إن رئيساً مكسيكياً كان عادة ما يصل طوله في أحسن الحالات إلى كتف رئيس أمريكي. رأس رئيس مكسيكي كان لا يكاد يصل إلى سرّة رئيس من رؤسائنا. ذلك كان الميراث. لكنّ الطبقة العليا المكسيكية تتغيّر الآن. هم في كلّ مرّة أغنى ويبحثون عادةً عن زوجات من شمال الحدود. هذا ما يُسمونه تحسين النسل. قزم مكسيكيّ يرسل ابنه القزم ليدرس في جامعة كاليفورنيا. الصبي معه مال ويفعل ما يشاء، وهذا ما يدهش بعض الطالبات. لا يوجد مكان على وجه الأرض فيه غبيات في المتر المربّع الواحدِ أكثر من جامعة كاليفورنيا. النتيجة: الصبي يحصل على شهادته ويحصل على زوجة تذهبُ لتعيش معه في المكسيك. بهذه الطريقة لا يعود أحفادُ القزم المكسيكي أقزاماً، يحرزون قامة متوسطة ويبيضّون بالمناسبة. هؤلاء الأحفاد، حين تحين اللحظة، يقومون برحلة أبيهم التجريبية ذاتها. جامعة أمريكية شمالية، زوجة أمريكية شمالية، أبناؤهُم في كلّ مرّة أطول قامة. الطبقة العليا المكسيكية، تعمل متحمّلة الربح والخسارة، وهو ما فعله الإسبان، لكن بالعكس الإسبان الشبقون وقليلو التبصّر، اختلطوا بالهنديات، اغتصبوهنّ، أجبروهنّ على الدخول في ديانتهم، وظنّوا أنّ البلد سيصبح بهذه الطريقة أبيض. آمن الإسبان بابن الزنا الأبيض. كانوا يبالغون بقيمة منِيهم. لكنّهم أخطؤوا. لا يمكنك أبداً أن تغتصب هذا الكمّ من الأشخاص. رياضياً مستحيل. الجسد لا يتحمّل. تُستنفَدُ. ثمّ إنّهم كانوا يغتصبون من الأسفل إلى الأعلى، بينما

الأكثر عملية، وهذا مُثبت، هو الاغتصاب من الأعلى إلى الأسفل. كان من الممكن للنظام الإسباني أن يكون قد أعطى بعض النتائج لو أنهم كانوا قادرين على اغتصاب أبناء زناهم ذاتهم، ثم أحفاد زناهم بل وحتى على اغتصاب أبناء أحفاد زناهم. لكن من سيرغب بأن يغتصب أحداً حين يبلغ السبعين ولا يكاد يستطيع أن يقف على قدميه؟ النتيجة بيّنة للعيان. مني الإسبان الذين كانوا يظنون أنّهم عمالقة، ضاع في العجينة الهيولية لآلاف الهنود. أبناء الزنا الأوائل، الذين كانوا يملكون خمسين بالمئة من دم كلّ عرقٍ، تولّوا أمورَ البلد، فكانوا الأمناء، الجنودَ، تجارَ المفرّق، مؤسّسي المدنِ الجديدة. واستمرّوا بالاغتصاب، لكنّ الثمرة منذ ذلك الوقت راحت تنحدر، فالهنديات اللواتي اغتصبوهنّ أنجبن خلاسيين بنسبة دمٍ أبيض صارت أقل. وهكذا دواليك. إلى أن وصلنا إلى هذا المُلاكم، هِركولِس كارّنيو، الذي كان في البداية يفوزُ في المباراة، إمّا لأنّ منافسيه كانوا أضعف منه وإما لأنّ أحداً كان يتلاعب بالمباراة، وهو ما جعل بعضَ المكسيكيين يُصابون بالغرور، فراحوا يتفاخرون بأنّ لديهم بطلاً حقيقيّاً في درجات الوزن الثقيل وأخذوه ذات يومٍ إلى الولايات المتحدة وجعلوه يُصارع أيرلندياً سكراناً، ثمّ زنجيّاً مخدّراً ثمّ روسيّاً شحيماً، الذين فاز عليهم، فطفح المكسيكيون بالسعادة والخيلاء: لقد صار عندهم بطل يتجوّل في الدوائر الكبيرة. وعندها تعاقدوا على مباراة مع آرثر أشلي، في لوس أنجِلوس، لا أدري ما إذا رأى أحد آرثر أشلي، أنا بلى رأيته، يسمونه أرت السادي. أحرز اللقب في تلك المباراة. فلم يبقَ من المسكين هِركولِس كارّنيو شيء. فقد تبيّن من الجولة الأولى أنّ تلك سوف تكون مجزرة. راحَ أرت السادي، آخذاً كلّ وقت العالم، دون أيّ عجلة، باحثاً عن المكان الذي سيضع قبضاته فيه، يمرّر جولات يدرسه فيها، خصّص الجولة الثالثة فقط للوجه، الرابعة فقط للكبد. بالنتيجة يكفي هِركولِس كارّنيو أنّه تحمّل حتى الجولة الثامنة. صارع بعد تلك المباراة

في حلبات من الدرجة الثالثة. كان يسقط دائماً في الجولة الثانية تقريباً. بحث بعدها عن عمل كحارس في مرقص، لكنه ونظراً لسوء سمعته لم يكن يستمرّ في عمله أسبوعاً واحداً. لم يعد بعدها إلى المكسيك. ربّما نسيَ حتى أنّه مكسيكيّ. طبعاً نسيه المكسيكيون. يقولون إنّه تفرّغ للتسوّل ومات ذات يومٍ تحت جسر. فخر فئات الأوزان الثقيلة المكسيكية، قال الصحفيّ.

ضحك البقية، وعلا بعدها الحزنُ وجوهَهم جميعاً. عشرون ثانية من الصمت لتذكّرِ عاثرِ الحظّ كارّنيو. صارت الوجوه فجأة جدّية، أثارت عند فاتِ الإحساس برقصة أقنعة. خلال لحظة قصيرة جدّاً نقصه الهواء، رأى شقّة أمّهِ خاليةً، انتابه إحساس بأنّ شخصين يمارسان الحبّ في غرفة مُحزنة، كلّ ذلك في وقت واحد، وقت معرّفٍ بكلمة حرج. أنت، ما أنت؟ هل أنت مرّوج لليمين المتطرّف؟، سأله فاتِ. حسن، حَسَن، عبدٌ زنجيٌّ آخرُ حسّاس، قال الصحفيّ. حاول فات أن يقترب منه ويوجّه له لكمة واحدة على الأقل (لا يحلم بصفعة)، لكنّ الصحفيين الذين كانوا يحيطون بالصحفيّ الذي حكى القصّة منعوه. إنّها مجرّد مزحة، سمع أحدَهُم يقول. جميعنا أمريكيون. هنا لا يوجد أحدٌ من اليمين المتطرّف. أو هذا ما أظنُّ. سمع بعدها مزيداً من الضحكات. حين هدأ وذهب ليجلس وحده في زاوية من البار، اقترب منه أحدُ الصحفيين الذين كانوا يسمعون قصّة هِركولِس كارّنيو ومدّ له يده.

- تشوك كامبِل من سبورت مغازين شيكاغو.

شدّ فاتِ على يده وقال له اسمه واسم مجلّته.

- سمعتُ أنّهم قتلوا مراسلَكم - قال كامبِل.

- هو كذلك - قال فاتِ.

- مسألة تتعلق بالنساء، أعتقد - قال كامبِل.

- لا أعرف - قال فاتِ.

- تعرّفت على جيمي لويل -قال كامِل-، التقينا على الأقل أربعين مرّةً، وهو أكثر مما أستطيع أن أقوله عن بعض العشيقات، بل وعن زوجة ما. كان شخصاً طيّباً؛ يحبّ البيرة ويحبّ أن يأكل جيّداً. كان رجلاً كثيرَ العمل، ويقول إنّ عليه أن يأكل كثيراً والطعام يجب أن يكون حسنَ النوعيّة. سافرنا أحياناً معاً في الطائرة. أنا لا أستطيع أن أنامَ في الطائرة. جيمي لويل كان ينام طيلة الرحلة ولا يستيقظ إلاّ كي يأكلَ ويحكي نكتة ما. في الحقيقة لم يكن يُحبُّ الملاكمةَ كثيراً، رياضته هي كرة القاعدة، لكنّه في مجلّتكم كان يُغطّي كلَّ الرياضات، بما في ذلك التنس. لم يقل قط كلمة سيّئة بحقّ أحد. كان يَحترِم ويُحترَم. ألا ترى مثلي؟

- لم أرَ في حياتي لويل -قال فاتِ.

- لا تأخذ ما سمعته توّاً مأخذَ سوء، يا فتى -قال كامِل-. عمل المراسل الرياضي مضجر ويطلق الواحد ترهات دون أن يُفكّر بالأمر مرّتين، أو يغيّر القصص كيلا يُكرّر نفسَهُ. نقول أحياناً، دون أن نريد، فظائع. الرجل الذي حكى قصّةَ المُلاكِم المكسيكيّ، ليس شخصاً سيّئاً. إنّه شخص مُتَحَضِّر ومنفتح كفايةً بالمقارنة مع آخرين. الشيء الوحيد الذي يحدث هو أنّنا نلعب لعبة الأوغاد أحياناً كي نقتلَ الوقتَ. لكنّنا لا نفعل ذلك بجدّية -قال كامِل.

- من ناحيتي لا توجد مشكلة -قال فاتِ.

- في أيّ جولة تعتقد أن كونت بيكيت سوف يفوز؟

- لا أعرف -قال فاتِ-، البارحة رأيتُ مِرولينو فِرناندِث يتدرَّب في مقرّه ولم يبدو لي خاسراً.

- سوف يسقط قبلَ الجولة الثالثة -قال كامِل.

سأله صحفيٌّ آخر أين يقع مقرّ فِرناندِث.

- ليس بعيداً جدّاً عن المدينة -قال فاتِ-، مع أنّني في الحقيقة لا أعرف، لم أذهب وحدي، أخذني بعض المكسيكيين.

حين عاد فاتِ وأشعل الحاسوبَ وجد جواب رئيس قسمه. لم يكن هناك اهتمامٌ ولا مالٌ للمضيّ بالتحقيق الصحفي الذي اقترحه. يطلبُ منه أن يقتصر على القيام بما كلّفه به رئيسُ قسم الرياضة، ويُغادر فوراً. كلّمَ فات عاملَ استقبالٍ وطلب مكالمة هاتفية مع نيويورك.

تذكّر، بينما كان ينتظر المكالمةَ، التحقيقاتِ الصحفية التي رفضوها له، أحدثها كان مع مجموعة سياسيّة من هارلم تُدعى أُخُوَّة محمّد. تعرَّف عليهم أثناء مظاهرة تدعم فلسطين. كانت المظاهرة متنوّعة الألوان ويستطيع المرءُ أن يرى فيها مجموعةً من العرب، بعضَ اليساريين النيويوركيين السابقين، بعضَ المعادين للعولمة. ومع ذلك لفتت انتباهه أُخُوّة محمّد على الفور لأنّهم كانوا يسيرون تحت صورة كبيرة لابن لادن. جميعهم كانوا زنوجاً، يمضون بستراتٍ جلدية سوداء وبيريهاتٍ سوداء ونظارات سوداء، شيء كان يُذَكّر بشكل غامض بالفهود السود، مع فارق وحيد هو أنّ الفهودَ السود كانوا مراهقين، وتعلوهم ملامح الشباب، هالة الشباب والمأساة، بينما كان أتباعُ أُخُوَّةِ محمّد رجالاً عن حقّ وحقيقة، عريضي المناكب وهائلي العضلات، ناساً قضوا ساعاتٍ وساعات في المراكز الرياضية، يرفعون أثقالاً، أشخاصاً ينزعون لأن يكون حرّاساً شخصيين، لكن حرّاس مَنْ؟، خزائن بشرية حقيقيّة، حضورهم بالنتيجة مخيف، بالرغم من أنّهم لم يكونوا في المظاهرة يتجاوزون العشرين، وربّما أقلّ، لكن صورة ابن لادن كان يُمارس، من يدري كيف، تأثيراً مضاعِفاً، أوّلاً لأنّه قبل أقل من ستة أشهر ارتكبت الجريمة ضدّ مركز التجارة العالمي والتبختر مع صورة بن لادِن، حتى ولو بطريقة رمزية فقط، كان يشكّل بالنتيجة أقصى حالات الاستفزاز. طبعاً لم يكن فاتِ الوحيدَ الذي انتبه إلى الوجود لهزيل والمتحدّي للأُخُوَّة: لاحقتهم كاميرات التلفزيون وأجرت مقابلات مع الناطق الرسمي باسمهم، والمصوّرون في عددٍ من الصحف وثّقوا حضورَ تلك المجموعة التي يبدو أنّها كانت تطالب بصوت عال بأن تُقْمَع.

راقبهم فاتِ عن بعد. رآهم يتحدّثون إلى التلفزيونات وإلى بعض الإذاعات المحلّية، رآهم يصرخون، رآهم يمشون بين الناس وتبعهم. غادر أعضاء أُخوّة محمّد المظاهرة بحركة مدروسة مسبقاً قبل أن تتفرّق. كان هناك فانان ينتظرانهم في زاوية. عندها فقط انتبه فاتِ إلى أنّهم لم يكونوا أكثر من خمسة عشر. هم ركضوا. هو ركض نحوهم. قال إنّه يريد أن يجري معهم مقابلات لمجلّته. سأله من كان يبدو زعيمهم، وهو شخص طويل وبدين، حليق الرأس، لصالح أيّ مجلة كان يعمل. قال له فاتِ اسمها فنظر إليه الرجل بابتسامةٍ ساخرة.

- هذه المجلّة البائسة ما عاد أحدٌ يقرؤها -قال.

- إنّها مجلة أخوةٍ -قال فاتِ.

- مجلّةُ الأخوةِ البائسة هذه فقط تُعهِّرُ الأخوة -قال الرجل دون أن يتوقّف عن لابتسام-. صارت موضة قديمة.

- لا أظنّ ذلك -قال فاتِ.

مساعد طبّاخ صيني خرج ليرمي عدّة أكياس قمامة. عربيٌّ راقبهم من الزاوية. وجوهٌ مجهولة وبعيدة، فكّر فات، بينما الرجل الذي يبدو أنّه الزعيم يقول له الساعةَ والتاريخَ والمكانَ الذي سيلتقيان فيه بعد بضعة أيّام في برونكس.

لم يُخْلِف فاتِ الموعد. كان بانتظاره ثلاثة أعضاء من الأُخوّة وشاحنة صغيرة مغلقة سوداء. انتقلوا إلى قبوٍ قريب من بايشِستر. هناك كان ينتظرهم الرجلُ البدينُ ذو الرأس الحليق. طلب أن ينادوه خليل. الآخرون لم يقولوا أسماءهم. كان خليل يتكلّمُ عن الحرب المقدّسة. اشرح لي أيّ شياطين تعني الحرب المقدّسة، قال فاتِ. الحرب المقدّسة تتكلّم عنا حين تجف أفواهنا، قال خليل. الحرب المقدّسة هي كلمة الخُرْسِ، كلمة من فقدوا لسانهم، حرب من لم يعرفوا قط

الكلام. لماذا تتظاهرون ضدّ إسرائيل؟، سأل فاتِ. اليهود يضطهدوننا، قال خليل. ما من يهوديّ انتمى قط للكو كلوكس كلان، قال فاتِ. هذا ما أراد اليهود أن يقنعونا به. الحقيقة هي أنّ الكلان موجود في كلّ مكان، في تل أبيب، في لندن، في واشنطن. كثير من زعماء الكلان هم يهود، قال خليل. هكذا كان الأمر دائماً. هوليوود مليئة بزعماء الكلان. من هم؟، سأل فاتِ. لفت خليل انتباهه إلى أنّ ما سيقوله له بدءاً من هذه اللحظة هو خارج التسجيل.

- الأقطاب اليهود يملكون محامين يهوداً جيّدين -قال.

- من هم؟، سأل فاتِ. سمّى ثلاثة مخرجين سينمائيين ومُمثّلَين. ثم جاءه إلهام. سأل: هل وودي ألان من الكلان؟ نعم، قال خليل، أمعِنْ في أفلامه، هل رأيت هناك أخاً ما[1]؟ لا، لم أرَ كثيرين، قال فاتِ. ولا واحد، قال خليل. لماذا تحملون صورةً لابن لادن، سأل فاتِ. لأنّ ابن لادن هو أوّل من انتبه إلى طبيعة الصراع الحالي. ثمّ تحدّثا عن براءة ابن لادن وعن بيرل هاربر وعن كم كان مناسباً الهجوم على أبراج التجارة العالمية بالنسبة إلى بعض الناس. ناس يعملون في البورصة، قال خليل، ناس كان لديهم أوراق محرجة مخبّأة في المكاتب، ناس يبيعون أسلحة وكانوا يحتاجون إلى عمل من هذا النوع. بحسبكم أنتم، قال فاتِ، كان محمّد عطا مدسوساً دسّته وكالة المخابرات الأمريكية أو مكتب التحقيقات الفيدرالي؟ أين آثار محمد عطا؟ سأله خليل؟، سأله خليل. من يستطيع أن يؤكّد أنَّ محمّد عطا كان في إحدى تلكما الطائرتين؟ سأقول لك ما أعتقدُه. أعتقدُ أنّ عطا ميتٌ. مات بينما هم يعذّبونه، أو أطلقوا عليه النار في نقرته. أعتقدّ أنّهم قطّعوا جثته إلى قطع صغيرة وطحنوا عظامه حتى صارت مثل بقايا فرّوج. أعتقدُ أنّهم وضعوا بعدها عظامَهُ في وشرحات لحمه في صندوق

(١) يقصد زنجياً.

ملؤوه بالإسمنت وتركوه في أحد سدود فلوريدا. والشيء ذاته فعلوه برفاقِ محمّد عطا.

- من كان يقود الطائرات، إذن؟، سأل فاتِ. مجانين من الكلان، مرضى بلا أسماء من مشافي الأمراض العقلية في الغرب الأوسط، متطوّعون منوّمون مغناطيسياً كي يواجهوا الانتحار. في هذا البلد يختفي آلافُ الأشخاص كلَّ سنة ولا أحد يُحاولُ العثور عليهم. تكلّموا بعدها عن الرومان والسيرك والمسيحيين الأوائل، الذين كانت تأكلُهُم الأسودُ. لكنَّ الأسود ستغصّ بلحمنا الأسود، قال.

زارهم فاتِ في اليوم التالي في محلٍّ في هارلم، وهناك تعرّفَ على إبراهيم، شخص متوسّط القامة مليء الوجهِ بالنُّدُب، راح يروي له بالتفصيل الأعمال الخيرية التي تقوم بها الأُخُوّة في الحيّ. أكلا معاً في مقهى كان بجانب المحلّ. كانت تُدير المقهى امرأةٌ يُساعدها صبيٌّ وكان في المطبخ عجوز لا يتوقّف عن الغناء. انضمّ إليهم في المساء خليل فسأله فاتِ أين تعارفا. في السجن، قالا له. الأخوة الزنوج يتعارف بعضُهم على بعضهم في السجن. تكلّموا عن مجموعات إسلاميّة أخرى في هارلم. لم يكن رأيُ إبراهيم وخليل بها جيّداً، لكنّهما حاولا أن يكونا معتدلين ومحاورَيْن. المسلمون الجيّدون سينتهون عاجلاً أو آجلاً بالمجيء إلى أُخُوّة محمّد.

قال لهما فاتِ، قبل أن يودّعهما، إنّه ربّما لن يغفروا لهم اصطفافهم تحت راية ابن لادن. ضحك إبراهيم وخليل. بدوَا له حجرين أسودين يرتعشان من الضحك.

- ربّما لن ينسوه أبداً -قال إبراهيم.

- الآن صاروا يعرفون مع من يتعاملون -قال خليل.

قال له رئيس قسمه أن ينسى موضوع كتابة تقرير عن الأُخُوَّة.

- هؤلاء الزنوج، كم عددهم؟ -سأل.

- عشرون، تقريباً -قال فاتِ.

- عشرون عبد أسود -قال رئيس القسم-. خمسة منهم على الأقل يجب أن يكونوا عملاء مدسوسين من قبل مكتب التحقيقات الفيدرالي.

- ربّما أكثر -قال فاتِ.

- ما الذي يمكن أن يهمّنا منهم؟ -سأله رئيس القسم.

- حماقتهم -قال فاتِ-. تنوّع الطرق اللامتناهي الذي نمزّق به أنفسنا.

- هل صرت مازوخيّاً، يا أوسكار؟

- ربّما -اعترف فاتِ.

- عليك أن تنيكَ أكثر -قال رئيس القسم-. أن تخرج أكثر، تسمعَ مزيداً من الموسيقى، وأن يكون لكَ أصدقاء تتحدّث معهم.

- فكّرتُ بذلك -قال فاتِ.

- بماذا فكّرت؟

- في أن أنيك أكثر -قال فاتِ.

- هذه الأشياء لا يُفَكَّرُ بها، بل تُمارَس.

- أوّلاً يجب أن يُفَكَّر بها -قال فاتِ، ثمّ أضاف-. هل معي ضوءٌ أخضر لتحقيقي؟

حرّك رئيسُ القسم رأسَهُ بالنفي.

- ولا بشكل من الأشكال -قال-. بعْ هذا لمجلّةٍ فلسفيّة، لمجلّة علم إناسة مدنية، اكتب، إذا شئتَ، سيناريو لعيناً للسينما وليصوّره سبايك لي اللعين، لكن أنا لا أُفكّر بنشره.

- لا بأس -قال فاتِ.

- عجيب، ساروا حاملين صور ابن لادن، أولادُ زِنا الزنا -قال رئيس القسم.

- يجب أن يكونوا على درجة من الجرأة كي يفعلوا ذلك - قال فاتِ.

- يجب أن تكون لهم قلوب من إسمنت مسلّح ثم يجب أن يكونوا حمقى جدّاً.

- بالتأكيد خطر هذا لأحد مندسّي الشرطة - قال فاتِ.

- سيّان - قال رئيس القسم -، خطر لمن خطر فهذا دليل.

- دليل على ماذا - سأل فاتِ.

- على أنّنا نعيش في كوكبٍ مجانين - قال رئيس القسم.

حين رفع رئيسُ القسم الهاتفَ شرح له فاتِ ما كان يجري في سانتا تِرِسا. كان شرحاً مقتضباً لتحقيقه. حدّثه عن عمليات قتل النساء، عن احتمال أن تكون جميع الجرائم قد ارتكبت من قبل شخصٍ أو شخصين، وهو ما كان يحوّلهما إلى أكبر قتلة على التسلسل في التاريخ، كلّمَهُ عن تجارة المخدرات وعن الحدود، عن فسادِ الشرطة وعن نموّ المدينة المفرط، أكّد له إنّه يحتاج لأسبوع فقط كي يُحقّق في كلّ ما هو ضروريّ وسيُغادر بعدها إلى نيويورك وسيكون التحقيق الصحفيّ جاهزاً خلال خمسة أيّام.

- يا أوسكار - قال له رئيس القسم -، أنتَ هناك كي تُغطي مباراة ملاكمة.

- هذا أهمّ - قال فاتِ -، المباراة نكتة، ما أُحضّره هو أكثير بكثير.

- ما هذا الذي تقترحه عليّ؟

- صورة للعالم الصناعي في العالم الثالث - قال فاتِ -، صورة مختصرة aide-mémoire عن الوضع الحالي في المكسيك، صورة بانورامية عن الحدود. قصّة بوليسية من الدرجة الأولى، غريب.

- aide-mémoire؟ -تساءل رئيس القسم-. هل هذه فرنسية، أيها الزنجيّ؟ منذ متى تعرفُ أنتَ الفرنسية؟

- لا أعرف الفرنسية -قال فاتِ-، لكنّني أعرف معنى aide-mémoire اللعين؟

- وأنا أيضاً أعرف ما هو المعنى الشرموط لِ aide-mémoire - قال رئيس القسم- وأعرف أيضاً معنى merci و au-revoir و faire l'amour ، وكذلك coucher avec moi، هل تتذكّر هذه الأغنية؟ Voulez-vous coucher avec moi, ce soir، وأظنّ أنّك أنت، الزنجيّ، تريد أن تنام معي لكن من دون أن تقول قبلها voulez-vous، الأساسي في هذه الحالة. هل فهمت؟ يجب أن تقول voulez-vous، وإذا لم تقلها فلتنطح رأسك بالحائط.

- هنا يوجد مواد لتحقيقٍ صحفيٍّ كبير -قال فاتِ.

- كم من الأخوة العهرة متورّطين في المسألة؟ -سأل رئيس القسم.

- عن أيّ خراء تُكلّمني. -قال فاتِ.

- عن كم من الزنوج الملعونين الحبالُ حول أعناقهم؟ -سأل رئيس القسم.

- ما أدراني، أنا أُكلّمك عن تحقيقٍ صحفيّ كبير -قال فاتِ- وليس عن تمرّد في الغيتو.

- يعني: أنّه لا يوجد أخ قوّاد في هذه القصّة -قال رئيس القسم.

- ما من أخٍ واحد، لكن هناك أكثر من مئتي مكسيكيّ مقتول، يا ابن العاهرة -قال فاتِ.

- ما احتمال فوز كونت بيكيت؟ -سأل رئيس القسم.

- أدخل كونت بيكيت في مؤخّرتك السوداء اللعينة -قال فاتِ.

- هل رأيت خصمه؟ -سأل رئيس القسم.

- أدخل كونت بيكيت في ثقبك، ثقب اللوطيّ -قال فاتِ-،

واطلب منه أن يحرسه لك لأنّني عندما سأعود إلى نيويورك سأفزر مؤخرتك لبطاً.

- قم بواجبك وإيّاك والغش، أيها الزنجيّ -قال رئيس القسم.

أغلق فاتِ الهاتف.

بجانبه كان هناك امرأة ترتدي الجينز وسترة جلدية خاماً، تبتسم له. كانت تضع نظارة سوداء وتعلّق على كتفها جزداناً ذا نوعيّة جيّدة، وكاميرا. كانت تبدو سائحة.

- هل تهمّكَ عمليات القتل في سانتا تِرِسا؟ -سألت.

تأخّر فاتِ في فهم أنّها كانت قد سمعت حديثَهُ الهاتفيّ.

- اسمي غوادالوبٌ رونكال -قالت المرأة مادّةً له يدها.

صافحها. كانت يداً ناعمةً.

- أنا صحفيّة -قالت غوادالوبٌ رونكال حين ترك فاتِ يدها-. لكنّني لستُ هنا كي أغطّي المباراة. هذا النوع من المباريات لا يهمّني، مع أنّني أعرفُ أنّ هناك نساء يجدن في الملاكمة إثارة جنسية. الحقيقة تبدو لي أقرب إلى أن تكون أمراً سوقيّاً وبلا معنى. ألا تعتقد أنت أنّه كذلك؟ أم أنّك تُحبّ أن ترى رجلين يتضاربان.

هزّ فاتِ كتفيه.

- ألا تُجيبني؟ حسن، لست من عليها أن تحكم على هواياتك الرياضية. أنا في الحقيقة لا تسرّني أيُّ رياضة. لا الملاكمة، للأسباب التي ذكرتها لك، ولا كرة القدم، ولا كرة السلة، ولا حتى رياضة السباقات بأنواعها. هل ستسألني ماذا أفعل إذن في فندق مليء بالصحفيين الرياضيين وليس في مكانٍ آخر أكثرَ هدوءاً، حيث لن أسمع في كلّ مرّةٍ أنزل فيها إلى البار، أو المطعم، قصصاً عن مباريات كبيرة من الماضي. سأقوله لك إذا ما رافقتني إلى طاولتي وتناولت معي كأساً.

خطر بذهنه بينما هو يُرافقها أنّ الأمر يتعلّقُ بمجنونة أو ربّما ببغيٍ،

لكن مظهرَ غوادالوبٌ رونكال لم يكن يدل على أنّها مجنونة ولا بغي، بالرغم من أنّ فاتِ كان يجهل كيف كانت المجنونات أو العاهرات المكسيكيات. أيضاً لم يكن يبدو عليها مظهر الصحفيّة. جلسا في شرفة الفندق، من حيث كان يظهر هيكل بناءٍ قيد الإنشاء من أكثر من عشرة طوابق. فندقٌ آخر، أعلمته المرأة دون مبالاة. كان بعض العمّال، المستندين إلى الأعمدة أو الجالسين على أكداس الطوب ينظرون إليهما أيضاً، أو هذا ما فكّر به فاتِ، بالرغم من أنّه لم يكن هناك طريقة للبرهان عليه، فالهيئات التي كانت تتحرّك في البناء نصف المبني كانت أصغر من اللازم.

- أنا، كما سبق وقلتُ لك، صحفيّة -قالت غوادالوبٌ-. أعمل في واحدة من أكبر صحفِ العاصمة الفيدرالية. ونزلتُ في هذا الفندق خوفاً.

- خوفاً ممَّ؟ -قال فاتِ.

- خوفاً من كلِّ شيء. عندما تعمل الواحدةُ في شيء متعلّق بعمليات قتل النساء في سانتا تِرِسا تنتهي إلى الخوفِ من كلّ شيء. الخوف من أن يضربوك. الخوف من أن يخطفوك ويقتلوك. الخوف من أن يعذّبوك. طبعاً الخوف يخفّ مع التجربة. لكنّني لا أملك تجربة. ليس عندي تجربة. أُعاني من عدم التجربة. بل لو وُجدَ المصطلحُ، لكان بالإمكان أن أقول إنّني هنا كصحفيّة سرّية. أعرف كلَّ ما له علاقة بعمليات القتل. لكنّني في الحقيقة لستُ خبيرة في الموضوع. طبعاً أريدُ أن أقول إنّه حتى أسبوع مضى لم يكن موضوعي، لم أكن على اطلاع، ولم أكتب شيئاً عن هذا وفجاةً، ودون أن أتوقّع أو أطلب، وضعوا على طاولتي ملفّاً عن عمليات القتل وكلّفوني بالقضيّة. هل تُريد أن تعرف لماذا؟

فات هزّ برأسه.

- لأنّني امرأة ولأنّنا لا نستطيع نحن النساء أن نرفض مهمّة. طبعاً

كنتُ أعرفُ مصير سَلَفي. جميعنا في الصحيفة كنّا نعرفه. القضيّة لاقت صدى كبيراً جدّاً وربّما تعرفها أنت. -نفى فاتِ بحركة من رأسه-. طبعاً قتلوه. تعمّق أكثر من اللازم في القضيّة فقتلوه. ليس هنا في سانتا تِرِسا، بل في العاصمة الفيدرالية. قالت الشرطة إنّ العملية على علاقة بعملية سرقة أخرى مشؤومةِ النهاية. هل تُريد أن تعرف كيف؟ ركب سيّارةَ أجرة. انطلقت السيارة. عندما وصلت إلى زاوية توقّفت وصعد مجهولان. بقوا يدورون برهة على صرّافات آلية، يُفرّغون فيها بطاقة حساب سَلفي، توجّهوا بعدها إلى خارج المدينة ودرزوه طعناً بالسكاكين. ليس الصحفيّ الأوّل الذي قُتل بسبب ما يكتبه. وجدتُ بين أوراقه معلومات عن حالتين أخريين. امرأة، مُذيعة في الإذاعة، خطفوها في العاصمة الفيدرالية وصحفي أمريكي من أصلٍ مكسيكي كان يعمل في صحيفة في أريزونا تسمى *لا رازا*[1]، اختفى. كلاهما كان يُحقّقان في قتل النساء في سانتا تِرِسا. عرفتُ المذيعة في كلّية الصحافة. لم نكن صديقتين أبداً، فقط يمكن أن نكون قد تبادلنا بعض الكلمات في حياتنا كلها. لكنّني أظنُّ أنّني عرفتها. عذّبوها واغتصبوها قبل أن يقتلوها.

- هنا، في سانتا تِرِسا؟ -سأل فاتِ.

- لا، يا رجل، في العاصمة الفيدرالية. ذراع القتلة طويلة، طويلة جدّاً -قالت غوادالوبِّ رونكال بصوت حالم-. قبلها كنتُ أعملُ في قسم الأخبار المحلّية. لم أوقّع قط على كتاباتي. كنتُ مجهولة بالمطلق. حين قُتِلَ سَلَفي جاء ليُقابلني رئيسان من رؤساء الصحيفة. دعواني للغداء. طبعاً فكّرت أنّني قد أسأت عملَ شيء ما. أو أنّ واحداً من الاثنين يُريد أن ينام معي. لم أكن أعرف أيّاً منهما. كنتُ أعرف من يكونان، لكنّني لم أتكلّم معهما قط. كان الغداء لطيفاً جدّاً.

---

(١) العرق أو العنصر.

وكانا مهذّبين ومؤدَّبَيْن جدّاً، وأنا ذكية ودقيقة الملاحظة. كان الأجدى أن أُوَلّدَ عندهما انطباعاً أسوأ. عدنا بعدها إلى الصحيفة وقالا لي أن أتبعهما، وإنّ عليهما أن يتكلّما معي بموضوع مهمّ. أغلقنا على أنفسنا مكتبَ أحدهما. أوّل ما فعلاه هو أنّهما سألاني عمّا إذا كنت أحبّ أن يزيدوا راتبي. وهنا حَدَثَتُ شيئاً غريباً راودتني رغبة بأن أقول لا، لكنّني قلتُ نعم، وعندها أخرجا ورقة وقالا رقماً، ينطبق تماماً على راتبي كصحفيّة محلّية، ثمّ نظرا إلى عينيّ وقالا رقماً آخر، كان كما لو أنّهما يعرضان عليّ زيادة أربعين بالمئة. كدتُ أطير فرحاً. مرّرا لي بعدها الملفّ الذي جمعه سَلَفي وقالا لي إنّني سأعمل بدءاً من تلك اللحظة فقط وحصراً في قضية المقتولات في سانتا تِرِسا. انتبهتُ إلى أنّني إذا تراجعت سأخسر كلّ شيء. سألتهما بصوتٍ نحيل ولماذا أنا. لأنّكِ ذكيّة جدّاً يا لوبّيتا، قال واحدٌ منهما. لأنّ أحداً لا يعرفك، قال الآخر.

أطلقت المرأةُ تنهيدة طويلةً. ابتسم لها فاتِ مُتَفهّماً. طلبا كأس ويسكي وكأس بيرة آخرين. كان عمّال البناء قيد الإنشاء قد اختفوا. إنّني أشربُ أكثر من اللازم، قالت المرأةُ.

– منذ أن قرأتُ إضبارة سَلَفي صرتُ أُفْرِطُ في شرب الويسكي، أكثر من ذي قبل بكثير، وأيضاً أُفرطُ في شرب الفودكا والتِكيلا واكتشفتُ الآن مشروبَ سونورا هذا، الباكانور، وأيضاً أفرط في شربه -قالت غوادالوبٌ رونكال-. وأنا في كلّ يوم أكثر خوفاً ولا أستطيع أحياناً أن أُسيطر على أعصابي. أنت طبعاً سمعتهم يقولون إنّنا نحن المكسيكيين لا نخاف -ضحكت-. كذبٌ. نحن نخاف كثيراً، لكنّنا نحسن إخفاءه. حين وصلتُ إلى سانتا تِرِسا، مثلاً، كنتُ ميتةً فزعاً. بينما كنّا نطير من هِرموسيّو إلى هنا، لم يكن يهمّني أن تتحطّم الطائرة. على كلّ الأحوال يقولون إنّه موت سريع. من حسن الحظّ أنّ رفيقاً من العاصمة الفيدراليّة أعطاني عنوان هذا الفندق. قال لي إنّه سيتواجد في

فندق سونورا رِسورتْ كي يُغطي مباراة ملاكمة وإنّني بوجودي بين هذا الكمّ من الصحفيين لن يجرؤ أحد على إيذائي. المشكلة أنّني لن أستطيع أن أغادر مع الصحفيين، وسيكون عليّ أن أمكث يومين آخرين أو أكثر في سانتا تِرِسا.

- لماذا؟ -سأل فاتِ.

- عليّ أن أجري مقابلة مع المشبوه الرئيس بعمليات القتل. إنّه ابن بلدك.

- لم يكن عندي أدنى فكرة -قال فاتِ.

- كيف كنتَ تُريد أن تكتب عن هذا الموضوع إذا كنت لا تعرف هذا؟ -سألت غوادالوبِّ رونكال.

- كنتُ أُفكّرُ أن أستَعْلِم. ما كنتُ أفعله في المكالمة الهاتفيّة التي سمعتِها هو أنّني أطلب مزيداً من الوقت.

- سَلَفي كان أكثر من يعرف عن هذا. احتاج لسبعِ سنواتٍ كي يُكَوّن فكرةً عامّة عمّا يجري هنا. حزنُ الحياة لا يُحتمل. ألا يبدو لك ذلك؟

داعبت غوادالوبِّ رونكال بسبابتيها صدغيها، كما لو أنّها أُصيبت فجأةً بنوبةٍ شقيقة. تمتمت بشيء لم يسمعه فاتِ، ثمّ حاولت أن تُنادي النادلَ، لكن لم يكن في الشرفة أحد غيرهما. حين انتبهت انتابتها قشعريرة.

- عليّ أن أزوره في السجن -قالت-. المشبوه الرئيسي، ابن بلدك، موجود منذ سنوات في السجن.

- وكيف يمكن إذن أن يكون المشبوه الرئيسي؟ -سأل فاتِ-. فهمتُ أنّ الجرائم ما زالت تُرتكَب.

- لغز المكسيك -قالت غوادالوبِّ رونكال-. هل تُحبّ أن تُرافِقني؟ هل تُحبّ أن تأتي معي وتجري معه مقابلة؟ الحقيقة أنّني سأشعر باطمئنان أكثر إذا ما رافقني رجل. وهو ما يتناقض مع أفكاري،

فأنا مناصرة للمرأة. هل لديك شيء ضدّ أنصار المرأة؟ صعب أن تكونَ من أنصار المرأة في المكسيك ؟ إذا كانت المرأة ذات مال، لا يكون صعباً، لكّنها إذا كانت من الطبقة الوسطى فهو صعب. في البداية لا، طبعاً في البداية سهل، في الجامعة مثلاً سهل جدّاً، لكن مع مرور السنين يصير في كلّ مرّة أصعب. بالنسبة إلى المكسيكيين، لِتعْرِفْ ذلك، يكمن سحرُ مناصرة المرأة في الشباب. لكنّا هنا نهرم سريعاً. يُهرِّموننا بسرعة. من حسن الحظّ أنّني ما أزل شابّة.

- أنت شابّة جدّاً - قال فات.

- ومع ذلك أخافُ. وأحتاج إلى رِفقة. مررتُ هذا الصباح بسيّارتي حول سجن سانتا تِرِسا ولولا قليل لأصبتُ بنوبة هستيريا.

- أإلى هذا الحدّ هو مريع؟

- إنّه مثل حلم -قالت غوادالوبّ رونكال-. يبدو سِجناً حَيّاً.

- حيّاً؟

- لا أعرف كيف أعبّر عنه. أكثر حياة من بناءِ شقيٍ. يبدو، لا تُفاجأ بما سأقوله لك، امرأة نزع سقف جمجمتها. لكنّها ما تزال حيّةً. وداخل هذه المرأة يعيش السجناء.

- فهمت -قال فاتِ.

- لا، لا أظنّ أنّك فهمتَ شيئاً، لكن سيّان. أنت يهمُّكَ الموضوع، وأنا أقدم لك إمكانية أن تتعرّف على المشبوه الرئيسي عن عمليات القتل، مقابل أن تُرافقني وتحميني. يبدو لي عقداً عادلاً ومتوازناً. اتفقنا؟

- هذا عادل -قال فاتِ-. ولطيف جدّاً من جهتك. ما لم أستطع فهمه هو ما الذي تخافين منه. في السجن لا أحد يستطيع أن يؤذيك. نظريّاً، على الأقل، الناس المسجونون لا يعود باستطاعتهم أن يؤذوا أحداً. فقط يؤذون بعضهم بعضاً.

- أنت لم يسبق لك أن رأيتَ صورةَ المشبوه الرئيسي.

- لا - قال فاتِ.

نظرت غوادالوبٌ رونكال إلى السماء وابتسمت.

- يجب أن أبدو لك مجنونة أو مومساً. لكنّني لست هذا ولا ذاك. فقط أنا مضطربة وشربت في المرحلة الأخيرة كثيراً. هل تظنّ أنّني سآخذك إلى الفراش؟

- لا. أُصَدِّقُ ما قلتِهِ لي.

- بين أوراق سَلَفي المسكين كان هناك عدد من الصور. بعضها للمشبوه، بالتحديد ثلاث صور. الثلاثة ملتقطة في السجن، في اثنتين منها يبدو الغرينغو، اعذرني فأنا أقول ذلك دون قصد الإهانة، جالساً، ربّما في قاعة الزيارات وينظرُ إلى الكاميرا. شعره شديد الشقرة وعيناه شديدتا الزرقة، هما من الزرقة بحيث أنّه يبدو أعمى، في الصورة الثالثة ينظرُ إلى مكان آخر وهو واقف. إنّه ضخم ونحيل، نحيل جدّاً، وإن كان لا يبدو ضعيفاً إطلاقاً. وجهُهُ وجهُ حالِم. لا أعرف ما إذا كنتُ أوضّح. لا يبدو منزعجاً، هو في السجن. لكنّه لا يعطي انطباعاً بأنّه غير مرتاح. كما لا يبدو حانقاً. كما لا يبدو رصيناً ولا مرتاحاً. إنّه وجهُ حالمٍ يحلم بسرعة كبيرة. حالم أحلامه تسبق أحلامنا كثيراً. وهذا يُخيفني. هل فهمت؟

- الحقيقة لا - قال فاتِ -. لكن اعتمدي عليّ للذهاب لمقابلته.

- اتفقنا، إذن - قالت غوادالوبٌ رونكال -. أنتظركَ بعد غدٍ في مدخل الفندق، في العاشرة. هل يبدو لك ذلك جيداً.

- في العاشرة صباحاً. سأكون هنا - قال فاتِ.

- في العاشرة قبل الظهر. أوكي - قالت غوادالوبٌ رونكال. ثمّ شدّت على يدهِ وغادرت الشرفة. كانت مشيتها مترنّحة، لاحظَ فاتِ.

أمضى بقيّةَ النهار بالشرب مع كامِل في بار سونورا رِسورت. تذمّرا من مهنة الصحفي الرياضي، الثقب الذي لم يخرج منه قط أحد

بجائزة ببوليتزر، والذي قليلون هم من يمنحونه قيمة أبعد من مجرّد الشهادة العابرة. راحا بعدها يتكلّمان عن سنواتهما في الجامعة، سنوات فاتِ في جامعة نيويورك وسنوات كامِبل في جامعة سيوكس سيتي في آيوا.

- أهم شيء كان بالنسبة إليّ في تلك السنوات هي كرة القاعدة والأخلاق -قال كامِبل.

تخيّل فات لثانيةٍ كامِبل راكعاً على ركبتيه في غرفة شبه مظلمة، حاضناً الكتابَ المقدَّس وهو يبكي. لكنّ كامبل راح بعدها يتحدّث عن النساء، عن بار كان موجوداً في سميثلاند، عن نوع من فندق سياحي ريفي بالقرب من نهر ليتل سيوكس. أوّلاً يجب أن تصل إلى سميثلاند، ثمّ تُتابع كيلومترات قليلة باتجاه الشرق، هناك تحت بعض الأشجار كان البارُ وفتياتُ البار اللواتي كنّ يخدمن الفلاحين وبعضَ الطلاّب الذين يأتون في السيارة من سيوكس سيتي.

- كنّا دائماً نقوم بالشيء ذاته. -قال له كامِبل-. أولاً كنّا نضاجع الفتيات، نخرج بعدها إلى الفناء ونلعب بكرة القاعدة حتى نُنْهَك ثمّ وحين يبدأ الليل كنّا نسكر ونُغنّي أغاني رعاة البقر في رواق البار.

كان فاتِ على العكس منه في جامعة نيويورك، فهو لم يكن يسكر ولا يذهب مع عاهرات (عمليّاً لم يلتقِ قط مع امرأة يكون عليه أن يدفع لها)، بل كان يُكرّس أيّامَ العطل للعمل والقراءة. كان يذهب يوماً في الأسبوع، أيّام السبت، إلى ورشة كتابة إبداعية وتَخَيَّلَ لوقتٍ قصير، ليس أكثر من بضعة أشهر، أنَّ باستطاعته أن يتفرّغ لكتابة الرواية الخيالية، إلى أن قال له الكاتب الذي كان يُدير الورشةَ إنّ من الأفضل له أن يُركِّزَ جهوده على الصحافة.

لكنّه لم يقل هذا لكامِبل.

حين بدأ الليلُ يحلّ جاءه تشوتشو فلورِس وأخذه. انتبه فاتِ إلى أنّ تشوتشو فلورِس لم يَدْعُ كامبل ليذهب معهما. ودون أن يدري أعجبه

هذا وأزعجه في الوقت ذاته. دارا برهةً في شوارع سانتا تِرِسا دون وجهة معيّة، وهذا ما بدا لفاتِ كما لو أنّ تشوتشو فلورِس عنده ما يريد أن يقوله له ولا يجد الفرصة. غيّرت أضواءُ الإنارة الليليةِ وجهَ المكسيكيّ. انشدّت عضلات وجهه. كان شكله الجانبيّ أقرب إلى القبيح، فكّر فاتِ. انتبه للحظة واحدة فقط أنّ عليه أن يعود إلى فندق سونورا رِسورت فهناك ترك سيّارته مصفوفة.

- علينا ألا نذهب بعيداً -قال.

- هل أنت جائع؟ -سأله المكسيكيّ، قال فاتِ نعم. ضحك المكسيكيّ ووضع موسيقى. سمع أكورديون وصرخاتٍ بعيدةً، لم تكن صرخات ألمٍ ولا فرح، كانت صرخات قوّةٍ تكتفي بذاتها وتستنفد ذاتها. ابتسم تشوتشو فلورِس وبقيت ابتسامته مُعشّقةً في وجهه، دون أن يتوقّف عن القيادة ودون أن ينظر إلى عينيه، ونظره إلى الأمام كما لو أنّهم وضعوا له في رقبته طوقاً طبّياً من فولاذ، بينما النباح راح يقترب من مبكراتِ الصوت وأصوات بعض الأشخاص، الذين تخيّلهم فاتِ بوجوهٍ مريعةٍ، راحوا يغنون أو يتابعون صراخهم، باستثناء بداية الأسطوانة، ويصرخون عاش، عاش لم يكن يُعرف جيّداً لمن.

- ما هذا؟ -سأل فاتِ.

- جاز سونورا -قال تشوتشو فلورِس.

حين عاد إلى الفندق كانت الساعة الرابعة صباحاً. كان في تلك الليلة قد سكر ثمّ صحا من سكرته ثمّ عاد وسكر والآن ذهبت سكرته مرّةً أخرى وهو أمام غرفته. كما لو أنّ ما كان يشربه المكسيكيون لم يكن كحولاً حقيقيّاً بل ماءً ذا تأثيرات منوّمة قصيرة المدى. بقي برهةً جالساً على صندوق أمتعة السيارة ينظر إلى الشاحنات التي كانت تمرّ على الطريق. كان الليلُ رطباً ومليئاً بالنجوم. فكّرِ بأمّهِ وبما لا بدّ أنّها تُفكّر به في ليالي هارلم دون أن تُطلّ من النافذة لترى النجومَ القليلة

التي كانت تتلألأ هناك، جالسة أمام التلفاز أو وهي تغسل الصحون في المطبخ، بينما تخرج من التلفاز المشتعل ضحكات وزنوجٌ وبِيضٌ يضحكون، يتبادلون نكاتٍ ربّما استظرفتها، وإن كان الاحتمال الأكبر أنّها لم تكن تولي انتباهاً زائداً لما كانوا يقولونه وهي مشغولة بفركِ الصحون التي وسّختها توّاً والقدر الذي وسّخته توّاً، والشوكة والملعقة اللتين وسّختهما توّاً، بطمأنينة ربّما، فكّر فاتِ، كانت تعني شيئاً أكثر من مجرّدِ طمأنينة، أو ربّما لا، ربّما كانت تلك الطمأنينة تعني فقط طمأنينة وشيئاً من التعب، طمأنينة وجمراً مستنفداً، طمأنينة وانطفاءً، هي أخيراً النعاس، مصدر وأيضاً ملاذُ الطمأنينة الأخير. إذن، فكّر فاتِ، الطمأنينة ليست فقط طمأنينة. أو أنّ مفهوم الطمأنينة الذي نملكه خاطئ والطمأنينة أو مجالات السكينة ليست في الحقيقة أكثر من مؤشّر حركة، مُسَرِّع أو مُبَطِّئ بحسب الحالة.

في اليوم التالي نهض في الثانية مساءً. كان أوّل شيء تذكّره هو أنّه شَعَرَ قبل أن ينام بسوء حالته الصحية وأنّه تقيّأ. نظر إلى جانبي السرير وذهب بعدها إلى الحمّام لكنّه لم يجد أيّ أثر للقيء. ومع ذلك استيقظ في أثناء نومه مرّتين وفي المرّتين شمّ رائحة قيء: رائحة نتنة كانت تنبعث من كلّ زاوية من زوايا الغرفة. كان متعباً أكثرَ مما يسمح له بأن ينهض ويفتح النوافذ فبقي نائماً.

الرائحة زالت الآن ولم يجد أيّ أثر يدل على أنّه تقيّأ في الليلة الماضية. استحمّ ثمّ ارتدى ملابسه وهو يُفكّر أنّه سيركب سيّارته في تلك الليلة بعد مباراة الملاكمة ويعود إلى توكسون، حيث سيحاول أن يأخذ رحلة ليلية إلى نيويورك. لن يذهب إلى موعده مع غوادالوبِّ رونكال. لماذا سيُجري مقابلة من المشبوه الرئيسي بسلسلةِ عملياتِ قتلٍ، إذا كانوا لن ينشروا له القصّة. فكّر بأن يهتف من الفندق ويحجز بطاقة، لكنّه قرّر في الساعة الأخيرة أن يفعل ذلك لاحقاً، من هاتفٍ في

مجمع أرِنا الرياضي أو في سونورا رِسورت. وضع بعدها أشياءه في الحقيبة واقترب من مكتب الاستقبال كي يُلغي حجزه. ليس من الضروري أن تذهب الآن، قالت له عاملةُ الاستقبال، وقبضت منه كما لو أنّه سيغادر في الثانية ليلاً. شكرها فاتِ وخبّأ المفتاحَ في جيبه، لكنّه لم يخرج الحقيبة من السيارة.

- من تعتقد أنّه سيفوز؟ -سألتْهُ عاملةُ الاستقبال.

- لا أعرف، في هذا النوع من المباريات يمكن أن يحدث أيّ شيء -قال فاتِ كما لو أنّه كان طوال حياته مراسلاً رياضيّاً.

كانت زرقةُ السماء شديدةً لا تكاد تشقّها بعضُ الغيوم على شكل أقراص مسنّنة تطفو في الشرق وتتقدم نحو المدينة.

- تبدو فساطلَ -قال فاتِ من باب الاستقبال المفتوح.

- إنّها طحارير -قالت عاملةُ الاستقبال-، ما إن تصل عمودية فوق سانتا تِرِسا حتى تختفي.

- شيء غريب -قال فاتِ، دون أن يتحرّك من نجران الباب- طحارير في الإسبانية تعني قاسية، ومصدرها اللغة اليونانية وتطلق على الأورام، على الأورام القاسية، لكنّ ليس في هذه الغيوم أيّ مظهر قاس.

- لا -قالت عاملة الاستقبال-، إنّها غيومُ طبقاتِ الجوّ العليا، إذا ما انخفضت أو ارتفعت قليلاً، فقط قليلاً، تختفي.

لم يجد أحداً في مُجمّع أرِنا الشمال الرياضي. كان البابُ الرئيسي مغلقاً. على الجدران ملصقات بهتت لونها مبكّراً، تعلن عن مباراة فِرنانِدِثْ -بيكيت. بعضها الآخر اقتُلِع ولصقت أيدٍ مجهولةٌ فوقها ملصقات جديدة تُعلن عن حفلٍ موسيقيّ، رقصاتٍ شعبيّة بل وهناك أيضاً ملصق لسيرك يسمي نفسه السيرك الدولي.

دار فاتِ حول البناء. صادف امرأة تجرُّ عربة صغيرة فيها عصير طازج. كان شعرها أسودَ طويلاً وترتدي تنورة تهبط حتى كعبيها. من

بين بيدونات الماء وأوعية الثلج كان يُطلّ رأسا طفلين. حين وصلت المرأة إلى الزاوية توقّفت وبدأت تركّب نوعاً من الشمسيّة والقضبان المعدنية. نزل الطفلان من العربة وجلسا على الرصيف ساندين ظهريهما إلى الجدار. بقي فاتِ برهة بلا حركة يتأملهما ويتأمّل الشارع المهجور بقسوة. حين عاود سيره ظهرت في الزاوية الأخرى عربةٌ أخرى فتوقّف فاتِ من جديد. حيّا الرجلُ الذي كان يجرّ العربةَ الجديدةَ المرأةَ بيده. هذه لم تكد تهزّ رأسها كعلامة على المعرفة وبدأت تُخرج من أحد جوانب عربتها بعضَ الأباريق الزجاجية الهائلة راحت تضعها على صِوانٍ محمول. كان الرجل الذي وصل توّاً يبيع الذرةَ وعربته يتصاعد منها البخار، اكتشف فاتِ باباً خلفيّاً وبحث عن جرس، لكنّه لم يكن هناك أيّ نوعٍ من الأجراس، وهكذا اضطُرّ لأن يقرعه ببراجم أصابعِهِ. كان الطفلان قد اقتربا من عربة الذرة والرجل أخرج عرنوسَيْن دهنهما بكريم، رشّ عليهما جبناً ثمّ قليلاً من الفلفل الحر (الشطة) وأعطاهما لهما. فكّر فاتِ، بينما كان ينتظرُ، أنّ رجلَ الذرة يمكن أن يكون أبا الطفلين، وأنّ علاقته مع الأم، امرأة العصير، لم تكن جيدة، عمليّاً يمكن أن يكونا مُطلَّقين يريان بضهما بعضاً فقط حين تلتقي أعمالهما. لكنّ هذا لا يمكن طبعاً أن يكون واقعياً، فكّر. عاد بعدها ليقرع البابَ ولم يفتح له أحد.

التقى في بار سونورا رِسورتْ بجميع الصحفيين الذين كانوا سيُغَطّون المباراة، تقريباً. رأى كامِل يتحدّث من شخص له مظهر مكسيكيّ واقترب منه، لكنّه انتبه قبل أن يصل إلى أنّ كامِل كان يعمل ولم يبغِ أن يُقاطعه. رأى بجانبِ طاولة العرض تشوتشو فلورِس فحيّاه من بعيد. كان يُرافق تشوتشو فلورِس ثلاثة أشخاصٍ يبدون ملاكمين سابقين وردّه للسلام لم يكن حارّاً جدّاً. بحث عن طاولة خالية في الشرفة وجلس. بقي برهةً يُراقبُ الناسَ الذين كانوا ينهضون عن

الطاولات ويُسلِّمُ بعضُهم على بعض عناقاً أو صراخاً من طرف إلى آخر، ورأى حركة المصوّرين الذي يضغطون على أزرار كاميراتهم يُشَكّلون مجموعاتٍ لا تبيث لأن تتفرّق على هواهم ومرورَ ناسِ سانتا تِرِسا المهمّين، وجوهاً لا يتذكّرها أبداً، نساءً شابات حسنات اللباس، رجالاً طوالاً بجزمات رعاة البقرِ وأطقمٍ من ماركة أرماني. شباب بعيون برّاقة وأحناكٍ قاسية لا يتكلّمون ويقتصرون على تحريك رؤوسهم إيجاباً أو سلباً، إلى أن سئم انتظار أن يأتيه النادل بالشراب وذهب مبعداً الناس بمرفقيه، دون أن ينظر إلى الخلف، دون أن يهمّه أن يُخَلِّفَ وراءه شتيمة أو شتيمتَيْن أو ثلاث شتائم بالإسبانية لم يفهمها، وحتى لو فهمها ما كانت لتشكّل ذريعة كافية كي توقفه.

أكل في مطعم في شرق المدينة، في فناء مسقوف ورطب. في عمق الفناء بجانب سياج من الأسلاك وعلى الأرض الترابية كان هناك ثلاث طاولات كرة قدم. بقي برهة ينظر في قائمة الأطباق، دون أن يفهم شيئاً. حاول بعدها أن يُعَبّر بالإشارات، لكنّ المرأة التي كانت تهتمّ بخدمته فقط كانت تبتسم وتهزّ كتفيها، بعد برهة ظهر رجل، لكنّ اللغة الإنكليزية التي كان يتكلّم بها كانت بالنتيجة أكثر إبهاماً. فقط فهم كلمة خبز. وكلمة بيرة.

اختفى بعدها الرجلُ وبقي وحده. نهض واقترب من طرف الفناء، بالقرب من ألعاب كرة القدم. كان أحد الفرق يرتدي قمصاناً بيضاء وبنطلونات خضراء، شعرهم أسود وبشرتهم قمحية شاحبة جدّاً، كان الفريق الآخر يرتدي قمصاناً حمراء وبنطلونات سوداء وجميع اللاعبين بلحى كثّة. ومع ذلك فالأغرب هو أن أعضاء فريق اللون الأحمر كانوا يحملون قروناً صغيرة على جباههم. طاولتا كرة القدم الأخرَيَين كانتا مُماثلتين تماماً.

رأى في الأفق تلاً. كان لونُ التلّ أصفر داكناً وأسود. افترض أنّ

الصحراءَ تمتدُّ وراءه. شعر بالرغبة بالخروج والتوجّه إلى التلّ، لكنّه حين التفت إلى طاولته وجد أنّ المرأة وضعت زجاجةَ بيرة على طاولته ونوعاً من الشطيرة سميكة جدّاً. قضم قضمةً فأعجبته. كان المذاق غريباً، حارّاً قليلاً. فتح إحدى طبقتي الخبز: بينهما كان يوجد من كلّ شيء. شرب جرعةَ بيرة طويلة وتمطّى على الكرسيّ. ميّزَ بين أوراق الدالية نحلةً بلا حراك. شعاعا شمسٍ نحيلان كانا يسقطان عموديين على الأرض الترابية. حين عاد الرجل ليظهر، سأله كيف الوصول إلى التلّ. ضحك الرجل. قال بضعَ كلمات لم يفهمها ثمّ قال ليس جميلاً، عدّةَ مرّات.

- ليس جميلاً؟

- ليس جميلاً - قال الرجل وعاد ليضحك.

أخذه بعدها من ذراعه وجرّه إلى غرفة تقوم بدور مطبخ بدت لفاتٍ مرتّبة جدّاً، كلّ شيء في مكانه بلاط الجدران الأبيض لا أثر للشحوم عليه، وأراه القمامة.

- التلّ ليس جميلاً؟ - سأل فاتٍ.

عاد الرجل ليضحك.

- التلّ قمامة؟

ضحك الرجل أكثر وهزّ رأسه بالإيجاب.

في السابعة مساءً أبرز فات بطاقته الصحفية ودخل إلى مُجمّع أرِنا الشمال الرياضي. في الشارع كان هناك ناس كثيرون وبسطات جوالة تبيع طعاماً، مرطباتٍ وتذكاراتٍ عليها رسومات ملاكمة. في الداخل كانت المباريات قد بدأت بزخم. وزن ديك مكسيكي كان يلاكم وزن ديك مكسيكيّ آخر لكنّهما لم يكّونا منتبهين إلى الملاكمة. كان الناس يشترون مرطبات، تكلّمون، يتبادلون السلام. رأى في الصف الأوّل مصوّري كاميرا تلفزيونية. واحد كان يُسجّل ما كان يحدث في الممر

الرئيسي. الآخر كان قد جلس على مقعد ويحاول أن يُخرج قطعة حلوى من لفتها البلاستيكية. دخل في أحد الممرات الصغيرة الجانبية المسقوفة. رأى ناساً يُراهنون، امرأةً طويلة بثوب مُكَسَّم تعانق رجلين أقصر منها، رجالاً يُدخّنون ويشربون بيرة، رجالاً بربطاتِ عنق رخوةٍ يؤشّرون بأصابعهم، ويبدون في الوقت ذاته كما لو أنّهم يلعبون لعبةَ أطفال. فوق الظلة التي كانت تُغطي الممرّ كانت المقاعد الرخيصة والضوضاء هناك أكبر. قرّر أن يذهب ويُلقي نظرة على المشالح وعلى قاعة الصحافة. في هذه الأخيرة لم يجد غير صحفيّيْن مكسيكيّيْن اثنين، رمياهُ بنظرة مُقتضبة. كلاهما كان جالساً وقميصه مبلّلاً بالعرق. في مدخل مشلح مِرولينو فِرنانديثْ رأى عمر أبدول. حياه، لكنّ زميل التدريب تظاهر بأنّه لم يعرفه وتابع كلامه مع بعض المكسيكيّين. الذين كانوا بجانب الباب يتكلّمون عن الدم، أو هذا ما اعتقد فاتِ أنّه فهمه.

- عمَّ تتكلّمون؟ -سألهم بالإنكليزية.

- عن الثيران -قال أحدُ المكسيكيين بالإنكليزية.

حين كاد يذهب سمعهم ينادونه باسمه. يا سيّد فاتِ. التفت فوجد ابتسامة عمر أبدول الواسعة.

- هل ما عدت تُسلّم على أصدقائك الزنوج.

عندما أمعن فيه عن قرب وجد أن وجنتيه مزرقتين.

- أرى أنّ مِرولينو تدرّب جيّداً -قال.

- منغصات المهنة -قال عمر أبدول.

- هل أستطيع أن أقابل رئيسك؟

نظر عمر أبدول إلى الحلف، إلى باب مدخل المشلحِ، ثمّ هزّ رأسه وقال لا.

- إذا تركتك تدخل، يا أخي سيكون عليّ أن أترك كلّ هؤلاء اللوطيين أن يدخلوا.

- هل هم صحفيون؟

- بعضهم صحفيون، يا أخي، لكنّ الغالبية يريدون فقط أن يأخذوا صورة مع مِرولينو، يلمسوا يدَيْهِ وخصيتيه.

- وأنت كيف تجري حياتك؟

- لا أشكو، لا أشكو كثيراً - قال عمر أبدول.

- إلى أين تُفكر أن تذهب بعد المباراة؟

- إلى الاحتفال بها، أعتقد - قال عمر أبدول.

- لا، لا أقصد بعد هذه الليلة، بل بعد أن ينتهي كلّ هذا - قال فاتِ.

ابتسم عمر أبدول. كانت ابتسامة ثقة وتحدٍّ. هي ابتسامة القط شيشاير على افتراض أنّ القط شيشاير غير متسلق على غصن شجرة، بل في عراء وتحت عاصفة. ابتسامة، فكّر فاتِ، شابٌّ زنجي، لكنّها أيضاً ابتسامة أمريكية جدّاً.

- لا أعرف - قال -، لأبحثُ عن عمل، لأُمضي فترة في سينالوَا، بجانب البحر. سوف نرى.

- ليحالفك الحظّ - قال له فاتِ.

حين راح يبتعدُ سمع عمر يقول له: حظٌّ هو ما سيحتاجه هذه الليلة كونت بيكيت. حين عاد إلى القاعة كان على الحلبة ملاكمان آخران ولا يكاد يوجد مقاعد فارغة. تقدّم في الممر الرئيسي نحو الصف المُخصّص للصحافة. كان مقعده مشغولاً من قبل رجل بدين نظر إليه دون أن يفهم ما كان يقوله له. أراه التذكرة فنهض الرجلُ وبحث في جيبه حتى عثر على تذكرته. كلتاهما كانت تحمل الرقم ذاته. ابتسم فاتِ وابتسم الرجل البدين. في تلك اللحظة كان أحد الملاكمَيْن قد هوى بخصمه بلكمة صاعدة فوقف كثير من الحضور وصرخوا.

- ماذا نفعل؟ - سأل فاتِ البدينَ. هزّ البدين كتفيه وتابع بنظره عدَّ الحكمِ. نهض الملاكم الساقط وعاد الجمهور ليصرخ.

رفع فاتِ يده، وراحة كفّه باتجاه البدين وانسحب. حين عاد إلى

الممر الرئيسي سمعهم يُنادونه. التفت إلى كلّ الجهات ولم يرَ أحداً. فاتِ، أوسكار فاتِ، صرخوا. الملاكم الذي نهض للتوّ التحم بخصمه. حاول هذا أن يتخلّص من التحامه به مسدّداً سلسلة من الضربات على معدته بينما هو يتراجع. هنا، يا فاتِ، هنا. صرخوا. فصل الحكم بينهما. الملاكم الذي نهض للتوّ همَّ بالهجوم، لكنّه تراجع بخطواتٍ بطيئة منتظراً قرع الجرس. خصمه تراجع بدوره. الأول كان يرتدي سروالاً قصيراً أبيض وكان وجهه مغطّى بالدم. الثاني كان يرتدي سروالاً قصيراً بخطوط سوداء وبنفسجية وحمراء ويبدو مفاجَأً من أنّ الآخر ليس على الأرض بعد. أوسكار، يا أوسكار، نحن هنا. حين رنّ الجرسُ اقترب الحكم من زاوية ملاكم السروال الأبيض وطلب بالإشارة أن يصعد طبيبٌ. الطبيبُ، أو كائناً من كان، فحص حاجبه وقال إنّ باستطاعة الملاكم أن يُتابع.

التفت فاتِ وحاول أن يعرف من الذين كانوا ينادونه. كان غالبية المشاهدين قد نهضوا عن مقاعدهم ولم يستطِعْ أن يرى أحداً. حين بدأت الجولة التالية انطلق ملاكم البنطلون المُخطّط مستعداً للفوز بالضربة القاضية. خلال الثواني الأولى واجهه الآخر، لكنّه التحم به بعد ذلك، فصل بينهما الحكم عدّة مراتٍ. كتف ملاكم البنطلون المُخطّط كان ملطخاً بدم الآخر. اقترب فاتِ ببطء من صف المقاعد الأولى. رأى كامِل يقرأ مجلة كرةِ سلّة، رأى صحفياً أمريكياً شماليّاً آخر غيرَ آبهٍ يُسَجّل ملاحظاته. كان أحد المصوّرين قد نصب الكاميرا على حامل ثلاثيّ وفتى الإضاءة الذي كان إلى جانبه يعلك علكة وينظر بين الحين والآخر إلى ساقي آنسة جالسة في الصف الأوّل.

سمع اسمَهُ مرّةً أخرى والتفت. اعتقد أنّه رأى امرأةً شقراء تومئ إليه بيديها. ملاكم السروال الأبيض عاد وسقط. سقط واقي الأسنان من بين شفتيه وعبرَ الحلبة حتى توقّف تماماً بجانب فاتِ. فكّر للحظة أن ينحني على ركبتيه ويأخذه، لكنّه سبّب له بعدها قرفاً وبقي ساكناً

ناظراً إلى جسم الملاكم الذي كان يسمع عدَّ الحكم، لكنّ هذا وقبل أن يشير بأصابعه إلى الرقم تسعه عاد ونهض. سوف يُصارع من دون واقي أسنان، فكّر، وانحنى وبحث عن الواقي لكنّه لم يجده. أيّ شياطين أخذت الواقي اللعين إذا كنتُ لم أتحرّك من مكاني ولم أرَ أحداً يفعل ذلك؟

حين انتهت المباراة سُمِعَت في مكبرات الصوت أغنيةٌ عرف أنّها واحدة من تلك التي عرَّفها تشوتشو فلورِس بجاز سونورا. أطلق مشاهدو المقاعد الأرخص صيحات فرح ثمّ راحوا يُغنّون الأغنيةَ. ثلاثة آلاف مكسيكيّ متكدسين في رواق مجمع أرِنا الرياضي يُغنّون بصوتٍ واحد الأغنيةَ ذاتها. لكنّ الإضاءة المركّزة على المركز تركت تلك المنطقة في ظلمة. كانت نبرةُ الأصوات، بدا له، خطيرةً ومتحدّية، نشيدَ حرب خاسرة يُنْشَدُ في الظلمة. في الخطورة لا يوجد غير اليأس والموت، لكن في التحدّي كان ممكناً أن يُحْدَسُ بعضٌ من مزاجٍ ساخر، مزاجٍ لا ينوجد إلاّ لصالح ذاته وأحلامه، دون أن يهمّ كم تدوم هذه الأحلام. جاز سونورا. في مقاعد المنطقة السفلى، كان بعضهم يدندنُ الأغنية أيضاً، لكنّهم لم يكونوا كثيرين. الغالبية كانت تُفضّل أن تتكلّم أو أن تشرب بيرةً. رأى طفلاً بقميصٍ أبيض وبنطلون أسودَ يركض في الممر إلى الأسفل. رأى الرجل الذي كان يبيع البيرة يتقدّم إلى أعلى الممر، وهو يدندن الأغنيةَ. رأى امرأة بذراعيها على خصريها كأذني جرّة تضحكُ مما كان يقوله لها رجلٌ قصير بشارب نحيل. كان الرجل القصيرُ يصرخُ، لكنّه لا يكادُ يُسمَعُ. رأى مجموعة من الرجال يوحون بأنّهم يتحدّثون فقط من حركة فكوكهم (وهذه فقط كانت تُعبّر عن الازدراء أو اللامبالاة). رأى رجلاً ينظر إلى الأرض ويتكلّم مع نفسه ويبتسم. بدا أنّ الجميع كانوا سعداء. في تلك اللحظة تماماً، فهم فات، كما لو أنّه تلقى وحياً، أنّ جميع من كانوا في المجمّع الرياضي

يعتقدون أن مِرولينو فِرناندِث سوف يفوز بالمباراة. ما الذي كان يحملهم إلى مثل هذا اليقين؟. اعتقدَ للحظةٍ أنّه عرف، لكنّ الفكرة فرَّت منه كما الماء من اليدين. هذا أفضل، فكّرَ، فربّما كان ظلٌّ تلك الفكرة الفرورُ (فكرة أخرى بلهاء) قادراً على تدمير كلّ شيء بضربة مخلبٍ واحدة.

أخيراً رآهم. قال له تشوتشو فلورِس بواسطة الإشارات أن يذهب ليجلس معهم. عرف الشقراء التي كانت بجانبه. سبق ورآها، لكنّها كانت ترتدي الآن ملابسَ أفضل بكثير. اشترى زجاجة بيرة وشقّ طريقه بين الناس. قبّلته الشقراء قبلة على خدِّهِ. قالت له اسمها، الذي كان قد نسيه. روزا مِنْدِثْ. قدّمه تشوشتو فلورِس للاثنين الآخرَيْن: شخص لم يسبق له أن رآه قط، يُدعى خوان كورونا، فكّر فاتِ أنّه صحفيٌّ آخر، وامرأة شابّة مفرطة الجمال، تُدعى روزا أمالفيتانو. هذا تشارلي كروثْ، ملك الفيديو، الذي سبق وتعرفت عليه، قال تشوتشو فلورِس. مدَّ له تشارلي كروثْ يدَه. كان الوحيد الذي بقي جالساً غريباً عن حركة المجمع الرياضي. جميعهم كانوا حسني الهندام جدّاً، كما لو أنّهم كانوا يُفكّرون أن يذهبوا بعد المباراة إلى حفلة سمر. كانت إحدى الكراسي فارغة فجلس فاتِ عليها بعد أن رفعوا عنها ستراتهم الأمريكية وجاكياتهم. سألهم عمّا إذا كانوا ينتظرون أحداً.

– بلى، ننتظر صديقة –قال له تشوتشو فلورِس–. لكن يبدو أنّها غيَّرَت في الساعة الأخيرة رأيَها.

– ما من مشكلة إذا جاءت –قال فاتِ–، أنهضُ وأذهبُ.

– لا، يا رجل، ابقَ هنا مع الأصدقاء –قال تشارلي فلورِس.

سأله كورونا من أيّ مكان في الولايات المتحدة هو. من نيويورك، قال فاتِ. وما هو عملك؟ صحفيّ. نفدت بعد هذا إنكليزيّةُ كورونا ولم يعد ليسأل شيئاً.

- أنت الزنجيّ الأوّل الذي أتعرّف عليه -قالت روزا مِنْدِثْ.
ترجمها له تشارلي فلورِسْ فابتسم فاتِ.
- يعجبني دينزل واشنطون - قالت.
ترجمها له تشارلي فلورِسْ فعاد فاتِ ليبتسم.
- لم يحدث أن صادقت زنجيّاً -قالت روزا مِنْدِثْ-، رأيتهم في التلفزيون وأحياناً في الشارع، لكن لا يوجد زنوج كثيرون في الشارع.
قال له تشارلي كروث هكذا هي روزا، امرأة طيّبة وبريئة قليلاً. لم يفهم فاتِ إلى ما أشار إليه بقوله بريئة قليلاً.
- الحقيقة قليلون هم الزنوج في المكسيك -قالت روزا مِنْدِثْ-. القليلون الموجودون يعيشون في بِراكروث. هل تعرف بِراكروث؟
ترجمها له تشارلي كروث. قال له إنّ روزيتا تريدُ أن تعرف ما إذا زرتَ ذات مرّة في بِراكروث. لا، لم أزرها قط، قال فاتِ.
- ولا أنا. مررتُ مرّة واحدة من هناك، حين كنتُ في الخامسة عشرة من عمري -قالت روزا مِنْدِثْ-. لكنّني نسيتُ كلَّ شيء. كما لو أنّ شيئاً سيّئاً حدث لي في بِراكروث وعقلي محاه، هل تفهم؟
هذه المرّة روزا أمالفيتانو هي التي ترجمت. ولم تكن تبتسم مثل تشارلي كروث وهي تُتَرجم، بل اقتصرت على ترجمة ما قالته المرأة الأخرى بجدّية تامّة.
- أفهم -قال فاتِ دون أن يفهم شيئاً.
كانت روزا مِنْدِثْ تنظر إلى عينيه وهو لم يكن قادراً على أن يقول ما إذا كانت المرأة تُقطّع الوقتَ أم أنّها تجعله شريكاً لها في سرٍّ حميم.
- شيء ما لا بدّ حدثَ -قالت روزا مِنْدِثْ-، لأنّني حقيقةً لا أتذكّر شيئاً. أعرفُ أنّني كنتُ هناك، ليس لأيّام كثيرة، ربّما لثلاثة أيّام أو ليومين، لكنّني لا أحتفظ بأدنى ذكرى عن المدينة. هل حدث معك شيء مشابه؟
ربّما حدث معي أيضاً، فكّرَ فاتِ، لكن وبدل أن يعترف سألها

عمّا إذا كانت تُحبّ الملاكمة وروزا مِنْدِثْ قالت أحياناً، فقط أحياناً، كانت مُثيرة، خاصّة حين يصارع ملاكمٌ جميل.

- وأنتِ؟ -سأل التي كانت تعرفُ الإنكليزيّة.

- بالنسبة إليّ سيّان -قالت روزا أمالفيتانو-، هذه هي المرّة الأولى التي آتي فيها إلى مثل هذه المباراة.

- المرّة الأولى؟ -سأل فاتِ دون أن يتذكّر أنّه هو أيضاً لم يكن خبيراً بالملاكمة.

ابتسمت روزا أمالفيتانو وهزّت رأسها بالتأكيد. ثمّ أشعلت سيجارة فاستغلّ فات الحالة ونظر إلى جهة أخرى فالتقى بعيني تشوتشو فلورِس، الذي كان ينظر إليه كما لو أنّه لم يره قط. جميلة الفتاة، قال تشارلي كروث الذي كان بجانبه. علّق فاتِ قائلاً إن الجوّ حارّ. قطرة عرق راحت تجري على صدغ روزا مِنْدِثْ الأيمن. كانت ترتدي فستاناً أقورَ يسمح برؤية ثدييها الكبيرين وحمالةِ الثديين قمحية اللون. لنشرب نخب مِرولينو، قالت روزا مِنْدِثْ. شدّ تشارلي كروث وفاتِ وروزا مِنْدِثْ على زجاجات بيرتهم. انضمّت روزا أمالفيتانو إلى النخب بكأسٍ ورقيّ، ربّما كان فيه ماء أو فودكا أو تِكيلا . فكّر فاتِ بأن يسألها، لكن سرعان ما بدا له السؤال حماقة كبيرة. هذا النوع من النساء لا يُسْأَلْن مثل هذه الأسئلة. كان تشوتشو فلورِس وكورونا الوحيدين من المجموعة اللذين بقيا واقفين، كما لو أنّهما لم يفقدا الأمل بعد بأن تظهر فتاةُ المقعدِ الفارغ. سألته روزا مِنْدِثْ عمّا إذا كان يُحبُّ سانتا تِرِسا كثيراً أو أكثر من اللازم. ترجمت روزا أمالفيتانو. لم يفهم فاتِ السؤال. ابتسمت روزا أمالفيتانو. فكّر فات أنّها تبتسم مثل إلهةٍ. كان طعم البيرة سيئاً في فمه وكانت في كلّ مرّة أكثر مرارة وسخونة. همَّ بأن يطلب منها جرعةً من كأسها، لكنّ هذا، عرف، ما لن يفعلَهُ أبداً.

- كثيراً أو أكثر من اللازم؟ ما هو الجواب الصحيح؟

- أظنّ أكثر من اللازم -قالت روزا أمالفيتانو.

- إذن أكثر من اللازم -قال فاتِ.
- هل ذهبت إلى مصارعات الثيران؟ -سألته روزا مِنْدِتْ.
- لا -قال فاتِ.
- ومباريات كرة القدم؟ وكرة القاعدة؟ لتشاهد فريق كرة سلّتنا يلعب؟
- صديقتك تهتمّ كثيراً بالرياضة -قال فاتِ.
- ليس كثيراً -قالت روزا أمالفيتانو-، هي فقط أحاول أن أتحدّث معك قليلاً.

فقط أن تتحدّث؟، فكّر فاتِ. حسن فقط تُحاول أن تبدو بلهاءَ أو طبيعيّة. لا، فقط تُحاول أن تكون لطيفة، فكَّرَ، لكنّهُ أيضاً حدس أنّ هناك شيئاً آخر.

- لم أذهب إلى أيّ من هذه الأماكن -قال فاتِ.
- ألستَ صحفيّاً رياضيّاً؟ -سألت روزا مِنْدِتْ.

آهْ، فكّر فاتِ، ليس مسألة أن تبدو بلهاء أو طبيعية، ولا هي حتى مسألة أن تكون لطيفة، هي تُفكِّر أنّني صحفيّ رياضيّ وبالتالي أهتمّ بهذا النوع من الأحداث.

- أنا صحفيّ رياضيّ عَرَضِيّ -قال فاتِ، ثمّ وضّح لِلسَّمِيَّتَيْن ولِتشارلي كروث قصّةَ المراسل الرياضي الأصلي وموتِهِ وكيف أرسلوه ليُغطّي مصارعة بيكيت-فِرنانِدِثْ.

- وعمّ تكتب، إذن؟ -سأل تشارلي كروث.
- عن السياسة -قال فاتِ-. عن موضوعات سياسيّة تؤثّر على الجالية الأفرو-أمريكية. عن موضوعاتٍ اجتماعية.
- هذا دون شكّ شيء مُهِمّ -قالت روزا مِنْدِتْ.

نظر فاتِ إلى شفتيّ روزا أمالفيتانو بينما هي تُترجم. شعر بالسعادة لأنّه هناك.

كانت المباراة قصيرة. خرج كونت بيكيت أوّلاً. تصفيق مجاملة، بعضُ صفيرِ الاستهزاء. ثمّ خرج مِرولينو فِرنانِدِثْ. تصفيق مُدوٍّ. في الجولة الأولى درس كلّ منهما الآخر. في الجولة الثانية اندفع بيكيت للهجوم وقضى على خصمه في أقلّ من دقيقة. جسد مِرولينو فِرنانِدِثْ مَرميّ على أرضية الحلبة، لم يتحرّك. أخرجه أتباعه على حمّالة إلى الزاوية وبما أنّه لم يستعد وعيَهُ دخل الحمالون وحملوه إلى المشفى. رفع كونت بيكيت ذراعاً، دون كثير حماسٍ وذهب محاطاً بناسه. راح المشاهدون يفرغون الصالة.

أكلوا في مطعمٍ اسمه ملك الشطائر[1]. في المدخل رسمٌ بالنيون: طفل بتاج كبير، يركَب حماراً، يقف بين الفينة والأخرى على قوائمه الأمامية ويُحاول أن يطيح به. الطفل لا يسقط أبداً بالرغم من أنّه يحمل في يدٍ شطيرة وفي الأخرى نوعاً من الصولجان وإن كان يفيده أيضاً كسوط. الداخل مُزَيّن على طريقة مطعم ماكدونالدز، إلاّ أنّه صادم قليلاً. الكراسي لم تكن بلاستيكية بل قشّية. الطاولات خشبيّة. الأرضيّة مُبَلطة ببلاطات كبيرة وخضراء، في بعضها مناظر من الصحراء ومناظر من حياة ملك الشطائر. من السقف تتدلّى دمى تُحيل بدورها إلى مغامراتٍ أخرى من مغامرات الطفل الملك، الذي هو دائماً برفقة حماره. بعض المناظر المنسوخة كانت يومية ساحرة: الطفل، الحمار وبئر، أو الطفل، الحمار وقدر من الفاصوليا. مشاهد أخرى تدخل الروعة من بابها العريض: في بعضها يُشاهَدُ الطفلُ والحمار يسقطان في هاوية، وفي أخرى يُشاهَدُ الطفل والحمار مربوطين إلى محرقة جنائزية، بل ويُشاهد الطفلُ في أحدها يُهدّد حمارَهُ واضعاً سبطانة مسدّسه في

---

(١) El Rey del Taco والتاكو شطائر مكسيكية، عجينتها من الذرة، محشوة بمواد متنوّعة ومختلفة.

صدغه. كما لو أنّ ملك الشطائر لم يكن اسمَ مطعمٍ بل شخصيةَ رسوماتٍ هزلية لم يملك فاتٍ قط فرصةً لقراءتها. ومع ذلك فإنّ الإحساس بأنّه في مطعم ماكدونالدز استمرّ. ربما النُّدُل والنادلات، اليافعون جدّاً، بلباسهم العسكري الموحّد (قال له تشوتشو فلورِس إنّ لباسهم كلباس الفيدراليين)، كانوا يُساهمون بتعزيز هذا الانطباع. لا شكَّ لم يكن ذلك جيشاً منتصراً. فالشباب بالرغم من أنّهم يبتسمون للزبائن إلا أنّهم كانوا ينقلون إحساساً بالتعب الشديد. بعضهم كان يبدو وكأنّه ضائعٌ في الصحراء التي هي بيت ملك الشطائر. آخرون في الخامسة عشرة أو الرابعة عشرة من أعمارهم، عبثاً يُحاولون أن يمازحوا بعضَ الزبائن، أشخاصاً بمفردهم، أو أزواجاً من الذكور لهم مظهر موظّفين أو شرطة، أشخاصاً كانوا ينظرون إلى المراهقين بعيون لم تكن تتحمّل المزاح. بعض الفتيات كانت عيونهنّ دامعة ولا تبدو وجوههنّ حقيقيّةً بل ملموحة في حلم.

- هذا المكان جَهَنّمي -قالَ لروزا أمالفيتانو.

- معكَ حقّ -قالت هي ناظرة إليه بلطف-، لكنّ الطعامَ ليس سيئاً.

- أنا ذهبَ عنّي الجوع -قال فاتٍ.

- ما إن يضعوا أمامك طبقاً في الشطائر حتى يعود إليك -قالت روزا أمالفيتانو.

- أثقُ بأنّ هذا ما سيحدث -قال فاتٍ.

كانوا قد وصلوا إلى المطعم في ثلاث سيّارات مختلفة. في سيارة تشوتشو فلورِس ذهبت روزا أمالفيتانو. في سيارة الصَّموت كورونا ذهبَ تشارلي كروث وروزا مِنْدِث. هو ساق وحده ملتصقاً بالسيارتين الأخريين وفي أكثر من مناسبة حين بدا الدوران في المدين لا نهاية له،

فكّر أن يضغط على الزمور ويغادر الأبد ذلك الموكب حيث كان يُحسّ، دون أن يدري بالضبط لماذا، بشيء لا معقول وطفولي، ويذهب باتجاه مطعم سونورا رِسورت ليكتب في الفندق خبره عن مباراة الملاكمة القصيرة التي حضرها توّاً. قد يكون كامِل ما يزال هناك ويشرح له شيئاً لم يفهمه. بالرغم من أنّه إذا ما فكّر المرء جيّداً ليس هناك شيء ليُفهم. بيكيت كان يعرف كيف يلاكم وفِرنانديث لا، هكذا ببساطة، أو ربّما كان الأفضل ألا يذهب إلى سونورا رِسورت، ويقود مباشرة إلى الحدود، إلى توكسون التي لا شكّ سيجد في مطارها مقهى إنترنيت من حيث يكتب الخبرَ، منهكاً لا يعرف ما يكتب، يطير بعدها إلى نيويورك، حيث سيعود كلّ شيء ليأخذ قوامَ الواقع.

لكنّ فات تبع موكب السيارتين اللتين كانتا تدوران وتدوران في مدينة غريبة، وقد انتابه شكّ بأنّ ذلك الكم من الدورات له غاية وحيدة، وهي أن يتعب من مرافقتهم، بالرغم من أنّهم هم من دعوه، من قالوا له تعال معنا لنتناول عشاءنا وبعدها تُغادر إلى الولايات المتحدة، آخرَ عشاء مكسيكيّ، دون قناعة ولا صراحة، محاصراً بحسن ضيافة كلامية، عُرفٍ مكسيكيّ، عليه أن يردّ عليه شاكراً (بودّ!) ثمّ يبتعد بكرامة عبر شارع شبه مقفر.

ومع ذلك قَبِلَ الدعوة. فكرة جيّدة، قال، أنا جائع. هيّا بنا نتعشّى جميعنا معاً، كأمرٍ طبيعيّ. وبالرغم من أنّه رأى التغيُّرَ في تعبيرِ عينيّ تشوتشو فلورِس والطريقة التي كان ينظرُ بها إليه كورونا، الأبردُ، كما لو أنّه يريد أن يبعده بنظرته، أو كما لو أنّه يُلْقي عليه بلائمة هزيمةِ الملاكم المكسيكيّ، أصرّ على الذهاب لتناول شيء تقليدي، ليلتي الأخيرة في المكسيك، ما رأيكم أن نأكل طعاماً مكسيكياً؟ وحده تشارلي كروث بدا سعيداً أمام فكرة أن يستمرّ معه خلال العشاء، تشارلي كروث والفتاتان، وإن كان كلٌّ بطريقة مختلفة، كلّ واحد بحسب طبيعته، وإن كان ممكناً أنّ الفتاتين فقط كانتا ستُسعدان، ليس

أكثر، بينما تشارلي كروث على العكس، قد تنفتح أمامه منظورات غير متوقّعة في مشهد حتى تلك اللحظة ثابت وروتيني.

لماذا أنا هنا آكل شطائر مكسيكية وأشرب بيرة مع مكسيكيين لا أكاد أعرفهم؟ فكَّر فاتِ. الجوابُ، كنتُ أعرفُهُ، كان بسيطاً. لأجلها. الجميع كانوا يتكلّمون بالإسبانيّة. وحده تشارلي كروث كان يُحبّ أن يتكلّم عن السينما وكذلك كان يُحبُّ أن يتكلّم بالإنكليزية. كانت لغته الإنكليزية سريعةً، كما لو أنّه يُحاول أن يُقَلّد طالباً جامعيّاً، وإن كثرت فيها الأخطاء. ذكر اسم مخرج لوس أنجلوس الذي كان يعرفه شخصيّاً باري غوارديني، لكنّ فاتِ لم يُشاهد أيّ فيلم لِغوارديني. راح بعدها يتكلّم عن أقراص الـ دي في دي. قال إنّ كلّ شيء سُيسجّل في المستقبل على أقراص الذي في دي أو على شيء مشابهٍ ومُحَسَّن وستختفي صالات السينما.

صالات السينما الوحيدة التي كانت تقوم بدورها، قال تشارلي كروث، هي الصالات القديمة، هل تتذكّرها؟ تلك المسارح الهائلة التي كان قلبُ المرء ينقبض، حين تُطفأ أنوارها. كانت تلك الصالات جيّدة، كانت دور السينما الحقيقيّة، أشبه ما تكون بكنيسة، أسقف عالية جدّاً، بستائر حمراء كبيرة وعملاقة، أعمدة، ممرات بسجاجيد قديمة مستهلكة، مقصورات، قاعة سفلى ورواق أو مدرّج علوي، أبنية شُيِّدت في السنوات التي كانت ما تزال السينما فيها تجربةً دينية، يوميّة لكنّها مع ذلك دينية راحت تُهدم شيئاً فشيئاً كي تُبنى مكانها بنوكٌ أو سوبر ماركتات أو مجمّعات سينمائية. اليوم، قال له تشارلي كروث، لا يكاد يبقى منها إلا بضع دور، اليوم كل دور السينما مجمّعات سينمائيّة بشاشات صغيرة وفضاءات صغيرة ومقاعد مريحة جدّاً. صالة قديمة تتسع لسبع صالات صغيرة في مُجَمَّع سينمائي، أو عشر أو خمس عشرة صالة بحسب المكان. ما عاد هناك تجربة جهنّمية، لا يوجد دوار قبلَ

بداية الفيلم، ما عاد أحدٌ يشعر بالوحدة داخل مجمّع سينمائي. راح بعدها، بحسب ما يتذكّر فاتِ، يتكلّم عن نهاية *المُقدَّس*.

كانت النهاية قد بدأت في مكان ما، كان الأمر سواءً بالنسبة لِتشارلي كروث، ربّما في الكنائس حين ترك الرهبان الصلاة باللاتينية جانباً، أو في الأُسَر، حين هجر الآباء (مذعورين، صدّقني، يا أخي) الأمّهات. سرعان ما وصلت نهاية المُقَدّس إلى السينما. هدموا دورَ السينما الكبيرة وأنشؤوا مُجَمَّعاتٍ سينمائية، دور سينما عمليّة، دور سينما وظيفية. هوت الكاتدرائياتُ تحت كُرات فولاذ أفرقة الهدم. إلى أن اخترع أحدٌ الفيديو. التلفاز ليس شاشة السينما. صالون بيتك ليس صالة السينما التي تكاد تكون لا نهاية لها. لكن إذا ما نظر المرءُ بتأنٍّ سيجد أنّه الأكثر شبهاً. لأنّك تستطيع بواسطة الفيديو أن ترى وحدك فيلماً. تُغلق نوافذَ بيتك وتُشعل التلفاز. تضع الفيديو وتجلس على كرسيّ كبير. الحاجة الأولى: أن تكون وحدك. يمكن أن يكون البيت كبيراً أو صغيراً، لكن إذا لم يكن يوجد أحد فكلّ بيت، مهما صغر يكبر بطريقة ما. الحاجة الثانية: أن تحَضّر اللحظة، يعني أن تستأجر فيلماً، تشتري المشروب الذي ستشربه، الوجبةَ التي ستأكلها، أن تحدّد الساعة التي ستجلس فيها أمام التلفاز. الحاجة الثالثة: ألا تردّ على الهاتف، أن تتجاهل جرسَ الباب، أن تكون مستعدّاً لتُمضي ساعةً ونصفَ الساعة أو ساعتين أو ساعةً أو خمساً وأربعين دقيقة في وحدة تامّة وصارمة. الحاجة الرابعة: أن يكون جهاز التحكّم في متناول يدك، فربّما أردت أن ترى مشهداً أكثر من مرّة. هذا كلّ شيء. بدءاً من هذه اللحظة كلّ شيء يتعلّق بالفيلم وبكَ. إذا ما جرى كلّ شيء كما يُرام، فهو لا يجري دائماً كما يُرام، فإنّ المرء يكون من جديد في حضرة *المقدّس*. يدخل المرء رأسَهُ في صدره ذاته ويفتح عينيه وتنظر، هجّى تشارلي كروث.

ما المقدّس بالنسبة إليّ؟، فكّر فاتِ. هل هو الألم المُحيِّر الذي أشعر به أمام فقداني لأمّي؟ معرفة ما لا مناص منه؟ أم أنّه هذا التشنج الذي أشعر به في معدتي حين أنظرُ إلى هذه المرأة؟ ولماذا أحسَّ بقشعريرةٍ، لنُسِّمها هكذا، حين تنظر هي إليّ وليس حين تنظرُ إليَّ صديقتُها؟ لأنّ صديقتها أقل جمالاً منها بشكل ملحوظ، فكّر فاتِ. وهذا ما يُسْتَنْتَجُ منه أنّ المقدَّسَ بالنسبة إليّ هو الجمالُ، امرأة حسناء وشابّة تامّة التقاسيم. وماذا لو ظهرت فجأة وسطَ ذلك المطعم، الكبير بقدر ما هو قذر، أجملُ ممثلات هوليوود، سوف سأستمر بالشعور بالتشنجات في معدتي في كلّ مرّةٍ تلتقي عيناي خلسةً بعينيها، أو، على العكس، الظهور المباغت لجمال فائق متوّجٍ بالاعتراف، سوف يُخفّف من التشنّج، وتقلّل من جمالها إلى مستوى واقعي، جمال فتاة غريبة إلى حدّ ما تطلع من ليلِ نهايةِ أسبوع لتلهو مع ثلاثة أصدقاء، فريدين إلى حدٍّ ما وصديقة تبدو إلى حدٍّ ما عاهرة؟ ومن أنا حتى أُفكّر أنّ روزا مِنْدِثْ عاهرةٌ؟، فكّر فاتِ. تُراني أعرفُ شيئاً عن العاهرات المكسيكيات بحيث أعرفهنّ عند أوّل تبدّل؟ هل أعرفُ شيئاً عن البراءة أو عن الألم، أيضاً أحبُّ الذهاب إلى السينما. أحبُّ أن أضاجع النساء. ليس عِندي الآن امرأة ثابتة، لكنّني لا أجهل ماذا يعني وجودها. ترى هل أرى *المقدّسَ* في مكان ما؟ فقط أشعر بتجاربَ عمليّة، فكّر فاتِ. فجوة يجب أن تُملأ، جوع عليّ أن أخفّف من حدّته، ناس عليّ أن أجعلهم يتكلّمون كي أستطيع أن أنهي مقالاً وأقبض. ولماذا أُفكّر أنّ الأشخاص الثلاثة الذين يُرافِقون روزا أمالفيتانو كانوا فريدين؟ ما الفريد فيهم؟ ولماذا أنا واثق من أنّه إذا ما ظهرت فجأة ممثّلة من هوليود سيتضاءلُ جمالُ روزا أمالفيتانو؟ وماذا لو لم يكن كذلك؟ وماذا لو تسارع؟ وماذا لو تسارع كلُّ شيءٍ منذ اللحظة التي تعبرُ فيها ممثّلة من هوليود عتبةَ مطعم ملك الشطائر؟

كانوا بعد ذلك، بحسب ما يتذكّر بشكل مشوّش، في مرقصين، وربّما ثلاثة. في الحقيقة يمكن أن تكون أربعة مراقص. لا: ثلاثة. لكنّهم كانوا في مكانٍ رابع، لم يكن بالضرورة مرقصاً ولا بيتاً خاصّاً. كانت الموسيقى عالية، في أحد المراقص، لم يكن الأوّل، كان له فناء. من الفناء الذي تتكدّس فيه صناديق المرطبات، كانت تُشاهَدُ السماء. سماء سوداء مثل قاع البحر. في لحظة ما تقيّأ فاتِ. ضحك بعدها لأنّ شيئاً في الفناء أضحكه. ما هو؟ لم يكن يعرف. شيء كان يتحرّك أو يتجرجر بجانب سياج الأسلاك. ربّما ورقة صحيفة. حين عاد إلى الداخل رأى كورونا يُقَبِّل روزا مِنْدِثْ. يد كورونا اليمنى تضغط على أحد ثديي المرأة. عندما مرَّ بجانبهما فتحت روزا مِنْدِثْ عينيها ونظرت إليه كما لو أنّها لا تعرفه. كان تشارلي كروث يستند إلى طاولة عرضِ البار ويتحدّث مع النادل. سأله عن روزا أمالفيتانو. هزّ تشارلي كروث كتفيه. كرَّرَ السؤالَ. نظر تشارلي كروث إلى عينيه وقال ربّما هي في المحجوزة؟

- أين المحجوزة؟ -سأل فاتِ.

- في الأعلى -قال تشارلي كروث.

صعد فات الدرج الوحيد الذي وجده: كان درجاً معدنياً يتحرّك قليلاً، كما لو أنّ قاعدته فالتة. بدا له درجَ سفينة قديمة. كان الدرج ينتهي إلى ممرّ مفروش بالموكيت الأخضر. في نهاية الممر باب مفتوح. كانت تُسمع موسيقى. النور الذي يخرج من الغرفة كان أيضاً أخضر. رجل شاب ونحيل متوقّف في الممرّ نظر إليه وتحرّك نحوه. فكّر فات بأنّه سيُهاجمه فاستعدَّ ذهنياً لتلقّي اللكمة الأولى. لكنّ الرجل تركهُ يمرّ وهبط بعدها الدرجَ. كان وجهه في غاية الجدّية، يتذكّر فات. سار بعدها حتى وصل إلى غرفة حيث رأى تشوتشو فلورِس يتكلّم بهاتف جوّال. بجانبه كان هناك رجل في الأربعين ونيّف من عمره يجلس على مكتب، يرتدي قميصاً بمربعات وربطة عنق شريطية، بقي

ينظر إليه وسأله بإيماءة ماذا يريد. رأى تشوتشو فلورِس إيماءة الرجل ونظر باتجاه الباب.

- تقدّم، يا فاتِ، ادخُل -قال.

المصباح الذي كان يتدلّى من السقف أخضر. كانت روزا أمالفيتانو جالسة على كرسيّ كبير بجانب نافذة. كانت متصالبة الساقين وتُدَخِّن. حين عبر فاتِ العتبة رفعت نظرها ورأته.

- نحن هنا نقوم ببعض الصفقات -قال تشوتشو فلورِس.

استند فاتِ إلى الباب كما لو كان ينقصه هواء. إنّه اللون الأخضر، فكّر.

بدت روزا أمالفيتانو مُحَشّشة.

بحسب ما كان يعتقد فاتِ أنّه يتذكّر، أعلن أحدٌ أنّ هناك من كان يُكمل أعواماً في تلك الليلة، أحد لم يكن معهم، لكن يبدو أنّ تشوتشو فلورِس وتشارلي كروث يعرفانه. راحت امرأة تغني بينما هي تشرب تِكيلا «هابي بيرزدي». راح بعدها ثلاثة رجال، (هل كان بينهم تشوتشو فلورِس؟) يُغنون «الصُّبَيْحات». أصوات كثيرة انضمّت إلى الغناء. بجانبه عند أسفل طاولة العرض كانت روزا أمالفيتانو. هي لم تكن تُغنّي، لكنّها ترجمت له كلماتِ الأغنية. سألها فاتِ ما العلاقة بين الملك داوود وعيد ميلاد شخص.

- لا أعرف -قالت روزا-، أنا لستُ مكسيكية، أنا إسبانية.

فكّر فاتِ بإسبانيا. كان سيسألها من أي مكان في إسبانيا كانت عندما رأى رجلاً يصفع امرأة في إحدى زوايا الصالة. الصفعة الأولى جعلت رأس المرأة يدور بعنف والصفعة الثانية رمتها على الأرض. حاول فاتِ، دون أن يُفكِّر بشيء، أن يتحرّك في ذلك الاتجاه، لكنّ أحداً أمسكه من ذراعه. حين التفت ليرى من كان يوقفه لم يكن هناك

أحد. في الزاوية الأخرى من المرقص اقترب الرجل الذي صفع المرأة من الكتلة المرمية على الأرض ورفسها على معدتها. على بعد أمتار قليلة منه رأى روزا مِنْدِثْ تبتسمُ سعيدةً. كان كورونا بجانبها، ينظر إلى جانب آخر بوجهه الجدّي ذاته. كان ذراع كورونا يحيط بكتفي المرأة. من حين لآخر كانت روزا مِنْدِثْ تحمل يدَ كورونا إلى فمها وكانت أسنانُ روزا مِنْدِثْ تعضُّ أحياناً أكثر من اللازم فيقطب كورونا جبينَهُ بشكل خفيف.

في المكان الأخير الذي تواجدوا فيه فاتِ رأى عمر أبدول وزميل التدرّب الآخر. كانا يشربان وحدهما في زاوية من طاولة العرض فاقترب ليُسلّم عليهما. زميل التدرُّبِ الذي كان يُدعى غارثيّا بالكاد قام بحركة تَعَرُّفٍ. على العكس من عمر أبدول الذي كرَّمه بابتسامة واسعة. سأله فاتِ كيف حال مِرولينو فِرنانْدِثْ.

- جيّد، جيّد جدّاً -قال عمر أبدول-. في المزرعة.

قبل أن يودّعهما فاتِ سأله عمر أبدول كيف لم يذهب بعد.

- أحبّ هذه المدينة -قال فاتِ كي يقول شيئاً.

- هذه المدينة خراء، يا أخي -قال عمر أبدول.

- حسن، فيها نساء غاية في الجمال -قال فاتِ.

- النساء هنا لا يُساوين قطعة خراء -قال عمر أبدول.

- إذن عليّ أن أعودَ إلى كاليفورنيا -قال فاتِ.

نظر عمر أبدول إلى عينيه وهزّ رأسه بالإيجاب عدّة مرّات.

- وددت لو أنّني صحفي بائس -قال- أنتم لا يفوتكم شيء. أليس كذلك؟

أخرج فاتِ ورقة مالية ونادى النادل. ما يريد أن يتناوله هذان الصديقان أنا أدفعه. أخذ النادلُ الورقةَ وبقي ينظرُ إلى زميلي التدرُّب.

- كأسا مِثكال آخران - قال عمر أبدول.

عندما عاد إلى طاولته سأله تشوتشو فلورِس عمّا إذا كان صديق الملاكمين.

- ليسا ملاكمين - قال فاتِ، إنّهما ملاكمي تدريب.

- كان غارثيّا ملاكماً معروفاً جيّداً في سونورا - قال تشوتشو فلورِس - لم يكن جيّداً، لكنّه كان يتحمّل كما لا يتحمّل أحد.

نظر فاتِ إلى عمق طاولة العرض. كان عمر أبدول وغارثيّا ما يزالان هناك، صامتَيْن، ينظران إلى صفّ الزجاجات.

- جُنَّ ذات ليلة وقتل أخاه - قال تشوتشو فلورِس -. استطاع محاميه أن يجعلهم يعلنون أنّه يعاني من خلل عقليّ عابر ولم يمضِ في سجن هِرموسيّو إلا ثماني سنوات. حين خرج لم يعد يبغِ أن يُلاكم. بقي فترة مع أتباع العنصرة في أريزونا. لكن الله لم يمنحه ملكةَ الكلمة وترك الوعظَ بالكلمة المقدسة وراح يعمل كقبضاي في مرقص. إلى أن جاء لوبِّتْ، مُدرِّب مِرولينو وتعاقد معه كزميل تدرّب.

- ثنائيّ خراء - قال كورونا.

- نعم - قال فاتِ -، بالحكم من المباراة هما ثنائيّ خراء.

بعد ذلك، وهذا ما يتذكّره بوضوح، انتهيا إلى بيت تشارلي كروث. يتذكّر ذلك من الفيديوهات. بالتحديد من فيديو روبِرت رودريغِثْ المفترض. كان بيت تشارلي كروث كبيراً، قويّاً مثل ملجأ من طابقين، وهذا ما كان يتذكّره أيضاً بوضوح وظله الذي كان يسقط على الأرض الخلاء. لم يكن فيه حديقة، لكن فيه مرآب يتسع لأربع وربّما لخمس سيّارات. في لحظة من لحظات الليل، وإن لم يكن هذا واضحاً أبداً، انضمَّ رجل رابع إلى الموكب. لم يكن الرجل الرابع كثيرَ الكلام لكنّه يبتسم دون مناسبة ويبدو لطيفاً. كان أسمر وله شارب. وسافر معه، في سيارته، إلى جانبه، مبتسماً لكلّ كلمة كان يقولها فاتِ. كان

رجل الشارب ينظرُ من حين إلى آخر إلى الخلف ومن حين إلى آخر ينظر إلى ساعته. لكنّه لا ينطق بكلمة واحدة.

- هل أنتَ أخرس -سأله فاتِ بالإنكليزية بعد عدّة محاولات لإقامة حوار معه-. أليس لك لسان؟ لماذا تنظر كثيراً إلى الساعة، يا وغد؟ - والرجل يبتسم ويهزّ رأسه بالموافقة دون تبدُّل.

كانت سيّارة تشارلي كروث تمضي أمامهم تتبعها سيّارة تشوتشو فلورِس. كان باستطاعة فاتِ أن يرى أحياناً طيفَ تشوتشو وروزا أمالفيتانو؛ بعامّة حين كانوا يتوقّفون أمام إشارة مرور. كان طيفاهما أحياناً متلاصقين جدّاً، كما لو أنّ الواحدَ منهما يُقَبِّل الآخر. أحياناً أخرى كان لا يرى غير طيف السائق. مرّة واحدة حاول أن يمضي بموازاة سيارة تشوتشو فلورِس، لكنّه لم ينجح.

في مرآب تشارلي كروث كان هناك لوحة مرسومة على أحدِ الجدران الإسمنتية. كانت اللوحة بارتفاع مترين وربّما بعرض ثلاثة أمتار وتُمثّلُ عذراءَ غوادالوبِّ وسط منظر رائعٍ جدّاً حيث يوجد نهر وغابات ومناجم ذهب وفضّة وأبراج نفط وحقول ذرة وقمحٍ فسيحة ومروج واسعة جدّاً ترعى فيها الأبقار. كانت العذراء مفتوحة الذراعين كأنّها تقوم بتقديم كلّ ذلك الثراء مقابل لا شيء. لكن في وجهها، انتبه فاتِ على الفور بالرغم من أنّه كان سكراناً، كان في وجهها عيب. كانت إحدى عيني العذراء مفتوحة والأخرى مغمضة.

كان البيت يحتوي على غرف كثيرة. بعضها يفيد فقط كمخزن تتراكم فيه أكداس الفيديوهات وأقراص الـ دي في دي من محل فيديوهات تشارلي كروث أو من مجموعته الخاصّة. كان الصالون في الطابق الأوّل. فيه كرسيان كبيران وأريكتان جلديتان وطاولة خشبية وتلفاز. كان الكرسيان من نوعية جيّدة، لكنّهما قديمان.. كانت الأرضية من بلاط أصفر وخطوطٍ سوداء متسخة. ولا حتى سجّادتان

هنديتان متعدّدتا الألوان تستطيعان أن تُخفيا الوسخ. مرآة بطول كامل معلّقة إلى أحد الجدران. على الجدار الآخر ملصق فيلم مكسيكيّ من الخمسينيات مؤطر ومزجّج. قال له تشارلي كروث إنّه ملصق أصلي لفيلم غريب جدّاً، ضاعت كل نسخه تقريباً. كان يحتفظ بقناني الكحول في صوان زجاجي. بجانب الصالون هناك غرفة ظاهرياً غير مستخدمة، فيها جهاز الموسيقى من الجيل الأخير وفي صندوق كرتوني الأقراص المضغوطة. انحنت روزا مِنْدِثْ بجانب الصندوق وراحت تُقلّب في داخله.

- النساء تذهبُ بعقولهنّ الموسيقى -همس تشارلي كروث في أذنه-، وأنا تذهب بعقلي السينما.

أفزعه اقتراب تشارلي كروث منه. عندها فقط انتبه إلى أنّ الغرفة بلا نوافذ واستغرب أن يكون هناك من اختارها لتكون صالوناً، خاصّة وأنَّ البيتَ كبير وبالتأكيد لا تنقصه غرف أكثر إنارة. حين بدأ الموسيقى تُسمع أخذ كورونا وتشتوتشو فلورِس الفتاتين من ذراعيهما وخرجا من الصالون. جلس صاحب الشارب على كرسيّ ونظر إلى الساعة. سأله تشارلي كروث عمّا إذا كان يهمّه أن يرى فيلمَ روبرت رودريغِثْ . حرّك فات رأسه بالموافقة. كان من المحال على صاحب الشارب أن يرى الفيلم نظراً لوضعية الكرسيّ ما لم يلوِ عنقه بشكل مبالغ فيه. لكنّه في الحقيقة لم يُبدِ أدنى فضول. بقي جالساً ينظر إليهم وإلى السقف بين فينة وأخرى.

لم يكن الفيلم ليدوم، بحسب تشارلي كروث، أكثر من نصف ساعة. كان يظهر وجه عجوز، مزوّقة جدّاً، تنظر إلى الكاميرا وتبدأ بعد برهة تتمتم بكلمات غير مفهومة وتبكي. كانت تبدو عاهرة متقاعدة وأحياناً، فكّر فاتِ، عاهرة مُحْتَضَرة. بعدها تظهر امرأة فتيّة سمراء جدّاً، نحيلة، كبيرة الثديين، راحت تتعرّى جالسةً على سرير. يطلع من الظلمة ثلاثة رجال يهمسون في البداية في أذنها ثم يُجامعونها.

تُبدي المرأة في البداية مقاومة. كانت تنظر مباشرة إلى الكاميرا وتقول شيئاً بالإسبانية لم يفهمه فاتِ. تتظاهر بعدها برعشة وتبدأ تصرخ. عندها يقوم الرجال الثلاثة الذين راحوا يتناوبون عليها حتى تلك اللحظة بمجامعتها معاً، الأول يلجُها في فرجها، الثاني في مؤخّرتها والثالث في فمها. اللوحة التي كانوا يشكلونها هي لوحة آلةٍ دائمة الحركة. كان المشاهد يحدِسُ بأنّ الآلة ستنفجر في لحظة ما، لكن لم يكن ممكناً توقّعُ طريقةِ الانفجار ولا وقت حدوثه . عندها تُدرِكُ المرأة الرعشةَ حقيقةً. الرعشة التي لم تكن مُتَوقّعة وكانت هي أقلّهم توقّعاً لها. حركات المرأة المضغوطة بثقل الرجال الثلاثة تسارعت. عيناها العالقتان بالكاميرا، التي اقتربت بدورها من وجهها، كانتا تقولان شيئاً، وإن كان بلغةٍ لا يمكن تحديدها. للحظة بدا أنّ كلَّ شيء يلمع، لمع صدغاها، خصلة شعرها شبه المختفية وراء كتف أحد الرجال، أسنانها التي أدركت بياضاً خارقاً. ثمّ بدا أنّ اللحمَ ينفصل عن عظامها ويسقط على أرض ذلك الماخور المجهول أو يتلاشى في الهواء، تاركاً هيكلاً عظمياً أخرسَ وأصمَّ، بلا عينين ولا شفتين، جمجمة بدأت بغتةً تضحك من كلّ شيء. بعدها ظهرَ شارعٌ من مدينة مكسيكية كبيرة، العاصمة الفدرالية بكلّ تأكيد، عند الغروب، كنسهُ المطرُ، السيارات مصفوفة على الأرصفة، والدكاكين بأبوابها المعدنية المسدلة، أشخاص يسيرون بسرعة كيلا يتبلّلوا، غمر من ماء المطر. الماء الذي يُنظّف هيكل سيارة تعلوه طبقة كثيفة من الغبار. نوافذ أبنية عامّة منارة. موقف حافلات بجانب حديقة صغيرة. أغصان شجرة مريضةً عبثاً تُحاول أن تمتد نحو العدم. وجه العاهرة العجوز التي تبتسم الآن للكاميرا، كما لو أنّها تقولُ هل أحسنتُ عملي، هل كنتُ جيّدة؟ ألا يوجد تذمّر. درج من طوب أحمر مكشوف للنظر. أرضيّة من المشمّع. المطر ذاته لكنّه مُصوَّر من داخل غرفة. طاولة بلاستيكية حوافّها مليئة بالثُلَم. كؤوس ومرطبان نسكافيه. مقلاة فيها بقايا بيض مقلي. ممرّ. جسد امرأة نصف

عارية، ملقيّ على الأرض. باب. غرفة في فوضى كاملة. رجلان نائمان في السرير ذاته. مرآة. تقترب الكاميرا من المرآة. ينقطع الشريط.

- أين روزا؟ -سأل فاتِ حين انتهى الفيلم.

- هناك شريط ثانٍ -قال تشارلي كروث.

- أين روزا؟

- في إحدى الغرف -قال تشارلي كروث-، تمصّ قضيب تشوتشو.

نهض بعدها، خرج من الغرفة وحين عاد أحضر في يدِ الشريط الناقص. قال فاتِ، بينما كان الفيديو يأخذ مكانه، إنّه يُريد أن يذهب إلى الحمّام.

- في العمق، الباب الرابع -قال تشارلي كروث-. لكنّك لا تُريد أن تذهب إلى الحمّام، بل تُريد أن تبحث عن روزا، أيها الغرينغو الكذّاب.

ضحك فاتِ.

- حسن، ربّما تشوتشو يحتاج إلى مساعدة -قال كما لو أنّه نائم وسكران في آن معاً.

حين نهض انتفض الرجل ذو الشارب. قال له تشارلي كروث شيئاً بالإسبانية، فعاد الرجل ذو الشارب ليتمدّد بليونة على الكرسيّ الكبير.

سار فاتِ في الممر وهو يعدّ الأبواب، حين وصل إلى الباب الثالث سمع جلبة قادمة من الطابق الأعلى. توقّف. انقطعت الجلبة. كان الحمّامُ كبيراً والأرضية من الرخام الأبيض. كان حوض الحمام الدائري يتسع على الأقل لأربعة أشخاص. بجانب الحوض صندوق من خشب البلوط على شكل تابوت. تابوت يبقى فيه الرأس خارجاً، كان فاتِ سيقول إنّه ساونا لولا ضيقه. كان جرن المرحاض من المرمر

الأسود. بجانبه كان البيديهْ وبجانب البيديه بروز من رخام بارتفاع نصف متر لم يكن فاتِ قادراً على معرفة فائدته. كان يُشبه، إذا ما أعمل المرء خياله، سرجاً أو سُرَيجاً، لكنّه لم يستطع أن يتخيّل أحداً جالساً هناك في وضعية طبيعية. ربّما كان يفيد لوضع منشفة البيديه عليه. بقي برهة بينما هو يبول ينظر إلى الصندوق الخشبيّ والنحت الرخامي. فكّر للحظة أنّ كلا الشيئين كان حيّاً. خلفه مرآة تُغطي كامل الجدار وتجعل الحمّام يبدو أكبر مما هو في الواقع. كان فات ينظرُ إلى اليسار فيرى التابوت الخشبيّ ثمّ يلوي عنقه نحو اليمين فيرى البروزَ الرخامي، ومرّة نظر إلى الخلف فرأى ظهره، واقفاً أمام المرحاض، يحيط به التابوتُ والسُّرَيجُ ذو المظهر غير المفيد. ازدادت حدّةُ الإحساس باللاواقعية الذي كان يُلاحقه في تلك الليلة.

صعَد الدرجَ محاولاً ألا يُحدِث جلبة. كان تشارلي والرجل ذو الشارب في الصالون يتحدّثان بالإسبانية. كان صوت تشارلي كروث مطمئناً وصوت الرجل ذي الشارب حاداً، كما لو أنّ حباله الصوتية قد ضمرت. عادت الجلبةُ التي كان قد سمعها في الممر لتتكرّر. كان الدرج ينتهي إلى صالون بنافذة كبيرة مغطاة بستارة من البندقية وشرائط بلاستيكية بنية داكنة. دخل فاتِ في ممرّ آخر. فتح باباً. كانت روزا مِنْدِث ملقاة على وجهها فوق سرير ذي مظهر عسكريّ. كانت بلباسها وحذائها عالي الكعب، لكنّها كانت تبدو نائمة، أو سكرانة أكثر من اللازم. لم يكن في الغرفة غير السرير وكرسيّ. كانت الأرضية على العكس من أرضية الطابق الأوّل مغطاة بالموكيت، لذلك بالكاد كانت خطواته تحدث صوتاً. اقترب من الفتاة وأدار رأسها. ابتسمت له روزا مِنْدِث دون أن تفتح عينيها. في منتصف الطريق كان الممر يتفرّع. ميّز فاتِ نوراً يخرج من تحت أحد الأبواب. سمع تشوتشو فلورِس وكورونا يتجادلان، لكنّه لم يعرف السبب. فكّر أنّ كليهما كان يريد أن

يضاجع روزا أمالفيتانو. فكّر بعدها أنّه ربّما كانا يتجادلان بخصوصه هو. بدا له أن كورونا كان غاضباً فعلاً. فتح الباب دون أن يطرقه فالتفت إليه الرجلان معاً بمزيجٍ من دهشة ونعاس محفورٍ على وجهيهما. عليَّ الآن أن أحاول أن أكون ما أنا هو، فكّر فاتٍ، زنجيّاً من هارلم، زنجيّاً خطيراً بشكل مخيف. انتبه على الفور تقريباً إلى أنّه ما من أحدٍ من المكسيكيين مندهشاً.

- أين روزا؟ - سأل.

تمكّن تشوتشو فلورِس من أن يشير بإيماءة إلى زاوية من الغرفة لم يرها فاتٍ. هذا المشهد، فكّر فات، سبق وعشتُهُ. كانت روزا جالسةً على كرسيّ تستنشق كوكايين.

- هيّا بنا - قال لها.

لم يأمرها، ولم يتوسّل إليها. فقط قال لها أن تذهب معه، لكنّه وضع روحه كلّها في كلماته. ابتسمت له روزا بلطف، ولم توحِ بأنّها فهمت شيئاً. سمع تشوتشو فلورِس يقول له بالإنكليزية: أخرج من هنا، يا صديقي، انتظرنا في الأسفل. مدّ فاتٍ يده للفتاة. نهضت روزا وأخذت يده. بدت له يدُ الفتاة فاترةً، فتوراً كان يستحضر مشاهد أخرى تستحضر أو تشمل بدورها تلك البذاءة. حين ضمّها وعى برودة يدِهِ ذاتها. كنتُ أُحْتَضَر طيلة ذلك الوقت، فكّر. إنّني بارد كالجليد. لو لم تُعطِني يدها لكنتُ متُّ هنا بالذات ولكان عليهم أن يُعيدوا جثّتي إلى نيويورك.

شعر حين كانا خارجين من الغرفة أنّ كورونا يُمسكه بذراع ويرفع يده الأخرى التي كانت تقبض، بدا له، على شيء مؤذٍ. انتفض وضرب، على طريقة كونت بيكيت حنك المكسيكيّ من الأسفل إلى الأعلى. سقط كورونا على الأرض، كما سبق وسقط مِرولينو فِرنانديث، دون أن ينفث ولا حتى أنّةً واحدة. عندها فقط انتبه إلى أنّه

كان يمسك بمسدّس. انتزعه منه وسأل تشوتشو فلورِس ماذا كان يُفكّر أن يفعل.

- أنا لستُ غيوراً، يا صديقي -قال تشوتشو فلورِس رافعاً يديه على مستوى صدره، كي يرى فاتِ أنّه لا يحمل أيّ سلاح.

نظرت روزا أمالفيتانو إلى مسدّس كورونا كما لو أنّه أداة من حانوت جنس.

- هيّا بنا -سمعته يقول لها.

- من هذا الشخص الموجود في الأسفل؟ -سأل فاتِ.

- تشارلي، تشارلي كروث، صديقك -قال تشوتشو فلورِس مبتسماً.

- لا، يا ابن العاهرة، الآخر، صاحب الشارب.

- صديق لتشارلي -قال تشوتشو فلورِس.

- هل لهذا البيت العاهر مخرج آخر؟

هزّ تشوتشو فلورِس كتفيه.

- اسمَعْ، يا رجل، ألا ترى أنّك تذهب بالأمور أبعدَ من اللازم؟ -قال.

- بلى، يوجد مخرج في القسم الخلفي من البيت -قالت روزا أمالفيتانو.

نظر فاتِ إلى جسد كورونا المرمي على الأرض وبدا لثوانٍ أنّه يتفكّر.

- السيّارةُ في المرآب -قال-، ولا نستطيع أن نذهب من دونها.

- إذن يجب أن تخرج من الباب الأمامي -قال تشوتشو فلورِس.

- وهذا؟ -قالت روزا أمالفيتانو مشيرةً إلى كورونا-، هل هو ميت؟

عاد فاتِ لينظر إلى الجسد المرتخي الجاثي على الأرض. كان باستطاعته أن يبقى ينظر إليه لساعاتٍ.

- هيّا بنا - قال بصوت حاسم.

هبطوا الدرج، مرّوا بمطبخ هائل تفوح منه رائحة الهجران، كما لو أنّ أحداً لم يطبخ هناك منذ زمن طويل، عبروا ممرّاً من حيث يُرى فناء فيه شاحنة مزرعة مغطاة بالكامل بقماش سميك أسود ساروا بعدها في ظلمة تامّة حتى وصلوا إلى الباب الذي يهبط إلى المرآب. حين أشعل النور، اسطوانتي نيون كبيرتين معلقتين إلى السقف، عاد فاتِ ليرى لوحة عذراء غوادالوبِّ الجدارية. حين تحرّك ليفتح الباب المعدنيّ انتبه إلى أنّ عين العذراء الوحيدة المفتوحة كأنّها تُلاحقه أينما كان. أدخل تشوتشو فلورِس في المقعد الأمامي بجانب السائق وجلست روزا في الخلف. عندما خرج من المرآب استطاع أن يرى رجل الشارب في أعلى الدرج يبحث عنهم بنظرته، نظرة المراهق المرتبك.

خلّفوا وراءهما بيتَ تشارلي كروث ودخلوا في شوارع غير معبّدة. عبروا، دون أن ينتبهوا، قفراً تفوح منه رائحة أعشاب يابسة وطعام فاسد. أوقف فاتِ السيارة، نظّف المسدّس بمنديل ورماه إلى الخلاء.

- ما أجمله من ليل - قال تشوتشو فلورِس.

لا روزا ولا فاتِ قالا شيئاً.

تركا تشوتشو فلورِس في موقف حافلاتٍ في جادّة مقفرة ووافرة الإضاءة. جلست روزا في المقعد الأمامي وحين ودّعته صفعته. دخلا بعدها في متاهة من الشوارع التي لا روزا ولا فاتِ كانا يعرفانها، إلى أن خرجا إلى جادّة أخرى تقود مباشرة إلى مركز المدينة.

- أعتقد أنّني تصرفتُ كأبله - قال فاتِ.

- أنا تصرّفت كبلهاء - قال روزا.

- لا، بل أنا - قال فاتِ.

راحا يضحكان ثمّ وبعد عدّة دورات في مركز المدينة تركا دفقَ

سياراتٍ، تحمل لوحاتٍ مكسيكية وأمريكية شمالية تخرج من المدينة، يقودهما.

- إلى أين سنذهب -سأل فاتِ-. أين تعيشين؟

قالت له إنّها لا تريد أن تعودَ إلى البيت الآن. مرّا أمام فندق فاتِ وبقي لثوان لا يعرف ما إذا كان سيتابع نحو الممر الحدودي أم يبقى هناك. بعد مئة متر دار ومضى من جديد باتجاه الجنوب، إلى الفندق. عرفه عامل الاستقبال. سأله كيف سارت المباراة.

- خسر مِرولينو -قال فاتِ.

- شيء منطقيّ -قال عامل الاستقبال.

سأل فاتِ عمّا إذا كانت الغرفة ما تزال شاغرة. قال له عامل الاستقبال بلى. زجّ فاتِ يده في جيبه وأخرج مفتاح الغرفة، الذي كان ما يزال يحتفظ به.

- صحيح -قال.

دفع أجرة ليلة أخرى ثم ذهب. كانت روزا تنتظره في السيارة.

- تستطيعين أن تبقي برهة أكثر هنا -قال فاتِ-، حين تقولين لي سأحملك إلى بيتك.

- وافقت روزا بحركة من رأسها ودخلا. كان السرير مرتباً والملاحف نظيفة. كانت دفتا النافذتين مردودتين، ربّما لأنّ الشخص الذي قام بالتنظيف، فكَّرَ فاتِ، وجد أثرَ رائحةِ قيء. لكنّ رائحة الغرفة كانت جيّدة. أشعلت روزا التلفاز وجلست على كرسيّ.

- كنتُ أراقبك -قالت.

- يسرّني ذلك -قال فاتِ.

- لماذا نظّفت المسدّس قبل أن ترمي به؟ -سألت روزا.

- تحسُّباً، فالمرء لا يعرف أبداً -قال فاتِ-، أُفضّل ألا أترك بصماتي على سلاح.

ركّزت روزا بعدها على برنامج التلفزيون، برنامج مكسيكي تتكلّم

فيه بشكل أساسيّ امرأة طاعنة في السن. كان شعرها طويلاً وأبيض تماماً. كانت تبتسم أحياناً، فيستطيع المرء أن ينتبه إلى أنّ الأمر يتعلّق بامرأة طيّبة القلب، غير قادرة على أن تؤذي أحداً، لكنّ تعبير وجهها كان معظمَ الوقت تعبير توثّبٍ كما لو أنّها تعالج موضوعاً شديد الخطورة. طبعاً لم يفهم شيئاً مما كانت تقوله. نهضت روزا بعدها عن كرسيّها، أطفأت التلفاز وسألته عمّا إذا كان باستطاعتها أن تستحمّ. أشار فاتِ بالموافقة صامتاً. حين أغلقت روزا على نفسها الحمام راح يُفكّر في كلّ الذي جرى في تلك الليلة فآلمته معدته. شعر بموجة من الحرارة تصعد إلى وجهه. جلس على السرير، غطّى وجهه بيديه وفكّر بأنّه تصرّف كأحمق.

حين خرجت روزا من الحمّام حكت له أنّها كانت خطيبة لتشوتشو فلورِس أو شيئاً من هذا القبيل. كانت تشعر بنفسها وحيدة في سانتا تِرِسا وذات يوم، بينما هي في محل فيديوهات تشارلي كروث إلى حيث كانت تذهب لتستأجر أفلاماً، تعرّفت على روزا مِنْدِثْ. كانت تجهل السبب، لكنّ روزا مِنْدِثْ وقعت منذ اللحظة الأولى وقعاً حسناً في نفسها. كانت بحسب ما قالته لها تعمل في النهار في سوبر ماركت وفي المساء تعمل نادلة في مطعم. كانت تحبُّ السينما وتعبد أفلام التشويق. ربّما كان ما أحبّته عند روزا مِنْدِثْ هو فرحها الذي لا ينصب وأيضاً شعرها المصبوغ بالأشقر الذي كان يتناقض بقوّة مع بشرتها السمراء.

قدّمتها روزا مِنْدِثْ ذات يومٍ إلى تشارلي كروث صاحب محل الفيديوهات، الذي سبق ورأته مرّتين فقط، وبدا له تشارلي كروث رجلاً هادئاً، يأخذ الأمور كلها بجدية وروّية وكان يعيرها أحياناً أفلاماً ولا يأخذ منها أجرة الأفلام التي كانت تستأجرها. كثيراً ما كانت تقضي مساءات بكاملها في محل الفيديوهات تتكلّم معهم أو تُساعد تشارلي كروث في فتح صناديق طلبات أفلام جديدة. وذات ليلة بينما كان

المحلّ على وشك أن يُغلق، تعرّفت على تشوتشو فلورِس، في تلك الليلة ذاتها دعاهم تشوتشو فلورِس جميعاً إلى العشاء ثمّ أخذها بعد ذلك في سيارته إلى بيتها، ومع أنّها دعته ليدخل إلا أنّه فضّل ألا يفعل ذلك، كيلا يُزعِج أباها. لكنّها أعطته رقم هاتفها وهتف لها تشوتشو في اليوم التالي ودعاها إلى السينما. حين وصلت روزا إلى السينما وجدت تشوتشو فلورِس وروزا مِنْدِثْ يرافقها رجل كبير في السن، بحدود الخمسين من عمره، قال إنّه يعمل في شراء وبيع العقارات وإنّه يُعامل تشوتشو كحفيد له. ذهبوا بعد السينما ليتناولوا عشاءهم في مطعم فاخر، رافقها بعدها تشوتشو فلورِس ليتركها في بيتها، مبيّناً أنّ عليه أن ينهض في اليوم التالي باكراً لأنّ عليه أن يذهب إلى هِرموسيّو ليُجري مقابلة إذاعية.

في تلك الأيّام لم تعتد روزا أمالفيتانو على رؤية روزا مِنْدِثْ في محل فيديوهات تشارلي كروث وحسب بل أيضاً في بيتها الموجود في ضاحية مادِرو، وهو شقة صغيرة في الطابق الرابع من بناء قديم من خمسة طوابق، بدون مصعد، والذي كانت روزا مِنْدِثْ تدفع لأجله مالاً كثيراً. في البداية كانت تتقاسم البيت مع صديقتين، وهو ما كان يجعل الإيجار غير باهظ كثيراً. لكنّ إحدى الفتاتين ذهبت لتجرّب حظّها في العاصمة الفيدرالية وتخاصمت مع الأخرى وبدأت منذ تلك اللحظة تعيش وحدها. كانت روزا مِنْدِثْ تُحبُّ أن تعيش وحدها، مع أنّها اضطرت لأن تبحث عن عملٍ ثان كي تُغطي نفقاتها. كانت روزا أمالفيتانو تقضي أحياناً ساعات في شقّة روزا مِنْدِثْ، دون أن تتكلّم، مستلقية على الأريكة، تشرب ماءً طازجاً وتسمع الحكايات التي كانت تحكيها لها صديقتها عادةً. كانت تتكلّم أحياناً عن رجال. كانت تجربة روزا مِنْدِثْ في هذا، كما في أشياء أخرى، أغنى وأكثر تنوّعاً من تجربة روزا أمالفيتانو. كانت في الرابعة والعشرين من عمرها وملكت، بحسب كلماتها ذاتها، أربع خطباء تركوا بصماتهم عليها. الأوّل حين كانت في

الخامسة عشرة من عمرها، شخص كان يعمل في معملٍ وتركها ليذهب إلى الولايات المتحدة. كانت تتذكّر هذا بحبّ، لكنّه كان من بين جميع عشاقها أقلَّ من ترك أثراً في حياتها. حين كانت روزا مِنْدِثْ تقول هذا كانت روزا أمالفيتانو تضحك فتضحكُ معها صديقتها أيضاً وإن لم تكن تعرف السبب بالضبط.

- تتكلّمين كأغنية بولِرو -كانت تقول لها روزا أمالفيتانو.

- آه، كانت هذه -كانت تردّ روزا مِنْدِثْ-، المسألة أنّ أغاني البولِرو على حق، يا أختي، الحقيقة جميع كلمات الأغاني تولد من قلب الشعب وهي على حقّ دائماً.

- لا -كانت تقول لها روزا أمالفيتانو-، يبدو أنّها على حقّ، يبدو أنّها صادقة، لكنّها في الحقيقة خراء خالص.

حين كانتا تصلان إلى هذه النقطة كانت روزا مِنْدِثْ تُفَضّل أن تتوقّف عن النقاش. ضمناً كانت تعترف أنّ صديقتها، التي لشيء ما كانت تذهب إلى الجامعة، تعرف أكثر منها عن هذه الأشياء. الخطيب الذي ذهب إلى الولايات المتحدة، كانت تعودُ لتحكي، كان، كما سبق وقالت، هو أقل من ترك أثراً في حياتها، لكنّه أيضاً أكثر من تشتاق إليه. كيف يمكن ذلك؟ لم تكن تعرف. الآخرون، الذين جاؤوا بعده، كانوا مختلفين. وكان هذا هو كلّ شيء. حكت روزا مِنْدِثْ لروزا أمالفيتانو ذاتَ يوم ما تشعر به حين تُمارس الحبّ مع شرطيّ.

- هو الذروة -قالت لها.

- لماذا، ما هو الفرق؟ -أرادت صديقتُها أن تعرف.

- لا أعرف كيف أعبّر عنه جيداً، يا أخت -قالت روزا مِنْدِثْ-، إنّه كمن تُمارس مع رجل، ليس رجلاً بالكامل. كأنك تعودين طفلة، هل تفهمينني؟ كما لو أنَّ صخرةً، جبلاً يمارس معك. أنت تعرفين أنّك ستكونين هناك، راكعة حتى يقول الجبل كفى. وستبقين ممتلئة.

- ممتلئة بماذا -سألتها روزا أمالفيتانو-، مليئة بالمني؟

- لا، يا أختُ، لا تكوني قليلة تربية، مليئة بشيء آخر، لكن كما لو أنّه يُجامعك داخل كهفٍ، مغارة، موجودة في الجبل ذاته، هل تفهمينني؟

- داخل كهف؟ -سألتها روزا أمالفيتانو.

- هو كذلك -قالت روزا مِنْدِثْ.

- يعني كما لو أنّ جبلاً يلجك داخلَ كهف أو مغارة موجودة في الجبل ذاته -قالت روزا أمالفيتانو.

- بالضبط -قالت روزا مِنْدِثْ.

ثمّ قالت:

- تسحرني كلمة ولج، ما أجمل كلام الإسبان.

- انتبهي فأنت غريبة الأطوار -قالت لها روزا أمالفيتانو.

- منذ صغري -قالت روزا مِنْدِثْ.

وأضافت:

- هل تريدين أن أحكي لك شيئاً آخر؟

- هيّا نرى -قالت روزا أمالفيتانو.

- ضاجعت تجار مخدرات. أُقسِمُ لك. هل تريدين أن تعرفي بماذا تشعر الواحدةُ؟ تشعرين كما لو أنّ الهواء يُجامعك، لا أكثر ولا أقلّ، الهواء الخالص.

- يعني أن المجامعة مع شرطي مثل المجامعة مع جبل والمجامعة مع تاجر مخدرات مثل المجامعة مع الهواء.

- نعم -قالت روزا مِنْدِثْ-، لكن ليس الهواء الذي نستنشقه ولا الهواء الذي نشعر به حين نذهب في الشارع، بل هواء الصحراء، هواء عاصفة هوائية، ليس له طعم الهواء هنا، أيضا ليست له رائحة الطبيعة، الريف، بل له الرائحة التي له، رائحة خاصّة لا يمكن توضيحها، ببساطة هو هواء، هواء خالص، هواء هو من الكثرة بحيث أنّك تجدين مشقّة في التنفّس وتعتقدين أنّك ستموتين مخنوقة.

- يعني - خلصت روزا أمالفيتانو - أنّه إذا جامعك جبلٌ كأنّ جبلاً يُضاجعك داخل الجبل ذاته وإذا جامعك تاجر مخدرات كأنّ هواء صحراء يُجامعك.

- بلى، يا أختُ، إذا جامعك تاجر مخدرات فهو يفعل ذلك دائماً في العراء.

في تلك الأيام بدأت روزا أمالفيتانو تخرج كثيراً مع تشوتشو فلورِس. كان المكسيكي الأول الذي ضاجعته. في الجامعة كان هناك فَتَيان أو ثلاثة حاولوا أن يُغازلوها، لكن لم يحدث لها معهم شيء. مع تشوتشو فلورِس حدث العكس، ذهبت إلى السرير، لم تكن أيّام التغزّل كثيرة، لكنّها كانت أكثر مما كانت تتوقّع روزا. حين عاد تشوتشو فلورِس من هِرموسيّو جلب لها معه طوق لؤلؤ هديةً. جرّبته روزا على انفراد أمام المرآة، ومع أنّ الطوق لم يكن يخلو من سحر (ثمّ إنّه لا بدّ كلّفه مالاً كثيراً) بدا لها أنّ من المحال عليها أن تضعه ذات يوم. كان عنق روزا طويلاً وجميلاً، وكان ذلك العقد يحتاج إلى نوعٍ آخر من خزائن الثياب. تبعت هذه الهديّة الأولى هدايا أخرى: أحياناً حين كانا يتمشيان في شوارع حوانيت الموضة، كان يتوقف تشوتشو فلورِس أمام واجهة ويشير إلى قطعة ويطلب منها أن تُجرِّبها فإذا أعجبتها يشتريها لها. عامّة ما كانت تُجرّب روزا القطعة المشار إليها أوّلاً ثم تُجرّب أخرى وتخرج في النهاية بواحدة تحوز على كامل إعجابها. كذلك كان تشوتشو فلورِس يهديها كتباً عن الفن، فقد سمعها ذات مرّة تتكلّم عن الرسم ورسامين رأت أعمالهم في متاحف أوروبية جليلة. وفي مرّات أخرى كان يهدها أقراصاً مضغوطةً، عامّة ما تكون لمؤلفين كلاسيكيين، وإن كان يُدخل أحياناً مثل دليل سياحيّ واعٍ للون المحليّ، بين هداياه الموسيقيّة موسيقى من شمال المكسيك، أو موسيقى فولكلورية، كانت روزا تسمعها لوحدها في البيت، شاردة وهي تجلي الأطباق أو تضع ثيابها وثياب أبيها المتسخة في الغسّالة.

عادة ما كانا يذهبان للعشاء في مطاعم جيّدة حيث كانا يجدان سواء بسواء رجالاً ونساءً بنسبة أقل، كانوا يعرفون تشوتشو فلورِس وكان يُقدّمها إليهم كصديقة له، الآنسة روزا أمالفيتانو، ابنة أستاذ الفلسفة أوسكار أمالفيتانو، صديقتي روزا، الآنسة أمالفيتانو، مثيراً على الفور تعليقات حول جمالها وقوامها، ثمّ تعليقات حول إسبانيا وبرشلونة، المدينة التي مرّوا بها، جميع وجهاء سانتا تِرِسا، جميعهم بالمُطلق، في جولات سياحيّة، التي لم يكن عندهم عنها غير كلمات المديح وتعقيبات التبجيل. وذات ليلة وبدل أن يأخذها ليتركها في بيتها، سألها عمّا إذا كانت تحبّ أن تبقى معه. انتظرت روزا أن يأخذها إلى شقّته، لكنّ السيارة توجّهت غرباً، إلى أن خلّفا وراءهما سانتا تِرِسا ثم وبعد أن سارا نصف ساعة في طريق موحش وصلا إلى موتيل، حيث استأجر تشوتشو فلورِس غرفة. كان الفندق وسط الصحراء، تماماً مقابل ربوة، وبجانب الطريق كان هناك بعض الجنبات الرمادية تكشف أحياناً عن جذورها بسبب الريح. كانت الغرفة كبيرة وكان في الحمام جاكوزي شبيه بمسبح صغير. كان السرير دائريّاً وتتدلّى من الجدران ومن أقسام من السقف مرايا تساهم في تضخيمها. كان موكيت الأرضية سميكاً، يكاد يكون فراشاً. لم يكن هناك بار صغير بل طاولة صغيرة مجهزة بكلّ أنواع المشروبات الكحولية والمرطبات. عندما سألته روزا لماذا حملها إلى مثل ذلك المكان، المكان النموذجي الذي يأتي إليه الأغنياء بعاهراتهم، قال لها تشوتشو فلورِس بعد برهة من التفكير، من أجل المرايا. الطريقة التي قالها بها كانت كما لو أنّه يعتذر. عرّاها بعد ذلك وتجامعا في الفراش وعلى الموكيت. كان موقف تشوتشو فلورِس حتى تلك اللحظة ناعماً، مشغولاً بمتعة رفيقته أكثر مما بمتعته. في النهاية أدركت روزا الرعشة وعندها توقّف تشوتشو فلورِس عن المجامعة وأخرج علبة معدنية من سترته. فكّرت روزا أنّ الأمر يتعلّق بكوكايين، لكن لم يكن في داخلها

مسحوق أبيض بل حبوب صغيرة صفراء. أخذ تشوتشو فلورِس حبّتين وابتلعهما مع قليل من الويسكي. بقيا برهةً يتكلمان مستلقيين على السرير إلى أن عاد ليجامعها. هذه المرّة لم يكن سلوكه ناعماً أبداً. روزا المباغتة لم تحتجّ ولم تقل شيئاً. بدا تشوتشو فلورِس مستعداً لأنّ يضعها في كل الوضعيات الممكنة وبعضها، هذا ما فكّرت به روزا، أحبته هي. عند مطلع الفجر توقّفا عن المجامعة وغادرا الفندق.

في الفناء المحمي من الطريق بجدار من الطوب الأحمر كان هناك سيارات أخرى. كان الهواء رطباً وجافّاً ومحمّلاً برائحة مسك خفيفة. كان الفندق وكل ما حوله يبدو ملفوفاً بكيس من الصمت. بينما كانا يسيران في المرآب بحثاً عن السيارة سمعا صياح ديك. بدا الصوتُ الصادر عن فتح بابي السيارة، عن المحرّك الذي كان يشتعل، عن العجلات التي راحت تسحق الحجارة الرملية، لروزا شبيهاً بصوت طبل. لم يكن هناك شاحنات تمرّ على الطريق.

منذ ذلك الوقت صارت علاقتها بتشوتشو فلورِس في كلّ مرّة أكثر غرابة. كان هناك أيّام يبدو فيها غير قادر على أن يعيش من دونها، وأخرى يُعاملها فيها كما لو أنّها جارية. كانا ينامان في بعض الليالي في شقّته وحين كانت تستيقظ روزا في الصباح لا تجده، فتشوتشو فلورِس كان يستيقظ أحياناً باكراً جدّاً للعمل في برنامج إذاعي مباشر يُسمى «صباح الخير، يا سونورا»، أو «صباح الخير، أيّها الأصدقاء» لم تكن تعرف اسمه بدقّة لم تسمعه قط من بدايته، كان برنامجاً يسمعه سائقو الشاحنات، الذين كانوا يعبرون الحدود في هذا الاتجاه وذاك وسائقو الحافلات التي كانت تنقل العمال إلى المعامل وكلُّ الناس الذين كان عليهم أن يستيقظوا باكراً في سانتا تِرِسا. حين كانت روزا تستيقظ تُحضّر فطورها، عامة ما كان كأساً من عصير البرتقال وقطعة خبز محمّص أو قطعة بسكويت. تغسل بعدها الصحن وعصّارة البرتقال

وتذهب. وكانت تبقى في أحيان أخرى برهة أكثر تنظر من النوافذ إلى المنظر العمراني للمدينة تحت سماء زرقاء كوبالتية، تُسوّي بعدها السرير وتقوم بجولة في البيت، دون أن يكون هناك ما تفعله غير التفكير بحياتها وبالعلاقة التي كانت تُقيمها مع ذلك المكسيكي الغريب جدّاً. كانت تُفكّر فيما إذا كان يحبّها، بما إذا ما كان يشعر به تجاهها هو حبّ، وبما إذا كانت تشعر هي بدورها بحبّ تجاهه، أو بجاذبية جسدية، أو بشي، بأيّ شيء، بما إذا كان هذا هو كلّ ما عليها أن تنتظره من علاقة ثنائية.

كانا يركبان في بعض المساءات سيارته ويخرجان بكلّ سرعة نحو الشرق إلى مِطلٍّ في جبلٍ من حيث تُرى سانتا تِرِسا في البعيد، أضواء المدينة الأولى، المظلة الهائلة السوداء التي كانت تهبط موشورياً فوق الصحراء. دائماً كلّما كانا هناك بعد أن يتأملا بصمتِ الانتقال من النهار إلى الليل، كان تشوتشو فلورِس يفتحُ سرواله الداخلي ويأخذها من نقرتها حتى يلتصق وجهُها بما بين ساقيه. عندها كانت روزا تضع قضيبه بين شفتيها، تمصّه قليلاً، حتى يقسو، وعندها تبدأ بمداعبته بلسانها. حين كان تشوتشو فلورِس يكاد يصل، كانت تلاحظ ذلك من ضغط يده التي كانت تمنعها من أن تفصل رأسها عنه. كانت روزا تتوقّف عن تحريك لسانها وتبقى ساكنة، كما لو أنَّ وجودَ القضيب كلّه داخله قد خنقها إلى أن تشعر بتفريغ المني في حنجرتها، بل حتى في هذه الحالة لم تكن تتحرّك، بالرغم من سماعها الآهات والصيحات التي كان يلفظها عشيقها، الذي كان يُحب أن يقول كلمات بذيئة وينطق بشتائم خلال الرعشة، لكن ليس عليها بل على أشخاص غير مُحدّدين، على أشباحٍ تظهر في تلك اللحظة فقط ولا تتأخر في الضياع في الليل. بعدها ومذاق مالح ومُرّ ما يزال في فمها كانت تُشعلُ سيجارة بينما كان تشوتشو فلورِس يُخرج من علبة دخانه الفضّية ورقة صغيرة مطوية تحتوي على كوكايين، كان يضعه فوق غطاء العلبة الفضّي، المزين بمشاهد

ريفية مكسيكية أقرب إلى الرعوية، ثمّ يستنشقه بعد أن يحضرَ دون عجلة ثلاثة خطوط بمساعدة بطاقة اعتماده المصرفية، بواسطة إحدى بطاقات التعريف، واحدة كانت تقول تشوتشو فلورِس صحفيّ ومذيع ثم عنوان الإذاعة.

في أحد تلك المساءات ودون أن تتوسط الحالة دعوة (ذلك أنّ تشوتشو لم يدعها قط في أي مناسبة، لكي تشاركه الكوكايين) بينما كانت تنظّف بعض قطرات المني عن شفتيها، طلبتْ روزا منه أن يترك لها آخر خطٍّ. سألها تشوتشو فلورِس عمّا إذا كانت واثقة ثمّ وبحركة لامبالاية لكنَ أيضاً بحركة احترام، ناولها علبة السجائر وبطاقة تعريف جديدة. استنشقت روزا ما بقي من كوكايين ثم ارتمت إلى الخلف في المقعد وراحت تنظر إلى الغيوم السوداء التي لم تكن تختلف في شيء عن السماء السوداء.

في تلك الليلة وعندما عادت إلى البيت خرجت إلى الفناء ورأت أباها يُكَلّم الكتابَ الذي كان قد علّقه منذ زمن إلى حبل الغسيل في الفناء الخارجي. أغلقت بعدها غرفتها على نفسها دون أن يُحسّ والدها بها وراحت تقرأ رواية وتُفكّر بعلاقتها مع المكسيكيّ.

طبعاً كان المكسيكي ووالدها قد تعارفا. الرأي الذي خلص إليه تشوتشو فلورِس كان إيجابياً، بالرغم من أنّ روزا كانت تعتقد أنّه يكذب، أنّ من غير الطبيعي أن يقعَ منه موقعاً حسناً شخصٌ نظر إليه كما نظر إليه والدها. في تلك الليلة سأل أمالفيتانو تشوتشو فلورِس ثلاثة أسئلة. الأوّل ما رأيه بمسدسات الأضلاع. الثاني هو ما إذا كان يعرف أن يعمل شكلاً سداسياً. الثالث ما هو رأيه بجرائم قتل النساء التي كانت تُرتكب في سانتا تِرِسا. كان جوابُ تشوتشو فلورِس على السؤال الأوّل أن لا رأي له. أجاب على السؤال الثاني بِ لا صريحة. عن السؤال الثالث قال، فعلاً شيء مؤسف، لكنّ الشرطة تلقي القبض

دوريّاً على القتلة. لم يوجّه والد روزا إليه أيَّ سؤال آخر وبقي جالساً بلا حراك على كرسيّ بينما ابنته خرجت إلى الشارع لتودّع تشوتشو فلورِس. حين عادت روزا لتدخل كان ما يزال صوت سيارة خطيبها مسموعاً، قال أوسكار أمالفيتانو لابنته أن تحذرَ من ذلك الرجل، يخزني قلبي منه، دون أن يُقدّم برهاناً يدعم به كلماته.

- إذا لم أُسئ الفهم -ضحكت روزا من المطبخ-، فالأفضل هو أن أتركه.

- اتركيه -قال أوسكار أمالفيتانو.

- آخ، يا أبي، أنتَ في كلّ مرّة أكثر جنوناً -قالت روزا.

- هذا صحيح -قال أوسكار أمالفيتانو.

- وماذا سنفعل؟ ماذا نستطيع أن نفعل؟

- أنتِ تتركين هذا الخراء الجاهل والكاذب. أنا، لا أعرف، ربّما حين نعود إلى أوروبا أدخل إلى المشفى كي يعطوني بعض الصدمات الكهربائية.

المرّة الثانية التي التقى فيها تشوتشو فلورِس وأوسكار أمالفيتانو وجهاً لوجه كان يوم ذهب خطيبها إضافة إلى تشارلي كروث وروزا مِنْدِث ليتركوها في بيتها. في الحقيقة لم يكن متوقّعاً أن يكون أوسكار أمالفيتانو هناك بل في الجامعة يعطي دروساً، لكنّه التقط في ذلك المساء مرضاً وعاد إلى بيته أبكر بكثير مما اعتاد أن يفعل. كان اللقاء قصيراً، بالرغم من أنّ أبيها كان على غير العادة اجتماعياً، ذلك أنّ روزا تدبّرت أمرها كي يذهب أصدقاؤها عند أوّل فرصة، لكنّها أفسحت قبلها المجال لحديثٍ بين أبيها وتشارلي كروث، حديثٍ إذا لم يكن فعلاً مبهجاً إلا أنّه لم يكن مضجراً، بالعكس راح الحديث بين أبيها وتشارلي كروث مع مرور الأيام يحرز، في ذاكرة روزا، أشكالاً أكثر

صفاء، كما لو أنّ الزمن، المميّز تحت الشكل الكلاسيكي لعجوز، راح ينفخ بلا توقُّف على الحجر المنبسط والرمادي، بعروقه السوداء، المغطى بالغبار، إلى أن تُصبح الحروف المنقوشة على الحجر مقروءة تماماً.

كلّ شيء بدأ، كانت روزا تفترض، فهي لم تكن في تلك اللحظة في الصالون بل في المطبخ تملأ أربعة كؤوس بعصير المانجا، بأحدِ الأسئلة التي اعتاد والدها أن يوجّهها للضيوف، لضيوفها، طبعاً ليس لضيوفه، أو ربّما بدأ كلّ شيء بإعلان مبادئ روزا مِنْدِتْ البريئة. فصوتها، في اللحظات الأولى، هو الذي بدا أنّه يهيمن على الصالون. ربّما تكلّمت روزا مِنْدِتْ عن شغفها بالسينما وسألها أوسكار أمالفيتانو في تلك اللحظة عمّا إذا كانت تعرف ما هي الحركة الظاهرية. لكنّ الجواب، كما لا يمكن أن يكون بطريقة أخرى، لم تُعطِهِ صديقتُها، بل تشارلي كروث. الذي قال إنّ الحركة الظاهرية هي وهم الحركة التي يُثيرها دوامُ الصور في شبكة العين.

- بالضبط -قال أوسكار أمالفيتانو-، تبقى الصور في جزء من الثانية في شبكة العين.

وعندئذ صرف أبوها نظره عن روزا مِنْدِتْ، التي ربّما قالت، عجيب، لأنّ جهلها كان كبيراً، لكن أيضاً كانت قدرتُها على الدهشة ورغبتُها بالتعلّم كبيرة، سأل تشارلي كروث مباشرةً عمّا إذا كان يعرف من الذي اكتشف هذا، الذي هو استمرارية الصورة، فقال تشارلي كروث إنّه حقيقة لا يتذكّر اسمه، لكنّه واثق من أنّه كان فرنسيّاً. وهو ما ردّ عليه أبوها بقوله:

- بالضبط، فرنسيّ، اسمه الأستاذ بلاتو. الذي، ما إن اكتشف المبدأ، حتى انطلق مثل سمكة قرش كي يُجرّب بأجهزة صنعها بنفسه، بهدف خلق تأثيرات حركية من خلال تالي الصور الثابتة المُمَرّرة بسرعة كبيرة. عندئذ ولد دولاب الحياة.

- هل تعرفُ ما هو؟ -سأل أوسكار أمالفيتانو.

- كان عندي واحداً في طفولتي -قال تشارلي كروث-. كذلك كان عندي قرص سحريّ.

- قرص سحري -قال أوسكار أمالفيتانو- كم هو شيء مهمّ. هل تتذكّره؟ هل تستطيع أن تصفه لي؟

- أستطيع أن أصنعه لك الآن -قال تشارلي كروث-، فقط أحتاج إلى ورقة مقوّاة، قلمي رصاص ملونين وخيط، إذا لم أُخطئ التذكُّر.

- آه، آه، لا، لا، ليس ضرورياً -قال أوسكار أمالفيتانو-. يكفيني وصفٌ جيّد. بطريقة ما جميعنا عندنا أقراص سحرية تطفو أو تدور داخل أدمغتنا.

- آه، صحيح؟ -قال تشارلي كروث.

- عجيب -قالت روزا مِنْدِثْ.

- حسن، سُكَيْران يضحك. هذا ما كان مرسوما على أحد وجهي القرص. وعلى الوجه الآخر زنزانة، أي قضبان زنزانة. حين كان يُدير القرص يصير السُّكَيْرانُ الضاحك داخل السجن.

- وهو ما لا يبعث على الضحك، أليس كذلك؟ -قال أوسكار أمالفيتانو.

- لا، لا يبعث على الضحك -تنهّد تشارلي كروث.

- ومع ذلك فالسُّكَيْران (بالمناسبة لماذا تسميه سُكَيْران وليس سكران) كان يضحك، ربّما لأنّه لم يكن يعرف أنّه كان في سجن.

نظر تشارلي كروث لثوان، كانت روزا تتذكّر، إلى أبيها نظرة أخرى، كما لو أنّه يُريد أن يتكهّن إلى أين كان يُريد أن يجرّه. كان تشارلي كروث، كما سبق وقلنا، رجلاً هادئاً وللحقيقة لم يتبدّل هدوؤه، جبلّته الهادئة خلال تلك الثواني، لكن شيئاً حدث فعلاً داخل وجهه، كما لو أنّ العدسة التي كان يُراقب بها أباها، تتذكّرُ روزا، ما

عادت تنفع، وشرع، بهدوء، بتبديلها، العملية التي دامت أقلَّ من جزء من الثانية، لكنّ نظرته بقيت خلالها بالضرورة عارية أو فارغة، على كلّ الأحوال كانت نظرة فارغةً، فعدسة تُخَبّأ وأخرى توضع ولا يمكن للعمليتين أن تتمّا في آنٍ معاً، وخلال هذا الجزء من الثانية، الذي كانت روزا تتذكّره، كما لو أنّها هي من اخترعه، كان وجهُ تشارلي كروث فارغاً أو يفرغ، بسرعة، هي من جهة أخرى مدهشة، لنَقُلْ بسرعة الضوء، كي نأتي بتشبيه فيه مبالغة، ومع ذلك فهو تقريبيّ، وفراغ الوجه كان كاملاً، يتضمّن الشعر والأسنان، مع أنّنا حين نقول الشعر والأسنان أمام هذا الفراغ كأنّنا لا نقول شيئاً، والتقاسيم، التجاعيد، وشرايين الرأس الشعرية، المسامات، كلّها كانت تفرغ، ويبقى دون دِفاعاتٍ، كلّ شيء يحرز حجماً جوابه الوحيد، كانت تتذكّر روزا، يمكن فقط أن يكون الدُّوار أو الغثيان، لكنّه أيضاً لم يكن هذا.

- يضحكُ السُّكَيْران -قال أوسكار أمالفيتانو-. لأنّه يعتقد بأنّه طليق، لكنّه في الحقيقة في السجن - هنا تكمن، لنقل الظرافة، مما يجعلنا نستطيع القول بأن السُّكَيران يضحك لأنّنا نحن نعتقد أنّه في السجن، دون أن ندرك أنّ السجن في وجهٍ والسُّكَير في الوجهِ الآخر، وأن هذه هي الحقيقة، مهما جعلنا القرص يدور وبدا لنا أنّ السُّكَيران مسجون. عمليّاً نستطيع حتى أن نتكهّن بما كان يُضحك السُّكَيّران: تُضحكه سذاجتنا، إي أنّ عيوننا تُضحكه.

حدث بعد قليل شيءٌ أثّر بروزا كفايةً. كانت عائدة من الجامعة، ماشيةً، وفجأة سمعتهم يُنادونها. فتى بعمرها، رفيق دراسة، صفَّ سيارته وعرض عليها أن يقلّها إلى بيتها. قالت له، دون أن تصعد إلى السيّارة، إنّها تُفضّل أن تذهب لتتناول مرطّباً في مقهى قريب فيه هواء

مُكيّف. عرض الفتى عليها أن يُرافقها فقبلت روزا. صعدت إلى السيارة ودلّته إلى الشوارع التي عليه أن يذهب فيها. كان المقهى جديداً وواسعاً، على شكلِ حرف إل، على الطراز الأمريكي الشمالي مع صفوف من الطاولات ونوافذ طولية كبيرة من حيث كانت تدخل الشمس. بقيا برهة يتحدّثان عن أيّ شيء. بعدها قال الفتى إنّ عليه أن يذهب ونهض. تودّعا بقبلةٍ على الخدّ وطلبت روزا من النادلة أن تأتيها بفنجان قهوة. فتحت بعدها كتاباً عن التصوير الفنّي المكسيكي في القرن العشرين وراحت تقرأ الفصلَ المكرّس لِبالين. كان المقهى في تلك الساعة شبه فارغ، وتُسمع أصوات صادرة عن المطبخ، امرأة تنصح أخرى، خطوات النادلة التي كانت تقترب بين الفينة والأخرى بركوَةِ القهوة لتقدّم مزيداً من القهوة للزبائن القليلين المُتناثرين في المحلّ الواسع. فجأة أحدٌ لم تسمعْهُ يقتربُ قال لها: أنتِ عاهرة. أفزعها الصوتُ فرفعت نظرها وهي تُفكّر بأنّ المسألة تتعلّق بمزحة سيّئة الذوق أو بأنّهم خلطوا بينها وبين أخرى. بجانبها كان تشوتشو فلورِس. مرتبكة فقط استطاعت أن تقول له أن يجلس، لكنّ تشوتشو فلورِس قال لها دون أن يكاد يُحرّك شفتيه، أن تنهض وتتبعه. سألته إلى أين يريد أن يذهب. إلى البيت، قال لها تشوتشو فلورِس. كان يتصبّب عرقاً وكان وجهه محتقناً. قالت له روزا إنّها لا تُفكّر أن تتحرّك من هناك. عندئذ سألها تشوتشو فلورِس من ذاك الفتى الذي قبّلته.

- رفيقي في الجامعة - قالت روزا ولاحظت أنَّ يدي تشوتشو فلورِس ترتجفان.

- أنتِ عاهرة - عاد هذا وكرَّر.

راح بعدها يدمدم بشيء لم تفهم روزا في البداية، لكنّها فهمت بعدها أنّه تكرار للعبارة ذاتها: أنتِ عاهرة، نطقها مرّةً وأخرى شادّاً على أسنانه، كما لو أنّ لفظها كان يُكلّفه جهداً شاقّاً.

- هيّا بنا -صرخ تشوتشو فلورِس.

- لا، لن أذهب معك إلى أيّ مكان -قالت روزا والتفتت حولها لترى ما إذا كان هناك من انتبه إلى المشهد الذي كانا فيه. لكنّ أحداً لم يكن ينظر إليهما وهذا ما طمأنها.

- هل نمت معه؟ -سألها تشوتشو فلورِس.

لثوانٍ لم تعرف روزا عمّا كان يُكلّمها. بدا لها الهواء المُكيَّف أبردَ من اللازم، انتابتها رغبة بأن تخرج إلى الشارع وتترك الشمس تُلامسها. لو كانت تحمل معها كنزةً أو صدريّة لارتدتها.

- فقط أنام معك -قالت له محاولة أن تهدِّئَهُ.

- كذّابة -صرخ تشوتشو فلورِس.

أطلّت النادلة من الطرف الآخر من المقهى واقتربت منهما، لكنّها ندمت في منتصف الطريق ودخلت خلف طاولة العرض.

- لا تكن أحمق -قالت روزا ومرّت بنظرتها على المقال عن بالِين، لكنّها لم ترَ غير نملٍ أسود ثمّ عناكب سوداء على سطحٍ من ملح. كان النمل يصارع العناكب.

- هيّا بنا إلى البيت -سمعتْ تشوتشو فلورِس يقول. شعرت بالبرد.

حين رفعت نظرها رأت أنّه كان على وشك أن يبكي.

- أنتِ حبّي الوحيد -قال تشوتشو فلورِس-. أقدّم كلّ شيء لأجلك. أموت من أجلك.

بقيت ثوانٍ لا تعرف ماذا تقول. ربّما، فكّرتْ، حانت لحظة أن أقطع العلاقة.

- لستُ شيئاً من دونكِ -قال تشوتشو فلورِس-. أنت كلّ ما أملك. كلّ ما أحتاج. حلم حياتي أنتِ. إذا ضعتِ متُّ.

كانت النادلة تنظرُ إليهما من وراء طاولة العرض. على بعد عشرين

طاولة، شخص يشرب القهوة ويقرأ الصحيفة. كان يرتدي قميصاً قصير الكمّين وربطة عنق. بدا أنّ الشمس ترتعشُ في النوافذ.

- اجلسْ، أرجوك - قالت روزا.

أبعد تشوتشو فلورِس الكرسيَّ الذي كان يستند إليه وجلس. وعلى الفور غطّى وجهه بيديه ففكّرت روزا أنّه سوف يصرخ مرّة أخرى أو يبكي. يا له من مشهد، فكّرت.

- هل تريد أن تشربَ شيئاً؟

هزّ تشوتشو فلورِس رأسه بالإيجاب.

- فنجان قهوة - همس دون أن يرفعَ يديه عن وجهه.

نظرت روزا إلى النادلة ورفعت يدها كي تقترب.

- فنجانا قهوة - قالت.

- حاضر، يا آنسة - قالت النادلةُ.

- الشخص الذي رأيتني معه فقط صديق. بل ولا حتى صديق: رفيق جامعة. القبلة التي قبلني إيّاها كانت على خدّي. شيء طبيعي - قالت روزا -. هذه هي العادة.

- طبعاً، طبعاً - قال -. طبيعي، أعرفُ. اعذريني.

- عادت النادلة برَكوةِ القهوة وفنجان لِتشوتشو فلورِس. ملأت فنجانَ روزا أوّلاً ثمّ فنجان الرجل. عندما ذهبت نظرت إلى عيني روزا وعملت إشارة، أو هكذا فكّرت روزا لاحقاً. إشارة بالحاجبين. قوّستهما. لم تكن تتذكّر. لكنّها أرادت أن تقول لها شيئاً.

- اشرب قهوتك - قالت روزا.

- الآن - قال تشوتشو فلورِس، لكنّه بقي ساكناً ويداه تغطيان وجهه.

كان قد جلس رجل آخر بجانب الباب. كانت النادلة بجانبه ويتكلمان. كان الرجلُ يرتدي سترة رقيقة عريضة وبلوزة سوداء. كان

نحيلا ويبدو أنّ عمره يزيد عن الخامسة والعشرين. نظرت إليه روزا فانتبه في الحال إلى أنّها تنظرُ إليه، لكنّه شرب مرطِّبَهُ دون أن يولي الأمرّ أهمّية ودون أن يردَّ لها النظرة.

- تعارفنا بعد ثلاثة أيّام - قالت روزا.

- لماذا ذهبت إلى الملاكمة؟ - سألها فاتِ - هل تُحبّين الملاكمة؟

- لا، سبق وقلتُ لك إنّها المرّة الأولى التي أذهب فيها إلى عرضٍ من هذا النوع، لكن روزا هي التي أقنعتني.

- روزا الأخرى - قال فاتِ

- نعم، روزا مارتينِثْ - قالت روزا.

- لكنّك بعد المباراة كنتِ ستُمارسين الحبّ مع ذلك الرجل - قال فاتِ.

- لا - قالت روزا -. قبلتُ منه الكوكايين، لكن لم يكن في نيّتي أن أذهب معه إلى الفراش. لا أتحمّل الرجال الغيورين، لكنّه كان باستطاعتي أن أبقى صديقته. تكلّمنا عن ذلك بالهاتف ويبدو أنّه تفهّم الأمر. على كلّ الأحوال لاحظت عنده شيئاً غريباً. بينما كنّا ذاهبين في السيارة، باحثيْن عن مطعم، أرادني أن أمصّه له. قال لي: مصيه لي لآخر مرّة. أو ربّما لم يقله لي بهذه الطريقة، بهذه الكلمات. لكن هذا ما أراد أن يقوله على وجهِ التقريب. سألتُهُ عمّا إذا كان قد جُنَّ فضحك. أنا أيضاً ضحكتُ. بدا كلّ شيء مزاحاً. بقي في اليومين السابقين يهتف لي وحين لم يكن هو من يهتف، كانت تهتف لي روسيتا مِنْدِثْ وتعطيني رسالة منه. كانت تنصحني بألا أتركه. كانت تقول لي إنّه رجلٌ طيّب. لكنّني قلتُ لها إنّني أعتبر خطوبتنا أو أيّاً كان اسمها، مفسوخة.

- هو كان يعتبر أنَّ العلاقة بحكم المنتهية - قال فاتِ.

- كنّا قد تكلّمنا بالهاتف. وضّحتُ له إنّني لا أحبّ الرجالَ الغيورين. أنا لستُ كذلك -قالت روزا-، لا أتحمّل الغيرة.

- هو يعتبر أنّه خسرك -قال فاتِ.

- مُحتمل -قالت روزا-، وإلا ما كان ليطلب منّي أن أمصّه له. لم يفعل ذلك قط، وخاصّة في شوارع المركز، ولا حتى لو كان ليلاً.

- لكنّه أيضاً لم يكن يبدو حزيناً -قال فاتِ-، على الأقل لم يولّد عندي هذا الانطباع.

- لا، كان يبدو فرحاً -قالت روزا-. كان دائماً رجلاً فرحاً.

- نعم، هذا ما فكّرت به -قال فاتِ-، رجل فرح يريد أن يقضي ليلة هرج مع فتاته وأصدقائه.

- كان محشّشاً -قالت روزا-، لم يكن يتوقّف عن تناول الحبوب.

- لم يولّد عندي انطباعاً بأنّه كان محشّشاً -قال فاتِ-، شعرت عنده بشيء غريب، كما لو أنّ في رأسه شيئاً أكبر من اللازم. وكأنّه لا يعرف ماذا سيفعل بما في رأسه، حتى ولو انفجر هذا الشيء في النهاية.

- ولهذا بقيت؟ -سألت روزا.

- ممكن -قال فاتِ-، في الحقيقة لا أعرفُ، عليّ أن أكون الآن في الولايات المتحدة أو أكتب مقالتي ومع ذلك ها أنا ذا هنا، في فندق، أتكلّم معك. لا أفهم.

- لكن ألم تكن تريد أن تذهب إلى السرير مع صديقتي روزيتا؟ -سألت روزا.

- لا -قال فاتِ-. ولا بشكلٍ من الأشكال.

- هل بقيت لأجلي؟ -سألت روزا.

- لا أعرف -قال فاتِ.

كلاهما تثاءب.

- هل عشقتني؟ -سألت روزا بطبيعية مُخيفة.
- ربّما -قال فاتِ.

حين نامت روزا خلع لها حذاءها ذا الكعب العالي وغطّاها ببطانية. أطفأ الأنوار وبقي يتأمّل برهة عبر شفرات الستارة مرآبَ السيارات والمصابيح التي كانت تُنير الطريق. ارتدى بعدها السترة وخرج دون أن يُحدِث ضجّة. في مكتب الاستقبال كان عامل الاستقبال يُشاهد التلفزيون فابتسم له حين رآه يصل. تكلّما لبرهة عن برامج التلفزيون المكسيكية والأمريكية الشمالية. قال عامل الاستقبال إنّ البرامج الأمريكية الشمالية أفضل صناعة، لكنّ المكسيكية أظرف. سأله فاتِ عمّا إذا كان يوجد تلفزيون كابل. قال له عامل الاستقبال تلفزيون الكابل هو فقط للأثرياء واللوطيين. وإنّ الحياة الواقعية تظهر ويجب أن يُبحث عنها في القنوات المجانية. سأله فاتِ عما إذا لم يكن يعتقد أنّه ليس هناك في بعد كلّ حساب شيء مجّانيّ، فراح عامل الاستقبال يضحكُ وقال له إنّه يعرف إلى أين يُريد أن يصل، لكنّه لن يستطيع أن يقنعه بهذا، ثمّ سأله عمّا إذا كان لديه حاسوب يستطيع أن يُرسل عبره رسالة. نفى عامل الاستقبال بحركة من رأسه وراح يبحث في رزمة أوراق مكّدسة فوق المكتب، إلى أن وقع على بطاقة مقهى إنترنيت في سانتا تِرِسا.

- مفتوح طوال الليل -أعلمَهُ، وهو ما فاجأ فاتِ، فهو بالرغم من أنّه من نيويورك إلا أنّه لم يسمع قط بمقهى إنترنيت لا تُغلق أبوابها ليلاً.

كانت بطاقة مقهى إنترنيت سانتا تِرِسا حمراء غامقة، إلى حدّ أنّه كانت تصعب قراءة حروفها المطبوعة. على قفاها الأنعم حمرة رُسمت خريطة تشير إلى موقع المحلّ الدقيق. طلب من عامل الاستقبال أن

يُترجم له اسم المحلّ. ضحك عامل الاستقبال وقال له إنّه يُسمى نار، امشِ معي.

- يبدو عنوان فيلم لديفيد لينش -قال فات.

هزّ عامل الاستقبال كتفيه وقال إنّ المكسيك كلّه كولاج تكريم مختلف ومتنوّع جدّاً.

- كلّ شيء في هذا البلد تكريم لكلّ أشياء العالم، حتى لتلك التي لم تحدث بعد -قال.

راحا يتكلّمان بعد أن شرح له كيف يصل إلى مقهى الإنترنيت برهةً عن أفلام لينش. كان عامل الاستقبال قد رآها كلّها. فات لم يرَ منها غير ثلاثة أو أربعة أفلام. كان أفضل عمل للينش بحسب عامل الاستقبال هو مسلسله التلفزيوني «توين بيكس». بالنسبة إلى فاتِ ما أعجبه هو *الرجل الفيل*، ربّم لأنّه كثيراً ما شعر أنّه هكذا يرغب بأن يكون مثل الآخرين ومختلفاً عنهم في الوقت ذاته. عندما سأله عاملُ الاستقبال عمّا إذا كان يعرف أنّ مايكل جاكسون كان قد اشترى هيكل الرجل الفيل، هزّ فاتِ كتفيه وقال إنّ مايكل جاكسون كان مريضاً. لا أعتقد ذلك، قال عامل الاستقبال وهو ينظر إلى شيء يفترض أنّه مهم كان يحدث في تلك اللحظة في التلفزيون.

- أنا مع الرأي -قال ونظره عالق بالتلفزيون الذي لا يستطيع فاتِ أن يراه- القائل بأنّ مايكل يعرف أشياء نحن لا نعرفها.

- جميعنا نعرف أشياء نعتقد أنّ الآخرين لا يعرفونها -قال فاتِ.

قال له بعدها ليلة سعيدة ووضع بطاقة مقهى الإنترنيت في جيبه وعاد إلى غرفته.

بقي فات برهة طويلة والأضواء مطفأة، ينظر عبر ستائر النافذة إلى فناء الحصى وأنوار الشاحنات المتواصلة التي كانت تمرّ على الطريق.

فكّر بتشوتشو فلورِس وتشارلي كروث. عاد ليرى ظلّ بيت تشارلي كروث ساقطاً على الأرض القاحلة. سمع ضحكةَ تشوتشو فلورِس ورأى روزا مِنْدِثْ مستلقية على السرير في غرفة عارية وضيقة مثل صومعة راهب. فكّر بكورونا، بنظرة كورونا، بالطريقة التي نظر بها إليه كورونا. فكّر برجل الشارب الذي كان قد انضمّ إليهم في اللحظة الأخيرة ولم يكن يتكلّم، ثمّ تَذكّر، حين كانا هاربين، صوتَهُ الحادّ كصوت عصفور. حين تعب من الوقوف قرّب كرسيّاً من النافذة وبقي ينظر. كان يُفكّر أحياناً ببيت أمّه ويتذكّر فناءات إسمنتية كان يصرخ فيها الأطفال ويلعبون. إذا ما أغمض عينيه استطاع أن يرى فستاناً أبيض كانت ريح شوارع هارلم ترفعه بينما الضحكات القاهرة تتبعثر على الجدران وتجوب الأرصفة، الرطبة والدافئة مثل الفستان الأبيض. شعر بالنوم يدخل من أذنيه أو يصعد من صدره. لكنّه لم يكن يُريد أن يُغمِضَ عينيه ويُفضّل أن يبقى يسبر الفناء،، المصباحين اللذين كانا يُنيران واجهة الموتيل، الظلال التي كان بريق أضواء السيارات يفتحها، مثل ذيول نيازك في المحيط المظلم.

كان يلتفت أحياناً برأسه ويرى روزا نائمة. لكنّه في المرّة الثالثة أو الرابعة أدرك أنّه لم يعد هناك حاجة كي يلتفت. ببساطة لم يعد هناك حاجة. فكّر لثانية أنّه لن يشعر بالنعاس بعد الآن أبداً. فجأة وبينما هو يتابع أثر أضواء السيارات التي تبدو منهمكة في سباق، رنّ الهاتف. حين رفع السماعة سمع صوت عامل الاستقبال وعرف في الحال أنّ هذا ما كان ينتظره.

- يا سيّد فاتِ -قال عامل الاستقبال- هتفوا لي توّاً سائلين عمّا إذا كنت نازلاً هنا.

سأله من الذي هتف له.

- شرطيّ، يا سيّد فاتِ -قال عامل الاستقبال.

- شرطيّ؟ شرطيّ مكسيكي؟
- تكلّمتُ معه توّاً. كان يريد أن يعرف ما إذا كنتَ نزيلنا.
- وأنتَ ماذا قلتَ له؟ -سأله فاتِ.
- الحقيقة أنّك كنت هنا، لكنّك غادرت -قال عامل الاستقبال.
- شكراً -قال فاتِ وأغلق الهاتف.

أيقظ روزا وقال لها أن تنتعل حذاءها. خبّأ الأشياء القليلة التي كان قد أخرجها ووضع الحقيبة في صندوق الأمتعة. كان الطقس في الخارج بارداً. حين عاد ودخل إلى الغرفة كانت روزا تُسرّح شعرها في الحمّام فقال لها إنّه ليس لديهما وقت لهذا. صعدا إلى السيارة وتوجّها إلى مكتب الاستقبال. كان عامل الاستقبال واقفاً ويُنظّف بطرف قميصه نظارته الطبّية. أخرج فات ورقة نقدية من فئة الخمسين دولاراً ووضعها على المكتب.

- إذا جاؤوا، قلْ لهم إنّني غادرتُ إلى بلدي -قال له.
- سيأتون -قال عامل الاستقبال.

حين توجّه إلى الطريق سأل روزا عمّا إذا كانت تحمل معها جواز سفرها.

- طبعاً لا -قالت روزا.

- الشرطة تبحث عنّي -قال فاتِ، وحكى لها ما كان قد قاله له عامل الاستقبال.

- ولماذا أنت متأكّد من أنّها كانت الشرطة -سألت روزا-. ربّما كان كورونا، وربّما تشوتشو.

- بلى -قال فاتِ-، ربّما كان تشارلي كروث أو ربّما كانت روزا مِنْدِث مُقلِّدةً صوتَ رجل، لكنّني لا أُفكّر بالبقاء كي أتحقّق من ذلك.

دارا في الشارع ليتأكّدا مما إذا كانوا ينتظرونهما، لكن كلّ شيء

كان ساكناً (سكون الزئبق أو شيءٍ يستهلّ زئبقَ فجر على الحدود)، وعند الدورة الأولى صفا السيارة تحت شجرةٍ، أمام بيت أحد الجيران. بقيا برهة داخل السيارة، متيقّظين لأي إشارة، لأيّ حركة. حين عبرا الشارع راعيا أن يفعلا ذلك بعيداً عن أضواء المصابيح. قفزا بعدها فوق السياج وتوجّها مباشرة إلى الفناء الخلفي. بينما كانت روزا تبحث عن المفاتيح راح فات ينظر إلى كتاب الهندسة المعلّق إلى أحد حبال الغسيل. اقترب منه ولمسه برؤوس أصابعه، دون أن يُفكر. سأل بعدها روزا، ليس كي يعرف بل كي يُخفّض ضغطه، ماذا كانت تعني *الوصيّة الهندسيّة* فترجمتها له روزا دون أن تضيف أيّ تعليق.

– شيء غريب أن يُعلّق أحدٌ كتاباً كما لو أنّه قميص –تمتم.

– أشياء أبي.

كان للبيت على الرغم من أنّه مشترك بين الأب وابنته، جوّ أنثوي واضح. كانت تفوح منه رائحة بخورٍ وتبغٍ أشقر. أشعلت روزا مصباحاً، تركا نفسيهما يسقطان برهة على كرسيين مغطيين ببطانيتين مكسيكيتين متعدّدتي الألوان، دون أن ينبسا بكلمة واحدة. حضّرت روزا بعدها قهوة وبينما هي في المطبخ رأى فاتِ أوسكار أمالفيتانو يظهر عبر أحد الأبواب حافياً ومنكوش الشعر، مرتدياً قميصاً أبيض مجعّداً جدّاً وبنطلونَ جينز، كما لو أنّه نام دون أن يخلع ملابسه. تبادلا لبرهة النظرات دون أن ينبسا بكلمة واحدة، كما لو أنّهما نائمين وراح حلماهما يتدفقان في مكان مشترك، ومع ذلك فهو غريب عن أي معنى. نهض فاتِ وقال اسمه. سأله أمالفيتانو عمّا إذا كان لا يعرف التكلّم بالإسبانيّة. اعتذر فاتِ وابتسم وكرّر أمالفيتانو سؤاله بالإنكليزية.

– أنا صديق ابنتك –قال فاتِ–، هي دعتني للدخول.

وصلت صوتُ روزا من المطبخ، تقول لأبيها بالإسبانيّة ألاّ يقلق، فالأمر يتعلّق بصحفيّ من نيويورك. ثمّ سألته عمّا إذا كان هو أيضاً يُريد قهوة، فأجابها أمالفيتانو بالإيجاب دون أن يتوقّف عن النظر إلى

المجهول. حين ظهرت روزا ومعها صينية، ثلاثة فناجين قهوة، إبريق حليب صغير وسكّرية، سألها أبوها ما الذي كان يجري. في هذه اللحظة قالت روزا، أعتقد لا شيء، لكن في هذه الليلة حدثت أشياء غريبة. نظر أمالفيتانو إلى الأرض، تفحّص قدميه الحافيتين ووضع حليباً وسكّراً لقهوته وطلب من ابنته أن توضّح له كلَّ شيء. نظرت روزا إلى فاتِ وترجمت له ما انتهى أبوها من قوله. ابتسم فات وعاد ليجلس على الكرسيّ. أخذ فنجانَ قهوة وراح يشرب منه رشفات صغيرة، بينما راحت روزا تحكي لأبيها بالإسبانية، ما حدث في تلك الليلة. بدءاً من مباراة الملاكمة وحتى اللحظة التي اضطرت فيها لأن تُغادر موتيل الأمريكي الشمالي. حين انتهت روزا من روايتها بدأ الفجر يطلع واقترح أمالفيتانو، الذي لم يُقاطع ابنته تقريباً، أن يهتفا للموتيل ويتأكّدا من عامل الاستقبال مما إذا ظهرت الشرطة هناك أم لا. ترجمت روزا لِفاتِ ما اقترحه أبوها فأدار هذا القرص على رقم موتيل لاس بريساس مجاملة أكثر منه قناعة. . لم يجب أحدٌ. نهض أوسكار أمالفيتانو عن كرسيّه وأطلّ من النافذة. بدا الشارع ساكناً. الأفضل أن تذهبا، قال. نظرت إليه روزا دون أن تنبس بكلمة.

- تستطيع أن تخرجها إلى الولايات المتحدة ثمّ ترافقها إلى المطار وتضعها في طائرة متجهة إلى برشلونة.

قال فاتِ إنّه يستطيع ذلك. غادر أوسكار أمالفيتانو النافذة واختفى في غرفته. حين عاد سلّم روزا رزمة أوراق نقدية. ليس كثيراً لكنّه سيكفي لتغطية ثمن البطاقة ولأيامك الأولى في برشلونة. أنا لا أريدُ أن أذهب، يا أبي، قالت روزا. أعرف، أعرفُ، قال أمالفيتانو وأجبرها على أن تأخذ النقود. أين جواز سفرك؟ اذهبي وابحثي عنه. جهّزي حقيبتك. لكن بسرعة، قال ثمَّ عاد بعدها إلى مكانه في النافذة. ميَّز خلف سيارة سبيرت الجار المقابل، ميّز سيّارةَ البريغرينو السوداء التي

كان يبحث عنها. تنهّد. ترك فات القهوة على الطاولة واقترب من النافذة.

- بودّي أن أعرف ماذا يجري -قال فاتِ. كان صوته قد جُشّ.

- أخرج ابنتي من هذه المدينة ثمّ انسَ كلَّ شيء. أو الأفضل، لا تنسَ شيئاً، لكن المهمّ هو أن تُبعد ابنتي عن هذا المكان.

عندها تذكّر فات موعده مع غوادالوبِّ رونكال.

- هل هي مسألة جرائم القتل؟ -قال-. هل تعتقد أنّ تشوتشو فلورِس هذا متورّط في القضيّة؟

- الجميع متورّطون -قال أمالفيتانو.

نزل شخص شاب وطويل يرتدي بنطلون جينز أزرق وسترة قطنيّة من البريغرينو وأشعل سيجارة. نظرت روزا من فوق كتف أبيها.

- من يكون؟ -سألت.

- ألم يسبق لك أن رأيته أبداً؟

- لا، أظنّ لا.

- إنّه شرطي تحقيق -قال أمالفيتانو.

أخذ بعدها ابنتَهُ من يدها وجرّها إلى غرفتها. أغلقا الباب. اعتقد فاتِ أنّهما يودّعان بعضهما بعضاً وعاد لينظر من النافذة. كان صاحب البريغرينو يُدخّن مستنداً إلى غطاء محرّك السيارة. يراقب السماء التي كانت في كلّ مرّة أكثر جلاءً. بدا مطمئنّاً، بلا عجلة ولا انشغالات، سعيداً لأنّه يتأمل فجراً آخر في سانتا تِرِسا. خرج من أحد بيوت الجيران رجل وأدار مُحرّك سيارته. رمى رجل البريغرينو عقب سيجارته على الرصيف ودخل في سيارته. لم ينظر مرّةً واحدة باتجاه البيت.

حين خرجت روزا من الغرفة كانت تحمل حقيبة صغيرة في يدها.

- كيف سنخرج؟ -أراد فاتِ أن يعرف.

- من الباب -قال أمالفيتانو.

رأى فات بعدها، كما لو في فيلم لا يفهمه كلّياً، لكنّه يحيله بشكل غريب إلى موتِ أمّه، كيف كان أمالفيتانو يُقبّلُ ويُعانق ابنته ثمّ رآه يخرج ويسير بعزيمة إلى الشارع. رآه أولاً يسير في الفناء الأمامي، ثمّ رآه يفتح البابَ الخشبيَّ، الذي كان بحاجة إلى طلاء، رآه بعدها يعبر الشارع، حافياً، منكوش الشعر حتى سيارة البريغرينو السوداء. حين وصل إلى هناك أنزل الرجل زجاج النافذة وتكلّما برهةً. أمالفيتانو في الشارع والشاب داخل سيارته. يعرف بعضهما بعضاً، فكّر فاتِ، ليست المرّة الأولى التي يتكلّمان فيها.

- حانت الساعة، هيّا بنا -قالت روزا.

تبعها فاتِ. عبرا الحديقة والشارع فعكس جسداهما ظلاً نحيلاً إلى أقصى الحدود، كانت تهزّه في كلّ خمس ثوان رعشة، كما لو أنّ الشمس تدور بالعكس. حين دخلا السيارة ظنّ فاتِ أنّه سمع ضحكةً خلفه فالتفت، لكنّه لم يرَ غير أمالفيتانو والشابّ ما يزالان يتحادثان بالوضعية السابقة ذاتها.

لم تتأخّر غوادالوبٌ رونكال وروزا أمالفيتانو نصف دقيقة في أن تتحمّل كلّ منهما آلامها. عرضت الصحفية أن ترافقهما حتى توكسون. قالت روزا ليس ضرورياً أن نُبالغ. تجادلتا برهة. بينما هما تتكلّمان بالإسبانية نظر فاتِ من النافذة، لكن كلّ شيء كان طبيعياً حول فندق سونورا رِسورت. لم يعد هناك صحفيون، ما عاد أحدٌ يتكلّم عن مباريات الملاكمة وبدا كما لو أنّ النُّدُلَ استيقظوا من سبات طويل وكانوا أقل لطفاً، كما لو أنّ الاستيقاظ لم يكن برضاهم. هتفت روزا من الفندق إلى أبيها. رآها فاتِ تبتعدُ باتجاه مكتب الاستقبال ترافقها غوادالوبٌ رونكال دخّن، بينما هو ينتظر عودتهما، سيجارةً وسجّل بعض الملاحظات للمقال الذي لم يكن قد أرسله بعد. مع ضوء النهار

بدت أحداث الليلة السابقة غير واقعية وتكتسي خطورة صبيانية. رأى فاتِ في تيار أفكاره زميل التدرّب عمر أبدول وزميل التدرب غارثيّا. تصوّرهما يُسافران في حافلة حتى الشاطئ. رآهما يهبطان من الحافلة. رآهما يخطوان بضع خطوات بين بعض الجنبات على الرمل، ريح الحلم تجرف حبات رمل راحت تلتصق بوجه. حمام ذهبي. يا للسلام. فكّر فاتِ. كم هو بسيط كلّ شيء. ثمَّ رأى الحافلة وتخيّل أنّها سوداء اللون، مثل سيّارة جنائزية هائلة. رأى ابتسامةَ أبدول المتعجرفة، وجهَ غارثيّا الجهم، وشومَهُ الغريبة وفجأة سمع قرقعة الصحون المكسّرة، لم تكن كثيرة، أو دويّ صناديق كانت تسقط على الأرض، عندها فقط انتبه فاتِ إلى أنّه كان يغفو فبحث بنظره عن نادل كي يطلب منه فنجان قهوة آخر، لكنّه لم يرَ أحداً. كانت غوادالوبّ رونكال وروزا أمالفيتانو ما تزالان تتكلّمان بالهاتف.

- الناس طيّبون، ظرفاء، ومضيافون، المكسيكيون شعب عامل، عندهم فضول هائل تجاه كلّ شيء، يهتمّون بالناس، شجعان وكرماء، حزنهم لا يقتل بل يمنح حياة - قالت روزا أمالفيتانو حين عبروا الحدود مع الولايات المتحدة.

- هل ستشتاقين إليهم؟ - سأل فاتِ.

- سوف أشتاق لأبي وسأشتاق للناس - قالت روزا.

حين كانوا ذاهبين في السيارة باتجاه سجن سانتا تِرِسا، قالت لها روزا إنّه لا أحد في بيت أبيها يرفع السماعة، هتفت روزا إلى بيت روزا مارتينِثْ. ولم يكن هناك أحد أيضاً. أظنّ أن روزا ميتة، قالت. هزّ فاتِ رأسه كما لو أنه يصعب عليه أن يُصدّق ذلك.

- ما زلنا أحياء - قالت.

- أحياء لأنّنا لم نرَ ولا نعرف شيئاً - قالت روزا.

كانت سيّارة الصحفية تمضي أمامهما. وهي سيارة ليتل نيمو صفراء اللون. كانت غوادالوبّ رونكال تقود بحذر، مع أنّها كانت تتوقّف من حين لآخر، كما لو أنّها لا تتذكّر بالضبط الطريقَ. فكّر فاتِ أنّه ربّما كان من الأفضل أن يكفّ عن اتباعها وأن يتوجّه مباشرة إلى الحدود. حين اقترح ذلك عارضته روزا بطريقة حازمة. سألها عمّا إذا كان لها أصدقاء في المدينة. قالت روزا إنّه ليس عندها أيّ صديق. هناك تشوتشو فلورِس وروزا مِنْدِتْ وتشارلي كروث، هو لا يعتبرهم أصدقاء، أليس صحيحاً؟

- لا، هؤلاء ليسوا أصدقاء - قال فاتِ.

رأوا علماً مكسيكياً يرفرف في الصحراء، على الجانب الآخر من الحدود. نظر أحد شرطيي الجمارك إلى فاتِ وروزا بتمعّن. تساءل ماذا تفعل شابّة بيضاء بل وجميلة جدّاً برفقة زنجيّ. أبقى فاتِ نظره ثابتاً على نظره. صحفيّ؟، سأل الشرطي. أكّد فات بحركة من رأسه. سمكة قرش، فكّر الشرطيّ. لا بدّ أنّه يصفعها في كلّ ليلة. إسبانية؟ ابتسمت روزا للشرطيّ. ظلّ من خيبة أمل عبر وجهَ الشرطيّ. حين حرّكا السيارة اختفى العلم ولم يعد يُرى غير السياج وبعض الجدران حول بعض عنابر البضائع.

- المشكلة هي الحظّ السيّئ - قالت روزا.

لم يسمعها فاتِ.

بينما كانا ينتظران في صالة بلا نوافذ، شعر فاتِ بأنّ قضيبه راح يقسو في كلّ مرّة أكثر. فكّر للحظة أنّه لم يحدث معه انتصاب منذ وفاة أمّه، لكنّه استبعد بعد ذلك الفكرة، من المستحيل ألا يكون قد حدث ذلك طوال هذا الوقت، فكّر، لكنّ بلى كان ممكناً، ما لا محالة ممكن، لماذا إذن لن يكون ممكناً ألا يروي الدم قضيبه خلال فترة من

الزمن، هي من ناحية أخرى قصيرة؟ نظرت إليه روزا أمالفيتانو. كانت غوادالوبِّ رونكال مشغولة بملاحظاتها ومسجِّلتها، جالسة على كرسي مُثبّت إلى الأرض. كانت تصل من حين إلى آخر أصوات عادية من السجن. أسماء منطوقة بصوت عالٍ، موسيقى مخفّتة، خطوات تبتعد. جلس فاتِ على مقعد خشبيّ وتثاءب. تخيّل ساقي روزا على كتفيه. رأى مرّة أخرى غرفته في موتيل لاس بريساس وتساءل عمّا إذا مارس الحبّ أم لا. طبعاً لا، قال لنفسه. سمع بعدها بعض الصرخات، كما لو أنّهم كانوا يحتفلون في إحدى قاعات السجن بوداع العزوبية. فكّر بجرائم القتل. سمع ضحكات بعيدة. زمجرات. سمع غوادالوبِّ رونكال تقولُ شيئاً لروزا وهذه تردّ عليها. أخذه النعاس فرأى نفسه نائماً بوداعة على كنبة في بيت أمّه، في هارلم، والتلفاز مشتعل. سأنام نصفَ ساعةٍ، قال لنفسه، وسأعود بعدها إلى العمل. عليّ أن أكتب وقائع مباراة الملاكمة. عليّ أن أسوق الليلَ بطوله. حين يطلع الفجر سيكون كلّ شيء منتهياً.

حين خلّفا الحدودَ وراءهما بدا السياح القليلون الذين رأوهما في شوارع أدوبِ نياماً. امرأة تقارب السبعين ترتدي فستاناً مزهراً وتنتعل حذاءً ماركة نايك، كانت على ركبتيها تفحص بعض السجاجيد الهندية[1]. كانت تعلوها ملامح رياضية نشيطة في أربعينيات القرن. ثلاثة أطفال يمسك بعضهم بأيدي بعض يتأملون أشياء كانت معروضة في الواجهة. كانت الأشياء تتحرّك بشكل غير محسوس، لكنّ فات لم يستطع أن يعرف ما إذا كانت حيوانات أم اختراعات ميكانيكية. بجانب بار هناك بعض الرجال تعلوهم ملامح أمريكيين من أصل مكسيكيّ، يعتمرون قبّعات رعاة بقر يؤشّرون ويشيرون إلى اتجاهات متناقضة.

(١) دائما حين يرد ذكر الهنود يقصد بهم هنود أمريكا (الهنود الحمر).

على الرصيف في نهاية الشارع بعضُ العنابر الخشبية والحاويات المعدنية وخلفها الصحراء. كلّ هذا مثل حلمٍ آخرَ، فكّر فات. بجانبه رأس روزا يرتاح مباشرة على المقعد وعيناها الكبيرتان تبقيان ثابتتين على نقطة في الأفق. تأمّل فاتِ ركبتيها، اللتين بدتا له تامّتين ثم وركيها، ثمَّ كتفيها ثمّ لوحي كتفيها، اللذين بدا كأنّ لهما حياتهما الخاصّة، حياة غامضة، عالقة لا تُطلّ إلا بين الفينة والأخرى. ركّز بعدها على السواقة. الطريق الذي كان يخرج من أدوبِ كان يدخل في نوع من إعصارٍ بألوان المغرة.

- ما الذي حدث لِغوادالوبِّ رونكال؟ -قالت روزا بصوتٍ ناعِس.

- لا بدّ أنّها في هذه الساعة تطير في طريقها إلى بيتها -قال فاتِ.

- يا للغرابة -قالت روزا.

أيقظه صوتُ روزا.

- اسمَعْ -قالت له.

فتح فاتِ عينيه، لكنّه لم يسمع شيئاً. كانت غوادالوبِّ رونكال قد نهضت وأصبحت الآن بجانبهما، عيناها جاحظتان كما لو أنّ أسوأ كوابيسها قد تجسّدت. اقترب فاتِ من الباب وفتحه. كانت إحدى ساقيه مُنَمَّلة، ولا يتمكّن بعدُ من أن يستيقظ تماماً. رأى ممرّاً وفي نهاية الممرّ درجاً إسمنتياً غير مُلبّسٍ. كما لو أنّ البنّائين تركوه دون إنهاء. كان الممرّ مضاءً بشكل ضعيف.

- لا تذهب -سمع روزا تقول له.

- لنغادر هذا الفخّ -اقترحت غوادالوبِّ رونكال.

ظهر في عمق الممر موظّف سجون وتوجّه نحوهم. أبرز فاتِ بطاقته الصحفيّة. وافق الموظّف بحركة من رأسه دون أن ينظر إلى

البطاقة وابتسم لِغوادالوبِّ رونكال التي بقيت مطلّة من الباب. أغلق الموظّف بعدها البابَ وقال شيئاً عن عاصفة. ترجمته له روزا هامسة في أذنه. عاصفة رملية أو عاصفة مطرية أو عاصفة كهربائية. غيوم مرتفعة كانت تهبط من الجبال ولم تكن تُفرّغ حمولتها فوق سانتا تِرِسا، لكنّها كانت تُساهم في تسويد البانوراما. صباح كلاب. السجناء دائماً يُصابون بنوبات عصبية، قال الموظّف. كان رجلاً شابّاً بشارب خفيف، ربّما كان بديناً قليلاً بالنسبة إلى عمره، وكان يلاحظ عليه أنّه لا يُحبّ عمله. الآن يأتون بالقاتل.

يجب أن نأخذ برأي النساء. الأفضل ألا نشيح بسمعنا عن مخاوف النساء. تذكّر فاتِ شيئاً من هذا القبيل كانت تقوله أمّه أو الآنسة المرحومة هولي، جارة أمّه، حينا كانتا شابّتين وكان هو طفلاً. تصوّر للحظة ميزاناً، شبيهاً بالميزان الذي بين يدي العدالة العمياء، مع فارق وحيد هو أنّ كفّتيّ هذا الميزان فيهما زجاجتان أو شيء شبيه بالزجاجتين. لنسّمها هكذا زجاجة اليسار كانت شفافة وكانت مليئة برمل الصحراء. فيها عدد من الثقوب يتسرّب منها الرمل. زجاجة اليمين كانت مليئة بالحمض. لم يكن في هذه أيّ ثقب، لكنّ الحمض كان ينخر الزجاجة من الداخل. في الطريق إلى توكسون لم يكن فاتِ قادراً على التعرّف على أيّ من الأشياء التي كان قد رآها قبل أيّام، حين قطع الطريقَ ذاته في الاتجاه المعاكس. ما كان من قبل على اليمين صار الآن على اليسار ولا أستطيع أن أتخذ أيّ شيء كنقطة علاّمة. كل شيء ممحو. توقّفوا عند الظهيرة في مقهى على جانب الطريق. مجموعة من المكسيكيين تعلوهم ملامح العمال المياومين العاطلين عن العمل راحوا يراقبونهم من طاولة العرض. كانوا يشربون مياهاً معدنية ومرطبات من المنطقة بدت زجاجاتها وأسماؤها غريبةً لفاتِ. شركات جديدة لن تلبث أن تختفي. كان الطعامُ سيّئاً. كانت روزا نعسانةً فنامت حين عادا

إلى السيارة. تذكّر فاتِ كلماتِ غوادالوبٌ رونكال. لا أحد يولي اهتماماً بجرائم القتل هذه، مع أنّ فيها يكمن سرُّ العالم. هل قالته غوادالوبٌ رونكال أم روزا؟ كان الطريق يُشبهُ للحظاتٍ نهراً. قالها القاتلُ المزعوم، فكّر فاتِ. العملاق الأمهق اللعين الذي ظهر مع السحابة السوداء.

حين سمع فاتِ الخطوات تقترب ظنّ أنّها خطوات عملاق. لا بدّ أنّ غوادلوبَّ، التي قامت بحركة إغماء، فكّرت بشيء مشابه ومرّت وبدل أن يُغمى عليها تشبّثت بيد وتلابيب موظّف السجون، الذي وبدل أن يبتعد مرّ بذراعه على كتفها. شعر فاتِ بجسد روزا إلى جانبه. سمع أصواتاً. كما لو أنّ السجناء يهزّون أحداً. سمع ضحكاتٍ ودعوات للانضباط مرت بعدها السحب السوداء التي كانت قادمة من الشرق فوق السجن وبدا أنّ الهواء يُعتِم. استؤنفت الخطواتُ. سُمعت ضحكاتٌ ومطالبات. فجأةً بدأ صوتٌ يُرنّم أغنية. كان التأثير شبيهاً بتأثير حطّابٍ يقطع الأشجار. لم يكن الصوتُ يُغنّي بالإنكليزية. لم يستطِعْ فاتِ في البداية أن يُحدِّد اللغة التي كان يُغني بها، إلى أن قالت روزا، التي كانت بجانبه، إنّها ألمانية. ارتفعت نبرةُ الصوت. خطر لِفات أنّه ربّما كان يحلم. كانت الأشجار تتهاوى الواحدةُ بعد الأخرى. أنا عملاقٌ ضائع وسط غابةٍ محروقة. لكن لا بدَّ أن يأتي أحدٌ لإنقاذي. ترجمت روزا شتائم المشتبه به الأساسي. حطّابٌ مُتعدّد اللغات، فكّر فاتِ، فهو يتكّلم بالإنكليزية، ثمّ لا يلبث أن يتكلّم بالإسبانية وُغني بالألمانية. أنا عملاق ضائعٌ وسط غابةٍ مُتفحّمة. ومع ذلك لا أحد يعرف مصيري غيري. وعندئذ عادت خطواتُ وضحكات وصخب وكلمات تفريج السجناء والسجّانين الذين يحرسون العملاق. ثمَّ رأوا شخصاً ضخماً شديد الشقرة يدخل إلى قاعة الزيارات حانياً رأسه، كما لو أنّه يخاف أن يرتطم رأسه بالسقف ويبتسم كما لو أنّه ارتكب توّاً إحدى شيطناته،

يُغنّي أغنية الحطّاب الضائع وينظر إليهم جميعاً نظرة ذكية وساخرة. سأل بعدها السجّانُ، الذي كان يُرافقه، غوادالوبٌ رونكال عمّا إذا كانت تُفضّل أن يقيّده إلى الكرسيّ فهزّت غوادالوبٌ رونكال رأسها بالنفي، فربت السجّان ربتة على كتف الرجل الطويل وغادر وكذلك غادر الموظّفُ الذي كان مع فاتِ والمرأتين، لكن ليس قبل أن يهمس شيئاً في أذن غوادالوبّ رونكال وبقوا وحدهم.

- صباح الخير -قال لهم العملاق بالإسبانية. جلس ومطّ ساقيه تحت الطاولة حتى ظهرت قدماه على الجانب الآخر منها.

كان ينتعل حذاءً رياضياً أسود اللون ويلبس جوربين أبيضين. تراجعت غوادالوبٌ رونكال خطوة.

- اسألوا ما يحلو لكم -قال العملاقُ.

رفعت غوادالوبٌ يداً إلى فمها، كما لو أنّها تستنشق غازاً سامّاً ولم تعرف ماذا تسأل.

قسم الجرائم

ظهرت المقتولةُ في خلاءٍ صغير من ضاحية لاس فلورِس. كانت ترتدي قميصاً أبيضَ طويلَ الكمّين وتنورةً صفراء اللون حتى الركبتين، مقاس كبير. عثر عليها بعضُ الأطفال الذين كانوا يلعبون في الخلاء فأخبروا آباءهم. هتفت أمٌّ واحد منهم إلى الشرطة، التي حضرت بعد نصف ساعة. كان الخلاءُ يُطل على شارع بِلايث وشارع الأخوين تشاكون يضيع بعدها في ساقية ترتفع خلفها جدران مزرعة بقر حلوب مهجورة وصارت أطلالاً. لم يكن في الشارع أحد، مما جعل الشُّرطيين يعتقدان للوهلة الأولى أنّها كانت مزحة. ومع ذلك أوقفا سيارة الدورية في شارع بِلايث ودخل وتوغّل في الخلاء. اكتشف بعد برهةٍ قصيرة امرأتين مُغَطاتَيّ الرأس، راكعتين بين الأعشاب البرية تُصليان. كانت المرأتان تبدوان من بعيد عجوزين، لكنّهما لم تكونا كذلك. كانت الجثّة ترقد أمامهما. عاد الشرطي على أعقابه دون أن يُقاطعهما ونادى مومئاً لرفيقه الذي كان ينتظره وهو يدخن داخل السيارة. عادا بعدها (أخرج واحدُ منهما، الذي لم يكن قد نزل من السيارة، المسدس من غمده) إلى حيث كانت المرأتان وبقيا واقفين بجانب هاتين يُراقبان الجثّة. سأل الذي كان يحملُ المسدس في يده عمقبلها جرائم تعرفانها. لا، يا سيّد، قالت إحدى المرأتين. لم يسبق لنا أن رأيناها. هذه المخلوقة ليست من هنا.

حدث هذا في عام ١٩٩٣. في كانون الأوّل من عام ١٩٩٣. بدءاً من هذه المقتولة بدأ إحصاءُ جرائم قتل النساء. لكن من المحتمل أنّ تكون قد وُجِدَت قبلها جرائم أخرى. المقتولة الأولى كانت تُدعى إسبِرانثا غومِثْ سالدانيا وكانت في الثالثة عشرة من عمرها. لكن من المحتمل ألاّ تكون المقتولة الأولى في العام ١٩٩٣، لكنّها تتصدّر القائمة. مع أنّه لا شكّ أنّ أُخريات قُتِلْنَ في عام ١٩٩٢. أخريات بقين خارج القائمة، أو لم يُعثر عليهنّ قط، وقد قُبِرْنَ في مقابر جماعية في الصحراء أو نثر رمادُهنّ وسط الليل، في الوقت الذي لا يعرف ولا حتى الذي ينثره ما هو المكان الذي هو فيه.

كانت معرفة هويّة إسبِرانثا غومِثْ سالدانيا سهلة نسبياً. نُقِلَت الجثّةُ أوّلاً إلى أحد من مخافرِ سانتا تِرِسا الثلاثة، حيث رآها قاضٍ وفحصها شرطيون آخرون والتقطوا لها صوراً. بعد برهة، وبينما سيارة إسعاف تنتظر في الخارج، وصل بِدرو نِغْرِتِ، قائدُ الشرطة، يتبعه مساعدَيْن له، وشرع في فحصها مرّة أخرى. اجتمع بعد الانتهاء مع القاضي وثلاثة شرطيين كانوا ينتظرونه في مكتبٍ وسألهم ما الاستنتاجات التي خلصوا إليها. الخنق، قال القاضي، أوضحُ من نور الشمس. اكتفى الشرطيون بهزِّ رؤوسهم بالموافقة. هل عُرِفَ هويّتها؟ سأل قائدُ الشرطة. قال الجميع لا. حسن، سوف نحقّق في ذلك، قال بِدرو نِغْرِتِ وغادرَ مع القاضي. بقي مساعِدُهُ في المخفر وطلب أن يأتوه بالشرطيين اللذين عثرا على المقتولة. عادا إلى دوريتهما. ائتوني بهم، يا أوغاد، قال. أُخذت الجثّةُ بعدها إلى مستودع الجثث في مشفى المدينة، حيث قام الطبيبُ الشرعيُّ بتشريحها. بحسب التشريح، كانت إسبِرانثا غومِثْ سالدانيا ماتت خنقاً. كانت تَظهر عليها كدمتان في ذقنها وفي عينها اليسرى. كدمات قويّة في ساقيها وعلى أضلاع قفصها الصدري. وكانتْ قد اغتُصِبت فرجاً ودبراً، ربّما أكثرَ من مرّةٍ، فكلا الفتحتين كانت تظهر

تمزّقات وخدوشاً، نزفت منها كثيراً. في الثانية صباحاً أنهى الطبيبُ الشرعي التشريحَ وغادر. أخذ ممرِّضٌ زنجيّ، كان قد هاجر قبل سنوات من بِراكروث إلى الشمال، الجثّةَ ووضعها في برّاد.

قبل خمسة أيّامٍ من انتهاءِ شهر كانون الثاني، خُنِقت لويسا ثِلينا باثكِثْ. كانت في السادسة عشرة من عمرها، ممتلئةَ الجسم، بيضاءَ البشرة وحاملاً في شهرها الخامس. كان الرجل الذي تعيش معه وصديقُهُ متفرغين لسرقات صغيرة من حوانيت ومخازنِ الأدوات المنزلية الكهربائية. هرعت الشرطة مستنفرة بإبلاغٍ من الجيران في البناء، القائم في جادة روبن داريّو، في ضاحية مانثِرا. وجدوا بعد أن خلعوا البابَ لويسا ثِلينا باثكِثْ مخنوقةً بكبلِ تلفزيون. قاموا في تلك الليلة بالقبض على عشيقها، ماركوس سِبولبِدا وشريكه إثكييلْ رومِرو. حُبِسَ الاثنان في ملحقات المخفر رقم ٢ وأخضِعا إلى تحقيقٍ دامَ الليلَ بطوله، قاد التحقيقَ مساعدُ قائد شرطة سانتا تِرِسا، الضابطُ إيبفانيو غاليندو، وجاءت النتائج إيجابية، إذ اعترف الموقوفُ رومِرو، قبل طلوعِ الفجر، بأنّه أقام من وراء ظهر صديقه وشريكه علاقةً حميمةً مع المقتولة. حين علمت لويسا ثِلينا باثكِثْ بأنّها حامل قرَّرت قطع تلك العلاقة، وهو ما لم يقبله رومِرو، فقد اعتبر أنّ أبا الطفل الذي كان سيولد كان هو وليس شريكه. بعد أشهر حين صار قرارُ لويسا ثِلينا لا رجعة عنه، قرَّر في نوبة جنون أن يقتلها، وهو ما قام به أخيراً مستغلّاً غيابَ سِبولبِدا. بعد يومين أُطلِق سراحُ هذا الأخير وبقي رومِرو في زنزانات المخفر رقم ٢ بدل أن يُدخَل إلى السجن، لكنّ التحقيقات هذه المرّة لم تكن موجَّهة لتوضيح التفاصيل المتبقية عن مقتل لويسا ثِلينا، التي سبق وتعرّفوا على جثّتها. كان رومِرو، بعكس ما فكّرت الشرطةُ، مأخوذةً بسرعة حصولها على الاعتراف الأوّل، أصلبَ بكثير مما كان يُظْهِرُ فلم يورّط نفسه في الجريمة الأولى.

في أواسط شهر شباط، وفي زقاقٍ في وسط سانتا تِرِسا، عَثر بعضُ عمّال النظافة على امرأة مقتولة. كانت في حدود الثلاثين من عمرها وترتدي تنورةً سوداءَ وبلوزةً بيضاء. كانت قد قُتِلت طعناً بالسكين بالرغم من أنّه سجلت في البطن كدمات ضربات عديدة. وُجد في حقيبة يدها بطاقة حافلة إلى توكسون، كانت ستخرج في الساعة التاسعة من ذلك الصباح ولن تستقلّها المرأة بعد الآن. أيضاً عُثر على قلمِ أحمر شفاهٍ، مسحوقِ زينة، ومسكرة رموش، وبعضِ المناديل الورقية، وعلبةِ سجائر تحتوي على النصف، وعلبة واقيات. لم تكن تحملِ جوازَ سفر ولا مُفَكّرة ولا أيّ شيء يمكن أن يُعرِّف بها، كما أنّها أيضاً لم تكن تحمل قدّاحةً.

في آذار خرجت مذيعةُ إذاعة *إل هِرالدو دِل نورتِ*، الشركة الشقيقة لصحيفةِ *إل هِرالدو دِل نورتِ*، في العاشرة ليلاً من استوديوهات الإذاعة برفقة مذيعٍ آخر وفنّيِ الصوت. توجّهوا إلى مطعم بيتزا نابونا حيث تشاركوا في ثلاث قطع بيتزا وثلاث زجاجات نبيذ كاليفورني. كان المذيع أوّل من ذهب. قرّرت المذيعة إيزابيِل أورّيا وفنّيُّ الصوت، فرانسيسكو سانتاماريّا أن يمكثا يتحدّثان برهة أخرى. تكلّما عن مسائل العمل والدوام ثم راحا يتكلّمان عن رفيقة ما عادت تعملُ هناك، تزوّجت وذهبت لتعيشَ مع زوجها في بلدةٍ قريبة من هِرموسيّو، لم يتذكّرا اسمها، لكنّها كانت بجانب البحر وعادة ما تكون خلال ستّة أشهر من العام، بحسب الرفيقة، أقرب ما تكون إلى الجنّة. لم يكن فنيُّ الصوت يملك سيارة، ولذلك عرضت إيزابِيل أوريا أن تحمله إلى بيته. لم يكن ذلك ضروريّاً فالبيت كان قريباً إضافةً إلى أنّه كان يُفضّل أن يذهب سيراً على قدميه. وبينما راح فنيُّ الصوت يضيع هابطاً الشارع توجّهت إيزابيل إلى سيارتها. حين أخرجت المفاتيح كي تفتحها عبر شبح الرصيف وأطلقَ عليها النارَ ثلاث مرّات. سقطت منها المفاتيح.

انبطح مارٌّ، كان على بعد خمسة أمتار، على الأرض. حاولت إيزابيل أن تنهض، لكنّها استطاعت فقط أن تسند رأسها إلى العجلة الأمامية. لم تشعر بالألم، اقتربَ الشيخُ منها وأطلق عليها رصاصة في جبينها.

عُزي قتلُ إيزابيل أوريا، الذي بثّته إذاعتُها على الهواء وكتبت عنه صحيفتها في الأيّام الثلاثة الأولى، إلى سرقة فاشلة، عملِ مجنونٍ أو حشّاش، أراد بالتأكيد أن يسطو على سيارتها. كذلك سرت نظريةٌ أنّ مرتكبَ الجريمة يمكن أن يكون أمريكيّاً شمالياً، غواتيمالياً، أو سلفادوريّاً، محارباً قديماً من تلك البلدان، يجمع مالاً بأيّ وسيلة كانت، قبل أن ينتقل إلى الولايات المتحدة. لم يُجرَ تشريحٌ ولم يُكشف عن فصح الرصاصات، لخلاف في الأسرة، وضاع نهائياً بين أخذٍ وردٍّ بين قضاة سانتا تِرِسا وهِرموسيّو.

بعد شهر رأى شاحذ سكاكين كان يجوب شارع إل أرّويو، على التخوم بين ضاحية ثيوداد نوِبا وضاحية مورِلوس، امرأة متشبّثة بعمود خشبيّ كما لو أنّها سكرانة. مرّت بجانب شاحذ السكاكين سيّارة بِرغرينو سوداء مُدخّنة النوافذ. على الطرف الآخر من الشارع رأى بائعَ بوظة قادماً مغطّى بالذباب، كلاهما التقى عند العمود الخشبيّ، لكنّ المرأة كانت قد انزلقت أو أنّها لم تعد تملك قوّة كي تتماسك. كان وجه المرأة المغطى نصفه بساعدها عجينة من اللحم الأحمر والبنفسجي. قال شاحذُ السكاكين يجبُ استدعاء سيارة إسعاف. نظر بائعُ البوظة إلى المرأة وقال تبدو وكأنّها صارعت توريتو راميرِث خمسَ عشرة جولة ملاكمة. انتبه شاحذُ السكاكين إلى أنّ بائع البوظة لن يتحرّك فقال له أن يحرس له عربته، فهو سيعود سريعاً. حين عبر الشارعَ الترابيَّ التفت إلى الخلف كي يتأكّد من أنَّ بائعَ البوظة أطاعه، فرأى جميع الذبابات التي كانت تُحيط به صارت حول رأس المرأة

المجروح. من نوافذ الرصيف المقابل كانت تراقبهما بعضُ النساء. يجب أن نطلبَ سيارة إسعاف، قال شاحذ السكاكين. هذه المرأة تموت. وصلت بعد برهة سيارة إسعاف من المشفى. وأراد الممرّضان أن يعرفا من سيتحمّل مسؤولية النقل. وضّح لهما شاحذُ السكاكين وبائعُ البوظة أنّهما وجداها مرمية على الأرض. كيف سأتحمّل مسؤولية هذه المرأة إذا كنت لا أعرف ولا حتى اسمها؟، قال شاحذ السكاكين. يجب أن يتحمّل أحدٌ المسؤولية، قال المُمَرِّضُ. هل أُصِبت بالصمم، يا ولد؟، قال شاحذُ السكاكين بينما راح يُخرِجُ من درجٍ في عربته سكيّنَ تقطيعٍ لحم هائلاً. حسن، حَسَن، قال المُمَرِّضُ. هيّا أدخلاها إلى السيارة، قال شاحذ السكاكين. قال المُمرِّضُ الآخر الذي كان منحنياً فوق المرأة الواقعة يُبعِدُ عنها الذبابَ بيديه، من العبث أن تتشاجرا، فالمرأة ميتة. صغرت عينا شاحذ السكاكين حتى صارتا خطّيْنِ مرسومَيْن بالفحم. أيّها القوادُ الحقير، اللوطي، أنت السبب، قال وانطلق يُلاحق المُمرِّض. أراد المُمرِّضُ الآخرُ أن يتدخّل، لكنّه قرّرَ بعد أن رأى السكين في يدي شاحذ السكاكين أن يغلق على نفسه السيارة من حيث أرسل إبلاغاً إلى الشرطة. بقي شاحذ السكاكين برهةً يُلاحق المُمرِّض إلى أن هدأ غضبه، وحنقه أو غليله أو حتى تعبَ. وحين حدث هذا توقّف، أمسك بعربته وابتعد في شارع إل أرّويو إلى أن ضاع عن نظر الفضوليين الذين كانوا قد اجتمعوا حول سيارة الإسعاف.

كانت المرأة تُدعى إيزابيل كانسينو، لكنّها تعرف بإليزابيث أكثر وتعمل في الدعارة. الضربات التي تلقتها مزّقت طحالها. عزت الشرطةُ الجريمة إلى واحدٍ أو عددٍ من الزبائن المستائين. كانت تعيش في ضاحية سان داميان، إلى الجنوب كفايةً من المكان الذي عثر عليها فيه، ولم يكن يُعرف لها رفيق ثابت، بالرغم من أنّ إحدى الجارات

تكلّمت عن شخصٍ يدعى إيفان كان يتردّد كثيراً إلى هناك، ولكنّهم م يستطيعوا العثور عليه في عمليات البحث اللاحقة. أيضاً حاولوا أن يعرفوا مكان شاحذ السكاكين، المدعو نيكانور، بحسب شهادات سكان ضاحيتي ثيوداد نوِبا وموريلوس، حيث كان يمرّ مرّة واحدة في الأسبوع أو مرّة واحدة كلّ خمسة عشر يوماً تقريباً. لكنّ الجهود كانت غير مجدية. إمّا أنّه غيّر مهنتَهُ وإمّا أنّه انتقل من غرب سانتا تِرِسا إلى المناطق الجنوبية والشرقية منها، و إمّا أنه هاجر من المدينة. الصحيح هو أنّه لم يُشاهَد بعدها.

في الشهر التالي، في أيّار، عُثِرَ على امرأة مقتولة في مكبٍّ للقمامةِ موجودٍ بين ضاحية لاس فلورِس ومنطقة الجنرال سِبّولبِدا الصناعية. في المنطقة الصناعية كانت تنهض أبنية من أربعة طوابق لمعامل، متخصّصة بتجميع الأدوات الكهربائية المنزليّة. كانت أبراج الكهرباء التي تغذّي المعاملَ جديدةً، ومطلية باللون الفضّي. كانت تبرزُ بجانب هذه، بين التلال المنخفضة، أسقفُ بيوت الصفيح، التي قامت هناك قبل وصول المعامل والتي كانت تمتدُّ إلى ما بعد خطّ القطار، على حدود ضاحية لابرثيادا. في الساحة ستّ أشجارٍ، واحدة في كلّ طرف واثنتان في الوسط، تبدو، من كثرة ما يعلوها من غبارٍ، صفراء. في نقطة من الساحة كان موقف الحافلات، التي كانت تأتي بالعمال من مختلف أحياء سانتا تِرِسا. بعدها عليهم أن يسيروا على أقدامهم حتى البوّابات حيث يتأكّد المراقبون من بطاقات العمّال، يستطيع بعدها كلّ منهم أن يدخل إلى عمله. معمل واحد كان فيه مطعمٌ للعمّال. في البقية كان العمال يأكلون إلى جانب آلاتهم أو مُشَكّلينَ مجموعاتٍ في أيّ زاوية منها. هناك كانوا يتحدّثون ويضحكون إلى أن يرنّ الجرسُ الذي يُعلن نهاية استراحة الطعام. كانت غالبيتهم نساء. في المكبّ لم تكن تجتمع مخلفات سكان البيوت الفقيرة بل أيضاً نفايات كلّ واحد من تلك

المعامل. خبر العثور على قتيلة قدّمه مراقبُ إحدى المنشآت، مولتيزون-ويست، التي كانت تعملُ مُشارَكَةً مع شركة متعددة الجنسيات كانت تصنع تلفازات. الشرطيان اللذان جاءا للبحث عنها وجدا ثلاثة تنفيذيين من المعمل ينتظرونهما بجانب المِكبّ. اثنان كانا مكسيكيين والآخر أمريكياً شمالياً. قال أحدُ المكسيكيين إنّه يُفضّل أن تُنقَلَ الجثّةُ بأسرع وقتٍ ممكن. سأل الشرطيُّ أين الجثّة، بينما كان رفيقه يهتف لسيارة الإسعاف. رافق التنفيذيون الثلاثة الشرطيَّ إلى داخل المكبّ. سدّ الأربعةُ أنوفَهم، لكن حين رفع الأمريكيّ الشماليّ يده عن أنفه، اتبعَ المكسيكيان مثلَهُ. كانت المقتولة امرأة داكنةَ البشرة، سوداءَ وسبطةَ الشعر الذي يصل إلى كتفيها. كانت ترتدي بلوزةً سوداء وبنطلوناً قصيراً. بقي الرجالُ الأربعة ينظرون إليها. انحنى الشرطيُّ وأزاحَ بقلم الشعرَ عن عنقها. من الأفضل ألاّ يلمسها الغرينغو، قال الشرطيّ. قالَ الأمريكيّ الشماليّ إنّه فقط يُريد أن يرى عنقَها. انحنى التنفيذيان المكسيكيان وتأملا العلامات التي كانت على رقبة الميتة. نهضا بعدها ونظرا إلى الساعة. قال واحد منهما إنّ سيارة الإسعاف قد تأخّرت. إنّها على وشك الوصول، قال الشرطيّ. حسن، قال أحد الإداريّين أنت تأخذُ كلّ شيء على عاتقك. أليس كذلك؟. بلى، كيف لا. وخبّأ الورقتين النقديّتين اللتين ناوله إيّاهما الآخرُ في جيب بنطلونه النظاميّ. قضت المقتولة تلك الليلة في درج مُبرّد في مشفى سانتا تِرِسا وفي اليوم التالي شرّحها أحدُ مساعِدي الطبيب الشرعي. كانت قد خُنِقَت. اغتُصِبَت. في كلا الفتحتين، سجّلَ مساعدُ الطبيب الشرعيّ. وكانت حاملاً في شهرها الخامِس.

لم تُعْرَف هويّة المقتولةِ الأولى في أيّار قط، ، لذلك افترضوا أنّها كانت مهاجرة من إحدى ولايات المنطقة الوسطى أو الجنوبيّة، توقّفت في سانتا تِرِسا قبل أن تُتابع سفرها إلى الولايات المتحدة. لا أحد كان

يُرافقها، لا أحد تفقَّدها. كانت في حدود الخامسة والثلاثين من عمرها وحاملاً. ربّما كانت في طريقها إلى الولايات المتحدة لتجتمع بزوجها أو عشيقها، أبي الابن الذي كانت تنتظره، أحد البؤساء الذين يقيمون هناك بشكل غير شرعيّ، وربّما لم يعرف قطّ أنّه حبَّلَ تلك المرأة ولا أنّ هذه حين علمت كانت ستخرج للبحث عنه. لكنّ المقتولة الأولى لم تكن المقتولة الوحيدة. فبعد ثلاثة أيّام قُتِلت غوادالوبُ روخاس (التي عرفت هويّتُها منذ اللحظة الأولى)، ابنة السادسة والعشرين والمقيمة في شارع خاثمين[١]، أحد الشوارع الموازية لجادّة كارَّانثا، في ضاحية كارّانثا، وكانت عاملةً تعملُ في معمل فايل-سيس، الموجود منذ وقت غير طويل على الطريق إلى نوغالِسْ، على بعد عشرة كيلومترات من سانتا تِرِسا. ومع ذلك لم تُقتل غوادالوبُ روخاس في أثناء توجّهها إلى عملها، الأمر الذي كان من الممكن تفهّمه، فتلك المنطقة موحشة وخطيرة، صالحة للعبور في سيارة وليس في حافلة، ثمّ سيراً على الأقدم قرابة الكيلومتر ونصف من آخر موقف للحافلات، بل في باب بيتها في شارع خاثمين. سبب الموت كان ثلاثة جروح بسلاح ناريّ، اثنان منهما قاتلان. القاتل كان خطيبها، الذي حاول الهرب في تلك الليلة ذاتها وأُلقي عليه القبضُ بجانب سكّة القطار، ليس بعيداً عن المحلّ الليليّ المسمى لوس ثانكودوس[٢]، حيث سكر قبلها. الذي أعلم الشرطة هو صاحبُ البار، عميل شرطة البلديّة السابق. عند انتهاء الاستجواب تبيّن أنّ الدافع للجريمة كان غيرة المعتدي، التي لا نعرف ما إذا كان لها أساس أم لا، أُرسل، نظراً لقبول جميع الأطراف بعد أن مثل أمام القاضي، دون تأخير، إلى سجن سانتا تِرِسا بانتظار نقله أو الحكم عليه. آخر مقتولة في أيّار عُثِر عليها عند سفوح تل إستريّا، الذي

(١) ياسمين.

(٢) يعاسيب.

أعطى اسمه للضاحية التي تحيط به بشكل غير منتظم، كما لو أنّه لا شيء يمكن أن ينمو أو ينتشر من دون تقاطعات. وحده وجهُ التلّ الشرقيّ يطلّ على مشهد هو إلى هذا الحدّ أو ذاك غير مُشاد. هناك عثروا عليها. قُتلت بحسب الطبيب الشرعي طعناً بالسكين. كانت في حدود الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين من عمرها، بيضاءَ البشرة وشقراءَ الشعر، ترتدي بنطلونَ جينز وقميصاً أبيض وحذاءً رياضيّاً علامة نايكِ. لم تكن تحمل أيّ ورقة تُفيد في معرفة هويّتها. الذي قتلها أزعج نفسها بعدها وألبسها ثيابها، فلا البنطلون ولا القميص فيهما تمزّقات. لم يكن هناك ما يدل على الاغتصاب الشرجي. في الوجه تظهر كدمة خفيفة في الجانب العلوي من الفكّ، بالقرب من أذنها اليمنى. نشرت *هِرالدو دِل نورتِ* و*تريبونا دِ سانتا تِرِسا* وكذلك *لا بوث دِ سونورا*، صحف المدينة الثلاث صوراً لمجهولةِ تلّ إستريّا، لكنّ أحداً لم يذهب للتعرّف عليها. في اليوم الرابع لمقتلها ذهب قائد شرطة سانتا تِرِسا بِدرو نِغْرِتِ بنفسه إلى تلّ إستريّا، دون أن يُرافقه أيّ شرطيّ، ولا حتى إبيفانيو غاليندو، وطاف في المكان الذي عثروا فيه على المقتولة. ترك بعدها السفح وصعد إلى أعلى التلّ. كان بين الحجارة البركانية أكياس سوق مليئة بالقمامة. تذكّر أنّ ابنه، الذي كان يدرس في فونيكس، قال له ذات مرّة إنّ أكياس البلاستيك تتأخّر، ربّما آلاف مئات السنين، حتى تندثر. هذه، التي هنا، لا، فكّر حين رأى درجة التفكّك التي كانت وصلت إليها جميعها. بعض الصبية في أعلى التلّ ركضوا وضاعوا في أسفله باتجاه ضاحية إستريّا. كانت قد بدأت تُعتِمُ. رأى في الجانب الغربيّ أسطحَ كرتونٍ أو توتياء بعضِ البيوت والشوارع تزحف وسط مخطط فوضويّ. رأى من جهة الشرق الطريقَ الذي كان يقود إلى الجبال والصحراء. أضواء الشاحنات، النجوم الأولى، النجوم الحقيقيّة، التي راحت تأتي مع الليل من الجانب الآخر من الجبل، كما لو أنّ الحياة تنتهي فيما وراء سانتا تِرِسا، بالرغم من رغباته

وقناعاته. سمع بعدها بعض الكلاب، التي راحت تقترب في كلّ مرّة أكثر، إلى أن رآها. ربّما كانت كلاباً جائعة وشرسة، كالأطفال الذين لمحهم بشكل سريع حين وصل. أخرج مسدّسه من غمده. عدّ خمسةَ كلاب. رفع الأمان وأطلق النار. لم يقفز الكلبُ في الهواء، خرَّ وجعله دافعه البدائي يتجرجر على الغبار وصار كبّة. راحت الأربعة الأخرى تجري. راقبها بِدرو نِغْرِتِ وهي تبتعد. اثنان منها طويا ذيليهما بين سيقانهما وراحا يجريان منحنيين. الاثنان الآخران واحد كان يمضي مقسّى الذيل والآخر، من يدري لماذا، كان يُحرّكه. كما لو أنّهم منحوه جائزة. اقترب من الكلب الميّت وجسَّهُ بقدمه. كانت الرصاصة قد دخلت في رأسه. راح يهبط التلّ، دون أن ينظر إلى الخلف، إلى حيث عثروا على جثّة المجهولة. توقّف هناك وأشعل سيجارة دِليكادوس بلا مصفاة. ثمّ تابع هبوطه حتى وصل إلى سيّارته. من هناك، فكّر، كلّ شيء كان يظهر مختلفاً.

في أيّار لم تقتل بعد ذلك أيّ امرأة، دون أن نحسب من مُتْنَ موتاً طبيعيّاً، أي مرضاً أو شيخوخةً أو في أثناء الولادة. لكن في نهاية الشهر بدأ تدنيس الكنائس. دخل أحدُهم ذاتَ يوم إلى كنيسة سان رافائيل، في شارع باتريوتاس مكِخيكانون[1]، في وسط سانتا تِرِسا، في ساعة أوّل قدّاس. كانت الكنيسة شبه خالية، فقط بضع ورعات يحتشدن في المقاعد الأولى والراهب ما يزال سجين قفص الاعتراف. كانت تسود في الكنيسة رائحةُ بخورٍ وموادّ تنظيف رخيصة. جلس المجهول على أحد المقاعد الأخيرة ثمّ ركع على ركبتيه فوراً، ووجهه غائص في يديه، كما لو أنّه محزون أو مريض. التفتت بعض الورعات لينظرن إليه وتمتمن فيما بينهنّ. امرأة عجوز خرجت من قفص الاعتراف وبقيت

(١) وطنيون مكسيكيون.

جامدةً تتأمّل المجهولَ، بينما كانت تدخل امرأة من سكان البلد الأصليين لتعترف. ما إن يُخلّص الراهب الهنديّةَ من ذنوبها حتى يبدأ القدّاس. لكنّ العجوز التي كانت قد غادرت قفص الاعتراف، بقيت ساكنة تنظرُ إلى المجهول، وإن كانت تستند أحياناً بجسمها على رجلٍ ثم على أخرى وكان هذا يجعلها تخطو خطوات أشبه بخطوات الرقص. انتبهت على الفور إلى أنّ شيئاً ما في ذلك الرجل لم يكن طبيعياً وأرادت أن تقترب من العجائز الأخريات كي تُنبِّههنّ. وبينما كانت تتقدّم في الممر الأوسط رأت بقعة سائلة تنتشر على الأرض من المقعد الذي كان يشغله المجهولُ وشمّت رائحة بول. عندئذٍ وبدل أن تتابع طريقها إلى حيث كانت تحتشد الورعاتُ، عادت على أعقابها إلى قفص الاعتراف، وقرعت بيدها نافذةَ الراهب عدّة مرّات. إنّني مشغول، يا بُنيّتي، قال لها هذا. يا أبانا، قالت له العجوز، هناك رجل يُدنّس بيت الربّ. نعم، يا بُنَيَّتي، الآن أنظر في طلبك، قال الراهبُ. أبانا، لا يعجبني أبداً ما يحدثُ، افعَلْ شيئاً، بحبِّ الله. بدت العجوزُ وهي تتكلَّمُ كأنّها ترقص. الآن، يا بُنيّتي، قليلاً من الصبر، إنّني مشغول، قال الراهبُ. يا أبانا، هناك رجل يقضي حاجاته في الكنيسة، قالت العجوز. أطلّ الراهبُ برأسه من بين الستائر المهلهلة وراح يبحث في شبه الظلمة الضاربة إلى الصفرة عن المجهول، وخرج بعدها من قفص الاعتراف وخرجت المرأةُ ذات الملامح الهنديّة من قفصِ الاعتراف أيضاً وتجمَّد الثلاثةُ وهم ينظرون إلى المجهول، الذي كان يئنّ بوهنٍ دون أن يتوقّف عن التبوّل، مُبلِّلاً بنطلونه ومحدثاً نهراً من البول راح يسيل باتجاه المذبح، مؤكّداً أنّ الممرّ كان، تماماً كما خشي الراهبُ، ذا مَيْلٍ مُقلِق. ذهب بعدها ليستدعي القندلفت، الذي كان يشرب قهوة جالساً إلى الطاولة ويبدو متعباً واقتربا معاً من المجهول كي يُقبحانه على فعلته ويشرعا بطرده من الكنيسة. رأى المجهول ظلّيهما ونظر إليهما بعينين مليئتين بالدموع وقال لهما أن يتركاه بسلام. وظهر

على الفور تقريباً في يده سكّين وطعن القندلفت، بينما ورعات المقاعد الأولى رحنَ يصرخن.

أوكلت القضيّةُ إلى المحقّق القانوني خوان دِ ديوس مارتينِثْ، المشهور بفعاليته وحصافته، الأمر الذي كان بعض الشرطيين يعزونه إلى تديُّنِهِ. تكلّم خوان دِ ديوس مارتينِثْ مع الراهب، الذي وصف المجهولَ كرجل في حدود الثلاثين من عمره، متوسّط القامة، أسمر البشرة، وقويِّ البنية، كأيّ مكسيكيّ. ثمّ تكلّم مع الورعات. بالنسبة إلى هؤلاء بالتأكيد لم يكن الرجلُ مكسيكيّاً كأيّ مكسيكيّ، بل كان يُشبه الشيطان. وماذا كان يفعل الشيطان في أوّل قدّاس؟، سأل المُحقِّق. كان هناك كي يقتلنا جميعاً، قالت الورعات. عند الثانية مساءً ذهب برفقة رسّام إلى المشفى ليأخذ اعترافات القندلفت. كان وصف هذا يلتقي مع وصف الراهب. كانت تفوح من الرجل رائحة كحول. رائحة قويّة جدّاً، كما لو أنّه غسل قميصه قبل أن يستيقظ في ذلك الصباح في برميل كحول بدرجة ٩٠. لم يكن قد حلق ذقنه منذ عدّة أيام، بالرغم من أنّ هذا لم يكن يُلحظ كثيراً لأنّه كان أمرد. كيف عرف القندلفت بأنّه كان أمرد، أراد أن يعرف خوان دِ ديوس مارتينِثْ. من الطريقة التي كانت تخرج فيها الشعرات في وجهه، كانت قليلة وسيّئة التوزيع، كما لو أنّ أمّه القوادة سوّت له شاربه على عماها والجبان، مصّاص قضيب أبيه، قال القندلفت. أيضاً كانت يداه كبيرتين وقويّتَيْن. يدان مفرطتان بحجمهما بالنسبة لجسمه. وكان يبكي، هذا ما لا شكّ فيه، لكنّه أيضاً بدا أنّه يضحك، يبكي ويضحك في آن معاً. هل تفهمني؟، قال القندلفت. كما لو أنّه محشِّش؟، سأل المحقّق القانوني. بالضبط. صحيح. بعدها هتف خوان دِ ديوس مارتينِثْ إلى مشفى سانتا تِرِسا للأمراض العقلية وسألهم عمّا إذا كان عندهم أو سبق أن كان عندهم مقيمٌ يحمل تلك المواصفات الجسدية التي كان قد حصل عليها. قالوا له إنّه يوجد

اثنان، لكنّهما لم يكونا عنيفين. سأل عمّا إذا كانوا يسمحون لهما بالخروج. بلى لواحدٍ أمّا الآخر فلا، أجابوه. سوف أذهبُ لأراهما، قال المحقّق. في الخامسة مساءً بعد أن تناول غداءه في مقهى لا يرتاده الشرطة إطلاقاً، صفّ سيارته الكوغار الرمادية معدنية الطلاء، في مرآب مشفى الأمراض العقلية. استقبلته المديرة، وهي امرأة بحدود الخمسين من عمرها، صبغت شعرها باللون الأشقر وجعلتهم يأتونه بفنجان قهوة. كان مكتب المديرة جميلاً وبدا له أنّ ديكوره حسن الذوق. على الجدار نسخة من لوحة لبيكاسو وأخرى لِديغو ريفِرا. بقي خوان دِ ديوس مارتينِثْ برهةً طويلة يتأمّل لوحةَ دييغو ريفِرا، بينما هو ينتظر المُديرةَ. على الطاولة صورتان: تَظهرُ في واحدة منهما المُديرةُ عندما كانت أفتى وهي تضمّ طفلةً كانت تنظر إلى الكاميرا مباشرةً. كان يعلو وجهَ الطفلة تعبير شرود حلو. في الأخرى كانت المُديرة أفتى بكثير. كانت جالسة إلى جانب امرأةٍ كبيرة في السنّ، وتنظر إليها بسرور. كانت المرأة الكبيرة بعكسها، جدّيةَ الوجه وتنظر إلى الكاميرا كما لو أنّها تعتبر أنّ من المعيب أن يلتقطوا لها صورة. حين وصلت المُديرة أخيراً انتبه المُحقّق على الفور إلى أنّه مضت سنوات كثيرة على التقاط تلكما الصورتين. كما انتبه إلى أنّ المُديرةَ ما تزال جميلة جدّاً. تكلّما قليلاً عن المجانين. لم يكن الخطيرون يخرجون، أعلمته المُديرةُ. لكن لم يكن المجانين الخطرون جدّاً كثيرين. أراها المحقّقُ الصورةَ التقريبية التي نفّذها الرسّام فأمعنت بها النظر لثوانٍ. تمعّن خوان دِ ديوس مارتينِثْ في يديها. كانت مطلية الأظافر وطويلة الأصابع وتبدو ناعمة الملمس. استطاع أن يعد بعضَ النمش. قالت له المُديرة إنّ صورة الوجهِ لم تكن جيدة، ويمكن أن تكون لأيّ شخص. ذهبا بعدها لرؤية المجنونين. كانا في الفناء، الهائل، الخالي من الأشجار، والترابيّ مثل ملعب كرة قدم في حي فقير. أحضر له حارسٌ، كان يرتدي قميصاً وبنطلوناً أبيضين، الأوّلَ. سمع المُحقِّق كيف كانت تسأله المُديرةُ عن

صحّته. تحدّثا بعدها عن الطعام. قال المجنون إنّه ما عاد يستطيع أن يأكل اللحمَ تقريباً. قالها بطريقة معقّدة بحيث لم يعرف المُحقِّقُ ما إذا كان يشكو من الوجبات أم أنّه يُبلغها عن نفورٍ ربّما حديثٍ من اللحم. تكلّمت المُديرةُ عن البروتينات. كانت النسمة التي تهبّ في الفناء تُخرّب شعر المرضى. يجب بناء سور، سمع المديرةَ تقول. حين تهبّ الريح يضطربون، قال الحارس الذي يرتدي الأبيض. جاءوا بعدها بالآخر. ظنّ خوان دِ ديوس مارتينِثْ في البداية أنّهما أخوان، وإن انتبه عندما كانا الواحد منهما بجانب الآخر أنّ الشبه ظاهريّ. عن بعد، جميع المجانين يتشابهون. حين عاد إلى مكتبِ المُديرة سألها منذ متى هي تُدير مشفى الأمراض العقلية. منذ سنوات لا تُحصى، قالت المُديرةُ ضاحكةً. حتى أنّني ما عدتُ أتذكّر. عندما كانا يشربان فنجاني قهوة آخرَيْن، كانت المديرة مدمنة قهوة، سألها عمّا إذا كانت من سانتا تِرِسا. لا، قالت المُديرةُ. وُلدتُ في وادي الحجارة ودرستُ في العاصمة الفيدرالية ثمّ في سان فرانسيسكو في بيركلي. كان بودّ خوان دِ ديوس مارتينِثْ أن يستمر بالحديث معها وهو يشرب قهوة، وربَّما أن يسألها عمّا إذا كانت مُتزوّجة أم مطلّقة، لكنّه لم يكن عنده متسع من الوقت. هل أستطيع أن آخذهما معي؟، قال. نظرت إليه المُديرةُ دون أن تفهم. هل أستطيع أن آخذ المجنونين معي؟، سألها. نظرت المديرة إلى وجهه وسألته هل يشعر بأنّه بخير. إلى أين تُريد أن تأخذهما؟ إلى نوع من جولة تعارف، قال المُحقِّق. الضحية في المشفى ولا يستطيع أن يتحرّك. تعيرينني مريضيك لساعتين، آخذهما مشواراً إلى المشفى وآتيك بهما قبل حلول الليل. وتطلب هذا منّي؟، استغربت المُديرةُ. أنتِ الرئيسة، قال المُحقِّق. ئتِني بأمرٍ من القاضي، قالت المُديرةُ. أستطيع أن آتيكِ به، لكن هذا محض بيروقراطية. ثمّ إذا أتيتُكِ بأمر، فسيأخذون مريضيكِ إلى المخفر ويمكن أن يحتجزوهما ليلةً أو ليلتين، ولن يكونا مرتاحين. بالمقابل إذا أخذتهما الآن، فلن يحدث شيء.

أضعهما في السيارة، الشرطيّ الوحيد هو أنا، إذا كانت شهادة الضحية إيجابية، أيضاً سأعيد إليك مجنونيك، كليهما. ألا يبدو لك هذا أسهل؟ لا، لا يبدو لي، قالت المُديرةُ، تِنِي بأمرٍ من القاضي وبعدها ننظرُ في الأمر. لم أبغِ إهانتك، قال المحقِّقُ. أنا مصدومة، قالت المُديرةُ. ضحك خوانَ دِ ديوس مارتينِثْ. لا أخذهما وانتهى الأمر، قال. لكن هذا فعلاً ضروريّ، اعملي جهدك ألا يخرج أيٌّ منهما من المشفى، هل تعدينني؟ نهضت المُديرة فظنّ للحظةٍ أنّها ستطرده. هتفت بعدها لِسكرتيرتها وطلبت فنجانَ قهوة آخر. هل تريد فنجاناً آخر؟ هزّ خوان دِ ديوس رأسه بالموافقة. هذه الليلة لن أستطيع أن أنام، فكّر.

في تلك الليلة دخل المجهولُ إلى كنيسة سان تاديو، في ضاحية كينو، الحيّ الذي كان يتمدّد بين الجَنَبات وتلال جنوب غرب سانتا تِرِسا الناعمة. هتفوا لخوان دِ ديوس مارتينِثْ في الساعة الثانية عشرة ليلاً. كان يُشاهد التلفزيون ثمّ وبعد أن أغلقَ الهاتفَ قام بجمع الأطباق المتسخة عن الطاولة ووضعها في المجلى. أخرج مسدَّسه والصورة التقريبية، التي كان قد طواها أربع طيّات من درج الكومودينا، وهبط الدرج سيراً على قدميه إلى المرآب حيث كانت سيارته الشيفي أسترا الحمراء. حين وصل إلى كنيسة سان تاديو كان هناك بعض النسوة جالسات على درجات الطوب. لم يكنَّ كثيرات. رأى داخلَ الكنيسة المُحقِّقَ خوسِهْ ماركيز يستنطق الراهب. سأل شرطيّاً عمّا إذا جاءت سيارة الإسعاف فقال له ليس هناك جرحى. أي لعنة هذا كلّه؟ كان رجلا الشرطة العلمية يُحاولان أن يعثرا على بصمات على صورة للمسيح كانت على الأرض بجانب المذبح. المجنون لم يؤذِ أحداً هذه المرّة، قال له خوسِهْ ماركيز حين فرغ من الراهب. أراد أن يعرف ما الذي حصل. مُحَشِّش وغد ظهر في حدودِ العاشرة ليلاً، قال ماركيز. كان يحمل موسى أو سكيناً. جلس في المقاعد الأخيرة. هناك في أكثر

الأماكن ظلمة. سمعتْهُ عجوزٌ يبكي. الرجل لا أدري هل كان يبكي ألماً أم لذّة. كان يبول. عندها ذهبت العجوز لتنادي الراهب فقفز الرجل وراح يُحطّم. تمثالاً للمسيح وآخر لِغوادالوبِّ وتمثالين لقدّيسين آخرين. ذهب بعدها. وهل هذا هو كلّ شيء؟ سأل المُحقّقُ خوان دِ ديوس مارتينِثْ. ليس هناك أكثر من ذلك. بقي الاثنان برهة طويلة يتكلّمان مع الشهود. أوصاف المعتدي تنطبق على أوصاف المعتدي على كنيسة سان رافائيل. أرى الصورة التقريبيّة للراهب. كان الراهبُ شاباً جدّاً ويبدو متعباً جدّاً، لكن ليس مما حدث في تلك الليلة، بل من شيء جاء يجرجره معه منذ سنوات. يُشبهه، قال الراهبُ، دون أن يولي الأمرَ أهمّيةً. كانت تفوح في الكنيسة رائحة بخور وبول. ذكّرته قطعُ الجصّ المتناثرة على الأرض بفيلم، لكنّ لم يعرف ما هو الفيلم. حرّك بقدمه إحدى تلك القطع، بدت قطعة من يد وكانت مبلّلة. هل انتبهت؟، سأله ماركيز. إلامَ؟، سأل خوان دِ ديوس مارتينِثْ. هذا الديوث عنده مثانة هائلة. أو أنّه يتحمّل كلّ ما باستطاعته وينتظر حتى يصبح داخل كنيسة ويفلت له العنان. حين خرج رأى بعض صحفيّي *هِرالدو دِل نورتِ*، *لا تريبونا دِ سانتا تِرِسا*، الذين كانوا يتكلّمون مع بعض الفضوليين. راح يمشي في الشوارع المُتاخمة لكنيسة سان تاديو. لم يكن هناك رائحة بخور، لكن بدا أحياناً أنّ الهواء كان يخرج من بالوعة نتنة. الإنارة العامّة لا تكاد تُغطيّ بعضَ الشوارع. لم أكن هنا قط، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ لنفسه. لمحَ في نهاية شارعٍ ظلَّ شجرة كبيرة. كانت شبه دائرة وكانت الشجرةُ الشيءَ الوحيد في شبه الدائرة القفرة تلك الذي يحتفظ ببعضِ الشبه بمكان عام. بنى حولها الجيرانُ بسرعة ودون مهارة بعضَ المقاعد كي يتناولوا المرطبات. هنا كان توجد قرية هنود، تذكَّر المحقّقُ. قال له ذلك شُرَطيّ كان قد عاش في الضاحية. ارتمى على مقعد ولاحظ ظلّ الشجرة المهيمن الذي كان يسقط متوعّداً على السماء المليئة بالنجوم. أين الهنود الآن؟ فكَّر

بمديرة مشفى الأمراض العقلية. كان بودّه لو يحكي معها في تلك اللحظة ذاتها، لكنّه كان يعرف أنّه لن يجرؤ على أن يهتف لها.

لاقى الاعتداء على كنيستَي سان رافائيل وسان تاديو صدى في الصحافة المحلّية أكثر من النساء المقتولات في الأشهر السابقة. طاف خوان دِ ديوس مارتينِثْ مع شُرَطِيَّين في ضاحية كينو وضاحية لا برِثيادا، ويُرون الناسَ الصورة التقريبية للمعتدي. لا أحد عرفه. في ساعة الغداء ذهب الشرطيّان إلى وسط المدينة وهتف خوان دِ ديوس إلى مُديرة مشفى الأمراض العقليّة. لم تكن المُديرةُ قد قرأت الصحافةَ ولم تعرف شيئاً عمّا جرى ليلةَ أمس، دعاها خوان دِ ديوس إلى الغداء، وبعكس ما كان يتوقّع قبلتْ الدعوةَ وتواعدا في مطعم نباتيّ في شارع ريّو أوسوماثينتا، في ضاحية بودِستا. لم يكن يعرف المطعمَ وحين وصل طلب طاولة لاثنين وكأسَ ويسكي بينما كان ينتظرها، لكنّهم لم يكونوا يُقدّمون هناك مشروباتٍ كحوليّة. كان النادل الذي قام على خدمته يرتدي قميصاً بمربعاتِ رقعة شطرنج وينتعل صندلاً، ونظر إليه كما لو أنّه مريض، أو أخطأ بالمحلّ. بدا له المكانُ لطيفاً. كان الناسُ الذين يشغلون الطاولات الأخرى يتحدّثون بصوت منخفض وتُسْمَع موسيقى كالماء، صوت الماء وهو يسقط على بلاط حجري. رأته المُديرة ما إن دخلت، لكنّها لم تُسلّم عليه وراحت تحكي مع النادل الذي كان يُحضّر بعض العصير الطبيعيّ خلف طاولة العرض. اقتربت بعد أن تبادلت معه بعض الكلمات من الطاولة. كانت ترتدي بنطلوناً رماديّاً وكنزة مكشوفةَ الكتفين، لؤلؤيةَ اللون. نهض خوان دِ ديوس مارتينِثْ حين وصلت إلى جانبه وشكرها على قبول دعوته. ابتسمت المُديرةُ: كانت أسنانها صغيرة ومنتظمة، ناصعة البياض وحادّة، وهو ما كان يُضفي على ابتساماتها هيئةَ أكلةِ لحوم بشر التي تتناقض مع اختصاص المطعم. سألهما النادلُ ماذا سيأكلان. نظر خوان دِ ديوس مارتينِثْ إلى لائحة

المأكولات ثمّ طلب منها أن تختار عنه. حكى لها، بينما كانا ينتظران الطعام، عن قضية كنيسة سان تاديو. أصغت المُديرة إليه بانتباه وسألته في النهاية هل حكى لها كلّ شيء. هذا كلّ ما هو موجود، قال المُحقّق. مريضاي قضيا الليلة في المشفى، قالت هي. أعرفُ، قال هو. ماذا؟ بعد أن حضرت إلى الكنيسة ذهبت إلى مشفى الأمراض العقلية. وطلبتُ من الحارس ومن ممرّضة أن يأخذاني إلى غرفة مريضيك. الاثنان كانا نائمين. لم يكن هناك ثياب ملوّثة بالبول. ما من أحد تركهما يخرجان. هذا الذي تحكيه لي غير شرعيّ، قالت المُديرة. لكنّهما ما عادا مشبوهيْن، قال المُحقّق. ثمّ إنّني لم أوقظْهما. لم ينتبها إلى شيء. بقيت المُديرةُ برهةً تأكلُ بصمت. راحت الموسيقى مع صوت الماء تُعجب خوان دِ ديوس مارتينِثْ في كلّ مرّة أكثر. قال لها ذلك. وددتُ لو أشتري القرصَ، قال. قال لها ذلك بصراحة. بدا أنّ المُديرةَ لم تكن تسمع. قدّموا لهما التينَ عقبةً. قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ إنّه منذ سنواتٍ لم يأكل تيناً. طلبت المديرةُ فنجان قهوةٍ وأرادت أن تدفع هي الحسابَ، لكنّه لم يسمح لها. لم يكن سهلاً. اضطرّ لأنّ يُصرَّ كثيراً وبدا أنّ المُديرة صارت من حجر. عندما خرجا من المطعم تصافحا كما لو أنّهما لن يتقابل أبداً بعد الآن.

بعد يومين دخل المجهولُ إلى كنيسةِ سانتا كاتالينا، في ضاحية لوماس دِلْ تورو، في ساعة كان فيها حرم الكنيسة مغلقاً، فبال وتغوّط في المذبح، إضافة إلى أنّه قطع رؤوسَ جميعِ التماثيل التي صادفها في طريقه تقريباً. ظهر الخبرُ هذه المرّة في الصحافة الوطنية وعمّدَ صحفيٌّ من لا بوث دِ سونورا المعتدي باسم التائب الممسوس. بحسب ما كان خوان دِ ديوس مارتينِثْ يعرف، كان من الممكنِ أن يرتكب الفعلةَ أيُّ شخصٍ آخر، لكنّهم قرّروا في الشرطة أنّه التائب، وفضّلَ هو أن يُتابع مجرى الأحداث. لم يستغرِبْ أنّ أحداً من جيران الكنيسة لم يسمع

شيئاً، بالرغم من أنّ تكسير كلّ تلك التماثيل المقدّسة كان يتطلّب وقتاً، إضافة إلى إثارته لضجة معتبرة. لم يكنِ يعيش في كنيسة سانتا كاتالينا أحد. الراهب الذي كان يخدمُ هناك كان يأتي مرّة واحدة في اليوم، من التاسعة صباحاً وحتى الواحدة ظهراً، يذهب بعدها ليعمل في مدرسة تابعة للكنيسةِ في ضاحية ثيوداد نوِبا. لم يكن هناك قندلفت والصبيةُ الذين كانوا يُساعدون في القدّاس، يأتون أحياناً وأحياناً لا يأتون. في الحقيقة كانت كنيسة سانتا كاتالينا كنيسةً بلا رعيّة والأشياء التي كانت في داخلها أشياء رخيصة، اشترتها الأسقفيّةُ من حانوت وسط المدينة مخصّص لبيع الملابس الكنسية والقديسين بالجملة والمفرّق. كان الراهب رجلاً مُنفتِحاً وليبراليَّ الفكر، كما بدا لِخوان دِ ديوس مارتينِثْ. بقيا يتكلّمان برهة. لم ينقص من أشياء الكنيسة شيء. لم يَبْدُ الراهب مذعوراً ولا متأثّراً من العمل المشين. عمل حساباً سريعاً للخسائر وقال إنّ هذا بالنسبة للأسقفيّة أمرٌ تافه. الغائط في المذبح لم يغيّر وجهه. خلال ساعتين، بعد أن تذهبوا أنتم، سيعود هذا نظيفاً من جديد، قال. بالمقابل أفزعته كميّةُ البول. كتفاً إلى كتفٍ كآخرين سياميّين جاب المُحقّقُ والراهبُ كلَّ الأركان التي بال فيها التائبُ وقال الراهبُ في النهاية لا بدّ أنّ لذلك الرجل مثانة بحجم رئة. فكّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ في تلك الليل أنّ التائب صار في كلّ مرَّةٍ يَشْغُل في نفسه موقعاً أحسن. الاعتداء الأوّل كان عنيفاً وكاد يقتل القندلفت، لكنّه مع مرور الأيّام راح يتحسّن. في الاعتداء الثاني فقط أفزع بعضَ الورعات وفي الثالث لم يرَهُ أحدٌ واستطاع أن يعمل بسلام.

بعد ثلاثة أيّام من تدنيس كنيسة سانتا كاتالينا تسلَّل التائبُ في ساعات متأخّرة من الليل إلى كنيسة نوِسْترو سِنيور خِسوكريستو، في ضاحية رِفورما، أقدم كنيسة في المدينة، بُنيت في أواسط القرن الثامن عشر وكانت لزمن مقرَّ أسقفيّةِ سانتا تِرِسا. في البناء الملاصق القائم

عند تقاطع شارعي سولِر وأورتيثْ روبيو، كان ينام ثلاثة رهبان وطالبان لاهوتيان يدرسان علمَ الإناسةِ والتاريخَ في جامعة سانتا تِرِسا. كان الطالبان اللاهوتيان يقومان بالإضافة إلى الوقت الذي يُكرسانه للدراسة بأعمال نظافة بسيطة، كغسل الصحون كلَّ ليلة أو جمع ثياب الرهبان المتسخة وتسليمها للمرأة التي كانت تأخذها لاحقاً إلى المصبغة. في تلك الليلة أحد الطالبين اللاهوتيين لم ينم. حاول أن يدرس مغلقاً على نفسه غرفتَهُ ونهض بعدها ليبحثَ عن كتاب في المكتبة، حيث بقي دون أيّ مُبرّر، ليقرأ جالساً على كرسيّ إلى أن باغته النعاس. كان البناء متصلاً بالكنيسة عبر ممرّ يقود مباشرةً إلى بيت القس. كان يُقال إنّ هناك ممرّاً آخر، تحت الأرض استخدمه القساوسة خلال الثورة وخلال الحرب الكريسترا، لم يكن هذا الطالب الباباغي يعرف بوجود هذا الممر. فجأة أيقظه تكسير بلور. في البداية فكّر، وهو أمر غريب أنّها كانت تُمطر، لكنّه انتبه بعدها إلى أنّ الصوت يأتي من داخل الكنيسة وليس من خارجها، فنهض وذهب ليتحقّق من الأمر. حين وصل إلى بيت القسّ سمع أنيناً فظنَّ أنّ أحداً بقي محبوساً في أحد أقفاص الاعتراف، وهو أمر غير وارد إطلاقاً فأبواب هذه الأقفاص لم تكن تُغلق. الطالب الباباغي بعكس ما يُقال عن عرقِهِ، كان هيّاباً فلم يجرؤ على أن يدخل إلى الكنيسة لوحده. ذهب أوّلاً وأيقظ الطالبَ الآخر، وذهبا معاً ليقرعا بطريقة مهذبةٍ جدّاً بابَ الأب خوان كارّاسكو، الذي كان نائماً مثلَ بقيةِ سكّان البناء في تلك الساعة. استمع الأبُ خوان كارّاسكو إلى قصّة الباباغي في الممرّ، وبما أنّه كان يقرأ الصحف قال: لا بدّ أنّه التائب. عاد على الفور إلى غرفته، ارتدى بنطلونه وانتعل حذاءه الرياضيّ الذي كان يستخدمه لممارسة رياضة المشي وكرةِ الجدار وأخرج من إحدى الخزائن مضرب كَرة قاعدة. ثمّ أرسل أحد الطالبين ليوقظَ البوّابَ، الذي كان ينام في غرفة صغيرة في الطابق الأوّل، بجانب الدرج، وتوجّهَ إلى الكنيسة مع الباباغي الذي أخبر عن الضجة.

من النظرة الأولى تولدّ لديهم انطباع بأنّه لم يكن هناك أحد. دخان الشموع الشفيف كان يصعد بطيئاً نحو القبّة وسحابة كثيفة ضاربة إلى صفرة داكنة مكثت بلا حراك داخل المعبد. سمعا بعدها بقليل الأنين، كما لو أنّ طفلاً يجهد كيلا يتقيّأ، تبعه آخر ثمّ آخر، ثمّ الصوت المألوف للاستفراغ الأوّل. قطّب الأبُ كارّاسكو جبينَهُ وتوجّه دون تردّد إلى مصدر الصوت ومعه مضرب كرة القاعدة. لم يتبعه البابا غي. ربّما خطا خطوةً أو خطوتين بالاتجاه الذي سار فيه القسُّ، بقي بعدها ساكناً، بلا دفاعات أمام رعبٍ مُقدّس، الحقيقة أنّ أسنانه ذاتها راحت تصطكّ. لم يكن يستطيع التقدّم ولا التراجع. وهكذا راح، كما وضّح للشرطة، يُصلّي. ماذا صلّيت؟، سأله المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ. لم يفهم البابا غي السؤال. أبانا الذي في السماوات؟ سأل المُحقّقُ. لا، لَا، لا، لا أتذكّر شيئاً، قال البابا غي، صليتُ لأجل روحي، صليّتُ لأجل أمّي، طلبتُ من أمّي ألا تهجرني. سَمِعَ من المكان الذي كان فيه ضربةَ مضربِ كرة القاعدة ينفجر على عمود. يمكن أن يتعلّق الأمر، فكَّرَ أو تَذَكّر أنّه فكّرَ، بعمود التائب الفقري أو بعمود طوله مئة وتسعين سنتيمتراً، حيث كان تمثال رئيس الملائكة جبريل. سمع بعدها أحداً ينفخ. سمع التائبَ يئن. سمع الأبَ كارّاسكو يشتم أمَّ أحدٍ، شتيمة، الحقيقة ولقول الحقيقة، غريبة، لم يَعرف ما إذا كانت موجّهة إلى التائب أم إليه، لأنّه لم يرافقه، أم إلى شخص مجهول من ماضي الأب كارّاسكو، إلى أحدٍ لن يعرفه هو أبداً، ثمّ الصوت الذي يحدثه مضرب كرة القاعدة حين يسقط على أرض حجارة مقطوعة بدقّة وإتقان. العصا، المضرب، يتردّد سقوطه عدّة مرات إلى أن يتوقّف الصوت أخيراً. في اللحظة ذاتها تقريباً سمع صرخة جعلته يُفكّر مرّةً أخرى بالرعب المقدّس. التفكير دون تفكير. أو التفكير بصور مرتعشة. اعتقد بعدها أنّه رأى، كما لو أنّه مُنارٌ بشمعة، لكن أيضاً يمكن أن يكون مناراً بصاعقة، هيئةَ التائب يكسر بمضرب البيسبول قصبتَي ساقي رئيس

الملائكة ويُسقطه عن قاعدته. ومن جديد صوت الخشب، القديم جدّاً، يصطدم بالحجر، كما لو أنّ الخشبَ والحجر في تلك الخطوط كانا متعارضين بالمطلق. ومزيد من الضربات. سمع بعدها خطوات البوّاب الذي جاء راكضاً ودخل أيضاً في الظلمة، وصوت أخيه البابـاغي الذي يسأله بالبابـاغية ماذا به، ماذا يؤلمه. تلاه مزيد من الصراخ ومزيد من القساوسة وأصوات تُخبر الشرطة وخفقان قمصان بيضاء ورائحة حامضة، كما لو أنّ أحداً مسح حجارة الكنيسة العتيقة بغالون نشادر، رائحة بول، بحسب ما قاله المُحقِّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ، بول أكثر من اللازم بالنسبة لرجل واحد، بالنسبة لرجل مثانته عاديّة.

طفح كيلُ التائبِ هذه المرّة، قال المُحَقّقُ خوسِهْ ماركيز بينما هو على ركبتيه يفحص جثّتي الأب كارّاسكو والبوّاب. خوان دِ ديوس مارتينِثْ فحص النافذة التي دخل منها المدنِّسُ إلى الكنيسة ثم خرج إلى الشارع ودار في شارع سولِر وبعدها في أورتيث روبيو وساحةٍ كان أهل المنطقة يستخدمونها ليلاً كمرآبٍ مجّانيٍّ لسياراتهم. حين عاد إلى الكنيسة كان هناك بِدرو نِغْرِتِ وإبيفانيو وما إن دخل قائد الشرطة حتى أشار إليه كي يقترب. بقيا برهةً يتكلّمان ويُدخّنان جالسين في مقاعد الصفّ الأخير. كان نِغْرِتِ يرتدي تحت سترته الجلديّة قميص المنامة. وكانت تفوح منه رائحة عطر غالٍ ولا يظهر على وجهه التعب. كان إبيفانيو يرتدي طقماً أزرق فاتحاً يتناسب مع ضوء الكنيسة الخافت. قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ لقائدِ الشرطة لا بدَّ أن يكون مع التائبِ سيارة. وكيف عرفت هذا؟ لا يمكن أن يتنقّل مشياً على قدميه دون أن يلفت الانتباه، قال المُحقِّقُ، نتن بوله يفضحُهُ. المسافة بين ضاحية كينو ورِفورما كبيرة جدّاً. كذلك المسافة بين رِفورما ولاس لوماس دِل تورو. أعتقد أن التائب يعيش في المركز. فمن رِفورما إلى المركز يمكن أن يذهب مشياً، وإذا كان الوقت ليلاً فلن ينتبه أحدٌ إلى أنّ رائحة

بول تفوح منه. لكن من المركز إلى لاس لوماس دِل تورو، لا أدري، يمكن أن يستغرق ساعة على الأقل. أو أكثر، قال إيبفانيو. ومن لاس لوماس دِل تورو إلى كينو، كم يمكن أن يستغرق قطعها مشياً؟ أكثر من خمس وأربعين دقيقة، ما دامت لم تَضِعْ قبلها، قال إيبفانيو. ولن نقول شيئاً عن المسافة من رِفورما إلى كينو، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. هكذا إذن هذا الولد يملك سيارة، قال قائد الشرطة. هذا هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن نكون متأكّدين منه، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. ومن المحتمل أن يحمل معه في السيارة ثياباً نظيفة. وهذا؟، سأل قائد الشرطة. كإجراء احتراسي. يعني أنّك تعتقد أنّه ليس أبله أبداً، قال نِغْرِتِ. يصبح طبلاً فارغاً فقط حين يكون في كنيسة، حين يخرج يكون شخصاً عاديّاً مثل أيّ شخص، همس خوان دِ ديوس مارتينِثْ. أه، اللعنة، قال قائد الشرطة. وأنت ما رأيك، يا إيبفانيو؟ ممكن، قال إيبفانيو. إذا كان يعيش لوحده يمكن أن تصير رائحته رائحة خراء، على كلّ الأحوال، من السيارة إلى مقرّه لا يمكن أن يتأخّر أكثر من دقيقة. إذا كان يعيش مع عجوز ما أو مع رؤسائه، لا شكّ أنّه يُبدّل ملابسه قبل أن يدخل. كلام له وقع منطقيّ، قال قائد الشرطة. لكن المسألة هي كيف نضع نهاية لكلّ هذا. هل يخطر لك شيء؟ أن نسارع بوضع شرطيّ في كلّ كنيسة وننتظر أن يخطو التائبُ الخطوة الأولى، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. أخي كاثوليكيّ جدّاً، قال قائد الشرطة كما لو أنّه يُفكّر بصوتٍ عالٍ. عليّ أنّ أسألك عن بعض الأشياء. أين تظن أنّ التائب يعيش؟ لا أعرفُ، يا مُعلّم، قال المُحقّقُ، يمكن أن يعيش في أيّ مكان، مع أنّني لا أعتقد أنّه يعيش في كينو إذا كان يملك سيارةً.

في الخامسة صباحاً، عندما عاد المُحقّقُ خوان دِ ديوس مارتينِثْ إلى بيته، وجد رسالةَ مديرة مشفى الأمراض العقلية في مجيب الهاتف. الشخص الذي تبحث عنه يُعاني من الرعب من المقدّس. احكِ معي

وسأُوَضّح لك الحالة. على الرغم من الساعة المبكّرة اتصل بها فوراً. ردّ عليه صوتُ المُديرة المُسجّل. أنا مارتينِثْ، شرطيُّ التحقيق، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ، اعذريني لأنّني أهتف لك في هذه الساعة... سمعتُ رسالتك... الآن وصلتُ إلى بيتي... هذه الليلة قام التائب... على كلّ غداً أتواصل معك... يعني اليوم... ليلة سعيدة وشكراً على رسالتك. خلع بعدها حذاءه وبنطلونه وارتمى على السرير، لكنّه لم يستطِع النوم. في السادسة صباحاً كان في القسم. مجموعة من المناوبين كانوا يحتفلون بعيد ميلاد واحد منهم، ودَعُوهُ ليشربَ لكنّه رفض. من مكتب المُحقّقين سمعهم يُغنون الصُبيّاحات في الطابق العلوي مرّة وأخرى. وضع لائحةً برجالِ الشرطة الذين كان يُريد أن يعملوا معه. كتب تقريراً إلى شرطة التحقيق في هِرموسيّو ثمّ خرج ليتناول فنجان قهوة بجانب جهاز القهوة الآلي. رأى مناوِبَيْن يمرّان، ينزلان الدرج متعانقين فتبعهما. رأى في الممر عدداً من الشرطيين يتناقشون في مجموعاتٍ من اثنين، من ثلاثة، من أربعة. ومن حين لآخر تضحك مجموعة بشكلٍ مدوٍّ. شخص يرتدي الأبيض لكنّه يرتدي أيضاً بنطلونَ جينز، يجرّ نقّالة، عليها جثّة إميليا مِنا مِنا مغطّاة تماماً بكيس بلاستيكي رمادي. لا أحدَ انتبه إليه.

في حزيران قُتلت إميليا مِنا مِنا. عُثِرَ على جثتها في مكبِّ قمامةٍ سرّي قريب من شارع يوكاتِكوس، باتجاه معمل طوب الأخوة كورتينو. في تقرير الطبيب الشرعيّ يُشار إلى أنّها اغتُصِبَت وطُعِنَت وأُحرِقت، دون أن يُحدّد ما إذا كان سبب الموتِ الطعنات أم الحروق، وأيضاً دون أن يُحدّدَ ما إذا كانت إميليا مِنا مِنا ميتة حين أحرقت. في مكبِّ القمامة الذي عُثِر عليها فيه كان يعلن عن وجود حرائق مستمرّة، أغلبها مقصود وأخرى عرضية، ولذلك لا يمكن استبعاد أن تكون حروق جسدها ناتجة عن هذه الحالات وليس عن نيّة القاتل. ليس للمكبِّ

اسم رسمي، لأنّه كان سرّياً، لكن فعلاً له اسم شعبيّ: يُسمى إل تشيلي، خلال النهار لا يشاهد أحد في التشيلي ولا في القفار المجاورة له والتي لن يتأخّر المِكبّ في ابتلاعها. في الليل يظهر الذين لا يملكون شيئاً أو يملكون أقلّ من شيء. في مِكسيكو العاصمة الفيدرالية يسمونهم المخمورين، لكنّ المخمورَ فتى يُحب الحياة، مستهتر حصيف وظريف مقارنة ببشر آخرين الذين يتسكّعون فراداً أو مثنى في التشيلي. ليسوا كثيرين. يتكلّمون لغة مغلقة يصعب فهما. حضّرت الشرطة كَبْسةً في الليلة التالية على ليلة العثور على جثّة إميليا مِنا مِنا ولم تستطع العثور إلا على ثلاثة أطفال كانوا يبحثون عن الكرتون في القمامة. سكّان إل تشيلي الليليون قليلون جدّاً. متوسّط عمرهم قصير. يموتون على أبعد تقدير في الشهر السابع من تجوّلهم في المكبّ. عاداتهم الغذائية وحياتهم الجنسية لغز. ربّما نسوا الأكل ونسوا الجنس. أو أنّ الطعام والجنس بالنسبة إليهم شيء آخر، لا يُدرَك، شيءٌ يبقى خارج الفعل وخارج القول. جميعهم، دون استثناء، مرضى. نزع الثياب عن جثّة في إل تشيلي يعادل سلخ جلدها. يبقى عدد سكانه ثابتاً: ليس أبداً أقل من ثلاثة، لكنّه لا يتجاوز أبداً العشرين.

كان المشبوه الرئيسي بقتل إميليا مِنا مِنا هو خطيبها. عندما ذهبوا ليبحثوا عنه إلى بيته، حيث يعيش أبواهُ وثلاثة أخوة له، كان قد غادر. بحسب العائلة كان قد أخذ الحافلة قبل يوم أو يومين من العثور على الجثّة. أمضى الأبُ وأخان له يومين في الزنازين، لكنّهم لم يستَطيعوا أن ينتزعوا منهم أيَّ معلومة متسقة، غير عنوان أخ الأب، في ثيوداد غوثمان إلى حيث من المفترض أن يكون المشبوهُ قد سافر. استنفرت شرطة وذهب بعض رجال الشرطة إلى العنوان المذكور، مجهزين بكل المتطلبات الشرعية ولم يعثروا على أدنى أثر للخطيب والقاتل المفترض. بقيت القضّية مفتوحة ولم تتأخّر في أن أصبحت طيّ

النسيان. بعد خمسة أيّام بينما كانت ما تزال الإجراءات الهادفة لتوضيح جريمة قتل إميليا مِنا مِنا مستمرّةً، عثر بوابُ مدرسة مورلوس التحضيرية على جسم مقتولة أخرى. كانت مرميّة في أرض يستخدمها الطلاب أحياناً ليلعبوا مباريات كرة قدم وكرة قاعِدة، أرض خلاء يُمكن أن تُشاهد منها أريزونا وأسطح المعامل على الجانب المكسيكي والطرق الترابية التي كانت تربط بين هذه المعامل والطرق المُعبّدة. بجانبها فناءاتُ المدرسة التحضيرية التي يفصلها شبك معدنية عن الكتلتين البنائيتين خلفها، والمكونتين من ثلاثة طوابق، حيث كانت تُعطى الدروس في قاعات واسعة ومشمسة. كانت المدرسة التحضيرية قد افتُتِحت في عام ١٩٩٠ والبوّاب يعمل هناك منذ اليوم الأوّل. كان أوّل من يصل إلى المدرسة وآخر من يغادرها. في الصباح الذي عثر فيه على المقتولة لفت انتباهه، بينما كان يأخذ من مكتبِ المُدير المفاتيحَ التي كانت تسمح له بالدخول إلى كلّ المدرسة، شيءٌ، لم يعرف في البداية أن يُحدّد ماهيته. حين دخل إلى صالة الخدمات انتبه. النسور الأمريكيّة. كانت النسور الأمريكية تحوم فوق الخلاء الموجود بجانب الفناء. وبما أنّه كان ما يزال عنده الكثير مما عليه أن يعمله فقد قرّر أن يذهب ليتحقّق من الأمر لاحقاً. وصلت بعد ذلك الطبّاخةُ ومساعدها وذهب ليتناول فنجان قهوة معهما في المطبخ. تكلّموا بما يتكلمان عنه دائماً مدةَ عشر دقائق، إلى أن سألهما الحاجبُ عمّا إذا شاهدا عندما وصلا بعضَ النسور الأمريكية تحوم فوق المدرسة. كلاهما أجاب بالنفي. عندها أنهى البوّابُ قهوته وقال إنّه سيذهب ليقوم بجولة في الخلاء. خاف أن يعثر على كلبٍ ميتٍ. إذا كان الأمر كذلك سيكون عليه أن يعودَ إلى المدرسة، إلى المستودع حيث يحتفظ بأدوات الحفر ويأخذ مِجرَفَةً ويعود إلى الخلاء ويحفر حفرة عميقة بشكل كاف كي لا يقوم الطلاب بنبش الحيوان. لكن ما عثر عليه كان امرأةً. كانت ترتدي بلوزة سوداء وحذاءً أسود وكانت تنورتها ملفوفة فوق خصرها. لم تكن

ترتدي سروالاً داخلياً. كان هذا أوّل شيء رآه. تمعّن بعدها في وجهها فعرف أنّها لم تُقتل في تلك الليلة. هبط أحدُ النسور فوق شبك الحاجز لكنّه أفزعه بحركة منه. كان شعرُ المرأة أسود ويصل على الأقل إلى منتف ظهرها. كانت بعض خصلاته ملتصقة بفعل الدم المُتَخَثِر. على بطنها وعضوها دم جاف. رسم إشارة الصليب مرّتين ونهض ببطء. حين عاد إلى المدرسة حكى للطباخة ما حدث. كان الفتى الذي يُساعدها يجلي قدراً وتكلّم البوّابُ بصوت خافت، كيلا يسمعه.. هتف للمدير من المكتب، لكنّ هذا كان قد غادر بيته. وجد بطانية فذهب ليُغطّي بها المقتولة. عندها فقط انتبه إلى أنّها مخوزقة. امتلأت عيناه بالدموع بينما هو عائد إلى المدرسة. هناك وجد الطبّاخة جالسة في الفناء، تُدخّن سيجارة. أومأت إليه كما لو أنّها تسأله ماذا حدث. ردَّ عليها البوّابُ بإيماءة أخرى، كانت هذه غير مفهومة، وخرج لينتظر المُدير في المدخل. حين وصل توجّها إلى الخلاء. رأت الطباخةُ من الفناء كيف راح المُديرُ يرفع البطانية ويتأمّل من مواضع مختلفة الكتلة التي لا تكاد تُرى. انضمّ إليهما بعد قليل مُعلّمان، وعلى بعد عشرة أمتار منهم مجموعة من الطلاّب. في الثانية عشرة وصلت سيّارتا شرطة، وسيّارة أخرى دون علامات تميزها وسيارة إسعاف وحملوا المقتولة. لم يُعرف قط اسم هذه. حدّد الطبيب الشرعيّ أنّها ميتة منذ عدّة أيّام، دون أن يحدّد عددها. سبب الموت الأكثر احتمالاً هي الطعنات التي تلقّتها في صدرها، لكنّ الجثّة كانت تظهر كسراً في الجمجمة لم يجرؤ الطبيب الشرعي على استبعاده كسبب رئيسي. كان عمر المقتولة يتراوح بين الثالثة والعشرين والخامسة والثلاثين. كان طولها مئة واثنين وسبعين سنتيمتراً.

كانت المقتولة الأخيرة في شهر حزيران ١٩٩٣ ذاك تُدعى مارغريتا لوبِّثْ سانتوس وكانت قد اختفت قبل أكثر من أربعين يوماً. في اليوم

الثاني لاختفائها قدّمت أمُّها شكوى مكتوبة إلى قسم الشرطة رقم ٢. كانت مارغريتا لوبِّتْ تعمل في معمل كَ أند تي في منطقة إل بروغْرِسو الصناعية، القريبة من طريق نوغالِسْ وآخر بيوت ضاحية غوادالوبِّ فيكتوريا. كانت يومَ اختفائها تعمل في النوبة الثالثة في المعمل، من التاسعة ليلاً وحتى الخامسة صباحاً. جاءت، بحسب رفيقاتها إلى العمل في الموعد الدقيق، كما تفعل دائماً، فمارغاريتا كانت مخلصة ومسؤولة، مثل القليلات، ما يجعل احتمال اختفائها يقع في ساعة تبديل النوبة والخروج. ومع ذلك لا أحد رأى شيئاً في تلك الساعة، لأسباب منها أنّ الوقت في الخامسة أو الخامسة والنصف صباحاً كان ما يزال مظلماً، والإنارة العامّة في الشوارع شحيحة. معظم بيوت القسم الشمالي من ضاحية غوادالوبِّ فيكتوريا كانت تفتقر للنور الكهربائي. في مخارج المنطقة الصناعية، باستثناء تلك المتصلة بالطريق العام المؤدي إلى نوغالِسْ، كانت الإضاءة كما التعبيد وكما التمديدات الصحيّة سيّئة: جميع مخلفات المنطقة كانت تصبّ في ضاحية لاس روسيتاس، حيث تُشكل بُحيرة من الطين الذي تُبيضه الشمس. هكذا إذن غادرت مارغريتا لوبِّتْ عملها في الخامسة والنصف صباحاً. ثُبِّتَ هذا. خرجت بعدها مشياً في شوارع المنطقة الصناعية المظلمة. ربّما رأت شاحنة صغيرة كانت تقف كلّ يوم في ساحة مَقفرة، بجانب مرآب معمل دبليو إس-أي إن سي.، تبيع قهوة بالحليب والمرطبات والعجّة بكلّ أنواعها للعمال، الذين كانت غالبيّتهم من النساء، الذين يدخلون ويخرجون. لكنّها لم تكن جائعة أو كانت تعرف أنّ الطعام ينتظرها في بيتها فلم تتوقّف. خلّفت وراءها المنطقة ووهج أضواء المعامل التي راحت تبتعدُ في كلّ مرّة أكثر. عبرت الطريق المؤدي إلى نوغالِسْ ودخلت في أوّل شوارع ضاحية غوادالوبِّ فيكتوريا. لم يكن عبورها ليستغرق أكثر من نصف ساعة. تظهر بعدها ضاحية بارتولومِهْ حيث كانت تعيش. بالمجمل هي خمسون دقيقة من

المشي. لكنّ شيئاً ما حدث في مكان ما من الطريق أو أنّ شيئاً انكسر للأبد وقالوا لأمّها بعد ذلك إنّها قد تكون قد هربت مع رجل. لكنّ عمرها لا يتعدّى السادسة عشرة، قالت الأمّ، وهي ابنة صالحة. بعد أربعين يوماً عثر بعضُ الأطفال على جثّتها بالقرب من كوخ في ضاحية مايتورِنا. كانت يدها اليسرى تستند إلى أوراق نبتة هواكو. لم يستطِع الطبيب الشرعي نظراً لحالة الجثة أن يسجّل سبب الموت. لكنّ أحدَ رجال الشرطة الذين جاؤوا لرفع الجثّة فعلاً كان قادراً على أن يُحدّد نبتة الهواكو. هي جيّدة للسع البعوض، قال وهو ينحني ويأخذ بعض الوريقات الخضراء الرمحيّة والقاسية.

في تموز لم تحدث أيّ عملية قتل. كذلك الأمرُ في آب.

في تلك الأيّام أرسلت صحيفة *لا راثون* من العاصمة الفيدرالية، سِرخيو غونثالِث ليكتب تحقيقاً عن التائب. كان سِرخيو غونثالِث في الخامسة والثلاثين من عمره، وكان قد طّلق حديثاً ويحتاج إلى أن يكسب مالاً بأيّ وسيلة. في الحالة الطبيعية ما كان ليقبل التكليف، فهو لم يكن صحفيَّ تقارير بوليسية بل صحفيّاً في الصفحات الثقافيّة. كان يكتب تعريفاتٍ بكتب فلسفة، بالمناسبة لم يكن أحدٌ يقرأ لا الكتب ولا تعريفاته بها، وكان يكتب من حين لآخر عن الموسيقى ومعارض الرسم. كان منذ ما يُقارب الأربع سنوات يعمل في هيئة تحرير *لا راثون* ولم يكن وضعه الاقتصادي مريحاً، لكنّه مقبولاً، إلى أن وقع الطلاق وعندها نقصه المال لكلّ شيء. وبما أنّه لم يعد باستطاعته في قسمه (حيث كان يكتب أحياناً باسم مُستعار كي لا ينتبه قرّاؤه إلى أنّ كلّ صفحاته كتبها هو) أن يعمل أكثر، فقد بدأ يضغط على رؤساء الأقسام الأخرى كي يحصل على أعمالٍ إضافيّة تسمح له بأن يُحافظ على توازن دخوله الشحيحة. هكذا ظهر اقتراح أن ينتقل

إلى سانتا تِرِسا، أن يكتبَ قصّةَ التائب ويعود. الذي اقترح عليه العمل هو مدير مجلّةِ الصحيفة الأسبوعيّة، الذي كان يشعر بالتقدير تجاه غونثالِث والذي كان يُفكّرُ أنّه بهذا العرض يصيب عصفورين بحجرٍ واحد: فمن جهة يكسب هذا مالاً إضافيّاً ومن جهة أخرى يأخذ استراحة لثلاثة أو أربعة أيّام في الشمال، وهي منطقة حسنة الطعام وهواؤها صحّي، وينسى زوجته. هكذا سافر سِرخيو غونثالِث في تموز ١٩٩٣ بالطائرة إلى هِرموسيّو ومن هناك استقلّ حافلةً إلى سانتا تِرِسا. الحقيقة أنّ تغيير الجوِّ بدا أنّه لاءمه تماماً. سماء هِرموسيّو، ذات الزرقة الكثيفة، التي تكاد تكون معدنيّة والمضاءة من الأسفل، ساهمت في رفع معنوياته فوراً. الناس في المطار ثمّ في شوارع المدينة، بدوا له لطيفين، خليّي البال، كما لو أنّه في بلد أجنبي، ولا يرى غير الجانب الحسن من سكانه. كان الانطباع الذي تركته عنده سانتا تِرِسا أنّها مدينة ناشطة والعاطلون عن العمل فيها نادرون جدّاً، نزل في فندق رخيص في وسط المدينة، اسمه لا أواسيس[1]، في شارع كان يفخر ببلاط عصر الإصلاح، زار بعدها بقليل مكاتب تحرير *إل هِرالدو دِل نورتِ* و *لا بوث دِ سونورا* وتحدّث طويلاً مع الصحفيين المُتابعين لقضيّة التائب، الذين دلّوه على كيفية الوصول إلى الكنائس الأربعة المُدنّسة، التي زارها في يوم واحدٍ بمرافقة سائق سيارة أجرة كان ينتظره في الباب. استطاع أن يتكلّم مع قسّيْن، قسّي كنيستَيّ سان تاديو وسانتا كاتالينا، اللذين لم يقدّما لبحثه إلا القليل من المعلومات، وإن اقترح عليه قسُّ كنيسة سانتا كاتالينا أن يفتح عينيه جيّداً، فمُدنِّس الكنائس، القاتل الآن، لم يكن برأيه، عيب سانتا تِرِسا الأسوأ. في قسم الشرطة سهّلوا له نسخة عن الصورة التقريبية وحصل على موعد كي يتكلّم مع خوان دِ ديوس مارتينِث، المُحقّق المُكلّف بالقضيّة. في

(١) الواحة.

المساء تكلّم مع رئيس بلدية المدينة، الذي دعاه للغداء في المطعم المجاور للمجلس البلدي، وهو مطعم جدرانه حجرية تُحاول أن تُقلّد شيئاً من أبنية المرحلة الاستعمارية دون نجاح. ومع ذلك كان الطعام ممتازاً وقد أخذ رئيس البلدية وعضوان أقل مرتبة منه على عاتقهم أن يجعلوا الغذاء مبهجاً برواية القيل والقال والنكات المحلّية رافعين عيارَ الجرأة. عبثاً حاول في اليوم التالي أن يحصل على مقابلة قائد الشرطة، فقد جاء إلى الموعد موظّف، بالتأكيد هو مسؤول الصحافة في قسم الشرطة، وهو رجل شاب متخرّج من كلّية الحقوق قبل وقت قصير أعطاه إضبارة فيها كلّ المعلومات التي يمكن أن يحتاجها صحفيّ كي يكتب تقريراً عن التائب. كان اسم الشخص ثامونيو، ولم يكن عنده في تلك الليلة أفضل من مرافقته. تناولا عشاءهما معاً. ذهبا بعدها إلى مرقص. لم يكن سِرخيو غونثالِث يتذكّر أنّه وطئ مرقصاً منذ كان في السابعة عشرة من عمره. قال ذلك لِثامونيو فضحك الأخير. دعيا بعض الفتيات للشرب. كنّ مِنْ سينالوَا وكان يُلاحظ على الفور من ثيابهنّ أنّهنَّ عاملات. سأل سِرخيو غونثالِث تلك التي كان من نصيبه أن تكون مرافقته عمّا إذا كانت تُحبُّ الرقصَ، فأجابته أنّه أكثر ما تُحبّه في الحياة. بدا له الجواب ذكيّاً، دون أن يعرف لماذا ومحزناً جدّاً أيضاً. سألت الفتاة بدورها ماذا يفعل ابنُ عاصمة مثله في سانتا تِرِسا فقال لها إنّه صحفيّ وإنّه يكتب مقالاً عن التائب. لم تبدُ مندهشة من بوجهِ، ثمَّ إنّها لم تقرأ قط لا *رائون*، وهو ما صعب على غونثالِث تصديقه. في حديث جانبي قال له ثامونيو إنّ باستطاعتهما أن يأخذاهما إلى الفراش. بدا له وجهُ ثامبوديو المشوّه بالأضواء المتحرّكة، وجهَ مجنون. هزّ غونثالِث كتفيه.

استيقظ في اليوم التالي وحده في فندقه بإحساس من رأى أو سمع شيئاً ممنوعاً. على كلّ الأحوال كان شيئاً غير مناسب وغير مُوَات.

حاول أن يجري مقابلةً مع خوان دِ ديوس مارتينِثْ. لم يجد في مكتب المحقّقين غير شخصين اثنين يلعبان بالنرد، بينما كان هناك ثالث ينظرُ إليهما. كان الثلاثة مُحَقِّقين. عَرَّفَ سِرخيو غونثالِث بنفسه ثمّ جلس على كرسيٍّ ينتظرُ، فقد قالوا له إنّ خوان دِ ديوس مارتينِثْ لن يتأخر في الوصول. كان المُحقّقون يرتدون ستراتٍ وثياباً رياضيّة. كان عند كلّ واحد من اللاعِبَيْن فنجاناً من الفاصوليا ومع كلّ رمية زهر يُخْرِجُ من فنجانه بضعة حبات منها ويضعها في وسط الطاولة. استغرب غونثالِث أن يقوم شخصان بمثل مكانتهما بالمراهنة على حبات فاصوليا، لكنّه استغرب أكثر حين رأى أنّ بعض حبات فاصوليا الوسط تنطّ. نظر بانتباهٍ وبالفعل رأى أنّ حبّة أو حبّتين كانتا تنطان من حين لآخر، ليس عالياً، نطّاتٍ بارتفاع أربعة سنتيمتراتٍ أو سنتيمترين. لكنّها على كلّ الأحوال نطّات. لم يكن اللاعبان يوليان انتباهاً لحبات الفاصوليا، كانا يضعان قطع الزهر، كانت خمساً، في كأسٍ، يُحرّكانها وبضربة جافّة يتركانها تسقط على الطاولة ومع كلّ رمية من اللاعب أو من خصمه يلفظان كلمات لم يكن غونثالِث يفهمها، ففي هناك، مسحوق، مسلوخ، أو مجنون، أو أحوص، كرة الغضار، أو سارح، أو عزقة، كما لو أنّهم ينطقون بأسماء آلهة أو خطوات لغزٍ حتى هم لا يفهمونها، لكن عليهم جميعاً أن يمتثلوا لها. كان المُحقّق الذي لم يكن يلعبُ يُحرّكُ رأسه بالإيجاب. سأله سِرخيو غونثالِث عمّا إذا كانت حبّات الفاصوليا نطّاطة. نظر إليه المُحقّق وأكّد برأسه. لم أرَ قط في حياتي هذا الكم، قال. حقيقة، لم يرَ قطّ واحدة، قال. حين وصل خوان دِ ديوس مارتينِثْ استمرّ المُحقّقان باللعب. كان خوان دِ ديوس مارتينِثْ يرتدي طقماً رماديّاً، مجعّداً قليلاً، وربطةَ عنق خضراء غامقة. جلسا بجانب طاولته، التي كانت الأكثر ترتيباً في المكتب، بحسب ما استطاع غونثالِث أن يتبيَّن. تكلّما عن التائب، كان التائبُ، بحسب ما قال له المُحقِّقُ، وطلب منه ألا ينشره، مريضاً. ما مرضه؟، همس غونثالِث،

حين انتبه إلى أنّ خوان دِ ديوس مارتينِثْ لم يكن يريد أن يسمعهما زملاؤه. رهاب المُقدّس، قال المُحَقِّق. وما هذا؟، سأل غونثالِث. خوف واشمئزاز من الأشياء المُقدَّسة، قال المُحَقِّق. بحسب هذا، لم يكن التائبُ يدنِّسُ الكنائس بقصد القتل المدروس. كان القتل عرضيّاً، الشيء الوحيد الذي كان يريده التائبُ هو أن يُفرِّغ شحنات غضبه على تماثيل القدّيسين.

لم تتأخّر الكنائس التي دنّسها التائبُ زمناً طويلاً في تجميع القطع المكسورة ومن ثمّ ترميمها بشكل نهائيّ، باستثناء كنيسة سانتا كاتالينا، التي بقيت زمناً تماماً كما تركها التائبُ. ينقصُنا المالُ لأشياء كثيرة، قال قسٌّ ثيوداد نوبا، الذي كان يظهر مرّة واحدة في اليوم في ضاحية لوماس دِل تورو ليقيم القدّس ويُنظِّف، موحياً بذلك بأنَّ هناك أولويّات أهمّ، أو ملحّة أكثر من إصلاح التماثيل المُقدّسة المحطّمة. بفضله علم سِرخيو غونثالِث في المرّة الثانية والأخيرة التي رآه فيها أنّه كانت تُرتكب في سانتا تِرِسا، إضافة إلى تدنيس الكنائس، جرائم ضدّ النساء، ومعظمها بقي غامضاً. بينما كان القسّ يكنسُ بقي برهةً يتكلّم ويتكلّم: عن المدينة عن تقاطر المهاجرين من أمريكا الوسطى، عن مئات المكسيكيين الذين يصلون يوميّاً بحثاً عن عمل في المعامل، أو ليُحاولوا العبورَ إلى الجانب الأمريكي الشمالي، عن مهرّبي الناس، عن رواتب البؤس التي كانت تُدفع في المعامل، وكيف أنّ تلك الرواتب كانت مع ذلك محلّ طمعٍ من قبل اليائسين الذين كانوا يصلون من كِرِتارو أو من زاكاتيكاس أو من أواكساكا، مسيحيون يائسون، قال القسُّ، تعبير غريب يأتي تحديداً على لسان قسّ، كانوا يسافرون بطرق لا تُصدّق، أحياناً وحدهم وأحياناً أخرى بأسرهم على كاهلهم، كي يصلوا إلى خطّ الحدود وعندها فقط يرتاحون، أو يبكون، أو يُصَلّون أو يسكرون ويتناولون المخدّرات أو يرقصون حتى يسقطوا منهكين. كان

لصوت القسّ نبرة الترتيل وللحظة أغمض سِرخيو غونثالِث عينيه بينما هو يُصغي إليه فأوشك على أن ينام. خرجا بعدها إلى الشارع وجلسا على درجات طوب الكنيسة. قدّم له القسّ سيجارة كاميل وراحا يُدخّنان وهما ينظران إلى الأفق. وأنت، ماذا تفعل في العاصمة الفيدرالية إضافة إلى أنّك صحفيّ؟، سأله. فكّر سِرخيو غونثالِث بالجواب لثوانٍ، بينما هو يستنشق دخان سيجارته، ولم يخطر بباله شيء. أنا مُطلّق توّاً، قال له، ثمّ إنّني أقرأ كثيراً. ما نوع الكتب؟، أراد القسّ أن يعرف. كتب فلسفة، خاصّة كتب فلسفة، قال غونثالِثْ. وهل أنتَ تُحبّ القراءة أيضاً؟ مرّ طفلان يركضان وحيّيا القسَّ باسمه، دون أن يتوقّفا. رآهما غونثالِث يعبران خلاء كانت تُزهر فيه أزهار حمراء كبيرة جدّاً، واجتازا بعدها الجادّةَ. طبعاً، قالَ القسُّ. ما نوع الكتب؟ سأله. لاهوت التحرّر، على الأخص، قال القسُّ. يُعجبني بوف والبرازيليون. لكنّني أيضاً أقرأ رواياتٍ بوليسية. نهض غونثالِث وأطفأ عقب سيجارته بنعل حذائه. سُعِدتُ بمعرفتك، قال. شدّ القسّ على يده وهزّ رأسه بالموافقة.

في اليوم التالي، صباحاً أخذ سِرخيو غونثالث الحافلة إلى هِرموسيّو وهناك أخذ بعد انتظار دام أربع ساعات الطائرةَ إلى العاصمة الفيدرالية. سلّم بعد يومين مديرَ المجلة الأحدِيّة مقالته عن التائب ونسي على الفور كلّ القضيّة.

رهاب المقدّس، ما هذا؟، سأل خوان دِ ديوس مارتينِثْ المُديرةَ. نَوِّريني قليلاً. قالت المُديرة إنّ اسمها إلبيرا كامبوس وطلبت كأسَ ويسكي. وطلب خوان دِ ديوس مارتينِثْ بيرة وتأمّل المكان. في الشرفة عازف أكورديون، تليه عازفة كمان يُحاوِلان عبثاً أن يلفتا انتباه شخصٍ كان يرتدي ثياباً كأنّه صاحب مزرعة. تاجر مخدرات، فكّر خوان دِ

ديوس مارتينِثْ، مع أنّه ولأنّ ظهره كان إليه لم يتمكّن من معرفته. رهابُ المُقدّس هو الخوف أو النفور من الأشياء المقدّسة وبشكل خاص من أشياء دينكَ ذاته، قالت إلبيرا. فكّر بأن يُعطي مثلاً دراكولا، الذي كان يهرب من تماثيل وصورِ المسيح المصلوب، لكنّه افترض أن المُديرةَ ستضحك منه. وهل تظنّين أن التائب كان يعاني من رهاب المقدّس؟ فكّرتُ بالأمر وأعتقدُ أنّه كذلك. منذ يومين انتزع أحشاءَ قسٍّ وشخصٍ آخر، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. كان عازف الأكورديون فتيّاً جدّاً، لا يتجاوز العشرين من عمره وكان أيضاً دائريّاً مثل تفاحة. ومع ذلك كانت حركاتُهُ حركات شخصٍ تجاوز الخامسة والعشرين، إلّا عندما كان يبتسم، الشيء الذي كان يفعله كثيراً، وعندها كان المرء ينتبه فوراً إلى فتوّته وعدم خبرته. لم يكن يحمل السكين كي يؤذي أحداً، كي يؤذي أيَّ كائن حيٍّ، بل كي يُمزّق الصور التي يجدها في الكنائس، قالت المُديرةُ. هل نتخاطب دون كلفة؟ سألها خوان دِ ديوس مارتينِثْ. ابتسمت إلبيرا كامبوس وحرّكت رأسَها بالموافقة. أنت امرأة جذّابة جدّاً، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. نحيلة وجذّابة. وأنت ألا تحبّ النساء النحيلات؟، سألته المُديرة. كانت عازفة الكمان أطول من عازف الأكورديون وترتدي بلوزة سوداء وسروالاً أسودَ لصيقاً. كان شعرها مسبلاً وطويلاً يصل إلى خصرها وكانت تُغمض عينيها أحياناً، خاصّة حين كان عازف الأكورديون يغنّي إضافة إلى أنّه يعزف. أكثر ما كان يُحزن، فكّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ هو أنّ تاجر المخدّرات أو ظهر تاجر المُخدرات المفترض لا يكاد ينظر إليهما، مشغولاً بالحديث مع شخص له جانبُ نمسٍ ومع عاهرة لها جانب قطّة. هل نتخاطب دون كلفة؟، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. هو كذلك، قالت المُديرة. وأنتِ هل أنت واثقة من أنّ التائبَ كان يعاني من رهاب المقدّس؟ قالت له المُديرةُ إنّها نظرت في أرشيف مشفى الأمراض العقلية لترى ما إذا كانت ستعثر على مريض سابق تنطبق عليه مواصفات التائب. كانت

النتيجة صفراً. بحسب العمر الذي تقول إنّه له، يمكنني أن أؤكّد أنّه نزيل أحد مراكز الصحة النفسيّة. راح عازف الأكورديون فجأة يطرق الأرضَ بقدميه. لم يكونا يَسمعانه من حيث كانا، لكنّه كان يقوم بحركات بشفتيه وحاجبيه، ثمّ يخرّب شعره بيدٍ فيبدو أنّه يُقهقِه. كانت عازفة الكمان مُغمَضةَ العينين. تحرّكت نقرةُ تاجر المخدرات. فكّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ أنّ الفتى حقّق أخيراً ما كان يريده. ربّما كان له ملفّ في أحد مراكز هِرموسيّو أو تيخوانا النفسيّة. لا أظنّ أن تكون بطاقته السريرية غريبة جدّاً. ربّما كان يتناول حتى وقت قريب مهدّئات. ربّما انقطع عن تناولها، قالت المُديرة. هل أنت متزوّجة، هل تعيشين مع أحدٍ؟، سأل خوان دِ ديوس بصوت واهِن. أعيش وحدي، قالت المُديرةُ. لكن عندك ثلاثة أولاد، رأيتُ الصور في مكتبك. عندي ابنة، متزوّجة. شعر خوان دِ ديوس مارتينِثْ بأنّ شيئاً ما قد انعتقَ في داخله فضحك. لا تقولي لي إنّهم عملوا منكِ جدّة. هذا ما لا يُقال أبداً لامرأة، أيّها الشرطيّ. كم عمرك؟ سألتهُ المُديرة. أربعة وثلاثون عاماً، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. أصغر منّي بسبعة عشر عاماً. لا يظهر عليك أنّكِ تتجاوزين الأربعين، قال المُحقّق. ضحكت المُديرة: أمارس الرياضة كلَّ يومٍ، لا أُدخِّنُ، أشربُ قليلاً، لا آكل إلا الأشياء الصحيّة، سابقاً كنتُ أجري في الصباحات. والآن ما عدتِ؟ لا، اشتريتُ الآن سَيْراً متحرّكاً. ضحك الاثنان. أستمعُ إلى باخ بالسماعاتِ وأجري عادةً ما بين الخمسة والعشرة كيلومترات يوميّاً. رهاب المُقدّس. لو قلتُ لرفاقي إنّ التائب يُعاني من رهاب المُقدّس، لكان عليّ أن أسهب قليلاً. نهض الشخصُ الذي له هيئة نمسٍ وهمس شيئاً في أذن عازف الأكورديون. عاد بعدها ليجلس وبقي عازف الأكورديون وعلامة انزعاج مرتسمة على شفتيه. مثل طفل يوشك أن ينفجر بالبكاء. كانت عازفة الكمان مفتوحة العينين وتبتسم. تاجر المخدرات والعاهرة التي لها جانب وجهِ قطّة لصقا رأسيهما الواحد

بالآخر. كان أنف تاجر المخدِّرات كبيراً وناشزَ العظم وتعلوه ملامح الأرستقراطيّ. لكنّ أرستقراطيّ ماذا؟ كان وجه عازف الأكورديون باستثناء شفتيه شاحباً. موجات مجهولة اخترقت صدر المُحقّق. هذا العالم غريب وآسر، فكّر.

هناك أشياء أكثر غرابة من رهاب المقدّس، قالت إلبيرا كامبوس، خاصَّةً إذا أخذنا بعين الاعتبار أنّنا في المكسيك، وأن الدِّينَ هنا كان دائماً مشكلة، عمليّاً يمكنني أن أقول إنّنا جميعاً نحن المكسيكيين، نُعاني في أعماقنا من رهاب المُقدّس. فَكِّرْ، مثلاً، بخوفٍ كلاسيكيّ، رهاب الجسور. هو شيء يُعاني منه أشخاص كثيرون. ما هو رهاب الجسور؟، سأل خوان دِ ديوس مارتينِثْ. هو الخوف من عبور الجسور. صحيح، أنا تعرّفت على شخص، حسن، في الحقيقة كان طفلاً، كان في كلّ مرّةٍ يعبر فيها جسراً يخافُ أن ينهار الجسر، وهكذا كان يعبره راكضاً، وهو ما كان بالنتيجة أخطر. إنّه خوف كلاسيكيّ، قالت إلبيرا كامبوس. خوف آخر هو رهاب الأماكن المغلقة، رهاب الأماكن المغلقة. وآخر: رهاب الأماكن المفتوحة، الخوف من الأماكن المفتوحة. هذا أعرفه، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. خوف آخر كلاسيكي هو رهاب الموت. الخوف من الموتى، عرفت ناساً من هذا النوع. لو عملتِ شرطية لوجدتِ أنّه عبء. هناك أيضاً رهاب الدم، الخوف من الدم. صحيح تماماً، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. ورهاب ارتكاب الذنوب، ثمّ إنّ هناك أنواعاً أخرى من الرهاب غريبة جدّاً. مثلاً رهاب السرير. هل تعرف ما هو؟ ليس عندي أدنى فكرة، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. الخوف من الأسِرّة. هل يمكن لأحدٍ أن يخاف من السرير أو أن يكره السرير؟ بلى، هناك ناس يخاف من السرير. لكنّ هذا يُمكن أن يُخفّف منه بالنوم على الأرض وبعدم الدخول أبداً إلى غرفة نوم، ثم هناك رهاب الشَّعْر. الذي هو الخوف

من الشَّعْر. شيء أكثر تعقيداً بقليل، أليس صحيحاً؟ في غاية التعقيد. هناك حالات من رهاب الشعر ينتهي أصحابها إلى الانتحار. أيضا هناك رهابُ الكلمة. الذي هو الخوف من الكلمات. في هذه الحالة الأفضل هو أن يبقى المرءُ ساكتاً، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. إنّه شيء أكثر تعقيداً من هذا، لأنّ الكلمات موجودة في كلّ مكان، حتى في الصمت، الذي ليس أبداً صمتاً مطلقاً، أليس صحيحاً؟ ثمّ هناك رهابُ الملابس. يبدو غريباً، لكنّه أكثر انتشاراً مما يبدو. وخوف آخر عامّ نسبياً هو رهاب الأطباء، الذي هو الخوف من الأطباء. أو رهابُ النساء، الذي هو الخوف من النساء، الذي بالطبع وحدهم الرجال من يعانون منه. وهذا منتشر جدّاً في المكسيك، وإن تخفّى بأكثر الملابس تنوّعاً. أليس في هذا بعض المُبالَغة؟ ولا قيد شعرة: جميع المكسيكيين يخافون من النساء. لا أعرف ماذا أقول لكِ، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. ثمّ إنّ هناك خَوْفَيْن رومانسيين جدّاً: رهاب المطر ورهاب البحر، اللذان هما على التوالي الخوف من المطر والخوف من البحر. وخوفان آخران فيهما أيضاً بعض الرومانسية: رهاب الأزهار، الذي هو الخوف من الأزهار ورهاب الشجر، الذي هو الخوف من الأشجار. يُعاني بعضُ المكسيكيين من رهاب المرأة، قال خوان دِ ديوس، لكن ليس الجميع، لكن لا تكوني هيّابة. ماذا تظنّ رهاب البصر؟ قالت المُديرة. البصر، البصر، شيء له علاقة بالعيون، تصوّر، الخوف من العيون؟ بل والأسوأ: الخوف من فتح العيون. بالمعنى المجازي يجيب هذا على ما قلناه توّاً عن رهابِ النساء. بالمعنى الحرفي ينتج اضطرابات عنيفة، غياباً عن الوعي، هلوساتٍ بصرية وسمعية وسلوكاً عامّةً ما يكون عدوانيّاً. أعرف، طبعاً ليس شخصيّاً، حالتين وصل فيهما المريض حدّ بتر أعضاء من جسمه. هل اقتلع عينيه؟، سأل. بإصبعيه، بأظافره، قالت المُديرةُ. يا إلهي، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ، ثم هناك رهاب الأطفال، الذي هو الخوف من الأطفال،

رهاب الرصاص الذي هو الخوف من الرصاص. هذا الرهابُ رُهابي، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. بلى، أعتقد أنّه شعور عام، قالت المُديرة. ثمّ إنّ هناك رهاب، في ازدياد هو رهاب المكان، الذي هو الخوف من تغيّر الوضع أو المكان، الذي يمكن أن يتفاقم إذا ما تحوّل رهابُ المكان إلى رهاب العبور، الذي هو الخوف من الشوارع أو من عبور الشارع. هذا دون أن ننسى رهاب الألوان، الذي هو الخوف من بعض الألوان. أو رهاب العتمة الذي هو الخوف من الليل، أو رهاب العمل، الذي هو الخوف من العمل. هناك خوف منتشر جدّاً هو رهاب القرار، الذي هو الخوف من اتخاذ القرارات. وهناك خوف بدأ ينتشر حديثاً هو رهاب الناس، والذي هو الخوف من الناس. بعض الهنود يعانون من خوف حادٌ جدّاً هو رهاب العواصف، والذي هو الخوف من الظواهر الجوّية، مثل الرعود والصواعق والبروق. لكن هناك رهاباتٍ أسوأ، بحسب فهمي، مثل رهاب الكلّ، الذي هو الخوف من كلّ شيء، ورهاب الخوف، الذي هو الخوف من الخوف ذاته. ما الذي ستختاره إذا اضطررت للاختيار؟ الخوف من الخوف قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. له مضارّه، فَكِّرْ جيّداً، قالت المُديرةُ. بين الخوف من كلّ شيء والخوف من خوفي ذاته، أختارُ هذا الأخير. لا تنسي أنّني شرطيّ وإذا ما خفت من كلّ شيء لن أستطيع أن أعمل. لكن إذا خفت من خوفك يمكن لحياتك أن تتحوّل إلى مراقَبَة مستمرة للخوف، وإذا ما نشط هذا فما ينتج هو نظام يُغذّي نفسه بنفسه، وهو عقدة سيكون من الصعب عليكَ أن تفلت منها، قالت المُديرة.

كان خوان دِ ديوس مارتينِثْ وإلبيرا كامبوس قد ذهبا إلى السرير قبل أن يظهر سِرخيو غونثالِث في سانتا تِرِسا بأيّام قليلة. ليس في هذا أيّ شيء من الجدّية، نبّهت المديرة المُحقّقَ، لا أريدك أن تكوّنَ فكرةً زائفة عن علاقتنا. أكّد لها خوان دِ ديوس مارتينِثْ أنّها هي من تضع

حدوداً وأنّه سيقتصر هو على احترام قراراتها. كان اللقاء الجنسي الأوّل بالنسبة للمُديرة مرضياً. حين عادا والتقيا، بعد خمسة عشر يوماً، كانت النتيجة أفضل من سابقتها. كان هو أحياناً من يهتف لها، حين تكون ما تزال بعدُ في مركز الأمراض العقلية وكانا يتكلّمان لخمسِ دقائق، وأحياناً لعشرِ دقائق حول ما جرى معهما خلال النهار. حين كانت تهتف هي له كانا يتواعدان، دائماً في بيت إلبيرا، وهو شقّة جديدة في ضاحية ميتشواكان، في شارع بيوته تعود للطبقة نصف العليا، حيث كان يعيش أطباء ومحامون وبضعة أطباء أسنان وأستاذ أو أستاذان جامعيان. كانت اللقاءات مصمّمة من مصمّم واحد. كان المُحقّق يترك سيارته مصفوفة على الرصيف، يصعد في المصعد، حيث يستغل الوقتَ لينظر إلى نفسه في المرآة ويتأكّد من أنّ مظهره، ضمن محدودياته، التي كان أول من يُعدّدها عن ظهر قلب، لا عيب فيه، يقرع بعدها جرس بابِ المُديرة قرعاً قصيراً فتفتح له هذه، يتبادلان السلام مصافحةً أو دون أن يلمس بعضهما بعضاً، يتناولان بعدها مُباشرةً كأساً جالسين في الصالون، وهما يتأملان جبالَ الشرق، التي تبدأ تعتم من خلال الأبواب البلوريّة المؤدية إلى الشرفة، حيث يوجد إضافة إلى كرسيّين من خشبٍ وقماش سميك ومظلة مطوية في مثل تلك الساعات، درّاجة ثابتة بلون رماديّ معدنيّ. يذهبان بعدها دون مقدّمات إلى غرفة النوم ليمارسا الحبَّ خلال ثلاث ساعات. حين كانا ينتهيان كانت المُديرة ترتدي دثاراً حريرياً أسودَ اللون، وتغلق على نفسها الحمّام. حين كانت تخرج يكون خوان دِ ديوس مارتينِتْ قد ارتدى ملابسه وجلس في الصالون، يتأمّل، ليس الجبال بل النجومَ التي كانت تُرى من الشرفة. كان الصمت مُطلقاً. كانوا أحياناً يُقيمون في حديقة أحد البيوت المُجاورة حفلة فيتأملان الأضواء والناسَ الذين يتمشون أو يتعانقون بجانب المسبح، أو يدخلون ويخرجون، كما لو أنّ المصادفة وحدها دليلهم، من تحت المظلات التي نُصِبت للمناسبة، أو من تحت

العرائش الخشبية والمعدنية. لم تكن المُديرة تتكلّم وكان خوان دِ ديوس مارتينِثْ يكبتُ الرغبة التي كان يشعر بها لأنّ يسأل أو يحكي لها أشياء من حياته، لم يحكها لأحد. كانت تُذَكّره بعدها، كما لو أنّه هو من طلب منها ذلك، بأنّ عليه أن يذهبَ، فيقول المُحقّق صحيح أو ينظر عبثاً إلى ساعته ويذهب على الفور. كانا يعودان ليلتقيا بعد خمسة عشر يوماً وكان كلّ شيء يجري مماثلاً للمرّة الأخيرة. طبعاً لم يكن هناك دائماً حفلات في البيوت المجاورة، وكانت المُديرة لا تستطيع أو لا تريد أن تشرب، لكنّ الأنوار الخافتة كانت دائماً نفسها، والاستحمام دائماً يتكرّر، المساءات والجبال لا تتبدّل، النجوم هي ذاتها.

سافر بِدرو نِغْرِتِ في تلك الأيام إلى بيّابيثيوسا كي يحصل على رجل موثوقٍ لصديقه بِدرو رِنخيفو. التقى عدداً من الشبّان. درسهم. وجّه إليهم بعض الأسئلة. سألهم عمّا إذا كانوا يعرفون الرماية. سألهم عمّا إذا كان يستطيع أن يضع ثقته فيهم. سألهم عمّا إذا كانوا يحبّون أن يكسبوا مالاً. كان قد مضى عليه زمنٌ لم يذهب فيه إلى بيّابيثيوسا وبدت له البلدة كما في آخر مرّة. بيوت منخفضة، من طوب فيها فناءات أمامية صغيرة؛ باران ودكان أغذية فقط. إلى الشرق تدرّجات سلسلة جبلية يبدو أنّها تبتعد وتقترب، بحسب منازل الشمس والظلال. حين اختار شابّاً جعلهم يستدعون إيبفانيو وسأله جانبياً ما رأيه به. من منهم، يا مُعلّم؟ أفتاهم، قال نِغْرِتِ. نظر إليه إيبفانيو كما لو عرضياً ثمّ نظر إلى الآخرين ثمّ قال قبل أن يعود إلى السيّارة، لا بأس به، لكن من يدري. بعدها ترك نِغْرِتِ عجوزين من القرية يدعوانه. كان واحد منهما نحيلاً جدّاً، يرتدي البياض ويستعمل ساعة مغطسة بالذهب. من تجاعيد وجهه يمكن أن يُقدَّر أنّه يتجاوز السبعين عاماً. كان الآخر أكبر سنّاً وأنحل ولا يرتدي قميصاً. كان قصير القامة وصدره ملئاً بالندب التي تُغطيها الترهلات الجلدية جزئيّاً. شربوا

البولكِ ومن حين إلى آخر كؤوس ماء هائلة، لأنّ البولْكِ[1] كان مالحاً ويسبّب العطش. تحدّثوا عن الأمعاز الضائعة في التل الأزرق وعن ثقوب في الجبال. نادى نِغْرِتِ خلال فاصلٍ، دون أن يعطي الأمرَ أهمية كبير،ة الفتى وقال له إنّه اختاره. هيّا، اذهب وودّع أمك، قال له العجوز عاري الجذع. نظر الفتى إلى نِغْرِتِ ثمّ نظر إلى الأرض، كما لو أنّه يُفكّر بما سيجيبه به، لكنّه سرعان ما غيَّر رأيه، لم يقل شيئاً وذهب. حين خرج نِغْرِتِ من البار وجد الفتى وإيبفانيو يتناقشان مستندين إلى رفرف السيارة.

جلس الفتى بجانبه، في المقعد الخلفي. جلس إيبفانيو وراء المِقوَد. حين خلّفا وراءهم شوارعَ بيّابيثيوسا الترابية وراحت السيارة تدور في الصحراء سأله قائد الشرطة عن اسمه. إولِغاريو كورا إكبوسيتو، قال الفتى. إولِغاريو كورا إكبوسيتو، قال نِغْرِتِ وهو ينظر إلى النجوم، اسمٌ غريب. لزموا الصمتَ برهةً. حاول إيبفانيو أن يضبط المؤشّر على إحدى إذاعات سانتا تِرِسا، لكنّه لم ينجح فأطفأ المذياع. لمح قائدُ الشرطة من نافذته برقَ صاعقة على بعد كيلومترات كثيرة. وهنا نطّت السيارة فكبحها إيبفانيو ونزل ليرى ماذا حدث. رآه قائد الشرطة يضيع في الطريق ثمّ رأى نور مصباح إيبفانيو. أنزل بلور النافذة وتساءل ما الذي كان يجري. سمعوا صوت طلقة. فتح القائدُ البابَ ونزل. خطى بضع خطوات كي يُنشّط ساقيه، إلى أن ظهرت هيئة إيبفانيو دون عجلة. قتلتُ ذئباً، قال. هيّا بنا نراه، قال قائد الشرطة وعاد الاثنان ليتوغّلا في الظلمة. على الطريق لم تكن تُرى أضواء أيّ سيارة. كان الهواء جافّاً وإن كانت تصل أحياناً هبّات ريحٍ مالحة، كما

---

[1] مشروب عالي الكحول أبيض وكثيف يُحصل عليه من عصير نوع من الكاكتو يسمى الماغويِ، يصنع بشكل أساسي في المكسيك.

لو أنّ هذا الهواء كان قد نظّف قبل وصوله سطحَ مملحةٍ، نظر الفتى إلى لوحة أجهزة قياس السيارة المشتعلة ثمّ رفع يديه إلى وجهه. على بعد أمتارٍ من هناك أمر قائد الشرطة إيبفانيو أن يعطيه المصباح وسلّط الضوء على جسد الحيوان الملقى على الطريق. ليس ذئباً، يا رجل، قال قائد الشرطة. آه، لا؟ انظر إلى شعره. شعر الذئب أنعم، أكثر لمعاناً، كما أنّ الذئاب ليس بمثل هذه البلاهة كي يترك سيارة تصدمه وسط طريق صحراوي. لنرَ، هيا بنا نقيسه، أمسك أنت المصباح. سلّط إيبفانيو ضوء المصباح على الحيوان بينما راح قائد الشرطة يمطّه ويشرع بقياسه بعينيه. الذئب الأمريكي طوله من سبعين إلى تسعين سنتيمتراً، بما في ذلك الرأس، كم تعتقد أنّه يبلغ من الطول؟ بحدود الثمانين؟ قال إيبفانيو. صحيح، قال قائد الشرطة وأضاف: الذئبُ الأمريكي يزن بين العشرة والستة عشر كيلوغراماً. ناولني المصباحَ وارفعه، لن يعضّك. أخذ إيبفانيو الحيوانَ الميت بين ذراعيه. كم تعتقد أنّه يزن؟ بين الاثني عشر والخمسة عشر كيلوغراماً، قال إيبفانيو، مثل ذئب أمريكي. المسألة أنّه ذئب أمريكي، يا رجل، قال قائد الشرطة. سلّطا الضوء على عينيه. ربّما كان أعمى ولذلك لم يرني، قال إيبفانيو. لا، لم يكن أعمى، قال قائد الشرطة بينما كان يتأمّل عيني الذئب الميّتين. تركا بعدها الحيوان بجانب الطريق وعادا إلى السيارة. حاول إيبفانيو أن يضبط من جديد المؤشّر على واحدة من إذاعات سانتا تِرِسا. لم يسمع غير الضجيج فأطفأه. فكّر أنّ الذئب الذي صدمه كان أنثى وأنّها كانت تبحث عن مكان تلد فيه. لذلك لم ترني، فكّر، لكنّ التفسير لم يُرضِهِ. حين ظهرت طلائعُ أضواء سانتا تِرِسا من الألتيّو، كسر قائد الشرطة الصمتَ الذي غرقوا فيه. يا أولِغاريو كورا إكبوسيتو. قال. نعم، يا سيّد، قال الفتى. بماذا يناديك أصدقاؤك؟ بِ لالو، قال الفتى. لالو؟ بلى يا سيّد. هل سمعت، يا إيبفانيو؟ سمعت، قال إيبفانيو، الذي لم يكن بمقدوره أن يتوقّف عن التفكير بالذئب. لالو كورا؟، سأل قائد

الشرطة. نعم، يا سيّد، قال الفتى. هذه مزحة، أليس صحيحاً؟ لا، يا سيّد، هكذا يُناديني أصدقائي، قال الفتى. هل سمعت، يا إبيفانيو، سأل قائد الشرطة وراح يضحك. لالو كورا، لالو كورا، هل التقطت المسألة؟ نعم، واضح، قال إبيفانيو وضحك بدوره. بعد برهة راح الثلاثة يضحكون.

في تلك الليلة نام قائد شرطة سانتا تِرِسا جيّداً. رأى في حلمه أخاه التوأم. كانا في الخامسة عشر من عمرهما وكانا فقيرين ويخرجان ليتنزها فوق بعض التلال المليئة بالجنبات، حيث ستنهض بعد سنوات كثيرة ضاحية ليندبيستا. عبر وهدة كان يذهب إليها الأطفال أحياناً في مواسم المطر ليصطادوا ضفادع الثور، التي كانت سامّة وكان يجب قتلها بالحجارة، بالرغم من أنّه لا هو ولا أخوه كانا مهتمّين بالضفادع بل بالضّباب. كانا يعودان عند المغيب إلى سانتا تِرِسا ويتبعثر الأطفال في البرّية مثل جنود مهزومين. في خارج المدينة كان هناك دائماً حركة مرور لشاحنات، شاحناتٍ تذهب إلى هِرموسيّو أو إلى الشمال أو تذهب إلى نوغالِسْ. كان بعضها يحمل كتابات غريبة: *هل أنت مستعجل؟ مُرّ من تحت.* ويقول آخر. *مرّ على يساري. فقط المس لي حمامتي.* وأخرى *ما رأيك بالجلوس عليه؟* لا هو ولا أخوه كانا يتكلّمان في حلمِهِ، لكن جميع حركاتهما كانت متماثلة، الطريقة ذاتها في المشي، الإيقاع ذاته، حركة الذراعين ذاتها. كان أخوه قد صار أطول منه كفاية، ومع ذلك كانا متشابهين. كانا يدخلان بعدها في شوارع سانتا تِرِسا ويتسكعان على الأرصفة ويتلاشى الحلم شيئاً فشيئاً في ضباب ضاربٍ للصفرةِ مُريح.

في تلك الليلة حلم إبيفانيو بالذئب الأمريكي الأنثى، الذي بقي ممدّداً على حافّة الطريق. كان في الحلم جالساً فوق حجر بازلتي على

بعد أمتار قليلة منه، يتأمّلُ الظلمة، متنبّهاً تماماً ويسمع أنين الذئب الذي تمزّقت أحشاؤه. ربّما كان يعرف أنّه فقد جروه، فكّر إيبفانيو،لكنّه بدل أن ينهض ويطلق عليه طلقة محكمةً في رأسه بقي جالساً لا يفعل شيئاً.
رأى بعدها نفسه يسوق سيارة بِدرو نِغْرِتِ عبر طريق طويل سيتلاشى في السفوح المدبّبة لصخور الجبال المسنّنة. لم يكن يحمل معه أيَّ مسافر. لم يكن يعرف ما إذا كان قد سَرق السيّارة أم أنّ رئيس الشرطة أعارها له. كان الطريق مستقيماً ويستطيع أن يسوق دون مشكلة كبيرة بسرعةِ مئتي كيلومتر في الساعة، بالرغم من أنّه في كلّ مرّة كان يزيد السرعة يسمع صوتاً غيرَ طبيعي، في أسفل هيكل السيارة، كما لو أنّ شيئاً يقفز. كان ينتصب خلفه ذيلٌ هائل من الغبار، كذيل الذئب الهاذي. ومع ذلك كانت الجبال تبدو من بعيد متشابهة، ولذلك توقف إيبفانيو ونزل ليفحص السيارة. للوهلة الأولى بدا كلّ شيء جيّداً، منظومة التوقّف، المحرّك، المُدّخرة، المحاور. فجأة سمع من جديد والسيارة متوقّفة الطرقات فاستدار. فتح صندوق الأمتعة. كان هناك جسم، مربوط القدمين واليدين. خرقة سوداء كانت تُغطّي كامل رأسه. أيّ لعنة هذه، صرخ إيبفانيو في حلمه. ثمّ وبعد أن تبيّن له أنّه ما يزال حيّاً (كان صدره يرتفع وينخفض، ربّما بسرعة أكبر من اللازم، لكنّه كان يصعد ويهبط) أغلق باب صندوق الأمتعة دون أن يجرؤ أن على أن ينزع الخرقة السوداء عن وجهه ويرى من تراه يكون. عاد وصعد إلى السيارة، التي نطّت مع أوّل اندفاعة. في الأفق بدت الجبالُ تحترق أو تتفكّك، ومع ذلك تابع تقدّمه باتجاهها.

في تلك الليلة نام لالو كورا جيّداً. كان السرير طريّاً أكثر من اللازم، لكنّه أغمض عينيه وراح يُفكّر بعمله الجديد، وغفا بعدها بقليل. كان قد زار قبل ذلك سانتا تِرِسا مرّة واحدة برفقة بعض العجائزِ، بائعات الأعشاب، اللواتي كنّ ذاهبات إلى سوق البلديّة. ما

عاد يتذّكر تلك الرحلة تقريباً، فقد كان صغيراً جدّاً. هو الآن أيضاً لم يرَ كثيراً. رأى أضواء طرق المداخل ثمّ حيَّاً مظلمَ الشوارعِ، ثمّ حياً كبيرَ البيوت المحميّة بسياجات عالية مزروعة بشظايا الزجاج. ثمّ رأى طريقاً آخر باتجاه الشرق وسمع صخبَ الريف. نام في بيت صغير بجانب بيت الجنائني، على سرير فردي موجود في زاوية ولا يشغله أحد. البطانية التي تغطّى بها كانت تفوح منها رائحة عرق كريهة. لم يكن يوجد وسادة. على السرير كان هناك كومة من مجلات نساء عاريات وجرائد قديمة وضعها تحت السرير. في الواحدة صباحاً دخل الاثنان اللذان كانا يشغلان السريرين المجاورين. كلاهما كان يرتدي طقماً وربطة عنق عريضة وينتعل جزمة أصحاب مزارع خيالية. أشعلا الضوء ونظرا إليه. قال واحد منهما: إنّه مراهق. شمّ لالو رائحتهما دون أن يفتح عينيه. كانت تفوح منهما رائحة التِكيلا والتشيلاكيلِس والرز بالحليب والخوف. غرق بعدها في النوم ولم يحلم بشيء. في الصباح التالي وجد الشخصين جالسين إلى طاولة في مطبخ بيت الجنائني. كانا يأكلان بيضاً ويُدخنان فتناول كأسَ عصير برتقال وفنجان قهوة فقط ولم يبغِ أن يأكل شيئاً. المسؤول عن أمن بِدرو رِنخيفو كان أيرلندياً ينادونه بات وكان هو من قام بالتعريف الرسمي. لم يكن الرجلان من سانتا تِرِسا ولا من جوارها، أضخمهما جسماً كان من ولاية خاليسكو. الآخر كان من ثيوداد خوارِثْ، في تشيهواهوا. نظر لالو إلى عيونهما ولم يتولد عنده انطباع بأنّهما راميا مسدس بل جبانان. حين انتهى من تناول فطوره أخذه المسؤولُ عن الأمن إلى القسم الأكثر عزلة من الحديقة وسلّمه مُسدَّسَ ديسرت إيغل، مغنوم عيار خمسين. سأله عمّا إذا كان يُحسن استخدامه. قال لا. وضع المسؤول مخزناً من سبع طلقات في المسدّس ثمّ بحث بين الأعشاب عن بعض العلب وضعها على سطح سيارة بلا عجلات. بقيا برهة يرميان. شرح له بعدها المسؤولُ كيف يُعَبّأ المسدّسُ، كيف يوضع

الأمان، أين يجب أن يحمله. قال له إنّ عمله يقوم على السهر على أمن السيّدة رِنخيفو، زوجة المعلّم، وإنّ عليه أن يعمل مع الاثنين اللذين سبق وتعرّف عليهما. سأله عمّا إذا كان يعرف كم سيقبض. أخبره بأنّهم يدفعون كلَّ خمسة عشر يوماً وبأنّه يتولّى شخصيًا هذا الأمر وأنّه لن يشكو من هذه الناحية. سأله عن اسمه. لالو كورا، قال له. لم يضحك الأيرلندي ولم ينظر إليه باستغراب ولم يظنّ أنّه كان يسخر منه، بل سجّلَ الاسم في دفتر أسود كان يحمله في جيبِ بنطلون الجينز الخلفي وأنهى اللقاء. قال له قبل أن يودّعه إنّ اسمه بات أوبانيون.

في أيلول عُثِرَ على مقتولة أخرى. كانت داخل سيارة في عقار بونابيستا خلفَ ضاحية ليندابيستا. كان المكان قفراً، فقط كان هناك بيت مسبق الصنع يفيد كمكتب لباعة الأراضي. كانت بقية العقار في منتصف الطريق بين الأرض البور وبعض الأشجار المريضة، التي طليت جذوعها بالأبيض، الوحيدة الحيّة من مرج وغابة كانا يشربان من المياه الجوفيّة التي كانت تتراكم هناك. كانت أيّام الآحاد أياماً يزدحم فيها الناس في العقار. عائلات بكاملها أو رجال أعمال يذهبون ليعاينوا الأرضَ دون أن يُظهِروا حماساً زائداً فالمقاسم الأهمّ كانت مُباعة وإن لم يبدأ أحد بالبناء بعد. زيارات بقيّة أيّام الأسبوع كان يُتفق عليها، وفي الثامنة ليلاً لا يبقى أحد في العقار، باستثناء أسراب من أطفالٍ أو كلاب يهبطون من ضاحية مايتورِنا ولا يعرفون بعدها كيف يعودون ليصعدوا. عثر على الجثّة أحدُ الباعة. وصل في التاسعة صباحاً إلى العقار، صفّ السيارة في المكان المعتاد بجانب البيتِ مسبقِ الصنع. حين أوشك على الدخول ميّز السيارة الأخرى المصفوفة في المقسم الآخر، الذي لم يُبَع بعد، بالضبط في أسفل تلّ، أبقى عليها حتى تلك اللحظة مخفيّةً. ظنّ أنّ الأمر يتعلّق بسيارة البائع الآخر، لكنّه استبعد الفكرة كونها غير معقولة، إذ كيف يمكن لمن يستطيع أن يصفّ سيارته

بجانب المكتب، أن يتركها بعيدة هكذا؟ لذلك وبدل أن يدخل بدأ يسير باتجاه السيارة المجهولة. فكّر أنّه ربّما كان الأمر يتعلّق بسكران قرّر أن يبقى لينام هناك، أو بمسافر ضائع، فمفرق طريق الجنوب لم يكن بعيداً. بل وصل به الأمر أن فكّر بمشترٍ نافد الصبر. بعد أن تجاوز التلّ (وهو مقسم رائع، له إطلالة رائعة ومساحة كافية لإشادة مسبح لاحقاً) بدت له قديمة أكثر من اللازم كي تكون لمشترٍ. في تلك اللحظة مال إلى فكرة السكران، وأوشك أن يعود على أعقابه، لكنّه رأى شعر المرأة المتكئة على إحدى النافذتين الخلفيتين وقرر التقدّم. كانت المرأة ترتدي فستاناً أبيض ولا تنتعل حذاءً. يبلغ طولها بحدود المئة وسبعين سنتيمتراً. في يدها اليسرى ثلاثة خواتم رخيصة، في السبابة والوسطى والبِنصر. في اليمنى زوج من أساور رخيصة وخاتمان كبيران حجارتهما الكريمة مزيفة. كانت، بحسب تقرير الطبيب الشرعي، قد اغتُصِبت فرجاً وشرجاً ثم قُتِلَت خنقاً. لم تكن تحمل معها أيّ وثيقة يمكن أن تثبت هويّتها. كُلّف بالقضيّة المُحقق إرنِستو أورتيث رِبويّدو، الذي حقّق أولاً بين عاهرات سانتا تِرِسا الغاليات، ليرى ما إذا كانت تعرف إحداهنّ المقتولة، ثم وأمام ضحالة نتائج تقصياته بحث بين العاهرات الرخيصات، لكنّهن قلن، سواء أولئك أو هؤلاء، إنّهن لم يسبق أن رأينها قط. زار أورتيث رِبويّدو الفنادق وبعض الموتيلات في الضواحي، وحرّك مُخبريه، لكن دون أيّ نجاح فأُغلقت القضيّة بعد وقت قصير.

في شهر أيلول ذاته، وبعد أسبوعين من اكتشاف مقتولةِ عقارِ بونابيستا ظهرت جثّة أخرى. كانت هذه جثّة غابريبلا مورون، في الثامنة عشر من عمرها، قُتِلت رمياً بالرصاص، من قبل خطيبها فِليثيانو خوسِهْ ساندوبال البالغ من العمر سبعاً وعشرين عاماً، كلاهما كان يعمل في معمل نيب-مِكس. الأحداث، بحسب تحقيق الشرطة، ناتجة

عن شجار قام بين الاثنين بسبب رفض غابرييلا مورون الهجرة إلى الولايات المتحدة. كان المشبوه فِليثيانو خوسِهْ ساندوبال قد حاول ذلك في مناسبتين، أعادته فيهما شرطة حدودِ الولايات المتحدة، وهو ما لم يُضعف رغبته بأن يُجرب حظّه للمرّة الثالثة. كان لساندوبال، بحسب بعض الأصدقاء، أقرباء في شيكاغو. على العكس منه كانت غابرييلا مورون، فهي لم تجتز الحدود قطّ، ثمّ وبعد أن عثرت على عملٍ في نيب-مِكس، حيث كانت معتبرة جدّاً من قبل رؤسائها، الأمر الذي يجعلها لا تستبعد ترقية قريبةً وتحسّناً في راتبها، وبالتالي فإنّ اهتمامها بأن تُجرّب حظّها في البلد الجار كان عمليّاً معدوماً. بحثت الشرطة عن فِليثيانو خوسِهْ ساندوبال لبضعة أيّام في سانتا تِرِسا كما في لوماس دِ بونينتِ، القرية التاماوليبّكية التي هو منها، كما أُرسل أمر بالبحث عنه والقبض عليه إلى السلطات الأمريكية الشمالية المختصّة، في حال أنّ المشبوه حقّق حلمه وكان هناك، ومع ذلك من المستغرب أنّه لم يُستَجْوَب أيّ مُهرّب يمكن أن يكون قد سهّل له الدخول المذكور. على كلّ الأحوال أغلقت القضيّة.

في تشرين الأول ظهرت المقتولة التالية في مكبّ قمامة أرسِنيو فارّل. كانت تُدعى مارتا نابالِس غومِثْ وكانت في العشرين من عمرها، طولها مئة وسبعين سنتيمتراً، شعرها كستنائيّ طويل. غابت عن بيتها قبل يومين. كانت ترتدي روباً وجورباً لصيقاً لم يعرف والداها بأنّهما لها. اغتُصِبت شرجاً وفرجاً مرّاتٍ عديدة. حدث الموت خنقاً. الغريب في حالة مارتا نابالِس غومِثْ هو أنّها كانت تعمل في أيوو، وهو معمل يابانيّ في منطقة إل بروغرِسو الصناعية ومع ذلك ظهرت جثّتها في المنطقة الصناعية إرسِنيو فارّل، في مكبّ القمامة وهو مكان يصعب الوصول إليه في سيارة، ما لم تكن سيارة قمامة. عَثَرَ عليها بعضُ الأطفال صباحاً وبعد منتصف النهار حين سحبوا الجثّة اقتربت

مجموعة كبيرة من العمّال من سيّارة الإسعاف ليروا ما إذا كان الأمر يتعلّق بصديقة، برفيقة أو فقط معروفة.

عُثِر في تشرين الأوّل أيضاً على جثّة امرأة أخرى على بعد أمتار قليلة من الطريق الذي يربط بين سانتا تِرِسا وبيّابيثيوسا. كانت الجثّة، التي وجدت في حالة مُتقدّمة من التفسّخ، مرميّةً على وجهها، ترتدي سترة وبنطلوناً من مواد صناعية وقد وَواجد هويّتها في أحد جيوبها، وكانت تُدعى بحسبها إلْسا لوث بينتادو وكانت تعمل في سوبّر ماركت دِل نورتِ. لم يزعج القاتل أو القتلة أنفسهم بحفرِ أيّ قبر. كما لم يزعجوا أنفسهم بالتوغّل كثيراً في الصحراء. فقط جرّوا الجثّة بضعةَ أمتار وتركوها هناك. التحقيقات اللاحقة في سوبر ماركِت دِل نورتِ أعطت النتائج التالية: لم يُسَجّل مؤخّراً غيابُ أيّ محاسِبة صندوق أو أيّ بائعة؛ بالفعل كانت إلْسا لوث بينتادو في لائحة الرواتب، لكنّها لم تكن تقدّم خدماتها في تلك المؤسسة ولا في أيّ من فروع السوبر ماركت التي كانت تنتشر في شمال ولاية سونورا؛ الذين عرفوا إلْسا لوث بينتادو كانوا يصفونها بالطويلة: مئة واثنان وسبعون سنتيمتراً والجثّة التي عثر عليها لا يبلغ طولها أكثر من مئة وستين سنتيمتراً كحدٍّ أقصى. حاولوا أن يعثروا على مكان إلسا لوث بينتادو في سانتا تِرِسا دون نجاح. تولّى القضيّة الشرطيّ المُحقّق أنخِل فِرْنانذِثْ. لم يستطع تقرير الطبيب الشرعي أن يُحدّد سبب الموت، بالرغم من أنّه كان يُلمّح إلى احتمال الخنق، لكنّه استطاع فعلاً أن يؤكّد أنّه لم يمض على الجثّة في الصحراء أقلّ من سبعة أيّام ولا أكثر من شهر. بعد وقت قصير أُضيف إلى التحقيق المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ، الذي حرّر مذكرة رسمية يطلب فيها أن يُبحث أيضاً عن المختفية احتمالاً إلْسا لوث بينتادو، مرسلاً إلى أقسام الشرطة في الولاية كلّها أن يبحثوا القضيتين كلّاً على حِدة، لكن طلبه أعيد مع التوصية بألا يبتعد عن القضيّة المحدّدة للتحقيق.

في أواسط تشرين الثاني اختُطِفَت أندريا باتشِكو مارتينِثْ، ابنة الثلاثة عشر عاماً عند خروجها من المدرسة الثانوية الفنّية. بالرغم من أنّ الشارع لم يكن مُقفراً إطلاقاً، إلاّ أنّ أحداً لم يحضر الحادث، غير صديقتين لأندريا رأتاها تتوجّه إلى سيارة سوداء من المحتمل أنّها بِرغرينو أو سيبريت، حيث كان ينتظرها شخص يضع نظارة داكنة. ربّما كان في السيارة أشخاص آخرون، لكنّ رفيقتي أندريا لم ترياهم، الزجاج المُدخن سبب بين أسباب أخرى. لم تعد أندريا في ذلك المساء إلى بيتها وسجّل والداها إبلاغاً عند الشرطة بعد ساعات قليلة وبعد أن هتفا إلى بعض صديقاتها. كُلّفت شرطة التحقيق وشرطة البلدية بالقضيّة. حين عثروا عليها ظهرت على جسمها علامات دامغة بأنّها ماتت خنقاً، مع كسر في العظم اللامي. كانت قد اغتصبت شرجاً وفرجاً. كشف معصماها عن تورّماتٍ ناتجة عن الربط، كلا الرسغين كان فيه تمزّق وهو ما يستنتج منه أنّها أيضاً ربطت من قدميها. عثر مهاجر سالفادوري على جثّتها خلف مدرسة فرانسيسكو ١، في مادِرو، بالقرب من ضاحية آلامو. كانت بكامل ثيابها وثيابها باستثناء البلوزة التي كان ينقصها عدد من الأزرار لم يظهر فيها تمزّقات. اتُهِم السلفادوري بالقتل وبقي في زنزانات المخفر رقم ٣ أسبوعين، أطلقوا بعدها سراحه. خرج متعباً صحّياً. بعد وقت قصير اجتاز الحدود بمساعدة أحد المهرّبين. في أريزونا ضاع في الصحراء ووصل بعد أن سار ثلاثة أيّام جافّاً تماماً إلى باتاغونيا، حيث صفعه صاحب مزرعة لأنّه تقيّأ في أراضيه. أمضى يوماً في زنزانات الشريف أرسل بعدها إلى المشفى، حيث كان يستطيع فقط أن يموت بسلام، وهذا ما فعله.

في العشرين من كانون الأوّل سُجّلت آخر قضية قتل عنيف في ذلك العام ١٩٩٣، ضحيته أنثى. كانت المقتولة في الخمسين من عمرها، كما كي تُكذِّب بعض الأصوات التي راحت ترتفع بخوف، ماتت في

بيتها وفي بيتها وجدوا جثّتها وليس في قفرٍ ولا في مكبِّ قمامة ولا بين جنبات الصحراء المصفرّة. كانت تُدعى فِليثيداد خيمِنث وتعمل في معمل مولتيزون -ويست. وجدها الجيرانُ مرمية على أرضيّة غرفة نومها عارية من خصرها وإلى الأسفل وقطعة خشبٍ مُدخلة في فرجها. كان سبب الموت الطعناتِ العديدة، أحصى الطبيبُ الشرعيُّ أكثر من سبعين طعنة طعنها إيّاها ابنُها، إرنِستو لويس كاستيّو خيمِنث، الذي كانت تعيش معه. كان الفتى، بحسب شهادة بعض الجيران يُعاني من نوبات جنون، يُعالجها أحياناً، بحسب حالة الأسرة الاقتصادية، بمهدّئاتٍ ومسكناتٍ أقوى. عثرت الشرطة على الابن القاتل في الليلة ذاتها، بعد ساعات من الحدث المروّع، يتسكّع في شوارع ضاحية مورِلوس المظلمة. اعترف في تصريحه، دون أيّ إكراهٍ، أنّه هو قاتل أمّه. كما اعترف أنّه التائبُ، مُدنِّس الكنائس. عندما سُئل عن السبب الذي حمله على أن يُدخل قطعة الخشب في فرجها، أجاب في البداية بأنّه لا يعرف، ثمّ قال بعد أن فكّرَ مليّاً إنّه فعل ذلك كي تتعلّم . تتعلّم ماذا؟، سأل رجال الشرطة الذين كان بينهم بِدرو نِغْرِتِ، وإبيفانيو، وغاليندو، وأنخِل فِرناندِثْ، وخوان دِ ديوس مارتينِث، وخوسِهْ ماركيز. كي تتعلّم أنّها لا يمكن أن تلعب معه. بعدها صارت كلماته غير منسجمة ونُقل إلى مشفى المدينة. كان لِفليثيداد خيمِنث ابنٌ آخر، أكبر، سبق وهاجر إلى الولايات المتحدة. حاولت الشرطة أن تتواصل معه. لكن ما من أحدٍ استطاع أن يحصل على عنوانٍ موثوق يكتبون له إليه. في التفتيش التالي للبيت لم يعثروا على رسائل من هذا الابن، ولا على أشياء شخصية لاحقة على مُغادرته، ولا أيّ شيء يؤكّد وجوده. فقط عثروا على صورتين: تظهر في واحدة منهما فِليثيداد مع صبيّين في العاشرة والثالثة عشرة من عمرهما، ينظران بجدّية إلى الكاميرا. في الصورة الأخرى، الأقدم، تظهر فِليثيداد نفسها مع طفلين، واحد عمره بضعة أشهر (هو الذي سيقتلها بعد سنوات وينظر فيها إليها)، والآخر عمره

ثلاث سنوات، وهو الذي هاجر إلى الولايات المتحدة ولم يعد بعدها إلى سانتا تِرِسا. بعد أن عادَ إرنِستو لويس كاستيّو خيمِنِث من المشفى أُدخِل سجنَ سانتا تِرِسا، حيث برهن بشكلٍ خاص على أنّه مهذار. لم يكن يريد أن يبقى لوحده ويطلب باستمرار وجود شرطيين أو صحفيين. حاول الشرطيون أن يلصقوا به جرائم قتلٍ لم تُحل. أريحية الموقوف كانت تشجّع على ذلك. أكّد خوان دِ ديوس مارتينِثْ أنّ إرنِستو لويس كاستيّو خيمِنِث لم يكن التائب وأنّ من المحتمل أن يكون الشخص الوحيد الذي قتله هو أمّه وأنّه لم يكن مسؤولاً ولا حتى عن هذه، فهو كان يظهر أعراض اضطرابات عصبية واضحة. وكانت هذه آخر جريمة قتل لامرأة في عام ١٩٩٣، الذي كان العام الذي بدأت فيه جرائم قتل النساء في تلك المنطقة من الجمهورية المكسيكية، التي كان فيها حاكم ولاية سونورا المُجاز خوسِهْ أندرِس بريثِنيو من حزب العمل الوطني (ح ع و) ورئيس بلدية سانتا تِرِسا المجاز خوسِهْ رِفوخيو دِ لاس هِراس، من الحزب الثوري الدستوري (ح ث د) الرجلان المستقيمان والعاقلان اللذان يُشكلان القاعدة الصلبة دون خوف من الضربات، مستعدّين لأيّ ضربة مفاجئة.

ومع ذلك وقع، قبل نهاية عام ١٩٩٣، حادث مؤلم، لم يكن له أيّ علاقة بجرائم قتل النساء، على فرض أنّه كان بين هذه علاقة، وهو ما كان قيد البرهان. كان لالو كورا، وقتذاك وزميلاه المشؤومين يعملون في حماية زوجة بِدرو رِنخيفو، الذي لم يره لالو إلا مرّة واحدة ومن بعيد. على العكس كان يعرف عدداً من مرافقيه الذين عنده في كشف الرواتب. كان يبدو له بعضهم مهماً. بات أبانيون، مثلاً. أو الهندي الياكي الذي يكاد لا يتكلّم أبداً. بالمقابل لم يكن رفيقاه يوحيان له إلا بعدم الثقة. لم يكن ممكناً أن يتعلّم منهما شيئاً. كان رجل تيخوانا الطويل يُحب الكلامَ عن كاليفورنيا والنساء اللواتي تعرّف

عليهنّ؛ يخلط كلمات إسبانية بكلماتٍ إنكليزية؛ يحكي أكاذيب، حكايات وحده رفيقه، ابن ثيوداد خوارِثْ، الصموت يحتفي بها، لكنّه أيضاً كان يوحي له بقدر أقلّ من الثقة. وذات صباح، مثل صباحات أخرى كثيرة، ذهبت السيّدة لتأخذ الأطفال إلى المدرسة. خرجوا في سيّارتين، سيارة السيّدة، المرسيدس الخضراء فاتحة اللون وسيارة الغراند شيروكي، البنّية رباعية الدفع، التي كانت تبقى مصفوفة في زاوية المدرسة طوال الصباح مع مرافقين اثنين في داخلها. كان هذان يسميان *مُرافِقَي الأطفال*، تماماً كما كان يُسمّى هو ورفيقاه *مرافِقي السيّدة* وجميعهم من مرتبة أدنى من مرتبة المُرافقين الثلاثة الذين كانوا يحرسون بِدرو رِنخيفو وكانوا يُسمّون مُرافِقي المُعلِّم، أو حرّاس المُعلّم وهذا ما كان يدل على تراتبية ليس فقط في الرواتب والأعمال وحسب بل وفي القيمة الشخصية، الشجاعة أو احتقار حياتهم ذاتها. ذهبت زوجةُ بِدرو رِنخيفو بعد أن تركت الأطفال في المدرسة لتقوم ببعض المشتريات. ذهبت أوّلاً إلى حانوت ملابس، ثمّ زارت حانوت عطور وبعدها خطر لها أن تذهب لتزور صديقة لها كانت تعيش في شارع أسترونوموس، في ضاحية مادِرو. بقي لالو كورا والمرافقان ينتظرونها، التيخواني داخل السيارة، ولالو وابن ثيوداد خوارِثْ مستندين على الرفراف، دون أن يتبادلا الكلام. حين خرجت السيّدة (رافقتها الصديقةُ حتى الباب) نزل اليتخواني من السيارة ووقف لالو والآخر باستعداد. كان في الشارع بعض الناس، ليسوا كثيرين، لكن كان هناك بعضهم. ناس يذهبون نحو المركز، ليقوموا من يدري بأيّ أعمال، ناس يستعدون للاحتفال بأعياد الميلاد، ناس يخرجون ليشتروا عجّة من أجل ساعة الغداء. كان الرصيف رمادياً، لكنّ الشمس التي كانت تخترق أغصان بعض الأشجار تجعله يبدو أزرق، كما لو أنّه نهر. قبّلت زوجةُ بِدرو رِنخيفو صديقتها وخرجت إلى الرصيف. سارع ابن مدينة ثيوداد خوارِثْ ليفتح لها باب الحديد. لم يكن يُرى أحدٌ في أحدِ طرفي الرصيف. على

الطرف الآخر كانت تسير مستخدمتان منزليتان باتجاههم. حين خرجت السيّدة إلى الشارع التفتت وقالت شيئاً لصديقتها، التي لم تتحرّك من الباب. عندئذ رأى ابن ثيوداد خوارِثْ رجلين يسيران خلف المستخدمتين فتوتّر. رأى لالو وجهَ التيخواني ثمّ رأى الرجلين وعرف على الفور أنّهما راميي مسدّسات وأنّهما هناك كي يقتلا زوجة بِدرو رِنخيفو. اقترب التيخواني من ابن ثيوداد خوارِثْ، الذي كان ما يزال يسندُ بابَ الحديد وقال له شيئاً، وإن لم يُعرف ما إذا قاله له بكلمات أم بإيماءة. ابتسمت زوجةُ بِدرو رِنخيفو. أطلقت صديقتُها ضحكة طويلة سمعها لالو كما لو أنّها قادمة من بعيد، من أعلى تلّ. رأى بعدها كيف كان ابن ثيوداد خوارِث ينظرُ إلى التيخواني: من الأسفل إلى الأعلى، مثل خنزير ينظر إلى الشمس وجهاً لوجه. رفع بيده اليسرى أمان مسدّسه الدِسِرت إيغل ثم سمع وقع كعبي حذاء زوجة بِدرو رِنخيفو، التي كانت تتجه إلى السيارة وأصوات المستخدمتين المليئة بالاستفسارات، كما لو أنّهما وبدل أن تكونا تتحادثان لا تتوقّفان عن الاستجواب والاندهاش، كما لو أنّ ما كانتا تحكيانه هما نفساهما لا تصدقانه. ما من واحدة منهما كانت تتجاوز العشرين من عمرها. كانتا ترتديان تنورتين ترابيتي اللون وبلوزتين صفراويين. صديقة السيّدة التي كانت تومئ مودّعة بيدها من باب بيتها كانت ترتدي بنطلوناً مكسّماً وكنزة خضراء. زوجةُ بِدرو رِنخيفو كانت ترتدي طقماً أبيض وتنتعلُ حذاء عالي الكعبين أبيضَ أيضاً. فكّر لالو بثياب زوجه معلّمه في اللحظة التي راح فيها المرافقان الآخران يجريان نازلين في الشارع. لم تنبه السيّدة زوجة بِدرو رِنخيفو لشيء. أبعد راميا المسدّسات المستخدمَتَيْن المنزليتين بحركة من يديهما. واحدٌ منهما كان يحمل رشاشَ أوزي. كان نحيلاً وأسود البشرة. كان الآخر يحمل مسدّساً ويرتدي طقماً أسود وقميصاً أبيض، من دون ربطة عنق ويبدو مهنيّاً فعلاً. في اللحظة التي أُزيحت فيها المستخدَمتان لكشف هدف الرماية، شعرت السيّدة زوجة بِدرو رِنخيفو

بأنّهم يشدونها من طقمها ويرمونها أرضاً، بينما هي تهوي رأت المستخدمتين تسقطان أمامها ففكّرت أنّه كان زلزالاً، أيضاً رأت بطرف عينها لالو على ركبتيه والمسدّس في يده ثمّ سمعت صوتاً ورأت طلقة مسدّس يصوب به لالو فارغةً تنطّ ولم ترَ بعدها شيئاً لأنّ جبينها انفجر على إسمنت الرصيف. صديقتها التي كانت ما تزال واقفة في عتبة باب الدار، وبالتالي كانت تتمتع بمنظور أشمل للمشهد، راحت تصرخ، غير قادرة على القيام بأيّ حركة، وإن كان في أعماق دماغها صوتٌ ناحل يقول لها إنّ الأفضل من الصراخ هو أن تدخل إلى البيت وتغلق الباب بالمفتاح، أو في حال لا تستطيع ذلك فعلى الأقل أن تنبطح على الأرض وتختفي خلف نباتات إبرة الراعي. كان التيخواني وابن ثيوداد خوارِث قد قطعا عدّة أمتار ومع أنّهما كانا يتصبّبان عرقاً ويلهثان، فهما لم يكونا معتادين على الحركة الجسدية، لم يتوقّفا عن الجري. أما بالنسبة للمستخدمتين المنزليتين، فقد تكوّرتا في لحظة سقوطهما ذاتها على الأرض وراحتا تُصلّيان أو تتذكران بسرعة وجوهَ أحبّتهما وكلاهما أغمضت عينيها ولم تفتحهما حتى انقضى كلّ شيء. على العكس كانت مشكلة لالو كورا في أن يُقرّر على مَنْ مِنَ الراميين يطلق النار أوّلاً، على الذي حمل رشاش الأوزي أم على الذي عليه ملامح الممتهن. كان عليه أن يرمي على هذا الأخير، لكنّه أطلق على الأوّل، دخلت الرصاصة صدر الرجل النحيل والمسود ورمته على الفور. كان الآخر يتحرّك بشكل غير محسوس نحو اليمين وأيضاً راوده شكّ. كيف أمكن أن يكون ذلك الفتى مسلّحاً؟ كيف لم يخرج جارياً مع المرافقيْن الآخرين؟ استقرّت رصاصة الممتهن في كتف لالو كورا الأيسر، مؤثرة على شرايينه ومهشمة عظمه. شعر هذا بهزّة وعاد دون أن يغيّر في وضعيته ليرمي. سقط الممتهن بوجهه على الأرض وضاعت طلقته الثانية في الهواء. كان ما يزال حيّاً. نظر إلى إسمنت الرصيف، الثُمام الذي كان ينمو في الشقوق، فستان زوجة بِدرو رِنخيفو، حذاء الفتى

الرياضيّ الذي راح يقترب منه كي ينهي عليه، تشاماكو الخراء، همس. عاد بعدها لالو كورا على أعقابه ورأى في البعيد هيئتي رفيقيه السابقين. انتبه ابن ثيوداد خوارِثْ أنّهم يطلقون عليهم النار فأسرع في جريه. اختفيا في الزاوية الأولى.

بعد عشرين دقيقة ظهرت سيارة دورية. كان جبين زوجة بِدرو رِنخيفو مشطوراً، لكنّه لم يعد ينزف وكانت هي من قادت خطوات الشرطة الأولى. اهتّمت أوّل شيء بصديقتها، التي أصيبت بصدمة عصبيّة. انتبهت بعدها إلى أنّ لالو كورا كان جريحاً وأمرت بأن تُطْلَبَ له سيّارة إسعاف أخرى وأن يأخذا الاثنين إلى مشفى بِرِث غوتِرسون. ظهر قبل أن تصل سيارات الإسعاف مزيد من رجال الشرطة وتعرّف أكثر من واحد على الرامي الممتهن، الذي كان يجثو ميتاً على الرصيف مثل وكيل عدالة دولة. حين كانوا على وشك أن يُدخلوا لالو كورا في سيارة إسعاف، أخذه شُرَطِيَّان من ذراعين وزجّاه في المخفر رقم ١. حين وصلت زوجة بِدرو رِنخيفو إلى المشفى، بعد أن تركت صديقتها في واحدة من أفضل الغرف، ذهبت لتهتمّ بحالة مرافقها فقالوا لها إنّه لم يصل. طلبت السيّدة من ممرّضي سيارة الإسعاف الأخرى أن يأتوا به حالاً، فأكّد لها هؤلاء بأنّ لالو كورا موقوف. أخذت زوجة بِدروا رِنخيفو الهاتف وهتفت مرّة أخرى إلى زوجها. بعد ساعة ظهر قائد شرطة سانتا تِرِسا في المخفر رقم ١. كان إلى جانبه إبيفانيو تعلو وجهه علامات من لم ينم خلا ثلاثة أيّام. ما من واحد منهما بدا سعيداً. وجدوا لالو في إحدى زنزانات القبو. كان وجه الفتى ملطخاً بالدم. كان الشرطيان اللذان ستجوباه يريدان أن يعرفا لماذا أجهز على الراميين، وحين رأيا بِدرو نِغْرِتِ يظهر نهضا. جلس قائد شرطة سانتا تِرِسا على أحد الكراسي الفارغة وأومأ لِإبيفانيو. أمسك هذا بعنق أحد الشرطيّين، أخرج موسى من السترة الأمريكية وشقّ وجهه من شفتيه

وحتى أذنه. فعل ذلك بحيث لم يطرطش بقطرة دمٍ واحدة. هل هذا هو من شوّه وجهك؟، سأل إيبفانيو. هزّ الفتى كتفيه. انزع القيد عنه، قال بِدرو نِغرِتِ وهو يُدمدم، آخ، آخْ، آخ. ممّا تشكو، يا ولد؟، سأله بِدرو نِغرِتِ من حشري لنفسي، يا سيّدي، قال الشرطيّ. ضعوا كرسياً لِبِبٌ، يبدو أنّ سغمى عليه، قال بِدرو نِغرِتِ. بين إيبفانيو والشرطيّ أجلسا الشرطي الجريح. كيف تجد نفسك؟ حسن، يا سيّدي، ليس شيئاً ذا معنى، دوخة، لا أكثر، قال هذا بينما هو يبحث في جيبه عن شيء يسدّ به الجرح. ناوله بِدرو نِغرِتِ منديلاً. لماذا أوقفتماه؟ سأل. أحد الذين كُسِروا كان باتريثيو لوبِّثْ، المُحقِّق، قال الشرطيّ. آي، اللعنة، إذه هو باتريثيو لوبِّثْ، ولماذا تعتقدان أنّه كان هو وليس أحد رفيقيه؟ سأل بِدرو نِغْرِتِ. رفيقاه وليا الأدبار، قال الشرطيّ الآخر. أي، اللعنة يا لهما من رفيقين، قال بِدرو نِغرِتِ. وفتايَ، ماذا فعل؟ قال الشرطيان أنّهما أكّدت الأحداث هو من بادر بإطلاق النار عليهما. على رفيقيه نفسيهما؟ نعم، على رفيقيه نفسيهما، لكنّه قبل أن يُجرح في في كتفه، ويبدو دون أيّ حاجة، أجهز على باتريثيو لوبِّثْ وضارب إيقاع كان معه أوزي. لا بدّ فعل ذلك من اضطراب الأعصاب، قال بِدرو نِغرِتِ. أكيد، قال شرطي الوجه المشقوق. ثمّ ماذا يمكنه أن يفعل غير ذلك؟ قال بدِرون غِرِتِ. لو رماه باتريثيو لوبِّثْ لأجهز عليه أيضاً. الحقيقة الخالصة نعم، قال الشرطيّ. استمرّا بعدها يتحدثان ويُدخّنان برهة أخرى، مع توقّف قصير من قبل شرطيّ الوجه المجروح كي يبدّل منديل الورق، وبعد ذلك أخرج إيبفانيو لالو كورا من الزنزانة وحمله إلى باب المخفر حيث كانت تنتظره سيّارةُ بِدرو نِغْرِتِ، السيارة ذاتها التي ذهبت لتبحث عنه قبل بضعة أشهر في بيّابيثيوسا.

بعد شهر زار بِدرو نِغْرِتِ مزرعة بِدرو رِنخيفو، في جنوب شرق سانتا تِرِسا وطالبه باستعادة لالو كورا. أنا أعطيتُك إيّاه، يا سميّ، وأنا

أنتزعه منك، قال. ولماذا هذا، يا سميّ؟، سأله بِدرو رِنخيفو. بسبب الطريقة التي عاملته بها، يا سميّ، قال بِدرو نِغْرِتِ. فبدل أن تضعه لي مع رجل مجرَّب، مثل الأيرلنديّ، كي يبدأ فتايَ يتعلّم، وضعته مع لوطيّين. في هذا معك حق، يا سميّ، قال بِدرو رِنخيفو، لكن بودي أن أُذكّرك أنّ أحد هذين اللوطيين جاءني بتوصية منك. صحيح، أعترف بذلك، ما إن أضع يدي عليه حتى أُصحّح خطأي، قال بِدرو نِغرِتِ، لكنّنا هنا الآن كي نصحح خطأك. من جهتي ليس هناك مشكلة، يا سَميَّ، إذا أردتَ أن أُعيدَه لك أعدتُهُ، وأعطى بِدرو رِنخيفو أوامره لأحد رجاله كي يذهب ويبحث عن لالو كورا في بيت الجنائني. وبينما كان بِدرو نِغْرِتِ ينتظرُ سأل عن السيّدة والأطفال. عن الماشية. عن تجارة الأغذية، التي كانت لِبدرو رِنخيفو في سانتا تِرِسا ومدنٍ شمالية أخرى. زوجته تقضي وقتها في كورِناباكا، قال سميُّهُ، الأطفال بدّلوا لهم المدرسة، وهم يدرسون الآن في الولايات المتحدة (حذر أن يُسمّي المكان)، الماشية كانت مصدر قلق أكثر من التجارة، فالأسواق ترتفع وتنخفض. أراد بِدرو نِغْرِتِ أن يعرف بعد ذلك كيف هو حال كتفِ لالو كورا. تمام، يا سميَّ، قال له بِدرو رِنخيفو. الجرح خفيف. الفتى يمضي نهاره نائماً ويقرأ مجلات. إنّه سعيد هنا. أعرف ذلك، يا سميَّ، قال بِدرو نِغْرِتِ، لكن في الوضع الذي هي عليه الأمور قد يقتلُهُ هؤلاء ذات يوم. لا تبالغ، يا سميَّ، قال بِدرو رِنخيفو مُطلقاً ضحكة، وإن شحب لونه فوراً. حين كانا عائدين في السيارة إلى سانتا تِرِسا سأله نِغْرِتِ عمّا إذا كان يُحب أن يعملَ في جهاز الشرطة. هزّ لالو كورا رأسه بالإيجاب. بعد قليل من مغادرتهما المزرعة مرّا بصخرة سوداء هائلة. ظنّ لالو أنّه رأى في أعلاها ضبّاً سامّاً، بلا حراك، يتأمّل الغربَ الذي لا نهاية له. يقولون إنّ هذا الحجر هو في الحقيقة نيزك، قال بِدرو نِغْرِتِ. فوق وادٍ شمالاً ينعطف نهر بارِدِس، ويمكن أن يُرى من الطريق مثل سجادة خضراء ضاربة إلى السواد، رؤوس الأشجار،

فوقها سحابات غبار قطعان ماشية بِدرو رِنخيفو التي كانت تذهب كلّ مساء لترد الماء هناك. لكنّه لو كان نيزكاً، قال بِدرو نِغرِتِ لكان ترك حفرة، وأين هي الحفرة؟ حين عاد لينظر إلى الحجر الأسود في المرآة الأمامية كان الضبّ السام قد اختفى.

المرأة الأولى المقتولة في عام ١٩٩٤ عَثَرَ عليها سائقا شاحنتين على مفرقٍ من الطريق إلى نوغالِس، وَسْطَ الصحراء. سائقا الشاحنتين، كلاهما مكسيكيّ، كانا يعملان لصالح معمل كِي كورب وقرّرا في ذلك المساء، على الرغم من أنّ الشاحنتين كانتا محمّلتين، أن يذهبا على مطعم يسمى إل آخو، حيث كان أحد السائقين، أنطونيو بيّاس مارتينِثْ معروفاً. بينما كانا يتوجّهان إلى المحل المذكور، لاحظ السائق الآخر، ريغوبِرتو رِسِنديث لمعاناً في الصحراء، أعماه للحظاتٍ. فكّر أنّ الأمر يتعلّق بمزحة، فاتصل باللاسلكي مع رفيقه بيّاس مارتينِثْ فتوقّف السائقان. كان الطريق مقفراً. حاول بيّاس مارتينِثْ أن يقنع رِسِنديث بأنّ من المحتمل أنّ ما أعماه كان انعكاس الشمس على زجاجة أو قطع من زجاج مكسور، لكن الآخر رأى عند ذلك كتلةٍ على بعد ثلاثمئة متر تقريباً عن الطريق فتوجّه إليها. بعد برهة رأى بيّاس مارتينِثْ أنّ رِسِنديث كان يناديه صافراً له، فغادر الطريق، لكن ليس قبل أن يتأكّد من أنّ الشاحنتين مغلقتان تماماً، حين وصل إلى حيث كان رفيقه رأى الجثّة، التي على الرغم من أنّ وجهها كان مُهشّماً تماماً لم تترك مكاناً للشكّ بأنّها كانت امرأة. الغريب أنّ أوّل ما أمعن به نظرَهُ كان الحذاء، كانت تنتعل صندلاً من الجلد المنقوش والصناعة الجيّدة. رسم بيّاس مارتينِثْ إشارة الصليب. ماذا سنفعل يا صديقي؟، سمع رِسِنديث يقول له. عرف من نبرة صوت صديقه أنّ السؤال كان مجرّد حذلقة. نخبر الشرطة، قال. هذه فكرة جيّدة، قال رِسِنديث. رأى في خصر المقتولة حزاماً فيه إبزيم معدني كبير. هذا هو

الذي بهرك، يا صديقي، قال. نعم، انتبهتُ إلى ذلك. كانت ترتدي سروالاً قصيراً وبلوزة صفراء، من الحرير الصناعي، عليها زهرة سوداء كبيرة مطبوعة على الصدر وأخرى حمراء على الظهر. حين وصلت الجثّة إلى بناء الطبيب الشرعي انتبه هذا مذهولاً إلى أنّها كانت تحتفظ تحت السروال القصير بكيلوتٍ أبيض فيه شريطتان على الجانبين. فيما عدا ذلك كانت قد اغتصبت من دبراً وفرجاً وكان سبب الموت رضات عديدة في الجمجمة والدماغ بالرغم من أنّها كانت قد تقلت طعنتين، واحدة في التجويف الصدري وأخرى في الظهر، أفقدتاها دماً، لكنّهما لم تكونا بالضرورة قاتلتين. كان الوجه، كما تبيّن للسائقين مشوّهاً لا يمكن معرفة صاحبته. تاريخ الوفاة حُدّد بشكل تقريبي ما بين الأوّل من والسادس من كانون الثاني من عام ١٩٩٤، وإن لم يُستبعد بأيّ شكل من الأشكال احتمال أن تكون الجثّة قد تركت في الصحراء في الخامس والعشرين أو السادس والعشرين من كانون الأوّل من العام الذي كان يُشرف على نهايته.

المقتولة التالية كانت لِتيثيا كونتِراس ثاموديو. وصلت الشرطة إلى محلّ لا ريبِيرا الليلي، الموجود بين شارعي لورِنثو سِبولِبدا وألبارو أبورِغون، في وسط سانتا تِرِسا، بعد أن تلقّت مكالمة مجهولة. في إحدى الغرف المحجوزة في محل ريبيرا عثروا على الجثّة التي أظهرت جروحاً عديدة في البطن وتجويف الصدر، وكذلك في الساعدين، ولذلك يُظنّ أنّ لِتيثيا كونتِراس عاركت من أجل حياتها حتى آخر ثانية. كانت المقتولة في الثالثة والعشرين من عمرها وتمارس مهنةَ الدعارة منذ أكثر من أربع سنوات، دون أن تكون قد تعرّضت قط لأي مشكلة من النوع العام. ما من واحدة من رفيقاتها استطاعت خلال الاستجواب أن تقول مع من كانت لِتيثيا كونتِراس في الغرفة المحجوزة. بعضهنّ قلن إنّها كانت لحظةَ الجريمة في المغاسل. أخريات قلن إنّها كانت في

القبو، حيث توجد أربع طاولات بلياردو، اللعبة التي كانت لِتيثيا تشعر بالضعف تجاهها وتُظهِرُ فيها ذكاء لم يكن قليلاً. بل هناك واحدة أكّدت أنّها كانت لوحدها، لكن ماذا يمكن لعاهرةٍ أن تفعل وحدها مغلقة على نفسها غرفة محجوزة؟ في الرابعة صباحاً أخذوا طاقم العمل في لا ريبِيْرا كله إلى المخفر رقم ١. كان لالو كورا يتعلّم في تلك الأيّام عملَ شرطيٍّ المرور. كان يعمل ليلاً، وقوفاً، ويتحرّك مثل شبح ما بين ضاحية آلامو وضاحية روبنِ داريّو، من الجنوب إلى الشمال، دون عجلة، إلى أن يصل إلى المركز وعندها يكون باستطاعته أن يعود إلى المخفر رقم ١ أو أن يفعل ما يحلو له. سمع بينما كان يخلع بزّته الموحدة الصرخات. دخل إلى الحمّام دون أن يعيرها كبيرَ انتباه، لكنّه حين أغلق الصنبور عاد وسمعها. كانت تصدر عن الزنزانات. وضع المسدّس تحت زناره وخرج إلى الممرّ، كان المخفر رقم ١ في تلك الساعة شبهَ خالٍ، باستثناء صالة الانتظار. وجد رفيقَه في مكتب مكافحة السرقة نائماً. أيقظه وسأله عمّا إذا كان يعرف ماذا كان يجري. قال له الشرطيّ إنّ هناك احتفالاً في الزنازين، وإنّه يستطيعُ إذا أراد أن يُشارِك. حين خرج لالو كورا عاد الشرطيّ ليغرق في نومه. شمّ من الدرج رائحةَ كحول. كانوا قد كدّسوا في زنزانة واحدة ما يقارب العشرين سجيناً. نظر إليهم دون أن يرفّ له جفن. كان بعض الموقوفين نائمين وقوفاً. كان سروال واحد منهم، الملتصق بالقضبان مفكوكاً. الذين كانوا في العمق يشكلون كتلة من ظلمة وشعر غير واضحة المعالم. كان هناك رائحة قيء. لم تكن مساحة المكان تزيد عن خمسة بخمسة أمتار. رأى في الممر إيبفانيو الذي كان ينظر إلى ما كان يجري في الزنازين الأخرى وسيجارة بين شفتيه. كان سيقترب منه ليقول له إنّ أولئك الرجال سوف يموتون مختنقين أو مسحوقين، لكنّه ما إن خطا الخطوة الأولى حتى لم يستطِع أن يقول شيئاً. في الزنازين الأخرى كان الشرطيون يغتصبون عاهرات لا ريبِيْرا. كيف الحال، يا لاليتو، قال

إيفانيو، هل تريد أن تدخل في المعمعة؟ لا، قال لالو كورا، وأنت؟ ولا أنا، قال إيفانيو. حين تعبا من المراقبة خرجا معاً إلى الشارع ليَسْتَبْرِدا. ماذا فعلت هؤلاء العاهرات؟ سأل لالو. المسألة هي أنّهن سرقن زميلة لهنّ. لزم لالو كورا الصمتَ. كانت النسمة التي تهبّ في تلك الساعات في شوارعِ سانتا تِرِسا منعشة حقيقةً. كان القمر التامّ المليء بالندب ما يزال يتلألأ في السماء.

اتُّهِمت اثنتان من رفيقات لِتيثيا كونتِراس ثاموديو رسميّاً بمقتلها بالرغم من أنّه لم يكن هناك أيّ دليل يُدينهما، باستثناء وجودهما في لا ريبِيْرا لحظةَ وقوع الأحداث. ناتي غورديّو، في الثلاثين من عمرها وعرفت المقتولة منذ أن بدأت العمل في المحلّ الليليّ. كانت لحظةَ ارتكاب الجريمة في المغاسل. روبي كامبوس، في الحادية والعشرين من عمرها، ولم يمضِ عليها في محل لا ريبيْرا أكثر من خمسة أشهر. كانت في لحظة وقوع الجريمة تنتظر ناتي على الجانب الآخر من المغاسل، لا يفصل بينهما غيرُ باب. كانت علاقةُ الواحدة منهما بالأخرى، ثُبِّت هذا، وثيقةً. وثبت أنّ لتيثيا كانت قد اعتدتْ على روبي كلامياً قبل يومين من مقتلها. سمعتها إحدى الرفيقات تقول لها إنّها ستدفع الثمن، الشيء الذي لم تنفِه المتهمة، لكنّها أوضحت أنّها ما من لحظة فكّرت بأن تقتلها، بل بأن تصفعها. نُقِلَتْ العاهرتان إلى هِرموسيّو، حيث حُبِستا في سجن النساء باكيتا أبِندانيو، وبقيتا هناك إلى أن انتقلت قضيّتُهما إلى قاضٍ آخر، سارعَ بإعلان براءتهما. بالمجمل قضتا عامين في السجن. عندما أُطلق سراحهما قالتا إنّهما ستذهبان لتجرّبا حظّهما في العاصمة الفيدرالية أو ربّما انتقلتا إلى الولايات المتحدة الأمريكية، الشيء الوحيد الأكيد أنّهما لم تُشاهَدا بعدها أبداً في ولاية سونورا.

المقتولة التالية كانت تُدعى بِنلوبٌ مِنْدِثْ بِثِرّا. كانت في الحادية عشرة من عمرها. كانت أمُّها تعمل في معمل إنتِرزون-بِرني. أختها الكبرى، في السادسة عشرة من عمرها، كانت تُقدّم خدماتها في إنتِرزون-بِرني. أخوها الذي يليها، ابن الخامسة عشرة، كان يعمل مراسلاً وناقلاً لطلبات حانوت الخبز غير البعيد عن شارع إندوستريال في ضاحية بِراكروث، حيث كانوا يعيشون. كانت هي الصغرى والوحيدة التي تدرس. كان قد مضى سبعةُ أعوام على هجر الأبِ للبيت. وقتها كانوا يعيشون في ضاحية مورِلوس، القريبة جدّاً من منطقة أرسِنيو فارِّل الصناعيّة، في بيت بناه الأب بنفسه من الكرتون والتوتياء، بجانب خندقٍ شقَّتْهُ شركتان لتصريف المياه المالحة والذي لم يُنفَّذ بعدها أبداً. كلا الأبوين كانا من ولاية هيدالغو، وسط الجمهورية، وكلاهما هاجر إلى الشمال في عام ١٩٨٥، بحثاً عن عمل. لكن جاءَ يومٌ رأى فيه الأبُ أنّ ما كان يكسبه من المعامل لن يُحسّن شروط معيشة أسرته، فقرّر أن يعبر الحدود. غادر مع تسعة آخرين، وجميعهم من ولاية أواكساكا. كان قد سبق لواحد منهم أن قام بالرحلة ثلاث مرّاتٍ وقال إنّه يعرف كيف يتملّص من شرطة الهجرة، بالنسبة للبقيّة كانت تلك تجربتهم الأولى. قال لهم المُهرّب الذي حملهم إلى الجانب الآخر ألا يقلقوا وأن يستسلموا في حال وقعت الفاجعة وأوقفوهم، وألا يُبدوا أيَّ مقاومة. أنفق أبو بِنلوبٌ مِنْدِثْ في تلك الرحلة كلّ الذي كان قد وفّره. وَعَدَ أن يكتب لهم فور وصوله إلى كاليفورنيا. كان بين خططه أن يُحْضِرَ أسرته في أقلّ من سنة. لم يعرفوا بعدها عنه شيئاً. فكّرت الأم أنّه ربّما هو يعيش الآن مع امرأة أخرى، أمريكية شمالية أو مكسيكيّة، ويعيش حياة طيّبة. أيضاً فكّرت، خاصّة في الأشهر الأولى، أنّه مات في الصحراء، ليلاً ووحيداً، يصغي إلى صوت الذئاب الأمريكية ويُفكّر بأولاده، أو في شارع أمريكيّ شمالي وقد صدمته سيارة ولّت بعدها الأدبار، لكنّ هذا النوع من الأفكار كان

يشلُّها (كانت أفكاراً الجميع فيها يتكلّمون لغة أخرى، بما فيهم زوجها، لغة غير مفهومة) فقرّر ألا يحضرهم. ثم، لو أنّه مات لكان أخبرهم أحدٌ ما بذلك، أليس صحيحاً؟ على كلّ الأحوال كان قد صار عندها من المشاكل في بيتها ذاته ما لا يسمح لها بتكريس وقتها للتفكير بمصير زوجها. وكلّفها إعالة أسرتها والتقدّم بها كثيراً. لكن بما أنّها كانت امرأة وديعة ورزينةً وشخصيّة متفائلة وتُحسِنُ، إضافة إلى ذلك، الإصغاء، لم تنقصها صداقات. خاصة بين النساء، اللواتي لم تبدُ لهنَّ قصتها غريبة ولا فريدة، بل شيئاً عامّاً وعاديّاً. حصلت لها إحدى هؤلاء الصديقات على عمل في إنتِرزون-بِرني. كانت في البداية تقطع مسافات طويلة من الخندق، حيث كانوا يعيشون، إلى عملها. كانت الأخت الكبرى تهتمّ بالطفلين. كانت هذه تُدعى ليبيا، أراد جار سكران أن يغتصبها ذات مساء. عندما عادت الأمُّ من العمل حكت لها ليبيا ما جرى معها، فذهبت لزيارة الجار ومعها سكين في جيب مئزرها. تكلّمت معه وتكلّمت مع زوجته ثمّ عادت وتكلّمت معه: توَسَّلْ للعذراء ألا يحدث لابنتي شيء، لأنّ أيّ شيء يحدث لها سأحمّلك مسؤوليته وسأقتلك بهذا السكين. قال لها الجار إنّ كلّ شيء سوف يتغيّر بدءاً من تلك اللحظة. لكنّها عند ذلك المستوى من الأحداث لم تعد تثق بكلمة الرجال وعملت بقسوة وساعات إضافية ووصل بها الأمرّ حدّ أنّها راحت تبيع العجّة لرفيقاتها أنفسهنّ في العمل في ساعة الطعام إلى أن صار عندها ما يكفي من المال كي تستأجر بيتاً صغيراً في ضاحية بِراكروث، الذي كانت أبعد عن إنتِرزون من الخندق، لكنّه كان بيتاً حقيقيّاً، فيه غرفتان، وجدران حسنة البناء وباب يمكن أن يُغلق بالمفتاح. لم يهمّها أنّه كان عليها أن تمشي عشرين دقيقة كلّ صباح. بالعكس، كانت تقطعها وهي تُغني. لم يهمّها أنّها كانت تقضي ليالٍ دون نوم، مبدلة دورها بدورٍ آخر. أو أن تبقى حتى الثانية صباحاً في المطبخ، تُحضّر قطع العجّة الحارّة جداً التي ستأكلها رفيقاتها في اليوم

التالي، حين كانت تُغادر إلى المعمل في السادسة صباحاً. على العكس كان الجهد الجسديّ يملؤها طاقة والإنهاك يتحوّل عندها إلى حيويّة وملاحة، وكانت النهارات طويلة وبطيئة جدّاً، والعالم (الذي تحس به مثل غرق لا ينتهي) يكشف لها عن أكثر وجوهه حيويّة طبعاً ويجعلها تعي أنّ وجهها هو كذلك أيضاً. بدأت ابنتُها الكبرى تعمل في الخامسة عشرة من عمرها، الرحلة إلى المعمل التي كانتا ما تزالان تقومان بها سيراً على الأقدام، كانت تَقْصرُ بالأحاديث والضحكات. ترك الابن المدرسة في الرابعة عشرة من عمره. عمل لبضعة أشهر في إنتِرزون-برني، لكنّهم طردوه لشروده الذهني بعد عدّة إنذارات. كانت يدا الفتى أكبر وأبطأ من اللازم. عندئذ حصلت له أمّه على عمل في مخبز في الحي. الوحيدة التي كانت تدرس هي بِنلوبٌ مِنْدِثْ بِثرّا. كان اسم مدرستها مدرسة أكيلِسْ سِردان الابتدائية وكانت في شارع أكيلِسْ سِردان. كان هناك أطفال من ضاحية كارّانثا وبِراكروث ومورِلوس بل وكان يذهب إليها أطفال من وسط المدينة. كانت بِنلوبٌ مِنْدِثْ بِثرّا في الصف الخامس الابتدائي. كانت طفلة صموتة، لكنّها دائماً تُحَصِّل علامات جيّدة. كان شعرها أسود طويلاً وسبطاً. خرجت يوماً من المدرسة ولم يرها أحد بعدها. في ذلك المساء ذاته طلبت أمّها إذناً كي تتوجّه إلى المخفر رقم ٢ لتضع إبلاغاً عن اختفائها. رافقها ابنُها. في المخفر سجّلوا الاسمَ وقالوا لهما إنّ عليهما أنْ ينتظرا عدّة أيّام. لم تستطع ليبيا أن تذهب مع أمّها لأنهم قدّروا في إنتِرزون أنَّ إذن الأمّ كافٍ. في اليوم التالي بقيت بِنلوبٌ مِنْدِثْ بِثرّا مختفية. حضرت الأمّ مع ابنيها مرّة أخرى، وأرادوا أن يعرفوا ما التقدّم الذي أحرزته القضيّة. قال لهم الشرطيّ الذي اهتمّ بأمرهم من وراء الطاولة ألا يتواقحوا. كان مدير مدرسة أكيلِس سِندران وثلاثة معلّمين في المخفر، مهتمّين بمصير بِنلوبٌ. وكانوا هم من أخذوا العائلة من هناك قبل أن يكتبوهم مخالفة بتهمة الإخلال بالنظام العام. تكلّم أخوها في اليوم التالي مع بعض

زميلاتِ بِنلوبٌ في الصف. قالت له إحداهنَّ إنّ بِنِلوبٌ، بحسب ما كانت تظنّ، ركبت في سيّارة مدخّنةِ زجاج النوافذ ولم تخرج منها. بحسب الوصف بدا أنّها ماركة بِرغرينو أو ماستر رود. تكلّم الأخُ ومعلّمةُ بِنلوبٌ طويلاً مع هذه الطالبة، لكنّ الشيء الوحيد الواضح الذي توصّلا إليه هو أنّ الأمر يتعلّق بسيارة غالية الثمن وسوداء اللون. طاف الأخُ في سانتا تِرِسا ثلاثةَ أيّام مشى فيها مشياً منهكاً بحثاً عن سيارة سوداء. عثر على الكثير منها، بل وكان بعضها مُدخَّنَ النوافذ ويبدو كأنّه خرج توّاً من المعمل، لكنّ من كانوا يركبون فيها لم يكن لهم وجوه مختطفين أو كانوا أزواجاً شباناً (تُبكي سعادتُهم أخا بِنِلوبٌ) أو كنَّ نساء. على كلّ الأحوال سجّل أرقام اللوحات. في الليالي كانت تجتمع الأسرة وتتكلّم عن بِنِلوبٌ كلاماً لم يكن يعني شيئاً أو أنّ آخر معانيه لا يمكن أن يفهمه أحدٌ غيرهم. بعد أسبوع ظهرت جثّتها. عَثَرَ عليها بعضُ عمّال الأشغال العامّة في سانتا تِرِسا في قسطل مياه مالحة كان يجوب الأرض تحت المدينة من ضاحية سان داميان وحتىّ جرف إل أوخيتو، بالقرب من الطريق إلى كاساس نِغراس، بعد مكبّ إلْ تشيلي السرّي. نُقلت الجثّة على الفور إلى مبنى الطبيب الشرعي الذي سرعان ما قرّر أنّها اغتُصِبت شرجاً وفرجاً، تظهر تمزّقات عديدة في كلا المخرجين، ثمّ خُنقت. بعد تشخيص ثانٍ أقرَّ أنّ بِنِلوبٌ مِنْدِتْ بِتْرَا ماتت بسبب توقُّفِ قلبها بينما كانت تتعرَّضُ لعمليات الاغتصاب، المعروضة سابقاً.

في ذلك الوقت كان لالو كورا قد أتمّ السابعةَ عشرة من عمره، أكبر بستّة أعوام من بِنلوبٌ مِنْدِتْ حين قُتِلت وأمّن له إيبفانيو مكاناً يعيش فيه. كان المكان في البيوت الصغيرة التي كانت ما تزال موجودة في وسط المدينة. كان البناء موجوداً في شارع أوبيسبو، حيث ما إن يجتاز الزائر نوعاً من البهو الذي تتفرّع منه الأدراج، حتى يدخل إلى

فناء هائل، في وسطه بحرة كبيرة، تُرى منه الطوابقُ الثلاثة التي يكوّن منها البناء والممرات المقشّرة التي كان يلعب فيها الأطفال أو تتكلّم الجارات، ممرات شبه مسقوفة بألواح من خشب ترتكز على أعمدة حديديّة رقيقة، صدئت بفعل الزمن. كانت غرفة لالو كورا كبيرة، فيها مكان كاف لسرير وطاولة وثلاثة كراسٍ، وبرّاد (بجوار الطاولة) وخزانة أكبر من اللازم بالنسبة للثياب القليلة التي يملكها. أيضاً كانت تحتوي على موقدٍ صغير ومجلى إسمنتيّ بني حديثاً، لجلي القدور والصحون المتسخة أو لترطيب الوجه. كانت المغاسل كما الحمّام مشتركة، ويوجد في كلّ طابق مرحاضان إضافة إلى ثلاثة أخرى على السطح. أراه إيبفانيو أولاً غرفته، التي كانت في الطابق الأوّل. كانت الثياب تُعلّق على حبل ممتدّ من جدار إلى آخر، ورأى إلى جانب السرير غير المرتّب كدساً من صحف قديمة، جميعها تقريباً من سانتا تِرِسا، راح الموجود منها في الأسفل يصفرّ. بدا الموقد كأنّه لم يُستخدم منذ زمن طويل قال له إنّ الأفضل بالنسبة لشرطيّ هو أن يعيش لوحده، لكن هو حرّ في أن يفعل ما يحلو له. رافقه بعدها إلى غرفته، التي كانت في الطابق الثالث وأعطاه المفاتيح. ها قد صار عندك بيت، يا لاليتو، قال له. إذا أردتَ أن تكنس الأرض، اطلبْ المكنسة من جارتك. على الجدار كتب أحد اسماً: إرنِستو أرانثيبيا. كان اسم أرانثيبيا مكتوباً بحرف V. أشار لالو إلى الاسم فهزّ إيبفانيو كتفيه. يجب أن تدفع الأجرةَ في نهاية كلّ الشهر، قال، وذهب دون أن يُعطي أيّ توضيح آخر.

في تلك الأيام ذاتها وصل أمر إلى المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ بأن يترك جانباً قضيّةَ التائب ويتفرّغ إلى سلسلة من السرقات العنيفة التي حدثت في ضاحية ثِنتِنو وضاحية بودِستا. أجابوه على سؤاله عمّا إذا كان هذا يعني أنّ قضيّة التائب تعتبر مغلقة، لا، لكن ونظراً لأنّ هذا

يبدو أنّه تبخرّ والتحقيق لا يحرز أيّ تقدّم ونظراً لأنّ طاقم المُحقّقين المخصّصين لسانتا تِرِسا لم يكن كبيرا جدّاً، كان عليهم أن يعطوا الأولويّة للحالات الأكثر إلحاحاً. طبعاً هذا لا يعني أن ينسوا التائبَ ولا أنّ خوان دِ ديوس مارتينِثْ لا يبقى على رأس التحقيق، لكنّه يعني فعلاً أنّ الشرطيين الذين كانوا تحت إمرته ويضيعون الوقت بحراسة كنائس المدينة أربعاً وعشرين ساعة يوميّاً، سيكون عليهم أن يتفرّغوا لمسائل أنفع بالنسبة للأمن العام. قَبِلَ خوان دِ ديوس مارتينِثْ الأمرَ دون أن ينبس ببنت شفة.

كانت المقتولة التالية لوثي آنٌ ساندِر. كانت تعيش في هونتفيل، على بعد خمسين كيلومتر من سانتا تِرِسا، في أريزونا، كانت تعيش قبلها في أدوبِ، مع صديقة، عبرتا بعدها الحدودَ في سيارة، مستعدتين لأن تعيشا، حتى ولو كان جزئياً ليل سانتا تِرِسا الذي لا ينتهي. كانت صديقتها تُدعى إريكا دِلمور وهي صاحبة السيارة ومن تقودها. كلاهما كانت تعمل في ورشة صناعة يدوية في هونتفيل، حيث كانت تصنعان الخرزيات التي كانت تشتريه بعد ذلك بالجملةِ الحوانيتُ المكرّسة للسياحة في تومبستون، توكسون، فيونيكس وأباتشِ جونكشن. كانتا البيضاوين الوحيدتين في الورشة فبقية العاملات كنَّ من أصلٍ مكسيكي أو هندي. كانت لوسي آنٌ قد ولدت في ضيعة صغيرة من ضياع الميسيسيبي، كانت في السادسة والعشرين من عمرها وتحلم بأن تعيش في مكان قريب من البحر. كانت تتكلّم أحياناً عن العودة، لكنّها عامّةً ما كانت تفعل ذلك حين تكون متعبة ومنزعجة، وهو ما لم يكن يحدث كثيراً. إريكا دِلمور كانت في الأربعين من عمرها وتزوّجت مرّتين. كانت من كاليفورنيا، لكنّها تشعر بالسعادة في أريزونا، حيث كان الناس قليلين والحياة أكثر وداعة. حين وصلتا إلى سانتا تِرِسا توجّهتا مباشرةً إلى منطقة المراقص، في مركز المدينة. ذهبتا أوّلاً إلى إل

بِليكانو ثمّ إلى دومينوس. في الطريق انضمّ إليهما مكسيكيٌّ يقارب الثانية والعشرين من عمره قال إنّه يدعى مانوِل أو ميغِلْ. كان شخصاً لطيفاً، بحسب ما صرّحت به إريكا، حاول أن يدخل في علاقة مع لوسي آنّ ثم معها أمام رفضٍ هذه ويمكن أن يوصف بأنّه مزعج أو ذكوريّ. في لحظة من لحظات وجودهم في دومينوس غادر مانوِلْ أو ميغِلْ (لم تكن إريكا قادرةً على أن تتذكّر الاسمَ بدقّة) وبقيتا وحدهما على طاولة العرض. راحتا بعدها تجوبان بالسيارة بعض شوارع المركز بطريقة اعتباطية، تزوران صروحَ المدينةِ التاريخية: الكاتدرائية، عمادة المدينة، بعض البيوت القديمة من المرحلة الاستعمارية، ساحة السلاح المحاطة بالأبنية ذات الأروقة. بحسب إريكا لم يزعجهم أحدٌ في أيّ لحظة، كما لم يتعقّبهم أيّ شخص. بينما كانتا تدوران حول الساحة قال لهما سائح أمريكي شمالي: أيتها الفتاتان عليكما أن تريا التعريشة، إنّها عظيمة. ضاع بعدها السائح في الزحام وقرّرتا أنّ فكرة أن يسيرا برهة على أقدامهما ليست سيّئة. كان الليل مشعّاً، رطباً، مليئاً بالنجوم. نزلت لوسي آنّ بينما راحت إريكا تبحث عن مكان تصفّ فيه سيارتها، خلعت حذاءها وراحت تجري على العشب الذي سُقِيَ توّاً. ذهبت إريكا بعد أن صفّت السيارةَ لتبحث عن لوسي آنّ، لكنّها لم تعثر عليها. قرّرت أن تتوغّل في الساحة باتجاه التعريشة الشهيرة. كانت بعض الدروب ترابية، لكنّ الرئيسيّة منها احتفظت بحجارتها المرصوفة. رأت على المقاعد أزواجاً يتكلمون ويتبادلون القبل. كانت التعريشة معدنية وفي داخلها بالرغم من الساعة أطفالٌ مؤرّقون يلعبون. كانت الإنارة، تأكّدت إريكا، ضعيفة، ما يكفي كيلا يمشي المرء على عماها، لكنّ وجود كلّ أولئك الأشخاص كان يُجَرِّدُ المكان من أيّ نَفَسٍ مشؤوم. لم تعثر على لوسي آنّ، لكنّها فعلاً ظنّت أنّها عرفت السائح الأمريكيَّ الشمالي الذي مدح لهما الساحة صارخاً. كان إلى جانب ثلاثة آخرين يشربون تِكيلا مُمرّرين القنينة من واحدٍ إلى آخر. اقتربت وسألتهم عن

صديقتها. نظر إليها الأمريكيُّ الشمالي كما لو أنّها هربت من مشفى أمراض عقلية. جميعهم كانوا سكرانين، لكنّ إريكا كانت تعرف كيف تُعامل السكارى ووضّحت لهم الوضع. كانوا في ريعان الشباب وليس عندهم شيء أفضل يفعلونه، وهكذا قرّروا أن يُساعدوها. بعد برهة دوّت في الساحة عدّة صيحات تنادي باسم لوسي آنّ. عادت إريكا إلى حيث صفّت السيارة. لم يكن هناك أحد. دخلت، قفلت الأبواب من الداخل وضغطت على الزمور عدّة مراتٍ. راحت بعدها تُدخّن إلى أن أصبح الجوّ في الداخل خانقاً فاضطُرّت لأن تُنزل زجاج نافذة. حين طلع الفجر توجّهت إلى أحد مخافر الشرطة وسألت عمّا إذا كانت توجد في تلك المدينة قنصلية أمريكية شماليّة. لم يكن الشرطيُّ الذي اهتمّ بأمرها يعرف فاضطرّ لأن يسألّ اثنين من رفاقه. قال واحد منهما بلى توجد. رفعت إريكا إبلاغاً عن حالة اختفاء ثمّ توجّهت إلى القنصلية ومعها نسخ عن الإبلاغ. كانت القنصلية في شارع بِردِخو، في ضاحية ثِنترو-نورتِ، ليست بعيدة عن الشوارع التي جابتاها في الليلة السباقة وكانت مُغلقة. على بعد خطوات رأت إريكا مقهى فدخلت لتناول طعام إفطارها. طلبت شطيرة نباتية وعصير أنانس وهتفت بعدها إلى بيت لوسي آنّ في هونتفيل، لكنّ أحداً لم يُجب. لم يكن باستطاعتها أن ترى من مكان طاولتها حركةَ الشارع الذي بدأ يستيقظ تدريجيّاً. حين انتهت من شرب عصيرها عادت وهتفت إلى هونتفيل، لكنّها أدارت هذه المرّة القرصَ على هاتف الشريف. ردّ عليها فتى اسمه روري كامبوثانو، كانت تعرفه جيّداً. قال لها هذا إنّ الشريف لم يصل بعد. قالت له إريكا إنّ لوسي آنّ ساندِر قد اختفت في سانتا تِرِسا، وإنّها ترى بحسب مجرى الأمور أنّها ستقضي صباحها كلَّهُ في القنصلية، أو في المرور على المستشفيات. قُلْ له أن يهتف لي إلى القنصليّة، قالت. هذا ما سأفعله، يا إريكا، حافظي على هدوئك، قال روري، ثم أغلق. بقيت جالسة تتسلّى بشطيرتها، إلى أن رأت حركةً في باب القنصليّة. اهتمّ بها

شخص قال إنّه يُدعى كورت أ. بانكز، وجّه إليها كلَّ أنواع الأسئلة حول صديقتها وحول نفسِها. كما لو أنّه لم يكن يُصدّق إطلاقاً الرواية التي أفادته بها إريكا. فقط حين خرجت من هناك أدركت أنّ الرجل كان يشكّ بأنهما هي ولوسي آنّ عاهرتان. عادت بعدها إلى المخفر حيث اضطُرّت لأن توضّح القصّةَ ذاتها مرّتين أخريين، أمام شُرطيّين لم يكونوا يعرفون شيئاً عن شكواها وأخبروها أخيراً أنّه لم يكن هناك جديد بالنسبة لاختفاء صديقتها، التي من المحتمل جدّاً أن تكون قد عبرت الحدودَ مرّة أخرى. نصحها أحدُ الشُّرَطيين أن تفعل الشيء ذاته وأنّ من الأفضل لها أن تترك القضيّة في يد القنصلية وتعودَ إلى بيتها. نظرت إريكا إلى عينيه. كان له وجه شخص طيّبٍ والنصيحة تبدو حسنة القصد. شغلت بقيّة الصباح وقسماً لا بأس به من المساء في المرور على المستشفيات. لم تكن حتى تلك اللحظة قد توقّفت لتُفكّر بأي طريقة يمكن للوسي آنّ أن تنتهي إلى مشفى. استبعدت الحادث، فلوسي اختفت في الساحة أو حولها وهي لم تسمع أدنى ضجّة، أيَّ صرخة، أيَّ صوتِ كابحِ سيارة، أيَّ انزلاق. لم يخطر لها بعد أن بحثت في احتمالات تضفي مصداقيةً على وجود لوسي آنّ في مشفى، غير نوبة فقدانِ ذاكرة. كان هذا الاحتمال من البعد بحيث أنّ عينيها امتلأتا بالدموع. ما من مشفى زارته سُجّلت فيه أمريكية شمالية. في آخر مشفى اقترحت عليها مُمرّضة أن تذهب إلى مشفى أمريكا، وهو مؤسسة طبّية خاصّة، لكنّها ردّت عليها بصيحة تهكّم. نحن عاملتان، يا حبيبتي، قالت لها بالإنكليزية. مثلي، قالت الممرّضةُ باللغة ذاتها. بقيتا تتكلّمان برهة، دعتها الممرّضةُ بعدها لتتناول معها فنجانَ قهوة في مطعم المشفى، حيث أعلمتها أنّ نساء كثيرات يختفين في سانتا تِرِسا. الشيء ذاته يجري في بلدي، قالت إريكا. نظرت المُمَرّضةُ إلى عينيها وحرّكت رأسها. الأمور هنا أسوأ، قالت. عندما تودّعتا أعطت كلّ منهما هاتفَها للأخرى ووعدتها إريكا بأن تُطلعها على المستجدات التي قد تحدث.

تناولت غداءها في شرفة مطعم في مركز المدينة وفي مناسبتين ظنّت أنّها رأت لوسي آنّ تسير على الرصيف، في واحدة منهما وهي تقترب منها وفي أخرى وهي تبتعد عنها، لكن ما من مرّة كانت لوسي آنّ. لم تمعن تقريباً فيما طلبته وأشارت إلى طبقين دون تمحيص، لم يكونا غاليين جدّاً. كلاهما كان متبّلاً بكثير من الحرّ فسالت بعد برهة دموعُها، لكنّ هذا لم يجعلها لا تأكل. قادت بعدها سيارتها إلى الساحة، حيث اختفت لوسي آنّ. صفّت سيارتها تحت ظلّ شجرة بلّوطٍ كبيرة وراحت تنام ويداها على المقوَد. حين استيقظت توجّهت إلى القنصليّة فقدّمها المدعو كورت أ. بانكز إلى شخصٍ آخر قالَ إنّه يُدعى هندرسون، أعلمها أنّ الوقت ما زال باكراً جدّاً كي يُحرزَ تقدّماً فيما يتعلّق باختفاء صديقتها. سألت هي متى لن يكون باكراً جدّاً. نظر إليها هندرسون ثابتَ الجنان وقال: ثلاثة أيّام أخرى. وأضاف: على الأقلّ. حين كانت ستغادر قال لها كورت أ. بانكز إنّ شريفَ هونتفيل هتف سائلاً عنها ومهتمّاً باختفاء لوسي آنّ ساندِر. شكرته وذهبت. في الشارع بحثت عن هاتف عموميّ وهتفت إلى هونتفيل. ردّ عليها روري كامبوثانو، الذي قال لها إنّ الشريف حاول أن يتصل بها ثلاث مرّات. خرج الآن، قال روري، لكنّني سأقول له عندما يعود أن يتصل بك. لا، قالت إريكا، لم يصبح عندي بعد مكان ثابت. سأهتف أنا بعد برهة. زارت قبل حلول الليل عدّةَ فنادق. ما كان يبدو منها جيّداً كان غالياً أكثر من اللازم، ونزلت أخيراً في نزلٍ في ضاحية روبن داريّو، في غرفةٍ بّلا حمّام ولا تلفاز. كان الحمّام في الممرّ ولكي تُغلق بابه من الداخل كان هناك سُقّاطة صغيرة. تعرّت، لكن دون أن تخلع نعليها، خشية أن تصاب بعدوى الفطور ومكثت برهة طويلة تحت الماء. ارتمت بعد نصف ساعة على السرير دون أن تنزع عنها المنشفة التي نشّفت بها جسدها ونسيت شريفَ هونتفيل والقنصليّةَ ودخلت في نومٍ عميق حتى اليوم التالي.

عثروا في ذلك اليوم على لوسي آنّ ساندِر في مكان ليس بعيداً عن الشبك الحدودي، على بعد أمتار قليلة من خزّانات بترول كانت تنتشر على مسافة موازية للطريق إلى نوغالِسْ. كانت الجثة تظهر جروحَ سكين، غالبيتها عميقة جدّاً في منطقة العنق، والقفص الصدري والبطن. عَثَرَ عليها بعضُ العمّال الذين أعلموا الشرطة على الفور. ثُبِّتَ في تقرير الطبيب الشرعي أنّها كانت قد اغتصبت مرّات مُتكرّرة، وعُثر على أدلة مني وفيرة في فرجها. حدث الموت نتيجة إحدى طعنات السكين، مع أنّ خمسة منها كانت قاتلة. أُبْلِغَتْ إريكا دِلمور بالخبر حين هتفت إلى القنصليّة الأمريكية الشمالية. قال لها كورت أ. بانكز أن تَحضر فوراً، وإنّ عنده شيئاً محزناً سيبلغه لها، لكن لم يبقَ أمامه نظراً لإلحاح إريكا وصراخها الذي رفعت من حجمه، غير أن يقول لها الحقيقة الخالصة والمحزنة. هتفت إريكا إلى شريف هونتفيل، قبل أن تتوجّه إلى القنصلية واستطاعت هذه المرّة أن تتكلّم معه فعلاً. قالت له إنّ لوسي آنّ قد قُتِلَت في سانتا تِرِسا. هل تريدين أن أذهب في طلبك؟، سألها الشريف. بودّي ذلك، لكن إن كنت لا تستطيع فلا تفعل. عندي سيّارتي، قالت إريكا. سأذهب لأبحث عنك، قال الشريف. هتفت بعدها إلى المُمَرِّضة التي عملت منها صديقةً وحكت لها الخبر الأخير والنهائي كما يبدو. بالتأكيد هم يريدون أن يحدّدوا هويّة الجثّة، قالت المُمَرِّضة. التشريح كان في أحد المشافي التي زارتها في اليوم السابق. ذهبت مع هِندرسون، الذي كان ألطف من كورت أ. بانكز، لكنّها كانت في الحقيقة تُفضّل أن تذهب وحدها. بينما كانا ينتظران في أحدّ ممرات القبو رأت المُمَرّضةَ تظهرُ. تعانقتا وتبادلتا القبل على الخدّين. قدّمت بعد ذلك الممرِّضةَ لِهِنْدِرسون، الذي سلّم عليها بشرود، لكنّه أراد أن يعرف منذ متى كانتا تعرفان بعضهما بعضاً. قالت له المُمَرّضة منذ أربع وعشرين ساعةً. أو أقلّ من أربع وعشرين ساعة. فعلاً، فكّرت إريكا، لكنّني أشعرُ كما لو أنّني أعرفها

منذ زمن طويل. عندما وصل الطبيبُ الشرعي رفض أن يُرافقها هِندرسون. ليس مزاجاً قال هذا بنصف ابتسامة، إنّه واجبي. عانقتها المُمرّضة ودخلتا معاً، يتبعهما الموظّفُ الأمريكي الشماليّ. وجدوا في الصالة شُرطِيَّين مكسيكيين ينظران إلى المقتولة. اقتربت إريكا وقالت إنّها صديقتها. طلب منها الشّرطيان أن تُوقِّع على بعض الأوراق. حاولت إريكا أن تقرأها، لكنّها كانت مكتوبة بالإسبانية. ليست شيئاً مهمّاً، وقِّعي، قال لها هِندرسون. قرأت المُمرِّضةُ الأوراقَ وقالت لها أن توقِّع. هذا كلّ شيء؟، سأل هِندرسون. هذا كلّ شيء، قال أحدُ الشُّرَطيَّيْن المكسيكيَّيْن. من الذي فعل ذلك بلوسي آنّ، سألت هي. نظر إليها الشُّرَطيّان دون أن يفهما. ترجمت المُمرِّضةُ كلماتِها وقال الشرطيّان إنّهما لا يعرفان بعد. ظهر بعد الظهر شريفُ هونتفيل في القنصلية الأمريكية الشمالية. كانت إريكا تُدَخِّن حبيسة سيّارتها حين رأته يصل. عرفها شريف هونتفيل من بعيد، وتكلّما هي دون أن تخرج من السيارة وهو منحنياً مستنداً بيدٍ على باب السيارة المفتوح والأخرى على خصره. ذهب بعدها ليطلب المزيد من المعلومات من القنصلية، وبقيت إريكا في السيارة وقفلت من جديد الباب من الداخل وهي تُدخّن السيجارةَ تلو الأخرى. حين خرج الشريف قال لها أن يعودا إلى البيت. انتظرت إريكا حتى أدار الشريفُ محرّكَ سيارته فتبعته كما لو أنّها في حلم، عَبْرَ الشوارع المكسيكيّة وعبر الممرّ الحدودي وصحراء أريزونا، إلى أن ضغط الشريف على بوق سيارته ثمّ أشار لها بيده وتوقّفت السيارتان في محطّة محروقات قديمة، حيث كان باستطاعتهما أن يأكلا أيضاً. لكنّ إريكا لم تكن جائعة واقتصرت على سماع ما كان على الشريف أن يقوله لها: إنّ جثمان لوسي آنَ سيُرسل إلى هونتفيل بعد ثلاثة أيّام وإنّ الشرطة المكسيكية وعدت بالقبض على القاتل وإن رائحة خراء كانت تفوح من كلّ ذلك. بعدها طلب الشريف بيضاً مقليّاً مع الفاصوليا وزجاجة بيرة ونهضت هي عن الطاولة وذهبت لتشتري

سجائر. حين عادت كان الشريف يمسح الصحن بقطعة من خبز القالب. كان شعره كثيفاً وأسود يجعله يبدو أصغر مما هو. هل تعتقد أنّهم حكوا لك الحقيقةَ، يا هاري؟ سألته. إطلاقاً لا، قال الشريف، لكنّني سأعمل شخصيّاً على التحقّق منه. أعرفُ، أنك ستفعل، يا هاري، قالت، وراحت تبكي.

وُجدت المقتولةُ التالية على مقربة من الطريق إلى هِرموسيّو، على بعد عشرة كيلومترات من سانتا تِرِسا، بعد يومين من العثور على جثّة لوسي آنّ ساندِر. عثر عليها أربعة عمّال مياومين وحفيد صاحب المزرعة. كانوا يبحثون منذ أكثر من عشرين ساعة عن بعض رؤوس الماشية الهاربة. كان الخمسة يمضون على جيادهم فأرسل الحفيدُ، بعد أن تبيّن أنّ الأمرَ يتعلّق بمقتولة، أحدَ العمّال إلى المزرعة ومعه أمرٌ بأن يُبلغ المعلّم، بينما بقوا هم هناك، مشوّشين أمام وضعية الجثّة غير الطبيعية على الإطلاق. كان رأسها مطموراً في ثقب. كما لو أنّ القاتل، المجنون دون شكّ، فكّر أنّه يكفي أن يطمر الرأس. أو كما لو أنّ تغطية الرأس بالتراب يجعل الجسد غيرَ مرئيّ لأيّ نظرة. كانت الجثّة على وجهها ويداها ملتصقتين بجسدها. كان ينقص كلَّ يد السبابة والخنصر. على الصدر تلمح بقع دم متخثّر. كانت ترتدي فستاناً خفيفَ القماش، بنيّ اللون، من تلك الفساتين التي تُزرّرُ من أمام. لم تكن ترتدي جوارب ولا حذاء. في فحص الطبيب الشرعي اللاحق ارتأى أنّه بالرغم من الطعنات الكثيرة التي تلقتها في الصدر وفي الذراعين وكسر في العظم اللاميّ، فسبب الموت هو الخنق. لم تُلحظ علامات اغتصاب. تولّى القضيّة شرطيّ التحقيق خوسِهْ ماركيز، الذي لم يتأخّر كثيراً في معرفة أنّ المقتولة هي أمريكا غارثِيا ثيفوِنْتِ، البالغة من العمر ثلاثة وعشرين عاماً وكانت تعمل كنادلة في بار سِرافينوس، لصاحبه لويس تشانتر، الذي كان له سجل طويل كقوّاد، وكان يُقال إنّه مخبر

عند الشرطة. كانت أمريكا غارثيّا ثيفونْتِ تتقاسم البيتَ مع رفيقتين لها، كلاهما كانت نادلة، لم تُقدّما معلومات جوهريّة للتحقيق. الشيء الوحيد الذي بقي ثابتاً دون مجال للشك هو أنَّ أمريكا غارثيّا ثيفونْتِ كانت قد خرجت من البيت في الخامسة مساء في طريقها إلى بار سِرافينوس، حيث كانت تعمل حتى الرابعة صباحاً، الساعة التي أُغلق فيها البار. لم تعد إلى البيت بعدها أبداً، صرّحت رفيقتاها. أوقف المُحقِّقُ، خوسِهْ ماركيز لويس، تشانترِ لمدّة يومين. حجّة هذا كانت قاطعة. كانت أمريكا غارثيّا ثيفونْتِ من مواليد ولاية غِرِّرو ومضى خمسُ سنوات على إقامتها في سانتا تِرِسا، التي وصلتها مع أخٍ لها، كان يعيش وقتذاك في الولايات المتحدة، بحسب ما شهدت رفيقتاها، ولم تكن تتكاتب معه. حقّق خوسِهْ ماركيز لبضعة أيّام مع بعضِ زبائن بار سِرافينوس دون أيّ نتيجة.

بعد أسبوعين، في أيّار ١٩٩٤، اختُطِفت مونيكا دوران رِيِّس عند خروجها من مدرسة دييغو رِيبِرا في ضاحية لوماس دِل تورو. كانت في الثانية عشرة من عمرها، رعناء لكنّها طالبة جيّدة. كانت تلك سنتها الأولى في الثانوية. وكان الأبُ، كما الأمُّ، يعملُ في معمل مادِراس دِ مكسيكو، المتخصّص بصناعة الأثاث من الطراز الاستعماري الخشن والذي كان يُصدّر إلى الولايات المتحدة وكندا، كان لها أخت أصغر منها تدرس وأخوان أكبر منها وأخت في السادسة عشرة من عمرها تعمل في معملٍ متخصص بالكبلات وفتى في الخامسة عشرة من عمره يعمل مع أبويه في مادِراس دّ مكسيكو. ظهرت جثتها بعد يومين من اختطافها، على جانبٍ من طريق سانتا تِرِسا-بوِبلو أثول. كانت بلباسها وإلى جانبها حقيبة كتبها ودفاترها. بحسب الفحص الباثولوجي كانت قد اغتصبت وخُنِقت. في التحقيق اللاحق قالت بعض صديقاتها أنّهن رأينها تصعد إلى سيارة سوداء مُدخّنة النوافذ، ربّما سيارة بِرِغرينو أو

ماسِرُرود أو سيلِنثيوسو. لم تعطِ انطباعاً بأنّها أُجبرت. ملكت وقتاً كي تصرخ، لكنّها لم تصرخ. بل إنّها حين لمحت إحدى صديقاتها لوّحت لها بيدها. لم تبدُ خائفة.

في ضاحية لوماس دِل تورو ذاتها عثروا بعد شهر على جثّة رِبِكا فِرنانِدِث دِ هويوس، في الثالثة والعشرين من عمرها، سمراء، شعرها طويل يصل إلى خصرها، كانت تعمل نادلة في بار إل كاترين، الموجود في شارع خالابّا، في ضاحية روبِن داريو المجاورة وكانت قبلها عاملة في معملَيّ هولمِز أند ويست وأيوو، اللذين طردت منهما لأنّها أرادت أن تُنظّم نقابة. كانت رِبِكا فِرنانِدِث دِ هويوس من أواخاكا، لكنّها كانت تعيش في شمال سونورا منذ أكثر من عشر سنوات. وقبل ذلك عاشت وهي في الثامنة عشرة من عمرها في تيخوانا، حيث يرد اسمها في أحد سجلّات العاهرات وأيضاً حاولت دون نجاح أن تعيش في الولايات المتحدة، من حيث أعادتها شرطة الهجرة إلى المكسيك في أربع مناسبات. اكتَشَفَت جثّتها صديقةٌ كان معها مفتاح بيتها واستغربت أنّ رِبِكا لم تذهب إلى العمل في إل كاترين، كانت المقتولةُ بعنفٍ، كما صرّحت لاحقاً، امرأةً مسؤولة ولم تكن تغيب عن العمل ما لم تكن مريضة جدّاً. كان البيت بحسب صديقتها كما هو دائماً، أي أنّها لم تكتشف في البداية أي علامة تدل على ما وجدته لاحقاً. كان بيتاً صغيراً مؤلّفاً من صالون وغرفة ومطبخ وحمّام. حين دخلت إلى هذا الأخير اكتشفت جثّة صديقتها، التي كانت جاثية على الأرض كما لو أنّها سقطت واصطدم رأسها صدمة قويّة، وإن لم ينزف. فقط حين حاولت أن تنعشها ممرّرة الماء على وجهها انتبهت إلى أنّها كانت ميتة. هتفت إلى الشرطة وإلى الصليب الأحمر من هاتف عموميّ ثمّ عادت إلى البيت، نقلت جثّة صديقتها إلى السرير، جلست تنتظرُ على أحد كرسيّيّ الصالون الكبيرين وراحت تُشاهد برنامجاً تلفزيونيّاً. وصل

الصليبُ الأحمر قبل الشرطة بكثير. كانا رجلين، كان الأوّل شاباً جدّاً، أقل من عشرين سنة، والآخر يقاربُ الخامسة والأربعين، ويبدو أباً للأوّل وهو من قال إنّه ليس ما يمكن أن يفعلاه. كانت رِبكا ميتة. سألاها بعد ذلك أين عثرت على الجثّة فقالت لهما في الحمّام. إذن سنُعيدها إلى الحمّام، لا نريدك أن تدخلي في ورطة مع الشرطة، قال الرجل، وأشار إلى الفتى بأن يأخذ الميتة من قدميها بينما هو يمسكها من كتفيها ويعيدانها بهذه الطريقة إلى المكان الطبيعي لموتها. سألها الحمّال في أيّ وضعية وجدتها، هل جالسة على جرن المرحاض، أو مستندة إليه أم على الأرض، ما إذا كانت مقرفصة في زاوية. عندها أطفأت التلفاز واقتربت من باب الحمّام وأعطت إرشاداتها إلى أن ترك الرجلان رِبكا تماماً كما وجدتها. نظر الثلاثة إليها من الباب. بدت رِبكا كأنّها تغوص في بحر من البلاط الأبيض. حين تعبوا أو داخوا من هذه الرؤية جلسوا، هي على الكرسيّ الكبير والحمّال بجانب الطاولة، وراحوا يُدخنون، بعض السجائر الشهيّة التي أخرجها الحمّال من جيب بنطلونه الخلفيّ. أنت يجب أن تكون معتاداً، قالت هي بطريقة، هي إلى هذه الحدّ أو ذاك مشوّشة. هذا يعود للحالة، قال الحمّال، الذي لم يكن يعرف ما إذا كانت تقصد التبغ أو رفع الموتى والجرحى كلّ يوم. في صباح اليوم التالي كتب الطبيب الشرعي في تقريره أنّ سبب الوفاة هو الخنق. كانت المتوفاة قد أقامت علاقات جنسية في الساعات السابقة على مقتلها، وإن لم يجرؤ الطبيبُ الشرعيّ على أن يؤكّد ما إذا كانت قد اغتُصِبت أم لا. بالأحرى لا، قال حين طولِبَ بأن يعطي رأياً حاسماً. حاولت الشرطة أن تُلقي القبض على عشيقها، وهو شخص يّدعى بِدرو بِرِث أوتشوَا، لكن حين استدلّوا بعد أسبوع على بيته، كان الشخص المذكور قد غادر. كان بيت بِدرو بِرِثْ أوتشوَا في نهاية شارع سايوكا، في ضاحية لاس فلورِس، وكان مسكناً مصنوعاً، ليس من دون بعض المهارة، من الطوب والبقايا، فيه محل لفراش وطاولة، على

بعد أمتار قليلة من مجرور معمل إست وِست، الذي كان قد عمل فيه. وصفه الجيران بأنّه رجل رسمّي، ونظيف بعامّة، وهذا ما يُستنتَج منه أنّه كان يستحمّ في بيت رِبِكا، على الأقل في الأشهر الأخيرة. لم يَعرف أحدٌ من أين هو، ولذلك لم يُرسل أيّ أمرٍ بالتوقيف الاحترازي إلى أيّ مكان. في معمل إست وِست ضاعت بطاقته، وهذا أمر ليس غريباً في تلك المعامل المعافاة من ضريبة الاستيراد، فَتَنَقُّل العمالِ كان متواصلاً. عثروا داخل الكوخ على عدد من مجلات الرياضة، سيرة لفلورِس ماغون، بعض البلوزات، زوجين من الصنادل، بنطلونين قصيرين وثلاث صور لملاكمين مكسيكيين، مقصوصة من مجلة وملصقة على الجدار فوق الفراش، كما لو أنّ بِرِث أوتشوَا كان يُريد قبلَ أن يغرق في نومه أن يُسجّل على شبكيّة عينيه وجوهَ ووضعيات أولئك الأبطال القتالية.

في تموز ١٩٩٤ لم تُقتل أيّ امرأة، لكن ظهر رجل يوجّه أسئلة. كان يصل ظهرَ أيّام السبت ويُغادر ليلَ أيام الآحاد أو فجرَ أيّام الاثنين. كان الرجل متوسّطَ القامة، أسودَ الشعر، بنّيَّ العينين ويرتدي لباس رعاة البقر. بدأ بالدوران في الساحة الرئيسيّة، كما لو أنّه يقيس أبعادها، لكنّه صار بعدها مدمناً على بعض المراقِص وعلى الأخصّ على إل بِليكانو وأيضاً على دومينوس. لم يسأل قط عن شيءٍ بطريقةٍ مباشرة. كان يبدو مكسيكياً، لكنّه يتكلّم إسبانيةً بلكنة أمريكية شمالية، ولم يكن عنده مفردات كثيرة، كما لم يكن يفهم اللعب بالكلمات وإن كان الناس يَحذَرون كثيراً، حين يرون عينيه، من اللعب معه بالكلمات. كان يقول إنّه يُدعى هاري ماغانيا، على الأقل هكذا كان يكتب اسمَهُ، لكنّه يلفظه ماغانا ويفهم منه من يسمعه ماڤغانا، كما لو أنّ الوغد لحّاس المؤخرات ومّصاص قضيبه ذاته كان ابن اسكتلنديين. في المرّة الثانية التي ظهر فيها في مرقص دومينوس سأل عن شخص يدعى ميغِلْ أو

مانوِلْ، وهو شابّ في العشرين ونيف من عمره، قامته مثل هذه، بنيته الجسديّة مثل تلك، شخص ظريف وله وجه شخص طيّب هذا المدعو ميغِلْ أو مانْوِلْ، لكن لا أحد عرف أو أراد أن يُعطيه معلومات. وذات ليلة صادق أحدَ نُدُلِ المرقص، وحين خرج هذا من العمل كان هاري ماغانيا ينتظره في الخارج، جالساً في سيارته. في اليوم التالي لم يستطع النادلُ أن يذهب إلى العمل، قال لأنّه وقع معه حادث. حين عاد بعد أربعة أيّام إلى مرقص دومينوس ووجه مليء باللكمات المزرقة والنُدُب أدهش الجميع، كانت تنقصه ثلاث أسنان، وإذا ما رفع قميصه كي يروه كان باستطاعة المرء أن يرى ما لانهاية له من خطوط طول ألوانها فاقعة في الظهر كما في الصدر، لم يكشف عن خصيتيه، لكن في اليسرى كان ما يزال هناك أثر حرقٍ بسيجارة. طبعاً سألوه ما نوع الحادث الذي وقع له فكان جوابه إنّه في ليلة المسرات تلك كان قد شرب حتى وقت متأخّر برفقة هاري ماغانيا، بالتحديد، وإنّه حين انفصل الأمريكيّ الشمالي وتوجّه إلى بيته في شارع ترِس بيرخِنس (العذراوات الثلاث)، هاجمته مجموعة من خمسة أوغاد مستهترين وانهالوا عليه ضرباً. في الأسبوع التالي لم يظهر هاري ماغانيا في مرقص دومينوس ولا في بِليكانو، بل زار محل عاهرات يُسمى أسونتوس إنتِرنوس (مسائل داخلية) في جادّة مادِرو نورتِ، حيث بقي برهة طويلة يشرب خايبول[1] مكث بعدها يلعب البلياردو مع شخص يُدعى ديميتريو آغيلا، وهو شخص ضخم طوله مئة وتسعين سنتيمتراً ووزنه مئة وعشرة كيلوغرامات، صار صديقه، فالضخم كان قد عاش في أريزونا وفي نيومكسيكو، يشتغل دائماً في الأعمال الريفية، أي رعاية الماشية، عاد بعدها إلى المكسيك لأنّه لم يكن يريد أن يموتَ

(١) من الإنكليزية هاي بول وهو مشروب مكوّن من الويسكي والمياه المعدنية وقطع ثلج.

بعيداً عن أسرته، قال، وإن اعترف بعد ذلك أنّ عائلة، بمعنى العائلة، الحقيقة الخالصة لم يكن عنده أو كان عنده قليل منها، أخت لا بدّ تحوم حول الستين من عمرها، وحفيدة لم تتزوّج قط وكانتا تعيشان في كانانيا مسقط رأسه، لكنَّ كانانيا كانت صغيرة عليه وخانقة، ويحتاج أحياناً أن يأتي إلى المدينة الكبيرة التي لا تنام أبداً، وحين كان يحدث هذا كان يركب في شاحنته الصغيرة ويدخل مهما كانت الساعة في طريق كانانيا-سانتا تِرِسا، الذي كان أجمل الطرق التي رآها في حياته، خاصّة في الليل، وكان يقود دون توقّف حتى سانتا تِرِسا، حيث يملك بيتاً صغيراً من أكثر البيوت راحة في شارع لوثييرناغا[1]، في ضاحية روبِن داريّو، الذي أضعه تحت تصرّفك، يا صديقي هاري، أحد البيوت القديمة المتبقية بعد الكثير من التغيرات والكثير من برامج إعادة تخطيط المدينة، كما حدث في أغلب المرّات بشكل سيّئ. كان ديميتريو يقارب الخامسة والستين من عمره وبدا لهاري شخصاً طيّباً. كانا يذهب أحياناً في الرابعة ومعه عاهرة، لكنّه في غالبية الوقت كان يُفضّل أن يشرب وينظر. سأله إذا كان يعرف فتاة اسمها إلْسا فونِتِسْ. أراد ديميتريو آغيلا أن يعرف كيف كانت. طويلة هكذا، قال هاري ماغانيا واضعاً يده عموديّاً على ارتفاع مئة وسبعين سنتيمتراً. شعرها أشقر مصبوغ. حلوة. ثديان رائعان. أعرفها، قال ديميتريو آغيلا، إلْسيتا، بلى، فتاة ظريفة جدّاً. هل هي هنا؟ أراد هاري ماغانيا أن يعرف. قال له ديميتريو آغيلا إنّه رآها منذ برهة في المرقص. أُريد أن تدلّني عليها، يا سيّد ديميتريو، قال هاري، هل تستطيع؟. كيف لا، يا صديقي. بينما كانا يصعدان الدرجَ إلى المرقص، أراد ديميتريو آغيلا أن يعرف عمّا إذا كان بينه وبينها تصفية حساب. نفى هاري ماغانيا برأسِهِ. كانت إلْسا فونِتِس جالِسة مع إلى طاولة مع عاهرتين أخريين وثلاثة زبائن. كانت إلْسا

---

(١) حباحب.

تضحك من شيء همست لها به واحدة من رفيقتيها. أسند هاري ماغانيا من خلفها إحدى يديه على الطاولة والأخرى على خصره. قال لها أن تنهض. توقّفت العاهرة عن الضحك ورفعت وجهها كي تنظر إليه جيّداً. كان الزبائن يريدون أن يقولوا شيئاً، لكنّهم حين رأوا أنَ ديميتريو آغيلا كان وراء هاري، اختاروا أن يهزّوا أكتافهم. أين نستطيع أن نتكلّم؟ هيّا بنا إلى إحدى الغرف، همست إلْسا في أذنه. حين كانوا يصعدون الدرج توقّف هاري ماغانيا وقال لِديميتريو آغيلا إنّه لا حاجة لأن يرافقه. فقال هذا لا همّ، وعاد ليهبط الدرج. كان كلُّ شيء في غرفة إلْسا فونِتِس أحمر، الجدران، غطاء السرير، الملاحف، الوسائد، الثريا، المصابيح، بل وحتى نصف البلاطات. راقب من النافذة صخب مادِرو-نورتِ في تلك الساعات، المليء بالسيارات التي تدور ببطيئة وبالناس الذين تطفح بهم الأرصفة بين بسطات الطعام والعصير الجوّالة والمطاعم الرخيصة التي كانت تتنافس في أسعار الوجبات المعروضة على ألواح سوداء كبيرة، المُجدّدة باستمرار. حين عاد هاري ماغانيا لينظرَ إلى إلْسا كانت قد خلعت بلوزتها وحمّالة صدرها. فكّر، فعلاً ثدياها كبيران، لكنّه لن يُمارس معها الحبّ في تلك الليلة. لا تتعرّي، قال. جلست الفتاةُ على السرير واضعة رجلاً على أخرى. هل معك سجائر؟، سألت. أخرج علبة مارلبورو وقدّم لها واحدة. نار، قالت الفتاةُ بالإنكليزية. أشعلَ عودَ ثقاب وأدناه من السيجارة. كانت عينا إلْسا فونِتِس ذواتي لون بنّي فاتح حتى لتبدوان صفراوين مثل الصحراء. طفلة حمقاء، فكّر. سألها بعد ذلك عن ميغِلْ مونتِس، أين هو، ماذا يعمل، ما آخر مرّةٍ رأته فيها. هكذا إذن، أنت تبحث عن ميغِلْ؟ قالت العاهرة. هل يمكن أن أعرف لماذا؟. لم يُجبْ هاري ماغانيا: فكَّ زناره ثمّ لفّه على يده اليمنى، تاركاً الإبزيم كجرس. ليس عندي وقت، قال. المرّة الأخيرة التي رأيتُهُ فيها كانت منذ ما يُقارب الشهر أو ربّما الشهرين، قالت. أين كان يعمل؟ لم يكن

يعمل في أيّ مكان ويعمل في كلّ مكان. كان يريد أن يدرس، يبدو لي أنّه كان يذهب إلى مدرسة ليلية. من أين كان يأتي بالمال؟ من أعمال متفرّقة، قالت الفتاة. لا تكذبي عليّ، قال هاري ماغانيا. نفت الفتاة برأسها وأطلقت سحابة دخان نحو السقف. أين كان يعيش؟ لا أعرف، دائماً كان يبدل بيته. أزَّ الزنارُ في الهواء وترك علامةً حمراء على ذراع العاهرة. سدّ هاري ماغانيا فم هذه بيد قبل أن تستطيع أن تصرخ ورماها على السرير. إذا صرختِ قتلتُكِ، قال. حين عادت العاهرة لتنهض كانت العلامة على ذراعها تنزف. الضربة القادمة ستكون على الوجه، قال هاري ماغانيا. أين كان يعيش؟

المقتولة التالية ظهرت في آب ١٩٩٤، في زقاق لاس أنيماس، في نهايته تقريباً، حيث يوجد أربعة بيوت مهجورة، خمسة إذا حسبنا بيت الضحيّة. لم تكن هذه مجهولة، لكنّ الغريب أنّ أحداً لم يعرف اسمها. لم يُعْثَرْ في بيتها، حيث كانت تعيش وحدها منذ ثلاث سنوات، على أوراق شخصيّة ولا على أيّ شيء يمكن أن يقود إلى معرفة هويّتها بسرعة. بعض الأشخاص، لم يكونوا كثراً، كانوا يعرفون أنّ اسمها إيزابيل، لكن الجميع تقريباً كانوا يعرفونها بالبقرة. كانت امرأة ذات بنيةٍ قويّة، طولها مئة وخمسة وستين سنتيمتراً، سمراء، قصيرة ومجعّدة الشعر. عمرها يحومُ حول الثلاثين عاماً. كانت، بحسب بعض جيرانها، تُمارس الدعارة في محلّ في مركز المدينة أو في شارع مادِرو-نورتِ. بحسب آخرين، لم تعمل البقرة قط. ومع ذلك لا يمكن أن نقول إنّه كان ينقصها المال. خلال التفتيش الذي تمّ في منزلها عُثِرَ على خزانة مليئة بمعلبات الطعام. ثمّ إنّه كان عندها برّاد (كانت تسرق الكهرباء مثل كلّ الجيران تقريباً من خطّ كهرباء البلدية) مليئاً باللحوم، والحليب، والبيض والخضراوات. بالنسبة للباس كانت مهملة، لكن لم يكن باستطاعة أحدٍ أن يقول إنّها كانت غير أنيقة. كان عندها تلفاز

حديث وجهاز فيديو وأحصوا أكثر من سبعين شريط فيديو، أغلبها أفلام عاطفية أو ميلودرامية، اشترتها في السنوات الأخيرة من حياتها. في القسم الخلفي من البيت كان هناك فناء صغير مليء بالنباتات وفي زاوية منه خمّ دجاج مِحاط بشبكٍ، حيث كان يوجد عشر دجاجات، إضافة إلى ديك. تكفّل بالقضية مناصفة إيبفانيو غاليندو والمُحقّق إرنستو أورتيث رِبويِّندو، انضمّ إليهما كداعم خوان دِ ديوس مارتينِثْ، دون حماس من أيّ منهما. كانت حياة البقرة، ما إن يُطلّ أحدٌ برأسه عليها حتى يجد أنّها كانت متناقضة وانفجارية. كانت إيزابيل، بحسب عجوز كانت تعيش في بداية الزقاق، امرأةً ممن لم يبق منهنّ إلاّ القليلات. امرأة من قدميها وحتى رأسها. ذات مرّة كان جار سكران يضربُ زوجته. جميع الذين كانوا يعيشون في زقاق لاس أنيماس سمعوا صرخاتِها، التي مع مرور الوقت راحت ترتفع أو تنخفض، كما لو أنّ المرأة المضروبة كانت تلدُ، ولادة صعبة، من تلك الولادات التي عادة ما تقضي على حياة الأم وحياة الملاك الصغير. لكنّ المرأة لم تكن تلدُ، فقط كانوا يضربونها. عندها شعرت العجوزُ بوقع خطوات فأطلت من النافذة. رأت في ظلمة الزقاق طيفَ إيزابيليتا المتميّز. أي امرأة أخرى كانت ستتابع طريقها إلى بيتها، لكنّها رأت كيف توقّفت البقرة وبقيت ساكنة. راحت تُصغي. لم تكن الصرخات في تلك اللحظة قويّة جدّاً، لكن بعد دقائق قليلة عادت لترتفع وتيرتها، وبقيت البقرة خلال كلّ هذا الوقت جامدةً، ابتسمت العجوزُ المجعّدة للشرطيّ، تترقّبُ، كمن يمضي في أيّ شارع ويسمع فجأةً أغنيته المُفضّلة، الأغنية الأكثر حزناً في العالم تخرج من نافذة، وعرف النافذة. ما حدث عند ذلك يصعب تصديقه. دخلت البقرةُ إلى البيت وحين عادت وخرجت، جاءت معها بالرجل ممسكة به من شعره. أنا رأيت ذلك، قالت العجوز. لكن من المحتمل إنّ الجميع رأوه، فقط ما من أحد قال شيئاً، أفترضُ خجلاً. راحت تضربُه كرجل، ولولا أنّ زوجةَ السكران

خرجت من البيت وطلبت منها بحبّ الله ألا تستمرّ بضربه، لكانت البقرةُ قتلته. شهدت جارة أخرى بأنّها كانت امرأة عنيفة، تعود إلى بيتها متأخرةً، سكرانة في معظم الأحيان، فلا يعود بعدها يرى أحد أنفها حتى ما بعد الخامسة مساءً. لم يتأخّر إيبفانيو في الربط بين البقرة وبين شخصين كانا يزورانها في المرحلة الأخيرة، واحد منهما كان يُلَقَّبُ بمارياتشي والآخر بالغراب، كانا يبقيان أحياناً كثيرة ليناما أو يأتيان في طلبها كلّ يوم، وفي مرّات أخرى كانا يختفيان كما لو أنّهما لم يوجدا قط. من المحتمل أنّ صديقي البقرة كانا موسيقيّين، ليس فقط بسبب لقبِ الأوّل، بل لأنّهم رأوهما يمرّان أحيان في الزقاق حاملاً كلّ منهما قيثارته. بينما بدأ إيبفانيو يتحرّك في وسط سانتا تِرِسا وفي شارع مادِرو- نورتِ، في المحلات التي تقدّم موسيقى مباشرة، بقي المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ يُحقّق في زقاق لا أنيماس: الاستنتاجات التي توصل إليها كانت التالية: ١: كانت البقرة امرأة طيبة، بحسب رأي غالبية النساء. ٢: لم تكن البقرة تعمل، لكنّه لم ينقصها مال قط. ٣: كان من الممكن أن تكون البقرة عنيفة إلى أقصى الحدود، وكان عندها فكرة متشكلة، أوّلية لكنها في النهاية فكرة عما هو فعل حسن وعما ليس بفعل حسن. ٤: هناك من كان يمدّ البقرة بالمال مقابل شيء ما. بعد أربعة أيّام ألقوا القبض على المارياتشي والغراب، اللذين كانا بالنتيجة الموسيقيين غوستابو دومينْغِثْ ورِناتو هِرنانْدِثْ سالدانيا على التتالي ثم وبعد أن استُنْطِقا في المخفر رقم ٣ صرّح الاثنان بأنّهما قاتلا زقاق لاس أنيماس. كان الدافع للجريمة، عملياً، هو فيلم كانت البقرة تريد أن تشاهده ولم يكن صديقاها بضحكاتهما يتركانها تفعل ذلك، فالثلاثة كانوا سكرانين كفاية. كانت البقرة قد بدأت كلّ شيء، بضرب ماريانشي بيد مغلقة. لم يكن الغراب يريد في البداية أن يزجّ نفسه في المعركة، لكنّه حين رأى البقرة تشرع بها ضدّه اضطرّ لأن يُدافع عن نفسه. كانت معركة طويلة ونظيفة، قال مارياتشي. طلبت منهما البقرة

أن يخرجا إلى الشارع كيلا يؤذيا أثاثَ البيت فأطاعاها. نبّهتهما البقرةُ في الشارع إلى أن المعركة ستكون نظيفة، بالقبضات فقط وهما وافقا على أن تكون كذلك، بالرغم من معرفتهما بقوّة صديقتهما، إذ لم يكن عبثاً أنّها كانت تزن ثمانين كيلوغراماً، لكن ليس بدانةً بل عضلات، قال الغراب. في الشارع بدؤوا يكيلون لبعضهم البعض الضربات الموجعة. استمرّوا على هذا المنوال قرابة النصف ساعة، يضربون ويُضرَبون دون أن يتوقّفوا دقيقة واحدة. حين انتهت المعركة كان أنف مارياتشي مكسوراً وينزف من حاجبيه والغراب يتوجّع من ضلع قال إنّه مكسور. كانت البقرة ملقية على الأرض. فقط حين حاولا أن يهزّاها انتبها إلى أنّها كانت ميتة. أغلق ملفّ القضيّة.

ومع ذلك ذهب خوان دِ ديوس مارتينِثْ بعد وقت قصير لزيارة الموسيقيَّيْن في سجن سانتا تِرِسا. حمل معه لهما سجائر ومجلّتين وسألهما كيف هي أمورهما. لا نستطيع أن نشكو، يا معلّم، قال مارياتشي. قال لهما المُحقِّقُ إنّ له بعض الصداقات في السجن، إذا أرادا فهو يستطيع أن يُساعدهما. ونحن ماذا علينا أن نُعطيك بالمقابل، سأله مارياتشي. مجرّد معلومة، قال المُحقِّق. وهي هذه المعلومة؟ بسيطة جدّاً. أنتما كنتما صديقين حميمين للبقرة. أنا أسألكما وأنتما تُجيبان، وهذا هو كلّ شيء. ابدأ بالأسئلة، قال مارياتشي. هل كنتما تنامان مع البقرة؟ لا، قال مارياتشي. وأنت؟، أنا إطلاقاً، قال الغراب. آه، غريب، قال المُحقّق. وكيف ذلك؟ لم تكن البقرة تُحب الفحول، فقد كان عندها من الفحولة ما يكفيها، قال مارياتشي. هل تعرفان اسمها كاملاً؟، ليس عندي أدنى فكرة، قال مارياتشي، نحن كنا نناديها بقرة وكفى. آه، يا لكما من صديقين ودودين، قال المُحقّقُ. هذه هي الحقيقة الخالصة، يا مُعلّم، قال مارياتشي. وهل تعرفان من أين كانت تأتي بالمال؟، سأل المُحقّقُ. هذا السؤال ذاته سألناه لها، يا

معلّم، قال الغراب، كي نرى ما إذا كان باستطاعتنا أن نُحَصّل بعض النقود الإضافية، لكنّ البقرة لم تكن تتكلّم عن هذا إطلاقاً. ألم يكن لها أيّ صداقة أخرى، أعني غيركما وغير عاهرات الزقاق؟، سأل المُحقّقُ. بلى، فذات مرّة كنّا نمضي فيها في سيارتي أشارت إلى صديقة، قال مارياتشي ولم تكن شيئاً خارقاً، بل كانت أقرب إلى الهزيلة، لكنّ البقرة أرتني إيّاها وسألتني عمّا إذا كنتُ رأيت ذات مرّة امرأة أحلى منها. قلت لها لا، كيلا يُداخلها الغضب، لكنّها في الحقيقة لم تكن شيئاً خارقاً. ماذا كان اسمها؟ سأل المُحقّقُ. لم تقل لي اسمها، قال مارياتشي، كما لم تُقدّمها لي.

خلال الأيّام التي كانت تعمل فيها الشرطة على استجلاء مقتل البقرة عثر هاري ماغانيا على البيت الذي كان يعيش فيه ميغِلْ مونتِس. راح مساءَ ذات سبتٍ يُراقبُ البيتَ وبعد ساعتين كسر بعد أن تعب من الانتظار، القفلَ ودخل. لم يكن البيت يحتوي إلا على غرفة ومطبخٍ وحمّام. رأى على الجدران صور ممثلين وممثّلات من هوليوود. على رفٍّ كان هناك صورتان لميغِل نفسه مؤطرتين، لا شكّ كان له وجهُ فتى طيّب، مُحبَّب، من الوجوه التي تُحبّها النساء. فتّش كلّ الأدراج. عثر في واحد منها على دفتر شيكات وموسى. حين رفع فراش السرير وجد بعض المجلات وبعض الرسائل. تصفّح جميع المجلات. في المطبخ وجد تحت خزانةٍ ظرفاً فيه أربع صور التُقِطَت بكاميرا بولارويد. في إحداها يظهر بيت وسطَ الصحراء، بيت من الطوب، متواضع المظهر، فيه رواق صغير ونافذتان صغيرتان. بجانب البيت صُفّت سيارة فانْ مع مقطورة بأربع عجلات. في الأخرى تظهر فتاتان تضع كلٌّ منهما ذراعها على كتف الأخرى، تميلان برأسيهما نحو اليسار وتنظران إلى الكاميرا بحركة أمان مدهش، كما لو أنّهما وصلتا توّاً إلى هذا الكوكب، أو كما لو أنّ حقائبهما جاهزة للسفر. هذه الصورة مُلتَقَطة في شارع مزدحم

بالناس، يمكن أن يكون شارعاً من وسط سانتا تِرِسا. في الصورة الثالثة تُرى طائرة صغيرة بجانب مدرّجِ هبوطٍ ترابيّ، في الصحراء. يظهر خلف الطائرة تلّ. ما تبقى كان أرضاً منبسطة، ولا شيء غير الرمل والأعشاب القزمة. في الأخيرة يظهر شخصان لا ينظران إلى الكاميرا، ومن المحتمل أنّهما كانا سكرانين أو محشّشين، يرتديان قميصين أبيضين ويعتمر واحد منهما قبّعة يشدّان على يدي بعضهما بعضاً كما لو أنّهما صديقين عظيمين. بحث عن كاميرا البولارويد في كلّ مكان، لكنّه لم يعثر عليها. خبّأ الصورَ والرسائل والموسى في جيبه، ثمّ جلس، بعد أن فتّش البيت مرّةً أخرى، على كرسيّ واستعد للانتظار. لم يعُد ميغِلْ مونتِس في تلك الليلة ولا في الليلة التالية. فكّر أنّه ربّما اضطُرّ لأن يهرب بسرعة، أو ربّما أنّه مات. شعر بنفسه منهكاً، من حسن حظّه أنّه منذ أن تعرّف على ديميتريو آغيلا لم ينزل في نزلٍ ولا في فندق ولم يقضِ الليل أرقاً يجوب الحانات ويشرب، بل كان ينسحب لينام في بيت شارع لونيبرناغا، في ضاحية روبِن داريّو، الذي تعود ملكيته إلى صديقه، الذي كان قد أعطاه مفتاحاً. كان البيت بعكس ما يمكن أن يتوقّع المرء نظيفاً دائماً، لكنّ نظافته وديكوره خاليان من أيّ بصمةٍ أنثوية: كانت نظافة جافّة، خالية من أيّ ملاحة، كالنظافة التي تظهر في زنازينِ سجنٍ، أو صوامع ديرٍ، نظافة تسير نحو العوز، وليس نحو الوفرة. كان حين يعود أحياناً يجدُ ديميتريو آغيلا يُحضّر قهوة قدرٍ في المطبخ فيجلسان في الصالون ويبدأان بالكلام. كان الكلام مع المكسيكيّ يُهدّئه. كان المكسيكيّ يتكلّم عن الفترة التي رعى فيها البقر في مزرعة تريبلِ تي والطرق العشرة لترويض مهرٍ وحشيّ. كان هاري يسأله أحياناً لماذا لا يذهب معه إلى أريزونا، فيردّ عليه المكسيكي بأنّ أريزونا وسونورا شيء واحد، نيومكسيكو، تشيهواهوا، جميعها شيء واحد، فيمكث هاري متفكّراً فلا يستطيع في النهاية أن يقبل أن تكون نفسها، لكن كان يُحزنه أن يُناقِض ديميتريو آغيلا، فلا يفعل. في مرّاتٍ

أخرى كانا يخرجان معاً وكان باستطاعة المكسيكيّ أن يعاين عن قرب الأساليب التي كان يتبعها الأمريكية الشماليّ، الذي لم تكن تُعجبه قسوته من حيث المبدأ، لكنّه كان يجدها مُبرَّرة. في تلك الليلة وعند العودة إلى البيت في شارع لوثييرناغا، وجدَهُ هاري مستيقظاً فقال له، بينما هو يُحضّر القهوة، إنّه ظنّ أنّ آخر أثر له قد تبخّر. لم يردّ عليه ديميتريو بشيء. صبّ قهوته وصنع بيضَهُ المقلي بشحم الخنزير. راح الاثنان يأكلان بصمت. أظنُّ أن لا شيء يتبخّر، قال المكسيكي. هناك ناس وأيضاً حيوانات، بل وحتى أشياء يولدون انطباعاً، لسببٍ أو لآخر، بأنّهم يريدون أن يتبخّروا، يريدون أن يختفوا. حتى ولو لم تصدّق، يا هاري، الحجر أحياناً يريد أن يختفي، أنا رأيته. بالله عليك، لكنّ الله لا تسمحْ بذلك. لا يسمح بذلك لأنّه لا يستطيع أن يسمح بذلك. هل تؤمن أنتَ بالله، يا هاري؟ نعم، يا سيّد ديميتريو، قال هاري. إذن ثِقْ بالله، فهو لا يسمح لشيء بأن يتبخّر.

كان خوان دِ ديوس مارتينِثْ ينامُ في تلك الأيّام مع الدكتورة إلبيرا كامبوس مَرّةً كلّ خمسة عشر يوماً. كان يرى المُحقّق أنّ استمرار العلاقة حتى ذلك الوقت مُعجِزة. بصعوبات، بسوء فهم، لكنّهما كانا مستمرَّيْن معاً. في السرير، هذا ما كان يعتقده، كانت الجاذبيّة متبادلة. لم يحدث أن اشتهى امرأة كما كان يشتهيها. لو كان الأمر بيده لتزوّج من الدكتورة دون أن يفكّر بالأمر مرّتين. أحياناً حين كان يمرّ عليه أيام دون أن يراها يُقَلِّب موضوعَ الاختلاف الثقافي الذي يفصل بينهما على وجوهه، فيرى أنّه العائق الرئيسيّ بينهما. كانت الدكتورة تُحبُّ الفنَّ وكانت قادرة على أن ترى لوحة فتعرف من هو الرسام، مثلاً. الكتب التي تقرؤها لم يكن قد يسمع بها. الموسيقى التي تستمع إليها فقط كانت تُثير عنده نعاساً لطيفاً ولا يرغب بعد برهة قصيرة إلاّ بأن ينام ويرتاح، وهو ما كان يُحاذرُ أن يفعله في بيتها. حتى الطعام الذي كانت

تُحبّه المُديرة كان مختلفاً عن الطعام الذي يُحبّه هو. حاول أن يَتَكَيَّف مع الوضع الجديد فيذهب أحياناً إلى دكان أقراص ويشتري موسيقى لبتهوفن وموزارت، كان يسمعها بعد ذلك لوحده في البيت. بعامّة كان ينام، ومع ذلك كانت أحلامه هادئة وسعيدة. كان يحلم بأنّه يعيش هو وإلبيرا كامبوس في كوخ في الجبال. لم يكن في الكوخ كهرباء ولا مياه صنبور ولا أي شيء يُذَكِّرُ بالحضارة. كانا ينامان على جلدِ دبٍّ ويتغطيان بجلدِ ذئبٍ. وكانت إلبيرا كامبوس تضحك بقوّةٍ أحياناً حين يخرج ليجري في الغابة وكان هو لا يستطع أن يراها.

تعال لنقرأ الرسائل يا هاري، قال ديميتريو آغيلا. أنا أقرؤها لك كلّ المرات التي تتطلب ذلك. كانت الرسالة الأولى من صديقٍ قديم لميغِل كان يعيش في تيخوانا، بالرغم من أن المغلّف خلا من عنوان المرسِل، وكانت موجزاً لذكرياتِ أيّامٍ سعيدة عاشاها معاً. كان يتكلّم عن كرة القاعدة، عن نساء، عن سيارات مسروقة، عن شجارات، عن الكحول ويذكر عبوراً خمس جناياتٍ على الأقل جعلت ميغِلْ مونتِس وصديقه يستحقان عقوبة السجن. الرسالة الثانية كانت من امرأة. كان خاتم البريد من سانتا تِرِسا ذاتها. كانت المرأة تُطالبه بمالٍ وتلزمُهُ بدفعةٍ مستعجلة، وإلا فليتحمّل النتائج، كانت تقول. الرسالة الثالثة، أيضاً لم تكن موقّعة، كانت بالحكمِ من الخط، من المرأة ذاتها، التي لم يوفّها ميغِل بعد دينها، وتقول له أمامك ثلاثة أيّام كي تظهر حيث تعرف والمبلغ في يدك، وإلاّ، وهنا بحسب ديميتريو آغيلا وأيضاً بحسب هاري ماغانيا، تُلاحظ نقطة استظراف، نقطة استظراف أنثوية دائماً فاضت عن ميغِلْ، حتى في أسوأ لحظاته، تنصحه المرأة بأن يُغادر المدينة في أقرب وقت ممكنٍ، دون أن يقول لأحدٍ شيئاً. الرسالة الرابعة كانت من صديق وربّما جاءت من مدينة مكسيكو، فخاتم البريد لم يكن مقروءاً. الصديق شماليّ وصل توّاً إلى العاصمة، يشرح له

انطباعاته عن المدينة الكبيرة: كان يتكلّم عن المترو، الذي يقارنه بالمقبرة الجماعية، عن برودة أبناء مكسيكو، الذين يعيشون غير مبالين بأحد، عن صعوبة التحرّك، ففي العاصمة الفيدرالية، لا يفيد في شيء أن يكون عند المرء سيارة جيّدة، ذلك أن الاختناقات في السير دائمة، عن التلوّث وعن كم كانت النساء قبيحات. عن هذه كان يكتب مزاحات مبتذلة. آخر رسالة كانت من فتاة من تشوكاريت، بالقرب من نابوخوَا، جنوب سونورا، وكانت، كما هو متوقّع، رسالة حبّ. كانت تقول له إنّها بالطبع ستنتظره، وإنّها صبورة، وإنّها حتى ولو ماتت رغبة برؤيته، فالخطوة الأولى عليه هو أن يقوم بها وإنّها ليست مستعجلة إطلاقاً. تبدو رسالة من خطيبة ريفيّة، قال ديميتريو آغيلا. تشوكاريت، قال هاري ماغانيا. يحدّثني قلبي أنّ رجلنا وُلِد هناك، يا سيّد ديميتريو. تصوّر، إنّني أقول الشيء ذاته، قال ديميتريو آغيلا.

كان خوان دِ ديوس مارتينِث يُفكر كم كان يُحبّ أن يعرف المزيد من الأشياء عن حياة المديرة. مثلاً، صداقاتها. من كان أصدقاؤها؟ هو لم يكن يعرف أيّاً منهم، فقط كان يعرف بعض مُستخدَمي المركز النفسي، الذين كانت المُديرةُ تعاملهم بلطف لكنّ أيضاً تحافظ على مسافة بينها وبينهم. هل كان لها أصدقاء؟ هو كان يفترض ذلك، بالرغم من أنّها لم تكن تتكلّم أبداً عن هذا. وذات ليلة قال لها، بعد أن مارسا الحبّ، إنّه يحبّ لو يعرف أشياء أكثر عن حياتها. قالت له المُديرةُ، إنّه كان يعرف أكثر مما يكفي. لم يُلح خوان دِ ديوس مارتينِث أكثر.

ماتت البقرةُ في آب ١٩٩٤. في تشرين الأوّل عثروا على المقتولة التالية في مكبّ البلدية، وهو بؤرة أمراض حقيقة بطول ثلاثة كيلومترات وعرض كيلومتر ونصف، يقع في وهدةٍ جنوب جرف إل أوخيتو بالقرب من مفرق في الطريق إلى كاساس نِغراسْ، الذي كانت ترِدُهُ يومياً قافلة

من أكثر من مئة شاحنة لتترك حمولتها هناك. وبالرغم من حجم المكبّ إلاّ أنّه راح يضيق، وراحوا يتكلّمون أمام تكاثر المكبّات السريّة عن إنشاء مكبٍّ آخر جديد في ضواحي كاساس نِغراسْ أو إلى الغرب من تلك القرية. كانت المقتولة بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من عمرها، بحسب الطبيب الشرعي وإن فضّلوا أن يتركوا الأمر إلى الطبيب الباثولوجي، الذي فحصها بعد ثلاثة أيّام، والتقى مع زميله في التقدير. كانت قد اغتُصِبت شرجاً وفرجاً ثمّ خُنقت. كان طولها مئة واثنين وأربعين سنتيمتراً. الباحثون في القمامة الذين عثروا عليها قالوا إنّها كانت ترتدي حمّالةً وتنورةً قطنية زرقاء وحذاءً رياضياً ماركة ريبوك. حين وصلت الشرطة لم يكن للحمالة ولا للتنورة القطنية الزرقاء وجود. كانت تحمل في خنصر اليد اليمنى خاتماً ذهبيّاً حجره أسود وعليه اسم أكاديمية إنكليزية في مركز المدينة. صوّروها وذهبت الشرطة بعدها إلى أكاديمية اللغات، لكن ما من أحد عرف المقتولة. ظهرت الصورة منشورة في *هِرالدو دِل نورتِ*، وفي *لا بوث دِ سونورا*، كانت النتيجة ذاتها. استجوب المُحقّقان خوسِهْ ماركيز وخوان دِ ديوس مارتينِثْ مع مدير المدرسة خلال ثلاث ساعات، ويبدو أنّهما لم يسيطرا على أيديهما أثناء الاستجواب، وهو ما جعل محامي المدير يرفع دعوى سوءِ معاملة. لم تأخذ الدعوى مجراها، لكنّهما استحقّتا توبيخاً من المفوّض ومن قائدِ الشرطة. كما رُفِعَ تقرير إلى قائد الشرطة في هِرموسيّو عن سلوكهما. بعد أسبوعين انتقلت جثّة المجهولة لتزيد من حجم احتياطي الجثث لطلاب الطب في جامعة سانتا تِرِسا.

كان المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ يُفاجَأُ أحياناً بحسن معرفة إلبيرا كامبوس بالجماع وبقدرتها التي لا تنضب في الفراش. تُجامع كما لو أنّها ستموت، كان يُفكّرُ. كان يودّ في أكثر من مناسبة لو يقول لها إنّه لا حاجة بها لذلك، أن لا تُجهد نفسها، وإنّه بمجرّد إحساسه بأنّها بقربه

وملامسته لها يعتبر نفسه راضياً، لكنّ المُديرة كانت، حين يتعلّق الأمرُ بالجنس، عمليّة وفاعلة. يا ملكتي، كان يقول لها خوان دِ ديوس مارتينِثْ أحياناً، يا كنزي، يا حُبّي، وتقول له هي في الظلمة أن يسكت وترشف منه حتى آخر قطرة، من منيه؟، من روحه؟، من القليل من الحياة التي كان يعتقدُ أنّها تبقت له؟ كانا يُمارسان الحبّ، برغبة صريحة منها، في شبه الظلمة. يشعر أحياناً برغبة لأنّ يُشعلَ النور ويتأمّلها، لكنّ الرغبة بألا يعاكسها كانت تكبحه. لا تُشعِل النور، قالت له مرّةً، ففكّر أنّ إلبيرا كامبوس تستطيع أن تقرأ أفكاره.

في تشرين الثاني عثر بعضُ البنّائين، في بناءٍ قيد الإنشاء، على جثة امرأة تقارب الثلاثين من عمرها، كان طولها مئة وخمسين سنتيمتراً، سمراء وشعرها مصبوغاً بالأشقر، وهناك تاجان ذهبيان في أسنانها، ترتدي فقط كنزة وسروالاً قصيراً جدّاً أو قصيراً. كانت قد اغتُصِبت وخُنِقَت. لم تكن تحمل وثائق. كان البناء قيد الإنشاء في شارع ألوندرا، في ضاحية بودِستا، وهو مكان في منطقة مرتفعة من سانتا تِرِسا. لهذا السبب لم يكن البناءون يبقون ليناموا هناك، كما كانوا يفعلون عادةً في أبنية أخرى. كان البناء يُحرس ليلاً من قبل حارس مُحَلّف. حين استُجْوِب، اعترف، بعكس ما ينصّ عليه العقد، أنّه عادة ما كان ينام ليلاً، ذلك لأنّه يعمل خلال النهار في معمل وأنّه كان يبقى في العمل أحياناً حتى الثانية صباحاً، ويذهب بعدها إلى بيته، الواقع في جادّة كواوهْتِموك، بالقرب من ضاحية سان داميان. كان الاستجواب قاسياً، قام به مساعد قائد الشرطة إيبفانيو غاليندو، لكن كان واضحاً منذ البداية أنّ الحارس يقول الحقيقة. افترضوا، ليس دون بعض المنطق، أنّ المجهولة وصلت توّاً، وأنّ حقيبة تحتوي على ملابسها يجب أن تكون في مكان ما. لهذه الغاية تمّ التحقيق في بعض نزلِ وفنادق مركز المدينة، لكن ما من أحدٍ فيها شعر بغياب أيّ زبون.

ظهرت صورتُها منشورة في صحف المدينة، والنتيجة صفر: إمّا أنّ أحداً لم يكن يعرفها وإمّا أنّ الصورة لم تكن جيدة وإمّا أنّه ما من أحد كان يريد أن يجد نفسه متورّطاً في مشاكل مع الشرطة. قورن بين إبلاغاتٍ عن حالات اختفاء وصلت من ولايات أخرى في الجمهورية، لكن ما من واحد منها كان ينطبق على المقتولة في بناء شارع ألونْدرا. شيء واحد بقي واضحاً أو على الأقل بقي واضحاً بالنسبة لإيبفانيو: لم تكن المقتولةُ من الحيّ، المقتولة لم تُخنق وتُغتصَب في الحيّ، لماذا إذن التخلّص من جثّتها في المنطقة المرتفعة من المدينة، في الشوارع التي تقوم فيها الشرطة ووكلاء الأمن الخاصّين بدوريات دقيقة ليلاً؟ لماذا الذهاب لإلقاء الجثّة هناك، في الطابق الثاني من بناء طور الإنشاء، بالرغم من الخطر الذي ينطوي عليه، بما في ذلك خطر السقوط على الأدراج التي كانت ما تزال من دون درابزين، في الوقت الذي كان أكثر منطقيّاً أن يرموا بها في الصحراء أو في محيطِ مِكبٍّ قمامة؟ فكّر بالأمر يومين. بينما كان يأكل، بينما كان يسمع رفاقَهُ يتكلّمون عن الرياضة أو عن النساء، بينما كان يقود سيّارة بِدرو نِغْرِتِ، بينما كان ينام. إلى أن قرّر أنّه مهما فكّر لن يعثر على حلّ مُرضٍ وتخلّى عن التفكير به.

كان المُحقّقَ خوان دِ ديوس مارتينِثْ يرغبُ أحياناً، خاصّةً في أيّام العطل، بأن يخرج ليتنزّه مع المُديرة. أي أنّه كان يرغب بأن يظهر معها علانية، بأن يذهب معها ليأكل في مطعم في مركز المدينة، لا هو رخيص ولا هو غالٍ، مطعم عاديّ، إلى حيث كان يذهب الأزواج الطبيعيين وحيث سيجد بالتأكيد أحد معارفه، يُقَدِّمُ له المديرةَ بطريقة طبيعية، عرضية، دون اندهاش، هذه خطيبتي، إلبيرا كامبوس، طبيبة نفسية. وربّما يذهبان بعد الطعام إلى بيتها ليُمارسا الحبَّ ويناما بعدها القيلولة. ويعودان ليلاً ليخرجا. في سيارتها، سيارة البي إم دبليو وليس في سيارته الكوغار، إلى السينما، أو ليتناولا مرطّباً ما في مطعم في

الهواء الطلق أو ليرقصا في واحدٍ من تلك المحلات الكثيرة الموجودة في سانتا تِرِسا. يا إلهي، إنّها السعادة التامّة، كان يُفكّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ. كانت إلبيرا كامبوس على العكس منه، لم تكن تريد ولا حتى أن تسمعه يتكلم عن علاقة علنيّة. ليهتف لها إلى المركز النفسي، نعم، لكن بشرط أن تكون المكالمات مقتضبة. لقاءات شخصيّة كلّ خمسة عشر يوماً. كأس ويسكي أو فودكا أبسولوت ومشاهد ليلة. وداعات معقَّمة.

في شهر تشرين الثاني من عام ١٩٩٤ ذاته عُثِر في عقار مهجور على جثّة سيلبانا بِرِث أرخونا نصف محروقة. كانت في الخامسة عشرة من عمرها ونحيلةً، سمراءَ وطولها مئة وستين سنتيمتراً. سوداء الشعر الذي ينسدلُ إلى ما تحت الكتفين، بالرغم من أنّه حين عُثِر على الجثّة كان نصف شعرها محروقاً. عثرت على جثّتها بعضُ نساء ضاحية لاس فلورِس، اللواتي نصبن مناشر غسيلهن على طرف العقار المهجور وهنّ من أبلغن الصليبَ الأحمر. كان يقود سيارة الإسعاف شخص يقارب الخامسة والأربعين ويرافقه حمّال نقالة لا يتجاوز العشرين من عمره، يبدو ابنه. حين وصلت سيارة الإسعاف سأل الرجل الأكبر سنّاً النساءَ والفضوليين الذين كانوا يتجمّعون حول الجثّة عمّا إذا كان هناك من يعرف المقتولة. مرّ بعضهم أمام هذه ونظروا إلى وجهها ونفوا برؤوسهم. لا أحد كان يعرفها. إذن لو كنتُ مكانكم لذهبت، يا أصدقاء، قال حمّال النقالة الأصغر عمراً لأنّ الشرطة ستستجوبكم جميعاً. قال ذلك دون أن يرفع نبرته، لكنّ الصوت سرى وانسحب الجميع. من النظرة البسيطة كان يظهر أنّه ما عاد هناك أحد في العقار المهجور، لكنّ الحمّالين ابتسما، لأنّهما كانا يعرفان أنّ الناس كانوا ينظرون إليهم من مخابئهم. بينما كان أحدهما، الفتى، يُخبِرُ الشرطة، دخل الأكبر عمراً في شوارع ضاحية لاس فلورِس الترابية إلى أن وصل

إلى محلّ يبيعون فيه الشطائر يعرفه صاحبه. طلب ستّ شطائر لحمة، ثلاثاً بالصلصة وثلاثاً من دون صلصة، الستُ حارّة جيّداً وعلبتا كوكاكولا. ثمّ دفع وعاد ماشياً دون عجلة حتى سيّارة الإسعاف، حيث كان الذي يبدو ابنه يقرأ قصصاً مصورة مستنداً إلى الرفراف. حين وصلت الشرطةُ كانا قد انتهيا من الأكل ويُدخّنان. بقيت الجثّة ثلاث ساعات في العقار المهجور. تعرّضت الفتاة بحسب الطبيب الشرعي للاغتصاب. طعنتا سكين بالغتان في القلب سبّبتا موتها. حاول بعدها القاتل أن يحرقها كي يمحو البصمات، لكن يبدو أنّه كان أحمق أو أنّهم باعوه ماء بدل البنزين أو أنّه صُعِقَ. في اليوم التالي عرفوا أنّ المقتولة تُدعى سيلبانا بِرث أرخونا، عاملة في معمل من معامل منطقة خِنِرال سِبولْبِدا الصناعية، غير بعيد عن المكان الذي عثروا فيه على جثّتها. حتى عام مضى كانت سيلبانا تعيشُ مع أمّها وأربعة أخوة، جميعهم عمّال في معامل مختلفة من المدينة. كانت الوحيدة التي تدرسُ، في مدرسة البروفسور إميليو ثِربانتِس، في ضاحية لوماس دِل تورو. ومع ذلك اضطرَّت لأسباب اقتصادية أن تترك الدراسة وأمّنت إحدى أخواتها عملاً في معمل هورِزون دبليو أند إي، حيث تعرّفت على العامل كارلوس يانوس، ابن الخامسة والثلاثين، والذي صارت خطيبته وذهبت أخيراً لتعيش معه في بيته، في شارع برومتيو، كان يانوس، بحسب أصدقائه. رجلاً لطيفاً، يشرب، لكن دون مبالغة، وكان يقرأ في ساعات فراغه كتباً، وهو أمر غير معهود، وهذا ما كان يساهم في منحه هالة استثنائية. بحسب أمّ سيلبانا، هذه الميّزة هي التي أغوت ابنتها التي لم تملك حتى تلك اللحظة أيّ خطيب باستثناء هذه المغازلة البريئة أو تلك في المدرسة. دامت العلاقةُ سبعة أشهرٍ. كان يانوس يقرأ، نعم، وكانا يجلسان معاً أحياناً في صالون بيته ويناقشان قراءاته، لكنّه كان يشرب أكثر مما يقرأ، وكان رجلاً غيوراً وضعيف الثقة بنفسه إلى أقصى الحدود. كانت سيلبانا تحكي لأمّها في بعض

زياراتها لها أنّ يانوس كان يضربها. وكانت الأمّ وابنتها تُمضيان ساعات متعانقتين وباكيتين، دون أن تُشعلا ضوء الغرفة. اعتقال يانوس لم يصطدم بأدنى صعوبة وفيه ساهم لالو كورا لأوّل مرّة. ظهرت سيارتان من سيارات شرطة سانتا تِرِسا، قرعوا الباب. فتح يانوس، أخضعوه رفساً دون أن ينطقوا بكلمة، قيّدوه وقادوه إلى المخفر، حيث حاولوا أن يلصقوا به مقتل مجهولة شارع ألوندرا أو، على الأقل مقتل المجهولة التي عُثِر عليها في مكبّ قمامة البلدية الجديد، لكن ما من طريقة أجدت، سيلبانا بِرِث نفسها كانت حجّته، فقد رأوه معها في تلك التواريخ يتنزه في غاية الرضا في حديقة ضاحية كارّانثا الكسيحة، حيث كان يوجد معرض وشوهد هو وسيلبانا حتى من قبل أقربائها. أمّا بالنسبة إلى الليالي، فقد أمضاها في ورديات ليليّة في المعمل ويستطيع رفاقه رفيقاته أن يشهدوا على ذلك. أُعْلِنَ مسؤولاً عن مقتل سيلبانا وشعر بالأسف فقط لأنّه حاول أن يحرقها. كانت سيلبانا، قال، ساحرة جدّاً، ولم تكن تستحق هذه الوحشيّة.

أيضاً ظهرت على شاشة تلفزيون سونورا في تلك الأيّام عرّافة تُدعى فلوريتا ألمادا، كان يُلقِّبها أتباعها، الذين لم يكونوا كثراً، بالقديسة. كانت فلوريتا ألمادا في السبعين من عمرها، وكانت منذ وقت قليل نسبيّاً، أي منذ عشر سنوات، قد تلقّت الوحيَ. كانت ترى أشياء لا أحد غيرها يراها. تسمع أشياء لا أحد غيرها يسمعها. وكانت تعرف كيف تبحث عن تفسيرات متجانسة لكلّ ما كان يحدث لها. كانت تعمل، قبل أن تصبحَ عرّافةً، في المداواة بالأعشاب، عملها الحقيقيّ، بحسب ما كانت تقول، فعرّافة تعني أنّ أحداً يُبصر، أحداً يرى وهي لم تكن أحياناً ترى شيئاً، كانت الصورُ ضبابية، والصوت مشوّهاً، كما لو أنّ المجسّ الذي نما في دماغها كان سيّءَ التوليف أو أنّهم ثقبوه في تبادل لإطلاق النار، أو كما لو أنّه من ورق الألمنيوم وكانت الريح تفعل به ما يحلو

لها. لذلك وبالرغم من اعترافها بأنّها عرّافة أومن تركها لأتباعها يعترفون بها كعرّافة كان إيمانها بالأعشاب والأزهار والطعام الصحي والصلاة أكبرَ. كانت تنصح الأشخاص الذين يُعانون من الضغط الشرياني المرتفع بأن يتوقّفوا عن تناول البيض والجبن والخبز الأبيض، مثلاً، لأنّها كانت أطعمة فيها الكثير من الصوديوم والصوديوم يجذب الماء. وهو ما يجعل حجمَ الدم يزداد وبالتالي يزدادُ الضغط الشرياني. أوضح من الماء، كانت تقول فلوريتا ألمادا. مهما كان المرء يُحبّ أن يأكل في فطوره بيضَ مزرعة أو بيضاً على الطريقة المكسيكية، فالأفضل له، إذا ما عانى من ارتفاع الضغط الشرياني، أن يتوقّف عن أكل البيض. وإذا ما توقّف أحدٌ عن أكل البيض فإنّ باستطاعته أن يتوقّفَ عن أكلِ اللحم والسمك، ويستطيع أن يأكل رزّاً وفاكهةً فقط. هذا ممتاز جدّاً للصحة، الرز والفاكهة، خاصّة حين يكون الواحدُ قد تجاوز الأربعين من عمره. كذلك كانت تتكلّم ضدّ الإفراط في استهلاك الشحوم. فمجموع الشحوم التي يتناولها المرءُ، كانت تقول، يجب ألا تتجاوز نسبته إطلاقاً الخمس والعشرين بالمئة من الطاقة التي يزودنا بها الطعام. المثاليّ هو أن يستقر استهلاك الشحوم بين الخمسة عشر والعشرين بالمئة. لكنّ الناس الذين يعملون يستطيعون أن يستهلكوا حتى الثمانين أو التسعين بالمئة من الشحوم، وإذا ما كان العمل مستقرّاً إلى هذا الحدّ أو ذاك يرتفع استهلاكه حتى نسبة مئة بالمئة، وهذا بالنتيجة أمر كريه، كانت تقول. على العكس، استهلاك الشحوم بين الذين ليس لديهم عمل يتراوح ما بين الثلاثين والخمسين بالمئة، وهذا فاجعة أيضاً إذا ما نظرنا فيه جيداً، فهؤلاء الناس المساكين ليسوا سيّئي التغذية وحسب، بل وفوق ذلك سيّئي سوءِ التغذية، إذا ما فُهِمَ ما أُريد قوله، كانت فلوريتا أمادا تقول، فسوء التغذية بحدّ ذاته كارثة وإذا كان المرءُ سيّئَ سوءِ التغذية فإنّ ما يُضيفه إلى هذه الكارثة قليل وما يزيله منها قليل، ربّما لم أحسن التعبير، ما أريد قوله هو أن عجّة بالشطّة أصحّ من بعض طعام الكلاب أو بعض

طعام القطط أو ربّما من بعض طعام الجرذان الذي يقطر شحماً، كانت تقول كمن يطلب المعذرة. كانت من ناحية أخرى ضدّ الطوائف والأطباء الشعبيين والأوغاد الذين يخدعون الشعب. العَرَافة بالنباتات أو فن قراءة المستقبل بواسطة النباتات كان يبدو لها ضحكاً على الذقون. ومع ذلك كانت تعرف عمّا تتكلّم، فقد شرحت ذات مرّة لطبيبٍ شعبي تفاهة مختلف الفروع التي ينقسم إليها فنّ العرافة هذا، والذي هو عرافة النباتات المجهرية التي تقوم على أشكال وحركات وردود فعل النباتات، المقسّمة بدورها إلى العرافة بالبصلة والعرافة بالنار، ومبدأها البصلة أو برعم الأزهار التي ستتبرعم أو ستُزهر، العرافة بالأشجار، المرتبطة بتفسير الأشجار، العرافة بأوراق النباتات، أو دراسة الأوراق والعرافة بأغصان وعروق الأشجار والتي هي بدورها قسم من العرافة بالنباتات المجهرية، والتي هي العرافة من خلال خشبٍ وأوراق الأشجار، وهذا، كانت تقول، شيء جميل، شاعريّ، لكنّه ليس لمعرفة المستقبل بل من أجل إحلال السلام في بعض فصول الماضي ومن أجل تغذيةٍ وتطييب الحاضر. تأتي بعدها العرافة بنواة النباتات، التي تتم بواسطة عدّة حبات فول بيضاء وحبّة سوداء حيث تدخل أيضاً فروع عرافة بالاستكشاف العرافة بالعود التي تُستخدم فيها الأعواد الخشبية التي ليس عندها أيّ شيء ضدّها، وبالتالي لا تستطيع أن تقول عنها شيئاً. ثمّ يأتي علم الأدوية النباتية، أي استخدام النباتات المُهَلوِسة وشبه القلوية والتي أيضاً لم يكن عندها أيّ شيء تقوله ضدّها. فليفعل كلٌّ ما يحلو له. هناك ناس يناسبهم هذا وهناك ناس، خاصة الشباب الكسولون أو بالأحرى الفاسدون، لا يناسبهم. هي كانت تُفضّل ألا تقول شيئاً ضدّه ولا لصالحه. ثمّ تأتي عرافة الطقس بالنباتات، التي كانت فعلاً مهمّةً، وقليلون، يُعدّون على الأصابع، من كانوا يُتقنونها، والتي تقوم على مراقبة ردود فعل النباتات. مثلاً: إذا رفعت نبتة الخشخاش أوراقها سيكون الطقس جيّداً. مثلاً إذا بدأت شجرة حور ترتعش فهذا يعني أنّ

شيئاً غير متوقَّع سيحدث. مثلاً: إذا حَنَتْ هذه الزهرةُ الصغيرة ذات الأوراق البيضاء والبتلات الصفراء، المسماة بيخولي، رأسها، فهذا يعني أنّ الطقس سيكون حارّاً. مثلا: تلك الزهرةُ الأخرى، الحيّة جدّاً، تلك التي أوراقها صفراء وأحياناً ورديّة، والتي لا أدري لماذا يسمونها في سونورا الكافور ويسمونها في سنالُوَا منقار الغراب، لأنّها تُشبه من بعيد عصفوراً طنّاناً، إذا ما أغلقت بتلاتِها فهذا يعني أنّها ستُمطر. ثمّ هناك أخيراً العرافة بالإشعاعات، التي كان يُستخدم فيها سابقاً عود بندق واستُبدل برقّاصٍ، وهو المجال الذي لم يكن عند فلوريتا ألمادا ما تقوله عنه. حين يَعرفُ المرءُ فإنّه يعرفُ، وحين لا يعرفُ فالأفضل أن يتعلّم. وألاّ يقول شيئاً في هذه الأثناء، ما لم يكن ما يقوله موجَّها لتوضيح التعلّم. حياتها ذاتها، بحسب ما كانت تُوَضّح، كانت تَعَلُّماً متواصلاً. لم تتعلّم القراءة ولا الكتابة حتى العشرين من عمرها كي نضع رقماً مُدوّراً. كانت قد وُلِدت في ناكوري غراندِ ولم تستطع الذهاب إلى المدرسة، كطفلة عاديّة، لأنّ أمّها كانت عمياء وكان عليها أن تعتني بها. لم تكن تعرف أيّ شيء عن أخوتها، الذين تحتفظ عنهم بذكرى ضبابية وودّية. راح رقّاص الحياة يحملهم إلى جهات المكسيك الأربعة، وربّما هم الآن تحت الأرض. كانت طفولتها بالرغم من ضيق اليد والمصائب الخاصّة بأسرة ريفية، سعيدة. الريف يسحرني، كانت تقول، وإن كان يُزعجني الآن قليلاً، لأنّني فقدت الاعتياد على الحشرات. كان يمكن للحياةِ في ناكوري غراندِ أن تكون كثيفة جدّاً. وإن كان يصعب على الكثيرين تصديق ذلك. كان ممكنا أن يكون الاعتناء بالأم العمياء مُمتعاً. أن يكون الاعتناء بالدجاجات ممتعاً. أن يكون غسل الملابس ممتعاً، أن يكون تحضير الطعام ممتعاً. الشيء الوحيد الذي آسف له هو أنّني لم أذهب إلى المدرسة. انتقلوا بعدها، لسبب ليس هنا مجال لذكره، إلى بيّا بِسْكِيْرا، حيث تُوفِّيت أمّها وتزوّجت هي بعد ثمانية أشهر من الوفاة من رجل تكاد لا تعرفه، رجل

شغّيل ونزيه ومحترم من جميع الناس، رجل أكبر منها كفاية، لنقل بالمناسبة إنّه حين ذهبا إلى الكنيسة كان هو في الثامنة والثلاثين وكانت هي في السابعة عشرة من عمرها، أي، أنّه كان أكبر منها بعشرين سنة! متفرّغ لشراء وبيع الحيوانات، الأمعاز والأغنام في الغالب، وإن كان يبيع أو يشتري أحياناً أبقاراً بل وخنازير أيضاً، وبالتالي ولهذه الظروف المتعلقة بالعمل كان عليه أن يسافر باستمرار إلى قرى المنطقة، مثل سان خوسِهْ دِ باتوك، سان بِدرو دِ لا كويبا، هوِباري، تِبّاتشِ، لامبّاثوس، ديبيسادِروس، ناكوري تشيكو، إل تشوّرّو، نابّويّا، عبر طرق ترابية أو دروبِ حيوانات أو مسالك كان تلتفّ حول تلك الجبال الصعبة. لم تكن تجارته سيّئة. كانت ترافقه في بعض تلك الأسفار، ليست كثيرة، لأنّهم كانوا ينظرون نظرة سوء لتاجر الماشية الذي يُسافر برفقة امرأة، خاصّة إذا كانت زوجته. لكنّها فعلاً رافقته في بعضها. كانت فرصتها الوحيدة كي ترى العالم، كي تتأمّل مناظر أخرى، وقد تبدو واحدة، لكنّها إذا ما نَظر المرء إليها جيّداً، بعينين مفتوحتين جيّداً، وجدها مختلفة جدّاً عن مناظر بيّا بِسْكِيْرا. كلّ مئة متر يتغيّر العالم، كانت تقول فلوريتا ألمادا. موضوع أن هناك أماكن مساوية لأخرى كذبة. العالم مثل رعشة. طبعاً كان بودّها أن تُنجب أطفالاً، لكنّ الطبيعة (الطبيعة بعامّة أو طبيعة زوجها، كانت تقول ضاحكةً) حرمتها من هذه المسؤولية. الوقت الذي كان يمكن أن تُخصّصه لرضيعها استخدمته كي تدرس. من علّمها القراءة؟ علّمني الأطفالُ، تؤكّد فلوريتا ألمادا، ليس هناك معلّمون أفضل منهم. الأطفال، الذين كانوا يذهبون إلى بيتها ومعهم كتب التهجية كي تُعطيهم بينولِ[1]. هكذا هي الحياة، تماماً حين كانت تظنّ أنَ إمكانيات الدراسة أو العودة إلى الدراسة قد تبخرت إلى

---

(١) Pinole طعام مشهور في أمريكا الوسطى، سابق على اكتشاف الإسبان لها ويصنع من دقيق الذرة والسكر الأبيض أو الأسمر

الأبد (أمل غير مُجدٍ، ففي بيّا بِسكِيْرا، كانوا يعتقدون أنّ مدرسة ليلية اسمُ مبغى في محيط سان خوسِهْ دِ بيماس)، تعلّمت القراءة والكتابة، دون جهودٍ كبيرة. راحت بدءاً من تلك اللحظة تقرأ كلَّ الذي يقع بين يديها. سجّلت في دفترِ الانطباعات والأفكار التي ولّدتها عندها قراءاتها. قرأت مجلاّتٍ وصحفاً قديمةً، قرأت برامِج سياسيّة، كان يأتي بين وقت وآخر شبابٌ بشوارب في شاحنات صغيرة ليرموها في القرية، وصحفاً جديدة. قرأت الكتب القليلة التي استطاعت أن تعثر عليها، واعتادَ زوجها، الذي كان يُتاجر بالحيوانات بين القرى المجاورة، أن يأتيها بكتب يشتريها أحياناً ليس فرادى بل بالوزن. خمسة كيلوغراماتٍ، عشرة كيلوغرامات كُتُباً .وهي لم تترك واحداً منها لم تقرأه، وتعلّمت منها جميعاً، دون استثناء، شيئاً ما. كانت تقرأ أحياناً مجلاتٍ تصل من مدينة مكسيكو، تقرأ أحياناً كتباً تاريخيّةً، وأحياناً كتباً دينية، كانت تقرأ أحياناً كتباً مخجلة تجعلها تحمرّ، وحدها، جالسة إلى الطاولة، يضيء صفحاتها سراجٌ كان يبدو أنّ ضوءه يتراقص أو يتخذ أشكالاً شيطانيّة، كانت تقرأ أحياناً كتباً تقنيةً عن زراعة الكرمة أو عن بناء البيوت مسبقة الصنع، كانت تقرأ أحياناً رواياتِ رعبٍ وأشباح، أيَّ نوعٍ من القراءة كانت تضعها بين يديها العناية الإلهية، ومنها جميعاً تعلّمت شيئاً ما، أحياناً قليلاً جدّاً، لكنّه شيء كان يبقى عالقاً مثل حُبَيْبَة ذهب في جبل من قمامة، أو لكي نُهذّب الصورة المجازية، كانت تقول فلوريتا، مثل دمية ضاعت وعُثِرَ عليها في جبل من قمامة مجهولة. على كلّ الأحوال، هي لم تكن متعلّمة، على الأقل لم يكن عندها ما يقال إنّه تعليم كلاسيكي، وهو ما كانت تعتذر عنه، لكنّها أيضاً لم تكن تشعر بالخجل من نفسها. فما يأخذه الله من جانب تمنحه العذراء من جانب آخر، وحين يحدث هذا يجد المرء نفسه بسلام مع العالم. هكذا مرّت السنون. أصيب زوجها، بسبب تلك الأشياء الغامضة التي يسميها بعضهم بالتناظر، ذات يوم

بالعمى. من حسن الحظّ أنّها كانت تملك تجربة في العناية بالعميان فكانت سنوات تاجر الحيوانات الأخيرة مريحة، فقد رعته زوجته بكفاءةٍ وحنان. بقيت بعدها وحدها وكانت وقتها قد أتمّت الرابعة والأربعين من عمرها. لم تتزوّج بعدها، ليس لأنّه لم يكن هناك مريدون، بل لأنّها استذوقت الوحدة. ما فعلته هو أنّها اشترت مسدّساً عيار ٣٨، لأنّ البندقية التي أورثها إياها زوجُها بدت لها غير عملية كثيراً، وتابعت آنيّاً تجارة بيع وشراء الحيوانات. لكنّ المشكلة، كانت توضّحُ، أنّ شراءَ الحيوانات وخاصّةً بيعَها كان يحتاج إلى بعض الحساسية، إلى نوعٍ من التربية، إلى بعض المَيْل إلى المغامرة الذي لم تكن تملكه ولا بشكلٍ من الأشكال. كان السفر مع الحيوانات في شعاب الجبال جميلاً جدّاً، وبيعها بالمزاد في السوق أو المسالخ كان مريعاً. وهكذا تخلّت بعد وقتٍ قصير عن هذه التجارة وتابعت أسفارها برفقة كلب المرحوم زوجها ومسدّسها وأحياناً حيواناتها، التي بدأت تشيخ معها، لكنّها صارت تفعل ذلك هذه المرّة كطبيبة شعبيّة مرتحلة، وكانت واحدة من الكثيرات الموجودات في ولاية سونورا المبّاركة وتبحث خلال ترحالها عن أعشابٍ أو تكتب أفكاراً بينما الحيوانات ترعى، كما كان يفعل بِنيتو خوارِث، حين كان راعياً صغيراً، آه، كم كان بِنيتو خوارِث رجلاً عظيماً، كم كان مستقيماً، كم كان راجح العقل، لكن أيضاً كم كان طفلاً ساحراً، قليلاً ما كانوا يتحدّثون عن هذا الجزء من حياته، من ناحية لأنّ المكسيكيين كانوا يعرفون أنّهم حين يتكلّمون عن الأطفال يقولون ترّهاتٍ أو حذلقات. هي، في حال أنّهم لم يكونوا يعرفون، كان عندها أشياء تقولها بهذا الخصوص. من بين آلاف الكتب التي قرأتها، بينها كتب عن تاريخ المكسيك، عن تاريخ إسبانيا، عن تاريخ كولومبيا، عن تاريخ الأديان، عن تاريخ بابوات روما، عن تطوّر لا ناسا، فقط عثرت على صفحات قليلة كانت تُصوّر بأمانة تامّة، بأمانة مُطلَقة، ما يجب أن يكون قد شعر به، أكثر مما فكّر به، الطفلُ بِنيتو

خوارِث حين كان يخرج، أحياناً، كما هو طبيعي، لبضعة أيّام بلياليها ليبحث عن مراعٍ للقطيع. في هذه الصفحات من كتابٍ أصفرَ دفَّتَيّ الغلاف، قيلَ كلٌّ شيء بوضوح جعل فلوريتا ألمادا تُفَكّر بأنّ المؤلّف كان صديق بِنيتو خوارِث وأنَّ هذا أسرّ له في أذنه بتجارب طفولته. هذا إذا كان ذلك ممكناً. إذا كان ممكناً نقل ما يشعر به المرء حين يهبط الليل وتطلع النجوم ويكون وحيداً في الفساحة وتبدأ حقائق الحياة (حقائق الحياة الليلية) تعبرُ واحدةً فواحدة، كما لو أنها متلاشية أو كما لو أنّها ستتلاشى، أو كما لو أنّ مرضاً مجهولاً يدور في الدم ونحن لا ننتبه. ماذا تفعل، أيّها القمر، في السماء؟، كان يتساءل الراعي الصغير في القصيدة. ماذا تفعلُ، أيّها القمر الصموت؟ هل ما زلت غير متعب من التجوال في دروب السماء؟ تُشبه حياتك حياةَ الراعي، الذي يخرج مع أول شعاعِ نور ويسوق قطيعه إلى الحقول. بعدها يرتاح متعباً ليلاً. لا ينتظر شيئاً آخر. بماذا تفيدُ الراعي الحياةُ، وبماذا تفيدك أنتَ حياتُك؟ قُلْ لي، يقول الراعي لنفسه، كانت تقول فلوريتا ألمادا بصوت متبدّل، إلى أين يمتدّ تيهي هذا، القصير جدّاً ومَسراك الأبديّ؟ للألم يولد الإنسان وفي الولادة مخاطر الموت، كانت تقول القصيدة. لكن لماذا تضيء؟ لماذا تحافظ حيّاً على مَنْ لأنّه وُلد يحتاج لمواساة؟ وأيضاً: إذا كانت الحياة شقاءً فلماذا نستمرّ بتحمّلها؟ وأيضاً: أيّها القمر التامّ، هكذا هي حال الفاني. لكنّك لست فانياً وربّما لا تفهمني حين أقول لك ذلك. وأيضاً وبشكل متناقض: أنت، المُتوَحّد، السائح الأبدي، المُتَفَكّر، قد تفهم هذا العيش الأرضيّ، احتضارَنا، معاناتِنا؛ تراك ستعرف جيّداً هذا الموت، هذا الشحوبَ الجليل في الوجهِ والغياب عن الأرض والابتعاد عن الرفقة المعتادة والحبيبة. وأيضاً: ماذا يفعل الهواء المُطلق والسكينة العميقة بلا نهاية؟ ماذا تعني هذه الوحشة الهائلة؟ وأنا، ما أنا؟ وأيضاً: أعرف فقط وأدرك أنّ في الدوران الأبديّ وفي كينونتي الهشة سيجدُ آخرون خيراً وفائدة. وأيضاً:

حياتي مُجَرّد شرّ. وأيضاً: عجوز، أشيب، حافٍ ويكاد يكون بلا لباس، يجري ويجري متلهفاً والحمل الثقيل على كاهله في الشوارع والجبال، بين الصخور والشطآن والمرابع، في الريح والعواصف، حين يشتعلُ النهار وحين يُصْقِعُ يجري ويجري، يعبر مستنقعات وتيارات، يسقطُ، ينهضُ ويسارع دائماً بلا راحة ولا سلام، مجروحاً ودامياً، إلى أن يصلَ أخيراً إلى هناك، إلى حيث الطريق وحيث ينتهي كلّ جهد أخيراً: هاوية هائلة ورهيبة، هائل حيث حين يهوي ينسى كلّ شيء. وأيضاً: إيه، أيّها القمر البكر، هكذا هي الحياة الفانية. وأيضاً: إيه، إيهِ، يا قطيعيَ، الذي ترتاح ربّما وأنت تجهل بؤسك، كم أغبطُك! ليس لأنّك متحرراً من الواجبات وسرعان ما تنسى كلَّ معاناةٍ، كلَّ أذى، كلَّ خوف شديد، بل ربّما لأنّك لا تشعر أبداً بالسأم. وأيضاً: حين ترتاح في الظلّ وعلى العشب أنت سعيد وهادئ وتعيش معظمَ العام في هذه الحالة دون ضجر. وأيضاً: أجلس في الظلّ، على العشب فيمتلئ ذهني بالضجر، كما لو أنّني أُحسُّ بمنخس. وأيضاً: وما عدتُ أرغبُ بشيء ولم أملك قط سبباً للبكاء. وكانت فلوريتا ألمادا حين تصل إلى هذه النقطة تتنهّد وتتنفّسُ الصعداء وتقول إنّ من الممكن استخلاص عدد من الاستنتاجات: ١: الأفكار التي تكمش براعٍ يمكن بسهولة أن تجمح، فهذا جزء من الطبيعة البشرية. ٢: مواجهةُ الضجر وجهاً لوجه عمل يحتاج إلى شجاعة وبِنيتو خوارِث فعل ذلك وهي أيضاً فعلت ذلك وكلاهما رأى في وجه الضجر أشياءَ مريعة تُفضّل ألا تقولها. ٣: لم تكن القصيدة، الآن تتذكّرُ، عن راعٍ مكسيكيّ، بل عن راعٍ آسيويّ، لكنّه كان بالنسبة للحالة سيّان، فالرعاةُ متساوون في كلّ مكان. ٤: إذ كان فعلاً صحيح أنّ في نهاية كلّ جهدٍ تنفتح هاوية هائلة، فإنّها تنصح بدايةً، بشيئين، الأوّل عدم خداع الناس، والثاني معاملتهم بتهذيب. بدءاً من هذا، يمكن الاستمرار بالكلام. وهذا ما كانت تفعله هي، تُصغي وتتكلّم، إلى أن جاء اليوم

الذي ذهب فيه رِيْنالدو ليقابلها في بيتها ويستشيرها في أمرِ حبيبٍ هجرته، وذهب من هناك ومعه وصفة كي يخفّف وزنه ينحل وبعض الأعشاب للغلي تُهدّئ أعصابه، وأعشاب أخرى عطريّة أخفاها في زوايا شقّته ومنحته رائحة تشبه رائحة كنيسة وسفينة فضائية في آن معاً، تماماً كما كان يقول رِيْنالدو لأصدقائه الذين كانوا يذهبون لزيارته، رائحة مُقدّسة، رائحة تُرخي الأعصاب وتسعد الروحَ، بل وتُوَلِّد رغبةً بالاستماع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة، ألا يبدو لكم ذلك؟ وراح أصدقاء رِيْنالدو يُصرّون على أن يعرّفهم على فلوريتا، آه، يا رِيْنالدو، إنّي بحاجة إلى فلوريتا ألمادا، أولاً واحد، ثمّ آخر وآخر، مثل تتالي توّابين بقلنسوات بنفسجيّة أو حمراء أو شطرنجية، ورِيْنالدو يوازن بين المكاسب والأضرار التي يمكن أن يمثلها له ذلك، حسن، أيها الفتية، لقد أقنعتموني، سوف أُعرّفكم على فلوريتا، وحين رأتهم فلوريتا، ذات سبت ليلاً، في شقّة رِيْنالدو، وقد وضعوا حلوى لا مسوّغ لها في الشرفة، لم تقم بأي حركة كريهة أو مزعجة، بالأحرى قالت كيف كلفتم أنفسكم كلّ هذا الإزعاج لأجلي، كانت الحلوى رائعة. من حضّرها لكم؟ الحلوى لذيذة، لم آكل في حياتي مثلها، هي بالأناناس، أليس صحيحاً؟ المرطبات طبيعية وطازجة، ترتيب الطاولة رائع، يا لهم من فتية ساحرين، ما أنعمهم من فتية، لقد جاءوني حتى بهدايا، ولا حتى لو كان عيد ميلادي، وذهبت بعدها إلى غرفة رِيْنالدو وراح الفتية يمرّون واحداً فواحداً ليحكوا لها أحزانهم والذين دخلوا حزانى خرجوا طافحين بالأمل. هذه المرأة كنز، يا رِيْنالدو، هذه المرأة قدّيسة، بكيتُ فبكت معي، لم أكن أجد الكلمات وهي عرفت آلامي، نصحتني بالغليكوزيد الغني بالكبريت، تقول لأنّه ينشّط طهارة الكلية ويُدرّ البول، أنا نصحتني بأن أتابع معالجة الكولون بالماء، رأيتها تتصبّب دماً ورأيتُ جبينها مليئاً بالياقوت، أنا هدهدتني في حضنها وغنّت لي أغنية مهدٍ وحين استيقظتُ كنتُ كمن خرج من حمّامِ بخار، القديسة

تفهم بؤساءَ هِرموسيّو أفضل من أيّ شخص آخر، القديسة تتعاطف مع الجرحى، مع الأطفال الحسّاسين الذين أسيئت معاملتهم، مع الذين اغتُصِبوا وأُذِلّوا، مع الذين هم محطّ تنكيت وسخرية، عندها للجميع كلمة طيّبة، نصيحة عمليّة، يشعر المُتَهَكّم منهم كأنهم نجوم وسائل الإعلام حين تتكلّم معهم، المعتوهون يشعرون بالذكاء، البُدُنُ ينحلون، مرضى الإيدز يبتسمون. وهكذا لم تتأخّر فلوريتا ألماد، المحبوبة جدّاً سنواتٍ كثيرة حتى ظهرت في برنامج تلفزيوني. ومع ذلك قالت في المرّة الأولى التي دعاها فيها رِنالدو، لا، ليس لها مصلحة، ليس عندها وقت، والأسوأ أن يخطر لأحدٍ أن يسألها من أين تأتي بالمال، فهي لم تكن مستعدة لأن تدفع ضرائب، ولا حتى لو جُنَّت!، وأنّ من الأفضل أن يؤجلوا المقابلة إلى يوم آخر، فهي لم تكن أحداً. لكن بعد أشهر، حين لم يعد رِنالدو يُلحُّ كانت هي من هتفت له وقالت إنّها تُريد أن تظهر في برنامجه، لأنّها تريد أن تنشر رسالة. أراد رِنالدو أن يعرف ما نوع الرسالة، فقالت هي شيء عن الرؤى، عن القمر، عن الرسوم على الرمل، عن القراءات التي كانت تقوم بها في بيتها، في مطبخها، جالسةً إلى طاولة المطبخ وحين كان يذهب الزوار، عن الصحيفة، الصحف، الأشياء التي كانت تقرؤها، الأشباح التي كانت تُراقبها على الجانب الآخر من النافذة، التي لم تكن أشباحاً، ولم تكن بالتالي تُراقبها، بل هو الليل، والليل يبدو أحياناً صفيقاً إلى حدّ أن رِنالدو لم يفهم شيئاً، لكن بما أنّه كان يُحبّها حقيقةً فقد ارتجلَ لها ركناً في برنامجه القادم. كانت استوديوهات التلفزيون في هِرموسيّو وكانت الإشارة تصل أحياناً صافية إلى سانتا تِرِسا، لكنها تصل أحياناً أخرى مليئة بالأشباح والضباب والضجيج، في ظهور فلوريتا ألمادا لأوّل على الشاشة وصل البثّ سيّئاً جدّاً، ولم يكد يراها أحد في المدينة، بالرغم من أنّ البرنامج الذي كانت مدعوّة إليه، *ساعة مع رِنالدو*، كان أحد أكثر البرامج شعبية في تلفزيون سونورا. جاء دورها

بالكلام بعد مُقامِق[1] من غواياناس، وهو شخص عصامي انتصر في العاصمة الفيدرالية، وأكابولكو وتيخوانا وسان دومينغو وكان يعتقد أنَّ دميته كائن حيّ. كان يتكلّم كما يشعر. دميتي الوغدة حيّة. حاولتْ أحياناً أن تهرب. حاولتْ أحياناً أن تقتلني. لكنّ يديها الصغيرتين ضعيفتين جدّاً على حمل مسدّس أو سكّين. ولا أقول شيئاً عن محاولتها خنقي. عندما قال له رِيْنالدو بينما هو ينظر مباشرة إلى الكاميرا ويبتسم بذلك الخبث المميِّز لرِيْنالدو، في كثير من أفلام المُقامقين كان يحدث الشيء ذاته، أي أنّ الدميةَ كانت تتمرّد على الفنّان، أجابه مُقامِق غوايانا بالصوت المكسور للكائن الغامض تماماً، بأنّه كان يعرف، وأنّه رأى تلك الأفلام وربّما أفلاماً أكثر بكثير من تلك التي شاهدها رِيْنالدو والجمهور الذي كان يأتي ليشاهد البرنامج مباشرة وأنّ النتيجة الوحيدة التي توصّل إليها هي أنّه إذا كان هناك أفلام كثيرة فهذا يعود إلى أنّ تمرّد دمى المقامقين أكثر انتشارا عند هذه المستويات في العالم كلّه، وهو ما كان يصدّقه في البداية. في أعماقنا جميعنا نحن المقامقين نعرف بطريقة أو بأخرى، بأنّ دمانا اللعينة عند الوصول إلى درجة معيّنة من الغليان تكتسبُ حياة. تنتزعُها من العمل، تنتزعُها من الشرايين الشعرية للمقامقين، تنتزعها من التصفيق. وخاصّة من سذاجة الجمهور! أليس صحيحاً، يا أندرِسيتو؟ صحيح. وهل أنت طيّب أم أنّك تتصرّف أحياناً كطفل شرّير؟ طيّب، طيّب جدّاً، طيّب جدّاً جِدّاً. ولم تحاول أبداً أن تقتلني، يا أندرسيتو؟ أبِداً، أبداً، أبدَاً. الحقيقة أنّ فلوريتا ألمادا دُهِشت من تعابير براءة الدمية الخشبيّة ومن شهادة المُقامق، الذي شعرت على الفور بتعاطف كبير معه، وحين جاء دورها كان أوّل شيء فعلته هو أنّها وجّهت للمقامق بعض كلمات التشجيع، بالرغم من تحذيرات رِيْنالدو المبطنة، الذي ابتسم لها وغمزها بعينه

---

(١) الشخص الذي يتكلّم من بطنه.

كما لو أنّه يُفْهِما بأنّ المقامق نصف مجنون وأنّ عليها ألا تقيم له وزناً. إلاّ أنّ فلوريتا أقامت له وزناً وسألته عن صحّته، سألته كم ساعة ينام، كم وجبة يتناول في اليوم وأين، وبالرغم من أنّ أجوبة المُقامق كانت أقرب إلى التهكّمية، التي قالها أمام الجمهور، بحثاً عن التصفيق أو الاستظراف العابر، إلاّ أنّ ذلك كان سبباً أكثر من كاف للقديسةِ كي تنصحه (وفوق ذلك بشيء من الحماس)، بزيارةِ أحد المُعالجين بوخز الإبر، التقنية الممتازة لمعالجة اعتلال الأعصاب المحيطية، الناتج عن الجهاز العصبي المركزي. نظرت بعدها إلى رِيْنالدو، الذي كان يتحرّك قلقاً في كرسيّه، وراحت تتكلّم عن آخر رؤاها. قالت إنّها رأت نساءً مقتولاتٍ وطفلاتٍ مقتولات. رأت صحراء، واحة. كما في الأفلام التي يظهر فيها فيلق الأجانب الفرنسيين والعرب. حذارِ. قالت في المدينة يقتلون طفلات. بينما هي تتكلّم محاولةً أن تتذكّر رؤاها بأكبر قدرٍ من الدقة الممكنة، انتبهت إلى أنّها على وشك أن تدخل في غيبوبة فخجلت جدّاً، فأحياناً، ليست كثيرة، تكون حالات الغيبوبة مبالغ بها وتنتهي بالوسيطة وهي تتجرجر على الأرض، الأمر الذي لم تكن تريده أن يحدث، فقد كانت المرّة الأولى التي تذهب فيها إلى التلفزيون. لكن الغيبوبةَ، الاستحواذَ،كان يتقدّم، كانت تشعر به في صدرها، في نبضاتها، ولم يكن هناك من طريقة لوقفه مهما قاومت، وراحت تتصبّب عرقاً وتبتسم لأسئلةِ رِيْنالدو، الذي كان يسألها هل تشعرين بأنّكِ بخير، يا فلوريتا، هل تريدين أن تُحضِرَ لكِ المضيفاتُ كأسَ ماء، هل يزعجكِ الضوء وبؤر الإضاءة والحرّ. هي كانت خائفة من أن تتكلّم، فأوّل شيء يمسك به الاستحواذُ هو اللسان. بالرغم من أنّها كانت تريدُ، فهذا سيشكّل استراحة عظيمة لها، إلا أنّها كانت تخافُ أن تُغمِضَ عينيها، ذلك أنّه حين يُغمَضُ المرء عينيه فإنّه يرى بالضبط ما يراه المُسْتَحْوذُ، ولذلك حافظت فلوريتا على عينيها مفتوحتين وعلى فمها مغلقاً (وإن كان مائلاً بابتسامة مُحبَّبة وغامضة جدّاً)، متأمّلة المُقامِق، الذي كان

ينظر مرّةً إليها ومرّةً إلى الدمية، كما لو أنّه لم يكن يفهم شيئاً، لكنّه بالمقابلُ يحسّ بالخطر، بلحظة الكشف، الذي لم يُطلَب ولم يُفهَم لاحقاً، هذا الكشف الذي يمرّ أمامنا مُخَلّفاً لنا يقينَ فراغٍ، فراغ سرعان ما سيفلت حتى من الكلمة التي تحتويه. والمُقامقُ كانَ يعرفُ أنّ هذا خطيرٌ جدّاً. خطيرٌ على الأخصّ على أشخاص من أمثاله، مفرطي الحساسية، ذوي الأرواح الفنّية، المجروحين جروحاً لم تنْدَمِل كلّياً بعد. كذلك كانت فلوريتا تنظر إلى رِيْنالدو حين تتعب من النظر إلى المُقامِق، الذي كان يقول لها: يا فلوريتا، لا تَجْبَني، لا تكوني رعديدة، اعتبري كما لو أنّ هذا البرنامجَ بيتك. وأيضاً كانت تنظرُ، وإن بشكلٍ أقلّ، إلى الجمهور، حيث كان يجلس عدد من صديقاتها، منتظرات كلماتها. مسكينات، فكّرت، كم من الألم يُعانين الآن. عندها لم تسطع أكثر ودخلت في الغيبوبة. أغمضت عينيها، فتحت فمها. وبدأ لسانُها يعمل. كرّرت ما سبقَ وقالته: صحراء كبيرة جدّاً، في شمال الولاية، طفلات مقتولات، نساء مقتولات. أيّ مدينة هذه؟، تساءلت. لنرَ، أيّ مدينة هذه؟ أريد أن أعرف ما اسم مدينة الشيطان هذه. فكّرت لبضع ثوان. إنه على راس لساني. أنا لا أكبحُ نفسي، أيّتها السيدات، خاصّة، حين يتعلّق الأمر بقضيّة مثل هذه. سانتا تِرِسا! إنّها سانتا تِرِسا! أراها بوضوح، هناك يقتلون النساء، يقتلون بناتي. بناتي! بناتي!، صرخت في الوقت الذي كانت ترمي فوق رأسها منديلاً متخيّلاً ورِيْنالدو يشعرُ بقشعريرة تهبط مثل مصعد في عموده الفقري، أو تصعد، أو بكليهما معاً. الشرطة لا تفعل شيئاً، قالت بعد بضع ثوانٍ، بنبرةِ صوتٍ آخر، أكثر صرامة وذكورية، رجال الشرطة العاهرون لا يفعلون شيئاً، فقط ينظرون، لكن إلامَ ينظرون، إلامَ ينظرون؟ في هذه اللحظة حاول رِيْنالدو أن يُجبرها على الالتزام بالنظام والتوقّف عن الكلام، لكنّه لم يستطِع. اخرج، يا قليل الحياء، قالت فلوريتا. يجب إعلام حاكم الولاية، قالت بصوتٍ أجشّ. هذا ليس مزاحاً أبداً.

الحاكم خوسِهْ أندرِس بريشِنيو يجب أن يعرف ذلك، يجب أن يعرف ماذا يفعلون بالنساء، بأجمل طفلات هذه المدينة الجميلة، سانتا تِرِسا. المدينة التي ليست جميلة فقط بل وصناعية وعاملة أيضاً. يجب أن يُكسر الصمتُ، يا صديقاتي. خوسِهْ أندرِس بريشِنيو، رجل طيّب وعقلاني ولن يترك عمليات القتل الكثيرة هذه دون عقاب، كلّ هذا الاستهتار وكلّ هذا الظلام. ثمّ اتخذت صوت طفلةٍ وقالت. بعضهنّ يذهبن في سيّارة سوداء، لكّنهم يقتلونهنّ في كلّ مكان. ثمّ قالت، بصوت موزون جيّداً: على الأقل يستطيعون أن يحترموا العذراوات. ثم وعلى الفور قفزت. والتُقِطَت تماماً من كاميرات الاستوديو ١ في تلفزيون سونورا، وسقطت على الأرض كما لو أنّ طلقةً دفعتها. سارع رِيْنالدو والمُقامق إلى نجدتها، لكنّها، حين حاولا أن يرفعاها كلّ من ذراع، زمجرت (لم يرها رِيْنالدو قط بهذا الشكل، انتقامية تماماً): لا تلمساني، أيها العاهران، يا فاقدي الإحساس! لا تهتمّا بي! ألا تفهمان ما أقول؟ نهضت بعدها، نظرت إلى الجمهور، اقتربت من رِيْنالدو وسألته ما الذي جرى، واعتذرت على الفور ناظرة مباشرة إلى كاميرتها.

عثرَ لالو كورا في تلك الأيام على بعض الكتب في المخفر، التي لم يكن أحد يقرؤها ويبدو أنّها مخصصة لتصير طعاماً للفئران في أعلى الرفوف المليئة حتى التخمة بالتقارير والأرشيفات التي نسيها الجميع. أخذها إلى بيته. كانت ثمانية كتب. في البداية حمل معه، كي لا يتمادى، ثلاثةً: *تقنيات لمدرّب الشرطة* لِجون سي. كلوتير، *المُخبِر في التحقيق البوليسي* لمالاتشي ل. هارني وجون سي. كروس و *مناهج حديثة في التحقيق البوليسي*، لهاري سودرمان وجون ج. أوكونِل، . وحكى ذات مساء لإبيفانيو ما فعله فقال له هذا إنّها كتب يرسلونَها من العاصمة الفيدرالية أو من هِرموسيّو ولا أحد يقرؤها.

وهكذا انتهى بأخذ الخمسة التي كان قد تركها إلى بيته. أكثر ما أعجبه بينها وأول ما قرأه هو *مناهج حديثة في التحقيق البوليسي*، الذي كان بعكس عنوانه، فالكتاب كُتِب منذ زمن طويل. أوّل طبعة مكسيكية منه تعود إلى عام ١٩٦٥. الطبعة التي كانت عنده هي العاشرة وتعود إلى ١٩٩٢. عمليّاً كان هاري سودِرمان في مقدمته للطبعة الرابعة التي تُنقل هنا، يشكو من أنّ وفاةَ صديقه العزيز، المفتش العام المرحوم جون أوكونِل، ألقت على كاهله عبءَ المراجعة. ويقول لاحقاً: في عمليّة التعديل هذه (تعديل الكتاب) افتقدت كثيراً إلهام وتجربة وتعاون المرحوم المفتش العام أوكونِل. ربّما، فكّر لالو كورا بينما هو يقرأ الكتاب، مضاء بمصباح هزيل في ليالي الغرفة أو مناراً بأوائل أشعة الشمس التي كانت تتسلل من النافذة المفتوحة، أنّ سودرمان نفسه كان قد مات منذ زمن وهو لن يعرف ذلك أبداً. لكنّ هذا لا يهمّ، عدم اليقين هذا كان يتحوّل إلى مهمازٍ آخر للقراءة. كان يقرأ ويضحك أحياناً مما كان يقوله السويدي أو الأمريكي الشمالي، وأحياناً أخرى كان يبقى مصعوقاً، كما لو أنّهم أطلقوا عليه رصاصة في رأسه. كذلك غطّيحلُّ قضية مقتل سيلبانا بِرِثْ السريع في تلك الأيّام على فشل الشرطة في حلِّ الجرائم السابقة وظهر الخبر في تلفزيون سانتا تِرِسا وفي صحيفتي المدينة. بدا بعض رجال الشرطة أكثر سروراً من المعتاد. التقى لالو كورا في أحد المقاهي ببعض رجال الشرطة الشباب، بين التاسعة عشرة والعشرين من أعمارهم، كانوا يعلّقون على الحالة. كيف من الممكن أن يغتصبها يانوس، إذا كان هو زوجها؟ ضحك الآخرون، لكنّ لالو كورا أخذ السؤال على محمل الجدّ. اغتصبها لأنّه أجبرها، لأنّه أجبرها على فعل شيء لم تكن تريده، قال. وعكسه لن يكون اغتصاباً. سأله أحد الشرطيين الشباب عمّا إذا كان يُفَكِّر بأن يدرس الحقوق. هل تريد أن تصير محامياً، يا ولد؟ لا، قال لالو كورا. نظر إليه الآخرون كما لو أنّه يتظاهر بالجدّية. من جهة

أخرى لم تقع جرائم قتل نساء أخرى في كانون الأوّل ١٩٩٤، على الأقل هذا ما عُرِفَ وانتهى العامُ بسلام.

سافر هاري ماغانيا قبل أن ينتهي العام ١٩٩٤ إلى تشوكاريت ووقع على الفتاة التي كانت تكتب رسائل حبٍّ إلى ميغِلْ مونتِس. كانت تُدعى ماريّا دِل مار إنثيسو مونْتِ وكانت ابنة عمّ ميغِلْ. كانت في السابعة عشرة من عمرها وعاشقة منذ الثانية عشرة. كانت نحيلة، كستنائيّةَ الشعر، الذي أحرقته الشمس. سألتْ هاري ماغانيا لماذا كان يُريد أن يرى ابنَ عمّها، فقال لها إنّه صديقه وكلّمها عن ليلة أقرضه فيها ميغِلْ نقوداً. قدّمته الفتاةُ بعد ذلك لوالديها، اللذين كانا يملكان حانوت مأكولات صغير يبيعون فيه أيضاً السمكَ المملّح الذي كانا يذهبان بنفسيهما لشرائه من الصيادين، يجوبان الشاطئ من هواتابامبو وحتى لوس مِدانوس وأحياناً أبعد من ذلك إلى الشمال، حتى إيسلا لوبوس، حيث جميع الصيادين هنود تقريباً ومصابون بسرطان الجلد، وهو ما لا يبدو أنّه يُقلقهم، وحين كانا يملآن الشاحنة بالسمك يعودان إلى تشوكاريت وينكبّان على تمليحه بنفسهما. وقع والدا ماريّا دِلمار وقعاً حسناً في نفس هاري ماغانيا. بقي تلك الليلة هناك ليتناول العشاء. لكنّه خرج قبل ذلك وطاف تشوكاريت برفقة الفتاة بحثاً عن مكان يشتري منه شيئاً لطيفاً للأبوين، اللذين فتحا له أبواب بيتهما بكل حسن ضيافة. لم يجد أيّ مكان، باستثناء بار حيث أراد أن يشتري زجاجة نبيذ. انتظرته الفتاة في الخارج. حين خرج سألته عمّا إذا كان يريد أن يتعرّف على بيت ميغِلْ. قال هاري بلى. انسابت السيارة إلى خارج تشوكاري. بقي بيت قديم من الطوب محافظاً على نفسه بحماية بعض الأشجار. ما عاد يعيش فيه أحد، قالت ماريّا دِل مار. نزل هاري ماغانيا من السيّارة ورأى حظيرة، وزريبة سياجها مكسر وخشبها مُتَعفّن، خمَّ دجاج تحرّك فيه شيء، ربّما جرذ وربّما أفعى. ثمّ دفع

الباب فصفعته في وجهه رائحةُ حيوان ميت. انتابه حدس. عاد إلى السيارة. بحث عن المصباح اليدوي وعاد إلى البيت. كانت ماريّا دِل مار تمضي هذه المرّة خلفه. اكتشف في الغرفة عدداً من الطيور الميتة. سلط ضوء المصباح على القسم العلوي، كان من الممكن مشاهدة حشو السقف بين الدعامات المصنوعة من الخشب، حيث تتكدّس أشياء وانتفاخات طبيعية لا تُعرف ماهيتها. أوّل من رحل كان ميغِلْ، قالت ماريّا دِل مار في الظلمة. ماتت أمّه بعد ذلك وتحمّل أبوه العيش هنا وحده سنةً. وذات يوم لم نره. بحسب أمّي قتل نفسه. بحسب أبي ذهب إلى الشمال يبحث عن ميغِلْ. ألم يكن عندهما أبناء آخرون؟ كان عندهم، قالت ماريّا دِل مار، لكنّهم ماتوا وهم رضَّع. هل أنت أيضاً ابنة وحيدة، سأل هاري ماغانيا. لا، حدث الشيء ذاته مع أسرتي. جميع أخوتي الأكبر منّي مرضوا وماتوا حين لم يتجاوز أيّ منهم السابعةَ من عمره. آسف، قال هاري ماغانيا. كانت الغرفة الأخرى أكثر ظلمة، لكن ليس لها رائحة موت. يا له من أمر غريب، فكّر هاري. كانت لها رائحة حياة. ربّما حياة عالقة، زيارات خاطفة، ضحكات ناس أشرار، لكنّها رائحة حياة. حين خرجا أرته الفتاة سماءَ تشوكاريت المليئة بالنجوم. هل تنتظرين أن يعود ميغِلْ ذات يوم؟، سألها هاري ماغانيا. آمل أن يعود، لكنّني لا أعرف ما إذا كان سيعود. أين تعتقدين أنه موجود الآن؟ لا أعرف، قالت ماريّا دِل مار. في سانتا تِرِسا؟ لا، قالت، لو كان هناك ما كنتَ أتيت أنت إلى تشوكاريت، أليس صحيحاً؟ صحيح، قال هاري ماغانيا. أخذ يدها قبل أن يذهب وقال لها إنّ ميغِلْ لم يكن يستحقّها. ابتسمت الفتاةُ. كانت أسنانها صغيرة. لكن أنا فعلاً أستحقّه، قالت. لا، قال هاري ماغانيا، أنت تستحقّين فتى أفضل. في تلك الليلة توجّه بعد العشاء في بيت الفتاة من جديد إلى الشمال. وصل فجراً إلى تيخوانا. الشيء الوحيد الذي كان يعرفه عن صديقه ميغِلْ مونتِس في تيخوانا هو أنّه كان

يُلقّب بـ تشوتشو. فكّر أن يبحث في بارات تيخوانا ومراقصها عن ساقٍ أو نادِلٍ بهذا الاسم، لكنّه لم يكن يملك وقتاً كثيراً. أيضاً لم يكن يعرف أحداً في المدينة يمكن أن يُساعده. هتف عند الظهيرة إلى أحد معارفه القدامى، كان يعيش في كاليفورنيا. هذا أنا، هاري ماغانيا. أجابه الرجل بأنّه لا يتذكّر أحداً باسم هاري ماغانيا. اتبعنا قبل خمس سنوات دورة معاً في سانتا باربارا، قال هاري ماغانيا، ألا تتذكر؟ يا إلهي، قال الرجل، طبعاً أتذكّر، شريف هونتفيل، أريزونا. هل ما زلت شريفاً؟ نعم، قال هاري ماغانيا. سأل بعدها كلٌّ عن صحة زوجة الآخر. قال شرطيٌّ شرق لوس أنجلوس إنّ زوجته بخير، هي في كلّ يوم أكثر بدانة. هاري قال إنّ زوجته توفّيت منذ أربع سنوات. بعد أشهر من اتباع دورة سانتا باربارة. آسف، قال الآخر. لا بأس، قال هاري ماغانيا. لزم كلّ منهما برهةً صمتاً مزعجاً، إلى أن سأله الشرطيّ كيف ماتت. بالسرطان، قال هاري، كان سريعاً. هل أنت في لوس أنجلوس، يا هاري؟ أراد الآخرُ أن يعرف. لا، لا، أنا قريب من تيخوانا. وماذا ذهبت تفعل في تيخوانا؟ إجازة؟ لا، لا، قال هاري ماغانيا. أبحث عن شخص. أبحث عنه لحسابي، هل فهمت؟ لكن ليس عندي غير اسمه. هل تريدني أن أساعدك؟، قال الشرطيّ. لن يكون أمراً سيئاً بالنسبة إلي، قال هاري ماغانيا. من أين تهتف لي؟ من غرفة هاتف عمومي. ضع قطعاً نقدية وانتظر بضع دقائق، قال الشرطيّ. فكّر هاري، بينما كان ينتظر، ليس بزوجته بل بلوسي آنّ ساندِر ثم ما عاد يفكّر بلوسي آنّ ساندِر وراح يتأمّل الناس الذين كانوا يمرّون في الشارع، بعضهم يعتمر قبعات مارياتشي مصنوعة من الكرتون ومصبوغة بالأسود أو البنفسجيّ أو البرتقالي، جميعهم يحملون أكياساً كبيرة ويبتسمون، ومرّت برأسه فكرة (لكن كانت من السرعة بحيث إنّه لم ينتبه إليها) أن يعودَ إلى هونتفيل وينسى كلّ تلك المسألة. عاد وسمع بعدها صوت شرطيّ شرق لوس أنجلوس يعطيه

اسماً: راؤول راميرِتْ ثِرثو، وعنواناً: شارع رقم ٤٠١. هل تعرف التكلم بالإسبانية، يا هاري؟، قال الصوتُ من كاليفورنيا. في كلّ يوم أقل، أجاب هاري ماغانيا. في الساعة الثالثة مساء وتحت شمس لا ترحم، طرق باب الرقم ٤٠١ في شارع أورو. فتحت له طفلة تقارب العاشرة من عمرها، ترتدي اللباس المدرسي الموحّد. أبحث عن السيّد راؤول راميرِتْ ثِرثو. ابتسمت له الطفلة، تركت الباب مفتوحاً واختفت في الظلمة. في البداية لم يعرف هاري هل يدخل أم ينتظر في الخارج. ربّما هي الشمس التي دفعته نحو الداخل. شمّ رائحة ماء ونباتات سقيت توّاً وأصصٍ فخارية سخنت بعد أن بُلِّلت. من الغرفة يخرج ممرّان. يُرى في نهاية واحد منهما فناء، بلاطه رمادي، وأحد جدرانه مُغطّى باللبلاب. كان الممرّ الآخر أكثر ظلمة من غرفة الاستقبال أو أيّاً كانت، حيث كان. أبحث عن السيّد راميرِتْ، قال هاري ماغانيا. ومن أنت؟ قال الصوتُ. صديق السيد ريتساردسون، من شرطة لوس أنجلوس. يا سلام، قال الصوت، شيء مهم. وبماذا يفيد السيّد راميرِتْ؟ إنّني أبحث عن رجلٍ، قال هاري. مثل الجميع، قال الصوت، بنبرة صوت بين الحزين والمتعب. رافق في ذلك المساء راؤول راميرِتْ ثِرثو إلى مخفرٍ في وسط تيخوانا، حيث تركه المكسيكي مع أكثر من ألف ملفّ. راجعْها، قال له. بعد ساعتين عثر على ملف يمكن أن ينطبق تماماً على تشوتشو الذي يبحث عنه. إنّه مجرم قليل الأهمّية، قال له راميرِتْ حين عاد وفحص الملفّ. يعمل بشكل عَرَضيّ قوّاداً. نستطيع أن نعثر عليه هذه الليلة في مرقص وو، عادة ما يذهب إلى هناك، لكن قبل ذلك سنذهب لنتناول العشاء معاً، قال راميرِتْ. بينما كانا يأكلان في شرفة في الهواء الطلق حكى له الشرطيّ المكسيكيّ عن حياته. أصلي العائليّ متواضع، والسنوات الخمس والعشرون الأولى كانت تتالى بما لا نهاية له من العوائق. لم يكن هاري ماغانيا يرغب بأن يستمع إليه بقدر ما كان يرغب بأن يستمع إلى

تشوتشو، لكنّه تظاهر بأنّه يُصغي إليه. كان باستطاعة الكلمات الإسبانية أن تنزلق على بشرته، عندما كان يريد ذلك، فلا تترك عنده أيّ أثر، الأمر الذي لم يكن يحدث، لكنّه أيضاً حاول ذلك مع الكلمات الإنكليزية. فهم بشكل مشوش أنّ حياة راميرِثْ بالفعل لم تكن سهلة. عمليات جراحية، جراحون، أم فقيرة معتادة على الفجائع. سوء سمعة الشرطة، الصحيحة أحياناً وأحياناً أخرى زائفة، الصليب الذي علينا جميعاً أن نحمله. صليب، فكَّر هاري ماغانيا. تحدّث راميرِثْ بعدها عن النساء، نساء مفتوحات السيقان. مفتوحات السيقان جدّاً. ما الذي يُرى؟ ما الذي يُرى؟ يا إلهي، لا يحُكى عن هذا على الطعام. ثقب عاهر، عين عاهرة. شق عاهر، مثل صدع قشرة الأرض في كاليفورنيا، صدع سان بِرناردينو، أظنّه يسمى هكذا. هذا عندكم في كاليفورنيا؟ هذا أوّل خبر. حسن، قال هاري، أنا أعيش في أريزونا. نعم، بعيد جدّاً، يا سيّد، قال راميرِثْ. لا، هنا قريب، غداً سأعود إلى البيت، قال هاري. سمع بعدها قصّة طويلة عن الأبناء. هل استمعت ذات مرّة بانتباه إلى بكاء طفل، يا هاري؟ لا، قال، ليس عندي أولاد. صحيح، قال راميرِثْ، اعذرني، اعْذرني. لماذا يطلب أن أعذره، فكّر هاري. امرأة محتشمة وجيدة. تُسيء أنتَ معاملتها دون قصد. بحكم العادة. تعمى أبصارنا (أو على الأقل، نصبح عوراً) بحكم العادة، يا هاري، حين لا يعود هناك من علاج لشيء، تمرض هذه المرأة بين أذرعنا. هذه المرأة القلقة على كلّ شيء، إلا على نفسها، تبدأ بالذبول بين أذرعنا، ولا ننتبه حتى في هذه الحالة، قال راميرِثْ. هل حكيتُ لك قصّتي؟، فكَّر هاري ماغانيا. هل وصلت إلى هذه الدرجة من الخِسّة؟ الأشياء ليست كما يراها المرء، همس راميرِثْ. هل تعتقد أنتَ أنّ الأشياء كما تراها تماماً، دون كبير مشكلة، دون أسئلة؟ لا، قال هاري ماغانيا، دائماً يجب أن نطرح الأسئلة. صحيح، قال شرطيٌّ تيخوانا. يجب دائماً أن نطرح الأسئلة،

ويجب دائماً أن نتساءل عن سبب أسئلتنا ذاتها. وهل تعرف لماذا؟ لأنّ أسئلتنا تقودنا عند أوّل غفلة إلى أماكن لا نريد أن نذهب إليها. هل تستطيع أن ترى جوهر المسألة، يا هاري؟ أسئلتنا تحديداً مشكوك بها. لكنّنا نحتاج لأن نطرحها. وهذا هو أسوأ ما في الأمر. هكذا هي الحياة، قال هاري ماغانيا. لزم الشرطيّ المكسيكيّ بعدها الصمت وراح كلّ منهما يتأمّل الناس الذين كانوا يسيرون في الجادة، شاعراً في خديه الساخنين بالنسمة التي كانت تهبّ فوق تيخوانا. نسمة كانت تفوح منها رائحة زيت السيارات، النباتات الجافّة، البرتقال، الإسمنت بأبعاده الضخمة. هل نشرب كأسين آخرين من البيرة أم نذهب الآن لنبحث عن التشوتشو؟ نتناول كأس بيرة آخر، قال هاري ماغانيا. حين دخلا إلى المرقص ترك راميرِثْ يأخذ بزمام المبادرة. نادى هذا أحد القبضايات، وهو رجل له عضلات رجل كمال أجسام ويرتدي بلوزة ملتصقة بقفصه الصدري كأنّها شبكة، وهمس بشيء في أذنه. استمع إليه القبضاي منخفضَ النظرة، ثمّ نظر إلى وجهه وبدا أنّه كان سيقول شيئاً، لكنّ راميرِثْ قال له عليك به واختفى القبضاي بين أضواء المحلّ. تبعَ هاري راميرِث حتى الممر التالي. دخلا إلى مغاسل الرجال. كان هناك شخصان، لكن ما إن رأيا الشرطيَّ حتى ولّيا الأدبار. بقي راميرِثْ برهةً ينظر إلى نفسه في مرآة. غسل يديه ووجهه ثمّ أخرج مشطاً من سترته الأمريكية وراح يُسَرّح شعره بعناية. لم يفعل هاري ماغانيا شيئاً. بقي هادئاً، مستنداً إلى الجدار الإسمنتي غير المكسو، إلى أن ظهر تشوتشو في الباب وسأل ماذا يريدون. اقتربْ، يا تشوتشو، قار راميرِثْ. أغلق هاري ماغانيا باب المغاسل. وجّه راميرِثْ الأسئلةَ وأجاب تشوتشو عليها كلّها. كان يعرف ميغِلْ مونتِس. كان صديقاً لميغِل مونتِس. وميغِلْ مونتِس بحسب علمه ما يزال يسكن في سانتا تِرِسا، حيث كان يعيش مع عاهرة. لم يكن يعرف إسمَ العاهرة، لكنّه يعرف فعلاً أنّها كانت صبيّة وعملت لبعض الوقت في

محل اسمهُ مسائل داخلية. هل هي إلسا فونْتِسْ؟، سأل هاري ماغانيا. والتفت الرجل ونظر إليه ووافق. كانت له النظرة المتجهّمة التي لأولئك الشياطين الذين دائماً يخسرون. أظنُّ أنها هذا هو اسمها، قال. وكيف سأعرف أنا، يا تشوتشو، أنّك لا تكذب عليّ؟، قال راميرِثْ. لأنّني لا أكذب عليك أبداً، يا مُعلّم، قال القوّاد. لكن عليّ أن أتأكّد، يا تشوتشو، قال الشرطيّ المكسيكيّ في الوقت الذي كان يُخرج مديةً من جيبه. كانت مدية آلية، مقبضها من الصدف ونصلها من الفولاذ بطول خمسة عشر سنتيمتراً. أنا لا أكذب عليك أبداً، يا مُعلّم، أنَّ تشوتشو. هذا شيء مهمّ بالنسبة إلى صديق، يا تشوتشو، كيف سأعرف أنّك لن تهتف إلى ميغِلْ مونتِس، ما إن نذهب؟ أنا لن أفعل هذا أبداً، أبداً، أبَداً، ما دام الأمر يتعلّق بك، يا مُعلّم، هذه الفكرة لا يمكن حتى أن تمرّ برأسي. ماذا نفعل، يا هاري؟، قال الشرطيّ المكسيكيّ. أنا أظنّ أنّ هذا الوغد لا يكذب، قال هاري ماغانيا. حين فتح الباب رأى على الطرف الآخر عاهرتين قصيرتَي القامة وقبضاي المحل. كانت العاهرتان قد كسبن وزناً ولا بدّ أنّهما عاطفيّتان إذ ما إن رأتا تشوتشو سالماً معافى حتى ارتمتا عليه لتعانقاه بين الضحك والدموع. كان راميرِثْ آخر من خرج من المغاسل. هل من مشكلة؟، سأل القبضاي. إطلاقاً، قال هذا بصوت نحيل جدّاً. كلّ شيء على ما يُرام إذن؟ هادئ، قال القبضاي. حين خرجوا إلى الشارع وجدوا صفّاً من الناس الشباب، يريدون أن يدخلوا إلى المرقص. ميّز هاري ماغانيا في نهاية الرصيف هيئةَ تشوتشو يسير معانقاً عاهرتيه. فوقه كان يتدلّى بدرٌ جاءه بذكريات البحر، البحر الذي لم يزره أكثر من ثلاث مرّات. إنّه ذاهبٌ إلى السرير، قال راميرِثْ حين صار إلى جانب هاري ماغانيا. خوف أكثر وانفعالات أكثر من أن تسمح له بأن يرغب على الفور بأكثر من كرسيّ كبير، وكأس خايبول، وبرنامج تلفزيون جيّد وطعام لذيذ تُحَضِّره عجوزاهُ. الحقيقة الخالصة هي أنّه لا فائدة منهما غير الطبخ، قال

الشرطيّ المكسيكيّ، كما لو أنّه يعرف العاهرتين منذ المرحلة المدرسية. كان في الصفّ بعض السياحِ الأمريكيين الشماليين، الذين كانوا يتكلّمون بصوت عالٍ. ماذا ستفعل الآن، يا هاري؟، سأله راميرِثْ. سأذهب إلى سانتا تِرِسا، قال هاري ماغانيا وهو ينظر إلى الأرض. تبع في تلك الليلة طريق النجوم. رأى بينما كان يعبر نهر كولورادو نيزكاً في السماء، أو نجمة فرورة، وتمنّى بصمت أمنيةً، كما علّمته أمّه أن يفعل. جاب طريق سان لويس الموحش باتجاه لوس بيدريوس. توقّف هناك وشرب فنجاني قهوة دون أن يُفكّر بشيء، وهو يحسّ كيف كان السائل الساخن ينزل في مريئه ويحرقه. جاب بعدها طريقَ لوس بيدريوس-سونويتا وعندها اتخذ مسارَ الجنوب نحو كابوركا. مرَّ، بينما كان يبحث عن المخرج، في وسط البلدة وبدا له أنّ كلّ شيء مُغلق، باستثناء محطّة الوقود. اتجه نحو الشرق وعبر ألتار، بوبِلو نوبو وسانتا آنا حتى دخل طريقاً بأربعة مسارات يقود إلى نوغالِسْ وسانتا تِرِسا. وصل إلى المدينة في الرابعة صباحاً. لم يجد أحداً في بيت ديميتريو آغيلا، الأمر الذي لم يجعله حتى أن يستلقي برهة على السرير. غسل وجهه وذراعيه، فرك صدره وإبطيه بماء بارد وأخذ من حقيبته قميصاً نظيفاً. حين وصل لم يكن محل مسائل داخلية قد أُغلق بعد وطلب أن يتكلّم مع المدام. الرجل الذي طلب منه ذلك نظر إليه بسخرية. كانت خلف إحدى طاولات العرض الخشبية المنقوشة، مكان مصمّم لشخص واحد، مُشجّع أم معلِن عن البرامج، ويبدو أعلى مما كان في الواقع. هنا لا توجد أيّ مدام، يا سيّد، قال له. إذن بودّي لو أتكلّم مع المسؤول، قال هاري ماغانيا. لا يوجد أيّ مسؤول، يا سيّد. من يُدير؟، سأل هاري ماغانيا. هناك مسؤولة، يا سيّد. مسؤولة العلاقات العامّة عندنا، يا سيّد. الآنسة إيسِلا. حاول هاري أن يبتسم وقال إنّه يُريد أن يتكلّم لحظة مع الآنسة إيسِلا. اصعدْ إلى الطابق الأعلى واسأل عنها، قال له المُشجّع. دخل هاري في

صالون ورأى رجلاً بشوارب بيضاء نائماً على كرسيّ. كانت الجدران مغطاة بقماش أحمر، متماوج، كما لو أنّ الصالون كان زنزانة أمن في مشفى عقليّ للعاهرات. على الدرج الذي كانت طراحة الدرابزين مغطاة أيضاً بالأحمر، مرّ بعاهرة كانت تُرافق زبوناً فأمسكها من ذراعها. سألها عمّا إذا كانت إلْسا فونتِس ما تزال تعمل هناك. أبعدْ عن وجهي، قالت العاهرة وتابعت هبوطها. كان في المرقص ما يكفي من الناس، بالرغم من أنّ الموسيقى التي كانت تُسمع كانت موسيقى بوليرو أو رقصات الجنوب الحزينة. كان الأزواج لا يكادون يتحرّكون في العتمة. عثر بصعوبة على نادلٍ وسأله عمّا إذا كان باستطاعته أن يجد الآنسة إيسِلا. دلّه النادلُ على بابٍ على الطرف الآخر من المرقص. كانت الآنسة إيسِلا برفقة رجل خمسينيّ، يرتدي طقماً أسود وربطة عنق صفراء. حين دعوَاهُ للجلوس تنحّى الرجل واستند إلى نافذة كانت تُطلّ على الشارع. قال لها هاري ماغانيا إنّه يبحث عن إلْسا فونتِسْ . هل يمكن أن أعرف لماذا؟، لسبب وجيه، قال هاري ماغانيا بابتسامة. ضحكت الآنسة إيسِلا. كانت نحيلة حسنة التكوين، على كتفها الأيسر وشمُ فراشة زرقاء ومن المحتمل أنّها لم تُكمل الثانية والعشرين من عمرها. أيضاً رجل النافذة حاول أن يضحك، لكن لمصة ظهرت فقط ولم تكد تهزّ شفته العليا. ما عادت تعمل هنا، قالت الآنسة إيسِلا. منذ متى؟، سأل هاري ماغانيا. منذ شهر أو شيء من هذا القبيل، قالت الآنسة إيسِلا. وهل تعرفين أين يمكن أن أجدها؟ نظرت الآنسة إيسِلا إلى رجل النافذة وسألته عمّا إذا كان باستطاعتها أن تقوله له. ولماذا لا؟، قال الرجلُ. إن لم نبح به له، سيحصل عليه بطريقة أخرى. يبدو هذا الأمريكي مِلْحاحاً. صحيح، قال هاري، أنا مِلحاح. لا تعذبي قلبك، يا إيسِليتا، وقولي له أين تعيش إلْسا فونتِسْ، قال الرجلُ. أخرجت الآنسة إيسِلا من أحد الأدراج دفترَ حسابات سميكِ الغلاف، طويلاً جدّاً وبحثت في أوراقه. تعيش إلْسا فونْتِسْ،

على حدّ علمنا، في شارع سانتا كاتارينا، رقم ٢٣. وأين يقع هذا؟، سأل هاري ماغانيا. في ضاحية كارّانثا، قالت الآنسة إيسِلا. اسأل عنه هناك وستصل في النهاية، قال الرجلُ. نهض هاري ماغانيا وشكرهما. ثمّ وقبل أن يغادر استدارَ نصفَ استدارة وأوشكَ أن يسألهما عمّا إذا كانا يعرفان أو سمعا بِميغِلْ مونْتِسْ. لكنّه ندم في الوقت المناسب ولم يقل لهما شيئاً.

وجد صعوبة في الوصول إلى شارع سانتا كاتارينا، لكّنه نجح في النهاية. كانت جدران بيت إلْسا مطلية بالكلس وبابه حديدياً. طرق مرَّتين. كانت البيوت المجاورة غارقة في صمت تام، بالرغم من أنّه مرَّ في الشارع بثلاث نساء خارجات إلى العمل. اجتمعت النساء الثلاثة ما إن خرجن من بيوتهنّ، واختفين بسرعةٍ بعد أن ألقينَ نظرةً على سيّارته. أخرج مدينه، انحنى وفتح البابَ دون صعوبة. في القسم الداخلي كان للباب عارضة حديدية تقوم بدور المزلاج ولم تكن موضوعةً وهذا ما جعله يفترض أنّه لم يكن يوجد أحد. أغلق الباب، ترك الحديدة تسقط وبدأ يبحث. لم يكن للغرف مظهر غرف مهجورة، بل مظهر ديكور لا يخلو من التكلّف. عُلّقت على الجدران دِنٌّ، قيثارة، حزم أعشاب طبّية تطلق رائحة زكيّة. كان سرير غرفة إلْسا فونتِسْ مخرباً، لكنّ مظهره فيما عدا ذلك، سليم. كانت الملابس في الخزانة مرتّبة، على منضدة السرير بعض الصور (في اثنتين منها تظهر مع ميغِلْ مونتِس)، لم يملك الغبار الوقت كي يتراكم على الأرض. كان البراد يحتوي على طعام كاف. ما من شيء مشتعل، ولا حتى شمعة بجانب صورة قديسة، كلّ شيء كان معدّاً لانتظار عودة المرأة. بحث عن أدلة على وجود ميغِلْ مونتِس هناك، لكنّه لم يعثر على شيء. جلس على كرسيّ كبير في الصالون واستعدّ للانتظار. لم يعرف متى غافله النوم. ومع ذلك كانت الساعة الثانية عشرة نهاراً حين استيقظ. ذهب إلى المطبخ

وبحث عن شيءٍ يأكله. شرب كأسَ حليبٍ كبير بعد أن تأكّد من تاريخ صلاحية العلبة الكرتونية. أخذ بعدها تفاحة من السلة البلاستيكية بجانب النافذة وأكلها بينما هو يعود ليُفتّش كلّ زوايا البيت. لم يبغ أن يُحضّر قهوة، كيلا يُشعل النار. الشيء الوحيد الذي كانت قد مضت صلاحيته هو الخبز، الذي يبس. بحث عن دفتر عناوين، عن بطاقة حافلة، أدنى علامة يمكن أن تكون قد فاتتها. فتّش المغسلة، نظر تحت سرير إلْسا فونتِسْ، قلَّب في كيس القمامة. فتح ثلاثة صناديق أحذية ولم يجد غير الأحذية. نظر تحت الفراش. رفع السجاجيد الصغيرة الثلاث وجميعها كانت عربيةَ الزخارف، وهي دليل على غنج إلْسا فونتِسْ، ولم يعثر على شيء. عندها خطر له أن ينظر إلى السقف. ولم يجد شيئاً لا في غرفة النوم ولا في الصالون. ومع ذلك ميّز في المطبخ تشقّقاً. صعد على كرسيّ ونكش بالمدية إلى أن سقط الجصّ على الأرض. وسّع الثقبَ ومدَّ يده. وجد كيساً بلاستيكياً فيه عشرة آلاف دولار ودفتراً. خبّأ النقود في جيبه وبدأ يُقلّب في الدفتر. كان هناك أرقام هواتف من دون أسماء ولا ترويسة، كما لو أنّها وُضعت بالمصادفة. افترض أنّها لزبائن. أرقام قليلة كان لها أسماء، ماما، ميغِلْ، لوبّ وخوانا، وأخرى كانت تظهر مع ألقاب أصحابها، ربّما رفيقات عمل. عرف بين الأرقام أرقاماً لم تكن مكسيكية بل من أريزونا. خبّأ الدفتر إلى جانب النقود وقرّر أنّ ساعة المغادرة قد حانت. كان متوتّراً وجسده يطلب فنجاني قهوة. حين أدار محرّك السيارة انتابه إحساسٌ بأنّهم يُراقبونه. ومع ذلك كان كلّ شيء هادئاً، وحدهم بعض الأطفال كانوا يتحمسون وهم يلعبون كرة قدم وسط الشارع. ضغط على الزمور وتأخّر الأطفال كثيراً في الابتعاد. رأى في المرآة الأمامية سيارة راند شارجِر تظهر في الطرف الآخر من الشارع. انساب بنعومة وترك الراند شانجر تُدركه. لم يُظهر السائق ولا مرافقه أدنى اهتمام به وسبقته سيارة الراند شارجر وخلفته وراءها. ساق حتى

وسط البلدة وتوقّف بجانب مطعم مزدحم كفاية. طلب صحن بيض مقلّب بالجامبو وفنجان قهوة. توجّه بينما هو ينتظر الطعام إلى طاولة العرض وسأل فتى عمّا إذا كان بمقدوره أن يُجري مكالمة. سأله الفتى، الذي كان يرتدي قميصاً أبيضَ وشريطة عنق سوداء، عمّا إذا كان يُريد أن يهتف إلى الولايات المتحدة أم إلى المكسيك. إلى هنا، إلى سونورا، قال هاري ماغانيا، وأخرج دفتر الهواتف وأراه الأرقام. حاضر، قال الفتى، اهتف إلى حيثُ تشاء وأنا أُمرِّر لك بعدها الحساب، اتفقنا؟ تمام، قال هاري ماغانيا. وضع له الفتى الهاتف جانباً وذهب بعدها ليهتمّ بالزبائن الآخرين. اتصل في البداية برقم أمّ إلْسا فونتِسْ. ردّت امرأة. سألها عن إلْسا. إلْسا ليست هنا، قالت المرأة. لكن ألستِ أمّها؟، سأل. بلى أنا أمّها، لكنّ إلْسيتا تعيش في سانتا تِرِسا، قالت المرأة. إلى أين أنا أهتف إذن. سأل هاري ماغانيا. مُرْني؟ قالت المرأة. أين تعيشين أنتِ يا سيّدة؟ في توكونيلْكو، قالت المرأة. وأين تقع هذه، يا سيّدة؟ سأل هاري ماغانيا. في المكسيك، يا سيّد، قالت المرأة. لكن في أيّ مكان من المكسيك؟. بالقرب من تِبِّهوانِسْ، قالت المرأة. وتِبِّهوانِسْ أين تقع؟ صرخ هاري ماغانيا. في دورانغو، يا سيّد. في ولاية دورانغو؟ سأل هاري ماغانيا، بينما هو يكتب على ورقة كلمة توكونيلْكو وكلمة تِبِّهوانِسْ وأخيراً كلمة دورانغو. ثمّ وقبل أن يُغلق طلب عنوانها، فأعطته له المرأة، معقد لكنه دون أيّ تحفّظ. سأرسل إليك بعض النقود من طرف ابنتك، قال هاري ماغانيا. جازاك الله خيراً، قالت المرأةُ. أنا لا، يا سيّدة، أنا لا، ليُجازِ الله ابنتك خيراً، قال هاري ماغانيا. ليكن ذلك، قالت المرأة، جاز الله ابنتي خيراً، وجازاك أيضاً. ثمّ أشار إلى فتى شريطة العنق، مُفهماً إيّاه أنّه لم ينتهي بعد، وعاد إلى الطاولة، كان البيض المقلّب وفنجان القهوة بانتظاره. وطلب قبل أن يعود ليهتف أن يُجدّدوا له القهوة وانتقل والفنجان في يده إلى طاولة العرض. اتصل برقم ميغِلْ

مونتِس (وأن كان من المحتمل أن يكون ميغِلْ آخرَ، فكَّر) لم يردّ عليه أحدٌ تماماً كما كان يخشى. ثمّ اتصل بالمدعوّة لوبٌ فجاء الحديث أكثر فوضوية من الحديث الذي انتهى منه توّاً مع أمّ إلْسا لوبِّثْ. وصل إلى نتيجة واضحة هي أنّ لوبٌ كانت تعيش في هِرموسيّو وأنّها لا تريد أن تعرف شيئاً عن إلْسا لوبِّثْ ولا عن سانتا تِرِسا، وأنّها بالفعل تعرّفت على ميغِلْ مونتِس، لكنّها أيضاً لا تُريد أن تعرف عنه شيئاً (هذا إذا كان ما يزال حيّاً)، وأنّ حياتها في سانتا تِرِسا كانت خطأً منذ البداية وحتى النهاية وأنّها لا تُفكّر بأن تخطئ مرّتين. اتصل بعدها بامرأتين أُخريين، بتلك التي تظهر تحت الاسم المستعار خوانا وبالأخرى (أو الآخر، لم يكن واضحاً ما إذا كانت امرأة) التي تظهر تحت لقب البقرة. كلا الرقمين، أعلمه صوتٌ مُسجَّل مسبقاً أنّهما خارج الخدمة. قام بآخر اتصال عشوائيّاً. اتصل بأحد هواتف أريزونا. صوت رجل مشوّه في المُجيب الآلي، طلب منه أن يترك رسالةً وقال إنّه سيأخذ هو على عاتقه الاتصالَ به. طلب الحساب. قام فتى شريطة العنق بعمليةٍ حسابية على ورقةٍ أخرجها من جيبه وسأله عمّا إذا أكلَ جيّداً. ممتاز، قال هاري ماغانيا. نامَ القيلولة في بيت ديميتريو آغيلا، في شارع لوثييرناغا، وحلم بأنه في شارع في هونتفيل، الرئيسي، وقد عصفت به عاصفة رمليّة. هل يجب أن أذهب لآتي بالفتيات من معمل أوراق اللعب!، كان يصرخ أحد خلفه، لكنّه لم يُقِمْ له وزناً وبقي غارقاً في قراءة رزمة من الوثائق، أورق منسوخة، كانت تبدو كأنّها مكتوبة بلغة ليست من هذا العالم. حين استيقظ استحمّ بماءٍ بارد وتنشّف بمنشفة بيضاء كبيرة وناعمة الملمس. اتصل بعدها بالاستعلامات وأعطاهم رقم ميغِلْ مونتِس. وسألهم في أيّ مكان من المدينة مُسجّل هذا الرقم. المرأة التي ردّت عليه جعلته ينتظر لحظة ثمّ تَلَتْ اسمَ شارعٍ ورقماً، ثمّ سأل قبل أن يُغلق الهاتف ما اسم الشخص الذي سُجّلَ الرقم باسمه. باسم فرانسيسكو دبّاث، يا سيّد، قالت عاملة الهاتف.

بدأ الليل يحلّ بسرعة في سانتا تِرِسا حين وصل هاري ماغانيا إلى شارع بورتال سان بابلو، الذي كان يمضي موازياً لجادّة مادِرو-ثِنترو، في حيّ ما يزال يحتفظ بمخططاته التي كانت له، بيوت طبقة وسطى، من طابق أو طابقين، مبنية من الإسمنت والطوب، كان يسكنه في القديم موظّفون، مهنيون شباب. على الأرصفة لا يُشاهد غير الشيوخ ومجموعات من المراهقين يعبرون راكضين أو على الدراجاتِ أو راكبين سيارات مفكّكة، مسرعين دائماً كما لو أنّ لديهم أمراً مستعجلاً عليهم أن يقوموا به في تلك الليلة. في الحقيقة كنتُ الوحيد الذي عنده شيء مستعجل عليه أن يفعله، فكَّرَ هاري ماغانيا، وبقي داخل سيّارته، دون أن يتحرّك، إلى أن أظلم كلّ شيء. عبر الشارع دون أن يراهُ أحد. كان الباب خشبيّاً وليس صعباً فتحه. أستعمل مديته فلم يُقاوم الباب. كان يخرج من الصالون ممرّ طويل ينتهي إلى فناء صغير مضاء بأنوار الفناء المجاور. كان كلّ شيء في فوضى تامّة. سمع أصوات تلفازٍ خافتةً في مسكن آخر. أدرك على الفور أنّه ليس وحده. أسف هاري ماغانيا في تلك اللحظة لأنّه لا يملك سلاحاً في متناول يده. أطلّ على الغرفة الأولى. شخص ربع القامة، لكنّه عريضُ المنكبين كان يُخرج كتلة من تحت السرير. كان السرير منخفضاً ويجد صعوبةً في إخراج الكتلة. حين أخرجها أخيراً وبدأ يجرّها باتجاه الممرّ، التفت الرجل ونظر إليه دون أن يُفاجأ. كانت الكتلة ملفوفة بالبلاستيك، شعر هاري ماغانيا بالغثيان والغضب يخنقانه. بقيا لحظة بلا حراك. كان الرجل الربعُ يرتدي ثوبَ عمل أسود، ربّما كان ثوب عمل معملٍ رسمي وكانت تقاسيمه تقاسيمَ غضبٍ بل وخجلٍ أيضاً.
العمل القاسي أقوم به أنا، بدا أنّه يقول. فكّر هاري ماغانيا وشعور بالفاجعة ينتابه أنّه في الحقيقة لم يكن هناك، على بعد أمتار من مركز المدينة، في بيت فرانسيسكو ديّاثْ، كان كمن ليس في بيت أحد، بل في البرّية، بين الغبار والجنبات، في بيت بائس فيه زريبة للحيوانات

وخمّ دجاج وفرن حطب، في صحراء سانتا تِرِسا أو أيّ صحراء أخرى. سمع أحداً يُغلق بابَ الدخول تلتها خطوات في الصالون. صوت ينادي الرجلَ الربعَ. وسمع هذا يجيبه أيضاً: أنا هنا، مع صديقنا. ازداد الحنق. رغب بأن يغرز المديةَ في قلبه. انفضّ عليه ناظراً من طرف عينه، يائساً، الشبحان اللذان كان قد رآهما في سيارة الراند شانجر، يتقدّمان في الممر.

دُشِّنَ العامُ ١٩٩٥، الخامس من كانون الثاني، بالعثور على مقتولة أخرى. كان الأمرُ يتعلّق هذه المرّة بهيكلٍ عظميٍّ مطمور على عمق قليلٍ في مرعى خيول تعود ملكيته لأبناء مورِلوسْ. لم يكن الفلاحون الذين نبشوها يعرفون أنّ الأمر يتعلّق بامرأة. بالأحرى كانوا يظنون أنّها جثّة شخص ربع القامة. لم يكن يوجد بجانب الجثّة ثياب ولا أيّ آثار تدلّ على هويّتها. من هناك أبلغوا الشرطة، التي تأخّرت ستّ ساعات في الحضور، والذين سألوا، بالإضافة إلى أخذ تصريحات كلّ الذين شاركوا في العثور عليها، عمّا إذا كان هناك فلاح ما مفقود، عمّا إذا حدثت شجارات حديثة، عمّا إذا تبدّل سلوك فلاح ما في الفترة الأخيرة. طبعاً غادر المزرعة شابان، كما يحدث في كلّ عام، إلى سانتا تِرِسا أو نوغالِسْ أو إلى الولايات المتحدة. المشاجرات دائماً كانت موجودة، لكنّها لم تكن يوماً خطيرة. كان سلوك الفلاحين يتغيّر بحسب فصول السنة، بحسبِ الموسمِ، قلّة القطيع الذي يتبقى عندهم، أي باختصار يتعلّق بالاقتصاد، كما يحدث لجميع الناس. لم يتأخّر طبيبُ سانتا تِرِسا الشرعي في تقرر أنّ الهيكل العظميّ يعود لامرأة. وإذا ما أُضيف إلى هذا أنّه لم يكن يوجد ثياب ولا أثر لثيابٍ في الحفرة، حيث قُبِرت، فإنّ الاستنتاج كان أوضح من الماء: الأمر يتعلّق بجريمة قتل. كيف قُتِلت؟ هذا ما لم يكن باستطاعته أن يقوله. متى؟ ربّما منذ ثلاثة أشهر، وإن كان يُفضِّل بالنسبة إلى هذه النقطة الأخيرة

ألاّ يخاطر بأي حكم قاطع، ذلك أنّ تفسّخ الجثّة كان متفاوتاً، ولذلك إذا ما أراد أحدٌ معرفَةَ التاريخ الدقيق، فإنّ أفضل ما يفعله هو أن يأخذ العظامَ إلى معهد التشريح الشرعي في هِرموسيّو، بل والأفضل، أن تُحْمَلَ إلى العاصمة الفيدرالية. بعد كلّ حساب ما قامت به شرطة سانتا تِرِسا هو أنّها أصدرت بياناً عمومياً تستبعد فيه بشكل غامض أيَّ مسؤولية عنها. يمكن أن يكون القاتل سائقاً قادماً من كاليفورنيا السفلى في طريقه إلى تشهواهْوَا والمقتولة مسافرة أوتوستوب ركبت في تيخوانا، وقُتلت في ساريك وقُبرت مُصادفة هناك.

في الخامس عشر من كانون الثاني ظهرت القتيلة التالية. كان الأمر يتعلّق بكلاوديا بِرِث ميّان. عُثِر على جثّتها في شارع ساهواريتوس. كانت القتيلة ترتدي كنزةً سوداء وتحمل خاتمين رخيصين في كلّ يد، إضافة إلى خاتم الزواج. لم تكن ترتدي تنورةً ولا سروالاً داخلياً، وإن كانت بالفعل تنتعل حذاءً يُقلد الجلد، أحمرَ اللون وبلا كعب. كان الجسدُ، الذي اغتُصِبَ وخُنِقَ، ملفوفاً ببطانية بيضاء، كما لو أنّ القاتل كان يُفكّر بنقل الجثّة إلى مكانٍ آخر وفجأةً قرّر أو أجبرته الظروف على أن يتركها خلف حاوية قمامة في شارع ساهواريتوس. كانت كلاوديا بِرِثْ ميّان في الحادية والثلاثين من عمرها وتعيش مع زوجها وابنيها في شارع ماركِساس، ليس بعيداً عن المكان الذي عُثِر فيه على الجثّة. حين حضرت الشرطة إلى مسكنها لم يفتح لها أحدٌ الباب، بالرغم من أنّ البكاء والصراخ القادمين من الداخل كانا مسموعين. أطاحت الشرطة المزوّدة بأمرٍ قضائي بباب بيت المقتولة فوجدت في غرفة من غرف البيت المقفولة بالمفتاح الصغيرين خوان أباريثيو بِرِثْ وأخته فرانك أباريثيو بِرِثْ. كان في الغرفة سطل ماء شرب وقالبا خبزٍ. اعترف كلا الطفلين المستنطَقَيْن، بحضور طبيب أطفال نفسيّ، أنّ أباهما، خوان أباريثيو رِغلا، هو الذي أغلق عليهما في الليلة السابقة. سمعا بعدها

جلبةً وصراخاً، لكن دون يُحدّدا من الذي كان يصرخ ولا الشيء الذي كان يصدر الضجة، إلى أن ناما. في صباح اليوم التالي لم يكن هناك أحد في البيت وحين سمعا الشرطة راحا يصرخان. كان المشبوه خوان أباريثيو رِغلا يملك سيارةً، أيضاً لم يُعثَر عليها، وهو ما يُستنتج منه أنّه هرب فيها بعد جريمة القتل. كانت كلاوديا بِرِثْ ميّان تعمل نادلة في مقهى في وسط المدينة. أمّا خوان أباريثيو رِغلا فلم يكن له عمل معروف، كان بعضهم يعتقد أنّه يعمل في معمل، وآخرون أنّه يعمل مُهرباً في ممرّ المهاجرين إلى الولايات المتحدة. عُمِّمَ على الفور أمرُ بالبحث عنه والقبض عليه، لكنّ الذين كانوا يعلمون بالأمور كانوا واثقين من أنّه لن يظهر في المدينة بعد الآن أبداً.

في شباط قُتِلَتْ ماريّا دِ لا لوث رومِرو. كانت في الرابعة عشرة من عمرها وكان طولها مئة وثمانية وخمسين سنتيمتراً، كان شعرها طويلاً يصل إلى خاصرتها، وإن كانت تُفكّر أن تقصّه في يوم من تلك الأيّام، كما اعترفت إلى إحدى أخواتها. كانت قد بدأت تعمل قبل وقت قصير في معمل إمسا، إحدى أقدم الشركات في سانتا تِرِسا، التي لم تكن في أيٍّ من المناطق الصناعية بل في وسط ضاحية لا برِثيادا، مثل أهرامٍ بطيخي أصفر، فيه مذبح أضاحي خفيّ خلفَ المداخن ويابا مستودعٍ هائلان من حيث كان يدخل العمّال والشاحنات. خرجت ماريّا دِ لا لوث رومِرو من بيتها في الساعة السابع مساء، تُرافقها بعض الصديقات اللواتي ذهبن في طلبها. قالت لأخويها إنّها ذاهبة لترقص في سونوريتا، وهو مرقص عمّالي يقع على تخوم ضاحية سان داميان مع ضاحية بلاتا، وإنّها ستتعشى شيئاً ما هناك. لم يكن أبواها في البيت، لأنّهما كانا يعملان في ذلك الأسبوع في النوبة الليلة. وبالفعل تعشّت ماريّا دِ لا لوث مع رفيقاتها وقوفاً بجانب سيارة شحن صغيرة مغلقة كانت تبيع شطائر الخضار والجبن على الرصيف المقابل للمرقص، الذي دخلن

إليه في الساعة الثامنة ليلاً فوجدنه مليئاً بالشباب الذين يعرفنهم، إمّا لأنّهم كانوا يعملون في إمِسا، وإمّا لأنّهنّ رأينهم في الحي. بحسب صديقاتها، رقصت ماريّا دِ لا لوث لوحدها، بعكس البقيّة اللواتي كان معهنّ هناك خطباؤهنّ أو معارفهنّ. ومع ذلك أحاط بها شابّان مختلفان أرادا أن يدعواها لتناول مشروب أو مرطّب، وهو ما رفضته ماريّا دِ لا لوث، في المرّة الأولى لأنّ الفتى لم يعجبها وفي الثانية خوفاً. غادرت في الحادية عشرة ليلاً، برفقة صديقة لها. كلاهما كانت تعيش قريباً إلى هذا الحدّ أو ذاك من الأخرى وقيامهما بالرحلة معاً كان أكثر إمتاعاً بكثير من أن تقوم بها كلّ بمفردها. انفصلتا على بعد خمسة شوارع فرعية قبل بيت ماريّا دِ لا لوث. هناك ضاع أثرها. باستجواب بعض الجيران الذين يعيشون على خط السير الذي كان قد بقي عليها أن تقطعه، صرّح الجميع بأنّهم لم يسمعوا أي صيحة ولا نداء استغاثة. ظهرت جثّتها بعد يومين، بجانب طريق كاساس نِغْراسْ. كانت قد اغتُصِبَت وضربت على وجهها مرّات عديدة، أحياناً بوحشيّة خاصّة، كُشِفَ عن كسر في الحنك وهو أمر غير معهود كثيراً في الصفع، مما جعل الطبيب الشرعي يفترض (وإن استبعد الفكرة بالسرعة ذاتها) أنّ السيارة التي اختُطِفت فيها ماريّا دِ لا لوث تعرّضت لحادث على الطريق. جاء موتها نتيجة الطعنات التي تظهر في الصدر والرقبة والتي أثّرت على الرئتين وشرايين عديدة. تولّى القضيّة المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ، الذي عاد واستجوب الصديقات اللواتي رافقنها إلى المرقص، وصاحبَ المرقص وبعضَ النُّدُلِ والجيران الذين تحيط بيوتهم بالشوارع الخمسة، التي قطعتها أو حاولت أن تقطعها ماريّا دِ لا لوث قبل أن تُختَطَف. جاءت النتائج مخيّبة للآمال.

في آذار لم تظهر أي مقتولة في المدينة، لكن في نيسان ظهرت اثنتان، تفصل بينهما أيّام قليلة وظهرت أيضاً أول الانتقادات لعمل

الشرطة، غير القادرة ليس فقط على وقف موجةِ الجرائم الجنسية (أو تقطُّرها المستمر)، بل أيضاً على القبض على القتلة وإعادة الطمأنينة إلى مدينة عاملة. عُثر على المقتولة الأولى في غرفة من غرف فندق مي ريبوسو[1]، في وسط سانتا تِرِسا. كانت تحت السرير، ملفوفة بملحفة، ترتدي فقط حمّالة صدرٍ بيضاء. بحسب إدارة فندق مي رِيّوسو كانت غرفة المقتولة تعود لزبون اسمه إلِخاندرو بيالبا براون، استأجرها قبل ثلاثة أيّام وليس هناك أخبار عنه. التقت مستخدمات النظافة وعاملا الاستقبال، على أنّ بِنيالبا براون المذكور لم يظهر منذ اليوم الأوّل من إقامته في الفندق. أقسمت عاملات النظافة أنّهنّ لم يرين شيئاً تحت السرير في اليومين الثاني والثالث، وإن كان ممكناً أنّ هذا الأخير، بحسب الشرطة، كان خدعة كي يغطين على استهتارهن بتنظيف الغرف. في سجل الفندق كان العنوان الذي تركه بِنيالبا براون هو هِرموسيّو. سرعان ما اكتشف بعد أن أُعلمت شرطة هِرموسيّو بالأمر أنّ المدعو بِنيالبا براون لم يعش قط في ذلك العنوان. على ذراعي المقتولة، وهي امرأة في الخامسة والثلاثين من عمرها تقريباً، سمراء ممتلئة، كان هناك علامات وخز، مما جعل الشرطة تُحقّق في أوساط المخدرات في المدينة، دون أن تعثر على أدلة تقود إلى معرفة هويّة الجثّة. سبب الموت بحسب الطبيب الشرعي هو جرعة زائدة من الكوكايين الفاسد. لم يُستبعد أن يكون المشبوه بِنيالبا براون هو من أعطاها جرعة الكوكايين ولا أن يكون هذا عارفاً بأنّه كان يعطيها سمّاً. بعد أسبوعين وفي الوقت الذي صُبّت فيه الجهود لاستجلاء جريمة المجهولة الثانية، ظهرت امرأتان في المخفر، حيث صرّحتا بأنّهما كانتا تعرفان المقتولة. التي كانت تُدعى صوفيا سِرّانو واشتغلت عاملةً في ثلاثة معامل ونادلةً كما اشتغلت في المرحلة الأخيرة عاهرة في عقارات ضاحية ثيوداد نوِبا

---

(١) استراحتي.

المهجورة، خلف المقبرة. لم يكن لها عائلة في سانتا تِرسا، فقط بعض الأصدقاء، جميعهم فقراء، ولذلك سُلِّمَتْ جثّتها إلى طلاّب كلّية الطب في جامعة سانتا تِرسا.

المقتولة الثانية ظهرت بالقرب من مِكَبِّ ضاحية إستريِّا. كانت قد اغتُصِبَت وخُنِقت. عرف بعدها أنّها أولغا بارِدِس باتشِغو، في الخامسة والعشرين من عمرها، عاملة في حانوت للألبسة في جادّة ريال، بالقرب من مركز المدينة، عزباء، طولها مئة وستون سنتيمتراً، تقيم في شارع هِرمانوس رِدوندو، في ضاحية روبن داريّو، حيث كانت تعيش مع أختها الصغرى، إليسا بارِدِس باتشِغو، كلاهما معروفة في الحيّ بظرافتها ودماثتها وجدّيتها. كان الوالدان قد توفّيا قبل خمس سنوات، أولاً توفيَ الأبُ بالسرطان ثمّ الأمّ بنوبة قلبية، بفارق لا يكاد يبلغ الشهرين بينهما، وأخذت أولغا على عاتقها مسؤوليات البيت بفعالية وطبيعية. لم يُعرف لها خطيب. أختها، ابنة العشرين عاماً، نعم كان لها خطيب، تُفكّر بالزواج منه. خطيب إليسا، وهو شابٌ محام، متخرّج حديثاً من جامعة سانتا تِرسا، كان يعمل في مكتب محام تجاري مشهور جدّاً في المدينة، كما أنّه كان يملك دليلاً على غيابه بالنسبة لليلة التي يُفترض أنّ أولغا اختُطِفَت فيها. كان متأثراً جدّاً بموت أخت زوجتِهِ المستقبلية اعترف خلال التحقيق (غير الرسمي) بأنّه لا يملك أدنى فكرة عمّن يمكن أن يكره أولغا إلى حدّ أن يقتلها، وبدا مستحْوَذاً بسوء الحظّ والقدر المأساوي الذي كان يحوم، بحسب قوله، حول أسرة خطيبته، والذي تجلّى أولاً بموت أبويها، ثمّ بمقتل أختها. عزّزت صديقات أولغا ما قالته أختها والمحامي الشاب. الجميع كانوا يُحبّونها، كانت واحدة من سكان سانتا تِرسا اللواتي لم يبق منهنّ إلاّ القليلات، إي أنّها كانت مستقيمة، وبكلمة واحدة نزيهة وجدّية. ثمّ أنّها كانت تعرف كيف تختار لباسها بأناقة وذوق رفيع. كان الطبيب

الشرعي متفقاً بالنسبة للذوق في اللباس، ثمّ إنّه اكتشف شيئاً غريباً في الجثّة: التنورة التي كانت ترتديها ليلة مقتلها والتي عثر عليها فيها كانت ترتديها بالمقلوب.

في أيّار زار القنصلُ الأمريكيُّ الشمالي عمادةَ سانتا تِرِسا وقام بعدها برفقة هذا بزيارة غير رسمية لقائد الشرطة. كان القنصل يُدعى أبراهام ميتشِل، لكنّ زوجته وأصدقاءه ينادونه كونان. كان شخصاً بطول مئة وتسعين سنتيمتراً ووزنِ مئة وخمسة كيلوغرامات، تشق وجهه التجاعيد وربّما كانت أذناه أكبر من اللازم، وكان مسحوراً بالعيش في المكسيك وبالخروج للتخييم في الصحراء ولا يهتمّ شخصياً إلاّ بالأمور الخطيرة. أي أنه لا يكاد يكون عنده أبداً ما يفعله، باستثناء الذهاب إلى الحفلات مُمَثِّلاً لبلده وزيارة حانتي البولكِ الأشهر في سانتا تِرِسا خفيةً برفقة بعض أبناء بلده. كان شريف هونتفيل قد اختفى وكلّ التقارير المتوفّرة كانت تقول إنّه كان في سانتا تِرِسا في المرّة الأخيرة التي شُوهِدَ فيها. كان قائد الشرطة يُريد أن يعرف ما إذا كان في سانتا تِرِسا في مهمّةٍ رسمية أم كان سائحاً. طبعاً كان سائحاً، قال القنصل. إذن، ماذا أستطيع أن أعرف؟، قال بِدرو نِغْرِتِ، فهنا يمرّ آلاف السيّاح يومياً. فكّر القنصل لحظة وانتهى بأن أعطى قائد الشرطةِ الحقَّ. من الأفضل ألا نُحرّكَ الخراء، فكّر. بل وأكثر من ذلك، كنوع من التميز من قبل العِمدة، سمح له أن يُراجِع هو أو من يعتبره مثالياً لذلك، صور المُقتولين المجهولين في المدينة منذ تشرين الثاني ١٩٩٤ وحتى تاريخه، وما من أحد تمّ التعرّف من قبل روري كامبوثانو، مساعدُ الشريف الذي انتقل بوضوح من هونتفيل، لهذه الغية. ربّما أنّ الشريف قد جُنَّ، قال كورت أ. بانكز وانتحر في الصحراء. أو أنّه يعيشُ الآن مع مُتخنِّث في فلوريدا، قال هِندرسون، الموظّف الآخر في القنصلية.

نظر إليهما كونان ميتشل بتجهّم وقال لهم إنّه ليس من اللائق أن يتكلّما بهذا الشكل عن شريف من الولايات المتحدة. بالمقابل لم تُقتل في أيّار أيُّ امرأة في سانتا تِرِسا. وتكرّر الشيء ذاته في شهر حزيران. لكن في تموز ظهرت مقتولتان، والاحتجاجات الأولى لجمعية أنصار المرأة في سونورا من أجل الديمقراطية والسلام، التي كان مركزها في هِرموسيّو، ولم يكن عندها في سانتا تِرِسا غير ثلاثة أعضاء. ظهرت المقتولة الأولى في فناء ورشة لتصليح السيارات في شارع رِفوخيو، في نهايته تقريباً، قريباً جدّاً من الطريق إلى نوغالِسْ. كانت المرأة في التاسعة عشرة من عمرها وقد اغتُصِبَت وخُنقت. وُجِدت جثّتها داخلَ سيّارة جاهزة للتفكيك. كانت ترتدي بنطلوناً قطنياً وبلوزة بيضاء مفتوحة الصدر قليلاً، وتنتعل حذاء مزرعة. بعد ثلاثة أيّام عُرف أنّ الأمر يتعلّق بِباولا غارثيّا ثاباتِرو، من سكان ضاحية لوماس دِل تورو، عاملة في معمل تِكنوسا، موالد ولاية كِرِتارو. كانت تعيش مع ثلاث نساء من كِرِتارو، ولم يُعرف لها خطيب، وإن كانت قد أقامت علاقة عاطفية مع زميلين في المعمل ذاته. عُثِر عليهما وتمّ استجوابهما لثلاثة أيّام، استطاعا أن يُبرهنا على براءتهما وإن انتهى أحدهما إلى المشفى بسبب نوبة عصبيّة وثلاثة أضلاع مكسورة. بينما كان التحقيق ما يزال قائماً في قضيّة باولا غارثيّا ثاباتِرو ظهرت المقتولة الثانية في تموز. عُثِرَ على جثّتها في بعض مستودعات بِمِكس، على الطريق إلى كاساس نِغْراس. كانت في التاسعة عشرة من عمرها، نحيلة، سمراء البشرة وسوداء الشعر الطويل. كانت قد اغتُصِبت مرّات مُتَكرّرة شرجاً وفرجاً، بحسب الطبيب الشرعي، وظهرت على جسدها كدمات عديدة تُبيّن أنّه مورس معها عنف مفرِط. ومع ذلك فقد عُثِرَ على الجثّة بكامل ثيابها، بنطلون قطنيّ، سروال داخليّ أسود، وكولون بنّي فاتح اللون، حمّالة صدر بيضاء، بلوزة بيضاء، ثياب لم يظهر عليها أي تمزيق، وهو ما يُسْتَشَفّ منه أنّ القاتل أو القتلة ألبسوها بعد أن عرّوها ونكّلوا بها وقتلوها، قبل

أن يتركوا جثتها خلف مستودعات بِمِكس. تولّت قضيّةَ باولا غارثيّا ثاباتِرو شرطية تحقيق قضايا الدولة إفرايين بوستِلو، وقضيّة روساورا لوبّث سانتانا وُكِّلَ بها المُحقّق إرنستو أورتيثْ رِبويّدو ودخلت القضيتان على الفور في الزقاق المغلق، إذ لم يكن هناك شهود ولا أي شيء يُساعد الشرطة.

في آب ١٩٩٥ عثر على جثث ستّ نساء وظهرت فلوريتا ألمادا للمرّة الثانية في تلفزيون سونورا وحضر شرطيان من توكسون إلى سانتا تِرِسا يطرحان أسئلة. قابل هذان الشرطيان مُستخْدَمَي القنصلية كورت أ. بانز وديك هِندرسون، ذلك لأنّ القنصل كان يقضي بعضَ الوقت في مزرعته في ساج، كاليفورنيا، في الحقيقة هي كوخ خشبي متعفّن، على الجانب الآخر من محميّة رامونا إنديان، بينما كانت زوجته تنتجع في بيت أختها في إسكونديدو بالقرب من سان دييغو. كان للكوخ سابقاً أراض، لكنَّ الأراضي باعها والد كونان ميتشل والآن لم يبقَ له غير ألف متر مربّع كحديقة برّية، حيث يتفرّغ لقتل الفئران البرّية مسلحاً ببندقية ريمينغتون ٨٧٠ وينغماستر وقراءة روايات رعاة البقر ومشاهدة الأفلام الخلاعية. حين كان يتعب كان يركب سيارته وينزل إلى ساج، إلى البار، حيث يعرفه بعضُ الشيوخ منذ كان طفلاً. كان كونان ميتشل يبقى متأمّلاً الشيوخ ويُفكّر أنّ من المستحيل أن يكون عندهم مثل تلك الذكريات عن طفولته، فبعضهم لم يكن يبدو أكبر منه سنّاً بكثير. لكنّ الشيوخ كانوا يُرَقِّصون أسنانَهم الاصطناعية ويتذكّرون شقاوات الطفل آبِ ميتشل كما لو أنّهم يرونه في تلك اللحظة ذاتها فلا يبقى أمام كونان غير أن يتظاهر بأنّه هو أيضاً يضحك. الحقيقة أنّه لم يكن عنده ذكريات دقيقة عن طفولته. كان يتذكّر والده وأخته الكبرى ويتذكّر أحياناً عواصف مطرية، لكنّ المطر لم يكن مطرَ ساج، بل مطرَ منطقةٍ أخرى كان قد عاش فيها. كان التطيّرُ من أن تُفحِّمه صاعقة يُرافقه منذ طفولته

وهذا ما كان يتذكّره فعلاً، بالرغم من أنّه لم يحكِ هذا إلا لزوجته ولناس قليلين. في الحقيقة أنّ كونان ميتشل لم يكن كثير الكلام. هذا هو أحد الأسباب التي كان لأجلها يُحبُّ العيشَ في المكسيك، حيث كان يملك مؤسّستَيّ نقل. المكسيكيّون يُحبّون الكلام، لكنّهم يُفضّلون ألا يفعلوا ذلك مع الشخصيات الرفيعة، خاصّةً إذا كانوا أمريكيين شماليين. هذه الفكرة، التي كانت فكرته ولا يعلم إلا الله كيف تشكّلت في رأسه، كانت تُحدث عنده طمأنينة حين يكون جنوب الحدود. ومع ذلك كان عليه، بفرضٍ من زوجته دائماً، أن يقضي على مضضٍ، من حين لآخرَ، بعضَ الوقتِ في كاليفورنيا أو أريزونا. في الأيّام الأولى كان يبدو أنّ التغيير لا تؤثّر عليه. بعد أسبوعين حين لا يعود قادراً على تحمل الضجيج (الضجيج الذي كان يَتَوَجّه إليه ويطالبه بأجوبة) كان يُغادر إلى ساج، ليغلق على نفسه الكوخ القديم. حين وصل رجلا شرطة توكسون إلى سانتا تِرِسا كان قد مضى على غيابه عنها عشرون يوماً، وهذا شيء كان الشرطيان في أعماقهما ممتنّين له، فقد كانا على علمٍ بعدم كفاءته. لعب هِندرسون وديكنز دورَ الدليل السياحي. طاف الشرطيان على البارات والمراقص، وقُدِّما لِبدرو نِغْرِتِ، الذي أجريا معه حديثاً طويلاً حول تجارة المُخدِّرات، وقابلا المُحَقِّقَيْن أورتيثْ رِبويّدو وخوان دِ ديوس مارتينِثْ، وتحدّثا مع طبيبين شرعيَّين من مستودع الجثث في المدينة، فحصا بعض ملفات مقتولين لا أسماء لهم عُثر عليهم في الصحراء، وزارا ماخور مسائل داخلية، حيث ناما مع عاهرتين حقيقيّتَين. بعدها غادرا كما جاءا.

بالنسبة إلى فلوريتا ألمادا، جاء ظهورها التلفزيوني الثاني أقلَّ إثارة من الأوّل. تكلّمت، نزولاً عند رغبة رِينالدو الصريحة، عن الكتب الثلاثة التي كتبتها ونشرتها. لم تكن كتباً جيّدة، قالت، لكنّها بالنسبة إلى امرأة كانت أمّيّةً إلى ما بعد العشرين من عمرها لا تخلو من قيمة.

كلّ أشياء هذا العالم، قالت، بما فيها أعظمها، مقارنة مع الكون هي في الحقيقة صغيرة جدّاً. ماذا كانت تريد أن تقول بهذا؟ إنّ الكائن البشريّ، إذا أراد يستطيع أن يتخطّى ذاته. لم تكن تريد أن تقول إنّ فلاحاً، كي تعطي مثلاً، قادرٌ بين ليلة وضحاها أن يُديرَ وكالة ناسا، لكن من يستطيع أن يؤكّد أنّ ابن هذا الفلاح، مهتدياً بمثال وحنان أبيه، لن يصل ذات يوم إلى أن يعمل هناك؟ هي، كي تُعطي مثلاً، كان بودّها أن تدرس وتصبح معلّمة مدرسة، فربّما كان هذا، بحسب فهمها المتواضع، أفضل عمل في العالم، أن تُعَلِّم الأطفال، أن تفتح عيونهم بكلّ رقّة كي يتأملوا، حتى ولو كانت فقط نقطة صغيرة، كنوزَ الواقع والثقافة، التي كانت في النهاية الشيءَ ذاته. لكنّها لم تسطع وهي كانت في سلام مع العالم. كانت تحلم أحياناً أنّها معلّمة في مدرسة وتعيش في الريف. كانت مدرستها في أعلى تلّ من حيث ترى القرية، البيوت البنّية، وبعضها أبيض، الأسطحَ الصفراء الداكنة حيث كان يرتاح أحياناً الشيوخ وينظرون إلى الطرقات الترابية. كان باستطاعتها أن ترى من فناء المدرسة الطفلات يصعدن إلى صفوفهنّ. ترى شَعراً أسود جُمعَ على شكل ذيل فرس أو جدائل أو ثُبتَ بشرائط. ترى وجوهاً سمراء وابتسامات بيضاء. في البعيد كان الفلاحون يشتغلون الأرض، يستخرجون ثماراً من الصحراء، يرعون قطعان ماعز. هي تستطيع أن تفهم كلماتهم، طرقهم في قول صباحِ الخير أو ليلة سعيدة، بكم من الوضوح كانت تستطيع أن تفهمهم. كلّ كلماتهم، تلك التي لا تتغيّر وتلك التي تتغيّر كلَّ يوم، كلَّ ساعة، كلَّ دقيقة، كانت تفهمها دون أدنى مشكلة. حسن، هكذا كانت الأحلام. كان هناك أحلام كل شيء فيها منسجم وكان هناك أحلام لا شيء فيها منسجم، والعالم فيها تابوت مليء بالصرير. وبالرغم من كلّ شيء كانت في سلام مع العالم، إذا كان صحيحاً أنّها لم تدرس كي تكون معلّمة مدرسة، كما كانت تحلم، إلا أنّها الآن خبيرة أعشاب وكان بعض العرّافين وكثير جدّاً من الناس

ممتنّين لها على أشياء صغيرة قامت بها لأجلهم، لا شيء مهم، نصائح، إرشادات صغيرة، كأن تنصحهم أن يضيفوا إلى حميتهم الألياف النباتية، التي ليست مأكولاً للكائنات البشرية، أي أنّ جهازنا الهضميّ لا يستطيع أن يهضمَها ويمتصَّها، لكنّها جيّدة من أجل الذهاب إلى الحمّام أو من أجل التغوّط، مع الاعتذار من رِيْنالدو والجمهور الكريم، التبرّز. وحده الجهاز الهضميّ للحيوانات العشبية، كانت فلوريتا تقول، مزوّدٌ بمواد قادرة على هضم السلولوز وبالتالي على امتصاص مكوّناته، جزيئات الغلوكوز. السلولوز والمواد الأخرى الشبيهة هي ما نسميها بالألياف النباتية، استهلاكها، بالرغم من أنّها لا تمدّنا بعناصر طاقة نافعة، مفيدٌ. إلاّ أنّها تجعل عجينة الطعام تحافظُ على حجمها في مسيرتها عبر الأنبوب الهضمي، لأنّه لم يُمتَص. وهذا ما يُحدثُ ضغطاً داخل المعي، وهو ما يحفز نشاطَهُ، جاعلاً بقايا الهضم تتقدّم بسهولة على امتداد الأنبوب الهضمي. الإسهال ليس جيّداً، باستثناء حالات معدودة، لكنّ الذهاب إلى الحمّام مرّة أو مرّتين في اليوم يمنح الراحةَ والاعتدال، نوعاً من السلام الداخلي. ليس سلاماً داخلياً عظيماً، كيلا نبالغ، لكنّه سلامٌ داخليّ صغير ومشرق. كم الفارق كبيراً بين ما تمثّله الألياف النباتية وما يُمثّله الحديد! الألياف النباتية هي طعام العشبيات، وهي صغيرة ولا تغذينا، بل تمنحنا سلاماً بحجم حبّة فاصوليا نطّاطة. الحديد، على العكس، يمثّل القسوة مع الآخرين ومع الذات في أقصى معانيها. عن أيِّ حديدٍ أتكلّم؟ طبعاً عن الحديد الذي تُصنع منه السيوف ويُمثّل أيضاً عدم المرونة. على كلّ الأحوال، بالحديد كانوا يقتلون. الملك سليمان، هذا الملك الذكيّ جدّاً، ربّما أذكى من وُجد في التاريخ، والذي كان بدوره ابن ملك الصباحات وحامي الطفولة، بالرغم من أنّه قيل ذات مرّة إنّه أراد أن يقسم طفلاً قسمين، حين أمر ببناء معبد سُليمان، منع منعاً باتّاً استخدام الحديد فيه كوسيلة دعم في البناء، ولا حتى في أدنى التفاصيل، كما

منع استخدام الحديد في الختان، هذه الممارسة، لنقل هذا عبوراً ودون أن نقصد الإهانة، يمكن أنّها كانت لها أسبابها في ذلك العصر وتلك الصحارى، لكن الآن ومع الإجراءات الصحية الحديثة تبدو لي مُبالغة. أنا أعتقد أنّه يجب ختان الرجال في العشرين من عمرهم، إذا أرادوا وإذا لم يريدوا، ليس هناك مشكلة. بالعودة إلى الحديد، كانت تقول فلوريتا ألمادا، لا الإغريق ولا السلتيون استخدموه حين كان يتعلّق الأمر بجمع الأعشاب الطبية أو السحرّية. فالحديد يعني الموت، عدم المرونة، القوّة. وهذا مذموم في العمليات العلاجية. بالرغم من أنّ الرومان رأوا لاحقاً في الحديد سلسلةً من الفضائل العلاجية لتسكين أو إشفاء العديد من الأمراض، مثل عضّات الكلاب الكلِبَة، النزيف، الزحار والبواسير. انتقلت هذه الفكرةُ إلى العصر الوسيط، حيث اعتقدوا بالإضافة إلى ذلك أنّ الشياطين والساحرات والسحرة يهربون من الحديد. وكيف لن يهربوا إذا كانوا بالحديد يقتلونهم! أغبياء جدّاً لو أنّهم لم يكونوا يخرجون مولّين الأدبار!، في تلك السنوات المظلمة كانوا يمارسون العرافة بما يُسمى عرافة الحديد الحامي، والتي تقوم على تحمية قطعة من الحديد في الكورِ حتى تحمرّ ويرمى فوقها نثرات تبن حين تشتعل تُصدر انعكاسات لامعة تُعمي، شبيهة بالنجوم. إذا لمع جيداً أحدث بريقاً يعمي ويفيد في حماية العينين من نظرة الساحرات المؤذية. هذا الحديد الحامي جيّداً يجعلني أفكّر، اعذروني على الخروج عن الموضوع، كانت تقول فلوريتا ألمادا، بالنظارات السوداء لبعض القادة السياسيين، أو بعض الزعماء النقابيين أو بعض رجال الشرطة. لماذا يُغَطّون عيونهم، أسأل نفسي؟ تراهم قضوا ليلة سيّئة وهم يدرسون طرقاً كي يتقدّم البلد، كي يُحقّقوا للعمّال أماناً أكثر في العمل أو زيادة في الراتب، كي تنهزم الجريمة؟ ربّما. أنا لا أقول لا. ربّما هذا هو سبب الازرقاق حول العينين. لكن ماذا سيحدث لو أنّني اقتربتُ من أحدهم ونزعت النظارة عن عينيه ورأيتُ أنه لا يوجد

ازرقاق. أخاف أن أتصور ذلك. أخاف. أخاف كثيراً، صديقاتي وأصدقائي الأعزّاء. لكنّها كانت تخاف وترتعد أكثر، وهذا ما كان عليها أن تقوله هناك، أمام الكاميرات، في برنامج رِيْنالدو الجميل، البرنامج المبهج والسليم حيث كان باستطاعة الكثيرين أن يضحكوا ويقضوا وقتاً طيّباً، ويتعلموا بالمناسبة شيئاً جديداً. فَرِيْنالدو كان شخصاً مثقّفاً ويحرص دائماً على أن يستضيف ناساً مهمين، مغنّيةً، رسّاماً، بالعَ نار، متقاعداً من العاصمة الفيدرالية، مصمِّمَ ديكورات داخليّة، مُقامِقاً ودميته، أمَّ خمسة عشر طفلاً، مؤلّفَ أشعار رومانسية، هي هناك، كانت تقول، تستغلُّ الفرصةَ التي يمنحونها لها، وعليها واجب أن تتكلّم عن أشياء أخرى، بمعنى أنّه لم يكن باستطاعتها أن تتكلّم عن نفسها، لا تستطيع أن تقع في إغواء الأنا هذا. في هذا الطيش، الذي ربّما لم يكن طيشاً ولا خطيئة ولا شيئاً إذا ما كان الأمر يتعلّق بصبية في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمرها، لكن بالنسبة إلى امرأة في السبعين من عمرها هو بالنتيجة شيء لا يُغتفر، بالرغم من أنّ حياتي تكفي لعدّة روايات وعلى الأقل لُمسلسلٍ تلفزيوني، لكن وقاها الله ووقتها على وجه الخصوص العذراءُ، قديسةُ القديسات من أن تبدأ بالكلام عن نفسها. سيعذرني رِيْنالدو، هو يريدني أن أتكلّم عن نفسي، فهناك شيء أهمّ من شخصي ومما يُسمى معجزاتي، التي ليست مُعجزات، لن أَكُلَّ من ترديد ذلك، بل ثمرة سنوات كثيرة من القراءة ومن معايشة النباتات، أي أنّ معجزاتي هي نتاج العمل والمراقبة، يمكنُ، أقول يمكنُ، أن تكون ثمرة موهبة طبيعية أيضاً، قالت فلوريتا. ثمّ قالت: يخيفني كثيراً، يرعبني كثيراً ما يحدث في ولاية سونورا، التي هي ولاية مسقط رأسي، الأرض التي وُلِدتُ فيها وربّما سأموت فيها. ثمَّ قالت: أنا أتكلّم عن رؤى تقطع أنفاس أفحل الفحول. أرى في أحلامي الجرائم، كما لو أنّ جهازاً تلفزيونياً ينفجر وأبقى أرى على قطع الشاشة المتناثرة في غرفتي، مشاهِدَ مرعبة، انتحابات لا تنتهي

أبداً. وقالت: بعد هذه الرؤى لا أستطيع أن أنام. أستطيع أن أتناول أيَّ شيء لتهدئة الأعصاب، لكن دون نتيجة. السكين في بيت الحدّاد من خشب[1]. وهكذا أبقى مستيقظة حتى الفجر وأُحاوِلُ أن أقرأ وأفعلَ شيئاً مُفيداً وعمليّاً، لكنّني أجلس في النهاية إلى طاولة المطبخ وأبدأ أُقلّبُ بهذه المشكلة. وقالت أخيراً: أنا أتحدّث عن النساء المقتولات بوحشيّة في سانتا تِرِسا، أنا أتكلّم عن الطفلاتِ وعن أمّهاتِ الأسرِ وعن العاملاتِ من كلّ الظروف والأوضاع القانونية اللواتي يَظْهَرْنَ مقتولات في أحياء ومحيط هذه المدينة الصناعيّة. أنا أتكلّمُ عن سانتا تِرِسا. أتكلّم عن سانتا تِرِسا.

بالنسبة إلى النساء المقتولات في آب ١٩٩٥، كانت الأولى تُدعى أَورورا مونيوثْ ألبارِثْ، وعُثِرَ على جثّتها على حافّة طريق سانتا تِرِسا- كانانيا. قُتلت خنقاً. كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، ترتدي سروالاً مُكَسّماً أخضرَ وقميصَاً أبيضَ بلا أزرار وتنتعلُ حذاء تنس وردياً. كانت، بحسب الطبيب الشرعي، قد ضُرِبت وجُلِدت: وما تزال تُقدّر علامات زنارٍ عريض على ظهرها. كانت تعمل نادلة في مقهى في مركز المدينة. أوّل من وقع كان خطيبُها، الذي لم تكن، بحسب بعض الشهود، على ما يرام معه. كان هذا الشخص يُدعى روخِليو رِيْنوسا ويعمل في معمل ريم أند كو ولم يكن عنده ما يدلّ على براءته في المساء الذي اختطفوا فيه أَوْرورا مونيوثْ. قضى أسبوعاً متنقّلاً من استجوابٍ إلى استجواب. بعد شهر، حين استقرّ به المقامُ في سجن سانتا تِرِسا، أطلقوا سراحه لعدم كفاية الأدلة. لم يحدث أيّ توقيف آخر. بحسب الشهود الحضور، الذين لم يُفكّروا في لحظة من اللحظات بأنّ الأمر يتعلّق بعملية اختطاف، صعدت أَوْرورا مونيوثْ إلى

[1] عندنا يقولون الإسكافي حافٍ، وبيت النجار بلا باب دار.

سيارة بِرغرينو سوداء اللون برفقة شخصين بدا أنّها كانت تعرفهما. بعد يومين من ظهور جثّة أوّل ضحية في آب عُثِرَ على جثّة إميليا إسكالانتِ سانخوان، ابنة الثلاثين عاماً، وكدمات كثيرة على قفصها الصدري ورقبتها. عُثِرَ على الجثّة في التقاطع بين ميتشواكان والجنرال سابِدرا، في ضاحية العمال. يرى تقرير الطبيب الشرعي أنّ سبب الوفاة هو الخنق، بعد أن اغتُصِبت مرات لا تُحصى. بعكس تقرير الشرطيّ المُحقق الذي كلّف بالقضية، أنخِل فِرنانديث الذي يُشير إلى أنّ الوفاة ناتجة عن التسمّم. كانت إميليا إسكالانتِ سانخوان تعيش في ضاحية مورِلوس، إلى الغرب من المدينة، وتعمل في معمل نيو-ماركِتس. كان عندها ولدان وتعيش مع أمّها، التي طلبت أن يأتوا بها من أواكساكا، من حيث هي. لم يكن لها زوج، بالرغم من أنّها كانت تخرج مرّةً واحدة كلّ شهرين إلى مراقص مركز المدينة برفقة صديقات عملٍ، حيث اعتادت أن تشرب وتذهب مع رجلٍ ما. نصف عاهرة قالت الشرطة. بعد أسبوع ظهرت جثّة إسترِيّا رويثْ ساندوبال، ابنة السابعة عشرة على الطريق إلى نوغالِسْ. اغتُصِبت وخُنِقَت. كانت ترتدي بنطلون جينز وبلوزة زرقاء داكنة وقد ربطوا يديها إلى ظهرها. لم تظهر على جسدها علامات تعذيب ولا ضرب. اختفت من بيتها، حيث كانت تعيش مع والديها وأخوتها قبل ثلاثة أيّام. تولّى القضيّة إبيفانيو غاليندو ونوِ بِلاسكو، من شرطة سانتا تِرِسا، كي يُخفّفوا عن المُحقّقين الذين كانوا يشكون من فرط العمل. بعد يوم واحدٍ من العثور على جثّة إسترِيّا رويثْ ساندوبال عُثِر على جثّة مونيكا بوساداس، ابنة العشرين عاماً في عقار مهجور قريب من شارع أميستاد، في ضاحية لا برِثيادا. كانت مونيكا، بحسب تقرير الطبيب الشرعيّ، قد اغتُصِبت شرجاً وفرجاً، كما عثروا على بقايا منيٍ في حنجرتها، وهو ما ساهم في أن يتكلّموا في دوائر الشرطة عن اغتصاب في «الفتحات الثلاث». ومع ذلك هناك شرطيّ قال إنّ الاغتصاب التام يتمّ عبر الفتحات الخمس. وحين سئل

ما هما الفتحتان الأخريان، أجاب الأذنان. وقال شرطيّ آخر إنّه سمعهم يتكلّمون عن شخص من سينالوَا كان يغتصب عبر الفتحات السبع، أي الخمس المعروفة إضافة إلى العينين. وقال شرطيّ آخر إنّه سمعهم يتحدّثون عن شخص من العاصمة الفيدرالية كان يغتصب عبر الفتحات الثمانية، والتي هي السبع المذكورة، لنَقُلْ السبع الكلاسيكية إضافة إلى السرّة، التي كان شخص العاصمة الفيدرالية يفتح شقّاً ليس كبيراً جدّاً بسكين يُدخِل بعدها قضيبه فيه، وإن كان يجب أن يكون مريعاً كي يستطيع أن يفعل ذلك. الصحيح هو أنّ الاغتصاب «عبر الفتحات الثلاث» انتشر وصار شعبياً بين شرطة سانتا تِرِسا، وأدرك مكانة شبه رسمية، انعكست أحياناً في التقارير التي يُحرّرها رجالُ الشرطة، وفي الاستجوابات وفي الدردشات غير الرسمية مع الصحافة.
بالنسبة لحالة مونيك بوساداس لم تُغتَصَب فقط «عبر الفتحات الثلاث» وحسب بل وخنقت أيضاً. الجثّة التي عثروا عليها شبه مخفيّة خلف بعض صناديق الكرتون كانت عارية في نصفها السفلي وساقاها ملطختين بالدم؛ ملطّختين بالدم إلى حدّ أنه لو رآها مجهولٌ (أو ملاك، ذلك أنّه لا يوجد هناك بناء يمكن أن تُرى منه) من ارتفاع معيَّن لقال إنّها كانت ترتدي جورباً أحمر. كان فرجها ممزّقاً، وتظهر على الشفرين والفخذين علامات عضات وتمزّقات واضحة، كما لو أنّ كلباً شارداً حاول أن يأكلها. ركّز المحقّقان تحقيقاتهما على الدائرة العائلية وبين معارف مونيكا بوساداس، التي كانت تعيش مع أسرتها في شارع هيبّوليتو، على بعد ستّة شوارع فرعية عن العقار المهجور الذي عُثِر فيه على الجثّة. كانت أمّها وزوجُ أمّها، وكذلك أخوها الأكبر يعملون في معمل أوفِروورلد، حيث سبق وعملت مونيكا خلال ثلاث سنوات، قرّرت في نهايتها أن تُغادر وتُجرّب حظّها في معمل كونتري أند سي تيك. كانت عائلة مونيكا من قرية صغيرة في ميتشواكان، من حيث قدمت لتستقرّ في سانتا تِرِسا قبل عشر سنوات. بدت الحياة في البداية أنها تسوء بدل أن

تتحسّن فقرّر الأب أن يعبر الحدود. لم يُعرف بعدها عنه شيء إطلاقاً، واعتبروه بعد زمن ميتاً. عندها تعرّفت أمّها على رجل نشيطٍ ومسؤول انتهت بالزواج منه. أنجبت من هذا الزواج الثاني ثلاثة أبناء، واحد منهم كان يعمل في معمل أحذية صغير والاثنان الآخران كان يذهبان إلى المدرسة. حين استُجْوِب زوجُ الأمّ لم يتأخّر في الوقوع في تناقضات وانتهى بالاعتراف بمسؤوليته عن الجريمة. بحسب اعترافاته كان يُحب مونيكا بالسرّ منذ أن كانت هذه في الخامسة عشرة من عمرها. صارت حياته منذ ذلك الوقت جحيماً، قال للمحقِّقين خوان دِ ديوس مارتينِثْ وإرنِستو أورتيثْ رِبويّدو وإفرايين بوستِلو، لكنّه دائماً كبح نفسه وبقي يحترمها، من ناحية لأنّها ابنة زوجته، ومن أخرى لأنّ أمّها هي أمّ أولاده أيضاً. كانت روايته عن يوم الجريمة مشوّشة ومليئة بالفجوات والنسيان. قال في تصريحه الأوّل إنّه فعل ذلك فجراً. في التصريح الثاني قال إنّ الفجر كان قد طلع وكان وحده مع مونيكا في البيت. فكلاهما كانت نوبته مسائية في ذلك الأسبوع. خبّأ الجثّة في خزانة. في خزانتي، قال للمحقِّقين، خزانة لم يكن أحد يلمسها لأنّها كانت خزانتي وكنتُ أفرض احترامَ أشيائي. ليلاً وبينما الأسرة نائمة، لفّ الجثّة في بطانيّة وتركها في أقرب عقار مهجور. حين سئل عن العضّات التي كانت تُغطّي ساقَي مونيكا وعن الدم الذي كان يُغطّي رجليها، لم يعرف بماذا يجيب. قال إنّه خنقها ولا يتذكّر غير ذلك.

بعد يومين من اكتشاف جثّة مونيكا في العقار المهجور في شارع أميستاد، عُثِر على مقتولة أخرى على طريق سانتا تِرِسا-كابوركا. يجب أن تكون المرأة، بحسب الطبيب الشرعي، ما بين الثامنة عشرة والاثنتين والعشرين من عمرها، وإن كان من الممكن أن تكون أيضاً بين السابعة عشرة والثالثة والعشرين. سبب الوفاة فعلاً كان واضحاً. وفاة بطلقٍ من سلاح ناريّ. على بعد خمسة وعشرين متراً اكتشفوا هيكلاً عظمياً لامرأة أخرى شبه مقبورة منقلبةً على وجهها، كانت

تحتفظ بسترة مكسيكية زرقاء وحذاء جلديّ بنصف كعب ونوعية جيدّة. كانت حالة الجثّة تجعل من المستحيل تحديد سبب الوفاة. بعد أسبوع حين أشرف آب على نهايته، عُثِرَ على طريق سانتا تِرِسا-كانانيا على جثّة جاكلين ريّوس، ابنة الخامسة والعشرين، المستخدمة في حانوت عطور في ضاحية مادِرو. كانت ترتدي بنطلون رعاة بقر وبلوزة رمادية لؤلئية، وثياباً داخلية سوداء وتنتعل حذاء تنس أبيض. ماتت بطلقات نارية في صدرها وبطنها. كانت تشارك صديقة لها بيتاً في شارع بلغاريا في ضاحية مادِرو وكلاهما كانت تحلم بأن تذهب لتعيش في كاليفورنيا. وُجدَ في الغرفة التي كانت تتقاسمها مع صديقتها قصاصات لممثلات وممثلين من هوليوود وصور من مختلف أصقاع العالم. كنّا في البداية نُريدُ أن نذهب لنعيش في كاليفورنيا، نجد عملاً محتشماً وحسنَ الأجر، وما إن نستقرّ حتى نزور العالم في إجازاتنا، قالت صديقتها. كلاهما كانت تدرس اللغة الإنكليزية في معهد خاصّ في ضاحية مادِرو. بقيت القضية دون توضيح.

هؤلاء المُحقّقون العاهرون دائماً يتركون القضايا دون توضيح، قال إبيفانيو لِلالو كورا. راح بعدها يبحث بين أوراقه حتى عثر على دفتر. ماذا تعتقد هذا؟، سأله. دفتر عناوين، قال لالو كورا. لا، قال إبيفانيو، هذه قضية لم توضّح. حدثت قبل أن تأتي أنتَ إلى سانتا تِرِسا. لا أتذكّر العام. قبل أن يأتي بك دونْ بِدرو بقليل، هذا فعلاً أتذكّره، لكنّني لا أتذكّر العام بدقّة. ربّما كان عام ١٩٩٣. أنتَ، في أيّ عامٍ وصلت؟ في العام ١٩٩٣، قال لالو كورا. آه، صحيح؟ نعم صحيحٌ، قال لالو كورا. حسن، حدث هذا قبل أشهر من وصولك، قال إبيفانيو. في ذلك التاريخ قتلوا صحفيّة مُذيعة. كان اسمها إيزابيل أورّيا. قتلوها درزاً بالرصاص. لم يَعرف أحد قط من القاتل. بحثوا عنه لكنّهم لم يعثروا عليه. طبعاً لم يخطر لأحدٍ أن ينظر في مُفكّرة

إيزابيل أورّيا. فكّر الحمقى أنّها محاولة سرقة فاشلة. تحدّثوا عن شخص من أمريكا الوسطى. عن شيطانٍ بائس قانط كان بحاجة للمال كي يعبر المحدود، عن مقيم غير شرعي، هل تفهمني؟ عن شخص غير شرعيّ حتى في المكسيك، وهذا يعني كثيراً، لأنّنا جميعاً هنا غير شرعيين ولا أحد يهمّه أن يكون هناك شخص أكثر أو أقلّ، غير شرعيّ. كنتُ بين الذين فتّشوا بيتها لنرى ما إذا كنّا نعثر على دليل ما، بالطبع لم نعثر على شيء. كانت مُفكّرة إيزابيل أورّيا في محفظتها. أتذكّر أنّني جلستُ على كرسيّ وإلى جانبي كأس تِكيلا، تكيلا إيزابيل أورّيا، وأنّني رحتُ ألقي على المفكّرة نظرة. سألني مُحقّق من أين جئتُ بالتِكيلا. لكن لا أحد سألني من أين جئت بالمفكّرة، ولا ما إذا كان فيها شيء مهمّ. أنا قرأتها، بعض الأسماء لم تكن غريبة عنّي، تركتُ بعدها المفكّرة بين الأدلّة. قمتُ بعد شهرٍ بجولة على أرشيف المخفر، وكانت المفكّرة هناك بجانب بعض أشياء المذيعة، الأخرى. وضعتها في جيب سترتي وأخذتها، هكذا استطعتُ أن أدرسها بهدوء أكبر. وجدتُ هواتف ثلاثة تجّار مُخدِّرات. واحد منهم بِدرو رِنخيفو. كذلك وجدت أرقام هواتف بعض المُحَقّقين. واحد قائد كبير في هِرموسيّو. ماذا كانت تفعل تلك الهواتفُ في مفكّرة مذيعة بسيطة؟ تراها أجرت معهم مُقابلات، هل حملتهم إلى الإذاعة. هل كانت صديقة لهم؟ وإذا لم تكن صديقة، فمن أعطاها هذه الأرقام. لغز. كان باستطاعتي أن أفعل شيئاً. أن أهتفَ إلى بعضهم وأطلب منه مالاً. لكنّ المال لم يكن يهمّني. وهكذا احتفظتُ بالمفكّرة اللعينة ولم أفعل شيئاً.

في الأيام الأولى من أيلول ظهر جثّة مجهولة، عُرِفَت فيما بعد بأنّها ماريا هِرنانذِتْ سيلبا، ابنة سبعة عشر عاماً، اختفت في بدايات تموز، حين كانت في طريقها إلى مدرسة باسكونثِلوس التحضيرية، في ضاحية رِفورما. بحسب تقرير الطبيب الشرعي كانت قد اغتُصِبت

وخُنقت، كان أحد ثدييها مستأصلاً كلّياً والآخر تنقصه الحلمة، اجتزّت عضّاً. عُثرَ على الجثّة في مدخل مكبّ نفايات سرّي اسمه إل تشيلي. المكالمة التي استنفرت الشرطة قامت بها امرأة كانت قد اقتربت من المِكب لترمي برّاداً عند الظهيرة الساعة التي لا يوجد فيها متسكعون في المكبّ، فقط بعض الأطفال العرضيين والكلاب. كانت ماريا هِرنانديثْ سيلبا مرميّة بين كيسين بلاستيكيين كبيرين رماديين مليئين ببقايا ألياف صناعية. كانت ترتدي الثياب ذاتها التي ارتدتها حين اختفت: بنطلوناً قطنياً، بلوزة صفراء وتنتعل حذاء تنس. أصدر عمدةُ سانتا تِرسا قراراً بإغلاق المِكب، وإن غيّرَ لاحقاً قرارَ الإغلاق (أعلمه سكرتيره عن الاستحالة القانونية بكلّ المعايير لإغلاقِ شيءٍ لم يُفتتح قط) بقرار تخريب ونقل وتدمير ذلك المكان الموبوء حيث تخترق كلّ القوانين البلدية. أبقي على مراقبة الشرطة لحدود مكبّ إل التشيلي أسبوعاً وقامت ثلاث شاحنات تساعدها شاحنتان قلاّبتان تعود ملكيتهما للبلدية خلال ثلاثة أيّام بنقل النفايات إلى مكبّ ضاحية كينو، لكن سرعان ما همدوا أمام حجم العمل الهائل وندرة الهمّة للقيام بذلك.

في تلك الأيام كانت قد تعزّزت مكانةُ سِرخيو غونثالِث، صحفيّ العاصمة الفيدرالية في قسم الثقافة في صحيفته وصار راتبه أعلى وبذلك صار باستطاعته أن يعطي زوجته السابقة النفقة الشهرية ويبقى معه ما يكفي من المال كي يعيش دون ضائقات، بل وصار عنده عشيقة، صحفية في قسم السياسة الدوليّة، والتي صار ينام معها من حين لآخر، ولم يكن يستطيع أن يتناقش معها، فقد كانا مختلفي الطبيعة تماماً. لم ينسَ -وإن كان هو نفسه يستغرب عناد هذه الذكرى- الأيّام التي قضاها في سانتا تِرسا ولا حالات قتل النساء ولا قاتلَ ذلك القسّ، المسمى بالتائب الذي اختفى كما ظهر بغموض. كان يُفكّر ويقول لنفسه: أن تكون صحفيّاً ثقافياً في المكسيك مساوٍ، أحياناً، لأن تكون صحفيّاً في

القضايا البوليسية. وأن تكون صحفياً في أخبار العنف والكوارث. مساوٍ للعمل في القسم الثقافي، وإن كان جميع الصحفيين الثقافيين لوطيين بالنسبة إلى الصحفيّين في القضايا البوليسية (صحفيون «الوطثقافيون» كانوا يسمونهم)، وبالنسبة إلى الصحفيين الثقافيين جميع صحفيي أخبار العنف والجريمة كانوا محضَ خاسرين. كانوا يذهبون في بعض الليالي، بعد انتهاء العمل، ليتناولوا بعض الكؤوس مع بعض صحفيي قسم القضايا البوليسية الشيوخ، الذي كان، من ناحية أخرى، يضمّ أعلى نسبة شيوخ في الصحيفة، يليه وإن كان من بعيد قسم السياسة الوطنية، ثمّ قسم الرياضة. عامّة ما كان ينتهي بهم المطاف إلى محل عاهرات في ضاحية غِرِّرو، وهو صالون هائل يتصدّره تمثال جصّ لأفروديت بارتفاع أكثر من مترين، ربّما، كان يُفكّرُ، كان محلاً له مجده الإباحيّ في مرحلة تين-تان[1]، ذلك أنّه منذ ذلك الوقت لم يعمل شيئاً آخر غير السقوط، إحدى تلك السقطات المكسيكية التي لا تنتهي، أي سقطة مُطعّمة بين الفينة والأخرى بضحكة مخفوتة، بطلقة مخفوتة، بأنين مخفوت. سقطة مكسيكية؟ في الحقيقة سقطة أمريكية لاتينية. صحفيو القضايا البوليسية يُحبّون أن يشربوا في ذلك المكان، لكن نادراً ما ينامون مع عاهرة، كانوا يتحدثون عن حالات قديمة، يتذكّرون حالات فساد، ابتزازٍ ودم، يُسلمون على رجال الشرطة الذين كانوا أيضاً يظهرون في المحل أو يختلون بهم جانبياً، تبادل معلومات، كانوا يقولون، لكنهم نادراً ما كانوا يذهبون مع عاهرة. كان سِرخيو غونثالِث يُقلّدهم أحياناً، إلى أن استنتج أنّهم إذا كانوا لا ينامون مع أيّ منهنّ فذلك لأنّهم سبق وفعلوا ذلك معهنّ جميعاً، ومنذ سنوات كثيرة، ولأنّهم ليسوا في عمر يسمح لهم بأن يبعزقوا المال هناك. لذلك كفّ

---

(١) الاسم الفنّي للمثل المكسيكي جِرمان خِناروثيبريانو غومِثْ بالدِس كاستيّو. (١٩١٥-١٩٧٣).

عن تقليدهم وبحث عن عاهرة شابّة وحلوة. سأل في إحدى المرّات أحدَ أكبر الصحفيين سنّاً ما رأيه بجرائم قتل النساء التي تُرتكب في الشمال. أجابه الصحفيُّ أنّ تلك المنطقة هي منطقة مخدرات وأنّه من المؤكّد أن لا شيء مما كان يحدث هناك غريبٌ إلى هذا الحدّ أو ذاك عن تجارة المخدرات. بدا له جواباً واضحاً، باستطاعة أيّ شخص أن يُعطيه، وكان بين وقت وآخر يُفكّر فيه، كما لو أنّه بالرغم من وضوح كلمات الصحفيّ أو سذاجتها كان الجواب يدور حول رأسه مرسلاً إليه إشارات. لم يكن عند أصدقائه القليلين الذين كانوا يذهبون ليروه في مكتب تحرير الثقافة، أدنى فكرة عمّا كان يجري في سانتا تِرِسا، لأنّ الأخبار عن جرائم القتل كانت تصل إلى العاصمة الفيدرالية بالتنقيط، وفكّر سِرخيو، أنّه ربّما لم يكن يهمّهم كثيراً ما كان يحدث في ذلك الركن البعيد من البلد. كذلك كان رفاق الصحفيّ، بمن فيهم صحفيو قسم أخبار العنف والجرائم، يُظهرون لامبالاة. وذات ليلة بعد أن مارس الحبّ مع العاهرة وبينما كان يُدخّن مستلقياً على السرير، سألها ما رأيها بهذا الكمّ من عمليات الخطف وهذا الكمّ من جثث النساء التي يُعثر عليها في الصحراء، فقالت له هذه بأنّها لا تكاد تعرف شيئاً عمّا كان يُحدثها به. عندها حكى لها سِرخيو كلّ الذي كان يعرفه عن حالات القتل وحكى لها عن الرحلة التي قام بها إلى سانتا تِرِسا ولماذا قام بها، لأنّه كان بحاجة للمال، لأنّه كان قد طلّق للتو، ثمّ حدّثها عن جرائم القتل التي كان، كصحفيّ، يلمّ بأخبارها وعن البيانات الصحفيّة لجمعية نسائية، كان يتذكّر اختصارها أم إس دي بّي، بالرغم من أنّه نسي ماذا كانت تعني هذه الاختصارات، ترى هل كانت تعني: نساء سونورا الديمقراطيات والشعبيات؟، وبينما كان هو يتكلّم كانت العاهرة تتثاءب، ليس لأنّه لم يكن يهمّها ما كان يقوله، بل لأنّها كانت ناعسةً، إلى حدّ أنّها أثارت غضب سِرخيو، الذي قال لها حانقاً إنّهم يقتلون العاهرات في سانتا تِرِسا، وإنّ عليها أن تُظهر بعض التضامن النقابيّ

على الأقل، وهو ما ردّت عليه العاهرة بأنّ اللواتي كنّ يُقتلن، تماماً كما حكى لها القصّة، كنّ عاملات ولم يكنّ عاهرات. عاملات، عامِلات، قالت. وعندئذٍ اعتذر منها سِرخيو ورأى، كما لو أنّ صاعقة أصابته، جانباً من الوضع لم يكن قد توقّف عنده حتى تلك اللحظة.

كان شهر أيلول ما يزال يُخبّئ مفاجآت أخرى لمواطني سانتا تِرِسا. فبعد ثلاثة أيّام من العثور على جثّة ماريسا هِرنانِدِثْ سيلبا، المبتورة، ظهرت جثّةٌ مجهولة على طريق سانتا تِرِسا-كانانيا. المقتولة يجب أن تكون في حدود الخامسة والعشرين من عمرها، وكان عندها خلع في مفصل الورك الأيمن. ومع ذلك لا أحد انتبه إلى غيابها، وما من أحدٍ حضر، بعد أن ظهرت تفاصيل هذا التشوّه في الصحافة، إلى الشرطة بمعلومات جديدة تفيد في معرفة هويّتها. عُثر على الجثّة مربوطةَ يديها بسير حقيبة يد نسائية. تلقت ضربة على نقرتها جروحاً بمدية في كلا الذراعين. لكن الأهمّ من هذا كلّه هو أنّها تعرّضت مثلها مثل ماريسا هِرنانِدِثْ سيلبا لقطع ثديٍ واقتلاع حلمة الثدي الآخر عضّاً.

في اليوم ذاته الذي عُثِر فيه على مجهولةِ طريق سانتا تِرِسا-كانانيا، عثر مستخدمو البلدية، الذين كانوا يُحاولون أن ينقلوا مكبَّ إل تشيلي، على جثة امرأة في حالة تفسّخ. لم يستطيعوا أن يُحدّدوا سبب الموت. كانت طويلة الشعر. ترتدي بلوزة فاتحة اللون عليها صور داكنة جعل التفسخ معرفة ماهيتها مستحيلة. كانت ترتدي بنطلوناً قطنيّاً ماركة جوكو. لم يتقدّم أحد للشرطة بمعلومات تساهم في معرفة هويتها.

في نهاية أيلول عثروا على جثة طفلة في الثالثة عشرة من عمرها، على الطرف الآخر من تل إستريّا. مثلها مثل ماريسا هِرنانِدِثْ سيلبا ومجهولة طريق سانتا تِرِسا-كانانيا، كان ثديها الأيمن مبتوراً وحلمة

ثديها الأيسر مقتلعة عضّاً. كانت ترتدي بنطلونا قطنيّاً ماركة لي، حسن النوعيّة وبلوزة وصدرية حمراء. كانت نحيلة جدّاً، اغتُصبت مرّات متكرّرة وطُعِنَت وكان سبب الموت كسر في العظم اللامي. لكن أكثر ما أدهش الصحفيين هو أنّه ما من أحدٍ طالب أو تعرّف على الجثّة. كما لو أنّ الطفلة وصلت وحدها إلى سانتا تِرِسا وعاشت هناك بطريقة خفيّة إلى أن وضع القاتلُ أو القتلةُ عيونهم عليها وقتلوها.

بينما كانت الجرائم تتالى كان إيبفانيو يواصل عمله، وحيداً، في التحقيق بموت إسترِيّا رويتْ ساندوبال. تكلّم مع الأبوين والأخوة، الذين كانوا ما يزالون يعيشون في البيت. لم يكونوا يعرفون شيئاً. تكلّم مع أختٍ كبرى كانت متزوّجة وتعيش وقتها في شارع إسبِرانثا، في ضاحية لوماس دِل تورو. رأى صوراً لإسترِيّا. كانت فتاة حلوة، طويلة، لها شعر جميل وتقاسيم وجه لطيفة. قالت له الأختُ من كنَّ صديقاتها في المعمل الذي كانت تعمل فيه. انتظرهنّ عند المخرج. انتبه إلى أنّه الكبير الوحيد الذي ينتظر، كان البقيّة أطفالاً، بل إنّ بعضهم كان يحمل معه كتبه المدرسية. إلى جانب الأطفال كان هناك شخص معه عربة بوظة خضراء وكان للعربة مظلة بيضاء. نادى للأطفال صافراً، كما لو أنّه يريدهم أن يختفوا، واشترى للجميع بوظة بعود باستثناء واحد لم يبلغ بعد الثلاثة أشهر من عمره، والذي كانت أخته، ابنة السبع سنوات تقريباً، تحمله بين ذراعيها. كانت صديقتا إسترِيّا تُدعيان روزا ماركيز وروزا ماريّا مِدينا. سأل عنهما العاملات اللواتي كنّ يخرجن فأشارت واحدة منهنّ إلى روزا ماركيز. قال لها إنّه شرطيّ وطلب منها أن تبحث عن صديقتها الأخرى. بعدها راحوا يسيرون من المنطقة الصناعية. بينما كانتا تتذكّران إستريّا، راحت التي تُدعى روزا ماريّا مِدينا تبكي. كان الثلاث يُحببن السينما وكنّ يذهبن أيّام الآحاد، ليس دائماً، إلى مركز المدينة ويشاهدن عادة برنامج سينما رِكس

المضاعف. وفي مرّات أخرى يتفرغن للنظر إلى المحلات وبخاصّة واجهات ملابس النساء، أو يذهبن إلى مركز تجاري موجود في ضاحية ثِنتِنو. هناك كانت تعزف فُرقٌ موسيقية ولا يتقاضون ثمناً للدخول. سألهما عمّا إذا كان عند إسترِيّا خطط للمستقبل. طبعاً كان عندها خطط، كانت تريد أن تدرس وليس أن تبقى طوال حياتها تعمل في المعمل. وماذا كانت تُريد أن تدرس؟ كانت تريد أن تتعلّم استعمال الحاسوب، قالت روزا ماريّا مِدينا. سألهما إبيفانيو بعد ذلك عمّا إذا كانتا هما أيضاً تُريدان أن تتعلّما مهنة ما، فأجابتاه بلى، وإن لم يكن من السهل فعل ذلك. هل كانت تخرج معكما فقط، أمّ أنّه كان لها صديقة ما أخرى؟ أراد أن يعرف. كنّا أفضل صديقاتها، أجابتاه. ألم يكن عندها خطيب؟ مرّة واحدة. هذا منذ زمن طويل. هما لم تعرفانه. حين سألهما كم كان عمر إسترِيّا حين كان عندها خطيب، فكّرت الفتاتان قليلاً وقالتا على الأقل اثني عشر عاماً. كيف يمكن لأحدٍ ألا يتطلع إلى فتاة بمثل هذا الحلاوة؟، أراد أن يعرف. ضحكت الفتاتان وقالتا كان هناك كثيرون ممن يحبون أن يقيموا علاقة خطبة مع إسترِيّا، لكنّها لم تكن تُريد أن تُضيّع وقتَها. لماذا نريد الرجالَ إذا كنّا نعمل وحدنا ونكسب راتبنا ونحن مستقلات؟، سألته روزا ماركيز. صحيح، قال إبيفانيو، هذا بالضبط ما أفكّر به، وإن كان ليس سيّئاً أن تخرجي وتستمتعي، خاصّة إذا كنتِ شابّة، هي حاجة أحياناً. نحن كنّا نستمتع وحدنا، قالت له الفتاتان. ولم نشعر قط بهذه الحاجة. وقبل أن يصلوا إلى بيت إحداهما طلب منهما أن تصفا له، وإن لم يكن ليفيد في شيء، الأشخاصَ الذين أرادوا أن يخطبوا أو يصبحوا أصدقاء لإسترِيّا. توقّفوا في الشارع وسجّل إبيفانيو خمسة أسماء من دون كنى، جميعهم عمّال في المعمل ذاته. رافق بعدها روزا ماريّا مِدينا لبضعة شوارع. لا أعتقد أنّه كان أيّاً من هؤلاء، قالت الفتاة. لماذا لا تعتقدين؟ لأنّ لهم وجوهاً طيّبة، قالت الفتاة. سوف أتكلّم معهم، قال إبيفانيو، وحين أتكلّم

معهم سأقوله لكِ. خلال ثلاثة أيّام حدّد مكان رجال اللائحة الخمسة. ما من واحد منهم كان له وجه شرّير. واحد منهم كان متزوّجاً ويوم اختفاء إسترِيّا كان في البيت مع زوجته وأولاده الثلاثة. الأربعة الآخرون كان لديهم مبرّراتهم الأكيدة إلى هذا الحدّ أو ذاك، ما من واحدٍ منهم كان يملك سيّارة. عاد وتكلّم مع روزا ماريّا مِدينا. انتظرها هذه المرّة في باب بيتها. عندما وصلت الفتاة سألته مذعورة كيف لم يقرع الباب. قرعتُ، قال إيبفانيو، فتحت لي أمّكِ ودعتني لتناول فنجان قهوة، لكنّها اضطُرّت بعد ذلك لأن تذهب إلى العمل وأنا بقيتُ أنتظرُكِ هنا. دعته الفتاةُ للدخول، لكنّ إيبفانيو فضّل أن يبقى جالساً في الخارج، لأنّ الحرّ أقلّ من الداخل. سألها عمّا إذا كانت تُدخّنُ. بقيت الفتاة في البداية واقفة جانباً ثمّ جلست على حجر منبسط وقالت له إنّها تُدخّن. تأمّل إيبفانيو الحجر: كان غريباً جدّاً، له شكل كرسيّ وإن كان من دون ظهر، ومسألة أن تكون الأمّ أو أحد أفراد العائلة قد وضعها هناك في تلك الحُديّقة لا يدل على ذوق حسن وحسب بل ورفيع أيضاً. سأل الفتاةَ أين وجدوا هذا الحجر. وجده أبي، قالت روزا ماريّا مِدينا، في كاساس نِغراسْ، وجاء به بقوّة زنده. هناك عثروا على جثّة إسترِيّا، قال إيبفانيو. على الطريق، قالت الفتاةُ مُغمِضةً عينيها. عثر أبي على هذا الحجر في كاساس نِغراسْ ذاتها، في حفلة، وعشقَهُ. هكذا كان. قالت له بعد ذلك إنّ أباها مات. أراد إيبفانيو أن يعرف متى. منذ سنوات كثيرة، قالت الفتاةُ بحركة لامبالاية. أشعل سيجارة وقال لها أن تحكي له مرّة أخرى بالطريقة التي تُريدها، خروجاتها مع إستريّا ومع الأخرى، ما اسمها؟ روزا ماركيز، أيام الآحاد. بدأت الفتاةُ تتكلّم وعيناها ثابتتان على أصص النباتات القليلة التي كانت تملكها أمّها في حديقة المدخل المنمنمة، وإن كانت ترفع بصرها من حين لآخر لتقدّر ما إذا كان ما تحكيه له بالنتيجة مفيداً، أو كان إضاعة للوقت فقط. حين انتهت كان هناك بالنسبة إلى إيبفانيو شيء واحد واضح فقط: لم

يكنّ يخرجن في الآحاد فقط، فقد كنّ يذهبن أحياناً أيّام الاثنين أو الأربعاء إلى السينما، أو إلى الرقص، كلّ شيء كان مرتبطاً بورديات المعمل، التي كانت مرِنة وكانت تخضع لقوانين الإنتاج التي كانت خارج نطاق فهم العمّال. عندها غيّر الأسئلة، وأراد أن يعرف كيف كنّ يتسلين أيّام الثلاثاء، مثلاً، إذا كان ذلك اليوم يوم العطلة الأسبوعية. كان الروتين بحسب الفتاة، مشابها، وإن كان يعود للحالة، فهو أفضل قليلاً لأن! محلات مركز المدينة تكون مفتوحة جميعها، وهو ما لم يكن يحدث في أيّام العطل الرسميّة. صَعَّد إيبفانيو قليلاً، أراد أن يعرف ما هي دار السينما المفضّلة، غير رِكس، إلى أيّ دور سينما ذهبن وما إذا ضايق أحدٌ إسترِيّا في مكان ما، ما المحلات التجارية التي كنّ يزرنها حتى ولو لم يدخلن إليها وبقين فقط ينظرن إلى واجهاتها، إلى أيّ مقاهٍ كنّ يذهبن، أسماء هذه، وهل زرن ذات مرّة مرقصاً ما. قالت الفتاةُ أنّهنّ لم يذهبن قط إلى أيّ مرقص، وإنّ إسترِيّا لم تكن تُحبّ هذه الأماكن. لكن أنتِ تُحبّينها فعلاً، قال إيبفانيو، أنتِ وصديقتك روزا ماركيز. لم تبغِ الفتاة إن تنظر إلى وجهه وقالت أحياناً عندما كانتا تخرجان من دون إسترِيّا. كانتا تذهبان إلى مراقص مركز المدينة. وإسترِيّا لا؟ ألم ترافقكما إسترِيّا. أبداً، قالت الفتاة. إسترِيّا كانت تُريد أن تعرف أشياء عن الحاسوب، كانت تريدُ أن تتعلّم، تريدُ أن تتقدّم، قالت الفتاة. كلّه، حاسوب، كلّه حاسوب، لا أستطيع أن أهضم كلمة واحدة مما تقولينه لي، يا فطيرتي الصغيرة، قال إيبفانيو. أنا لست فطيرتك اللعينة، قالت الفتاة. بقيا برهة دون أن يتبادلا كلمة واحدة. ضحك إيبفانيو قليلاً ثمّ أشعل سيجارةً أخرى، جالساً هناك في مدخل البيت وهو يتأمل رواحَ وغدوَّ الناس. هناك مكان، قالت الفتاة، لكنّني ما عدتُ أتذكّر أين، موجود في مركز المدينة، هو محلّ حواسيب. ذهبنا إليه مرّتين. كنّا أنا وروزا ننتظرها في الخارج وتدخل وحدها وتتكلّم مع شخص طويل جدّاً، لكنّه حقيقة طويل جدّاً، أطول منك

بكثير، قالت الفتاةُ. شخص طويل جدّاً، وماذا أكثر؟، سأل إيبفانيو. طويلٍ وأشقر، قالت الفتاة. وماذا أكثر. بدت إسترِيّا في البداية متحمّسة جداً، أقول، المرّة الأولى التي دخلت وتكلّمت فيها مع الرجل. بحسب ما قالته لي هو صاحبَ المحل، ويعرف كثيراً بأمور الحواسيب، ثمّ إنّه كان يُلاحظ أنّ عنده مالاً. في المرّة الثانية التي ذهبنا فيها لنراه خرجت إسترِيّا غضبى. سألتُها ما الذي جرى لها ولم تبغ أن تحكي لي شيئاً. كنّا وحدنا وذهبنا بعدها إلى معرض ضاحية براكروث ونسينا كلّ شيء. ومتى حدث هذا، يا فطيرتي الصغيرة؟، قال إيبفانيو. سبق وقلت لك، يا قليل الأدب، إنّني لستُ فطيرتَكَ اللعينة، قالت الفتاة. متى حدث هذا؟، سأل إيبفانيو، الذي بدأ يرى شخصاً طويلاً جدّاً وأشقر جدّاً، يمشي في الظلمة، في ممرّ مظلمٍ، إلى الأعلى وإلى الأسفل، كما لو أنّه ينتظره. قبل أسبوع من قتلهم لها، قالت الفتاة.

الحياةُ قاسية، قال رئيس بلدية سانتا تِرِسا. لدينا ثلاث حالات لا تقبل أيّ شك، قال المُحقّق أنخِل فِرنانديث. يجب أن يُنظر إلى الأشياء بالمجهر، قال رجل غرفة التجارة. أنا أَنظرُ إلى كلّ شيء بالمجهر، مرّة وأخرى إلى أن تُغمَض عيناي من النعاس. قال بِدرو نِغْرِتِ. ما يجب أن نحاوله هو ألاّ نُحركَ وكرَ الدبابير[1]، قال رئيسُ البلدية. الحقيقة واحدة وما من حلّ، قال بِدرو نِغْرِتِ. لدينا قاتل على التسلسل، كما في أفلام الأمريكيين الشماليين، قال المُحقّق إرنِستو أورتيثْ رِبويّدو. يجب أن ننظر جيّداً أين نضع أقدامنا، قال عضو غرفة التجارة. بماذا يتميّز قاتل على التسلسل عن قاتل عاديّ وطبيعي؟، سأل المُحقّق أنخِل فِرنانديثْ. بسيط جدّاً: القاتل على التسلسل يترك بصمته، هل فهمت؟

---

(١) في الأصل وكر الصراصير.

ليس عنده دافع لكن عنده توقيع، قال المُحقِّق إرنستو أورتيثْ رِبويّدو. تراه يتحرّك بدوافع كهربائية؟ سأل رئيس البلدية. في هذا النوع من القضايا يجب دراسة الكلمات جيّداً، فلا يحشر المرء نفسه حيث لا يجب، قال عضو غرفة التجارة. هناك ثلاث نساء قتيلات، قال المُحقِّق أنخِل فِرنانِدِثْ مُظهراً إبهامه، سبّابته والوسطى لمن كانوا في الغرفة. حبّذا لو كان هناك ثلاث فقط، قال بِدرو نِغْرِتِ. ثلاث نساء قتيلات قطعوا أثداءهن اليمنى واقتلعوا حلمات اليسرى نهشاً، قال المُحقِّق إرنِستو أورتيث رِبويّدو. على ما يدلّ هذا؟ سأل المُحقّق أنخِل فِرنانِدِثْ. هل على أنّ هناك قاتل على التسلسل؟، قال رئيس البلدية. طبعاً، قال المُحقّق أنخِل فِرنانِدِثْ سيكون هناك مصادفة أكثر من اللازم أن يخطر لثلاثة قوّادين أن يُصَفّوا ضحاياهم بهذه الطريقة، قال المُحقّق إرنِستو أورتيث رِبويّدو. يبدو منطقياً، قال رئيس البلدية. لكن المسألة يمكن أن لا تتوقّف عند هذا الحد، قال المُحقّق أنخِل فِرنانِدِثْ. إذا ما أطلقنا العنان لخيالنا استطعنا أن نصل إلى أيّ مكان نريده، قال رجل غرفة التجارة. صار باستطاعتي أن أتصوّر إلى أين تريدان أن تصلا، قال بِدرو نِغْرِتِ. وأنت هل يبدو لك حسناً؟ سأل رئيس البلدية. إذا كانت النساء الثلاث اللواتي بُتِرَتْ أثداؤهن قد قُتلن على يد الشخص ذاته، فلماذا لا نُفكِّرِ بأنّ هذا الشخص قتل النساء الأخريات؟، قال المحَقِّق إرنِستو أورتيث رِبويّدو. شيء علميّ، قال المُحققُ إرنِستو أورتيثْ رِبويّدو. هل القاتل علِمي؟، سأل عضوُ غرفة التجارة. لا، طريقة التنفيذ، الطريقة التي يبدأ فيها ابن القحبة هذا يتلذذ بما يفعل، قال المُحقّق إرنِستو أورتيث رِبويّدو. سأوضّح: بدأ القاتل بالاغتصاب والخنق، وهي طريقة عادية، لنقل هكذا، لقتل أحد. حين رأى أنّ جرائمه لا توقع به راحت هذه تتخذ طابعاً شخصياً. خرجت البهيمة إلى السطح. الآن كلّ عملية قتل تحمل بصمته الشخصية، قال المُحقّق أنخِلْ فِرنانِدِثْ. وأنت، ما رأيك، أيّها القاضي؟، سأل رئيس البلدية.

كلّ شيء ممكن، قال القاضي. كلّ شيء ممكن، لكن دون أن نقع في الفوضى، دون أن نُضيع البوصلة، قال عضو غرفة التجارة. ما يبدو واضحاً فعلاً هو أنّ الذي قتل وبتر، قال بِدرو نِغْرِتِ، أولاء النساء الثلاث هو ذات الشخص. اعثروا عليه ولننتهي من هذه القضية اللعينة، قال رئيس البلديّة. لكن بتبصُّر، إذا لم يكن هذا طلباً كبيراً، دون أن نزرع الرعب، قال عضو غرفة التجارة.

لم يُدعَ خوان دِ ديوس مارتينِثْ إلى ذلك الاجتماع. عرف أنّه سيُعقد، وعرف أن أورتيث رِبويّدو وأنخِل فِرناندِثْ سيذهبان وأنّهم تركوه خارجاً. حين كان خوان دِ ديوس يُغمض عينيه فقط كان يرى جسد إلبيرا كامبو في شبه عتمة شقتها في ضاحية ميتشوَاكان. كان يراها أحيانا تقتربُ منه. وأخرى يراها في الشرفة، محاطة بالأشياء المعدنية، الأشياء القضيبية، التي كانت بالنتيجة من أكثر المناظير تنوّعاً (بالرغم من أنّه لم يكن هناك غير ثلاثة مناظير)، التي كانت تتأمّل من خلالها سماء سانتا تِرِسا المليئة بالنجوم، وتُسجّل بعدها شيئاً بقلم رصاص في دفترها. حين كان يقترب من خلفها ويراقب الدفتر لا يرى غير أرقام هواتف، غالبيتها من سانتا تِرِسا. كان قلم الرصاص قلماً عادياً وعادياً جداً؛ والدفتر دفتراً مدرسيّاً. كلا الشيئين لم يكن له علاقة، بدا له، بالأشياء التي اعتادت المديرةُ على استخدامها . في تلك الليلة بعد أن علِمَ بالاجتماع الذي أُقصيَ منه، هتف لها، قال لها إنّه بحاجة لأن يراها. كانت لحظة ضعفٍ. أجابته بأنّها لا تستطيع وأغلقت الهاتف. فكّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ بأنّ المُديرةَ تُعامله أحياناً كمريض. تذكّر أنّها تحدّثت مرّة عن العمر، عن عمرها وعن عمره. عمري خمسون عاماً، قالت له وأنت أربع وثلاثون. وخلال وقت، ومهما اعتنيتُ بنفسي، سأصبح عجوزاً متوحدة وأنت ستكون ما تزال شابّاً. ماذا تُريد؟ أن تنام مع امرأة مثل أمّك؟ لم يسبق لِخوان دِ

ديوس مارتينِثْ أن سمعها تنطق بكلمات من لغة المغلقة. عجوز؟ هو بصراحة لم يخطر بباله أن يعتبرها عجوزاً. لأنّني ألفظ أنفاسي وأنا أمارس الرياضة، قالت هي. لأنّني أعتني بنفسي. لأنّني أحافظ على نفسي نحيلة وأشتري أغلى مضادات التجاعيد الموجودة في السوق. مضادات التجاعيد؟ شراب، مراهم ملطفة، أشياء نسائية، قالت هي بصوت محايد أخافه. بالنسبة إليَّ أحبّكُ كما أنت، قال هو. لم يبدُ له صوتُهُ مُقنعاً، ومع ذلك عندما كان يفتح عينيه ويراقب العالم الواقعي ويحاول أن يتحكّم بارتعاشاته ذاتها، كان يجد أنّ كلّ شيء تقريباً ما يزال في مكانه.

هكذا إذن، بِدرو رِنخيفو تاجر مخدرات؟ قال لالو كورا. هو كذلك، قال إيبيفانيو. لو قالوا لي ذلك لما صدّقت، قال لالو كورا. لأنّك حتى الآن بضٌّ، قال إيبيفانيو. جاءت هنديّة عجوز بصحنِ بوزولِ لكلٍّ منهما. كانت الساعة الخامسة صباحاً. كان لالو كورا قد عمل طوال الليل في دورية لاعتراض المخالفات المرورية. كانا متوقّفين في زاوية، قرع أحدهم على النافذة، لا لالو كورا ولا الشرطيّ الآخر انتبه إلى وصوله. كان هذا إيبيفانيو، أرقاً وتعلوه مظاهر السكر، وإن لم يكن سكراناً. سآخذ معي الصبيّ، قال لشرطيّ الدوريّة الآخر. هزّ هذا كتفيه وبقي وحده في الزاوية، تحت بعض أشجار البلوط بجذوعها المطلية بالأبيض. لم يكن مع إيبيفانيو سيّارة. كان الليلُ رطباً ونسمة الصحراء تسمح برؤية كلّ النجوم. سارا نحو مركز المدينة، دون أن يتكلّما، إلى أن سأله إيبيفانيو عمّا إذا كان جائعاً. قال لالو نعم. إذن هيّا بنا نأكل، قال إيبيفانيو. حين قدّمت لهما الهنديّةُ العجوز والبدينة البوزولِ راح إيبيفانيو ينظر إلى صحن الفخّار كما لو أنّه رأى على سطحه انعكاس صورة ليست صورته. هل تعرف من أين يأتي البوزول، يا لاليتو؟، سأل. لا، ليس عندي أدنى فكرة، قال لالو كورا. ليس طبقاً من شمال

البلد، بل من وسطه. إنّه صحن تقليدي في العاصمة الفيدرالية. ابتدعه الأزتيكيون، قال. الأزتيكيون؟، إنّه طبق لذيذ، قال لالو كورا. هل كنتَ تأكلُ بوزول في بيّابيثيوسا؟، سأله إيبفانيو. راح لالو كورا يُفكّر، كما لو أنّ بيّابيثيوسا صارت بعيدةً جدّاً، ثمّ قال لا، الحقيقة الخالصة لا، وإن بدا له الآن غريباً ألا يكون قد ذاقه قبل أن يعيشَ في سانتا تِرِسا. بلى ذقته، والآن ما عدتُ أتذكّر، قال. هذا البوزول في الحقيقة ليس كبوزول الأزتيك الأصلي، قال إيبفانيو. ينقصه مُكوِّن. ما هو هذا المكوِّن؟، سأل لالو كورا. لحم بشري، قال إيبفانيو. لا أُصدّق، قال لالو كورا. حسن، لا همّ، ربّما كنتُ مُخطِئاً أو أنَّ الأحمق الذي حكاها لي كان مُخطئاً، وإن كان يعرف كثيراً، قال إيبفانيو. تكلّما بعدها عن بِدرو رِنخيفو وتساءل لالو كيف أمكن أنّه لم ينتبه إلى أنّ دونْ بِدرو كان تاجر مُخدِّرات. لأنّك كنتَ ما تزال بضاً، قال إيبفانيو. ثمّ قال: لماذا تظن أنّ عنده كلّ أولئك المرافقين؟ لأنّه ثريّ، قال لالو كورا. ضحك إيبفانيو. هيّا، قال، لنذهب إلى النوم، فأنت نائم أكثر مما أنت مستيقِظ.

في تشرين الأوّل لم تظهر أيّ امرأة مقتولة في سانتا تِرِسا، لا في المدينة ولا في الصحراء وأعمال إزالة مكب إل تشيلي السرّي توقّفت نهائياً. صحفي من صحيفة *لا تريبونا دِ سانتا تِرِسا* الذي كتب خبر نقل أو تدمير المكبّ قال إنّه لم يرَ في حياته مثل تلك الفوضى، وحين سئل عمّا إذا كان من يسبّب الفوضى هم عمّال البلدية المنهمكون عبثاً في محاولتهم، أجاب لا، إنّ الفوضى تُسبّبها المزبلة الخامدة. وصل في تشرين الأوّل خمسةُ مُحقّقي من الشرطة أرسلتهم هِرموسيّو لتعزيز قدرة المحقّقين الذين كانوا في المدينة. واحد منهم جاء من كابوركا، الآخر من ثيوداد إوبرِغون، والثلاثة الباقون من هِرموسيّو. بدوا ذوي عزيمة. عادت فلوريتا ألمادا لتظهر في تشرين الأوّل في برنامج ساعة مع

رِيْنالدو وقالت إنّها تباحثت مع أصدقائها (أحياناً كانت تُسميهم أصدقاء وأخرى حُماة) وإنّ هؤلاء قالوا لها إنّ الجرائم سوف تستمرّ. أيضاً قالوا لها أن تأخذ حذرها، فهناك ناس ينظرون إليها بعين الشرّ. لكنّني لا أُبالي، قالت هي، لماذا سأبالي، إذا كنتُ عجوزاً. حاولت بعدها أن تتكلّم أمام الكاميرا، بروح إحدى الضحايا، لكنّها داخت ولم تستطِع. ظنّ رِيْنالدو أنّ الدوخة جاءت مفتعلة فحاول أن يُنعشها بنفسه، مُداعباً خدّيها وساقياً إياها رشفاتٍ من الماء، لكنّ الدوخة لم يكن فيها أيّ شيء من الافتعال (كانت في الحقيقة إغماءً) وانتهت فلوريتا إلى المشفى.

أشقر وطويل جدّاً. صاحب محل حواسيب أو ربّما مستخدم موثوق فيه. في مركز المدينة. لم يتأخّر إبيفانيو في العثور على الحانوت. الرجل المدعو كلاوس هاس، كان بطول مئة وتسعين سنتيمتراً وشديد شقرة الشعر، بصفرة الكناري، كما لو أنّه كان يصبغه أسبوعيّاً. في المرّة الأولى التي ذهب فيها إلى الحانوت كان كلاوس هاس جالساً في مكتبه يتكلّم مع أحد الزبائن. مراهق قصير شديد السمرة، اقترب منه وسأله بماذا أستطيع أن أُفيدك. أومأ إبيفانيو إلى هاس وسأله من يكون. المعلم، قال المراهق. أريد أن أتكلّم معه، قال. هو الآن مشغول، قال المراهق. إذا ما قلت لي ما الذي تبحث ربّما استطعت أن أعثر لك عليه. لا، قال إبيفانيو. جلس، أشعل سيجارةً واستعدّ للانتظار. دخل زبونان آخران. ثمّ شخص يرتدي واقي غبارٍ أزرق وترك بعض علب الكرتون في زاوية. حيّاه هاس رافعاً يده من مكتبه. كان طويل وقويّ الذراعين، فكّر إبيفانيو. اقترب المراهق وترك له مرمدة سجائر. في عمق الحانوت توجد فتاة تكتب على الآلة الكاتبة. حين ذهب الزبائن ظهرت امرأة عليها مظهر سكرتيرة وراحت تنظر إلى الحواسيب المحمولة. راحت بينما هي تنظر تُسجّل أسعاراً

ومواصفات. كانت ترتدي تنورةً وتنتعل حذاءً بكعب عالٍ، فكّر إيبفانيو، لا شكّ أنّها تنام مع رئيسها. وصل بعدها زبونان آخران فتقدّم المراهق لخدمتهما. هاس، الغريب عن كلّ شيء، بقي يتكلّم مع الرجل الذي لم يكن باستطاعة إيبفانيو أن يرى غير ظهره. كان حاجبا هاس شبهَ أبيضين وكان يبتسم من حين لآخر، وحين كان يبتسم لشيءٍ ما كان الآخرُ يقوله فتتلألأ أسنانه كأسنان مُمَثّل سينمائي. أطفأ إيبفانيو السيجارة وأشعل أخرى. استدارت المرأة ونظرت إلى الشارع، كما لو أنّ أحداً ينتظرها في الخارج. بدا له وجهها معروفاً، كما لو أنّه كان قد أوقفها منذ زمن. منذ كم من الزمن؟، فكّر. سنوات كثيرة. لكنّ المرأة لا توحي بعمر يتجاوز الخامسة والعشرين عاماً، وهكذا فإنّه إذا كان قد أوقفها فهذا يجب أن يكون قد حدث حين لم تكن تتجاوز السابعة عشرة من عمرها. يمكن ذلك، فكّر إيبفانيو. ثمّ فكّر بأنّ تجارة الأشقر لا تسير بشكل سيّئ. عنده زبائن ثابتون، ويسمح لنفسه بان يبقى جالساً في مكتبه، يتحدّث دون استعجال. عندها فكّر إيبفانيو بروزا ماريّا مِدينا وبمصداقيتها. لا تُساوي مصداقيتها قشرة بصلة بالنسبة إليّ، قال لنفسه. بعد نصف ساعة لم يبقَ في الحانوت أحد. حين ذهبت المرأة نظرت إليه كما لو أنّها هي أيضاً عرفته. كانت ضحكات هاس وصديقه قد راحت تنطفئ. خلف طاولة العرض، التي كان لها شكل نعل فرس، كان الأشقر ينتظره مبتسماً. أخرج من جيبه صورة لإستريّا رويث ساندوبال وأراه إياها. نظر إليها الأشقر، دون أن يلمسها ثمّ قام بحركة غريبة من شفتيه، زامّاً السفلى ووضعاً إيّاها فوق الشفة العليا ونظر إليه كمن يسأله ما المسألة. هل تعرفها؟ أظنّ لا، قال هاس، وإن كان يمرّ على المحلّ ناس كثيرون. قدّم نفسه بعد ذلك: إيبفانيو غاليندو، من شرطة سانتا تِرِسا. مدَّ هاس يده إليه وحين صافحه شعر بأنّ عظام الأشقر كانت من حديد. كان بودّه أن يقول له ألاّ يكذب، وإنّ عنده شهوداً، لكنّه فضّل بدل هذا أن يبتسم. خلف هاس، كان المراهِق

جالساً في مكتب آخر يتظاهر كمن يراجع أوراقاً، لكنّه في الحقيقة لم يكن يُضَيع كلمةً واحدة.

ركب المراهقُ بعد أن أغلق المحلّ دراجته النارية اليابانيّة وقام بجولة متّئدة في شوارع وسط المدينة، كما لو أنّه يأمل أن يرى أحداً، حتى وصل إلى شارعِ أونيبِرسيداد فسرّع دراجته وبدأ يبتعد باتجاه ضاحية بِراكروث. توقّف بجانب بيتٍ من طابقين وعاد ليضع لها قيدَ الأمان. كانت أمّه تنتظره منذ عشر دقائق بالطعام جاهزاً. قبّلها المراهقُ وأشعل التلفاز. دخلت الأمّ إلى المطبخ. خلعت المئزر وأخذت كيساً يُقلّد قفازاً جلديّاً. قبّلت المراهقَ وذهبت. سأعود بعد قليل، قالت. فكّر المراهق أن يسألها إلى أين، لكنّه في النهاية لم يقل شيئاً. من إحدى الغرف خرج بكاء طفل. لم يوله المراهقُ في البداية اهتماماً وتابع مشاهدة التلفزيون، لكن حين اشتدَّ البكاءُ نهض، دخل الغرفةَ وعاد ومعه رضيع، ابن أشهر قليلة بين ذراعيه. كان الرضيع أبيض وممتلئاً، بعكس أخيه تماماً. أجلسه المراهق على ركبتيه وتابع تناول طعامه. في التلفزيون كانوا يُقدّمون برنامجاً إخباريّاً. رأى مجموعة من الزنوج تجري في بعض شوارع مدينةٍ أمريكيّةٍ شمالية، رجل كان يتكلّم عن المريخ، مجموعة من النساء يخرجن من البحر ويضحكن أمام الكاميرات. بدّل القناة بجهاز التحكّم عن بعد. شابان كانا يتلاكمان. عاد وغيّر القناة، فهو لم يكن يُحبّ الملاكمة. بدا كأنّ الأمّ تبخّرت، لكنّ الرضيع ما عاد يبكي والمراهق لم يكن يزعجه حمله. رنّ جرس الباب. ملك الفتى وقتاً كي يغيّر القناة -كان مسلسلاً تلفزيونياً- ثم نهض والطفل بين ذراعيه وفتح الباب. إذن تَعيشُ هنا، قال إبيفانيو. دخل بعد إبيفانيو شرطيّ قصير القامة، لكنّه أطول من المراهق، جلس على الكرسيّ الكبير دون استئذان. هل كنتَ تتعشّى؟، سأله إبيفانيو. بلى، قال المُراهق. تابعْ، تابعْ، قال إبيفانيو بينما هو يدخل إلى الغرف

ويعود ليخرج، كما لو أنّ نظرة واحدة كانت تكفي لتفتيش زوايا البيت كلّه. ما اسمك؟، سأله إيفانيو. خوان بابلو كاستانيون، قال المراهِقُ. حسن، يا خوان بابلو، اجلسْ أوّلاً وتابعْ طعامك، قال إيفانيو. نعم، يا سيّد، قال المراهق. ولا تتوتّر، فقد يسقط الصغير منك، قال إيفانيو. ابتسم الشرطيّ الآخر.

غادرا بعد ساعة وقد أصبحت الأمور بالنسبة إلى إيفانيو أكثر وضوحاً بما يكفي. كلاوس هاس كان ألمانيّاً وحصل على الجنسية الأمريكية الشمالية. كان صاحب محلَّيْن في سانتا تِرِسا حيث كان يبيع بدأً من أجهزة واكمان وحتى الحواسيب، وكان عنده حانوت آخر مشابه في تيخوانا، يُجبره على الغياب مرّة في الشهر، كي يُراجع السجلات ويدفع للمستخدمين ويعوّض المباع من المواد. كذلك كان يُسافر إلى الولايات المتحدة كلّ شهرين، وإن لم يكن في هذا انتظام ولا تاريخ ثابت باستثناء مدّة الانتقال التي لا تتجاوز أبداً الثلاثة أيّام. كان قد عاش بضع سنوات في دِنْفِر، من حيث غادر لمسائل تتعلق بالنساء. كان يُحبّ النساء، لكن بحسب ما عُلِم لم يكن متزوّجاً ولم تُعرف له خطيبة. كان يتردّد عادةً على مراقص ومواخير مركز المدينة، وكان صديقاً لبعض أصحابها، الذين ركّب لهم أحياناً كاميرات مراقبة وبرامج محاسبة معلوماتية. على الأقل في حالة واحدة كان المراهق متأكّداً مما كان يقوله، كان هو المُبرْمِج. كان كربّ عمل عادلاً ولا يدفع بشكل سيّئ، وإن كان أحياناً يستشيط غضباً لأشياء غير مُبرَّرة ويمكن أن يصفع أيّاً كان دون مشكلة، دون أن يهمّه من يكون. هو لم يصفعه قط، لكّنه وبَّخه مرّة واحدة لأنّه وصل متأخّراً إلى العمل. من صفع إذن؟ إحدى السكرتيرات قال المراهق. وحين سُئل المراهق عمّا إذا كانت هي السكرتيرة الحالية أجاب لا، بل التي قبلها، ولم يعرفها. كيف تعرف إذن أنّه صفعها؟ لأنّ هذا ما كان يقوله المستخدَمون الأقدم. مستخدمو

المستودع، حيث كان يخبّئ الأشقر جزءاً من بضاعته. كانت أسماء المُستخدمين كلّها مسجَّلة بشكل دقيق. في النهاية عرض عليه إيبفانيو صورة إسترِيّا رويثْ ساندوبال. هل رأيتها في الحانوت؟ نظر المراهق إلى الصورة وقال بلى، وجهها ليس غريباً عليه.

الزيارة الثانية التي قام بها إيبفانيو إلى كلاوس هاس كانت قُرابة منتصف الليل. قرع الجرسَ واضطرّ لأن ينتظر برهةً طويلةً كي يفتحوا له، بالرغم من أنّه كان ما يزال في البيت أضواء مشتعلة. كان البيت في ضاحية إل بِرِثال، وهي ضاحية من ضواحي الطبقة الوسطى، بيوتها من طابق أو طابقين، ليست كلّ الأبنية جديدة، يستطيع المرء فيها أن يذهب سيراً على قدميه على أرصفةٍ مشجّرةٍ وهادئة، ليشتري الخبز أو الحليب، بعيداً عن ضوضاء ضاحية مادِرو، التي كانت أبعد قليلاً، وبعيداً عن صخب مركز المدينة. هاس نفسه هو من فتح له الباب. كان يرتدي قميصاً أبيضَ خارجَ البنطلون، في البداية لم يعرف أو تظاهر بأنّه لم يعرف إيبفانيو. أبرز إيبفانيو له بطاقته، كما لو أنّه يلعبُ، وسأله عمّا إذا كان يتذكّره. سأله هاس ماذا يريد. هل أستطيع أن أدخل؟، سأله إيبفانيو. كان الصالون حسن الأثاث، فيه كراسٍ كبيرة وكنبة كبيرة بيضاء. أخرج هاس زجاجة وسكي من خزانة بار وصبّ لنفسه كأساً. سأله إذا كان يريد واحداً. هزّ إيبفانيو رأسه نافياً. أنا في الخدمة، قال. هزّتْ هاس ضحكةٌ غريبة. كان كمن يقول له هكذا إذن، أو هاها، أو كما لو أنّه يعطس، لكنّ مرّة واحدة فقط. جلس إيبفانيو على أحد الكراسي وسأله عمّا إذا كان عنده دليل جيد بالنسبة إلى اليوم الذي قتلوا فيه إسترِيّا رويثْ ساندوبال. نظر إليه هاس من أعلاه إلى أسفله وقال له بعد بضع ثوان إنّه لا يتذكّر أحياناً ما فعله ليلة أمس. احمرّ وجهه وبدا حاجباه أكثر بياضاً مما هما في الواقع. كانا كما لو أنّه يقوم بجهدٍ لكتمِ غيظه. عندي شاهدان يؤكّدان أنّهما رأياك مع الضحيّة، قال إيبفانيو.

من هما؟، سأل هاس. لم يُجب إيبفانيو. نظر إلى الصالون، قام بحركة تأكيد. لا بدّ أنّ هذا كلّفك ثروة، قال. الكثير من العمل وبعض المال المكتسب، قال هاس. هل تريه لي؟، سأل إيبفانيو. ما هو؟، سأل هاس. البيت، قال إيبفانيو. دعكَ من الحماقات، يا رجل، قال هاس، إذا أردت أن تفتّش بيتي فتعال ومعك أمر من القاضي. قال إيبفانيو قبل أن يُغادر: أظنّ أنّك أنت من قتل هذه الطفلة. هذه ومن يدري كم غيرها. دعكَ من الحماقات، قال هاس. إلى اللقاء قريباً، قال إيبفانيو، ومدّ إليه يده. دعك من الحماقات، قال هاس. أنت رجل فعلاً، قال إيبفانيو، وقد صار في الباب. بالله عليك، بالله عليك يا رجل دعك من الحماقات واتركني بسلام، قال هاس. حصل بواسطة صديق لشرطة أدوبِ على ملف كلاوس هاس البوليسي. هكذا كان أنّ هذا لم يعِشْ قط في دِنفِر بل في تامباس، في فلوريدا، حيث اتُّهم باغتصابِ امرأة تُدعى لوري إنْثيسو. أوقِف لمدة شهر، سَحَبت بعدها لوري إنْثيسو الدعوى فأطلقوا سراحه. كان هناك شكاوى أخرى ضدّه بسبب استعرائيته وسلوكه غير اللائق. حين أراد أن يعرف ما الشياطين التي يعنيها الأمريكيون الشماليون بالسلوك غير اللائق، قالوا له إنّهم يشيرون أساساً إلى التحرش والتلميحات اللفظية المتجاوزة للحدّ وعيب ثالث مكوَّن من الحالتين الأوليتين. كذلك غُرِّمَ هاس في تامبا مرّات عديدة بالتجارة بالعاهرات، ليس شيئاً ذا أهمية. كان قد وُلد في عام ١٩٥٥ في فيلفيلد في جمهورية ألمانيا الفيدرالية آنذاك، وهاجر إلى الولايات المتحدة عام ١٩٨٠. قرّر في عام ١٩٩٠ أن يُبدّل البلد، وإن كان حاصلاً على الجنسية الأمريكية الشمالية. لا شكّ أنّ قراره بالعيش في المكسيك، في شمال ولاية سونورا، كان محظوظاً، إذ بعد وقت قصير فتح محلاً ثانياً في سانتا تِرِسا، حيث لم تتوقّف لائحة زبائنه عن النمو، ومحلاً آخر في تيخوانا لم يبدو أنّه كان يسير بشكل سيء. وذات ليلة دخل يُرافقه شرطيان من سانتا تِرِسا ومحقّق إلى المحلّ الذي كان

يملكه هاس في مركز المدينة (الآخر كان في ضاحية ثِنِتِنو). كان المحلّ أكبر بكثيرٍ مما كان يظنُّ. كان عددٌ من غرف القسم الخلفيّ مليئاً بصناديق قطع الحواسيب التي كان هاس نفسه يُركِّبُها. ومع ذلك كان في واحدةٍ منها سرير، شمعدان فيه شمعة ومرآة كبيرة بجانب السرير. لم تكن الإنارة تعمل، لكنّ المُحقّق الذي كان مع إيبفانيو انتبه على الفور إلى أنّها ببساطة لا تعمل لأنّ أحداً نزع المصباح. كان هناك حمّامان، واحد مُرتبٌ جدّاً، فيه صابون وورق صحيّ وأرضه نظيفة. هناك بجانب المرحاض فرشاة كان هاس يُجبر مستخدميه، المعتادين فقط على شدّ السلسلة، على استخدامها. كان الحمّام الآخر من القذارة إلى حدّ أنّه بدا أنّه وُضِع هناك بهدف توضيح ظاهرة غير تماثلية وغير مفهومة، أكثر مما هو حمّام مهجور، إذ كان فيه ماء وسلسلة مرحاض لم تُمس. يأتي بعد ذلك ممر طويل ينتهي إلى باب يؤدّي إلى زقاق. كان الزقاق يقدم تنويعة واسعة من القمامة وصناديق الكرتون، لكن من هناك كان يمكن أن تُرى واحدة من أكثر زوايا المدينة صخباً، أحد أكثر الشوارع ازدحاماً في ليل سانتا تِرِسا. هبطوا بعدها إلى القبو.

بعد يومين ذهب إيبفانيو ومُحقّقان وثلاثة رجال شرطة إلى المحلّ ومعهم أوامر قضائية بإلقاء القبض على كلاوس هاس، المواطن الأمريكي الشماليّ، ابن الأربعين عاماً، كمشبوهٍ باغتصاب وتعذيب وقتل إستريّا رويثْ ساندوبال، الموطنة المكسيكية، ابنة السابعة عشرة عاماً، لكنّهم حين وصلوا إلى المحلّ لم يجدوه، فالمعلّم، بحسب ما قاله المستخدَمون، لم يظهر هناك في ذلك اليوم، ولذلك انقسمت الدورية، فبينما ذهب مُحقّق وشرطيان في سيارةٍ إلى المحلّ الآخر، الموجود في ضاحية ثِنِتِنو انطلق إيبفانيو ومُحقّق والشرطيّ الآخر من سانتا تِرِسا إلى بيت الألماني-الأمريكي الشمالي في ضاحية ال ثرثال، حيث توزّعوا استراتيجيّاً، شُرطيّ سانتا تِرِسا يحرس القسم الخلفيّ من

المنزل بينما إيبفانيو والمحقّق يقرعان الباب الذي ولدهشتهما فتحه لهما هاس نفسه في ذروة نزلة بردٍ أو زكام، على كلّ الأحوال كانت تعلوه أعراضٌ تدلّ على أنّه قضى ليلة سيّئة. أُعْلِمَ هاس على الفور، دون أن يقبل الشرطيان دعوته للدخول إلى البيت، بأنّه موقوف منذ تلك اللحظة وتركاه يقرأ باختصار أوامر التفتيش التي تشملُ بيته ومحلّيه، وقيّدوه فوراً، فالموقوف كان طويلاً وضخماً ولا أحد يعرف ما الموقف الذي يمكن أن يتخذه بعد أن يستوعب الأمر النافذَ. وضعوه بعد ذلك في القسم الخلفي من سيارة الدورية التي توجّهوا بها على الفور إلى المخفر رقم ١، تاركين شرطيَّ سانتا تِرِسا في بيت الموقوف للمراقبة.

استمرّ استجوابُ كلاوس هاس أربعةَ أيّام وقد قام به الشرطيان إيبفانيو غاليندو وتوني بينتادو والمحقّقون إرنستو أورتيث رِبوِيّدو، وأنخِل فِرناندِثْ وكارلوس مارين. حضر التحقيق قائدُ شرطة سانتا تِرِسا، بِدرو نِغْرِتِ، الذي جاء معه كمدعوَّيْن خاصّين باثنين من قضاة المدينة وثِسَر هورْتا ثِرنا، نائب رئيس النيابة العامّة في منطقة شمال سونورا. صدرت عن الموقوف نوبتا عنف خارج السيطرة ولذلك اضطر الشرطيان اللذان كانا يستجوبانه لأن يلويا ذراعه. اعترف هاس بعد هذا بأنّه تعامل مع إستريّا رويثْ ساندوبال، التي ذهبت لزيارته في محلّ الحواسيب ثلاث مرّات. بحث خمسة شرطيّين من هِرموسيّو، من مجموعة مكافحة الخطف الخاصّة من شرطة التحقيق (الجنايات) في ولاية سونورا، عن أدلّة جنائيّة سواء في بيت هاس كما في محلّي سانتا تِرِسا، باهتمام خاص في قبو المحل الموجود في مركز المدينة فعثروا على بقايا دم على إحدى بطانيات غرفة القبو وعلى الأرض أيضاً. قدّمت أسرة إستريّا رويثْ ساندوبال اختبار الحمض النووي، لكنّ عينات الدم ضاعت قبل أن تصل إلى هِرموسيّو، من حيث كان يجب أن تخرج إلى مخبر سان دييغو. حين سئل الموقوف هاس بهذا الخصوص

قال إنّ من المحتمل أن يكون الدم من إحدى النساء اللواتي أقام معهن علاقة في مرحلة الحيض. حين أدلى هاس بهذه المعلومة سأله المُحقّق أورتيث رِبويّدو عمّا إذا كان يظنّ نفسه فحلاً جدّاً. عادي، قال هاس. رجل عادي لا يُجامع امرأة حائضاً، قال أورتيث رِبويّدو. أنا بلى أفعل، كان جواب هاس. وحدها الخنازير تفعل هذا، قال المُحقّق. في أوروبا كلّنا خنازير، أجابه هاس. وهنا توتّرت أعصاب المُحقّق أورتيثْ رِبويّدو بشكل مفرط فاستبدل في التحقيق بأنخِلْ فِرنانْدِثْ وبشرطيّ سانتا تِرِسا إيفانيو غاليندو. لم يعثر شرطيو مجموعة مكافحة الخطف العلميون على بصمات في غرفة القبو، لكنّهم عثروا في مرآب مسكن هاس على عدد من الأدوات الحادة والمدببة، بينها مِحَشّ يبلغُ طول نصله خمسة وسبعين سنتيمتراً، قديم لكنّه في حالة تامّة، وسكينا صيد كبيران. كانت هذه الأسلحة نظيفة ولم يتمكنوا من أن يكتشفوا عليها أيّ أثر لدم ولا لنسيج. اضطروا في مناسبتين أثناء التحقيق لأن ينقلوا كلاوس هاس إلى مشفى الجنرال سِبولْبِدا العام، الأولى كي يُعالج من الزكام الذي تفاقم وأدى إلى ارتفاع شديد بالحرارة والثانية كي يعالجوا جرحاً حدث له في عينه اليمنى وحاجبها بينما كان متوجّهاً من قاعة الاستجواب إلى زنزانته. سمحوا له في اليوم الثالث لتوقيفه باقتراح من شرطة سانتا تِرِسا ذاتها، بأن يهتف لقنصل بلده في المدينة، أبراهام ميتشل، الذي كان مجهول مكان التواجد. موظف اسمه كورت أ. بانكز، ردّ على المكالمة وهرع في اليوم التالي إلى المخفر، حيث تحدّث مع ابن بلده لمدة عشر دقائق، غادر بعدها دون أن يرفع أيّ احتجاج. نِقل الموقوف كلاوس هاس بعد وقت قصير إلى عربة نقل المساجين واقتيد إلى سجن المدينة.

خلال وجود هاس في المخفر ذهب بعض الشرطيين لزيارته. معظمهم ذهب لزيارته في الزنزانة، لكنّ هاس تفرّغ هناك للنوم فقط أو

للتظاهر بالنوم، مغطى الوجه بالبطانية، فقط استطاعوا أن يتأملوا قدميه بارزتي العظام. كان يتكرّم أحياناً بالكلام مع الشرطيّ الذي يأتيه بالوجبة. كانا يتكلمان عن الطعام. يسأله الشرطي عمّا إذا كان يعجبه الطعام فيقول هاس ليس سيئاً، ويصمتُ بعدها. حمل إيبفانيو لالو كورا معه كي يرى هاس خلال إحدى جلسات الاستجواب. بدا لِلالو كورا مكّاراً. لم يبدُ مكّاراً، لكنّه افترض ذلك من طريقته بالإجابة على الأسئلة، التي كان يوجّهها إليه المُحقّقون. كما بدا له شخصاً لا يكلّ، يجعل من كانوا مسجونين معه في القاعة المعزولة صوتيّاً، الرجال الذين كانوا يقسمون له على الصداقة والتعاطف ويقولون له تكلّمْ، خفّفْ عن نفسك، ففي المكسيك لا توجد عقوبة إعدام، أخْرِجْ من جوفك هذا الذي يقتلك، ثمّ يضربونه بعد ذلك ويشتمونه. لكنّ هاس كان لا يكلّ ويبدو أنّه يخرج من الواقع (أو يُحاول أن يُخرج المحقّقين من الواقع) بجمل غير متوقّعة وأسئلة غير متجانسة. بقي لالو كور يراقب الاستجواب نصف ساعة، وكان بودّه لو يبقى ساعتين أو ثلاث ساعات، لكنّ إيبفانيو أن يذهب لأنّ المعلّم وناساً آخرين مهمّين سيصلون بين لحظة وأخرى، ولا يريدون أن يتحوّل ذلك إلى مدينة ملاهي.

في سجن سانتا تِرِسا وضعوا هاس في زنزانة منفردة إلى أن تنخفض حرارته. فقط كان هناك أربع زنزانات منفردة. يشغل واحدة منها تاجر مخدرات متهم بقتل شرطيّيْن أمريكيين شماليين، الأخرى يشغلها محام تجاري متهم بالنصب، الثالثة يشغلها مرافقان لتاجر المخدرات والرابعة يشغلها صاحب مزرعة من إل ألاميّو كان قد خنق زوجته وقتل ابنيه رمياً بالرصاص. لكي يضعوا هاس اضطروا لأن يأخذوا مرافقي تاجر المخدرات إلى الممر الثالث، إلى زنزانة يشغلها خمسة أفراد وليس فيها سوى سرير واحد مُسَمَّر بالأرض وحين تركوا

هاس في مكانه الجديد اكتشف هذا من الرائحة أنّه كان يوجد شخصان، واحد ينام على السرير والآخر ينام على حصيرة على الأرض. الليلة الأولى التي أمضاها في السجن وجد صعوبة في النوم. كان يمشي في الزنزانة ومن حين لآخر يضرب بكفيه على ذراعيه. قال له صاحب المزرعة، الذي كان خفيف النوم، أن يكفّ عن إحداث الضجيج وينام. سأل هاس في الظلمة من الذي كلّمه. لم يجبه صاحبُ المزرعة، وبقي هاس دقيقة بلا حراك، صامتاً، ينتظر أن يقول له أحدٌ شيئاً. حين انتبه إلى أنّ أحداً لن يقول له شيئاً تابع دورانه في الزنزانة وهو يلطم براحتي يديه على ذراعيه، كما لو أنّه يقتل بعوضاً، مع أنّه لم يكن يوجد هناك بعوض، إلى أن عاد صاحبُ المزرعة ليقول له أن يكف عن إحداث الضجة. لم يتوقّف هاس هذه المرّة ولم يسأل من كان يتكلّم. خُلِقَ الليلُ للنوم، أيّها الأمريكي الحقير، سمع المزارعَ يقول له. ثمّ سمعه يتقلّب في فراشه وتصوّر أن الرجل يُغطي رأسه بالوسادة، وهو ما تسبّب له بنوبة من الضحك. لا تُغطّ رأسك، قال له بصوتٍ عالٍ حسن المخارج، ربّما ستموت. ومن سيقتلني، أيّها الأمريكي الوغد، أنت؟ أنا لا، يا ابن العاهرة، قال هاس، سيأتي عملاق والعملاق سيقتلك. عملاق؟، قال صاحب المزرعة. تماماً كما تسمع، يا ابن العاهرة، قال هاس. عملاق، رجل ضخم جدّاً، ضخم جدّاً سيقتلك أنت ويقتل الجميع. أنت مجنون أيّها الأمريكي الوغد، قال صاحب المزرعة. مرّت برهة لم يقل فيها أحدٌ منهما شيئاً وبدا أنّ صاحب المزرعة نام مرّة أخرى. ومع ذلك قال هاس، بعد برهةٍ قصيرة، إنّه كان يسمع خطواته. هو العملاق قادم. كان عملاقاً مُدَمّى من رأسه وحتى قدميه. بدأ بالسير. استيقظ المحامي التجاري وسأل عمّا كانا يتكلّمان. كان صوته ناعماً وخائفاً، الرفيق هنا جُنّ، قال صوتُ صاحب المزرعة.

حين ذهب إيبفانيو لزيارة هاس قال له أحدُ السجّانين إنَ الغرينغو لم يترك السجناء الآخرين ينامون. كان يتكلّم عن مسخ وقضى الليل أرقاً. أراد إيبفانيو أن يعرفَ إلى أيّ نوع من المسوخ كان يُشير الغرينغو، فقال له السجّان كان يتكلّم عن عملاق، عن صديق له، ربّما سيأتي لإنقاذه وقتل جميع من نكّدوا عيشه. بما أنّه لا يستطيع أن ينام فإنّه لا يحترم نوم أحدٍ، قال له السجّانُ، كما أنّه أيضاً لم يكن يحترم المكسيكيين، الذين كان يُناديهم هنوداً أو شُحَماء. أراد إيبفانيو أن يعرف عن أيّ شُحَماء كان يتكلّم فأجابه السجّان بجدّية كبيرة، المكسيكيون بحسب هاس لا يغتسلون. أضاف إنّ المكسيكيين بحسب هاس عندهم غدد تجعلهم يفرزون نوعاً من العرق المدهن، مثل الزنوج تقريباً، كان عندهم بحسب هاس غدّة تجعلهم يصدرون رائحة خاصّة ومميّزة. على الرغم من أنّ الوحيد الذي كان لا يستحمّ هو هاس، الذي كان يُفضّل موظّفو السجن ألا يُجبروه على الذهاب إلى الحمّام حتى يتلقوا أمراً من القاضي أو من مدير السجن شخصياً، الذي على ما يبدو يُعالج بالقضيّة بنعومة. عندما واجه إيبفانيو هاس لم يعرفه. كان حول عينه هالتان زرقاوان ويبدو أنحل بكثير مما كان في المرّة الأولى التي رآه فيها، لكن لا تظهر عليه أي من الجروح الناتجة عن الاستجواب. عرض عليه إيبفانيو سجائر، لكنّ هاس قال إنّه لا يُدخّن. حدّثه إيبفانيو بعدها عن سجن هِرموسيّو، البناء الذي شُيِّدَ حديثاً، ممرّاته واسعة وفناءاته فسيحة. إذا ما أعلن عن مسؤوليته فهو سيأخذ على عاتقه أن ينقلوه إلى هناك، حيث سيكون له زنزانة له وحده، لكنّها أفضل من هذه بكثير. عندها فقط نظر هاس إلى عينيه لأوّل مرّة وقال له دعك من الحماقات. انتبه إيبفانيو إلى أنّ هاس لم يعرفه فابتسم له، لم يرد له هاس الابتسامة. كان وجهه، فكّر إيبفانيو، غريباً، لا أعرف، كأنّه مصدوم. سأله عن المسخ، عن العملاق، سأله عمّا إذا كان العملاق

هو نفسه. عندها ضحك هاس فعلاً. أنا نفسي؟ ليس عندك أدنى فكرة، بصق. اذهب إلى أمك العاهرة ونِكْها.

كان باستطاعة سجناء الزنزانات المنفردة أن يخرجوا إلى فناء الممر أو يستطيعون أن يبقوا محبوسين ويخرجوا فقط باكراً جدّاً، من السادسة والنصف حتى السابعة والنصف، حين يكون الفناء ممنوعاً على بقيّة السجناء، أو بدءاً من التاسعة ليلاً، حين يكون قد تمّ التفقّد الليلي نظريّاً والسجناء عادوا إلى زنازينهم. كان صاحبُ المزرعة قاتلُ أسرته والمحامي التجاري يخرجان ليلاً فقط، بعد العشاء. يسيران في الفناء، يتكلمان عن التجارة والسياسة ويعودان بعدها إلى زنزانتيهما. كان تاجرٌ المخدرات يُشارك بقيّة السجناء برنامج الفناء ويستطيع أن يبقى ساعاتٍ مستنداً إلى جدار، يُدخّن ويتأمّل السماء، بينما مرافقاه، اللذان لا يبتعدان عنه كثيراً أبداً، يرسمان بوجودهما طوقاً خفيّاً حول مُعلّمهما. قرّر كلاوس هاس، حين خفّت حرارته، أن يخرج، «في التوقيت الطبيعي»، بحسب ما أوضح للسجّان. حين سأله هذا عمّا إذا لم يكن يخاف أن يقتلوه في الفناء. قام هاس بحركة ازدراء وذكر الشحوب الموت الذي كان يعلو وجهي صاحب المزرعة والمحامي، اللذين لم يلمسهما نور الشمس قط. في المرّة الأولى التي خرج فيها تاجرُ المخدرات إلى الفناء، سأله، هو الذي لم يهتم به من قبل، من يكون. قال هاس اسمه وقدّم نفسه كخبير في المعلوماتية. نظر إليه تاجر المخدّرات من أعلاه إلى أسفله وتابع مشيه، كما لو أنّ فضوله نفد بطريقة فورية. كان بعضُ السجناء، قليلون، يرتدون البقايا المرقّعةَ لما كان ملابس سجن موحّدة، بالرغم من أنّ الغالبية كانوا يرتدون ما يحلو لهم. كان هناك مَنْ يبيعُ مرطّبات يحملونها في صناديق بلاستيكية تُحافظ على البرودة، ، صناديق بلاستيكية يحملونها في ذراع واحدة ثمّ يضعونها على الأرض بالقرب من كانوا يلعبون مباريات كرة قدم أو كرة

سلّة، كل فريق مؤلّف من أربعة لاعبين. آخرون يبيعون السجائر والصور الخلاعيّة. الأكثر حذراً يبيعون مخدرات، كان الفناء على شكل حرف V؛ ونصف أرضه إسمنتياً والنصف الآخر ترابياً وكان محاطاً بجدارين فيهما برجا مراقبة من حيث كان يُطلّ حرّاس ضجرون يُدخّنون الماريجوانا، في الجزء الضيّق كانت تُرى نوافذ بعض الزنزانات، وثيابٌ منشورة على القضبان. في القسم المفتوح، كان هناك سياج معدني بارتفاع عشرة أمتار، ينساب خلفه طريق مبلط يقود إلى ملحقات السجن الأخرى، وفيما وراءه هناك سياج آخر أقل ارتفاعاً، لكنّه مزيّن بلفيفة من الأسلاك الشائكة، يبدو كأنّه طالع من الصحراء مباشرة. في المرّة الأولى التي خرج فيها هاس إلى الفناء بدا له لدقائق قليلة أنّه يسير في حديقة عامّة من مدينة أجنبية، حيث لا أحد كان يعرف من يكون . شعر للحظة أنّه كان حرّاً، لكنّ الجميع هناك كانوا يعرفون كلّ شيء، قال لنفسه، وانتظر بصبرٍ أن يقترب منه أوّلُ سجينٌ. بعد ساعة عرضوا عليه مخدرات وسجائر، لكنّه اشترى فقط مرطّباً. بينما كان يشربه وهو يتأمّل مباراة كرة السلّة اقترب منه بضعة سجناء وسألوه عمّا إذا كان صحيحاً أنّه قتل كلّ أولئك النساء. قال هاس لا. وعندها سأله السجناء عن عمله، وعمّا إذا كان بيعُ الحواسيب يعطي أُكلاً. قال هاس إنّ هذا يأتي على شكل هَبَّات. وإنّ صاحب العمل لا يمكن أن يعلمَ هذا علم اليقين أبداً. أي أنّك أنت رب عمل، قال السجناء. لا، قال هاس، أنا خبير في المعلوماتية، أقام تجارته الخاصة به. قال ذلك بجدّية وقناعة جعلت بعض السجناء يحركون رؤوسهم بالموافقة. أراد بعدها هاس أن يعرف ماذا كانوا يعملون هم في الخارج، فراح معظمهم يضحك. هناك لا أكثر، كانت الجملة الوحيدة التي فهمها. هو أيضاً راح يضحك ودعا الخمسة أو الستّة الذين كانوا يحيطون به لتناول بعض المرطبات.

في المرّة الأولى الذي ذهب فيها هاس إلى الحمّامات أراد

شخصٌ يسمونه الخاتم، أن يلوي ذراعه. كان الرجل ضخماً، لكنّه صغير بالمقارنة مع هاس، وكان يُلاحظ من الوجه الذي أظهره أنّه يفعل ذلك كما لو أنّ الظروف تُجبره على القيام بذلك الدور. لو أنّ الأمر يتعلّق به، كان وجهه يقول، لكان مارس العادة السرّية بهدوء في زنزانته. نظر هاس إلى وجهه وسأله كيف يمكن لرجل راشد أن يتصرّف بهذا الشكل. الخاتم لم يفهم شيئاً وضحك. كان عريض وأمردَ الوجه ولم تكن ابتسامته مزعجة. صديق الخاتم، وهو سجين شاب اسمه غواخولوتِ، أخرج مسلة من تحت منشفة وقال له أن يغلق فرطوسه ويذهب معهما إلى زاوية. في زاوية؟، قال هاس. في زاوية لعينة؟ اثنان ممن صادقهما هاس في الفناء وقفا خلف غواخولوتِ وثبّتاه من ذراعيه. علا وجهَ هاس الاستغراب، عاد الخاتم ليضحك وقال ليس إلى هذا الحدّ. في زاوية لا تستأهل كلّ هذا؟، صرخ هاس. في زاوية مثل الكلاب، لا تستأهل كلّ هذا؟ صديق آخر من أصدقاء هاس وقف بجانب الباب فلم يستطع أحد الدخول ولا الخروج من الحمّامات. دعه يمصّه لك، أيّها الغرينغو، صرخ أحدُ السجناء، دَعِ الولدَ يلحسه لك، أيها الغرينغو. الآن، اكوِهِ. ارتفع حجمُ أصواتِ المساجين. انتزع هاس المخرز من غواخولوتِ، وقال للخاتم أن يقف على أربع. إذا لم ترتعد، يا وغدُ، فلن يصيبك شيء. أمّا إذا ارتعدت وخفت فسيكون لك ثقبان للخراء. خلع الخاتمُ المنشفة ونزل إلى الأرض على أربع قوائم. لا، هناك لا، تحت المرذاذ. نهض الخاتم بحركة لامبالاية ووقف تحت الماء. سقط شعره المتموّج والمسرح إلى الخلف، على عينيه. انضباط، يا أوغاد، فقط قليل من الانضباط والاحترام، قال هاس حين دخل بدوره في ممر الحمامات، ثمّ ركع على ركبتيه خلف الخاتم وهمس في أذنه أن يفتح ساقيه جيّداً، وأدخل المخرز ببطء حتى المقبض. استطاع بعضهم أن يرى أنّ الخاتم كان يكظم بين فينة وأخرى صرخة. استطاع آخرون أن

يروا أن قطرات من دم داكن جدّاً كانت تسقط من دبرِ الخاتم والماءُ يحلّها خلال ثوانٍ.

كان أصدقاء هاس يُدعون، تورمِنتا وتِكيلا وتوتغنرامون[1]. كان تورمِنتا في الثانية والعشرين من عمره ومحكوم بالسجن لأنّه قتل مرافق تاجر مخدرات أراد أن يستغلّ أخته. حاولوا قتله مرّتين في السجن. تِكيلا كان في الثلاثين من عمره ومُصاب بمضادات أجسام الإيدز، بالرغم من أنّ قليلين كانوا يعرفون ذلك، لأنّ المرض لم يكن قد تطوّر بعد. توتغنرامون كان في الثامنة عشرة من عمره ولقبه جاء من اسم فيلم. اسمه الحقيقيّ رامون، لكنّه ذهب أكثر من ثلاث مرّات ليُشاهد *انتقام المومياء*، الذي كان فيلمه المُفضّل فعمّده أصدقاؤه، أو ربّما هو نفسه، كما كان يعتقد هاس، باسم توتغنرامون. كان هاس يرضيهم بأنّه يشتري لهم معلّبات ومخدرات. وهم كانوا يعملون سعاة أو مرافقين له. كان هاس يستمع إليهم أحياناً وهم يتكلّمون عن أمورهم، عن تجارتهم، عن حياتهم الأسرية، عن أكثر ما يرغبون به وأكثر ما يخشونه ولا يفهم شيئاً. كانوا يبدون من الفضاء الخارجيّ. أحياناً كان هاس هو من يتكلّم وأصدقاؤه الثلاثة مَنْ يُصغون إليه غارقين في صمت مؤثّر. كان هاس يتكلّم عن ضبط النفس، عن الجهد الذاتي، عن المساعدة الذاتية، عن أنّ قدرَ الأفراد في يدي كلّ فردٍ. يستطيع الرجل أن يصل لأن يصبح لي إيوكوكا إذا ما أراد. هم لم يكن عندهم فكرة عمن يكون لي إيوكوكا. افترضوا أنّه زعيم مافيا. لكنّهم لم يسألوا شيئاً خشيةَ أن يُضيع هاس خيط القصة.

---

[1] تورمِنتا: عاصفة، إعصار، تكيلا: مشروب كحولي مكسيكي وتوتغنرامون تحوير لاسم توت غنج آمون.

حين نُقل هاس إلى الممر مع بقيّة المساجين، اقترب منه تاجر المخدرات كي يودّعه، التفصيل الذي شكره عليه هاس متأثراً. إذا كان عندك مشكلة فأخبرني، قال له، لكن فقط إلى كانت مشكلة عويصة، لا تُزعجني بالترهات. سأحاول ألاّ أزعج أحداً، قال هاس. لاحظتُ ذلك، قال تاجر المُخدّرات. في زيارة اليوم التالي سأله المحامي عمّا إذا كان يُريد أن يبدأ مساعيه كي يُعيدوه إلى الزنزانة الانفرادية. قال له هاس إنّ وضعه جيّد هكذا، وإنّه عاجلاً أو آجلا سوف يترك الزنزانة ولذلك من الأفضل أن يقبل الواقع بأسرع وقت. ماذا أستطيع أن أفعل لأجلك؟، سأله مُحاميه. تِني بهاتفٍ جوّال، قال له هاس. ليس سهلاً أن يتركوك تملك هاتفاً في السجن، قال له محاميه. سهلٌ، سهل، قال هاس، تِني به.

في الأسبوع التالي طلب من محاميه هاتفاً جوّالاً آخر، وبعد وقتٍ قصير آخر. باع الأوّل لشخصٍ محكوم بقتل ثلاثة أشخاص. كان رجلاً عادياً، أقرب إلى المربوع، يرسلون إليه مالاً من الخارج بشكل منتظم، ربّما كي يُبقي على فمه مُغلقاً. قال له هاس إنّ أفضل طريقة لمتابعة الأعمال هي الخلوي فدفع الرجل ثلاثة أضعاف كلفة الهاتف. باع الآخر للحام قتل أحد مُستخدميه، مراهقاً في الخامسة عشرة من عمره، بسكين تقطيع الحيوانات. حين كان يَسألُ اللحّامَ، نصفَ مازحٍ، لماذا قتل الفتى، كان هذا يُجيبه لأنّه لصّ ولأنّه استغلّ ثقته. عندها كان المساجين يضحكون ويسألونه عمّا إذا لم يكن لأنّه لم يتركه يلج دبره. عندها كان اللحام يخفض رأسه ويُنكر عدّة مرات، بإصرار، لكن لم تكن تخرج من بين شفتيه كلمة واحدة ضد تلك الكذبة. أراد أن يتابع من السجن تسيير ملحَمتَيْه، فقد كان يظنّ أنّ أخته، التي راحت وقتها تُدير أعماله، تسرقه. باعه هاس الهاتف وعلّمه استخدام المفكّرة وإرسال الرسائل. أخذ منه خمسة أضعاف سعر الجهاز الأصلي.

كان هاس يُشاطرُ الزنزانةَ خمسةَ مساجين. الذي كان يأمر فيها شخص يُدعى فارفان. كان يُقارب الأربعين من عمره ولم يحدث أن رأى هاس رجلاً أقبح منه. كان شعره ينمو من منتصف جبينه، وله عينا طائرٍ جارح وُضعتا كما لو بالمصادفة وسط وجهٍ ينتمي إلى جنس الخنزير. كان أكرش وكريه الرائحة. له شارب خفيف الشعر وينمو بشكل غير متساو كانت تنضاف إليه عادةً بقايا طعامٍ دقيقة. في المرّات القليلة التي كان يضحك فيها يضحك مثل حمار وفي هذه اللحظات فقط كان يبدو وجهه مقبولاً. حين وصل هاس إلى الزنزانة فكّر أنّه لن يتأخّر في أن يحشر نفسه معه، لكنّ الصحيح هو أنّ فارفان ليس فقط لم يحشر نفسه معه بل بدا ضائعاً في نوع من المتاهة، كلّ السجناء فيها هيئاتٌ غير مادّية. كان عنده أصدقاء في الممر. أشخاص قساة يستخدمونه كحامٍ لهم، لكنّه فقط كان يبحث عن سجين قبيح مثله، شخصٍ يدعى غومِثْ، شخص نحيل، له وجه دودة، على خدّه الأيسر شامة بحجم قبضة اليد وعينا مُحشّشٍ دائم بلوريتان. عادة ما كانا يلتقيان في الفناء والمطعم؛ يتبادلان التحية في الفناء بحركة من رأسيهما وإذا كانا يشاركان فعلاً في الحلقات الأكبر، إلا أنّهما دائماً ينفصلان وينتهيان بأن يتشمسا مستندَيْن إلى الجدار أو ماشيَيْن ساهِيَيْن من ملعب كرة السلة وحتى الشبك الحديدي. لم يكونا يتكلمان كثيراً فيما بينهما، ربّما لأنّه لم يكن عندهما الكثير مما يتكلمان به. كان فارفان حين دخل إلى السجن من الفقر بحيث أنّه ولا حتى المحامي الذي عينته له المحكمة كان يأتي لزيارته. أمّا غومِثْ الموجود هناك لأنّه كان يسرق الشاحنات، فكان لديه بالفعلِ محام، وقد نجحَ بعد أن تعارفا في أن يجعل محاميه يتابع أوراق فارفان. المرّة الأولى التي توالجا فيها حدثت في ملحقات المطبخ. عملياً فارفان هو الذي اغتصب غومِثْ. ضربه، رماه فوقَ بعض الأكياس واغتصبه مرّتين. بلغ غضب غومِثْ حدّاً كبيراً حتى أنّه حاول أن يقتل فارفان. انتظره مرّةً في المطبخ،

حيث كان فارفان يعمل في غسل الصحون وجرّ أكياس البقول، حاول أن يطعنه بمخرز، لكنّ فارفان لم يجد صعوبة في ليّ ذراعه. عاد واغتصبه ثمّ قال له، بينما هو ما يزال مبقياً عليه تحت جسده، إنّ وضعاً كهذا يجب أن ينتهي بطريقة أو بأخرى. كتعويضٍ سمح لغومِثْ بأن يلِجه. بل وأكثر من ذلك أعاد له المِخرزَ تأكيداً على الثقة، أنزلَ بعدها بنطلونَهُ وارتمى على فراش القشّ. بدا فارفان، المرميّ هناك على بطنه مكشوفَ الدبر، خنزيرةً، ومع ذلك ولجَهُ غومِثْ وجدّدا صداقتهما.

بما أن فارفان كان الأقوى، فقد أجبر الآخرين أحياناً على مغادرة الزنزانة. يظهر بعدها بقليل غومِثْ ويشرعان بالمجامعة وحين كانا ينتهيان يبدأان يُدخّنان ويتكلّمان أو يبقيان صامتين، فارفان مستلق على فراشه وغومِثْ على فراش السجين الآخر ينظر إلى السقف أو إلى حلقات الدخان التي كانت تخرج من النافذة المفتوحة. كان يبدو لفارفان أنّ الدخان يحرزُ أحياناً أشكالاً غريبة: أشكال أفاعٍ، أذرع، أرجل تنحني، أحزمة تنفجر في الهواء، غوّاصات بأبعاد أخرى. كان يغمض عينيه نصف إغماضٍ ويقول: ما أنعمها، ما أنعمها من نفثة. كان غومِثْ، العمليّ أكثر منه، يسأله ما الذي كان ناعماً، عمّا كان يتكلّم، وفارفان لا يعرف كيف يوضّح له. عندها كان غومِثْ ينهض وينظر إلى جانبيه، كما لو أنّه يبحث عن أشباح صديقه وينتهي بالقول: رائحة قدميك مريعة.

لم يكن هاس يفهم كيف لقضيبٍ أن يستطيع الانتصاب أمام ثقبِ شرجٍ كثقب شرج فارفان أو غومِثْ. كان باستطاعته أن يتفهّم أن يُثار رجلٌ أمام مراهق، صبيٍّ وسيم، فكّر، لكنه لا يفهم كيف يستطيع رجلٌ أو دماغُ هذا الرجل أن يُرسل إشارات كي يملأ الدمُ إسفنجاتِ القضيب، واحدة فواحدة، مع صعوبة ذلك، بمجرد استدعاء ثقبِ،

كثقب فارفان أو ثقب غومِثْ له. حيوانات، كان يُفكّر. بهائم قذرة تشدّها القذارة. كان يرى نفسه في أحلامه يجوب ممرات السجن، بمختلف أجنحته ويستطيع أن يرى عينيه، شبيهَتَيّ عيني الصقر، بينما هو يسير بخطوٍ ثابت في تلك المتاهة من الشخير والكوابيس، متيقّظاً لما يجري في كلّ زنزانة، إلى أن لا يستطيع فجأةً أن يُتابع تقدّمَهُ ويتوقّف على حافّة هاوية (فسجن أحلامه كان مثل قلعة تنهضُ على حوافٍّ هاوية لا يُدركُ غورها). هناك كان، هو غير القادر على التراجع، يرفعُ ذراعيه، كما لو أنّه يناجي السماءَ (المكفهرّة كالهاوية)، يُحاول بعدها أن يقول شيئاً، أن يتكلّم، أن ينصح فيلقاً مصغّراً لكلاوس هاس، لكنّه ينتبه، أو يتولّد عنده انطباع لثانية، إلى أنّ أحداً خاط له شفتيه. ومع ذلك يُلاحظ شيئاً في فمه. لم يكن لسانه، لم تكن أسنانه. قطعة لحم يُحاول ألاّ يبلعها، بينما هو يقتلع الخيوط بيدٍ. كان الدم يجري على ذقته؛ يشعر بلثّتيه مخدَّرَتين. حين يستطيع أخيراً أن يفتح فمه يبصقُ قطعةَ اللحم ثمّ يركع في الظلمة ويبحث عنها. حين يعثر عليها، ينتبه، بعد أن تحسّسها بعناية إلى أنّها قضيب. يمد يده مذعوراً إلى سرواله الداخلي، خائفاً ألا يجد قضيبه هناك، إذن القضيب الذي كان بين يديه لشخصٍ آخر. لمن؟، فكّر بينما الدمُ ما يزال يتدفق من شفتيه. يشعر بعدها بنعاسٍ شديد فيتقوقع على حافّة الهاوية وينام. ما كان يحدث عندئذٍ عادةً هو أنّه يحلم أحلاماً أخرى.

اغتصاب النساء ثمّ قتلهن كان يبدو له أكثر جاذبية، أكثر *شهوانية*، من قبرِ القضيب في ثقب فارفان المتقيّح، أو في ثقب غومِثْ المليء بالخراء. إذا ما استمرّا بالمجامعة سأقتلهما، كان يُفكّر هاس أحياناً. سأقتل أوّلاً فارفان، ثمّ سأقتل غومِثْ، سيساعدني التاءات الثلاث[١]،

(١) يقصد تورمِنتا وتِكيلا وتوتغنرامون.

سيأتونني بالسلاح وبالحجّة، وبالخطّة، أرمي بعدها الجسدين في الهاوية ولن يعود أحد ليتذكّرهما.

بعد خمسة عشر يوماً من دخوله سجن سانتا تِرِسا أجرى هاس مؤتمرَهُ الصحفيّ الأوّل، حضره أربعة صحفيين من العاصمة الفيدرالية ونصف وسائل الإعلام المكتوبة في ولاية سونورا تقريباً. أكّد هاس خلال المقابلة على براءته، قال إنّهم أعطوه خلال الاستجواب «موادّ غريبة» كي يتمكّنوا من ثني إرادته. لا يتذكّر أنّه وقّع شيئاً، ما من تصريح يدين فيه نفسه، لكنّه أشار إلى أنّه إذا حدث ووجد فإنّ هذا قد حصل بعد أربعة أيّام من التعذيب الجسديّ والنفسيّ «والطبيّة». ونبّهَ الصحفيين إلى أنّه ستجري في سانتا تِرِسا «أمور» ستبرهن على أنّه ليس قاتل النساء. في السجن، ألمحَ، يُحيط الواحدُ بكثير من الأخبار. كان بين الصحفيين الذين قدموا من العاصمة الفيدرالية سِرْخيو غونثالِث. لم يكن وجوده هناك يعود كما في المرّة الأولى إلى أنّه يحتاج إلى مال ويقوم بعمل إضافيّ. حين علم بأنّ هاس قد أوقِف، تكلّم مع رئيس قسم أخبار الشرطة الجنائية وطلب منه، كنوع من المعروف الخاص، أن يتركه يُتابع القضيّة. لم يضع رئيس القسم أي عائق أمامه وحين سمع بأنّ هاس كان يُفكّر بأن يتحدّث إلى الصحافة، هتف إلى سِرخيو في قسم الثقافة وقال له إذا كان يُريد أن يذهب فليذهب. القضية منتهية، قال له، لا أفهم جيّداً اهتمامك به. أيضاً سِرخيو غونثالِث لم يكن يفهمه جيّداً. تراه مرض نفسي خالص، أم تراه يقين أنّه ما من شيء في المكسيك يعتبر منتهياً تماماً. حين انتهى المؤتمر الصحفي المرتجل ودّعَتْ محامية هاس جميعَ الصحفيين شادّةً على أيديهم. حين جاء دور سِرخيو لاحظ هذا أنّها مرَّرت له ورقة دون أن ينتبه أحد. أدخل يده في جيبه وترك الورقة هناك. حين خرج من السجن، وبينما هو ينتظر سيارة أجرة، فحصها. في الورقة رقم هاتف فقط.

شكّل مؤتمر هاس الصحفيّ فضيحة صغيرة. تساءلوا في بعض وسائل الإعلام منذ متى يستطيع سجين أن يستدعي الصحافة ويتكلّم معها في السجن، كما لو أنّ هذا بيته وليس المكان الذي وضعته فيه الدولة والعدالة كي يدفع ثمن جريمة أو، كما كانت تُذكّر جيّداً أوراق القضية ذاتها، كي يُنَفّذ حكماً قضائياً. قيلَ إنّ مُدير السجن قد تلقى مالاً من هاس. قيل إنّ هاس وارثٌ، وارثٌ وحيد لعائلة أوروبية ثرية جدّاً. بحسب هذا الخبر، كان هاس يسبح في نعيم وسجن سانتا تِرِسا بكامله في خدمته.

اتصل سِرخيو غونثالِث في تلك الليلة بالرقم الذي أعطته له المُحامية. ردّ عليه هاس. لم يعرف ماذا يقول له. نعم؟، قال هاس. عندك هاتف، قال سِرخيو غونثالِث. مع من أتكلّم؟، سأل هاس. أنا أحد الصحفيين الذين كانوا معك اليوم. صحفيّ العاصمة الفيدرالية، قال هاس. نعم، قال سِرخيو غونثالِث. مع من كنت تأمل أن تتكلّم؟ سأله هاس. مع محاميتك، اعترف سِرخيو. يا سلام، يا سلام، يا سلام! قال هاس. لزما الصمتَ برهةً. هل تريدني أن أحكي لك شيئاً؟ سأله هاس. هنا، في السجن، في الأيّام الأولى، كنتُ خائفاً. كنتُ أظنّ أنّ المساجين الآخرين، حين يرونني، سوف ينقضّون عليّ لينتقموا لمقتل كلّ أولئك البنات. كان وجودي في السجن يساوي تماماً وجودي مهجوراً في يوم سبت عند الظهيرة في واحد من تلك الأحياء، في ضاحية كينو، ضاحية سان داميان، ضاحية لاس فلورِس. أُقْتَلُ انتقاماً، أموت سلخاً. هل تفهمني؟ الغوغاء يبصقون عليّ، ثمّ يرفسونني ثمّ يسلخونني. دون إمكانية لأن أقول شيئاً. لكنّني سرعان ما انتبهتُ إلى أنّ أحداً في السجن لا يريد أن يسلخني. على الأقل بسبب ما أنا متهم به. ماذا يعني هذا؟،سألتُ نفسي. هل هؤلاء الأولاد كانوا عديمي إحساس تجاه جرائم القتل؟ لا. هنا الجميع، حساسون،

بعضهم أكثر وبعضهم أقل، تجاه ما يجري في الخارج، كما لو قلنا، تجاه نبض المدينة. إذن ما الذي كان يجري؟ سألتُ أحد المساجين. سألته ما رأيه بالنساء المقتولات، بالفتيات المقتولات. نظر إليّ وقال لي كنَّ عاهرات. يعني، يستحققن القتل؟ سألتُهُ. لا، قال السجين. كنّ يستحققن أن يجامعهن الواحد كلّ المرات التي كان يرغب فيها بمجامعتهنّ، لكن ليس أن يُقتلن. عندئذ سألته عمّا إذا كان يعتقد أنّني قتلتهنّ والديوث قال لي لا، لا، أكيد أنت لا، ياغرينغو، كما لو أنّني كنت غرينغو لعيناً، وهو ما يمكن أن أكونه في أعماقي، وإن كنتُ في كلّ مرّة أقل. ماذا تريد أن تقول لي؟، سأله سِرخيو غونثالِث. إنّهم في السجن يعرفون أنّني بريء، قال هاس. وكيف يعرفون؟ تساءل هاس. هذا ما كلّفني أكثر قليلاً كي أتأكّد منه. إنّه مثل ضجيج يسمعه أحد في حلمه. الحلم، ككل الأحلام التي يُحْلَم بها في الأماكن المغلقة، مُعدٍ. فجأة يحلم به أحد وبعد برهة يحلم به نصف السجناء. لكنّ *الضجيج* الذي سمعه أحد ليس جزءاً من الحلم بل من الواقع. الضجيج ينتمي إلى مستوى آخر من الأشياء. هل تفهمني؟ أحد سمع ثم الجميع سمعوا ضجيجاً في حلم لكنّ الضجيج لم يحدث في الحلم بل في الواقع، الضجيج واقعي. هل تفهمي؟ هل هو واضح بالنسبة إليك، أيّها السيّد الصحفيّ؟ بلى، أعتقد ذلك، قال سِرخيو غونثالِث. أعتقد أنّني أفهمك. صحيح، صَحيح، هل أنت متأكّد؟، قال هاس. تريد أن تقول إنّ في السجن أحداً يعرف بالدليل القاطع أنّك لم تستطع أن ترتكب جرائم القتل، قال سِرخيو. بالضبط. بالضبط قال هاس. وهل تعرف أنت من هو هذا الشخص؟ عندي بعض الأفكار، قال هاس، لكنّني بحاجة للزمن، وهو ما يبدو بالنسبة لحالتي غريباً، ألا ترى ذلك؟ لماذا؟، سأل سِرخيو. لأنّ الشيء الوحيد المتوفّر عدني بكثرة هو الوقت. لكنّني بحاجة إلى مزيد من الوقت، قال هاس. أراد سِرخيو بعدها أن يسأل هاس عن اعترافه، عن تاريخ المحاكمة، عن المعاملة

التي تلقاها من الشرطة، لكنّ هاس قال له إنّهم سيتحدّثون عن هذا في وقت آخر.

في تلك الليلة ذاتها أسرّ المُحقّقُ خوسِهْ ماركيز للمُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ بمحادثة سمعها دون قصد في أحد ملحقات شرطة سانتا تِرِسا، الذين كانوا يتكلّمون هم بِدرو نِغْرِتِ، المُحقّق أورتيث رِبويّندو، المحقّق أنخِل فِرنانذِثْ ومرافق نِغْرِتِ، إبيفانيو غاليندو، وإن كان إبيفانيو غاليندو، للحقيقةِ، الوحيد الذي لم يفتح فمه. كان موضوع الحديث هو المؤتمر الصحفي الذي أقامه المشتَبَهُ به كلاوس هاس. بالنسبة إلى أورتيثْ رِبويّدو تقع اللائمة على مدير السجن. لا بدَّ أنّ هاس أعطاه مالاً. أنخِل فِرنانذِثْ كان موافقاً. بِدرو نِغْرِتِ قال إنّ من المحتمل أن يكون شيئاً أكثر من ذلك، ثقلاً استثنائياً كي يلوي إرادة مدير السجن في هذا أو ذاك الاتجاه. وهنا ظهر اسم إنريكِ هِرنانذِثْ. أنا أظنّ أنّ إنريكِ هِرنانذِثْ أقنع مدير السجن، قال نِغْرِتِ. هذا ممكن، قال أورتيثْ رِبويّدو. ابن العاهرة الكبيرة، قال أنخِل فِرنانذِثْ. وكان هذا كلّ شيء. دخل بعدها خوسِهْ ماركيز إلى المكتب حيث كان الآخرون، سلّم، قام بحركة من سيبقى، لكنّ أورتيثْ رِبويّدو، أشار له بأن من الأفضل له أن يذهب، وحين خرج أغلق أورتيثْ رِبويّدو بنفسه الباب بالسقاطة كي لا يُزْعَجوهم من جديد.

كان إنريكِ هِرنانذِثْ في السابعة والثلاثين من عمره، عمل فترة لصالح بِدرو رِنخيفو ثمّ لصالح إستانيسلاو كامبوثانو. كان قد وُلِد في كانانيا وحين صار معه ما يكفي من المال اشترى مزرعة في الأطراف، حيث راح يُربّي الأبقار، وبيتاً، من أفضل ما استطاع العثور عليه في وسط المدينة، على بعد خطوات قليلةً عن ساحة السوق. إضافة إلى أنّ جميع رجاله الموثوقين كانوا من مواليد كانانيا. كان يُفترض أنّه

المكلّف بنقل المخدرات التي تصل بحراً إلى سونورا من نقطة ما بين غوايماس وكابو تِبّوكا، في أسطول من خمس شاحناتٍ وثلاث سيارات سوبوربان. كانت مهمته أن يترك البضاعة بأمان في سانتا تِرِسا، بعدها هناك شخص آخر يأخذ على عاتقه نقلها إلى الولايات المتحدة. لكنّ إنريكيتو هِرنانديثْ تواصل مع سلفادوريّ داخِلٍ في التجارة، وكان مثله يريد أن يستقلّ، واصله السلفادوريّ مع كولومبي، وفجأة وجد إستانيسلاو كامبوثانو نفسه من دون مسؤول عن النقل في المكسيك وأمام إنريكيتو وقد صار منافساً له. على كلّ الأحوال لم يكن حجم البضائع قابلاً للمقارنة. فمقابل كلّ كيلو غرام كان يُحرّكه إنريكيتو، كان كامبوثانو يُحرّك عشرين، لكنّ الحنق لا يعرف فروقاً في حجم الصفقات، وهكذا انتظر كامبوثانو ساعتَهُ بصبرٍ ودون تهوّرٍ. طبعاً لم يكن من صالحه أن يُسلّمَ إنريكيتو لأسبابٍ تتعلّق بتجارة المخدرات، وإنما أن يزيحه من الطريق بطريقة شرعية، ثم يأخذ هو نفسه على عاتقه وبطريقة غير شرعية استعادته. حين حانت اللحظة (مسألة تتعلّق بالنساء تورّط فيها إنريكيتو وانتهى بقتل أربعة أشخاص من عائلة واحدة)، أحاط النيابةَ العامة في سونورا علماً، وزّع المال والأدوار، وانتهى إنريكيتو بعظامه إلى السجن. خلال الأسبوعين الأوّلين لم يحدث أيُّ شيء، لكن في الأسبوع الثالث حضر أربعة رماة مسدسات إلى مستودع في ضواحي سان بلاس، في شمال ولاية سينالوّا وأخذوا بعد أن قتلوا الحارسين حمولة من مئة كيلوغرام كوكا. كان المستودع يعود إلى فلاّح من غوايْماس، في جنوب ولاية سونورا، مضى على وفاته خمس سنوات. أرسل كامبوثانو أحدَ رجاله الموثوقين ليحقّق في القضيّة، شخص يُدعى سِرخيو كانسينو، الملقّب بسِرخيو كارلوس، الملقّب بسرخيو كامارغو، الملقّب بِسِرخيو كارّيثو)، الذي تبين له بعد أن سأل في محطة المحروقات وفي محيط المستودع خرج باستنتاج واحد وهو أنّ أكثر من شخص رأى هناك أثناء عملية السرقة

سيارة سوبوربان سوداء مثل تلك التي يستخدمها رجال إنريكيتو هِرنانِدِثْ. بحث سِرخيو بعدها ليرى ما إذا كان سيعثر على مالكها في مزارع المنطقة، ووصل في بحثه حتى إل فورتِ، لكن لا أحد فيها، ولا حتى أصحاب المزارع الذين وحدهم من كان عندهم مال ليشتروا مثل تلك السيارة. لم تكن المعلومة مطمئنة، لكن ليس أكثر من ذلك، فكّر إستانيسلاو كامبوثانو، معلومة تحتاج إثبات عكسها. فسيارة السوبوربان كان من الممكن أن تكون لسائح أمريكي شمالي ضائع في تلك المنطقة الغبارية، أو يمكن أن تكون لمُحقّقٍ مرّ من هناك، أو لموظف رفيع في إجازة مع أسرته. بعد قليل وبينما كان يمضي في طريق ترابي من لا ديسكورديا إلى إل ساسابِ، على الحدود مع الولايات المتحدة، هاجمت شاحنة فيها عشرون كيلوغراماً من الكوكا إستانيسلاو كامبوثانو وقتلوا السائق ومرافقه اللذين كانا أعزلين، فقد كانا يفكّران بأن يجتازا في ذلك المساء الحدودَ إلى أريزونا ولا أحد يحمل أسلحة حين ينقل مخدرات. إمّا أن تعبر بالسلاح أو بالمخدرات، لكن ليس بالاثنين معاً. لم يعرف قط شيئاً عن الرجال الذين كانوا في الشاحنة. ولا عن المخدرات. ظهرت الشاحنة بعد شهرين في محلّ خردة في هِرموسيّو. بحسب سِرخيو كانسينو اشترى صاحبُ محل الخردة الشاحنةَ في حالة سيّئة جدّاً، من ثلاثة مدمنين جانحين عاديين ووشاة عند شرطة هِرموسيّو. تكلّم مع واحد منهم، المُلقَّب بإلفيس، قال إنّه أهداها له صعلوكٌ من سينالوَا بأربعة بيزوات. حين سأله كيف عرف أنّه من سينالوَا، أجابه إلفيس من طريقة كلامه. وحين سأله كيف عرف أنّه صعلوك، قال إلفيس من عينيه. كان ينظر كمُقامر، كريمٍ، لا يخافُ شيئاً ولا أحداً، لا من أتباع تيرانِ ولا من أتباع ريكاردو، مُقامر حقيقيّ، شخص يمكن أن يرميك بطلقة في كبدك أو أن يعطيك شاحنته مقابل علبة مارلبورو، أو لفافة ماريجوانا. هل أعطاك الشاحنة مقابل سيجارة ماريجوانا؟، سأله سِرخيو ضاحكاً.

نصف سيجارة خردل، قال إلفيس. هذه المرّة فعلاً شعر كامبوثانو بالحنق.

لماذا يحمي إنريكيتو هِرنانِدِثْ هاس، طبعاً على طريقته ؟، سأل المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ. كيف يستفيد؟ من يؤذي بحمايته لِهاس؟ إلى متى يُفكّر أن يحميه؟ لشهر، لشهرين، كلّ الوقت الذي يعتقد أنّه ضروريّ؟ ولماذا استبعاد التعاطف، الصداقة؟ أليس من الممكن أن يكون إنريكيتو قد صادق هاس؟ ترى هل من الممكن أن تكون الحماية محدّدة بالصداقة؟ لكن لا، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. إنريكيتو هِرنانِدِثْ لم يكن له أصدقاء.

لم تظهر في تشرين الأوّل من عام ١٩٩٥ أيُّ امرأة مقتولة في سانتا تِرِسا ولا في ضواحيها. منذ أواسط أيلول، كما يُقالُ عادةً، كانت المدينة تتنفّس بسلام. ومع ذلك عُثِرَ في تشرين الثاني على مجهولة في جرف إل أوخيتو، عرف لاحقاً أنّها أدريانا غارثيّا إسترادا، ابنة الخمسة عشر عاماً، التي اختفت قبل أسبوع، وهي عاملة في معمل إستويست. كان سبب الموت، بحسب الطبيب الشرعيّ، كسر في العظم اللامي. كانت ترتدي بلوزة رمادية عليها طبعة فرقة روج وتحت البلوزة حمالة ثديين بيضاء. ومع ذلك كان الثدي الأيمن مبتوراً وحلمة الثدي الأيسر مقتلعة عضّاً. تولّى القضية المُحقّق لينو ريبِرا ثمّ المُحقّقان أورتيث رِبويّدو وكارلوس مارين.

في العشرين من تشرين الثاني، بعد أسبوع من العثور على جثّة أدريانا غارثيّا إسترادا، تمّ العثور على جثّة في قفرٍ من ضاحية لا بيستوسا. ظاهريّاً كان عمر المجهولة تسعة وعشرين عاماً وأسباب الموت بضع طعناتٍ في القفص الصدري، نُفّذت بسلاحٍ ذي حدّين. كانت المجهولة ترتدي صدريةً رمادية لؤلؤية وبنطلوناً أسود. حين

خلعوا عنها بنطلونها في مخبر الطب الشرعي وجدوا أنّها كانت ترتدي بنطلوناً آخر تحته، رماديّ اللون. نزواتُ الكائن الإنساني لغزٌ، كتب الطبيب الشرعي. تولّى القضيّة المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ. لم يُطالب أحدٌ بالجثة.

ظهرت بعد أربعة أيّام الجثة المبتورة لبياتريث كونثِبثيون رولْدان على جانب طريق سانتا تِرِسا-كانانيا. سبب الموت جرح، ناتج عن حربة أو سكين كبيرة الأبعاد، شقها من السرّة وحتى الصدر. كانت بياتريث كونثبثيون رولدان في الثانية والعشرين من عمرها، وطولها مئة وخمسة وستين سنتيمتراً، نحيلة، سمراء البشرة؛ طويلة الشعر، يصل إلى منتصف ظهرها. كانت تعمل نادلة في محل في مادِرو-نورتِ وتعيش مع إبوديو ثيفونتِس وأخت لهذا، تُدعى إليانا ثيفونتِس، بالرغم من أنّه لم يُبلغ أحدٌ عن اختفائها. كانت تظهر على الجثّة كدمات مزرقة في مناطق متعدّدة، لكن لم يكن هناك غير طعنة سكين واحدة، هي التي تسبّبت بالوفاة، وهذا ما استنتج منه الطبيب الشرعي أنّ الضحية لم تُدافع عن نفسها أو أنّها كانت فاقدة الوعي في اللحظة التي طُعِنت فيها الطعنة القاتلة. بعد نشر صورتها في *لا بوث دِ سنونورا* حدّدت مكالمة مجهولة هويتها بأنّها بياتريث كونثِبثيون رولدان، مقيمة في ضاحية سور. حين حضرت الشرطة، بعد أربعة أيام، إلى بيت الضحية وجدت بيتاً من أربعين متراً مربّعاً فيه غرفتان صغيرتان، إضافة إلى الصالون المفروش بأثاث مُنجد ببلاستيكٍ شفاف مهملٍ تماماً. بحسب الجيران، المدعو إبوديو ثيفونتِس وأخته لم يتواجدا هناك منذ ستة أيّام تقريباً. رأتهما إحدى الجارات يخرجان جارّاً كلّ منهما حقيبتين. قليلة هي آثار الأخوين ثيفونتِس الشخصية التي عثروا عليها بعد تفتيش البيت. تولّى القضيّة منذ البداية المُحقّق إفرايين بوستِلو، الذي لم يتأخر في أن يكتشف أنّ الأخوين ثيفونتِس كانا معروفين أكثر من شبحين بقليل. لم

يكن هناك صور لهما. الوصف الذي استطاع الحصول عليه لهما كان مبهماً، إذا لم يكن متناقضاً: كان ثيفونتِس ربعَ القامة، نحيلاً جدّاً، وقسمات أخته لا تحتفِظُ بها الذاكرة. بحسب جار كان يظن أنّه يتذكّر، كان إبوديو ثيفونتِس يعمل في معمل فيلِ-سيس، لكنّه لم يكن عندهم هناك أيّ شخص بهذا الاسم، لا الآنَ ولا في الأشهر الثلاثة الأخيرة. حين طلب إفرايين بوستِلو لوائح أسماء العمال في الستة أشهر الأخيرة، قالوا له إنّها للأسف ضاعت أو وضعت في غير مكانها بسبب خطأ فنّي. ثم وقبل أن يسألهم إفرايين بوستِلو متى يمكن أن تكون تلك اللوائح جاهزة كي يُلقي عليها نظرة، سلّمه أحد الموظّفين التنفيذيين مغلّفاً فيه نقود فنسيَ بوستِلو القضيّة. من المحتمل أنّه، فكّر، لم يكن لِيَعْثُرَ على أيّ أثر لإبوديو ثيفونتِس في تلك اللوائح، هذا إذا كانت ما تزال موجودة، إذا لم يكونوا قد أحرقوها. أصدر مذكّرةَ توقيف باسم الأخوين، دارت، مثل بعوضة حول نارٍ، على عدّة مخافر في الجمهورية. بقيت القضية دون توضيح.

في كانون الأوّل، عُثر في قفرٍ من ضاحية مورِلوس، عند مستوى شارع كوليما وشارع فونْسانتا، على جثّة ميتشل رِكِخو التي كانت قد اختفت قبل أسبوع. عثر على الجثّة بعضُ الأطفال المعتادين على لعب كرة القاعدة في القَفْر. كانت ميتشل رِكِخو تعيش في ضاحية سان داميان جنوب المدينة وتعمل في معمل هوريزون دبليو أند إي. كانت في الرابعة عشرة من عمرها، نحيلة وأليفة. لم يُعرف لها خطيب. كانت أمّها تعمل في المنشأة ذاتها وتكسب في أوقات فراغها بعض البيزوات الإضافية كعرّافة وطبيبة شعبية. كانت في الأساس تُقدم خدماتها لنساء الحيّ وبعض رفيقات العمل اللواتي كانت عندهنّ مشاكل حبّ. كان أبوها يعملُ في معمل أغيلار أند لِنوكس. عادة ما يعمل نوبة واحدة مضاعفة في الأسبوع. كان لها أخوان أصغر منها واحدة في العاشرة

تذهبُ إلى المدرسة وأخ في السادسة عشرة، يعمل إلى جانب أبيه في أغيلار أند لِنوكس. ظهرت على جثّة ميتشِل رِكِخو بضعةُ طعنات، بعضها في الذراعين وأخرى في القفص الصدري. كانت ترتدي بلوزة سوداء ظهر فيها تمزّقات ربّما نتجت عن السكين ذاته، وبنطلوناً مُكَسَّماً، من قماش صناعي، أُنزِل حتى ركبتيها. كانت تنتعل حذاء تنس أسود اللون، ماركة ريبوك. رُبطت يداها إلى الخلف وبعد ذلك بقليل أشار أحدهم إلى أنّ العقدة هي ذاتها العقدة التي رُبطت بها إستريّا رويثْ ساندوبال وهو ما جعل بعض رجال الشرطة يضحكون. تولّى القضية خوسِهْ ماركيز، الذي حكى بعض خصوصياته لِخوان دِ ديوس مارتينِثْ. لفت هذا انتباهَهُ إلى أنّ المصادفتين غريبتان ليس في اقتصارهما على العقدتين وحسب، بل وفي أنّه سبق وارتُكِبت جريمةٌ مماثلة في قفرٍ بجانب مدرسة مورلِوس التحضيريّة. لم يكن خوسِهْ ماركيز يتذكّر القضيّة. قال له خوان دِ ديوس مارتينِثْ: كانت امرأة لم يستطيعوا أن يعرفوا هويتها أبداً. في تلك الليلة ذهب المُحقّقان معاً إلى القفر الذي عُثِرَ فيه على جثّة ميتشل رِكِخو. بقيا برهة يفحصان ظلال القفرِ. خرجا بعدها من السيارة وسارا بين الجنباتِ يدوسان على أكياسِ نايلون في داخلها مواد رخوة. راحا يُدخنان. كانت تفوح من المكان رائحة جثّة. قال له خوسِهْ ماركيز إنّه بدأ يسأم من هذا العمل، حدّثه عن منصب رئيس أمن في مونتيري، وسأله أين تقع المدرسة التحضيرية. أشار خوان دِ ديوس مارتينِثْ إلى مكان في الظلمة. هناك، قال. سارا في ذلك الاتجاه. عبرا عدّة شوارع ترابية، وشعرا بأنّ هناك من يُراقبهما. حمل خوسِهْ ماركيز يده إلى غمدِ مسدّسه ومع أنّه لم يخرجه إلا أنّه شعر بالطمأنينة. وصلا إلى سياج المدرسة الحديدي المضاء بمصباح وحيد. هناك كانت المقتولة، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ، مشيراً بسبّابته إلى مكان قريب غبر دقيق على طريق نوغالِسْ. اكتشفها بوّابُ المدرسة التحضيرية. لا بدّ أنّ القاتلَ أو القتلةِ وصلوا في

سيّارة. أخرجوا المقتولةَ من صندوقِ الأمتعة ورموها في القفر. لم يكن باستطاعتهم أن يتأخّروا أكثر من خمس دقائق. أنا أقدّرها بعشر دقائق، لأنّ المكان ليس قريباً من الطريق. كانوا ذاهبين إلى كانانيا أو قادمين من كانانيا. يمكنني أن أقول، نظراً للمكان الذي رموا فيه الجثّة، إنّهم كانوا ذاهبين باتجاه كانانيا. لماذا، يا أخي؟ سأل خوسِهْ ماركيز. لأنّك إذا جئت من كانانيا، هناك أماكن كثيرة قبل، أن تصل إلى سانتا تِرِسا، أفضلُ للتخلّص من الجثة. ثمّ إنّني أعتقد أنّهم أخذوا راحتهم في الوقت، قالوا لي إنّ الجثّة كانت نصف مخترقة. يا إلهي، قال خوسِهْ ماركيز، صحيح، يا بِبيتو[1]، بالنتيجة يصعب وضع هكذا جسد بهذه الطريقة، كأن نقول مُجهّزاً، في صندوق سيّارة. الاحتمال الأكبر هو أن يكونوا شكّوه فيها بجانب المدرسة التحضيريّة. لكن، يا لهم من وحوش، يا أخي، قال خوسِهْ ماركيز. رموها على الأرض ثمّ أدخلوا الوتد الطويل في مؤخرتها، ما رأيك؟ وحشية يا أخي، قال خوسِهْ ماركيز، لكنّها لم تكن حيّة، أليس صحيحاً؟ لا، في الحقيقة لم تكن حيّة، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ.

المقتولتان التاليتان أيضاً عُثِر عليهما في كانون الأوّل ١٩٩٥. الأولى وتدعى روزا لوبِّثْ لاريوس، وكانت في التاسعة والعشرين من عمرها وعُثِرُ على جثّتِها خلف أحد أبراج بِمِكس، حيث كان يجتمع بعض الأزواج ليمارسوا الحبّ. كانوا في البداية يأتون في سياراتٍ أو فانات، لكنّ المكان صار موضةً ولم يعد مستغرباً أن ترى فيه مراهقين على دراجة نارية أو عادية، بل وبعضَ العمال الذين يأتون سيراً على أقدامهم، إذ بالقرب من هناك كان يوجد موقف حافلات. كانوا يُفكّرون أن يُشيّدوا خلف برج بِمِكس بناء آخر، لكنّه في النهاية لم

(١) تصغير خوسِهْ.

يُشَد، وبقي العقار قفراً ووراء القفر تنهض بعض البيوت الريفيةِ مسبقة الصنع، الفارغة حالياً، شغلها لزمنٍ عمّال الشركة. كانت السيارات تصطفّ كلَّ ليلة في المنطقة، وأحياناً بطريقة استفزازية يضعون المذياع بأعلى صوته، لكن في غالبية الأحيان بطريقة محتشمة فيفتح الفتية الذين يصلون على دراجاتهم النارية أو العادية أبوابَ البيوت المُخَلّعة، يشعلون مصابيحهم اليدوية وشموعهم ويضعون موسيقى بل ويُحضّرون أحياناً عشاءً. خلف البيوت الصغيرة وفي منحدر خفيف كانت تنهض غابة من الصنوبر القصير، زرعتها شركة بِمِكس هناك حين بنوا البرج. بعض الفتية كانوا يبحثون عن حميميّة أكثر فيدخلون إلى الغابة مُجَهَّزين ببطانيات. هناك عثروا على جثة روسا لوبِّثْ لاريوس. عثر عليها فَتَىً وفتاة في السابعة عشرة من عمرهما. ظنّتها الفتاة أحداً نائماً، لكن حين سلّطا عليها ضوء المصباح انتبها إلى أنّها كانت ميتة. راحت الفتاة تصرخ وخرجت هاربة مذعورة. أظهر الفتى رباطةَ جأشٍ كافيةً أو فضولاً كبيراً، فقلب الجثةَ ونظر في وجه الميتة. استنفر صراخ الفتاة شاغلي القفر. غادر على الفور بعض الفتية. في إحدى السيارات كان هناك شرطيّ بلدية، هو من أبلغ عن العثور على الجثة وحاول أن يتفادى، عبثاً، الذعر المعمّم. حين وصلت الشرطة لم يكن قد بقي إلا عدد قليل من المراهقين الخائفين وشرطيّ البلديّة قد أوقفهم جميعاً مسدّداً عليهم مسدسه. في الثالثة صباحاً ظهر المُحقّق أورتيث رِبويّدو والشرطيّ إيبفانيو غاليندو. كان بقية الشرطيين قد نجحوا في جعل شرطيّ البلدية يخبّئ مسدسه التاورس ماغنوم غير النظامي وأن يهدأ. استجوب إيبفانيو في القفر الفتاة مستنداً إلى سيارة الدورية، بينما صعد أورتيث رِبويّدو إلى الغابة الصغيرة ليُلقي نظرة على الجثّة. كانت روزا لوبِّثْ قد ماتت متأثّرة بالجراح العديدة التي تلقتها من سلاح أبيض مزّق بلوزتها وكنزتها أيضاً. لم يكن معها أيّ ورقة تُثبت هويّتها ولذلك سُجّلت في البداية كمجهولة. ومع ذلك قالت امرأةٌ، بعد يومين وبعد أن ظهرت

صورتها في صحف سانتا تِرِسا الثلاث، إنّها ابنة عمّ لها، وعرّفتها بأنّها روزا لوبِّثْ لاريوس، وقالت للشرطة كلَّ الذي تعرفه، بما في ذلك عنوان القتيلة، القائم في شارع سان ماتيو، في ضاحية لاس فلورِس. كان برج بِمِكس قريباً من طريق كانانيا، الذي بالرغم من أنّه لم يكن قريباً من ضاحية لاس فلورِس إلا أنّه أيضاً لم يكن بعيداً جدّاً عنها، وهو ما يجعل احتمال أن تكون الضحية قد توجّهت إلى هناك سيراً على قدميها أو في حافلة، ربّما لموعدٍ. كانت روزا لوبِّثْ لاريوس تعيشُ مع صديقتين، عاملتين قديمتين مثلها في معامل مختلفة موجودة في منطقة الجنرال سِبّولِبِدا الصناعية. قالت الصديقتان إنّه كان عند روزا خطيب، شخصٌ يُدعى إرنِستو أستوديّو، من مواليد ولاية أواكساكا، كان يعمل في توزيع المرطبات لصالح شركة بيبسي. قالوا في مخزن مرطبات البيبسي، إنّه بالفعل كان يعمل هناك شخص يُدعى أَستوديّو، كحمّال في الشاحنة التي كانت تقطع الطريقَ من ضاحية لاس فلورِس إلى ضاحية كينو، لكنّه لم تحضر إلى مكان عمله منذ أربعة أيّام، وبذلك يُعتبر بالنسبة للشركة بحكم المفصول. بعد أن حُدد مكان سكنه بدؤوا بالتفتيش الشرعي، لكنّه لم يكن في المكان غير صديق للمدعو أَستوديّو، يشاطره ذلك المسكن، وهو بيت بائس. مساحته أقل من عشرين متراً مربّعاً. من استجواب الصديق تبين أنّه كان لأَستوديّو ابن عمّ أو صديق كان يحبّه كابن عمّ حقيقيّ، كان يعمل في تهريب الناس على الحدود. ذهبت القضيّة إلى الجحيم، قال إبيفانيو غاليندو. ومع ذلك بحثوا بين المهرّبين، عن صديق أَستوديّو، لكنّ الصمتَ في هذه المهنة هو القاعدة ولم يخرجوا بنتيجة واضحة. تخلّى أورتيثْ رِبويِّدو عن القضية. إبيفانيو تابع خطوطَ تحقيقٍ آخر. تساءلوا ما الذي سيجري إذا كان أَستوديّو ميتاً. لو أنّه مات مثلاً قبل ثلاثة أيّام من اكتشاف الفَتَيَيْن لجثّة خطيبته. تساءلوا عمّن ذهبت روزا لوبِّثْ لاريّوس تبحثُ في برج بِمِكس، يومَ أو ليلةَ قتلهم لها. ذهبت القضيّةُ بالفعل إلى الجحيم.

المقتولة الثانية في كانون الأوّل كانت إما كونترِراس، لكنّ العثور على القاتل كان سهلاً هذه المرّة. كانت إما كونترِراس تعيشُ في شارع بابلو ثيفونتِس، في ضاحية آلاموس. سمع الجيرانُ ذات ليلة رجلاً يصرخ. بحسب ما حكوا لاحقاً، كان الرجل يوحي بأنّه وحده وجُنَّ. قرابة الساعة الثانية صباحاً توقّف الرجل عن الخطابة وسكت. غرق البيتُ وقتها في صمتٍ عامّ. قرابة الساعة الثالثة صباحاً أيقظ صوتُ طلقتين الجيران. كانت أضواء البيت مطفأةً، لكن أحداً لم يَنْتَبْهُ الشكّ بأن الصوت لم يخرج من هناك. تلاه صوت طلقتين أخريين وسمعوا أحداً أطلق صرخة. بعد بضع دقائق رأوا رجلاً يخرج. يركب سيارة مصفوفة أمام البيت ويختفي. هتف أحدُ الجيران إلى الشرطة. حضرت سيارة دورية عند الساعة الثالثة والنصف صباحاً. كان باب البيت مفتوحاً على مصراعيه ولم يتردّد رجال الشرطة في التوغّل داخل البيت. في أكبر غرفة نوم وجدوا جسدَ إما كونترِراس، مربوطَ القدمين واليدين وأربع طلقات، اثنتان منها مزّقتا وجهها. تولّى القضيّة المُحقِّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ، الذي لم يتأخّر، بعد أن حضر شخصياً في الرابعة صباحاً إلى مكان الأحداث وفتّش المسكنَ، في استنتاج أن القاتل كان مُساكِنَ الضحية (أو حبيبها)، الشرطيّ خايِم سانتشِثْ نفسه، الذي كان مزوداً قبل أيّام بمسدس ماغنوم تاوروس برازيلي، وحاول أن يمنع تفرّق الأزواج في برج بِمِكس. أُعطِي الأمرُ لاسلكيّاً بالبحث عنه وإلقاء القبض عليه. وجدوه في السادسة صباحاً في بار سِرافينوس. كان بار سيرافينوس في تلك الساعة مغلقاً، لكن في داخله كانت تدور لعبة بوكر. إلى جانب طاولة اللاعبين والمتفرّجين، مجموعة من أهل الليل عند طاولة العرض، حيث كان أكثر من شرطيّ منهمكين بالشرب والكلام. كان خايِم سانتشِثْ في هذه المجموعة. حين تلقى المعلومةَ، أمر خوان دِ ديوس مارتينِثْ بمحاصرة المحل وبأن لا يتركوا أحداً يخرج مهما كان الظرف، لكنّه أيضاً أعطى الأمر بألا يدخلَ أحد حتى

بصل. كان خايمِ سانتْشِثْ يتحدَّثُ عن نساء، حين رأى المُحقِّق يدخل إلى المحلّ يرافقه شرطيان آخران. تابع كلامه. على طاولة القمار، بجانب المتفرّجين كان المُحقِّق أورتيثْ رِبويّدو، الذي ما إن رأى خوان دِ ديوس مارتينِثْ حتى نهض وسأله ما الذي جاء به إلى هناك في تلك الساعة. جئتُ أُلقي القبض على أحدهم، قال خوان دِ ديوس، فنظر إليه أورتيثْ رِبويّدو بابتسامة امتدت من أذن إلى أخرى. أنت وهذان الاثنان؟، سأل. ثمّ : لا تكن أحمق، لماذا لا تذهب إلى مكان آخر وتمصّ قضيباً؟ عندها نظر إليه خوان دِ ديوس مارتينِثْ كما لو أنّه لا يعرفه، أزاحه ووصل إلى حيث كان خايمِ سانتْشِثْ. استطاعَ أن يرى من هناك أنّ أورتيثْ رِبويّدو يوقف أحدَ الشرطيين من ذراعه، الذي لم يكفّ عن الكلام. بالتأكيد كان يحكي له عمّن جئتُ لأوقفه، فكَّر خوان دِ ديوس. لم يُبدِ خايمِ سانتْشِثْ مقاومة. بحث خوان دِ ديوس تحت السترة حتى وقع على الحمّالة ومسدس الماغنوم تاوروس. هل بهذا قتلتها؟ سأله. جلدتُ نفسي وفقدت السيطرة على نفسي، قال سانتْشِثْ، وأضاف، لا تهنّي أمامَ أصدقائي. لا يهمّني أصدقاؤك قيد شعرة، قال خوان دِ ديوس، بينما كان يضع له القيد في يديه. حين غادروا المحلّ تجدّدت لعبة البوكر كما لو أنّ شيئاً لم يحدث.

في كانون الثاني ١٩٩٦ عاد هاس وجمع الصحافة. لم يأتِ هذه المرّة صحفيون كثر، لكنّ الذين حضروا إلى سجن سانتا تِرِسا لم يجدوا أيّ عائق في عملهم. سأل هاس الصحفيين، كيف يمكن أن تستمرّ جرائم القتل بالارتكاب والقاتل (يقصد نفسه) سجين. تكلّم بشكل خاصّ عن العقدة التي ربطت بها ميتشل رِكِخو، المماثلة لعقدة إسترِيّا رويثْ ساندوبال، المقتولة الوحيدة التي كان لها، بحسب هاس، علاقة به، بسبب اهتمامها، دقَّقَ، بالمعلوماتية والحواسيب. صحيفة *لا راثون*، حيث كان يعملُ سِرخيو غونثالِث أرسلت صحفياً غرّاً في

موضوع القضايا الجنائية، قرأ ملفّ القضية في الطائرة التي أقلّته إلى هِرموسيّو. كان الملفُ يحتوي على مقالات سِرخيو غونثالِث، الذي بقي في العاصمة الفيدرالية يكتب مقالاً مطوّلاً عن الرواية المكسيكية والأمريكية اللاتينية الجديدة. قبل أن يرسلوا الغرَّ صعد رئيسُ قسم الجنايات الطوابق الخمسة التي كانت تفصله عن قسم الثقافة، بالرغم من أنّه لم يكن يركب المصعد تقريباً وسأله عمّا إذا كان يُريد أن يذهب. نظر إليه سِرخيو دون أن يُجيبه وحرّك في النهاية رأسه بالنفي. في كانون الثاني أقام أيضاً فرعُ سانتا تِرِسا لمنظمة نساء من أجل الديمقراطية والسلام ندوة صحفية حضرتها صحيفتان فقط من سانتا تِرِسا عرضن خلالها المعاملة السيّئة وغير اللائقة التي تعاني منها أسر النساء المقتولات وأبرزن الرسائل التي كنّ يُفكّرن أن يرسلنها بهذا الخصوص إلى حاكم الولاية، المجاز خوسِهْ أندرِس بريثِنيو، من حزب العمل الوطني، وإلى النيابة العامّة في الجمهورية. الرسالتان اللتان لن يُرَدَّ عليهما قط. زادت مجموعة نساء من أجل الديمقراطية والسلام من ثلاثة أعضاء أو متعاطفين إلى عشرين. ومع ذلك لم يكن كانون الثاني لعام ١٩٩٦ عاماً سيئاً بالنسبة إلى شرطة المدينة. قُتِلَ ثلاثة أشخاص بالرصاص في بار قريب من سكّة القطار القديمة، بزعم تصفية حسابات بين تجار مخدرات. ظهرت جثّة شخص من أمريكا الوسطى مقطوعة الرأس في ممرّ يستخدمه المهرِّبون. شخص بدين ومربوع، يضع ربطة عنق غريبة جدّاً، مليئة بأقواس القزح والنساء العاريات برؤوس حيوانات، أطلق رصاصة في حلقه بينما كان يلعب الروليت الروسي في محلّ ليلي في مادِرو-نورتِ. لكنّهم لم يعثروا على جثث نساء في عقارات المدينة غير المبنية ولا في الضواحي ولا في الصحراء.

ومع ذلك نبّهت مكالمةٌ مجهولةٌ في بداية شباط، الشرطةَ إلى جثّة مهجورة داخل عنبرِ سكة الحديد القديم، بحسب الطبيب الشرعي،

كانت المرأة في الثلاثين من عمرها تقريباً، وإن كان باستطاعة أي شخص أن يعطيها تقديراً أربعين سنة. تلقت ضربتين قاتلتين بسلاح أبيض. أيضاً ظهرت عليها جراح عميقة في الساعدين. بحسب الطبيب الشرعي ربّما ناتجة عن ضربات خنجر، خنجر كبير، عريض النصل، كتلك التي تُشاهد في الأفلام الأمريكية الشمالية. حين سئل الطبيب الشرعي بهذا الخصوص وضّح أنّه يعني أفلام الغرب الأمريكية الشمالية وخناجر صيد الدببة. أي خنجر كبير جدّاً. في اليوم الثالث للتحقيق أعطى الطبيبُ الشرعي دليلاً آخر مُهمّاً. المرأة المقتولة كانت هندية. قد تكون ياكية، لكنّه لم يكن يعتقد ذلك. ويمكن أن تكون بيمية، لكنّه أيضاً لم يكن يعتقد ذلك. كان هناك احتمال أن تكون هندية مايوية، من جنوب الولاية، لكن بصراحة أيضاً لم يكن يعتقد ذلك. أيّ نوع من الهنديّات يمكن أن تكون؟ حسن، يمكن أن تكون سِرية، لكن بحسب الطبيب الشرعي، ونظراً إلى بعض الخصائص الجسدية، كان من المحتمل ألا تكون كذلك. أيضاً كان من الممكن أن تكون هنديّة باغانوية، وهذا بالنتيجة الأكثر طبيعية، ذلك لأنّ الباغانويين هنود أقرب جغرافياً إلى سانتا تِرِسا، لكنّه أيضاً لم يكن يعتقد أنّها هندية باغانوية. في اليوم الرابع قال الطبيب الشرعي، الذي بدأ طلاّبه ينادونه الدكتور مِنْغِلِ دِ سونورا، إنّ الهندية المقتولة وبعد الكثير من التمحيص والاعتبارات، كانت دون أيّ شكّ هندية تاراهومارية. ماذا كانت تفعل تاراهومارية في سانتا تِرِسا؟ ربّما كانت تعمل مستخدَمة منزلية في أحد بيوت الطبقة الوسطى أو العليا. أو تنتظر دورها كي تعبر إلى الولايات المتحدة. تركّز التحقيق على المهرّبين الوشاة، وفي البيوت التي هجرت فيها المستخدَمات المنزليات عملهنّ فجأة. سرعان ما وقعت القضيّة في النسيان.

المقتولة التالية عُثِر عليها بين طريق كاساس نِغراسْ وغورِ بلا اسم

حيث تكثر الدغل والأزهار البرّية. كانت المقتولة الأولى التي عُثِر عليها في آذار ١٩٩٦، الشهر المشؤوم الذي عُثِر فيه على خمس جثث أخرى. كان بين رجال الشرطة الستّة الذين هرعوا إلى مكان الأحداث لالو كورا. كانت المقتولة في العاشرة من عمرها تقريباً، وطولها مئة وسبعة وعشرين سنتيمتراً. كانت تنتعل حذاءً بلاستيكياً شفافاً مربوطاً بإبزيم معدني. كان شعرها كستنائيّاً، وهو أفتح في القسم الذي يُغطي جبينها، كما لو أنّه مصبوغ، قُدرت ثماني طعنات بسكّين في جسدها، ثلاثة منها على مستوى القلب. راح أحد رجال الشرطة يبكي حين رآها. نزل رجال سيارة الإسعاف إلى الغور وبدؤوا يربطونها إلى النقّالة لأنّ الصعود بها قد يكون صعباً ويمكن لأيّ تعثّر أن يودي بالجثّة إلى الأرض. لم يذهب أحد للمطالبة بها. لم تكن بحسب ما صرّحت به الشرطةُ رسميّاً تعيش في سانتا تِرِسا. ماذا كانت تفعل هناك؟ هذا ما لم يقولوه. أُرسلت معلوماتها بالفاكس إلى عدد من المخافر في البلد. تولّى التحقيق المُحَقّق أنخِل فِرنانِدِثْ، لكن سرعان ما أغلقت القضية.

عُثِرَ بعد أيّام قليلة عند مستوى الغور ذاته، لكن على الجانب الآخر من طريق كاساس نِغْراس، على جثّة طفلة أخرى، كانت هذه في الثالثة عشرة من عمرها تقريباً، قُتلت خنقاً. مثل الضحية السابقة. أيضاً لم تكن تحمل أي وثيقة تُساعد على تحديد هويّتها. كانت ترتدي بنطلوناً قصيراً، أبيض اللون وبلوزة رمادية عليها شعار فريق كرة قدم أمريكي. كان قد مضى على موتها، بحسب الطبيب الشرعي، أربعة أيّام على الأقل، وهو ما يُرجّح احتمال أن يكون قد أُلْقِي بالجثّتين في اليوم ذاته. كانت الفكرة بحسب خوان دِ ديوس مارتينِثْ غريبة قليلة، كي نقول كلمة لطيفة، ذلك أنّه إذا كان القاتل قد ألقى الجثّة الأولى في الغور فعليه أن يكون حكماً قد ترك السيارةَ غير بعيدة عن طريق كاساس نِغْراس، وفي داخلها الجثّة الثانية، وبذلك تتعرّض ليس فقط إلى خطر

أن تتوقّف سيارة دورية بل وأيضاً لأن يمرّ بعض المُتَهتّكين ويسرقونها، الشيء ذاته يمكن أن يُقال لو أنّهم ألقوا بالجثّة الأولى، على الجانب الآخر من الطريق، أي بالقرب من القرية المسماة إل أوبِليسكو[١]، التي لم تكن قرية بمعنى القرية ولا تصل حدّ أن تكون ضاحية من ضواحي سانتا تِرِسا وكانت أقرب إلى ملاذ أكثر البائسين بؤساً، الذين كانوا يصلون يوميّاً من جنوب الجمهورية ويقضون الليالي هناك، بل ويموتون أيضاً، في بيوت حقيرة لا يعتبرونها بيوتهم بل محطّة أخرى على الطريق إلى مصير ما أو على الأقل إلى مكان يُطعمهم. كان بعضهم لا يُسميه إل أوبِليسكو بل إل موريدِرو[٢]. كانوا على حقّ جزئياً، لأنّه لم يكن هناك أيّ أوبِليسكو بالمقابل كان الناس يموتون هناك بسرعة أكبر من أي مكان آخر. لكن سبق وكان هناك مسلّة، حين كانت حدود المدينة أخرى أضيق، وكاساس نِغراس كانت قرية، لِنقُل، مستقلّة. مسلّة حجريّة، أو بالأحرى ثلاثة أحجار، واحد فوق الآخر، كانت تُشكّل صورة غير مشذبة إطلاقاً، لكن بشيء من الخيال أو المرح يمكن أن تُعتبر مسلّة بدائيّة أو مسلّة رسمها طفل يتعلّم الرسم حديثاً، رضيع مريع كان يعيش في ضواحي سانتا تِرِسا، يَتَنَقَّلُ في الصحراء آكلاً عقاربَ وضِباباً ولا ينام أبداً. ما هو أكثر عمليّاً، فكّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ، كان التخلّص من الجثّتين في المكان ذاته، الواحدة بعد الأخرى. وليس جرّ الجثّة الأولى نحو الغور البعيد أكثر من اللازم عن الطريقة، بل رميها هناك بالذات، على بعد أمتار من حافّة الطريق. الشيء ذاته بالنسبة للجثة الثانية. لماذا يذهبون إلى ضواحي إل أوبِليسكو، مع ما ينطوي عليه هذا من خطر، إذا كان باستطاعتهم أن يرموا بهما في أيّ مكان آخر؟ إلاّ إذا كان يسافر في السيارة ثلاثة قتلة، قال لنفسه، واحدٌ

---

(١) مسلّة.

(٢) مموته، أو مقتلة. مكان القتل.

كي يقود والاثنان الآخران كي يتخلّصا بسرعة من الطفلتين المقتولتين، اللتين لا تكادان تزنان شيئاً، وحملهما بين اثنين كان بالتأكيد أشبه بحمل حقيبة صغيرة. إذن كان اختيار إل أوبِليسكو يحرز نوراً آخر، أشكالاً أخرى. ترى هل كان القتلة يريدون أن يحرفوا شكوكَ الشرطة باتجاه سكّان تلك البحيرة من البيوت الورقيّة؟، لكن لماذا إذن لم يتخلّصوا من الجثّتين في ذلك المكان؟ هل فعلا ذلك بحثاً عمّا قد يبدو حقيقة؟ ثمّ لماذا لا نُفكِّر بأنّ الطفلتين، كلتيهما، كانتا تعيشان في إل أوبِليسكو؟ ما المكان الآخر في سانتا تِرِسا الذي يمكن أن يكون فيه طفلات في العاشرة من عمرهنّ ولا أحد يُطالب بهنّ؟ إذن لم يكن مع القتلة سيّارة؟ هل اجتازوا الطريق بالطفلة الأولى إلى الغور القريب من كاساس نِغراس وتركوها مرمية هناك؟ ولماذا إذا كانوا قد عذّبوا أنفسهم إلى ذلك الحدّ لم يقبروها؟ هل لأنّ أرض الغور كانت قاسيةً ولم يكن معهما أدوات حفر. تولّى القضيّة المُحقِّق أنخِل فِرنانديث، الذي قام بجولة في ال أوبِليسكو، وألقى القبض على عشرين شخصاً. دخل أربعة منهم السجن بجرائم سرقة موصوفة. واحد توفّي في زنزانات المخفر رقم ٢، بحسب الطبيب الشرعي كان السبب سلاً رئوياً. لا أحد قبل أن يُتهم بأيّ من جريمتي القتل.

بعد أسبوع من العثور على جثّة الطفلة، ابنة الثالثة عشرة سنة في محيط إل أوبِليسكو، عُثِرَ على جسد بلا حياة لفتاة تقارب السادسة عشرة من عمرها، على جانب من الطريق إلى كانانيا. كان طول المقتولة يُقارب المئة وستين سنتيمتراً وكانت سوداءَ وطويلةَ الشعر ونحيلة البنية. فقط كان فيها جرح واحد عميق في بطنها، اخترق جسدها تماماً. لكنّ الموت نتج، بحسب تقرير الطبيب الشرعي، عن الخنق وليس عن كسر العظم اللامي. كان من الممكن أن يُرى من المكان الذي عُثِر فيه على الجثّة تتالي تلال منخفضة وبيوتاً مبعثرةً

صفراءَ أو بيضاء، منخفضة السقوف وهذا وذاك العنبر الصناعي، حيث تخزن المعاملُ موادَّ صناعتها الاحتياطية وطرقاً كانت تخرج من الطريق العام وتتلاشى كالأحلام، بلا سبب ولا مُبرِّر. من المحتمل أنّ الضحيّة كانت، بحسب الشرطة، مُسافرة بالأوتوستوب، متوجّهة إلى سانتا تِرِسا واغتصبوها. عبثاً كانت كلّ محاولات التعرّف على هويّتها وأُغلِقَت القضيّة.

عُثِرَ في الوقت ذاته تقريباً على جثّة فتاة تُقاربُ السادسة عشرة من عمرها، مطعونة ومبتورة (وإن كان من المحتمل أنّ عمليات البتر قامت بها كلاب المنطقة) على سفح تلّ إسترِيّا، في شمال شرق المدينة، على بعد كيلومترات كثيرة من المكان الذي عُثِرَ فيه على الضحايا الثلاث الأولى في آذار. كانت بنيتها نحيلة وشعرها أسودَ، طويلاً. كانت المقتولة، بحسب ما قال بعض رجال الشرطة، كأنّها أخت توأم لمسافرة الأوتوستوب التي عُثِر عليها على طريق كانانيا. كانت مثلها، لا تحمل أيّ أوراق تُسهّل معرفة هويّتها. تحدّثوا في صحافة سانتا تِرِسا عن *الأختين الملعونتين*، ثمّ وبعد تبني أقوال رجال الشرطة عن *التوأمين المنحوستين*. تولّى القضيّة المُحقّق كارلوس مارين ولم تتأخر في أن صُنّفت كقضية لم تُحل.

حين كان آذار يُشارف على نهايته وفي اليوم ذاته عُثِر على ضحيّتين أخريين. كانت الأولى تُدعى بِفِرلي بِلْتران هويوس. في السادسة عشرة من عمرها وتعمل في أحد معامل منطقة الجنرال سِبولبِدا الصناعية. اختفت قبل ثلاثة أيّام من العثور على جثّتها. حضرت أمّها، إيزابيل هويوس إلى مخفر مركز المدينة واستقبلت بعد خمس ساعات وحرّرت شكواها وإن كان على مضض، ووُقّعَت وانتقلت إلى الإجراء التالي. كان شعر بِفِرلي كستنائياً، بعكس ضحايا آذار السابقات، في ما عدا

ذلك كان هناك بعض الشبه: ناحلة البنية، طولها مئة واثنين وستين سنتيمتراً، شعرها طويل. عَثَرَ على جثّتها بعضُ الأطفال في أرض بور غرب منطقة الجنرال سِبّولبِدا الصناعية، وهو مكان يصعب الوصول إليه في سيّارة. أظهرت الجثّةُ عدداً من الجروح بسلاح في منطقة القفص الصدري والبطن. كانت قد اغتُصبت فرجاً وشرجاً ثم ألبسها قتلتُها ثيابها، فالثياب، هي ذاتها التي كانت ترتديها حين اختفت، لم يظهر فيها أيّ تمزيق أو ثقب أو حرق طلقة. تولّى القضيّة المُحقّق لينو ريبِرا، الذي بدأ واستنفدَ تحرّياته مستنطقاً رفيقات عملها ومحاولاً العثور على خطيب لم يكن له وجود. لم تُفَتّش منطقة الجريمة وما من أحد أخذ بصمات ولا قوالب الآثار العديدة التي كانت موجودة في المكان.

الضحية الثانية لذلك اليوم والأخيرة في شهر آذار عُثر عليها في أرضٍ بور في غرب ضاحية رِمديو مايور ومكبِّ إل تشيلي السرّي وفي جنوب منطقة الجنرال سِبّولبِدا الصناعية. كانت، بحسب المُحقِّق خوسِهْ ماركيز، الذي كُلّف بالقضيّة، جذّابة جدّاً. كانت طويلةَ الساقين، ناحلةَ الجسم، وإن لم تكن هزيلة، وافرة الصدر، يصل شعرها إلى أسفل كتفيها. كان يظهر على فرجها كما على شرجها علامات قشط. طعنوها بعد أن اغتصبوها حتى ماتت. بحسب الطبيب الشرعي كانت امرأة ما بين الثامنة عشرة والعشرين من عمرها. لم يكن معها أوراق تُسهّل معرفة هويّتها ولم يذهب أحد ليُطالب بجثّتها، ولذلك دُفن جثمانها بعد انتظار معقول في المقبرة الجماعية.

في الثاني من نيسان ظهرت فلوريتا ألمادا في برنامج رِينالدو تُرافقها بعض ناشطات منظمة نساء من أجل الديمقراطية والسلام. قالت فلوريتا ألمادا إنّها هناك فقط كي تُقدّم أولئك النسوة، اللواتي عندهنّ

شيء مهم يقُلْنَهُ. بعدها تكلّمت فوراً ناشطاتُ نساءٍ من أجل الديمقراطية والسلام عن حصانة المجرمين، التي تُعاش في سانتا تِرِسا، عن لامبالاة الشرطة، عن الفساد وعن عدد النساء المقتولات الذي يزداد منذ عام ١٩٩٣ دون توقّف. شكرن بعدها الجمهور اللطيف وصديقتَنا فلوريتا ألمادا وودّعنهم، لكن ليس قبل يطلبنَ من حاكم الولاية، المُجاز خوسِهْ أندرِس بريثِنيو كي يضع حدّاً لهذا الوضع الذي لا يُطاق في بلدٍ يُقال إنّ حقوق الإنسان والقانون تُحترم فيه. هتف مديرُ القناة لرِيْنالدو وأوشك أن يقطع البرنامج. أصيب رِيْنالدو بنوبة عصبية وقال له أن يطرده من العمل، إذا كان هذا ما أمروه به. سماه مدير القناة لوطيّاً ومشاغباً. أغلق رِيْنالدو على نفسه غرفته وتكلّم بالهاتف مع بعض الأشخاص في لوس أنجِلوس كان عندهم محّطة إذاعية ويودّون أن يأخذوه. قال منتج البرنامج للمدير إنّ من الأفضل له أن يترك رِيْنالدو بسلام. أرسل المدير سكرتيرته في طلبِ رِيْنالدو. لم يبغِ رِيْنالدو أن يذهب وبقي يتكلّم بالهاتف. كان الأمريكي الشمالي من أصل مكسيكي الذي يتكلّم معه، يحكي له قصّةَ قاتل على التسلسل في لوس أنجِلوس، لا يقتل إلاّ المثليين. يا إلهي، قال رِيْنالدو، هنا يوجد شخص لا يقتل إلا النساء. شخص لوس أنجلوس كان يطوف على محلات المثليين. دائماً هناك ناس هكذا، قال رِيْنالدو، ذئاب تتعقّبُ قطعان الأغنام. كان رجل لوس أنجلوس يغوي المثليين في محلات المثليين أو في الشوارع حيث اعتادت أن تتجمّع الدعارةُ الذكورية، يأخذهم بعدها إلى مكان ما يقتلهم فيه. كان دموياً مثل جاك نازع الأحشاء. كان يُقطّع بالمعنى الحرفي للكلمة، ضحاياه. هل سينتجون فيلماً عنه؟، سأل رِيْنالدو. أنتجوه، قال الأمريكي الشمالي من أصل مكسيكي على الجانب الآخر من الهاتف. هل يعني أنّ الشرطة أوقفته؟ طبعاً قال الأمريكي من أصل مكسيكي. يا للراحة!، قال رِيْنالدو. ومن هم الذين يعملون في الفيلم؟ كيانو ريفز، قال الأمريكي من أصل مكسيكي. كيانو كقاتل؟ لا، بل

بدور الشرطيّ الذي يقبض عليه. من الذي يقوم بدور القاتل؟ هذا الأشقر، ما اسمه؟، قال الأمريكي من أصلٍ مكسيكي، ذاك الذي له اسم مثل شخصية إحدى روايات سالينجر. آه، أنا لم أقرأ لهذا الكاتب، قال رِيْنالدو. لم تقرأ سالينجر؟، استغربَ الأمريكيّ من أصل مكسيكي. لا، قال رِيْنالدو. فجوة كبيرة في حياتك، كبيرة، قال الأمريكي من أصلٍ مكسيكيّ. المسألة أنّني فقط أقرأ في المرحلة الأخيرة لكتّاب مثليين، قال رِيْنالدو. وإذا أمكن، كتاب مثليون يملكون ثقافة أدبية شبيهة بثقافتي. هذا ما ستوضحه لي في لا، قال الأمريكي المكسيكي الأصل. حين أغلقا الهاتف أغمض رِيْنالدو عينيه وتصوّر نفسه يعيش في حيٍّ نخلاته كبيرة، فيه شاليهات صغيرة لكنّها جميلة وجيران يصبون لأن يُصبحوا ممثلين، سيجري معهم مقابلات، قبل أن يُدركوا الشهرة بكثير. تكلّم بعدها مع مُدير البرنامج ومدير القناة وكلاهما في باب غرفته قالا له أن ينسى القضية وأن يستمرّ. قال رِيْنالدو إنّه سيُفكّر بالموضوع، فلديه عروض أخرى. أقام حفلة في تلك الليلة في شقّته وعند الفجر اقترح بعض الأصدقاء أن يذهبوا إلى الشاطئ ليُشاهدوا طلوع الفجر. أغلق رِيْنالدو غرفته على نفسه وهتف لِفلوريتا ألمادا. عند الرنّة الثالثة ردّت العرّافة. سألها رِيْنالدو عمّا إذا كان قد أيقظها. قالت له فلوريتا ألمادا طبعاً، لكن ليس همّاً فهي كانت تحلم معه. طلب منها رِيْنالدو أن تحكي له الحلم. تكلّمت فلوريتا ألمادا عن مطرٍ من النيازك على شاطئ من شواطئ سونورا واكتشفت طفلاً شبيهاً به. وهل كان هذا الطفل يرى النيازك تسقط؟، سأل رِيْنالدو. هو كذلك، قالت فلوريتا ألمادا، كان ينظر إلى مطر النيازك بينما البحر يُداعب ربلَتَيّ ساقيه. ما أجمله، قال رِيْنالدو. أنا أيضاً بدا لي كذلك، قالت فلوريتا ألمادا. لكن المسألة هي أنّ حلمكِ جميل، يا فلوريتا، قال رِيْنالدو. نعم، قالت هي.

شاهد ناس كثيرون برنامجَ فلوريتا ألمادا ونساء من أجل الديمقراطية والسلام. شاهدته إلبيرا كامبوس، مديرة مشفى سانتا تِرِسا للأمراض العقلية وتكلّمت عنه مع خوان دِ ديوس مارتينِثْ، الذي لم يشاهده. أيضاً رآه بِدرو رِنخيفو، ربّ عمل لالو كورا السابق، الذي يعيش دون أن يكاد يخرج من مزرعته في أطراف سانتا تِرِسا، لكنّه لم يتكلّم عنه مع أحد، بالرغم من أنّ رَجُلَهُ الموثوق باثْ أوبانيون، كان جالساً بجانبه. إل تِكيلا، أحد أصدقاء كلاوس هاس، رآه في سجن سانتا تِرِسا وحدّثَ هاس عنه، وإن لم يولِهِ هذا أهمّية. ليس لما تقوله هؤلاء ثقيلات الدم أيّ أهمّية، قال. فالقاتل ما يزال يقتل وأنا هنا سجين. هذا شيء غير قابل للجدل. أحد يجب أن يُفكّر بهذا ويخرج *باستنتاجات*. في تلك الليلة ذاتها قال هاس بينما ينام في زنزانته: القاتل في الخارج وأنا في الداخل. لكن سيأتي أحد أسوأ منّي وأسوأ من القاتل إلى هذه المدينة العاهرة. ألا تسمع خطواته تقترب؟ ألا تسمع خطواته؟ اخرسْ لمرّة لعينة واحدة، يا أشقر، قال فارفان من سريره. سكت هاس.

في الأسبوع الأوّل من نيسان عُثِرَ على جسد امرأة أخرى مقتولة في الأراضي البور التي تمتدّ إلى الشرق من مستودعات السكة الحديدية القديمة. لم تكن الضحية تحمل هوية، باستثناء بطاقة من دون صورة تؤكد أنها عاملة في معمل دوش أند رودس، باسم ساغراريو بايثا لوبِثْ. يُظهر جسدُها جروحاً كثيرة بسلاح أبيض وكذلك علامات تدل على أنّها اغتُصِبت. كانت في العشرين من عمرها تقريباً. تبيّن بعد أن حضرت الشرطة إلى مكاتب دوش أند رودس، أنّ العاملة ساغراريو بايثا لوبِثْ كانت حيّة، وصرّحت بعد أن استُجْوِبت بأنّها لم تكن تعرف المقتولة ولا حتى بالنظر؛ وبأنّها أضاعت بطاقتها منذ أكثر من ستّة أشهر على الأقل. وأنّها أخيراً تعيشُ حياة منظّمة وتكرّس نفسها للعمل

ولأسرتها، التي تعيش معها في ضاحية كارّانثا ولم يحدث أن كان لها مشاكل مع العدالة وهو ما دعمته بعضُ رفيقاتها في العمل. وبالفعل عُثِرَ في أرشيف دوش أند رودس على التاريخ الدقيق الذي سُلِّمت فيه بطاقة ساغراريو بايثا الجديدة، مع التنبيه إلى أن تكون هذه المرّة أكثر حذراً فلا تضيّعها. ماذا كانت تفعل المقتولة ببطاقة هوية عمل شخص آخر؟ تساءل المُحقِّق إفراين بوستِلو. حقّقوا خلال بضعة أيّام مع كادر دوش أند رودس، فربّما تكون المقتولةُ عاملة أخرى من عاملات الشركة، لكنّ النساء الوحيدات اللواتي تركن العمل لم تكن مواصفاتهنّ الجسدية تنطبق على المقتولة. ثلاث منهنّ، بأعمار تتراوح بين الخامسة والعشرين والثلاثين، اخترن العبور إلى الولايات المتحدة. امرأة أخرى بدينة ومربوعة القامة فُصلت لمحاولتها إنشاء نقابة. أُغْلِقَت القضيّةُ دون ضجيج.

في الأسبوع الأخير من نيسان عُثِر على امرأة أخرى مقتولة. تعرّضت، بحسب الطبيب الشرعي، قبل مقتلها للضرب على كامل جسدها. ومع ذلك جاء الموتُ نتيجة الخنق وكسرٍ في العظم اللامي. عُثِر على الجثّة في الصحراء، على بعد قرابة الخمسين متراً من طريق ثانويٍّ يذهب باتجاه الشرق، باتجاه الجبال، في مكان لم يكن غريباً أن يُشاهد فيه من حين لآخر هبوط طائراتِ سادةِ المخدّرات. تولّى القضيّة المُحقِّق أنخل فِرنانِدثْ. لم تكن المقتولة تحمل أوراقاً تحدّد هويّتها واختفاؤها لا يظهر في أيّ سجل من أيِّ مخفرٍ في سانتا تِرِسا. لم تظهر صورتها في الصحف، بالرغم من أنّ الشرطة سهّلت ثلاث نسخ لوجهها المحطّم *للهِرالدو دِل نورتِ*، *لا بوث دِ سونورا* و*تريبونا دِ سانتا تِرِسا*.

في أيّار ١٩٩٦ لم يعثر على مزيد من جثث النساء. شارك لالو كورا في تحقيقٍ حول السيارات المسروقة، نتج عنه توقيف خمسة

أشخاص. ذهب إيفانيو إلى السجن ليزور هاس. كان الحديث قصيراً. صرّح عمدة مدينة سانتا تِرِسا بأن باستطاعة المواطنين أن يكونوا مطمئنّين، وأنّ القاتل مسجون وأن جرائم قتل النساء المرتكبة لاحقاً كانت من فعل مجرمين عاديين. تولّى خوان دِ ديوس قضيةَ أضرار وسرقة. قبض خلال يومين على المرتكبين. انتحر في سجن سانتا تِرِسا سجينٌ في العشرين من عمره كان على ذمة التحقيق. ذهب القنصل الأمريكي الشمالي كونان ميتشِل للصيد في مزرعة كان يملكها رجل الأعمال كورنادو باديّا في سفوح السلسلة الجبلية. كان هناك أيضاً أصدقاؤه، رئيس الجامعة بابلو نِغْرِتِ والمصرفي خوان سالاثار كرِسبّو، وشخصية ثالثة لم يكن أحدٌ يعرفها، شخص بدين وقصير القامة، أحمر الشعر، لم يخرج معهم يوماً للصيد، فقد صرّح أنّ الأسلحة توتِّره، ثمّ إنّه كان مريضاً بالقلب كان يُدعى رينيه ألبارادو. كان رينيه ألبارادو هذا من وادي الحجار وكان متفرّغاً، بحسب ما قال لهم، لأعمال البورصة. في الصباحات كان ألبارادو حين يخرجون إلى الصيد، يلفُّ نفسَهُ ببطانية ويجلس، دائماً بصحبة كتاب، على كرسيّ في الشرفة مقابل الجبال.

في حزيران قُتلت راقصةٌ من بار إل بِليكانو. كانت الراقصة، بحسب الشهود العيان، في الصالون ترقص شبهَ عارية، حين ظهر زوجها، خوليان ثِنْتِنو، الذي رماها، دون أن يقول لها كلمة واحدة، بأربع طلقات. سقطت الراقصةُ، المعروفة باسم باولا أو باولينا، وإن كانت تُعرف في محلات أخرى من سانتا تِرِسا باسم نورما، صريعةً ولم تستعد وعيها، بالرغم من أنّ رفيقتين لها حاولتا إنعاشها. حين وصلت سيّارة الإسعاف كانت قد توفّيت. تولّى القضيّة المُحقّق أورتيث رِبويِّدو، الذي حضر فجراً إلى بيت ثِنتِنو، فوجده فارغاً وفيه علامات هروب مستعجل واضحة. كان خوليان ثِنتِنو المذكور في الثامنة

والأربعين من عمره، والراقصة، بحسب رفيقاتها في العمل، لم تكن تتجاوز الثالثة العشرين. كان هو من بِراكروث وهي من العاصمة الفيدرالية، وقد وصلت إلى سونورا قبل سنتين. كانا، بحسب الراقصة، متزوّجين شرعيّاً. لم يعرف أحدٌ في البداية أن يقول ما هي كنية الضحية باولا أو باولينا المذكورة. لم يُعْثَر في بيتها، وهو شقّة صغيرة الأبعاد وقليلة الأثاث، تقع في شارع لورِنثو كوبارُّوبياس ٧٩، في ضاحية مادِرو-نورتِ، على أوراق توضّح هويتها. كان من المحتمل أن يكون ثِنتِنو قد أحرقها، لكنّ أورتيثْ رِبويّدو مال إلى احتمال أنّ باولينا المذكورة قد عاشت طوال تلك السنين دون أي ورقة تثبت وجودها حيّة، الأمر الذي لم يكن غير معهود عند بعض راقصات الكباريهات وعند بعض العاهرات الجوّالات. ومع ذلك قال لهم فاكس من سجل شرطة تحديد الهويات من العاصمة الفيدرالية، إنّ باولينا تُدعى باولا سانتشِث غارثِسْ. في بطاقتها تُسجل عدّة توقيفات ناتجة عن الدعارة، المهنة التي يبدو أنّها كانت متفرّغة لها منذ الخامسة عشرة من عمرها. بحسب رفيقاتها في إل بِليكانو، عشقت حديثاً أحدَ الزبائن، وهو شخص لم يكنّ يعرفن عنه غير اسم التعميد، غوستابو، وكانت تُفكّر بأن تترك ثِنْتِنو لتذهب وتعيش معه. لم يُجدِ البحث عن ثِنْتِنو نفعاً.

ظهرت بعد أيّامٍ قليلة من مقتل باولا سانتشِث غارثِسْ بالقرب من الطريق إلى كاساس نِغراس، جثّةُ شابّة في السابعة عشرة من عمرها، طولها مئة وسبعون سنتيمتراً تقريباً، شعرها أسود وبنيتها نحيلة. تكشّفت الجثة عن ثلاث طعنات بسلاح أبيض مدبّب، وخدوشٍ في المعصمين والرسغين وعلامات على الرقبة. سبب الموت يعود، بحسب الطبيب الشرعيّ، إلى أحد جروح السلاح الأبيض. كانت ترتدي قميصاً أحمر، حمّالةَ صدرٍ بيضاء، وسروالاً داخلياً أسود وتنتعل حذاء أحمر عالي الكعب. لم تكن ترتدي بنطلوناً ولا تنورةً. بعد إجراء سبرٍ فرجي وآخر

شرجيّ توصّلوا إلى نتيجة مفادها أنّ الضحيّة كانت قد اغتُصِبت. اكتشف أحدُ مساعدي الطبيب الشرعي بعدها أنّ الحذاء الذي كانت تنتعله أكبرُ على الأقل بنمرتين من الذي تستخدمه. لم يُعثر على أيّ نوع من أنواع الأدلة التي تعرّف بها فأُغلقت القضية.

عُثِرَ في نهاية حزيران على جثّةٍ مجهولةٍ أخرى، عند مخرج ضاحية إل ثِرِثال، على مقربة من الطريق إلى بوبِلو أثول. كانت الجثّة تعود إلى امرأة في حدود الواحد والعشرين من عمرها. كانت مدروزة بالطعنات بالمعنى الحرفي للكلمة. سيحصي الطبيب الشرعي بعد ذلك إحدى وعشرين طعنة، جامعاً الطعنات الخفيفة مع الخطيرة. حضر إلى المخفر في اليوم التالي للعثور الجثّة، والدا آنا هِرنانِدِثْ ثِثيليو، ابنة السابعة عشرة من عمرها، المفقودة منذ أسبوع، وتعرّفا عليها كابنة لهما. ومع ذلك ظهرت في المخفر بعد ثلاثة أيّام من دفن آنا هِرنانِدِثْ ثِثيليو المفترضة في مقبرة سانتا تِرِسا، آنا هِرنانِدِثْ ثِثيليو الحقيقيّة، التي قالت إنّها هربت مع خطيبها. كانا ما يزالان يعيشان في سانتا تِرِسا في ضاحية سان بارتولوميه، كلاهما كان يعمل في معملٍ في منطقة أرسِنيو فارّل الصناعية. أكّد الوالدان كلام ابنتهما. أُمر بإخراج الجثّة التي عُثِر عليها في الطريق إلى بوبلو أثول وتابعوا التحقيقات، التي كُلّف بها المحقّقان خوان دِ ديوس مارتينِثْ وأنخِل فِرنانِدِثْ وشرطيٌّ من سانتا تِرِسا إيبفانيو غاليندو. راح هذا الأخير يجوب ضاحية مايتورِنا وضاحية إلْ ثِرِثال، يرافقه صاحب حانوت غذائيات عجوز كان في السابق شرطياً. وبهذه الطريقة عرف أنَّ شخصاً مدعوّاً أرتورو أوليبارِثْ هجرته زوجته. والغريب أنّ المرأة لم تأخذ معها ولديها، كان عمر الطفل سنتين والطفلة فقط بضعة أشهر. بينما كان إيبفانيو يتعقّب آثاراً أخرى طلب من صاحب المتجرِ الشرطيّ السابق أن يُعلمه بكلّ تحرّكات أوليبارِثْ المذكور. هكذا علم بأنّه كان يزور المشبوهَ أحياناً المدعو سِغوبيا،

الذي كان بالنتيجة ابن عمّ أوليبارِثْ. كان سِغوبيا يعيش في ضاحية إلى الغرب من سانتا تِرِسا ولم يكن له مهنة معروفة. كان حتى شهرٍ مضى نادراً ما يحضر إلى ضاحية مايتورِنا. وضعا سِغوبيا تحت المراقبة وعثرا على شاهدين قالا إنّهما رأياه يعود إلى البيت وعلى قميصه بقع من الدم. كان الشاهدان جارين لِسِغوبيا ولم تكن علاقتهما به جيّدة. كان سِغوبيا يكسب عيشه كوسيط في مصارعات الكلاب التي تُقام في بعض أفنيةِ ضاحية أَوْرورا. دخل خوان دِ ديوس وأنخِل فِرناندِثْ بيتَ سِغوبيا حين لم يكن هذا موجوداً. لم يعثرا على شيء يُمكن أن يُجَرّمه مباشرة بقتلِ مجهولةِ الطريق إلى بوِبلو أثول. سألا شرطيّاً كان عنده كلاب مصارعة عمّا إذا كان يعرف سِغوبيا. جاء جواب الشرطيّ إيجابياً. كلّفاه بمراقبته. بعد يومين أعلمهما الشرطيّ بأنّ سِغوبيا لم يكن يقتصر في المرحلة الأخيرة على العمل وسيطاً، بل صار يُراهن. طبعاً كان يخسر كلَّ شيء، لكنّه يعودُ بعد أسبوع لِيُراهن. هناك من كان يُمرّر له المال، قال أنخِل فِرناندِثْ. تَعَقّبا سِغوبيا. كان يذهب مرّة في الأسبوع كحدٍّ أدنى ليزور ابن عمّه. تعقّب إيبفانيو غاليندو أوليبارِثْ. اكتشف أنّه كان يبيع أشياء بيته. أوليبارِثْ يُفكّر بأن يولّي الأدبار، قال إيبفانيو. كان يلعب كرة القدم أيّامَ الآحاد، مع فريق حيِّهِ، في ملعب يقعُ في أرض بجانب الطريق إلى بوِبلو أثول. حين رأى أوليبارِثْ أن الشرطة تقترب، اثنان باللباس المدني وثالث باللباس الرسمي ترك اللعب وانتظرهما دون أن يخرج من الملعب، كما لو أنّ هذا كان يشكل الفضاءَ العقلي الذي يحميه من أنّ سوء حظّ. سأله إيبفانيو عن اسمه وقيّده. لم يُقاوم أوليبارِثْ. جمد اللاعبون الآخرون والمُتفرّجون الثلاثون الذين كانوا يُشاهدون المباراة. كان الصمتُ، سيحكي إيبفانيو في تلك الليلة إلى لالو كورا، مطلقاً. أشار الشرطي بإيماءة إلى المكان المشؤوم الذي كان يمتد على الطرف الآخر من الطريق وسأله عمّا إذا كان قد قتلها هناك أم في البيت. هناك بالذات، قال أوليبارِثْ. كان الطفلان عند

زوجة صديق لأوليبارِث، ترعاهما آحادَ كرة القدم. هل فعلْتَها وحدك أم أنّ ابنَ عمّك ساعدك؟ ساعدني، قال أوليبارِثْ، لكن ليس كثيراً.

كلُّ حياة، قال إيبفانيو لِلالو كورا في تلك الليلة، مهما كانت سعيدة دائماً تنتهي بالألم أو المعاناة. هذا بحسب الحالة، قال لالو كورا. بحسب ماذا، يا ولد؟ بحسب أشياء كثيرة، قال لالو كورا. إذا رموك بطلقة في نقرتك مثلاً، واقترب القاتل الوغد منك دون أن تسمعه تذهب إلى العالم الآخر دون ألم ولا معاناة. لست ولداً سهلاً، قال إيبفانيو. هل رموك برصاصات كثيرة في نقرتك؟

كانت المقتولة تُدعى إريكا مِنْدوثا. أمٌّ لطفلين صغيرين. زوجها أرتورو أوليبارِثْ شديد الغيرة ويُسيء معاملتها عادة. في الليلة التي قرّر أوليبارِثْ قتلها كان سكراناً وبرفقة ابن عمّه. كانا يُشاهدان مباراة لكرة القدم في التلفاز ويتكلّمان عن الرياضة والنساء. لم تكن إريكا تُشاهد التلفزيون فقد كانت تُحضّر الطعام. كان الطفلان نائمين. فجأة نهض أوليبارِثْ، أخذ سكيناً وطلب من ابن عمه أن يُرافقه. قادا فيما بينهما إريكا إلى الطرف الآخر من الطريق إلى بوبلو أثول. بحسب أوليبارِثْ لم تَحْتَجّ المرأة في البداية. توغّلا بعدها في الصحراء وراحا يغتصبانها. أوليبارِثْ اغتصبها أوّلاً. قال بعدها لابن عمه أن يفعل الشيء ذاته، وهو ما رفضه ابن عمّه في البداية. لكنّ موقف أوليبارِثْ أقنعه بأنّ معارضته يمكن أن تكون شؤماً. راح أوليبارِثْ بعد أن اغتصباها يكيل لزوجته الطعنات. حفرا بعدها حفرة بأيدهما كانت بكلّ وضح غير كافية وتركا الضحيةَ هناك. بعد العودة إلى البيت خاف سِغوبيا أن يشرع بقتله أو قتل الطفلين. لكنّ هذا بدا أنّه أزاح ثقلاً عن كاهله وبدا مرتاحاً بقدر ما أتاحت له الظروف ذلك. تابعا مشاهدة التلفزيون، تناولا بعدها العشاء ثمّ وبعد ثلاث ساعات غادر سِغوبيا إلى

بيته. المسار الذي كان على سِغوبيا أن يقطعه كان طويلاً وملئاً بالعثرات بسبب الوقت. سار ثلاثة أرباع الساعة حتى ضاحية مادِرو، حيث انتظر نصفَ ساعة وصولَ حافلة جادة مادِرو -جادة كارّانثا. نزل في ضاحية كارّانثا وسار باتجاه الشمال، مجتازاً ضاحية بِراكروث وضاحية ثيوداد نوِبا، حتى وصل إلى جادّة المقبرة، من حيث سار بخطٍّ مستقيم حتى بيته في ضاحية سان بارتولومِهْ . سار بالمجمل أكثر من أربع ساعات. حين وصل كان قد طلع الفجر، بالرغم من أنّه كان في الشارع ناس قليلين نظراً لأنّه يوم أحد. نهاية قضية إريكا مِنْدوثا السعيدة المريحة منح شرطة سانتا تِرِسا الثقة في وسائل الإعلام.

في وسائل أعلام ولاية سونورا، في العاصمة الفيدرالية مجموعة مناصرة للمرأة اسمها نساء في العمل (ن ع) خرجت في برنامج التلفزيون تُدين نزيزَ الموت المتواصل في سانتا تِرِسا وتطلب من الحكومة إرسال شرطة من العاصمة الفيدرالية لحلّ الحالة، ذلك لأنّ شرطة سونورا كانت عاجزة، إن لم تكن شريكة، لمواجهة مشكلة راحت تنتشر على مرأى من الجميع. في البرنامج ذاته تمّت معالجةُ موضوعِ القتل على التسلسل. هل كان وراء عمليات القتل قاتلٌ على التسلسل؟ قاتلان على التسلسل؟ ثلاثة؟ ذكر مُقدِّمُ البرنامج هاس، الموجود في السجن ولم يُحَدَّد بعد موعِدُ محاكمته. قالت نساء في العمل ربّما كان هاس كبشَ فداء وتحدَّيْنَ مقدّم البرنامج أن يأتي بدليل واحدٍ ضدّه له وزن. كذلك تكلّمن عن نساء من أجل الديمقراطيّة والسلام في سونورا، اللواتي يقمن بعملهنّ ضمن أكثر الظروف مُناوأةً ووصفن العرّافة التي ظهرت معهنّ في برنامج تلفزيوني محلّي بأنّها عجوز غير ذات أهمّية ويبدو أنّها كانت تُريد أن تستغلّ الجرائمَ لمنفعتها الذاتية.

كانت إلبيرا كامبوس ينتابها ظنّ أحياناً بأنّ المكسيك كلّه جُنّ. حين رأت نساء في العمل في التلفزيون عرفت واحدة منهن كرفيقة جامعية قديمة. كانت مُتغيِّرة، كانت *أكثر تجاعيد، متهدّلة الخدين*، لكنّها ما تزال هي نفسها. الدكتورة غونثالِث ليون. هل كانت ما تزال تُمارس الطبَّ؟ ولماذا هذا الاحتقار لعرّافة هِرموسيّو؟ انتابت مديرةَ مركز الصحة النفسية في سانتا تِرِسا رغبةٌ بأن تسأل خوان دِ ديوس مارتينِثْ عن أشياء كثيرة في الجرائم، لكنّها عرفت أنّ فعلَ ذلك كان كما لو أنّها تعزّز العلاقة، ويدخلان معاً في غرفة مُغلَقَة، وحدها كانت تملك مفتاحها. كانت إلبيرا كامبوس تُفكّر أحياناً أنّ الأفضل لها أن تذهب من المكسيك. أو أن تنتحر قبل أن تُكمل الخامسة والخمسين من عمرها. أم يا ترى السادسة والخمسين؟

عُثِر في تموز على جثّة امرأة على بعد خمسمئة متراً من حافة الطريق إلى كانانيا. كانت الضحيّةُ عارية ووقعت الجريمة بحسب خوان دِ ديوس مارتينِثْ، الذي كُلّف بالقضيّة إلى أن استُبْدِلَ بالمُحقِّق لينو ريبِرا، هناك بالذات، فقد عُثِر في يد الضحية المُغلَقَة على عشبة هي الوحيدة التي كانت تنمو في تلك المنطقة. كان سببُ الموت، بحسب الطبيب الشرعي، ارتجاجات في الدماغ أو ثلاثة طعناتٍ بأداة حادة ومُدبّبة عميقة في الصدر، دون أن يستطيع أن يُعطي جواباً قاطعاً، ذلك لأنّ حالة تفسّخ الجثّة لم تكن تسمح بفعل ذلك دون دراسات باثولوجية لاحقة. تلك الدراسات التي قام بها ثلاثة طلاّب طبٌّ شرعيّ من جامعة سانتا تِرِسا وضاعت نتائجها بعد أن أُرشِفت. كانت الضحية ما بين الخامسة عشرة والسادسة عشرة من عمرها. لم تُعرف هويّتها قطّ.

بعدها بزمن قصير عثر المُحقِّقان فرانسيسكو ألبارِثْ وخوان كارلوس ريِّسْ، المنضويان في فرقة مكافحة المخدرات، وبالقرب من

الخطّ الحدودي، في مكان مشابه للمكان الذي عُثِر فيه على لوسي آنّ ساندِر، على جثة فتاة تقاربُ السابعة عشرة من عمرها. حين استجوب المُحقِّقُ أورنيثْ رِبويِّدو عنصري المُكافحة قالا إنّهما تلقيا مكالمة هاتفية من الجانب الأمريكي الشمالي من الحدود من بعض رفاق دورية الحدود، تُعلمهما بأنّ شيئاً غريباً موجود على الخطّ الحدودي. فكَّر ألبارِثْ ورِيِّسْ أنّ الأمرَ يُمكن أن يتعلّق بصرّة كوكايين، ضائعة افتراضاً من مجموعة غير شرعية وهرعا إلى المكان الذي حدّده الأمريكيون الشماليون. كان العظم اللامي للضحية، بحسب الطبيب الشرعي، مكسوراً، يعني أنّها قُتلت خنقاً. وتعرّضت قبلها لاعتداءات جنسية بما في ذلك الاغتصاب الشرجي والفرجي. راجعا شكاوى الاختفاء وكانت النتيجة أنّ المقتولة هي غوادالوبٌ إلِنا بلانكو. كانت قد وصلت إلى سانتا تِرِسا برفقة والدها وأمّها وأخوتها الثلاثة الصغار، قادمين من باتشوكا. كان عندها يوم اختفائها موعدُ عملٍ في معمل في منطقة إل بروغرِسو الصناعية ولم تظهر بعدها. بحسب مُستخدَمي المعمل لم تحضر إلى الموعد. في اليوم ذاته قدّم الوالدان شكوى باختفائها. كانت غوادالوبٌ نحيلةً، طولها مئة واثنين وستين سنتيمتراً، وشعرها أسود وطويلاً. كانت في اليوم الذي ذهبت فيه إلى موعد العمل في المعمل ترتدي بنطلوناً قطنياً وبلوزة خضراء داكنة، اشترتها حديثاً.

بعدها بوقت قليل ظهرت في زقاق يتاخم القسم الخلفيّ من دار سينما، جثّةُ ليندا باثْكِثْ، ابنة السادسة عشرة. ذهبت ليندا، بحسب والديها، إلى السينما برفقة صديقة لها، ماريّا كلارا سوتو وولف، رفيقة مدرسة الضحية. صرّحت ماريّا كلارا التي استجوبها في بيتها المُحقّقان خوان دِ ديوس مارتينِثْ وإفرايين بوستِلو، أنّها ذهبت إلى السينما مع صديقتها لمشاهدة فيلم لتوم كروز. عرضت ماريّا كلارا على ليندا أن تأخذها بعد العرض إلى بيتها، لكنّ هذه قالت إنّ عندها موعد مع

خطيبها ولذلك ذهبت ماريّا كلارا وبقيت ليندا في مدخل السينما تنظر إلى صور الأفلام التي كانت ستُعرَضُ في الأسابيع القادمة. حين عادت ماريّا كلارا ومرّت في سيارتها بالسينما، كانت ليندا ما تزال هناك. لم تكن قد أظلمت تماماً. لم يكن هناك أيّ صعوبة في العثور على الخطيب، وهو فتى في السادسة عشرة من عمره، يُدعى إنريكِ سارابيا، أنكَر أن يكون قد تواعد مع ليندا. لم يكن والداه وحدهما مستعدَّين لأن يشهدا بأنّ إنريكِ لم يخرج في ذلك اليوم من البيت، حيث بقي يلعب بالحاسوب وسبح في المسبح بل ومعهما عاملة البيت وصديقان. جاء ليلاً رجلان وزوجتاهما أصدقاء والديه، كانوا أيضاً يستطيعون أن يُثبتوا ذلك. حول السينما لم يرَ ولم يَسمعْ أحدٌ شيئاً، وإن كانت الجروح التي تظهر على جسد ليندا تجعل من السهل استنتاج أنّها دافعت عن نفسها. قرّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ وإفرايين بوسْتِلو ممارسة التعذيب النفسي على بائعة تذاكر السينما. قالت هذه إنّها رأت فتاة كانت تنتظر في المدخل أحاط بها بعد قليل فتى بدا أنّه من غير وضعها الاجتماعي. تولّد عندها انطباع بأن بين الاثنين شيء أكثر من علاقة صداقة. لم تستطع أن توضّح أكثر من ذلك، فهي عندما كانت لا تبيع التذاكر تتفرّغ للقراءة داخل غرفة بيع التذاكر. حالفهما الحظّ أكثر في حانوت تصوير. كان صاحبه يُنزل السائرَ المعدنيّ حين رأى ليندا والمجهولَ. لِسببٍ ما فكّر أنّهما كانا يستعدّان لمهاجمته فسارع بإغلاق القفل وذهب. كان الوصف الذي أعطاه للمجهول كاملاً بما يكفي: متر وأربعة وسبعون سنتيمتراً، سترة قطنية مع علامة على الظهر، بنطلون قطني أسود وحذاء مزرعة. سأله المُحقّقان عن شعار الظهر. قال صاحب محل التصوير إنّه لا يتذكّره جيّداً، لكنّه بدا له جمجمة. أحضر له خوان دِ ديوس مارتينِثْ كتاباً للمجموعة التي كانت تكرّس نفسها لمكافحة عصابات الشباب (شرطيان كانا قد نُقلا وقتها إلى فرقة مكافحة المخدّرات) وأراه أكثر من عشرين شعاراً. عرف الرجل الشعارَ الذي

كان يحمله المجهول دون تردّد. في تلك الليلة شُكِّلَ مجموعة عمليات ألقت القبض على بضعة وعشرين عضواً من عصابة لوس كاثيكِس. عَرَفَت بائعةُ التذاكر كما صاحبُ محل التصوير في حلقة المشتبه بهم شخصاً يُدعى خِسوس تشيمال، كان في الثامنة عشرة من عمره، عامل عرضي في ورشة درّاجات نارية في ضاحية روبِن داريّو، له سوابق جنايات خفيفة. ترأس استجواب تشيمال قائدُ الشرطة شخصيّاً، رافقه إيبفانيو غاليندو والمُحقِّق أورتيثْ رِبويّدو. بعد ساعة اعترف تشيمال بأنّه قاتل ليندا باثْكِث. بحسب روايته كان خطيباً للضحية منذ ثلاثة أسابيع، تعرّف عليها في حفلة روك في ضواحي أدوبِ. عشقها تشيمال كما لم يعشق أحداً حتى ذلك الوقت. كانا يلتقيان من وراء ظهر والدَيّ ليندا. زار تشيمال بيتَها مرّتين، بينما كان والداها مُسافرين إلى كاليفورنيا. بحسب تشيمال اعتاد والدا ليندا أن يذهبا إلى ديزني لاند مرّةً في السنة على الأقل. هناك في البيت الخالي مارسا الحبَّ لأوّل مرّة. دعا تشيمال في مساء الجريمة ليندا إلى حفلة موسيقية أخرى، في أرِناس، وهو محلّ كانت تُقام فيه أيضاً مباريات الملاكمة. قالت ليندا إنّها لا تستطيع أن تذهب. سارا برهة: دارا حول المنطقة ثمّ دخلا في زقاق. هناك كان ينتظرهما أصدقاء تشيمال، أربعة رجال وامرأة، داخل سيارة بِرِغرينو سوداء سرقوها توّاً. كانت ليندا تعرف المرأةَ والشخصين الآخرين. تكلّموا عن الحفلة الموسيقية. دخّنا ماريجوانا. ليندا دخّنت أيضاً. تكلّموا عن بيت مهجور قريب من أرض لم يعد فيها فلاحون. اقترح أحد الفتية الذهاب إليه. رفضت ليندا. أحد منهم عيّر ليندا بشيء. أحد منهم اتهمها بشيء. أرادت ليندا أن تذهب، لكنّ تشيمال لم يتركها. طلب منها أن تدخل إلى السيارة وأن يُمارسا الحبّ. ليندا لم تقبل. وهنا بدأ تشيمال والآخرون بضربها. بعدها ولكي لا تقول شيئاً لوالديها طعنوها. في الليلة ذاتها وبفضل المعلومات التي قدّمها تشيمال اعتقلوا الآخرين، باستثناء واحد، هرب، بحسب قول والديه

من سانتا تِرِسا، بعد الجريمة بساعات قليلة. جميع الموقوفين اعترفوا بمسؤوليتهم.

في نهاية تموز عَثَرَ بعضُ الأطفال على بقايا ماريسول كامارِنا، ابنة الثامنة والعشرين من عمرها، صاحبة كابريه لوس هِرويس دِل نورتِ[1]. كانوا قد أدخلوا الجسد في برميل سعة مئتي لتر يحتوي على أسيد مذيب. فقط يداها وقدماها لم تذب. نجحوا في معرفة هويّتها بفضل زراعة السليكون. كانت قد اختطِفت قبل يومين من قبل سبعة عشر شخصاً، من بيتها، الذي كان فوق الكباريه. تمكّنت الخادمة، كارولينا أرانثيبيا، ابنة الثامنة عشرة من الهرب من مصيرها المشابه افتراضاً، حين اختبأت مع ابنة المقتولة، الرضيعة ابنة الشهرين في العليّة. من هناك سمعت الرجال يتكلّمون، سمعتهم يضحكون، سمعت صرخات، شتائمَ، صوتَ عدد من السيارات تُقلِعُ. تولّى القضيّة المُحَقق لينو ريبِرا، الذي استجوب عدداً من زبائن الكباريه المعتادين، لكنّ الخاطفين والقتلة السبعة عشر لم يُعثر عليهم قط.

بين الأوّل والخامس عشر من آب حدثت موجة حرّ وعُثِر على مقتولتين. الأولى في الثالثة عشرة من عمرها وكانت تُدعى مارينا ربويّدو، عُثِر على جثّتها خلف المدرسة الثانوية ٣٠، في ضاحية فِليكس غومِثْ، على بعد أمتار قليلة من بناء شرطةِ جنايات الولاية. كانت سمراء، طويلة الشعر، طولها مئة وستة وخمسين سنتيمتراً، ترتدي بنطلوناً أصفر قصيراً، وبلوزة بيضاء وجورباً من اللون ذاته وتنتعلُ حذاءً أسود. كانت الصغيرة قد خرجت من بيتها، في شارع ميستولا، رقم ٣٨، في ضاحية بِراكروث كي تُرافق أختها التي كانت تعمل في معملٍ

---

(١) أبطال الشمال.

في منطقة أرسِنيو فارّلْ الصناعية ولم تعد. قدّمت الأسرة شكوى اختفاء. أُلقي القبض على صديقين للصغيرة في الخامسة عشرة والسادسة عشرة من عمرهما، لكن بعد أسبوع في الزنزانة أطلقوا سراحهما. في الخامس عشر من آب تمّ العثور على جثّة أنخِليكا نِيارِس، في الثالثة والعشرين من عمرها، والمعروفة أكثر بلقب جِسيكا، بالقرب من قناة لمياه الصرف الصحّي إلى الغرب من منطقة جنرال سِبّولبِدا الصناعية. كانت أنخِليكا نِيارِس تعيش في ضاحية بلاتا وكانت راقصة في كباريه لوس هِروِس دّل نورتِ، الذي لم يكن قد مضى زمن طويل على العثور على صاحبته ماريسول كامارِنا داخل برميل أسيد. كانت أنخِليكا نِيارِس من مواليد كولياكان، في ولاية سينالوَا وتعيش منذ خمس سنوات في سانتا تِرِسا. يوم السادس عشر من آب تراجعت موجة الحرّ وبدأت تهبُّ من الجبال ريح أرطب قليلاً.

في السابع عشر من آب عُثِر على المُدرسة بِرْلا بياتريث أوتشوتِرِنا متدلّية من حبل في غرفتها، كانت في الثامنة والعشرين من عمرها، من قرية مورِلوس، على الحدود تقريباً بين ولايتي سونورا وتشيهواهوَا. كانت المدرّسة أوتشوتِرِنا تُدَرّس في الثانوية ٢٠ وكانت، بحسب أصدقائها ومعارفها، امرأة لطيفةً ورزينةً؛ تعيش في شقّة في شارع جاغوار، على بعد شارعين من جادّة كارّانثا، تتقاسمها مع مُدرِّستين أُخريين. وجدوا في غرفتها كتباً كثيرة وخاصّة كتب الشعر والدراسات، كانت المدرّسة تشتريها عن طريق التسديد عند الاستلام من مكتبات العاصمة الفيدرالية أو هِرموسيّو. كانت بحسب رفيقتيها في الشقة امرأة حسّاسة وذكية، بدأت من الصفر تقريباً (مورِلوس في سونورا قرية جميلة لكنّها صغيرة جدّاً، لا يوجد فيها عمليّاً غير المناظر للتصوير) وكلّ الذي كانت تملكه إنّما حصلت عيه من خلال العمل والجهد المتواصل. أيضاً قالتا إنّها كانت تُحبُّ الكتابةَ وإنّ مجلة أدبية في هِرموسيّو قد نشرت لها

بعض قصائدها باسم مستعار. تولّى القضيّة خوان دِ ديوس مارتينِثْ، ولم يُراوده منذ النظرة الأولى شكٌّ بأنّها عملية بانتحار. وجدوا على مكتب المدرّسة أوتشوترِنا رسالةً، لا تحمل عنوانَ المرسلة إليه، تُحاول فيها أن توضّحَ أنّها ما عادت تتحمّل ما يجري في سانتا تِرِسا. تقول في الرسالة: كلّ أولئك الطفلات المقتولات. رسالة حزينة، قال خوان دِ ديوس، وأيضاً متحذلقة قليلاً. تقول في الرسالة: ما عدت أحتمله أكثر. تقول: أحاول أن أعيش مثلَ كلّ الناس. لكن كيف؟ بحث المُحقِّق في أوراق المُدرِّسة عن قصيدة من قصائدها، لكنّه لم يعثر على أيّ منها. سجّل عدّة عناوين من مكتبتها. سأل رفيقتيها في الشقّة عمّا إذا كان للمدرِّسة خطيب. قالت الرفيقتان إنّهما لم يرياها قط مع رجل. كانت المدرّسة أوتشوترِنا محتشمة إلى حدّ أنّها توتّر أعصاب أصدقائها. كانت تبدو مهتمّة فقط بدروسها، بطلابها، بكتبها. لم يكن عندها ثياب كثيرة. كانت نظيفة ونشيطة ولا تَحْتَجُّ أبداً على شيء. سأل خوان دِ ديوس مارتينِثْ ماذا كانتا تعنيان بأنّها لم تكن تحتجُّ أبداً. أعطته رفيقتا الشقة مثلاً: كانتا أحياناً تنسيان أن تقوما بما يخصّهما من أعمال البيت، مثل غسل الأطباق، أو الكنس، أشياء من هذا القبيل ولا تواجههما بها لاحقاً، فتقوم المدرّسة أوتشوترِنا بها. في الحقيقة لم تكن تواجهُ أحداً بشيءٍ *أبداً*، كانت حياتها تبدو خاليةً من العتاب ومن المهاترات.

في العشرين من آب عُثِرَ في قفرٍ قريبٍ من المقبرة الغربيّة على جثّة ضحية جديدة. كانت ما بين السادسة عشرة والثامنة عشرة من عمرها ولم تكن تحمل أيّ نوعٍ من الوثائق. عُثِرَ على جثّتِها عارية، باستثناء بلوزة بيضاء، ملفوفةً ببطانية قديمة صفراء عليها طبعات فيلةٍ بالأسود والأحمر. حُدّد بعد الفحص الطبي الشرعي أنّ سببَ الوفاة جرحان بسلاح أبيض حادّ ومسنّن واحد في العنق وآخر قريب جدّاً من الأُذَين.

أكّدت الشرطةُ في التصريح الأوّل أنّه لم يكن هناك اغتصاب. عدلت بعد أربعة أيّام وقالت بلى، كان هناك اغتصاب. صرّح الطبيب الشرعي المُكلّف بالتشريح للصحافة بأنّ فريق الشرطة وجامعة سانتا تِرِسا الطبي لم ينتابه أدنى شك بخصوص الاغتصاب وأنّه عبّر عن ذلك في تقريره الرسميّ الأوّل (والوحيد). أعلم الناطقُ الرسمي باسم الشرطة بأنّ سوء الفهم يعودُ إلى مشكلة في تفسير ذلك التقرير. تولّى القضيّة المُحقّق خوسِهْ ماركيز، وسرعان ما أُرشف. قُبرت المجهولة في مقبرة جماعية في الأسبوع الثاني من أيلول.

لماذا انتحرت المُدرّسة أوتشوتِرِنا؟ من المحتمل، بحسب إلبيرا كامبوس، كانت مصابة بالاكتئاب. ربّما راحت تظهر عليها طفرةُ ذهان. لا بدّ أنّها كانت امرأة متوحّدة وفائقة الحساسية. قرأ لها خوان دِ ديوس مارتينِثْ بعضَ العناوين التي سجّلها بالمصادفة من مكتبتها. هل قرأتَ أنت كتاباً ما منها؟، سألته المُديرةُ. اعترف خوان دِ ديوس مارتينِثْ أنّه لم يقرأ أيّاً منها. إنّها كتب جيّدة، قالت المديرةُ، بعضها يصعب العثور عليه، على الأقل هنا. في سانتا تِرِسا، . كانت تجعلهم يرسلونها إليها من العاصمة الفيدرالية، قال خوان دِ ديوس.

المقتولة التالية كانت أدِلا غارثّا ثِيايُّوس، ابنة العشرين سنة، عاملة في معمل دون-كورب، قُتِلَتْ طعناً في بيت والديها. القاتل هو روبِن بوستوس، في الخامسة والعشرين من عمره، عايشته أدِلا في شارع تاكسكِنيا رقم ٥٦، في ضاحية مانثِرا وأنجبت منه ولداً عمره سنة. كانت الأمور بينهما سيّئة منذ أسبوع فانتقلت أدِلا لتعيش في بيت أبويها. بحسب بوستوس كانت زوجته تُفكّر بهجره نهائيّاً مع رجلٍ آخر. جاء القبضُ على بوستوس سهلاً نسبياً، فقد تحصّن هذا في مسكنه في ضاحية مانثِرا، لكنّه لم يكن يحمل غير سكّين كي يُدافع عن نفسه.

دخل المُحقِّق أورتيثْ وهو يطلق النار في البيت فاختبأ بوستوس تحت سريره. أحاط رجال الشرطة بالسرير، الذي لم يكن بوستوس يريد أن يخرج من تحته فهدّدوه بأنّهم سيدرزونه بالرصاص. كان لالو كورا في مجموعة الشرطة. راح ذراعُ بوستوس يُطلّ من حين لآخر من تحت السرير، ممسكاً بالمدية ذاتها التي قتل بها أدِلا، ويُحاول أن يجرحهم في أرساغِهم. راح رجالُ الشرطة يضحكون ويقفزون إلى الخلف. وقف واحد منهم فوق السرير فحاول بوستوس أن يخترق الفراش بالسكين كي يجرحه في أخمصي قدميه. بدأ أحد رجال الشرطة ويُدعى كوردِرو، وهو مشهور بحجم قضيبه يبول مُسدّداً مباشرةً إلى تحت السرير. رأى بوستوس كيف راح البول يجري على الأرض حتى وصل إليه فراح ينتحب. أخيراً تعب أورتيثْ رِبويِّدو من الضحك وقال له إنّه سيقتلُهُ في مكانه إذا لم يخرج. رأى رجال الشرطة خرقةً تزحف نحو الخارج فجرّوها إلى المطبخ. هناك ملأ أحدهم قدراً ماءً وصبّه فوقه. أخذ أورتيثْ رِبويِّدو كوردِرو من رقبته وحذّره من أنّه إذا بقي أثر من رائحة بول في سيّارته فسوف يأخذ على عاتقه أن يجعله يدفع ثمنها. ضحك كوردِرو، بالرغم من أنّه كان يختنق ووعده بأنّ هذا لن يحدث. وماذا لو بال هو، يا معلّم؟، سأله. أنا أعرف كيف أميّز رائحة بولَ كلّ منكما، قال أورتيث رِبويِّدو. رائحة بول هذا اللوطيّ يجب أن تكون رائحة خوف ورائحة بولك رائحة تِكيلا. حين دخل كوردِرو إلى المطبخ كان بوستوس يبكي ويقول بين إجهاش وإجهاش شيئاً عن ؛ وعن الوالدين، مع أنّه لم يكن يُفْهَمُ ما إذا كان يعني والديه أم والدي أدِلا اللذين كانا شاهدين على الجريمة. ملأ كوردِرو القدرَ ماءً وسكبه فوقه بقوّة. ثمّ عاد وملأه وعاد ليسكبه فوقه. تبلل بنطلونَا الشرطيَّين اللذين يُراقبان بوستوس وكذلك حذاءاهما الأسودين.

ما الذي لم تكن تتحمّله المُدرِّسةُ؟، سألت إلبيرا كامبوس. الحياة

في سانتا تِرِسا؟ جرائم القتل في سانتا تِرِسا. الطفلات، صغيرات السن اللواتي كنّ يُقْتَلْنَ دون أن يعمل أحد شيئاً لمنعه. هل كان يكفي هذا كي يحمل امرأةً شابّة على الانتحار؟ امرأة جامعية انتحرت لهذا السبب؟ فلاّحة كان عليها أن تعمل بمشقّة كي تُصبحَ مدرِّسة انتحرت لهذا السبب؟ واحدة من ألف؟ واحدة من مليون؟ واحد من مئة مليون مكسيكي؟

في أيلول لم توجد جريمة قتلِ نساء تقريباً. وُجِدَت مشاجرات. وُجِدَت تجارة واعتقالات. وُجِدَت حفلات وسهرات حامية. وجدت شاحنات محمّلة بالكوكايين عبرت الصحراء. وجدت طائرات سيزنا صغيرة، طارت على وجه الصحراء مثل أرواح هنود كاثوليكيين مستعدين لذبح جميع الناس. وجدت محادثات من أذن لأذن وضحكات على خلفية أغاني تجار المخدرات. ومع ذلك عثروا في آخر يوم في أيلول على جثتَي امرأتين على طريق بوِبْلو أثول. المكان الذي عُثِر فيه عليهما كان يستخدمه رياضيو الدراجات الناريّة في سانتا تِرِسا كي يتسابقوا. كلاهما كانت ترتدي ملابس منزلية، بل وكانت واحدة منهما ترتدي رداءً منزلياً وتنتعل شبشباً. لم يعثروا مع الجثتين على وثائق تفيد في معرفة هويّتهما. تولّى القضيّة المُحقّقُ خوسِهْ ماركيز والمُحقِّق كارلوس مارين، اللذان افترضا من ماركة الملابس أنّهما قد تكونان أمريكيتين شماليّتين. تبيّن أخيراً بعد إعلام شرطة أريزونا بالحالة أنّ المقتولتين هما الأختان رينولدز، من ريّتو، في ضواحي توكسون، لولا وجانيت رينولدز، في الثلاثين والأربعة والأربعين من عمريهما على التوالي. كلاهما كانت لها سوابق في تجارة المخدرات. افترض ماركيز ومارين الباقي: الأختان لم تُسدّدا ثمن صفقة، ليست كبيرة، فهما لم تكونا تحرّكان مخدرات كثيرة، ثم نسيتا أن تدفعا. ربّما حدثت معهما مشكلة في السيولة النقدية، ربّما تجاسرتا (بحسب شرطة

توكسون، كانت لولا امرأة جريئة) ربّما ذهب مموّنوهما في طلبهما ووصلوا ليلاً ووجدوهما على وشك الذهاب إلى الفراش، ربّما عبروا معهما الحدود وحين وصلوا إلى سونورا قتلوهما، وربّما قتلوهما في أريزونا بطلقتين في رأس كلّ منهما، وهما نصف غافيتين ثمّ عبروا الحدود وتركوهما بالقرب من بوِبلو أثول.

في تشرين الأوّل عُثِرَ على جثّةِ امرأة في الصحراء، إلى الجنوب من سانتا تِرِسا، بين طريقين ريفيّين. كانت الجثّة في حالة تفسّخ، قال الأطباء الشرعيون إنّ تحديد أسباب الوفاة سيتطلب منهم أياماً. كانت أظافر الجثّة مطليّة بالأحمر، وهو ما حمل رجالُ الشرطة الأوائل الذين هرعوا إلى المكان على التفكير بأنّ الأمر يتعلّق بعاهرة. استنتجوا من خلال ملابسها أنّها كانت شابّة: بنطلون قطني وبلوزة مقوّرة الصدر، وإن لم يكن غريباً أن تجد نساءً في الستين من أعمارهن يلبسن بهذه الطريقة. حين وصل أخيراً تقريرُ الطبّ الشرعي (ربّما توفّيت نتيجةَ جرحٍ بسلاحٍ أبيض) لم يبقَ من يتذكّر المجهولة، ولا حتى وسائل الإعلام فَرُمِيَّ بالجثّة دون إبطاء في المقبرة الجماعية.

كذلك أُدخل في تشرين الأوّل إلى سجن سانتا تِرِسا خِسوس تشيمال، من عصابة لوس كاثيكِس، قاتل ليندا باثكِثْ. بالرغم من أنّه كان يدخل كلَّ يوم ناس جدد، إلاّ أنّ ظهور القاتل الشاب أيقظ بين السجناء اهتماماً غير معهود، كما لو أنّ مغنّياً مشهوراً أو ابنَ مصرفيٍّ سوف يفرحهم، على الأقل في نهاية أسبوع واحد. شعر كلاوس هاس بالتحفّز في الممرات وتساءل عمّا إذا كان قد حدث الشيء ذاته عندما وصل هو. لا، كان الترقّب هذه المرّة مختلفاً. كان فيه شيءٌ مرعب وشيء مريح. لم يكن السجناء يتكلّمون عن الموضوع مباشرةً، لكنّهم كانوا يلمحون إليه بطريقة ما حين يتكلّمون عن كرة القدم، أو كرة

القاعدة. حين كانوا يتكلّمون عن عائلاتهم. عن البارات والعاهرات اللواتي لم يكنَّ موجودات إلا في خيالهم. حتى سلوك بعض السجناء الأكثر عنفاً تحسّن. كما لو أنّهم لا يريدون أن يُقلّلوا من شأنهم. لكن لا يريدون أن يُقلّلوا من شأنهم أمام عيني من؟، كان هاس يتساءل. كانوا ينتظرون تشيمال. كانوا يعرفون أنّه ذاهب إلى هناك. كانوا يعرفون الزنزانةَ التي سيشغلها، ويعرفون أنّه قتلَ ابنةَ شخص غنيّ. بحسب إل تِكيلا، السجناء الذين انتموا إلى لوس كاثيكِس كانوا الوحيدين الذين بقوا على هامش كلّ ذلك المسرح. في اليوم الذي وصل فيه تشيمال كانوا الوحيدين الذين اقترب ليُسلّموا عليه. وتشيمال من جانبه لم يصل وحده، كان يُرافقه الموقوفون الثلاثة بسبب مقتل ليندا باتكِتْ ولم يكن أحد منهم ينفصل عن الآخرين ولا حتى في الذهاب لقضاء حاجاته. مرَّرَ أحدُ أفراد عصابة لوس كاثيكِس، الذي مضى عليه عام في السجن، لِتشيمال مخرزاً حديدياً. وآخر مرَّر له من تحت الطاولة ثلاث كبسولات أمفيتامين. تصرّف تشيمال في اليومين الأوّلين مثل مجنون. لم يتوقّف عن الدوران والنظر إلى ما كان يحدث وراء ظهره. كان ينام والمخرز في يده. كان يحمل معه الأمفيتامين إلى كلّ مكان كتميمة مصغرة تحميه من كلّ شرّ. لم يكن رفاقه الثلاثة أقلّ حذراً منه. حين يتمشون في الفناء كانوا يفعلون ذلك في رتلين ثنائيّين. يتحرّكون مثل مغاوير ضائعين في جزيرة سامّة من كوكبٍ آخر. كان هاس ينظر إليهم أحياناً من بعيد ويُفكّر: يا لهم من صبية مساكين، يا لهم من أولاد مساكين، ضائعين في حلم. في اليوم الثامن من وجودهم في السجن حصروهم في مغسل الملابس. فجأة اختفى السجّانون. أربعة مساجين يراقبون الباب. حين وصل هاس تركوه يدخل كما لو أنّه واحد منهم، من العائلة، الشيء الذي شكرهم عليه هاس دون كلام، بالرغم من أنّه لم يتخلَّ قط عن احتقارهم. كان تشيمال وأخوته مثبّتين وسط مغسل الثياب. كمّموا الأربعة بخرق. اثنان من لوس كاثيكوس

كانا عاريين، واحد منهم يرتجف. راقب هاس مستنداً إلى عمود في الصف الخامس عَيْنَيّ تشيمال. بدا له واضحاً أنّه يُريد أن يقول شيئاً. لو أنّهم ينزعون الخرقة عن فمه، فكّر، ربّما كان سيكلم مختطفيه أنفسهم. كان بعض السجانين يُراقبون من نافذةِ المشهدَ الذي يحدث في مغسل الثياب. كان النور الذي يخرج من تلك النافذة ضارباً للصفرة وواهناً مقارنة بالنور الذي يشعُّ من اسطوانات نيون المغسل. لاحظ هاس أنّ السجانين نزعوا قبعاتهم، وأنَّ واحداً منهم يحمل كاميرا. شخص يُدعى أيالا اقترب من الكاثيكيَّيْن العاريَيْن وشقّ لهما الصفن. الآخران اللذان أوثقوهما توتّرا. كهرباء، فكّر هاس، حياة خالصة. بدا أنّ أيالا يحلبهما حتى سقطت الخصيات ملفوفة بالشحم والدم وشيءٍ بلوري لم يعرف (ولم يهمّه أن يعرف) ما هو. من هذا الرجل؟، تمتم هاس. إنّه أيالا، تمتم إل تِكيلا، كبد الحدود الأسود. الكبد الأسود؟، فكّر هاس. وضّح له إل تِكيلا لاحقاً، أنّ بين حالات القتل الكثيرة التي تعود إلى أيالا هناك المهاجرون الثمانية الذين مرَّرهم أيالا إلى أريزونا في بيك-آب. بعد ثلاثة أيّام من اختفاء أيالا عاد إلى سانتا تِرِسا، لكن لم يُعرف شيء عن البيك-آب ولا عن المهاجرين الثمانية إلى أن عثر الأمريكيون الشماليون على بقايا السيارة ودم في كلّ مكان، كما لو أنّ أيالا قبل أن يعود على أعقابه تفرّغ لتقطيع أجسادهم. شيء ما خطير حدث هنا، قال رجال دورية الحدود الأمريكية، لكنّ غياب الجثث ساهم في نسيان القضيّة. ماذا فعل أيالا بالجثث؟ بحسب إل تِكيلا أكلها، إلى هذا الحدّ كان جنونه وشرّه، ومع أنّ هاس كان يشكّ بأن يوجد أحدٌ قادرٌ على أن يلتهم، مهما بلغ جنونه أو جوعه، ثمانية مهاجرين غير شرعيين. أغمي على أحد الكاثيكيَّيْن اللذين خصياهما توّاً. كان الآخر مغمض العينين وشرايين رقبته تبدو كأنّها ستنفجر. إلى جانب أيالا كان هناك الآن فارفان وكلاهما كان يمارس دورِ قائد الاحتفال. رفع غومِثْ الخصيتين عن الأرض وعلّق قائلاً إنّهما تبدوان

بيضتي سلحفاة كاغواما. طريّتان، قال. هزَّ بعض المشاهدين رؤوسهم بالموافقة، ولم يضحك أحد. توجّه أيالا وفارفان بعدها ومع كل منهما عصا مكنسة بطول سبعين سنتيمتراً نحو تشيمال والكاثيكي الآخر.

في بداية تشرين الثاني قتلوا ماريّا ساندرا روسالِس ثِبّدا، عمرها واحد وثلاثون عاماً، عادة ما كانت تُمارس الدعارة على أرصفة بار بانتشو بيّا. وُلدت ماريّا ساندرا في ولاية ناياريت ووصلت إلى سانتا تِرِسا في الثامنة عشرة من عمرها، حيث عملت في معمل هوريزون دبليو أند إي وفي موبِلِ مخيكانو. في الثانية والعشرين بدأت تعمل عاهرةً. في الليلة التي قتلوها فيها كان في الشارع على الأقل خمس من رفيقاتها. بحسب الشهود العيان صفّت سيارة سوبوربان سوداء بالقرب من النساء. كان في داخلها ثلاثة رجال على الأقل. وضعوا الموسيقى بأعلى درجاتها. نادى الرجال إلى واحدة من النساء وتكلّموا معها برهة. ابتعدت بعدها المرأةُ عن سيارة السوبوربان ونادى الرجال ماريّا ساندرا. استندت هذه برهةً إلى نافذة السوبوربان المفتوحة، كما لو أنّها مستعدة لأن تناقش معهم السعر الذي فكّرت أن تطلبه منهم. لكنّ النقاش بالكاد دام دقيقة. أخرج أحدُ الرجال سلاحاً وأطلق النار عليها عن قرب. سقطت ماريّا ساندرا على ظهرها. لبرهة لم تعرف العاهرات اللواتي كنّ ينتظرن على الرصيف ما الذي جرى. رأين بعدها ذراعاً تخرج من نافذة السيارة وتضع نهاية لحياة ماريّا ساندرا الجاثمة على الأرض. انطلقت سيارة السوبوربان بعدها واختفت باتجاه مركز المدينة. تولّى القضيةَ المُحقّق أنخِل فِرنانڈِثْ وانضمّ إليه بعدها إيبفانيو غاليندو بمبادرة ذاتية. لا أحد كان يتذكّر رقم السيارة. العاهرة التي تكلّمت مع المجهولين قالت إنّ هؤلاء سألوا عن ماريّا ساندرا. تكلّموا عنها كما لو أنّهم يعرفونها سماعاً، كما لو أنّ أحداً ذكرها لهم بأفضل الكلمات. كانوا ثلاثة والثلاثة يريدون أن يقضوا ليلةً معها. لم تكن

تتذكّر وجوههم. كانوا مكسيكيين، ويتكلّمون كَسُونوريين ويبدون مرتاحين، مستعدين لأن يقضوا ليلة صخب. بحسب أحد مخبري إيبفانيو غاليندو ظهر بعد ساعة من مقتل ماريّا ساندرا ثلاثةُ رجال في بار لوس ثانكودوس. كان الثلاثة رجالَ ليلٍ ويشربون المِشكال كما يأكل غيرهم الفستق. في لحظة معيّنة سحب أحدهم سلاحاً من خصره وسدّد على السماء كما لو أنّه يُريد أن يقتل عنكبوتاً. لا أحد قال لهم شيئاً، عاد بعدها الرجلُ وخبّأ سلاحه. بحسب المُخبر كان الأمر يتعلّق بمسدس غلوك نمساوي يتسع مخزنه لخمس عشرة طلقة. انضمّ إليهم بعدها شخص رابع، نحيل وطويل يرتدي قميصاً أبيض، بقوا يشربون معه برهة، غادروا بعدها في سيارة دودج حمراء قانية. سأل إيبفانيو جاسوسَهُ عمّا إذا كانوا قد وصلوا في سوبوربان. قال هذا إنّه لا يعرف، فقط يعرف أنّهم ذهبوا في سيارة دودج حمراء قانية. عيار الطلقات التي قضت على حياة ماريّا ساندرا كان ٧,٦٥ مم براونينغ. مسدس الغلوك كان يستخدم طلقات من عيار ٩ مم بارابلّوم. من المحتمل أنّهم قتلوا المسكينة بمسدس-رشّاش سكوربيون، صناعة تشيكية، السلاح الذي لم يكن يُعجب إيبفانيو، لكن بعض موديلاتهِ بدأت تظهر أخيراً بكثرة في سانتا تِرِسا، وبخاصّة بين المجموعات الصغيرة التي تعمل في تجارة المخدرات أو بين الخاطفين القادمين من سينالوَا.

بالكاد شَغَلَ الخبرُ عموداً داخلياً في صحف سانتا تِرِسا ووسائل إعلام قليلة من الجمهورية ردّدت صداه. تصفية حسابات في السجن، كان يقول العنوان. أربعة أعضاء من عصابة لوس كاثيكِس الذين اعتقلوا بانتظار محاكمتهم بسبب قتلهم لمراهقة، قَتَلَهُم ونكّلَ بهم بعضُ سجناء سجن سانتا تِرِسا. وُجدت أجسادهم مُكوّمة بلا حياة في الغرفة التي تُخبّأ فيها موادُ تنظيفِ مغسل الثياب، عُثِرَ بعدها على جثّتي عضوين قديمين من عصابة لوس كاثيكِس في الملحقات الصحّية. حقّق أعضاءُ

من مؤسّسة السجن ذاته والشرطةُ في الجريمة، دون أن يوضّحوا الدوافع ولا هويّة الفاعلين.

حين ذهبت محامية هاس لزيارته قال لها هذا إنّه حضر جريمة قتل أعضاء عصابة لوس كاثيكِس. حضرها جميع من كانوا في زنزانات الممر، قال هاس، بينما الحرّاس ينظرون من نوع من النافذة في الطابق العلوي. يلتقطون صوراً. لم يُحرّك أحدٌ ساكناً. خوذقوهم، مزّقوا شروجَهم . هل هي كلمات سيّئة؟، قال هاس. كان تشيمال، زعيمُهم يطلب صارخاً أن يقتلوه. صبّوا عليه الماء خمس مرّات كي يصحو. كان الجلادون يتنحون كي يلتقط الحرّاسُ صوراً جيّدة، يتنحون ويُنَحّون المشاهدين. أنا لم أكن في الصف الأوّل. استطعتُ أن أرى كلَّ شيء لأنّني طويل. غريب: لم تتقلّب معدتي. غريب، غريب جدّاً: شاهدتُ تنفيذَ القتل والتنكيل حتى النهاية. كان الجلادُ يبدو سعيداً. يُدعى أيالا، ساعده شخص آخر، شخص قبيح جدّاً، موجود في زنزانتي ذاتها، يُدعى فارفان. عشيق فارفان، شخصٌ يُدعى غومِثْ، أيضاً شارك. لا أعرف من الذين قتلوا عُضْوَيّ عصابةِ لوس كاثيكِس اللذين وُجدا لاحقاً في الحمّام، لكن هؤلاء الأربعة قتلهم أيالا وفارفان وغومِثْ، بمساعدة ستّة آخرين ثَبّتوا الكاثيكيِّين. ربّما كانوا أكثر. أزِحْ ستّة وضَعْ اثني عشر. وجميعنا، نحن الذين كنّا في الممرّ وشاهدنا المعمعة، لم نفعل شيئاً. وهل تظنّ أنت أنّ الذين في الخارج لا يعرفون؟ سألت المحامية، آه، يا كلاوس، كم أنتَ ساذج. أنا أقرب إلى الغبيّ، قال هاس. لكن إذا كانوا يعرفون ذلك فلماذا لا يقولونه؟ لأنّ الناس متحفّظون، يا كلاوس، قالت المُحامية. وهل الصحفيون كذلك؟ سأل هاس. هؤلاء أكثر تحفّظاً من الجميع، قالت المُحامية. التحفّظ عندهم يُساوي مالاً. التحفّظ مال؟، استغرب هاس. الآن بدأتَ تفهم، قالت المُحامية. تراكَ تعرف لماذا قتلوا الكاثيكيّين؟

لا أعرف، قال هاس، فقط أعرف أنّهم لم يكونوا على فراش من ورد. ضحكت المُحامية. من أجل المال، قالت. هؤلاء البهائم قتلوا ابنة رجلٍ صاحب مال. كل ما عدا ذلك فائض. ثرثرة، قالت المحامية.

عُثِرَ في أواسط تشرين الثاني في جرف بودِستا على جسد امرأة مقتولة. كان هناك عدّة كسور في جمجمتها، وفقدت بعضاً من عجينة دماغها. بعض العلامات على جسدها تدلّ على أنها قاوَمَت. عُثِر على الجثّة والبنطلون مُنَزّل حتى الركبتين، لذلك افترضوا أنّها اغتُصِبَتْ، على الرغم من أنّهم حين شرّحوا الفرجَ استُبعدت هذه الفرضيّة. بعد خمسة أيام استطاعوا أن يُحدّدوا هويّة المقتولة. كان اسمها لويسا كاردونا باردو، في الرابعة والثلاثين من عمرها، مواليد ولاية سينالوَا، حيث مارست الدعارة منذ السابعة عشرة من عمرها. كانت تعيش في سانتا تِرسا منذ أربع سنوات تقريباً، وتعمل في معمل إمْسا. عملت قبلها كنادلة وملكت محلَّ أزهار صغير في مركز المدينة. لم يَرِدْ اسمُها في أيّ من بطاقات شرطة المدينة. كانت تعيش مع صديقة لها في بيت متواضع، لكنّه يحتوي على إضاءة كهربائيّة ومياهٍ صنبور، في ضاحية لا برِثيادا. حكت صديقتُها، العاملة مثلها في إمسا، للشرطة أنّ لويسا كانت تتحدّث في البداية عن الهجرة إلى الولايات المُتحدة، بل وتعاملت مع مهرّب، لكنّها قرّرت في النهاية أن تبقى في المدينة. استجوبت الشرطة بعضَ رفاقها في العمل ثمّ أُغلقت القضيّة.

بعد ثلاثة أيّام من العثور على جثّة لويسا كاردونا، عُثر في جرفِ بودِستا ذاته على جسد امرأة أخرى. عَثَرَ على الجثّة شرطيّا الدورية سانتياغو أوردونيِثْ وأولِغاريو كورا. ماذا كان يفعل أوردونِث وكورا في ذلك المكان؟ الفضول، بحسب ما اعترفَ به أوردونيِثْ. بعدها قال إنّهما كانا هناك لأنّ كورا أصرّ على الذهاب. المنطقة التي كُلّفا بها في

ذلك اليوم كانت تمتدّ ما بين ضاحية إل ثِرثال وضاحية لاس كوفبرِس، لكنّ لالو كورا قال له إنّه يرغب بأن يرى المكان الذي عثروا فيه على جثّة لوبسا كاردونا فلم يُعارض أوردونِيثْ، الذي كان هو من يقود السيارة. وضعا سيّارة الدورية في أعلى الجرف وهبطا عبر طريق شديد الانحدار. لم يكن جرف بودِسنا كبيراً جدّاً. كانت الشرائط البلاستيكية التي تُحدّد مكان عمل الشرطة العلمية ما تزال هناك، متشابكة بين الحجارة الصفراء أو الرمادية والجنبات. بقي لالو كورا برهةً يقوم بأشياء غريبة، كما لو أنّه يقيس الأرض وارتفاع الجدران، ناظراً إلى القسم العلوي من الجرف ويقدّر القوس الذي رسمته لاورا كاردونا أثناء سقوطها. بعد برهة، حين بدأ الملل يصيب أوردونِيثْ قال له لالو كورا إنّ القاتل أو القتلة رموا بالجثّة هناك تحديداً كي يتمّ العثور عليها بأسرع وقتٍ ممكن. حين اعترض أوردونِيثْ بأن ذلك المكان لم يكن مكاناً مطروقاً، أشار لالو إلى أعلى أحدِ جداري الجرف. رفع أوردونِيثْ نظره فرأى ثلاثة أطفال، جميعهم يرتدون بنطلونات قصيرة، يراقبونهما بانتباه. راح لالو كورا بعدها يسير باتجاه جنوب الجرف بينما بقي أوردونِيثْ يُفكّر أنّه ربّما كان من الأفضل له لو دخل سلك الإطفاء. بعد برهة، حين اختفى لالو عن ناظره، سمع صفير رفيقه فذهب في الاتجاه ذاته. حين أدركه رأى عند قدميه جسد امرأة راقدة. كانت ترتدي شيئاً يبدو بلوزة، ممزّقة على خصرها وعارية من خصرها وإلى الأسفل. بحسب أوردونِيثْ، كانت تقاسيم وجه لالو كور غريبة جدّاً، ليست ملامح مفاجأة، بل هي أقرب للسعادة. كيف هي أقرب للسعادة؟ هل كان يضحك؟ يبتسم؟، سألوه. لم يكن يبتسم، قال أوردونِيثْ، بدا مُرَكَّزاً، شديدَ التركيز، كما لو أنّه لم يكن هناك، كنا لو أنّه لم يكن في تلك اللحظة، كما لو أنّه كان في جرف بودِستا، لكن في ساعة أخرى، في اللحظة التي قتلوا فيها تلك المرأة. حين وصل إلى جانبه قال له لالو كورا ألاّ يتحرّك. كان في يده دفترٌ وأخرج قلماً وراح يُسجّل كلّ

الذي كان يراه. فيها وشم، سمع لالو كورا يقول. وشم حسن الصنع. من وضعيتها أستطيع أن أقول إنّهم كسروا عنقها. لكنّهم ربّما اغتصبوها قبل ذلك. أين يوجد الوشم؟، سأل أوردونْيِثْ. على الفخذ الأيسر، سمع رفيقه يقول. نهض بعدها لالو كورا وبحث في المحيط عن الثياب الناقصة. لم يعثر إلا على صحف قديمة، وعلبٍ معدنيّة صدئة، أكياس بلاستيكية مُشقّقة. بنطلونها ليس هنا، قال. طلب بعدها من أوردونْيِثْ أن يصعد إلى السيارة ويهتف إلى الشرطة. كان طول المقتولة مئة واثنين وسبعين سنتيمتراً وشعرها طويلاً وأسود. لم تكن تحمل شيئاً يفيد في معرفة هويّتها. لا أحد طالب بالجثّة. لم تتأخّر القضية في أن وضعت في الأرشيف.

عندما سأله إبيفانيو لماذا ذهب إلى جرف بودِستا، أجابه لالو كورا، لأنّه شرطيّ. أنت ولدٌ خراء، قال له إبيفانيو، لا تحشر نفسك حيث لا يستدعونك، يا ولد. أخذه إبيفانيو بعدها من ذراعه ونظر إلى وجهه وقال له إنّه يريد أن يعرف الحقيقة. بدا لي غريباً، قال لالو كورا، في كلّ هذا الوقت لم تظهر مقتولة في جرف بودِستا. وأنت كيف تعرف ذلك، يا ولد؟، سأله إبيفانيو. لأنّني أقرأ الصحف، قال لالو كورا. عليك اللعنة من ولد، مصاص، هكذا إذن تقرأ الصحف؟ بلى، قال لالو كورا. وأيضاً تقرأ كتباً، أظنّ؟ بلى، قال لالو كورا. الكتب العاهرة للعاهرين التي أهديتها إليك؟ *مناهج التحقيق البوليسي الحديثة*، لمدير المعهد الوطني السابق للشرطة الفنّية في السويد، السيّد هاري سودِرمان ورئيس الجمعية الدولية لقادة الشرطة، المفتّش السابق جون ج. أوكونيل، قال لالو كورا. إذا كان هذان الشرطيان الخارقان جيّدين إلى هذا الحدّ فلماذا هما الآن عاهرين سابقين؟ قال إبيفانيو. هيا أجبني على هذا، يا ولد؟ ألا تعرف، يا ديوث، أنّه لا وجود في تحقيق الشرطة للطرقِ الحديثة؟ أنت لم تكمل بعد العشرين من عمرك، هل أنا

مخطئ؟ أنت لا تُخطئ، يا إيبفانيو، قال لالو كورا. إذن كُنْ حذراً، أيها المقدام، هذه هي القاعدة الأولى والوحيدة، قال إيبفانيو تاركاً ذراعه ومبتسما له ومعانقاً وآخذاً إيّاه كي يأكلا في المكان الوحيد الذي يقدّمون فيه البوثول، في تلك الساعات العكرة من الليل.

في كانون الأوّل، وكانت هذه آخر جرائم قتل في عام ١٩٩٦، عُثِرَ داخل بيتٍ فارغ في شارع غارثيّا هِرِّرو، في ضاحية إل ثِرِثال، على جثّتي إستِفانيّا ريباس، خمسة عشر عاماً، وهِرمينيا نورييغا، ثلاثة عشر عاماً. كانتا أختين من ناحية الأم. اختفى والد إستِفانيّا بعد ولادتها بقيل. والد هِرمينيا كان يعيش في بيت العائلة ويعمل حارساً ليلياً في معمل ماشين كورب، حيث كانت مضمنة في لائحة العاملين أمّ الطفلتين، اللتين كانتا من ناحيتهما تقتصران على الدراسة والمساعدة في الأعمال المنزلية، وإن كانت إستِفانيّا تُفَكِّر بأن تترك المدرسة في العام القادم وتبدأ العمل. في الصباح الذي خطفوهما فيه كانتا ذاهبتين إلى المدرسة، مع أختين أصغر منهما، واحدة في الحادية عشرة والثانية في الثامنة. كانت الصغيرتان تذهبان مثل هِرمينيا، إلى مدرسة خوسِهْ باسكونثِلوس الابتدائية. كانت إستِفانيّا تتوجّه، إلى مدرستها، بعد أن تتركهنّ هناك، كما هي العادة دائماً، على بعد خمسة عشر شارعاً فرعياً، المسافة التي كانت تقطعها مشياً في كلّ يوم. ومع ذلك توقّفت في يوم الاختطاف، سيارةٌ بجانب الأخوات الأربعة خرج منها رجل وأدخل إستِفانيّا دفعاً إلى السيارة ثم عاد وخرج وأدخل هِرمينيا واختفت بعدها السيارة. تجّمدت الصغيرتان على الرصيف ثمّ عادتا مشياً إلى البيت، حيث لم يكن يوجد أحد، ولهذا قرعتا بابَ الجيران وحكتا هناك القصّة وراحتا أخيراً تبكيان. ذهبت الجارة، وهي عاملة في معمل هوريزون دبليو أند إي، التي استقبلتهما، ونادت جارة أخرى، ثمّ هتفت إلى معمل ماشين كورب، محاولة أن تجد أبوي الصغيرتين. في معمل

ماشين كورب أعلماها بأنّ المكالمات الخاصّة ممنوعة وأغلقوا الهاتف. عادت المرأة وهتفت وقالت اسم ومنصب الأب، فقد فكّرت أنّ الأم ولأنّها عاملة يدوية مثلها، تُعتبر دون شك أدنى مرتبة، أي يمكن الاستغناء عنها في أي لحظة أو لأيّ سبب أو نزوةٍ سببٍ، أبقت عليها عاملة الهاتف منتظرةً برهة طويلة إلى أنّ نفدت النقود وانقطعت المكالمة. لم يكن معها مزيد من النقود. عادت الجارة محبطةً إلى البيت، حيث كانت تنظرها الجارة الأخرى والطفلتان ومكث الأربعة برهة فيما يساوي المطهر، انتظاراً طويلاً لمن لا حول ولا قوّة له، انتظاراً عموده الفقري انعدامُ الحيلة، شيئاً أمريكياً لاتينياً بامتياز، وإحساساً بالمؤانسة أيضاً، شيئاً إذا ما فكّر به المرء جيّداً، يجد أنّه يعيشه يوميّاً، لكن دون ضيقٍ، دون ظلّ الموت وهو يحوم فوق الحيّ، مثل سربٍ من نسور أمريكية سوداء، توقّعاً لكلّ شيء، تبديلاً لروتين كلّ شيء. قلباً لكلّ الأشياء رأساً على عقب. هكذا وبينما كنّ ينتظرن أن يصل والد الطفلتين، فكّرت الجارة (لقتل الوقت والخوف) أنّها تتمنى لو تملك مسدّساً وتخرج إلى الشارع. وماذا بعد؟ كي تُطلق بضع طلقات في الهواء كي تُفرغ غضبها وتصرخ عاشت المكسيك، كي تتسلّح بالشجاعة أو كي تشعر بحرارة لاحقة، ثم تحفر بيديها بسرعة طائشة، حفرةً في شارع التراب المرصوص وتقبر نفسها، مبللةً حتى العظم، إلى أبد الآبدين. حين وصل الأب أخيراً ذهبوا جميعهم معاً إلى أقربِ مخفرٍ. أبقوا عليهم هناك بعد أن عرضوا مشكلتهم باختصار (أو بذهول)، منتظرين أكثر من ساعة، إلى أن جاء المُحقّقون. عاد المحقّقون ووجهوا لهم الأسئلة ذاتها وأخرى جديدة، خاصّة تلك المتعلّقة بالسيارة التي أخذت إستِفانيّا وهِرمينيا. بعد برهة كان هناك في المكتب الذي تُستجوَب فيه الصغيرتان أربعة مُحقّقين. واحد منهم، كان يبدو شخصاً طيّباً، طلب من الجارةِ أن ترافقهم وأخذ معه الطفلتين إلى مرآب المخفر وسألهما: أي من السيارات التي كانت هناك تُشبه السيارة

التي أخذت أختيهما. من خلال المعلومات التي قدّمتها الطفلتان قال يجب البحث عن سيارة بِرِغرينو أو أركِرو سوداء. في الخامسة مساء ظهرت الأمُّ في المخفر. كانت إحدى الجارتين قد ذهبت والأخرى لم تتوقّف عن البكاء وهي تُداعب البنت الصغرى. في الثامنة ليلاً وصل أورتيثْ رِبويّدو وجهَّزَ مجموعتي بحث، واحدة ستُكلّف بالتحقيق مع المقرّبين من الفتاتين، بقيادة المُحقِّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ ولينو ريبِرا، وأخرى ستأخذ على عاتقها العثور بمساعدة شرطة البلدية على سيارة البِرِغرينو أو الأركِرو أو اللينكولن التي قالوا إنّهم خطفوهما فيها، ينسق العمل بينهما المُحقّق أنخِل فِرناندِثْ وإفرايين بوستِلو. أعرب خوان دِ ديوس مارتينِثْ جهراً عن معارضته لخطّ التحقيق، إذ كان برأيه على المجموعتين التنفيذيتين أن تجمعا جهودهما للعثور على سيارة الخطف وقال كحجّة رئيسية إنّ ناساً قليلين عملياً، كيلا نقول لا أحد، في دائرة أصدقاء ومعارف ورفاق عمل أسرة نورييغا، يملكون، لا نقول سيارة بِرِغرينو سوداء أو شيفي أسترا سوداء، بل أيّ سيارة، وجميعهم فرضياً ينتمون إلى طبقة المشاة، بل وكان بعضهم من الفقر بحيث أنّه كي يذهب إلى العمل لا يأخذ ولا حتى الحافلة، مفضّلاً أن يفعل ذلك مشياً ويوفّر بذلك قليلاً من النقود. كان جواب أورتيثْ رِبويّدو قاطعاً: يستطيع أيّ شخص أن يسرق سيارة بِرِغرينو، يستطيع أيّ شخص أن يسرق سيارة أركِرو أو بوتشو أو جيتّا، لم يكن ضرورياً أن يملك مالاً أو شهادةَ قيادة سيارة، فقط أن يعرف كيف يفتح سيارة ويدير محرّكها. هكذا بقيت مجموعتا التنفيذ مشكلتين كما رتّبهما أورتيثْ رِبويّدو وشرع الشرطيون بالعمل، بحركة إعياء، مثل جنود محاصرين في عاصفة *متواصلة* يَذهبون مرّة وأخرى إلى الهزيمة ذاتها، . في تلك الليلة عرف خوان دِ ديوس مارتينِثْ، بعد القيام ببعض التحقيقات، أن إستِفانيّا كان عندها خطيب، فتى، طائش قليلاً، في حدود التاسعة عشرة من عمره، يُدعى رونالد لويس لوكِ، ملقّب بِلوكي سترايك،

ملقب بِروني، ملقّب بروني الساحر، يرد في اضبارته عند الشرطة توقيفان بسبب سرقة سيارات. عندما خرج رولاند من السجن تشارك في بيتٍ مع شخصٍ يُدعى فِليبٌ إسكالانتِ، تعرّف عليه في السجن. كان إسكالانتِ ممتهناً سرقة السيارات، وحُقِّق معه أيضاً باغتصاب قاصراتٍ، وإن لم يُدَن. عاش رولاند لويس خمسة أشهر مع إسكالانتِ، تركه بعدها. ذهب خوان دِ ديوس مارتينِثْ في تلك الليلة ذاتها لرؤية إسكالانتِ. بحسب هذا، لم يذهب رفيقُ سجنه القديم بإرادته، بل هو طرده، ذلك لأنّ لوكي سترايك لم يكن يتعاون اقتصادياً في شيء. يعمل إسكالانتِ في الوقت الحالي حمّالاً في مستودع سوبر ماركت ولم يعد يمارس الأعمال الجنائية. منذ سنوات كثيرة لم أسرق سيّارة، يا مُعلّم، أقسم لك بهذا، قال له وهو يُقبّل أصبعين عمل منهما صليباً، عمليّاً لم يكن عنده آلة نقل بائسة ولا وسيلة، ويقوم الآن بكلّ تنقلاته في الحافلة أو مشياً على قدميه، وهو الأرخص ويُعطي، إضافةً إلى ذلك، إحساساً بالحرّية. حين سئل عما إذا كان لوكي سترايك يُكرّسُ نفسه لسرقة السيارات، قال اسكالانتِ إنّه لا يظنّ ذلك، وإن كان وحقّ الله، لا يستطيع أن يضع يديه في النار، ذلك لأنّ المذكور كان أرعن في هذه المسائل. مُستجوبون آخرون بدا أنّهم يؤكّدون على ما صرّح به إسكالانتِ: روني الساحر كان رخواً وكسولاً، لكنّه لم يكن لصّاً ولا شخصاً عنيفاً، على الأقل لم يكن عنيفاً مجانياً، وكانت الغالبية، وإن لم يقطعوا الشكّ باليقين، ترى أنّه غير قادر على أن يخطف خطيبته وأخت خطيبته. كان رولاند لويس يعيش مع والديه ولم يعثر على عمل بعد. توجّه خوان دِ ديوس مارتينِثْ إلى هناك وتكلّم مع والدِه، الذي كان من فتح له البابَ مذعناً وأعلمه بأنّ ابنه كان قد غادر البيت بعد ساعات من خطف إستِفانيّا وهِرمينيا. سأله المُحقّق عمّا إذا كان باستطاعته أن يلقي نظرة على البيت البائس. أنت في بيتك، قال الأب. بقي خوان دِ ديوس مارتينِثْ وحده يفحصُ الغرفةَ التي كان روني

يُشارك فيها أخوته الثلاثة الأصغر منه، مع أنّه انتبه منذ اللحظة الأولى أنّه لا يوجد هناك ما يبحث عنه. خرج بعدها إلى الفناء وأشعل سيجارة بينما هو يتأمّل الغروب البرتقالي والبنفسجي الذي كان يسقط فوق المدينة الشبحية. هل قال إلى أين ذهب؟، سأل. إلى يُوما، ردّ الأبُ. وهل كنتَ ذات مرّة في يُوما؟ في شبابي، مرّاتٍ كثيرة: كنتُ أدخل، أعملُ، تُلقي شرطةُ الهجرة عليّ القبض ويعيدونني إلى المكسيك، ثمّ كنتُ أعود وأدخل مرّاتٍ كثيرة، قال الأبُ. إلى أن تعبتُ وتفرّغت للعمل هنا والعناية بعجوزي وأطفالي. وهل تعتقد أنّه سيحدث الشيء ذاته لرولاند لويس؟. لا سمح الله، قال الأبُ. بعد ثلاثة أيّامٍ علم خوان دِ ديوس أنّ مجموعة العمليات المكلّفة بالعثور على السيارة المستخدمة في الخطف قد حُلَّت. حين ذهب ليطلب توضيحات من أورتيث رِبويّدو أجابه هذا بأنّ الأمر جاء من الأعلى. يبدو أنَّ رجالَ الشرطة قد أزعجوا بعض الأسماك السمينة، الذين كان أبناؤهم، مدلّلو سانتا تِرِسا، يملكون كلَّ سياراتِ البِرِغرينو في المدينة تقريباً (سيارة دارجة بين الشباب الأثرياء، وكذلك الأركانخل والدسيسرتويند المكشوفة)، الذين تكلّموا مع السلطات المختصّة كي يكفَّ رجالُ الشرطة عن إزعاجهم. بعد أربعة أيام أعلمت مكالمةٌ مجهولة عن بعض إطلاق نار داخل بيت في شارع غارثيّا هِرِّرو. حضرت الدورية هناك بعد نصف ساعة. قرعوا الجرس مرّات عديدة ولم يجبهم أحد. عند استجوابِ الجيران قال هؤلاء إنّهم لم يسمعوا شيئاً، وإن كان من الممكن أن يكون عدم السماع عائد إلى صوت التلفزيونات العالي والذي كان من الممكن سماعه من الشارع. ومع ذلك قال طفل إنّه سمع صوت طلقات بينما كان يتنزّه على دراجته. حين سُئل الجيران من كان يسكن في ذلك البيت، جاءت الأجوبة متناقضة، مما جعل رجالُ الدورية يُفكّرون باحتمال أنّ يتعلّق الأمر ببعض تجار المخدرات وأنّه ربّما كان من الأفضل لهم أن يذهبوا وألا يحرّكوا القضّية أكثر. ومع

ذلك قال أحدُ الجيران إنّه رأى سيارة برِغرينو سوداء مصفوفة بجانب البيت. عندها أخرج رجال الشرطة أسلحتهم وعادوا ليقرعوا باب بيتِ شارعِ غارثيّا هِرّرو رقم ٦٧٧، وكانت النتيجة ذاتها. اتصلوا بعدها لاسلكيّاً بالمخفر وانتظروا. بعد نصف ساعة ظهرت هناك دورية أخرى لتعزيز المراقبة، بحسب ما قالوا، وبعدها بقليل وصل خوان دِ ديوس مارتينِثْ ولينو ريبِرا. بحسب هذا الأخير، الأمرُ الذي أعطي لهم هو أن ينتظروا وصولَ بقيّة المُحققين، لكنّ خوان دِ ديوس مارتينِثْ قال إنّه لا يوجد وقت، فأطاح رجالُ الدورية بأمرٍ واضحٍ منه بالباب. كان خوان دِ ديوس مارتينِثْ أوّل من دخل. كانت تطفو في البيت رائحةُ منيٍ وكحول، قال. كيف هي رائحة المنيّ والكحول؟ سيّئة، قال خوان دِ ديون مارتينِثْ، بصراحة رائحتهما سيّئة. لكنّك في النهاية تعتاد. ليست كرائحة اللحم المتفسّخ، التي لا تعتادها أبداً وتنفذ إلى رأسك، بل وإلى تفكيرك، ومهما استحممتَ وبدّلتَ ثيابك ثلاث مرّات في اليوم، تبقى رائحته عالقة بك أيّاماً طويلة وأحياناً أسابيع، أحياناً أشهراً كاملة. دخل بعده لينو ريبِرا فقط. لا تلمس شيئاً، يتذكّر هذا الشيءَ الأخير الذي قاله له خوان دِ ديوس مارتينِثْ. فحصا أوّلاً الصالةَ. عادي. أثاث رخيص، لكنّه أنيق، طاولة عليها صحف، لا تلمسها، قال خوان دِ ديوس، في المطبخ قنينتا تِكيلا ساوثا فارغتان وقنينة فودكا أبسولوت فارغة أيضاً. المطبخ نظيف. طبيعي. بقايا طعام ماكدونلادز في سطل القمامة. الأرض نظيفة. من نافذة المطبخ كان يُرى فناء صغير، نصفه إسمنتيّ ونصفه الآخر ترابيّ جاف، فيه بعض الجَنْبات الملتصقة بالجدار الذي يفصله عن فناء آخر. طبيعي. عادا بعدها على أعقابهما. في المقدّمة خوان دِ ديوس وخلفه لينو ريبِرا. الممر. الغرف. غرفتان. في إحداهما كانت جثّة هِرمينيا العارية ممدّدة على وجهها فوق السرير. آه، أولاد القحبة، سمع خوان دِ ديوس رفيقَهُ يتمتم. في الحمّام، جثّة إستِفانيّا متقوقعة تحت المرذاذ مربوطة اليدين. ابقَ في الممرّ. لا

تدخلْ، قال خوان دِ ديوس. هو بلى، دخل إلى الحمّام. دخل وركع بجانب جسد إستِفانيّا وفحصه بتؤدة، حتى فقد الإحساس بالزمن. سمع خلفه صوت لينو، يتكلّم باللاسلكي. اطلب منهم أن يأتوا بالطبيب الشرعي، قال خوان دِ ديوس. بحسب الطبيب الشرعي قُتِلَت إستِفانيّا بطلقتين في نقرتها. كانت قد ضُرِبت قبلها وتُقدر علامات خنق، قال الطبيب الشرعيّ، لعبوا معها لعبة الخنق. كانت تظهر علامات حرق في كاحليها. يمكنني أن أقول إنّهم علّقوها من قدميها، قال الطبيب الشرعيّ. بحث خوان دِ ديوس عن دعامة أو كلاّب في السقف. كان البيت مليئاً برجال الشرطة. أحدٌ غطّى هِرمينيا بملحفة. في الغرفة الأخرى وجده: كلاّب حديديّ في السقف، تماماً بين السريرين. أغمض عينيه وتصوّر إستِفانيّا معلّقة ورأسها إلى الأسفل. نادى رجلَيّ شرطة وأمرهما بأن يبحثا عن الحبل. كان الطبيب الشرعي في غرفة هِرمينيا. هذه أيضاً أطلقوا طلقة في نقرتها، قال له حين رآه بجانبه، لكن لا أظنّ أنّها سبب الوفاة. إذن لماذا أطلقوا عليها النار؟ سأل خوان دِ ديوس. كي يتيقّنوا من موتها. ليخرج من البيت كلّ من ليس من الشرطة العلمية، صاح خوان دِ ديوس. راح رجال الشرطة يخرجون شيئاً فشيئاً. رجلان مربوعان كانا يبحثان بوجهِ من أنهكه التعب عن آثار بصمات. الجميع إلى الخارج. صرخ خوان دِ ديوس. كان لينو ريبِرا جالساً على كرسيّ كبير، يقرأ مجلّة عن الملاكمة. هي ذا الحبال هنا، يا مُعلّم، قال أحد رَجُلَيّ الشرطة. شكراً، قال خوان دِ ديوس، والآن انصرِفْ، يا صغيري، فقط يستطيع أن يبقى هنا رجال الشرطة العلميين. شخص كان يلتقطُ صوراً أنزل الكاميرا وغمزه. هذا لا ينتهي، أليس كذلك، يا خوان دِ ديوس؟ لا ينتهي، لا ينتهي، أجابه بينما كان يسقط على الأريكة حيث كان لينو ريبِرا، وأشعل سيجارة. خذِ الأمورَ بتروّ، يا صغيري، قال له المُحقّق. ناداه الطبيب الشرعي إلى الغرفة قبل أن يُنهي سيجارته. كلاهما اغْتُصِبَت، أستطيع أن أقول عدّةَ مرّات، في

الفتحتين، وإن كان من الممكن أن يكونوا قد اغتصبوا التي في الحمّام عبر الفتحات الثلاث. الاثنتان عُذّبتا. سبب الوفاة عند واحدة واضح. عند الأخرى ليس كثيراً. غداً أعطيك تقريراً موثوقاً. أفرغْ لي الآن الشارع، أريد أن آخذهما إلى التشريح. خرج خوان دِ ديوس إلى الفناء وقال للشرطة إنّهم سينقلون الجثّتين. كان الرصيف مليئاً بالفضوليين. شيء غريب، قال خوان دِ ديوس حين اختفت سيارة الإسعاف في طريقها إلى معهد التشريح الطبي، فجأة تغيّرَ كلّ شيء. بعد ساعة، حين كان خوان دِ ديوس يستجوب الجيرانَ وصل المُحقّقان أورتيثْ رِبويّدو وأنخِل فِرنانديثْ. بحسب بعضهم كان يعيش في الرقم ٦٧٧ زوجان، وبحسب آخرين كان يعيش ثلاثة فتية، أو بالأحرى رجل وفتيان، فقط يأتون ليناموا، وبحسبِ آخرين كان يعيش هناك رجلٌ غريب الأطوار، لم يكن يتوجّه بالكلمة إلى أحد من الحيّ وكانت تمرّ أحياناً أيّامٌ لا يظهر فيها، كما لو أنّه يعمل خارج سانتا تِرِسا، وأحياناً أخرى يقضي أياماً لا يخرج فيها من البيت، يُشاهد التلفزيون حتى ساعة متأخّرة جداً أو يسمع أغاني كورّيدو ودانثون ثمّ ينام إلى ما بعد الظهيرة. الذين كانوا يؤكّدون أنّه كان يعيش في الشقة ٦٧٧ زوجان، قالوا إنّهما كانا يملكان سيارة كومبي أو فاناً مشابهاً وإنّ الاثنين كانا يخرجان معاً إلى العمل ويصلان منه معاً. ما نوع العمل؟ لم يكونوا يعرفون، وإن قال أحدهم إنّ من المحتمل أنّهما يعملان نادلَيْن. الذين كانوا يُفكّرون أنّ رجلاً كان يعيش في ذلك البيت برفقة فتيين، كانوا يظنّون أن الرجل كان يقود سيارة فان وأنّ من المحتمل بالفعل أن تكونَ كومبي. الذين كانوا يؤكّدون أنّه كان يعيش هناك رجلٌ وحيد، كانوا غير قادرين على أن يتذكّروا ما إذا كان يملك سيارة أم لا، وإن أكّدوا أنّه كثيراً ما كان يزوره أصدقاء فعلاً يملكون سيارة. بالمختصر المفيد، ما أولادِ العاهرة الذين كانوا يعيشون هناك؟، قال أورتيثْ رِبويّدو. يجب التحقيق في ذلك، أجابه خوان دِ ديوس قبل أن يُغادر إلى البيت. في اليوم التالي

وبعد القيام بأعمال التشريح اللازمة عاد الطبيب الشرعيّ وأكّد على تقديراته الأولى وأضافا بأنّ وفاة هِرمينيا لم يكن سببه الطلقة المستقرّة في النقرة، بل سكتة قلبيّة. لم تستطع المسكينة الصغيرة أن تتحمّل التعذيب والتنكيل. ما من طريقة. السلاح المُستخدَم يمكن أن يكون مسدّسَ سميث أند ويسون، عيار ٩ مم. البيت الذي وجدت فيه الجثتان تعود ملكيته إلى عجوز لم تكن تعي شيئاً، سيّدة هرمة من الطبقة العليا في سانتا تِرِسا. كانت تعيش من إيجار أملاكها، بينها معظم البيوت المجاورة. كانت تدير عملية الإيجار شركة ترويج عقارية، تعود ملكيتها إلى حفيد للعجوز. بحسب الأوراق الموجودة عند الوكيل، جميع الأمور كانت قانونية، كان اسم مستأجر العقار ٦٧٧ خابيير راموس ويدفع إيجاراته شهرياً عبر البنك. بالتحقيق مع البنك اكتُشف أنّ المدعو خابيير راموس كان قد أَدخل إيداعَيْن كبيرَيْن كافيَيْن كي يستطيع أن يدفع إيجار ستّة أشهر إضافة إلى فواتير الكهرباء والماء، لم يره بعدها أحد أبداً. وحقّق خوان دِ ديوس راميرِث، كنوعٍ من الفضول، في سجل الملكية وتبيّن له أنّ بيوت الكتلة التالية من شارع غارثيّا هِرّرو التالية تعودُ ملكيتها بالكامل إلى بِدرو رِنخيفو وأنّ بيوت شارع تابلادا الموازي لشارع غارثيّا هِرّرو تعودُ إلى شخص يُدعى لورِنثو خوان هينوخوسا، سُجلت ملكيتها باسمه وتعود إلى تاجر المخدّرات إستانيسلاو كامبوثانو. وكذلك كانت جميع عقارات شارع هورْتِسيا وليثِنثيادو كابِثاسْ، الموازيين لشارع تابلادا، مُسجّلةً باسم عمدة مدينة سانتا تِرِسا أو أحد أبنائه. أيضاً: بيوت وأبنية شارع المهندس غِيّرمو أورتيثْ، التي تقع إلى الشمال على بعد شارعين فرعيين تعودُ ملكيتها إلى بابلو نِغْرِتِ، شقيق بِدرو نِغْرِتِ ورئيس جامعة سانتا تِرِسا الفخري. يا له من شيء غريب، قال خوان دِ ديوس. يكون المرء مع الجثث ويرتعد. يأخذون الجثث ولا يعود يرتعد. هل رِنخيفو متورّط بجريمة الطفلتين. هل كامبوثانو غارق فيها حتى شحمة إذنيه. كان رِنخيفو تاجر

المخدّرات الطيّب وكامبوثانو تاجر المخدّرات الشرير. يا للغرابة، يا للغرابة، قال خوان دِ ديوس. لا أحد يغتصب ويقتل في بيته. لا أحد يغتصب ويقتل قريباً من بيته، إلاّ إذا كان مجنوناً ويريد أن يمسكوا به. بعد ليلتين من العثور على الجثّتين اجتمع في نادٍ خاصّ ملحق بِملعب غولف عمدةُ مدينة سانتا تِرِسا، المجاز خوسِهْ رفوخيو دِ لاس هِراس، قائدُ الشرطة والسيّدان بِدرو رِنخيفو وإستانيسلاو كامبوثانو. دام اللقاء حتى الرابعة صباحاً وُضّحت فيه بعض الأشياء. في اليوم التالي استنفر جميعُ رجال شرطة الدينة، يمكن القول، لصيد خابيير راموس. بحثوا عنه حتى تحت حجارة الصحراء. لكنّهم في الحقيقة لم يستطيعوا حتى أن يرسموا له صورة تقريبية مقنعة.

بقي خوان دِ ديوس مارتينِثْ أيّاماً كثيرة يُفكّر بالسكتات القلبية الأربعة التي تعرّضت لها هِرمينيا نورييغا قبل أن تموت. أحياناً كان يُفكّر بذلك بينما هو يتناول طعامه وبينما هو يبول في حمّامِ مقهى، أو في محل وجبات سريعة يرتاده المُحقّقون، أو قبل أن ينام، تماماً في لحظة إطفاء الضوء، أو ربّما قبل ثوان من إطفائه الضوء، ببساطة حين كان يحدث هذا لم يكن يستطيع أن يطفئ الضوء فينهض من السرير ويقتربُ من النافذة، ينظرُ إلى الشارع، الشارعِ الدهمائيّ، القبيحِ والصامت، قليلِ الإضاءة، يذهب بعدها إلى المطبَخ ويشرعُ بغلي الماء وصنع القهوة، وكان أحياناً بينما هو يشرب القهوة الساخنة بدون سكّر، قهوة خراء، يُشعل التلفاز ويبدأ بمشاهدة البرامج الليلية التي تصل من جهات الصحراء الأربعة. كان يلتقط في تلك الساعة قنوات مكسيكيّة وأمريكية شمالية لمجانين معاقين كانوا يخبّون على خيولهم تحت النجوم ويتبادلون السلام بكلماتٍ غير مفهومة، بالإسبانية أو الإنكليزية، أو بالإسبانية الإنكليزية، لكنّ جميع الكلمات اللعينة غير مفهومة. وعندها كان خوان دِ ديوس يترك الفنجان على الطاولة ويغطّي وجهه

بيده فتفلت من فمه ولولة ضعيفة ودقيقة، كما لو أنّه يبكي أو يصارع كي يبكي، لكنّه حين كان يسحب يديه أخيراً، لا يظهر غير فرطوسه الهرم، جلده الهرم، الباهت والجاف مضاء بشاشة التلفاز دون أيّ أثر لأيّ دمعة.

حين حكى لإلبيرا كامبوس ما كان يجري معه، أصغت إليه مديرةُ المشفى النفسيّ بصمت ثم وبعد برهة طويلة، بينما الاثنان يرتاحان عاريين في شبه ظلمة المَخدع، اعترفت له أنّها هي أيضاً كانت تحلم بأنّها تترك كلّ شيء. أي أنّها تتركُ كلّ شيء جذرياً، دون أيّ نوع من المسكنات. كانت تحلم مثلاً بأنّها تبيع شقّتها وعقارين آخرين تملكهما في سانتا تِرِسا وسيارتَها ومجوهراتها، تبيع كلّ شيء كي تجمع مبلغاً محترماً، ثمّ كانت تحلم بعدها بأنّها تأخذ طائرة إلى باريس، حيث تستأجر شقة صغيرة جدّاً، أستوديو، لِنَقُلْ بين فيليرز وبورت كليشي ثمّ تذهب لتراجع طبيباً نفسياً شهيراً، جرّاحَ تجميل يصنع العجائب، ليُجري لها عمليّة شدّ للجلد ويصلحَ لها أنفها ووجنتيها، وليُكَبِّرَ لها ثدييها، أي في النهاية أن تبدو أخرى حين تخرج من طاولة العمليات، امرأة مختلفة، ليست امرأة في الخمسين ونيّف من عمرها، بل امرأة في الأربعين ونيّف من عمرها، أو بالأحرى في الأربعين وأكثر قليلاً، لا يمكن معرفتها، جديدة، متغيّرة، مستعيدة شبابها، طبعاً وإن كانت ستبقى وقتاً تذهب إلى كلّ مكان مضمدة، كما لو أنّها مومياء، ليس كالمومياء المصرية، بل كالمومياء المكسيكية، الشيء الذي كانت تحبّه، لتتنزّه في المترو، مثلاً وهي تعرف أنّ جميع الباريسيين ينظرون إليها خلسة، بل وسيترك لها بعضهم مقعده، ظانّاً أو متصوّراً الآلام الرهيبة، الحروقَ، حادثَ المرور، التي مرّت بها تلك المجهولةُ الصموتةُ والصبورة، ثمّ تنزل من المترو وتدخل متحفاً أو صالة فنونٍ أو مكتبة في مونبارناس، وتدرس الفرنسية لساعتين يوميّاً بفرح، بحلم، ما

أجمل الفرنسية، يا لها من لغةٍ موسيقيّة، فيها *ما لستُ أدري*[1]، ثمّ وذات صباح ماطر، تنزع الضمادات بهدوء، مثل عالم آثار عثر تواً على عظم لا يمكن وصفه، مثل طفلة بطيئة الحركة تفكّ، خطوة فخطوة، هديةً تريد أن تُطيل الوقتَ، للأبد؟، تقريباً للأبد، إلى أن يسقط أخيراً آخر ضماد، أين يسقط؟، على الأرضية، على الموكيت أو الخشب، على الأرضية فهي أفضل نوعيّة، وعلى الأرضية كلّ الضمادات تهتزّ مثل أفاعٍ، أو كلّ الضمادات تفتح عيونها الناعسة مثل أفاعٍ، وإن كانت تعرف أنّها ليست أفاعٍ، بل بالأحرى الملائكة الحارسة للأفاعي، ثمّ يقرِّب لها أحدٌ مرآةً فتتأمّل نفسها، تهزّ رأسها بالقبول، توافق على نفسها بحركة تكتشف فيها سيادة الأنف، حبَّ أبيها وأمّها. تُوَقِّعُ بعدها شيئاً، ورقةً، وثيقةً، شيكاً وتمضي في شوارع باريس. هل نحو حياة جديدة؟ سألها خوان دِ ديوس مارتينِثْ. أعتقدُ ذلك، قالت المديرةُ. أناً أحبّك تماماً كما أنت، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. حياة جديدة بلا مكسيكيين ولا مكسيك ولا مرضى مكسيكيين، قالت المديرة. أنت تُجَنّنيني كما أنتِ، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ.

في نهاية عام ١٩٩٦، نُشِر أو قيل في بعض وسائل الإعلام المكسيكية إنّهم كانوا يُصوّرون في الشمال أفلامَ قتلٍ حقيقيّ، أفلام القتل المُصوّر، وإنّ عاصمة أفلام القتل الحقيقيّ هي سانتا تِرِسا. وذات ليلة تكلّم صحفيّان مُلثّمان مع الجنرال هومْبِرتو بارِدِس، قائد شرطة العاصمة الفيدرالية السابق، في قلعته المسوَّرة في ضاحية بايّ. الصحفيان هما العجوز ماكاريو لوبِثْ سانتوس، أحد أنياب الصحافة البوليسية، منذ أكثر من أربعين سنة، وسِرْخيو غونثالِث. العشاء الذي كرّمهما به الجنرالُ تكوّن من شطائر اللحم الحارّة جدّاً وتِكيلا إنبيسيبلِ

(١) Un je ne sais quoi

(اللامرئي). وأيّ شيء آخر يُجرعُ ليلاً ويقتصر تأثيره على إحداث حرقة في المعدة. في منتصف الطعام سأله ماكاريو لوبِّثْ عن رأيه بصناعة أفلام القتل الحقيقيّ في سانتا تِرِسا. فقال له الجنرال إنّه رأى خلال حياته المهنية المديدة كثيراً من الوحشية، لكنّه لم يرَ قط فيلماً بهذه المواصفات، وإنّه يشكّ بوجودها. لكنّها موجودة، قال له الصحفيُّ العجوز. قد تكون موجودة وقد لا تكون موجودة، أجابه الجنرال، الغريب هو أنّني أنا، الذي رأيتُ وعرفتُ كلَّ شيء، لم أرها قط. وافقه الصحفيان على أنّ هذا، بالفعلِ كان غريباً، وإن تركا فكرة أنّ من المحتمل أنّ تلك الطريقة في الرعب لم تكن قد تطوّرت بعد في المرحلة التي كان فيها الجنرال على رأس عمله. لم يوافقهما الجنرال: بحسب رأيه، الأفلام الخلاعية كانت قد بلغت أوجَ تطوّرها قبل الثورة الفرنسية بقليل. كل ما يمكن أن يراه المرء في فيلمٍ هولندي حالي أو في مجموعة من الصور أو في كتيب ذهاني، كان قد ثُبت قبل عام ١٧٨٩، وكان إلى حدّ كبير تكراراً، استبدالاً للنظرة التي كانت قد تمّت. أيّها الجنرال، قال له ماكاريو لوبِّثْ سانتوس، أنت تتكلّم أحياناً مثل أوكتافيو باث، ألا تقرؤه الآن؟ أطلق الجنرال ضحكة خفيفة وقال إنّ الشيء الوحيد الذي قرأه له، ومنذ سنوات طويلة هو *متاهة العزلة*، ولم يفهم منه شيئاً. كنتُ وقتها شابّاً صغيراً، قال الجنرال وهو ينظرُ إلى الصحفيّين بإمعان، كان عمري بحدود الأربعين سنة. آه، يا جنرالي، قال ماكاريو لوبِّثْ. ثمّ تحدّثوا عن الحرّية والشرّ، وعن طرق الحرّية السريعة حيث الشرّ مثل سيارة فِيراري، وبعد برهة حين رفعتْ خادمةٌ عجوز الأطباقَ وسألتهم عمّا إذا كان السادة يريدون قهوة، عادوا إلى أفلام القتل الحقيقيّ. بحسب ماكاريو لوبِّثْ كان الوضعُ في المكسيك قد مرَّ ببعض التعديلات الجديدة. فمن ناحية لم يحدث أن وُجِدَ فسادٌ بمثل ذلك الحجم. إلى هذا يجب أن تُضاف مشكلة تجارة المخدّرات وبعض جبال المال التي كانت تتحرّك حول هذه الظاهرة الجديدة.

صناعة أفلام القتل الحقيقيّ، في هذا السياق، كانت مجرّد عَرَض؛ عرضٍ خبيث في حالة سانتا تِرِسا، لكنّها أولاً وأخيراً مجرّد عَرَضٍ. كان جواب الجنرال مهدّئاً. قال إنّه لا يظنّ أن الفسادَ الآن أكبر مما كان موجوداً في ظلّ حكوماتٍ أخرى من الماضي. إذا ما قارنّه بالفساد الذي كان موجوداً في ظلّ حكومة ميغِلْ ألِمان، مثلاً، فهو أدنى، وأيضاً هو أدنى لو قارنه بالذي كان موجوداً في سنوات لوبِّثْ ماتيوس الستّ. ربّما كان اليأسُ الآن أكبر، لكن ليس الفساد. واتهم تجارةُ المخدّرات، كانت شيئاً جديداً، لكنّ ثقل تجارة المخدرات في المجتمع المكسيكي (وأيضاً في المجتمع الأمريكي) أُعْطِي أكبر من حجمه. الشيء الوحيد الذي كان ضروريّاً لصناعة فيلم القتل فيه حقيقيٌّ، قال لهما، هو المال، فقط المال، والمالُ كان موجوداً قبل أن تسودَ تجارة المخدرات وكذلك صناعةُ أفلام الخلاعة ومع ذلك فالفيلم، الفيلم الشهير، لم يُصنع بعد. قد لا تكون قد شاهدته، أيّها الجنرال، قال ماكاريو لوبِّثْ. ضحك الجنرال وضاعت ضحكته بين أحواض الحديقة المظلمة. أنا رأيت كلَّ شيء، يا صديقي ماكاريو الطيّب، أجابه. قال له صحفيّ أخبار الجرائم والجنايات العجوز قبل أن يُغادر، إنّه لم ينل شرف التسليم على أيّ من مرافقيه حين وصل إلى البيت العتيق المسوّر في ضاحية بايٍّ. أجابه الجنرال إنّ سبب ذلك هو أنّه ما عاد عنده مرافقين. ولماذا هذا، يا سيّدي الجنرال؟، سأله الصحفيّ. هل استسلمَ لكَ الأعداء؟ الخدمات الأمنية هي في كلّ يوم أغلى، يا ماكاريو، قال الجنرال بينما هو يُرافقهم عبر طريق محاط بشجيرات المجنونة إلى الباب، وأنا أفضّل أن أنفق بيزواتي على نزوات ألطف. وماذا لو هاجموك؟ حمل الجنرال يده إلى ظهره وأرى كلا الصحفيين مسدسَ ديزرت إيغل إسرائيلي، عيار خمسين ماغنوم، ومخزناً فيه ست طلقات. في جيبه، قال لهما، دائماً يحمل مخزنين احتياطيين. لكنّني لا أظنّ أنّني سأُضطرّ لاستخدامه، قال لهما فأنا

عجوز جدّاً ولا بدَّ أن أعدائي يظنّون أنّني أرعى الخبّازى في المقبرة[١].
هناك ناس حقودون جدّاً، علّق ماكاريو لوبِّثْ سانتوس. هذا صحيح، يا ماكاريو، قال الجنرال، نحن في المكسيك لا نعرف كيف نخسر أو نفوز بروح رياضيّة حقيقيّة. طبعاً الخسارة هنا بمعنى القتل، وهو ما يصعب معه امتلاك روح رياضية، لكن، حسن، فكّرَ الجنرال، بعضُنا ما زال يُصارع. آه، يا جنرالي، ضحك ماكاريو لوبِّثْ سانتوس.

في كانون الأول عام ١٩٩٧ أُلْقِيَ القبضُ على خمسة أعضاء من عصابة بيسونتِس. اتُهِموا بعدد من جرائم القتل اللاحقة على سجن هاس. الموقوفون هم سِباستيان روسالِسْ، تسعة عشر عاماً، كارلوس كاميلو ألونسو، عشرون عاماً، رِينيه غادريا، سبعة عشر عاماً، خوليو بوستامانتِ، تسعة عشر عاماً وروبِرتو أغيلِرا، عشرون عاماً. جميعهم كانت لهم سوابق في ممارسة العنف الجنسي واثنان منهم، سِباستيان روسالِس وكارلوس كاميلو ألونسو، سبق وسجنا على ذمّة التحقيق بجريمة اغتصاب فتاة قاصرة، ماريّا إِنِس روسالِس، ابنة عم سِباستيان، التي سحبت دعواها بعد أشهرٍ من دخول هذا سجنَ سانتا تِرِسا. قيل عن كارلوس كاميلو ألونسو إنّه هو مستأجِر بيت شارع غارثيّا هِرِّرو، الذي عُثِر فيه على جثّتي إستِفانيّا وهِرمينيا. اتهم الخمسةُ باختطاف واغتصاب وتعذيب وقتل المرأتين المقتولتين اللتين عُثِر عليهما في جرف بودِستا، كذلك بقتل ماريسول كامارِنا، التي عُثِر على جثّتها في برميل مليء بالأسيد وبمقتل غوادالوبّ إلِنا بلانكو، إضافة إلى قتل إستِفانيّا وهِرمينيا. في الاستجواب الذي أُخْضِعوا له فقد كارلوس كاميلو ألونسو جميعَ أسنانه وكُسر عظم أنفه، قيل إن هذا جاء نتيجةَ محاولته الانتحار. أمّا روبِرتو أغيلِرا فقد انتهى به الأمرُ بأربعة أضلاع

[١] كناية عن أنّه ميت.

مكسورة. بالنسبة إلى خوليو بوستامانتِ فقد حُبِسَ في زنزانة مع سادِيَّيْن، راحا يعذبانه إلى أن يتعبا، إضافة إلى أنّهما كانا يخضعانه للضرب كلَّ ثلاث ساعات ويكسران له أصابع يده اليسرى. نُظّم صفٌّ من المشبوهين ومن بين سكّان شارع غارثيّا هِرّرو العشرة، اثنان منهم عرفا كارلوس كاميلو ألونسو كمستأجر للبيت ٦٧٧. شاهدان آخران، واحد منهما واشٍ معروف للشرطة، صرّحا بأنّهما رأيا سِباستيان روسالِس خلال الأسبوع الذي اختطفوا فيه إستِفانيّا وهِرمينيا، في سيارة بِرِغرينو سوداء. بحسب ما قال لهما روسالِس نفسه كان الأمر يتعلّق بسيارة سرقها توّاً. عُثر بين ممتلكات أعضاء لوس بيسونتِس على ثلاثة أسلحة نارية: مسدّسين سي زيد موديل ٨٥ عيار ٩ مم ومسدّس هكلر أند كوخ ألماني. ومع ذلك قال شاهدٌ آخر إنّ كارلوس كاميلو ألونسو، كان يتفاخر بامتلاكه مسدس سميث أند ويسون، مثل الذي قُتِلَتْ به الأختان. أين كان السلاح؟ بحسب الشاهد نفسه قال له كارلوس كاميلو نفسه إنّه باعه إلى بعض تجار المخدرات الأمريكيين الشماليين، الذين كان يعرفهم. من جهة أخرى اكتُشِف بالمُصادفة، بعد أن أوقف أعضاء لوس بيسونتِس، أنّ واحداً منهم، هو روبرتو أغيلِرا، كان أخاً لشخصٍ يُدعى خِسوس أغيلِرا، سجين في سجن سانتا تِرِسا وملقّب بِإلْ تِكيلا، صديق ومحميّ كلاوس هاس الكبير. لم تتأخر النتائج في الظهور. كان من المحتمل جدّاً، قالت الشرطةُ، أن القتل على التسلسل الذي قام به أعضاء عصابة لوس بيسونتِس نُفِّذ بتكليف. كان هاس يدفع، بحسب هذه الرواية، ثلاثة آلاف دولار عن كلّ عمليّة قتل تجمع مواصفات مشابهة لعمليات القتل التي قام بها هو نفسه. لم يتأخّر الخبر في التسرّب إلى الصحافة. ارتفعت أصوات تُطالب باستقالة مدير السجن. قيل إنّ السجن تحكمه عصابات مُجرمين منظّمة ويسيطر عليها جميعها إنريكِ هِرناندِثْ، تاجر مخدّرات كانانيا والآمر الناهي في السجن، من حيث ما يزال يدير أعماله محصّناً. في *لا تريبونا دِ سانتا تِرِسا* ظهر

مقال يتهمون فيه إنريكيتو هِرنانِدِثْ وهاس بتجارة المخدرات المموّهة بتجارة استيراد وتصدير مكوِّنات الحواسيب على هذا الجانب وذاك من الحدود. لم يكن المقال مُوقَّعاً والصحفيّ الذي كتبه لم يُقابل هاس إلا مرّة واحدة في عمره، ولم يمنعه هذا من أن يضع على لسانه تصريحاتٍ لم يقم بها هذا قط. قضيّة قتل النساء على التسلسل انتهت بالنجاح، صرّح خوسِهْ رِفوخيو دِ لاس هِراس، عمدة بلدية سانتا تِرِسا لتلفزيون هِرموسيّو (وأعيد نشره في أخبار قنوات العاصمة الفيدرالية الكبيرة). كلّ ما سيجري من الآن فصاعداً يدخل تحت عنوان الجرائم العادية والمتزايدة الخاصّة بمدينة في نموٍّ وتطوُّرٍ مستمرين. انتهى المرضى العقليون.

وذات ليلة، بينما كان يقرأ لجورج ستاينر تلقى مكالمةً هاتفية لم يعرف في البداية كيف يحدد هوية صاحبها. صوت منفعل جدّاً بنبرة أجنبية يقول كلّه كذِب، كلّه مكيدة، ليس كما لو أنّه كان يهتف له توّاً، بل كما لو أنّه مضى عليه نصف ساعة وهو يحادثه. ماذا تريد؟، سأله، مع من تُريد أن تتكلّم؟ هل أنت سِرخيو غونثالِث؟. سأل الصوتُ. هو أنا. ويحك، يا قوّاد، كيف تسيرُ أمورك، قال الصوتُ. بدا كما لو أنّه يأتي من مكان قصيٍّ جدّاً. فكَّر سِرخيو. من أنت؟، سأل. آه، يا ابن العاهرة، ألا تعرفني؟ قال الصوتُ بنبرة استغراب. كلاوس هاس؟، سأل سِرخيو. سُمِعَتْ على الطرف الآخر من الخطّ ضحكة ثم نوع من ريح معدنيّة، ضجيج صحراء وضجيج سجونٍ في الليل. نفسه، يا قوّاد، أرى أنّك لم تنسني. لا، لم أنسك، قال سِرخيو. كيف يمكن أن أنساك؟ وقتي قصير، قال هاس. فقط أردت أن أقولَ لك ليست صحيحة هذه الشائعة التي تقول بأنّني أدفع لرجال عصابة لوس بيسونتِس. يجب أن يكون عندي الكثير من البسكويت كي أدفع ثمن كلّ هذا القتل. بسكويت؟، سأل سِرخيو. مال، قال هاس. أنا صديق إل

تِكيلا، شابّ مجنون هكذا يُسمونه هنا، وال تِكيلا أخو أحد رجال عصابة لوس بيسونتِس، وهذا كلّ شيء. لا يوجد أكثر. أُقسِم لك بهذا، قال الصوتُ بنبرة أجنبية. احكِ هذا لمُحاميتك، قال سِرخيو، فأنا ما عدتُ أكتب عن جرائم سانتا تِرِسا. ضحك هاس على الطرف الآخر. هذا ما يقوله لي الجميع. احكه هنا، احكِهِ هناك. محاميتي تعرف هذا، قال. أنا لا أستطيع أن أفعل شيئاً لأجلك، قال سِرخيو. كيف ما نظرت إليه، أنا أعتقد أنك تستطيع، قال هاس. عاد سِرخيو بعدها ليسمع ضجيج أنابيب، ضجيجَ كشطٍ. ريحَ إعصار تصل على شكل هبّات. ماذا سأفعل لو كنتُ مسجوناً؟، فكَّرَ سِرخيو. هل سألوذ بزاوية مغطياً نفسي بمفرش سرير، مثل طفل؟ هل سأرتعدُ؟ هل سأطلبُ مُساعَدةً، هل سأبكي، هل سأحاول أن أنتحر؟ يريدون أن يدمّروني، قال هاس. يؤجّلون المُحاكمة، يخافون منّي. يريدون أن يُدمرّوني. سمع بعدها ضجيج الصحراء وشيئاً بدا له خطوات حيوان. جميعنا نُجَنُّ، فكّر. يا هاس؟ هل ما زلت على الخطّ؟ لا أحد أجابه.

بعد توقيفِ عصابةِ لوس بيسونتِس في كانون الثاني، تنفّست المدينةُ الصعداء. أكبر هديّة للملوك المجوس، عنونت لا بوث دِ سونورا خبرَ القبض على الذميمين الخمسة. حقيقةً كان هناك مقتولون. مات لصٌّ عاديّ مطعوناً بسكيّن، مسرح عملياتِهِ شوارع مركزِ المدينة، قُتِل شخصان مرتبطان بتجارة المخدرات. قُتِل مربّي كلاب، لكنّ أحداً لم يعثر على امرأةٍ مُغْتَصَبة ومعذّبة ومقتولة. هذا في شهر كانون الثاني. تكرّر الشيء ذاته في شهر شباط، الميتات العاديّة بلى وُجِدَت، ناس يبدؤون مُحتفلين وينتهون بقتل بعضهم بعضاً، ميتات لم تكن سينمائية، ميتات لم تكن تنتمي إلى الفولكلور، لكنها أيضاً لا تنتمي إلى الحداثة، ميتات لا تُخيفُ أحداً. كان القاتل على التسلسل رسمياً وراء القضبان. وكذلك وأتباعُهُ أو مستخدَموه. تستطيع المدينة أن تتنفّس الصعداء.

في كانون الثاني توقّف مراسل صحيفة من بوينس أيرس وهو في طريقه إلى لوس أنجلوس ثلاثةَ أيّام في سانتا تِرِسا وكتب خبراً عن المدينة وجرائم قتل النساء. حاول أن يزور هاس في السجن، لكنّ طلبه رُفِض. حضر مصارعةَ ثيران. وذهب إلى ماخور شؤون داخلية ونام مع عاهرةٍ تُدعى روسانا. زار مرقص دومينوس وبار سِرافينوس. تعرّف على صحفيّ زميل في *إل هِرالدو دِل نورتِ*، وراجع في الصحيفة ذاتها ملفّ النساء المختفيات، المخطوفاتِ والمقتولات. قدّمَهُ صحفيٌّ *إل هِرالدو* إلى صديقٍ قدّمه بدوره إلى صديقٍ آخر كان يقول إنّه شاهدَ فيلمَ قتلٍ حقيقيّ. قال له الأرجنتينيّ إنّه يريد أن يراه. سأله صديقُ صديقِ الصحفيّ كم من الدولارات هو مستعدّ لأن يدفع. قال له الأرجنتيني إنّه لا يدفع نصفَ مليم من أجل قذارة من هذا النوع، وإنّه كان يريد أن يراه فقط لمصلحةٍ مهنية وأيضاً، عليه أن يعترف، للفضول. واعده المكسيكيّ في بيت في الجزء الشمالي من المدينة. كانت عينا الأرجنتيني خضراوين وطوله مئة وتسعين سنتيمتراً، ووزنه مئة كيلوغراماً تقريباً. ذهب إلى الموعد وشاهد الفيلم. كان المكسيكي مربوعاً وأقرب إلى البدين وبقي بينما هما يُشاهدان الفيلم ساكناً، جالساً على الأريكة بجانب الأرجنتيني، مثل آنسة. بقي الأرجنتينيُّ كلَّ الوقت الذي استغرقه الفيلمُ منتظراً اللحظة التي سيلمس فيها المكسيكيُّ عضوَهُ، لكنّ المكسيكيَّ لم يفعل شيئاً، غير التنفّس بصوت مسموع، كما لو أنّه لا يُريد أن يخسر سنتيمتراً مكعباً واحداً من الأوكسجين الذي سبق واستنشقه الأرجنتينيُّ. حين انتهى الفيلم طلب منه الأرجنتينيُّ بأدب جمّ نسخةً عنه، لكنّ المكسيكيَّ لم يكن يُريد ولا حتى أن يسمعه يتكلّم عن هذا. ذهبا في تلك الليلة ليتناولا البيرة في محل يُسمى ملك الشطائر. ظنّ الأرجنتيني بينما كانا يشربان أنّ جميعَ النُدُلِ كانوا زومبيين. بدا له طبيعياً. عادياً. كان المحل هائلاً، مليئاً باللوحات الجدارية والرسوم التي تلمح إلى طفولة ملك الشطائر ويطفو فوق الطاولات هواء كثيف،

هواء كابوسٍ مُتَوَقِّف. فكّر الأرجنتينيُّ في لحظة معيّنة أنّ أحداً وضع مخدّراً ما في بيرتِهِ. ودّع المكسيكيَّ فجأة وعاد إلى الفندق في سيارة أجرة. في اليوم التالي أخذ حافلةً أقلّته إلى فونيكس ومن هناك استقلّ طائرة إلى لوس أنجلوس، حيث تفرّغ خلال النهار لإجراء مقابلات مع الممثلين الذين كانوا يسمحون بذلك، وهم قلّة، وفي الليل لكتابة مقالٍ مطوّلٍ عن قتل النساء في سانتا تِرِسا. ركّزَ المقال على صناعة السينما الخلاعية والصناعة السرية لأفلام القتل الحقيقيّ. اختُرِعَ مصطلحُ فيلم القتل الحقيقيّ، بحسب الأرجنتينيّ، في الأرجنتين وإن لم يكن من قِبَلِ مواطنٍ أرجنتينيّ بل من قبل زوجين أمريكيين شماليين انتقلا إلى هناك لتصوير فيلم. كان الأمريكيان الشماليان يُدعيان مايك وكلاريسا إبشتاين وتعاقدا مع ممثِّلَيْن من بوينس أيرس مشهورين إلى حدّ ما وإن كان في ساعات الركود وعدد من الشباب، بعضهم صار فيما بعد معروفاً جدّاً. الفريق الفني أيضاً كان أرجنتينياً، باستثناء المصوّر وكان صديقاً لإبشتاين يُدعى ج ت هاردي، وصل إلى بوينس أيرس قبل يومٍ من بدء التصوير. حدث هذا في العام ١٩٧٢، حين كانوا يتكلّمون في الأرجنتين عن ثورة، عن ثورة بيرونية، ثورة اشتراكية بل وأيضاً عن ثورة زهدية. كان المحلّلون النفسيون والشعراء يطوفون في الشوارعِ، تُراقبهم من النوافذ الساحراتُ والناس الغامضون. حين وصل ج ت إلى بوينس أيرس كان في انتظاره في المطار مايك وكلاريسا إبشتاين، التي كانت مع كلّ يوم يمرّ أكثر حماساً مع الأرجنتينيين. بينما كانوا متوجّهين في سيارة أجرة إلى البيت الذي استأجروه في ضواحي المدينة اعترف نايك أنّ ذلك، كان مثل الغرب، الغرب الأمريكي الشمالي، ولكي يُعبّر بشكل أفضل فتح ذراعيه وأحاط بكلّ شيء، بل وأفضل من الغرب الأمريكي الشمالي، لأنّ رعاة البقر هناك، في الغرب، إذا ما تمعّنا جيداً، لا يفيدون في شيء غير رعي البقر، بينما هم هنا في السهوب، التي هي في كلّ مرّة أكثر جلاءً، صيّادو زومبيين. هل الفيلم عن

الزومبيين؟ أراد ج ت أن يعرف. يوجد بعضها، قالت كلاريسا. أقاموا في تلك الليلة على شرف المصوِّر حفلةَ شواء تقليدي في البلد في حديقة إيشتاين، بجانب المسبح، حيث حضر الممثلون والفريق الفنيّ. غادروا بعد يومين إلى إل تيغرِ. بعد أسبوع من التصوير عاد الفريق بكامله إلى بوينس أيرس. ارتاحوا يومين، ذهب المُمثّلون، الشبابُ في غالبيّتهم، ليروا آباءهم وأصدقاءهم وقرأ ج ت السيناريو بجانب مسبح آل إيشتاين. لم يفهم شيئاً مهماً والأسوأ أنّه لم يتعّرف في الكتابة على أيٍّ من المشاهد التي صوّرها في إل تيغرِ. بعدها بقليل ذهبوا في قافلة من حافلتين كبيرتين وأخرى صغيرة إلى السهوب. كانوا يبدون، قال أحد الممثلين الأرجنتينيين، عصابةً من الغجر تدخل في المجهول. كانت الرحلة لا نهاية لها. ناموا في الليلة الأولى في نوع من موتيلاتِ الحافلات ودشّن مايك وكلاريسا أوّل مشاجرة بينهما. راحت ممثّلة أرجنتينية في الثامنة عشرة من عمرها تبكي وقالت إنّها تريد أن تذهب إلى بيتها، إلى أمّها وأخوتها الصغار. أحد الممثّلين الأرجنتينيين، بملامح غندور سكر وبقي نائماً في الحمّام، فاضطرّ بقيةُ الممثّلين إلى جرّه إلى غرفته. في اليوم التالي أيقظ مايك الجميعَ باكراً جدّاً وعادوا خافضي الرؤوس إلى الطريق. كانوا يصنعون طعامهم بجانب الأنهار كي يوفّروا، كما لو أنّهم في سيران. كانت الفتيات يُحسنّ الطبخَ وحتى الفتيان بدوا مؤهّلين لتحضير الشواء. كانت الوجبة مكوَّنةً أساساً من اللحم والنبيذ. جميعهم تقريباً كانوا يحملون كاميرات تصوير ويستغلّون توقّفهم لتناول الطعام كي يلتقطوا صوراً لبعضهم بعضاً. بعضهم كان يتكلّم بالإنكليزية مع كلاريسا ومع ج ت، كي يتمرّنوا، كانوا يقولون. على العكس من مايك الذي كان يتكلّم مع الجميع بالإسبانية، بإسبانيةٍ تعجّ بتعبيراتٍ لغة العصابات تُضحِكُ الفتيةَ. في اليوم الرابع، حين ظنّ ج ت أنّه وسط كابوس، وصلوا إلى مزرعة، استقبلهم فيها المستخدمان الوحيدان، زوجان خمسينيان، يهتمان بالمحافظة على البيت

والإسطبلات. تكلّم مايك معهما برهةً، قال لهما إنّه صديق المالك، نزل بعدها الجميعُ من الحافلات وأخذوا مواضعهم في البيت. عادوا للعمل في ذلك المساء ذاته. صوّروا مشهداً في البرّية. شخص كان يُصلي ناراً، امرأة مربوطة إلى سياج أسلاكٍ، شخصان جالسان على الأرض يتكلّمان عن صفقاتٍ ويأكلان قطع لحمٍ كبيرة. كان اللحم ساخناً ولذلك راحا يُنَقِّلانه، بين الحين والآخر، من يدٍ إلى أخرى كي لا يحترقا. في الليل أقاموا حفلة. تحدّثوا عن السياسة، عن الحاجة لوجود إصلاح زراعي، عن مستقبل أمريكا اللاتينية، وبقي الزوجان إبشتاين وج ت صامتين، من ناحية لأنّ الموضوعَ لم يكن يعنيهما ومن ناحية أخرى لأنّه كان عندهم أمور أهمّ يفكّرون بها. اكتشف ج ت في تلك الليلة أن كلاريسا تُرَكّبُ قروناً لمايك مع أحد المُمثلين، مع أنّه بدا أنّ الأمر لا يهمّ مايك. في اليوم التالي صوّروا داخل بيت المزرعة مشاهدَ جنسية، كانت أفضل ما يروق لِـج ت، الخبير في تحضير الإضاءة غير المباشرة، وفي موضوع الاختيار والاقتراح. ذبح مستخدمُ المزرعة وسلخ وقطّعَ عجلاً سيأكلونه عند الظهيرة. رافقه مايك مزوّداً بعدد من أكياس النايلون. عندما عاد كانت الأكياسُ مليئةً بالدم. كان تصوير مشاهدِ ذلك الصباح أشبه بالمجزرة. ممثلان كان يُفترض أنّهما يقتلان إحدى المُمثّلات، يقطّعونها بعد ذلك ويلفونها في قطعٍ من الخيش ويخرجون ليطمروها في البرّية. استُخْدِمَت قطعٌ من لحم العجل الذي قُطّعَ في الفجرِ وكاملُ أحشائه تقريباً. بكت إحدى الممثلات الأرجنتينيات وقالت إنّهم يصوّرون رجاسةً. على العكس منها بدت مستخدمةُ المزرعة مسرورة جدّاً. في اليوم الثالث، وكان يوم أحد، ظهرت في المزرعة مالكتها على متن سيارة بينتلي. سيارة البنتلي الوحيدة التي يتذكّرُها ج ت كانت لمنتج من هوليوود، منذ عهدٍ بعيد، حين كان ما يزال يعتقد أنّه يستطيع أن يجد مستقبله في هوليوود. كانت المالكة بحدود الخامسة والأربعين من عمرها، شقراء، جميلة وأنيقة،

تتكلّم إنكليزيّةً أفضل بكثير من إنكليزية الأمريكيين الشماليين الثلاثة. عاملها الفتية الأرجنتينيون في البداية بتحفّظ. كما لو أنّهم لا يثقون بها، أو كما لو أنّ عليها بالضرورة ألا تثق بهم، ولم تكن هذه هي الحالة. ثمّ إنّ مالكة المزرعة كانت بالنتيجة من أكثر الناس عملية: أعادت ترتيب غرفة المؤونة بحيث لن ينقصهم طعام أبداً. أرسلت في طلب امرأة أخرى كي تُساعد المُستخدَمة في عمليات التنظيف، وضعت مواعيدَ للطعام، ووضعت سيارتها البينتلي في خدمة مخرج الفيلم. فجأة ما عادت المزرعة ضيعة هنود. أو بالأحرى المزرعة الضائعة في السهوب لم تعد إسبارطة وتحوّلت إلى أثينا، تماماً كما عبّر أحد الممثلين الشباب بطريقة طنّانة خلال السهرات التي نُظّمت منذ وصول المالكة في الرواق الواسع والوثير. سيتذكّر ج ت من تلك السهرات التي كانت تمتدّ أحياناً حتى الثالثة أو الرابعة صباحاً، استعدادَ المُضيفة للإصغاء، عينيْها الحيويتين، بشرتَها التي كانت تلمع تحت ضوء القمر، القصصَ التي حكتها عن طفولتها في الريف ومراهقتها في مدرسة داخلية سويسرية. كان ج ت يُفكّر أحياناً، خاصّة حين يكون وحده في غرفته، مستلقياً ومغطى بالبطانية حتى رأسه، أنّ تلك المرأة قد تكون المرأة التي بحث عنها طوال حياته دون جدوى. ماذا جئتُ أفعل هنا، كان يتساءل، غير أن أتعرّف عليها؟ أيّ معنى لهذا الفيلم المقرف وغير المفهوم غيرَ أن أنتقل إلى هذا البلد الضائع وأتعرّف عليها؟ هل يعني شيئاً أنّني كنتُ بلا عمل حين هتف لي مايك؟ طبعاً يعني شيئاً! يعني أنّه لم يكن أمامي مناص غير أن أقبل عرضَهُ وأتعرّفَ عليها بهذا الشكل. كانت مالكة المزرعة تُدعى إستِلا. وكان ج ت قادراً على أن يُردّد اسمها حتى يجفّ فمه. إستِلا، إستِلا، كان يردّدُ مرّة وأخرى، تحت البطانيات، مثل دودة أو خُلْدٍ هائل. ومع ذلك كان المصوّر حين يلتقيان أو يتكلّمان خلال النهار في غاية الحشمة والتعقُّل. لم يكن يسمح لنفسه بنظرة خروفٍ مذبوح، لم يكن يسمح لنفسه بغمزةٍ، ولا

بإغماءات هيام. لم تنحرف علاقته مع المُضيفة في أي لحظة عن مسارات اللباقة والاحترام الصارمة. حين انتهى التصوير عرضت مالكةُ المزرعة أن تحمل في سيارتها البينتلي الزوجين إبشتاين و ج ت، لكنّ هذا فضّل أن يقوم برحلة العودة إلى بوينس أيرس مع فريق الممثلين.
بعد ثلاثة أيّام حمل الزوجان إبشتاين ج ت إلى المطار ولم يجرؤ أن يسألهما عن إستِلا، كما لم يسألهم شيئاً عن الفيلم. في نيويورك عبثاً حاول أن ينساها. اصطبغت أيّامُهُ الأولى بالكآبة والحزن. فكَّر ج ت أنّه لن يُعافى أبداً، ثمَّ: من أجل ماذا سيُعافى؟ ومع ذلك أدركت روحُهُ، مع مرور الزمن، أنّها لم تخسر شيئاً، بل كسبت كثيراً. على الأقل، قال لنفسه، تعرّفتُ على امرأة حياتي. آخرون، الغالبية، يلمحون في الأفلام ظلالَ الممثلاتِ العظيمات، نظرةَ حبّك الحقيقيّ. أنا على العكس، رأيتها لحماً وعظماً، سمعتُ صوتها، رأيتُ طيفها على خلفيّة السهوب اللامتناهية. كلَّمتُها وهي أيضاً كلّمتني. ممَّ أستطيع أن أشكو؟ في هذه الأثناء كان مايك قد منتجَ الفيلمَ في أستوديو استأجره بالساعات، رخيص جدّاً في شارع كورِّيِنتِس في بوينس أيرس.
بعد شهر من تصوير الفيلم عشقت إحدى المُمثّلات ثورياً إيطالياً مرّ ببوينس أيرس ورحلت معه إلى أوروبا. سرى الصوتُ، دون تحديد السبب، بأنّ الممثّلة والإيطالي قد اختفيا. قيل بعدها، دون أن يُعرَف لماذا، بأنّ الممثّلة ماتت أثناء تصوير فيلم إبشتاين، ثمّ أُشيع، وإن كان لا بد من أن نوضّح أنّه ما من أحد أخذ الأمر بجدّية، أن إبشتاين وزمرته قتلوها. بحسب هذه الرواية الأخيرة أراد إبشتاين أن يُصوّرَ جريمة قتلٍ حقيقيّ واستخدم الممثلة الأقل شهرة والأقل حضوراً في الأدوار لهذه الغايات، برضى بقيّة الممثّلين والطاقم الفنّي، وهم غارقون، عند هذا المستوى من الهذيان، في قدّاساتٍ شيطانية. أخذ إبشتاين، الذي علم بالشائعات، على عاتقه نشرها، ووصلت القصّة مع بعض التنويعات إلى بعضِ دوائر محبّي السينما في الولايات المتحدة.

دُشِّنَ الفيلمُ في العام التالي في لوس أنجلوس ونيويورك. جاء الفشلُ مُطلقاً. كان الأمر يتعلّق بفيلم فوضويٍّ، مُدَبلج بالإنكليزية، بسيناريو هزيلٍ وتمثيل مؤسف. حاول إيشتاين، الذي عاد إلى الولايات المُتحدة، أن يستغل الجانب المروّع، لكنّ ناقداً تلفزيونياً برهن، حركة بحركة أنّ مشهد الجريمة المزعوم خديعة. هذه الممثلة، ختم الناقدُ، تستحقّ أن تكون ميتة لسوء أدائها، لكن الصحيح، لم يوجد على الأقل في هذا الفيلم أحد ملك رجاحةَ عقلٍ ليُصفّيها. بعد فيلم القتل الحقيقيّ، أنتج إيشتاين فيلمين آخرين، كلاهما بميزانية منخفضة. بقيت كلاريسا، زوجته، في بوينس أيرس، لتعيش مع منتج سينمائي أرجنتينيّ، شاركَ مُرافقها الجديد، البيروني الانتماء، لاحقاً، كعضوٍ فعّال في كتيبة الموت، التي بدأت بقتل التروتسكيين والقوات المقاتلة غير النظامية وانتهت بإخفاء أطفال وسيّدات بيوت. عادت كلاريسا في مرحلة الدكتاتورية العسكرية إلى الولايات المتحدة. مات إيشتاين قبل عام وبينما كان يُصوّر ما سيكون فيلمه الأخير (والذي لا يظهر اسمه في مقدمته) حين سقط في فجوة مصعد. كانت الحالة التي حلّت بالجثّة بعد السقوط من الطابق الرابع عشر، بحسب الشهود، لا توصف.

في الأسبوع الثاني من آذار ١٩٩٧ تجدّدت دورة القتل المريعة بالعثور على جثّة في منطقة صحراوية جنوب المدينة، تُسمى إل روساريو، دخلت مخطّطاتِ البلدية العمرانية، حيث كانوا يُفكّرون ببناء حيٍّ بيوته من طراز فونيكس. عُثر على الجثّة شبه مطمورة على بعد قرابة الخمسين متراً من الطريق الذي يعبر إل روساريو ويصله بطريق ترابيّ يخرج من القسم الشرقي من جرف بودِستا. اكتشف الجثّة فلاحٌ من مزرعة قريبة مرّ من هناك على جواده. سبب الموت، بحسب الأطباء الشرعيين، هو الخنق وكسر في العظم اللامي. كان من الممكن، بالرغم من تفسُّخ الجثّة، تقديرُ بعضِ الضربات الناتجة عن شيءٍ قاطع

في الرأس واليدين والساقين. من المحتمل أنّها تعرّضت للاغتصاب. الحشرات والديدان التي وجدت في الجثّة كانت تدلّ على أنّ تاريخ الموت يعود إلى الأسبوع الأوّل أو الثاني من شباط. لا توجد هويّة، بالرغم من أن بياناتها تلتقي مع بيانات غوادلوبّ غوثمان بريتو، ابنة الأحد عشر عاماً، التي اختفت يوم الثامن من شباط، عند المغيب في ضاحية سان بارتولومِهْ. درسوا مقاييس جسمها وأسنانها لتحديد هويتها، وجاء النتائج إيجابية. طُبِّقت بعدها على الجثّة دراسة جديدة للأعضاء والنسج وتأكّدت الضربات والرضوض في الدماغ، والكدمات في الرقبة وكذلك كسر العظم اللامي. بحسب أحد المُحقّقين المكلّفين بالقضيّة كانت قد خُنقت باليدين. كذلك لوحظت ضرباتٌ على الفخذ الأيمن والأليتين. تعرّف الوالدان على الجثة كجثّة ابنتهما غوادالوبّ. بحسب لا بوث دِ *سونورا* كانت الجثّة محفوظة بشكل جيّد، وهو ما ساعد على تحديد الهوية، بالجلد المتيبس كما لو أنّ تربةَ إل روساريو القاحلة والصفراء ساهمت بنوع من التحنيط.

بعد أربعة أيّامٍ من العثور على جثّة الطفلة غوادالوبّ غوثمان بريتو عُثِرَ في تلّ إستريّا، على السفح الشرقي منه على جثّة خاثمين[1] تورّس دورانتِس، ابنة الأحد عشر عاماً أيضاً. حدّد كسبب للموت صدمة نقص حجم الدم الناتج عن أكثر من خمس عشرة طعنة سدّدها لها المعتدي أو المعتدين. تحليل النسج الفرجية والشرجية بيَّنَ أنّها اغتُصِبَت مرّات متكرّرة. كانت الجثّة بكامل ثيابها: بلوزة كاكي، بنطلون قطني أزرق اللون وحذاء تنس رخيص. كانت الطفلة تعيش في الجانب الغربي من المدينة، في ضاحية مورِلوس، وقد اختُطِفَت، وإن لم تخرج قضيتها للعلن، قبل عشرين يوماً. اعتقلت الشرطةُ ثمانية شبّان من ضاحية

(١) ياسمين.

إسترِيّا، أعضاء في عصابة مكرّسة لسرقة السيارات وتجارة المخدّرات بالمفرّق، كمرتكبين للجريمة. ثلاثة من الشبّان حُوِّلوا إلى قاضي الأحداث وانتهى خمسة منهم إلى سجن سانتا تِرِسا على ذمّة التحقيق، بالرغم من عدم وجود دليل قاطع ضدّهم.

بعد يومين من العثور على جثّة خائمين، عثرت مجموعةٌ من الأطفال في عقار بور إلى الغرب من منطقة الجنرال سِبولبِدا الصناعية، على جسم كارولينا فِرنانِدِث فونِتِسْ، ابنة التاسعة عشرة، مفارقة الحياة، عاملة في معمل دبليو إس-إنك. حدثت الوفاة بحسب الطبيب الشرعي قبل قرابة الأسبوعين. كانت الجثّة عارية تماماً، عثر على حمالة صدرٍ زرقاء اللون، ملطخة بالدم وعلى جورب نايلون أسود متوسّط النوعية على بعد قرابة الخمسين متراً. عند استجواب المرأة التي كانت تشارك كارولينا الغرفةَ، والعاملة مثلها في معمل دبليو إس-إنك، صرّحت بأنّ الحمّالة للمقتولة، لكنّ الجورب دون أدنى شكّ لا يعود لصديقتها ورفيقتها الغالية جدّاً، فهي لم تلبس قط جوارب، إذ كانت تعتبرها خاصّة بالعاهرات أكثر مما بعاملة في معمل. ومع ذلك تبيّن بعد التحاليل الضرورية أن الحمّالة كما الجورب كان عليها دم وأنّه الدم في الحالتين مصدره الشخص ذاته، كارولينا فِرنانِدِث فونِتِسْ، ولذلك جرت شائعة بأنّ كارولينا كانت تعيش حياة مزدوجةً، أو أنّها في الليلة التي لقيت فيها مصرعها شاركت طواعية في حفلة خلاعية، إذ وُجد أيضاً بقايا منيٍ في الفرج وفي الشرج. بقوا يومين يستجوبون بعض الرجال من دبليو إس-إنك يمكن أن يكونوا على علاقة بمقتلها، دون أيّ نجاح. سافر والدا كارولينا، اللذان هما من بلدة سان ميغِلْ دِ هوراكاسيتاس، إلى سانتا تِرِسا ولم يُدليا بتصريحات. طالبا بجثّة ابنتهما، وقّعا بعضَ الأوراق التي وضعوها أمامهما وعادا في الحافلة إلى هوراكاسيتاس بما كان قد تبقّى من كارولينا. كان سبب الموت

خمس طعناتٍ بسلاح أبيض في الرقبة. لم تمتْ، بحسب الخبراء، في المكان الذي عُثِر فيه عليها.

عُثِرَ بعد ثلاثة أيّام من العثور على جثّة كارولينا، في شهر آذار ١٩٩٧ المشؤوم، على امرأة ما بين السادسة عشرة والعشرين من عمرها في أرض وعرة قريبة من الطريق إلى بوِبلو أثول. كانت الجثّة في مرحلة متقدّمة من التفسّخ وهذا ما جعلهم يفترضون أنّه مضى على موتها خمسة عشر يوماً على الأقلّ. كانت الجثّة عارية تماماً ولا تحمل غير قرطين ذهبيّي اللون، من الصفيح على شكل فيلين. سُمح لعدد من أسر المختفيات أن يروها، لكن ما من أحد تعرّف عليها كواحدة من بناته، أخواته، بنات عماته أو أعمامه أو زوجاته. بحسب الطبيب الشرعي كانت الجثّة تُظهر علامات بترٍ في الثدي الأيمن واقتُلِعَت حلمةُ الثدي الأيسر، ربّما عضّاً بالأسنان أو باستخدام سكين. كان تفسّخ الجسد يجعل من المستحيل تكوين فكرة أكثر دقّة. حدّد رسمياً كسرٌ في العظم اللامي كسبب الموت.

اكتُشِف في الأسبوع الأخير من آذار هيكلٌ عظميّ لامرأة أخرى، على بعد قرابة الأربعمئة متر من الطريق إلى كانانيا، يمكن القول وسطَ الصحراء. كان المكتشفون ثلاثةَ طلاّبٍ ومعلّم تاريخ أمريكيين شماليين، من جامعة لوس أنجلوس، كانوا مسافرين على الدراجات في شمال المكسيك. دخلوا بحسبِ الأمريكيين الشماليين مع دراجاتهم النارية في طريق فرعي، باحثين عن قرية ياكية وضاعوا. خرجوا بحسب شرطة سانتا تِرِسا من الطريق لارتكاب أعمال فاحشة، كي يتلاوطوا وزجّوا الأربعة في زنزانة بانتظار ما سيحدث. في ساعة متقدّمة من الليل حين كان قد مضى على الطلاب والأستاذ ثمانية ساعات محبوسين ظهر في المخفر إبيفانيو غاليندو وأراد أن يسمع القصّة.

كرَّرها الأمريكيون الشماليون، بل ورسموا خارطة تدلّ على المكان الدقيق الذي عثروا فيه على الجثّة شبه المطمورة. ورداً على سؤال احتمال أن يكونوا قد خلطوا بين عظام ماشية أو ثعلبٍ أمريكي وبين عظام كائن بشريّ، ردّ الأستاذ أنّه ما من حيوان، ربّما باستثناء القرد العلوي، يملك جمجمة إنسان. أزعجت النبرة التي قال بها هذا إبيفانيو، الذي أراد أن يَمْثُلَ في مكان الأحداث في اليوم التالي، فجراً، برفقة الأمريكيين اللعينين، ولذلك قرّر كي يسرّع الإجراءات أن يبقي عليهم في متناول يده، أي أن يكونوا كضيوف على شرطة سانتا تِرسا، أي في زنزانة يكون فيها الأربعة وحدهم، وكذلك أن يغذيهم على حساب الخزانة العامّة، لكن ليس من إطعام السجن بل من طعام لائق راح شرطي يأتيهم به من أقرب مقهى. وهكذا كان بالرغم من احتجاج الأجانب. قام إيبفانيو في اليوم التالي مع عدد من رجال الشرطة ومُحَقِّقَيْن مثلوا بمرافقة مكتشفي الجثّة في مكان الحدث، مكان معروف بِإل باخونال (القصل)، التسمية التي كانت بكل وضوح تعبيراً عن رغبة أكثر مما عن واقع، فهناك لم يكن يوجد قصل ولا أيّ شيء يشبهه، بل فقط صحراء وحجارة ومن حين لآخر شُجيرة خضراء رمادية مجرّد رؤيتها يُكئب وجهَ من يتأمل قفراً مشابهاً. هناك، بالضبط في المكان الذي علّمه الأمريكيون الشماليون، وجدوا العظامَ. كان الأمر يتعلّقُ بحسب الطبيب الشرعي بامرأةٍ شابّة كسروا عظمها اللامي. لم تكن ترتدي ثياباً ولا تنتعل حذاءً ولا أيّ شيء يُسهّل التعرّف على هويتها. جاءوا بالجثّة عارية، أو بالأحرى عرّوها هناك قبل أن يقبروها، قال إيبفانيو. أتسمي هذا قبراً؟، سأل الطبيب الشرعي. لا، يا سيّد، لم يجيدوا عملهم، قال إيبفانيو، لم يجيدوا عملهم.

عثروا في اليوم التالي على جثّة إلِنا مونتويا، ابنة العشرين عاماً على جانب الطريق الفرعي من المقبرة إلى مزرعة لا كروث. كانت

امرأة قد غابت عن بيتها قبل ثلاثة أيّام وكانوا قد أبلغوا عن اختفائها. تكشَّفَت الجثّة عن جروح بسلاح أبيض في البطن، وحروق في المعصمين والكاحلين وكيّاتٍ في الرقبة، إضافة إلى جرح في الجمجمة، ناتج ربّما عن ضربة مطرقة أو حجر. تولّى القضيّة المُحقّق لينو ريبِرا وكان الأجراء الأوّل الذي قام به هو استجواب زوج المقتولة، صموئيل بلانكو بلانكو، الذي بقي تحت الاستجواب أربعة أيّام، أُطلق سراحُهُ في نهايتها لعدم اكتمال الأدلّة. كانت إلِنا مونتويا تعمل في معمل كال أند سون وعندها ولد في الشهر الثالث من عمره.

في اليوم الأخير من آذار عَثرَ بعضُ الأطفالِ، الذين يعيشون مما يجمعون من القمامة، على جثّة في مكبّ إلى تشيلي، في حالة تفسّخ كاملة. نُقل ما كان قد تبقّى منها إلى معهد التشريح الطبي الشرعي في المدينة حيث طبّقوا عليها البروتوكولات الصارمة كلّها. النتيجة كانت أنّ الأمر يتعلّق بامرأة بين الخامسة عشرة والعشرين من عمرها. لم يستطيعوا أن يُحدّدوا أسباب وفاتها، التي وقعت، بحسب الأطباء الشرعيين قبل أكثر من اثني عشر شهراً. ومع ذلك فإنّ هذه المعلومات أفزعت عائلة غونثالِثْ رِسِنديثْ من غواناخواتو، الذين اختفت ابنتهم في التاريخ ذاته، ولذلك طلبت شرطةُ غواناخواتو من شرطة سانتا تِرِسا تقريرَ تشريحِ المجهولة التي عُثِر عليها في إل تشيلي، مؤكّدين على وجه الخصوص على إرسال العيّنات السنّيّة. حين استُلِمت الاختبارات أظهرت الاختبارات أنّ الميتة هي إيرنِ غونثالِثْ رِسِيِنْديثْ، سبعة عشر عاماً، هربت من بيت الأبوين في كانون الثاني ١٩٩٦، بعد أن تشاجرت مع العائلة. كان أبوها سياسيّاً معروفاً من الحزب الثوري الدستوري في المنطقة وسبق أن ظهرت أمُّها في برنامج تلفزيوني واسع الجمهور تطلب من ابنتها أمام الكاميرات وبشكل مباشر أن تعود إلى البيت. بل إنّ صورةَ إيرِنِ، صورة من نوع صور جوازات السفر،

لُصِقت على عبوات الحليب مع عنوانها الشخصي ورقم هاتف. ما من شرطيّ واحد من سانتا تِرِسا رأى قط تلك الصورة. ما من شرطيّ كان يشربُ حليباً. باستثناء لالو كورا.

لم يكن أطباء سانتا تِرِسا الشرعيون الثلاثة يشبهون بعضهم بعضاً. أكبرهم سنّاً، إميليو غاريباي، كان بديناً وضخماً ويعاني من الربو. يُصاب أحياناً بنوباتٍ في المشرحة، وهو يمارس التشريح على جثّة، ويتحمّل. إذا كانت دونيا إيزابيل، مساعدته قريبة منه، كانت تخرج من جيب سترته المعلّقة إلى المشجب، بخّاخَهُ فيفتح غاريباي فمه، مثل صوصٍ ويتركها تبخّ له. لكنّه يتحمّلُ حين يكون وحده ويتابعُ عمله. كان قد وُلِد هناك، في سانتا تِرِسا وكان كلُّ شيء يدلّ على أنّه سيموت هناك. كانت عائلته تنتمي إلى الطبقة فوق الوسطى، إلى مُلاّك الأراضي وكثيرون منهم أثروا من بيع عقارات فقراء إلى أصحاب المعامل التي بدأت تُقام في الثمانينيات. ومع ذلك لم يُمارس إميليو غاريباي التجارة. أو لم يمارسها كثيراً. كان أستاذاً في كلّية الطبّ، وللأسف لم ينقصه عمل كطبيب شرعي قط، وهكذا مثلاً لم يفض عنه الوقتُ قط كي يعمل في التجارة. كان ملحداً ولم يقرأ أيّ كتاب منذ سنوات كثيرة، بالرغم من أنّه كان يكنز في بيته مكتبة أكثر من لائقة حول موضوعات اختصاصه، إضافة إلى بعض الكتب الفلسفية وتاريخ المكسيك وهذه الرواية وتلك. كان يُفكّر أحياناً أنّه لا يقرأ بالتحديد لأنّه ملحد. لنقل إنّ عدم القراءة كان أعلى درجات الإلحاد أو على الأقل الإلحاد كما كان يتصوّره. إذا كنت لا تؤمن بالله، فكيف ستؤمن بكتابٍ هراء؟، كان يُفكّر.

كان الطبيب الشرعي الثاني يُدعى خوان أرّدوندو، من هِرموسيّو، عاصمة ولاية سونورا. أتمّ دراساته الطبيّة على العكس من غاريباي، الذي درس في جامعة المكسيك الوطنية المستقلة، في جامعة

هِرموسيّو. كان في الخامسة والأربعين من عمره، متزوّجاً من امرأة من سانتا تِرِسا، أنجب منها ثلاثة أولاد وكان يميل سياسيّاً إلى اليسار، إلى الحزب الثوري الديمقراطي، وإن لم ينتمِ قط إلى هذا الحزب. كان مثله مثل غاريباي يجمع بين عمله كطبيبٍ شرعيّ وبين تدريسِ اختصاصه في جامعة سانتا تِرِسا، حيث كان مُقدّراً من قبل الطلاب، الذين كانوا يرون فيه صديقاً أكثر منه أستاذاً. كانت هوايته مشاهدة التلفزيون والأكل مع الأسرة في البيت، بالرغم من أنّه حين كانت تصلُ دعواتٌ إلى مؤتمرات في الخارج كان يُجنُّ ويحاول بكلّ الوسائل الحصول على إحدى بطاقات السفر. كان عميد الكلّية، صديق غاريباي، يحتقره، وكان هذا الاحتقار الخالَص يعود عليه أحياناً بالفائدة. بهذه الطريقة سافر ثلاث مرّات إلى الولايات المتحدة ومرّة إلى إسبانيا وأخرى إلى كوستا ريكا. مَثَّلَ في مناسبةٍ واحدةٍ معهدَ التشريح الطبّي الشرعي وجامعة سانتا تِرِسا في ندوة أقيمت في مِدِيِّن، في كولومبيا وحين عاد بدا آخر. ليس عندنا أدنى فكرة عمّا يجري هناك، قال لزوجته ولم يتطرّق بعدها للموضوع.

كان الطبيبُ الشرعيُّ الثالث يُدعى ريغوبِرتو فريّاس وعمره اثنين وثلاثين عاماً، من مواليد إيرابواتو، عمل لفترة من الزمن في العاصمة الفيدرالية، من حيث خرج فجأة دون أن يُقدّم أيّ توضيح. كان قد مضى عليه سنتان في العمل في سانتا تِرِسا، التي وصل إليها بتوصية من زميل قديم لغاريباي، وكان بحسب رفاقه أنفسهم، صعب المراس وكفؤاً؛ يعمل مساعدَ أستاذ كرسي في كلّية الطب ويعيش وحده في شارع هادئ من ضاحية سِرافين غارابيتو، في شقّة صغيرة لكنّها مفروشة بذوق حسن. كان عنده كتب كثيرة ولم يكن عنده أيّ صديق تقريباً. لم يكن يتكلّم مع طلابه خارج ساعات الدرس تقريباً، وليس عنده حياة اجتماعيّة، على الأقل في الوسط التعليمي. كان الأطباء الشرعيون الثلاثة يخرجون أحياناً، بأمر من غاريباي ليتناولوا فطورهم فجراً. في

تلك الساعة لم يكن هناك إلا مقهى واحداً من النوع الأمريكي الشمالي الذي لا يغلق أبوابه ويبقى أربعاً وعشرين ساعة مفتوحاً، حيث كان يجتمع ناس الجوار الذين لم تُغمض لهم عين: مساعدون وممرضون من مشفى الجنرال سِبولبِدا، سائقو سيارات الإسعاف أسر وأصدقاء من عانوا من حوادث، عاهرات وطلاب. كان المقهى يُسمى رونوي وكان بجانب إحدى نوافذه فتحةُ مجرورٍ تخرج منها دفقاتُ أبخرةٍ كبيرة. كانت لافتة مقهى رونوي خضراء فيصطبغ البخار أحياناً بالأخضر، بالأخضر الكثيف مثل غابة شبه استوائية وحين كان غاريباي يراه يقول دائماً: يا سلام، ما أجمله. لا يقول بعدها أيّ شيء وينتظر الأطباء الشرعيون الثلاثة النادلة، وهي مراهقة، بدينة قليلاً وسمراء جدّاً، من أغواسكاليينتِس، بحسب ما فهموا، تأتيهم بالقهوة وتسألهم ما الذي يريدون تناوله. الشاب فريّاس لم يكن بعامّة يأكل شيئاً، أو ربّما يأكل قطعة دونوتس. أرّدوندو عادة ما كان يطلب قطعة حلوى مع البوظة. وغاريباي يتناول شريحة عجل بدمها. في وقتٍ سابق قال له أرّدوندو إنّ هذا يضرّ بمفاصله. في العمر الذي أنت فيه، عليك ألا تفعل هذا، قال. لم يعد يتذكّر جواب غاريباي، لكنّه كان مُقتَضَباً وباتّاً. لزم الأطباء الشرعيون الصمت بينما هم ينتظرون أن يأتوهم بالفطور. كان أرّدوندو ينظرُ إلى ظهر يديه كما لو أنّه يبحث عن قطرة دم، وفريّاس ينظرُ إلى الطاولة أو ضائع النظرة في سماء رونوي المَغْرية اللون والملساء وغاريباي يتظر إلى الشارع والسياراتِ القليلة التي كانت تمرّ. كان يُرافقهم أحياناً، نادر جدّاً، طالبان يحصلان على راتب إضافي كمساعدي مخبرٍ أو طاولةٍ تشريح، عندها كانوا يتكلّمون عادة أكثر قليلاً، لكن كقاعدة عامّة كانوا يلزمون الصمت، غارقين حتى رقبتهم فيما كان يُسميه غاريباي تقةَ العمل المُتقن. بعدها كان يدفع كلٌّ واحد حسابه ويخرجون إلى الشارع مثل نسور أمريكية سوداء ويعود واحد منهم، من يصيبه الدور مشياً إلى معهد التشريح وينزل الاثنان الآخران

إلى المرآب الأرضي وينفصلان دون أن يودّع أحدهما الآخر. بعد بقليل تخرج سيارة رينو، أرّدوندو متشبّثاً بالمقود بكلتا يديه ويضيع في المدينة، بعدها بقليل تخرج سيارة أخرى، سيارة غاريباي، إل غران مركيز، فتبتلعها الشوارع مثل كابوس يوميّ.

في تلك الساعة ذاتها كان الشرطيون الذين أنهوا خدمتَهُم يجتمعون في مقهى ترِخوس، وهو محل مستطيل قليل النوافذ، يُشبِهُ التابوت. هناك كانوا يشربون القهوة ويأكلون بيضاً على طريقة المزرعة أو بيضاً على الطريقة المكسيكية أو بيضاً بشحم الخنزير أو بيضاً مقلياً. ويحكون نُكَتاً. كانت أحياناً بموضوع واحد. النكت، التي تكثر فيها تلك التي تدور حول النساء، مثلاً، كان يقول شرطيٌّ: كيف تكون المرأة الكاملة؟ بطول نصف متر، كبيرة الأذنين مسطّحة الرأس، درداء وقبيحة جدّاً. لماذا ؟ كي تستطيع أن تصل إلى خصرك، يا ولد، كبيرة الأذنين كي يتمّ استخدامها بسهولة، مسطحة الرأس كي يكون هناك مكان توضع عليه البيرة، ودرداء كي لا تؤلمك في قضيبك وقبيحة جدّاً كيلا يسرقها منك أيّ ابن عاهرة. كان بعضهم يضحك. وآخرون يتابعون أكلَ بيضهم وشرب قهوتهم. ويتابع الذي بدأ النكتة الأولى. يقول: لماذا لا تعرف النساء التزلّج. صمت. لأنّها لا تُثلج في المطبخ أبداً. بعضهم لم يكن يفهمها. فمعظم رجال الشرطة لم يتزلّجوا في حياتهم. أين سيتزلجون وسط الصحراء؟ لكن كان بعضهم يضحك. وكان راوي النكتة يقول: لنرَ، أيّها الشجعان عرّفوا لي المرأة. صمت. والجواب: مجموعة من الخلايا متوسّطة التنظيم تحيط بفرج. وعندها كان يضحك أحدهم، مُحَقِّق، هذا رائع، يا غونثالِثْ، مجموعة من الخلايا، بلى، يا سيّد. ونكتة أخرى، هذه عالمية: لماذا تمثال الحرّية امرأة؟ لأنّهم كانوا يحتاجون لأحد فارغ الرأس كي يضعوا فيه المِطلّ. وآخر: إلى كم جزء يُقْسَمُ مخّ المرأة. بحسب، يا شجعان! بحسب ماذا، يا غونثالِث؟

بحسب القسوة التي تضربها بها. والآن نكتة مثيرة: لماذا لا تستطيع النساء أن يعددن حتى السبعين؟ لأنّهنّ عندما يصلن إلى التسعة والستين يكون فمهن قد امتلأ. وأكثر إثارة: ما الشيء الأكثر غباوة من رجل غبيّ؟ (هذه سهلة). امرأة ذكية. والآن أكثر من مثيرة: لماذا لا يعير الرجال سياراتهم لنسائهم؟ لأنّه لا يوجد طريق بين المخدع والمطبخ. ومن هذا النوع: ماذا تفعل المرأة خارج المطبخ؟ تنتظر حتى تجفّ الأرض. وتنويع على هذا: ماذا تفعل عصبونة في دماغ المرأة؟ تسوح. وعندها يعود المُحقّق الذي ضحك ليضحك ويقول رائعة، يا غونثالِث، موحية جدّاً. ويتابع غونثالِثْ الذي لا يكلُّ: كيف تختار أغبى ثلاث نساء؟ بالحظ! سيان! و: ماذا يجب أن تفعل كي توسّع من حرّية المرأة؟ أن تمنحها مطبخاً أكبر. و: ماذا يجب أن تفعل كي توسّع من حرّية المرأة؟ تطوّل لها سلك المكواة. و: ما هو يوم المرأة؟ اليوم الأقل توقّعاً؟ و: كم تستغرق امرأة حتى تموتَ بطلقة على رأسها؟ سبع أو ثماني ساعات، هذا يتوقّف على كم تستغرق الرصاصة حتى تعثر على الدماغ. الدماغ بلى، الدماغ، يا سيّد، كان المُحقّق يجترّ. وإذا ما عاب أحدٌ على غونثالِثْ بأنّه يحكي نكتاً ذكورية كثيرة كان يردّ قائلاً إنّ الله، الذي خلقنا متفوّقين، أكثر ذكورية. ويتابع: ما اسم امرأة فقدت تسعاً وتسعين بالمئة من ذكائها الفكري. خرساء. و: ماذا يفعل مخ امرأة في ملعقة قهوة؟ يطفو. و: لماذا تملك النساء عصبونة أكثر من الكلاب؟ كيلا يشربن ماء المرحاض حين ينظفن الحمّام. و: ماذا يفعل رجل وهو يرمي بامرأة من النافذة، يلوّث البيئة. و: بماذا تُشبه المرأة كرة الجدار؟ في أنّها كلّما ضربتها بقوّة أكبر عادت بسرعة أكبر. و: لماذا توجدُ في المطبخ نافذة؟ كي ترى النساءُ العالم. إلى أن يتعب غونثالِثْ ويتناول كأس بيرة ويرتمي على كرسيّ ويعود بقية رجال الشرطة ليتفرّغوا لأكل بيضهم. عندها يتمتم المُحقّقُ المُتْعَبُ من ليلة العمل قائلاً كم من حقيقة الله تتوارى خلف النكات الشعبية. ويحكُّ ما

بين ساقيه ويضع مسدّس السميث أند ويسون موديل ٦٨٦، الذي يزن كيلو ومئتي غراماً تقريباً على الطاولة البلاستيكية، ويُحدث صوتاً جافاً مثل رعد يُسمَعُ في البعيد حين يرتطم بسطح الطاولة ويتمكن من لفت انتباه رجال الشرطة الخمسة أو الستة الأقرب، الذين كانوا يسمعون، لا، من كانوا يَلمحون كلماتِهِ، الكلمات التي كان يُفكّر المُحَقّق بقولها، كما لو أنّها ظهورٌ مبلّلةٌ ضائعة في الصحراء ويلمحون واحةً أو تجمعاً سكنياً، أو قطيعَ خيول بريّة. حقيقة الله، كان يقول المُحقّق. من هو ابن العاهرة الذي سيخترع النكت؟ من أيّ مبغى تخرج؟ من هو أوّل من فكّر *بها*؟ من هو أوّل من *قالها*؟ ثمّ وبعد بضع ثوان من الصمت، يفتح المُحقّقُ المغمضُ العينين كما لو أنّه نامَ، عينه اليسرى ويقول: اعملوا بما يقوله لكم الأعور، يا أولاد. النساء من المطبخ إلى المخدع، ضرباً في الطريق . أو يقول: النساء كالقوانين، خلقن كي يُختَرَقْن. وكانت القهقهات عامّة. ملحفةٍ كبيرة من الضحكات كانت ترتفع في المحلّ المستطيل، كما لو أنّ رجالَ الشرطة يُنَطّطون شيئاً في ملحفة. طبعاً ليس الجميع. بعضهم على الطاولات البعيدة يُتَبّلون البيض بالشطّة، أو باللحم أو البقول بصمتٍ أو وهم يتكلّمون فيما بينهم، بأمورهم، معزولين عن الآخرين. يتناولون فطورهم، كما لو قلنا مستندين بمرافقهم على الضيق والشكّ. متكئين بمرافقهم على الجوهري الذي لا يقود إلى مكان؛ مشلولين من النعاس: أي يديرون ظهورهم إلى الضحكات التي تستدعي حلماً آخر. على العكس منهم كان آخرون يشربون متكئين على طاولة عرض البار دون أن يقولوا شيئاً. أو ناظرين إلى الصخب، أو مُتمتمين: يا للمبالغة، أو من دون أن يتمتموا بشيء، فقط مثبتين في شبكة عيونهم الشرطيين المرتشين والمُحقّقين.

صباح نكات النساء، مثلاً، حين غادر غونثالِثْ ورفيقه، الخفير خوان روبيو بار ترِخوس، كان لالو كورا بانتظارهم. وحين أراد

غونثالِثْ ورفيقه أن يتخلّصا من لالو كورا، خرج إليهما إيبفانيو من زاويةٍ وقال لهما إنّ من الأفضل لهما أن يطيعا الولدَ، كانا بحسب الخفير خوان روبيو كانا قد عملا طوال النوبة الليلية وكانا متعبين، وإيبفانيو كان إيبفانيو إلى حدّ أنّه ما كان ليسمح لهما بأن يعاكساه. كان هذا النوعُ من الأحداث يعجب شرطة سانتا تِرِسا كما كانت تعجبهم نكات النساء. في الحقيقة أكثر بكثير. سارت سيارتا الدورية باتجاه مكان محتشم. بسرعة خفيفة. على العموم، إذ لماذا السرعة إذا كنّا ذاهبين باتجاه معمعة. أوّلاً السيارة التي كان يقودها غونثالِثْ، تليها على بعد أمتار سيارة إيبفانيو. خلفوا وراءهم الشوارعَ المرصوفة والأبنيةَ التي تزيد طوابقها على الثلاثة. رأوا عبر النوافذ كيف راحت الشمسُ ترتفع. وضعوا على عيونهم نظارات سوداء. خرج خبر الحدثِ من إحدى السيارتين، ثمّ وبعد وصولهم إلى القفر بقليل ظهرت هناك قرابة العشر سيارات شرطة. نزل الرجال من سياراتهم وراحوا يدعون بعضهم بعضاً إلى السجائر أو يضحكون، أو يرفسون حجارة المكان. كان الذين يحملون مطراتٍ يأخذون جرعاتهم ويتبادلون التعليقات الساذجة عن الطقس والصفقات التي جاؤوا يتبادلونها فيما بينهم. بعد نصف ساعة غادرت جميع السيارات القفرَ مخلّفة وراءها سحابة من الغبار الأصفر، بقيت عالقة في الهواء.

كلّمْني عن شجرة نسبك، كان يقولُ الأوغاد. عدِّدْ لي شجرةَ نسبك، كان يقول المدافعون. أولاد مصّاصون لقضبانهم ذاتها. لم يكن لالو كورا ينزعج. لوطيون أولاد أمّهم العاهرة. كلّمْني عن درع سلاحك. كفى. سيسعل بدريتو. لكن دون أن يغضب، محترماً اللباسَ الموحّد. دون أن يهرب أو يُواجه يخاف، لكنْ بوجهِ مَنْ ليس عنده مشكلة. في بعض الليالي وفي عتمة الجوار، حين كان يترك كتبَ علم الجريمة (لا تُثِر حنقي، يا ولد) دائخاً من كثرة آثار البصمات، بقع الدم

والمني، عناصر علم السموم، تحقيقات عن اختلاسات، سرقات مع استخدام العنف، آثار أقدام، عمل رسوم مجملة لمكان الجريمة وتصوير مسرح الجريمة، يسمعُ نصفَ نائم، عالقاً بين النعاس واليقظة، أو يتذكّر أصواتاً تُكلّمه عن أول شخص في العائلة، عن شجرة النسب التي تعود إلى ١٨٦٥، وبدأت مع يتيمة بلا اسم، في الخامسة عشرة من عمرها، اغتصبها جنديّ بلجيكي في بيت من الطوب، مؤلفٍ من غرفة واحدة في ضواحي بيّابيثيوسا. مات الجنديّ في اليوم التالي ذبحاً، وبعد تسع أشهر وُلِدت طفلة سموها ماريّا اللقيطة. اليتيمة، الأولى، يقول الصوتُ أو الأصوات التي كانت تتناوب الكلامَ، ماتت بحمّى النفاس وترعرعت الطفلةُ كابنة في ذلك البيت الذي حملتها أمها فيه، الذي انتقل ليصبح ملكية لبعض الفلاحين، الذين رعوها لاحقاً. في عام ١٨٨١، حين كانت ماريّا اللقيطةُ في الخامسة عشرة من عمرها حملها خلال أعياد سان ديماس، غريبٌ سكران على جواده بينما هو يُغنّي بأعلى صوته: *أيّ ترهات هذه، قال ديماس لِخِستاس.* في سفحِ تلٍّ كان يبدو ديناصوراً أو مسخاً غبياً، اغتصبها مرّات عديدة واختفى. في عام ١٨٨٢، أنجبت ماريّا اللقيطة طفلةً عمّدتها باسم ماريّا اللقيطة، قال الصوتُ، وشكّلت الطفلة دهشة لفلاحي بيّابيثيوسا. برهنت منذ نعومة أظفارها عن ذكاء وحبويّة، ومع أنّها لم تَعرف قط القراءةَ والكتابةَ، إلاّ أنّها اشتهرت بالمرأة الحكيمة، تعرف بالأعشاب والمراهم الطبّية. في عام ١٨٩٨، وبعد غيابِ سبعة أيّام عن البلدة، ظهرت ماريّا اللقيطة ذات صباح في ساحة بيّابيثيوسا، المكان المفتوح والأجرد في وسط البلدة، بذراع مكسورة وجسم مليء بالكدمات. لا هي أرادت قط أن توضّح ما حدث ولا العجائز اللواتي اعتنين بها أصررن على أن تفعل. بعد تسعة أشهر ولدت طفلة سُمِّيَت ماريا اللقيطة والتي قامت أمّها، التي لم تتزوّج قط ولم تنجب مزيداً من الأولاد ولا عاشت مع أيّ رجل، شرعت بتعليمها أسرار الطب الشعبي. لكنّ ماريّا

اللقيطة فقط كانت تشبه أمّها في المزاج الحسن، الأمر الذي كانت تتشارك فيه جميع الماريات اللقيطات في بيّابيثيوسا وإن كان بعضهنّ متحفظّات وأخريات مهذارات، المزاج الرائق والاستعداد النفسي لتجاوز مراحل العنف أو الفقر المدقع كانا عامَّيْن بينهنّ. ومع ذلك كانت طفولةُ ومراهقةُ الشابّة ماريّا اللقيطة أكثرَ راحة من طفولة ومراهقة أمّها وجدّتِها. في عام ١٩١٤ كانت ما تزال تُفَكّر وتتصرَّف كطفلة، عملها الوحيد هو مرافقة أمّها مرّةً في الشهر للبحث عن أعشاب غريبة ولغسل الثياب في الجزء الخلفي من البيت، في حوض خشبيّ وليس في المغاسل العامّة، التي كانت بعيدة قليلاً. في ذلك العام ظهر في القرية الكولونيل سابينو دوكِ (الذي أُعدِم في عام ١٩١٥ رمياً بالرصاص لجبنِهِ) باحثاً عن رجال شجعان، وكان أهل بيّابيثيوسا مشهورين بأنّهم أشجع الشجعان، كي يُقاتلوا مع الثورة. تطوّع عددٌ من شبّان القرية معه. واحد منهم، لم تنظر له ماريّا اللقيطة إلاّ كرفيق عابر في اللعب، من عمرها وكان ظاهرياً صبيانيّاً مثلها، قرّر أن يعترف لها بحبّه في الليلة السابقة على ذهابه إلى الحرب. اختار لهذه الغاية هرياً لم يكن أحدٌ يستخدمه (فقد كان سكان بيّابيثيوسا يملكون في كلّ مرّة حبوباً أقل)، وأمام ضحكاتها من اعترافه قام باغتصابها هناك بالذات، بيأس وارتباك. وعدها في الفجر وقبل أن يُغادر بأن يعود ويتزوّج منها، لكنّه قُتل بعد سبعة أشهر في مناوشات مع الفيدراليين وجرفه مع حصانه نهرُ سانتياغو دِ كريستو.

وهكذا لم يعد قط إلى بيّابيثيوسا، مثله مثل شباب كثيرين يذهبون إلى الحرب أو إلى العمل كرماة مسدّسات مأجورين، فلا يعود أحدٌ يعرفُ عنهم شيئاً أو تُعرف عنهم قصصٌ غير موثوقة كثيراً، مسموعة هنا أو هناك. على كلّ حال، وُلِدت ماريّا اللقيطةُ بعد تسعة أشهر، وراحت الشابّةُ ماريّا اللقيطة، التي تحوّلت بين ليلة وضحاها، إلى أمٍّ تبيعُ في القرى المجاورة شرابات أمّها الطبّيّة وبيضَ خُمِّها ولم تكن النتيجة

سيّئة. في عام ١٩١٧ سيحدث في أسرة اللقيطة شيء لم يكن معهوداً كثيراً: عادت ماريّا بعد أحد أسفارها حُبلى من جديد. وكان هذه المرّة طفلاً. سُمّي رافائيل. كانت عيناه خضراوين مثل عيني جدِّ جدِّهِ البلجيكي البعيد وكانت له تلك النظرة الغريبة، التي يلحظها الغرباءُ في نظرة سكّانِ بيّابيثيوسا: نظرة قَتَلَةٍ. في المرّات القليلة التي سألوا فيها ماريّا اللقيطة، التي اكتسبت تدريجيّاً كلمات وموقفَ الساحرةِ أمّها، بالرغم من أنّها لم تذهب قط إلى ما هو أبعد من بيع الشرابات، خالطة بين حناجير الرومانزم وبين القناني الجيّدة للدوالي عن أبي الطفل، كانت تُجيبُ بأنّه الشيطان وبأنّ رافائيل هو صورته الحيّة. في عام ١٩٣٤، خلال حفلة قصف هوميروسية، وصل مصارع الثيران ثِلِستينو أرّايا وأصدقاؤه في نادي لوس تشارّوس دِ لا مْوِرْتِ[1]، إلى بيّابيثيوسا فجراً ونزلوا في نزل لم يعد الآن موجوداً وكان يُقدّم في ذلك الوقت أسرّةً للمسافرين. طلبوا صارخين جدياً مشويّاً قدّمته لهم ثلاث فتيات من القرية؛ واحدة منهنّ كانت ماريّا اللقيطة. غادروا في الثانية عشرة ظهراً وبعد ثلاثة أشهر اعترفت ماريّا اللقيطة لأمّها بأنّها ستنجب ولداً. ومن هو الأب؟، سألها أخوها. لزمت المرأتان الصمتَ وراح الفتى يحقّق في خطوات أخته. بعد أسبوع استعار رافائيل اللقيط بندقية وغادر في طريقه إلى سانتا تِرِسا. لم يحدث أن تواجد في مكان بمثل ذلك الكبر. أدهشته عظمة المدينة، الشوارع المعبّدة، مسرح كارلوتا، دور السينما، بناء البلدية والعاهرات اللواتي كنّ يعملن آنذاك في ضاحية مكسيكو، بجانب خط الحدود وقرية إل أدوبِ الأمريكية الشمالية. قرّر أن يمكث ثلاثة أيّام في المدينة، أن يتأقلم قليلاً، قبل أن يفعل فعلته. اليوم الأوّل كرّسه للبحث عن الأماكن التي يتردّد عليها ثِلِستينو أرّايا وعن مكان ينام فيه مجّاناً. اكتشف أنّ الليالي في بعض أحياء المدينة

(١) فرسان الموت.

مثل النهارات فوعد نفسه ألاّ ينام. في اليوم الثاني وبينما كان يمشي نحو الأعلى ونحو الأسفل في شارع العاهرات، أشفقت عليه يوكاتانية قصيرة وحسنة الهيئة، شعرها أسود وطويل حتى الخصر، فأخذته إلى حيث كانت تعيش. حضّرت له في غرفة من نزلٍ حساءَ أرزّ، ناما بعدها حتى الليل. كانت بالنسبة إلى رافائيل اللقيط المرّة الأولى. حين انفصلا أمرته العاهرة أن ينتظرها في الغرفة، أو في حال خرج في مقهى الزاوية أو على الدرج. قال لها الفتى إنّه عاشق لها فذهبت العاهرة سعيدة. في اليوم الثالث ذهبا إلى مسرح كارلوتا ليستمعا إلى أغان رومانسية لباخاريتو دِ لا كروث، التروفادور الدومينيكاني الذي كان يقوم بجولة في كلّ المكسيك، ورانتشِرات خوسِهْ راميرِثْ، مغنيات الأصوات الجهورة وفقرات سحرِ حاوٍ صيني من ميتشواكان. عند غروب اليوم الرابع ودّع رافائيل اللقيط شبعانَ ورائقَ النفس العاهرة وَذهب ليبحث عن البندقية في المكان الذي خبّأها فيه وتوجّه ثابتَ الجأش إلى بار لوس بريموس هِرمانوس[1] حيث وَجَدَ ثِلِستينو أرّايا. عرف بعد ثوان من إطلاق النار عليه دون أدنى شكّ أنّه قتله، فشعر بأنّه انتقم وشعر بالسعادة. لم يُغمِض عينيه حين أفرغ أصدقاءُ مصارع الثيران مسدّساتهم عليه. دُفن في مقبرة سانتا تِرِسا الجماعية. في عام ١٩٣٥ وُلِدَت ماريّا لقيطة أخرى. كانت خجولة وحلوة، وكانت قامتها من الطول بحيث أنّها تركت حتى أطول رجال القرية أقصر منها. تفرّغت منذ العاشرة من عمرها إلى جانب أمّها وجدّتها لبيع أشربة أمّ جدّتها الطبّية، ولمُرافقة هذه عند طلوع الضوء للبحث عن الأعشاب واختيارها. كان فلاحو بيّابيثيوسا يرون خيالها الطويل على خلفية الأفق، تصعد وتهبط تلالاً، فيبدو لهم رائعاً أن توجد فتاةٌ بهذا الطول وتلك القدرة على أن تخطو مثل تلك الخطوات الكبيرة. كانت الأولى

---

(١) أبناء العم.

من سلالتها، قال الصوتُ أو الأصوات، التي تعلّمت القراءةَ والكتابة. في الثامنة عشرة من عمرها اغتصبها بائعٌ جوّال، وفي عام ١٩٥٣ وُلِدت طفلة أسموها ماريّا اللقيطة. في ذلك الوقت كانت تعيش خمسة أجيال من الماريات اللقيطات في أطراف بيّابيثيوسا والبيت الصغير توسّع بغرف مضافة ومطبخ كبير فيه مدفأة نفطٍ وموقد حطب حيث كانت أكثرهم هرماً تُحضّر أشربتها وأدويتها. في الليل ساعة العشاء كنّ يتواجدن خمستهنّ معاً، الطفلة العملاقة، أخت رافائيل الحزينة، الصبيانية والساحرة وكنّ يتكلّمن عادة عن القديسين والأمراض التي لم يُعانين منها قط، عن الطقس والرجال، الذين كنّ يعتبرنهم وباء، الطقس كما الرجال، ويشكرن السماء، وإن لم يكن بحماس مفرط، قال الصوتُ، لأنّهن فقط نساء. في عام ١٩٧٦ وجدت الشابة ماريّا اللقيطة في الصحراء طالبَيْن من العاصمة الفيدرالية، قالا لها إنّهما ضاعا لكنّهما بَدَوَا هاربين من شيء، وبعد أسبوع مُدوِّخ لم ترهما قط. كان الطالبان يعيشان في سيارتهما ذاتها، واحد منهما بدا مريضاً. كانا يبدوان مُخَدّرين ويتكلّمان كثيراً ولا يأكلان شيئاً، مع أنّها كانت تحمل لهما عجّةً وفاصوليا تأخذها من بيتها. كانا يتكلّمان مثلاً عن ثورة جديدة، ثورة خفيّةٍ بدأت تتكوّن لكنّها ستتأخّر في الخروج إلى الشارع، على الأقل خمسين سنة، أو خمسمئة أو خمسة آلاف سنة. كان الطالبان يعرفان بيّابيثيوسا، لكن ما كانا يريدانه هو العثور على الطريق إلى أورِس، أو هِرموسيّو. كانا يمارسان معها الحبّ كلَّ ليلة في السيارة أو على أرض الصحراء الدافئة، إلى أن وصلت هي ذات صباح إلى المكان ولم تجدهما. بعد ثلاثة أشهر، حين سألتها جدّةُ جدّتِها من هو أبو الصغير الذي تنتظره، رأت الشابةُ ماريّا اللقيطة رؤيا غريبة عن نفسها، رأت نفسها صغيرة وقويّة، رأت نفسها تُجامع رجلين وسط بحيرة من الملح، رأت نفقاً مليئاً بأصص النباتات والأزهار. وبعكس رغبة أسرتها، التي كانت تريد أن تُعمّد الطفل باسم رافائيل، سمّته ماريّا

اللقيطة أوليغاريو، الذي هو القديس الذي يتشفّع به الصيادون وكان راهباً كتلانياً، أسقف برشلونة ورئيس أساقفة تارّاغونا، وأيضاً قرّرت ألا تكون كنية ابنها الأولى اللقيط، الذي هو اسم يتيم، كما شرح لها طالبا العاصمة الفيدراليّة في ليلة قضتها معهما، قال الصوتُ، بل كورا، وهكذا سجّلته في أبرشيّة سان ثيبريانو، التي تقع على بعد ثلاثين كيلومتراً من بيّابيثيوسا، أوليغاريو كورا اللقيط، بالرغم من الاستجواب الذي أخضعها له الكاهنُ وعدم تصديقه هويّة الأب المُفترض. قالت جدّةُ الجدّة إن وضع اسم كورا[1] سابقاً على اسم لقيط، الذي كان اسمها منذ البداية صلفٌ خالِص، وبعدها بقليل ماتت، حين كان لالو في الثانية من عمره ويسير عارياً في فناء بيتها، ناظراً إلى بيوت بيّابيثيوسا الصفراء أو البيضاء، المغلقة دائماً. وحين كان لالو في الرابعة من عمره ماتت العجوز الأخرى، الصبيانية وحين أتمّ الخامسة عشرة ماتت أختُ رافائيل اللقيط، قال الصوت أو الأصواتُ. حين جاء بِدرو نِغْرِتِ ليبحث عنه كي يبدأ العمل تحت أمرة دون بِدرو رِنخيفو فقط كانت اللقيطةُ الطويلة وأمُّها حيّين.

العيش في هذه الصحراء، فكّر لالو كورا بينما السيارة التي يقودها إيبفانيو تبتعد عن القفر، مثل العيش في البحر. الحدود بين سونورا وأريزونا مجموعة من الجزر الشبحية أو المسحورة. المدن والقرى سفن. الصحراء بحر لا نهاية له. هذا مكان جيّد للأسماك، خاصّةً للأسماك التي تعيش في أعمق الحفر، وليس للبشر.

جعلت مقتولاتُ آذار صحفَ العاصمة الفيدرالية تطرحُ بصوتٍ عالٍ بعضَ الأسئلة. إذا كان القاتل مسجوناً فمن الذي قتل كلّ هؤلاء النساء؟

---

(١) خوري.

إذا كان أزلام أو شركاء القاتل أيضاً مسجونين، فمن المسؤول عن كلّ تلك الميتات؟ إلى أيّ حدّ كانت هذه العصابة سيّئة السمعة وغير المحتملة، المسماة دِ لوس بيسونتِس حقيقيّة وإلى أي حدّ هي من صنع الشرطة؟ لماذا كانت تُؤَجَّلُ محاكمة هاس مرّةً بعد أخرى؟ لماذا لم تكن السلطات الفيدرالية تُرسل مفتّشاً خاصّاً يقود التحقيقات؟ في الرابع من نيسان نجح سِرخيو غونثالِثْ في أن يجعل صحيفتَهُ تُرسله ليكتب تحقيقاً صحفيّاً عن جرائم القتل في سانتا تِرِسا.

في السادس من نيسان عُثِر على جثّة ميتشل سانتشِثْ كاستيّو بالقرب من عنابر تخزين شركة تعبئة مرطبات. الاكتشاف قام به عاملان من الشركة ذاتها، مُكلّفان بتنظيف المنطقة. على بعد خمسين متراً من الجثّة استعيدت قطعة حديد عليها بقع دم وبقايا جلد رأس مشعر، وهو ما يؤدي إلى افتراض أنّهم قتلوها بهذه القطعة. كانت ميتشل سانتشِثْ ملفوفة ببطانيات قديمة، إلى جانب كدس من العجلات، وهو مكان لا يستغرب أن يشاهد فيه ناسٌ عابرون أو أشخاصٌ من الحي، مدقع فقرهم، نائمين هناك، وكانت الشركة تتساهل بطريقة ما معهم. ناس مسالمون، بحسب الحرّاس الليليين، لكن إذا ما أغضبتهم يصيرون قادرين على أن يُشعلوا النار في العجلات، وهو ما سيجعل الوضع أكثر تعقيداً. تعرّضت الضحية لعدّة ضربات على الوجه وتمزقات خفيفة في منطقة الصدر، وكسر في الجمجمة قاتل، خلف الأذن اليمنى تماماً. كانت ترتدي بنطلوناً أسود عليه خرز أبيض، وجدته الشرطة منزلاً حتى الركبتين، بلوزةً ورديةً، أزرارها كبيرة سوداء مرفوعة إلى ما فوق الثديين. كان الحذاء من نوع أحذية عمال المناجم، نعله محزّز. كانت ترتدي حمالتها وسروالها الداخلي. في العاشرة صباحاً امتلأ المكان بالفضوليين. بحسب المُحقّق خوسِهْ ماركيز، المكلّف بالتحقيق، هوجمت المرأةُ وقتلت في المكان ذاته. طلب منه الصحفيون الذين

كانوا يعرفونه أن يسمح لهم بأن يلتقطوا لها صورة والمحقّقُ لم يرَ مانعاً. لم يُعرف من كانت، لأنّها لم تكن تحمل أيَّ شيء يدلُّ على هويّتها. لكنّها تبدو أصغر من عشرين سنة، قال خوسِهْ مارتينِثْ. كان سِرخيو غونثالِثْ بين الصحفيين الذين اقتربوا من الجثّة. لم يكن قد رأى قط مقتولة. كانت أكداس العجلات تُشكّل فيما بينها شيئاً يُشبه الكهوف. لم يكن مكاناً سيّئا للنوم إذا كان الطقس بارداً. كان على المرء أن يدخل على ركبتيه. ربّما كان الخروج أصعب. رأى ساقَيْن وبطانية. سمع صحفيّي سانتا تِرِسا يطلبون من خوسِهْ ماركيز أن يرفع البطانية عنها وسمع هذا يضحك. لم يبغِ أن يستمرّ هناك فراح يمشي باتجاه الطريق حيث كانت سيّارة بيتل المستأجرة. في اليوم التالي حدّدت هويّة الضحية ميتشل سانتثِثْ كاستيّو، ابنة السادسة عشر من عمرها. أثبت التشريحُ، بحسب تقرير الطب الشرعي، أنّ الموت نتج عن رضّ شديد في الجمجمة وأنّها لم تُغتَصب جنسياً. عثر على بقايا جلد تحت أظافرها، وهو ما يُعزِّز القول بأنّها عاركت المعتدي حتى النهاية. الضربات على الوجه وعلى الخصرين كانت دليلاً آخر على العراك الذي جرى بينها وبين القاتل. بعد التشريح الفرجي يمكن أيضاً أن يُستخلّص أنّها لم تُغتصب. قالت أسرة ميتشل إنّها ذهبت يوم الخامس من نيسان لزيارة صديقة لها، من حيث خرجت لتبحث عن عمل في معمل. بحسب بيان الشرطة ربّما أنّها هوجِمت وقُتِلَت بين ليلة الخامس من نيسان وفجر السادس منه. لم يُعثر على آثار بصمات على قضيب الحديد.

قابل سِرخيو غونثالِث المُحقِّقَ خوسِهْ ماركيز. وصل حين بدأ الليل يُخَيِّم توّاً على المدينة ويكاد بناءُ شرطة التحقيق يكون فارغاً. دلّه شخص يقومُ بدور البوّاب كيف يصل إلى مكتب خوسِهْ ماركيز. في الممر لم يعبر بأحدٍ. كانت أبوابُ معظمِ المكاتب مفتوحةً وفي مكان ما غير محدّدٍ كان يُسْمَعُ صوتُ آلة ناسخة. استقبله خوسِهْ ماركيز ونظر إلى

الساعة وطلب منه بعد برهة أن يُرافقه إلى غرفة الملابس. سأله سِرخيو بينما كان يتعرّى كيف أمكنَ أن تكون ميتشل سانتشِثْ قد وصلت حيّةً إلى الفناء الخلفي لمعمل التعبئة. ممكن تماماً، أجابه ماركيز. بحسب ما فهمتُ، قال سِرخيو، تُخطف النساء في مكان ويؤخذن إلى مكان آخر، في هذه الحالة إلى خلف عنبر التخزين. يحدث هذا أحياناً، قال له ماركيز، لكن ليست جميع عمليات القتل تتبع النموذج ذاته. وضع ماركيز طقمه في كيس وارتدى بزّةً رياضةً. قد تتساءل، قال له بينما كان يُسوّي حمالة مسدس الديسيرت إيغل عيار ٣٥٧ ماغنوم، لماذا البناء فارغ إلى هذا الحدّ. قال له سِرخيو، الأكثر منطقية هو أن نُفكّر بأنّ جميع المُحقّقين يعملون في الشارع. في هذه الساعة لا، قال ماركيز. لماذا إذن؟، سأل سِرخيو. لأنّ هناك اليوم مباراة كرة قدم الصالة بين فريق شرطة سانتا تِرِسا وفريقنا. وهل ستلعب أنتَ؟، سأل سِرخيو. قد ألعب وقد لا ألعب. أنا احتياطي، قال ماركيز. حين خرجا من غرفة الملابس قال له المُحقّق ألا يبحث عن تفسير منطقيٍّ للجرائم. هذا خراء، هذا هو التفسير الوحيد.

في اليوم التالي قابل هاس وأبوي ميتشل سانتشِثْ. بدا له هاس، إذا أمكن هذا، أكثر برودة من أيّ وقت مضى، وأطول أيضاً، كما لو أنّ عنانَ الهرمونات قد أُطْلِقَ في السجن وأدرك قامته النهائية. سأله عن ميتشل سانتشِثْ، سأله عمّا إذا كان لهُ رأيٌ بهذا الخصوص، سأله عن أعضاء عصابة لوس بيسونتِس، وعن كلّ المقتولات اللواتي كنَّ ينبتْنَ بالمعنى الحرفي للكلمة في صحراء سانتا تِرِسا. كان جواب هاس باهتاً وباسماً ففكّر سِرخيو أنّه حتى ولو لم يكن المسؤول عن الميتات الأخيرة، فلا شكّ أنّه مسؤول عن شيء ما. فكّر بعدها، حين غادر السجنَ، كيف يمكن أن يُحكم على شخص من ابتسامته أو من عينيه. من هو حتى يتجرّأ ويحكم.

قالت له أمُّ ميتشل سانتشِث إنّها منذ سنة وهي ترى أحلاماً مريعةً. كانت تستيقظ في منتصف الليل أو منتصف النهار (حين كانت تعمل في ورديات الليل) على يقين أنّها فقدت صغيرة أبنائها إلى الأبد. سألها سِرخيو هل كانت ميتشل أصغر أبنائها. لا، عندي اثنان آخران أصغر منها، قالت المرأةُ. لكن من كنتُ أفقدها في أحلامي كانت ميتشل. وهذا؟ لا أعرفُ، قالت المرأةُ،كانت ميتشل طفلة رضيعة، لم يكن لها عمرها الآن، في أحلامي كانت في الثانية أو الثالثة من عمرها على أعلى تقدير، وفجأة كانت تختفي. لم أكن أرى الذي كان يسرقها منّي. لم أكن أرى شيئاً غير شارعٍ فارغٍ أو فناء فارغ أو غرفة فارغة. هناك كانت صغيرتي، وحين كنتُ أعودُ وأنظرُ لا أجدُها. سألها سِرخيو عمّا إذا كان الناس خائفين. بعض الآباء نعم. لكنّ الناس لا أظنّ. قالت له المرأة، قبل أن يُودّعها في فسحة المدخل إلى منطقة أرسِنيو فارِّل الصناعية، إنّ أحلامها بدأت في المرحلة التي رأت فيها لأوّلِ مرّة فلوريتا ألمادا، القديسة، كما يُسمونها. حشدٌ من النساء كُنَّ يَصِلْنَ مشياً أو ينزلن من الحافلات التي تهيّؤها مختلفُ معامل المنطقة. هل السيارات مجّانية؟ سأل سِرخيو شاردَ الذهن. هنا لا يوجدُ شيءٌ مجّاني، قالت المرأة. سألها بعد ذلك من تكون المدعوّة فلوريتا ألمادا. عجوز تظهر من حين لآخر في التلفزيون في برنامج رِيْنالدو. هي تعرف ماذا يختبئ خلف الجرائم واستنفرتنا، لكنّنا لم نولِها أذناً صاغية. هي رأت وجوه القتلة. إذا كنتَ تريد أن تعرف شيئاً أكثر فاذهبْ وقابلها وحين تلقاها اهتفْ أو اكتبْ لي. هكذا سأفعل، قال سِرخيو.

كان هاس يُحِبُّ الجلوسَ على الأرض، سانداً ظهره إلى الجدار، في القسم المظلّل من الفناء. وكان يُحبّ أن يُفكّر. كان يُحبّ أن يُفكّر أنّ اللهَ غير موجود. ثلاث دقائق كحدّ أدنى. أيضاً كان يُحبُّ أن يُفكّر

في تفاهة الكائنات البشرية. خمس دقائق. لو لم يكن هناك ألم، كان يُفكّر، لكنّا كاملين؛ وغرباء عن الألم؛ كاملين، بلى. لكن ها هو ذا الألمُ هناك كي يُنَغّص علينا كلّ شيء. أخيراً كان يُفكّر في الترف، ترفِ امتلاك الذاكرة، ترفِ معرفةِ لغة أو عدّة لغاتٍ، ترفِ التفكير وعدم الخروج هرباً. كان بعدها يفتح عينيه ويتأمّل، كما لو في حلمٍ، بعضَ أفراد لوس بيسونتِس، الذين كانوا يدورون كما لو أنّهم يرعون، في الجانب الآخر، في القسم المشمس من الفناء. أعضاء لوس بيسونتِس وهم يدورون في الجانب الآخر المشمس من الفناء، كما لو أنَّهم يرتعون. أعضاء لوس بيسونتِس يرتعون في فناء السجن، كان يُفكِّرُ وكان هذا يهدّئه مثل مُسَكِّنٍ سريع المفعول، فقد كان هاس يبدأ يومَه أحياناً، ليست كثيرة، كما لو أنّهم غرزوا رأسَ سكينٍ في رأسه. إل تِكيلا والتورمِنتا[1] كانا إلى جانبه. كان يشعر بنفسه أحياناً مثل راعٍ. غير مفهوم حتى من الحجارة. كان بعض السجناء يبدون كأنّهم يتحرّكون بكاميرا بطيئة، بائع المرطبات مثلاً الذي يقترب منهم حاملاً لهم معه ثلاث علب كوكاكولا باردة. أو الذين كانوا يلعبون كرةَ السلّة. في الليلة الفائتة جاء حارسٌ يبحث عنه قبل أن ينام وقال له إنّ دون إنريكِ هِرناندِثْ يريد أن يراه. لم يكن تاجرُ المخدّرات وحدَهُ. كان إلى جانبه مديرُ السجن وشخص آخر تبيّن أنّه محاميه. كانوا قد انتهوا توّاً من تناول الطعام فقدّم له إنريكِ هِرناندِثْ قهوةً رفضها هاس قائلاً إنّها تُسبِّب له الأرق. ضحك الجميع باستثناء المحامي، الذي لم يُظهر ما يدلُّ على أنّه سمعه. أستملحُك، أيّها الغرينغو، قال له تاجر المُخدِّرات، فقط أريدكَ أن تعرف أنّهم يُحقّقون في موضوع لوس بيسونتِس. واضح؟ واضح جدّاً، يا دون إنريكِ. دعوه بعدها للجلوس وسألوه عن حياة السجناء. في اليوم التالي قال لإل تِكيلا إنّ الأمر في

---

(١) اسم مشروب كحولي قوي يعني العاصفة.

يد إنريكيتو هِرناندِثْ. قل ذلك لصديقك. حرّك إل تكِيلا رأسَهُ بالموافقة وقال حسن. ما ألطف التواجد هنا في الظلّ، قال هاس.

بحسب المسؤولة عن قسم الجرائم الجنسية في سانتا تِرِسا، وهي هيئة حكومية لم يكد يمضي على وجودها نصفُ عام، فإنّ نسبة جرائم القتل في كامل الجمهورية المكسيكية كانت عشرة رجال مقابل امرأة واحدة بينما النسبةُ في سانتا تِرِسا كانت أربع نساء مقابل عشرة رجال. كانت المسؤولة تُدعى يولاندا بالاثيو وهي امرأة تقارب الثلاثين من عمرها، بيضاء البشرة، كستنائيّة الشعر، جدّية، بالرغم من أنّه كانت تُلمَح خلف الجدّيّة الرغبة بأن تكون سعيدة، الرغبة بالمرح الدائم. لكن ما هو المرح الدائم؟ تساءل سِرخيو غونثالِث؟ ربّما هو ما يُميّز بعضَهم عن بقيّتنا، نحن الذين نعيش في الحزن اليومي. رغبة بالعيش، رغبة بالصراع، كما كان يقول والده، لكن الصراع ضدّ ماذا، هل هو ضدّ ما لا مفرّ منه؟ الصراع ضدّ مَنْ؟ للحصول على ماذا؟ على مزيد من الوقت، يقينٍ، لمحِ شيء جوهريّ؟ كما لو أنّ في هذا البلد اللعين شيئاً جوهريّاً، فكّر، كما لو أنّه موجود في هذا كوكب اللعين، الماصّ لقضيبه ذاته. كانت يولاندا بالاثيو قد درست الحقوقَ في جامعة سانتا تِرِسا وتخصّصت لاحقاً في الحقوق الجزائية في جامعة هِرموسيّو لكنّها لم تكن تُحبُّ المحاكم، اكتشفت ذلك متأخرةً قليلاً، ولا أن تتحوّل إلى مُتقاضية، لذلك تفرّغت للبحث. هل تعلم كم عدد النساء اللواتي هنّ ضحايا الجرائم الجنسية في هذه المدينة؟ أكثر من ألفي ضحية سنوياً، نصفهنّ تقريباً قاصرات. وربّما هناك عدد مماثل لم يُبلِغ عن الاغتصاب وهذا يعني أنّنا نتكلّم عن حوالي الأربعة آلاف حالة اغتصاب سنويّاً. أي أنّهم يغتصبون في كلّ يوم أكثر من عشر نساء هنا، وقامت بإشارة كما لو أنّ الاغتصاب يتمّ في الممرّ. الممرّ الذي أسيئت إضاءته بمصباح نيون أصفر مثل الموجود في مكتب يولاندا بالاثيو

ويبقى مُطْفَأً. طبعاً بعض حالات الاغتصاب تنتهي بالقتل. لكنّني لا أريدُ أن أُبالغ، الغالبية يكتفون بالاغتصاب وينتهي الأمر، ويمضون إلى شيء آخر. لم يعرف سِرخيو ماذا يقول. هل تعلم كم عددنا نحن العاملين في قسم الجرائم الجنسية؟ وحدي. قبل ذلك كان عندي سكرتيرة، لكنّها تعبت وذهبت إلى إنسِنادا، حيث عائلتها. غير معقول، هذا هو، بلى، غير معقول، غير معقول هنا وغير معقول هناك، تصوّر، لكن عندما تحقُّ الحقيقة، فلا أحد هنا يتذكّر شيئاً، لا أحد عنده كلمة ولا شيء، ولا شجاعة لعملِ شيء. نظر سِرخيو إلى الأرض ثمّ إلى وجه يولاند بالاثيو المتعب. بالمناسبة هل عندك رغبة بتناول شيء، أنا ميت من الجوع، هنا يوجد مطعم يسمونه ملك الشطائر، إذا كنت تحبين الطعام التكساسي-المكسيكي عليكِ أن تذهبي. نهض سِرخيو. أنا أدعوكِ، قال. أعتبر هذا بحكم الأكيد، قالت يولاند بالاثيو.

يوم الثاني عشر من نيسان عثروا على بقايا امرأة في حقلٍ قريب من كاساسْ نِغراسْ. انتبه الذين عثروا عليها إلى أنّها امرأة بفضل شعرها، الأسود والطويل، الذي يصل حتى حصرها. كانت الجثّة في حالة تفسّخ متقدّمة. قرّروا بعد الفحص الطبي الشرعي أنّ عمر الضحيّة يتراوح بين الثامنة والعشرين والثالثة والثلاثين، وطولها مئة وسبعة وستين سنتيمتراً وأنَّ أسباب الموت ضربتان راضّتان قويتان جدّاً في المنطقة اليسرى من الدماغ. لم تكن تحمل هويّة. كانت ترتدي بنطلوناً أسود وبلوزة خضراء وحذاء تنس. عُثِر في أحد جيوب البنطلون على مفاتيح سيارة. لم تكن هيئتها تتوافق مع هيئات المختفيات في سانتا تِرِسا. من المحتمل أنّه مرّ على موتها شهران. أُرشفت القضيّة.

بحث سِرخيو غونثالِثْ، دون أن يعرف جيّداً لماذا، فهو لم يكن يؤمن بالعرّافات، عن فلوريتا ألمادا في استوديوهات قناة هِرموسيّو

السابعة. تكلّم مع سكرتيرة، ثمّ مع أخرى، ثم مع رِيْنالدو. قال له هذا إنّه ليس من السهل مقابلة فلوريتا. نحن أصدقاؤها، قال رِيْنالدو، نحميها. نحمي حميميَّتَها. نحن درع بشري حول القديسة. عرّف سِرخيو بنفسه كصحفيّ، وقال إنّ حميميَّة فلوريتا مضمونة. أعطاه موعداً في الليل. عاد سِرخيو إلى فندقه وحاول أن يكتب مسودّة تحقيقه الصحفي حول قتل النساء، لكنّه انتبه بعد برهة إلى أنّه لا يستطيع أن يكتب شيئاً. نزل إلى بار الفندق وبقي يشرب ويقرأ صحفاً محلّيةً. صعدَ بعدها إلى غرفته. استحمّ وعاد ونزل. قبل نصف ساعة من الساعة التي حدّدها رِيْنالدو أخذ سيّارة أجرة وطلب من سائقها أن يقوم بعدّة دوراتٍ في وسط المدينة قبل أن يتوجّه إلى موعده. سألهُ السائق من أين هو. من العاصمة الفيدرالي، قال سِرخيو. مدينة مجنونة. قال السائقُ. ذات مرّة سرقوني سبع مرّات في يومٍ واحد. لم ينقصهم غير أن يغتصبوني، قال السائق ضاحكاً في المرآة. تغيّرت الأشياء، قال سِرخيو، الآن سائقو سيارات الأجرة هم الذين يسطون على الناس. هذا ما سمعتهم يقولونه، قال السائق، آن أن يحدث ذلك. هذا يتعلّق بكيف يُنظر إلى الأمر، قال سِرخيو. كان الموعد في بار زبائنه ذكور. كان اسم المكان باباي، ويُراقب بابه قبضاي يُقاربُ طوله المترين ويتجاوز وزنه المئة كيلوغرام. في الداخل هناك طاولة عرض متعرّجة وطاولات صغيرة مضاءة بمصابيح صغيرة وكراسٍ منجَّدَة بساتان بنفسجيّ اللون. من مكبرات الصوت كانت تسمع موسيقى العصر الجديد، والنُّدُل يرتدون زيّ البحارة. كان ينتظره رِيْنالدو وشخصٌ مجهولٌ على تابوريهين عاليين أكثر من اللازم بجانب طاولة العرض. كان شعر المجهول سبطاً، مقصوصاً بحسب الموضة ويرتدي ملابسَ غالية الثمن. اسمه خوسِهْ باتريثيو وكان محامي رِيْنالدو وفلوريتا. هكذا إذن، فلوريتا ألمادا تحتاج إلى محامٍ؟ كل الناس يحتاجون إلى محامٍ، قال خوسِهْ باتريثيو بجدّية كبيرة. لمّ يبغِ سِرخيو أن يشرب شيئاً وصعد الثلاثةُ بعدها بقليل سيارةَ

خوسِهْ باتريثيو البي أم دبليو وتوغّلوا في شوارع هي في كلّ مرّة أكثر ظلمة. أراد خوسِهْ باتريثيو، خلال الرحلة، أن يعرف كيف هي حياة صحفي قسم الجرائم في العاصمة الفيدرالية واضطر سِرخيو لأن يعترف بأنّه كان يعمل في الحقيقة لصالح قسم الثقافة والعروض الفنّية. وضّح لهما بخطوط عريضة كيف حدث أنَ تواصل مع جرائم سانتا تِرِسا وأصغى إليه خوسِهْ باتريثيو ورِيْنالدو باهتمام وتركيز، مثل طفلين يسمعان للمرة الألف الحكايةَ ذاتها التي ترعبهم وتسلّهم، هازَّين رأسيهما تأكيداً لكلامه، شريكين في السرّ ذاته. ومع ذلك وقبل الوصول إلى بيت فلوريتا سأله رِيْنالدو عمّا إذا كان يعرف مُقَدِّم برامج مشهور في تِلِبيسا. اعترف سِرخيو أنّه يعرفه فقط بالاسم، لكنّه لم يلتقِ به قط في حفل. عندها حكى رِيْنالدو أنّ هذا المقدّم كان عاشقاً لخوسِهْ باتريثيو. وبقي زمناً يأتي كلّ نهاية أسبوع إلى هِرموسيّو ويدعو خوسِهْ باتريثيو وأصدقاءه إلى الشاطئ، حيث كان ينفق المالَ بيدين مفتوحتين. كان خوسِهْ باتريثيو عاشقاً في ذلك الوقت لأمريكيّ شماليّ، أستاذ حقوق في بركلي، ولم يكن يولِه أدنى اهتمام. وذات ليلة، قال رِيْنالدو، أخذني المقدِّم المشهور إلى غرفة فندقه وقال لي إنّ عنده شيئاً يقترحه عليَّ. فكّرت، بما أنّه كان مكروباً، أنّه يُريد أن ينام معي أو أن يأخذني إلى العاصمة الفيدرالية كي أبدأ هناك عملاً جديداً في التلفزيون، متبنّياً إيّاي، لكنّ الشيء الوحيد الذي كان يُريده المقدِّم هو أن يتكلّم وأن يسمعه رِيْنالدو. في البداية، قال رِيْنالدو، فقط شعرت باحتقاره. ليس رجلاً جذّاباً وعن قرب يبدو أسوأ مما في التلفزيون. لم أكن قد تعرّفت بعد على فلوريتا ألمادا وكانت حياتي حياة خطّاء. (ضحكات). أخيراً: كنت أحتقره، وربّما كنتُ أشعر بأنّني أحسده على حظه، الذي كنتُ أعتبره غير متكافئ. الصحيح هو أنّني رافقته إلى غرفته، قال رِيْنالدو، أفضل جناح في أفضل فندق في باهيّا كينو، حيث كنّا نتنزّه عادة في يخت حتى جزيرة تيبورون، أو جزيرة تورنِر، ، كلّ

رفاهية العالم، كما يمكن أن تتصوّر، قال رِيْنالدو بينما هو ينظر إلى البيوت الفقيرة التي كانت تحيط بالجادة التي كانت تسير فيها سيارة خوسِهْ باتريثيو البي أم دبليو، وكان هناك المُقدّم المشهور، طفل تِلِبيسا المُدلّل، جالساً عند قدم السرير، وكأس في يده، منكوشَ الشعر، صينيَّ العينين اللتين لم تكونا تُرَيان تقريباً، وحين رآني، حين انتبه إلى أنّني في الغرفة، واقفاً أنتظر، جاء وقال لي إنّ من المحتمل أن تكون تلك الليلة آخر ليلة في حياته. كما ستُدرك، جمدتُ، لأنّني فكّرت على الفور: هذا العاهر سيقتلني أوّلاً ثمّ يقتل نفسه، كلّ ذلك كي يُسَبِّب إزعاجاً لاحقاً لخوسِهْ باتريثيو. (ضحكات) هكذا يُقال، أليس كذلك، لاحقاً؟ تقريباً، قال خوسِهْ باتريثيو. وهكذا قلتُ له، قال رِيْنالدو، اسمعْ، لا تمزحْ. اسمعْ، من الأفضل أن نخرج ونتمشّى. وبينما أنا أتكلّم كنتُ أبحث بعينيّ عن المسدّس. لكن لم يكن هناك أيّ مسدس في أيّ مكان، وإن كان من الممكن تماماً أن يملكه المُقدّمُ تحت السرير، مثل رماة المسدسات، وإن لم يكن له في تلك اللحظة مظهر رامي مسدّس، بل مظهر اليائس والوحيد. أتذكّر أنّني فتحت التلفاز ووضعت برنامجاً ليليّاً كانوا ينقلونه من تيخوانا، برنامجاً حوارياً وقلت له: : لا شكّ أنّك، بالإمكانيات ذاتها تعرف أنتَ أن تقدّمه بشكل أفضل، لكنّ المقدّم لم يتكرّم ولا حتى بإلقاء نظرة على التلفزيون. كلّ الذي كان يفعله هو أنّه كان ينظر إلى الأرض ويتمتم بأنّه ليس للحياة معنى وأنّ الموت خير من الاستمرار بالعيش. يتكلم ويتكلّم دون توقّف، أدركتُ وقتها، أنّ كلّ ما أقوله له كان زائداً. هو لم يكن حتى ليسمعني. فقط كان يريدني أن أكون قريباً منه، فربّما، لكن ربّما ماذا؟ لا أعرف، لكنّها ربّما مطلقة. أتذكّر أنّني أطللتُ على الشرفة وتأمّلتُ الخليج. كانت ليلة قمرُها بدر، ما أجمل الشاطئ، فكّرتُ، والأسوأ أنّنا لا ننتبه إلاّ في الحالات الصعبة، حين لا نكاد نستطيع أن نتمتّع بها. ما أجمله من ساحل وشاطئ والسماء مليئة بالنجوم. لكنّني تعبتُ

في النهاية وعدتُ وجلستُ على الكرسيّ في الغرفة ورحت أنظر إلى التلفزيون كيلا أرى وجهَ مقدّم البرنامج التلفزيوني. حيث كان هناك شخص يحكي أنّه كان يملك في حوزته، كان يقولها بهذه الكلمات في حوزته، كما لو أنّه يحكي قصّةً قروسطيّة، أو سياسيّة، الرقم القياسي لعمليات الطرد من الولايات المُتحدة. هل تدرون كم مرّة دخلتُ بشكل غير شرعي إلى الولايات المتحدة؟ ثلاثمئة وخمساً وأربعين مرّة! وثلاثمئة وخمساً وأربعين مرّة ألقي فيها عليَّ القبض وأُعدت إلى المكسيك. كلّ ذلك في مدّة أربع سنوات. الحقيقة أنّه سرعان ما استيقظ عندي الفضول. تصوّرته في برنامجي. تصوّرتُ الأسئلة التي سأوجّهها إليه. رحتُ أُفكّر كيف سأتواصل معه، لأنّ القصّة، وهذا ما لا يستطيع أحد أن ينكره، كانت جذّابة جدّاً، سأله مقدّمُ برنامج تلفزيون تيخوانا سؤالاً جوهريّاً: من أين كان يأتي بالنقود كي يدفع للمُهرّبين الذين كانوا ينقلونه إلى الجانب الآخر؟ لأنّه كان واضحاً أنّه على هذا المنوال المتواصل من عمليات الطرد أنّه لم يكن عنده عمليّاً وقت كي يعمل ويُوفّر شيئاً من المال. كان جواب الرجل مذهلاً. قال إنّه كان في البداية يدفع ما يطلبونه منه، لكنّه بعد ذلك، لنَقُل بعد المرّة العاشرة، صار يُساوِمُ ويطلب تنزيلات وبعد المرّة الخمسين صار السماسرة والمهرّبون يحملونه معهم للصداقة، وأنّه بعد المرّة المئة ربما كانوا يحملونه، كان يعتقد، إشفاقاً. الآن بالضبط، قال لمقدّم برامج تيخوانا، كانوا يحملونه كتعويذة، كان بحسب فهم المهرّبين يأتيهم بحسن الحظ، فحضوره كان، بطريقة ما، يُخفّف من التوتّر النفسي عند الآخرين: إذا وقع واحدُ فهذا الواحد هو، وليس الآخرين، على الأقل إذا عرف الآخرون كيف يتركونه جانباً ما إن يقطعوا الحدود؟ لنقُلْ: تحوّل إلى ورقة اللعب المُعلّمة، ورقة النقد المعلّمة، بحسب كلماته هو نفسه. وعندئذ سأله مُقَدّم البرامج، الذي كان خبيثاً، السؤال التافه ثمّ السؤال الجيّد. السؤال التافه كان هل كان يُفكّر بأن يُسجّل في سجلّ

غينيس للأرقام القياسية. الرجلُ لم يكن يعرف ولا عن أيّ هراء يُكلمه، فهو لم يسمع في حياته أحداً يتكلّم عن غينيس. السؤل الجيّد هو هل سيستمرُّ في محاولته. محاولة ماذا؟، سأله الرجلُ. محاولة أن تعبر إلى الجانب الآخر، قال مُقَدّم البرامج. قال الرجل نعم إذا سمح الله ومنحه الصحّة، ما من لحظة انمحت من ذهنه فكرةُ أن يعيش في الولايات المتحدة. ألم تتعب؟، سأله مُقَدّم البرامج. ألا ترغب بالعودة إلى قريتك أو بالبحث عن عمل لك هنا في تيخوانا؟ ابتسم الرجل، كما لو خجلاً، وقال إنّه حين تدخل فكرة في رأسه، فليس هناك ما يقف في وجهه. كان شخصاً مجنوناً، مَجنوناً، مجنوناً، مَجنوناً حقيقيّاً، قال رِينالدو، لكنّني في أكثر فنادق باهيّا كينو جنوناً وبجاني، جالساً عند أسفل السرير، كان أكثر مُقَدّمي برامج تلفزيون العاصمة الفيدرالية جنوناً، فبماذا يمكنني أن أفكّر إذن؟ طبعاً، لم يعد مُقَدّم البرامج يُفكّر بأن ينتحر. بقي جالساً عند حافّة السرير، لكنّ عينيه، عيني الكلب المُتعب، مغروزتان في التلفزيون. ما رأيك؟، سألتُهُ. هل يمكن أن يوجد شخص بهذا الشكل؟ أليس جذّاباً؟ أليس البراءة مُشَخَّصةً. عندها نهض مُقدّم البرامج وأخذ المسدّس الذي أخفاه طيلة ذلك الوقت تحت رجله، أو تحت إليته وعدتُ لأشحب فجأة وأشار إلي مومئاً، إيماءة لا تكاد تُدرك، كما لو أنّه يقول لي إنّه ما عاد عليّ أن أنشغل بشيء ودخل إلى الحمّام دون أن يُغلق الباب وفكّرتُ، يا لطيف! الآن سينتحر، لكن ما فعله هو أنّه راح يبول طويلاً، كلّ شيء كان كما لو ضمن أسرة، كلّ شيء منسجم، التلفاز مفتوح، الباب مفتوح، الليل مثل قفّاز فوق الفندق، الظهر المبلّل تام الظهر المبلول الذي كنتُ أريد أن أحمله إلى برنامجي وربّما لم يكن مُقدّم البرامج الذي كان عاشقاً لِخوسِهْ باتريثيو يريد أن يأخذه إلى برنامجه، الظهر المبلّل المريع، ملك الحظّ السيّئ، الرجل الذي كان يحمل على كاهله مصيرَ المكسيك، الظهر المبلّل المبتسم، هذا الكائن الشبيه بضفدع، هذا الأعزل، المُشْحِمُ وقليل

الذكاء، هذه القطعة من الفحم، التي كان من المُمكن أن يصير في تقمّص آخر ماسةً، هذا الذي لا يُمسّ الذي لم يولد في الهند بل في المكسيك، كلّ شيء صار منسجماً، فجأة صار كلّ شيء منسجماً فلماذا سينتحر. من المكان الذي كنتُ فيه رأيتُ مُقدّمَ برامج تِلِبيسا يُخبّئ المسدّس في غمده ثمّ يُغلق الغمدَ ويضعه في درج في الحمام. سألته عمّا إذا كان يريد أن نذهب إلى بار الفندق لنتناول بعض الأقداح. حسن، قال، لكنّني أُريد قبل ذلك أن أرى نهايةَ البرنامج. في التلفزيون كانوا قد بدؤوا مع رجل آخر، أظنّه مدرّبَ قطط. أي قناة هذه؟، سألني مُقَدِّم البرامج. قناة تيخوانا الخامسة والثلاثين، أجبته. قناة تيخوانا الخامسة والثلاثون، قال كما لو أنّه يتكلّم في حلمه. خرجنا بعدها من الغرفة. توقّف مقدّم البرامج في الممر وأخرج مشطاً من جيب بنطلونه الخلفيّ وتمشّط. كيف تراني؟، سألني. رائع، قلتُ له، طلبنا المصعدَ بعدها وانتظرنا. يا له من يوم، قال مُقدّم البرامج. هززت رأسي موافقاً. حين وصل المِصعدُ دخلناه ونزلنا إلى البار دون أن نقول كلمةً واحدة. انفصلنا بعدها وذهب كلّ منا لينام.

بعد تناول الطعام، حين كانا ينظران إلى الليل عبر نوافذ ملك الشطائر، قالت له يولاندا بالاثيو ليس كلّ شيء سيّئاً في سانتا تِرِسا. ليس كلّ ما يتعلّق بالنساء سيئاً. كما لو أنّهما وقد امتلأت معدتاهما وكانا متعبين وراغبين بالنوم، كلاهما يُقدّرُ الأشياء الجيدة، تفاصيل الأمل الزائفة. دخّنا. هل تعرف ما هي المدينة التي فيها أدنى نسبة عاطلات عن العمل في المكسيك؟ رأى سِرخيو غونثالِث قمرَ الصحراء، كسرةً، قَطْعاً مُنحنٍ، يُطل من بين الأسطح. سانتا تِرِسا؟، قال. بلى، سانتا تِرِسا، قالت مسؤولة قسم الجرائم الجنسية. هنا جميع النساء يملكن عملاً. عمل سيّئ الأجر ومُستَغَلّ، وساعات عمل مخيفة ومن دون ضمانات نقابية، لكنّه في النهاية عمل، وهذا ما يعتبر بالنسبة

إلى نساء كثيرات واصلات من أواكساكا أو ثاكاتِكاس رحمةً. قطع منحن لا يمكن، فكّر سِرخيو، وهمٌ بصريّ نعم، غيومٌ غريبة على شكل سيجارٍ، ثياب منشورة في ريح الليل، ذبابة أو بعوضة بّو. هكذا إذن، هنا لا توجد بطالة نسائيّة؟، قال. لا تكن ثقيلاً، قالت يولاندا بالاثيو، طبعاً توجدُ بطالة، نسائية ورجالية، فقط نسبة البطالة النسائية أقل بكثير ممّا في بقيّة البلد. حتى أنّه يمكن القول، بشكل إجماليّ، إنّ جميع نساء سانتا تِرِسا يملكن عملاً. اطلب أرقاماً وقارِن.

في أيّاو قتلوا أَوْرورا كروث بارِّينْتوس، ابنة الثمانية عشر عاماً، في بيتها ذاته. عُثِرَ عليها في سرير الزوجية، مع عدد من الجروح بسلاح أبيض، جميعها تقريباً في القفص الصدري وكانت مفتوحة الذراعين كما لو أنّها تستغيث بالسماء، وسط بقعة كبيرة من الدم المتخثّر. قامت بالاكتشاف جارة وصديقة لها، بدا لها غريباً أنّ الستائرَ ما تزال مسدلة. كان الباب مفتوحاً ودخلت الجارة إلى البيت فلاحظت على الفور شيئاً غريباً، ومع ذلك لم تستطع أن تعرف بدقّة ما هو. عندما وصلت إلى غرفة النوم ورأت ما فعلوه بأَوْرورا أُغمي عليها. كان البيت في شارع إستِبّا رقم ٨٧٠، في ضاحية فِليث غومِثْ، وهو حيّ طبقة وسطى دنيا. كُلّف بالقضية المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ، الذي حضر شخصياً إلى مكان الحدث بعد ساعة من سيطرة الشرطة على البيت. زوج أَوْرورا كروث، رولاندو بِرِثْ مِخيّا، كان في عمله في معمل سيتي كيس، ولم يكن قد أُعلم بعدُ بمقتل زوجته. عثرت الشرطةُ التي فتّشت البيت على سروال داخليّ لِبِرِثْ مِخيّاً افتراضاً، متروكاً في الحمّام ومبلّلاً بالدم. ذهبت دورية في ساعات المساء الأولى إلى سيتي كيس وأخذت بِرِثْ مِخيّا في طريقها إلى المخفر رقم ٢. أكّد هذا في تصريحه أنّه تناول الفطور مع زوجته، كما في كلّ صباح، قبل أن يذهب إلى العمل وأنّ العلاقة بينهما كانت منسجمة، فهما لم يكونا يتركان للمشاكل،

الاقتصاديةِ في غالبيتها، أن تتدخل في حياتهما. مضى على زواجهما، بحسب بِرِثْ مِخيّا، سنة وأشهر قليلة، ولم يتشاجرا قط. حين أروه السروال الداخليّ الملطخ بالدم، اعترف بِرِثْ مِخيّا بأنه له، أو شبيهٌ بسروال له، وفكّر خوان دِ ديوس مارتينِثْ بأنّه سينهار. لكنّ الزوج، بالرغم من أنّه كان يبكي بمرارة بعد أن رأى السروال الداخليّ، وهو ما استغربه خوان دِ ديوس، فالسروال الداخليّ ليس صورة أو رسالة، بل هو سروال فقط، سروالٌ داخليّ، لم ينهر. على كلّ الأحوال بقي موقوفاً بانتظار أحداث جديدة، لم تتأخّر في الوصول. أوّلاً ظهر شاهدٌ رأى رجلاً كان يحومُ بالقرب من بيت أَوْرورا كروث. كان الحائم، بحسب هذا الشاهد، شابّاً له مظهر رياضيّ، يقرع أجراسَ البيوت ويلصق وجهه بالنوافذ، كما لو أنّه يُريد أن يتأكّد من أنّها كانت خالية. على الأقل هذا ما فعله في ثلاثة بيوت. واحد منها كان بيت أَوْرورا كروث، ثمّ اختفى. ماذا جرى بعد ذلك؟، الشاهد لم يكن يعرف، فقد ذهب إلى عمله، لكن ليس قبل أن يُحَذّر زوجتَهُ وأمَّ زوجته، التي كانت تعيشُ معهما، من وجود الدخيل. بحسب زوجة الشاهد، بقيت هي بعد ذهاب زوجها أمام النافذة، لكنّها لم تَرَ شيئاً. بعد برهة ذهبت هي أيضاً إلى العمل وبقيت الحماةُ وحدها في البيت، التي مكثت مثل صهرِها وابنتِها، برهة تتجسّس من نافذتها على الشارع دون أن ترى أو تلاحظ شيئاً مُريباً، إلى أن نهض أحفادها واضطرت لأن تنشغل بإفطارهم قبل أن يذهبوا إلى المدرسة. من ناحية ما من أحدٍ في الحيّ رأى الحائمَ ذا المظهر الرياضي. في المعمل حيث كان يعمل زوجُ الضحيّة شهدَ عددٌ من العمّال أنّ رولاندو بِرِثْ مِخيّا وصل، كما في كلّ صباح، قبل أن تبدأ نوبته بقليل. بحسب تقرير الطبيب الشرعي، اغتصبت أَورورا كروث عبر الفتحتين. كان المُغتصِبُ والقاتل، لا شكَّ، بحسب الطبيب الشرعي، شخصاً كبيرَ الطاقة، شابّاً وجامحاً تماماً. حين سأله خوان دِ ديوس مارتينِثْ ماذا كان يعني بِجامح، أجابه الطبيبُ الشرعيّ بأنّ كميّة

المني التي عثر عليها في جسد الضحيّة وعلى الملاحف لم تكن طبيعية. يمكن أن يكونا شخصين، قال خوان دِ ديوس مارتينِثْ. يمكن، قال الطبيبُ الشرعيّ، وإن كان قد أرسل، عيناتٍ إلى الشرطة العلمية في هِرموسيّو، كي تؤكّد إن لم يكن الحمض النوويّ، فنوع دم المعتدي. من التمزقات الشرجية مال الطبيبُ الشرعيُّ إلى الاعتقاد بأنّ الاغتصاب عبر هذه الفتحة حدث عندما كانت الضحية جثّة. حقّق خوان دِ ديوس لبضعة أيّام، وهو يشعر بنفسه في كلّ مرّة أكثر مرضاً، مع بعضِ شباب الحيّ المرتبطين بعصابات شبابية. اضطرَّ ذات ليلة لأن يذهب إلى الطبيب، الذي أكّد له أنّه يُعاني من زكامٍ ووصف له مقشعات ونصحه بالصبر. زادت بعد أيّام الصفائح البكتيريةُ في الحنجرة من حِدّة الزكامِ فاضطرّ لأن يتناول مضادات حيوية. بقي زوج الضحية أسبوعاً في زنزاناتِ المخفر رقم ٢، أطلقوا سراحه بعدها. عينات المني المرسلة إلى هِرموسيّو ضاعت، ولا أحد يدري ما إذا كانت قد ضاعت في طريق الذهاب أو في طريق الإياب.

فتحت لهم البابَ فلوريتا شخصيّاً. سلّمت على رِيْنالدو وخوسِهْ باتريثيو بقبلة ومدّت للأخير يدها. جئنا ميتين من الضجر، سمعَ رِيْنالدو يقول. كانت يدُ فلوريتا مشقّقة، كما لو أنّها يدُ شخص قضى زمنا بين موادّ كيميائية. كان الصالون صغيراً، فيه كرسيان وجهاز تلفزيون. على الجدران علّقت صوراً بالأبيض والأسود. رأى في واحدة منها رِيْنالدو ورجالاً آخرين حول فلوريتا، جميعهم مبتسمين، بملابس من سيخرج سيراناً : مريدو طائفة حول كاهنتِهم. عرضوا عليه شاياً أو بيرة. طلب سِرخيو بيرة وسأل فلوريتا عمّا إذا كان حقيقة أنّها تستطيع أن ترى عمليات القتل التي جرت في سانتا تِرِسا. بدت القديسةُ مرتبكة وتأخّرت قليلاً في الإجابة. سوّت ياقةَ بلوزتها وسترتها الصوفية، ربّما كانت ضيقة أكثر من اللازم. جاء جوابها ملتبساً. قالت إنّها أحياناً،

مثل كلّ الناس، ترى أشياءَ وإنّ الأشياءَ التي تراها لم تكن بالضرورة رؤى، بل تخيّلات، أشياء تمرّ في رأسها، مثل كلّ الناس، الضريبة التي يقولون إنّ على المرء أن يدفعها كي يعيش في مجتمع حديث، وإن كانت هي مع الرأي القائل بأن كلّ الناس، أينما كانوا يعيشون، يستطيعون في لحظةٍ ما أن *يروا* أو *يتخيّلوا* أشياء، وإنّها بالفعل راحت في المرحلة الأخيرة لا تتخيّل إلا جرائم قتلِ النساء. ثرثارة طيِّبة القلب، فكّرَ سِرخيو. لماذا طيّبة القلب؟ هل لأنّ جميع عجائز المكسيك كنّ طيبات القلب؟ بالأحرى قلبها من حجر، فكّرَ سِرخيو، حتى تتحمّل كلّ هذا. هزّت فلوريتا رأسَها بالموافقة عدّةَ مراتٍ، كما لو أنّها قرأت أفكاره. وكيف تعرفين أنّ هذه الجرائم وقعت في سانتا تِرِسا؟، سأل سِرخيو. من الشحنة. من السلسلة. قالت فلوريتا مدفوعة لأن تُوضّح بشكلٍ أفضل: جريمة قتل عادية ومألوفة (بالرغم من أنّه لا توجد جرائم قتل عادية ومألوفة) تنتهي دائماً تقريباً بصورة سائلة، بحيرة أو بئر يعود بعد أن يرتجّ ليهدأ، بينما في تتالي جرائمِ القتل، كالذي يحدث في المدينة الحدودية، يعكس صورة ثقيلة، معدَنية أو منجمية، صورة تحرق، مثلاً تحرق ستائر، تتراقص، لكنّ كلّما زادت الستائر التي تحرقها ازدادت ظلمة الغرفة، أو الصالون أو العنبر أو الهُري، حيث يحدث ذلك. وهل تستطيعين أن تري وجوهَ القتلة؟، سألها سِرخيو، وقد شعر بالتعب فجأة. أحياناً، أحياناً أرى وجوههم قالت فلوريتا، لكن، حذارِ، يا بُنَيّ، أنساها عندما أستيقظ. كيف يمكن أن تصفي لنا وجوههم، يا فلوريتا؟ هي وجوه عادية ومألوفة (بالرغم من أنّه لا يوجد في العالم، أو على الأقل في المكسيك وجوهٌ عادية ومألوفة) أي أنّك لا تقولين إنها وجوهُ قتلة؟ لا، أنا فقط أقول إنّها وجوه كبيرة. كبيرة؟ بلى، كبيرة، كما لو أنّها منتفخة، منفوخة. كالأقنعة؟ أنا لا أقول هذا، قالت فلوريتا، هي وجوه، ليست أقنعة ولا تنكّراً، فقط منتفخة، كما لو أنّهم أفرطوا في تناول الكورتيزون.

كورتيزون؟ أو أي كورتيكويدات تنفخُ، قالت فلوريتا. أي أنهم مرضى؟. لا أعرف، بحسب. بحسب ماذا؟ بحسب الطريقة التي يَنْظر بها المرءُ إليها. هل يعتبرون هم أنفسهم أشخاصاً مرضى. لا، ولا بشكل من الأشكال. هل يعرفون أنّهم أصحاء إذن؟ يعرفون، بمعنى يعرفون، لا أحد في هذا العالم يعرفَ معرفة اليقين، يا بُنَيّ. لكن هل يعتقدون أنّهم أصحّاء؟. لنَقُل نعم، قالت فلوريتا. وأصواتهم، هل سمعتها ذات مرّة؟، سألها سِرخيو (نادتني، يا ابني، يا للغرابة، نادتني، يا بُنَيّ) مرّاتٍ قليلة جدّاً، لكنّني بلى سمعتهم يتكلّمون ذات مرّة. وماذا يقولون، يا فلوريتا؟ لا أعرف، يتكلمون لغة إسبانية، إسبانية مقلوبة لا تبدو إسبانية، أيضاً ليست إنكليزية، أُفكّرُ أحياناً أنّهم يتكلّمون لغةً مخترعة، لكن لا يمكن أن تكون مختَرَعة لأنّني أفهم بعض الكلمات، لذلك يمكنني أن أقول إنّها إسبانية وإنّهم مكسيكيون، المسألة هي فقط أنّ معظم كلماتهم بالنسبة إليَّ غير مفهومة. نادتني يا بُني، فكّر سِرخيو. مرّة واحدة ولذلك فمن المشروع التفكيرُ بأنّ الأمر لا يتعلق بتميمة في خطابها. ثرثارة طيّبة القلب. قدّموا له كأس بيرة آخر، رفضه. قال إنّه يشعر بنفسه مُتْعَباً. قال إنّ عليه أن يعود إلى الفندق. نظر إليه رِيْنالدو بحنق أساء إخفاءه. ما ذنبي؟، فكّر سِرخيو. ذهب إلى الحمّام: كانت له رائحة عجوز، لكن على الأرض كان هناك أصيصان فيهما نباتات كثيفة الخضرة، تكاد تكون سوداء. ليست الزراعة في المرحاض فكرة سيّئة، فكّر سِرخيو بينما هو يسمع أصوات رِيْنالدو وخوسِهْ باتريثيو وفلوريتا الذين بدا أنّهم يتناقشون في الصالون. كان من الممكن أن يُرى من نافذة الحمّام الصغيرة فناءٌ صغير، إسمنتيّ ورطب، كما لو أنّها أمطرت توّاً، حيث ميّز إلى جانب أصصِ النباتات أصصَ أزهارٍ حمراء وزرقاء، من تنويعة غير معروفة. حين عاد إلى الصالون لم يعد للجلوس. صافح فلوريتا ووعدها بأن يُرسِلَ إليها المقال الذي يُفكّر بأن ينشره، مع أنّه كان يعرف جيّداً أنّه لن يرسل إليها

شيئاً. هناك شيء، فعلاً أفهمه، قالت القديسة، حين رافقتهم إلى الباب. قالت ناظرةً إلى سِرخيو في عينيه ثمّ إلى رِيْنالدو. ما الذي تفهمينه، يا فلوريتا؟، سألها سِرخيو. لا تقوليه، يا فلوريتا، قال رِيْنالدو. كل الناس عندما يتكلمون يتركون أفراحهم وآلامهم تشفّ، وإن كان فقط جزئياً، أليست حقيقة. حقيقة الله، قال خوسِهْ باتريثيو. حين تتكلّم هذه التصوّرات فيما بينها، وبالرغم من أنّني لا أفهم كلماتها، إلاّ أنّني أنتبهُ إلى أنَّ أفراحها وآلامها كانت كبيرة، قالت فلرويتا. أإلى هذا الحدِّ هي كبيرة؟، سأل سِرخيو. نظرت فلوريتا إلى عينيه. فتحت الباب. استطاعت أن تشعر بليل سونورا يلمس ظهرَها مثل شبح. هائلة، قالت فلوريتا. كما لو أنّها تعرف أنّها محصنة؟ لا، لا، قالت فلوريتا، هنا لا شيء له علاقة بالحصانة.

في الأوّل من حزيران وصلت سابرينا غومِثْ ديميتريو، ابنة الخمسة عشر عاماً سيراً على قدميها إلى مشفى المؤسّسة المكسيكية للتأمين الاجتماعي خِراردو رِغِيْرا، وبها جراح عديدة بسلاح أبيض وطلقتان في ظهرها. أدخلت على الفور إلى وحدة الطوارئ، حيث توفيت بعد دقائق قليلة. لفظت كلمات قليلة قبل موتها. قالت اسمها وذكرت الشارع الذي كانت تعيش فيه مع أخواتها وأخوتها. قالت إنّها كانت محبوسة في سيارة سوبوربان. قالت شيئاً عن رجل له وجه خنزير. سألتها ممرِّضة كانت تُحاول أن توقف نزيفها، عمّا إذا كان هذا الرجل قد اختطفها. قالت سابرينا غومِثْ إنّها حزينة لأنّها لن ترى أخوتها ثانية.

في حزيران دعا كلاوس هاس من خلال مكالمات هاتفيّة إلى مؤتمر صحفيّ في سجن سانتا تِرِسا حضره ستّة صحفيين. نصحته محاميته بعدم عقد المؤتمر، لكنّ هاس بدا في تلك الأيام أنّه فقد

السيطرة على أعصابه، التي كان، حتى ذلك الوقت يتباهى بها، ولم يبغ أن يسمع حجّة واحدة ضدّ خطّته. أيضاً لم يكشف لمحاميته عن موضوع المؤتمر، بحسب قولها. فقط قال لها إنّه الآن يملك معلومة كان يفتقدها في السابق ويريد أن يُعلنها. لم ينتظر الصحفيون الذي ذهبوا أيَّ تصريح جديد وأقلّ من ذلك شيئاً يُضيء الجبَّ المظلم التي تحوّل إليه ظهور القتيلات المنتظم في المدينة أو خارج محيط المدينة أو في الصحراء التي كانت تُطبِقُ على سانتا تِرِسا مثل قبضة من حديد، لكنّهم ذهبوا لأنّ هاس والقتيلات هما خبرهم. لم تُرسل صحف العاصمة الفيدرالية الكبرى ممثّلين لها.

في حزيران، بعد أيّام من وعد هاس للصحفيين هاتفياً بتصريح عظيم، بحسب كلماته ذاتها، ظهرت مقتولة على الطريق العام إلى كاساس نِغراسْ، أَوْرورا إيبانْييثْ مِدِل، التي سبق وأبلغَ زوجُها عن اختفائها قبل أسبوعين. كانت أَوْرورا إيبانييثْ في الرابعة والثلاثين من عمرها وتعمل في معمل إنتِرزون-بيرني، كان عندها أربعة أولاد ما بين الرابعة عشرة والثالثة من أعمارهم، تزوّجت في السابعة عشرة من عمرها من خايِم باتشِكو باتشِكو، وهو ميكانيكي، كان وقت اختفاء زوجته عاطلاً عن العمل، ضحيّة تقليص عدد العاملين في ورشات إنترزون-بيرني. كان سبب الوفاة، بحسب تقرير الطبّ الشرعي، هو الاختناق وقد ظهر على رقبة الضحية، بالرغم من الزمن الذي مرَّ على قتلها، آثار الخنق المعهودة. لم يكن العظم اللامي مكسوراً. من المحتمل أنّ أَوْرورا قد اغتُصِبت. تولّى القضيّة المُحقّق إفرايين بوستِلو، يساعده المُحقّق أورتيثْ رِبويّدو. باشرا، بعد القيام ببعض التحقيقات في محيط الضحيّة، باعتقال خايِم باتشِكو، الذي اعترف بعد أن أُخضع للاستجواب بجريمته. الدافع، قال أورتيثْ رِبويّدو للصحافة، هي الغيرة. ليس من رجلٍ بحدّ ذاته، بل من كلّ الرجالِ الذين يمكن أن

تكون قد مرّت بهم أو بسبب الوضع الذي كان جديداً ولا يُطاق. ظنَّ المسكين باتشِكو أنّ زوجته ستتركه. عندما سُئل عن وسيلة النقل التي استخدمها كي يحمل زوجته خداعاً إلى هناك، إلى الكيلومتر ثلاثين من طريقِ كاساس نِغراس العامّ، أو كي يتخلّص من جثّتها على ذلك الطريق، على افتراض أنّه قتلها في مكان آخر، النقطة التي لم يبغِ باتشِكو أن يتكلّم عنها بالرغم من قسوة الاستجواب، صرّحَ بأنَّ صديقاً له أعاره سيّارته، وهي كويوتِ موديل ٨٧، صفراء مع رسوم لهبٍ أحمر على جانبيها، الصديق الذي لم تعثر عليه الشرطة أو لم تبحث عنه بالجدّية التي تستحقها القضيّة.

إلى جانب هاس كانت محاميته تنظر إلى الأمام بثبات، كما لو أنّ صورَ اغتصابٍ تمرّ في رأسها، وحولهما صحفيو *إل هِرالدو دِل نورتِ*، *لا بوثْ دِ سونورا*، *لا تريبونا دِ سانتا تِرِسا*، الصحف المحلّية الثلاث وصحفيو *إل إندِبِنْدينتِ دِ فونيكس* ولا *راثا كرين فيلي*، وهي صحيفة قليلة الصفحات، تظهر أسبوعياً (وأحياناً كلَّ نصف شهر أو شهر)، أبقت على نفسها من دون إعلانات تقريباً، من خلال استكتاب بعض الأمريكيين الشماليين ذوي الأصول المكسيكية من الطبقة الوسطى الدنيا ما بين كمطقة غرين فيلي وسيرّا بيستا، عمال مياومين قدامى استقرّوا في ريّو ريكو، كارمن، توباك، سونويتا، أمادو، ساهواريتا، باتاغونيا وسان خابيير ولا تظهر على صفحاتها إلا قصص الجرائم، وكلّما كانت أكثر فظاعة كانت أفضل. كان هناك مُصَوِّرٌ واحد فقط، هو تشوي بيمنتِل، من *لا بوث دِ سونورا*، الذي بقي خلف الحلقة المُشكّلة من الصحفيين. كان البابُ يُفتَح من حين لآخر ويظهر سجّانٌ ينظر إلى هاس أو محاميته، كما لو أنّه يسألهما عمّا إذا كانا بحاجة لشيء. طلبت المحامية مرّة أن يأتيها بماء بارد. هزّ السجّان رأسه بالموافقة وقال حالاً واختفى. بعد برهة ظهر ومعه زجاجتا ماء وعدد من علب المرطبات

الباردة. شكره الصحفيون وقرّروا جميعاً أن يأخذوا العلب، باستثناء هاس ومحاميته، اللذين فضّلا أن يتناولا ماءً. مضت بضعُ دقائق لم يقُلْ فيها أحد شيئاً، ولا حتى أدنى ملاحظة وشرب الجميع.

في تموز ظهرت جثّةُ امرأةٍ في ساقية مياه صرف صحيّ، إلى الشرق من ضاحية مايتورِنا، ليس بعيداً عن طريق ترابي وبعض أبراج التوتر العالي. كانت المرأة ما بين العشرين والخامسة والعشرين من عمرها تقريباً ومضى على موتها، بحسب الأطباء الشرعيين، ثلاثة أشهر على الأقل. ظهرت الجثة مربوطةَ اليدين خلفَ الظهر برباط بلاستيكي، كتلك التي تستخدم لحزم الصناديق الكبيرة. كان في يدها اليسرى قفّاز أسود طويل يُغطّي نصفَ ذراعها، وبالمناسبة لم يكن قفازاً رخيصاً، بل من القطيفة، كتلك التي تستخدمها النجوم، لكن فقط بعضُ النجوم ذوات المكانة. حين خلعوا القفّازَ وجدوا خاتمين، واحداً من الفضة القانونيّة في الإصبع الأوسط، وآخر من الفضّة أيضاً في البنصر، نُقشَت عليه أفعى. كما كانت ترتدي في القدم الأيمن جورباً رجالياً، ماركة ترانسي. الأكثر مفاجأة من كلّ ذلك: هو أنّه وُجِدت حمالة صدر سوداء، جيّدة النوعية رُبِطت حول عنقها، على شكل قبّعة غريبة، لكنّها ليست مستحيلة كلّياً. ما عدا ذلك كانت المرأة عارية ولا تحملّ أيَّ ورقة تُفيد في تحديد هويّتها لاحقاً، أُرْشِفَتْ القضيّةُ بعد الإجراءات القانونية وألقي بجثتها في المقبرة الجماعية في مقبرة سانتا تِرِسا.

في نهاية تموز دعت سلطاتُ سانتا تِرِسا بالتعاون من سلطاتِ ولاية سونورا، الباحثَ ألبِرت كيسلير إلى المدينة. حين انتشر هذا الخبرُ سأل بعضُ الصحفيين، وخاصّة صحفيو العاصمة الفيدرالية، عمدةَ المدينة خوسِهْ رِفوخيو دِ لاس هِراس عمّا إذا كان وجود موظّفِ مكتبِ التحقيقات الفيدرالية السابق يعني قبولاً ضمنيّاً بأنّ تحقيقات الشرطة

المكسيكية قد فشلت. أجابَ المجاز دِ لاس هِراس لا، ولا بشكل من الأشكال، فالسيّد كيسلير جاء إلى سانتا تِرِسا ليُقيم دورة تأهيل مهني من خمس عشرة ساعة لمجموعة من الطلاّب، مختارة من أفضل رجال شرطة سونورا وقد وقع الاختيار على سانتا تِرِسا كمقرّ لهذه الدورة، نظراً، على سبيل المثال، لسوء الوضع في هِرموسيّو، إضافة إلى قوّتها الاقتصادية وقصة عمليات الاغتيال المحزنة على التسلسل، الوباء المجهول، أو الذي كاد يكون مجهولاً في المكسيك حتى ذلك الوقت، وإنهم، هم سلطات البلد، كانوا يرغبون بأن يوقفوها في الوقت المناسب. وهل هناك من طريقة لاجتثاث الوباء أفضل من إعداد كتيبة شرطةٍ خبيرة بالموضوع؟

سأقول لكم من الذي قتل إسترِيّا رويثْ ساندوبال، التي أُتُّهِمْتُ ظلماً بقتلها، قال هاس. هم أنفسهم الذين قتلوا على الأقل ثلاثين شابّة أخرى من هذه المدينة. طأطأت محاميةُ هاس رأسها. التقط تشوي بيمِنتِل أوّلَ صورة. تظهر فيها وجوه الصحفيين الذين ينظرون إلى هاس أو يراجعون دفاتر ملاحظاتهم، دون أي انفعال، دون أيّ حماس.

عثروا في أيلول على جثّة آنا مونْيوثْ سانخوان خلف بعض حاويات القمامة في شارع خابييرْ بارِدِسْ، بين ضاحية فِليكس غومِثْ وضاحية ثِنترو. كانت الجثّة عارية تماماً. وتظهر عليها علامات خنق واغتصاب، سيؤكّدها لاحقاً الطبيب الشرعي. بعد التحقيقات الأولى حدّدت هويتها. كانت الضحية تُدعى آنا مونْيوثْ سانخوان، تعيش في شارع مايسترو كايثِدو في ضاحية روبِن داريّو، حيث كانت تتقاسم البيت مع ثلاث نساء أخريات، كانت في الثامنة عشرة من عمرها وتعمل نادلةً في مقهى إل غران تشابّارّال، في المدينة القديمة من سانتا تِرِسا. لم تُبَلِّغ الشرطةُ باختفائها. آخر الأشخاص الذين شوُهِدت معهم كانوا

ثلاثة رجال يحملون ألقاب إل مونو، إل تاماوليبّاس و لا بييخا. حاولت الشرطة العثور عليهم، لكن بدا أن الأرض قد ابتلعتهم. أُرشفت القضيّة.

من الذي يدعو ألبِرت كيسلير؟، تساءل الصحفيون. من الذي سيدفع فاتورة خدمات السيّد كيسلير؟ وكم؟ مدينة سانتا تِرِسا، ولاية سونورا؟ من أين ستخرج أموال تعويضات السيّد كيسلير؟ من جامعة سانتا تِرِسا؟ من نفقات شرطة الولاية المستورة؟ هل هناك أموال من أشخاص خاصّين في المسألة؟ هل هناك راعٍ خلف زيارة المحقّق الأمريكي الشمالي الشهير؟ ولماذا الآن، تماماً الآن، يأتون بخبيرٍ بجرائمِ القتل على التسلسل، وليس قبلاً؟ وهل لا يوجد في المكسيك علماء جريمة قادرون على التعاون مع الشرطة؟ مثلاً الأستاذ سيلبِريو غارثيّا كورّيا، أليس جيداً بما يكفي؟ تُرى ألم يكن أفضلَ عالم نفس في دفعته في جامعة المكسيك الوطنية المستقلة؟ ألم يحصل على الماجستير في علم الجريمة من جامعة نيويورك وماجستير آخر من جامعة ستانفورد؟ ألم يكن أوفر لهم لو تعاقدوا مع الأستاذ غارثيّا كورّيا؟ أما كان أكثر وطنية لو كلّفوا مكسيكياً بالقضيّة، وليس أمريكياً شمالياً؟ وبالمناسبة، هل يعرف التكلُّم بالإسبانية؟ وإذا كان لا يعرف، من الذي سيعمل مترجماً معه؟ هل يُحْضِر معه مُترجمه، أم سوف يضعون مترجماً له من هنا؟

قال هاس: كنتُ أحقّق. قال تلقيت وشايات. قال: في السجن كلّ شيء يُعْرَفُ. قال: أصدقاء أصدقائك أصدقاؤك ويحكون أشياء. قال أصدقاءُ أصدقاءِ أصدقائك يغطون مساحة من العمل واسعة ويُسْدون إليكَ خدمات. لم يضحك أحدٌ. تابع تشوي بيمِنتِل التقاطَ الصور. تظهر فيها المُحامية على وشك أن تُطلق بعضَ دموعها. قهراً. نظراتُ

الصحفيين نظراتُ زواحفَ. يراقبون هاس الذي ينظر إلى الجدران الرمادية كما لو أنّه كتب على إسمنتها المتآكل السيناريو. يهمس، يقولُ أحدُ الصحفيين، أعطنا الاسم، يهمس به، لكن بما يكفي كي يسمعه الجميع. ما عاد هاس ينظرُ إلى الجدار وتمعّنت عيناه بالذي تكلّم. وبدل أن يُجيبه مباشرة شرحَ مرّة أخرى براءته من قتل إستريّا رويثْ ساندوبال. لم أعرفها، قالَ، ثمّ غطّى وجهه بيديه. فتاة وسيمة، قال. حبذا لو أنّني عرفتها. يشعر بأنّه دائخ. يتصوّر شارعاً مليئاً بالناس، عند الغروب، راح يفرغ بهدوء، حتى لم يبق أحد، غير سيارة مصفوفة في زاوية. يهبط بعدها الليلُ ويشعر هاس بأصابع محاميته على يده. أصابع غليظة أكثر من اللازم، قصيرة أكثر من اللازم. الاسم، قال صحفيّ آخر، لن نتقدّم أبداً من دون الاسم.

في أيلول، وفي خلاء من ضاحية سور، عثروا على جثّةِ ماريّا إستِلا راموس عاريةً ملفوفة ببطانيةٍ وأكياسٍ بلاستيكية سوداء. كانت مربوطة القدمين بكبلٍ وتظهر عليها علامات تعذيب. أُوكلت القضيةُ إلى المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ، الذي حدّد أنّ الجثّةَ أُلقيت في القفر ما بين الثانية عشرة ليلاً والواحدة والنصف من فجر السبت، فالقفر المذكور استُخدم كنقطةِ لقاء بين باعة ومشتري المخدرات وعصابة من المراهقين الذين كانوا يأتون إلى المكان لسماع الموسيقى. بعد مقابلة مختلف التصريحات ثُبّت لسببٍ أو لآخر، أنّه بين الثانية عشرة ليلاً والواحدة والنصف،لم يكن يوجد أحد. كانت ماريّا إستِلا راموس تعيشُ في ضاحية بِراكروث ولم تكن تلك طرقَها. كانت في الثالثة والعشرين من عمرها ولديها ولد في الرابعة من عمره وتتقاسم البيت مع رفيقَتَيّ عملٍ في المعمل، واحدة منهما كانت عاطلة عن العمل عندما وقعت الأحداث، إذ بحسبِ ما حكت لخوان دِ ديوس، كانت تُحاول تأسيس نقابة. ما رأيك؟، سألته. وطردوني لأنّني طالبتُ بحقوقي. هزّ

المُحقّق كتفيه. سألها من سيأخذ على عاتقه ابن ماريّا إستِلا. أنا، قالت النقابية الخائبة. أليس له عائلة، أجداد؟ لا أظنّ، قالت المرأةُ، لكنّنا سنُحاول أن نتأكّد من ذلك. كان سبب الوفاةِ، بحسب الطبيب الشرعي، ضربة بأداة قاسية على رأسها، بالرغم من أنّ أضلاعاً خمسة كانت مكسورة أيضاً وجُرحت بسلاح أبيض جرحاً من النوع السطحي في ذراعها. اغتُصِبت. وحدثت الوفاة قبل أربعة أيّام من عثور مُتَعاطِي المخدرات عليها بين القمامة وجنبات قفرِ ضاحيةِ سور. كان لماريّا إستِلا، بحسب زميلتيها، خطيب، يُسمّونه الصيني. لا أحد كان يعرف اسمه الحقيقيّ، لكنّهم بلى كانوا يعرفون أين يعمل. ذهب خوان دِ ديوس ليبحث عنه في حانوت دهانات في ضاحية سِرافين غارابيتو. سأل عن الصيني فقالوا له إنّهم لا يعرفون أحداً بهذا الاسم هناك. وصفه لهم، تماماً كما سبق وفعلت رفيقتا ماريّا إستِلا، لكنّ الجواب جاء ذاته: هناك لم يعمل أحدٌ بهذا الاسم ولا بهذه المواصفات قط لا في المحل ولا في المخازن. حرَّكَ مُخبريه وتفرّغ لبضعة أيام حصراً للبحث عنه. كان كمن يبحث عن شبح.

كان السيّد ألبِرت كيسلير مهنياً ذا مكانة رفيعة، قال الأستاذ غارثيّا كورّيا. السيد كيسلير، بحسب ما يحكون لي، كان واحداً من أوائل من رسم الصورة النفسية للقتلة على التسلسل. فهمت أنّه عمل لصالح مكتب التحقيقات الفيدرالي وعمل قبلها لصالح الشرطة العسكرية في الولايات المتحدة أو المخابرات العسكرية، وهو ما يكاد يشكّل تناقضاً لفظياً، فكلمة مخابرات (ذكاء) نادراً ما تنطبّق على كلمة عسكري، قال الأستاذ غارثيّا كورّيا. لا، لا أشعر بأنّني مهانٌ ولا مستبعد لأنّهم لم يُكلّفوني بهذا العمل. سلطات ولاية سونورا يعرفونني بشكل مُمتاز، ويعرفون أنّني رجلٌ إلهنه الوحيدة هي الحقيقة. نحن في المكسيك سرعان ما نُبْهَرُ بسهولة مرعبة. شخصياً يقف شعر رأسي حين أرى أو

أسمع أو أقرأ في الصحافة بعض الصفات، بعض المدائح التي تبدو وكأنّها خرجت من قبيلة من القردة الهائجة، وما من علاج، هكذا نحن والمرء يعتادُ مع السنين، قال الأستاذ غارثيّا كورّيا. أن تكون عالمَ جريمة في هذا البلد مثل أن تكون عالم تشفير في القطب الشمالي. مثل أن تكون طفلاً في ممرٍ غلمانيين، مثل أن يكون ثرثاراً في بلدٍ من الصمّ. مثل أن تكون واقياً ذكريا في مملكة الأمازونات، قال الأستاذ غارثيّا كوريّا. إذا أهانوك تعتاد. إذا نظروا إليك من فوق أكتافهم تعتاد. إذا اختفى ما وفّرته، ما وفّرته طيلة حياتك وكنت تخبّئه كي تتقاعد، تعتاد، إذا نصبَ عليك ابنك، تعتاد. إذا كان عليك أن تستمرّ في العمل، في الوقت الذي يجب عليك أن تتقاعد قانونياً كي تُكرّس نفسك لما يحلو لك، تعتاد. وإذا ما خفّضوا، فوق ذلك، راتبك تعتاد. إذا كان عليك كي تُكمل راتبك أن تعمل لصالح محامين فاسدين ورجال تحرٍّ فاسدين، تعتاد، لكن من الأفضل ألا تضعوا هذا في مقالاتكم، أيّها الفتيةُ، وإلا فسأكون قد قامرتُ بمنصبي، قال الأستاذ غارثيّا كورّيا. السيّد ألبِرت كيسلير، كما سبق وقلتُ لكم، باحث ذو مكانة رفيعة. بحسب ما فهمتُ يعمل على الحواسيب. عمل مهمّ. أيضاً يعمل مُستشاراً ومساعداً في بعض أفلام العنف. أنا لم أرَ أيّاً منها، لأنّني منذ زمن طويل لم أذهب إلى السينما وقمامة هوليوود لا تُسبّب لي إلا الضجر. لكن بحسب ما قاله لي حفيدي، هي أفلام لطيفة ينتصر فيها الطيبون دائماً، قال الأستاذ غارثيّا كورّيا.

الاسم، قال الصحفيّ. أنطونيو أوربِ، قال هاس. بقي الصحفيون ينظر بعضُهم إلى بعض لحظة، فربّما يعرف بعضهم هذا الاسم، لكنّ الجميع هزّوا أكتافهم. أنطونيو أوربِ، قال هاس، هذا هو اسم قاتل نساء سانتا تِرِسا. ثم أضاف بعد صمتٍ: وفي محيطها. وفي محيطها؟ سأل أحدُ الصحفين. قاتل سانتا تِرِسا، قال هاس وأيضاً

قاتل النساء اللواتي ظهرن في محيط المدينة. وأنت، هل تعرف هذا المدعو أوربِ؟ سأله أحدُ الصحفيين. رأيتُه مرّةً واحدة، مرّةً واحدة، قال هاس. أخذ بعدها نَفَساً، كما لو أنّه يستعدّ ليحكي قصّة طويلة، فاستغلّ تشوي بيمتِل ذلك ليلتقط صورة. يظهر فيها هاس، بتأثير الضوء والوضعية، أكثر نحولاً مما هو بكثير، وأطول عنقاً، كعنق ديك روميّ، لكن ليس أيّ ديك رومي، بل ديك رومي صادح، أو أنّه كان في تلك اللحظة يستعد ليرفع صدحه، ليس فقط ليصدح، بل ليرفع صدحه، وصدحه حاد وصارّ، صدح بلورٍ مطحون لكنّه يحتوي على ذكرى زجاج بعيدة، إي على نقاء، طاقةٍ، انعدامٍ تام للازدواجية.

في السابع من تشرين الأوّل عُثِرَ، على بعد ثلاثين متراً بين جنباتٍ متاخمة لملعب كرة قاعدة، على جثّة امرأة بين الرابعة عشرة والسابعة عشرة من عمرها. ظهرت على الجثة علامات تعذيب واضحة مع كدمات عديدة في الذراعين والصدر والساقين، وكذلك جروح حادة بسلاح أبيض (تسلّى أحد رجال الشرطة بِعَدِّها وملَّ حين وصل إلى الجرح رقم خمسة وثلاثين)، ومع ذلك ما من واحد منها آذى أو نفذ إلى أيّ جهاز حيوي. لم تكن الضحية تحمل أوراقاً تُسهِّلُ معرفة هويّتها. كان سبب الموت، بحسب الطبيب الشرعي، هو الخنق. ظهرت على حلمة الثدي الأيسر علامات عضٍّ وكانت شبه مقتلعة، تبقي عليها عالقةً بعضُ الغضاريف فقط. معلومة أخرى سهّلها الطبيبُ الشرعي: الضحية لديها ساق أقصر من أخرى، وهو ما جعلهم يُفكّرون في البداية أنّ هذا سيسهل معرفة هويتها، الأمر الذي جاء بالنتيجة باطلاً، إذ ما من واحدة أُبلِغَ عن اختفائها في مخافر سانتا تِرِسا تنطبق عليها هذه المواصفات. يوم العثور على الجثّة، التي عثر عليها مجموعة من المراهقين لاعبي كرة قاعدة، حضر إلى مكان الحادث إيفانيو ولالو كورا. كان المكانُ مليئاً برجال الشرطة. كان هناك بعضُ المُحقّقين،

بعضُ رجال شرطة البلدية، أعضاءُ من الشرطة العلمية، من الصليب الأحمر ومن الصحفيين. تمشّى إيبفانيو ولالو كور في المكان حتى وصلا إلى المكان الذي تجثم في الجثّة تماماً. لم تكن قصيرة. كانت تبلغ متراً وثمانية وستين سنتيمتراً على الأقل. كانت عارية إلا من بلوزة مليئة ببقع الدم والتراب وحمالة صدر بيضاء. حين ابتعدا عن المكان سأل إيبفانيو لالو كورا كيف بدت له. مَنْ، المقتولة؟، سأله لالو. لا، منطقة الجريمة، قال إيبفانيو وهو يُشعِلُ سيجارةً. لا يوجد منطقة جريمة، قال لالو. لقد نظّفوها عن وعي. أدار إيبفانيو محرّك السيّارة. عن وعي لا، قال، كأوغاد، لكن بالنسبة للحالة لا فرق. نظفوها.

كان عام ١٩٩٧ عاماً جيّداً بالنسبة إلى ألبرت كيسلير. فقد أعطى محاضرات في فيرجينيا، ألاباما، في كنتاكي، في مونتانا، في كاليفورنيا، في أوريغون، في إنديانا، في ماين، في فلوريدا. كان قد طاف على جامعاتٍ وتكلّم مع طلاّب قدامى، صاروا الآن أساتذة وعندهم أبناء كبار، بل إنّ بعضهم متزوّج، وهو ما لم يكن يكف عن إدهاشه. سافر إلى باريس (فرنسا)، إلى لندن (إنكلترا)، إلى روما (إيطاليا)، حيث كان اسمه معروفاً، وحيث كان الحاضرون يأتون إلى محاضراته ومعهم كتابه المترجم إلى الفرنسية، إلى الإيطالية، إلى الألمانية، إلى الإسبانية، كي يوقع لهم عليه ويكتب جملة ودية أو جملة ساذجة، الشيء الذي كان يقوم به بكل رحابة صدر. سافر إلى موسكو (روسيا) إلى سان بطرسبرغ (روسيا)، وإلى وارسو (بولونيا)، ودعوه للذهاب إلى أماكن أخرى كثيرة مما يسمح لنا بأن نتصوّر أنّ عام ١٩٩٨ سيكون مثل هذا عاماً كثير الحركة. العالم في الحقيقة صغير، كان ألبرت كيسلير يُفكّر أحياناً، خاصّة حين كان يُسافر في الطائرة، في مقعدٍ في الدرجة الأولى، أو درجة رجال الأعمال وينسى للحظات المحاضرة التي سوف يلقيها في تالاهاسي أو أماريلو أو في

نيو بيدفورد ويتفرّغ للنظر إلى تشكيلات الغيوم المزاجيّة. لم يكن يحلم تقريباً بالقتلة. كان قد عرف الكثيرين منهم وتابع آثار عدد أكثر منهم بكثير، لكنّه نادراً ما حلم بواحدٍ منهم. في الحقيقة قليلاً ما كان يحلم، أو أنّه كان محظوظاً بنسيان الأحلام لحظةَ استيقاظه بالضبط. عادةً ما كانت زوجته، التي كان يعيش معها منذ أكثر من ثلاثين سنة، تتذكّر أحلامها، وكانت أحياناً حين يمرّ ألبرت كيسلير بالبيت تحكيها له في أثناء تناولهما للفطور معاً. كانا يشغلان المذياع، على برنامج موسيقى كلاسيكية ويتناولان القهوة وعصير البرتقال والخبز المجمّد، الذي تضعه زوجته في المايكرويف فيصير لذيذاً، هشّاً، أفضل من أيّ خبز آخر أكَلَهُ في أيّ مكان آخر. بينما كان يدهن الخبز بالزبدة كانت زوجته تحكي له ما حلمت به في تلك الليلة، دائماً بأبناء أسرتها تقريباً، الميتين جميعهم تقريباً، أو بأصدقاء للاثنين لم يلتقيا بهم منذ زمن طويل. كانت زوجته تدخل بعدها إلى الحمّام وألبرت كيسلير يخرج إلى الحديقة ويتأمّلُ أفقَ الأسطحِ الحمراء، الرمادية، الصفراء، الأرصفةَ النظيفة والمُنظّمة، سيارات آخِر الموديلات التي يصفُّها أبناء جيرانهم الصغار على الطرق الرملية وليس في المرآب. كانوا في الحيّ يعرفونه ويحترمونه. وإذا ما ظهر رجل بينما هو في الحديقة فإنّه يرفع يده قبل أن يدخل في السيارة وينطلق ويقول له: صباح الخير، يا سيّد كيسلير. جميعهم كانوا أصغر عمراً منه، لم يكونوا شباباً جدّاً، كانوا أطباء وموظفين تنفيذيين متوسطي المرتبة، مهنيين يكسبون عيشهم بالعمل القاسي ويحاولون ألاّ يؤذوا أحداً، وإن كان لا يمكن للمرء أن يعرف هذا الموضوع الأخير معرفة يقينية. جميعهم تقريباً كانوا متزوّجين وعندهم ولد أو ولدان. كانوا يُنَظّمون أحياناً حفلات شواء في الحدائق، بجانب المسبح، وذهبَ مرّة إلى إحداها لأنّ زوجته رجته وشرب نصفَ زجاجةِ بيرةٍ بود وكأسَ وسكي. لم يكن يعيش في الحيّ أيّ شرطيّ والوحيد الذي كان يبدو صاحياً هو مدرّس جامعي،

وهو شخص أصلع وطويل، كان بالنتيجة أحمق، لا يعرف أن يتكلّم إلاّ عن الرياضة. أفضل من يكون مع شرطيّ أو شرطيّ سابق، كان يُفكِّر أحياناً، هي امرأة أو شرطيّ آخر من مستواه. في حالته كان الثاني صحيحاً. منذ زمن لم تعُدْ تهمُّهُ النساء، ما لم يكنَّ شُرَطيّات ويعملن في تحقيقات جرائم القتل. نصحه ذات مرّة زميلٌ يابانيّ أن يُكرّس لحظاتِ فراغه للحديقة. كان الرجل شرطيّاً متقاعداً مثله، وكان خلال مرحلةٍ، أو هذا ما كانوا يقولونه، أسَّ فرقةٍ مكافحةِ الجريمة في أوساكا. عمل بنصيحته، وعند عودته قال لزوجته أن تصرفَ الجنائنيّ، فهو بدءاً من تلك اللحظة سيهتمُّ بالحديقة شخصيّاً. طبعاً لم يتأخّر في تخريب كلّ شيء وعاد الجنائنيّ. لماذا حاولت أن أشفي، ومن خلال العمل في الحديقة، توتراً لا أعاني منه؟ سأل نفسه. حين كان يعودُ أحياناً بعد عشرين أو ثلاثين يوماً من جولة مُرَوِّجٌ فيها لكتابٍ أو مُساعداً لكُتّابٍ بوليسيين ومخرجي أفلام تشويق، أو ملبياً دعوة من جامعاتٍ أو أقسامِ شرطةٍ كانت عالقةً في جريمة قتل لا حلّ لها، كان يتأمّل زوجته ويتولد عنده انطباع غامضٌ بأنّه لا يعرفها. لكنّه كان يعرفها، هذا ما لم يكن عنده فيه أدنى شك. ربّما كانت طريقتها في المشي والتحرّكِ في البيت، أو طريقتها بدعوته للذهاب في المساءات، مع حلول الليل، إلى السوبر ماركت الذي كانت تذهب إليه دائماً، لتشتري الخبز المجمَّدَ الذي يأكلانه في الصباحات ويبدو كأنّه خرج توّاً من فرنٍ أوروبّي، وليس من ميكروويف أمريكي شمالي. كانا يتوقّفان أحياناً بعد الشراء، ومع كلّ منهما عربته أمام مكتبة حيث توجد طبعة جيب لكتابه. كانت زوجته تُشير إليه بسبابتها وتقول له: ما يزال هنا، فيهزّ رأسه بالطريقة ذاتها دائماً، ثمّ يتابعان النظرَ بفضول إلى الأشياء في حوانيت المول. هل كان يعرفها أم لم يكن يعرفها؟ كان يعرفها، طبعاً، لكن فقط كان يبدو له أنّ الواقعَ، الواقعَ الصغيرَ الذي يفيد كمرسى للواقع، يفقد ملامحه، كما لو أنّ مرورَ الزمن يمارس

تأثيرَ الخلايا على الأشياء، ويخرب ويجعلُ ما هو بطبيعتهِ خفيفٌ ومُرْضٍ وحقيقيّ أخفّ .

رأيتُهُ مرّةً واحدةً فقط، قال هاس. حدث هذا في مرقصٍ أو في مكان بدا مرقصاً، لكنّ ربّما لم يكن غيرَ بارٍ موسيقاه عالية جدّاً. كنتُ مع بعض الأصدقاء والزبائن. هناك كان هذا الشابّ، جالساً إلى طاولة، مع ناس معروفين من قبل بعض من كانوا معي. إلى جانبه كان ابن عمّه دانييل أوريبِ. قدّموهما لي. بدوَا شابّين حسني التربية، كلاهما كان يتكلّم الإنكليزية ويلبس كما لو أنّه مُزارع، لكن كان واضحاً أنّهما لم يكونا مزارعين. كانا قويّين، وطويلين، أنطونيو أوريبِ أطول من ابن عمّه، كان يُلاحظ أنّهما يذهبان إلى التربية البدنية ويرفعان أثقالاً ويعتنيان بجسميهما. كذلك كان يُلاحظ أنّ المظهر يهمّهما. لحيتاهما لم تُحلقا منذ ثلاثة أيّام، لكنّ رائحتهما كانت طيّبة، قصّة الشعر كانت مناسبة، القميصان نظيفان، البنطلونان نظيفان، جميعها من ماركات تجارية، الجزمتان، جزمتا مزارعين لامعتان، وربّما كانت ثيابهما الداخلية نظيفة وكانت أيضاً من ماركات تجارية، بكلمة واحدة كانا شابّين حديثين. تكلّمتُ برهة معهما (في أشياء غير ذات أهمّية، أشياء يتكلّم المرء عنها ويسمعها في مثل ذلك المكان والتي يمكن القول بأنها أشياء تتعلق بالرجال: سيارات جديدة، دي في دي، أقراص صلبة، أقراص أغانٍ رانتشيرية، باولينا روبيو، وأغان ناركوكوريّدوس، هذه الزنجية، التي لا أتذكّر اسمها، ويتني هوستون؟، لا، ليست هذه، لانا جونس؟ أيضاً لا، زنجية لا أتذكّر اسمها الآن)، شربتُ كأساً معهما ومع البقية، وخرجنا بعدها جميعنا من المرقص، لا أتذكّر السبب، جميعنا فجأة إلى الخارج وهناك في الليل لم أعد أرى الشابين أوريبّ كانت المرّة الوحيدة التي رأيتهما فيها، لكنهما كانا هما، أدخلني بعدها أحد أصدقائي في سيارته وخرجنا من هناك كما لو أنّ قنبلة ستنفجر.

في العاشر من تشرين الأوّل، عُثِرَ بالقرب من ملاعبِ كرةِ قدم بِمِكسْ، بين الطريق إلى كانانيا والسكّة الحديدية، على جثّة لِتيثيا بورّغو غارثيّا، كان عمرها ثمانية عشر عاماً، شبه مطمورة وفي مرحلة تفسّخ متقدّمة. كان جسدها ملفوفاً في كيس بلاستيكي صناعي ويعود سبب الموت، بحسب تقرير الطب الشرعي، إلى الخنق وكسرٍ في العظم اللامي. تعرّفت الأمُّ، التي كانت قد أبلغت عن اختفاء ابنتها قبل شهر، على الجثّة. لماذا أزعجَ القاتلُ نفسه وحفر حفرةً صغيرة وتظاهر بأنّه كان سيقبرها؟، تساءل لالو كورا، بينما هو يبحث في المكان، لماذا لم يرمِ بها على جانب الطريق إلى كانانيا مباشرة أو بين أنقاض مستودعات القطار القديمة؟ هل يعني أنّ القاتل لم ينتبه إلى أنّه يترك جثّةَ ضحيتِهِ بجانب ملاعب كرة قدم؟ بقي لالو كورا واقفاً يتأمّل المكانَ الذي عثروا فيه على الجثّة برهة إلى أن طردوه . ما كانت الحفرة لتتسع إلا بصعوبة لجسدِ طفلة أو كلب، فكيف لجسدِ امرأة. ترى هل كان الأمر يتعلّق بقاتلٍ مستعجل للتخلّص من ضحيَّته؟ هل كان الوقت ليلاً ولم يكن يعرف المكان؟

في الليلة السابقة على وصول الباحث ألبِرت كيسلير إلى سانتا تِرسا، وفي الرابعة صباحاً تلقى سِرخيو غونثالِث رودريغِثْ مكالمة هاتفية من أثوثِنا إسكيبِل بلاتا، الصحفية ونائبة الحزب الثوري الدستوري. حين ردّ على الهاتف، خائفاً من أن يكون أحد أفراد عائلته يهتف له ليُبلِغه بحادثٍ، سمع صوتَ امرأة، خشناً وأمّاراً ومتسلطاً، صوتاً غير معتاد على الاعتذار ولا على أن يتلقى أعذاراً. سأله الصوت عمّا إذا كان وحده. قال سِرخيو إنّه كان نائماً. لكن هل أنت وحدك، يا ولد، أم لست وحدك؟، قال الصوت. في تلك اللحظة عرفتْها أذنُهُ أو ذاكرتُهُ السمعية. لا يمكن أن تكون غير أثوثِنا إسكيبِل بلاتا. ماريّا فِليكس السياسةِ المكسيكية، الأكثر والأكثر، دولورِس دِل ريّ الحزبِ

الثوري الدستوري، تونغولِلِ شَبَقِ بعض النوّاب وجميع الصحفيين السياسيين الذين تجاوزوا الخمسين من أعمارهم تقريباً والأقرب إلى الستين، الذين كانوا يغوصون مثل تماسيح في المستنقع، عقليّاً أكثر مما واقعياً، مُداراً، بعضهم يقولون مخترعاً من قبل أثوثِنا إسكيبِلْ بلاتا. أنا وحدي. وبالمنامة أيضاً، هل أخطئ؟ لا، لا تُخطئين. إذن ارتدِ ملابسك وانزل إلى الشارع، فأنا سأذهب في طلبك خلال عشر دقائق.
في الحقيقة لم يكن سِرخيو في المنامة، لكن بدا له من غير اللائق كثيراً أن يناقضها منذ البداية، وهكذا ارتدى بنطلون جينز، وجوربين وكنزة ونزل إلى عتبة باب بنائه. رأى أمام الباب سيارة مرسيدس مُطفأةَ الأضواء. أيضاً رأوه من سيارة المرسيدس، فقد فتح باب خلفي وأومأت له بيدٍ في أصابعها خواتم بأن يصعد. في زاوية من المقعد الخلفي مدثرة ببطانية اسكتلندية كانت النائبة إثوثِنا إسكيبِل بلاتا، الأكثر -الأكثر، غطّت عينيها، بالرغم من ظلمة الليل، كما لو أنّها ابنة فيدل بِلانكِتْ بنظارةٍ سوداء، عريضة الشاشتين الواسعتين وسوداء الإطار، شبيهةٍ بتلك التي كان يستخدمها ستيفي وندير ويستخدمها عادة بعضُ العميان كي لا يَرى بعضُ الفضوليين كرات عيونهم الجوفاء.

طار أولاً إلى توكسون ومن توكسون أخذ طائرة صغيرة تركته في مطار سانتا تِرِسا. علّق نائب محكمة ولاية سونورا قائلاً له، إنّهم بعد وقت قصير، سنة أو ربّما سنة ونصف، سوف يبدؤون ببناء مطار سانتا تِرِسا الجديد، الذي سيكون كبيراً بما يكفي كي تهبط فيه طائرات بوينغ . رحّب به عمدة المدينة، وبينما كان يعبر مراقبة الجمارك بدأ مارياتشي يعزف على شرفه ويُغنّي أغنية يُذْكَر أو ظنّ أنّه يُذكر فيها اسمه. فضّل ألا يسأل شيئاً وابتسم. أبعد عمدة المدينة موظّف الجمارك الذي كان يختم جوازات السفر وختم بنفسه جوازَ سفر الضيف البارز. في اللحظة التي وضع فيها الختمَ على جواز سفر كيسلير اتخذ وضعية التخشب التام،

رافعاً الخاتم، راسماً الابتسامة المنحوتة من أذن إلى أذن كي يستطيع المصوّرون المجتمعون أن يُصوروه براحة تامّة. أطلق نائب محكمة الولاية مزحة فضحك الجميع باستثناء موظّف الجمارك، الذي بدا من تعبير وجه أنّه غير سعيد. صعد الجميع بعدها إلى قافلة من السيارات واتجهوا إلى مجلس المدينة، حيث بدأ عضو مكتب التحقيقات الفيدرالية السابق مؤتمرَهُ الصحفيَّ الأوّل في صالة النشاطات. سألوه عمّا إذا كان قد أصبح بين يديه ملف أو ما يشبه ملفّ جرائمِ قتل النساء في سانتا تِرِسا. سألوه عمّا إذا كان حقيقة أنّ تيري فوكس، بطل فيلم *العيون الملطخة*، كان في الحياة الواقعية مضطرباً عقلياً كما صرّحت زوجتُهُ الثالثة قبل أن تطلّقه. سألوه عمّا إذا سبق وزار المكسيك، وعمّا إذا كانت، في حال كان الجواب بالإيجاب، تعجبه. سألوه هل حقّاً أنّ ر. هـ. ديفيس، الروائي الذي كتب *العيون الملطخة* و*القاتل بين الأطفال* و*الاسم المُشفّر*، كان غير قادر على النوم والأضواء مطفأة في بيته. سألوه هل حقيقة أنّ راي سمويلسون، مخرج *العيون الملطخة* منعَ ديفيس من الدخول إلى المكان الذي كان يُصوّر فيه الفيلم. سألوه عمّا إذا كان ممكناً أن يحدثَ في الولايات المتحدة القتلُ على التسلسل، كالذي يحدث في سانتا تِرِسا. لا تعليق، قال كيسلير ثم حيّا الصحفيّين بحركاتٍ مدروسة، شكرهم وذهب في طريقه إلى فندقه، حيث حجزوا له أفضل جناح، لم يكن الجناح الرئاسي أو الجناح الزوجي، كما يحدث في جميع الفنادق، بل جناح الصحراء، لأنّ صحراء سونورا كان تُرى بكلّ عظمتها ووحشتها من شرفته، التي كانت تُطلّ على الجنوب.

إنّهم من سونورا، قال هاس، لكنّهم أيضاً من أريزونا. وهذا كيف يؤكل؟، سأل أحدُ الصحفيين. هم مكسيكيون، لكنّهم أيضاً أمريكيون شماليون، يحملون الجنسيتين. وهل توجد الجنسية المزدوجة بين

المكسيكيين والأمريكيين الشماليين؟ قالت المُحامية نعم دون أن ترفع رأسها. وأين يعيشون؟، سأل أحدُ الصحفيين؟ في سانتا تِرِسا، لكن أيضاً لهم بيوتهم في فونيكس. أوريبِ، قال أحد الصحفيين، كأنّني أعرف هذا الاسم. بلى، وأنا أيضاً، قال صحفيٌّ آخر. ألا يوجد قرابة بينهم وبين أوريبِ هِرموسيّو؟ أيّ أوريبِ منهم؟ هذا الولد، ولد هِرموسيّو الأحمق، قال صحفيُّ *إل سونورِنْس*، وَلَدُ النقل البرّي. ولد أسطول الشاحنات. صوَّر تشوي بيمِنتِل في تلك اللحظة الصحفيّين. شباب، سيّئو اللباس، بعضهم له وجه من يبيع نفسه لأفضل مشتر في المزاد، فتية عاملون عليهم مظهرُ النعاس ومن قضى ليلة سيّئة، ينظر بعضهم إلى بعض ويبدؤون بتشغيل نوع من الذاكرة المشتركة، بما في ذلك مراسل *لا راثا دِ غرين فالي*، الذي كان يبدو مياوماً أكثر مما هو صحفيّ، يفهم وينغمس بفعالية في ممارسة التذكُّر، في المساهمة بدرجة أخرى في تعريف اللوحة. إوربِ دِ هِرموسيّو، أوربِ أسطول الشاحنات. ما اسمه؟ بِدرو أوربِ؟ رافائيل أوربِ؟ بِدرو أوربِ، قال هاس. هل له علاقة بأوربِ هذه القصّة؟ هو أبو أنطونيو أوربِ، قال هاس. ثمّ قال: بِدرو إوريبِ يملك أكثر من مئة شاحنة نقل. ينقل بضائعَ عددٍ من المعامل، من سانتا تِرِسا كما من هِرموسيّو. شاحناته تعبر الحدودَ كلَّ ساعة أو كلَّ نصفِ ساعة. أيضاً عنده أملاك في فونيكس وتوكسون. أخوه خواكين أوريبِ، يملك عدّة فنادق في سونورا وسينالْوَا وسلسلة من المقاهي في سانتا تِرِسا. هو أبو دانييل، كلاهما متزوّج من أمريكية شمالية. أنطونيو ودانييل الأخوان الأكبران. أنطونيو عنده أختان وأخ. دانييل ابن وجيد. كان أنطونيو يعمل سابقاً في مكاتبِ والده في هِرموسيّو، لكنّهُ منذ زمن لا يعمل في أيّ مكان. دانييل كان دائماً النعجة الضالة. كلاهما كان محمِيّاً من تاجر المخدرات فابيو إثكيبردو، الذي يعمل بدوره لصالح إستانيسلاو كامبوثانو. يُقال إنّ إستانيسلاو كامبوثانو كان إشبين أنطونيو في العماد.

أصدقاؤهما أبناء ملياديريين، مثلهما، لكنّهما أيضاً أصدقاء رجال شرطة وتجار مخدراتٍ في سانتا تِرِسا. هناك حيث يذهبان ينفقان المال بأيدٍ مفتوحة. هما مرتكبا القتل على التسلسل في سانتا تِرِسا.

في العاشر من تشرين الأوّل، في اليوم ذاته الذي عُثِر فيه على جثّة لِتيثيا بورِّغو غارثيّا بالقرب من ملاعب كرة قدم بِمِكس، عُثِرَ على جثّة لوثيّا دومينغِث روَا في ضاحية هيدالغو، على رصيف من شارع برسِفونِ، قالوا في تقرير الشرطة الأوّلي إنّ لوثيّا كانت تُمارس الدعارة وتتعاطى المُخدرات ومن المحتمل أنّ سبب موتها هي جرعة زائدة. ومع ذلك فقد اختلف تصريحُ الشرطة في اليوم التالي اختلافاً واضحاً. قيل وقتها إنّ لوثيّا رودريغِثْ روَا كانت تعمل كنادلة في بار في ضاحية مكسيكو وإنّ موتها تسببّت به طلقة في بطنها، بحشوة عيار ٤٤، من المحتمل أنّها طلقة من مسدّس. لم يكن هناك شهود على القتل ولم يكن يُسْتَبْعَد أنّ القاتل أطلق النارَ من داخل سيارة سائرة. كما لم يُستبعد أن تكون الطلقة قد سُدّدت على شخص آخر. كانت لوثيّا رودريغِثْ روَا في الثالثة والثلاثين من عمرها، منفصلة عن زوجها وتعيش وحدها في غرفة في ضاحية مكسيكو. لم يعرف أحد ماذا كانت تعمل في ضاحية هيدالغو، ومن المحتمل، بحسب الشرطة، أنّها كانت تتنزّه وأنّها التقت بالموت بمحض المصادفة.

دخلت المرسيدس في ضاحية تلالْبان، دارت عدّة دوراتٍ وسلكت في النهاية شارعاً مبلطاً، مليئاً بالحواجز وينير القمر بيوته التي تبدو مهجورة أو مدمَّرة. بقيت أثوثِنا إسكيبِل بلاتا طوال الطريق صامتة، تُدخّنُ مُتدثّرة ببطانيتها الاسكتلندية بينما راح سِرخيو ينظر من النافذة. كان بيت النائبة كبيراً، من طابق واحدٍ، فيه فناءات كانت تدخل إليها سابقاً عرباتٌ، وفيه إسطبلات وأحواض منحوتة في الحجر مباشرة

لشرب خيولها. تبعها إلى صالةٍ علّقت فيها لوحة لتامايو وأخرى لأوروثكو. لوحة تامايو كانت حمراء وخضراء. لوحة أوروثكو سوداء ورمادية. جدران الصالة ناصعة البياض، تستحضر بطريقة ما مشفى خاصّاً أو موتاً. سألته النائبةُ ما الذي يُريد أن يشربه. قال سِرخيو قهوة. قهوة وتِكيلا، قالت النائبة دون أن ترفع صوتها، فقط كما لو أنّها تُعَبّر عمّا كانا يريدان أن يشرباه في تلك الساعات من الفجر. نظر سِرخيو إلى الخلف، ليرى ما إذا كان هناك خادم ما، لكنّه لم يرَ أحداً. ومع ذلك ظهرت بعد دقائق قليلة امرأةٌ متوسّطة العمر، من جيل النائبة تقريباً، لكنّ العملَ والسنينَ أهرماها أكثر منها، ومعها كأس تِكيلا وفنجان قهوة يتصاعد منه البخار. كانت القهوة رائعة، هكذا قال سِرخيو لمُضيفتِهِ. ضحكت أثوثِنا إسكيبِل بلاتا (في الحقيقة فقط كشفت عن أسنانها وتركت صوتَ طائرٍ ليليّ يُقلّد الضحكةَ يَفْلت منها) وقالت له إذا ما جرّب التِكيلا التي عندها وقتها سيعرف فعلاً ما هو الطيّبُ. لكن لندخل فيما يخصّنا، قالت دون أن ترفع عن عينيها النظارةَ السوداء الهائلة. هل سمعتهم يتكلّمون عن كيلي رِيبِرا باركِر؟ لا، قال سِرخيو. كنتُ أخشى ذلك، قالت النائبة. وعنّي هل سمعتهم يتكلّمون؟ طبعاً، قال سِرخيو. لكن ليس عن كيلي؟ لا، قال سِرخيو. هكذا هو هذا البلدُ العاهر، قالت أثوثِنا، ولزمت الصمتَ بضعَ دقائق، ناظرةً إلى كأس التِكيلا الذي يخترقه نور مصباح طاولة، أو ناظرةً إلى الأرض أو مغمضة العينين، لأنّها تستطيع أن تفعل كلّ ذلك وأكثر تحت حصانة نظارتها. أنا أعرف كيلي منذ كنّا فتيّتين، قالت النائبةُ كما لو أنّها تتكلّم في حلم. لم تَرُقْ لي في البداية، أظنّ أنّها كانت مُتكلّفة أكثر من اللازم، أو هكذا كنتُ أظنّ وقتها. كان والدها مُهندساً معمارياً ويعمل لصالح أثرياء المدينة الجدد. كانت أمّها أمريكية شمالية تعرّف عليها الأبُ حين كان يدرسُ في هارفارد أو في ييل، في واحدة منهما. طبعاً لم يذهب إلى هناك، أقصدُ الأبَ، مرسلاً من أبويه، جدَّي كيلي، بل

ذهب بفضل منحة من الحكومة. أعتقد أنّه كان كطالبٍ جيّداً بما يكفي، أليس كذلك؟ أكيد، قال سِرخيو حين رأى أنّ الصمت راح يسود روحَ النائبة. كطالب هندسة معمارية كان جيّداً، نعم، لكنّه كمعماريّ كان خراء. هل تعرف بيت إليثوندو؟ لا، قال سِرخيو. إنّه في كويواكان، قالت النائبة. إنّه بيت مربع. بناه والد كيلي. لا أعرفه، قال سِرخيو. يعيش هناك الآن منتج سينمائيّ، سكيّر يابس الرأس، شخص منتهٍ ما عاد ينتج أفلاماً. هزّ سِرخيو كتفيه. سيعثرون عليه في أيّ يوم ميتاً وسيبيع أحفاده بيتَ إليثوندو لشركة بناء ليشيدوا هناك بناءَ شقق. في الحقيقة في كلّ مرّة هناك آثار عمارة أقل تدلّ على مرور ريبِرا في العالم. كم هو عاهر وفاقد للمناعة هذا الواقع، ألا تعتقد ذلك؟ وافق سِرخيو هازّاً رأسه، ثم قال نعم، هكذا كان. المعماري ريبِرا، المعماري ريبِرا. قالت النائبة. ثم قالت بعد لحظة صمت: كانت الأمّ امرأة وسيمة جدّاً، حسناء كانت الكلمة، حسناء جدّاً. السيّدة باركِر. امرأة حديثة وحسناء وبالمناسبة كان المعماري ريبِرا يُعاملها كملكة، وكان من الأفضل له أنّ يفعل ذلك، لأنّ الرجال كانوا يُجَنّون بها حين يرونها ولو أنّها أرادت أن تترك المعماريّ، لما كانت لتنقصها حظوظ حسنة. الصحيح هو أنّها لم تتخلّ عنه أبداً، مع أنّهم كانوا يتكلّمون أحياناً، حين كنتُ صغيرةً، عن أنّ جنرالاً وسياسيّاً كانا يُراودانها من نفسها وأنّها لم تكن تنظر بعين السوء إلى مغازلتهما لها. أنت تعرف كيف هم الناس سيّئو التفكير. لكن يبدو أنّها كانت تُحبّ ريبِرا، فهي لم تتركه قط. لم ينجبا غير ابنة واحدة، كيلي، التي تُدعى في الحقيقة لوث ماريّا، مثل جدّتها. حبلت باركِر أكثر من مرّة، طبعاً، لكنّها كانت تجد صعوبات في الحمل. أظنّ أنَّ شيئاً ما كان يحدث في رحمها، ربّما لم يكن هذا الرحم يتحمّل مزيداً من الأبناء المكسيكيين وكانت تجهض بشكل طبيعي. يمكن ذلك. أشياء أكثر غرابة من ذلك حدثت. الصحيح هو أنّ كيلي كانت ابنة وحيدة. وهذه الكارثة أو هذا الحظّ طبع حياتها

بطابعه. فمن ناحية كانت أو كانت يبدو مُدلّعة، ابنة الوصولي النمطيّة، ومن ناحية أخرى كانت لها شخصيّتها، القويّة جدّاً منذ صغرها، شديدة العزيمة، شخصية، أجرؤ على القول بأنّها أصيلة. الصحيح هو أنّها لم تقع عندي في البداية موقعاً حسناً وبعدها حين رحتُ أعرفها، حين دعتني إلى بيتها ودعوتها إلى بيتي، رحتُ أستلطفها في كلّ مرّة أكثر، إلى أن تحوّلنا إلى صديقتين لا تنفصلان. عادة ما تَسِمُ هذه الأشياء المرءَ بميسمها، قالت النائبة كما لو أنّها تبصق في وجه رجل أو شبح. أتصوّر ذلك، قال سِرخيو. ألا تريد فنجان قهوة آخر؟

خرج كيسلير من الفندقِ في اليوم ذاته الذي وصل فيه إلى سانتا تِرِسا. نزل أوّلاً إلى اللوبي. تكلّم مع عامل الاستقبال برهةً، سأله عن حواسيب الفندق ووصلات الانترنيت، ثمّ ذهب إلى البار، حيث شرب كأسَ ويسكي، ترك نصفه بعد أن نهض ودخل إلى المغاسل. حين خرج بدا أنّه غسل وجهه ولم ينظر إلى أحدٍ ممن كانوا على طاولات البار أو جالسين على الأرائك وتوجّه إلى المطعم. طلب صحن سلطة ثِسار وخبز قالب أسود وزبدة وبيرة. نهض بينما كان ينتظر الطعام وأجرى مكالمةً هاتفية من الجهاز الموجود في مدخل المطعم. عاد بعدها وجلس وأخرج من أحدِ جيوب سترته قاموساً إنكليزياً-إسبانيّاً وراح يبحث عن بعض الكلمات. وضع بعدها نادلٌ السلطةَ على الطاولة وشرب كيسلير عدّة رشفات من البيرة المكسيكية ودهن قطعة خبزٍ بالزبدة. عاد ونهض وتوجّه إلى الحمّام. لكنّه لم يدخل بل انعطف بعد أن أعطى المكلَّف بنظافة مغاسل المطعم دولاراً وتبادل معه بعض الكلمات بالإنكليزية، نحو ممرّ جانبيّ وفتح باباً وعبر ممرّاً آخر. ظهرت بعدها مطابخ الفندق، التي كانت تطفو فيها سحابة مُشبَعَةٌ برائحة البهارات الحارّة واللحم المتبّل، وسأل كيسلير أحد مساعدي الطباخ

مِنْ أين يخرج إلى الشارع. رافقه مساعد الطباخ حتى الباب. أعطاه كيسلير دولاراً وخرج إلى الفناء. كانت تنتظره عند الزاوية سيارة أجرة فصعد. سوف نقوم بجولة في الأحياء الفقيرة، قال له بالإنكليزية. قال السائق أوكي وانطلقا. دامت الجولة قرابة الساعتين. تجولا في مركز المدينة، في ضاحية مادِرو-نورتِ، وفي ضاحية مكسيكو، حتى وصلا إلى الحدود تقريباً، من حيث تُلمح إل أدوبِ، التي هي أرض أمريكية شمالية. عادا بعدها إلى مادِرو-نورتِ ودخلا في شوارع مادِرو وضاحية رِفورما. ليس هذا ما أُريده، قال كيسلير. ما الذي تُريده، يا معلّم؟، قال السائقُ. أحياء فقيرة، منطقة المعامل، مكبّاتِ القمامة السرّية. عاد السائق وعبر ضاحيةَ إل ثِنْترو واتجه نحو ضاحية فِليكس غومِثْ حيث أخذ طريقَ كارّانثا وعَبَرَ ضاحيةَ بِراكروث، ضاحية كارّانثا وضاحية مورِلوسْ، في نهاية الجادّة كان هناك نوعٌ من الساحة أو الفسحة كبيرةِ الأبعاد، كثيفة الصفرة، حيث كانت تتجمّع شاحنات نقل عام وبسطات حيث يبيع الناس ويشترون بدءاً من الخضراوات والدجاج وحتى الخرز. قال كيسلير للسائق أن يتوقّف، فهو يرغب بأن يُلقي نظرةً. قال له السائق يُفضّل ألا تفعل، يا معلّم، فحياة أمريكي شمالي هناك لا تساوي شيئاً كثيراً. هل تظنّني وُلِدتُ البارحة؟ قال كيسلير. لم يفهم السائق معنى العبارة وأصرّ عليه ألا ينزل. توقّفْ هنا، ويحك، قال له كيسلير. توقّف السائقُ وقال له أن يدفع الأجرة. هل تفكّر بأن تذهب؟، قال له كيسلير. لا، قال السائقُ، أنا أنتظرك، لكن لا أحد يضمن لي أنّك ستعود ومعك بعض النقود في جيوبك. راح كيسلير يضحك. كم تُريد؟ يكفي عشرون دولاراً، قال السائقُ. أعطاه كيسلير عشرين دولاراً ونزل من السيارة. بقي برهة يبحث في البسطات المرتجلة ويداه في جيبيه وربطة عنقه مفكوكة. سأل امرأة عجوزاً كانت تبيع أنانساً وشطّةً، إلى أين تذهب هذه الشاحنات، فجميعها كانت تذهب في الاتجاه ذاته.

تعود إلى سانتا تِرِسا، قالت العجوز. وماذا يوجد هنالك؟، سأل بالإسبانية مشيراً بإصبعه إلى الاتجاه المعاكس. المنطقة الصناعية، قالت العجوز. اشترى منها تهذيباً قطعةَ أنانس مع الشطة، رماها على الأرض ما إن ابتعد عن المكان. ها أنت ترى أنّه لم يحدث لي شيء، قال للسائق حين عاد إلى السيارة. هذه معجزة، قال السائق وهو يبتسم في المرآة الأمامية. سنذهب إلى المنطقة الصناعية، قال كيسلير. في نهاية الفسحة، التي كانت تُرابية يتفرّعُ الطريق إلى اتجاهين كانا بدورهما يتفرعان إلى اتجاهين آخرين. كانت الطرقُ الستّة مرصوفة وتصبّ في منطقة أرسِنيو فارّل الصناعية. كانت العنابر الصناعية عالية وكلّ معمل محاط بسياج من الأسلاك والإضاءةُ الساقطة من أعمدة إضاءة قويّة تُغرق كلّ شيء في هالة مقلقة من العجلة، من حدثٍ مهم، وهو ما لم يكن صحيحاً، فقد كان يوم عمل كبقيّة الأيّام. عاد كيسلير ونزل من السيارة، استنشق هواء المعمل، هواءَ العمل في شمال المكسيك. هواء الحافلات التي تأتي بالعمال وتلك التي تذهب بهم من المنطقة. صفع وجهَهُ هواءٌ رطب ونتن، كما لو أنّ هواء زيتٍ محروق صفع وجهه. ظنّ أنّه سمع ضحكاتٍ وموسيقى أكورديون متداخلة مع الريح. إلى الشمال بحر من الأسقفِ المصنوعة من مواد تالفة راح يمتد حتى المنطقة الصناعية. لمحَ إلى الجنوب منها، بعد الأكواخ الضائعة، جزيرةً من نور فعرف على الفور أنّها منطقة صناعية أخرى. سأل السائق عن اسمها. خرج السائق ونظر برهة إلى الاتجاه الذي أشار إليه كيسلير. لا بدّ أنّ هذه منطقة الجنرال سِبولبِدا الصناعية، قال. كان الليلُ قد بدأ يحلُّ. منذ زمن طويل لم يرَ كيسلير غروباً بمثل ذلك الجمال. كانت الألوان تتكدّس في الغروب فذكّره هذا بغروب كان قد شاهده قبل سنوات كثيرة. لم يكن مماثلاً تماماً، لكنه كان مُماثلاً بالنسبة إلى الألوان. كان هناك، تَذَكَّرَ، على الطريق، مع الشريف

ورفيقٍ له من مكتب التحقيقات الفيدرالية وتوقّفت السيارة لحظةً، ربّما لأنّ أحد الثلاثة اضطُرَّ لأن ينزل ليبول وعندها رآه. ألوان حيّة في الغرب، مثل فراشات عملاقة ترقص بينما الليل يتقدّم مثل أعرج في الشرق. هيّا بنا، يا معلّم، قال له سائق سيارة الأجرة. علينا ألا ننخدع كثيراً بالحظّ.

وأنت، ما الأدلة التي تملكها، يا كلاوس، حتى تؤكّد على أنّ أبنا آل أوريبِ هما القاتلان على التسلسل؟، سألت صحفيةُ *إل إندِبَنديينتِ دِ* فونيكس. في السجن كلّ شيء يُعرف، قال هاس. قام بعض الصحفيين بحركات تأكيدٍ. قالت صحفيّةُ فونيكس هذا مستحيل. هذه مجرّد خرافة، يا كلاوس. خرافة ابتدعها السجناء. هذا بديل زائف عن الحرّية. في السجن يعرف المرء القليلَ الذي يصل إلى السجن، ليس أكثر. نظر هاس إليها بحنق. أردتُ أن أقول، قال، في السجن يُعرَفُ كلّ ما يحدث على هامش القانون. هذا ليس حقيقة، يا كلاوس، قالت الصحفيّةُ. بل حقيقة، قال هاس. لا، ليس صحيحاً، قالت الصحفيّة. هذه خرافة مدينية، من اختراع الأفلام. اصطكت أسنان المحامية. صوّرها تشوي بيمِنتِل: شعر أسود، مصبوغ، يُغطي وجهها، حواف أنفٍ معقوف قليلاً، أهداب مخطوطة بقلم. لو أنّ الأمر يتعلّق بها لاختفى فوراً كلُّ من كانوا يحيطون بها، الظلالُ على أطراف الصورة وكذلك تلك الغرفة وسجن سانت تِرِسا، سجّانوه وسجناؤه، جدرانُه المثوية، ولما بقي غيرُ حفرة وفي الحفرة الصمتُ وحده وحضورها الضبابي هي وهاس، مقيَّدَيْن في الهاوية.

في الرابع عشر من تشرين الثاني، على جانب من الطريق الترابي المرصوص، عُثِر على جثّة امرأة أخرى مقتولة. كانت ترتدي قميصاً

أزرق بحرياً طويل الكمّين، وسترة بخطوط شاقولية سوداء وبيضاء، بنطلوناً قطنيّاً ماركة ليفيز، حزاماً عريضاً مشبكُهُ مُلَبَّس بالقطيفة وحذاءً عالي الكعب، وسروالاً داخلياً أسود وحمّالة صدرٍ بيضاء. سبب الموت، بحسب تقرير الطبِّ الشرعي، هو الخنق. كانت تحتفظ حول عنقها بكبل كهربائيٍّ أبيض اللون طوله متر فيه عقدة في وسطه وأربعة مسامير، من المتوقّع أنّه استُخْدِم في خنقها. كما لوحظت آثار عنف خارجية حول العنق، كما لو أنّهم قبل استخدام الكبل أرادوا خنقها بالأيدي، خدوش في الذراع الأيسر والرجل اليمنى وكدمات ضربٍ على الأليتين كما لو أنّهم رفسوها. مضى على موتها، بحسب التقرير، ثلاثة أو أربعة أيام. وقُدِّرَ عمرُها ما بين الخمس والعشرين والثلاثين سنة. عُرِفَ لاحقاً أنّها روزا غوتييرّثْ نِتِنو، في الثامنة والثلاثين من عمرها، عاملة قديمة في المعمل وفي لحظة قتلها كانت تعمل نادلة في مقهى في وسط سانتا تِرِسا، اختفت قبل أربعة أيام. عرفتها ابنتها، التي تحمل الاسم ذاته وتبلغ السابعة عشرة من عمرها، وتعيش معها في ضاحية آلاموس. رأت الشابةُ روزا غوتييرّث نِتِنو جثّةَ أمّها في ملحقات المشرحة وقالت إنّها هي. وصرّحت منعاً لأيّ شك أن السترة الوردية كانت لها، ملكيتها، وأنّها كانت تتشارك بها مع أمّها كما كانتا تتشاركان في أشياء أخرى كثيرة.

كان هناك عدّة عهود، قالت النائبةُ، كنّا نلتقي فيها يوميّاً. بالطبع ونحن طفلتان، في المدرسة، لم يكن أمامنا خيار آخر. كنّا نمضي الاستراحات معاً ونتشارك في الألعاب ونتكلّم عن أشيائنا. كانت هي تدعوني إلى بيتها وكنتُ أذهب سعيدة، وإن لم يكن والداي وجدّايَ يميلان لأنّ أجتمع بطفلات مثل كيلي، ليس بسببها طبعاً، بل بسبب والديها، خوفاً من أن يستغلّ المعماريّ ريبِرا صداقة ابنته بطريقة ما كي يصل إلى ما كانت تعتبره أسرتي قدسَ الأقداس، حلقة حميميتنا

الحديدية، التي سبق وقاومت أمواج الثورة العاتية والقمع التي قام بعد التمرد الكريستيرو[1] والتهميش الذي كانوا يُشْوَوْنَ فيه على نار هادئة بقايا البورفيرية[2]، في الحقيقة بقايا الإيتوبدية المكسيكية. كي تشكّلَ فكرة: لم يكن العلاقة بين بورفيريو ديّاث[3] وعائلتي سيّئة، لكنّها كانت أفضل مع الإمبراطور ماكسيميليانو، ومع إيتوربيدِ، وكانت مع مَلَكِيَّة إيتوربيدية، دون تقلبات ولا انقطاعات، في لحظتها الأمثل. بالنسبة إلى عائلتي، لتعْلَمْ ذلك، كنّا نحن المكسيكيّن الحقيقيّن قلّةً قليلة. ثلاثمئة عائلة في كلّ البلد. ألف وخمسمئة أو ألفا شخص. البقيّة كانوا هنوداً حقودين أو بيضاً ضاغِنين أو كائنات عنيفة قادمون لا يُعرَف من أين كي يقودوا المكسيك إلى الدمار. لصوص، غاليتهم، وصوليون. طفيليون. ناس بلا حياء. المعماري ريبِرا، كما يمكنك أن تتصوّر، كان يُجسّد بالنسبة إليهم نموذج المتسلق الاجتماعي. طبعاً كانوا يعتبرون أنّ زوجته حكماً ليست كاثوليكية. ربّما كانوا يعتبرونها، بحسب ما كنتُ أسمع، عاهرة. يعني في النهاية ظرافات من هذا النوع. لكنّهم لم يمنعوني قط من زيارتها (بالرغم من أنّه، كما قلت لك، لم يكن يروق لهم ذلك) أو أن أدعوها في كلّ مرّة أكثر إلى بيتي. الحقيقة أنّ كيلي كانت تُحبّ بيتي، أستطيع أن أقول إنّها كانت تُحبّه أكثر من بيتها، وفي الحقيقة كان مفهوماً بالنتيجة أن تكون كذلك، وهذا يعني الكثير بالنسبة لذوقها، ذلك لأنّها منذ طفولتها كانت تعبّر عن نفسها بكثير من الألمعية. أو كثير من العناد، ربما تكون هذه الكلمة الأكثر ملاءَمَة. في هذا البلد دائماً خلطنا

---

(١) تمرّد قام به اليسوعيون ضدّ الثورة المكسيكية التي فصلت الدين عن الدولة (١٩٢٦-١٩٢٩).

(٢) مذهب خوسِه دِ لا كروث بورفيريو السياسي، كالناصرية عندنا.

(٣) خوسِهْ دِ لا كروث بورفيريو دياث عسكري وسياسي مكسيكي حكم المكسيك مرّتين (١٨٧٦-١٨٨٠ و ١٨٨٤-١٩١١).

بين الألمعية والعناد، ألا ترى ذلك؟ نعتقد أنّنا ألمعيون، لكنّنا في الحقيقة عُنَّدٌ. كانت كيلي بهذا المعنى مكسيكية جدّاً. كانت عنيدة ومتعنّتة. أكثر عناداً منّي، وهذا يعني كثيراً. لماذا كانت تُحبّ بيتي أكثر من بيتها؟ لأنّ في بيتي كان يوجد جاهٌ وفي بيتها فقط طِراز، هل فهمت الفارق؟ كان بيت كيلي جميلاً، أكثر راحة من بيتي، بل أكثر رفاهية، أعني أكثر إضاءة، فيه صالون كبير ولطيف، مثالي لاستقبال الزيارات أو أقامة الحفلات، فيه حديقة حديثة، بعشب وآلة لقص العشب، بيت عقلاني، كما كان يُقال عادة في تلك السنوات. بيتي، صار باستطاعتكَ أن تقيّمَهُ، هو نفسه، وإن كان بالطبع أكثر إهمالاً بكثير مما هو عليه الآن، بيت كبير تفوح منه رائحة مومياء وشموع. أقرب إلى المصلى الكبير منه إلى البيت، حيث كانت حاضرة كل ميزات غنى واستمرارية المكسيك. بيت بلا طراز، قبيح أحياناً مثل سفينة غارقة، لكنّه بيتُ جاهٍ، وهل تعرف ماذا يعني الجاه، يعني في النهاية السيادة. ألا تكون مديناً لأحد بشيء. ألا يكون عليك أن تُقَدِّم توضيحات لأحد عن أيّ شيء. هكذا كانت كيلي. لا أقول إنّها كانت واعية لذلك. ولا أنا. كلتانا كانت طفلة وكانت بسيطة ومعقدة كطفلة ولا نُقحم نفسنا في الكلمات. لكن هي كانت هكذا. إرادة خالصة. انفجار خالص، رغبة خالصة بالمتعة. هل عندك بنات؟ لا، قال سِرخيو. لا بنات ولا أبناء. حسن، إذا ما صار عندك ذات مرّة ابنة، ستعرف عمّا أُكَلّمك. لزمت النائبةُ الصمت برهةً. أنا فقط أنجبت ابناً، قالت. يعيش في الولايات المتحدة، إنَّه يدرس. أودّ أحياناً لو أنّه لا يعود إلى المكسيك أبداً. أعتقد أنّ هذا سيكون الأفضل له.

ذهبوا في تلك الليلة ليبحثوا عن كيسلير في الفندق من أجل عشاءِ سمر في بيت عمدة المدينة. كان على الطاولة وكيل نيابة ولاية سونورا، مساعد وكيل النيابة، شُرَطِيّا تحقيق، شخص يدعى الدكتور

إميليو غاريباي، رئيس قسم الطب الشرعي وأستاذ كرسي علم الأمراض والطب الشرعي في جامعة سانتا تِرِسا، قنصل الولايات المتحدة، مستر أبراهام ميتشل، الذي كان الجميع ينادونه كونان، رجلا الأعمال كورنادو باديًا ورينيه ألبارادو ورئيسُ الجامعة دون بابلو نِغْرِتِ، كان المتزوجون ترافقهم زوجاتهم أو وحدهم، كان العُزَّبُ منهمُ أكثر كآبة وصمتاً، وإن كان بين هؤلاء الأخيرين أحدٌ يبدو سعيداً في وضعه ولا يتوقّف عن الضحك ورواية النكات وبعضهم كان متزوّجاً ودُعِيَ من دون زوجته. لم يتحدثوا أثناء الطعام عن الجرائم بل عن الأعمال (الوضع الاقتصادي في تلك المنطقة الحدودية جيّد، ويمكن أن يتحسّن أكثر، وعن الأفلام، وخاصّة تلك التي عمل فيها كيسلير كمستشار. بعد تناول القهوة والاختفاء التلقائي، يمكنني أن أقولَ الفوريّ، للنساء بتلقينٍ مسبقٍ من أزواجهنّ، تطرّق الرجالُ المجتمعون في المكتبة، التي كانت صالة تذكاراتٍ أو صالة صيد في مزرعة فاخرة أكثر مما هي مكتبة، للموضوع الكبير، في البداية بحكمة مفرطة. ولدهشة الجميع أجاب كيسلير على الأسئلة الأوّلية بأسئلة أخرى. ثمّ إنّها أسئلة وجّهها إلى من لا يجب أن يوجّهها. مثلاً سأل كونان ميتشل، ماذا يعتقد هو، كمواطن أمريكيّ شماليّ، أنّه يحدث في سانتا تِرِسا. ترجم الذين يعرفون الإنكليزية ما قاله. لم يبدُ لبعضهم موفّقاً أن يبدأ بالأمريكي الشمالي. وأقل من ذلك أن يُوجّه إليه السؤال كمواطنٍ أمريكيّ شماليّ. قال كونان إنّه ليس عنده فكرة مكونة بهذا الخصوص. وجّه كيسلير بعدها فوراً السؤالَ ذاته إلى رئيس الجامعة بابلو نِغْرِتِ. هزَّ هذا كتفيه، ورسم ابتسامة، قال إنّ عالمه هو عالم الثقافة، سعل بعدها وسكت. أخيراً أراد كيسلير أن يعرف رأي الدكتور غاريباي. هل تُريدني أن أجيبك كمواطن من سانتا تِرِسا أم كطبيبٍ شرعيّ؟، سأله غاريباي بدوره. كمُواطنٍ عادي، قال كيسلير. من الصعب جدّاً على طبيب شرعيّ أن يكون مواطناً عاديّاً، قال غاريباي،

هناك جثث أكثر من اللازم. خفّض ذكرُ الجثثِ من حماس المجتمعين هناك. سلَّمَهُ النائبُ العام في ولاية سونورا إضبارة. قال أحدُ المحقِّقين إنّه بالفعل يعتقد أن هناك قاتلاً على التسلسل، لكنّ هذا صار في السجن. حكى نائبُ النائب العام لكيسلير قصّةَ هاس وعصابةِ لوس بيسونتِس. أراد المحقّق الآخر أن يعرف ما رأيَ كيسلير بخصوص القتلة المقلّدين. لاقى كيسلير صعوبة في فهم السؤال إلى أن همس كونان ميتشل له بمعناها في الإنكليزية. دعاه رئيس الجامعة ليعطي درسين في الجامعة. كرَّر عمدةُ المدينة كم كان سعيداً بوجوده هناك، في المدينة. حين عاد إلى فندقه في إحدى سيارات مجلس المدينة الرسمية، فكَّر كيسلير أنّ هؤلاء الناس جميعاً لطاف جدّاً وحسنو الضيافة حقيقةً، مثل كلّ المكسيكيين كما كان يُفكّر. رأى في حلمه، وهو متعبٌ، فوّهة بركان وشخصاً يدور حول الفوّهة. ربّما كنتُ أنا ذلك الشخص، قال في حلمه، لكنّه لم يولِ الأمرَ أيّ أهمّية وانطفأت الصورة.

الذي بدأ بالقتل هو أنطونيو أوريبِ، قال هاس. كان دانييل يُرافقه ويساعده بعدها في التخلّص من الجثث. لكنّ دانييل راح شيئاً فشيئاً يهتمّ، وإن لم تكن هذه هي الكلمة الصحيحة، قال هاس. ما هي الكلمة الصحيحة؟، سأله الصحفيون. كنتُ سأقولها لو لم يكن هناك نساء يستمعن إليّ، قال هاس. ضحك الصحفيون. قالت صحفيّة *إل إنلِدِنْديينتِ دِ فونيكس* ألّا يتحفّظ من وجودها. صوّر شوي بيمِنتل المُحاميةَ. إنّها امرأة جميلة، على طريقتها، فكَّرَ المصوّرُ: مظهرها حسن، طويلة، تعبير اعتزاز، ما الذي يدفع امرأة مثل هذه لتقضي عمرها في المحاكم وزيارة زبائنها في السجن؟ قُلْ، يا كلاوس، قالت المحاميةُ. نظر هاس إلى السقف. الكلمة الصحيحة، قال، يُثار. يُثار؟، استغرب الصحفيون، دانييل أوريبِ، بقوة النظر إلى ما كان

يفعل ابنُ عمِّهِ راح يُثار، قال هاس، فبدأ هو أيضاً بعد وقتٍ قليل يغتصبُ ويقتل. يا إلهي!، صاحت صحفيَّةٌ *إل إنلِدِنّدينتِ دِ فونيكس*.

في الأيّام الأولى من تشرين الثاني عثرت مجموعةٌ من كشّافةِ مدرسةٍ خاصّة في سانتا تِرِسا، على بقايا امرأة في أكثر جوانب تل لا أسونثيون وعورة. لا أسونثيون معروف أيضاً بتل دابيلا. هتفوا من جوّال الأستاذ المُشرف على المجموعة إلى الشرطة، التي حضرت إلى مكان الحدث بعد خمس ساعات، حين لم يبق ألا القليل كي يحلّ الظلام. في أثناء الصعود إلى التلّ انزلق أحدُ رجال الشرطة، المُحقِّق إلمِرْ دونوسو وانكسرت رجلاه. شرعوا بمساعدة الكشافين الذين لم يتحرّكوا من مكانهم بنقل المُحقّق إلى مشفى في سانتا تِرِسا. عاد في اليوم التالي فجراً خوان دِ ديوس يُساعده عدد من رجال الشرطة إلى تل لا أسونثيون يرافقهم الأستاذ الذي أبلغ عن عثوره على العظام، التي عثروا عليها هذه المرّة دون أيّ مشكلة وشرعوا برفعها ونقلها إلى ملحقات الطب الشرعي في المدينة، حيث حدّدوا أن البقايا تعودُ إلى امرأة، دون أن يتمكّنوا من تحديد أسباب الموت. كانت بقاياها خالية من الأنسجة اللينة، ولا تحتوي حتى على ديدان في الجثة. اكتشف المُحقّق خوان دِ ديوس مارتينِثْ في المكان الذي عُثِر عليها فيه بنطلوناً بالياً بفعل العوامل الطبيعية. كما لو أنّهم خلعوا عنها بنطلونها قبل أن يرموا بها على الجنبات. أو كما لو أنّهم صعدوا بها عارية ووضعوا البنطلون في كيس رموه بعدها على بعد أمتارٍ من المقتولة. الحقيقة أنّه ما من شيء كان له معنى.

في الثانية عشرة من عمرنا لم يعد يرى الواحد منا الآخر. خطر للمهندس المعماري رِيبِرا أن يموت بطريقة غير متوقّعة، دون سابق إنذار وفجأة وجدت أمّ كيلي نفسها ليس فقط بلا زوج بل وبديون كثيرة.

أوّل شيء فعلته هو أنّها بدّلت مدرسة كيلي ثمّ باعت بيت كويواكان في ضاحية روما. ومع ذلك بقينا أنا وكيلي نتهاتف والتقينا مرّتين أو ثلاثاً. تركوا بعدها شقة روما ورحلوا إلى نيويورك. أتذكّر أنّني بقيت، عندما رحلت، يومين كاملين أبكي. فكّرت أنّني لن أعود أبداً لأراها. في الثامنة عشرة من عمري دخلتُ الجامعة. أعتقد أنّني كنتُ المرأة الوحيدة في العائلة التي فعلت ذلك. ربّما تركوني أتابع دراستي لأنّني هدَّدتُهم بأن أقتل نفسي إن لم يتركوني. درستُ في البداية حقوقاً ثمّ صحافة. هناك انتبهتُ إلى أنّني إذا أردت أن أستمرّ في الحياة، أعني أن أبقى حيّة كما كنتُ، مثل أثوثِنا إسكيبِل بلاتا، سيكون عليّ أن أدور مئة وثمانين درجة بأولوياتي، التي لم تكن وقتذاك تختلف جوهريّاً عن أولويات عائلتي. كنتُ مثل كيلي، ابنة وحيدة، وكان أفراد عائلتي يهزلون ويموتون الواحد تلو الآخر. في طبيعتي، كما يمكنك أن تفترض، لم تكن توجدُ نيّةٌ بأن أهزل وأموت. كنتُ أحبّ الحياة أكثر من اللازم. كنتُ أحبّ ما كان يمكن للحياة أن تمنحه لي وحدي، وكنتُ إضافة إلى ذلك واثقة من أنّني أستحقّه. بدأتُ أتغيّر في الجامعة. تعرّفت على نوعٍ آخرَ من الناس. تعرّفت في كلّية الحقوق على أسماك قرش الحزب الثوري الدستوري، في الصحافة على كلاب صيد السياسة المكسيكية. جميعهم علّموني شيئاً. كان أساتذتي يُحبّونني. كان هذا في البداية يربكني. لماذا أنا، التي أبدو أنّني خارجة من مزرعة راسِيةٍ في السنوات الأولى من القرن التاسع عشر؟ هل لشيءٍ خاصّ عندي؟ هل كنتُ جذّابة وذكيّة بشكل خاصّ؟ لم أكن غبية، هذا صحيح، لكنّني أيضاً لم أكن فائقةَ الذكاء. لماذا كنتُ إذن أثير هذا الاستلطاف بين أساتذتي؟ هل لأنّني أخر آل إسكيبِل بلاتا، التي تجري دماء في عروقها؟ وإذا كان الأمر كذلك، فماذا يهمّ، لماذا سيجعلني هذا مختلفة؟ كان باستطاعتي أن أكتب رسالة عن النوابض السرّية لعاطفيّة المكسيكيين. كم نحن معوجّين. كم نبدو بسطاء أو نظهر أنّنا كذلك

أمام الآخرين وفي الأعماق كم نحن معوجّين. ما أقل ما نحن ويا للطريقة المثيرة التي نعوجّ بها أمام أنفسنا وأمام الآخرين، المكسيكيين. ولماذا كلّ هذا؟ ما الذي نريد أن نجعل الآخرين يعتقدونه؟

استيقظ في السابعة صباحاً. في السابعة والنصف استحمَّ وارتدى طقماً رمادياً لؤلئياً، قميصاً أبيض وربطةَ عنق خضراء، نزل ليتناول فطوره. طلب عصير برتقال، قهوة وقطعتي خبز محمّص مع الزبدة ومربّى الفريز. كان المربّى جيداً، الزبدة لم تكن جيّدة. في الثامنة والنصف وبينما كان يتصفّح تقارير الجرائم، جاء شرطيّان بحثاً عنه. كان موقف الشرطيّين موقف استسلام تام. كانا يبدوان عاهرتين يُسمح لهما لأوّل مرّة بأن يُلبسا قوّاديهما ثيابهما، لكنّ كيسلير لم يلحظه. في التاسعة ألقى محاضرة مقصورة على مجموعة مختارة من أربعة وعشرين شرطيّاً، غالبيتهم بثياب مدنية، بالرغم من أنّه لا بدّ أنَّ بعضهم كان يرتدي لباسه الموحّد. في العاشرة والنصف زار مباني شرطة التحقيق وبقي برهة يفحص أو يلعب بالحواسيب وبرامج تحديد هويّة المشبوهين أمام نظرة رضا موكب رجال الشرطة الذين كانوا يُرافقونه. في الحادية عشرة والنصف ذهبوا جميعاً ليتناولوا طعامهم في مطعم مختصٌ بالأطباق المكسيكية والشمالية، لم يكن بعيداً عن بناء شرطة التحقيق. طلب كيسلير فنجانَ قهوة وشطيرةَ جبن. لكنّ المُحقّقين أصروا عليه أن يجرّب لُقَيْماتٍ مكسيكية، جاء بها صاحب المطعم بنفسه في صينيات كبيرة. حين نظر كيسلير إلى اللُقَيمات فكّرَ بالطعام الصيني. بعد القهوة، ودون أن يطلبه، وضعوا أمامه كأساً صغيراً فيه عصير أنانس. ذاقه فلاحظ على الفور وجود الكهول فيه. قليل جدّاً. فقط كي يُنكّه أو يفيد كمُبرز لنكهةِ الأنانس. كان الكأس مليئاً بالثلج المبشور، الناعم جدّاً. بعض الشطائر كانت مُقرقشة لا يمكن معرفة محتواها، وأخرى كانت قشرتها ناعمة، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بفواكه مسلوقة، لكنّها

محشوة باللحم. في صينية كانت المواد الحارّة، وفي أخرى ما لا تكاد تلذعُ. تذوّق كيسلير زوجاً من هذه الأخيرة. لذيذة، قال، لذيذة جدّاً. جرب بعدها الحارّةَ وشرب بقيّة عصير الأنانس. يأكل أولاد العاهرة هؤلاء جيّداً، فكّر. في الواحدة خرج مع اثنين من المُحَقِّقين، يتكلمان الإنكليزية، لزيارة الأماكن التي اختارها كيسلير مسبقاً من الإضبارات التي تلقاها. خلف سيارته سارت سيارة أخرى فيها ثلاثة مُحقّقين آخرين. زاروا جرفَ بودِستا أوّلاً. نزل كيسلير من السيارة، اقترب من الجرف، أخرج خارطة للمدينة وسجّل بعض الملاحظات. طلب بعدها من المُحقِّقَين أن يأخذاه إلى ضاحية بونِابيستا. حين وصلوا لم ينزل حتى من السيارة. نشر الخارطة أمامه، خربش فوقها أربع خربشات كانت بالنسبة للمُحقّقين غير مفهومة، ثمّ طلب منهما أن يأخذاه إلى تل إسترِيّا. وصلوا من جهة الجنوب عبرَ ضاحيةِ مايتورِنا، وحين سأل كيسلير ما اسم هذا الحيّ وقاله له المُحقّقان أصرّ على التوقّف والمشي برهة. السيارة التي كانت تتبعهم توقّفت بجانبهم، وسأل الذي كان يقودها بإشارة الذين كانوا يمضون في السيارة الرئيسية ماذا يحدث؟، المُحقّق الذي كان في الشارع بجانب كيسلير هزّ كتفيه. في النهاية هبط الجميع وراحوا يسيرون خلف الأمريكي الشماليّ، بينما الناس ينظرون إليهم من طرف عيونهم، خائفين من الأسوأ، وآخرون فكّروا أن الأمر يتعلق بعصابةٍ من تجار المخدرات، وإن كان هناك من عرف أنّ العجوز الذي كان يسير أمام المجموعة هو رجل تحرّي مكتبِ التحقيقات الفيدرالية. بعد شارعين فرعيين اكتشف كيسلير محل وجباتٍ سريعة، طاولاته في الهواء الطلق، تحت مظلة من القماش المخطط بالأزرق والأبيض مشدودة إلى عصي. كانت الأرضية خشبية والمحلّ فارغاً. من الفناء كان يُرى تلّ إستريّا. جمع المُحقّقون طاولتين إلى بعضهما، وجلسوا وبدؤوا يُشعلون سجائرهم ولم يستطيعوا أن يتفادوا الابتسام فيما بينهم، كما لو أنّهم يقولون، ها نحن هنا، يا سيّد، مستعدون لأي

شيءٍ تأمر به. وجوه شباب، فكّر كيسلير، أقوياء، وجوه صبية سليمين، بعضهم سيموت قبل أن يُدرك الشيخوخة، قبل أن تُجعّده السنون أو الخوف أو التأمّلات غير المُجدية. امرأة مُتوسّطة العمر، بمئزرٍ أبيض، ظهرت في عمق المطعم. قال كيسلير إنّه يريد عصير أناناس بالثلج، شبيهاً بالذي تناوله في الصباح، لكنّ الشرطيين نصحوه أن يطلب شيئاً آخر، لأنّ المياه التي يصنعون منها العصير في ذلك الحيّ ليست مأمونة. تأخروا حتى عثرا على كلمة «صالحة للشرب». ماذا ستشربان أنتما، يا صديقيَّ. سأل كيسلير. باكانورا، قال الشرطيان، ووضّحا له أن الأمر يتعلّق بمشروب يُقَطّر في سونورا فقط، من نوع من الصباريات يعيش هناك فقط، ولا يعيش في أيّ مكان آخر من المكسيك. إذن لِنُجرّب الباكانورا، قال كيسلير، بينما راح بعض الأطفال يطلون على المطعم وينظرون إلى مجموعة الشرطة ثمّ يولّون الأدبار. حين عادت المرأة كانت تحمل صينية فيها ستّة كؤوس وزجاجة باكانورا. هي نفسها صبّت لهم وبقيت تنتظر رأي كيسلير. رائع، قال رجل التحرّي الأمريكي الشمالي، بينما الدمُ يصعدُ إلى رأسه. هل أنت هنا بسبب جرائم القتل، يا سيّد كيسلير؟، سألت المرأةُ. كيف تعرفين اسمي؟ سألها كيسلير. رأيتُكَ البارحة في التلفزيون. أيضاً شاهدتُ أفلامك. آه، أفلامي، قال كيسلير. هل تُفكّر أن تقضي على جرائم القتل؟، سألت المرأةُ. صعبة جدّاً الإجابة على هذا، سأحاول، هذا هو كلّ ما باستطاعتي أن أعدِكِ به، قال كيسلير وترجمه لها المُحقّق. كان تلٌّ إستريّا يبدو من حيث كانوا تحت مظلات الخطوط الزرقاء والبيضاء، بناءً جصّياً. الأخاديد السوداء هي دون شك قمامة. الأخاديد البنّية، هي بيوت أو أكواخ تصمدُ بتوازن حذرٍ وغريب، الأخاديد الحمراء، ربّما هي قطع حديد، تآكل بفعل عوامل الطبيعة. لذيذ الباكانورا، قال كيسلير حين نهض عن الطاولة وترك على الطاولة عشرة دولارات، أعادها إليه المحقّقون فوراً. أنت هنا ضيفنا، يا سيّد كيسلير. شرف لنا أن نكون معك. أن

نخرج في دورياتٍ معك. هل نحن في دورية؟، سأل كيسلير مبتسماً. رأتهم المرأة يذهبون من عمق المطعم الصيفي، نصف محجوبة، مثل تمثال، بستارة زرقاء كانت تفصل المطبخَ أو ما كانَ عن الطاولات. من الذي صعد بهذا الحديد إلى أعلى التلّ؟، فكّر كيسلير.

وأنت، يا كلاوس، منذ متى تعرفُ كلَّ هذا؟ منذ زمن طويل، قال هاس. ولماذا لم تقله من قبلُ؟ لأنّه كان عليّ أن أتحقّق من المعلومات، قال هاس. كيف تستطيع أن تتحقّق من شيء وأنت في السجن؟، سألت صحفيّةُ *إل إندبَّنديينت*. دعينا لا نعود إلى الشيء ذاته، قال هاس. لي اتصالاتي، لي أصدقائي، لي ناس يعرفون. بحسب اتصالاتك، أين هما أوريبِ الآن ؟ اختفيا منذ ستة أشهر، قال هاس. هل اختفيا من سانتا تِرسا؟ بالضبط، اختفيا من سانتا تِرسا، وإن كان هناك أشخاص يقولون إنّهم رأوهما في توكسون، في فونيكس، بل وحتى في لوس أنجلوس، قال هاس. كيف نستطيع نحن أن نتحقّق من ذلك؟ بسيط جدّاً، احصل على هواتف أبويهما واسأل عنهما، قال هاس بابتسامةِ المنتصر.

في الثاني عشر من تشرين الثاني سمع المُحقّقُ خوان دِ ديوس مارتينِثْ في لاسلكي الشرطة أنّهم عثروا على جثّة امرأة أخرى في سانتا تِرسا. ومع أنّ القضيةَ لم توكل إليه إلا أنّه توجّه إلى مكان الأحداث، بين شارعي كاريبِ وبِرمودا، في ضاحية فِليكسْ غومِثْ. كانت المقتولة تُدعى أنخِليكا أوتشوَا وكان كلّ شيء يبدو، كما حكى له رجالُ الشرطة الذين أحاطوا الشارع بشريط، تصفية حسابات أكثر مما هو جريمة جنسيّة. قبل وقت قليل من ارتكاب الجريمة رأى شرطيان زوجين يتناقشان بحماس على الرصيف، بجانب مرقص إل باكِرو، لكنّهما لم يبغيا التدخّل لأنّهما ظنّا أنّه خلاف بين عاشقين. كان في صدغ أنخِليكا

أونشوَا الأيسر فتحة طلق ناريّ مع ثقب خروج في الأذن اليمنى. رصاصة ثانية في الخدّ خرجت من الجانب الأيمن من العنق. رصاصة ثالثة في الركبة اليمنى. رصاصة رابعة في الفخذ الأيسر. رصاصة خامسة في الفخذ الأيمن. ربّما بدأ تتالي الرصاصات، فكّر خوانْ دِ ديوس، بالرصاصة الخامسة وانتهى بالأولى، بطلقة الرحمة في الصدغ الأيسر. أين كان الشرطيان اللذان رأيا الزوجين يتشاجران حين حدث إطلاق النار؟ حين استُنْطِقا لم يعرفا أن يُقدّما تفسيراً مُترابطاً. قالا إنّهما سمعا صوتَ الرصاصات، استدارا نصفَ استدارة وعادا إلى شارع كاريبِ فلم يكن هناك غير أنخِليكا مرميّة على الأرض والفضوليين الذين بدؤوا يُطلون من أبواب المحلات المجاورة. في اليوم التالي للحدث أعلنت الشرطة أنّ الجريمة كانت ذات طبيعة عاطفية، وأنّ القاتل المحتمل يُدعى روبِن غومِثْ أرانثيبيا، قواد من قوادي من المنطقة معروف أيضاً باسم بِنادا، (أيل) ليس لأنّه يُشبهُ هذا الحيوان بل لأنّه كان يحكي أنّه قنص هناك رجالاً كثيرين، كما لو قلنا إنّه صاد رجالاً كثيرين بغدرٍ وتفوّق، كما يليق بقوّاد من الدرجة الثانية أو الثالثة. كانت أنخِليكا زوجته، وبحسب ما يبدو سمع بِنادا أنّها ستهجره. ربَّما لم تكن جريمة مخطّط لها، فكَّر، خوان دِ ديوس، وهو جالس خلفَ مقود سيارته، السيارة المتوقّفة في الزاوية المعتمة، أن القتل لم يُخطّط له. ربمّا فكّر بِنادا (الأيلُ) في البداية أن يزعجها أو يُخيفها أو يُحذّرها، من هنا جاءت الطلقة في الفخذ الأيمن ثم وحين رأى وجْهَ أنخِليكا المتألّم أو المندهش، انضاف تعكّرُ مزاجه إلى غضبه، هاويةُ المزاج الذي تبدّى في رغبة بالتناظر، وعندها أطلق النار على فخذها الأيسر. بدءاً من تلك اللحظة لم يستطع أن يتحكّم بنفسه. كانت الأبواب مفتوحة. أسند خوان دِ ديوس رأسه على المقود وحاول أن يبكي، لكنّه لم يستطع. جاءت جهود الشرطة بالعثور على بِنادا عبثية. لقد اختفى.

في التاسعة عشرة من عمري بدأ يصير لي عشّاق. أسطورتي الجنسية معروفة في كلّ المكسيك، لكنّ الأساطير ليست أبداً صحيحة وأقلها صِحّةً في المكسيك. المرّة الأولى التي نمتُ فيها مع رجل كانت فضولاً. تماماً كما تسمع، لا حبّاً ولا إعجاباً ولا خوفاً، كما تفعلُ بقيّةُ النساء عادة. كان من الممكن أن أنام معه إشفاقاً. لأنّ الصبيَّ الذي جامعته أوّلَ مرّة كان أساساً يُثير شفقتي، لكنّ الحقيقة الخالصة هي أنّني فعلت ذلك فضولاً. تركته بعد شهرين وذهبتُ مع آخر، وغد كان يعتقد أنّه سيعمل الثورة. المكسيك كريمة بالأوغاد من هذا النوع.. فتية حماقتهم مطبقة، متعجرفون، حين يلتقون بإسكيبِل بلاتا يغيبون عن الوعي، يريدون أن يأخذوها فوراً، كما لو أنّ فعل امتلاك امرأة يعادل امتلاك قصر الشتاء. قصر الشتاء!. هم، الذين كانوا القادرين ولا على قصّ عشبِ البيت الصيفي! حسن، أيضاً تركتُ هذا بسرعة، الآن هو صحفيّ له بعض الشهرة في كلّ مرّة يسكر فيها يحكي أنّه كان حبَّ حياتي الأوّل. العشاق الذين جاؤوا بعدهما، ملكتهم لأنّهم كانوا يعجبونني في الفراش، أو لأنّني كنتُ أسأم وكانوا هم ظرفاء ومُسَلّين أو غريبي الأطوار، غريبي الأطوار إلى أبعد حدٍّ، لم يكونوا يُضحِكون أحداً غيري. كنتُ، كما لا شكّ ستعرفُ، شخصيةً مهمّة إلى حدٍّ ما في اليسار الجامعي. حتى أنّني سافرت إلى كوبا. تزوّجتُ بعدها. كان لي طفلي، وزوجي، الذي كان أيضاً يساريّاً، انتمى إلى الحزب الثوري الدستوري. بدأتُ أعمل في الصحافة. كنتُ أذهب أيّامَ الأحد إلى بيتي، أعني إلى بيتي القديم، حيث كانت تتعفّن أسرتي ببطء، كنتُ أتفرّغ للدوران في الممرات، في الحديقة، لرؤية ألبومات الصور القديمة، لقراءة يوميات أسلافي المجهولين، والتي كانت تبدو كتابات قدّاسية أكثر مما هي يوميات، لأمكثَ أكثر هدوءاً، جالسةً بجانب البئر الحجري الموجودة في الفناء، غارقة في صمتٍ مترقّب، أدخّن سيجارةً بعد أخرى، دون أن أقرأ، دون أن أُفكّر،

وأحيانا دون أن أتذكّرَ شيئاً. الحقيقة أنّني كنتُ أسأمُ. كنتُ أريد أن أفعل أشياء، لكنّني لا أعرف بالتحديد ما كنتُ أريد أن أفعله. بعد شهرين طلّقتُ. لم يكمل زواجي السنتين. طبعاً حاولت عائلتي أن تثنيني، هدّدوني بأن يرموا بي إلى الشارع، قالوا، من ناحية أخرى، وكان معهم كلّ حقّ العالم، إنّني أوّلُ امرأة من آل اسكيبِل تكسر قدس أقداسِ الزواج، أراد جدٌّ لي كاهن، عجوزٌ يُقارب التسعين من عمره، دون إثكيبل بلاتا، أن يُحاورني، أن يقيم معي حوارات غير رسمية، معلوماتية، لكن وقتها خرج مسخ القيادة أو مسخ الزعامة من قمقمه، كما يُقال الآن، ووضعت كلَّ واحد منهم وجميعَهم مجتمعين في مكانهم الطبيعي: بكلمة واحدة: صرتُ بين هذه الجدران التي أنا الآنَ وما سأبقى حتى أموت. قلتُ لهم إنّ زمن النفاق والزيف قد ولّى. قلتُ لهم إنّني لن أسمح بلوطيين في العائلة. قلتُ لهم إنّ ثروة وممتلكات آل إسكيبِل لم يكن لها من عمل غير التناقص سنة بعد سنة، وإنّها إذا استمرّت بهذا الشكل فإن ابني أو أحفادي مثلا، إذا طلع ابني وأحفادي لي وليس لهم فلن يكون عندهم مكان يموتون فيه. قلتُ لهم لا أريد أصواتاً نشازاً بينما أنا أتكلّم. قلتُ لهم إذا كان هناك من ليس على وفاق مع كلماتي فليذهب، فالباب واسع وأوسع منه المكسيك. قلتُ لهم بدءاً من هذه الليلة البارقة (لأنّه بالفعل كانت تسقط بروق في مكان ما من المدينة وكنّا نراها من النافذة) انتهت الصدقات الجزيلة للكنيسة، التي كانت تضمن لنا السماء، لكنّها تستنزفنا في الأرض منذ أكثر من مئة عام. قلتُ لهم، إنّني لن أتزوّج ثانية، لكنّني نبّهتهم إلى أنّهم سيسمعون عنّي أشياء أكثر هولا من هذا. قلتُ لهم إنّهم يموتون وإنّني لم أكن أريدهم أن يموتوا. جميعهم شحبت ألوانُهم وفغرت أفواهُهم، لكنّ أحداً منهم لم يُصَب بنوبة قلبية. نحن آل إسكيبِل في الأساس قساة. أتذكّر ذلك كما لو أنّه حدث البارحة، عدتُ ورأيتُ كيلي.

في ذلك اليوم ذهب كيسلير إلى تل إستريّا وتنزّه في ضاحية إسترِيّا وضاحية هيدالغو وطاف حول الطريق إلى بوبِلو أثول ورأى بيوتَ المزارع الفارغة مثل علب أحذية، أبنية صلدة، بلا ملاحة، بلا فائدة ترتفع في منعطفات الطرق التي كانت تصبّ في الطريق إلى بوبِلو أثول. أراد بعدها أن يرى الأحياءَ المتاخمة للحدود، ضاحية مكسيكو الملاصقة لِإل دوبِ، التي هي أرض الولايات المتحدة، بارات وفنادق ضاحية مكسيكو وجادّتها الرئيسية الرازحة باستمرار تحت الضجيج المُصِمّ للشاحنات والسيارات، التي تتوجّه إلى معبر الحدود ثمّ جعل موكبه ينزل نحو الجنوب عبر جادّة الجنرال سِبولبِدا والطريق العام المؤدي إلى كانانيا، حيث انحرف ودخلوا إلى ضاحية لا بيستوسا، المكان الذي لا تُغامر الشرطة بالدخول إليه أبداً، قال له أحد المُحقّقين، الذي كان يقود السيارة ووافقه الآخر بحركة مكرهة، كما لو أنّ الشرطة في ضاحية لا بيستوسا وضاحية كينو وضاحية رِمِديوس مايور كانت لطخة عار، يتحملونها، هم الشباب والمندفعون، مكرهين، ولماذا مكرهون؟، لأنّ الحصانة كانت تؤلمهم، قالوا. حصانة من؟ حصانة العصابات التي تتحكّم بالمخدرات في هذه الضواحي المتروكة لقدرها، الشيء الذي جعل كيسلير في البداية، وهو ينظر من نافذة السيارة إلى المشهد الذي كان يتشظى، يُفكّر بأنّه يصعب عليه أن يتصور أيّاً من هؤلاء السكان وهو يشتري مخدرات، يستهلكها بسهولة لكنه يشتريها بصعوبة، بصعوبة بالغة وهو يبحث في أعماق جيوبه كي يجمع النقود الكافية كي يشتريها، وهو شيء يمكن تصوّره في غيتوات الزنوج والأمريكيين الإسبان في الشمال، التي مع ذلك تبدو أحياء سكنية بالمقارنة مع هذه الفوضى المهجورة، لكنّ المحقّقين هزّا رأسيهما مؤكّدين، أحناكهما القويّة والفتية،، هو كذلك فعلاً، فهنا يُتداول الكوكايين وكلٌّ قذارة الكوكايين كثيراً، وعندها عاد كيسلير لينظر إلى المشهد المتشظي أو في مرحلة التشظّي المتواصل، مثل لعبة القطع التي

تُرَكَّب وتُفكّك في كلّ ثانية وقال للذي كان يقودُ أن يأخذه إلى مكبّ قمامة إل تشيلي، أكبر مكبّ سرّي في سانتا تِرِسا، أكبر من مكبّ البلديّة، حيث ليست شاحنات المعامل وحدها هي التي تُودِع مخلفاتها فيه بل ومعها شاحناتُ القمامة التي تتعاقد معها البلديّةُ وشاحناتُ بعض الشركات الخاصّة، الكبيرة منها والصغيرة التي تعمل بعقودٍ ثانوية أو تعمل في مناطق مقاولاتٍ لا تُغطيها الخدمات العامّة، وعندها خرجت السيارة من الشوارع الترابية وبدا أنّها ترجع وتعود إلى ضاحية لا بيستوسا والطريقِ العام، إلا أنّها استدارت بعدها ودخلت في شارع أعرض، لكنّه موحِشٌ مثله، حيث الجنبات مغطاة بطبقة من الغبار، كما لو أنَّ قنبلةً ذرّية سقطت في تلك الأماكن ولم ينتبه أحد إليها غير المتأثّرين بها، فكَّر كيسلير، لكن المتأثّرين لا يحكون لأنّهم جُنّوا أو ماتوا، وإن كانوا يمشون وينظرون إلينا، بعيون ونظراتٍ خارجةٍ مباشرةً من فيلم كوبوي، من جانبِ الهنود أو الأشرارِ، طبعاً، أي بنظراتِ مجانين، نظراتِ ناس يعيشون في بعدٍ آخرَ ونظراتهم بالضرورة ما عادت تلمسنا، نحسّ بها، لكنّها لا تلمسنا، لا تلتصق بأجسادنا، تخترقنا، فكّر كيسلير بينما هو يقوم بحركة من سيُنزل زجاجَ النافذة. لا، لا تفعل، قال أحد المُحَقِّقَيْن. لماذا؟ الرائحة، رائحة ميت. رائحة ليست جيّدة. وصلوا، بعد عشرة دقائق، إلى المكبّ.

وأنتِ ما رأيكِ بكلّ هذا؟، سأل أحدُ الصحفيّين المُحاميةَ. طأطأت المحاميةُ رأسها ثمّ نظرت إلى الصحفيّ ثمّ إلى هاس. صوّرها شوي بيمنتِل: بدا أنّه ينقصها هواء وأنّ رئتيها ستنفجران في أيّ لحظة، بالرغم من أنّها بخلاف أولئك الذين ينقصهم الهواءُ لم تحمرّ بل شحُبَت إلى حدّ كبير. كانت هذه فكرة السيّد هاس، قالت، التي ليس بالضرورة أن أتوافقَ معها. تكلّمت بعدها عن عدم وجود حماية للسيّد هاس، عن المحاكمات التي تؤجّل، عن الأدلة التي تضيعُ، عن الشهودِ المُكْرَهين،

عن البرزخ الذي يعيش فيه موكّلُها. أيّ شخص آخر كان سيفقد أعصابه، همستْ. نظرت صحفيةُ *إل إندِبِّنديينتِ* إليها بسخرية واهتمام. أنتِ تقيمين علاقةً عاطفية مع كلاوس، أليس صحيحاً؟، سألت. كانت الصحفيّة شابّة، لم تُتِمّ الثلاثين من عمرها بعد، وكانت مُعتادة على التعامل مع ناس يتكلّمون بطريقةٍ مُباشرة وفجّة أحياناً. كانت المحامية تتجاوز الأربعين من عمرها وتبدو متعبة. كما لو أنّها تحمل على كاهلها يومين دون نوم. ليس هنا مجاله.

في السادس عشر من تشرين الثاني عُثِرَ على جثّةِ امرأةٍ أخرى في الأراضي الواقعة خلف معمل كوساي، في ضاحية سان بارتولومِهْ. كان عمر الضحية، بحسب التحقيقات الأولى، ما بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين، وكان سبب موتها، بحسب تقرير الطبّ الشرعي، الخنق. كان جسدُها عارياً تماماً وثيابُها على بعد خمسة أمتار منها، مخبّأة بين الجنبات. على كلّ الأحوال، لم يُعْثَرْ على كلّ ملابسها بل فقط على بنطلون من النوع المُكَسّم، أسودَ اللون وعلى سروال داخلي أحمر. بعد يومين تعرّف والدُها على أنّها روساريو ماركينا في التاسعة عشرة من عمرها، اختفت يوم الثاني عشر من تشرين الثاني حين ذهبت لترقص في صالة مونتانا، في جادّة كارّانثا، غير البعيدة عن ضاحية بِراكروث، حيث كانوا يعيشون. تشاء المصادفة أنّ الضحيّةَ ووالديها كانوا يعملون في معمل كوساي. بحسب الأطباء الشرعيين، اغتُصِبت الضحيّة عدّة مراتٍ قبل أن تُقتل.

عادت كيلي لتظهر كهديّة من السماء. في الليلة الأولى التي التقينا فيها بقينا مستيقظتَيْن حتى الفجر نحكي حياتنا. كانت حياتها، بالمختصر، كارثة. حاولت أن تصير ممثّلةً مسرحيّة في نيويورك، حاولت أن تصير ممثلة سينمائيّة في لوس أنجلوس، حاولت أن تصير

موديلاً في باريس، مصوّرة في لندن، مترجمة في إسبانيا. أرادت أن تدرس رقصاً حديثاً، لكنّها تركته في السنة الأولى. أرادت أن تصير رسّامة وحين عرضت للمرّة الأولى انتبهت إلى أنّها ارتكبت أسوأ خطأ في حياتها. لم تتزوّج، لم يكن عندها أولاد، لم يكن عندها أسرة (أمّها ماتت حديثاً بمرض طويل) لم يكن لديها مشاريع. كانت اللحظة المثالية للعودة إلى المكسيك. في العاصمة الفيدرالية لم تجد صعوبة في الحصول على عمل. كان لها أصدقاء وكنتُ أنا أفضل صديقة لها، لا تشكّ بذلك ولا لثانية،. لكنّها لم تحتج لأن تلجأ لأحدٍ (على الأقل لأحدٍ ممن كنتُ أعرفهم) لأنّها سرعان ما بدأت تعمل فيما نُسمّيها دوائر الفن. أي أنّها كانت تُعِدُّ الافتتاحات، تأخذ على عاتقها تصميمَ وطباعةَ الكتالوجات، تنام مع الفنّانين، تتكلّمُ مع المشترين، كلّ ذلك على حساب تجّار الفنّ في العاصمة الفيدرالية، الرجال الأشباح الذين كانوا وراء صالات الفن والرسامين والذين كانوا يُمسكون بخيوط المسألة.
كنتُ وقتها قد تخليت عن انتمائي إلى اليسار العَبَثِيّ، لا أريدك أن تشعر بالإهانة، ورحتُ أقترب في كلّ مرّة أكثر من بعض قطّاعاتِ الحزب الثوري الدستوري. قال لي زوجي السابق مرّةً: إذا ما بقيتِ تكتبين ما تكتبينه سوف يُهمّشونك أو يفعلون بك ما هو أسوأ. أنا لم أتوقّف للتفكير بالمعنى الذي كان لكلمة أسوأ، لكنّني بقيتُ أكتبُ، واكتبُ مقالات. وكانت النتيجة أنّهم لم يُهمّشوني وحسب، بل تلقيت إشارات بأنَّ من هم في الأعلى صاروا في كلّ مرّة أكثر اهتماماً بي. كانت مرحلة غير معقولة. كنّا شباباً، ليس عندنا مسؤوليات زائدة، كنّا مُسْتَقِلّين، ولم يكن ينقصنا المال. في تلك السنوات كان أن قرّرت كيلي أنّ أكثر اسم يلائمها هو كيلي. كنتُ ما أزال أناديها لوث ماريّا، لكنّ الأشخاص الآخرين كانوا ينادونها كيلي، إلى أن قالت لي ذلك بنفسها ذات يوم. قالت لي: يا أثوثِنا، لا يعجبني اسم لوث ماريّا ريبِرا، لا يُعجبني وقعُهُ في السمع، أُفَضّلُ كيلي، كلّ الناس ينادونني

هكذا، فهل ستفعلين هذا أنتِ أيضاً؟ قلتُ لها ليس هناك مشكلة، إذا كنتِ تريدين أن أقول لك كيلي فسأفعل. وبدأتُ منذ تلك اللحظة أناديها كيلي، في البداية بدا لي مضحكاً، تحذلقاً أمريكياً شمالياً نموذجيّاً. لكنّني انتبهتُ بعدها إلى أنّ الاسم كان زيتاً على زيتون بالنسبة إليها. ربّما لأنّ كيلي كان لها ملمح خفيف من غريس كيلي. أو لأنّ كيلي اسمٌ قصير، مقطعان صوتيان، بينما لوث ماريّا ربِبرا كان أطول. أو لأنّ لوث ماريّا يُوحي بشيء دينيٍّ وكيلي لا يوحي بشيء أو يُوحي بصورة. يجب أن يكون عندي في مكان ما بعض رسائلها موقّعة باسم كيلي ر. باركر. أعتقد أنّها كانت توقّع حتى الشيكات ببهذا الاسم. كيلي ر. باركر. هناك ناس يعتقدون أنّ الاسم هو القدر. أنا لا أعتقد أنّ هذا صحيح. لكن لو حتى ولو كان كذلك، فإنّها حين اختارت هذا الاسم فإنها خَطَت بطريقة ما خطوتَها الأولى لتدخل في اللامرئيّ، لتدخل في الكابوس. هل تعتقد أنتَ أنّ الاسمَ هو القدر؟ لا، قال سِرخيو، والأفضل لي ألا أعتقد ذلك. لماذا؟، تنهّدتْ النائبةُ، دون فضول. لي اسم عادي جدّاً، قال سِرخيو وهو ينظر إلى نظارة مضيفتِهِ السوداء. رفعت النائبة للحظة يديها إلى رأسها كما لو أنّ بها شقيقة. هل تريدني أن أقول لك شيئاً؟ كلّ الأسماء عادية، كلّها مبتذلة، سواء سميت كيلي أو لوث ماريّا فالأمر في الأساس سيّان. كلّ الأسماء تتلاشى. هذا ما عليهم أن يُعَلّموه للأطفال، منذ الابتدائية. لكنّنا نخاف أن نفعل ذلك.

لم يُدهش مكبُّ قمامة إل تشيلي كيسلير كما أدهشته الشوارع التي استطاع أن يجوبها داخل سيارة الشرطة التي كانت ترافقها سيارة شرطة أخرى، في الضواحي التي عادةً ما تحدث فيها عمليات الاختطاف. قال للصحفيين: مُخيفٌ المشيُ في ضاحية كينو، بيستوسا، رِمِديوس مايور ولا برثيادا في الجنوب الغربي من المدينة، ولاس فلورِسْ،

ضاحية بلاتا، آلامو، لوماس دِل تورو في الغرب، القريبة من المناطق الصناعية والمحصّنة، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بعمود فقريّ مضاعف، في جادتي روبِن داريّو وكارّنثا، ضاحية سان بارتولومِهْ، وغوادالوبّ فيكتوريا، لا ثيوداد نوِبا، ضاحية لاس روسيتاس في القسم الشمالي الغربي من المدينة، أعني: يُخيف رجلاً مثلي. هزَّ الصحفيون، الذين ما من أحد منهم كان يعيش في تلك الضواحي، رؤوسَهم موافقين. على العكس من رجال الشرطة الذين ابتسموا خِفية. بدت لهم نبرة كيسلير ساذجة. نبرة غرينغو. غرينغو طيّب، واضح، لأنّ للغرينغو الشرّير نبرة أخرى، يتكلّم بطريقة أخرى. إنّها خطيرة ليلاً بالنسبة للمرأة. وقال أيضاً: مُخيفةٌ غالبيةُ الشوارع، إذا ما استثنينا الأعصاب الكبيرة، حيث تمرّ الحافلاتُ، سيّئة الإضاءة أو خالية تماماً منها. هناك أحياء لا تدخلها الشرطة. قال لعمدة المدينة، الذي تحرّك في مقعده كما لو أنّ أفعى لدغته وأظهر وجهاً مُطلقَ الحزن ومطلقَ التفهّم. قال نائب ولاية سونورا العام ونائبه والمُحقّقان، ربّما، لعلّه، وقد تكون هذه هي المشكلة، أقول، وهذا مجرد كلام، إنّها مشكلة شرطة البلدية، التي يقودها دونْ بِدرو نِغْرِتِ، الأخ التوأم لرئيس الجامعة. وسأل كيسلير من يكون بِدرو نِغْرِتِ، وما إذا كانوا قد قدّموه له، فقال له المُحقّقان الشابّان والنشيطان في آن معاً، اللذان كانا يُرافقانه إلى كلّ مكان ولم تكن لغتهما الإنكليزية سيّئة، لا، إنّهما في الحقيقة لم يريا دون بِدرو قريباً من السيّد كيسلير، وطلب منهما كيسلير أن يصفاه له، فقد يكون قد رآهُ فعلاً في اليوم الأوّل في المطار فقدّم له المحقّقان وصفاً مختصراً لقائدِ الشرطة، ليس بكثير من الرغبة، تصويراً مختزلاً وسيّئاً، كما لو أنّهما ندما بعد أن ذكرا بِدرو نِغْرِتِ على فعلتهما. التصوير المختزل لم يعنِ شيئاً بالنسبة لكيسلير. بقي صامتاً. كمان مصوغاً من كلمات فارغة. رجل قاس وأصيل، قال المُحقّقان الشابان والنشيطان. عضو قديم في الشرطة الجنائية. لا بدّ أنّه مثل أخيه رئيس

الجامعة، فكّر كيسلير. لكنّ المحققيْن ضحكا ودعواه إلى آخر كأس من الباكارونا وقالا له لا، يجب ألا يُكَوِّن هذه الفكرة، فدون بِدرو لا يشبه في شيء، لا يُشبه أطلاقاً دون بابلو، الذي هو رئيس الجامعة، وإنّه كان طويلاً ونحيلاً، محض هيكلٍ عظميّ، يمكن أن يُقال، بينما دون بِدرو كان أقرب إلى المربوع، عريضَ المنكبين، لكنّه مربوع ممتلئ فهو كان يُحبّ الموائد الجيدة ولا يشمئز من الطعام الشمالي ولا الهمبورغر الأمريكية. وعندها سأل كيسلير نفسَهُ عما إذا كان عليه أن يتكلّم مع رجلِ الشرطةِ هذا. تساءل عمّا إذا كان عليه أن يزوره. أيضاً سأل نفسه لماذا لم يذهب قائدُ الشرطة لزيارته، فهو بعد كلّ حساب الضيفُ. وهكذا سجّل اسمه في دفتر ملاحظاته. بِدرو نِغْرِتِ، مُحقّق سابق، قائد شرطة بلدية المدينة، رجل مُحترم، لم يأتِ ليُسلّم عليَّ. ثمّ تفرّغ لمسائل أخرى. تفرّغ لدراسة جرائم قتل النساء، جريمةً فجريمة، راح يشرب أقداح الباكارونا، يا إلهي، كم كان لذيذاً. راح يُحضّر محاضرتيه للجامعة. وذات مساء خرج من الباب الخلفي، تماماً كما فعل يوم وصوله، وذهب في سيارة أجرة إلى سوق المهن اليدوية، الذي يسميه بعضُهم سوقَ الهنود، وآخرون السوق الشمالي ليشتري تذكاراً لزوجته. وكانت، كما في المرّة السابقة تتبعه سيارة شرطةٍ أيضاً دون شعارات طوال خط سيره.

حين غادر الصحفيون سجنَ سانتا تِرِسا أسندت المحاميةُ رأسها إلى الطاولة وراحت تنتحب بصوت خافت، بتحفُّظ يتناقض مع صورتها كامرأة بيضاء. هكذا كانت تبكي الهنديات. بعض الخلاسيات. لكن ليس البيضاوات وأقل منهنّ البيضاوات اللواتي درسن في الجامعات. حين شعرت بيد هاس تستقرّ على كتفها، ليس كمداعبة بل كحركة ودّية أو ربّما ليست حتى ودّية، بل كحركة شاهد، جفّت دموعها القليلة التي انزلقت على الطاولة التي كانت تفوح منها رائحةُ مواد مُعقّمة، رائحة

كوردايت بشكل غريب) ونظرت إلى وجه مُوَكِّلها، خطيبها، صديقها، الشاحب، الوجه الخدر والمرتاح في آن معاً (كيف يمكن أن يكون مرتاحاً وخدراً في آن معاً؟)، الذي كان يُراقبها بصرامة علمية، لكن ليس من غرفة السجن تلك بل من البخار الكبريتي لكوكب آخر.

في الخامس والعشرين من تشرين الأوّل عُثِرَ على جثّة ماريّا إلِنا تورّسْ، ابنة الثانية والثلاثين، داخل بيتِها الواقعِ في حيّ سوكرِ، في ضاحية روبِن داريّو. قبل يومين، في الثالث والعشرين من تشرين الثاني، جابت مظاهرةٌ نسائية شوارعَ سانتا تِرِسا، وتحديداً من الجامعة وحتى رئاسة البلدية، احتجاجاً على قتل النساء وحصانة القتلة. دعت للمظاهرة حركة أم إس دي بّي وانضمّت إليها بعض المنظمات غير الحكومية وكذلك الحزب الثوري الديمقراطي وبعض المجموعات الطلابية، لم يُشارك فيها، بحسب السلطات، أكثرُ من خمسة آلاف شخص. وبحسب المنظمين الداعين لها كان الذين ساروا في شوارع سانتا تِرِسا أكثر من ستين ألفاً. كانت ماريّا إلِنا واحدة منهم. بعد يومين طعنوها بالسكين في بيتها ذاته، اخترقت إحدى الطعنات عنقَها مُحدثةً نزيفاً سبَّبَ لها الوفاةَ لاحقاً. كانت ماريّ إلِنا تعيش لوحدها، إذ لم يكن قد مضى زمن طويل على انفصالها عن زوجها. لم يكن عندها أولاد. بحسب الجيران كانت قد تجادلت في ذلك الأسبوع مع زوجها. حين حضرت الشرطة إلى النزلِ الذي يعيش فيه الزوج، كان هذا قد ولّى الأدبار. أُوكلت القضيّةُ إلى المُحقّق لويس بيّاسِنيور، الذي وصل حديثاً من هِرموسيّو، وتَوَصَّل بعد أسبوع من الاستجوابات إلى نتيجة مفادها أنّ القاتلَ لم يكن الزوجُ الهارب بل خطيبُ ماريّا إلِنا. شخص يُدعى أَوْغوستو أو تيتو إسكوبار، وكانت الضحيةُ تلتقي به منذ شهر. كان المدعو إسكوبار يعيش في ضاحية لا بيستوسا ولم يكن لديه عملٌ معروف. حين ذهبوا ليبحثوا عنه كان قد هرب. وجدوا في بيته ثلاثة

رجال. صرّح هؤلاء بعد أن أُخضِعوا للاستجواب أنّهم رؤوا إسكوبار يعود ذات ليلة إلى البيت بقميصٍ مُلَطّخ بالدم. اعترف المُحقِّق بيّاسِنيور بأنه لم يضطر في حياته لأن يستجوب ثلاثة رجال أسوأ رائحة منهم. قال: كان الخراء يُشكل جلداً ثانياً لهم. كان الثلاثة يعملون في البحث في قمامة مكبّ إل تشيلي السرّي. البيت الذي كانوا يعيشون فيه لم يكن يخلو من الحمام وحسب ومن مياه الصنبور. كيف تمكّن الوغد، المدعو إسكوبار، من أن يصبح عشيق ماريّا إلِنا؟ تساءل المحَقِّق بيّاسِنيور. أخرج بيّاسِنيور الموقوفين الثلاثة بعد الاستجواب إلى الفناء وضربهم بقطعة خرطوم مياه. ثمّ أجبرهم على أن يتعرّوا، ورمى إليهم بقطعة صابون وغسلهم بماء الخرطوم النظيف مدّة خمس عشرةَ دقيقةً. فكّر بعدها بينما كان يتقيّأ، أنّ كلا الفعلين لم يكونا يخلوان من بعض المنطق. كما لو أنّ الواحد منهما كان يقود إلى الثاني. الضرب بالخرطوم الأخضر. الماء الذي كان يخرج من الخرطوم الأسود. التفكير بهذا أراحه. بناء على الوصف الذي قام به رجلا القمامة رسموا صورة تقريبية للقاتل المفترض واستنفروا رجالَ شرطة مناطق أخرى. ومع ذلك فالقضيّة لم تُثمر. ببساطة اختفى الزوج السابق والخطيبُ ولم يُعْرَف بعدها عنهما شيء.

طبعاً انتهى العملُ ذات يوم. يتغيَّرُ تجارُ الأعمال الفنية وتتغيّرُ صالات العرض. بينما الفنانون المكسيكيّون لا يتغيّرون. فهؤلاء هم دائماً رسامون مكسيكيون، لِنَقُلْ مثل مُغَنّي الماriاتشي، لكنّ مُغَنّي المارياتشي يشرعون بالطيران إلى جزرِ كايمان بينما صالات الفنّ تُغلَق أو تُخَفِّض رواتبَ مستخدَميها. شيء من هذا القبيل كان لا بدَّ أن يحدث لكيلي. عندها تفرّغت لتنظيم استعراضات الموضة. في الأشهر الأولى سارت أمورها بشكل جيّد. الموضة مثل الرسم، لكنّها أسهل. الملابس أرخص، لا أحد يبني أوهاماً كثيرة عند حصوله على ثوب،

يعني أنّ الأمور سارت في البداية بشكل جيّد، كانت تملك خبرةً وصداقاتٍ والناس إذا لم يكونوا يثقون بها، فَهُمْ يثقون بذوقها، استعراضات الأزياء التي نظّمتها كيلي كانت ناجحة. لكنّها كانت سيّئة الإدارة لنفسِها ومداخيلها وكان، بحسب ما أتذكّرُ، ينقصُها المال دائماً. كان إيقاعُ حياتها يُخرجني أحياناً عن طوري فندخل في شجارات رهيبة. قدّمتُها في أكثر من مناسبة إلى رجال عزّاب، أو بالأحرى مُطَلّقين مُستعدّين للزواج منها ولتمويل إيقاعِ حياتِها، لكنّ كيلي كانت في هذا الجانب ذات استقلالية تامّة. لا أريد أن أقول لك بهذا إنّها كانت قِدّيسة. لم يكن فيها شيء من القديسة. أعرف رجالاً (أعرف هذا لأنّ هؤلاء الرجال أنفسهم حكوه لي والدموع في عيونهم)، سحبت منهم كلّ الذي استطاعته. لكن لم تفعل ذلك قط تحت غطاء شرعي. إذا كانوا يعطونها ما تطلبه فلأنّها كانت تطلبه هي، كيلي ريبرا باركر، وليس لأنّهم كانوا يشعرون بالواجب تجاه الزوجة أو الأمّ (فكيلي كانت قد اتخذت، عند هذا المستوى من حياتها، قرارَها بأنّها لا تريد أولاداً) أو تجاه العشيقةِ الرسمية. شيء في طبيعتها كان يرفض أيّ نوعٍ من الالتزام العاطفي، بالرغم من أنّ العيش دون التزامات وَضَعَها في حالة حرجة، حالة لم تكن كيلي تعزوها أبداً لموقفها بل لانعطافات القدر المباغتة. كانت تعيشُ، مثل أوسكار وايلد، فوق إمكاناتها. وأكثر ما يدهِش من كلّ ذلك هو أنّه لم يكن هذا يُعَكِّر مزاجها أبداً. حسن، أحياناً بلى، رأيتُها أحياناً ساخطة، غاضبة، لكنّ هذه الفورات سرعان ما كانت تمرّ بعد دقائق قليلة. إحدى ميّزاتها، التي تجاوبتُ معها دائماً، هي تضامنها مع الأصدقاء. إذا ما فكّرتُ بالأمر جيداً، يمكن ألا تكون ميّزةً بالضبط، لكنّها كانت هكذا، فالصديق أو الصديقة كان شيئاً مقدّساً وهي كانت دائماً إلى جانب أصدقائها. مثلاً، حين دخلتُ في الحزب الثوري الدستوري حدثت هزّة منزلية خفيفة، كي أسميها بطريقة ما. بعض الصحفيين الذين كنتُ

أعرفهم منذ زمن طويل ما عادوا يكلّمونني. آخرون، الأسوأ منهم استمروا بالكلام معي، لكّنهم راحوا على الأخصّ يتناولونني من وراء ظهري. بلد الذكوريين هذا، كما تعرفُ جيّداً، دائماً كان مليئاً باللوطيين. وإلا ما كان من الممكن تفسير تاريخ المكسيك. لكنّ كيلي بقيت دائماً إلى جانبي، لم تطلب منّي قط توضيحاً، لم تُعَلّق قط بهذا الخصوص. البقيّة، أنت تعرف، قالوا إنّني دخلتُ كي أُحَسِّنَ وضعي. طبعاً دخلتُ كي أُحَسِّنَ وضعي. فقط هناك طرقٌ وطرق لتحسين الوضع وأنا كنتُ قد تعبتُ من التبشير في الفراغ. كنتُ أُريد سُلْطةً، هذا ما لن أناقشه مع أحد. كنتُ أريد يدين طليقتين، كي أغيّرَ بعضَ الأشياء في هذا البلد. أيضاً لا أُنكر هذا. كنتُ أريد أن أُحسّن الصحةَ العامة والتعليمَ العام وأن أُساهم بحبة رمل في دخول المكسيك إلى القرن الحادي والعشرين. إذا كان هذا تحسين وضعٍ، فأنا أريد أن أحسَّ. طبعاً قليل هو ما حقّقته. لا شكّ أنّني توهّمتُ أكثر مما تعقّلتُ ولم أتأخّر في أن أنتبه إلى خطئي. يعتقد المرءُ أنّه يستطيع أن يُحسّنَ بعضَ الأشياء من الداخل. على الأقل يعتقد المرء أنّه من الداخل سيكون أكثر حرّية في العمل. زيفٌ. هناك أشياء لا تتبدّل لا من الخارج ولا من الداخل. لكن هنا يأتي الجزء الأظرف، الجزء الأكثر لامعقولية في القصة (وسيّان عندي أكانت قصّة مكسيكِنَا الحزينة أو أمريكانا الحزينة). هنا يأتي الجزء ال-لا-مع- قول. حين يرتكب المرء أخطاء في الداخل، تفقد الأخطاء معناها. الأخطاء لا تعودُ أخطاء. الأخطاء، نطح الجدار بالرأس، تتحوّل إلى فضائل سياسية، إلى احتمالات سياسيّة، إلى حضور سياسيّ، إلى نقاط إعلامية لصالحك. أن تكون وتخطئ، ساعةَ الحقيقة، وهما جميع الساعات، أو على الأقلّ كلّ الساعاتِ بدءاً من الثامنة ليلاً وحتى الخامسة صباحاً، هو موقف متسق مثله مثل القبوعِ والانتظار. لا يهمّ ألا تفعل شيئاً، لا يهم أن تسقيه، المهم هو أن تكون. أين؟ هناك، حيث يجب أن تكون.

هكذا كان أنّني لم أعد معروفةً وصرتُ مشهورة. كنتُ امرأة جذّابة. كنت أقول ما أفكّرُ به، كان ديناصورات الحزب الثوري الدستوري يضحكون من فظاظاتي، وأسماك قرش الحزب الثوري الدستوري يعتبرونني واحدةً منهم، الجناح الأيسر من الحزب كان يحتفلُ بالإجماع بارتفاع نبرتي. أنا لم أكن أنتبه ولا حتى للنصف. الواقعُ مثل قوّاد مُحشِّش. ألا تعقد أنّه كذلك.

لاقت محاضرةُ ألبِرت كيسلير الأولى في جامعة سانتا تِرِسا نجاحاً من حيث الجمهور، قليلون هم من يتذكّرونه.. إذا ما استثنينا حديثين جريا في المكان نفسه قبل سنوات، واحد قدّمه مرشح الحزب الثوري الدستوري إلى رئاسة الأمّة والثاني رئيس منتخب، لم يحدث أن امتلأ المدرّجُ الجامعي، الذي يتسع لألف وخمسمئةِ شخص بتلك الطريقةِ. بحسب التقديرات الأكثر تحفّظاً فإنّ الناس الذين ذهبوا ليستمعوا إلى كيسلير تجاوزوا الثلاثة آلاف شخص بكثير. كان حدثاً اجتماعيّاً، أراد كلّ من كان له بعض الاعتبار في سانتا تِرِسا أن يعرفه، أن يُقَدَّمَ إلى زائرٍ بمثل تلك الوجاهة، أو على الأقل أن يراهُ عن قرب، وكذلك كان حدثاً سياسيّاً، إذ حتى مجموعات المعارضة الأكثر تشدّداً بدا أنّها هدأت واختارت موقفاً أكثر فطنةً وأقل صخباً من ذلك الموقف المُظَهر حتى تلك اللحظة، بل حتى أنصار المرأة ومجموعات أسر النساء والطفلات المختفيات قرّرت أن تنتظر المعجزةَ العلمية، معجزةَ العقل البشري الذي أطلقه شارلوك هولمز المعاصر.

ظهر خبر تصريح هاس الذي يتهم فيه ابني أوريبِ في الصحف الستّ التي أرسلت مراسليها إلى سجن سانتا تِرِسا. خمسة منهم راجعوه مع الشرطة، التي، مثلها مثل صحفِ المكسيك الكبرى، لم تعطِهِ بطريقة صريحة أيّ مصداقية. اتصلوا أيضاً ببيت أوريبِ وتكلّموا

مع أبناء أسرتهما، الذين قالوا لهم إنّ أنطونيو ودانييل مسافران، أو أنّهما ما عادا يعيشان في المكسيك، أو أنّهما انتقلا ليُقيما في العاصمة الفيدرالية، التي كانا يدرسان في إحدى جامعاتها. صحفيّة *إل إندِبِّنديِنتِ دِ فونيكس*، ماري-سو برابو، حصلت حتى على عنوان والدِ دانييل أوريبِ وحاولت أن تُقابله، لكنّ كلّ محاولاتها باءت بالفشل. خواكين دِ أوريبِ كان دائماً عنده ما يفعله أو أنّه خارج سانتا تِرِسا أو خرج توّاً. التقت ماري-سو برابو خلال الأيام التي بقيت فيها في سانتا تِرِسا مصادفةً بصحفيّ *لا راثا دِ غرين فيلي*، الصحيفة الوحيدة التي غطّت مؤتمرَ هاس ولم تقارن تصريحاته مع رأي الشرطة الرسمي، مجازفة بذلك بأن تدّعي عليها أسرة أوريبِ وأجهزة ولاية سونورا الرسمية التي كانت تُدير القضية. رأته ماري-سو برابو من خلال نوافذِ مطعم اقتصاديّ في ضاحية مادِرو حيث كان صحفيٌّ *لا راثا* يأكلُ. لم يكن وحده، فإلى جانبه كان هناك شخص ضخم وقوي ظنّت ماري-سو أنّه شرطي. في البداية لم تولِ صحفيَّةُ *إلى إندِبِّنديِنتِ دِ فونيكس* أهمّية للموضوع وتابعت طريقها، لكنّها بعد أمتار قليلة خطرت لها فكرة وعادت. وجدت صحفيّ *لا راثا* وحده، صاباً اهتمامَهُ على بعض التشيلاكيلِس[1]. تبادلا السلام وسألته عمّا إذا كان باستطاعتها أن تجلس. قال لها صحفيّ *لا راثا* كيف لا. طلبت ماري-سو كوكاكولا لايت ومكثا يتكلّمان برهةً عن هاس وعائلة أوريبِ المتهرّبة. دفع صحفيّ *لا راثا* بعد ذلك الحساب وذهب تاركاً ماري-سو وحدها في المطعم المليء بالأشخاص، الذين لهم، مثل الصحفيّ، سحنةُ عمّالٍ مياومين وظهورٍ مُبلّلة.

---

(١) تشيلاكيلِس طبق مكسيكي أساسه خبز ذرة مقلي يُطبخ بعدها بصلصة الشطّة والمرق ويُقدّم عادة مع البصل والفرّوج والجبن المبشور.

في الأوّل من كانون الأوّل عُثِرَ على جثّة شابّة ما بين الثامنة عشرة والثانية والعشرين من عمرها، في مجرى جدول جافّ، في محيط كاساس نِغراس. عثر عليها سانتياغو كتلان، الذي كان في رحلة صيد واستغرب السلوك الذي أظهرته الكلابُ في تلك اللحظة وهي تقترب من الجدول، فجأة وبحسب ما عبّر الشاهدُ، راحت الكلابُ ترتجفُ، كما لو أنّها شمّت رائحةَ نمر أو دبٍّ، لكن وبما أنّه لا يوجد هنا نمور ولا دببة، تصوّرتُ أنّها شمّت رائحة شبحِ نمرٍ أو دبٍّ. أعرفُ كلابي، وأعرف أنّها حين تبدأ ترتجفُ وتئنّ تفعل ذلك لسبب مبّرر. عندها داخلني الفضول وهكذا وبعد أن رفستُ الكلاب كي تتصرّف كفحول، توجّهتُ إلى الجدول بعزيمة. حين دخل سانتياغو كتلان في الجدول الجاف الذي لا يتجاوز عمقه الخمسين سنتيمتراً، لم يرَ ولم يشمّ شيئاً وحتى الكلاب ذاتها بدت هادئة. لكنّه عندما وصل إلى المنعطف الأوّل سمع جلبةً وعادت الكلاب لتنبح وترتجف. سحابة من الذباب كانت تلفّ الجثّة. صُعق سانتياغو كتلان الذي أفلت الكلابَ وأطلق طلقة في الهواء. انسحب الذباب للحظة واستطاع أن ينتبه إلى أنّ الجثّة كانت لامرأة. كذلك تذكّر أنّه سبق وعُثِرَ في تلك المنطقةِ على نساء شابات مقتولات. خاف للحظة أن يكون القتلةُ ما يزالون في المكان وأسفَ لأنّه أطلق النار. خرج بعدها متخذاً أقصى الحذر من المجرى الجافّ وتأمّل المنظر العام من حوله. لا شيء غير صبار التشويا والبيثاغا وفي البعيد شجرة صبار سهوارو وكل تنويعات اللون الأصفر الذي كان يتوضع بعضه فوق بعض على شكل طبقات. حين عاد إلى مزرعته، المسماة الخوغادور، والواقعة في أطراف كاساس نِغراس، هتف للشرطة ودلّهم على مكان الجثة بدقّة. غسل بعدها وجهَهُ وهو يُفكّر بالميتة وبدّل قميصه وأمر، قبل أن يخرج، أحدَ مستَخدَميه بأن يُرافقه. حين وصلت الشرطةُ إلى المجرى الجافّ، كان كتلان ما يزال يحمل بندقيّةَ صيده وحزام خرطوشه. كانت الجثّة على ظهرها وليس عليها غير

فردة بنطلون في إحدى رجليها على مستوى الكاحل. لوحظت أربعة جروح بسلاح أبيض في بطنها وثلاثة في صدرها، وكذلك كدمة في رقبتها. كانت سمراء البشرة، سوداء الشعر المصبوغ والطويل الواصل حتى كتفيها. على بعد أمتار قليلة وجدوا حذاءها: حذاء تنس كونفرس أسود اللون وأبيض الرباطين. بقية الملابس كانت قد اختفت. فتّشت الشرطة المجرى بحثاً عن آثار، لكنّها لم تعثر على شيء أو لم يعرفوا كيف يعثرون على شيء. بعد أربعة أشهر وبالمصادفة المحضة تمكّنوا من تحديد هويّتها. كان الأمر يتعلق بأورسولا غونثالِث روخو في العشرين أو الحادية والعشرين من عمرها، من دون عائلة أقامت في السنوات الثلاث الأخيرة في ثاكاتِكاس. كانت قد وصلت إلى سانتا تِرِسا قبل ثلاثةِ أيّام من اختطافها وقتلها. هذا الأخير حكته صديقة من ثاكاتِكاس، هتفت لها أورسولا. بدت سعيدة، قالت، لأنّها كانت ستعثر على عمل في معمل. أُمكن التعرّف على هويّتها بفضل حذاء الكونفرس وندبة صغيرة في ظهرها على شكل شعاع.

الواقعُ مثل قوّاد محشّش وسط عاصفة من الرعودِ والبروق، قالت النائبة. لزمت بعدها الصمتَ برهةً، كما لو أنّها تستعدُّ لتستمع إلى الرعود البعيدة. أخذت بعدها كأس التِكيلا، الذي عاد ليمتلئ، وقالت: في كلّ يوم كان عندي مزيد من العمل، هذه هي الحقيقةُ الخالصة. مشغولة كلَّ يوم بحفلات عشاء، أسفارٍ، اجتماعاتٍ، خططٍ لم تكن تقود إلى مكان، باستثناء إنهاكي اللامحدود، كلّ يوم مقابلات، كلّ يومٍ تكذيبات، كلّ يوم تلفزيون، عشاق، كنت أجامعهم لا أدري لماذا، ربّما كي أحافظ على الأسطورة، وربّما لأنّهم كانوا يعجبونني، أو ربّما لأنّه كان يناسبني أن أجامعهم، مرّة واحدة، هذا صحيح، يُجربون، لكنّهم لا يعتادون، أو ربّما فقط لأنّني أحبُّ أن أُجامع في الوقت والمكان الذي يحلو لي، ولم يكن عندي وقت لشيء، أعمالي

في أيدي محاميَّ، أملاك إسكيبِل بلاتا، التي ما عادت تتناقص، لا أريد أن أكذب عليك، بل راحت ينمو، في أيدي مُحاميَّ، ابني في أيدي أساتذته وأنا في كلّ مرّة أكثر عملاً: مشاكل خرائط المياه في ولاية ميتشواكان، الطرق في كِرِتارو، المقابلات، تماثيل رجالٍ على الخيول، المجارير العامّة، كلّ خراءٍ حيٍّ يمرّ على يدي. أعتقد أنّني ناقشتُ في تلك المرحلة أصدقائي قليلاً. كيلي هي الوحيدة التي كنتُ أراها. ما إن أملك وقتاً حتى أمرّ على بيتها، وهو شقّة في ضاحية كوندِسا ونُحاول أن نتكلّم. لكنّني في الحقيقة كنتُ أصل متعبة إلى حدّ أن التواصل كان مشكلة. هي كانت تحكي لي أشياء، أتذكّر هذا بوضوح، كانت تحكي لي أشياء من حياتها، وفي أكثر من مرّة وضّحت لي شيئاً، ثمّ طلبت مني مالاً وما كنتُ أفعله هو أنّني كنتُ أُخرج دفتر شيكاتي وأوقّع لها شيكاً بالمبلغ الذي كانت تحتاجه. وأحياناً أخرى كنتُ أنام في ذروة الحديث. في مرّاتٍ أخرى كنّا نخرج للعشاء وكنّا نضحك كثيراً، لكنّ تفكيري كان دائماً في مكان آخر، يُقلّب مشكلة لم تُحَلّ بعد وكان يُكلّفني كثيراً متابعة خيط الحديث، وكيلي لم تُعاتبني قط على هذا. في كلّ مرّة كنتُ أظهر فيها في التلفزيون كانت، مثلاً، تُرسل لي في اليوم التالي باقة ورد ورسالة تقول لي فيها كم كنتُ رائعة وكم هي تشعر بالفخار بي. لم تنقطع قط عن إرسال هدية لي في يوم عيد ميلادي. أي تفاصيل من هذا النوع. طبعاً مع الزمن انتبهت إلى بعض الأشياء. استعراضات الأزياء التي كانت تُنظّمها كيلي راحت تتباعد في كلّ مرّةٍ أكثر. وكالة الأزياء التي كانت تعمل فيها ما عادت كما كانت، ما عادت المكان الأنيق والحيويّ وصارت أقرب إلى المكتب المعتم والمغلق دائماً تقريباً. رافقت كيلي مرّة إلى وكالتها ففاجأني الإهمال الذي كانت فيه. سألتها ما الذي يجري. نظرت إليّ مبتسمةً، مبتسمة ابتسامة اللامبالاة التي كانت تُميّزها، وقالت إنّ أفضل الموديلات المكسيكيّة تُفضّل أن تتعاقد مع وكالات أمريكية شمالية أو أوروبيّة.

هناك المالُ. أردتُ أن أعرف ما الذي كان يجري لتجارتها. عندها فتحت كيلي ذراعيها وقالت هو ذا هنا. حاشت الظلمةَ، الغبارَ، الستائر المسدلة. أخذتني رعشة تحذيرية. يجب أن تكون تحذيرية. أنا لستُ امرأة ترتعش من أيّ شيء. جلستُ على كرسيّ وحاولت أن أتروّى. كان إيجار تلك المكاتب عالياً وبدا لي أنّها لا تستحق أن تستمرّ بدفع كلّ ذلك المال على شيء كان يموت. قالت لي كيلي إنّها تُنظّم من حين إلى آخر استعراضات أزياء وسمّت لي أماكن بدت لي بهيّةً، أماكن غير معهودة أو لا تخطر ببال لاستعراضات الأزياء عالية الجودة، بالرغم من أنّني أفترض أنّه لم يكن فيها أيّ شيء من الجودة العالية، ثمّ قالت لي إنّها كانت بما تكسبه تأخذ بالحسبان أن تُبقي على المكتب مفتوحاً. كذلك قالت لي إنّها تتفرّغ الآن لتنظيم احتفالات، ليس في العاصمة الفيدرالية، بل في عواصم المحافظات. وما هذا؟ هذا شيء بسيط للغاية، قالت كيلي، افترضي للحظةٍ أنّك شخص ثريّ من أغواسكاليينتِس. ستُقيمين حفلةً. افترضي أنّكِ تُريدينها حفلة عظيمة. أي حفلة تُدهش أصدقاءك. ما الذي يجعل حفلاً شيئاً لا يُنسى؟ هو البوفيه الذي يُقَدّم، النُّدُل، الأوركسترا، يعني أشياء كثيرة، لكن هناك شيء واحد يبرز الاختلاف. هل تعرفين ما هو؟ المدعوّون، قلتُ. بالضبط المدعوّون. إذا كنتُ شخصاً من أغواكاليينتِسْ وعندك مال كثير ورغبة بإقامة حفل لا يُنسى، تتصلين بي. أنا أُشرِفُ على كلّ شيء. كما لو كان استعراضَ أزياء. أهتمّ بالطعام، بالمُستخدَمين، بالموسيقى، لكنّني أهتمّ على وجه الخصوص وهذا يتعلّق بالمال المُخصّص للحفلة، أهتمّ بالمدعوّين. إذا أردت أن يأتي معشوقُ مسلسلِك التلفزيوني المُفضّل، عليك أن تتكلّمي معي. إذا أردت أن يأتي مُقَدّم برامج تلفزيونية، عليك أن تتكلّمي معي. لنقل إنّني آخذ على عاتقي المدعوّين المشهورين. كلّ شيء يتعلّق بالمال. فالمجيء بمُقدِّم برامج مشهور إلى أغواسكاليينتِسْ ربّما لن يكون ممكناً. لكن إذا كانت

الحفلة في كورْناباكاس، من المحتمل أن أتمكّن من جعله يظهر هناك. لا أقول إنّه سهل، ولا رخيص، لكنّني أستطيع أن أحاول. إنّ المجيء بمعشوق مسلسل تلفزيوني، ممكن تماماً، لكنّه أيضاً ليس رخيصاً. إذا لم يكن المعشوق في أفضل لحظاته، مثلاً، إذا لم يكن قد عمل في السنة والنصف الأخيرة، فإنّ إمكانية ظهوره في الحفلة أكبر. والسعر ليس مفرطاً. ما هو عملي؟ إقناعهم بالذهاب. أوّل ما أفعله هو أنّني أتصل بهم هاتفيّاً، أذهب وأتناول فنجان قهوة معهم، أسبرهم. بعدها أكلّمهم عن الحفلة. أقول لهم إنّ لهم مالاً هناك. عندما نصل إلى هذه النقطة عامّة ما ندخل في المساومة. أنا أعرض قليلاً. هم يطلبون أكثر. نُقارب بين المواقف ببطء. أُبيّن لهم اسمَ الداعين. أقول لهم إنّهم ناس مهمّون. أجعلهم يُردّدون اسم الزوجة والزوج عدّة مرّات. يسألونني هل سأكون هناك. طبعاً سأكون هناك مشرفةً على كلّ شيء. يسألونني عن فنادق أغواسكاليينتِسْ، تامبيكو، إيرابواتا. فنادق جيّدة. ثمّ إنّ جميع البيوت التي سنذهب إليها تحتوي على كمية هائلة من الغرف للضيوف. يوم الحفلة أظهر أنا مع اثنين أو ثلاثة أو أربعة ضيوف مشهورين والحفلة تشكّل نجاحاً. وهل يعود هذا عليك بما يكفي من المال؟ أكثر مما بما يكفي، قالت كيلي، وإن كانت هناك مشكلة وحيدة هي فترات القحط، لا أحد يُريد فيها أن يتكلّم عن حفلات طنّانة، وبما أنّني لا أتقن التوفير، فإنّني أمرّ في مآزق. ذهبنا بعدها لا أعرفُ إلى أين، ربّما إلى حفلة، أو إلى السينما أو لنتناول عشاءنا مع بعض الأصدقاء، ولم نتطرّق بعدها للموضوع. على كلّ الأحوال لم أسمع منها شكوى قط. أعتقد أنّ أمورها كانت تسير أحياناً بشكل حسن وأحياناً أخرى بشكل سيّئ. ومع ذلك اتصلت بي ذات ليلة وقالت لي إنّ عندها مشكلة. ظننتُ أن الأمر يتعلّق بالمال فقلت لها إنّها تستطيع أن تعتمد عليَّ. هل أنت مدينة؟ سألتها. لا، ليست هذه هي مسألة، قالت هي. كنتُ في الفراش، شبه نائمة، فبدا لي جرسُ صوتها

غريباً، طبعاً كان صوتُ كيلي، لكنّ وقع صوتها كان غريباً، كما لو أنّها كانت وحدها، فكّرتُ، في مكتب أزيائها، والأضواء مطفأة، جالسة على كرسيّ لا تعرف ماذا تفعل، أو لا تعرف من أين تبدأ. أعتقد أنّني داخلة في ورطة، قالت. إذا كانت ورطة مع الشرطة قولي لي أين وسأذهب لأبحث عنك فوراً. قالت لي ليست ورطة من هذا النوع من الورطات. بالله عليك، يا كيلي، تكلّمي بوضوح أو اتركيني أنام، قلتُ لها. بدا لي لثوان أنّها أغلقت الخطّ أو أنّها تركت السماعة على الكرسيّ وغادرت. سمعتُ بعدها صوتَها، كصوتِ طفلةٍ، تقول، لا أعرف، لا أعرف عدَّةَ مرّاتٍ، إضافة إلى يقين أنَّ هذه اللا أعرفُ كانت لا تقولها لي، بل لنفسها. عندها سألتُها عمّا إذا كانت سكرانة أو محشّشة، فأكّدت لي بأنّها ربّما شربت كأسين من الويسكي مع الصودا، لكن لا أكثر. اعتذرت بعدها عن المكالمة التي جاءت خارج وقتها. كانت ستُغلق. قلت لها، انتظري، هناك شيء يحدث معك، لا تستطيعين أن تخدعيني. عادت وضحكت. لا شيء، قالت. عفواً، نحن مع الزمن نصير هستيريين، قالت، ليلة سعيدة. انتظري، لا تُغلقي، لا تُغلِقي، قلتُ لها، هناك شيء يحدث معك، لا تكذبي عليّ. لم أفعل ذلك قط، قالتْ. ساد صمت. فقط حين كنّا صغيرتين، قالت كيلي. آه، حقّاً؟ عندما كنتُ طفلةً كنتُ أكذب على الجميع، طبعاً ليس دائماً، لكنّني كنتُ أكذب. الآن ما عدتُ أفعل ذلك.

بعد أسبوع، وبينما كانت تتصفّح لا *راثا دِ غرين فيلي*، شاردة الذهن، علمت ماري-سو برافو بأنّ الصحفيَّ الذي كان قد غطّى تصريح هاس الشهير والمخيّب لاحقاً، قد اختفى. هكذا كانت تقول صحيفتُهُ ذاتها، التي كانت إضافة إلى ذلك قد نشرت الخبر، الخبر المبهم والمحلّي، المحلّي إلى حدّ أنّ الوحيدين الذين اهتمّوا بالخبر هم من كانوا يديرون لا *راثا*. كان جوسِ هِرنانْدِثْ مِركادو، هذا هو

اسمه، قد اختفى قبل خمسة أيّام. كان المُكلّف بالكتابة عن جرائم قتلِ النساء في سانتا تِرِسا؛ وهو في الثانية والعشرين من عمره، يعيش وحدَه، في سونويتا، في بيتٍ مُتَواضِعٍ. كان قد وُلِد في مدينة مكسيكو، لكنّه عاش في الولايات المتحدة، حيث حصل على الجنسية الأمريكية الشماليّة. صدرت له مجموعتان شعريّتان، كلاهما بالإسبانية، عن دار نشر صغيرة في هِرموسيّو، ربّما بتمويل منه، وعملان مسرحيان مكتوبات باللغة التشيكانية، أو الأنكلو-إسبانية ونُشرتا في مجلّة تكساسية، لا ويندوَا تؤوي في حضنها المضطرب مجموعة من الكتّاب النزويين الذين كانوا يكتبون بتلك اللغة الجديدة. وكان قد كتب كصحفيٍّ في لا *راثا* سلسلة طويلة من الأعمال عن العمّال المياومين في المنطقة، العمل الذي كان يعرفه من خلال والديه والذي مارسه هو نفسه. ينتهي الخبرُ، الذي كان نعوة أكثر مما هو خبر، فكّرت ماري-سِو، بالقول بأنّه كان عصامياً وبطلاً في تعلّمه.

في الثالث عشر من كانون الأوّل عُثِر على جثّة امرأة أخرى، مرميّة في قفرٍ في ضاحية مايوتورِنا، بالقرب من الطريق إلى بوِبلو أثول. تظهر بلباسها دون علامات تدلّ على العنف الخارجيّ. عُرف لاحقاً أنّها خوانا مارين لوثادا. سبب الموت بحسب الطبيب الشرعيّ، كسر في فقرات الرقبة. أو ما يعني الشيء ذاته: أحدٌ كسر لها رقبتها. تولّى القضيّةَ المُحقّق لويس بيّاسِنيور، الذي استجوب كإجراء أوّليّ الزوجَ، ثمّ أوقفه كقاتلٍ مُشتَبَهٍ به. كانت خوانا مارين تعيشُ في ضاحية ثِنتِنو، في حيّ من أحياء الطبقة الوسطى وكانت تعمل في حانوت متخصّصٍ بالحواسيب. من المحتمل، بحسب تقرير بيّاسِنيور، أنّهم قتلوها في أحد البيوت ثم رموا بها في قفر ضاحية مايوتورِنا. لا يُعرف ما إذا كانوا قد اغتصبوها، بالرغم من أنّه وبعد فحص الفرج وجدوا علامات تدل على أنّها أقامت علاقات جنسية في الساعات الأربع والعشرين

الأخيرة. كانت خوانا مارين، بحسب تقرير بيّاسِنيور، تقيم افتراضاً علاقات جنسيةً خارج إطار الزوجيّة، مع مدرّس حاسوب في أكاديمية قريبة من الحانوت الذي كانت تعمل فيه. هناك رواية أخرى تقول إن العشيق كان شخصاً يعمل في قناة تلفزيون جامعة سانتا تِرِسا. بقي الزوج أسبوعين موقوفاً، أُطلق سراحه بعدها لانعدام الأدلة. بقيت القضيّة من دون حلّ.

بعد ثلاثة أشهر اختفت كيلي في سانتا تِرِسا. ولاية سونورا. منذ المكالمة الهاتفية لم أرها. هتفت لي شريكتها، وهي امرأة شابّة وقبيحة كانت تعبدها، استطاعت بعد جهودٍ كثيرة أن تتواصل معي. قالت لي إنّه كان على كيلي أن تعودَ من سانتا تِرِسا منذ أسبوعين ولم تفعل. سألتها عمّا إذا حاولت أن تتصل معها هاتفياً. قالت لي إنّ جوّالها كان ميتاً. تهتف وتهتفُ وتهتف ولا أحد يردّ، قالت. كنتُ أرى أنّ كيلي كانت قادرة على أن تُبحر في مغامرة عاطفية وتختفي بضعة أيام، عملياً فعلت هذا ذات مرّة، لكنّني لم أكن أرى أنّها قادرة على ألّا تهتف لشريكتها، وإن كان فقط كي ترشدها إلى كيفية إدارة العمل خلال الفترة التي تُفكّر بأنّها ستغيب فيها. سألتُها عمّا إذا تواصلت مع الناس الذين كانت تعملُ لصالحهم في سانتا تِرِسا. أجابتني بالإيجاب، فكيلي، بحسب الشخص الذي تعاقد معها غادرت إلى المطار بعد يومٍ من الحفلة، لتأخذ الرحلة من سانتا تِرِسا إلى هِرموسيّو، من حيث كانت تُفكّرُ أن تأخذ طائرةً أخرى باتجاه العاصمة الفيدرالية. متى حدث هذا؟، سألتُها. منذ أسبوعين، قالت هي. تصوّرتها باكية، ملتصقة بالخلوي، حسنة الملابس، لكن بلا فكاهة، والمكياج سائل على وجهها، ثمّ فكّرتُ هذه هي المرّة الأولى التي تتصل بي هاتفيّاً، المرّة الأولى التي نتحدّث فيها معي بهذه الطريقة فقلقتُ. هل هتفتِ إلى مستشفيات سانتا تِرِسا أو إلى الشرطة؟، سألتُها. قالت بلى وإنّه ما من

أحدٍ كان يعرف شيئاً. خرجت من المزرعة إلى المطار واختفت، ببساطة تبخَّرت في الهواء، قلت بصوتٍ حادّ. من المزرعة؟ كانت الحفلة في مزرعة، قالت هي. أي أنّه كان عليهم أن يُرافِقوها، لا بدّ أنّ أحداً حملها إلى المطار. لا، قالت هي. كانت كيلي قد استأجرت سيارة. وأين السيارة؟ وجدوها في مرآب المطار، قالت هي. يعني أنّها وصلت إلى المطار، قلتُ. لكنّها لم تصعد إلى طائرتها، قالت هي. سألتُها عن اسم الناس الذين تعاقدوا معها. قالت لي عائلة سالاثار كرِسبّو وأعطتني رقمَ هاتفٍ. سأرى ما الذي أستطيع أن أتحقّق منه، قلتُ لها. في الحقيقة كنتُ أعتقد أنّ كيلي لن تتأخّر في الظهور. فمن المحتمل أنّها دخلت في مغامرة عاطفية، بالتأكيد، من الطريقة التي تسير بها الأمور، مع رجل متزوّج. تصوّرتُها في لوس أنجلوس أو سان فرانسيسكو، المدينتين المثاليتين لعاشِقَيْن يريدان أن يقضيا وقتاً ممتعاً دون أن يلفتا الانتباه. وهكذا قرّرت أن آخذ الأمور بتروٍّ وأن أنتظر. ومع ذلك عادت شريكتُها لتهتف لي بعد أسبوع وتقول لي إنّها ما زالت لا تعرف شيئاً عن صديقتي. حدّثتني عن عقد أو عقدين خسرتهما، لم تكن تعرف ماذا تفعل. بكلمة واحدة ما أرادت أن تقوله لي هو أنّها تشعر بنفسها وحيدةً. تصوّرتها شعثةً كما لم تكن قط، تدور في ذلك المكتب المظلم فشعرت برعشة. سألتها ما الأخبار التي عندك من سانتا تِرِسا. تكلّمت مع الشرطة، لكنّهم لم يكونوا يعرفون شيئاً ولم تبغ أن تقول لهم شيئاً. ببساطة تبخّرت، قالت. هتفتُ في ذلك المساء من مكتبي إلى صديق موثوق، عمل لزمنٍ لصالحي وعرضتُ عليه القضية. قال لي إنّ من الأفضل أن نتكلم حضوراً واتفقنا على اللقاء في روسترو باليدو، وهي مقهى أصبح موضة، لا أعرف هل هي موجودة أو هل زالت موجودة أم أغلقت أبوابها، فالموضة في المكسيك تتبخّر أو تختبئ مثل الأشخاص ولا أحد يشتاق إليها. شرحتُ لصديقي موضوع كيلي. سألني بعض الأسئلة. سجّل اسم سالاثار كرِسبّو في دفتر وقال

لي إنّه سيهتف لي هذه الليلة. حين ودّعته وصعدتُ إلى سيّارتي فكّرت بأنّ شخصاً آخر صار مرعوباً أو بدأ يصير مرعوباً، لكنّ الشيء الوحيد الذي كنتُ أشعر به وفي كلّ مرّة أكثر، هو الحنق، هو الغضب الشديد، كلّ الغضب الذي اختزنه آل إسكيبِل بلاتا منذ عقود أو قرون وراح يُقيم فجأة في جهازي العصبي وفكّرتُ أيضاً بغضبٍ وندم، أنّ هذه الشجاعة، أو هذا الغضب كان يجب أن يكون قد حدث قبل ذلك لا أن يأتي نتيجة صداقة خاصّة، بالرغم من أنَّ هذه الصداقة الخاصّة لا شكّ كانت تتخطّى مفهوم الصداقة الخاصّة ذاته، بل نتيجة أشياء أخرى كثيرة كنتُ رأيتُها منذ أن وعيتُ على الدنيا، لكن ما من طريقة، ما من طريقة، ما من طريقة، هكذا هي الحياة اللعينة، قلتُ لنفسي باكيةً وصرفت أسناني. في تلك الليلة وفي حدود الحادية عشرة هتف لي صديقي وكان أوّل شيء قاله لي هو هل كان هاتفي آمناً. إشارة سيّئة، أخبار سيّئة، فكرتُ على الفور. على كلّ الأحوال عاد موقفي ليكون بارداً كالجليد. قلتُ له إنّ الهاتف آمن تماماً. قال لي صديقي إنّ الاسم الذي أعطيته له (حذر من النطق به) يعود إلى مصرفيّ، كان بحسب معلوماته يغسل أموالاً لصالح سجن سانتا تِرِسا، الذي يعني كما لو أنّنا نقول مافيا مخدرات سونورا. حسن، قلتُ. ثمّ قال بالفعل إنّ المصرفيّ المذكور لا يملك فقط مزرعة واحدة في ضواحي المدينة بل عدّة مزارع، لكنّ بحسب معلوماته لم يُقِم في أيّ منها أيّ احتفالٍ خلال الأيّام التي كانت فيها صديقتي هناك. أي أنّه لم تُقَم أيّ حفلة عامّة، قال، مع وجود مصوّرين اجتماعيين وأشياء من هذا القبيل. هل تفهمين ما أقول. بلى، قلتُ. ثمّ قال إنّ المصرفيّ المذكور، إلى الحدّ الذي يعرفه وتؤكّدها له معلوماته، كان على علاقة جيّدة مع الحزب. جيّدة إلى هذا الحدّ؟، سألتُه. علاقات دلال، همس. إلى أيّ حدٍّ؟، ألححتُ. عميقة، عميقة جدّاً، قال صديقي. بعدها قلنا الواحد للآخر طابت ليلتُك وبقيت أنا أُفكّر. عميقة، يعني بعيدة في الزمن، بحسب

اللغة المشفّرة التي نستخدمها، بعيدة في الزمن، بعيدة جدّاً، أي منذ ما قبل ملايين السنين، أي من زمن الديناصورات. من هم ديناصورات الحزب الثوري الدستوري؟ فكّرتُ. تواردت عدّة أسماء إلى ذهني. اثنان منهما، تذكّرتُ، كانا من الشمال أو كانت لهم تجارتهم هناك. ما من واحد منهما عرفته شخصيّاً. بقيتُ برهة أفكّر بصديق مشترك. لكنّني لم أكن أريد أن أورّط أيَّ صديقٍ في أيّ ورطة. الليل، أتذكّره، كما لو أنّه كان منذ يومين وليس منذ أعوام، كان مطبقاً، بلا نجوم، بلا قمر، والبيتُ، هذا البيتُ يُخيّم فيه الصمتُ ولا تُسمع ولا حتى طيور الليل، التي تعيش في الحديقة، بالرغم من أنّني كنتُ أعرف أنّ حارسي الشخصي كان هناك قريباً، مستيقظاً، ربّما يلعب الدومينو مع سائقي، وأنّني إذا ما قرعتُ جرساً لن تتأخّر إحدى خادماتي في الظهور. في اليوم التالي، وفي ساعات الصباح الأولى، وبعد أن قضيتُ الليل دون نومٍ، أخذتُ طائرةً إلى هِرموسيّو ثمّ أخرى إلى سانتا تِرسا. حين أعلنوا لعمدة المدينة، المجاز خوسِهْ رِفوخيو دِ لاس هِراس، أنّ النائبة إسكيبِل بلاتا تنتظره، علّق كلّ مسائله التي كانت بين يديه ولم يتأخّر في الظهور. ربّما أنّنا التقينا ذات مرّة. على كلّ الأحوال لم أكن أتذكّر. حين رأيته باسماً، وفرحاً مثل كلبٍ صغير، انتابتني رغبة بأن أصفعه، لكنّني تمالكتُ نفسي. كلب من تلك الكلاب التي تبقى منتصبة على قوائمها الخلفية، لا أدري ما إذا كنتُ أوضّح. تماماً، قال سِرخيو. سألني بعدها عمّا إذا تناولتُ إفطاري. قلتُ له لا. أرسل في طلب طعام إفطار، إفطار حدوديّ معروف، وبينما نحن ننتظرُ قام موظّفان بلباسِ النُّدُل بتحضير طاولةٍ بجانب نافذة المكتب. من هناك كانت تُرى ساحةُ سانتا تِرسا القديمة والناس الذين يذهبون من جانب إلى آخر لأسبابٍ تتعلّق بالعمل أو لقتل الوقت. بدا لي مكاناً مريعاً، بالرغم من النور الذهبي، نور ذهبي هفهاف في الصباح ونور ذهبيّ كثيف ومركّز في المساء، كما لو أنّ الهواء، في الفجر يمضي محمّلاً بغبار الصحراء.

قلتُ له، قبل أن نبدأ بتناول الطعام، إنّني هناك من أجل كيلي ريبِرا. قلتُ له اختفت وأريدهم أن يعثروا عليها. نادى العمدةُ سكرتيرَه، الذي راح يُسجّل ملاحظاتٍ. ما اسم صديقتك، سيّدتي النائب؟ كيلي ريبِرا باركِر. وأسئلة أخرى: يوم اختفائها، سبب وجودها في سانتا تِرِسا، عمرها، مهنتها. كان السكرتير يُسجّل كلّ ما أقول، وحين انتهيت من الإجابة على أسئلته، أمره أن يهرع في طلب رئيس المُحقّقين، المدعو أورتيث رِبويّدو ويأتي به إلى رئاسة البلدية حالاً. لم أقل له شيئاً عن سالاثار كرِسبّو. أردتُ أن أرى ما الذي كان يجري. رحنا أنا والعمدة نأكل بيضاً على طريقة الريفيّة المكسيكية.

طلبت ماري-سوِ برافو من رئيس تحريرها أن يسمح لها بالتحقيق باختفاء صحفيّ *لا راثا*. قال لها رئيسُ التحرير إنّ من المحتمل أن يكون هِرنانديث مِركادو قد جُنّ جنوناً كاملاً، وإنّ من المحتمل أنّه يتسكّعُ الآن في حديقة باتاغونيا ليك الحكومية، يأكل باياس ويتكلّم مع نفسه. لا يوجد باياس في هذه الحدائق، قالت له ماري-سوِ. إذاً وهو يُريّل ويتكلّم مع نفسه، أجابها رئيسُ التحرير، لكنّه كلّفها في النهاية بتغطية الخبر. ذهبت أوّلاً إلى غرين فيلي، في محلّ *لا راثا*، وتكلّمت مع مدير الصحيفة، وهو شخص آخر له مظهر عامل مياوم ومع الصحفيّ الذي كتب عن اختفاء هِرنانديث مِركادو، وهو فتى في الثامنة عشرة وربّما في السابعة عشرة من عمره، يأخذ عمله الصحفيّ بجدّية. ثمّ ذهبت إلى سونويتا برفقة الفتى، وزارت بيت هِرنانديث مِركادو، فتح لها الفتى الباب بمفتاح، قال إنّه كان يُخبّئه في مكتب تحرير صحيفة *لا راثا*، وإن بدا لماري-سوِ مفتاحاً هيكلياً، ومكتب الشريف. قال لها هذا إنّ من المحتمل أن يكون الصحفيُّ الآن في كاليفورنيا. أرادت ماري-سوِ أن تعرف لماذا يعتقد ذلك. قال لها الشريف إنّ الصحفيّ كان مثقلاً بعدد من الديون (مثلاً، كان مديناً بأجرة ستة أشهر، وكان

صاحب البيت يُفكّر بأن يطرده منه) وإنّ ما كان يكسبه من العمل في الصحيفة لا يكاد يكفيه للطعام. دعم الفتى مُكرهاً كلماتِ الشريف: ففي لا *راثا* كانوا يدفعون قليلاً لأنّها صحيفة الشعب، قال. ضحك الشريف. أرادت ماري-سوِ أن تعرف ما إذا كان هِرنانديثْ يملك سيارة. قال الشريفُ لا، وإنّ هِرنانديثِ حين كان يُريد أن يخرجَ من سونويتا، كان يأخذ الحافلات. كان الشريف رجلاً لطيفاً، رافقها حتى موقف الحافلات وراحا يسألان عن هِرنانديثْ، لكنّ المعلومات التي تلقياها كانت فوضوية ولا فائدة منها. قد يكون هِرنانديثْ قد استقلّ يومَ اختفائه الحافلةَ وقد لا يكون، بحسب العجوز الذي كان يبيع التذاكر والسائقِ والأشخاص القليلين الذين كانوا يُسافرون يوميّاً. أرادت ماري-سوِ قبل أن تُغادِر سونويتا بيتَ الصحفيّ مرّة أخرى. كلّ شيء كان في مكانه، لم تكن تُشاهد آثار عنفٍ وكان الغبار يتراكم على قطع الأثاث القليلة. سألت ماري-سوِ الشريفَ عمّا إذا فتح حاسوبَ هِرنانديث. أجاب الشريفُ بالنفي. فتحته ماري-سوِ وراحت تراجع محتويات أرشيفات صحفيٍّ وشاعرٍ لا *راثا* دِ غرين فيلي دون تبصّر. لم تعثر على شيءٍ مهمّ. وجدت رواية مبدوءة، ظاهرياً رواية لغز، مكتوبة بالأنجلو-إسبانية، مقالاتٍ منشورة. سير عمال مياومين وأُجَراء مزارع جنوب أريزونا. مقالاته عن هاس، وجميعها تقريباً ذات صفراء. وأشياء أخرى قليلة.

في العاشر من كانون الأوّل أعلم بعضُ مستخدَمي مزرعة لا بِرديثيون الشرطةَ بالعثور على هكيلٍ عظميّ في الأراضي الوقعة على حدود المزرعة، عند الكيلومتر خمسة وعشرين من الطريق إلى كاساس نِغراس. ظنّوا في البداية أنّ الأمرَ يتعلّق بهيكل حيوان، لكنّهم انتبهوا إلى خطئهم حين عثروا على الجمجمة. يتعلّق الأمرُ، بحسب تقرير الطب الشرعي، بامرأة، ولم تُحدّد أسبابُ الموت نظراً للزمن الذي

مضى عليه. عُثِر على بعد ثلاثة أمتار من الهيكل على بنطلون من النوع المُكَسّم وعلى حذاء تِنس.

مكثتُ بالضبط يومين في سانتا تِرِسا، أنام في فندق مكسيكو، ومع أنّ الجميع كانوا يظهرون استعدادهم لتقبّل أي نزوة منّي، إلا أنّنا لم نحرز في الحقيقة أيّ تقدّم. بدا المدعو أورتيث رِبويِّدو كأنّه ساقٍ. المجاز خوسِهْ رِفوخيو دِ لاس هِراس بدا من العصابة الأخرى. نائب النائب العام بدا أنّه في هزيع متقدم من يوم جمعة، يكاد يدخل السبت. جميعهم وقعوا في الكذب والتناقض. فجأة أكّدوا لي أنّه ما من أحد أبلغ عن اختفاء كيلي، في الوقت الذي كنتُ أعرف فيه بالدليل أنّ شريكتها فعلت ذلك. لم يظهر اسم سالاثار كرِسبّو ولا مرّة واحدة. ما من أحدٍ حدّثني عن عمليات اختفاء النساء، التي كانت قد أصبحت ملكاً عامّاً حتى أنّهم لم ربطوا ولا من بعيد بين هذه القضايا المؤسفة وكيلي. هتفتُ في الليلة السابقة على مغادرتي إلى الصحف المحلّية الثلاث وأعلنت أنّني سأجري مؤتمراً صحفيّاً في الفندق. هناك تكلّمت عن حالة كيلي، نسخته بعدها الصحافة الوطنية، وقلت إنّني كسياسيّة ومناصرة للمرأة وصديقة أيضاً لن أتراجع عن إصراري على الوصول إلى اكتشاف الحقيقة. كنتُ أقول في داخلي لا يعرفون مع من حشروا أنفسهم ثلّة الجبناء أولئك، سوف يبولون في بنطلوناتهم. أغلقتُ في ليلة المؤتمر الصحفي على نفسي غرفة الفندق ورحتُ أُجري مكالمات. تكلّمتُ مع نائبين من الحزب الثوري الدستوري، صديقين وثيقين، قالا لي أن أعتمد على دعمهما في أيّ شيء. حقيقة لم أنتظر أقلّ من ذلك. هتفتُ بعدها إلى شريكة كيلي وقلتُ لها إنّني في سانتا تِرِسا. الفتاة المسكينة، القبيحة جدّاً، الغاية في القبح، راحت تبكي، ولا أدري لماذا شكرتني. هتفتُ بعدها إلى بيتي وسألت عمّا إذا هتف لي أحد في ذينك اليومين. قرأت لي روسيتا تقرير المكالمات. لا

شيء خارج المعتاد. كلّ شيء كان كما هو دائماً. حاولتُ أن أنام، لكنّني لم أستطع. بقيت برهةً أتأمل من النافذة أبنيةَ المدينة المظلمة، الحدائقَ، الجادات، التي نادراً ما كانت تمرّ فيها من حين لآخر سيّارة من آخر موديل. درتُ في الغرفة. انتبهت إلى أنّه يوجد مرآتان. واحدة في طرف وأخرى بجانب الباب ولا تنعكس الواحدة في الأخرى، لكن إذا ما اتخذ الواحدُ وضعيةً معيّنة، عندها فعلاً تنعكس الواحدة في زئبق الأخرى. التي لم تكن تظهر هي أنا. ما أغربها من حالة، قلتُ لنفسي، ورحت بينما راح النعاس يتمكّن منّي أُقيم مقارنات وأبدّل وضعياتٍ. وهكذا دقّت الساعة الخامسة صباحاً. وكلّما درستُ المرآتين أكثر شعرت بمزيد من القلق. أدركت أنّ من المضحك أن أنام في تلك الساعة. استحممتُ، بدّلتُ ملابسي وحضّرتُ حقيبتي. عندما أعلنت الساعة السادسة هبطت لأتناول طعام إفطاري في المطعم، الذي كان مُغلقاً في تلك الساعة. أدخلني أحدُ المستخدمين إلى المطابخ وحضّري لي عصير برتقالي وقهوتي الكثيفة. حاولتُ أن آكل، لكنّني لم أستطع. في السابعة أقلّتني سيارةُ أجرة إلى المطار. حين مررتُ في بعض أحياء المدينة فكّرتُ بِكيلي، بما فَكَّرَتْ به كيلي وهي تتأمّل ذات ما كنتُ أتأمله الآن، عندها عرفت أنّني ساعود. كان أوّل شيء فعلته حين عدتُ إلى العاصمة الفيدرالية هو أنّني قابلتُ صديقاً كان قد عمل في النيابة العامّة للعدالة في العاصمة الفيدرالية وطلبتُ منه أن ينصحني برجلِ تحرٍّ جيّد، رجلٍ خارج أيّ شبهة. رجل عنده ما يجب أن يكون عنده. سألني صديقي ما هي المشكلة. حكيتها له. نصحني بِلويس ميغِلْ لويا، الذي عمل في النيابة العامّة للجمهورية. لماذا لا يستمرّ هناك؟، سألته. لأنّه يكسب أكثر في المؤسّسة الخاصّة، قال صديقي. مكثتُ أُفَكّر في أنّ صديقي لم يحكِ لي كلَّ الذي كان يجب أن يحكيه. إذ منذُ متى تتعارض المؤسّسة العامّة مع المؤسّسة الخاصّة في المكسيك؟ لكنّني اقتصرت على شكره وزرت لويا المذكور. طبعاً كان

صديقي قد أعلمه وكان ينتظرني. كان لويا شخصاً غريباً، أقرب إلى المربوع، له هيئة ملاكم، ليس فيه غرام شحم واحد، بالرغم من أنّه كان حين التقيت به قد تجاوز الخمسين من عمره. كان حسن التهذيب، حسن اللباس، واسع المكتب ويعمل معه عشرة أشخاص على الأقلّ، ما بين سكرتيرات ورجال لهم هيئة القبضايات الممتهنين. عدتُ وحكيت له موضوع كيلي، عقودها، كلّمتُه عن المصرفي سالاثار كرِسبّو، عن تعامله مع تجار المخدرات، عن موقف سلطات سانتا تِرسا. لم يسألني أسئلة تافهة. لم يُسجّل ملاحظات. ولا حتى عندما سألني عن الهاتف الذي يستطيع أن يهتف لي إليه. أعتقد أنّه كان يُسجّلُ كلَّ شيء. حين غادرتُ وصافحني، قال لي إنّني سأتلقّى أخبارها خلال ثلاثة أيّام. كانت رائحته كولونيا ما بعد الحلاقة أو كولونيا لم أكن أعرفها. مزيج من الخزامى والخزامى المسنّنة، مع رائحة قهوة مستوردة خفيفة، خفيفة جدّاً. رافقني حتى الباب. ثلاثة أيّام. حين قال لي ذلك بدا لي وقتاً قليلاً جدّاً. أن أعيشها منتظرةً أن تمرَّ يمكن أن تتحوّل إلى أبدية. عدتُ إلى عملي فاترة الهمّةً. في اليوم الثاني من الانتظار استقبلت مجموعةً من مناصرات المرأة، اللواتي بدا لهنَّ موقفي، بعد اختفاء كيلي، موقفَ امرأة جديراً بالتقدير ومناسباً. كُنّ ثلاثاً وجموعتهنّ بحسب ما استطعتُ أن أفهم لم تكن كبيرة. كان بودّي أن أطردهنّ من مكتبي رفساً، لكن من المحتمل أنّني كنتُ منقبضةَ النفس، لا أعرف بوضوح ماذا أفعل، فدعوتهنّ للمكوث معي برهة. كان من الممكن أن يكنّ ظريفات لو أنّنا تكلَّمْنا بالسياسة. ثمّ إنّ واحدة منهنّ كانت قد درست في المدرسة ذاتها التي درسنا فيها أنا وكيلي، وإن كانت أدنى منّا بصفّين وكان بيننا ذكريات مشتركة. شربنا شاياً، تكلّمنا عن الرجال، عن أعمال كلٌ منا، كنّ مدرسات جامعيات، اثنتان منهنّ كانتا مطلّقتين، سألنني لماذا لم أتزوّج قط، ضحكتُ، لأنّني في أعماقي، اعترفتُ لهنّ، أكثر مناصرة للمرّأة من

أيّ شخص آخر. في اليوم الثالث هتف لي لويا في العاشرة ليلاً. قال لي صار التقرير الأوّل جاهزاً وإذا أردتُ فهو يريه لي حالاً. الآن خير من لاحقاً، قلتُ له. أين أنت؟ في سيّارتي، قال لويا، ليس ضرورياً أن تتحرّكي، سأذهب إلى بيتك. كان التقرير مؤلّفاً من عشر صفحات. قام عمله على المتابعة التفصيليّة لنشاطات كيلي المهنيّة. ظهرت بعض الأسماء، ناس من العاصمة الفيدرالية، حفلات في أكابولكو، ماثالتان، أوكسا. كانت معظم الأعمال التي تُكلّف بها كيلي، بحسب لويا، يمكن أن تُعتبر بكلمةٍ واحد، دعارة مُبطّنة. دعارة الطبقات العليا. كانت موديلاتها عاهرات، والحفلات التي تُنظّمها كانت للرجال فقط ونسبة أرباحها تشبه نسبة أرباح سيّدة من عليّة القوم. قلتُ له لا أستطيع أن أُصدّق. ورميت الأوراق في وجهه. انحنى لويا وجمع الأوراق عن الأرض وعاد ليعطيها لي. اقرئيه كاملاً، قال لي. تابعتُ القراءة. خراء. محض خراء. إلى أن ظهر اسم سالاثار كرِسبّو، بحسب لويا سبق لكيلي أن عملت مراتٍ أخرى لصالح سالاثار كرِسبّو، مجموعها أربع مرّت. أيضاً قرأتُ أنّها سافرت إلى هِرموسيّو ما بين ١٩٩٠ و١٩٩٤ عشر مرّاتٍ على الأقل، وأنّها في سبع مناسبات من هذه المرّات العشر استقلّت طائرة إلى سانتا تِرِسا. كانت لقاءاتها مع سالاثار كرِسبّو موضوعة تحت عنوان «تنظيم حفلة». بالحكم من رحلاتها الجوّية من هِرموسيّو إلى العاصمة الفيدرالية لم تبقَ قط أكثر من ليلتين في سانتا تِرِسا. كان عدد الموديلات التي كانت تأخذها إلى تلك المدينة متبايناً. في بداية ١٩٩٠ وصل بها الأمر حدّ أن ذهبت ومعها بأربع أو خمس موديلات. بعدها صارت تأخذ معها اثنتين فقط، وقامت بالرحلات الأخيرة وحدها. ربّما كانت وقتها تُنظّم فعلاً حفلات. اسم آخر يظهر إلى جانب اسم سالاثار كرِسبّو. شخص يُدعى كورنادو باديّا، وهو رجل أعمال من سونورا، له مصالح في بعض المعامل، في بعض شركات النقل وفي مسلخ سانتا تِرِسا. عملت

لصالح كورنادو باديّا هذا في ثلاث مناسبات، بحسب لويا. سألته من يكون كورنادو باديّا هذا. هزّ لويا كتفيه وقال لي إنّه شخص عنده مال كثير، أي أنّه شخص معرّض لكلّ أنواع الأخطار وكلّ الفواجع. سألته عمّا إذا كان ذات مرّة في سانتا تِرِسا. لا، قال لي. سألتّه عمّا إذا أرسل أحداً من مُستخدَميه. لا، قال لي. قلتُ له أن يذهب إلى سانتا تِرِسا وإنّني أُريدُ أن أراهُ هناك، في قلب المسألة وأن يُتابع تحقيقه. بدا لبرهةٍ أنّه كان يُفكِّرُ باقتراحي، أو بالأحرى بدا أنّه يبحث عن الكلمات التي عليه أن يقولها لي. قال لي بعدها إنّه لا يريدني أن أبدّد أموالي ولا وقتي. فالقضية، كما يراها هو، كانت منتهية. هل تعني أنَّ كيلي ميتة؟، صرختُ به. إلى هذا الحدّ أو ذاك، قال دون أن يفقد قيد أنملة من رصانته. كيف إلى هذا الحدّ أو ذاك؟، صرختُ. إمّا أنها ميتة وإمّا أنّها غير ميتة، اللعنة! في المكسيك يمن للمرء أن يكون إلى هذا الحدّ أو ذاك ميتاً، أجابني بجدّية كبيرة. نظرتُ إليه ورغبة تنتابني بأن أصفعه. كم كان هذا بارداً ومتكتِّماً. لا، قلت له وأنا أكاد أقطّع الكلمة، لا في المكسيك ولا في أيّ مكان آخر من العالم يمكن للمرء أن يكون ميتاً إلى هذا الحدّ أو ذاك. دعك من الكلام كما لو أنّك دليل سياحيّ. إمّا أن تكون صديقتي حيّةً وعندها أريدك أن تعثر عليها، وإمّا أنّ صديقتي ميتة وعندها أريد قَتَلَتَهَا. ابتسم لويا. لماذا تضحك؟، سألته. أضحكني موضوع الدليل السياحي، قال. سئمت من المكسيكيين الذين يتكلّمون ويتصرّفون كما لو أنّهم بِدرو *بارامو*، قلتُ. ربّما أنا كذلك، قال لويا. لا، لا أعرفُ، أستطيع أن أُؤكِّد لك ذلك، قلتُ. بقي لويا برهة صامتاً، جالساً متصالب الساقين، بكثير من الوقار، يُفكّر فيما قلته توّاً. يمكن أن أتأخّر أشهراً، بل وسنين، قال لويا أخيراً. ثمّ إنّني، أضاف بعدها، لا أظنّ أنّهم سيتركونني أقوم بعملي. من؟ ناسكِ أنفسهم، أيّتها النائبة، رفاقك في الحزب أنفسهم. سأكون خلفك، سأدعمك في كلّ لحظة، قلتُ له. أظنّ أنّك تعتزّين

بنفسك كثيراً، قال لويا. ويحكَ، طبعاً أعتزُّ بنفسي كثيراً، لو أنّني لم أفعل ذلك ما كنتُ حيث أنا. عاد لويا ليصمت. فكَّرتُ للحظة أنّه نام، لكنّ عينيه كانتا مفتوحتين جدّاً. إذا لم تفعل أنت هذا، سأجدُ آخر، قلتُ لهُ دون أن أنظرَ إليه. نهض بعد برهة. رافقته حتى الباب. هل ستعمل لصالحي؟ سأرى ماذا أستطيعُ أن أفعل، لكنّني لا أعدُكِ بشيء، قال لي، وضاع في الدرب الذي يقود إلى الشارع، حيث كان حارسي الشخصي وسائقي يلعبان مثل زومبيين.

حلمت ماري-سوِ برابو ذات ليلة بأنّ امرأة جالسة عند قدم السرير. شعرتْ بثقل جسم يسحق الفراش، لكنّها حين تمطّت لم تلمس شيئاً. كانت قد قرأت في تلكك الليلة في الإنترنت قبل أن تذهب إلى فراشها خبرين عن ابنَيّ أوريبِ. يقول واحد منهما موقّع من قبل صحفيّ من صحيفة معروفة في العاصمة الفيدرالية، إنّ أنطونيو أوريبِ بالفعل مختف، ابن عمّه دانييل أوريبِ موجود على ما يبدو في توكسون، تكلّم معه الصحفيّ بالهاتف. بحسب دانييل أوريبِ كلّ المعلومات التي سهّلها هاس سلسلة من الأكاذيب تُدحَضُ بسهولة. ومع ذلك لم يُعطِ أيّ تفصيل عن مكان أنطونيو، أو أنّ التفاصيل التي انتزعها منه الصحفيّ كانت غامضة، غير صحيحة وتسويفية. حين استيقظتُ ماري-سوِ لم يَزُل إحساسُها بوجود امرأةٍ أخرى في الغرفة كلّياً حتى نهضت من سريرها وشربت كأسَ ماء في المطبخ. هتفت في اليوم التالي إلى محامية هاس. لم تكن تعرف بالضبط ما الذي ستسألها إياه، ما الذي تُريد أن تسمعه منها، لكنّ الحاجةَ لسماع صوتِها فرض نفسه على أيّ أمرٍ منطقيّ. سألتها بعد أن عرّفت بنفسها كيف حال زبونها. قالت لها إيزابيل مثل ما كان في الأشهر الأخيرة. سألتها عمّا إذا قرأت تصريحات دانييل أوريبِ. قالت المحامية بلى. سأحاول أن أجري معه مقابلة، قالت ماري- سوِ. هل يخطر لك شيء يجب أن أسأله عنه؟

لا، لا يخطر لي أيّ شيء، قالت المُحامية. بدا لماري-سوِ أنّ المحامية تتكلّم كما لو أنّها في مرحلة تخضع فيها لتنويم مغناطيسي. ثم ومن دون مُبرّر سألتها عن حياتها. ليس لحياتي أهمّية، قالت المحامية. النبرة التي قالتها فيها كانت مماثلة للتي تستخدمها امرأة متعجرفة حين تتوجّه للكلام إلى مراهقة فضولية.

في الخامس عشر من كانون الأوّل قُتِلت إستِر بِريا بِنيا، ابنة الرابعة والعشرين، بطلقٍ ناريّ في صالة لوس لوبوس[1] للرقص. كانت جالسة مع ثلاث صديقات إلى إحدى الطاولات المجاورة لطاولة شخص حسن المظهر، يرتدي طقماً أسودَ وقميصاً أبيض، أخرج مسدّسه وراح يلعب به. كان مسدّس سميث أند ويسون موديل ٥٩٠٦، بمخزن من خمس عشرة طلقة. كان الرجل، بحسب بعضِ الشهود، قد أخرج هو نفسه إستِر وإحدى صديقاتها للرقص، وهو ما جرى في جوّ من الاسترخاء والتودُّد. طلب رفيقا رجل المسدَّس، منه أن يخبّئ السلاح. لم يأبه بهما الرجل. يبدو أنّه كان يريد أن يُثير انتباهَ أحد ما، ربّما كانت الضحية ذاتها أو صديقة الضحيّة، التي سبق أن رقص معها. بحسب شهودٍ آخرين قال الرجل إنّه شرطي تحقيق ملتحق بفرقة مكافحة المخدرات. كان له مظهر محقّق. كان طويلاً وقويّاً، ثمّ إنّ قصّة شعره كانت جيّدة. في لحظة ما وبينما كان يلعب بمسدّسه خرجت طلقة بيت النار، جرحت إستِر جرحاً قاتلاً. حين وصلت سيارةُ الإسعاف كانت الشابة قد فارقت الحياة واختفى المعتدي. أخذ المُحقّق أورتيثْ رِبويّدو القضية على عاتقه واستطاع في صباح اليوم التالي أن يُعلِم الصحافةَ بأنّ الشرطة عثرت على جثة رجل (تلتقي ثيابه وصفاته الجسدية مع ثياب وصفات قاتل إستِر)، كان مرمياً في أراضي بمِكس الرياضية القديمة ومعه

(١) صالة الذئاب للرقص.

مسدس سميث أند ويسون مماثل للذي كان يحمله قاتلُ إستِر ورصاصة في صدغه الأيمن. كان يُدعى فرانسيسكو لوبِّثْ ريّوس وكان له ملفّ واسع كلصٍّ سيّارات. لكنّه لم يكن قاتلاً بطبيعته وقتله لأحد حتى ولو عن طريق عرضيّ كان يُعكّر مزاجه كفاية. انتحر الرجلُ، قال أورتيثْ ريويِّدو. قضيّة مغلقة. بعدها سيحكي لالو كورا لإيبفانيو أنّ من المستغرب ألا يكون قد تمّ عرض الجثّة للتعرف على صاحبها. وأيضاً كان مستغرباً ألا يظهر مرافقًا المُنتحر. وأيضاً كان مُسْتَغْرَباً أن مسدّس سميث أند ويسون، ما إن أودِع في مخازن الشرطة حتى اختفى، وإنَّ أكثر ما هو مستغرب هو أنّ لصَّ سيارات ينتحر. أنتَ عل تعرّفت على هذا المدعو فرانسيسكو لوبِّثْ ريّوس؟، سأله إيبفانيو. رأيتهُ مرّةً واحدة ولو كنتُ أنا لما قلت إنّه رجل جذّاب، قال لالو كورا.. كان أقرب إلى الجرذ. كلّ شيء غريب، قال إيبفانيو.

بقي لايو يعمل في القضيّة سنتين. خلال سنتين ملكتُ الوقت كي أُكوّن صورة راحت تتسرّب شيئاً فشيئاً إلى وسائل الاتصال: صورة المرأة المرهفة الحساسية تجاه العنف، صورة المرأة التي كانت تُمثِّلُ التغيير في قلب الحزب، ليس تغييراً جيليّاً وحسب بل وتغييراً في الموقف، رؤية مفتوحة وليست عقائدية للواقع المكسيكي. في الحقيقة كنتُ فعلاً أشتعل غضباً على اختفاء كيلي، على المزحة القاتلة التي كانت هدفاً لها. صار اهتمامي في كلّ مرّة بالاعتبار الذي يمكن أن أكسبه من ذلك الذي نسميه الجمهور، المصوّتين، الذين لم أكن في الحقيقة أراهم أو إذا رأيتهم يكون ذلك بشكل عرضي أو طارئ، وكنتُ أحتقرهم. ومع ذلك كلّما رحتُ أعرف قضايا أخرى، وكلّما رحت أسمع أصواتاً أخرى، راح غضبي يحرز قامةً، لنقُل، يصير جماعياً، صار غضبي جماعياً أو تعبيراً عن شيء جماعي، كان غضبي حين يتبدّى يرى نفسه كذراعٍ مُنتَقِمة لآلاف الضحايا. بصراحة أعتقد أنّني كنتُ

أجَنّ. تلك الأصوات التي كنتُ أسمعها (أصوات وليست وجوهاً ولا كتلاً أبداً) تأتي من الصحراء. وكنتُ أتيه في الصحراء وسكين في يدي. على شفرتها كان ينعكس وجهي. كان شعري أبيض، ووجنتاي كأنهما ممصوصتان ومغطيتان بندب صغيرة. كلّ ندبة كانت قصّة قصيرة، عبثاً أجهدُ في تذكّرها. انتهيت بأن أصبحت أتناول أقراصاً مهدّئة للأعصاب. كنتُ التقي لويا كلّ ثلاثة أشهرٍ. برغبةٍ صريحة منه لم أكن أذهب لمقابلته في مكتبه. كان هو من يهتف أحياناً لي أو أنا أهتف له أحياناً إلى رقمٍ آمن ولا نقول أبداً أشياء مهمّة حين كنّا نتكلّم بالهاتف، لأنّه لا يوجد شيء، كان يقول لويا، آمن مئة بالمئة. رحتُ بفضلِ تقارير لويا أكوّن خارطة أو أكمل قِطَعَ المكان الذي اختفت فيه كيلي. هكذا عرفت أنّ الحفلات التي كان يُقيمها سالاثار كرِسبّو كانت في الحقيقة سهرات حمراء وأنّ كيلي كانت تقوم احتمالاً بدور مديرة أوركسترا لتلك السهرات الحمراء. تكلّم لويا مع إحدى الموديلات اللواتي عملن مع كيلي خلال بضعة أشهر وتعيش الآن في سان دييغو. قالت هذه الموديل إنّ سالاثار كرِسبّو كان يُقيم هذه الحفلات في مزرعتين لا على التعيين من أملاكه، مزارع غير إنتاجية، قطع من الأرض يشتريها الأثرياء ولا يستثمرونها لا في الماشية ولا في الزراعة. هي مجرّد مساحة من الأرض، في وسطها بيت كبير، فيه صالون واسع وغرف كثيرة وأحياناً مسبح، لكن ليس دائماً. في الحقيقة ليست أماكن مريحة وليس في هذه المُلكيات ذوق أنثوي. في الشمال يُسمونها مزارع المخدرات، لأنّ كثيرين من تجّار المخدرات عندهم مزرعة من هذا النوع، وهي ثكنات أكثر مما هي مزارع وسط الصحراء، بعضها فيه حتى أبراج مراقبة، يتوضّع فيها قنّاصون. مزارع المخدّرات هذه تبقى أحياناً مُغلقة فترات طويلة. أحيانا يتركون فيها مستخدَماً، لا يملك مفاتيح للدخول إلى البيت الرئيسي، مكلّفاً بلا شيء بأن يتسكّع في أرض وعرة غير منتجة، مكلّف بمراقبة ألا يقطن في المكان قطيع كلاب

برّية. ليس عند هؤلاء الرجال المساكين غير هاتف خلوي وبعض التعليمات الغامِضة التي ينسونها شيئاً فشيئاً. ليس مستغرباً، بحسب لويا، أن يموت أحدهم ولا يعلم به أحد، أو ببساطة أن يختفي، يشدّه طائر سيمورغ الصحراء. بعدها تعود مزارع تجّار المخدرات فجأة إلى الحياة. يصل أوّلاً بعض المستخدمين البسطاء، لنقل ثلاثة أو أربعة على متن سيارة كومبي فيجهزون في يوم واحدٍ البيتَ الكبير. يصل بعدها المرافقون، الرجال الأشدّاء في سيارات سوبوربان السوداء رباعية الدفع أو في سيارات سبيريت أو بِرِغرينوس، وأوّل ما يفعلونه حين يصلون، بالإضافة إلى تبخترهم هو أن يرسموا نطاق الأمن. يظهر أخيراً المالكُ وأزلامه الموثوقون في مرسيدس بنز أو بورش مدرّعة وهي تتلوّى وسط حذر الصحراء. الأضواء لا تُطفأ ليلاً. من الممكن أن تشاهد سيارات من كلّ الأنواع بما فيها سيارات لينكولن كونتيننتال وكاديلاك قديمة لهاوي جمع القديم، تأتي أو تذهب بأهل المزرعة. وسيارات تراكير محمّلة باللحوم، الحلوى تصل في تشيفي أسترا. وموسيقى وصياح طوال الليل. تلك هي الحفلات التي كانت كيلي، بحسب ما قاله لي لويا، تُساهم في تنظيمها في أسفارها إلى الشمال. كانت كيلي، بحسب لويا تُحضِرُ معها في البداية موديلات مستعداتٍ لأن يكسبن مالاً كثيراً في زمن قصير. الفتاة التي كانت تعيش في سان دييغو حكت له، أنّهنّ لم يكنّ قط أكثر من ثلاث موديلات. في الحفلات كانت توجد نساء أخريات لم تكن كيلي تعرفهنّ في البداية، صغيرات، شابات صغيرات، أصغر من الموديلات، اللواتي كانت كيلي تلبسهنّ بشكلٍ مناسب للحفلات. عاهرات صغيرات من سانتا تِرِسا، كما أظنّ. ماذا كان يجري في الليل؟ طبعاً المعتاد. كان الرجالُ يسكرون أو يتخدرون، يشاهدون مباريات كرة قدم أو بيسبول مسجّلة على فيديو، يلعبون الورق، يخرجون إلى الفناء، يتكلّمون بالتجارة. لم يُسجّل أحد قط فيلماً خلاعيّاً أو على الأقل هذا ما أكّدته فتاةُ سان دييغو

للويا. كان المدعوّون يُشاهدون في الغرف أحياناً أفلاماً خلاعيّة. دخلت الموديل مرّة بالخطأ ورأت ما يُرى دائماً: رجالاً جاحظين يُضيء وجوههم سطوع الفيديو الخلاعي. هكذا دائماً. أقول، أقول جاحظين كما لو أنّ مشاهدة فيلم يتجامع فيه الناس يُحَوّل المشاهدين إل تماثيل. لكن لا أحد صوّر ولا سجّل في مزارع تجّار المخدرات أفلاماً من هذا النوع. كان بعض المدعّوين يبدؤون بغناء أغاني الرانتشِرا أو الكوريدو. كان هؤلاء المدعوّون يخرجون أحياناً إلى الفناء ويطوفون في المزرعة كما لو أنّهم في موكبٍ، يُغنّون من كلّ روحهم. وفعلوا ذلك مرّةٍ عراةً، ربّما غطّى بعضهم عورته بسروال داخليّ خيطيّ أو كلسون فهد أو نمر، متحدين البرد الموجود في تلك الأماكن في الرابعة صباحاً وهم يُغنّون ويضحكون، من مزحة إلى أخرى، كما لو أنّهم خدم الشيطان. هذه ليست كلماتي. إنّها الكلمات التي قالتها موديل سان دييغو للويا، لكن لا شيء من فيديوهات الدعارة، لا شيء. لكن كيلي تخلّت عن اعتماد الموديلات، فهنّ يكلّفن غالياً وعاهرات سانتا تِرِسا الصغيرات يتقاضين قليلاً وكيلي لم تكن في وضع اقتصاديّ سليم تماماً. قامت بالرحلات الأولى على حساب سالاثار كرِسبّو، لكنّها تعرّفت من خلال هذا على ناسٍ من المنطقة مُهمّين ومن المحتمل أن تكون قد نظّمت حفلات للمدعو سيغفريدو كتلان، الذي كان عنده أسطول من شاحنات القمامة وكان يقول إنّه يعمل موزّعاً لمنتجات معظم معامل سانتا تِرِسا، ويعمل لصالح كورنادو باديّا، وهو رجل أعمال له مصالح في سونورا، سينالوّا وخاليسكو. كان لكتلان وباديّا، بحسب لويا، ارتباطات مع سجن سانتا تِرِسا، أي مع إستانيسلاو كامبوثانو، الذي حضر في بعض المناسبا، تلك الحفلات وللحقيقة غير كثيرة. أدلّة، أي ما تعتبره أيّ من المحاكم المتحضّرة أدلةً، غير موجودة، لكنّ لويا جمع خلال الوقت الذي عمل فيه لصالحي كميّة هائلة من الشواهد، أحاديث ماخور، أو سكارى، يُقال فيها إنّ كامبوثانو لم يكن يذهب، لكنّه فعلاً كان يذهب أحياناً.

على كلّ الأحوال لم تكن السهرات الحمراء التي كانت تُنظّمها كيلي، تخلو من تجّار مخدرات، وخاصّة اثنين منهم، معتبرَيْن قائمَي مقام كامبوثانو، واحد كان يُدعى مونيوثْ أوتِرو، سِرخيو مونيوثْ أوتِرو، رئيس تجار المخدرات في نوغالِسْ وآخر يُدعى فابيو إثكيبردو، عمل لفترة رئيساً لمكافحة المخدرات في هِرموسيّو، عمل بعدها فاتحاً طرقاً لنقل المخدرات من سينالوَا أو أواكساكا أو من ميتشواكان، بل وحتى من تاماوليبّاس التي كانت جزءاً من أراضي مدينة خوارِثْ. يعتبر لويا حضورَ مونيوثْ أوتِرو وفابيو إثكيبردو بعضَ حفلات كيلي، أكيداً. هكذا إذن كيلي هناك بلا موديلات، تعمل مع فتيات من قاع المجتمع أو بشكل مكشوف مع عاهرات في مزارع تجار مخدّرات مهجورة للقدر وفي حفلاتها هناك مصرفيّ، سالاثار كرِسبّو، ورجل أعمال، المدعو كتلان، ومليونير، المدعو باديّا وإذا لم يكن بينهم كامبوثانو فعلى الأقل هناك اثنان من أبرز رجاله، فابيو إثكيبردو ومونيوثْ أوتِرو، إضافة إلى شخصيات من رجالات المجتمع والإجرام والسياسة. نخبة من الأعيان. وذات صباح أو ذات ليلة تتبخّر صديقتي في الهواء.

بقيت ماري-سوِ يومين تُحاول أن تتصل من مكتب تحرير *إل إندِبِنْدِيينتِ دِ فونيكس*، بصحفيّ العاصمة الفيدرالية الذي أجرى مقابلة مع دانييل أوريبِ. لم يكن يتواجد هذا في صحيفته تقريباً والناس الذين كانت تتكلّم معهم كانوا يرفضون أن يُعطوها رقم هاتفه الخلويّ. حين استطاعت أخيراً أن تتكلّم معه رفض الصحفيّ، الذي كان له صوتُ سكران وشخص سيّئ، فكّرت ماري-سوِ، أو على الأقل صوت متعجرف، أن يعطيها هاتفَ دانييل أوريبِ، متحجّجاً بأنّ عليه أن يحمي حميميَّةَ مصادره. وفي لحظة سيّئة ذكّرته ماري-سوِ بأنّهما زميلان، وأنّ كليهما يعمل في الصحافة قال لها رجل العاصمة الفيدرالية ولا حتى لو كانت عشيقته. لم يكن يُعرف عن جوسو هِرنانِدِثْ مِركادو صحفي

لا راثا المختفي شيء. وذات ليلة راحت ماري-سوِ تبحث في الأرشيف الذي كان عندها عن قضية هاس، حتى عثرت على مقال كتبه هِرناندِثْ مِركادو بعد المؤتمر الصحفي الذي لم يكن الحضور فيه كبيراً في سجن سانتا تِرِسا. كان أسلوب هِرناندِثْ تأثيرياً وفقيراً بالدرجة ذاتها تقريباً. كان المقال مليئاً بالأفكار الشائعة، عدم الدقة، والتأكيدات الوجلة والمبالغات والكذب الصراح. كان هِرناندِثْ مِركادو يُصوّر هاس أحياناً ككبشٍ فداء لمؤامرة من أثرياء سونورا وأحياناً يظهر هاس كملاكِ الانتقام أو كرجلٍ تحرّ محبوس في زنزانة، لكنّه غير مهزوم ولا بشكل من الأشكال، راح قليلاً فقليلاً يحاصر جلاّديه بفضل ذكائه فقط. فكّرت ماري-سوِ، قبل أن تُغادر الصحيفة، في الثانية صباحاً، بينما هي تشرب آخر فناجين قهوتها، أنّه ما من أحد يملك قليلاً من الذكاء يمكنه أن يُزعِجَ نفسَه بقتل ثمّ إخفاء جثّة شخص لأنّه كتب مهزلة كتلك. إذن ما الذي حدث لِهِرنانِدِثْ مِركادو. رئيس تحريرها، الذي كان بدوره يعمل حتى ساعة متأخّرة أعطاها عدّة أجوبة محتملة. تعب وولى الأدبار، جنّ وولّى الأدبار، ولى الأدبار لا أكثر.
هتف لها بعد أسبوع الصحفيّ المراهق، الذي رافقها إلى سونورا. كان يريد أن يعرف كيف هو المقال الذي كانت ستكتبه ماري-سوِ عن هِرنانِدِثْ. لن أكتب شيئاً، قالت له. أراد الصحفيّ المراهق أن يعرف لماذا. لا أنّه لا يوجد لغز، قالت ماري-سو. لا بدّ أن هِرنانِدِثْ يعيش ويعمل في كاليفورنيا. لا أصدّق ذلك، قال الصحفيّ المراهق. تهيّأ لماري-سوِ أنّ الفتى صرخ. سمعتْ في الخلفية ضجيج شاحنة أو عددٍ من الشاحنات، كما لو أنّه يتكلّم من شركة نقل. لماذا لا تريد أن تُصدّق؟، قلتُ. لأنّني كنتُ في بيته، قال الفتى. أنا أيضاً كنتُ في بيته، ولم أرَ شيئاً يجعلني أفكّر بأنّهم قتلوه. ذهب لأنّه أراد أن يذهب. لا، سمعتْ الفتى يقول. لو أنّه ذهب بمحض إرادته لكان أخذ معه كتبه. الكتبُ ثقيلة، قالت ماري-سو، ثمّ أنّ باستطاعة المرء أن يعود

ويشتريها من جديد. في كاليفورنيا توجد مكتبات أكثر مما في سونويتا، قالت راغبة بأن تقول نكتة، لكنّها سرعان ما انتبهت إلى أنّ ذلك التأكيد خالٍ من أيّ فكاهة. لا، لا أقصد تلك الكتب، بل كتبه، قال الفتى. أي كتب من كتبه تقصد؟ قالت ماري-سوِ؟ الكتب التي كتبها ونشرها. فهذه ما كان ليتركها حتى ولو انتهى العالم. بقيت ماري-سوِ، تُحاول أن تتذكّر بيت هِرناندِثْ مِركادو. كان في الصالون بعض الكتب وكذلك في الغرفة. كلّها مجتمعة لم تكن تتجاوز المئة نسخة. لم تكن مكتبة كبيرة، لكنّها ربّما كانت بالنسبة إلى صحفيّ مياوم كافية وأكثر من كافية. لم يخطر لها أن تُفكّر أنّ بين تلك الكتب يمكن أن تكون الكتب التي كتبها هِرناندِثْ مِركادو. وهل تعتقد أنّه ما كان ليذهب من دونها؟ ولا بشكلٍ من الأشكال، قال الفتى، فقد كانت كأولاده. فكّرت ماري-سوِ أنّ الكتب التي تحمل اسم هِرناندِثْ مِركادو يجب ألا تزن كثيراً وأنّه ما كان ليستطيع ولا بشكل من الأشكال أن يشتريها في كاليفورنيا.

في التاسع عشر من كانون الأوّل عُثِر في أراضٍ قريبة من ضاحية كينو، على بعد كيلومتراتٍ قليلة من زرائب غابيلانِس دِل نورتِ على بقايا امرأة في كيس بلاستيكي. كان الأمر يتعلّقُ، بحسب تصريحات الشرطة، بضحيّةٍ أخرى من ضحايا لوس بيسونتِس. وبحسب الأطباء الشرعيين كانت ما بين الخامسة عشرة والسابعة عشرة من عمرها وكان طولها ما بين المئة والخمسة والخمسين والمئة والستين سنتيمتراً والقتل ارتكب قبل سنة تقريباً. عُثر داخل الكيس على بنطلونٍ أزرق بحري، رخيص، مثل تلك التي تستخدمها نساء المعامل للذهاب إلى العمل وقميص داخليا وزنار بلاستيكي أسود له إبزيم كبير أيضاً بلاستيكي، من تلك المسماة بالخيالية. تولّى القضيّة المُحقّق ماركوس أرانا، المنقول حديثاً من هِرموسيّو، حيث كان منضوياً في فرقة مكافحة المخدرات،

ظهر في مكان العثور عليها في اليوم الأوّل المحقّقان أنخِل فِرنانذِثْ وخوان دِ ديوس مارتينِثْ. حين أعلموا هذا الأخير بأن يترك القضيّة لأرانا، الذي كانوا يريدون أن يُدرّبوه، قام بجولة على قدميه في المحيط حتى وصل إلى أبواب زرائب غاليبانِسْ دِل نورتِ. كان البيتُ الرئيسيّ يحتفظ بالسقف والنوافذ، لكنّ الأبنية الأخرى كانت توحي بمكان دمّره إعصار. بقي خوان دِ ديوس يجول برهة في الزرائب الشبحية ليرى ما إذا كان سيعثر على الأقل على فلاح أو طفلٍ أو حتى كلبٍ بقي هناك.

ما هو أو ما الذي أريدكَ أن تفعله؟، قالت النائبة. أريدك أن تكتب عن هذا، أن تستمرّ بالكتابة عن هذا. قرأتُ مقالاتك. إنّها جيّدة، لكن كثيراً ما تضرب هناك حيث لا شيء غير الهواء. أريدك أن تضرب شيئاً أكيداً، على لحم بشريّ مُحصّن وليس على الظلال. أريدُك أن تذهب إلى سانتا تِرِسا وتشمّه جيداً، أريدك أن تعضّه. لم أكن في البداية أعرف سانتا تِرِسا. كانت لديّ أفكار عامّة، مثل الجميع، لكّنني أعتقد أنّني بدأت أعرف المدينة والصحراءَ بدءاً من زيارتي الرابعة. الآن ما عدتُ أستطيع أن أخرجهم من تفكيري. أعرف أسماء الجميع، أو الجميع تقريباً. أعرف بعض النشاطات غير الشرعية. لكنّني لا أستطيع أن ألجأ إلى الشرطة المكسيكية. سيظنون في النيابة العامّة أنّني جُنِنْتُ. أيضاً لا أستطيع أن أسلّم تقاريري إلى الشرطة الأمريكية الشمالية، لسببٍ وطنيّ، فأنا أولاً وأخيراً، لينزعج من ينزعج، مكسيكية. ثمّ إنّني نائبة مكسيكيّة. هذا نحلّه نحن بالضرب، كما هو الأمر دائماً وإلا فإنّنا سننهارُ معاً. هناك أناس لا أريد أن أؤذيهم وأعرف أنّني سأؤذيهم. أعتبره جيداً، طالما أنّ الأزمنة تتغيّر والحزب الثوري الدستوريّ يجب أن يتغيّر أيضاً. وهكذا لم يبقَ لي غير الصحافة. ربّما بسبب سنواتي في الصحافة. الاحترام الذي أشعر به تجاه بعضكم يبقى لا يتغيّر. ثمّ إنّه

وبالرغم من أنَّ النظام مليء بالعيوب، فنحن على الأقل نتمتع بحرّية التعبير، وهذا ما احترمه الحزب الثوري الدستوري دائماً تقريباً. قلتُ دائماً تقريباً، دعك من عدم التصديق الذي يظهر على وجهك، قالت النائبة. هنا ينشر الواحد ما يريد دون مشاكل. في النهاية لن نتجادل حول هذا، أليس صحيحاً؟ أنت نشرتَ رواية تقول إنّها سياسيّة حيث الشيء الوحيد الذي تقوم به هو توزيع الخراء دون أيّ أساس ولم يحدث لك شيء، أليس صحيحاً؟ ولم يمنعوها لك ولم يأمروا بذلك. كانت روايتي الأولى، قال سِرخيو، وهي سيّئة جداً. هل قرأتِها؟ قرأتُها، قالت النائبة، قرأتُ كلّ الذي كتبتَهُ. سيّئة جداً، قال سِرخيو، ثمّ قال: هنا لا يمنعون ولا يقرؤون، لكنَّ الصحافةَ شيءٌ آخر. الصحف، بلى تُقرأ، على الأقل عناوينها. ثمَّ وبعد صمت: ما الذي جرى لِلويا؟ لويا مات، قالت النائبةُ. لا، لم يقتلوه، ولم يُخفوه. ببساطة مات. كان مصاباً بالسرطان ولم يكن أحد يعرف. كان رجلاً متحفّظاً. مكتبُ تحقيقاته يُديره الآن شخصٌ آخر، وربّما لم يعد موجوداً، وربّما هو الآن مكتب استشاري أو مساعدة للشركات. ليس عندي أدنى فكرة. سلّمني لويا قبل أن يموت كلّ المصنفات المتعلقة بقضيّة كيلي، ما لم يستطِع أن يمرّره لي أتلفه. حدستُ بشيء سيّئ، لكنّه فضّل ألا يقول لي شيئاً. ذهب إلى الولايات المتحدة، إلى مشفى في سياتل وتحمّل هناك ثلاثة أشهر ثمّ مات. كان رجلاً غريباً. مرّة واحدة فقط زرته في بيته. كان يعيش وحده في شقّة في ضاحية نابولِس. كان من الخارج مكاناً عاديّاً، ينتمي إلى الطبقة الوسطى، لكنّه في الداخل كان شيئاً آخر لا أعرف كيف أصفه، كان لويا، مثل مرآة للويا، أو مثل صورة ذاتية للويا، بلى هذا، صورة ذاتية غير منتهية للويا. كان عنده أقراص وكتب فنٍّ كثيرة. كانت الأبواب مُدرّعة. كان هناك صورة امرأة كبيرة في السن في إطار من ذهب، لفتة ميلودرامية. كان المطبخ مُعدّلاً بالكامل، كبيراً ومليئاً بأدوات الطباخ المهني. حين عرف أنّه لم

يبق له إلا القليل من الوقت هتف لي من سياتل وودّعني بطريقته. أتذكّر أنّني سألته عمّا إذا كان خائفاً. لا أعرف لماذا سألته هذا السؤال. أجابني بسؤال آخر. سألني عمّا إذا كنتُ أنا خائفة. لا، لستُ خائفة، قلتُ له. إذن ولا أنا، قال لي. أريدُكَ الآن أن تستخدم كلّ الذي جمعته بيني وبين لويا وأن تهزّ وكر الدبابير. طبعاً، لن تكون وحدكَ. سأكون دائماً إلى جانبك، حتى ولو لم ترني، كي أُساعِدك في كلّ لحظة.

آخر قضية في العام ١٩٩٧ كانت شبيهة كفايةً بما قبل الأخيرة، مع فارق أنّه وبدل العثور الكيس مع الجثّة في الطرف الغربي من المدينة عُثِر على الكيس في الطرف الشرقي، على الطريق الترابي الذي يمضي، لنقل موازياً للخط الحدودي والذي يتفرّع بعدها إلى فرعين ويضيع قبل الجبال الأولى والفِجاج الأولى. كانت الضحيّة، بحسب الأطباء الشرعيين قد قتلت قبل زمن طويل. وكانت تُقارب الثامنة عشرة من عمرها، وطولها ما بين المتر والثمانية والخمسين سنتيمتراً والمتر والستين سنتيمتراً. كانت الجثّة عارية، لكنّهم عثروا داخل الكيس على زوج أحذية، عالي الكعب، من الجلد، حسن النوعية وهو جعلهم يُفكّرون أنّ الأمر يتعلّق بعاهرة. أيضاً عُثر على سروال داخلي أبيض من النوع الشريطي. أغلقت هذه القضيّة كما أغلقت التي قبلها بعد ثلاثة أيّام من التحقيقات الأقرب إلى الفاترة. احتُفل بأعياد الميلاد في سانتا تِرِسا بالطريقة المعتادة. أطلقوا شهباً، وحطّموا قدوراً، شربوا التكيلا والبيرة. حتى في أكثر الشوارع تواضعاً كان يُسمع الناسُ يضحكون. كان بعضُ تلك الشوارع مظلماً تماماً، شبيهاً بالثقوب السوداء وكانت الضحكات التي تخرج من حيث لا أحد يعرف الإشارة الوحيدة، المعلومة الوحيدة عند الجيران والغرباء كيلا يضيعوا.

قسم أرشمبولدي

كانت أمّه عوراء، شديدةَ شقرةِ الشعر وعوراء. كانت عينها السليمة سماوية ووديعة، كما لو أنّها ليست شديدةَ الذكاء، لكنّها بالمقابل طيّبة، طيّبة جدّاً. كان أبوه أعرجَ، فقد رجله في الحرب، أمضى شهراً في مشفى عسكريّ قريب من دورين، وهو يُفكّر أنّه لن يخرج منه، ويرى كيف كان الجرحى، الذين يستطيعون أن يتحرّكوا (هو لا!) يسرقون السجائر من الجرحى الذين لا يستطيعون أن يتحرّكوا. ومع ذلك حين أرادوا أن يسرقوه سجائرَهُ أمسك اللصّ، الأنمشَ، عريضَ الوجنتين، عريض المنكبين، وعريض الإليتين، من رقبته وقال له: مكانك!، لا يمكن اللعبُ بسجائر جندي!، عندها ابتعد الأنمشُ وهبط الليلُ وأحسّ الأب بأنَّ أحداً ينظرُ إليه.

في الفراش المجاور مومياء. عيناها سوداوان مثل بئرين عميقين.

- هل تُريد أن تُدخّن؟ - سأله هو.

لم تُجب المومياء.

- التدخين حسن - قال هو، وأشعل سيجارة وبحث عن فم المومياء بين الضمادات.

ارتعشت المومياء. ربّما لا تُدخّن، فكّرَ هو، وسحب السيجارة. أضاء القمرُ رأسَ السيجارة، المُلَطخةَ بنوعٍ من العفن الأبيض. عندها عاد وأدخلها بين شفتيه، في الوقت الذي كان يقول لها فيه: دخّنْ، دَخّنْ، انسَ كلّ شيء. لم تكن عينا المومياء تُغادرانه، ربّما، فكّر، هو

رفيق من كتيبتي وعرفني. لكن لماذا لا يقول لي شيئاً. ربّما لا يستطيع الكلام، فكّر. بدأ الدخان يخرج من بين الضمادات. إنّه يغلي، فكّر، يغلي، يغْلي.

كان الدخان يخرج من أذني المومياء، من حنجرتها، من جبينها، من عينيها اللتين ولا حتى وهما بهذا الشكل توقّفتا عن النظر إليه، حتى نفخ هو وسحب السيجارة من بيت الشفتين وبقي ينفخ برهة أكثر فوق الرأس المضمد إلى أن اختفى الدخان كلّياً. أطفأ بعدها السيجارة ونام.

حين استيقظ لم يجد المُومياء بجانبه. أين المُومياء؟، تساءل. ماتت هذا الصباح، قال أحدهم من سريره. عندها أشعل سيجارة وراح ينتظر الفطور. حين خرّجوه ذهب وهو يعرج حتى مدينة دورين. أخذ من هناك قطاراً تركه في مدينة أخرى.

في هذه المدينة انتظر أربعاً وعشرين ساعةً في المحطّة وهو يأكل حساءَ الجيش. الذي كان يُوزّع الحساء كان رقيباً، أعرج مثله. تكلّما برهةً بينما الرقيب يُفرغ مغارف حساء في صحون ألمنيوم الجنود، وكان هو يأكل جالساً على مقعدٍ خشبيّ، مقعد كمقعدِ نجار كان بجانبه. كان كلّ شيء، بحسب الرقيب، على وشك أن يتغيّر. الحربُ تُشرف على نهاياتها وسيبدأ عصر جديد. أجابه هو بينما كان يأكل بأنّ شيئاً لن يتغيّر أبداً. ولا حتى هما، اللذان فقد كلّ منهما ساقاً، لم يتغيّرا.

في كلّ مرّة كان يردّ عليه كان الرقيب يضحك. إذا قال الرقيب أبيض، يقول هو أسود. إذا قال الرقيب نهاراً يقول هو ليلاً. وحين كان الرقيب يسمع أجوبته يضحكُ ويسأله عما إذا كان الحساء ينقصه ملح، عمّا إذا كان الحساء غير مستساغ. ملّ بعدها من انتظار القطار، الذي، بحسب ما رأى، لن يصل أبداً فتابع طريقه سيراً على قدميه.

تاهَ في البرّية ثلاثة أسابيع، يأكلُ خبزاً يابساً، يسرق فواكهَ ودجاجاً من المزارع. خلال رحلته استسلمت ألمانيا. حين قالوا له ذلك قال:

هذا أفضل. وصل ذات مساء إلى قريته وقرع بابَ بيته. فتحت له أمُّهُ وحين رأته في تلك الحالة المأساويّة لم تعرفه. عانقوه بعدها وأطعموه. سألهم عمّا إذا كانت العوراءَ قد تزوّجت. قالوا له لا. ذهب في تلك الليلة لرؤيتها، دون أن يُبَدِّل ملابسَهُ أو يستحمّ، بالرغم من توسّلات أمّه له كي يحلق ذقنه على الأقل. حين رأته العوراء واقفاً أمام باب بيتها عرفته على الفور. الأعرج رآها تطلّ من النافذة أيضاً فرفع يداً وحياها رسمياً، بل وبشيء من التخشّب، لكن كان من الممكن أيضاً أن تُفَسَّر تلك التحيةُ كحركة تُعادِلُ قولَ هكذا هي الحياة. بدءاً من تلك اللحظة أكّد لمن أراد أن يسمعه بأنّ الجميع في قريته عميان وبأنّ العوراء كانت ملكة.

في عام ١٩٢٠ وُلِد هانز رِيْتِر. لم يكن يبدو طفلاً بل طحلباً. قال كانيتي وأعتقد أنّ بورخِس أيضاً قال، الرجلان المختلفان جدّاً، هكذا كما أنَّ البحر كان رمزَ أو مرآةَ الإنكليز، كانت الغابة المجاز الذي يعيش فيه الألمان. بقي هانز خارج هذه القاعدة منذ لحظة ولادته. لم يكن يُحبّ اليابسة وأقل منها الغابات. أيضاً لم يكن يُحبُّ البحر أو ما يسمّيه عامّةُ الفانين بحراً والذي كان في الحقيقة سطحَ البحر فقط، الأمواج التي تجعدها الريحُ والتي راحت تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى مجاز للهزيمة والجنون. ما كان يُحبّه هو قاعُ البحر، تلك كانت أرضاً أخرى، مليئة بالسهول، التي لم تكن سهولاً، وبالوديان التي لم تكن ودياناً، وبالجروف التي لم تكن جروفاً.

حين كانت تغسله العوراءُ في طشت، كان الطفل هانز رِيْتِر ينزلق دائماً من يديها الصابونيتين وينزل إلى قاعه، مفتوحَ العينين ولو لم تكن الأمّ تعيده إلى السطح لكان بقي هناك متأمّلاً الخشبَ الأسود والماءَ الأسودَ حيث كانت تطفو ذرات من وسخه نفسه، جزيئات من بشرة

كانت تُبحر مثل غوّاصاتٍ نحو مكان ما، فُرضة بحجم العين، شرم مظلم وهادئ، بالرغم من أنّ الهدوء لم يكن موجوداً، وحدها الحركة التي كانت قناع أشياءَ كثيرة بما فيها الهدوء، كانت موجودة.

وذات مرّة قال الأعرج للعوراء، وهو يراها أحياناً تُغسله، ألا تُخرجه، ليرى ماذا كان سيفعل. من قاع الطشت تأمَّلت عينا هانز رِيْتِر الرماديتان عينَ أُمِّهِ السماوية، وقف بعدها جانباً وقرّر أن يتأمّل بسكينة كبيرة أجزاءَ جسده التي راحت تبتعد في كلّ الاتجاهات، مثل سفن سابرة أُطلِقت دون تبصّر عبر الكون. حين انتهى الهواء ما عاد يتأمّل تلك الجزيئات الدقيقة التي كانت تضيع وبدأ يتبعها. احمرّ وانتبه إلى أنّه يعبر منطقة شبيهة بالجحيم. لكنّه لم يفتح فمه ولم يقم بأي حركة للصعود، بالرغم من أنّ رأسه كان على بعد عشرة سنتيمترات من السطح ومن بِحارِ الأوكسجين. أخيراً رفعته ذراعا أمِّهِ في الهواء فراح يبكي. نظر الأعرج المتدثّر بمعطفه العسكريّ القديم إلى الأرض وقذف ببصقةٍ وسط المدخنة.

كان هانز في الثالثة من عمره الأطولَ بين جميع أطفال القرية، الذين كانوا في الثالثة من أعمارهم وأطول من أيّ طفل في الرابعة من عمره، ولم يكن كلّ أطفال الخامسة أطول منه. كان في البداية يمشي بخطوات غير واثقة، فقال طبيب القرية إنّ ذلك يعود إلى طوله ونصحهم بأن يسقوه حليباً أكثر كي يعزز عنده الكالسيوم في العظام. لكنّ الطبيب أخطأ. كان هانز رِيْتِر يسير غير واثق من خطوه لأنّه كان يتحرّك على سطح الأرض، مثل غطّاسٍ مبتدئ في عمق البحر. في الحقيقة، كان يعيش ويأكل وينام ويلعب في عمق البحر. لم يكن هناك مشكلة مع الحليب، فأمّه كانت تملك ثلاث بقرات ودجاجاتٍ وكان الطفلُ حسنَ التغذية.

كان الأعرجُ ينظرُ إليه وهو يسيرُ في البريّة ويبدأ يُفكّر هل كان في عائلته ذات مرّة أحدٌ بمثل ذلك الطول؟ أخو جدٍّ جدّه أو جدّ أبيه، كان يُقال، خدم تحت أمرة فِدريكو العظيم، في فوج أو كتيبة مكوّنة فقط من رجال تجاوزَ طولهم المئة وخمسة وثمانين سنتيمتراً. ذلك الفوج، أو الكتيبة الفاخرة، سقط منه الكثيرون، فقد تبيّن أنّ من السهل جدّاً التسديد عليهم وتحويلهم إلى هدف.

كان الأعرج يُفكّر أحياناً، بينما هو يرى ابنه يتحرّك بارتباك على حواف بساتين الجيران، بأنّ الفوج البروسي واجه وجهاً لوجه الفوج الروسي المماثل في صفاته، فلاحون بطول متر وثمانين سنتيمتراً أو مئة وخمسة وثمانين سنتيمتراً يرتدون سترات الحرس الإمبراطوري الروسي الخضراء وتواجهوا وجهاً لوجه وكانت نسبة القتلى رهيبة، بل حتى عندما تراجع فوجا الجيشين بقي هذان الفوجان من العمالقة متلاحمَين في معركة بالسلاح الأبيض لم تتوقّف حتى أرسل رؤساء الأركان أوامر صارمة بالتراجع إلى مواقع جديدة.

كان طول والد هانز رِيتر قبل أن يذهب إلى الحرب مئة وثمانية وستين سنتيمتراً. وعندما عاد، ربّما بسبب فقدانه لرجله، كان طوله فقط مئة وخمسة وستين سنتيمتراً. تشكيل فوج من العمالقة عمل مجانين، كان يُفكّر. كان طول العوراء مئة وستين سنتيمتراً وتُفكّر أنّه كلّما كان الرجال أطول كان أفضل.

في السادسة من عمره كان هانز رِيْتر أطولَ من كلّ الأطفال الذين كانوا في السادسة، أطول من كلّ أطفال السابعة، أطول من كل أطفال الثامنة، أطول من كلّ أطفال التاسعة، أطول من نصف أطفال العاشرة. ثم إنّه، إضافة إلى ذلك كان قد سرقَ لأوّل مرّةٍ في السادسةِ من عمره كتاباً. كان اسم الكتاب *بعض حيوانات ونباتات السواحل الأوروبية*. خبّأه تحت سريره، بالرغم من أنه ما من أحد في المدرسة انتبه إلى

فقدان الكتاب. بدأ في تلك الأيام ذاتها يغوص. أي في العام ١٩٢٦. كان يسبح منذ الرابعة من عمره ويُدخل رأسه في الماء ويفتح عينيه وكانت أمّه توبّخه لأنّه يمضي اليوم بكامله أحمرَ العينين وتخاف أن يظنّ الناسُ عندما يرونه أنّه يقضي اليوم في البكاء. لكنّه لم يتعلّم الغطس حتى أتمّ السادسة من عمره. كان يدخل رأسه ويغوص متراً ويفتح عينيه وينظرُ. هذا صحيح. لكنّه لم يكن يغطس. في السادسة من عمره قرّر أنَ الغوص متراً قليلٌ فشكّ برأسه في عمقِ البحر.

كان كتاب *بعض حيوانات ونباتات الساحل الأوروبي* في رأسه، كما يُقال عادةً، وبينما كان يغوص كان يُمرّر صفحاته ببطء. هكذا اكتشف الأُشُن الإصبعية، التي هي أشن كبيرة الحجم، مكوّنة من ساق قوية وورقة عريضة، تماماً كما يقول الكتاب. على شكل مروحة من حيث تخرج أقسام على شكل شرائط تبدو في الواقع أصابع. الأُشُن الإصبعية هي أشن بحار باردة، مثل البلطيق وبحر الشمال والأطلسي. توجد في تجمعات كبيرة، في أخفض مستوى تحت المد والجزر وتحت مياه السواحل الصخرية. عادة ما يكشف الجَزْرُ غابات من هذه الأُشن. حين رأى هانز رِيْتِر غابة أشن لأوّل مرّة تأثّر إلى حدّ أنّه راح يبكي تحت الماء. يبدو صعباً أن يبكي إنسان بينما هو يسبح غائصاً بعينين مفتوحتين. لكن لا ننسَ أنّ هانز كان وقتذاك في السادسة من عمره وكان بطريقة ما طفلاً فريداً.

الأُشنة الإصبعية بنّية اللون وتُشبه *لاميناريا هيبربوريا*، التي تملك جذعاً أكثر خشونةً، و*ساكسوريزا بوليكيدس*، التي لها جذع ذو انتفاخات درنية. ومع ذلك فهاتان الأشنتان تعيشان في المياه العميقة وإن كان هانز رِيْتِر يسبح في بعض ظهيرات الصيف حتى يبتعد عن الشاطئ أو عن الصخور التي كان يترك ثيابه عليها، يغوص بعدها، إلا أنّه لم يستطع أن يراها أبداً، فقط كان يتوهّمها هناك في القاع، غابةً ساكنة وصامتة.

بدأ في تلك المرحلة يرسمُ في دفترٍ كلَّ أنواع الأُشُن. رسم الكورد فيلوم، الأشنة الخيطية، وهي أشنة مكونة من خيوط نحيلة، ومع ذلك يمكن أن يصل طولها إلى ثمانية أمتار، خالية من الأغصان، مظهرها رقيق، لكنّها في الواقع قويّة جدّاً. رسم أيضاً بطاطا البحر، وهي أُشنة مكونة من درنات مدورة، بنية ضاربة إلى اللون الزيتوني، تنمو على الصخور وعلى أُشُن أخرى. مظهرها غريب، لم يَرَ قط واحدة منها، لكنّه حلم بها مرّاتٍ كثيرة. رسم *الأسكوفيلوم نودوسوم*، وهي أُشنة بنية مختلفة الأشكال، تُعطي حويصلاتٍ بيضوية على امتداد أغصانها، يوجد بين *الأسكوفيلوم* نودوسوم أشن متباينة، ذكر وأنثى تنتج مركبات ثمرية تشبه الزبيب، هي في الذكر صفراء. وفي الأنثى خضراء داكنة. رسم *اللاميناريا سكارينا*، الأشنةَ السكرية، وهي أُشنة مُكَوّنة من سعفةٍ وحيدة، طويلة على شكل زنار. حين تكون جافة يمكن أن تُلاحظ على سطحها بلوراتٌ ذات مادة حلوة هي المنتول. تنمو في السواحل الصخرية ملتصقة بأشياء صلبة، برغم أن البحر كثيراً ما يجرفها. رسم *البادينا بافونيا (ذيل الطاووس)* وهي أُشنة نادرة، صغيرةُ الحجم على شكل مروحة. هي نوع من أُشُن المياه الحارة ويمكن العثور عليها على شواطئ بريطانيا العظمى الجنوبية وحتى البحر الأبيض المتوسّط. لا توجد أنواع مشابهة لها. رسم أُشنة *السارغاسوم فولغار*، وهي أُشنة تعيش في الشواطئ الصخرية والوعرة من البحر الأبيض المتوسط ويوجد بين سعفها أعضاء تناسلية متشعبة. يمكن العثور عليها في المستويات المنخفضة من المياه، كما في الأعماق الكبيرة. رسم *البورفيراس أومبيليكاليس*، التي هي أُشنة استثنائية الجمال، يصل طولها حتى العشرين سنتيمتراً، حمراء أرجوانية. تنمو في البحر الأبيض المتوسّط والأطلسي وفي قناة المانش وبحر الشمال. هناك أنواع عديدة منها وجميعها صالحة للأكل. الويلزيون، هم على وجه الخصوص أكثر من يأكلها.

- الويلزيون خنازير -قال الأعرجُ ردّاً على سؤال من ابنه-. خنازير بالمطلق. الإنكليز أيضاً خنازير، لكنّهم أقل قليلاً من الويلزيين. على الرغم من أنّهم في الحقيقة متساوون في الخنزرة، لكنّهم يُحاولون أن يبدوا أقل خنزرة بقليل، وبما أنّهم يعرفون كيف يجيدون التظاهر يبدون في النهاية كذلك. الاسكتلنديون أكثر خنزرة من الإنكليز وأقل بقليل من الويلزيين، الفرنسيون خنازير كالاسكتلنديين. الإيطاليون خنانيص. خنانيص مستعدون لأن يأكلوا أمَّهم الخنزيرة ذاتها. يمكن أن يُقال الشيءُ ذاته عن النمساويين: خنازير وخَنازير وخنازير. لا تَثِق أبداً بهنغاريّ. لا تثقْ أبداً ببوهيمي. يلحسون يدك بينما هم يلتهمون إصبعك. لا تثِقْ إطلاقاً بيهوديّ: فهذا يأكل لك الإبهامَ وفوق ذلك يترك يدك مغطاة بالريال. البافاريون خنازير أيضاً. حين تتكلّم مع بافاريّ، يا بُني، حاول أن يكون حزامك مشدوداً جيّداً. أما الراينيون فمن الأفضل ألا تكلّمهم: فهم في غمضة عين يريدون أن يقطعوا ساقك. البولنديون يبدون دجاجاً، لكن إذا ما انتزعت منهم أربع ريشاتٍ سترى أنّ لهم جلد خنزير. الشيء ذاته يحدث مع الروس، يبدون كلاباً جائعة، لكنّهم في الحقيقة خنازير جائعة، خنازير مستعدّون لأن أكل أيّ شخص، دون أن يسألوه مرّتين، دون أيّ شعور بالندم. الصربيون مثل الروس، لكن بحجم أقل. إنّهم مثل خنازير مُقنّعة بكلاب تشيهواهوية. الكلاب التشيهواهوية كلاب قزمة، بحجم عصفور دوري، تعيش في شمال المكسيك وتظهر في بعض الأفلام الأمريكية. الأمريكيون خنازير، طبعاً. الكنديون خنازير كبيرة لا يعرفون الرحمة، بالرغم من أنّ أسوأ الخنازير الكندية هم الكنديون الفرنسيون، كما أنّ أسوأ خنازير أمريكا هم الخنازير الأيرلنديون. الأتراك أيضاً ليسوا بمنأى عن ذلك. إنّهم خنازير لوطيون، مثلهم مثل الساكسونيين والويستفاليين. بالنسبة إلى اليونانيين فقط أستطيع أن أقول إنّهم مثل الأتراك: خنازير مشعرة ولوطية. وحدهم البروسيون ينجون، لكنّ بروسيا ما عادت موجودة.

أين تقع بروسيا؟ هل تراها؟. أنا لا أراها. يخطر ببالي أحياناً أنّهم ماتوا جميعاً في الحرب. وأحياناً على العكس، يتولد لديّ انطباع بأنّني خلال وجودي في المشفى، في مشفى الخنازير القذر ذاك، هاجر البروسيون جماعياً، بعيداً عن هنا. أذهبُ أحياناً إلى الشاطئ الصخري وأنظر إلى البلطيق وأحاولُ أن أتكهّن إلى أين ذهبت سفن البروسيين. إلى السويد؟ إلى النرويج؟ محال: هذه بلادُ خنازير. إلى أين إذن؟ إلى أيسلندا؟ إلى غرينلاند؟ أحاول أن أتكهّن ولا أستطيع. أين البروسيون إذن؟ أقتربُ من الشواطئ الصخرية وأبحثُ عنهم في الأفق الرماديّ. الرمادي المتقلب مثل الصديد. ليس مرّة واحدة في السنة. ليس مرّة واحدة في الشهر! مرّةً واحدة كلّ خمسة عشر يوماً. لكنّني لا أراهم أبداً. لا أتمكّن أبداً من أن أعرف إلى أيّ نقطة من الأفق انطلقوا. فقط أراك أنت، رأسك بين الأمواج يظهر ويختفي، عندها أجلس على صخرة، أمكثُ ساكناً برهة طويلة، وأنا أنظر إليك، متحوّلاً بدوري إلى صخرة، ومع أنّ عينيّ تضيعانك أو يظهر رأسك على مسافة بعيدة عن المكان الذي غطست فيه، إلاّ أنّني لا أخاف عليك، فأنا أعرف أنّك ستخرج، وأنّ المياه لا تستطيع أن تفعل معك شيئاً. وأبقى أحياناً نائماً، جالساً على صخرةٍ وحين أستيقظ أشعر من البرد ما يجعلني لا ألقي حتى بنظرة على البحر كي أتيقّن من أنّك ما زلت هناك. ماذا أفعل إذن؟ أنهضُ وأعدو إلى القرية وأسناني تصطكّ. وأبدأ عند دخولي في الشوارع الأولى أغنّي كي يُكوّن الجيران فكرة خاطئة ويظنوا أنّني ذهبت إلى حانة كرِبس كي أسكر.

أيضاً كان الشابُّ هانزّ رِيْتِر يُحبّ المشيَ، مثل غوّاصٍ، لكنّه لم يكن يُحبّ الغناء، تحديداً لأنّ الغوّاصين لا يُغنّون أبداً. كان يخرج أحياناً من قريته باتجاه الشرق عبرَ طريق ترابيّ محاطٍ بالغابات، ويصل إلى ضيعة الرجال الحمر، الذين يعملون في بيع الفحم. وإذا ما تابع

نحو الشرق، وصل إلى ضيعة النساء الزرقاوات، المحاطة ببحيرة تجفُّ صيفاً. كلا الضيعتين كانتا تبدوان له ضيعتي أشباح يسكنها الموتى. فيما وراء ضيعة النساء الزرقاوات كانت قرية البدينين. هناك كانت الرائحة سيّئة، رائحة دمٍ ولحمٍ فاسدٍ كثيفة وقوية مختلفة جدّاً عن رائحة قريته نفسها، التي كانت لها رائحة ثياب متسخة وعرق ملتصق بالجلد. رائحة تراب وبول، التي هي رائحة رقيقة رائحة تُشبه رائحة أُشن *الكوردا فيلوم (الأُشنة الخيطية)*.

في قرية البدينين، كما لا يمكن أن يكون أقل، كان هناك كثير من الحيوانات وعدد من محلات الجزارة. كان أحياناً بينما هو يقطع طريقَ العودة، وهو يتحرّكُ مثل غوّاص، يرى أبناء من قرية البدينين يتسكعون في ضيعة النساء الزرقاوات أو ضيعة الرجال الحمر، دون أن يكون عندهم ما يفعلونه فيُفكّرُ أنه ربّما مات سكّانُ هاتين الضيعتين، الذين هم الآن أشباح، على يد ناس جاؤوا من قرية البدينين، الذين لا بدّ كانوا فيما يتعلّق بفنّ القتل مخيفين لا يعرفون الرحمة، بالرغم من أنّهم لم يتعرّضوا إليه قط، لأسباب أخرى من بينها أنّه كان غوّاصاً، أي لأنّه لم يكن ينتمي إلى عالمهم، الذي كان يذهب إليه فقط كمكتشف أو كزائر.

في مرّات أخرى كانت تحملُهُ خطواتُهُ إلى الغرب وهكذا كان يستطيع أن يمرّ في شارع ضيعة البيضة الرئيسيّ، الذي كان يبتعد في كلّ مرّة أكثر عن صخور الشاطئ، كما لو أنّ البيوت كانت تتحرّك من تلقاء ذاتها وتميل للبحثِ عن مكانٍ أكثر أماناً بالقرب من الوهاد والغابات. بعد ضيعة البيضة كانت ضيعة الخنزير، الضيعة التي كان يَعتقد أنّ والديه لم يزوراها قط، حيث كانت توجدُ زرائب خنازير كثيرة وقطعان الخنازير الأكثر بهجة في تلك المنطقة من بروسيا، التي يبدو أنّها تُحيّ المارَّ دون أن يهمّها وضعه الاجتماعي أو عمره أو وضعه المدني بغمزاتٍ ودّية، تكاد تكون موسيقيّةً، أو من دون تكاد، موسيقية تماماً،

بينما القرويون يمكثون بلا حراك وقبعاتهم في أيديهم أو يُغطون بها وجوههم، لا يُعرف ما إذا كان تواضعاً أو خجلاً.

فيما وراءها كانت قرية الفتيات الثرثارات، الفتيات اللواتي كنّ يذهبن إلى الأعياد ليرقصن جامحات في القرى الأكبر والتي كان يسمع الشاب هانز رِيتِر بأسمائها وينساها فوراً، الفتيات اللواتي كنَّ يُدخِّن في الشارع ويتكلّمن عن بحّارةِ ميناء كبير، يعملون في سفنٍ تُسمّى بكذا وكذا والتي كان الشابّ هانز رِيتِر ينساها فوراً، فتيات كنّ يذهبن إلى السينما ويُشاهدن أفلاماً مثيرة جدّاً يقوم ببطولتها ممثلون وممثلات هم أجمل رجال ونساء الكوكب، والذين إذا أراد المرءُ أن يتبعَ الموضةَ عليه أن يقلدهم، وكان الشاب هانز رِيتِر ينسى أسماءهم فوراً. حين كان يعود إلى بيته، مثلَ غوّاصٍ ليليّ، كانت أُمُّهُ تسأله أين قضى نهاره، وكان الشابُّ هانز رِيتِر يقول أوّل شيء يخطر بباله، إلا الحقيقة.

عندها كانت العوراء تنظر إليه بعينها السماوية فيثبت الطفل نظرتها بعينيه الرماديتين وكان الأعرج ينظر إليهما بعينيه الزرقاوين من زاوية قريبة من المدخنة فيبدو كما لو أنّ جزيرة بروسيا تعود لتنبثق من الهاوية خلال ثلاث أو أربع ثوانٍ.

في الثامنة من عمره تخلّى الطفلُ هانز رِيتِر عن الاهتمام بالمدرسة. وقتها أوشك مرّتين على الغرق. كانت المرّة الأولى في الصيف وأخرجه من الماء سائحٌ شابّ من برلين كان يمضي العطلة في قرية الفتيات الثرثارات. الشابّ السائح رأى طفلاً كان رأسه يظهر ويختفي قربَ بعضِ الصخور فخلع، بعد أن تأكّد من أنّ الأمر يتعلّقُ بالفعل بطفلٍ، فهو كان مصاباً بقصر النظر، وظنّ من النظرة الأولى أنّه أُشنة، سترتَهُ التي كان يحمل فيها أوراقاً مهمّة ونزل عبر الصخور إلى أن ما عاد باستطاعته أكثر فاضطرّ لأن يرمي بنفسه إلى الماء، بأربع حركاتٍ وصل إلى مكان الطفل وبدأ، بعد أن نظرَ إلى الشاطئ من البحر باحثاً

عن مكان مثاليّ كي يخرج، يسبحُ حتى مكان يبعد قرابة الخمسة وعشرين متراً عن المكان الذي رمى بنفسه منه.

كان السائح يُدعى فوغِل وكان يتمتّع بتفاؤل خارج عن أيّ فهم. يمكن في الحقيقة ألا يكون متفائلاً بل مجنوناً وأنّ تلك العطلة التي كان يقضيها في قرية الفتيات الثرثارات كانت بأمرٍ من طبيبه، الذي نظراً لانشغاله على صحّته كان يُحاول أن يُخرجه من برلين بأدنى ذريعة. إذا ما عرف المرء فوغِل بطريقة حميمة إلى هذا الحدّ أو ذلك سرعان ما يصبح حضوره غير محتمل. كان يؤمن بطيبة النوع البشري الجوهرية، كان يقول إنّ شخصاً يملك قلباً نظيفاً يستطيع أن يُسافر سيراً على قدميه من موسكو وحتى مدريد دون أن يزعجه أحدٌ، لا حيوان ولا شرطيّ ولا حتى جمركيّ، فالمسافر يتّخذ احتياطاته الضرورية، من بينها أن يخرج من حين لآخر عن الطرق ويتابع سيره في البرّية. كان مريضاً بالعشق وأبلَهَ، ونتيجة لذلك لم يكن له خطيبة. كان يتكلّم من حين لآخر، دون أن يهمّه من كان يُصغي إليه، عن الخصائص المُسَكّنة للعادة السرّية (وكان يعطي مثلاً كانط)، التي يجب أن تُمارس منذ نعومة الأظفار وحتى أرذل العمر، وهو ما كان بعامّة يجعل فتيات قرية الفتيات الثرثارات، اللواتي سنحت لهنّ الفرصةُ لسماعه، يضحكن وكان يُضجر ويثير قرف معارفه في برلين، الذين كانوا يعرفون أكثر من اللازم هذه النظرية وكانوا يُفكّرون أنّ فوغِل الذي كان يشرحها بكلّ ذلك الإصرار، ما كان يفعله في الحقيقة هو أنّه يمارس العادة السرية أمامهم أو معهم.

لكنّه أيضاً كان يملك مفهوماً عالياً للشجاعة فحين رأى أنّ طفلاً، وإن بدا له في البداية أُشنة، كان يغرق لم يتردّد لحظة في أن يرمي بنفسه إلى البحر الذي لم يكن في تلك المنطقة الصخرية هادئاً وينقذه. شيء آخر يجب أن يُسجل، وهذا الشيء هو أنّ خطأ فوغِل (خَلْطُهُ بين طفل برونزيّ البشرة وأشقرَ الشعر، وبين أُشنة) عذّبه في تلك الليلة، في الوقت الذي كان قد مضى كلّ شيء. عاش فوغِل في سريره في تلك

الليلة أحداثَ النهار، وكما كان يفعل دائماً، أي بكثيرٍ من الرضا، حتى عاد ورأى بسرعة الطفلَ الذي كان يغرق وعاد ليرى نفسه وهو ينظر إليه ويشكّ بما إذا كان الأمر يتعلّقُ بكائن بشريّ أم بأُشنة. وعلى الفور فارقه النعاس. كيف استطاع أن يخلط بين طفل وأُشنة؟ تساءل. ثمَّ: هل هناك من شيء مشترك بين طفلٍ وأُشنة؟

فكّر فوغِل قبلَ أن يصوغَ سؤالاً رابعاً بأنّه قد يكون طبيبه في برلين على حقٍّ وأنّه يُجنّ، أو ربّما هو مجنون -بمعنى ما يُفْهَم عادة بالمجنون- لا، لكن بلى، كان يُشرف، فقط كي نقوله بطريقة ما، على طريق الجنون الواضح، فليس بين الطفل وبين الأُشنة أيُّ شيء مشترك، ومن يخلط، وهو ينظر من صخرة، بين طفل وأُشنة شخص «براغيه ليست محكمة الشدّ»، وليس مجنوناً، بالضرورة، فالمجانين ينقصهم برغيّ، لكنّه بلى شخصٌ براغيه ليست مُحكمة الشدّ وبالتالي عليه أن يسير بحذر في كلّ ما يتعلّق بالصحة العقلية.

بعدها وبما أنّه لن يستطيع النوم طوال الليل، راح يفكّر بالطفل الذي أنقذه. كان نحيلاً جدّاً، تذكَّرَ، وطويلاً جدّاً بالنسبة إلى عمره وكان يتكلّم سيّئاً بشكل مريع. حين سأله ماذا حدث له أجابه الطفل:

- لميحدوشي.

- ماذا؟ -سأل فوغِل-. ماذا قلتَ؟

- لم يحدوشي -كرّر الطفلُ. وفهم فوغِل أنّ لميحدشي كانت تعني: لم يحدث شيء.

وهكذا كانت بقية مفرداته، التي بدت لفوغِل طريفة ومضحكة، ولذلك راح يوجّه إليه أسئلة، لا أساس لها ولا رأس، فقط محبة بأن يسمع الطفلَ، الذي كان يردّ على كلّ شيء بمنتهى الطبيعية، مثلاً، ما اسم هذه الغابة كان فوغِل يسأله فيجيبُ الطفل غاتساف، التي كانت تعني غابة جوستاف، و: ما اسم هذه الغابة الأخرى الأبعد، والطفل يردّ غاترِتا، والتي تعني غابة غرِتا، و: ما اسم هذه الغابة السوداء

الموجودة على يمين غابة غِرتا والطفل يجيب الغالاسملا، التي تعني الغابة التي لا اسم لها، إلى أن وصلوا إلى أعلى المنطقة الصخرية، حيث ترك فوغِل سترته مع أوراقه المهمّة في جيبها والطفل تحت إصرار فوغِل، الذي لم يسمح له بأن ينزل مرّة أخرى إلى البحر، استعاد ثيابه الموجودة إلى الأسفل قليلاً في كهف كأنّه كهف نوارس، ثم ودّع بعضهما بعضاً، لكن ليس قبل أن يُقدِّمَ الواحدُ منهما نفسه إلى الآخر:

- أنا اسمي هاينز فوغِل -قال له فوغِل كما لو أنّه يُكَلِّم أبله- وأنت ما اسمك؟

والطفل قال له هانز رِيْتِر، لافظاً اسمه بوضوح، ثم شدّ كلّ منهما على يد الآخر وابتعد في اتجاه مختلف. هذا ما كان يتذكّره فوغِل وهو يتقلّب في السرير، دون أن يبغي إشعال النور ودون أن يستطيع أن ينام. بماذا يمكن أن يُشْبِهَ هذا الطفل الأُشنة؟، كان يتساءل. هل بالنحول، بالشعر المحروق بالشمس، بالوجه المتطاول والهادئ؟ وكان يتساءل أيضاً: هل عليّ أن أعود إلى برلين، هل عليّ أن آخذ كلام طبيبي بجدّية أكبر، هل عليّ أن أبدأ بدراسة نفسي؟ تعب أخيراً من كثرة الأسئلة، استمنى فوافاه النوم.

المرّة الثانية التي أوشك أن يغرق فيها الشاب هانز رِيْتِر كانت في الشتاء، حين رافق بعضَ صيادي المياه قليلة العمق ليرموا شباكهم مقابل ضيعة النساء الزرقاوات. كان الليل يحلّ والصيادون راحوا يتكلّمون عن الأضواء التي تتحرّك في عمق البحر. قال واحد منهم إنّهم الصيادون الميتون الذين يبحثون عن الطريق إلى ضِيَعِهم، إلى قبورهم على اليابسة. وقال آخر إنّها طحالب برّاقة، طحالب تبرق مرّة في الشهر، كما لو أنّها تُفَرِّغُ في ليلة واحدة ما تأخّرت في تجميعه ثلاثين يوماً. وقال آخر إنّها نوع من شقائقِ نعمانِ البحرِ، التي لا توجد إلاّ في ذلك الشاطئ وإنّ البريق كان تنشره الشقائق الأنثوية، كي تجذب إليها

الشقائق الذكرية، وإنّ كانت شقائق نعمان البحر بعامة، أي في العالم كلّه خنثى، لا ذكر ولا أنثى، بل ذكر وأنثى في جسد واحد، كما لو أنّ العقل ينام وحين يستيقظ يكون جزء من شقيقة نعمان البحر قد جامع الجزء الآخر، كما لو أنّ داخل الواحد يوجد امرأة ورجل في آن معاً، أو لوطي ورجل بالنسبة إلى شقائق البحر العاقرة. قال آخر إنّها أسماك كهربائية، نوع غريب جدّاً، يجب أن يكون المرء حذراً جداً منه، إذ إذا وقعت في شباكِكَ لا تختلف عن الأخرى بشيء، لكن عندما يأكلها الناس يمرضون، يُصابون بارتعاشات كهربائية في معداتهم وتُسبّب لهم أحياناً الموت.

بينما كان الصيادون يتكلّمون كان فضول الشاب هانز رِيْتِر الذي لا يمكن كبحه، أو جنونه، الذي كان يقوده أحياناً إلى أن يفعل أشياء من الأفضل ألا يفعلها، قد دفعه، دون ما سابق إنذار، لأن يرمي بنفسه من الزورق ويغوص في عمق البحر خلف أضواء أو ضوء تلك الأسماك أو السمكة الفريدة، ولم يستنفروا في البداية كما لم يصرخوا أو يئنوا فالجميع كان يعرف نزوات الشاب رِيْتِر، ومع ذلك انشغلوا حين لم يُطلّ برأسه بعد بضع ثوان، فهم مع أنّهم كانوا بروسيين غير مثقفين، إلاّ أنّهم كانوا من أهل البحر ويعرفون أنّه ما من أحدٍ يستطيع أن يتحمّل أكثر من دقيقتين (أو شيء من هذا القبيل) دون أن يتنفّس فكيف بطفل رئتاه، مهما كان الطفل طويلاً، ليستا قويّتين بما يكفي كي تخضعا لمثل ذلك الجهد.

في النهاية غطس اثنان منهم في ذلك البحر المظلم، بحر قطيع الذئاب، وغاصا حول الزورق محاولَيْن أن يعثرا على جسد الشاب رِيْتِر، دون جدوى، ولذلك اضطرا لأن يصعدا ويبلعا هواء، ثمّ أن يسألا، قبل أن يغوصا مرّة أخرى، الموجودين في الزورق عمّا إذا كان قد خرج ذلك الأبله. عندها وتحت ثقل الجواب السلبي عادا ليختفيا بين الأمواج المظلمة، التي كانت تستحضر إلى الذهن حيوانات الغابة

وانضمّ إليهما واحد لم يكن قد فعل ذلك وكان هذا من رأى على عمق خمسة أمتار جسدَ الشاب رِيْتِر طافياً مثل أُشنة مقتلعة تطفو شديدةَ البياض في الفضاء البحري نحو الأعلى، وهو من أخذه من إبطيه وصعد به ومن جعل الشابَّ رِيْتِر يتقيّأُ كلَّ الماء الذي كان قد ابتلعه.

حين أتمّ هانز العاشرة أنجبت العوراءُ والأعرجُ ابنهما الثاني، طفلة أسموها لوتّ. كانت الطفلة في غاية الجمال وربّما كانت الشخص الأوّل الذي يعيش على سطح الأرض ولاقى اهتمامَ هانز رِيْتِر (أو أثّر فيه). كثيراً ما كان والداه يتركانه يرعى الصغيرة. بعد وقت قصير تعلّمَ تغيير حفّاظاتها وتحضير رضاعتها ويمشي والطفلة بين ذراعيه إلى أن تنام. كانت الأخت أفضل ما حدث في حياته بالمطلق وحاول مرّات كثيرة أن يرسمها في دفتر الأشن، لكن النتيجة كانت دائماً غير مُرضية، فقد كانت الطفلة تبدو أحياناً كيس قمامة مهجور على شاطئ من حصى، وأخرى تبدو بِتروبيوس *ماريتيموس*، وهي حشرة بحرية تسكن في الشقوق وبين الصخور وتتغذّى على النفايات، حين لا تكون *ليبورا ماريتينا*، وهي حشرة أخرى صغيرة جدّاً بلون الأردواز الداكن أو الرمادي، بيئتها هي الأغمار الصخرية.

مع الزمن وبالضغط على خياله أو بالضغطِ على ذوقه أو بالضغط على طبيعته الفنّية ذاتها نجح في رسمها كحورية بحر صغيرة، سمكة أكثر مما هي طفلة، أبدن مما هي نحيلة، لكنّها دائماً مبتسمة، دائماً مستعدّة استعداداً تُحسد عليه للابتسام أو لأخذ الأشياء من جانبها الطيب، وهو ما كان يعكس بأمانةٍ مزاجَ أخته.

في الثالثة عشرة من عمره ترك هانز رِيْتِر الدراسة. كان هذا في عام ١٩٣٣، العام الذي وصل فيه هتلر إلى السلطة. في الثانية عشرة من عمره كان قد بدأ يدرس في مدرسة في ضيعة الفتيات الثرثارات، لكنّ

المدرسة ولأسباب، جميعها مُبرَّرة تماماً، لم تعجبه وهكذا راح يتلهى في الطريق، الذي لم يكن بالنسبة إليه أفقيّاً ولا عرضياً أفقياً أو أفقياً متعرّجاً، بل شاقولياً، هبوط مديد نحو قاع البحر حيث كلّ الأشجار، الأعشاب، المستنقعات، الحيوانات، الأسيجة تتحوّل إلى حشرات بحرية أو قشريات، إلى حياة مُعلّقة وغريبة، إلى نجوم بحر، إلى عناكب بحر، جسمها، كان الشابُّ رِيْتِر يعرف، من الصغر بحيث أنّه لم يكن يتسعُ لمعدتها ولذلك كانت معدتها تنتشر في أرجلها والتي كانت بدورها هائلة وغامضة، بمعنى أنّها كانت تنطوي (أو على الأقل بالنسبة إليه كانت تنطوي) على لغز، فعناكب البحر كانت تملك ثمانية أرجل، أربع في كل جانب، إضافة إلى رجلين أخريين، أصغر منها بكثير، في الحقيقة أصغر بالمطلق، ولم تكونا ذات فائدة، موجودتان في الطرف الأقرب إلى الرأس، وهاتان الرجلان، أو الرُّجَيلتان الدقيقتان بدا للشاب هانز رِيْتِر أنّهما لم تكونا رِجْلين أو رُجَيْلتين، بل يَدَيْن، كما لو أنّ عناكب البحر، في صيرورة تطوّر طويلة، طوّرت أخيراً، ذراعين وبالتالي يدين، لكنّها لا تعرف بعد أنّها تملكهما. كم من الزمن ستُمضي عناكب البحر وهي ما تزال تجهل أنّها تملك يدين؟

- ربّما -كان الشاب رِيْتِر يقول بصوت عالٍ وبطريقته الخاصّة- ألف سنة، أو ألفا سنة أو عشرة آلاف سنة. زمن طويل.

هكذا كان يسير نحو المدرسة في ضيعة البنات الثرثارات وكان بالطبع يصلُ دائماً متأخراً. بالإضافة إلى أنّه كان يُفكّر بأشياء أخرى.

في عام ١٩٣٣ استدعى مديرُ المدرسة والدَيّ هانز رِيْتِر، وحدها العوراء ذهبت. أدخلها المديرُ إلى مكتبه وقال لها بكلمات قليلة إنّ الطفل ليس أهلاً للدراسة. مدَّ بعدها ذراعيه، كما لو كي يُقلّل من مأساة ما قاله توّاً واقترح أن يأخذوه ليتعلّم مهنةً ما.

كان هذا هو العام الذي فاز فيه هتلر. في العام السابق على فوز

هتلر، مرّت لجنةُ دعاية في قرية هانز رِيْتِر. وصلت اللجنة أوّلاً إلى ضيعةِ البنات الثرثارات، حيث نظمت لقاءً في دار السينما، شكلّ نجاحاً كبيراً، في اليوم التالي انتقلت إلى ضيعة الخنزير وضيعة البيضة ووصلت مساء إلى ضيعة هانز رِيْتِر، حيث تناولت البيرة في الحانة، إلى جانب الفلاحين والصيادين، حاملة معها وموضّحةً خبرَ الاشتراكية القومية الحسن، الحزب الذي سيجعل ألمانيا تنبعث من رمادها وتنبعث بروسيا أيضاً من رمادها، في جوّ صريحٍ ومريح إلى أن تكلّم، أحدهم، مهذار دون شك، عن الأعرج، الوحيد الذي عاد حيّاً من الجبهة، البطل، الرجل الصلب، البروسي، صافي العرق، وإن كان من المحتمل أنّه كسول قليلاً، ابن بلد كان يحكي قصصاً عن الحرب تَقشعرّ لها الأبدان، قصصاً عاشها بنفسِه، وكان أهل الضيعة يؤكّدون على هذه العبارة بشكل خاص، عاشها بنفسِهِ، كانت صحيحة، لكنّها لم تكن صحيحة وحسب بل إنّ من كان يحكيها عاشها بنفسه، وهنا قال أحد أعضاء اللجنة، شخص له سيماء سيّد عظيم (يجب التأكيد على هذا، لأنّ مرافقيه لم يكن لهم تماماً سيماء سيّد عظيم، كانوا أشخاصاً عاديين، أشخاصاً مستعدين لأن يشربوا البيرة ويأكلوا السمك والسجق ويضرطوا ويضحكوا ويُغنّوا، هؤلاء الأشخاص، يجب أن نشير إلى ذلك ونُكرّر لأنّ من العدالة أن نفعل ذلك، لم تكن لهم تلك السيماء، بل على العكس كانت لهم سيماء أبناء الشعب، باعة يجوبون القرى، قريةً بعد قرية ويطلعون من الشعب، ويعيشون إلى جانب الشعب وحين يموتون تتلاشى ذكراهم من ذاكرة الشعب)، قال ربّما، فقط ربّما كان من المفيد التعرّف على الجندي رِيْتِر، ثمّ سأل ما هو سبب أنّ الجندي رِيْتِر غير موجود هناك، بالضبط في الحانة، يتحدّث مع الرفاق القوميين الاشتراكيين، الذين فقط يريدون الخير لألمانيا، وهنا قال أحدُ القرويين، كان عنده حصان أعور يرعاه أكثر مما يرعى الجنديُّ القديم رِيْتِر زوجتَهُ العوراء، بأنّ المذكورَ لم يكن في الحانة لأنّه ليس عنده

نقود ولا حتى كي يدفع ثمن إبريق بيرة، مما دفع أعضاء اللجنة لأن يقولوا، هل يعقل، هم يدفعون ثمن بيرة الجنديّ رِيْتِر، وهنا أشار الرجل الذي تعلوه سيماء الرجل العظيم إلى أحد القرويين بإصبعه وقال له أن يذهب إلى بيت الجنديّ رِيْتِر ويأتي به إلى الحانة، الشيء الذي فعله القروي على الفور، وحين عاد وظهر بعد خمس عشرة دقيقة أعلم جميع المجتمعين هناك بأنّ الجنديّ رِيْتِر لم يبغِ أن يأتي وأن الأسباب التي لوَّح بها هذا كانت أنّه ليس عنده ثياب لائقة كي يُقَدَّمَ إلى مسافرين لامعين كأولئك الذين كانوا يشكلون اللجنة، ثمّ إنّه كان وحدَهُ مع ابنته، ذلك أنّ العوراءَ لم تكن قد عادت بعد من العمل، وأنّ ابنته، كما هو منطقيّ، لا تستطيع أن تبقى وحدها في البيت، وقد أثّر تبريرُهُ في أعضاء اللجنة (الذين كانوا خنازير) حتى كادت تدمع عيونهم، ولم يكونوا خنازير وحسب بل كانوا أيضاً رجالاً عاطفيين ووصل وضع هذا المحارب القديم والمبتور الساق إلى أعماق أعماقِ قلوبهم، ولم تكن هذه هي حالة الرجل الذي كان يوحي بأنّه سيّد عظيم، إذ نهض ثمّ قال، كبرهان على ثقافته، إذا كان الجبلُ لا يذهب إلى محمَّدٍ فإنّ محمداً يذهبُ إلى الجبل وطلب من القرويّ أن يكون دليلَهُ إلى بيت الأعرج، إلى حيث لم يبغ أن يُرافقه أيٌّ من رجال اللجنة، وحده هو والقروي، وهكذا سار عضو الحزب القومي الاجتماعي وحذاؤه العسكري ملطخاً بطين شوارع الضيعة وتبع القرويَّ حتى حدود الغابة تقريباً حيث كان بيت عائلة رِيْتِر، الذي تأمّله بعين المُتَفَهّم برهةً قبل أن يدخل، كما لو أنّه يُقدّر مزاجَ أبي العائلة، من خلال انسجام أو قوّة الخطوط العامّة للبيت أو كما لو أنّ العمارة الريفية في هذا الجانب من بروسيا تهمّه جدّاً، دخلا بعدها إلى البيت، وبالفعل وجدا طفلة في الثالثة من عمرها تنامُ في مهد خشبيّ والأعرجَ يرتدي بالفعل الأسمال، فبنطلونه الوحيد المقبول كان في الطَّشْت أو معلّقاً رطباً في الفناء، وهو ما لم يمنع أن يكون الاستقبال لطيفاً، لا شكّ أنّ الأعرج شعر في

البداية بالفَخار والتَّمَيّز لمُجَرَّدِ أنّ عضواً في اللجنة ذهب ليسلّم عليه جهاراً نهاراً في بيته وإن اعوجّت الأمورُ بعدها أو بدا أنّها اعوجّت، فأسئلة الرجل الذي كان يحمل سيماء السيّد العظيم بدأت بالتدريج لا تعجبه، كذلك التأكيدات التي كانت تنبّؤات أكثر مما هي تأكيدات بدأت لا تعجبه، وعندها كان يردّ الأعرجُ على كلّ سؤال بتأكيدٍ، عامة ما كان زائغاً أو أهوج، وعلى كلّ تأكيد من الآخر كان الأعرجُ يُضيف سؤالاً يبطل التأكيدَ بذاته أو يضعه موضع الشكّ أو يجعله يبدو كتأكيد صبيانيّ، خالياً تماماً من المعنى العمليّ، وهو ما كان يبدأ بدوره يغيظ الرجلَ الذي كان يمنح نفسه سيماءَ السيّد العظيم، والذي اعترف له بجهدٍ عبثيّ كي يوجدَ أرضيةً مشتركة بأنّه كان طيّاراً في الحرب، وأنّه أسقط اثنتي عشر طائرة فرنسية وثماني طائرات إنكليزية، وأنّه يعرف المعاناة التي يعيشها المرء في الجبهة، وهو ما ردّ عليه الأعرج بأنّ معاناته الكبيرة لم تكن في الجبهة بل في المشفى العسكري اللعين بالقرب من دورن، حيث لم يكن أبناء وطنه يسرقون السجائر وحسب بل أيَّ شيء يستطيعون أن يسرقوه، حتى الأرواح كانوا يسرقونها كي يُتاجروا بها، بما أنّ من المحتمل جدّاً أنَّهُ كان يوجد في المشافي العسكرية الألمانية رقمٌ مرتفع من عبدة الشيطان، وهو أمر من ناحية أخرى مفهوم، قال الأعرج، فإقامة طويلة في المشفى العسكري كانت تدفع الناس باتجاه عبادة الشيطان، التأكيد الذي أصاب باليأسِ الطيارَ الذي كشف عن نفسه، والذي بقي بدوره ثلاثة أسابيع في مشفى عسكريّ، في دورن؟ سأل الأعرجُ. لا، في بلجيكا، قال الرجل الذي كان يمنح نفسه سيماءَ السيّدِ العظيم والمعاملة التي تلقاها كانت تتخطّى متطلبات، ليس متطلبات التضحية وحسب بل وأيضاً متطلبات اللطف والتفهّم، أطباء شجعان ورائعون، ممرّضات جميلات وقديرات، جوّ من التضامن والمُقاومة والشجاعة، بل إنّ مجموعة من الراهبات البلجيكيات برهنت عن إحساس عال بالمسؤولية، أي أنّ الجميع

ساهموا كي تكون إقامة الجرحى مثالية، طبعاً ضمن الظروف التي يمكن أن يتوقّعها المرء، لأنّ المشفى ليس كابريهاً ولا ماخوراً، انتقلا بعدها إلى مواضيع أخرى، مثل إنشاء ألمانيا العظمى، بناء مؤخّرة الجيش، تنظيف مؤسسات الدولة التي يجب أن يتبعها تنظيف كامل الأمّة، خلق فرص عمل، النضال من أجل التحديث، وبينما كان الطيار السابق يتكلّم راح أب هانز رِيْتِر يصبح في كلّ مرّة أكثر توتراً،كما لو أنّه كان يخاف أن تستيقظ الطفلة لوتّ وتبدأ بالبكاء بين لحظة وأخرى، أو كما لو أنّه انتبه فجأة إلى أنّه لم يكن متحدّثاً مُقنعاً بالنسبة إلى ذلك الشخص الذي له سيماء السيّد العظيم، وأنّه ربّما كان من الأفضل له أن يرتمي على قدمي ذلك الحالم، لقائد الأجواء وأن يَتَّهِمَ نفسه بما كان واضحاً، بجهلِهِ وفقرهِ والشجاعة التي خسرها، لكنّه لم يفعل شيئاً من هذا، بل اكتفى بأن راح يهزّ رأسه مع كلّ كلمة من الآخر، كما لو أنّه غير مقتنع (في الحقيقة كان مذعوراً)، كما لو أنّه يجد صعوبة في فهم أبعاد أحلامه تماماً (التي لم يكن في الحقيقة يفهما)، إلى أن رأيا فجأة، هو والطيار السابق الذي له سيماء السيّد العظيم، الشابّ هانز رِيْتِر يدخل إلى البيت، الذي أخرج أخته من مهدها دون أن يوجّه إليهما كلمةً وأخذها إلى الفناء.

- وهذا، من يكون؟ -سأل الطيار السابق.
- ابني الأكبر -قال الأعرجُ.
- يبدو سمكة زرافة -قال الطيار السابق، وراح يضحك.

هكذا ترك هانز رِيْتِر المدرسةَ في عام ١٩٣٣ لأنّ أساتذته اتهموه بعدم الاهتمام وبالتغيّب، الأمر الذي كان صحيحاً تماماً، وعثر له والداه وأقرباؤه على عملٍ في زورق صيد، طرده صاحبه بعد ثلاثة أشهر، لأنّ الفتى رِيْتِر كان يهمّه أن ينظر إلى قاع البحر أكثر من أن يساعد في رمي الشباك. ثمّ راح يعمل مياوماً في الريف، من حيث

طردوه بعد وقت قصير نظراً لكسله وكذلك عمل في جمع الترب ومناولاً في حانوت أدوات معدنية في ضيعة البدبنين، ومساعد فلاّح كان يذهب كي يبيع خضراواته في ستيتين، من حيث طردوه أيضاً، فقد شكّل بالنتيجة عبئاً أكثر منه مساعدة، إلى أن وضعوه أخيراً ليعمل في بيت ريفي لأحد البارونات البروسية، وهو بيت في وسط غابة بجانب بحيرة سوداء المياه، حيث كانت تعمل العوراء أيضاً، في نفض الغبار عن الأثاث واللوحاتِ والستائر الضخمةِ وسجاد الجدران وعن مختلف الصالات، كلّ واحدة باسمها الغامض الذي يستحضر مراحلَ طائفةٍ سرّية، حيث كان يتراكم الغبار بشكل مريع، الصالات التي كان يجب تهويتها أيضاً كي تذهب رائحة الرطوبة والهجران التي تسودها كلّ فترة وأيضاً إزالة الغبار عن كتبِ مكتبة البارون الهائلة، التي أورثه إيّاها جدّه، الوحيد على ما يبدو في تلك العائلة الكبيرة، الذي كان يقرأ كتباً ولقّن ذرّيته حبَّ الكتب، الحبّ الذي لم يكن يُترجم إلى قراءة هذه الكتب، لكنّه فعلاً كان يُترجم في أحاديث المكتبة، التي بقيت تماماً على حالها، لا أكبر ولا أصغر، تماماً كما تركها جدُّ البارون.

وكان هانز رِيْتِر، الذي لم يرَ في حياته هذا الكمّ من الكتب مجتمعة، يزيل عنها الغبار، واحداً فواحداً، وكان يتعامل معها بحذر، لكنّه أيضاً لم يكن يقرأ، من ناحية لأنّ عنده في كتابهِ عن الحياة البحرية ما يكفي ومن ناحية أخرى لأنّه كان يخشى ظهورَ البارون المفاجئ، الذي نادراً ما كان يزورُ البيت الريفيّ، المشغول كما كان بمسائل برلين وباريس، وإن كان يظهر من حين إلى آخر حفيدُه، ابنُ أخت البارون الصغرى، التي توفّيت مبكّراً، ورسّامٍ أقام في جنوب فرنسا، كان البارون يكرهه، فتى يقارب العشرين من عمره عادة ما كان يقضي أسبوعاً في البيت الريفي، وحيداً تماماً، دون أن يهمَّ أحداً، كان يغلق على نفسه المكتبة دون حدود للزمن، يقرأ ويشرب كونياكاً إلى أن يبقى نائماً على الكرسي.

التي كانت تظهر في مرّاتٍ أخرى هي ابنة البارون، لكنّ زياراتها كانت أقصر، لا تدوم أكثر من نهاية أسبوع، بالرغم من أنّ نهاية الأسبوع هذه كانت تُعادل بالنسبة للخدم شهراً، فابنة البارون لم تكن تأتِ أبداً وحدها، بل مع كوكبة من الأصدقاء، أحياناً أكثر من عشرة، وجميعهم خليو البال، جميعهم نهمون، جميعهم فوضويون، يحوّلون البيتَ إلى شيء فوضوي وصاخب، فحفلاتهم اليومية كانت تدوم حتى الفجر.

كان يُصادف وصولُ ابنةِ البارون أحياناً وجودَ ابن أخت البارون، وعندها كان ابن أخت البارون، بالرغم من توسّلات ابنة خاله يُغادر فوراً تقريباً، أحياناً دون أن ينتظر العربة التي يجرّها حصان، كانت هي ترافقه في مثل هذه الحالات إلى محطة قطارات قرية الفتيات الثرثارات.

كان وصول ابنة الخال يُثير عند ابن أخت البارون، الذي كان بطبعه خجولاً، حالةً من الاختناق والارتباك ما يجعل الخدم حين كانوا يُعلّقون على أحداث اليوم يجمعون في حكمهم على أنّه: كان يُحبّها أو هو كان يريدها، أو أنّه كان يُغشى عليه من أجلها أو أنّه يتعذّب لأجلها، الآراء التي كان الشاب هانز رِيْتِر يسمعها، وهو يأكل قطعة الخبز بالزبدة، ملتفّ الساقين، دون أن يقول أو يُضيف كلمةً، بالرغم من أنّه كان في الحقيقة يعرفُ ابنَ أخت البارون أفضلَ منهم بكثير، يعرف أنّه يُدعى هوغو هالدِر، بينما كان بقيّة الخدم، الذين كانوا يبدون عمياناً أمام الحقيقة، أو أنّهم فقط يريدون أن يروا ما يريدون رؤيته، أي يرون شاباً يتيماً عاشقاً ومُحتَضَراً وشابةً يتيمةً (بالرغم من أنّ ابنة البارون كان لها أب وأمّ، كما كان الجميع يعرفون جيّداً) طليقة اللسان تنتظر انعتاقاً غامضاً ومركّزاً.

انعتاق تفوح منه رائحة دخان خُثّ، حساءِ ملفوفٍ، ريح متشابكة في كثافة الغابة. انعتاق تفوح منه رائحة مرآةٍ، فكّر الشاب رِيْتِر وهو على وشك أن يختنق بالخبز.

لماذا كان الشاب رِيْتِر يَعرف ابنَ العشرين هوغو هالدِر أفضل من بقيّة الخدم؟ لسبب بسيط جدّاً. أو لسببين بسيطين جدّاً، بتشابكهما أو تركيبهما يعطيان صورة أكملَ وأيضاً أكثرَ تعقيداً عن ابن أخت البارون.

السبب الأوّل: هو أنّه رآه في المكتبة، بينما كان يمرّ بمنفضة الغبار على الكتب، هو رأى من أعلى سلّم المكتبة المتحرّك ابنَ أخت البارون نائماً، ينفخ أو يشخر، يتكلّم وحده، لكن ليس بجمل كاملة، كما اعتادت أن تفعل الحلوة لوتٌ، بل بكلمات أحادية المقاطع، تراكب كلمات، أجزاء من شتائم، في وضع دفاعيّ، كما لو أنّهم على وشك أن يقتلوه في الحلم. أيضاً كان قد قرأ عناوين الكتب التي يقرؤها ابنُ أخت البارون. كانت في معظمها كتب تاريخ، وهذا يعني أنّ ابنَ أخت البارون كان يُحبّ أو يهتمّ بالتاريخ، وهو ما بدا للشاب هانز للوهلة الأولى مُنَفّراً. يقضي الليل بطوله وهو يشرب كونياكاً ويدخّنُ ويقرأ كتبَ تاريخ. مُنَفِّر. وهو ما كان يقوده لأن يتساءل: أَمِنْ أجلِ هذا كلّ هذا الصمت؟ أيضاً كان قد سمع كلماته، حين كان عند أي جلبةٍ، جلبةٍ يحدثها فأر أو احتكاكُ كتاب كعبُهُ من الجلد حين يُعاد إلى مكانه بين كتابين، يستيقظُ، كلمات ارتباك تام، كما لو أنّ العالم بدّل محوره، كلمات ارتباك تام وليست كلمات عاشق، كلمات معذّب، كلمات تنبع من شَرَكٍ.

السبب الثاني كان أثقل وزناً. كان الشاب هانز رِيْتِر قد رافق هوغو هالدِر حاملاً له حقائبه في واحدة من المرّات الكثيرة التي قرّر فيها هذا أن يُغادر البيتَ الريفيّ بسرعة، نظراً لمداهمة ابنة خاله المفاجئة. للوصول من البيت الريفي إلى محطة قطارات قرية البنات الثرثارات كان هناك طريقان. واحد، الأطول، يمرّ في ضيعة الخنزير وضيعة البيضة ويدور أحياناً حول صخور الشاطئ والبحر. الآخر، الأقصر بكثير، كان درباً يشطر غابة بلوط وزانٍ وحورٍ هائلة شطرَيْن، ليظهر من جديد

حول محيط ضيعة البنات الثرثارات، إلى جانب معمل مُخَلّلاتٍ مهجور، قريباً جدّاً من المحطّة.

الصورة هي التالية: هوغو هالدِر يمشي أمام هانز رِيْتِر وقبعته في يده ويتأمّل باهتمام سقف الغابة، جوفاً داكن تتحرّك فيه حيوانات حذرة وطيورٌ لا ينجحُ من معرفتها. خلفه على مسافة عشرة أمتار يمشي هانز رِيْتِر حاملاً حقيبة ابن أخت البارون، التي تزن أكثر من اللازم، وبالتالي كان يُنَقّلها من وقت لآخر من يدٍ إلى أخرى. فجأة يسمعان قِباعَ خنزير، ربّما كان مجرّد كلب. ربّما كان ما سمعاه صوت محرّك سيارة بعيد على وشك أن يتعطّل. هذان الخياران الأخيران كانا بعيدي الاحتمال جدّاً لكنّهما ليسا محالين. الصحيح هو أنّ كلَيْهما كان يسرع خطوه دون أن يقول شيئاً وفجأة يتعثّر هانز رِيْتِر ويسقط وتسقط معه الحقيبة وتنفتح وينسكب محتواها على الدرب المظلم الذي يعبر الغابة المُظلمة. وإلى جانب ملابس هوغو هالدِر، الذي لم ينتبه إلى السقوط وراح يبتعد في كلّ مرّة أكثر، يُميِّز الشابُّ هانز رِيْتِر أطقمَ طعامٍ فضية، شمعداناً، علباً خشبيةً مطليةً بالمينا، ميداليات منسيةً في كثير من حجرات البيت الريفي، التي لا شكّ سوف يرهنها أو يبيعها ابنُ أخت البارون بسعر بخس.

طبعاً عرف هوغو هالدِر أنّ هانز رِيْتِر اكتشفه وهذا ما ساهم في تقرّبه من الخادم الشاب. ظهرت العلامة الأولى في المساء ذاته الذي حمل فيه هانز رِيْتِر له الحقيبة إلى محطّة القطارات. حين ودّعه ترك هالدِر في يده بعضَ النقود كبقشيش (كانت المرّة الأولى التي يُعطيه فيها نقوداً وكانت أيضاً المرّة الأولى التي تلقى فيها هانز رِيْتِر نقوداً غير راتبه الضحل). في الزيارة التالية التي قام بها إلى البيت الريفي أهداه كنزة. قال إنّها له وضاقت عليه لأنّه سمن قليلاً، وهو ما كان يبدو من النظرة الأولى أنّه غير صحيح. بكلمة واحدة ما عاد هانز الكائن اللامرئي وصار حضوره محلَّ هذا الاهتمام أو ذلك.

أحياناً بينما يكون هالدِر يقرأ في المكتبة أو يتظاهر بقراءة كتب تاريخه، كان يبعث من ينادي رِيْتِر، فيقيم معه أحاديث هي في كلّ مرّةٍ أطول. في البداية كان يسأله عن بقيّة الخدم. كان يُريد أن يعرف ما يُفكّرون به تجاهه، ما إذا كان وجوده لا يهمّهم، ما إذا كانوا يتحمّلونه جيّداً، ما إذا كان أحدهم يشعر بحنق تجاهه. انتقلا بعدها إلى المونولوجات. كان هالدِر يتكلّم عن حياته، عن أمِّهِ الميتة، عن خاله البارون، عن ابنة خاله الوحيدة، تلك الفتاة العصيّة على الفهم والمتهتكة، عن الإغواءات التي تُقدّمها برلين، المدينة التي كان يُحبّها، لكنّها كانت تُحدث عنده معاناة لا حدود لها، أحياناً تبلغ حدّتها حدّاً لا يُحتمل في وضعِ أعصاب، التي توشك دائماً على أن تنفجر.

أراد بعدها من هانز رِيْتِر أن يحكي له بدوره أشياء من حياته، ماذا كان يعمل؟، ماذا كان يريد أن يعملَ؟، ما هي أحلامه؟، ماذا كان يُفكّر أنّ المستقبل سيُقَدِّمُ له؟

كانت لهالدِر أفكاره الخاصّة عن المستقبل، كما لا يمكن أن يكون أقل من ذلك. كان يعتقد أنّه سرعان ما سيُخْتَرَعُ ويُنَزَّل إلى الأسواق نوعٌ من المعدة الاصطناعية. كانت الفكرة من الحماقة إلى حدّ أنّه هو نفسه كان يضحك منها (كانت المرّة الأولى التي يراه فيها هانز رِيْتِر يضحك وأزعجته ضحكة هالدِر في أعماقه). لم يكن يتكلّم عن أبيه، الرسام الذي كان يعيش في فرنسا، أبداً، لكنّه بالمقابلِ كان يحبُّ أن يعرف أشياء عن آباء الآخرين. أسرّه الجواب الذي قدّمه له الشاب رِيْتِر بهذا الاتجاه. قال إنّه لا يعرف شيئاً عن أبيه.

- فعلاً -قال هالدِر- الواحد لا يعرف شيئاً عن أبيه أبداً.

الأب، قال، دهليزٌ غارق في الظلمة العميقة، نسير فيه على غير هدى باحثين عن باب الخروج. ومع ذلك أصر على أن يُحدّثه الخادم الشاب على الأقل عن المظهر الجسدي لوالده، وهو ما ردّ عليه الشاب

هانز رِيْتر إنّه بصراحة لا يعرف. وهنا أراد هالدِر أن يعرف ما إذا كان يعيش معه أم لا. دائماً عشتُ معه، أجاب هانز رِيْتر.

- ما شكله الجسدي؟ ألست قادراً على وصفه؟

- لستُ قادراً لأنّني لا أعرف -أجاب هانز رِيْتر.

لزم الاثنان الصمتَ بضع ثوان، واحد ينظر إلى أظافره وآخر ينظر إلى سقف المكتبة الأملس. كان من الصعب تصديقه، لكنّ هالدِر صدّقه.

يمكن القول، إذا ما وسّعنا إطار المعنى كثيراً، إنّ هالدِر كان أوّل صديقٍ في حياة هانز رِيْتر. كان في كلّ مرّة يذهب فيها إلى البيت الريفي يقضي معه وقتاً أكثر، سواء أغلقا على نفسيهما المكتبة أو سارا ودردشا في الحديقة التي كانت تُحيط بالبيت.

كما أنّ هالدِر هو أوّل من جعله يقرأ شيئاً غير كتاب *بعض حيوانات ونباتات الساحل الأوروبي*. لم يكن سهلاً بالمحصّلة. سأله أوّلاً عما إذا كان يعرف القراءة. قال له هانز رِيْتر بلى. ثمّ سأله عمّا إذا كان قد قرأ كتاباً ما جيّداً. شدّد على القسم الأخير من الجملة. قال هانز رِيْتر بلى. عنده كتاب جيّد. سأله هالدِر ما هذا الكتاب. قال هانز رِيْتر إنّه *بعض حيوانات ونباتات الساحل الأوروبي*. قال هالدِر بالتأكيد هذا كتاب تعريفي وإنّه كان يقصد كتاباً أدبياً جيّداً. قال هانز إنّه لا يعرف ما الفرق بين كتاب دعائي جيد وبين كتاب أدبي جيّد (أدبي). قال له هالدِر إن الفرق يكمن في الجمال، في جمال القصّة التي تُروى وفي جمال الكلمات التي تُروى بها هذه القصّة. وعلى الفور راح يعطيه أمثلة. كلّمَهُ عن غوته وعن شيللر، كلّمه عن هولدرلين، عن كلايست، كلمه بشكل رائع عن نوفاليس. قال له إنّه قرأ لجميع هؤلاء المؤلفين وإنّه في كلّ مرّة كان يعيد قراءتهم، يعود ليبكي.

- لأبكي -قال- لأبكي، هل تفهم، يا هانز؟

وهو ما ردّ عليه هانز رِيْتِر قائلاً إنّه لم يره قط مع كتاب من كتب هؤلاء المؤلفين، بل مع كتب تاريخ. أخذ جوابُهُ هالدِر على حين غرّة. قال هالدِر:

- المسألة أنّني لست جيّداً في التاريخ وعليّ أن أُحَدِّثَ معلوماتي.

- لماذا؟ -سأله هانز رِيْتِر.

- كي أملأ فجوة.

- الفجوات لا تُملأ -قال هانز رِيْتِر

- بلى تُملأ -قال هالدِر-، ببعض الجهد كلّ شيء يُملأ في هذا العالم. حين كنتُ بعمرك -قال هالدِر، طبعاً هذه مبالغة-، قرأتُ غوته حتى البشم، طبعاً بالرغم من أنّ غوته غير محدود، أي أنّني قرأت غوته، وأيشندروف، وهوفمان وأهملت دراساتي التاريخيّة، الضرورية بدورها، كمن يقول كي أشحذ السكين من طرفيها.

حاولا بعدها، بينما النار تضطرم وتُسمع طقطاتها في المدخنة، أن يتفقا على ما هو الكتاب الأوّل الذي سيقرؤه هانز رِيْتِر ولم يتوصّلا إلى أيّ اتفاق. عند حلول الليل قال له هالدِر أخيراً أن يأخذ الكتاب الذي يشاء وأن يعيده بعد أسبوع. وافق الخادمُ الشاب على أنّ هذا الحل هو الأفضل.

بعد وقت قصير صارت الاختلاسات الصغيرة التي كان يقوم بها ابنُ أخت البارون من البيت الريفي تزداد، نظراً، بحسب قوله، لديون القمار والالتزامات المحتومة تجاه بعض السيدات اللواتي لا يستطيع أن يتخلى عنهنَّ. كان ارتباك هالدِر في إخفاء اختلاساته كبيراً فقرّر الشاب هانز رِيْتِر أن يُساعده. اقترح على هالدِر كيلا تلفت الأشياء التي يختلسها انتباهَ أحدٍ أن يأمر بقيّةَ الخدم بالنقل الاعتباطي للأشياء، أن يُفرّغوا غرفاً بذريعة التهوية، أن يصعدوا من الأقبية بالصناديق القديمة ويعيدوها لاحقاً. بكلمة واحدة، تغيير أماكن الأشياء.

كذلك اقترح عليه وتعاون معه في هذا بهمّة، أن يتفرّغ للأشياء النادرة، لسرقة الأثرياتِ القديمة حقيقة، وبالتالي المنسية، أقواس الشعر التي ليس لها ظاهرياً أيّ قيمة والتي كانت تعود إلى أمّ جدّته أو جدّة جدّتِهِ، عكاكيز خشبية رائعة ذات مقاض فضّية، سيوف استخدمها أسلافه في الحروب البونابارتية أو ضدّ الدانمركيين أو ضدّ النمساويين.

ثمّ إنّ هالدِر كان معه كريماً دائماً. في كلّ زيارة كان يُسَلّمه ما كان يُسمّيه حصّته من الغنيمة، التي لم تكن في الحقيقة أكثر من إكرامية مفرطة قليلاً، لكنها كانت تُشكّل بالنسبة إلى هانز رِيْتِر ثروة. طبعاً لم يكن يُري والديْهِ هذه الثروة فهذان ما كان ليتأخّرا باتهامه باللصوصية. كما أنّه لم يشترِ بها شيئاً لنفسه. حصل على علبة بسكويت وضع فيها الأوراقَ والقطع النقدية، وكتبَ على ورقة «هذه النقود تعود إلى لوتّ رِيْتِر» وطمرها في الغابة.

شاءت الأقدار أو الشيطان أن يكون الكتاب الذي اختاره هانز رِيْتِر للقراءة هو *بارسيفال* لفولفرام فون إشنباخ. ابتسم هالدِر عندما رآه مع الكتاب وقال له إنّه لن يفهمه، لكنّه أيضاً قال له إنّه لا يستغرب أنّه اختار ذلك الكتاب وليس آخر، عملياً، قال له، إنّ هذا الكتاب وإن لن يفهمه أبداً، إلا أنّه الأنسب له، إضافة إلى أنّ فولفرام فون إشنباخ هو المؤلف الأكثر شبهاً به أو بروحه أو بما كان يرغب بأن يصيره وللأسف لن يصيره، وإن لن ينقصه إلا القليل، قال هالدِر وهو يكاد يلصق أنملتي الإبهام والسبابة بعضهما ببعض.

اكتشف هانز، قال فولفرام عن نفسه: كنتُ أهرب من الآداب. اكتشف هانز: فولفرام يقطع العلاقة مع نموذج فارس البلاط ويُحْرَم (أو هو يحرم نفسه) التعلّم، من مدرسة الرهبان. فولفرام، اكتشف هانز، على العكس من شعراء التروفادور والشعراء الجوّالين، يرفضُ خدمةَ السيدات. فولفرام، اكتشف هانز، يُصَرّح بأنّه لا يملك فنوناً، لكن

ليس كي يُعتَبَر غير مثقّف، بل كي يقول إنّه مُتَحرِّر من عبء اللاتينية وإنّه فارس علماني ومستقل. علمانيّ ومستقل.

طبعاً كان هناك شعراء قروسطيون ألمان أهمّ من فولفرام فون إشنباخ، فردريخ فون هاوسن واحد منهم، فالتر فون دِر فوغلفايد واحد آخر. لكنّ كبرياءَ فولفرام (*كنتُ أهرب من الآداب، لم أكن أملك فنوناً*)، كبرياءٌ تُدير ظهرها، كبرياء تقول موتوا، *فأنا سوف أحيا*، تمنحه هالة غموضٍ مدوّخ، لامبالاة مريعة جذبت إليها الشاب هانز كما يجذبُ مغناطيسٌ عملاق مسماراً.

لم يكن فولفرام يملك عقارات، وبالتالي كان فولفرام خاضعاً لخدمة القنانة. ملكَ فولفرام بعضَ الحُماة، كونتات يمنحون عبيدهم أو على الأقل بعضَ عبيدهم إمكانية الظهور. قال فولفرام: *أسلوبي هو صَنْعَة الترس*. بينما كان هالدِر يحكي له كلَّ هذه الأشياء عن فولفرام، كما لو أنّنا نقول إنّه يفعل ذلك كي يضعه في مكان الجريمة، قرأ هانز *بارسيفال*، من أوّله إلى آخره، وأحياناً بصوت عال، بينما هو في الحقل أو بينما هو يجوب الطريقَ الذي يقوده من بيته إلى العمل، وهو لم يفهمه وحسب، بل وأعجبه أيضاً. وأكثر ما أعجبه، وهو ما جعله يبكي ويتلوى ضحكاً مستلقيّاً على العشب، هو أنّ *بارسيفال* كان يخب (*أسلوبي هو صنعة الترس*) مرتدياً تحت درعه لباسَ مجنون.

كانت السنوات التي قضاها برفقة هوغو هالدِر مفيدة له. استمرّت عمليات الاختلاس، أحياناً بإيقاع عالٍ، وأحياناً أخرى بإيقاع هابط، يعودُ هذا الأخير في جزء منه إلى أنّه لم يبق غير القليل لِيُسْرَقَ من البيت الريفي دون أن يلفت انتباهَ ابنة خال هوغو أو بقية الخدم. ظهر البارون مرّة واحدة فقط في أملاكه. وصل في سيّارة سوداء، مُسدلة الستائر وبات ليلةً واحدةً فقط.

ظنّ هانز أنّ البارونَ سيراه، وربّما يتوجّه إليه، لكنّ شيئاً من هذا

لم يحدث. قضى البارون ليلةً واحدة فقط في البيت الريفي وجال في أجنحة البيت التي كانت مهجورة، بحيوية دائمة (وصمت دائم) دون أن يُزعجَ الخدم، كما لو أنّه يحلم ولا يستطيع أن يتواصل بالكلمة مع أحدٍ. في الليل تعشى خبزاً أسود وجبناً ونزل بنفسه إلى القبو واختار زجاجةَ النبيذ وفتحها كي يرافق به طعامَهُ الزهيد. في صباح اليوم التالي اختفى قبل انبلاج الفجر.

على العكس من ابنة البارون فقد رآها مراتٍ كثيرة. دائماً برفقة أصدقائها. صادف وصولُها، خلال الوقت الذي عمل فيه هانز هناك، وجودَ هالدِر ثلاثَ مرّات، وفي المرّات الثلاث رَتَّبَ هالدِر، المُنقبض من وجود ابنة خاله، حقيبتَهُ على الفور وغادر. في المرّة الأخيرة بينما كانا يعبران الغابة التي وضعت بطريقة ما بصمتها على تواطئهما، سأله هانز ما الذي يجعله يصيرُ بمثل تلك العصبية. جاء جواب هالدِر مقتضباً ونزقاً. قال له إنّه لن يفهمه وتابع طريقه تحت سقف الغابة.

في عام ١٩٣٦ أغلق البارون البيتَ الريفيَّ وأنهى عملَ الخدم، تاركاً هناك حارسَ الغابة فقط. بقي هانز فترة لا يعمل شيئاً ثمّ انتقل ليزيد صفوف جيوش العمّال الذين كانوا يشيدون الطرق في الرايخ. كان يرسل كلَّ شهر كاملَ راتبه تقريباً إلى أسرته، فقد كانت حاجاته زهيدة مع أنّه كان أيّام الاستراحة ينزل مع رفاق آخرين إلى حاناتِ أقرب القرى إليهم فيشربون البيرةَ حتى يرتموا أرضاً. لا شكّ أنّه كان أكثر من يتحمّل الشرابَ بين العمّال الشباب، وشارك في مناسبتين في مسابقات مُنَظَّمَة عفوياً كي يروا من يشرب أكثر في أقلّ وقت. لكنّه لم يكن يحبُّ المشروب، أو لم يكن يحبّ غيرَ الأكل، وفي اليوم الذي كانت تعمل فيه مجموعته قربَ برلين أنهى عمله وولى الأدبار.

لم يجد صعوبة في العثور على عنوان هالدِر في المدينة الكبيرة، الذي ذهب إليهِ طلباً للمساعدة. حصل له هالدِر على عمل أجيرٍ في محلّ قرطاسية. كان يعيش وقتها في غرفةٍ في بيتٍ عمالي، حيث أجّروه

سريراً. كان يشاركه في الغرفة شخص يقارب الأربعين من عمره، يعمل حارساً ليلياً في معمل. كان الرجل يُدعى فوكلر وكان به مرض، ربّما ذو منشأ عصبيّ، كما كان يعترف هو نفسه، يظهر في بعض الليالي على شكل روماتيزم وفي أخرى كمرض قلبيّ أو نوبات ربو مفاجئة.

قليلاً ما كان يلتقي بفوكلر، فواحد كان يعمل ليلاً والآخر نهاراً، لكن حين كانا يتصادفان كانت المعاملة بينهما رائعة. فبحسب ما اعترف له فوكلر هذا، كان قبل زمن طويل متزوّجاً وله ولد، في الخامسة من عمره مرض ابنه ومات بعد وقت قصير. لم يستطِع فوكلر أن يتحمّل موتَ الطفل وأغلق بعد ثلاثة أشهر من الحداد على نفسه قبوَ البيت، ملأ حقيبة ظهره بما وجد وذهب دون أن يقول لأحدٍ شيئاً. تسكّع زمناً في طرقات ألمانيا يعيش من الصدقات التي أتحفه بها القدر. وصل بعد سنواتٍ إلى برلين، حيث عرفه صديقٌ في الشارع وقدّم له عملاً. هذا الصديق، الذي مات بعدها كان يعمل مفتّشاً في معمل، يعمل فيه فوكلِر الآن حارساً. لم يكن المعمل كبيراً جدّاً وبقي زمناً طويلاً يُنتج أسلحة صيد، لكنّه تحوّل أخيراً إلى إنتاج البنادق الحربية.

وذات ليلة وجد هانز رِيتِر عندما عاد من عمله الحارسَ فوكلر مستلقياً على السرير. كانت المرأة التي تؤجرهما الغرفة قد صعدت له بصحن حساء. انتبه المناوِل في حانوت القرطاسية على الفور إلى أنّ رفيقه في الغرفة سيموت.

الناسُ الأصحّاء يتفادون التعامل مع الناس المرضى. هذه القاعدة قابلة للتطبيق على كلّ العالم. كان هانز رِيتِر استثناءً. كان لا يخاف الأصحاءَ كما لا يخاف المرضى. لم يكن يضجر أبداً. كان خدوماً ويُقدّر عالياً المفهومَ، مفهومَ الصداقة المشوّش، المطواع، المشوّه جدّاً. ثمَّ إنَّ المرضى أهم من الأصحاء. كلمات المرضى، بما فيهم أولئك غير القادرين إلاّ على اللجلجة، هي دائماً أهمّ من كلمات

الأصحّاء. ثمَّ إنّ كلَّ شخص سليم هو شخص مريض مستقبلاً. مفهوم الزمن، آه من مفهوم زمن المرضى، يا له من كنز مخبّأ في كهف في الصحراء. المرضى إضافة إلى ذلك يعضون حقيقةً، بينما الأشخاص الأصحّاء، يتظاهرون بأنّهم يعضون، لكنّهم في الحقيقة فقط يلوكون الهواء. ثمَّ إنَّ، ثمَّ إنّ، ثمَّ إنَّ.

اقترح فوكلر قبل أن يموت على هانز، قائلاً إنّه يستطيع إذا أراد أن يشغل مكانه في العمل. سأله كم كان يكسب في حانوت القرطاسية. قال له هانز المبلغ. شيء تافه. كتب له رسالة يُقدمه فيها لرئيسه، يعتبر فيها نفسه مسؤولاً عن سلوك الشاب رِيْتِر، الذي، قال إنّه يعرفه منذ الأبد. فكّر هانز بالأمر طوال النهار، بينما هو يُنزِّل صناديق أقلام وصناديق مماحٍ وصناديق دفاتر ويكنسُ الرصيفَ أمام القرطاسية. حين عاد إلى البيت قال لفوكلِر إنّه يرى أن من المستحسن أن يغيّر عمله. في تلك الليلة ذاتها مثل في مصنع البنادق، الذي كان في الضواحي، وبعد حديث قصير مع الرئيس توصّلا إلى اتفاق يكون بحسبه تحت الاختبار لمدّة خمسة عشر يوماً. بعد وقت قصير تُوفّي فوكلِر. وبما أنّه لم يكن هناك من يُسلّمه ممتلكاته، أبقاها لنفسه. معطف، زوجان من الأحذية، لِفاع صوفيّ، أربعة قمصان، بضعة قمصان داخلية وسبعة أزواج من الجوارب. أهدى موسى حلاقة فوكلِر إلى صاحب البيت. وجد في صندوق كرتونيّ تحت السرير عدداً من روايات رعاة البقر. أبقاها لنفسه.

بدءاً من تلك اللحظة تضاعف الوقتُ الحرّ عند هانز رِيْتِر. كان في الليل يجوب فناء المعمل المبلّط وممرّات القاعاتِ الطويلة بنوافذها الزجاجية الشاقولية الكبيرة، من أجل استغلال ضوء الشمس إلى أقصى حدٍّ، وكان في الصباحات ينامُ من أربع إلى ستِّ ساعات، بعد أن

يتناول فطوره بجانب إحدى عربات الطعام الجوّالة في الحيّ العمالي، حيث كان يعيش. وكانت مساءاته ملكَ يديه كي يذهب إلى وسط برلين في الحافلة الكهربائية، حيث كان يمثل في بيت هوغو هالدِر فيخرج معه ليتنزّه ويزور المقاهي والمطاعم التي كان يلتقي فيها حفيدُ البارون عادة ببعض معارفه الذين يعرض عليهم أعمالاً لا أحد كان يقبلها أبداً.

كان هوغو هالدِر يعيش في تلك المرحلة في أحدِ الأزقّة الموجودة في هيملستراس، في شقّةٍ صغيرة مليئةٍ بالأثاث القديم واللوحات المغبرّة، المعلّقة على الجدران وكان أفضل أصدقائه، باستثناء هانز، يابانيّاً، يعمل سكرتيراً لملحق الشؤون الزراعية في البعثة الدبلوماسية اليابانية. كان الياباني يُدعى نوبورو نيساماتا، لكنّ هالدِر وهانز أيضاً، كانا ينادياته نيسا. كان في الثامنة والعشرين من عمره، لطيفَ المزاج، ينزع إلى الاحتفال بأكثر النكات سذاجة ومستعداً لأن يُصغي إلى أكثر الأفكار حماقة. عامّة ما كانوا يلتقون في مقهى عذراء الحجر، على بعد خطوات قليلة من ألِكساندربلاتز، حيث كان يصل هالدِر وهانز أوّلاً ويأكلان أيّ شيء، سجقاً مع الشوكروت[1] إلى أن يصل الياباني، بعد ساعة أو ساعتين، بكامل أناقته، وما إن يأتي ولا يكادون يشربون كأسَ ويسكي من دون ماء حتى يُسارعوا ويغادروا المحلّ ليضيعوا في ليل برلين.

عندها كان هالدِر يتولّى الإشراف. كانوا ينتقلون في سيارة أجرة إلى كابريه إكليبس، حيث كانت تعمل أسوأ نساء كابريهات برلين، مجموعة من النساء العجائز، الخاليات من الموهبة لاقت النجاح في عرض فشلها الذريع، حيث وبالرغم من القهقهات والصفير إذا كان المرء يملك ألفةً كافية مع نادل يؤمّن له طاولة منعزلة، يستطيع أن

---

(١) طبق مكون من الملفوف المنقوع بالخل والبهارات يتناول مع اللحوم والمقدّدات، مشهور في منطقة ألساسيا الفرنسية المتاخمة للحدود مع ألمانيا.

يتحدّث دون مشاكل. ثمّ إن إل إكليبسِ مكان رخيص، مع أنّه في مثل تلك الليالي من الضَّيَاع البرلينيّ لم يكن المال يهمّ هالدِر، لأنّ الياباني، بين أسباب أخرى، هو الذي كان يدفع. بعدها يذهبون وقد انتشوا عادة إلى مقهى الفنانين، حيث لا توجد تنويعات، لكن يمكن يُرى فيه بعض رسامي الرايخ ويستطيع المرء أن يشارك أحدَ هؤلاء المشاهير طاولته، وهو ما كان يمتع نيسا كثيراً، وكان هالدِر يعرف الكثيرين منهم منذ زمن بل وكان يكلّم بعضَهُم دون كُلْفة.

من مقهى الفنانين كانوا يذهبون عامّة في الثالثة صباحاً في طريقهم إلى الدانوب، وهو كابريه باذخ، الراقصات فيه طويلات جدّاً وجميلاتٍ جدّاً وحدثت معهم، في أكثر من مرّة، مشاكل مع البوّاب أو مع رئيس النُّدُل، كي يستطيع هانز أن يَدْخل ضلك لأنّ ملابس هذا الفقير المُدقع، لم تكن تنسجم مع اللباس المطلوب. من ناحية أخرى كان هانز يترك أصدقاءه خلال أيام الأسبوع في العاشرة ليلاً كي يتوجّه سريعاً إلى موقف الحافلة الكهربائية ويصل إلى عمله كحارسٍ ليلي في الساعة الدقيقة. كانوا خلال تلك الأيام، إذا كان الطقس حسناً، يُمضون الساعاتِ جالسين في شرفة مطعم دارجٍ، يتحدّثون عن الاختراعات التي تخطر على بال هالدِر. كان هذا يُقسِم أنّه حين يملك وقتاً سيبيع رخصتها ويصبح غنيّاً، وهو ما كان يُسبّب نوبةً من الضحك غريبةً عند الياباني. كان في ضحكة نيسا شيء من الهستيريا: لم يكن يضحك بشفتيه وعينيه وحنجرته وحسب بل وبيديه وعنقه وقدميه اللذين كان يخبط بهما الأرض.

سأل هالدِر ذات مرّة نيسا فجأة، بعد أن شرح لهم فائدةَ آلةٍ تُنتج غيوماً صناعية، عمّا إذا كانت مهمّته في ألمانيا هي ما كان يقوله، أم أنّه كان يقوم بأعمال عميل سرّي. باغت السؤال نيسا وأخذه على حين غرّة فلم يفهمه تماماً في البداية. بعدها حين وضّح له هالدِر بجدّية مهمّةَ العميل السرّي، انفجر نيسا في نوبة من الضحك لم يرَ هانز مثلها في

حياته، إلى درجة أنّه سقط فجأةً مغشيّاً عليه على الطاولة واضطرّ هو وهالدِر لأن يحملاه من يديه وساقيه إلى الحمّام حيث رشّا وجهه بالماء واستطاعا أن يُنعشاه.

من ناحيته لم يكن نيسا يتكلّمُ كثيراً، سواء أكان لرصانة فيه أم لأنّه لا يرغب بأن يسبب لهم الإهانة بلفظه السيّئ للغة الألمانية ومع ذلك كان يقول من حينٍ لآخر أشياء مهمّة. كان يقول مثلاً إنّ الزين[1] جبل يعضُّ على ذيله. كان يقول إنّ اللغة التي درسها هي الإنكليزية وإنّه عُيِّنَ في برلين بسبب خطأ من أخطاء الوزارة الكثيرة. كان يقول إنّ مقاتلي الساموراي مثل الأسماك في شلاّل، لكنّ أفضل ساموراي في التاريخ كان امرأة. كان يقول إنّ والده تعرّف على راهب مسيحي عاش خمسة عشر عاماً دون أن يخرج أبداً من جزيرة إندو الصغيرة، على بعد أميال قليلة من أوكيناوا، وإنّ الجزيرة كانت صخرة بركانية ليس فيها ماء.

حين كان يقول هذه الأشياء عادة ما كان يُرافِقُها بابتسامة. كان هالدِر بدوره يُعاكِسه مؤكِّداً أنّ نيسا كان شينتوياً، لا يحب غير العاهرات الألمانيات، وأنّه إضافة إلى الألمانية والإنكليزية كان يتكلّم ويكتب بشكل سليم الفنلندية، السويدية النرويجية، الدنمركية، النيرلندية والروسية. حين كان هالدِر يقول هذا كان نيسا يضحك ببطء، ها ها ها، ويكشف عن أسنانه لهانز وتلمع عيناه.

ومع ذلك كان الثلاثة يلزمون أحياناً صمتاً حروناً، دون ما مبرّر، جالسين في شرفات المقاهي أو حول طاولةٍ مظلمة في كابريه. فجأة يبدون متحجّرين، ينسون الزمنَ ويعودون إلى داخلهم كلّياً، كما لو أنّهم تركوا جانباً هوّةَ الحياةِ اليومية السحيقة، هوّةَ الناس، هوّةَ الحديث، وقرّروا أن ينضموا إلى منطقةٍ كأنّها بحيرة، منطقة رومانسية متأخرة،

---

(١) مدرسة من مدارس البوذية وتقوم على التأمّل جلوساً.

حيث تُقاس حدود الزمن من الغسق إلى الغسق، عشر دقائق، خمس عشرة، عشرون دقيقة كانت تدوم دهراً، مثل دقائق المحكومين بالإعدام، مثل دقائق نساء في المخاض، مدانات بالموت يُدركن أنّ مزيداً من الوقت ليس مزيداً من الخلود ومع ذلك يرغبن من كلّ روحهنّ بمزيد من الوقت، وبكاء المولودين الجدد كان طيوراً تعبر من حين لآخر وبكثير من الرصانة مشهدَ البحيرة المزدوج، كزوائد فاخرة أو كخفقان قلب. كانوا بعدها، كما هو طبيعي، يخرجون من الصمت مصعوقين ويعودون ليتكلّموا عن الاختراعات والنساء وفقهِ اللغة الفنلندية، عن بناء الطرق في جغرافية الرايخ.

في مرّات ليست قليلة كانوا ينهون مُغامراتهم الليلية في شقّة امرأة تدعى غريت فون جواخيمستالِر، صديقة قديمة لِهالدِر، كان يقيم معها علاقة مليئة بالغش وسوء الفهم.

عادة ما كان يذهب إلى بيت غريت موسيقيون، بل وحتى قائد أُركسترا، كان يؤكّد أنّ الموسيقى هي البعد الرابع، وكان هالدِر يُقدّره كثيراً. كان قائد الأركسترا في الخامسة والثلاثين من عمره، ويلقى الإعجابَ (كان يُغمى على النساء إعجاباً به) كما لو أنّه في الخامسة والعشرين، وكان محترماً كما لو أنّه في الثمانين. عامّةً ما كان يأتي ليختم السهرات في شقّة غريت ويجلس بجانب البيانو الذي لم يكن يلمسه ولا حتى برأس خنصره ويُحاط على الفور بأصدقائه وأنصاره المشدوهين، إلى أن يُقرّرَ أن ينهض ويطلّ مثلَ نحّالٍ بين حشد من النحل، مع فارق أنّ هذا النحّال لم يكن محمياً ببدلة النحال ولا بقناع، ويا ويحَ النحلات التي تتجرّأ على لدغه، حتى ولو كان بالتفكير فقط.

البعد الرابع، كان يقول، يحتوي على الأبعاد الثلاثة ويمنحها بالمناسبة قيمتها الحقيقيّة، أي أنّه يُلغي دكتاتوريّة الأبعاد الثلاثة، وبالتالي العالمَ ثلاثيّ الأبعاد الذي نعرفه ونعيشُ فيه. البعد الرابع، كان

يقول، هو الثروة المطلقة للحواسّ وللروح (بحرف كبير)، هو العين، التي تفتح وتلغي العينين، اللتين بالمقارنة مع العين ليستا غير ثقبين من طين، ثابتتين في التأمل أو في معادلة الولادة-التعلّم-العمل-الموت، بينما العين بحرف كبير ترتفع فوق نهر الفلسفة، نهر الوجود، نهر القدر (السريع).

البعد الرابع، كان يقول، لا يمكن التعبير عنه إلاّ بالموسيقى. باخ، موزارت، بتهوفن.

كان من الصعب الاقتراب من قائد الأركسترا. يعني أنّه لم يكن الاقترابُ منه صعباً مادّياً، لكن كان صعباً عليه، هو الذي تعميه بؤر الضوء، المفصول عن البقيّة بالخندق، أن يستطيع أن يراك. ومع ذلك لفتَ الثلاثيُّ الصادم، الذي كان يشكله هالدِر والياباني وهانز، ذات ليلةٍ، انتباهَهُ وسأل المُضيفةَ من هم. قالت له هذه إنّ هالدِر صديق، ابن رسّام كان واعداً في أزمنة أخرى، ابن أخت البارون فون زومبِ وإنّ اليابانيّ يعمل في السفارة اليابانية وإنّ الشاب الطويل، ثقيل الظلّ وسيّئ اللباس، لا شكّ فنان، رسّام، ربّما كان يرعاه هالدِر.

عند ذلك أراد قائد الأُركسترا أن يتعرّف عليهم فنادت المضيفة المتألّقة الثلاثيّ المفاجَأ بسبّابتها وقادتهم إلى مكان منعزل من الشقّة. بقوا، كما هو طبيعيّ، برهةً لا يعرفون ما يقولون. كلّمهم قائدُ الأركسترا مرّةً أخرى عن الموسيقى أو عن البعد الرابع، إذ كان هذا وقتذاك موضوعَهُ المُفضّل، لم يتضح جيداً أين كان ينتهي الواحد ولا أين يبدأ الآخر، ربّما كانت نقطة التقاء الاثنين، بالحكم من بعض كلمات القائد الغامضة، هي قائد الأُركسترا نفسه، الذي تلتقي فيه تلقائياً الألغازُ والأجوبة. كان هالدِر ونيسا، بعكس هانز، يهزان رأسيهما بالموافقة على كلّ شيء. كانت الحياة في البعد الرابع، بحسب قائد الأركسترا -تماماً كما هي- غنيّةً بشكلٍ لا يمكن تصوّره، إلخ.، إلَخ.، لكنّ المهمّ هي المسافة، التي يستطيع المرء، الغارق في

هذا الانسجام، أن يتأمّل فيها المسائل الإنسانية باتزان، أي بكلمةٍ واحدة، من دون صفائح مصطنعة تضغطُ على الروح المنهمكة في العمل والإبداع، في الحقيقة الوحيدة المتسامية في الحياة، تلك الحقيقة التي تخلقُ حياةً أخرى ثم حياة أخرى، ثمّ حياة أخرى، سيلاً لا ينبض من الحياة والفرح والبهاء.

كان قائد الأركسترا يتكلّم ويتكلّم عن البعد الرابع وعن بعض السيمفونيات التي قادها أو كان يُفكّر بقيادتها قريباً، دون أن يرفعَ نظره عنهم. كانت عيناه كعيني صقرٍ يطير وفي الوقت ذاته يستمتع بطيرانه، لكنّه أيضاً يحافظ على نظرته يقظةً، نظرته القادرة على أن تُدرِكَ أدنى حركة هناك في الأسفل، في رسم الأرض المشوّش.

ربّما كان قائد الأركسترا سكراناً قليلاً. ربّما كان قائد الأركسترا متعباً ويُفكّر بأشياء أخرى. ربّما لم تكن الكلمات التي كان يقولها قائدُ الأركسترا تُعبّر بأيّ بشكل من الأشكال عن حالته النفسية، مزاجِهِ، استعدادِهِ المهزوز أمام الظاهرة الفنّية.

سأله هانز في تلك الليلة، أو سأل نفسه بصوت عالٍ (كانت المرّة الأولى التي يتكلّم فيها) ماذا يُفكّر أولئك الذين يعيشون البعد الخامس أو يتردّدون عليه. في البداية لم يفهم قائدُ الأركسترا ما قاله تماماً بالرغم من أنّ لغة هانز الألمانية تحسّنت كثيراً منذ أن انضم إلى ألوية الطرقات وأكثر من ذلك منذ أن صار يعيش في برلين. التقط بعدها الفكرةَ وما عاد ينظر إلى هالدِر ونيسا كي يُركّز نظرةَ الصقر أو النسر أو العُقاب على عيني الشاب البروسي الرماديتين والهادئتين، الذي كان يصوغ سؤالاً آخر. ماذا يُفكّر الذين استقرّوا في البعد الخامس أو البعد الرابع وصار الطريق إلى البعد السادس أمامهم مفتوحاً، ماذا يُفكّر الذين يعيشون في البعد العاشر، أي الذين يُدركون أبعاد الموسيقى العشرة، مثلاً؟ ماذا يعني بالنسبة إليهم بتهوفن؟ ماذا يعني بالنسبة إليهم

موزارت؟ ماذا يعني بالنسبة إليهم باخ؟ ربّما، أجاب الشابُّ رِيْتِر نفسه قائلاً مجرّد ضجيج، ضجيج ورق مجعّد، ضجيج كضجيج كتب محروقة.

رفع قائد الأركسترا في تلك اللحظة يداً في الهواء وقال أو بالأحرى همس بسريّة:

- لا تتكلّمْ عن كتب محروقة، يا عزيزي الشاب.

وهو ما ردّ عليه هانز قائلاً:

- كلّ شيء كتاب محروق، يا عزيزي قائد الأركسترا، الموسيقى، البعد العاشر، البعد الرابع، المهود، إنتاج الرصاص والبنادق، روايات الغرب: كلّها كتب محروقة.

- عمّ تتكلّم؟ -سأل قائد الأركسترا.

- فقط أُبدي رأيي -قال هانز.

- رأي كأيٍّ رأيٍ آخر -قال هالدِر الذي حاول، قطعاً للشكّ، أن يضع نهاية للحديثَ بين المزح والسخرية، لا تُسبّبُ عداوة مع قائد الأركسترا ولا تثير عداوة بين هذا وصديقه-، إنّها مداخلة مراهق تقليدية.

- لا، لَا، لا -قال القائد- إلامَ يُشير حين يتكلّم عن روايات الغرب؟

- إلى روايات رعاة البقر -قال هانز.

بدا أنَّ هذا التوضيح رفع ثقلاً عن كاهل قائد الأركسترا، الذي لم يتأخر في تركهم بعد تبادل بعض الكلمات اللطيفة. سيقول قائد الأركسترا للمضيفة بعدها إنّ هالدِر والياباني يبدوان شخصين طيّبين، لكنّ المراهقَ، صديقَ هالدِر يعمل، دون أيّ نوع من الشك، كقنبلة موقوتة: عقل جلف وجبار، غير عقلاني، غير منطقي، قادر على أن ينفجر في أقل اللحظات توقّعاً. ولم يكن هذا صحيحاً.

كانت الليالي في شقّة غريت فون جواخيمستالِر تنتهي عادةً، حين يذهب الموسيقيون، في السرير أو في الحمّام، الحمام الذي لا يوجد الكثير منه في برلين، حوض بطول مترين ونصف المتر وعرض متر ونصف المتر، مطلي بالأسود وله قوائم أسد، حيث كان هالدِر يُدلّك غريت، يتبعه هالدِر، إلى ما لا نهاية، بدءاً من الصدغين وحتى أصابع القدمين، كلاهما بكامل لباسه، بل وأحياناً بالمعطف (برغبة واضحة من غريت) بينما تتخذ هذه وضعية الحورية، بوجهها إلى الأعلى أحياناً وبوجهها إلى الأسفل أحياناً أخرى، وأخرى مغمورة! لا تُغطي عريَها غير الرغوة.

كان هانز خلال تلك السهرات الغرامية ينتظر في المطبخ حيث يُحضر لنفسه وجبةً خفيفة ويشرب بيرة ثم يسير وكأس البيرة في يده والوجبة الخفيفة في أخرى أو يقترب من نوافذ القاعة الكبيرة، فيرى عبرها الفجرَ الذي كان يتسلّل مثل موجة إلى المدينة فيخنقهم جميعاً.

كان هانز يشعر بنفسه محموماً فيظنّ أنّ الحاجة إلى الجنس هي التي كانت تُلهب جلده، لكنّه كان يُخطئ. فهانز كان يترك النوافذ مفتوحةً أحياناً كي تنقشع رائحة الدخان من القاعة ويُطفئ الأنوار ويجلس على كرسيّ متدثّراً بمعطفه. عندها كان يحسّ بالبرد ويشعر بالحاجة للنوم ويُغمض عينيه. بعد ساعة، حين يكون الفجر قد طلع تماماً يشعر بأيدي هالدِر ونيسا تُحرّكه وهما يقولان له إنّ ساعة المغادرة قد أزفت.

لم تكن السيّدة فون جواخيمستالر تظهر في مثل تلك الساعات أبداً. وحدهما هالدِر ونيسا يظهران. وهالدِر يظهر دائماً ومعه لفّة يُحاول أن يُخفيها تحت المعطف. في الشارع كان يرى، وهو ما يزال نعساً، أنّ بنطلوني صديقيه مبلّلين وكذلك أكمام طقميهما وأن البنطلونين والأكمام تطلق بخارا فاتراً، حين تحتكّ بالهواء البارد، أقلّ

كثافة بقليل من البحار الذي كان يخرج من فم نيسا وهالدِر، اللذين كانا يسيران في تلك الساعة من الصباح رافضين أن يستقلّا سيارات الأجرة، إلى أقربِ مقهى كي يتناولا فطوراً قوياً ويتناول هو فطوره الخاصّ.

في عام ١٩٣٩ دُعي هانز رِيْتِر إلى الجيش. فرزوه بعد أشهر قليلة من التدريب إلى الفوج ٣١٠ مشاة محمول، الذي كانت قاعدته على بعد ثلاثين كيلومتراً من الحدود البولونية. كان الفوج ٣١٠ إضافة إلى الفوجين ٣١١ و٣١٢ ينتميان إلى فرقة المشاة ٧٩ المحمولة، التي كان يقودها وقتذاك الجنرال كروغر، الذي كان بدوره ينتمي إلى الفيلق العاشر مشاة، الذي يقوده لجنرال فون بول أحد قادة الرايخ الرئيسيين. كان الفوج ٣١٠ بقيادة الكولونيل فون بيرينبرغ ومكوناً من ثلاث كتائب. أُلحق المُجنّد هانز رِيْتِر بالكتيبة الثالثة، عُيّن في البداية كمساعد رامي رشاش ثم كعنصرٍ في سريّةِ اقتحام.

كان النقيبُ المسؤول عن هذه السرية الأخيرة، رجلَ كمالٍ جسمانيّ يُدعى بول غِيرْك، وقد اعتقد أنّ طول رِيْتِر هو المطلوب لفرض الاحترام بل والخوف، لنقُلْ، في التدريب أو في عرض سرايا الاقتحام، لكنّه كان يعرف أنَّ الطول ذاته في حال نشوب المعركة الحقيقيّة وليس المناورة التي جاءت به إلى هذا الموقع سيكون على المدى الطويل موته، فأفضل جنديٍّ اقتحامٍ عملياً هو القصير والنحيل مثل عود ويتحرّك بسرعة سنجاب. طبعاً حاول هانز حين خيّروه، قبل أن يتحوّل إلى جنديّ مشاة في الفوج ٣١٠، والفرقة ٧٩ أن يرسلوه إلى خدمة الغواصين. هذا الطموح، قدّره هالدِر، الذي حرّك أو قال إنّه حرّك كلَّ صداقاته العسكرية والوظيفية، التي كانت في غالبيتها، بحسب ما كان يشكّ هانز، خيالية أكثر مما هي واقعية فقط أثارت الضحك بين البحارة، الذين كانوا يتحكمون بلوائح التجنيد في البحرية الألمانية،

وبخاصّة أولئك الذين كانوا يعرفون ظروف حياة الغواصات وأبعاد الغواصات الحقيقيّة، حيث أنّ شخصاً طوله مئة وتسعين سنتمتراً سينتهي بكلّ تأكيد إلى أن يُصبح لعنة بالنسبة إلى بقيّة رفاقه.

الصحيح هو أنّ هانز، بالرغم من نفوذ هالدِر، سواء كان وهمياً أو غير وهميّ، رُفِضَ بطريقة مهينة جدّاً في البحرية الألمانية (حيث نصحوه، ساخرين، بأن يصبح رامي دبابة)، فاضطرّ لأن يرضى بتعيينه الأوّل، في المشاة المحمولة.

قبل أسبوع من ذهابه إلى حقل التدريب أقام له هالدِر ونيسا عشاءَ وداعٍ انتهى إلى ماخور، حيث توسّلا إليه أن يفضَّ عذريته، لمرّة واحدة وإلى الأبد، على شرف الصداقة التي كانت تجمعهم. العاهرة التي كانت من نصيبه (اختارها له هالدِر وربّما كانت صديقةً لهالدِر، وربّما كانت أيضاً شريكة له في أحد في أعماله الكثيرة الفاشلة) كانت فلاّحة من بافاريا، حلوة جدّاً وصموتة، وإن كانت حين تبدأ بالكلام، يمكن القول إنّ صمتها لم يكن اقتصاداً في اللغة، بدت امرأة عمليةً بكل المعاني، حتى الجنسية، بل و لها سمات تقتير كانت قد نفَّرت هانز من أعماقه. طبعاً لم يمارس الحبّ في تلك الليلة، وإن كان قد قال لصديقيه إنّه مارسه، لكنّه عاد في اليوم التالي وزار العاهرة، التي كانت تُدعى آنيتا. في الزيارة الثانية فضّ هانز عذريَّتَهُ وقام بزيارتين أخريين، كانتا كافيتين كي تُقرِّر آنيتا أن تُسهب في الحديث معه عن حياتها والفلسفة التي تحكم حياتها.

حين حانت ساعة مغادرته، غادر وحده. لاحظ مُستغرباً أنّ أحداً لم يرافقه إلى محطّة القطار. كان قد تودّع من آنيتا في الليلة السابقة. عن هالدِر ونيسا لم يكن يعرف شيئاً منذ زيارة الماخور الأولى، كما لو أنّ كلا الصديقين اعتبر مغادرته في صباح اليوم التالي أمراً مفروغاً منه. منذ أسبوع، فكَّرَ، وهالدِر يعيش في برلين كما لو أنّني ذهبت. الشخص الوحيد الذي ودّعه يوم مغادرتِهِ كانت صاحبةُ البيت، التي قالت له إنّه

لشرف له أن يخدمَ الوطنَ. كان يحمل في كيسه العسكري بعضَ الملابس وكتابَ *بعض حيوانات ونباتات الساحل الأوروبي*.

في أيلول بدأت الحرب. تقدّمت فرقة رِيْتِر إلى الحدود وعبرتها بعد أن فعلت ذلك الفرقُ المُدرّعة وفرقُ المشاة المحمولة التي كانت تشقّ الطريق. ودخلوا بكلّ سرعة إلى الأراضي البولندية دون يُقاتلوا ودون أن يتخذوا حذرهم كثيراً: كانت الأفواجُ الثلاثة تنتقل معاً تقريباً في جوّ عام هو جوّ رحلة إلى مزار، كما لو أنّ أولئك الرجال كانوا يتقدّمون من مقام ديني وليس من حرب حتماً سيلقى بعضهم فيها حتفه.

عبروا بعضَ القرى، دون أن ينهبوها، بنظامٍ تام، لكن دون أي نوع من التوقّف، مبتسمين للأطفال والنساء الشابات، وكانوا يعبرون من حين لآخر بجنودٍ على دراجات نارية يطيرون على الطريق، أحياناً باتجاه الشرق وأحياناً أخرى باتجاه الغرب، يأتون معهم بأوامر للفرقة أو يأتون بأوامر لرئاسة أركان الفيلق. تركوا المدفعيةَ خلفهم، كانوا أحياناً حين يعتلون تلاً ينظرون إلى الشرق، إلى حيث كانوا يفترضون أنَّ الجبهة موجودة ولا يرون شيئاً، لا شيء غير المنظر الغافي، مع آخر بهاءات الصيف. على العكس إذا نظروا نحو الغرب، كان باستطاعتهم أن يلمحوا سحب غبارِ مدفعية الفوج والفرقة التي كانت تجهد في أن تدركهم.

في اليوم الثالث من الرحلة انحرف فوج هانز في طريق آخر ترابيّ، وصلوا قبل حلول الليل بقليل إلى نهر. خلف النهر كانت تنهض غابةٌ من الصنوبر والحور وخلف الغابة، قالوا لهم، توجد ضيعة تحصّنت فيها مجموعة من البولنديين. نصبوا الرشاشات والمدافع وأطلقوا الأسهم النارية، لكنّ أحداً لم يردّ. عبرت سريّتا مداهمة النهرَ بعد منتصف الليل. سمع هانز ورفاقه بومة تنعق. حين أصبحوا على الجانب الآخر اكتشفوا أنّ هناك ما يشبه الكتلة معشّقة أو مطمورة في

الظلمة، الضيعة. انقسمت السريتان إلى عدّة مجموعات وتابعتا تقدّمهما. على بعد خمسين متراً من البيت الأوّل أعطى النقيب الأمر فراح الجميع يركضون باتجاه القرية، وبدا أن بعضهم فوجئ حين انتبه إلى أنّها خالية. في اليوم التالي تابع الفوجُ تقدّمه نحو الشرق عبر ثلاثة طرق مختلفة موازية للطريق الرئيسي الذي كان يتبعه القسم الأكبر من الفرقة.

وجدت سريّة رِيْتِر مفرزة من البولنديين يحتلون جسراً. أبلغوهم بأن يستسلموا. رفض البولنديون وفتحوا عليهم النار. ظهر أحد رفاق رِيْتِر بعد المعركة التي لم تكد تدوم عشر دقائق مكسورَ الأنف الذي راح يتدفَّقُ منه دم غزير. بحسب ما روى، عندما عبروا النهر توجّه برفقة عشرة جنود حتى وصلوا إلى حدود الغابة. في تلك اللحظة ارتمى بولندي من غصن شجرة وبدأ يعاركه لكماً. طبعاً لم يعرف رفيق رِيْتِر ماذا يفعل، تصوّر نفسه في أسوأ الحالات أو في أحسن الحالات، أي في أقصى الحالات، ضحيّةَ هجوم بالسكين، أو هجوم بالحربة، إن لم يكن بسلاح ناريّ، لكنّه لم يُفكّر أطلاقاً بهجوم بالقبضة. من المفروغ منه أنّه شعر، حين تلقى ضرباتِ البولندي على وجهه، بالغضب، لكنّ المفاجأة كانت أقوى من الغضب، الانطباع الذي تلقاه، جعله غير قادر على الرد، سواء بالضرب، مثل خصمه، أو باستخدام بندقيته. فقط تلقى ضربةً على معدته لم تؤلمه، ثمّ لكمة على أنفه تركته نصف مخبول، ثم وبينما هو يسقط على الأرض رأى البولنديَّ، الشبحَ الذي هو البولندي في تلك اللحظة، يُحاول، بدلَ أن يسرق منه سلاحه كما كان سيفعل أحدٌ أذكى منه، أن يعود إلى الغابة، ورأى طيفَ رفيق له يُطلق النار على البولندي الذي راح يسقط مدروزاً بالرصاص. حين عبر هانز وبقية السريّةِ الجسرَ لم يكن هناك جثث أعداء مرمية على جانب الطريق والخسائر الوحيدة في الكتيبة كانت اثنين، جروحهما طفيفة.

في تلك الأيّام، وبينما كانوا يسيرون تحت الشمس أو تحت الغيوم الرمادية الأولى، الهائلة، الغيوم التي لا نهاية لها وتزفُّ خريفاً لا يُنسى وكتيبته تُخلّف وراءها الضيعة تلو الأخرى، فكّر هانز بأنّه تحت لباس جندي قوات الدفاع الألمانية كان يرتدي لباس مجنون أو منامة مجنون.

عبرت كتيبته ذات مساء بمجموعة من ضباط رئاسة الأركان. أيّ رئاسة أركان؟ كان يجهل، لكنّهم ضبّاطٌ من رئاسة الأركان. بينما كانوا هم يسيرون على الطريق كان الضباط قد اجتمعوا فوق رابية قريبة جدّاً من الطريق وراحوا ينظرون إلى السماء، التي كان يعبرها في تلك اللحظة سربٌ من الطائرات متجهٌ نحو الشرق، ربّما كانت طائرات ستوكا القاذفة أو ربّما المقاتلة، كان بعض الضباط يشيرون إلى الطائرات بسبّاباتهم أو بكلّ أيديهم، كما لو أنّهم يقولون للطائراتِ هاي هتلر، بينما كان ضابطٌ آخر يراقب، منعزلاً قليلاً في شرودٍ تام، الطعامَ الذي كان يضعه جندي الخدمة بحذرٍ على طاولة محمولة، الأطعمة التي كان يُخرجها من صندوقٍ مُعْتَبَرِ الأبعاد، أسود اللون، كما لو أنّ الأمرَ يتعلّقُ بصندوق خاصّ ببعض الصناعات الصيدلانية، تلك الصناديق التي يودعون فيها الأدوية الخطيرة أو التي لم تُجرّب بعد بما يكفي، أو أسوأ من ذلك، كما لو أنّ الأمر يتعلّق بصندوق مركزِ بحوث علمية يودع فيه العلماء الألمان مزوّدين بقفازات، ذلك الشيء الذي يمكن أن يُدَمّر العالمَ ويُدمِّر ألمانيا أيضاً.

بالقرب من جنديّ الخدمة والضابطِ الذي كان ينظر إلى الترتيب الذي كان جندي الخدمة يضع به الأطعمة على الطاولة وظهره إلى الجميع، كان هناك ضابط آخر يرتدي لباس القوى الجويّة الموحد، سئماً من رؤيته الطائرات تمرّ، يمسك في يدٍ سيجارة طويلة وفي أخرى كتاباً، عملية بسيطة، لكنّ يبدو أنّها كانت تُكلّف ضابطَ القوى الجوية هذا جهوداً شاقّة، ذلك أنّ النسمة التي كانت تهبّ على الرابية حيث

كان الجميع، تُحرّكُ أوراقَ الكتاب باستمرار وتمنعه من القراءة، وهو ما كان يحمل ضابط القوى الجويّة على استخدام اليد التي تمسك بالسيجارة الطويلة كي يبقي على أوراق الكتاب، التي ترفعها النسمةُ، ثابتةً (أو بلا حركة أو ساكنة)، الأمر الذي لم يكن يفعل شيئاً آخر غير إساءة الوضع، فالسيجارة أو جمرة السيجارة كانت توشك على أن تحرق أوراق الكتاب أو أنّ النسمة كانت ترمي برماد السيجارة على الأوراق وهو ما كان يزعج الضابط كثيراً، فيحني رأسه وينفخ بكثير من الحذر، فقد كان وجهه إلى الريح وحين ينفخ الرمادَ يخاطر بأن ينتهي هذا ليستقرَّ في عينيه.

إلى جانب ضابط القوى الجوّية هذا، كان هناك عسكريان عجوزان لكنّهما جالسان على كرسيين قابلين للطي. واحد منهما يبدو جنرالاً في جيش البرّ، الآخر يبدو مموّهاً بزيّ رماة الرّماح أو الخيّالة. كلاهما كان ينظر إلى الآخر ويضحك، الجنرال أوّلاً ثم رامي الرماح ثانياً، وهكذا دواليك، كما لو أنّهما لا يُدركان شيئاً، أو كما لو أنّهما يُدركان شيئاً ما مِنْ أحدٍ من ضباطِ رئاسة الأركان الرابضين على ذلك التلّ يعرفه. في أسفل التلّ كانت تربض ثلاث سيارات. بجانب السيارات الرابضة يقف السائقون ويُدَخّنون، داخل إحدى السيارات امرأة، جميلة جدّاً، أنيقة اللباس، تُشبه كثيراً، وهذا ما بدا لِرِيتِر، ابنةَ البارون فون زومبِ، خال هوغو هالدِر.

المعركة الأولى، بالمعنى الحقيقيّ للمعركة، التي شارك فيها رِيتِر وقعت بالقرب من كوتنو، حيث كان البولنديون قلّةً وسيّئي التسليح، لكنّهم لم يُبْدوا أيَّ رغبة بالاستسلام. دامت المواجهة قليلاً، ففي النهاية تبيّن أنّ البولنديين فعلاً يرغبون بالاستسلام، لكنّ المسألة هي أنّهم لم يكونوا يعرفون كيف يفعلون ذلك. هاجمت مجموعةُ اقتحام رِيتِر مزرعةً وغابةً ركّز فيها العدوُّ بقايا مدفعيته. حين رآهم النقيب غِيرْكْ

ينطلقون فكّر أنّ من المحتمل أن يموت رِيْتِر. كان بالنسبة إلى النقيب كمن يرى زرافة تنطلق بين فصيلة من الذئاب والثعالب والضباع. كان رِيْتِر من الطول بحيث أنّ أيّ مُجنَّد بولندي، أخرقهم جميعاً، سيختاره دون تردّدٍ هدفاً.

في الهجوم على المزرعة قُتِلَ جنديان ألمانيان وجُرح خمسة آخرون. في الهجوم على الغابة قُتل جنديّ آخر وجُرح ثلاثة. رِيْتِر لم يُصَب بشيء. قال الرقيب الذي كان يقود المجموعة للنقيب في تلك الليلة إنّ رِيْتِر أخاف بطريقة ما المُدافِعين بدل أن يكون هدفاً سهلاً لهم. بأيّ طريقة؟، سأل النقيبُ، صارخاً؟، هل بإطلاقهِ الشتائم؟، بقسوته؟، تراه أخافهم لأنّه صار في المعركة آخر؟، هل صار مُحارباً جرمانيّاً غريباً على الخوف والرحمة؟، أم تراه تحوّل إلى صيادٍ، صيّاد جوهريّ كلّنا نحمله في داخلنا، داهية، سريعٍ، دائماً يسبق الفريسة بخطوة؟

وهو ما ردّ عليه الرقيبُ، بعد أن فكّر به، بقوله لا، لم يكن هذا بالضبط. رِيْتِر، قالَ، كان مختلفاً، لكنّه كان في الواقع ما كان دائماً، الذي يعرفه الجميع، لكن الذي كان يحدثُ هو أنّه دخل المعركة كما لو أنّه لم يدخل المعركة، كما لو أنّه لم يكن هناك، أو أنّ ما كان يجري لم يكن يجري معه، وهذا لا يعني أنّه لم يكن ينفّذ أو يعصي الأوامر، هذا لا، بالمناسبة، كما لم يكن في حالة غيبوبة، بعض الجنود الذين يمسك الخوف بتلابيبهم يدخلون في غيبوبة، لكنها ليست غيبوبة، بل فقط خوف، يعني، في النهاية لم يكن الرقيب يعرف كيف، لكنّ رِيْتِر يملك شيئاً، كان يشعر به حتى الأعداء، الذين أطلقوا عليه النار عدّة مرّات ولم يُصيبوه أبداً، وهو ما كان يجعلهم في كلّ مرّة أكثر عصبيّة.

تابعت الفرقة ٧٩ قتالها في محيط كوتنو، لكنّ رِيْتِر لم يُشارك بعدها في أيّ مواجهة. نُقلت الفرقةُ بكاملها قبل نهاية أيلول، هذه المرّة في القطار إلى الجبهة الغربية، حيث كانت بقيّةُ الفيلق العاشر مشاة.

منذ تشرين الأوّل ١٩٣٩ وحتى حزيران ١٩٤٠ لم يتحرّكوا. أمامهم كان خطّ ماجينو، وإن لم يكن باستطاعتهم أن يروه وهم متخفون في الغابات والأدغال. صارت حياتهم مريحة: كان الجنود يستمعون إلى الإذاعة، يأكلون، يشربون البيرة، يكتبون الرسائل، ينامون. بعضهم كان يتحدّث عن اليوم الذي سيكون عليهم أن يتوجّهوا مباشرة إلى دفاعات الفرنسيين الخراسانية، الذين كانوا يسمعونَهم كانوا يضحكون بعصبيّة، يُنكتون، يروون لبعضهم بعضاً قصصاً عائلية.

قال لهم أحدٌ ذات ليلة إنّ الدنمركيين والنرويجيين قد استسلموا. في تلك الليلة رأى هانز أباه في الحلم. رأى الأعرجَ، متدثّراً بمعطفه العسكريّ القديم، وهو يتأمّل البلطيق ويتساءل أين اختفت جزيرة بروسيا.

كان النقيب غِيْرِكْ يقترب منه أحياناً كي يتحدّث معه برهةً. سأله النقيبُ عما إذا كان يخاف أن يموت. ما هذه الأسئلة التي تسألني إياها، أيّها النقيب، قال له رِيتِر، طبعاً أخاف. حين كان يجيبه بهذه الطريقة كان النقيب يمكث ناظراً إليه برهة طويلة، ثمّ يقول بصوت خافت، كما لو أنّه يُكلِّمُ نفسَهُ:

- عليك اللعنة من غشّاش، لا تكذب عليّ، لا تستطيع أن تخدعني. أنت لا تخاف من شيء!

كان النقيب يذهب بعدها ليتكلّم مع جنودٍ آخرين وكان موقفه يتغيّر بحسب الجنديّ الذي يتكلّم معه. في تلك الفترة منحوا الرقيبَ الصليبَ الحديدي من الدرجة الثانية للكفاءة التي أظهرها في معارك بولنديا. احتفلوا بذلك بشرب البيرة. كان هانز يخرج في الليل من العنبر ويرتمي بظهره على تراب البرّية البارد ليتأمّل النجوم. لا يبدو أنّ درجات الحرارة المنخفضة كانت تُؤثّر عليه كثيراً. اعتاد أن يُفكّر بعائلته، بالصغيرة لوتّ التي كانت وقتذاك في العاشرة من عمرها، كان يأسف،

دون حزنٍ، لأنّه ترك دراسته مبكراً، فهو كان يحدس بشكل مشوش بأنّ وضعه سيكون أحسن لو أنّه تابعها.

من ناحية أخرى لم يكن مزعوجاً من عمل الجنديّ ولم يكن يشعر بالحاجة، أو ربّما لم يكن قادراً على التفكير بجديّة بالمستقبل. كان يتظاهر بأنّه غوّاص يتنزّه مرّة أخرى في عمق البحر. طبعاً ما من أحدٍ كان ينتبه، حتى ولو لاحظوا، متمعّنين به أكثر، شيئاً في حركات رِيْتِر، تبدّلاً خفيفاً في طريقته بالمشي، في طريقته بالتنفّس، في طريقته بالنظر، بعضَ التأنّي، التروّي في كلّ خطوة، اقتصاداً رئويّاً، بلوراً في شبكة عينيه، كما لو أنّ عينيه انتفختا بفعل نقصٍ في ضخّ الأوكسجين، أو أنّ الدم، كلّ الدمِ البارد كان يُغادره فقط في تلك اللحظات، ويجد نفسه غير قادرٍ على التحكّم بدمعه، الذي لم يكن ليصل أبداً.

في تلك الفترة ذاتها، بينما كانوا ينتظرون، جُنّ جنديٌّ من كتيبة رِيْتِر. كان يقول إنّه يسمع كلّ محطات البث الألمانية وأيضاً الفرنسية، وهو الأكثر إدهاشاً. كان هذا الجنديّ يُدعى جوستاف وعمره عشرين عاماً، بعمر رِيْتِر، ولم يكن يوماً في فريق بثّ الكتيبة. قال الطبيب، وهو رجل من ميونيخ تعلوه علامات التعب، إنّ جوستاف عنده بداية فصام سمعي، أساسه سماع أصواتٍ داخل رأسه ووصف له حمامات باردة ومهدّئات. ومع ذلك كانت حالة جوستاف تختلف في نقطة جوهرية عن حالات الفصام السمعي: الأصوات التي يَسمعُها المريض في هذه الحالة تتوجّه إليه، تكلّمه أو تؤنّبه، بينما الأصوات التي كانت تُسْمَعُ في حالة جوستاف تقتصر على تقاطع الأوامر، كانت أصوات جنود، مستكشفين وملازمين يقدّمون تقريرهم اليومي، أصوات كولونيلات يتكلّمون بالهاتف مع جنرالات، أصوات نقباءِ إمدادٍ وتموين يُطالبون بخمسين كيلوغراماً من الطحين، أصوات طيّارين يقدّمون تقريرَ الأحول الجويّة. بدا في الأسبوع الأوّل من المعالجة أنّ الجنديّ

جوستاف يتحسّن. كان يسير مخبولاً قليلاً وكان يرفض الحمامات الباردة، لكنّه ما عاد يصرخ، ولا يقول إنّهم يُسمّمون روحَه. في الأسبوع الثاني هرب من المشفى الميداني وعلّق نفسه إلى شجرة.

لم تكن الحربُ بالنسبة إلى الفرقة ٧٩ على الجبهة الغربية تكتسي طابعاً ملحمياً. عبروا في حزيران خطَّ ماجينو، بعد هجوم سوم وشاركوا في حصار بضعة آلاف جنديّ فرنسيّ في منطقة نانسي. تجمّعت بعدها الفرقة في نورمانديا.

سمع هانز خلال الرحلة قصةً غريبة عن جنديّ من الفرقة ٧٩ ضاع في أنفاقِ خطّ ماجينو. القطّاع الذي ضاع فيه هذا الجنديّ، بحسب ما استطاع هذا أن يتأكّد، كان يُدعى قطّاع تشارلز. من المفروغ منه أنَّ أعصاب هذا الرجل كانت من حديد، أو هذا ما كان يُقال، وبقي يبحث عن مخرج إلى سطح الأرض. وصل بعد أن سار قرابةَ الخمسمئة متر إلى قطّاع كاترين. وفائض عن القول بأنّ قطّاع كاترين لم يكن يختلف بشيء عن قطاع تشارلز، باستثناء اليافطة. وصل بعد أن سار ألف مترٍ إلى قطاع جوليز. في تلك اللحظة بدأ الجنديّ يتوتّر ويُطلق العنان لخياله. تخيّل نفسه محبوساً إلى الأبد في تلك الممرات الباطنية الضيقة، دون أن يهرع أيّ رفيق لمساعدته. رغب بأن يصرخ، وإن كبح نفسه في البداية خشية أن يلفت انتباه الفرنسيين، الذين من الممكن أن يكونوا قد بقوا مختبئين، وفي النهاية أذعن للرغبة وراح يزعق بكلّ ما استطاعته رئتاه. لكنّ أحداً لم يردّ عليه وتابع طريقه بأمل أن يعثر في لحظة ما على المخرج. خلّف وراءه قطّاع جوليز ودخل في قطّاع كلاودين. تلاه قطاعُ إميل وقطّاعُ ماري، ثمّ قطّاعُ جان-بيير، فقطاع بيرينيز، وقطّاع أندريه، أخيراً قطّاع سيلفيا، وحين وصل الجنديّ إلى هذا القطاع اكتشف شيئاً (لو كان آخر لاكتشفه قبل ذلك بكثير) قائماً على التأكّد من غرابة نظام الممرات، الذي يكاد يخلو من أيّ عيب.

بعدها بدأ يُفكّر في فائدة هذه الممرات، أي في فائدتها العسكرية، وتوصّل إلى نتيجة مفادها أنّها تخلو من أيّ فائدة وإلى احتمال أنّه لم يتواجد قط أيّ عسكريّ هناك.

ظنّ الجنديّ عند هذه النقطة أنّه جُنّ، بل وأسوأ من ذلك أنّه مات وأنّ المكان هو جهنّمُهُ الخاصة، ارتمى منهكاً وبلا أملٍ على الأرض ونام. حلم بالله شخصيّاً. كان هو نائماً تحت شجرة تفّاح في كروم الألزاس، اقترب منه فارس ريفيّ وأيقظه، بضربة عصا ناعمة على ساقيه. أنا اللهُ، قال له، إذا ما بعتني روحك، التي صارت من ناحية أخرى ملكي، فإنّني سأخرجك من الأنفاق. دعني أتابع نومي، قال الجنديّ، قلت لك إنّ روحك صارت ملكي، سمع صوتَ الله يقول له، لذلك أرجوك، لا تكن أخرقَ أكثر مما أنت بالطبيعة واقبلْ عرضي.

عندها استيقظ الجنديُّ ونظر إلى الله وقال له أين عليَّ أن أُوَقّع. هنا، قال اللهُ وهو يخرج ورقةً من الهواء. حاول الجنديُّ أن يقرأ العقدَ، لكنّه كان مكتوباً بلغةٍ أخرى، ليست الألمانية ولا الإنكليزية ولا الفرنسية، كان واثقاً من هذا. وبماذا أُوقِّعُ؟، سأله الجنديُّ. بدمِكَ، كما يجب، أجابه الله. أخرج الجنديّ على الفور سكينَهُ متعددة الاستخدامات وجرح نفسه في راحة يده اليسرى، دهن بعدها أنملةَ سبّابته بالدم وبصم.

- حسن، تستطيع الآن أن تتابع نومك -قال له الله.

- بودّي أن أخرج سريعاً من الأنفاق -طلبَ منه الجنديُّ.

- كلّ شيء سيأتي في حينه، كما هو مخطّط -قال الله، وأدار له ظهره وراح يهبط عبر الطريق الترابي الضيق باتجاه وادٍ فيه ضيعة طُلِيَتْ بيوتُها بالأخضر والأبيض والبنّي الفاتح.

اعتقد الجنديّ أنّ من المناسب أن يُصلّي. جمع يديه ورفع عينيه إلى السماء، وعندئذٍ انتبه إلى أنّ كل التفاحات على الشجرة قد جفّت.

بدت كأنّها زبيب، أو بالأحرى خوخ مُجفّف. وسمع في الوقت ذاته جلبةً بدت له معدنية بشكل غامض.

- ما الذي يجري؟ -صاح.

كانت تصعدُ من الوادي أعمدة دخان أسود طويلة تبقى عالقةً عند ارتفاع معيّن. أخذته يدٌ من أحد كتفيه وهزّته. كانوا جنوداً من سريّته نزلوا إلى النفق عبر قطاع بيرينس. راح الجنديّ يبكي فرحاً، ليس كثيراً، لكن ما يكفي كي يتنفّسَ الصعداء.

حكى في تلك الليلة لصديقه الأفضل الحلمَ الذي رآه داخل الأنفاق. قال له هذا إنّ من الطبيعي أن يحلم المرء بترهات حين يجد نفسه في وضع كهذا.

- لم تكن تُرّهة -أجابه-، رأيتُ اللهَ في الأحلام، أنقذوني وها أنا ذا مرّة أخرى بين أصحابي، ومع ذلك لا أتمكن من أن أطمئنّ تماماً

صوَّبَ بعد ذلك بصوتٍ هادئ:

- لا أتمكّن من أن أكون واثقاً تماماً.

وهو ما ردّ عليه صديقه بأنّه ما من أحدٍ يستطيع في الحرب أن يشعر بالثقة التامّة. وهنا انتهت الدردشة. ذهب الجنديّ لينام. ساد الصمتُ في القرية. راح الحرّاس يُدخّنون. بعد أربعة أيام وبينما كان الجنديّ الذي باع روحه لله يسير في الشارع صدمته سيّارة ألمانية وقتلته.

اعتاد رِيْتِر خلال وجود فوجِهِ في نورمانديا أن يستحمّ، كائناً ما كان الطقس، بين صخور بورتبيل، بالقرب من نهر أولّوند، إلى الشمال من كارتِريت. كانت كتيبته مجمّعة في بلدة بِسْنِفيل. كان يخرج في الصباحات ومعه سلاحه وحقيبة ظهره حيث يحمل جبناً وخبزاً ونصف زجاجة نبيذ، ويسير حتى الشاطئ. هناك كان يختار صخرةً، بعيدة عن عيون أيّ شخص، ثمّ وبعد أن يسبح عارياً لساعاتٍ يستلقي على

صخرته يأكل ويشرب ويُعيد قراءة بعض حيوانات ونباتات الساحل الأوروبي.

كان يجد أحياناً نجومَ بحر فيبقى ينظر إليها كلَّ الوقت الذي تتحمّله رئتاه، إلى أن يُقرّر أخيراً أن يلمسها تماماً قبل أن يخرج. رأى مرّةً زوجين من الأسماك العظمية، الغوبيوس باغانِلّوس، ضائعين في غابة من الأشُن، تبعهما برهةً (غابة الأشُن كانت مثل شعر عملاقٍ ميت)، إلى أن تملّكه ضيق غريب، جبّار فاضطُرَّ لأن يخرج بسرعة، إذ لو بقي غاطساً برهةً أكثر لجرّه الضيق إلى القاع.

كان يشعر أحياناً بنعاسٍ على لصخرة الرطبة إلى حدّ أنّه يتمنى ألا يعود ليلتحق بالكتيبة بعدها أبداً. وفي أكثر من مناسبة فكّر جدّياً أن يهرب، أن يعيش مثل صعلوك في نورماندیا، يعثر على كهف، يأكل من إحسان الفلاحين، أو من السرقات الصغيرة التي سيقوم بها ولا أحد يُبلغ عنها. سيكون له عينان تريان ليلاً، فكّر. ومع مرور الزمن ستقتصر ملابسي على بعض الخرق وسأعيش بعدها عارياً. لن أعود بعدها أبداً إلى ألمانيا. وسأموت ذات يوم غارقاً ومشعاً سعادةً.

في تلك الأيّام زار سريّةَ رِيْتِر فريق طبيّ. الطبيب الذي فحصه وجده ضمن المعقول سليماً تماماً، باستثناء عينيه، اللتين كانتا تُبديان احمراراً غير طبيعي إطلاقاً، السبب كان يعرفه رِيْتِر نفسه دون أيّ إمكانية للخطأ: الساعات الطويلة من الغوص مكشوف الوجه في المياه المالحة. لكنّه لم يَقُل هذا للطبيب خوفاً من أن يُعاقَب أو من أن يمنعوه من العودة إلى البحر. كان الغوص بنظارة سيبدو لِرِيْتِر في ذلك الوقت نوعاً من تدنيس المقدسات. أن يرتدي بدلة غطس بلى، لكنّ نظارة غطس قطعاً لا. وصف له الطبيبُ قطرة وقال له إنّه سيُعد مع رئيسه تقريراً كي يُعالجه طبيب عيون. حين ذهب الطبيب فكّر أنّ من المحتمل أن يكون ذلك الفتى مفرط الطول مدمن مخدرات وهذا ما كتبه في

يومياته: كيف يمكن أن يوجد شباب مدمنو مورفين وهيروين وربّما مدمنو عدد من المخدرات في صفوف جيشنا؟ ماذا يُمثّلون؟ تراهم يُمثّلون أعراضَ مرض اجتماعي جديد؟ أم تراهم مرآة مصيرنا أو المطرقة التي ستُحطّم مرآتنا ومصيرنا أيضاً؟

وبدل أن يموت غريقاً ومشعّاً سعادةً، أُلغيت ذات يوم أذونات الخروج دون سابق إخطار وانضمّت كتيبة رِيْتِر التي كانت في بلدة بِسنِفيل إلى كتيبتي الفوج ٣١٠ الأخريين اللتين كانتا رابضتين في سانت-سوفور لو فيكوم و بريكيبك وركبوا جميعاً في قطار عسكريّ توجّه بهم نحو الشرق وانضمّ في باريس إلى قطار آخر كان على متنه الفوج ٣١١، ومع أنّ الفوج الثالث من الفرقة كان غائباً، ويبدو أنّه لن ينضّم أبداً إلى هذه الفرقة، بدأت تجوب أوروبا باتجاه غرب-شرق، وهكذا مرّت عبر ألمانيا وهنغاريا ثم وصلت أخيراً الفرقة ٧٩ إلى رومانيا وجهتها الأخيرة.

رابطت بعض القوّات بالقرب من الحدود مع الاتحاد السوفييتي، وأخرى بالقرب من حدود هنغاريا الجديدة. تمركزت كتيبة هانز في جبال كارابات. نزلت قيادة الفرقة، التي ما عادت تنتمي إلى الفيلق العاشر، بل إلى فيلق جديد، هو الفيلق ٤٩، الذي شُكّل توّاً ولم يكن تحت قيادته آنياً غير فرقة واحدة في بوخارست، وإن كان الجنرال كروغِر، القائد الجديد للفيلق يزور القواتِ برفقة الكولونيل السابق فون بِرنبِرغ، الآن هو الجنرال بِرنبِرغ، قائد الفرقة ٧٩ الجديد، ويهتمّ بدرجة استعدادهم.

صار رِيْتِر يعيش الآن بعيداً عن البحر، بين الجبال، واستَبْعَد آنيّاً أي فكرة تتعلّق بالهرب. لم يرَ خلال الأسابيع الأولى من وجوده في رومانيا غير جنود من كتيبته ذاتها. رأى بعدها فلاحين، كانوا يتحرّكون كما لو أنّ نملاً في أرجلهم وظهورهم، يذهبون باستمرار من جانب إلى

آخر ومعهم صرر يخبئون فيها أمتعتهم ولا يتكلّمون إلا مع أطفالهم، الذين كانوا يتبعونهم مثل النعاج أو مثل الجِذْيان. كانت مساءات جبال كارابات لا نهاية لها، لكنّ السماء كانت تُعطي انطباعاً بأنّها منخفضة أكثر من اللازم، على ارتفاع بضعة أمتار فقط من رؤوسهم، وهو ما كان يُساهم في توليد إحساسٍ بالاختناق أو بالقلق بين الجنود. بالرغم من كلّ شيء عادت الحياةُ اليومية لتصبح وديعةً، غير محسوسة.

أيقظوا ذات ليلة بعضَ جنود كتيبته قبل الفجر وانطلقوا بهم بعد أن ركبوا في شاحنتين نحو الجبال.

ما إن جلس الجنود على مقاعد الشاحنة الخشبية في الخلف حتى عادوا ليناموا. رِئتِر لم يستطع ذلك. أبعد وقد جلس بجانب المَخرج، القماشَ الذي يقوم مقام السقف وراح يتأمّل المنظر. لمحت عيناه، عينا من يرى في الظلام، الحمراوان باستمرار بالرغم من القطرة التي كان يقطرها كلَّ صباح، سلسلةً من الجبال الصغيرة. كانت الشاحنتان تمرّان من حين لآخر بجانب أشجار صنوبر هائلة تقترب متوعّدةً من الطريق. اكتشفَ في البعيد، في جبلٍ أخفضَ من غيره، طيفَ قلعة أو حصنٍ. عند الفجر انتبه إلى أنّها كانت مُجرّد غابة. رأى تلالاً أو تشكيلات صخرية تبدو سفناً على وشك أن تغرق، مرفوعة القيدوم مثلَ جواد هائج يكاد يكون عمودياً. رأى دروباً مظلمة بين الجبال لا تقودُ إلى مكان، لكن طيوراً سوداء تُحلّقُ فوقها على ارتفاع كبير، لا يمكن أن تكون إلا طيوراً من آكلات الجيف.

وصلوا عند منتصف الصباح إلى قلعة. لم يجدوا في القلعة غير ثلاثة رومانيين وضابط من الوحدات الخاصّة كان يقوم بدور القهرمان وأسلمهم للعملِ فوراً، بعد أن قدّم لهم كأسَ حليب بارد وكسرة من الخبز اليابس تركه بعضُ الجنود جانباً بحركة اشمئزاز. تركوا الأسلحة في المطبخ وراحوا، باستثناء أربعة منهم قاموا بالحراسة، بينهم رِئتِر

الذي حكم ضابطُ الوحدات الخاصّة عليه بأنّه غير كفءٍ لأعمال ترتيب وتنظيف القلعة، وراحوا يكنسون ويزيلون الغبار عن الثريات ويضعون الملاحف النظيفة في الغرف.

وصل المدعوّون عند الساعة الثالثة مساء. واحد منهم كان الجنرال فون بِرنبِرغ، قائد الفرقة، ومعه كاتب الرايخ هِرمان هوينش وضابطان من رئاسة أركان الفرقة ٧٩. في السيارة الأخرى جاء الجنرال الروماني إيوجينيو إنترِسكو، الذي كان وقتذاك في الخامسة والثلاثين من عمره وكان النجمّ الصاعد في جيشٍ بلده، يُرافقه الشابُ المثقّف بابلو بوبِسكو، ابن الثالثة والعشرين من عمره والبارونة فون زومبِ، التي تعرّف عليها الرومانيون في الليلة السابقة في حفل استقبال في السفارة الألمانية، وكان عليها من حيث المبدأ أن تكون قد سافرت في سيّارة الجنرال فون بِرنبِرغ، لكنّها أمام دماثة إنترِسكو وطبيعة وملاحة بوبِسكو المرحة اضطُرّت أخيراً أن تُذعن لعرضهما، الذي كان يستند عقلانياً إلى أنّ المكان الذي ستتمتع به البارونة في السيارة الرومانية أرحب، فعدد الركاب فيها أقل مما في السيارة الألمانية.

كانت مفاجأة رِيْتِر حين رأى البارونة فون زومبِ كبيرة. لكن أغرب شيء هو أنّ البارونة الشابّة توقّفت هذه المرّة أمامه وسألته، مهتمّةً بصدقٍ، عمّا إذا كان يعرفها، لأنّ وجهه، قالت البارونة، بدا لها مألوفاً. أجابها رِيْتِر دون أن يتخلّى عن وضعية الاستعداد، محافظاً على تقاسيم وجهٍ أبله، ناظراً إلى الأفق في وضعية عسكرية، أو ربّما غير ناظر إلى أيّ مكان) بالطبع كان يعرفها فقد خدم في بيت أبيها، البارون، منذ عمر مُبَكّر، مثله مثل والدته، السيّدة رِيْتِر، التي ربّما تتذكّرها البارونة.

- صحيح -قالت البارونة، وراحت تضحك-، كنتَ الطفلَ الطويل والنحيل الذي يسير في كلّ مكان.

- كنتُ هذا -قال رِيْتِر.

- خِدن ابن عمّتي - قالت البارونة.
- صديق ابن عمّتك - قال رِيْتِر -، السيّد هوغو هالدِر.
- وماذا تفعلُ هنا، في قلعة دراكولا؟ - سألته البارونة.
- أخدمُ الرايخ - قال رِيْتِر، ونظر إليها لأوّل مرّة.

بدت له جميلة جدّاً، أجمل بكثير مما كانت حين تعرّف إليها. على بعد خطوات منهما كان الجنرال إنترِسكو، الذي لم يكن يستطيع التوقّف عن الابتسام، والشاب المثقّف بوبِسكو، الذي صاح في عدة مناسبات: رائع، رائِع، مرّة أخرى يقطع سيفُ القدر رأس أفعى الفاجعة.

حضّر الضيوفُ وجبةً خفيفة ثمّ خرجوا ليستكشفوا محيطَ القلعة. سرعان ما شعر الجنرال فون بِرنبِرغ، الذي كان متحمساً في البداية لذلك الاستكشاف، بالتعب وانسحب، ولذلك ترّأس المشوار منذ تلك اللحظة الجنرال إنترِسكو، الذي كان يسير آخذاً بذراع البارونة والشاب المثقّف إلى يساره ينثر ويزن كميّة من المعلومات متناقضة في معظم المرّات. إلى جانب بوبِسكو كان يسير ضابط الوحدات الخاصّة وضابطا رئاسة الأركان. رِيْتِر، الذي كان في المؤخّرة، أصرّت البارونة على أن يبقى بجانبها، مُتَعَلِّلة بأنّه خدم أسرتها قبل أن يخدم الرايخ، فلبّى فون بِرنبِرغ طلبها فوراً.

سرعان ما وصلوا إلى ديماسٍ محفورة في الصخر. باب من قضبان حديدية، عليه ترس سلاح آكله الزمن، كان يعيق الدخول. أخرج ضابط الوحدات الخاصّة، الذي بدأ يتصرّف كأنّه المالك، مفتاحاً من أحد جيوبه وفتح الباب. أشعل بعدها مصباحاً يدوياً وراحوا جميعاً يدخلون إلى الديماس باستثناء رِيْتِر، الذي أشار إليه أحد الضباط بأن يبقى حارساً على الباب.

هكذا بقي رِيْتِر مصلوباً هناك يتأمّلُ الدرجَ الحجري الذي كان يهبط

إلى الظلمة والحديقةَ المقفرة التي وصلوا عبرها وبرْجَيّ القلعة اللذين كانا يُشاهدان من هناك ويُشبهان شمعتين رماديّتين على مذبحٍ مهجور. أخرج بعدها سيجارة من علبة سجائره، أشعلها وراح يتأمّل السماءَ الرماديّة كما راح يُفكّر أيضاً بوجهِ البارونة فون زومبِ بينما رمادُ السيجارة يسقطُ على الأرض وعليه، وراح شيئاً فشيئاً وهو متّكئ إلى الصخرة يغفو. عندها حلم بداخل الديماس. كان الدرج يهبط إلى مُدرَّجٍ يضيئه جزئيّاً مصباحُ ضابط الوحدات الخاصّة. حلم بأنّ المدعوّين جميعهم يضحكون. جميعهم باستثناء أحد ضابطيّ رئاسة الأركان، الذي كان يبحث عن مكان يختبئ فيه، دون أن يتوقّف عن البكاء. حلم بأنّ هونش كان يلقي قصيدةً لفولفرام فون إشنباخ ويبصق بعدها دماً. حلم بأنّهم يستعدون مجتمعين لأن يأكلوا البارونة فون زومبِ.

استيقظ فزعاً وعلى وشك أن يركض هابطاً الدرج كي يتأكّد بأمّ عينه أنّ شيئاً مما رأى في حلمه لم يكن حقيقيّاً.

حين عاد الزوار إلى سطح الأرض كان باستطاعة أيّ مراقب، مهما كان أخرق، أن يحسّ بأنّهم كانوا مقسومين إلى مجموعتين، الذين يخرجون شاحبي الوجوه كما لو أنّهم رأوا شيئاً خطيراً هناك في الأسفل والذين يَظْهَرون بما يُشبه الابتسامة المرسومة على وجوههم، كما لو أنّهم تلقوا لتوّهم درساً حول سذاجة النوع البشري.

تحدّثوا في تلك الليلة في أثناء العشاء عن الديماس، لكنّهم أيضاً تحدّثوا عن أشياء أخرى. تحدّثوا عن الموت. قال هونش إنّ الموت بحدّ ذاته مجرّدُ سرابٍ في تشكّلٍ متواصل، لكنّه في *الواقع* غير موجود. قال ضابطُ الوحدات الخاصّة إنّ الموتَ ضرورة: لا أحد عنده عقل سليم يقبل عالماً مليئاً بالسلاحف أو مليئاً بالزرافات. الموت، قال، هو الناظم. قال العلاّمة الشابّ بوبِسكو إنّ الموت، بحسب الحكمة الشرقيّة، مجرّد عبور. ما لم يكن واضحاً، قال، أو على الأقل لم يكن واضحاً بالنسبة إليه، هو عبور إلى أين، إلى أيّ واقع يقود هذا العبور.

- السؤال -قال- هو إلى أيّن. الجواب -ردّ على نفسه- إلى حيث تقودني استحقاقاتي.

ارتأى الجنرال إنترِسكو أنّ هذا هو الأقل أهمية، وأنّ المهم هو الحركة، ديناميكية الحركة، ما كان يتساوى عند البشر وجميع الكائنات الحيّة، بما فيها الصراصير، النجوم الكبيرة. قالت البارونة فون زومبِ، التي ربّما كانت الوحيدة التي تكلّمت بصراحة، إنّ الموتَ مزعج. بينما فضّل الجنرال بِرنبِرغ ألا يُعبِّر عن رأيه، مثله مثل ضابطي رئاسة الأركان.

تحدّثوا بعدها عن القتل. قال ضابط الوحدات الخاصّة كلمة قتل كلمة غامضة، وخاطئة، غير دقيقة، مبهمة، غير مُحدّدة، تسمح بالتورية. وافقه هونش. قال الجنرال فون بِرنبِرغ إنّه يُفضّل القوانين على الأحكام وعلى المحاكم الجزائية، وإنّه إذا قال قاضٍ إنّ ذلك الفعلَ قتلٌ كان قتلاً وإذا حكمَ القاضي والمحكمة بأنّه ليس قتلاً فهو ليس قتلاً ولنتوقّف عن الكلام في هذه المسألة. ارتأى ضابطا رئاسة الأركان ما ارتآه قائدهما.

اعترف الجنرال إنترِسكو بأنَّ أبطالَ طفولته كانوا دائماً قتلة وأشراراً، ويشعر تجاههم باحترام كبير. ذكَّرَ المثقَّفُ الشاب بوبِسكو بأنّ القاتلَ والبطلَ يتشابهان في العزلة وعدم الفهم، على الأقل مبدئيّاً.

قالت البارونة من ناحيتها إنّها، كما هو طبيعي، لم تعرف في حياتها قاتلاً قط، لكنّها عرفت شريراً فعلاً، هذا إذا كان من الممكن أن نسمّي هكذا شخصاً بغيضاً، لكنّه محاط بهالة غامضة تجعله جذّاباً بالنسبة إلى النساء، عملياً، قالت، لها عمّة، الأخت الوحيدة لأبيها، البارون فون زومبِ، عشقت هذا الشخص، الأمر الذي كاد يصيب أباها بالجنون، الذي تحدّى بالمبارزة شاغل قلب أخته، الذي ولدهشة الجميع قبل التحدّي، الذي تمّ في غابة قلب الخريف، في ضواحي بوستدام، وهو مكان زارته البارونة فون زومبِ بعد سنوات كثيرة كي

ترى بأمّ عينها غابة الأشجار الرمادية الكبيرة والمنطقة المكشوفة وهي أرض مائلة بمساحة خمسين متراً، حيث بارز أبوها ذلك الرجل غير المتوقّع، والذي وصل إلى هناك في السابعة صباحاً ومعه شحّاذان بدل العرّابَيْن، شحاذان كانا بالطبع سكرانين تماماً، بينما كان عرّابا والدها بارون إكس وكونت إي، يعني فضيحة كبيرة، أوشك بارون إكس نفسه، الذي احمرّ غضباً، أن يقتل بسلاحه ذاته عرّابَيّ عاشق أخت البارون فون زومبِ، الذي يُدعى كونراد هالدِر، كما ولا شكّ يتذكّر الجنرال فون بِرنبِرغ القضية (هزّ هذا رأسه بالتأكيد بالرغم من أنّه لم يكن يعرف عمّا كانت تتكلّم البارونة فون زومبِ)، اشتهرت القضيّةُ كثيراً في تلك المرحلة، طبعاً قبل أن أولدَ، عملياً كان البارون فون زومبِ ما يزال عازباً، أخيراً تمّت المبارزةُ في تلك الغابة ذات الاسم الرومانسي جدّاً بسلاح ناريّ طبعاً، وإن كنتُ أجهل القواعد التي اتبعت، إلا أنّني أفترض أن الاثنين صوّبا وأطلقا النار في وقت واحد: مرّت رصاصة البارون، أبي، على بعد سنتيمتراتٍ قليلة من كتف هالدِر الأيسر، بينما رصاصة هذا، التي بالطبع لم تصب هدفها، لم يسمع صوتَها أحدٌ، كان الجميع، كما كانوا، مقتنعين بأنّ أبي كان أفضل منه تصويباً بكثير، وأنّه إذا كان هناك من سيسقط فهو هالدِر وليس أبي، لكن وقتها، يا لمفاجأة الجميع، بمن فيهم أبي، رأوا أنّ هالدِر، بعيداً عن أن يُنْزِلِ ذراعه، بقي مُسدّداً عندها أدركوا أنّ هذا لم يُطلق النار وبالتالي فأنّ المبارزة لم تنتهِ بعد، وهنا حدث ما كان أكثر مفاجأة من كلّ شيء، خاصّة إذا ما أخذنا بالحسبان الشهرة التي كان يجرّها وراءه عاشقُ أختِ أبي، الذي كان أبعد ما يكون عن أن يُطلق النارَ على هذا، اختار جزءاً من جسمه، أعتقد أنّه ذراعه الأيسر وأطلق عن قربٍ النارَ على نفسه.

أجهلُ ما حدث بعدها. أعتقد أنّهم حملوا هالدِر إلى طبيب. أو ربّما توجّه هالدِر بنفسه سيراً على قدميه يرافقه عرّاباه-الشحاذان، كي يُداوي له طبيبٌ جرحَهُ، بينما بقي أبي جامداً في غابة قلب الخريف،

يفور غضباً أو ربّما شحب لونه مما رآه، بينما عرّاباه يهرعان لمواساته ويقولان له ألاّ يقلق، فَمِنْ أشخاصٍ مثل ذاك يمكن أن تُتَوَقّع أيّ حماقة.

بعدها بوقت قصير هرب هالدِر مع أخت أبي. عاشا فترة في باريس، ثمّ في جنوب فرنسا، حيث اعتاد هالدِر، الذي كان رسّاماً بالرغم من أنّني لم أرَ قط لوحةً له، أن يُمضي فتراتٍ طويلة. تزوّجا بعدها، بحسب ما عرفت، فرشا بيتاً في برلين. لم تواتيهما الحياة فمرضت أختُ أبي مرضاً خطيراً. تلقى أبي يومَ وفاتها برقيّة، رأى في تلك الليلة هالدِر للمرّة الثانية. وجدَهُ سكراناً شبهَ عارٍ، بينما ابنه، ابن عمّتي، الذي كان في ذلك الوقت في الثالثة من عمره، يتيه في البيت، الذي هو في الوقت ذاته مرسم هالدِر، عارياً تماماً وملطخاً بالدهان.

في الليل تكلّما لأوّل مرّة وربّما توصّلا إلى اتفاق. أبي أخذ على عاتقه حفيده وكونراد هالدِر رحل عن برلين إلى الأبد. كانت تصل عنه أحياناً أخبار، جميعها مسبوقة بفضيحة ما صغيرة. لوحاته البرلينية بقيت في عهدة أبي، الذي لم يملك من الجرأة ما يجعله يحرقها. سألتُهُ ذات مرّةٍ أين يُخبّئها. لم يبغِ أن يقوله لي. سألتُه كيف هي. نظر إليّ أبي وقال لم تكن غير نساء ميتات. هل هي صور نصفية لعمّتي؟ لا، قال أبي، نساء أخريات، جميعهنّ ميتات.

طبعاً لا أحد في ذلك العشاء كان قد رأى أيّ لوحة لكونراد هالدِر، باستثناء ضابط الوحدات الخاصّة، الذي عرَّف الرسام بأنّه فنان منحطّ، لا شكّ أنّه كان، بالنسبة إلى عائلة فون زومبِ، كارثة. تكلّموا بعدها عن الفن، عن البطولي في الفنّ، عن الطبيعة الصامتة، عن التطيّر وعن الرموز.

قال هونش إنّ الثقافة سلسلة من حلقات من الفنّ البطولي والتفسيرات الخرافية. قال المثقّفُ الشابّ بوبِسكو إنّ الثقافةَ رمز وإنّ

هذا الرمزَ له صورة المنقذ. قالت البارونة فون زومبٍ إنّ الثقافة أساساً هي متعة، هي ما يُوَفّر ويمنح متعة، وما عداه مجرّد ثرثرة. قال ضابط الوحدات الخاصّة إنّ الثقافة هي نداء الدم، نداء يُسمع في الليل بشكل أفضل من النهار، ثمّ إنّها أيضاً مُفَكِّكَة رموز القدر. قال الجنرال فون برِنبِرغ إنّ الثقافة بالنسبة إليه هي باخ، وإنّ هذا يكفيه. قال أحدُ ضابطي رئاسة أركانه هو بالنسبة إليه فاغنر وإنّ هذا يكفيه أيضاً. قال ضابط رئاسة الأركان الآخر إنّ الثقافة بالنسبة إليه هي غوته وإنّه وبالتصادف مع ما عبّر عنه قائده يكفيه ويفيض عنه أحياناً. حياة إنسان يمكن أن تقارن فقط بحياة إنسان آخر. حياة إنسان، قال، فقط تكفي للاستمتاع بوعيٍ بعمل إنسان آخر.

قال الجنرال إنترِسكو، الذي بدا له ما انتهى من قوله ضابطُ رئاسة الأركان ظريفاً جدّاً، الثقافة، بالنسبة إليه، على العكس، هي الحياةُ وليست حياة إنسان واحدٍ ولا عمل إنسانٍ واحد، بل الحياة بعامّة، أي تجلٍّ من تجلياتها، حتى أكثرها عاميّة، راح بعدها يتكلّم عن مناظر خلفياتِ لوحات بعض رسامي عصر النهضة، وقال إنّ باستطاعة المرء أن يراها في أيّ مكان من رومانيا، ثمّ راح يتكلّم عن السيدات في اللوحات وقال إنّه يرى في هذه اللحظة بالضبط وجهَ سيّدة أجمل من وجوه أيّ رسام من عصر النهضة الإيطالي (احمرّ وجهُ البارونة فون زومبٍ خجلاً) وراح أخيراً يتحدّثُ عن التكعيبية والتصوير الفني المعاصر وقال إنّ أيّ جدار مهجور، أو أيَّ جدار مقصوف أهمّ من أشهر لوحة تكعيبية، كيلا أتكلّم عن السريالية، قال، وإنّها تسقطُ مستسلمة أمام حلم أيّ فلاّح أُمّي في رومانيا. ما إن قال هذا حتى حدث صمت قصيرٌ، قصير، لكنّه صمت تَرَقّب، كما لو أنّ الجنرال إنترِسكو لفظ كلمة سيّئة، أو كلمة بذيئة أو بائسة الذوق أو أنّه شتم مدعوّيه الألمان، ففكرة زيارة تلك القلعة الكئيبة كانت فكرته (وفكرة بوبِسكو) ومع ذلك كان صمتاً كسرته البارونة فون زومبٍ حين سألته

بنبرةٍ يمتدّ معيارها من السذاجة وحتى الدهمائية، ما الذي كان يحلم به فلاحو رومانيا، وكيف يعرف هو ما كان يحلم به فلاحو رومانيا المميّزين إلى هذا الحدّ. وهو ما ردّ عليه الجنرال إنترِسكو بضحكة صريحة، ضحكة مفتوحة وبلورية، ضحكة كانوا يُعرّفونها في دوائر بوخارست الراقية، ليس دون أن يُضيفوا صبغة غامضة، بأنّها كضحكة سوبرمان، ثمّ قال ناظراً بثبات إلى عيني البارونة فون زومبِ، لا شيء مما كان يحدث لرجاله (في إشارة إلى جنوده، الفلاحين في غالبيتهم) كان غريباً عليه.

- أدخل في أحلامهم -قال-، أدخل في أكثر أفكارهم خزياً، أنا موجود في كلّ رعشة، في كلّ رجفة من رجفات أرواحهم، أدخل في قلوبهم، أنبشُ أكثر أفكارهم بدائيّة، أطّلِع على دوافعهم غير العقلانية، عواطفهم التي يتعذّر وصفها، أنام في رئاتهم شتاءً وأقوم بكلّ هذا دون جهد، دون أن قصد، دون طلب ولا بحث، بلا أيّ إكراه، لا يدفعني غير الإخلاص والحبّ.

حين حانت ساعةُ النوم أو الانتقال إلى صالةٍ أخرى مزيّنة بالدروع والسيوف وأدوات الصيد، حيث كانت تنتظرهم المشروبات الروحية والحلوى والسجائر التركية، اعتذر الجنرال فون بِرنبِرغ وانسحب بعد قليلٍ إلى حجرته. قلّده أحدُ ضابطيه، نصيرُ فاغنر، بينما فضّلَ الآخرُ، نصيرُ غوته، أن يطيل السهرة أكثر. قالت البارونة فون زومبِ من جهتها إنّها ليست نعسانة. جلس الجنرال إنترِسكو بجانب البارونة. بقي المثقّفُ بوبِسكو واقفاً بجانب المدخنة، بينما راح يراقب ضابطَ الوحدات الخاصّة بفضول.

قام جنديان، واحد منهما رِيتِر، بدور النادلين. الآخر كان شخصاً غليظاً، ملوّنَ الشعر، يُدعى كروز يبدو على وشك أن يغفو.

امتدحوا طاولة الحلويات أوّلاً ثم راحوا دون أن تتوسّط ذلك

استراحةٌ، يتكلّمون عن الكونت دراكولا، كما لو أنّهم انتظروا هذه اللحظةَ الليلَ بطوله كي يفعلوا ذلك. لم يتأخّروا في تشكيل مجموعتين، مجموعة الذين يؤمنون بالكونت ومجموعة الذين لا يؤمنون به. كان بين هؤلاء الأخيرين ضابط رئاسة الأركان، الجنرال إنترِسكو والبارونة فون زومبِ، بين المجموعة الأولى كان المثقّف بوبِسكو، الكاتب هونش وضابط الوحدات الخاصّة، إذا كان بوبِسكو يؤكّد فعلاً أنّ دراكولا، الذي كان اسمه الحقيقيّ فلاد تيبِّش، والملقب بالإمبراطور، كان رومانياً، وهونش وضابط الوحدات الخاصّة يؤكّدان أنّ دراكولا كان نبيلاً جرمانياً، هجر ألمانيا متهماً بخيانة أو غدرٍ خيالي، وأنّه استقرّ مع بعض المخلصين له في ترانسيلفانيا، قبل أن يولد فلاد تيبش بكثير، الذي لم ينكر عليه وجوده التاريخي ولا أصله الترانسيلفاني، لكنّ طرقه، المطوّلة في ألقابه أو كناه، لم يكن لها علاقة كبيرة ولا صغيرة بطرق دراكولا، الذي كان يخنق أكثر مما يخوزق، وكان يذبح أحياناً، كانت حياته في الغربة دواراً متواصلاً، توبة جهنمية دائمة.

بالنسبة إلى بوبِسكو كان دراكولا مجرّدَ وطني روماني قاوم الأتراك، العمل الذي على كلّ الأمم الأوروبيّة أن تشكره عليه بطريقة ما. التاريخ قاس، قال بوبِسكو، قاس ومتناقض: الرجل الذي يوقف اندفاع الاحتلال التركي يتحوّل بفضل كاتب إنكليزي من المرتبة الثانية، إلى مسخ، إلى خسيس لا يهمّه غير الدم البشري، في الوقت الذي كان الدم الوحيد الذي يهمُّ تيبش سفْكَهُ هو الدم التركيّ.

لم يبدُ إنترِسكو، عند هذه النقطة سكراناً، بالرغم من أنّه كان قد شرب كثيراً خلال العشاء وبقي يشرب بكثرة فيما تبقى من حديث ما بعد الطعام، -عملياً كان يترك انطباعاً بأنه، إلى جانب ضابط الوحدات الخاصّة المتحفّظ، الذي لم يكد يبلل شفتيه بالكحول، الأكثر صحواً في المجموعة-، قال إنّه لم يكن مُسْتَغْرَباً، إذا ما تأمّل المرء أحداثَ التاريخ الكبرى بنزاهة (بما في ذلك أحداث التاريخ البيضاء، بالرغم

طبعاً من أنّ أحداً لم يفهم هذه الجملة الأخيرة) أن يتحوّل بطلٌ إلى مسخٍ أو إلى وغدٍ من أسوأ الأنواع، أو أن يدخل في اللامرئي، دون أن يقصد ذلك، بالطريقة ذاتها التي يتحوّل فيها شخصٌ دنيء أو شخصٌ تافه أو متواضعٌ طيّبُ الروح مع مرور القرون، إلى مشعلٍ للحكمة، مشعلٍ مغناطيسيّ قادر على أن يسحر ملايين الكائنات البشرية، دون أن يكون قد فعل شيئاً يُبرّر هذه التبجيل، يعني، دون أن يقصد ذلك أو يرغب به (بالرغم من أنّ كلّ إنسان، بمن فيهم أسوأ أنواع الأوغاد، يحلم ذات ثانية من حياته بأن يسود الناسَ والزمن). هل كان يسوع -تساءل- يظنّ أنّ كنيسته سوف تصل إلى أبعد الزوايا المجهولة على الكوكب؟ ترى هل كان -تساءل- يسوعُ يملك فكرة عمّا نُسميه اليوم العالم؟ هل كان يسوع، الذي كان ظاهريّاً يعرفُ كلَّ شيء، يعرف أنّ الأرضَ كروية ويعيش الصينيون في شرقها (بصق هذه الجملة الأخيرة بصقاً كما لو أنّ لفظَها كان يُكَلّفه جهداً) وتعيش في غربها شعوب أمريكا البدائيّة؟ وأجاب نفسه قائلاً لا، طبعاً بالرغم من أنّ موضوع امتلاك فكرة عن العالم، هو بطريقة ما أمر سهل، فجميع الناس يملكونها، عامّةً ما تكون فكرة محصورة بضَيْعتِهِم، بمسقط رأسهم، أو بالأشياء الملموسة والمتواضعة، التي يملكها كلُّ شخص أمام عينيه، وهذه الفكرة عن العالم، فقيرة، محدودة، مليئة بالقذارة العائلية، عادة ما تستمرُّ وتكتسبُ مع مرور الزمن سلطةً وبلاغة.

عندها قام الجنرال إنترِسكو بانعطافة غير متوقَّعة وراح يتكلّم عن فلابيوس جوزيفوس، ذلك الرجل الذكي، الجبان، الرزين، المتملّق، اللاعب بالامتيازات، الذي كانت فكرته عن العالم، إذا ما نظر إليها المرء باهتمام، أكثر تعقيداً ودقّةً من نظرة يسوع إلى العالم، لكنّها أقل دقّة بكثير من فكرة أولئك الذين، بحسب قوله، ساعدوه على ترجمة قصّته إلى اليونانية، أي من الفلاسفة اليونانيين الصغار، المأجورين لزمن للمأجورِ الأكبر، الذين أعطوا شكلاً لكتاباته التي لا شكل لها

وأناقة للدهمائيّ، وحوّلوا تلعثمات الرعب والموت عند فلابيوس جوزيفوس إلى شيء متميّز أنيق ورشيق.

راح بعدها إنترِسكو يتخيّل بصوت عالٍ أولئك الفلاسفة المأجورين، رآهم يتيهون في شوارع روما وفي الدروب المؤدّية إلى البحر، رآهم يجلسون على حوافّ تلك الدروب، متدثرين بعباءاتهم، يبنون عقلياً فكرةً عن العالم، رآهم يأكلون في حانات مرفأ، في أماكن مظلمة، تفوح منها رائحة البحريات والتوابل، والنبيذ والمقالي، إلى أن راحوا في النهاية يتلاشون، بالطريقة ذاتها التي راح يتلاشى فيها دراكولا بدرعه الملطخ بالدم وثيابه الملطخة بالدم، دراكولا رواقيّ، دراكولا الذي كان يقرأ سِنِكا أو يستمتع بسماع المغنين الجوّالين الألمان، الذين كان يمكن لنجاحاتهم في شرق أوروبا أن تُقارن بالملاحم الموصوفة في نشيد رولاند، سواء من وجهة النظر التاريخية، أي السياسيّة، تنهَّد إنترِسكو، أو من وجهة النظر الرمزية، أي الشعرية.

حين وصل إنترِسكو إلى هذه النقطة اعتذر لأنّه ترك الحماس يجرفه وسكت، اللحظة التي استغلّها بوبِسكو كي يتكلّم عن الرياضيّ[1] الروماني[2] المولود عام ١٨٦٥ والمُتَوَفّى في عام ١٩٣٦، الذي كرَّس السنوات العشرين الأخيرة من حياته للبحث في «بعض الأرقام الغامضة»، المخفية في مكان ما من المنظر الفسيح المرئي بالنسبة للإنسان، لكنّها غير مرئيّة، ويمكن أن تعيش بين الصخور أو في غرفة وأخرى، بل وبين رقم وآخر، كمن يقول رياضيات بديلة مموَّهة بين السبعة والثمانية، والثمانية بانتظار إنسانٍ قادرٍ على أن يراها ويفكّ لغزها. المشكلة الوحيدة هي أنّه لفَكِّ لغزها يجب أن تُرى ولكي تُرى يجب أن يُفكّ لغزها.

---

(١) عالم الرياضيات.

(٢) نسبة إلى رومانيا وليس إلى روما.

في الحقيقة عندما كان الرياضيُّ يتكلّمُ، وضّحَ بوبِسكو، عن فكّ اللغز كان يقصد الفهم، حين كان يتكلّم عن الرؤية، وضّحَ بوبِسكو، في الحقيقة كان يقصد التطبيق، أو هذا ما كان يعتقده. يمكن ألا يكون كذلك، قال بعد أن تردَّد، يمكن أن نُخطئ نحن تلاميذه، أحسب نفسي واحداً منهم، حين نسمع كلماته. على كلّ الأحوال اضطروا ذات ليلة أن يرسلوا الرياضيَّ إلى مشفى الأمراض العقلية، بعد أن اختلّ عقله. زاره هناك بوبِسكو وشابان آخران من بوخارست. لم يعرفهم في البداية، لكنّه مع مرور الأيام، حين لم يعد وجهه وجهَ مجنونٍ مهتاج بل فقط وجه رجل عجوز ومهزوم، تذكّرهم أو تظاهر بأنّه تذكّرهم، وابتسم لهم. ومع ذلك وبإصرار من عائلته لم يخرج من مشفى الأمراض العقلية، من ناحية أخرى دفعت انتكاساتُهُ المتواصلة الأطباءَ للحجر عليه لزمنٍ غير محدود. ذهب بوبِسكو يوماً لزيارته. كان الأطباء قد زوّدوه بدفترٍ راح الرياضيّ يرسم فيه الأشجار التي تُحيط بالمشفى، وجوهَ المرضى الآخرين، ورسوماً معمارية إجمالية للبيوت التي تُرى من الحديقة. بقيا برهةً طويلةً صامتين إلى أن قرّر بوبِسكو أن يتكلّم بصراحة. تطرَّق، بتهوّرِ شابٌ تقليدي إلى موضوع جنونِ أو جنونِ معلّمِهِ المزعوم. ضحك الرياضيّ. لا وجود للجنون، قال له. لكنّك هنا، قال بوبِسكو، وهذه دار مجانين. بدا أنّ الرياضيّ لا يسمعه: الجنون الوحيد الموجود، هذا إذا كان بمقدورنا أن نُسميه هكذا، قال، هو القصور الكيميائي، الذي يمكن أن يُعالج بسهولة بتناول مواد كيميائية.

- لكنّك هنا، يا أستاذي العزيز، هنا، هنا -صرخ بوبِسكو.

- من أجل أمني الذاتي -قال الرياضيّ.

لم يفهمه بوبِسكو. فكّر أنّه يتكلّم مع مجنون يجب أن يُقيّد، مع مجنون لا علاج له. عندها فتح عينيه، فركهما، ورأى الرياضيَّ جالساً أمامه، يتأمّله، منتصب الظهر وقد وضع ساقاً على ساق. سألهِ عمّا إذا كان قد حدث شيء. لقد رأيتُ ما لا يجب أن أراه، قال الرياضيُّ.

طلب منه بوبِسكو أن يُوضّح بشكلٍ أفضل. لو فعلتُ، أجابه الرياضيّ، لأمكن جدّاً أن أعودَ وأُجَنّ وربّما أموت. لكنّ الوجود هنا، قال بوبِسكو، بالنسبة إلى رجل بمثل عبقريتك، كأنه مقبور وهو حي. ابتسم له الرياضيّ بطيبة. أنت تُخطئ، قال له، هنا أملك بالضبط ما أحتاجه كيلا أموت: أدوية، وقتاً، ممرضات وأطباء، ودفتراً كي أستطيع أن أرسم، حديقة.

ومع ذلك توفّي الرياضيُّ بعد وقت قصير. حضر بوبِسكو الجنازة. ذهب هذا بعدها مع بعض تلاميذ المرحوم إلى مطعم، حيث أكلوا وأطالوا الجلسة حتى المساء. حكوا طُرَفاً من طرف الرياضيّ، تكلّموا عن الأجيال القادمة، قارن واحد منهم بين مصير الإنسان ومصير عاهرة عجوز، ألقى شابٌّ، بالكاد أكمل الثامنة عشرة من عمره عاد توّاً من رحلة مع والديه إلى الهند، قصيدةً.

بعد عامين صادف بوبِسكو بمحض المصادفة في حفلة أحدِ الأطباء الذين عالجوا الرياضيّ في أثناء تواجده في مشفى الأمراض العقلية. كان الأمر يتعلّقُ برجل شابّ وصادق، له قلب روماني، أي قلب بلا ازدواجية من أيّ نوع. ثمَّ إنّه كان سكراناً قليلاً وهو ما سهلَ المُسارّات.

حين أُدْخِلَ الرياضيُّ، بحسب هذا الطبيب، إلى المشفى كان يُعاني من حالة فِصام حادّ، تحسّن بعد أيّام من معالجته. وذات ليلة كان فيها مناوباً حضر إلى غرفته كي يدردش معه قليلاً، فالرياضيّ نادراً ما كان ينام حتى مع تناوله المنوّمات، وكان المشفى يسمح له بالإبقاء على النور مشتعلاً الوقتَ الذي يراه مناسباً. كانت مفاجأته الأولى حين فتح الباب. لم يكن في السرير. فكّر لثانية باحتمال الهرب لكنّه وجده بعد برهة متقوقعاً في زاوية في شبه الظلمة. انحنى بجانبه وحين تأكّد من أنّه في وضع تامّ جسدياً سأله ما الذي يجري. عندها قال له الرياضيّ: لا شيء، ونظر في عينيه فرأى الطبيب نظرةَ خوف مُطلق كما لم يرَ مثلها

في حياته أبداً ولا حتى في معالجته اليومية لكلّ أولئك المجانين بكلّ تنوعاتهم.

- وكيف هي نظرة الخوف المُطلق؟ -سأله بوبِسكو.

تجشّأ الطبيب مرّتين، تململ في كرسيّه وأجاب بأنّها نظرة شفقة، لكنّها شفقة فارغة، كما لو أنّه لم يبق من الشفقة بعد رحلة غامضة غير القربة، كما لو أنّ الشفقة كانت قربة مليئةً بالماء، مثلاً في يد خيّال تاري يدخل القفار خابياً ونراه نحن يتضاءل، ثمّ يعودُ الخيّالُ، أو يعودُ ظلُّهُ، أو فكرته، ويأتي معه بالقربة الفارغة، الآن بدون ماء، فهو قد شربه كلّه خلال سفره والقربة الآن فارغة، وهي قربة عادية، قربة فارغة، عمليّاً غيرُ العاديّ هو قربة منتفخة بالماء، لكنّ القربة المنتفخة بالماء، القربة المربعة المنتفخة بالماء لا تُثير الخوفَ، لا توقِظُهُ بل وأكثر من ذلك لا تعزله، بينما القربة الفارغة بالمقابل تفعل ذلك، وهذا هو ما رآه في وجهِ الرياضيّ، الخوف المطلق.

لكنّ الأهمّ، قال الطبيبُ لبوبِسكو، هو أنّ الرياضيّ استعاد نفسه وتبخّر من وجهه تعبير الشرود دون أن يترك أثراً، وبحسب علمه، لم يعد بعدها أبداً. وتلك كانت القصّةُ التي كان على بوبِسكو أن يحكيها، واعتذر، كما فعل قبله إنترِسكو، لأنّه أطال وربّما لأنّه أصابهم بالملل، وهو ما سارع الآخرون إلى نفيه، بالرغم من أنّ أصواتهم كانت خالية من الاقتناع. بدءاً من تلك اللحظة راحت السهرة تفتر وانسحب بعد وقت قصير الجميع إلى حجراتهم.

لكنّ المفاجآت لم تكن بالنسبة إلى الجنديّ رِيتِر قد انتهت بعد؛ فقد شعر عند الفجر بأنّ أحداً يُحرّكه. فتح عينيه. إنّه كروز، أمسكه من عنقه، دون أن يفكّ رموز كلماته، الكلمات التي همس بها كروز في أذنه، أمسكه من عنقه وضغط عليه. يدٌ أخرى ارتاحت على كتفه. إنّه الجنديّ نيتشكه .

- لا تؤذِه، يا أحمق - قال نيتشكه.

أفلت رِيْتِر عنقَ كروز وأصغى إلى الاقتراح. ارتدى بعدها ملابسه بسرعة وتبعهما. خرجوا من القبو الذي كان يلعب دور العنبر وعبروا ممرّاً طويلاً، حيث كان ينتظرهم الجندي ويلكه، كان ويلكه شخصاً صغيراً لا يبلغ طوله أكثر من مئة وثمانية وخمسين سنتيمتراً، ضامرَ الوجه وذكيّ النظرة. حين وصلوا إليه حيّوه جميعاً شادّين على يده، هكذا كان ويلكه، رسميّاً وكان رفاقه يعرفون أنّ عليهم أن يراعوا معه البروتوكول، صعدوا بعدها درجاً وفتحوا باباً. كانت الغرفة التي وصلوا إليها فارغة وباردة، كما لو أنّ دراكولا قد غادرها توّاً. لم يكن يوجد فيها غير مرآة قديمة أنزلها ويلكه عن الجدار الحجريّ فاسحاً المجال لممر سرّي. أخرج نيتشكه مصباحاً يدوياً وأعطاه لويلكه.

ساروا خلال أكثر من عشر دقائق، صاعدين وهابطين أدراجاً حجرية حتى لم يعد لديهم فكرة عمّا إذا كانوا في أعلى القلعة أم أنّهم عادوا إلى القبو في طريق بديل. كان الممرّ يتفرّع كلّ عشرة أمتار وويلكه الذي كان يرأس المسير، ضاعَ عدّة مرّات. همس كروز بينما هم يسيرون بأنّ في الممرات شيئاً غريباً. سألوه ما الشيء الذي بدا له غريباً، فأجابهم كروز لا توجد جرذان. هذا أفضل، قال ويلكه، أكره الجرذان. وافقه رِيْتِر ونيتشكه الرأيَ. أنا أيضاً لا أحبُّ الجرذان، قال كروز، لكن في ممرّات قلعة، خاصّة إذا كانت القلعة قديمة، هناك دائماً جرذان ونحن لم نصادف أياً منها هنا. الآخرون فكّروا بصمت بملاحظة كروز وقالوا بعد برهة إنّ الفكرة لا تخلو من فطنة. حقيقة كان غريباً أنّهم لم يروا جرذاً واحداً. أخيراً توقّفوا وسلطوا ضوء المصباح إلى الخلف وإلى الأمام، إلى سقف وإلى أرض الممر الذي كانت يتلوى مثل ظلّ. ما من جرذ واحدٍ. هذا أفضل. أشعلوا أربع سجائر ووضّح كلّ منهم عن كيف سيمارس الحبّ مع البارونة فون زومبِ. تابعوا بعدها دورانهم بصمت حتى بدؤوا يتصبّبون عرقاً وقال نيتشكه إنّ الهواء قد نفد.

تدرّبوا بعدها على طريق العودة وعلى رأسهم كروز، ولم يتأخروا في الوصول إلى غرفة المرآة، حيث قال لهما نيتشكه وكروز إلى اللقاء. دخلا بعد أن ودّعا صديقيهما مرّةً أخرى في المتاهة، لكن دون أن يتكلّما هذه المرّة، كيلا يعود فيربكهما صوت همسهما. اعتقدَ ويلكه أنّه سمع صوت خطواتٍ، خطواتٍ تنزلق خلفه. سار رِيْتِر برهةً مُغمضَ العينين. عثرا حين بلغ القنوط عندهما أوجه على ما كانا يبحثان عنه: ممرّ جانبيّ، ضيق جدّاً، ينساب بين ما كان ظاهرياً جدراناً حجرية سميكة، يبدو أنّها كلّها جوفاء، حيث كانت توجد فتحات أو كوى صغيرة جدّاً تسمح برؤية تكاد تكون تامّة للغرف المُتَجَسَّس عليها.

هكذا رأيا حجرة ضابط الوحدات الخاصّة، المضاءة بثلاث شموع، ورأيا ضابط الوحدات الخاصّة مستيقظاً متدثراً بدثار، يكتب شيئاً على طاولة بجانب المدخنة. كانت قسمات وجهه تدلّ على الهجران. وبالرغم من أنّ هذا كان كلّ ما يجب أن يُرى، إلا أنّ ويلكه ورِيْتِر ربت كلٌّ منهما على ظهر الآخر، عندها فقط انتبها إلى أنّهما يسيران في الطريق الصحيح. تابعا تقدّمهما.

اكتشفا باللمس فتحة أخرى. كانت غرفاً مضاءة بضوء القمر أو في شبه الظلمة، حيث إذا وضعا أذنيهما على الحجر المثقوب استطاعا أن يسمعا شخيرَ أو تنهّدات نائم. الغرفة التالية التي كانت مضاءة هي غرفة الجنرال فون بِرنبِرغ. شمعة وحيدة، موضوعة في شمعدان على منضدة السرير، راح لهبها يتحرّك كما لو أن نافذة الغرفة الهائلةَ تُركت مفتوحة، خالقة ظلالاً وأشباحاً موهّت في البداية المكانَ الذي يوجد فيه الجنرال، وهو يُصليّ عند قدم السرير الكبير الذي تعلوه ناموسية، راكعاً على ركبتيه. كان وجه فون بِرنبِرغ منقبضاً، لاحظ رِيْتِر، كما لو أنّه يحمل على ظهره ثقلاً هائلاً، ليس ثقل حياة الجنود، ولا بشكل من الأشكال، ولا حتى حياته ذاتها، بل ثقل ضميره، الشيء الذي لاحظه رِيْتِر وويلكه قبل أن ينسحبا من تلك الفتحة وترك الاثنين مندهشين أو مذعورين.

أخيراً وصلا، بعد أن عبرا نقاط مراقبة أخرى غارقين في الظلمة والنعاس، إلى حيث كانا يريدان أن يصلا حقيقةً، إلى الغرفة المُضاءة بتسع شموع، غرفة البارونة فون زومبِ، الغرفة التي تتصدّرها صورة راهبٍ جنديّ أو محاربٍ في وضعية تركيز وعذابٍ زاهد، تلاحظ على وجهه المعلق على بعد مترٍ من السقف كلّ منغصات الإمساك والتوبة والتخلي عن الملذات.

اكتشفا البارونة فون زومبِ، مغطاةً برجل عارٍ، غزير الزغب في القسم العلوي من ظهره ورجليه، كان شعرها الأشقر المجعد وقسم من جبينها ناصع البياض يظهر أحياناً تحت الكتف الأيسر لمن كان ينطحها. أخافت صيحات البارونة في البداية رِيْتِر، الذي لم يلبث أن أدرك أنّها صيحاتُ متعةٍ وليست صيحات خوف. عن السرير حين انتهى الجماع رأيا الجنرال إنترِسكو ينهض ويسير إلى طاولة ترتاح عليها زجاجة فودكا. كان قضيبه، الذي تتدلّى منه كمية معتبرة من إفرازات المني، ما يزال منتصباً أو شبه منتصب ولا بدّ أن طوله يبلغ الثلاثين سنتيمتراً، فكّر ويلكه بعدها، دون أن يُخطئ بالتقدير الذي أجراه بعينيه.

كان يبدو، حكى ويلكه لرفاقه، حصاناً أكثر مما هو رجل. وكان أيضاً مثل جوادٍ لا يكلّ، عاد، بعد أن شرب كأس فودكا، إلى الفراش حيث كانت تغفو البارونة فون زومبِ، ثمّ وبعد أن بدّل لها وضعيتها بدأ يجامعها من جديد، في البداية بحركات غير محسوسة، ثمَّ بحركات كانت من العنف بحيث أنّ البارونة وظهرها إليه عضّت على راحتها حتى أدمتها كيلا تصرخ. عند هذا المستوى فكّ ويلكه أزرار سرواله الداخليّ وراح يستمني مستنداً إلى الجدار. سمعه رِيْتِر يتأوّه إلى جانبه، ظنّه في البداية جرذاً يُحتَضَر مصادفةً بجانبهما، صغيرَ جرذ. لكنّه حين رأى قضيبَ ويلكه ويدَ ويلكه تتحرّك إلى الأمام وإلى الخلف شعر بالقرف، وضربه بمرفقه على صدره. لم يولِه ويلكه أيَّ انتباهٍ واستمرَّ بحلبِ قضيبه. نظر رِيْتِر إلى وجهه: بدت له هيئة ويلكه الجانبية غريبة

جدّاً. كان يُشبه لوحةَ حفر تمثّل عاملاً أو مهنيّاً يدوياً، مياوماً بريئاً يُعميه فجأة شعاعُ قمر. بدا أنّه كان يحلم، أو بالأحرى، يُحطّم للحظة الجداران الهائلةَ السوداء، التي تفصل بين اليقظة والحلم. وهكذا تركه بسلام وبدأ هو نفسه بعد برهة يلمس نفسه، في البداية بحشمة من فوق، ثمّ بشكل مفتوح، مخرجاً قضيبه وموقّعاً حركته على إيقاع الجنرال إنترِسكو والبارونة فون زومبِ، التي ما عادت تعضُّ على يدها (بقعة دم انتشرت على الملحفة، بجانب خدّيها المتصبّبين عرقاً، بل تبكي وتقول كلماتِ الجنرال إنترِسكو نفسه لم يكن يفهمها، كلمات تمضي إلى ما هو أبعد من رومانيا، بل وإلى ما هو أبعد من ألمانيا وأوروبا، أبعد من الاستحواذ في البرّية، أبعد من بعض الصداقات الغائمة، أبعد مما كان يستوعبه ويلكه ورِيتِر، ربّما الجنرال إنترِسكو لم يكن بدوره يستوعب، أبعد من الحب، من الرغبة ومن الجنس.

قذفَ بعدها ويلكه على الجدار وهمسَ، هو أيضاً همسَ، بصلاته كجندي، بعده بقليل قذف رِيتِر على الجدار وعضّ على شفتيه دون أن ينطق بكلمة. نهض بعدها إنترِسكو فرأيا، أو اعتقدا أنّهما رأيا، قطرات من دمٍ على قضيبه اللامع من المني وسائل الفرج، طلبت بعدها البارونة فون زومبِ كأس فودكا، ثمّ رأيا إنترِسكو وفون زومبِ متعانقين، واقفين يمسك كلّ منهما بكأسه منتشياً. ألقى بعدها إنترِسكو قصيدةً بلغته، لم تفهما البارونة، لكنّها امتدحت موسيقيّتها، أغمض إنترِسكو بعدها عينيه وتظاهر أنّه يسمعُ شيئاً، موسيقى النجوم، ثمّ فتح عينيه وجلس بجانب الطاولة ووضع البارونة على قضيبه المنتصب مرّةً أخرى (القضيب الشهير ذي الثلاثين سنتيمتراً، فخرِ الجيش الروماني)، وبدأت الصرخات والآهات والبكاء وبينما كانت البارونة تنزل فوق القضيب أو بينما قضيب إنترِسكو يصعد داخل البارونة فون زومبِ، شرع الجنرال الروماني بإلقاء قصيدة أخرى، إلقاءً يُرافق حركة الذراعين (البارونة متشبثة برقبته)، قصيدة لم يفهما منها غير كلمة دراكولا، التي كانت

تتكرّر كلّ أربعة أبيات، قصيدة يمكن أن تكون عسكرية، أو ساخرة أو يمكن أن تكون ميتافيزيقية، أو يمكن أن تكون رخامية أو يمكن حتى أن تكون معادية للألمان، لكنّ إيقاعها كان يتناسب أكثر مما لو أنّها كتبت للمناسبة، قصيدة كانت البارونة الجالسة أو المفرشخة فوق رجلي إنترِسكو، تحتفل بها مهتزّةً إلى الخلف وإلى الأمام، مثل راعية مجنونة في سهوب آسيا، غارزة أظافرها في رقبة عشيقها، فاركةً الدم الذي ما يزال ينفر من يدها اليمنى على وجه عشيقها، طاليةً بالدم شدقيه، دون أن يمنع هذا إنترِسكو من الاستمرار بإلقاء تلك القصيدة، التي تُسْمَع فيها كلّ أربعة أبيات كلمةُ دراكولا، القصيدة التي من المحتمل أنّها كانت ساخرة، صمّم رِيْتِر (بسعادة مُطلقة) بينما عاد الجنديّ ويلكه ليستمني.

حين انتهى كلّ شيء، وإن كان أبعد ما يكون عن أن ينتهي بالنسبة لإنترِسكو الذي لا يكلُّ وعن البارونة التي لا تكلُّ، عادا أدراجهما في الممرات السريّة بصمت، وضعا بصمت المرآة المتحرّكة في مكانها، هبطا بصمت إلى العنبر المرتجل في القبو، وبصمتٍ ناما، كلّ بجانب سلاحه وحقيبته.

في صباح اليوم التالي غادرت الفصيلةُ القلعة بعد أن فعلت ذلك سيارتا المدعوّين. وحده ضابط الوحدات الخاصّة بقي معهم، بينما راحوا يكنسون ويغسلون ويرتبون كلّ شيء. أمرهم الضابط بعد أن حاز العمل على رضاه الكامل بأن يُغادروا، فصعدت الفصيلة إلى الشاحنة وبدؤوا الهبوط نحو السهل. في القلعة بقيت السيارة وحدها من دون سائقِ ضابطِ الوحدات الخاصّة، الأمر الذي لم يكن إلا ليثير الاستغراب. رآه رِيْتِر بينما هم يبتعدون: كان قد صعد إلى البرج وراح يتأمّل رحيل الفصيلة ماطّاً عنقه في كلّ مرّة أكثر، واقفاً على رؤوس أصابع قدميه، إلى أن اختفت القلعة في جهة واختفيت الشاحنة في جهة أخرى.

طلب رِيْتِر خلال خدمته في رومانيا وحاز على إجازتين، استخدمهما كي يزور والديه. هناك في ضيعته، كان يقضي يومه مستلقياً على الصخور ينظر إلى البحر، لكن دون رغبة بالسباحة وأقل من ذلك بكثير دون رغبة بالغطس، أو كان يقوم بمشاوير طويلة في الريف الذي كان ينتهي دائماً في بيت البارون فون زومبِ الريفي، الفارغ والمنكمش، يحرسه الآن حارس الغابة القديم، الذي كان يقف ليتحدّث معه أحياناً، مع أنَّ الأحاديث، هذا إذا كان ممكناً أن تُسمّى كذلك، كانت أقرب إلى المحبطة. كان حارس الغابة يسأله كيف كانت تسيرُ الحربُ ورِيْتِر يسأله بدوره عن البارونة (في الحقيقة كان يسأل عن البارونة الصغيرة، التي يعرفها سكان المنطقة) فيهزّ حارس الغابة كتفيه. وهزُّ الكتفين يمكن أن يعني أنّ المرء لا يعرف شيئاً، أنّ الواقع في كلّ مرّة أكثر إبهاماً، أشبه بالحلم، أو أنّ كلّ شيء يسير بشكل سيّئ ومن الأفضل ألا يَسأل عن شيء وأن يتسلّح بالصبر.

أيضاً كان يُمضي فترات طويلة مع أخته لوتّ، التي صار عمرها وقتذاك أكثر من عشر سنوات وكانت تعبدُ أخاها. كانت هذه العبادة تُضحك رِيْتِر وتحزنه في آنٍ معاً حتى إغراقه في أفكار مشؤومة لا شيء له فيها معنى، لكنّه كان يحذر أن يتخذ قراراً فهو كان واثقاً من أنّ رصاصة سوف تنتهي بقتله. لا أحد ينتحر في الحرب، كان يُفكّر بينما هو في السرير يسمع أمّه وأباه يشخران. لماذا؟ للراحة، لإطالة اللحظة، لأنَّ الكائن البشريَّ يميل إلى أن يترك المسؤوليّة في يد آخر. الحقيقة هي أنّ الناس ينتحرون أكثر في الحرب، لكنّ رِيْتِر كان وقتذاك أصغرَ (وإن لم يكن ممكناً أن يُقال إنّه قليل المعرفة) من أن يعرف ذلك. كما زار في كلتا الإجازتين برلين (في طريقه إلى ضيعته) وحاول عبثاً أن يعثر على هوغو هالدِر.

لم يعثر عليه. كانت تعيشُ في شقّته السابقة أسرة موظّفين مع أربعة أولاد مراهقين. عندما سألهم عمّا إذا ترك المستأجرُ السابق عنوانه

الجديد، أجابه الأبُ، عضو الحزب، بجفاف بأنّه لا يعرف، لكن قبل أن يغادر رِيْتِر أدركته إحدى البنات، الكبرى، والأجمل وقالت له إنّها تعرفُ أين يعيش هالدِر في هذه اللحظة. وهنا تابعت هبوطَ الدرج وتبعها رِيْتِر. جرّته الفتاة إلى حديقة عامّة. هناك وفي زاوية بعيدة عن النظرات الفضولية، استدارت، كما لو أنّها تراه لأوّل مرّة وقفزت فوقه وطبعت قبلة على فمه. أبعدها رِيْتِر وسألها ما مناسبة أنّها قبّلته. قالت له الفتاة إنّها تشعر بالسعادة لرؤيته. راقب رِيْتِر عينيها، الزرقاوين المشوّشتين، مثل عيني عمياء، وانتبه إلى أنّه كان يتكلّم مع مجنونة.

وبالرغم من ذلك أراد أن يعرف ما المعلومات التي تملكها الفتاة عن هالدِر. قالت له هذه إنّها لن تقول له ما لم يتركها تُقبّله: عادا ليقبلا بعضهما بعضاً: كان لسان الفتاة جافّاً جدّاً فداعبه رِيْتِر بلسانه حتى بلَّله تماماً. والآن أين يعيش هوغو هالدِر؟، سألها. ابتسمت الفتاةُ كما لو أنّ رِيْتِر طفلاً صغيراً، بطيءَ الفهم. ألا تحذر؟، قالت. حرّكَ رِيْتِر رأسه بالنفي. راحت الفتاة التي يجب ألا يتجاوز عمرها السابعة عشرة، تضحك بقوّة إلى حدّ أن رِيْتِر فكَّرَ أنّها إذا ما استمرّت بالضحك بتلك الطريقة فلن تتأخّر الشرطةُ في الظهور، ولم تخطر له طريقة لإسكاتها غير أن يُقبّلها مرّة ثانية على فمها.

- اسمي إنجيبورغ - قالت الفتاةُ حين رفع رِيْتِر شفتيه عن شفتيها.

- أنا اسمي هانز رِيْتِر - قال هو.

نظرت عند ذلك إلى الأرض الرملية والحصوية وشحبت بشكل ظاهر، كما لو أنّها في طريقها إلى الإغماء.

- اسمي - كرَّرت - إنجيبورغ باور، آملُ ألاّ تنساني.

راحا بدءاً من تلك اللحظة يتكلّمان همساً هو في كلّ مرّة أخفت.

لن أفعل - قال رِيْتِر.

- أقسِمْ لي - قالت الفتاة.

- أُقسِمُ لك - قال رِيْتِر.

- بمن ستُقسِم لي، بأمّك، بأبيك، بالله؟ -سألت الفتاة.
- أقسِم لك بالله -قال رِيْتِر.
- أنا لا أومن بالله -قالت الفتاة.
- إذا أقسِمُ لكِ بأمّي وأبي -قال رِيْتِر.
- هذه الأنواع من القسم لا تنفع -قالت الفتاةُ-، الآباء لا ينفعون، فالمرء دائماً يُحاول أن ينسى أنّ له أبوين.
- أنا لا -قال رِيْتِر.
- وأنتَ أيضاً -قالت الفتاةُ-، وأنا وكلُّ الناس.
- هل تُقسم لي بفرقتِك؟ -قالت الفتاة.
- أقسم لكِ بفِرقتي وبفصيلتي وبكتيبتي -قال رِيْتِر، ثمّ أضاف إنّه يُقسم لها أيضاً بسريته وبجيشه.
- الحقيقة، لا تقُلْ هذا لأحد -قالت الفتاة- أنا لا أؤمن بالجيش.
- بماذا تؤمنين؟ -سألها رِيْتِر.
- بأشياء قليلة -قالت الفتاةُ بعد أن فكّرت بجوابها لثانيةٍ-. بل إنّني أيضاً أنسى الأشياء التي أؤمن بها. إنّها قليلة جدّاً، قليلة جدّاً، والأشياء التي لا أؤمن بها كثيرة جدّاً، جدّاً جدّاً، كثيرة إلى حدّ أنّها تتمكن من أن تُخفي الأشياءَ التي أؤمن بها فعلاً. في هذه اللحظة مثلاً لا أتذكّرُ أيّاً منها.
- هل تؤمنين بالحب؟ -سألها رِيْتِر.
- لا، بصراحة لا -قالت الفتاةُ
- وبالنزاهة؟ -قال رِيْتِر.
- أوف، أقل من الحبّ -قالت الفتاةُ.
- هل تؤمنين بغروب الشمس؟ -قال رِيْتِر-، بالليالي المرصّعة بالنجوم، بالفجر المشرق؟
- لا، لَا، لا -قالت الفتاةُ بتعابير قرفٍ واضح-، لا أؤمن بأي شيء سخيف.

- معكِ حق - قال رِيْتِر - وبالكتب؟

- أقل -قالت الفتاةُ-، ثمّ إنّه في بيتي لا يوجد غير كتب نازية، سياسة نازيّة، تاريخ نازي، اقتصاد نازي، أساطير نازية، شعر نازي، روايات نازية، أعمال مسرحية نازيّة.

- لم أكن أعرف أنّ النازيين كتبوا كلّ هذا - قال رِيْتِر.

- يبدو أنّك، بحسب ما أرى، ليس عندك فكرة إلا عن شيء تقريباً، يا هانز - قالت الفتاة، باستثناء تَقبيلي.

- صحيح - قال رِيْتِر، الذي كان مستعدّاً دائماً لأن يعترف بجهله.

عند ذلك راحا يتنزهان في الحديقة آخذين بيدي بعضهما بعضاً وكانت إنجيبورغ تتوقّف وتُقبّل رِيْتِر على فمه، وكان أيّ شخص يراهما سيفكّر أنّهما كانا فقط جنديّاً شاباً وخطيبته وليس معهما نقود كي يذهبا إلى مكان آخر وأنّهما عاشقان جدّاً، وعندهما أشياء كثيرة يحكيانها لبعضهما. ومع ذلك فإنّ هذا المراقب الافتراضي إذا ما اقترب منهما ونظر إلى عيونهما سينتبه إلى أنّ الشابّة كانت مجنونة وأنّ الجنديَّ كان يعرف ذلك ومع ذلك لا يهمّه. في الحقيقة عند هذا المستوى من اللقاء، لم يكن يهمّه أنّ الشابّة كانت مجنونة وأنّه لن يعرف عنوان صديقه هوغو هالدِر، بل فقط كان يهمّه أن يعرف ما هي الأشياء القليلة التي بدا أنّها جديرة بقسم. هكذا كان أن سأل وسأل وذكر متلعثماً أسماء أخوات الفتاة ومدينة برلين والسلام في العالم وأطفال العالم وطيور العالم والأوبرا وأنهار أوروبا وصور، أي، العشاق القدامى، وحياتهما ذاتها (حياة إنجيبورغ) والصداقة والمزاج وكلّ الذي خطر له، متلقيا جواباً سلبياً تلو جواب سلبي، إلى أن تذكّرت الفتاة أخيراً بعد أن جابا كلَّ المنعطفات، شيئين كانت تعتبرهما صالحين لأن يُقسَم بهما.

- هل تريد أن تعرف ما هي؟

- طبعاً أريد أن أعرف! - قال رِيْتِر.

- آمل ألا تضحك حين أقولها لك.

- لن أضحك -قال رِيْتِر.

- قائلةً ما أقول، لن تضحك؟

- لن أضحك -قال رِيْتِر

- الأوّل هو العواصف -قالت الفتاة.

- العواصف؟ -قال رِيْتِر مستغرباً جدّاً.

- فقط العواصف الكبيرة، حين تصير السماء سوداء والهواء رمادياً. رعود، وبروق وصواعق وفلاحون موتى حين يعبرون منحدراً - قالت الفتاة.

- فهمت -قال رِيْتِر، الذي صراحةً لم يكن يحبّ العواصف- وما هو الشيء الثاني؟

- الأزتيكيون -قالت الفتاة.

- الأزتيكيون؟ -قال رِيْتِر وقد صار أكثر ذهولاً مما كان مع العواصف.

- بلى، بَلى، الأزتيكيون -قالت الفتاة-، الذين كانوا يعيشون في المكسيك قبل وصول كورتِس، أزتيكيو الأهرامات.

- هكذا إذن، الأزتيكيون، أولئك الأزتيكيون -قال رِيْتِر.

- إنّهم الأزتيكيون الوحيدون -قالت الفتاةُ-، أولئك الذين كانوا يعيشون في تِنوتشيتْلان وتلاتِلْكو ويقدمون أضاحي بشرية ويعيشون في مدينتين بُحَيْرِيَّتَيْن.

- هكذا إذن يعيشون في مدينتين بُحَيْرِيَّتَيْن.

- بلى -قالت الفتاة.

سارا برهة صامتين. قالت الفتاةُ بعدها: أتصوّر هاتين المدينتين كما لو أنّهما جنيف ومونترو. بحيرة ليمان رائعة. قضينا مرّةً أنا وأسرتي إجازة في سويسرا. أخذنا سفينة من جنيف إلى مونترو. بحيرة ليمان رائعة في الصيف، وإن كان هناك بعوض أكثر من اللازم. قضينا الليلة

في نزل في مونترو وعدنا في اليوم التالي إلى جنيف في سفينة أخرى. هل زرتَ مرّةً بحيرة ليمان.

- لا - قال رِيْتِر.

- جميلة جدّاً ولا توجد فقط هاتان المدينتان، هناك بلدات على ضفاف البحيرة، مثل لوزان، الأكبر من مونترو، أو فيفي أو إيفيان. في الحقيقة هناك أكثر من عشرين بلدة، بعضها صغير جدّاً. هل كوّنت فكرة؟

- بشكل مشوّش - قال رِيْتِر.

- انظر، هذه هي البحيرة - ترسم الفتاةُ البحيرةَ برأس حذائها -، هناك جنيف، هنا في الطرف الآخر مونترو والبقية بلدات أخرى. هل كونت فكرة الآن؟

- بلى - قال رِيْتِر.

- هكذا أتصوّر أنا - قالت الفتاة بينما هي تمحو الخريطةَ بحذائها - بُحيرة الأزتيكيين. مع فارق أنّها أجمل. بلا بعوض، وبدرجة حرارة لطيفة طوال العام وفيها أهرامات كثيرة، كثيرة وكبيرة إلى حدّ أنّه يستحيل عدُّها، أهرامات فوق أهرامات تخفي أهراماتٍ أخرى، جميعها مصبوغة بالأحمر، بدم الناس المُضحّى بهم كلّ يوم. أتصوّر بعدها الأزتيكيين، لكن ربّما كان هذا لا يهمُّك - قالت الفتاةُ.

- بلى، يهمّني - قال رِيْتِر، الذي لم يسبق قط أن فكَّر بالأزتيكيين.

- ناس غريبو الأطوار - قالت الفتاةُ - إذا ما نظرت إلى عيونهم بانتباه تنتبه بعد وقت قصير إلى أنّهم مجانين. لكن غير محجور عليهم في مشفى أمراض عقلية، أو ربّما كان محجوراً عليهم. لكن ليس ظاهريّاً يلبس الأزتيكيون بمنتهى الأناقة، فهم دقيقون جدّاً عند اختيار الملابس التي يرتدونها يوميّاً، حتى ليقول المرء إنّهم يقضون ساعات في اللباس، يختارون الثياب الأكثر مناسبة لهم، يعتمرون بعدها قبعات مُرَيّشة عالية القيمة وجواهر في أذرعهم وفي أرجلهم، إضافة إلى

الأطواق والخواتم، والرجال كما النساء يطلون وجوههم ثمّ يخرجون ليتنزّهوا على ضفاف البحيرة، دون أن يتكلّموا فيما بينهم، يتأملون مستغرقين الزوارقَ التي تبحر، ركابها إذا لم يكونوا أزتيكيين فإنّهم يُفضلون أن يخفضوا نظرهم ويتابعوا صيدهم أو يبتعدوا بسرعة من هناك، فنزوات بعض الأزتيكيين وحشية ثمّ وبعد التنزّه كفلاسفة يدخلون الأهرامات، الجوفاء جميعها وتشبه دواخلها دواخل الكاتدرائيات، ونورها الوحيد هو نور سمتي، نور متسرّب عبر حجر سبجٍ كبير، أي نور داكن وبرّاق. بالمناسبة هل رأيت ذات مرّة حجر سبجٍ -قالت الفتاةُ.

- لا، أبداً -قال رِيْتر-، أو ربّما رأيتُ.

- كنت ستنتبه على الفور -قالت الفتاةُ-. فالسبجُ فلدسبات أسود أو أخضر داكن، شيء عجيب بحدّ ذاته، لأنّ الفلدسباتات عادة ما تكون بيضاء أو صفراء، أفضل الفلدسباتات هي الأورتواز، البيضاء، المشغولة، كي تعرف. لكن فلدسباتيَ المُفضّل هو السبج. حسن، لنتابع مع الأهرامات. في أعلى نقطة فيها يوجد المذبح. هل تخمّن من أيّ مادة هو مصنوع؟

- من السبج -قال رِيْتر.

- بالضبط -قالت الفتاة-، حجر يشبه الطاولة، حيث كان يُمَدِّدُ الكهنة أو الأطباء الأزتيكيون ضحاياهم قبل أن ينتزعوا قلوبهم. لكن الآن سيأتي ما سيُفاجئك حقيقةً، تلك الأسرّة الحجرية كانت شفافة! فهي مصقولة أو مختارة بحيث أنّها كانت حجارة أضاحي شفّافة. والأزتيكيّون الموجودون داخل الأهرام يتأمّلون الضحية كما لو قلنا من داخلها، لأنّ النور السمتي، كما لا بدّ أنّك تكهّنت، الذي ينير دواخل الأهرامات يأتي من فتحة موجودة تماماً تحت حجر الأضاحي. بطريقة يكون فيها النور في البداية أسود أو رمادياً، نوراً مُخفّفاً لا يسمح إلا برؤية أطياف الأزتيكيين، الموجودين وقورين في داخل الأهرامات،

لكنّه النور يصير بعد أن ينتشر الدم فوق المنور السبجي الشفاف، أحمرَ وأسود، أحمر حيّاً جدّاً وأسود حيّاً بحيث أنّ أطياف الأزتيكيين لا تتميّز وحدها بل ومعها تقاسيم وجوههم، تقاسيمهم التي غيّرها النور الأحمر والنور الأسودُ، كما لو أن النور يُمارس قوّته كي يُشخصن كلّ واحدٍ منهم، وهذا باختصار هو كلّ شيء، لكن هذا يمكنُ أن يدوم زمناً طويلاً، هذا يفلت من الزمن أو يستقرّ في زمن آخر محكوم بقوانين أخرى. حين يُغادر الأزتيكيون داخل الأهرامات، لا يؤذيهم نور الشمس، يتصرّفون كما لو أنّ الشمس كُسفت. ويعودون إلى أعمالهم اليوميّة، ليستحمّوا ويعودوا بعدها ليتنزّهوا ويمكثوا زمناً طويلاً يتأمّلون الأشياء الغامضة أو يدرسون الرسوم التي تصنعها الحشراتُ في الأرض ويأكلون مع أصدقائهم، لكن كلّ ذلك بصمتٍ، بصمت من يكاد يأكل لوحده، ويقومون من حين إلى آخر بالحرب. وفي السماء هناك دائماً كسوف يرافقهم -قالت الفتاة.

- يا إلهي، يا إلهي، يا إلهي -قال رِيتر مندهشاً من معارف صديقته الجديدة.

تنزّها برهة صامتين دون قصد، في تلك الحديقة، كما لو أنّهما أزتيكيان، إلى أن سألته الفتاةُ بماذا ستُقسِم، بالأزتيكين أم بالعواصف.

- لا أعرف -قال رِيتر، الذي كان قد نسي لماذا كان عليه أن يُقسِم.

- اخترْ -قالت له الفتاةُ- وفكّرْ بالأمر جيّداً لأنّه أهمّ بكثير مما تظنّ.

- ما المهمّ؟ -سألها رِيتر.

- قسمُك -قالت الفتاة.

- ولماذا هو مهمّ؟ -سألها رِيتر.

- بالنسبة إليك لا أدري -قالت الفتاةُ-، لكنّه بالنسبة إليّ مهمّ، لأنّه سيُحدّد مصيري.

تذكّر رِيْتِر في تلك اللحظة أنّ عليه أن يُقسم بألا ينساها أبداً فشعر بحزن كبير. شعر للحظة بصعوبة بالتنفّس، ثمّ شعر بأنّ الكلمات كانت تسدُّ حنجرته. وبما أنّه لا يُحبّ العواصف، قرّر أن يُقسم بالأزتيكيين.

- أقسم لك بالأزتيكيين -قال-، لن أنساك أبداً.

- شكراً -قالت الفتاة وتابعا تنزّههما.

بعد برهة سألها وإن كان بلا اهتمام عن عنوان هالدِر.

- يعيش في باريس -قالت الفتاة متنهّدة-، لا أعرف العنوان.

- هاهه -قال رِيْتِر.

- عادي أن يعيش في باريس -قالت الفتاة.

فكّر رِيْتِر أنّها ربّما كانت على حق وأنّ أكثر ما هو عادي في العالم هو أن يكون هالدِر قد انتقل إلى باريس. رافق الفتاةَ، حين بدأ يحلّ الليل حتى باب بيتها وذهب بعدها راكضاً إلى المحطّة.

بدأ الهجوم على الاتحاد السوفييتي يوم ٢٢ حزيران ١٩٤١. كانت الفرقة ضمن الجيش الألماني الحادي عشر وبعد أيّام قليلة عبرت طلائع الفرقة نهرَ بروت ودخلت في المعركة، كتفاً إلى كتف مع كتائب الجيوش الرومانية، الذين أظهروا حماساً أكثر مما كان يتوقّعه الألمان. ومع ذلك لم يكن التقدّم بالسرعة التي عاشتها وحداتُ مجموعة جيش الجنوب، المكوّن من الجيش السادس، الجيش السابع عشر المجموعة الثانية المسماة وقتذاك بالمجموعة المدرّعة الأولى والتي ستبدّل مع تطوّر الحرب تسميتها، مع المجموعة المدرّعة الثانية والمجموعة المدرّعة الثالثة والمجموعة المدرّعة الرابعة، لتصبح المجموعة الأكثر تخويفاً في جيش المدرّع. الوسائل الماديّة والبشرية للجيش الحادي عشر كانت، كما يمكن أن يُسْتَنْتَج، أدنى بما لا يُقاس، هذا دون أن نحسب طبوغرافيا المنطقة وندرة الطرقات. كما أنّ الهجوم لم يعتمد على عامل المباغتة الذي كان لصالح جيش الجنوب، والوسط

والشمال. لكنّ رجال فرقة رِيْتِر قدّموا ما انتظرته منهم قياداتهم وعبروا نهر بروت وقاتلوا وتابعوا قتالهم ثمّ تابعو قتالهم في سهول وتلال بيسارابيا، ثمّ عبروا نهر دينستر ووصلوا إلى ضواحي أوديسا ثمّ تقدّموا، بينما كان الرومانيون يتوقّفون، وقاتلوا القوات الروسية المتراجعة ثمّ عبروا نهرَ بوج وتابعوا تقدمهم مخلفين وراءهم سلسلة من الضياع الأوكرانية، المحروقة وصوامع الحبوب المحروقة والغابات التي سرعان ما راحت تشبّ فيها النيران، كما لو بفعل مادةّ اشتعال غامضة، غابات كانت تبدو جزراً داكنة وسط حقول قمح لا نهاية لها.

من الذي يُضرم النار في هذه الغابات، كان يسأل رِيْتِر ويلكه أحياناً فيهزّ ويلكه كتفيه والشيء ذاته كان يفعل نيتشكه وكروز والرقيب ليمكه المنهكين من كثرة المشي، فالفرقة ٧٩ كانت فرقة عربات تجرّها الخيول، أي أنّها كانت فرقة تتحرّك مقطورة بالحيوانات، والحيوانات الوحيدة التي كانت موجودة هناك هي البغال والجنود وكانت البغال تفيد في جرّ المواد الثقيلة والجنود يفيدون في المشي والقتال، كما لو أنّ الحرب الخاطفة لم تُطلّ قط بعينها البيضاء على مخطط عمليات الفرقة، كما زمن نابليون، كان يقول ويلكه، الزحفَ والزحف المضاد، والزحف القسري وبالأحرى الزحف القسري دائماً،كان يقول ويلكه، ثم كان يقول دون أن ينهض عن الأرض، مثل بقية رفاقه، لا أعرف أيّ شياطين تحرق الغابات، بالتأكيد لسنا نحن، أليس صحيحاً أيّها الشباب؟ ونيتشكه يقول لا، لسنا نحن. وكروز وبارْز يقولان الشيءَ ذاته وحتى الرقيب ليمكه كان يقول لسنا نحن، نحن أحرقنا تلك الضيعة هناك، أو قصفنا هذه الضيعة التي على يسارنا أو يميننا، لكنّ ليس الغابة وكان رجاله يهزّون رؤوسهم موافقين ولا أحد منهم يقول كلمة، فقط بقوا ينظرون إلى نار الغابة، وكيف راحت الجزيرة الداكنة تتحوّل إلى جزيرة حمراء ضاربة إلى البرتقالية، ربّما كانت كتيبة النقيب لادِنتين، يقول واحد منهم، هم كانوا قادمين من هناك، يجب أن

يكونوا قد لاقوا مقاومة في الغابة، وربّما كانت سريّة هندسة الجسور، يقول آخر، لكنّنا في الحقيقة لم نَرَ أحداً، لا جنوداً ألماناً في المحيط ولا جنوداً سوفيتيين يُقاومون في هذا القطّاع، فقط رأيتُ الغابة السوداء وسط بحر أصفر وتحت سماء سماوية لامعة، وفجأة ودون سابق إنذار، رأوا كما لو أنّهم في مسرحٍ من قمح عظيم وكانت الغابة خشبةَ وصدرَ هذا المسرح الدائري وراحت النار تلتهم كلَّ شيء وكانت جميلة.

بعد أن عبرت الفرقةُ نهر بوج عبرت نهرَ دنيبر وتوغّلت في شبه جزيرة القرم. قاتل رِيْتِر في بيريكوب وفي ضياع مختلفة قريبة من بيريكوب، التي لم يعرف اسمها قط، لكنّه سار في شوارعها الترابية مبعداً جثثاً وآمراً الشيوخ والنساء والأطفال أن يدخلوا إلى منازلهم فلا يخرجوا منها. كان يشعر أحياناً بأنّه دائخ، ويشعر أحياناً حين ينهضُ بعنفٍ ببصرهٍ زائغاً، يصير أسود، مليئاً بالنقاط المحبحبة الشبيهة بمطر النيازك. لكنّ النيازك تتحرّك بطريقة غريبة جدّاً. أو لا تتحرّك. كانت نيازك ساكنة. كان ينطلق أحياناً مع رفاقه لاحتلال موقع معادٍ، دون أن يتخذوا أيّ حذر، وهو ما جلب له شهرة الطيش والشجاعة، بالرغم من أنّه لم يكن يبحث إلا عن رصاصة تُدخل السلامَ إلى قلبه. تكلّم ذات ليلة مع ويلكه عن الانتحار دون قصدٍ.

- نحن المسيحيين نستمني لكنّنا لا ننتحر -قال له ويلكه وبقي رِيْتِر قبل أن ينام يُفكّر بكلماته، فهو كان يظنّ بأنه ربّما كانت تختبئ وراء كَلمات ويلكه حقيقةٌ.

ومع ذلك لم يُغير بسبب ذلك رأيه. ففي المعركة من أجل احتلال تشورنومورسك، حيث لعب الفوج ٣١٠ وبخاصّة كتيبة رِيْتِر، دوراً بارزاً فيها، فهذا عرّض حياتَهُ للخطر في ثلاث مناسباتٍ على الأقل، الأولى حين هاجموا معقلاً مشاداً من اللبن في ضواحي كيروفسك، في مفترق الطرق بين تشيرنشوف، كيروفسك وتشورنومورسك، معقلاً ما كان

ليقاوم ولا حتى صليةَ مدفعية واحدة، معقلاً أحزن رِيْتِر ما إن رآه، لأنّه كان يوحي بالفقر والسذاجة، كما لو أنّ أطفالاً بنوه وأطفالاً آخرين ويدافعون عنه. كانت السريّةُ تفتقر لذخيرة الهاون وقرّروا أن يحتلوه بالهجوم. طلبوا مُتطوّعين. كان رِيْتِر أوّل من تقدّم. وعلى الفور تقريباً انضمَّ إليه الجندي فوس، الذي كان بدوره شجاعاً أو انتحارياً كامناً وثلاثة جنود آخرون. كان الهجوم سريعاً: تقدّم رِيْتِر وفوس في الجناح الأيسر من المعقل، والثلاثة الآخرون من الجناح الأيمن. حين أصبحوا على بعد عشرين متراً خرجت رشقة نيران من داخل المعقل. انبطح الثلاثة الذين كانوا في الجناح الأيمن. تردّد فوس. تابع رِيْتِر راكضاً. سمع أزيز رصاصة مرّت على بعد سنتيمترات قليلة من رأسه، لكنّه لم ينحني. على العكس، بدا أنّ جسده يشبُّ في محاولة عبثية كي يرى وجوهَ المراهقين الذين كانوا سيُنهون حياته، لكنّه لم يستطِع أن يرى شيئاً. رصاصة أخرى لامست ذراعه الأيمن. شعر بأنّ أحداً كان يدفعه من ظهره ويرميه، كان ما يزال يحتفظ بشيء من الدراية.

رأى بعدها كيف راح رفيقه يزحف بعد أن رماه على الأرض باتجاه المعقل. رأى أحجاراً وأعشاباً وأزهاراً برّية ونعلَي حذاء فوس المُسَمَّرين، الذي خلّفه وراءه محدثاً سحابة غبار صغيرة، صغيرة بالنسبة إليه، قال لنفسه، لكن ليس بالنسبة إلى قوافل النمل التي كانت تعبر الأرض من الشمال إلى الجنوب بينما فوس يزحف من الشرق إلى الغرب. نهض بعدها وراح يُطلق النار على المعقل من فوق جسم فوس وعاد ليسمع الرصاصات تصفر قريبة من جسده، بينما راحَ هو يُطلق النار ويسير، كما لو أنّه يتنزّه أو يلتقط صوراً، إلى أن انفجر المعقل، الذي أصابته قنبلة ثمّ أخرى وأخرى رماها جنود الجناح الأيمن.

المرّة الثانية التي أوشك أن يموت فيها كانت عند استولوا على تشورنومورسك. بدأ الفوجان الرئيسيان من الفرقة ٧٩ الهجومَ بعد أن تركّزت كلّ مدفعية الفرقة ٧٩ في قطاع الموانئ، وهي منطقة ينطلق منها

الطريق الذي يربط تشورنومورسك بإفباتوريا، فرونز، إنكيرمان وسيباستوبول، وتخلو من المتعرجات الجغرافية المهمة. صُدَّ الهجومُ الأوّل. خرجت كتيبة رِيْتِر، التي كانت قد بقيت احتياطياً، مع الموجة الثانية. راح الجنود يركضون فوق الأسلاك الشائكة بينما المدفعية تصحّح تسديدها وتسحق أوكار الرشاشات. راح رِيْتِر يتصبّب عرقاً، بينما هو يجري، كما لو أنّه مرض فجأة في جزء من الثانية. فكّر أنّه فعلاً سيموت هذه المرّة وساهم قربُ البحر منهم في تعزيز هذه الفكرة. عبروا أوّلاً أرضاً قفراً ثمّ خرجوا عبر بستان، فيه بيت صغير، نظر من إحدى نوافذه، نافذة صغيرة غير متناسقة، عجوزٌ بلحية بيضاء. بدا لِرِيْتِر أنّه كان يأكل شيئاً، لأنّه كان يُحرّك فكّيْه.

كان على الجانب الآخر من البستان طريق ترابيّ رأوا بعده بقليل خمسةَ جنود سوفييتيين يجرون مدفعاً بصعوبة. قتلوا الخمسة وتابعوا جريهم. بعضهم تابع في الطريق وآخرون عبر غابة صنوبر صغيرة.

في الغابة رأى رِيْتِر هيئة بين الأوراق المتساقطة فتوقّف. كان تمثال إلهة يونانية أو هكذا ظنّ. كان شعرها مجموعاً وكانت طويلةً قاسية الملامح. راح رِيْتِر المستحم بعرقه يرتجف ويمدّ ذراعه. كان المرمر أو الحجر، لم يكن قادراً على معرفة ماهيته، بارداً. لم يكن موقع التمثال يخلو من بعض اللامنطق. فذلك المكان المختفي تحت أغصان الأشجار لم يكن المكان الأمثل لوضع منحوتة فيه. فكّر رِيْتِر خلال لحظة قصيرة وموجعة أن يسأل التمثال عن شيء، إلا أنّه لم يخطر له أي شيء فشوّهت وجهه لمصةُ تألّم. راح بعدها يجري.

كانت الغابة تنتهي بفجّ يُشاهد منه البحرُ والميناء وُنوعٌ من الكورنيش المحاط بالأشجار والمقاعد للجلوس وبيوت بيضاء وأبنية من ثلاثة طوابق تبدو فنادقَ أو عيادات طبية. كانت الأشجار كبيرة وداكنة. كانت تتمايز بين التلال بيوت يشبّ فيها اللهب وفي الميناء الصغير مجموعة أشخاص يتدافعون للصعود إلى سفينة. كانت السماء شديدة

الزرقة والبحر يبدو ساكناً، وما من موجة واحدة. إلى اليسار، ظهر أوائلُ رجال فوجه يتبعون طريقاً هابطاً متعرّجاً، بينما عدد قليل من الروس يهربون وآخرون يرفعون أذرعهم ويخرجون من بعض مخازن السمك التي اسودّت جدرانها. هبط الرجالُ الذين كانوا يذهبون مع رِيْتِر من التلّ باتجاه ساحة ينهض حولها بناءان جديدان من خمسة طوابق، مطليان بالأبيض. حين وصلوا إلى الساحة أطلقوا عليهم النيران من عدّة نوافذ، اختبأ الجنود خلف الأشجار باستثناء رِيْتِر الذي تابع طريقه كما لو أنّه لم يسمع شيئاً، حتى وصل إلى باب أحد البنائين. كان أحد جدرانه مزيّناً بلوحة جداريّةٍ يُرى فيها بحّارٌ عجوز يقرأ رسالة، كانت بعض أسطرها مرئيّة تماماً للمشاهِد، لكنّها مكتوبة بالأبجدية السيريلية، ورِيْتِر لم يفهم شيئاً. كان البلاط كبيراً وأخضر اللون. لم يكن هناك مصعد ولذلك بدأ رِيْتِر يصعد الأدراج. حين وصل إلى البسطة الأولى أطلقوا عليه النار. رأى ظلاً يُطل ثمّ شعر بوخزة في ذراعه الأيمن. تابع صعوده. عادوا وأطلقوا عليه النار. التزم السكون. بالكاد راح الجرح ينزف وكان الألم محتملاً تماماً. ربّما كان قد مات، فكّر. ثمّ فكر أنّه لم يمت وأنّ عليه ألا يدوخ، حتى يتلقى رصاصة في رأسه. توجّه إلى إحدى الشقق وفتح الباب برفسة واحدة. رأى طاولة، أربعة كراسي وخزانة زجاجية مليئة بالأطباق وببعض الكتب فوقها. وجد في الغرفة امرأة وطفلين صغيري السنّ. كانت المرأة شابّة جدّاً ونظرت إليه مرعوبة بينما هو يتراجع. لن أفعل لكِ شيئاً، قال لها، وحاول أن يبتسم ثمّ دخل شقّةً أخرى فرفع مقاتلان حليقا الرأس أيديهما واستسلما. لم يُكلّف رِيْتِر خاطره بالنظر إليهما. من بقية الشقق راح يخرج ناس تعلوهم علامات الجوع أو سجناء سجن الأحداث. وجد في غرفةٍ بجانبِ نافذةٍ مفتوحة بندقيتين قديمتين رمى بهما إلى الشارع في الوقت الذي أشار فيه لرفاقه أن يكفوا عن الرماية.

المرّة الثالثة التي كاد يموت فيها جاءت بعد أسبوعٍ في أثناء

الهجوم على سيباستبول. صُدَّ التقدّم هذه المرّة. في كلّ مرّة كان الألمان يحاولون أن يستولوا على خطّ دفاع المدفعية عن المدينة كان ينهمر فوقهم وابلٌ من القذائف. بجوار المدينة وبجانب الخنادق الروسية كانت تتكدّس جثث الجنود الألمان والرومانيين الممزّقة. في أكثر من مناسبة دارت المعركة وجهاً لوجه. وصلت كتائبُ الاقتحام إلى خندق وجدوا فيه بحارة روساً وقاتلوا خمس دقائق، تراجع في نهايتها أحدُ الفريقين، لكنّه عاد ليظهر بعدها مزيدٌ من البحارة الروس وهم يصيحون: عليهم! وتبدأ المعركة من جديد. كان وجود البحارة في تلك الخنادق المغبرة بالنسبة إلى رِيْتِر مشحونة بنذرٍ مشؤومة ومخلّصة. بالتأكيد سيقتله واحدٌ منهم وعندها سيعود هو ليغوص في أعماق البلطيق أو الأطلسي أو البحر الأسود، فكل البحار كانت في النهاية بحراً وحيداً وفي أعماق البحر تنتظره غابة من الأُشْن. أو ببساطة فقط سيختفي.

كان هذا بحسبِ ويلكه عمل مجانين. من أين كان يخرج البحارة الروس؟، ماذا كان يفعل البحارة الروس هناك، على بعد بضعة كيلومترات من مكانهم الطبيعي، البحر والسفن؟ ما لم تكن طائرات الستوكاس قد أغرقت كلَّ سفنِ الأسطول الروسي. كان ويلكه يسرح بخياله، وما لم يكن البحر الأسود قد جفّ، وهو ما لم يكن بالطبع يعتقده، لكنّه كان يقول هذا لِرِيْتِر فقط، فالآخرون كانوا يقبلون كلّ الذي يرونه أو يحدث لهم كشيء عادي. في أحد الهجمات مات نيتشكه وعدد آخر من رفاقه. وذات ليلة انتصب رِيْتِر في الخنادق بكلّ قامته وراح يتأمّلُ النجوم، لكنّ انتباهه كان ينحرف حتماً نحو سيباستبول. كانت المدينة في البعيد، عظاءةً سوداء بأفواه حمراء تنفتح وتنغلق. كان الجنود يسمونها طاحِنَةَ العظام، لكنّها لم تبدُ لِرِيْتِر في تلك الليلة آلة بل تجسيداً لكائن أسطوري، حيوانٍ حيّ يجد صعوبة في التنفّس. أمرهُ الرقيبُ ليمكه أن يُطأطئ. تأمّله رِيْتِر من علٍ، خلع الخوذةَ، حكّ رأسَهُ ثمّ وقبل أن يعتمر الخوذةَ من جديد أطاحت به

رصاصة. وبينما هو يسقط شعر كيف راحت رصاصةٌ أخرى تدخل في صدره. نظر إلى الرقيب ليمكه بعينين مُطفأتين: بدا له شبيهاً بنملة راحت تتضخّم تدريجياً وتصبح أكبر وأكبر. على بعد خمسمئة متر منهم سقط عدد من قذائف المدفعية.

بعد أسبوعين تلقى وسامَ الصليب الحديدي. سلّمه له كولونيل في مشفى نوفوسيليفسك الميداني، شدّ على يده وقال له هناك تقرير رائع عن أدائه في تشورنومورسك وميكولايفكا ثم ذهب. لم يكن رِيْتِر يستطيع الكلام لأنّ رصاصة اخترقت حنجرته. جرح القفص الصدري لم يعد يمثل خطراً وبعد بزمن قصير نُقِل من شبه جزيرة القرم إلى كريفوي روج في أوكرانيا، حيث كان يوجد مشفى أكبر وحيث عادوا وأجروا له عملية في الحنجرة. عاد بعد العملية ليأكل بشكل طبيعي ويحرّكَ رقبته كما في السابق، لكنّه بقي لا يستطيع الكلام.

لم يعرف الأطباء الذين عالجوه ما إذا كانوا سيعطونه إجازة كي يعود إلى ألمانيا أم سيرسلونه إلى فرقته التي كانت ما تزال تُحاصر سيباستبول وكيرش. ساهم وصولُ الشتاء والهجومُ السوفييتي المضاد الذي نجح في أن يُحطّم جزئياً الخطوط الألمانية في القرارِ فلم يُرْسَل رِيْتِر أخيراً إلى ألمانيا ولم يلتحق بوحدته.

لكن بما أنّه لم يكن باستطاعته أن يبقى في المشفى فقد أُرسِلَ مع ثلاثة جرحى آخرين إلى ضيعة كوستِكينو على ضفاف دنيبر، التي كان يسميها آخرون باسم مزرعة بوديني النموذجية وآخرون باسم الجدول العذب، نظراً لوجود جدول رافد لنهر دنيبر، كانت مياهه من العذوبة والنقاء إلى حدٍّ غير معهود في المنطقة. فيما عدا ذلك لم تكن كوستِكينو تشكل ضيعة. بضعة بيوت متناثرة، تحت التلال، أسيجة خشبية كانت تساقط من قِدَمِها. صومعتا حبوب رميمتان، طريق ترابي لا يمكن السير فيه شتاءً بسبب الثلوج والطين، وكان يصل الضيعةَ ببلدة

يمرّ فيها القطار. في محيطها كان هناك سوفخوز مهجور حاول خمسة ألمانيين أن ينهضوا به من جديد. معظم البيوت كانت مهجورة، بحسب بعضهم، لأنّ القرويين هربوا قبل اقتحام الجيش الألماني، وبحسب آخرين لأنّ الجيش الأحمر ألحقهم به بالقوّة.

نام رِنْتِر الأيام الأولى في مكتبٍ زراعيٍّ أو ربّما مقرّ للحزب الشيوعي، البناء الوحيد المبني من الطوب والإسمنت في البلدة، لكنّ التعايش مع الألمان القليلين الذي كانوا يعيشون في كوستِكينو، الفنيين والنُّقَّه، لم يتأخّر في أن يصبح غير محتمل بالنسبة إليه. وهكذا قرّر أن يقيم في أحد البيوت الخشبية الفارغة. كانت جميعها تبدو للنظرة الأولى متماثلة. وذات ليلة بينما كان يتناول القهوة في بيت الطوب، سمع رِنْتِر روايةً مختلفة: القرويون لم يُلْحَقوا بالإكراه ولم يهربوا. الانتقال كان نتيجة مباشرة لمرور الوحدة سي من وحدات التصفية، الذين شرعوا بالتصفية الجسدية لجميع يهود الضيعة. وبما أنّه لم يكن يستطيع أن يتكلّم لم يسأل أيّ سؤال، لكنه في اليوم التالي شرع بدارسة جميع البيوت بانتباه كبير. ما من بيت واحدٍ منها عثر فيه على أيّ أثر يدلّ على أصلٍ أو دينِ سكانها الأصليين. أخيراً أقام في بيت كان قريباً من الجدول العذب. في الليلة الأولى التي قضاها هناك رأى كوابيس أيقظته عدَّةَ مرّات. لم يكن قادراً على تذكّر ما حلم به. كان السرير الذي نام فيه ضيقاً وليّناً جدّاً، بجانب المدخنة، في الطابق الأوّل من البيت. كان الطابق الثاني نوعاً من العليّة يوجد فيها سرير آخر ونافذة دائرية، صغيرة جدّاً مثل كوّة سفينة. وجد في صندوق عدّة كتب، معظمها بالروسيّة، لكن ولدهشته كان هناك بعضها بالألمانية. وبما أنّه كان يعرف أنّ كثيرين من اليهود الشرقيين كانوا يعرفون اللغة الألمانية، افترض بالفعل أنّ البيت يعود ليهوديّ. كان أحياناً عندما يستيقظ في منتصف الليل من كابوسٍ ويشعل شمعة كان يتركها دائماً عند أحد جانبي السرير، يبقى ساكناً وساقاه خارج الغطاء، جالساً يتأمّل الأشياء

المتراقصة على ضوء الشمعة، وشاعراً، بينما البرد يجمّده بالتدريج، بأنّه ما من شيء منه مفرّ. كان أحياناً عندما يستيقظُ في الصباح يبقى ساكناً ينظر إلى سقف التراب والقشّ ويُفكّر أنّ في ذلك البيت شيئاً ما أنثوياً لا يعرفه.

بالقرب من المكان كان يعيش بعضُ الأوكرانيين الذين لم يكونوا من كوستِكينو وصلوا قبل وقت قصير ليعملوا في السوفخوز. حين كان يخرج من البيت كان الأوكرانيون يُحيونه رافعين قبعاتهم قليلاً. في الأيّام الأولى لم يكن يردُّ على تحيّاتهم تقريباً. لكنّه راح بعدها يرفع يده بحياء ويحيّهم كما لو أنّه يُودّعهم. كان يذهب كلّ يوم إلى الجدول العذب ومعه سكين يصنع بها حفرة ويدخل فيها مغرفة ويُخرج بعض الماء يشربه في المكان ذاته، دون أن يهّمه كم كان بارداً.

مع حلول الشتاء انزوى الألمان جميعاً في بناء الطوبِ وراحوا يقيمون أحياناً حفلاتٍ تدوم حتى الفجر. لا أحد كان يتذكّرهم، كما لو أنّ انهيارَ الجبهة جعلهم يختفون. كان الجنود يخرجون أحياناً بحثاً عن نساء وأحياناً يُمارسون الحبّ فيما بينهم ولا أحد يقول شيئاً. هذه هي الجنّة المُتجمّدة، قال لرِيتِر أحدُ رفاقه القدامى في الفرقة ٧٩ فنظر إليه رِيتِر، كما لو أنّه لم يفهم شيئاً وربت الرفيق على ظهره وقال يا مسكين يا رِيتِر، يا مسكين، يا رِيتِر.

وذات مرّة وبعد زمن طويل، نظر رِيتِر إلى نفسه في مرآة وجدها في زاوية من البيت الخشبيّ وكلّفه جهداً التعرّف على نفسه. كانت لحيته شقراء ومتشابكة وشعره طويلاً ومتسخاً، عيناه جافّتين وفارغتين. هراء، فكّر. أزال بعدها ضمادة حنجرته، كان الجرح مندملاً وبلا مشاكل كبيرة ظاهريّاً، لكنّ الضمادة كانت متسخة وطبقات الدم تمنحها ملمساً كرتونيّاً، ما جعله يرمي بها إلى المدخنة. بحث بعدها في كلّ البيت عن شيء يكون بديلاً للضمادة، وهكذا عثر على أوراق بوريس أبراموفيتش أنسكي والمخبّإ خلف المدخنة.

كان المخبأ بسيطاً للغاية وذكيّاً جدّاً أيضاً. كان للمدخنة، التي كانت تفيد كموقد للطبخ، فماً واسعاً بما يكفي وأسطوانة خروج الدخان طويلة بما يكفي كي يستطيع أن يدخل فيها شخص منحنٍ. إذا كان عرض المدخنة تُدركه النظرة البسيطة إلاّ أن عمقها من الخارج لا يمكن أن يُدرك، فالجدران المسودّة كانت تقوم بالتمويه الأكثر ذكاء. لم يكن باستطاعة العين أن تُقدّر العمقَ الذي يتشكل في نهاية فتحتها، تجويف قليل، لكنّه يكفي كي يبقى هناك شخص جالساً مرفوعَ الركبتين جيّداً، تحميه الظلمة. وإن كان المخبأ يعمل بالتمام، فكّر رِيْتِر في وحشة البيت الخشبيّ، إلا أنّه كان من الضروري أن يكون هناك شخصان: الشخص الذي يختبئ والشخص الذي يبقى في الخارج ويضع قدراً ليُسخّن فيه الحساء ثم يُشعل النار في المدخنة ويسوّد المخبأ مرّة بعد أخرى.

شغلت هذه المسألة عقل رِيْتِر أياماً كثيرة، فقد اعتقد أنّ حلّها سوف يقوده إلى معرفة حياة بوريس أنسكي أو طريقة تفكيره أو درجة القنوط الذي عانى منه ذات مرّة أو أحدٌ كان يعرفه بوريس أنسكي جيّداً. حاول مرّات عديدة أن يُشعل النار من الداخل. نجح مرّة واحدة فقط فقد كان تعليق قدر فيه ماء أو وضع سماور بجانب الجمر بالنتيجة مهمّة مستحيلة، ولذلك رأى أنّ من بنى المخبأ بناه وهو يُفكّر بأنّ أحداً سيختبئ فيه يوماً ما، وبأنّ شخصاً آخر سيُساعده على الاختباء. الذي يُنْقَذُ، فكّر رِيْتِر، والذي يُنْقِذُ. الذي سيعيش والذي سيموت. الذي سيهرب حين يحلّ الليل والذي سيبقى ويتحوّل إلى ضحيّة. كان أحياناً يدخل في المخبأ مساءً مسلحاً بأوراقِ بوريس أنسكي وشمعةٍ ويبقى هناك حتى ساعة متقدّمة جدّاً من الليل إلى أن تُنمّل عضلاته ويتجمّد جسده وهو يقرأ ويقرأ.

وُلِد بوريس أبراموفيتش أنسكي عامَ ١٩٠٩ في كوستِكينو في ذلك البيت ذاته، الذي يشغله الآن الجنديّ رِيْتِر. كان والداه يهوديّين مثل

جميع سكان الضيعة تقريباً ويكسبون عيشهم من تجارة البلوزات، التي كان يشتريها الوالدُ بسعرِ الجملة من دنيبروبيتروفسك وأحياناً من أوديسا، يبيعها بعد ذلك في كلّ ضِياع المنطقة. كانت الأم تُربّي الدجاج وتبيع بيضه ولم يكونا بحاجة لشراء الخضروات، فهما كانا يملكان بستاناً صغيراً، لكنّه مستغلّ بشكل ممتاز. لم ينجبا غير ولدٍ واحد، بوريس، في عمرٍ متقدّم، مثل إبراهيم وسارة في الكتاب المقدّس، وهو ما ملأهما فرحاً.

كان أبراهام أنسكي، حين يجتمع بأصدقائه، يمزح بهذا الخصوص ويقول، متحدّثاً عن كم كان ابنه مُدلّلاً ويقول إنّه يُفكّر أحياناً بأنه كان عليه أن يُضحّي به، حين كان ما يزال صغيراً. كان أرثوذوكسيو الضيعة يُصدمون أو يتظاهرون بأنّهم يُصدَمون ويضحك البقية بصدقٍ حين يختم أبراهام أنسكي قوله: لكن بدل أن أُضحّي به ضحّيتُ بدجاجة! دجاجة!، دجاجة، ليس بخروف ولا بابني الأوّل، بل بدجاجة!، دجاجة البيض الذهبيّ!

التحق بوريس أنسكي في الرابعة عشرة من عمره بالجيش الأحمر. كان وداعه لوالديه مؤثّراً. أولاً راح الأبُ يبكي بكاءً مرّاً، تلته الأمُّ وأخيراً ارتمى بوريس بين أذرعهما وراح بدوره يبكي. كانت الرحلة إلى موسكو لا تُنسى. في الطريق رأى آثاراً لا تُنسى، سمع أحاديث أو مونولوجات لا تُصدّق، قرأ على الجدران إعلانات لا تُصَدَّق تُبشّرُ بالجنّة، وكلّ ما وجده، سواء وهو يمشي أو في القطار، أثّر في أعماقه، فتلك كانت المرّة الأولى التي يخرج فيها من ضيعته، إذا ما استثنينا رحلتين رافق فيهما والدَه في بيع البلوزات في المنطقة. توجّه في موسكو إلى مكتب للتجنيد وحين سجّل نفسه كي يُقاتل فرانجيل، قالوا له إنّ فرانجيل قد هُزم. عندها قال أنسكي إنّه يريد أن يلتحق كي يقاتل البولنديين، قالوا له إنّ البولنديين قد هزموا. عندها صرخ أنسكي، إنّه يريد أن يلتحق كي يُقاتل كراسنوف أو كينيكين فقالوا له إنّ

دينيكين وكراسنوف قد هُزما. عندها قال أنسكي، حسن، إنّه يريد أن يلتحق كي يُقاتل القوزاقيين البيض أو التشيكيين أو كولتشاك أو يودينيتش أو القوات المتحالفة فقالوا له جميعهم هُزموا. لقد وصلت الأخبار متأخّرة إلى قريتك. وقالوا له أيضاً: من أين أنت؟، أيها الفتى؟ فقال أنسكي من كوستِكينو على ضفة نهر دنيبر. وعندها سأله جنديّ عجوز يُدخّن غليوناً عن اسمه وعمّا إذا كان يهودياً. فقال أنسكي بلى، إنّه يهودي ونظر إلى عينيّ الجنديّ العجوز فانتبه ساعتها فقط إلى أنّه كان أعور وأبتر.

- كان لي رفيق يهودي، في الحملة ضدّ البولنديين -قال العجوز وهو ينفث دفقة دخان من فمه.

- ما اسمه -سأل أنسكي-، ربّما أعرفه.

- هل تعرف كلّ يهود السوفييت، أيّها الفتى؟ -سأله الجندي الأعور والأبتر.

- لا، طبعاً لا -قال أنسكي وقد احمرّ خجلاً.

- اسمه ديميتري فيربيتسكي -قال الأعور من زاويته- وقُتِلَ على بعد مئة كيلومتر من وارسو.

تململ بعدها الأعور وغطّى ببطانية نفسه حتى نقرته وقال: كان قائدنا يُدعى كورولينكو ومات أيضاً في ذلك اليوم ذاته. عندئذ تصوّر أنسكي فيربيتسكي وكورولينكو بسرعة الصوت، ورأى كورولينكو يسخر من فيربيتسكي، دخل في أفكار فيربيتسكي الليلية، في رغبات كورولينكو، في آمالهما الغامضة والمتغيّرة، في قناعاتهما وفي استعراضاتهما، في الغابات، التي كانا يُخلفانها وراءهما، والأراضي الغارقة التي كانا يعبرانها في صخب الليالي في العراء، وفي أحاديث الجنود غير المفهومة في الجبال قبل أن يعودوا ويمتطوا خيولهم. رأى ضباعاً وأراض مشغولة، رأى كنائسَ وأعمدة دخان ملتبسةً، ترتفع في الأفق حتى وصل إلى اليوم الذي قتل فيه فيربيتسكي وكورولينكو، وكان

يوماً رمادياً، رمادياً تماماً، رمادياً بالمطلق، بالمطلق رمادياً، كما لو أنّ غيمة بطول ألف كيلومتر، لا نهاية لها، مرّت فوق تلك الأراضي، دون أن تتوقّف.

في تلك اللحظة التي لم تدم ثانية، قرّر أنسكي أنّه لا يريد أن يُصبح جنديّاً، لكن أيضاً في تلك اللحظة ناوله ضابطُ صفٍّ مكتب الجيش ورقةً وقال له أن يُوقّع. لقد أصبح جنديّاً.

أمضى السنوات الثلاث التالية في السفر. كان في صربيا وفي مناجم الرصاص في نوريلسك وجاب حوض نهر تونغوسكا يحرس فنّيي أومسك، الذين كان يبحثون عن الفحم وكان في ياكوتسك وصعد نهر لينا حتى المحيط المتجمّد الأرتيكي، فيما وراء الدائرة القطبية، ورافق فريقاً من المهندسين وطبيبَ أمراضٍ عصبية حتى جزر سيبيريا الجديدة حيث جُنّ اثنان من المهندسين، جنون واحد منهما من النوع المسالم، لكن جنون الآخر كان من النوع الخطير، مما اضطرهم لأن يُصفّوه هناك بالذات باقتراح من طبيب الأمراض العصبية، الذي وضّح أنّ هذا النوع من المجانين لا علاج لهم، خاصّة وسط بياض ذلك المشهد، الذي كان يُعمي أو يُشوّش العقل، ثم كان في بحر أوخوستك مع فصيلة إمداد كانت تمدّ فصيلة من المستكشفين الضائعين بالمؤن. لكنّ فصيلة الإمداد والتموين ضاعت بعد أيّامٍ قليلة وانتهوا إلى أن أكلوا هم أنفسهم مؤونة المستكشفين ثمَّ كان في مشفى في فلاديفوستوك ثم في أمور وبعدها عرف ضفاف بحيرة بايكال، إلى حيث وصل آلاف المسافرين، ومدينة إيركوتسك وأخير راح يلاحق قطاع طرق في كازاخستان قبل أن يعود إلى موسكو ويتفرّغ لمسائل أخرى.

وكانت هذه المسائل هي القراءة وزيارة المناحف، القراءة والمشاوير في الحديقة العامة، القراءة والحضور المهووس لكلّ أنواع الحفلات الموسيقية، السهرات المسرحية، المحاضرات الأدبية

والسياسيّة، التي تعلّم منها أشياء كثيرة وممتازة، استطاع أن يُطبّقها على مجموعة الأشياء المعاشة التي كان قد كدّسها. تعرّف أيضاً في ذلك الوقت على إفراييم إيفانوف، كاتب الخيال العلمي في مقهى للأدباء، أفضل مقهى أدباء في موسكو، في الحقيقة في شرفة المقهى، حيث كان إيفانوف يشرب فودكا على طاولة معزولة، تحت أغصان شجرة بلوط كانت تصل إلى الطابق الثالث من البيت وصارا صديقين، من ناحية لأنّ إيفانوف اهتمّ بأفكار أنسكي الغريبة ومن ناحية أخرى لأنّ هذا كان يُظهر، على الأقل في ذلك الوقت، إعجاباً بلا تحفّظ ولا مآخذ بأعمال الكاتب العلمي، كما كان يُحب إيفانوف أن يُسمّي نفسه بدل الكاتب الخيالي، التي هي التسمية الرسمية والشعبية لتصنيف نوع الأعمال التي كان يكتبها. كان أنسكي يُفكّر في تلك السنوات بأنّ الثورة لن تتأخّر في الانتشار في كلّ العالم، وأنّ الأحمق أو العدميّ وحده لا يستطيع أن يرى أو يحدس بالقوة الكامنة للتقدم والسعادة التي ستأتي بها. ستنتهي الثورة، كان أنسكي يُفكّر، إلى إلغاء الموت.

حين كان يقول له إيفانوف إنّ هذا مستحيل، وإنّ الموتَ ملازمٌ للإنسان منذ أزمنة غابرة، كان يردّ بأنّ الأمر كان يتعلّق بهذا بالضبط، بهذا تماماً، بل وحتى بهذا حصراً. إبطال الموت، إبطاله وإلى الأبد، أن نغوص جميعنا في المجهول حتى نعثر على شيء آخر. على الإبطال، على الإبطالِ، على الإبطال.

كان إيفانوف عضواً في الحزب منذ عام ١٩٠٢. حاول في ذلك الوقت أن يكتب قصصاً قصيرة على طريقة تولستوي، وتشيخوف، وغوركي، أي أنّه أراد أن ينتحلهم دون نجاح كبير، ولذلك قرّر بعد تفكير طويل (ليلة صيف بطولها) بدهاء أن يكتب على طريقة أودويفسكي ولازهتشنيكوف. خمسون بالمئة من أودويفسكي وخمسون بالمئة من لازهتشنيكوف. لم تكن النتيجة سيّئة، من ناحية لأنّ القرّاء كانوا قد

نسوا المسكين أودويفسكي (المولود عام ١٨٠٣ والمتوفّى عام ١٨٦٩) والمسكين لازهتشنيكوف (المولود عام ١٧٩٢ والمتوفّى مثل أودويفسكي في عام ١٨٦٩)، ومن ناحية أخرى لأنّ النقد الأدبيّ، الحاذق كما البسيط جدّاً لم يقارن ولم يربط خيوطاً ولم يتنبه إلى شيء.

في عام ١٩١٠ كان إيفانوف ما يمكن أن نسميه كاتباً واعِداً، تُنتظر منه أشياء عظيمة، لكنّ أودويفسكي ولازهتشنيكوف، كقوالب يُقلّدها، استُنفِدا فعانى إنتاج إيفانوف الفني من توقّف، أو بحسب المنظور، من انهيار، لم يستطع أن يخرجه منه ولا حتى المزيج الذي حاول به في اللحظات الأخيرة: المزج بين أودويفسكي الهوفماني ولاوهتشنيكوف نصير والتر سكوت والنجم الصاعد غوركي. قصصه، اضطرّ لأن يعترف، ما عادت تهمّ، اقتصاده، وأكثر منه كبرياؤه تأذّى من ذلك. عمل إيفانوف حتى ثورة أكتوبر بشكل متفرّق في مجلات علمية، في مجلاتٍ زراعية، في تصحيح بروفات، بائعَ مصابيح كهربائية، مساعداً في مكتب محامين، دون أن يهمل أعماله في الحزب، حيث كان يعمل كلّ ما كان ضروريّاً، بدءاً من تحرير المنشورات وطباعتها وحتى الحصول على ورق والقيام بدور الرابط مع الكتاب الرفاق ومع بعض رفاق السفر. قام بكلّ ذلك دون أن يتذمّر أو يهجر عاداته القديمة: الزيارة اليومية للمحلات التي كانت تجتمع فيها البوهيمية الموسكوية والفودكا.

لم يُحَسِّن انتصارُ الثورة فرصَهُ الأدبية ولا العملية، على العكس تضاعف عمله وتضاعف في مرات ليست قليلة ثلاثة مرّات، بل وأحياناً أربعة مرّات، لكنّ إيفانوف قام بواجبه دون أن يتذمّر. طلبوا منه ذات يوم قصّة يجب أن يدور موضوعُها حول الحياة في روسيا في عام ١٩٤٠. خلال ثلاث ساعات كتب إيفانوف أوّل قصّة خيال علمي له. كان عنوانها *قطار الأورال* وطفل كان يُسافر في قطار، متوسّط سرعته مئتي كيلومتراً في الساعة، يحكي بصوته ما كان يجري أمام عينيه:

معامل متلألئة، حقول مشغولة جيّداً، ضياع جديدة ونموذجية مكونة من بناءين أو ثلاثة أبنية من أكثر من عشرة طوابق، تزورها وفود أجنبية سعيدة، يُسجلون ملاحظات جيدة عن التقدم المُحقق كي يُطَبّقها لاحقاً كلٌّ في بلده. الطفل الذي كان يُسافر في *قطار الأورال* كان ذاهباً ليزور جدّه، المقاتل السابق في الجيش الأحمر، الذي كان يُدير، بعد أن حصل على إجازة جامعية في عمر غير مناسب للدراسة، مخبراً مُتخصّصاً بالبحوث المعقّدة المغلّفة بأعظم الألغاز. بينما كانا يخرجان من المحطّة آخذين بيدي بعضهما بعضاً، كان الجدّ القويّ لا يبدو أنّه تجاوز الأربعين عاماً، بالرغم من أنّه كان أكبر بكثير، يحكي للطفل بعض التقدم المُحقق في المرحلة الأخيرة، لكنّ الحفيدَ طفل أولاً وأخيراً، كان يُجبِره على أن يحكي له قصصاً عن الثورة والحرب ضدّ البيض وضدّ التدخّل الخارجي، الأمر الذي كان الجدّ، كان العجوز أولاً وأخيراً، يستجيب إليه بكلّ سرور. وكان هذا هو كلّ شيء. استقبالها من قبل القرّاء شكّل حدثاً.

أوّل المفاجئين، يجب أن نقول ذلك، كان الكاتب نفسه. المفاجأ الثاني كان رئيس التحرير، الذي كان قد قرأ القصّة وبيده قلم رصاص كي يُصحّح الأخطاء المطبعية، والذي لم تبدُ له شيئاً عظيماً. وصلت إلى هيئة التحرير رسائل تُطالب بمساهمات أكثر من «إيفانوف المجهول» هذا، «إيفانوف المُرتجى»، «الكاتب الذي يؤمن بالغد»، «المؤلّف الذي يزرع الأملَ بالمستقبل، الذي نناضل لأجله»، وكانت الرسائل تصل من موسكو وبتروغراد، لكن أيضاً كانت تصل رسائل من مقاتلين ومن ناشطين سياسيّين من أبعد المناطق، شعروا بالتماهي مع الجدّ، وهو ما أثار قلقَ رئيس التحرير، الماركسيّ الجدليّ والمنهجيّ والمادّي وغير الذرائعي إطلاقاً، الماركسي كماركسي جيّد، لم يدرس ماركس وحسب، ودرس أيضاً هيغل وفويرباخ (بل وكانط أيضاً) وكانَ يضحك من كلّ قلبه حين كان يُعيد قراءة ليختنبِرغ وكان قد قرأ مونتين وباسكال

وكان يعرف جيداً كتابات فورييه، ولا يستطيع أن يُصدّق أن تكون هذه القصّة العاطفية الساذجة، من دون أي مستند علمي، بين الأشياء الجيدة الكثيرة (أو، دون أن يُبالغ، بين بعض الأشياء الجيّدة) التي نشرتها المجلّةُ، وأثّرت في مواطني بلاد السوفييت.

شيء ما لا يسير بشكل جيّد، فكّر. طبعاً أضيف إلى ليلة أرق رئيس التحرير ليلة مجد وفودكا إيفانوف، الذي قرّر أن يحتفل بنجاحه الأوّل في أسوأ حانات موسكو ثمّ في بيت الكاتب، حيث تعشّى مع أربعة أصدقاء بدوا فرسان سفر الرؤيا الأربعة. بدءاً من هذه اللحظة طلبوا من إيفانوف فقط قصصَ خيالٍ علمي، وهذا الذي أمعن التفكير جيّداً في القصّة الأولى التي كتبها، كأن نقول دون انتباه، كرّر الصيغة مع تنويعات راح يستخرجها من نهر الأدب الروسي العميق ومن بعض منشورات الكيمياء وعلم الأحياء، والطب والفلك التي كان يُراكمها في غرفته كما يراكم المرابي السندات غير المدفوعة، سندات حين الطلب، الشيكات مستحقة الدفع. بهذه الطريقة صار اسمه معروفاً في كلّ زوايا الاتحاد السوفييتي ولم يتأخر في أن يُصبحَ كاتباً مهنيّاً، رجلاً يعيش فقط مما تُقدّمه له كتبه وصار يذهب إلى مؤتمرات في الجامعات والمصانع وراحت المجلات والصحف الأدبية تتبارى على أعماله.

لكن كلّ شيء يشيخ وصيغة المستقبل المشع إضافة إلى البطل الذي ساهم في الماضي في خلق هذا المستقبل المشع، إضافة إلى الطفل (أو الطفلة) الذي كان حاضِراً في قصصه، وكان يتمتع بكلّ هذا الرخاء والإبداع الشيوعي، أيضاً شاخ. حين تعرّف أنسكي على إيفانوف لم يكن يشكل نجاحاً في بيع ورواياته وقصصه، التي كان الكثيرون يعتبرونها مبتذلة أو لا تُطاق، ما عادت توقظ الحماس الذي كانت توقظه في مرحلة سابقة. لكنّ إيفانوف بقي يكتب وبقوا ينشرون ما يكتبه وبقي يتقاضى في كلّ شهر راتباً عن رؤاه الفردوسيّة. كان ما يزال عضواً في الحزب. ينتمي إلى اتحاد الكتّاب الثوريين. يظهر اسمه في لوائح

المبدعين السوفييتيين الرسمية. خارجياً كان رجلاً سعيداً، عازباً، يملك غرفة كبيرة ومريحة في بيت من أحياء موسكو، يُضاجع بين حين وآخر عاهرات ما عدن شابات يافعات، ينتهي معهنّ بالغناء والبكاء، يأكل أربع مرّات على الأقل أسبوعياً في مطعم الكتّاب والشعراء.

ومع ذلك كان إيفانوف يشعر في قرارة نفسه بأنّ شيئاً ما ينقصه. الخطوة الحاسمة، أو ضربة المعلّم. اللحظة التي تتحوّل فيها اليرقة، بابتسامةِ هجران، إلى فراشة. عندها ظهر الشابّ اليهوديّ أنسكي وأفكاره الحمقاء، رؤاه السيبرية، غزواته في البلاد الملعونة، غنى تجاربه الوحشية التي وحده شابٌّ في الثامنة عشرة من عمره يمكن أن يملكها. لكن إيفانوف أيضاً كان قد مرّ بالثامنة عشرة ولم يحدث أن عاش ولا حتى من بعيد تجربة مشابهة لتلك التي كان يحكيها أنسكي. ربّما يعود هذا، فكّر، إلى أنّه يهوديٌّ وأنا لستُ يهودياً. لكنّه سرعان ما استبعد هذه الفكرة. ربّما يعود هذا إلى جهله، فكّر. إلى مزاجه النزق. إلى ازدرائه للقواعد التي تحكم حياةً، بما في ذلك حياة برجوازية، فكّر. راح بعدها يُفكّر كم كان الفنانون أو أشباه الفنانين المراهقين منفّرين عن قرب. فكّر بمایاكوفسكي، الذي كان يعرفه شخصيّاً، وتكلّم معه مرّةً، ربّما مرّتين، بزهوّه الهائل، الزهوّ الذي ربّما كان يخبّئ وراءه عدم حبّهِ للغير، عدم اهتمامه بالغير، شرهه المفرط للشهرة. وفكّر بعدها بليرمونتوف وبوشكين، المنفوخين كنجمي سينما أو مغنّيي أوبرا. بنيجينسكي وغوروف ونادسون ولوك (الذي تعرّف عليه شخصياً وكان لا يُطاق). أسماك لَسَكٍ بالنسبة إلى الفن، فكّر. يظنون أنّهم وحدهم ويحرقون كلّ شيء، لكنّهم ليسوا وحدهم، هم فقط نيازك تائهة ولا أحد في الأساس يوليهم انتباهاً. يهينون لكنّهم لا يحرقون. وفي النهاية هم دائماً المهانون، المهانون حقيقةً، المرفوسون والمبصوق عليهم والملعونون والمبتورون، المهانون حقيقةً، المهانون تماماً.

بالنسبة إلى إيفانوف الكاتب الحقيقيّ، الفنان والمبدع الحقيقيّ هو أساساً شخص مسؤول وعنده شيء من النضج. وعلى الكاتب الحقيقيّ أن يُتقن الإصغاءَ ويعرف كيف يتصرّف في اللحظة الدقيقة. يجب أن يكون انتهازيّاً بشكل عقلانيّ ومثقّفاً بشكل عقلانيّ. الثقافة الزائدة تُثير الغيرة والحقد. الانتهازية المفرطة تُثير الشكوك. على الكاتب الحقيقيّ أن يكون شخصاً هادئاً بشكل عقلانيّ، رجلاً عنده شعور عام. لا يتكلم بصوت عالٍ أكثر من اللازم ولا يُثير مشاكل، يجب أن يكون ظريفاً بعقلانية وعليه أن يعرف كيف يتفادى أن يجلب أعداء مَجّانيين. عليه على الأخص ألا يرفع صوته، إلا إذ رفعه البقيّة. الكاتب الحقيقيّ عليه أن يعرف أنّ وراءه اتحاد الكتاب، نقابة الفنانين واتحاد عمّال الأدب، وبيت الشاعر. ما الشيء الأوّل الذي يقوم به المرء حين يدخل كنيسة، كان يتساءل إفرايم إيفانوف. يرفع قبّعته. لنقبل أنّه لا يرسم شارة الصليب. حسن، لا يرسم شارة الصليب. نحن عصريون. لكن أقلّ ما يمكن أن يفعله هو أن يكشف عن رأسه! على العكس من الكتاب المراهقين، الذين كانوا يدخلون إلى كنيسة ولا يكتفون بأنّ لا يرفعوا قبعاتهم، بل ويضحكون، يتثاءبون، بل ويرتكبون حماقات، يضرطون، بل وكان بعضهم يُصفّق.

ومع ذلك ما كان على أنسكي أن يُقدّمه كان مغرياً أكثر من اللازم لإيفانوف كيلا يرفضه بالرغم من تحفّظاته. يبدو أنّ العقد قد تمّ في غرفة كاتب الخيال العلمي.

بعد شهر دخل أنسكي ليناضل في الحزب. كان إشبينه إيفانوف وعشيقة قديمة لهذا، مرغريتا أفاناسييرفنا، التي كانت تعمل كعالمة أحياء في إحدى مؤسسات موسكو. في أوراق أنسكي يُقارن ذلك اليوم بيوم عرس. احتفلوا به في مطعم الكُتّاب، راحوا يطوفون بعدها على مُختلف حانات موسكو، جارّين معهم أفاناسييرفنا، التي كانت تشرب

مثل فاسدة وكانت في تلك الليلة قريبة جّداً من الدخول في غيبوبة كحولية. في إحدى الحانات بينما كان إيفانوف وكاتبان انضما إليهم يغنون أغاني حبٍّ ضائع، نظراتٍ لن يعود الواحد ليراها، كلماتٍ مخمليّةٍ لن يعود المرء ليسمعها، استيقظت أفاناسييفنا وأمسكت بيدها الصغيرة جدّاً قضيبَ وخصيتي أنسكي من فوق البنطلون.

- الآن وقد صرتَ شيوعياً -قالت له دون أن تنظر إلى عينيه، غارزة نظرتها في مكان غير محدّد بين السرّة والعنق- تحتاج لأن يكون من فولاذ.

- حقّاً؟ -قال أنسكي.

- لا تسخر منّي -قال صوت أفاناسييفنا المجرّح-. عرفتُك. من النظرة الأولى عرفت من أنت.

- ومن أنا؟ -قال أنسكي.

- يهودي تافه يخلط بين الواقع ورغباته.

- الواقع -تمتم أنسكي- هو أحياناً الرغبة الخالصة.

ضحكت أفاناسييفنا.

- وكيف يُطبخ هذا؟ -قالت.

- بأن لا ترفعي نظرك عن النار، يا رفيقة -تمتم أنسكي-. تمعّني مثلاً في بعض الأشخاص.

- بِمَنْ؟ -قالت أفاناسييفنا.

- في المرضى -قال أنسكي-. في مرضى السل مثلاً. هم بالنسبة إلى أطبائهم يموتون وبهذا لا يوجد نقاش ممكن. لكن بالنسبة إلى مرضى السلّ، وبخاصّة في بعض الليالي، بعضِ المساءات الطويلة على وجه الخصوص، الرغبة هي الواقع والعكس صحيح. أو تمعّني في العاجزين.

- بأيّ نوع من العاجزين؟ -قالت أفاناسييفنا دون أن تفلت أعضاء أنسكي.

- بالعاجزين جنسياً، طبعاً -تمتم أنسكي.

- آه -صاحت أفاناسييفنا وأطلقت ضحكة ماجنة.

- العاجزون يُعانون -تمتم أنسكي- مثل مرضى السل تقريباً، ويشعرون برغبة. برغبة لا تحلّ محلّ الواقع وحسب بل تفرض نفسها عليه.

- هل تعتقد -سألت أفاناسييفنا- أنّ الموتى يشعرون بالرغبة الجنسية؟

- الموتى لا -قال أنسكي-، لكنّ الموتى الأحياء بلى. حين كنتُ جندياً في سيبيريا تعرّفتُ على صيّاد اقتلعوا أحهزته الجنسية.

- أجهزته الجنسيّة؟ -سخرت أفاناسيفنا.

- القضيب والخصيتان -قال أنسكي-. كان يبول من خلال قشّة، جالساً أو راكعاً أو مفرشخاً.

- وضح الأمر -قالت أفانسيفنا.

- حسن، هذا الرجل، الذي إضافة إلى ذلك لم يكن شاباً، كان يذهب مرّة في الأسبوع، مهما كان الطقس، إلى الغابة ليبحث عن قضيبه وخصيتيه. كان الجميع يُفكّرون أنّه سيموت ذات يوم محاصراً بالثلج، لكنّه دائماً كان يعودُ إلى الضيعة، أحياناً بعد غياب أشهر ودائماً بالخبر ذاته: لم يعثر عليها. وذات يوم قرّر ألا يخرج بعد من البيت أبداً. بدا أنّه راح يشيخ فجأة، كان في حدود الخمسين من عمره لكنّه بين ليلة وضحاها بدا في الثمانين. رحلت مفرزتي عن الضيعة. عدنا ومررنا بعد أربعة أشهر من هناك وسألنا ماذا حلّ بالرجل الفاقد لبعض طبيعته. قالوا لنا إنّه تزوّج ويعيش حياة سعيدة. أردت مع أحد رفاقي أن نزوره: رأيناه بينما هو يُعدُّ العدّة لإقامة طويلة في الغابة. ما عاد يبدو في الثمانين بل في الخمسين. أو ربّما ما عاد يبدو في الخمسين، بل في الأربعين في بعض أجزاء وجهه، في عينيه، في شفتيه، في حنكيه، بعد يومين فكّرت أنّ الصيّاد نجح في فرض رغبته على الواقع، وأنّه،

بطريقته حوّل محيطه، الضيعةَ، القرويين، الغابة، الثلج، القضيب والخصيتين الضائعة. تصوّرته يبول راكعاً على ركبتيه مفتوحَ الساقين جيّداً وسط غابة الصنوبر المتجمدة، يسير نحو الشمال، نحو الصحارى البيضاء، نحو الرياح البيضاء ومعه حقيبة ظهره مليئة بالأفخاخ فاقداً بالمطلق الوعيَ بما نُسميه نحن بالمصير.

- قصّة جميلة -قالت أفاناسييفنا، بينما هي تسحب يدها عن أعضاء أنسكي التناسلية-. محزن أنّ أكون امرأة هرمة إلى هذا الحد ومحزن أنّي رأيت أشياء كثيرة كي أصدق هذا.

- ليست المسألة مسألة تصديق -قال أنسكي-، بل مسألة فهم ثمّ تغيير

بدءاً من تلك اللحظة سارت حياة أنسكي وإيفانوف على الأقل ظاهرياً في طريقين مختلفين.

صارت حركة الشاب اليهودي محمومة. في عام ١٩٢٩، شارك مثلاً وهو في العشرين من عمره في تأسيس مجلات، في موسكو، لينينغراد، سمولينسك، كييف وروستوف، لم يظهر له شيء في أيّ منها. كان عضواً مؤسّسا في مسرح الأصوات المُتخيّلة. حاول أن تنشر له دار نشر ما بعض كتابات خليبنيكوف بعد وفاته. أجرى مقابلات كصحفيّ، مقابلات لصحف لم ترَ النور قط، مع الجنرالين توجاتشيفسكي وبلوشير. ملك عشيقة، الدكتورة في الطب ماريّا زامياتينا، الأكبر منه بعشر سنوات والمتزوّجة من قائد رفيع في الحزب. أقام صداقة مع غريغوري ياكوفين، العارف الكبير بتاريخ ألمانيا المعاصر، الذي أقام معه أحاديث طويلة في الشارع، حول اللغة الألمانية وحول اليديش. تعرّف على زينوفييف. كتب بالألمانية قصيدة عجيبة عن نفي تروتسكي. أيضاً كتب بالألمانية سلسلة من الحكم بعنوان *تأملات في موت إفجينيا بوش*، الاسم المستعار للقائدة البلشفية

إفجينيا غوتليبوفنا (١٨٧٩-١٩٢٤) التي يقول عنها بيير برو: «تنضم إلى الحزب عام ١٩٠٠، بلشفية في ١٩٠٣. توقوف في ١٩١٣، تنفى وتهرب في ١٩١٥، تلجأ إلى الولايات المتحدة، تناضل مع بياتاكوف وبوخارين وتعارض لينين فيما يتعلّق بالمسألة القومية. عند عودتها بعد ثورة شباط تلعب دوراً قيادياً في انتفاضة كييف وفي الحرب الأهلية. توقّع على إعلان الـ٤٦. تنتحر في عام ١٩٢٤ كنوع من الاحتجاج». وكتب قصيدة باليديشية، احتفالية أحياء فقيرة، مليئة بالكلمات الغريبة، عن إيفان راجيا (١٨٨٧-١٩٢٠) أحد مؤسّسي الحزب الفنلدي، اغتيلَ، ربّما من قبل رفاقه أنفسهم في صراع بين القادة. قرأ للمستقبليين، لمجموعة سنتريفوغا، للتصويريين. قرأ لبابل، قصصَ بلاتونوف الأولى، قرأ لبيلنياك (الذي لم يُعجبه إطلاقاً)، قرأ لأندريه بيلي، الذي أبقت عليه روايتُهُ *بطرسبرغ* أرقاً أربعة أيّام. كتب دراسة عن مستقبل الأدب، التي كانت كلمتها الأولى «لا شيء» وكلمتها الأخيرة: «لا شيء» في الوقت ذاته كان يعاني من علاقته مع ماريّا زامياتينا، التي كان لها عشيق آخر، غيره، طبيب اختصاصي بأمراض الرئة، ويعيش أغلب وقته في القرم وتصفه ماريّا زامياتينا كما لو أنّ الأمر يتعلق بيسوع متقمّص، بلا لحية، بدثار أبيض، دثار أبيض سيظهر في أحلام أنسكي في عام ١٩٢٩. ولم ينقطع عن العمل بقسوةٍ في مكتبة موسكو. وكان يكتبُ حين يتذكّر، أحياناً، رسائلَ إلى والديه اللذين كانا يردّان عليه بحبّ وحنين وشجاعة، فهما لا يُكلّمانه عن الجوع ولا عن الفاقة التي تسود أراضي دنيبر، التي كانت في الزمن الماضي خصيبة. كذلك ملك وقتاً كي يكتب مسرحية فكاهيةً بعنوان *لانداور*، تستند على أيّام الكاتب الألماني جوستاف لانداور الأخيرة، الذي كتب في عام ١٩١٨ *خطاب إلى الكُتّاب* وأُعدم في عام ١٩١٩ لمشاركته في جمهورية السوفيت في ميونخ. وكذلك قرأ في عام ١٩٢٩ رواية حديثة الطباعة، *برلين أليكساندربلاتز*، لألفريد دوبلن، بدت له جيدةً ولا تُنسى وعظيمة دفعته

إلى البحث عن كتب أخرى لدوبلن فوجد في مكتبة موسكو قفزات *فانغ-لون الثلاث*، من عام ١٠١٥، حرب *فادزيك على محرّك البخار*، ١٩١٨، *ولينشتاين*، ١٩١٢٠، *وجبال وبحار وعمالقة* من عام ١٩٢٤.

وبينما كان أنسكي يقرأ لدوبلن أو يجري مقابلة مع توجاتشيفسكي أو يُمارس الحبّ في غرفته في شارع بيتروف في موسكو مع ماريا زامياتينا، كان إفرايم إيفانوف ينشر روايته العظيمة الأولى، التي ستفتح له أبواب السماء، مستعيداً من ناحية محبة القرّاء وحاصلاً من ناحية أخرى لأوّل مرة على احترام أولئك الذين كان يعتبرهم أنداده، الكتاب، الكتاب الملهمين، أولئك الذين كانوا يحتفظون بنار تولستوي وتشيخوف، نار غوغول، الذين سرعان ما لفت انتباههم ورأوه عملياً لأوّل مرة وقبلوا به.

كتب له غوركي، الذي لم يكن وقتها قد عزم على أن يعود ليقيم في موسكو نهائياً، رسالةً عليها ختم إيطالي حيث كانت تظهر أصبع الأب المؤسّس الناصحة، وأيضاً يُحدَسُ فيض من الاستحسان والعرفان القارئ.

روايتك، يقول، جعلتني أمرّ بلحظات... لطيفة جدّاً. في صفحاتها يُسْتَشَفُّ... إيمان، أملٌ. عن خيالك لا يمكن أن يُقال أنّه... متخشّب. لا، ولا بشكل من الأشكال يمكن أن يُقال ... إنّه مُتخشّب. لا ولا بشكل من الأشكال يمكن أن يُقال... هذا صار الآن هناك من يتكلّم عن... جول فيرن السوفييتي. ومع ذلك أعتقد، بعد تفكُّرٍ طويل، أنّك أفضل من جول فيرن. قلم أكثر... نضجاً. قلم يهتدي ببداهات... ثورية. قلم... عظيم. كما لا يمكن أن يُنتظر أقل من ذلك ما دام الأمر يتعلّق بشيوعي. لكن لنتكلّم بصراحة... كسوفيتيين. الأدب العمّالي يُخاطب إنسانَ... اليوم. يعرض مشاكل ربما لن تُحلّ إلاّ... غداً. لكنّها تتوجّه... إلى العامل الحالي، وليس

إلى عامل. . . المستقبل. ربّما سيكون عليك أن تأخذ بحسبانك هذا في كتبك القادمة.

إذا كان ستندال، كما يُقال، قد رقص عندما قرأ النقد الذي كتبه بلزاك عن دير بارم، فإنّ إيفانوف سكب دموعَ فرح لا حصر لها حين تلقى رسالة غوركي.

الرواية التي لاقت احتُفِي بها بالإجماع تسمى *الغروب* وموضوعها بسيط جدّاً: شاب في الرابعة عشرة من عمره يهجر أسرته كي ينضمّ إلى صفوف الثورة. سرعان ما يُقاتل قوات رانجل. يُجرح في منتصف المعركة ويعتبره رفاقه ميتاً. لكن وقبل أن تنقضّ الطيور الجارحة على الجثث تهبط سفينة فضائية على أرض المعركة وتحمله مع بعض من كانت جراحهم قاتلة. بعدها تدخل السفينةُ في الطبقة الطحرورية وتبدأ تدور حول الأرض. يُشفى كلّ الجرحى بسرعة من جروحهم. بعدها يوجّه إليهم كائن ناحل وطويل جدّاً، يشبه أُشنة أكثر مما يشبه كائناً بشرياً، سلسلةً من الأسئلة من نوع: كيف خلقت النجوم؟، أين ينتهي الكون؟، أين يبدأ؟ طبعاً لا أحد يعرف كيف يُجيبُهُم. واحدٌ يقول إنّ الله خلق النجوم وإنّ الكون يبدأ وينتهي حيث يشاء الله. يرمون هذا في الفضاء. ويُنوّمون الآخرين. حين يستيقظون يجدُ المراهق ابنُ الرابعة عشرة نفسه في سرير بائس في غرفة بائسة، وخزانة ملابسها بائسة، يُعلّقون فيها ملابس فقير. حين يُطلّ من النافذة يتأمل مذهولاً منظر نيويورك العمراني. ومع ذلك فمغامرات الفتى في المدينة الكبيرة كانت مفجعة. يتعرّف على موسيقيّ جاز كلّمه عن فراريج ناطقة وربّما مُفكّرة.

- أسوأ ما في الأمر -يقولُ له الموسيقيّ- هو أنّ حكومات الكوكب تعرف هذا ولذلك هناك كلّ هذه المداجن.

يعترض الشابّ بأن الفراريج تُربّى كي يأكلوها هم أنفسهم. يقول الموسيقيّ إنّ هذا ما تريده الفراريج. وينتهي بالقول:

- فراريج عاهرة مازوخية تُمسكُ بقادتنا من خصياتهم.

يتعرّف أيضاً على فتاة تعمل كمنوّمة مغناطيسية في ملهى ويعشقها. الفتاة أكبر منه بعشر سنوات، أي أنّها في الرابعة والعشرين، ولا تريد أن تعشق أحداً، وإن كان لديها عدد من العشّاق، من بينهم الشاب، فهي كانت تعتقد أنّ الحبَّ يَستنفذ قدراتِها كمنوّمة مغناطيسية. تختفي الفتاةُ ذات يوم فيُقرِّر الشابّ بعد أن بحث عنها دون جدوى، أن يتعاقد مع رجل تحرٍّ مكسيكيّ كان في السابقِ جنديّاً عند بانتشو بيّا. يملك رجل التحرّي نظريّة غريبة: يعتقد بوجود عدّة كواكب أرضية في أكوان موازية. كواكب يستطيع أن يصل إليها المرء عبر التنويم المغناطيسي. ظنّ الشابُ أنّ رجل التحرّي كان ينصب ويحتال على ماله فيُقرِّر أن يُرافقه في عمليات بحثه. يلتقون ذات ليلة بشحاذٍ روسي يصرخ في الشارع. كان الشحاذ يصرخ بالروسية ووحده الشابّ كان يفهم كلماته. كان الشحاذُ يقول: كنتُ جنديّاً عند رانجل، قليلاً من الاحترام، أرجوكم، أنا قاتلتُ في القرم وأخلتني سفينة إنكليزية في سيباستوبول. عندئذ سأله الشابُّ عما إذا كان في المعركة التي سقط هو فيها بجرح قاتل. نظر إليه الشحاذ وقال له بلى. أنا أيضاً، يقول الفتى. لا يمكن، يجيب الشحاذُ، كان هذا قبل عشرين عاماً وأنت لم تكن قد وُلِدتَ.

ذهب بعدها الشابّ ورجل التحرّي المكسيكي باتجاه الغرب بحثاً عن المنوّمة المغناطيسية. يعثرون عليها في كانساس سيتي. يطلب الشابّ منها أن تُنوّمه مغناطيسيّاً وترسلَهُ من جديد إلى أرض المعركة حيث كان يجب أن يكون قد مات أو أن تقبل حبّه ولا تهرب مرّة أخرى. قالت له المنوّمة المغناطيسية إنّها لا تستطيع أن تفعل لا هذا ولا ذاك. يهتمّ رجل التحرّي المكسيكي بفنّ التنويم المغناطيسي. بينما يبدأ رجل التحرّي يحكي قصّةً للمنوّمة المغناطيسية، يغادر الشابّ بارَ طريق العامّ ويمضي ماشياً تحت جنح الليل. بعد برهة يكفّ عن البكاء.

يمشي ساعاتٍ. حين يصبح بعيداً عن كلّ شيء يلمح طيفاً على جانبٍ من الطريق. إنّه رجل الفضاء الخارجي الذي له شكل أشنة.

يتبادلان السلام ويتحادثان. الحديث، في كثير منه غير مفهوم. الموضوعات التي يتناولانها مختلفة: اللغات الأجنبية، النصب الوطنية، آخر أيام كارل ماركس، التضامن العمّالي، الزمن المقاس بالسنين الأرضيّة وبالسنين الفلكية، اكتشاف أمريكا كعرض مسرحيّ، فجوة أقنعة سحيقة -كتلك التي رسمها دوريه-. يتبع الفتى بعدها رجلَ الفضاء الخارجي الذي يُغادر الطريق ويسير الاثنان في حقل قمح، يعبران أنهاراً صغيرة، تلاً، حقلاً آخر مزروعاً، إلى أن يصلا إلى مرعى خيول يتصاعد منه البخار.

يُظهِرُ الفصلُ الثاني المراهقَ، الذي لم يعد مراهقاً، بل شابّاً في الخامسة والعشرين من عمره، وهو يعمل في صحيفة في موسكو، حيث صار نجماً في كتابة الريبورتاجات. يتلقّى الشابّ تكليفاً بإجراء مقابلة مع قائد شيوعي في مكان ما من الصين. الرحلة، يُحذّرونه، شاقّة إلى أقصىَ الحدود ويمكن للظروف، ما إن يصل إلى بكين، أن تكون خطيرة، ذلك أنّ هناك ناس كثيرون لا يُريدون أن يخرج أيّ تصريح من القائد الصيني إلى الخارج. يقبل الشابّ العمل، بالرغم من التحذيرات. حين يصل أخيراً بعد جهود مريرة إلى القبو الذي يختبئ فيه الصينيُّ، يُقرّر الشابُّ ليس فقط أن يُجري مقابلة معه بل وأن يُساعدَهُ على الهرب من البلد. وجهُ الصيني، المضاء بشمعة، فيه شَبَهٌ ملحوظ مع وجه رجل التحرّي المكسيكي، الجندي السابق عند بانتشو بيّا. لا يلبث الصيني والشابّ الروسيّ أن يُصابا بعدوى المرض ذاته الناتج عن نتن القبو. ترتفع حرارتهما، يتصبّبان عرقاً، يهذيان، يقول الصيني إنّه يرى تنينات تطير على ارتفاع منخفض في شوارع بكين، ويقول الشابّ إنّه يرى معركة، ربّما كانت مجرّد مناوشة ويصرخُ يا سلام وينادي رفاقه كي لا يوقفوا الهجوم. يبقى بعدها الاثنان بلا حراك كما لو أنّهما ميتان، يتحملان حتى يأتي يوم الهرب.

يعبر الصينيُّ والروسيّ بكين ودرجة حرارتهما ٣٩ ويهربان. في

البرّية كان ينتظرهما جوادان وبعض المؤن. الصينيّ لم يسبق له أن امتطى جواداً قط. علّمه الشابّ كيف يفعل ذلك. عبرا خلال الرحلة غابة ثمّ جبالاً هائلة. كانت لألأة النجوم في السماء خارقة. كان الصينّي يسأل نفسه: كيف خُلِقت النجوم؟، أين ينتهي الكون؟، أين يبدأ؟ يسمعه الشابُّ فيتذكّر بشكل مشوّش جرحاً في خاصرته، ما زالت ندبته تؤلمه، ويتذكّر الظلمةَ ورحلةً. أيضاً يتذكّر عيني المُنوِّمة المغناطيسيّة، بالرغم من أنّ ملامح المرأة تبقى خفيّة، متبدّلة. إذا ما أغمضتُ عينيَّ، كان الشابّ يُفَكِّرُ، سأعودُ وأعثر عليها. لكنّه لا يُغمضهما، يدخلان حقلاً واسعاً مثلجاً، تغوص أرجل الجوادين في الثلج. الصينيُّ يُغنّي. كيف خُلِقت النجوم؟ ما نحن وسط كون لا يُسبر غوره؟ ما الذكرى التي ستبقى منّا؟

فجأة يسقط الصينيُّ عن الجواد. يفحصه الروسيّ. الصيني مثل دمية من نار. يلمس الشابُّ جبينَ الصينيّ، ثمّ جبينَه ويتبيّن له أنّ الحمّى تلتهمهما. يربط الصينيَّ بصعوبة على جواده ويشرع بالمسير. الصمت في حقل الثلج ذاك مطلق. الليل ومرور النجوم في قبّة السماء ليس فيهما ما يدلّ على أنّهم ستنتهيان أبداً. في البعيد ظلّ هائل يبدو أنّه يفرض نفسه على الظلمة. إنّها سلسلة جبلية. في ذهن الروسي يتجسّد الاحتمال الأكيد بأنه سيموت في الساعات القريبة في حقل الثلج أو خلال عبوره الجبال. صوت في داخله يتوسّل إليه أن يُغمض عينيه، فهو إذا ما أغمضهما سوف يرى عيْنَيّ ثمّ وجهَ المنوّمة المغناطيسية المعبود. يقول له إنّه إذا ما أغمضهما سيعودُ إلى شوارع نيويورك، سيعود ليسير باتجاه بيت المُنوِّمة المغناطيسية، حيث تنتظره جالسةً على كرسيّ كبير، في شبه الظلمة. لكنّ الروسيّ لا يُغمِضُ عينيه ويتابع خببه.

ليس وحده غوركي من قرأ *الغروب*. ناس آخرون مشهورون قرؤوها أيضاً وبرغم أنّ هؤلاء لم يُرسلوا رسائل تُعَبّر للمؤلّف عن

إعجابهم، إلاّ أنّهم لم ينسوا اسمه، لكنّهم لم يكونوا ناساً مشهورين وحسب بل وكانوا يتمتّعون أيضاً بذاكرة جيّدة.

يذكر أنسكي أربعةً، بنوع من الصعود المدوِّخ. قرأها الأستاذ ستانيسلاو ستروميلين. بدت له مشوَّشة. قرأها الكاتب ألكسي تولستوي. بدت له فوضوية. قرأها أندري زهدانوف. تركها من منتصفها. وقرأها ستالين. بدت له مريبة. بالطبع لم يصل شيء من هذا إلى مسمع إيفانوف الطيّب، الذي أطّرَ رسالة غوركي ثمّ علّقها على الجدار، ظاهرة جيّداً لزواره الذين كانوا في كلّ يوم أكثر عدداً.

من ناحية أخرى شهدت حياتُهُ تبدّلات مُهمّة. مُنِحَ بيتاً ريفياً في ضواحي موسكو. كانوا أحياناً يطلبون منه أن يوقّع لهم في المترو. كانت له طاولة محجوزة كلَّ ليلة في مطعم الكتّاب. كان يمضي إجازاته في يالطا، مع بعض الزملاء المشهورين مثله. آه على سهرات فندق أكتوبر الأحمر في يالطا (فندق إنكلترا وفرنسا القديم)، في الشرفة الكبيرة بجانب البحر الأسود، وهو يسمع أنغام أركسترا الفولغا الأزرق البعيدة في ليالٍ دافئة وألوف النجوم تتلألأ هناك في البعيد، بينما كاتب المسرح الدارج يُطلق عبارة ساذجة والروائي مهندس التعدين يُردّدها بحكم قطعيّ، ليالي يالطا مع نساء رائعات يعرفن كيف يشربن الفودكا دون أن يدخن حتى السادسة صباحاً ومع شباب متصبّبين عرقاً من اتحاد الكتاب العماليين من القرم كانوا يذهبون ليطلبوا نصائح أدبيّة في الرابعة مساء.

كان المسكين إيفانوف أحياناً يقرص نفسه حين يكون على انفراد مع نفسه وأكثر حين يكون وحده أمام مرآة كي يقنع نفسه بأنّه لا يحلمُ وبأنّ كلّ شيء كان واقعياً. وبالفعل كان كلّ شيء كان واقعياً، على الأقل ظاهريّاً. غيوم سوداء كانت تنهمر فوقه، لكنّه فقط كان يحس بالنسمة التي طالما رغب بها والريح الخفيفة الفواحة التي كانت تنظّف وجهه من كلّ ذلك البؤس والخوف.

ممَّ كان يخافُ إيفانوف؟، كان أنسكي يتساءل في دفاتره. ليس من الخطر الجسدي، ذلك أنّه كان بلشفياً قديماً، كثيراً ما كان على وشك أن يُعتقل، يُسجن ويُنفى، ومع أنّه لا يمكن أن يُقال عنه إنّه شخص شجاع، إلاّ أنّه أيضاً لا يمكن التأكيد على أنّه شخصٌ جبان وغير مقدام دون مُجانبة الحقيقة. كان خوف إيفانوف ذا طبيعة أدبية. أي أن خوفه كان الخوفَ الذي يُعاني منه أغلب أولئك المواطنين الذين يُقرّرون ذات يوم حسن(أو سيّئ)أن يحوّلوا ممارسة الأدب، وبخاصة، ممارسة الخيال، إلى جزء أساسي من حياتهم. الخوف من أن يصيروا كتاباً سيّئين. الخوف أيضاً من ألا يُعترَف بهم. لكن بخاصّة الخوف من أن يصيروا كتّاباً سيّئين، الخوف من أن تسقط جهودهم وأعمالهم في النسيان. الخوف من الدوسة التي لا تترك أثراً. الخوف من عناصر القدر والطبيعة التي تمحو الآثار قليلةَ العمق. الخوف من أن يتناولوا عشاءهم وحيدين وأن لا ينتبه أحد وجودك. الخوف من ألاّ يُقدَّروا. الخوف من الفشل ومن السخرية. لكن على الأخص الخوف من أن يكونوا سيّئين. الخوف من أن يسكنوا وللأبد في جحيم الكتّاب السيّئين. خوف لا عقلانيّ، كان يُفكّر أنسكي، خاصّة إذا كان الخائفون يقاومون خوفهم بالمظاهر. وهو ما يعني القول بأنَّ جنّة الكتّاب الجيّدين، بحسب السيّئين، كانت مسكونة بالمظاهر وأنّ جودة (أو روعة) عمل ما تحوم حول مظهرٍ. مظهر يختلف طبعاً بحسب المرحلة والبلدان، لكنّه يبقى دائماً كما هو، مظهراً، شيئاً يبدو وليس هو، سطحاً وليس عمقاً، محضَ إيماءة، بل إيماء يُخلَط بينها وبين الإرادة، شعر وعيني وشفتي تولستوي وكيلومترات[1] جابها تولستوي ونساء فضّ تولستوي بكارتهنّ على سجادة محروقة بنار المظاهر.

(١) يستخدم وحدة القياس الروسية فِرستا وتساوي ١٠٦٨ م.

على كلّ الأحوال كانت الغيوم السوداء تنهمرُ فوق إيفانوف، مع أنّه لم يكن يراها ولا حتى في أحلامه، فإيفانوف، عند هذا المستوى من حياته، فقط كان يرى إيفانوف، بل ووصل به الأمر إلى حدّ أنّه كان الأكثر مسخرة في مقابلة أجراها معه شابان من جريدة صحيفة اتحاد شباب عموم الاتحاد الروسي، اللذان وجها إليه أسئلة كثيرة، من بينها الأسئلة التالية:

الشابان الكومسموليان: لماذا تعتقد أنّ روايتك الأولى العظيمة، التي لاقت ترحيب الجماهير العمالية والفلاحيّة كتبتها في الستين من عمرك تقريباً؟ كم سنة استغرقت في التفكير بحبكة الغروب؟هل هو عمل سنّ نضجك؟

إفرايم إيفانوف: عمري فقط تسع وأربعون، ما زال أمامي وقت كي أكمل الستين. وأود أن أُذكّركم أنّ الإسباني ثِربانتِس كتب كيخوتِه في العمر ذاته تقريباً.

الشابات الكومسوليان: هل تقعد أنّ روايتك مثل كيخوتِ الرواية العلمية السوفييتية؟

إيفرايم إيفانوف، شيء من هذا موجود لا شكّ، شيء من هذا موجود.

إذن كان إيفانوف يعتبرُ نفْسَهُ ثِربانتِس الأدب الخيالي. كان يرى غيوماً على شكل مفصلة، يرى غيوماً على شكل طلقة في النقرة، لكنّه في الحقيقة كان لا يرى غير نفسه وهو يخبّ، إلى جانب سانتشو غامضٍ ومفيد، في سهوب المجد الأدبي.

خطر، خطر، كان يقول الموجيك، خطرٌ، خَطر، كان يقول الكولاك، خطرٌ، خَطر، كان يقول الموقعون على بيان *الستة وأربعين*، خطر، خَطر، يقول شبحُ إينيس أرماند، لكنّ إيفانوف لم يتميّز قط بجودة سمعه ولا بقدرته على أن يستشعر اقترابَ الغيوم السوداء ولا اقتراب العواصف، ثمّ وبعد رحلة أقرب إلى المتواضعة ككاتب مقالة

ومحاضر، ثابت العزيمة بتألّق، إذ لم يكن يُطلب منه أن يكون أكثر من متواضع، عاد ليغلق على نفسه غرفته الموسكوية وكدّس رزم ورقٍ وبدّل شريط حبر آلته الكاتبة وراح بعدها يبحث عن أنسكي، فقد كان يريد أن يسلّم ناشرَ كتبه روايةً جديدة خلال أربعة أشهر كموعد أقصى.

كان أنسكي يعمل في تلك الأيّام في مشروع إذاعي يجب أن يُغَطّي كلَّ أوروبا ويصل إلى أبعد زاوية في سيبيريا. في عام ١٩٣٠، بحسب الدفاتر، طُرِدَ تروتسكي من الاتحاد السوفييتي (بالرغم من أنّه في الحقيقة طرد في عام ١٩٢٩، الخطأ الذي يمكن أن يُعزى إلى شفافية الإعلام الروسي، وبدأت معنويات أنسكي تهن. في عام ١٩٣٠ انتحر ماياكوفسكي. في عام ١٩٣٠، مهما كان المرء ساذجاً وأبله، كان سيرى أنّ ثورة أكتوبر قد هُزِمت.

لكنّ إيفانوف كان يريد رواية أخرى وبحث عن أنسكي.

في عام ١٩٣٢ نشر روايته الجديدة بعنوان *الظهيرة*. في عام ١٩٣٤ ظهرت رواية أخرى *الفجر*. يكثر في الروايتين رجالُ الفضاء الخارجي، رحلات الطيران بين الكواكب، الزمنُ المخلوع، وجود حضارتين متقدّمين أو أكثر يزور أبناؤها الأرض دورياً، الصراعات الدورية بين هذه الحضارات والتي كثيراً ما تكون مخادعة وعنيفة، الشخصيات التائهة.

في عام ١٩٣٥ سحبوا أعمالَ إيفانوف من المكتبات. بعد أيّام قليلة أعلموه من خلال تعميم رسميّ بطرده من الحزب. أمضى إيفانوف، بحسب أنسكي، ثلاثة أيّام لم يستطع فيها مغادرة السرير. فوقه وضع رواياته الثلاث وكان يقرأها باستمرار بحثاً عن شيء يُبرّرُ الطردَ. كان يئن ويطلق آهاتِ موجوعٍ ويحاول دون نجاح أن يلوذَ بذكريات طفولته المبكرة. يُداعب كِعابَ كتبه بحزنٍ يمزّق القلب. كان ينهض أحياناً ويقترب من النافذة ويمضي ساعات وهو ينظرُ إلى الشارع.

في عام ١٩٣٦ اعتُقِل مع بداية أوّلِ عملية تطهير كبيرة. أمضى أربعة أشهر في زنزانة ووقّع على كلّ الأوراق التي وضعوها أمامه. حين خرج حاول أمام معاملة التقزز التي تلقاها من أصدقائه الأدباء القدامى، أن يكتب إلى غوركي كي يتوسّط له، لكنّ غوركي المريض جدّاً، لم يردّ على رسالته. مات بعدها غوركي وحضر إيفانوف جنازته. حين رآاه هناك شاعرٌ وروائيٌّ، كلاهما شابّ ومن حلقة غوركي، توجّها إليه وسألاه عما إذا لم يكن يخجل، عمّا إذا كان قد جُنّ، عمّا إذا كان لا يُدرك أنّ مجرّدَ حضوره مسبّة لذكرى المعلّم.

- غوركي كتب لي -أجاب إيفانوف-. غوركي أُعجِبَ بروايتي. هذا أقلّ ما أستطيع أن أفعله له.

- أقل ما يمكن أن تفعله لأجله، يا رفيق -قال الشاعر-، هو أن تنتحر.

- نعم، ليست فكرة سيّئة -قال الروائيّ-، ارمِ بنفسك من إحدى نوافذ بيتك وتُحَلٌّ القضية.

- لكن، ما هذا الذي تقولانه، أيّها رفيقان؟ -أجهش إيفانوف.

تقترب منهم فتاة ترتدي سترة جلدية تصل إلى ركبتيها وتسأل ماذا يجري.

- إنّه إفرايم إيفانوف -أجاب الشاعر.

- آه، إذن لا كلام -قالت الفتاةُ-، اعملا على أن يرحل.

- لا أستطيع -قال إيفانوف، ووجهه مبلّل بالدموع.

- لماذا لا تستطيع، يا رفيق؟ -سألت الفتاة.

- لأنّ ساقيّ ما عادتا تتجاوبان معي، أنا أعجز من أن أخطو خطوة واحدة.

نظرت الفتاة لبضع ثوانٍ إلى عينيه. لم يكن من الممكن أن يعطي إيفانوف المسنود من كلّ ذراع من قبل الكاتبين الشابّين صورة أكثر استضعافاً، وهو ما جعل الفتاةَ تُقرّر أخيراً أن تُرافقه إلى خارج المقبرة.

لكنّ إيفانوف الذي صار في الشارع بقي لا يستطيع أن يعتمد على نفسه، وهكذا رافقته الفتاة إلى محطّة الحافلة الكهربائية ثمّ قرّرت (لم يكن إيفانوف يتوقّف عن البكاء وكان يوحي بأنّه سوف يعاني من إغماءٍ في أيّة لحظة) أن تصعد معه إلى الحافلة الكهربائية، وبهذه الطريقة راحت تؤجّل بعد كلّ مرحلة وداعها له، ساعدته على صعود درج البيت، وساعدته على فتح باب غرفته وساعدته على الاستلقاء في سريره وبينما كان إيفانوف ما يزال يذوب في الدموع والكلمات غير المترابطة راحت الفتاة تفحص مكتبته، الفقيرة كفاية، حتى فُتِح البابُ ودخل أنسكي.

كانت تُدعى ناديا يورينيفا وعمرها تسعة عشر عاماً. في تلك الليلة ذاتها مارست الحبّ مع أنسكي بعد أن نجح إيفانوف في أن ينام بعد عدّة كؤوس من الفودكا. مارساه في غرفة أنسكي ولو أنّ أيَّ شخص رآهما لقال إنّهما يتجامعان كما لو أنّهما سيموتان بعد بضع ساعات. الحقيقة هي أنّ ناديا يورينيفا كانت تجامع كما كانت تجامع معظم الموسكويات خلال ذلك العام ١٩٣٦، وكان بوريس أنسكي يُجامِع كما لو أنّه عثر فجأةً بعد أن فقد كلّ أمل، على حبّه الوحيد والحقيقيّ. ما من أحدٍ منهما كان يُفكِّرُ (أو يريد أن يُفكِّرَ) بالموت، لكنّ الاثنين كانا يتحرّكان أو ينجدلان أو يتحاوران كما لو أنّهما على حافّة الهاوية.

ناما فجراً وحين استيقظ أنسكي قبل منتصف النهار بقليل، لم تكن ناديا يورينيفا موجودة. ما شعر به أنسكي في البداية كان اليأس ثمّ الخوف، ثم وبعد أن ارتدى ملابسه خرج راكضاً إلى بيت إيفانوف كي يرشده هذا قليلاً، بما يسمح له بالعثور على الفتاة. وجد إيفانوف مشغولاً يكتبُ رسائل. عليَّ أن أستوضِح هذه المُعضلة، كان يقولُ، عليّ أن أفكّ هذه الكبّة فقط بهذه الطريقة سأنجو. سأله أنسكي ما المعضلة التي كان يقصدها. معضلة قصص الخيال العلمي اللعينة، صرخ إيفانوف بكّل قواه. كانت صرخة تُمزّق القلب، كمخلبٍ، لكنّه لم

يكن مخلباً يجرح أنسكي أو خصوم إيفانوف الحقيقيّين، بل هو بالأحرى شبيه بمخلبٍ يبقى بعد أن يُقذف معلقاً وسط الغرفة، مثل بالون هيليوم، مخلب يعي ذاته، حيوان-مخلب كان يتساءل ماذا كان يفعل في تلك الغرفة الأقرب إلى الفوضوية، مَنْ يكون هذا العجوز الجالس إل الطاولة، من يكون هذا الشابُّ الواقف بشعره المنكوش، قبل أن يسقط على الأرض، مفشوشاً، مُعاداً مرّة أخرى إلى العدم.

- يا إلهي، ما هذه الصرخة التي صرختُها -قال إيفانوف.

راحا بعدها يتكلّمان عن الشابّة ناديا، ناديشا، ناديوشكا، ناديوشكينا، وإيفانوف قبل أن يطلق العنان لنفسه، أراد أن يعرف ما إذا كانا قد مارسا الحبّ. أراد بعدها أن يعرف كم ساعة مارساه. ثمّ ما إذا كانت ناديوشكا خبيرة أم لا. ثم الوضعيات. وبما أنّ أنسكي أخذه الجانب العاطفيّ، يا للشباب الملعون، كان يقول، يا للشباب البائسين جداً. أه، يا لها من خنوصة، يا لها من خنزيرة. أه من الحب. جعله الجانب العاطفي، هذا الجانب الذي يمكن أن يُرى لكنه لا يمكن أن يُلمس، يتذكّر أنّه كان عارياً، ، ليس هناك، وهو جالس إلى الطاولة، فهو كان متلفعاً بدثار أحمر، دثار أو، للدقّة دُثيّر يحمل إشارات الحزب الشيوعي للاتحاد الروسي مطرّزة على طيّته ومنديل حريري على رقبته، هدية من كاتب فرنسي نصف لوطي، تعرّف عليه في أحد المؤتمرات والذي لم يقرأ له بعدها شيئاً، بل عارياً بالمعنى المجازي، عارياً من كلّ تلك الجبهات، السياسية والأدبية والاقتصادية، وهذا اليقين جعله يقع في الكآبة.

- ناديا يورينيفا، أظنّ، طالبة أو تتعلّم الشعر -قال-، وتكرهني من أعماقها. تعرّفتُ عليها في جنازة غوركي، هي ومعها أزعران طردوني من هناك. ليست سيّئة. أيضاً الآخران. ربّما كانا شيوعيَّين جيّدين، طيّبي القلب، سوفيتيَّين حقيقيَّين.

ثم أشار إيفانوف إلى أنسكي كي يقترب.

- لو كان الأمر بأيديهما -همس له في أذنه- لرموني برصاصة هناك بالذات، أبنا العاهرة وجرّا بعدها جثتي إلى ثقب المقبرة الجماعية.

كانت تفوح من نَفَسِ إيفانوف رائحة فودكا، حامضة وكثيفة، رائحة شيءٍ يتفسّخ، يُذكّر ببيوت فارغة بجانب المستنقعات، بغروب في الرابعة مساء، ببخار يصعد من الأعشاب المريضة حتى تُغطّي النوافذ المظلمة. فيلم رعب، فكّر أنسكي. حيث كلّ شيء متوقّف، ومتوقّف، لأنّه يعرف أنّه خاسر.

لكنّ إيفانوف قال آه، إنّه الحبّ، وقال أنسكي على طريقته آه، إنّه الحب. وهكذا راح خلال اليومين التاليين يبحث، دون كلل، عن ناديا يورينيفا، وأخيراً وجدها ترتدي سترتها الجلديّة الطويلة، جالسة في أحد مدرجات جامعة موسكو، تعلوها ملامح اليتيمة، اليتيمة الطوعية، تستمع إلى خطابات حماسية أو قصائد أو ترّهات مقفاة من متحذلق (أو كائناً ما كان) يُنشد وهو ينظر إلى جمهوره بينما يده اليسرى تُمسك بمخطوطه التافه، الذي يلقي عليه من حين إلى آخر نظرة، فقد كان واضحاً أنّه يملك ذاكرة جيّدة.

ورأت ناديا يورينيفا أنسكي فنهضت برصانة وخرجت من المُدرّج حيث الشاعر السوفييتي السيّئ (الذي هو من اللاوعي والغباوة والتكلّف والتهيّب والمتصنّع كشاعر غنائيّ مكسيكي، في الحقيقة كشاعر غنائي أمريكي لاتيني، أولئك المسوخ البائسين المساكين الكسيحين والمنتفخين) يفرط قوافيه عن إنتاج الفولاذ (بالجهل الانبطاحي والمتعجرف الذي يتكلّم به الشعراء الأمريكيون اللاتينيون عن أنفسهم، عن عمرهم، عن الآخر المغاير)، وخرجت إلى شوارع موسكو، يتبعها أنسكي، الذي لم يكن يقترب منها، بل خلفها، على بعد خمسة أمتار، المسافة التي راحت تقصر مع مرور الوقت واستطالةِ

المشوار. لم يسبق أن فهم أنسكي كما الآن-وبسعادة كبيرة- التفوّقيّة التي أبدعها كازيمير مالفيتش، ولا النقطة الأولى من بيان الاستقلالية ذاك الموقّع في فيتبيسك في الخامس عشر من تشرين الثاني ١٩٢٠، والذي يقول: «أقرّ البعدُ الخامس».

في عام ١٩٣٧ أوقفوا إيفانوف.

عادوا واستجوبوه طويلاً، زجّوه بعدها في زنزانة، بلا ضوء ونسوه. لم يكن مستجوِبُهُ يملك أدنى فكرة عن الأدب وكان اهتمامه الرئيسي هو أن يعرف ما إذا كان إيفانوف يحضر اجتماعات المعارضة التروتسكية.

صادق إيفانوف خلال فترة وجوده في الزنزانة جرذاً منحه اسم نيكيتا. راح إيفانوف يُقيم معه، حين كان يظهر ليلاً، أحاديثَ طويلة. لم يكونا يتكلمان، كما يمكن أن يُفترض، عن الأدب ولا بشكل من الأشكال عن السياسة، بل عن طفولتهما. كان إيفانوف يحكي للجرذ أشياء عن أمّه، التي كثيراً ما كان يُفكِّر بها وأشياء عن أخوته. أمّا الجرذ فبالكاد كان يُكلّمه، بروسيته التي بالكاد تكون مهموسة، عن مجارير موسكو، عن سماء المجارير، حيث وبسبب ازدهار بعض التفتت أو عملية إشعاع غامضة، كان هناك دائماً نجوم. أيضاً كان يحدّثه عن دفء أمّه، عن شقاوة أخواته التي لا معنى لها وعن الضحكة الكبيرة التي كانت تحدثها عنده تلك الشقاوات وإنّه حتى اليوم، في الذكرى ترتسم ابتسامة على وجهه، وجه الجرذ الهزيل. كان إيفانوف يترك الإنهاك يأخذه فيسندُ خدّاً على راحة يده ويسأل نيكيتا ماذا سيحلّ بهما.

عندها كان الجرذ ينظر إليه بعينين حزينتين وحائرتين بالتساوي وكانت تلك النظرة تجعل إيفانوف يُدرك أنّ الجرذ المسكين كان أكثر براءة منه. بعد أسبوع من زجّه في الزنزانة (بالرغم من أنّه كان بالنسبة

إلى إيفانوف عاماً أكثر مما كان أسبوعاً) عادوا واستجوبوه ودون حاجة لأن يضربوه جعلوه يوقّع عدداً من الأوراق والوثائق. لم يعد إلى الزنزانة. أخرجوه مباشرة إلى فناءٍ، رماه أحدهم بطلقة في نقرته ثم وضعوا جثّته في القسم الخلفي من شاحنة.

بدءاً من مقتل إيفانوف صار دفتر أنسكي فوضوياً، متقطّعاً ظاهرياً، وإن كان رِنْتِر عثر وسط تلك الفوضى على بناء وبعضِ النظام. كان يتكلّم عن الكُتّاب. يقول إنّ الكتّاب الوحيدين القابلين للحياة هم القادمون من الهامش أو من الأرستقراطية. الكاتب العمّالي أو البرجوازي، يقول هما مجرّد صورتين ديكوريتين. يتكلّم عن الجنس. يتذكّر ساد وشخصيةً روسية غامضة، الراهبَ لابّيشين، الذي عاش في القرن السابع عشر وترك عدداً من الكتابات (مرفقة برسومها التوضيحية) حول الممارسات الجنسية الجماعية في المنطقة الواقعة ما بين نهر دفينا وبيشورا.

فقط الجنس؟، فقط الجنس؟، يتساءل تكراراً أنسكي في ملاحظات مكتوبة على الهوامش. يتكلّم عن والديه. يتكلّم عن دوبلن. يتكلّم عن المثلية والعجز الجنسي. عن قارّة الجنس الأمريكية. يمزح حول الجنس عند لينين. يتكلّم عن مدمني المخدرات في موسكو. عن المرضى. عن قتل الأطفال. يتكلّم عن فلابيوس يوسيفوف. كلماته عن هذا المؤرخ مصبوغة بالحزن، لكن يمكن أن يكون حزناً مفتعلاً، ومع ذلك فأمام من سيفتعل أنسكي، إذا كان يعرف أن لا أحد سيقرأ دفاتره؟ (إذا كان أمام الله، فعندها يعامل أنسكي الله ببعض الازدراء، ربّما لأنّ الله لم يَضِعْ في شبه جزيرة كامشاتكا، يعاني من البرد والجوع وهو عانى). يتكلّم عن الشباب اليهود الروس الذين قاموا بالثورة والذين هم الآن (ربّما كتب هذا في العام ١٩٣٩) يسقطون كالذباب. يتكلّم عن يوري بياتاكوف، المغتال عام ١٩٣٧، بعد محاكمة موسكو الثانية.

يذكر أسماء، يقرؤها رِيْتِر لأوّل مرّة في حياته. ثم يعودُ بعد بضع صفحات ويذكرهم. كما لو أنّه هو نفسه يخاف أن ينساها. أسماءٌ وأسماءٌ وأسماء. الذين عملوا الثورة، الذين سيسقطون وتلتهمهم هذه الثورة ذاتها، التي لم تكن ذاتها بل أخرى، لم تكن الحلمَ بل الكابوسَ الذي يختبئ خلف أجفان الحلم.

يتكلّم عن ليف كامينيف. يذكره إلى جانب أسماء أخرى كثيرة أيضاً يجهلها رِيْتِر. ويتكلّم عن تنقّلاته بين عدد من بيوت موسكو، عن ناس أصدقاء يساعدونه احتمالاً ويَذْكُرُهم أنسكي بحذر أرقاماً، مثلاً: اليوم كنتُ في بيت ٥، تناولنا الشاي وتكلّمنا حتى ما بعد منتصف الليل، غادرتُ بعدها سيراً على قدميّ. كانت الأرصفة مغطاة بالثلج، أو اليوم كنت مع ٩، كلّمني عن ٧ راح بعدها يسرح بالكلام عن المرض، عن مناسبة أو عدم مناسبة العثور على دواء للسرطان. أو هذا المساء رأيتُ في المترو ١٣، دون أن ينتبه هو إلى وجودي، كنتُ أغفو جالساً وأترك القطارات تمرّ وكان ١٣ يقرأ كتاباً في المقعد المجاور، كتاباً عن رجال غير مرئيين، إلى أن ظهر قطاره وعندها نهض، صعد، دون أن يُغلق الكتابَ، بالرغم من أنّ القطار جاء ممتلئاً. وكذلك كان يقول: التقت عيوننا. مضاجعة أفعى.

ولا يشعر بأيّ رحمة تجاه نفسه.

يظهر في دفتر أنسكي الرسام الإيطالي أرشمبولدو غيسيب، أو جوزيف، أو جوزيفو أو جوسيفوس أرشيمولدو أو أرشيمبولدي أو أرشيمبولدوس، المولود عام ١٥٢٧ والمتوفى عام ١٥٩٣، هي المرة الأولى التي يقرأ فيها رِيْتِر شيئاً عنه، قبل أن يرى لوحةً له بكثير. حين أكون حزيناً وضجراً، يقول أنسكي في الدفتر، بالرغم من أنّ من الصعب تصوّر أنسكي ضجراً، مشغولاً في تمرير ساعات اليوم الأربع والعشرين، أفكّرُ بجيوزيف أرشيمبولدو فيتبخّر الحزن والسأم كما في

صباحٍ ربيعي بجانب بحيرة، مرور الصباح غير المحسوس الذي يقشع الانبعاثات التي تصّاعد من الضفّة، من المقاصب. هناك أيضاً ملاحظات عن كوربيه، الذي يعتبره أنسكي مثالَ الفنّان الثوريّ. يسخر، مثلاً، من مفهوم المانوية الذي يملكه بعضُ الرسامين السوفييتيين عن كوربيه. يُحاول أن يتصوّر لوحة كوربيه *العودة من المؤتمر*، حيث تظهر مجموعة من الرهبان وأصحاب الإنافة الكنسية سكرانين تماماً، التي رفَضت في القاعة الرسمية وفي قاعة الأعمال المرفوضة، وهو ما يغرق، حسب رأي أنسكي، الأعمالَ المرفوضة الرافضةَ في الخزي. مصير *العودة من المؤتمر* لا يبدو له نموذجياً وشاعرياً وحسب بل وواضحاً جدّاً: ثريّ كاثوليكي يشتري اللوحة وما إن يصل إلى بيته حتى يشرع بحرقها.

رماد *العودة من المؤتمر* يُحلّق ليس فقط في سماء باريس، يقرأ الجنديُّ الشابّ رِيْتِر والدموع في عينيه، الدموع التي تؤلمه وتوقظه بل أيضاً في سماء موسكو وسماء روما وسماء برلين. يتكلّم عن مرسم الفنان. يتحدّث عن صورة بودلير، التي تظهر في طرف الدفتر، قارئاً، ويُمثّلُ الشعر. يتكلّم عن صداقة كوربيه مع بودلير، مع دومبير، مع جول فاليس. يتكلّم عن صداقة كوربيه (الفنّان) مع برودون (السياسي) ويقارن آراء هذا بآراء حجل. كلّ سياسي يملك سلطة هو في مادّة الفن مثل حجل مريع، عملاق، قادر على أن يسحق جبالاً بقفزاته، بينما أيّ سياسيّ من دون سلطة مجرّد قسّ قرية، حجل بالحجم الطبيعي.

يتصوّر كوربيه في ثورة ١٨٤٨ ثمّ يراه في كمونة باريس، حيث لمع معظم الفنّانين والأدباء (حرفيّاً) بغيابهم عنها. كوربيه لا. كوربيه يُشارك بنشاطٍ ويعتُقِل بعد القمع ويُسْجَن في سانت-بيلاجيه، حيث يتفرّغ لرسم الطبيعة الصامتة. إحدى التهم التي وجّهتها إليه الدولةُ هي أنّه حرّض الحشود على تدمير عمود ساحة فاندوم، بالرغم من أنّ أنسكي لم يكن بهذا الخصوص متأكّداً تماماً أو أنّ ذاكرته خانته أو تكلّم سماعاً.

النصب التذكاري لنابليون في ساحة، فاندوم، النصب التذكاري المجرّد في ساحة فاندوم، عمود فاندوم في ساحة فاندوم.

على كلّ الأحوال المنصب العام الذي يتقلّده كوربيه بعد سقوط نابليون الثالث يؤهّله لحماية أنصاب باريس التذكارية، وهو ما يجب دون شك، وعلى ضوء الأحداث اللاحقة، أن يؤخذ على أنّه مزحة هائلة. ومع ذلك ففرنسا لا تحتمل المزاح فتستولي على كلّ أملاكه. يرحل كوربيه إلى سويسرا. يموت هناك في عام ١٨٧٧، يموت عن عمر ثمانية وخمسين عاماً، تأتي بعدها أسطر مكتوبة باليديشية بالكاد يفهمها رِيْتر. يفترض أنّها أسطرُ ألمٍ ومرارة. يستطردُ بعدها حول بعض لوحات كوربيه. المسماة *صباح الخير يا سيّد كوربيه*، يوحي إليه ببداية فيلم، فيلم يبدأ بشكل شاعري ثمّ لا تلبث أن يتحوّل شيئاً فشيئاً إلى فيلم رعب. *الآنسات على ضفاف السين* تستدعي عند أنسكي استراحةَ الجواسيس أو الغرقى القصيرة، ويقول أيضاً: جواسيس كوكبٍ آخر، ويقول أيضاً أجساد تُسْتَنفد بسرعة أكبر من أجسادٍ أخرى، ويقول أيضاً: أمراض، نقل أمراض، وأيضاً: استعداد للمقاومة، وأيضاً: أين يتعلّم المرء المقاومة؟، في أيّ نوع من المدارس أو الجامعات؟ وأيضاً: معامل، شوارع موحشة، مواخير، سجون، وأيضاً: الجامعة المجهولة، وأيضاً: بينما السين يتدفّق ويتدفّقُ ويَتَدَفّقُ ووجوه هؤلاء العاهرات المربعة تنطوي على جمال أكثر من جمال أجمل سيّدة أو ظهورٍ طالِعٍ من فرشاة أنغر أو ديلاكروَا.

هناك بعد ذلك ملاحظاتٌ فوضوية، مواعيدُ قطارات تخرج من موسكو، نور ظهيرةٍ رماديّة يسقط عمودياً فوق الكرملين، آخرُ كلماتِ جثّةٍ، الغلاف الأخير لثلاثية روائية يسجّل عناوينها: *الفجر الحقيقيّ*، *المساء الحقيقيّ*، *رعشة الغروب*، التي كان من الممكن لبنيتها وموضوعها أن يُخفّفا من حزمة جليد الطنفسة، أو ربّما أن يضفيا قليلاً من الجلال على الروايات الثلاثة الأخيرة، الموقّعة من قبل إيفانوف،

والتي كان من الصعب عليه أن يمنحها أبوّته، أو ربّما لا، ربّما أنّني حكمتُ على إيفانوف بشكل سيّئ، لأنّ جميع المعلومات التي أملكها تدلّ على أنّه لم يشِ بي، في الوقت الذي كان من الأسهل عليه أن يشي بي، أن يقولَ إنّه لم يكن مؤلّف هذه الروايات الثلاث، يُفكّرُ ويكتبُ أنسكي، ومع ذلك لم يفعل *هذا*، وشى بكلّ أولئك الذين أراد معذّبوه أن يشي بهم من أصدقائه القدامى والجدد، من مسرحيين وشعراء وروائيين، لكنّه لم يقل كلمة واحدة عنّي. بقينا شريكين في الخديعة حتى النهاية.

ما أروع الثنائي الذي كان من الممكن أن نُشكّله في بورنيو، يقول أنسكي ساخراً. ثمّ يتذكّر نكتة رواها له إيفانوف في زمن مضى، وأنّهم حكوا لهذا خلال حفلة في مقر تحرير المجلّة التي كان يعمل فيها آنذاك. كان هذا في حفل تكريم غير رسمي لمجموعة من علماء الإناسة السوفييتيين، الذين كانوا قد عادوا توّاً إلى موسكو. النكتة، نصفها حقيقة ونصفها أسطورة، تجري في بورنيو، في منطقة غابات وجبال تتوغّل فيها مجموعة من العلماء الفرنسيين. بعد أيّام عديدة من المشي، يصل الفرنسيون إلى منبع نهر، ثمّ وبعد أن يعبروا النهر يعثرون في أكثر مناطق الغابة كثافة على مجموعة من السكان الأصليين، الذين يعيشون عملياً في العصر الحجري. طبعاً أوّل شيء فكّر به الفرنسيون، وضّحَ أحدُ علماء الإناسة السوفييتيين، وهو شخص بدين وكبير الشاربين الجنوبيين المعقوفين، هو أنّ السكانَ الأصليين كانوا أو يمكن أن يكونوا أكلة لحوم بشرية، وللأمان ولكي يتجنبوا منذ البداية أيَّ نوعٍ من الخطأ سألوهم، مستخدمين لذلك مختلف لغات سكان الساحل مُرْفِقين الأسئلةَ بحركات واضحة كفاية، عما إذا كانوا يأكلون لحوماً بشرية أم لا.

فهم عليهم السكانُ الأصليون وأجابوهم بشكل صارم أن لا. عندها اهتمّ الفرنسيون بما كانوا يأكلون، ذلك أن وجبة خالية من

البروتين الحيواني بالنسبة لهؤلاء كانت كارثة. وحين سئل السكانُ الأصليون عن هذا أجابوا بأنّهم يصيدون، فعلاً، لكنّهم يصيدون قليلاً، إذ لم يكن يوجدُ في الغابات العليا حيوانات كثيرة، لكنّهم بالمقابل كانوا يأكلون ويطبخون بطرق عديدة لبَّ شجرة، تبيّن للفرنسيين الشكاكين بعد فحصه أنّه بديل رائع للتخفيف من النقص في البروتين. بقية طعامهم كان يتكوّن من تشكيلة واسعة من ثمار الغابة وجذورها ودرناتها. لم يكن السكان الأصليون يزرعون شيئاً. ما على الغابة أن تعطيه لهم ستعطيه وما لا تريد أن نعطيه لهم سيكون ممنوعاً عليهم إلى الأبد. تعايشهم مع النظام البيئي الذي كانوا يعيشون فيه كان كاملاً. حين كانوا يقطعون قشور بعضِ الأشجار ليستخدموها في الأكواخ التي كانوا يبنونها، في الحقيقة كانوا يُساهمون في ألا تمرضَ الأشجار. كانت حياتهم شبيهةً بحياة الزبّالين. كانوا زبّالي الغابة. ومع ذلك لم تكن لغتهم سوقيةً مثل لغة زبّالي موسكو أو باريس، كما لم يكونوا بضخامة أولئك ولا يظهرون عضلات معتبرة كما لم تكن لهم نظرة هؤلاء، نظرة مؤجّرين خراء، بل كانوا قصيرين ونحيلين ويتكلّمون كما لو بنصف صوت، كالعصافير، ويحاولون ألاّ يلمسوا الأجانب ومفهومهم للزمن لا علاقة له بمفهوم الزمن عند الفرنسيين. ربّما لهذا السبب، قال علم الإناسة السوفييتي ذو الشاربين الكبيرين، بسبب مفهوم الزمن حدثت الكارثة، فبعد خمسة أيّام من وجود علماء الإناسة معهم فكّروا أنّه صار بينهم من الثقة ما يجعلهم أصدقاء، متعاونين، أصدقاء جيدين، فقرّروا أن يحشروا أنفسهم في لغة السكان الأصليين وعاداتهم وعندها اكتشفوا أنّ السكان الأصليين، حين يلمسون أحداً، لا ينظرون إلى عينيه، سواء أكان فرنسيّاً أو واحداً من القبيلة ذاتها، مثلاً إذا ما داعب أبٌ ابنه يُحاول دائماً أن ينظر إلى مكان آخر، وإذا ما تقوقعت طفلة في حضن أمّها فإنّ الأم تنظر إلى جانبيها أو إلى السماء والطفلة، إذا كانت تعقل، تنظر إلى الأرض والرجال الذين كانوا يخرجون لجمع الدرنات ينظرون إلى وجوه بعضهم بعضاً، أي إلى

العيون، لكن إذا ما لمسوا بعد يوم سعيد بأيديهم أكتافَ بعضهم بعضاً فإنّهم يحرفون نظرتهم، وكذلك لاحظ وسجّل علماءُ الإناسة في دفاترهم أنّهم حين يتصافحون يقفون جانبياً وإذا كانوا ماهرين فإنّهما يمرّرون يدهم اليمنى من تحت إبط الذراع اليسرى ويتركونها مرتخية أو يضغطون قليلاً فقط وإذا كانوا أياسرَ يمرّرون اليد اليسرى من تحت إبط الذراع اليمنى وعندها قرَّر أحدُ علماء الإناسة، كان أحد علماء الإناسة السوفييتيين يحكي ضاحكاً ملء شدقيه، أن يُعلِّمهم كيف كانوا هم يُسلّمون، هم الذين جاؤوا من ما هو أبعد من المناطق المنخفضة وأبعد مما هو وراء البحر، وأبعد من المكان الذي تغرب فيه الشمس، ومن خلال الحركات أو باستخدام أحد علماء الإناسة الفرنسيين الآخرين كمتلقٍّ للتحية دلّهم على طريقة السلام عندهم في باريس، يدان تشدّان على بعضهما بعضاً، تتحرّكان أو تهتزّان، بينما الوجهان يبقيان ثابتي الجنان، أو يعبّران عن العاطفة أو المفاجأة والعينان تركّزان على عيني الآخر، صريحتين، بينما الشفتان تنفتحان وتقولان صباح الخير، يا سيّد جوفروَا، أو صباح الخير مسيو ديلهورم، أو صباح الخير مسيو كوربيه (وإن كان واضحاً، فكَّرَ رِيْتِر وهو يقرأ دفترَ أنسكي، أنّه لم يكن هناك أي مسيو كوربيه، وإذا وُجِد فستكون مصادفة مُنَغِّصة) تمثيل صامت كان أبناء البلد الأصليون ينظرون إليه بطيب خاطر، بعضهم بابتسامة على شفتيه وآخرون كأنّهم غارقون في بئر من الشفقة، صابرين وحصيفين ومهذّبين على طريقتهم على كلّ الأحوال حتى حاول عالم الإناسة أن يُجرّب السلام معهم.

بحسب صاحب الشاربين الكبيرين والمعقوفين حدث هذا في ضيعة صغيرة، هذا إذا كان من الممكن أن نسمي مجموعة أكواخ مموّهة دون دراية في الغابة بالضيعة. اقترب الفرنسيّ من ابن بلد أصلي وتظاهر كما لو أنّه سيصافحه. أبعد الرجل المحليّ نظرته بوداعة وأطلّ بيده اليمنى من تحت إبط ذراعه الأيسر. لكنّ الفرنسي فاجأه عندئذ وشدّ على

يده وبالتالي على جسمه وضغط على يده وهزّ ذراعه وتظاهر بالمفاجأة والفرح وقال:

- صباح الخير يا ابن البلد.

ولم يفلت يده وحاول أن ينظر إلى عينيه وابتسم له وكشف له عن بياض ابتسامته ولم يفلت يده بل إنّه ربت بيسراه على كتفه، صباح الخير يا سيدّ، يا ابن البلد، كما لو أنّه حقيقةً يشعر بالسعادة، إلى أن أطلق ابن البلد صرخةً مخيفة، ثمّ وبعد الصرخة لفظ كلمةً، غير مفهومة بالنسبة إلى الفرنسيين وإلى دليل الفرنسيين، وبعد هذه الكلمة انقضّ ابنُ بلدٍ آخر على عالم الإناسة المربّي الذي لم يفلت يدَ ابن البلد الأوّل بعد، وشقّ رأسه بحجر وعندها أفلت عالمُ الإناسة يدَ الآخر.

النتيجة: اهتاج أبناء البلد وانسحبَ الفرنسيون على عجلٍ إلى الضفّة الأخرى من النهر، مُخلّفين وراءهم أحد مواطنيهم ميتاً وموقعين إصابة قاتلة بين جماعة أبناء البلد في مناوشات الهروب. قلّب علماء الإناسة نخاعاتهم خلال أيّام كثيرة في الجبل ثمّ في بار على ساحل بورنيو، كي يقعوا على السبب الذي حوّل فجأة قبيلةً مسالمةً إلى أخرى عنيفة ومذعورة. ثمّ وبعد أن قلّبوا بالأمر كثيراً ظنّوا أنّهم عثروا على المفتاح في الكلمة التي لفظها ابن البلد «المعتدى عليه» أو «المُهان» وفي المصافحة السليمة والبريئة أيضاً. الكلمة المعنية هي داجاجي التي تعني آكل لحوم بشرية أو مستحيل، لكن أيضاً كان لها معانٍ أخرى، أحدها «الذي يستخدم العنف معي»، وقول هذه الكلمة بعد صرخة كانت تعني أو يمكن أن تعني «الذي يستخدم العنف مع مؤخرتي»، أي «آكل لحوم البشر الذي يلجني في إستي وبعدها يأكل جسمي»، وإن كان من الممكن أن تعني أيضاً: «الذي يلمسني (أو الذي يغتصبني) وينظر إلى عينيَّ (كي يأكل روحي)». الصحيح هو أنّ علماء الإناسة الفرنسيين صعدوا مرّة أخرى إلى الجبل بعد استراحة على الساحل، لكنّهم لم يروا بعدها السكان الأصليين.

حين كان لا يعود أنسكي يستطيع الاستمرار، يعود إلى أشيمبولدو، كان يُحبّ أن يتذكّر لوحاته، وكان يجهل حياته أو يتظاهر بأنّه يجهل كلّ شيء تقريباً، والتي بالفعل لم تكن حياة غارقة في ارتعاش كوريبه الدائم، لكنّه كان يجد في لوحاته شيئاً، نظراً لعدم وجود كلمة أفضل كان يُعَرِّفه أنسكي بالبسيط، الصفة التي ما كانت لتعجب الكثيرين من الضلبعين والمفسّرين لأعمال أرشيمبولدو .

كانت تقنية الميلانيّ تبدو له الفرحَ مُجَسّداً. نهاية المظاهر. أركاديا ما قبل الإنسان. ليست جميعها، حقاً، فمثلاً *الشواء* لوحة مقلوبةً ومعلقةً بطريقة معينة هي فعلاً طبق معدني كبير من القطع المشوية،التي يتميّزُ بينها الخروفُ الورديّ وأرنبٌ ويدان، ربّما يدا امرأة، أو مراهقة، تحاولان أن تغطّيا اللحم كيلا يبرد، وإذا ما عُلّقت بالعكس تُظهر لنا جذع جنديّ، بخوذة ودرع وابتسامة راضية وخجولة تنقصها بعض الأسنان، ابتسامة مرتزق عجوز مريعة، ينظر إليك، ونظرته مريعة أكثر من ابتسامته، كما لو أنّه يعرف أشياء عنك لا تخطر ببالك، يكتب أنسكي، كانت تبدو له لوحة رعبٍ. *الحقوقي* (القاضي أو الموظّف الرفيع برأسه المعمول من حيواناتِ صيد صغيرة وجسمه المعمول من كتب) أيضاً بدت له لوحة رعبٍ، لكنّ لوحات الفصول الأربعة كانت فرحاً خالصاً. كلّ شيء داخلَ كلِّ شيء، يكتب أنسكي. كما لو أنّ أرشيمبولدو تعلّم درساً واحداً، لكنّ هذا الدرس كان في غاية الأهمّية.

وهنا يُكَذّب أنسكي عدمَ اهتمامه بحياة الرسام ويكتب إنّه حين يهجرُ ليوناردو دافنشي ميلانَ في عام ١٥١٦ يورثُ تلميذَهُ بِرناردينو لويني كُتُبَ ملاحظاته وبعضَ رسوماته، ربّما رجع إليها، بعد مرور الزمن ودرسها الشابُّ أرشيمبولدو، صديق ابن لويني. حين أكون حزيناً ومنهكاً، يكتب أنسكي، أُغمِضُ عينيَّ وأعود لأعيش لوحات أرشيمبولدو فيتلاشى الحزن والإنهاك، كما لو أنّ ريحاً أعلى منهما، ريحاً برائحة النعناع تهبّ فجأة على شوارع موسكو.

تأتي بعدها كتاباته المشوّشة، عن هربه. هناك بعض الأصدقاء يتحادثون ليلة بكاملها حول فضائل الانتحار وعيوبه. رجلان وامرأة، في الاستراحات أو الأوقات الميتة التي يسمح لهم بها حديثهم عن الانتحار يتحدّثون أيضاً عن الحياة الجنسية لشاعر مختفٍ يعرفونه (في الحقيقة مقتول) وعن زوجته. شاعر أكمي وزوجته وقعا في الفاقة والمذلة دون راحة. زوجان يخرعان بدءاً من فقرهما وهامشيتهما لعبةً بسيطة جدّاً. لعبة الجنس. زوجة الشاعر تُمارس الجنسَ مع آخرين. ليس مع شعراء آخرين، فالشاعر وبالتالي زوجته أيضاً في اللائحة السوداء وبقية الشعراء يهربون منهما كما لو أنّهما مصابين بالبرص. الزوجة جميلة جدّاً. الأصدقاء الثلاثة الذين يتحدّثون في دفاتر أنسكي طوال الليل، يهزّون رؤوسهم بالموافقة. الثلاثة يعرفونها أو استطاعوا أن يروها ذات مرّة. جميلة جدّاً. امرأة مذهلة. عاشقة بعمق. الشاعرُ أيضاً يُضاجع نساء أخريات. لا يُضاجع شاعرات ولا زوجات أو أخوات شعراء آخرين، فالأكميّ المذكور سُمٌّ متنقّل والجميع يهربون منه. ثمّ إنّه لا يمكن القول بأنّه جميل. لا، لا. هو أقرب إلى القبيح. ومع ذلك يُضاجِع عاملات يتعرّف عليهن في المترو، أو وهو واقف في الصفّ في أحد الحوانيت. قبيح، قَبيح، لكنَّه حلو المعاملة، مخمليّ اللغة.

يضحك الأصدقاء. بالفعل يستطيع الشاعر أن ينشد، فذاكرته جيّدة، أكثر القصائد حزناً، والعاملات الشابات، وغير الشابات جدّاً، يزرفن الدموع حين يستمعن له. يذهبون بعدها إلى السرير، زوجة الشاعر، يعفوها جمالُها من أن تملك ذاكرة جيّدةً، لكنّ ذاكرتها بالمطلق أكثر تميّزاً من ذاكرة الشاعر، تذهب إلى السرير مع عمّال أو بَحّارة في إجازة أو مع رؤساء عمال أرامل هائلين لا يعرفون ماذا يفعلون بحياتهم وقوّتهم والذي بدا لهم اقتحام هذه المرأة الرائعة لعالمهم معجزة. أيضاً يمارسون الحبّ جماعياً. الشاعر، زوجته وامرأة أخرى. الشاعر وزوجته ورجل آخر. عامّة هم ثلاثة، لكنّهم يكونون في

بعض الأحيان أربعة وخمسة. يحدوهم أحياناً حدسٌ فيقدّم كلّ عشيقه بأبّهة ومراسم كبيرة، يعشق بعضهم بعضاً بعد أسبوع ثمّ لا يعودون ليروهم إطلاقاً، لا يعودون ليُشاركوا أبداً في تلك الحفلات الخلاعية العمالية الجماعية، أو ربّما يشاركون، هذا ما لا يُعرف أبداً. على كلّ الأحوال كلّ هذا ينتهي حين يقع الشاعر سجيناً ولا أحد يعرف عنه شيئاً، لأنّهم يقتلونه.

يعودُ الأصدقاء بعدها ليتكلّموا عن الانتحار ومنغصاته وميزاته، إلى أن يطلع الفجر وعندها يُغادر أحدُهم، أنسكي، البيتَ ويُغادر موسكو، بلا أوراق، تحت رحمة أيّ واشٍ. وهنا توجدُ مناظرٌ، مناظرٌ مرئية عبر الزجاجِ وزجاج مناظر، طرق ترابية ومحطات قطارات بلا أسماء حيث يجتمع الشباب المتسكعون الهاربون من كتاب لماكارينكو، وهناك مراهقون خُنثٌ ومراهقون مزكومون ينزل من أنوفهم خيط ماء وجداول وخبز قاس ومحاولة سرقة، يتفاداها أنسكي، لكنّه لا يقول كيف يتفاداها. وأخيراً تظهر قرية كوستِكينو. والليل. وحفيف الريح الذي يعرفه. وأمّ أنسكي التي تفتح الباب ولا تعرفه.

آخر تعليقات الدفتر مُقتضبة. بعد أشهر قليلة من وصوله إلى القرية مات والده، كما لو أنّه فقط كان ينتظره كي ينطلق برأسه إلى العالم الآخر. انشغلت أمّه بالجنازة وفي الليل حين كان الجميع نياماً تسلّل إلى المقبرة، وبقي برهة طويلة بجانب القبر، يفكّر بتهويمات. في النهار عادة ما كان ينام في العلّية متغطّياً حتى رأسه في ظلمة تامّة. في الليل كان ينزل إلى الطابق الأوّل ويقرأ على ضوء المدخنة، بجانب السرير الذي كانت تنام عليه أمُّهُ. في إحدى آخر مذكراته يذكر فوضى الكون ويقول إنّنا في هذه الفوضى وحدها يمكن أن نُدرك أنفسنا. في أخرى يتساءل ما الذي سيبقى حين يموت الكون ويموتُ معه الزمن والفضاء. صفر، لا شيء. ومع ذلك تُضحكه هذه الفكرة. خلف كلّ جواب

يختبئ سؤال، يتذكّرُ أنسكي أنّ فلاحي كوستِكينو يقولون. خلف كلّ جواب قطعي يختبئ سؤال أعقد منه. ومع ذلك فالتعقيد يُضحكه، وتسمعه أمّه أحياناً يضحكُ في العلّية، كما حين كان في العاشرة من عمره. يُفكّر أنسكي في أكوان متوازية. في تلك الأيام يغزو هتلر بولونيا وتبدأ الحربُ العالمية الثانية. تسقط وارسو، تسقط باريس، يبدأ الهجوم على الاتحاد السوفييتي. فقط في الفوضى يمكن أن ندرك أنفسنا. وذات ليلة يحلم أنسكي أنّ السماء محيط عظيم من الدم. في آخر ورقة في دفتره يخطّ طريقاً كي ينضمّ إلى رجال حرب العصابات.

بقي كي يُحلّ موضوع مخبأ الشخص الواحد داخل المدخنة. من بناه؟ من اختبأ فيه؟

بعد كثير من التمحيص قرّر رِيْتِر أنّ الباني كان والد أنسكي. ربّما بُني قبل عودة أنسكي إلى الضيعة. أيضاً هناك احتمال أن يكون الوالد قد بناه بعد عودة الابن، وهذا حقّاً أكثر منطقية، إذ وقتها فقط عرف الوالدان أنّ أنسكي عدوّ للدولة. لكنّ رِيْتِر حدس أنّ المخبأ، الذي كان أعمله بطيئاً وفنّياً وبلا عجلة، تمّ قد صُمّمَ قبل أن يعود أنسكي إلى الضيعة بكثير وهو ما يضفي على الأب هالة العرّاف أو المعتوه. أيضاً توصّل إلى استنتاج أنّه ما من أحد استخدم المخبأ.

طبعاً لم يستبعد الزيارة الحتمية لموظّفي الحزب، الذين تشمّموا داخل البيت الريفي باحثين عن أثر لِأنسكي، وبدا له محتملاً أن يكون هذا قد اختبأ خلال تلك الزيارات داخل المدخنة بل يكاد يكون أكيداً. لكن للحقيقة لا أحد اختبأ هناك، ولا حتى أم أنسكي حين وصلت فصيلة من مجموعة التصفية الجسدية سي. تصوَّرَ، هذا صحيح، أنَّ أمَّ أنسكي تُنقذ دفتر ابنها ورآها بعد ذلك في أحلامه تخرج وتتجه، مع يهود كوستِكينو الآخرين، إلى حيث كانت تنتظرهم العقيدة الألمانية، نحن، والموت.

كما رأى أيضاً أنسكي في أحلامه. رآه يسير في البرية، ليلاً، متحوّلاً إلى شخص بلا اسم. يقود خطواته نحو الغرب ورآه أيضاً يموت درزاً بالرصاص.

فكّر رِيْتِر لخلال بضعة أيّام أنّه هو من أطلق النار على أنسكي، وكان يرى في الليل كوابيس مريعة توقظه وتُبكيه. كان يبقى أحياناً ساكناً مُتقوقعاً في السرير، يسمع كيف كان يسقط الثلج على الضيعة. ما عاد يُفكّر بالانتحار، لأنّه كان يظنّ نفسه ميتاً. كان أوّل ما يفعله في الصباحات هو قراءة دفتر أنسكي، الذي كان يفتحه على أيّة صفحة. ومرّات أخرى كان يمشي مشاويرَ طويلةً في الغابة المغطاة بالثلج حتى يصل إلى السوفخوز القديم حيث يعمل الأوكرانيون تحت أمرة ألمانيّين مشمئزين.

حين كان يذهب إلى البناء الرئيسي في الضيعة ليبحث عن طعام كان يشعر كما لو أنّه في كوكب آخر. فهناك كانت المدخنة مشتعلة دائماً وفيها قدرا معسكرٍ كبيران مليئان بالحساء يغرقان الطابقَ الأوّل بالبخار. كانت تفوح منه رائحة الملفوف والتبغ وكان رفاقه يذهبون بالقميص أو عراة. كان يُفضّل الغابة حيث كان يجلس على الثلج إلى أن تبدأ مؤخّرته تتجمّد من البرد. كان يُفضل البيت الروسي الريفي حيث يُشعل النار ويجلس أمام المدخنة ليقرأ من جديد دفترَ أنسكي. يرفع نظره من حينٍ إلى آخر ويتأمل داخل المدخنة، كما لو أنّ شبحاً يشعُّ خوفاً وملاحةً ينظر إليه من هناك. وعندها كانت تجوب جسده قشعريرة لذيذة. كان يتصوّر أحياناً أنّه يعيش مع عائلة أنسكي. يرى الأمَّ والأبَ والشاب أنسكي يجوبون طرقَ سيبيريا وينتهي بأن يُغطّي عينيه. حين كانت تتحوّلُ النارُ إلى جمرات صغيرة لألاءة في الظلمة، كان يدخل بحذر شديد في المخبأ الدافئ ويبقى هناك برهة طويلةً، إلى أن يوقظه برد الفجر.

حلم ذات ليلة بأنّه عاد ليكون في القرم. لم يكن يتذكّر في أيّ جزء، لكن في القرم. كانت بندقيته تطلق النار وسط حرائق كثيرة تنبعث هنا وهناك كأنّها فوّارات مياهٍ ساخنة. يبدأ بعدها يمشي ويجد جنديّاً من الجيش الأحمر ميتاً على وجهه وسلاحه ما يزال في يده. حين ينحني كي يقلبه ويرى وجهه يخافُ، كما خاف في مرّات كثيرة، أن يكون لتلك الجثّة وجه أنسكي. وعندما كان يمسك بالجثّة من سترتها الحربية كان يُفكّر: لا، لَا، لا، لا أريدُ أن أتحمّل هذا الثقل، أريد لِأنسكي أن يعيش، لا أريده أن يموت، لا أريد أن أكون أنا القاتل، حتى ولو كان دون قصد، حتى ولو كان بالمصادفة، حتى ولو كان دون انتباه منّي. وعندها كان يكتشف دون مفاجأة بل بارتياح أنّ للجثّة وجهه هو نفسه، وجه رِيْتِر. حين استيقظ من هذا الحلم صباحاً استعاد الصوت. وكان أوّل شيء قاله:

- لم أكن أنا، يا للسعادة.

مع حلول صيف ١٩٤٢ تذكّروا جنودَ كوستِكينو وأُعيد رِيْتِر إلى فرقته. كان في القرم، كان في كيرش. كان على ضفاف كوبان وفي شوارع كراسنودار. طاف في القوقاز حتى بورِدنوفسك وسافر مع كتيبته عبر سهوب كالموكا، ومعه دائماً دفتر أنسكي تحت سترته الحربية، بين ثيابه، ثياب المجنون وثياب الجنديّ الموحّد. بلع الغبار ولم يرَ جنوداً أعداء، لكنّه رأى ويلكه وكروز والرقيب ليمكه ومع أنّه لم يكن من السهل التعرف عليهم، فقد تغيّروا ليس في بنيتهم الجسدية وحسب بل وفي أصواتهم، الآن صار ويلكه لا يتكلّم إلا بالدارجة فلا يكاد يفهم عليه أحد غير رِيْتِر، وكروز تبدّل صوته، كان يتكلّم كما لو أنّهم استأصلوا له خصيتيه منذ زمن طويل، والرقيب ليمكه ما عاد يصرخ إلا في مرّات قليلة جدّاً، في أغلب الأحيان كان يتوجّه إلى رجاله بنوع من الهمس، كما لو أنّه متعب أو أنّ المسافات الطويلة التي قطعها قد

نوّمته. على كلّ الأحوال أُصيب بجروح بليغة بينما كانوا يحاولون عبثاً أن يشقّوا طريقاً باتجاه توابّسِ وعينوا مكانه الرقيب بوبليتز. ثمّ جاء الخريف والطين والريح ثمّ وبعد الخريف قام الروس بهجوم معاكس.

تراجعت فرقة رِيْتِر، التي ما عادت تابعة للجيش الحادي عشر بل للسابع عشر، من إليستا إلى بروليتارسكايا ثمّ صعدوا ملتفين حول نهر مانيتش حتى روستوف. ثم تابعوا تراجعهم نحو الغرب حتى نهر ميوس، حيث ثبتت الجبهة. جاء صيف ١٩٤٣ وعاد الروس ليُهاجموا وعادت فرقة رِيْتِر لتتراجع. وفي كلّ مرّة كانوا يتراجعون فيها يصير عددُ الباقين أحياء أقل. مات كروز، ومات الرقيب بوبليتز. فوس الذي كان شجاعاً رفّعوه أوّلاً إلى رقيب ثمّ إلى ملازم، ومع فوس تضاعف عدد القتلى خلال أقل من أسبوع.

اكتسب رِيْتِر عادةَ تأمّلِ القتلى كمن يتأمل قطعةَ أرضٍ أو مزرعةً أو بيتاً ريفياً معروضاً للبيع ثمّ يُفتّش جيوبهم فربّما يحملون بعض الطعام المخبّأ. كان ويلكه يفعل الشيءَ ذاته، لكنّه كان يفعل ذلك مدندناً بدل أن يفعله صامتاً: عساكر بروسيا يستمنون لكنّهم لا ينتحرون. عمّدهما في الكتيبةِ بعضُ الرفاق باسم مصاصي الدماء. كان الأمر سيّان بالنسبة لِرِيْتِر. كان يُخرج في لحظات الراحة قطعة خبز ودفتر أنسكي من تحت سترته العسكرية ويشرع بقراءته. كان ويلكه يجلس أحياناً بجانبه وينام بعد وقتٍ قصير. سأله ذات مرّة عمّا إذا كان هو من كتب الدفتر. نظر إليه رِيْتِر كما لو أنّ السؤال كان غبيّاً إلى حدّ أنّه لا يستحق جواباً. عاد ويلكه ليسأله عمّا إذا كان هو من كتبه. بدا لِرِيْتِر أن ويلكه كان نائماً ويتكلّم في منامه. كانت عيناه شبه مُغمضتين وذقنه دون حلاقة ووجنتاه وحنكاه تبدو أنّها ستخرج من وجهه.

- كتبه صديق - قال.

- صديق ميت - قال صوت ويلكه النائم.

- تقريباً - قال رِيْتِر وتابع القراءة.

كان رِيْتِر يُحبّ أن ينام وهو يسمع صوت المدفعية. أيضاً ويلكه لم يكن يتحمّل الصمت الطويل وكان يدندن قبل أن يغمض عينيه. كان الملازم فوس على العكس، عادة ما يسدّ أذنيه عند النوم ويجد صعوبة في الاستيقاظ أو في أن يعود ليتكيّف مع الحراسة والحرب. كان عليهم أحياناً أن يهزّوه وعندها كان يقول وَيْحَكُم، ماذا يجري ويطلق اللكماتِ في الظلمة. لكنّه كان يكسب ميداليات، وذات مرّة رافقه رِيْتِر وويلكه إلى قيادة الفرقة كي يُعلق له الجنرال فون بِرِنْبِرغ بنفسه أعلى وسام يمكن أن يحصل عليه جنديّ من قوات الدفاع. كان هذا يوماً سعيداً بالنسبة إلى فوس، لكن ليس بالنسبة للفرقة ٧٩ التي كان فيها من العناصر الفعلية أقل من لواء، ففي المساء بينما كان رِيْتِر وويلكه يأكلان النقانق بجانب الشاحنة، هجم الروس على مواقعهم فاضطرّوا هم وفوس إلى العودة إلى الخطّ الأمامي. كانت المقاومة قصيرة وعادوا وانسحبوا. خلال الانسحاب تقلّصت الفرقة إلى حجم كتيبة وبدا قسم كبير من الجنود مجانين، هاربين من مشفى أمراض عقلية.

بعد بضعة أيام رحلوا نحو الغرب كيفما استطاعوا محافظين على نظام السرايا أو المجموعات التي راحت تتشكّل أو تتفكّك كيفما اتفق.

ذهب رِيْتِر وحده. كان يرى أحياناً أسراباً من الطائرات السوفييتية تمرّ وأحياناً يرى السماء، قبل دقيقة من زرقةٍ تُعمي، كانت تغيم فجأة وتفلت من عقالها عاصفة تدوم ساعات. رأى من فوق التلّ طابوراً من الدبابات الألمانية تمرّ نحو الشرق. كانت تبدو توابيت من حضارات الفضاء الخارجي.

كان يسير ليلاً ويختبئ نهاراً بأفضل ما يستطيع ويتفرّغ لقراءةِ دفتر أنسكي وينام وينظر إلى ما كان ينمو أو يحترق حوله. وكان يتذكّر أحياناً أُشْن البلطيق ويبتسم. وأحياناً يُفكّر بأخته الصغيرة ويبتسم أيضاً. كان قد مرّ زمن لم يتلقّ عنهم أخباراً. أبوه لم يكتب له قط، وكان رِيْتِر يظنّ أنه لا يفعل ذلك لأنّه لا يعرف الكتابة جيداً. أمّا أمّه فقد كتبت له

فعلاً. ماذا كانت تقول له في رسائلها؟ نسي رِيْتِر ذلك تماماً، فقط كان يتذكّر خطّها، حروفها الكبيرة والمرتعشة، أخطاءها النحوية، عريها. الأمهات يجب ألا يكتبن رسائل أبداً، كان يُفَكّر. على العكس من رسائل أخته، فقد كان يتذكّرها تماماً. وكان هذا يجعله يتسمُ وهو نائم على وجهه مخفيّاً بين العشب، بينما النعاس يهزمه. كانت رسائل تُحدّثه فيها أخته عن أشيائها وعن الضيعة، عن المدرسة، عن الملابس، ملابسه التي كانت تستعملها.

أنت عملاق، كانت تقول الصغيرة لوتِ. كان هذا التأكيدُ يُربكه في البداية. لكنّه فكّر أنّ طوله بالنسبة إلى طفلةٍ، طفلةٍ في غايةِ الحلاوة والرهافة مثل لوت، أشبه ما يكون بطول عملاق. خطواتُك تدوي في الغابة، كانت تقول لوت في رسائلها. عصافير الغابة تصغي إلى صوت خطواتك وتتوقّف عن الغناء. الذين يعملون في الحقل يسمعونك. المتخفون في غرفهم المظلمة يسمعونك. شبابُ الشبيبة الهتلرية يسمعونك ويهرعون لانتظارك في مدخل القرية. كلّ شيء فرح. أنت حيّ إذن فألمانيا حيّة. إلخ.

عاد رِيْتِر ذات يوم إلى كوستِكينو دون أن يعرف كيف. لم يكن قد بقي في الضيعة ألمان. السوفخوز كان خاوياً والبيوت لا تُطلّ منها إلا بضعة رؤوسٍ عُجُزٍ ناقصي التغذية ومرتعشين يُعلمونهم بواسطة الإشارات أنّ الألمان أخلوا الفنّيين وجميع الأوكرانيين الشاب، الذين كانوا يعملون لصالحهم في الضيعة. نام رِيْتِر في تلك الليلة في بيت أنسكي وشعر بالراحة أكثر مما لو أنّه عاد إلى بيته. أشعل ناراً في المدخنة وارتمى بلباسه على السرير. لكنّه لم يستطع أن ينام فوراً. راح يُفكّر في المظاهر التي كان يتحدَّث عنها أنسكي في دفتره ويُفكّر بنفسه. كان يشعر بنفسه حرّاً، كما لم يسبق أن كان قط في حياته، وبالرغم من أنّه كان سيّئ التغذية وبالتالي ضعيفاً إلا أنّه أيضاً كان يشعر بأن عنده من القوة ما يكفي كي يُطيل دافع الحريةِ، السيادةِ هذا إلى حيث يستطيع.

ومع ذلك فإمكانية ألا يكون كلّ ذلك إلا مظهراً شغلَهُ. كان المظهر قوّة احتلال للواقع، قال لنفسه، بل وللواقع في أقصى أبعاده وحدوده. كان يعيش في أرواح الناس وفي حركاتهم أيضاً، في إراداتهم وفي آلامهم، في الطريقة التي يُرتِّب بها المرء ذكرياته وفي الطريقة التي يُرتِّب بها المرءُ أولوياته. المظهر الذي يكثر في صالونات الصناعيين وفي عالم المجرمين. كان يملي القواعد، يثور على قواعده ذاتها (في ثورات يمكن أن تكون دموية، لكن ليس لهذا السبب لا تكون ظاهرية) كان يملي قواعد جديدة.

الاشتراكية القومية كانت مملكةَ المظهر المطلقة. الحب، فكّرَ، بشكل عام مظهر آخر. حبّي للوتّ ليس مظهراً. لوتٌ هي أختي وصغيرة وتعتقد أنّني عملاق. لكنّ الحبَّ، الحبَّ العاديّ والمألوف، حب الزوجين، في الإفطار والعشاء، في الغيرة والمال والحزن، مسرحٌ، أي مظهرٌ. الشباب مظهرُ القوّة، الحبّ مظهرُ السلام. لا الشباب ولا القوة ولا الحبّ ولا السلام يمكن أن تُمنح لي، قال لنفسه متنهّداً، ولا أنا أستطيع أن أقبل مثل هذه الهديّة. وحدها صعلكة أنسكي ليست مظهراً، وحدها سنوات أنسكي الأربع عشرة ليست مظهراً، فأنسكي عاش كلَّ حياته في عدم نضوج حانق، لأنّ الثورة، الحقيقيّة والوحيدة أيضاً غير ناضجة. نام بعدها ولم يحلم وذهب في اليوم التالي إلى الغابة ليبحث عن أغصان للمدخنة وحين عاد إلى الضيعة دخل فضولاً إلى البناء الذي عاش فيه الألمان شتاء الاثنين وأربعين ووجد الداخل مهجوراً وخرباً، بلا قدور ولا أكياس أرز، بلا بطانيات ولا نار في المدافئ، الزجاج مكسور ودرفات النوافذ الخشبية مُخَلّعة، الأرض متسخة وعليها بقع كبيرة من الوحل أو الخراء الذي كان يلتصق بنعل الحذاء إذا ما ارتكب الواحد هفوة ووطئها. على أحد الجدران كتب جنديٌّ بالفحم يحيا هتلر، على آخر كان هناك نوع من رسالة حبّ. في الطابق العلوي، تسلّى أحدهم ورسم على الجدران وعلى السقف! مشاهد يومية من حياة

الألمان الذين عاشوا في كوستِكينو. وهكذا كانت الغابة وخمسة ألمانيين مرسومين في زاوية، يمكن تمييزهم من قبعاتهم، يجرون عربات الحطب، أو يصطادون طيوراً. في زاوية ألمانيان يمارسان الحبّ، بينما ثالث مضمد الذراعين يراقبهما متخفياً خلف شجرة. في أخرى أربعة ألمانيين يرقدون نائمين بعد أن تعشوا يلمح بجانبهم هيكل كلب. في الزاوية الأخيرة يظهر رِيتِر نفسه، بلحية طويلة شقراء، يُطل من نافذة بيت أنسكي الخشبيّ، بينما في خارج البيت فيل وزرافة ووحيد قرن وبطّة في عرض. في وسط الإفريز، كي نسميه بطريقة ما، تنهض ساحة مبلطة، ساحة خيالية لم تملكها كوستِكينو قط، مليئة بالنساء أو بأشباح النساء بشعرٍ أجعد يذهبن من جانب إلى آخر صائحات، بينما جنديان ألمانيان يراقبان عمل مجموعة من الشباب الأوكرانيين يشيدون نصباً حجرياً كان شكله ما يزال غير مدرك.

كانت الرسوم فجّة وصبيانية والمنظور سابقاً على عصر النهضة، لكنّ ترتيب كلّ عنصر كان يسمح بأن تُستشف سخرية وبالتالي مهارة سرّية أكبر مما تقدّمه النظرة الأولى. فكّر رِيتِر حين عاد إلى البيت أنّ الرسام كان موهوباً، لكنّه كان قد جُنّ كبقيّة الألمان الذين قضوا شتاء العام ٤٢ في كوستِكينو. أيضاً فكّر بظهوره المفاجئ في الرسوم الجدارية. خَلُصَ إلى أنّ الرسام كان بالتأكيد يظنّ أنّه هو من جُنَّ. صورة البطّة، تغلق المسير الذي يترأسه الفيل، جعلته يفترض ذلك. تذكّر أنّه لم يكن في تلك الأيّام قد استعاد صوته بعد. أيضاً تذكّر أنّه في تلك الأيّام قرأ وأعاد قراءة دفتر أنسكي بلا توقّف، حافظاً عن ظهر قلب كلّ كلمة وشاعراً بشيء غريبٍ جدّاً وأنّ هذا الشيء كان يُشبه أحياناً سعادة وأحياناً أخرى ذنباً واسعاً وسعَ السموات. وأنّه كان يقبل الذنب والسعادة، بل وفي بعض الليالي يجمعهما وأنّ نتيجة هذا الجمع المتناقض كانت السعادة، لكنّها كانت سعادة مختلفة، تمزّقه بتهوّر وأنّها لم تكن بالنسبة إلى رِيتِر السعادة بل كانت رِيتِر.

وذات ليلة بعد وصوله إلى كوستِكينو بثلاثة أيّام، حلمَ بالروس ينقضون على القرية وأنّه كي يهرب منهم رمى بنفسه إلى الجدول، الجدول العذب وأنّه بعد أن سبح في الجدول العذب وصل إلى الدنيبر، وأن نهر دنيبر، ضفافَ الدنيبر كانت مليئة بالروس، الضفة اليسرى كما الضفة اليمن، وأنّ هؤلاء وأولئك راحوا يضحكون حين رأوه يظهر وسط النهر ويُطلقون عليه النار وحلم بأنّه أمام إطلاق النار كان يغوص في النهر ويترك التيار يجرفه، يخرج إلى السطح فقط كي يأخذ قليلاً من الهواء ويعود ليغوص وأنّه بهذه الطريقة جاب كيلومترات وكيلومتراتٍ من النهر، متحمّلاً أحياناً التنفس ثلاث دقائق أو أربع أو خمس دقائق، الرقم القياسي العالمي، إلى أن يُبعده التيار عن المكان الذي كان فيه الروس، بل إنّ رِيْتِر لم يتوقّف عن الغوص، كان يخرج، يتنفّس ويعود ليغوص، وكان قاع النهر مثل طريق حجريٍ ومن حين لآخر تظهر أفواج من الأسماك الصغيرة والبيضاء ومن حين لآخر يُصادف جثّة ذهب لحمها، ليست غير عظام مقشّرة، وهذه الهياكل التي كانت معالم في مجرى النهر يمكن أن تكون ألمانية أو سوفييتية، لا يمكن أن يُعرف، فالملابس تفسّخت والتيارات جرفتها باتجاه أسفل النهر وكان التيار في حلم رِيْتِر يجرفه أيضاً إلى أسفل النهر، وكان يخرج أحياناً وخاصّة في الليل إلى السطح ويتظاهر بالموت، كي يستطيع أن يرتاح أو ربّما أن ينام خمس دقائق بينما النهر ينتقل بلا توقّف نحو الجنوب وهو بين ذراعيه، وحين كانت تطلع الشمسُ يعود رِيْتِر ليغوص في قاع نهر دنيبر الهلاميّ، وهكذا كانت تمرّ الأيّام، وكان يمرّ أحياناً بالقرب من مدينة ويرى أضواءها وإذا لم يكن هناك أضواء يرى ظلال الجنود المتجمّدة من برد الليل، ظلالاً تسقط على سطح المياه المتماوجة وأخيراً صبّ ذات صباح دنيبر في البحر الأسود، حيث كان يموت أو يتحوّل، واقترب رِيْتِر من الضفّة النهر أو البحر، بخطوات مرتجفة، كما لو أنّه طالب، طالب لم يَكُنْهُ قط، يعود ليستلقي على الرمل بعد أن سبح حتى

الإنهاك، مخبولاً، في قمّة الإجازة، فقط كي يكتشف مرعوباً، بينما هو يجلس على الشاطئ، وينظر إلى المدى اللامحدود للبحر الأسود، ودفتر أنسكي الذي يحمله تحت سترته العسكرية، قد صار عجينة ورقية، الحبر ممحو للأبد، ونصف الدفتر ملتصق بثيابه أو بجلده والنصف الآخر قد صار جزيئات تطفو تحت الأمواج الناعمة.

استيقظ رِيتِر في تلك اللحظة وقرّر أنّ عليه أن يُغادر كوستِكينو بأسرع وقت ممكن. لبس ثيابه بسرعة وجهز أشياءه القليلة. لم يُشعل أي ضوء ولم ينفخ النار. فكّر بكلّ ما عليه أن يمشيه في ذلك اليوم. عاد قبل أن يخرج من البيت الخشبيّ ليضع بعناية دفترَ أنسكي في مخبئ المدخنة. فليعثر عليه الآن آخرُ، فكّر. فتح بعدها البابَ، أغلقه بحذر شديد وابتعد عن الضيعة بخطوات كبيرة.

التقى بعدَ عدّة أيام بطابور من فرقته وعاد إلى رتابة الانتظار والانسحاب، إلى أن مزّقهم السوفييتيون في البوغ، إلى الغرب من بورفومايسك، وانتقلت بقيّةُ الفيلق ٧٩ لتشكل جزءاً من الفرقة ٣٠٣. في عام ١٩٤٤، بينما كانوا يتّجهون إلى جاسي، ولواء سوفييتي محمول يدوس على كِعابهم رأى رِيتِر وجنود آخرون من سريّته سحابةَ غبارٍ أزرق تصعد نحو سماء الظهيرة. سمعوا بعدها صراخاً وغناءً منطفئاً جدّاً وبعد برهة رأى رِيتِر من خلال منظاره مجموعةً من الجنود الرومانيين يعبرون بستاناً بكلّ سرعة، كما لو أنّ شيطاناً أو خوفاً مسّهم ويدخلون في طريق ترابيّ يمضي موازياً للطريق العام الذي كانت تنسحب عبره فرقته.

لم يكن لديهم فائض من الوقت، فالروس كانوا سيصلون بين لحظة وأخرى، ومع ذلك قرّر رِيتِر وبعضُ رفاقه أن يذهبوا ليروا ما كان يجري. هبطوا التلَّ الذي كانوا يتخذونه كمرقب وعبروا على متن مركّبة مسلحة برشاش، الأدغالَ التي كانت تفصل بين الطريقين. رأوا نوعاً من القلعة الريفية الرومانية، مقفرة، مغلقة النوافذ وفناءً مبلطاً يمتدّ حتى

الإسطبلات. خرجوا بعدها إلى فسحة مكشوفة حيث كان ما يزال يوجد جنودٌ رومانيون متأخرون يلعبون بالزهر أو يحمّلون لوحاتٍ وقطعَ أثاث من القلعة في عربات (يجرونها بأنفسهم). في نهاية المنطقة المكشوفة كان هناك صليب كبير مصنوع من قطع كبيرة من الخشب المطلي بالبرنيش بألوان داكنة ربّما اقتلعوها من قاعة المنزل الريفي الكبرى. على الصليب المطمور في الأرض الصفراء كان هناك رجل عارٍ. سألهم الرومانيون الذين كانوا يعرفون قليلاً من الألمانية ماذا يفعلون هناك. أجابهم الألمان إنهم هاربون من الروس. لن يتأخّروا في الوصول، قال بعض الرومانيين.

- وماذا يعني هذا؟ -سأل ألماني مشيراً إلى الرجل المصلوب.

- قائد أركان جيشنا -قال الرومانيون بينما كانوا يسرعون في وضع غنائمهم في العربات.

- هل يعني أنكم ستفرّون؟ -سألهم ألمانيّ.

- هو كذلك -أجاب رومانيّ-، البارحة ليلاً قرّر الفيلق الثالث أن يفرّ.

- تبادل الألمان النظرات فيما بينهم، لم يعرفوا ما إذا كانوا سيطلقون النار على الرومان أم سيفرّون معهم.

- وإلى أين تذهبون الآن؟ -سألوهم.

- نحو الغرب، إلى بيوتنا -قال بعض الرومانيين.

- هل فكّرتم بالأمر جيّداً؟

- سنقتل من يحاول أن يمنعنا -قال الرومانيون.

أخذ أغلبهم بنادقهم، كما لو كي يؤكّدوا كلامهم، وكان هناك من سدّد دون أيّ حذر. للحظة بدا أنّ المجموعتين ستبدأان بإطلاق النار. في هذه اللحظة تماماً هبط رِيْتِر من العربة غير مبال بموقف الرومانيين والألمان وراح يمشي باتجاه الصليب والمصلوب. كان على وجه هذا

دم متخثّر كما لو أنّهم كسروا أنفه بأخمص البندقية ومع ذلك عرفه على الفور. إنه الجنرال إنترِسكو، الرجل الذي نام مع البارونة فون زومبِ في قلعة كارباتوس والذي تجسّس عليه هو وويلكه من الممر السرّي. كانوا قد انتزعوا عنه ثيابه تمزيقاً ربّما وهو ما يزال حيّاً، تاركين إيّاه عارياً تماماً باستثناء جزمة الخيّال. قضيب إنترِسكو، أير شموخ كان يبلغ في وضعية الانتصاب، بحسب التقديرات التي قام بها هو وويلكه وقتها، قرابةَ الثلاثين سنتيمتراً، كانت تهزّه بوهنٍ ريح المساء. عند أسفل الصليب كان هناك صندوق مفرقعات، كان الجنرال إنترِسكو يُسلي بها مدعوّيه. لا بدّ أنّ البارود كان مُبلَّلاً أو أن المفرقعات كانت منتهية الصلاحية ذلك أنّ الشيء الوحيد الذي كانت تفعله عند انفجارها هو أنّها تُحدث سحابة صغيرة من الدخان الأزرق لا تتأخّر في الصعود إلى السماء والاختفاء. علّق أحد الألمان، خلف رِيْتِر، على عضو الجنرال إنترِسكو الذكري. ضحك بعض الرومانيين واقترب الجميع، بعضهم أسرع من بعض من الصليب، كما لو أنّه عاد فجأة ليشدّهم إليه.

ما عادت البنادق تُصوّب على أحد وكان الجنود يمسكونها كما لو أنّها أداة من أدوات الزراعة وهم فلاّحون متعبون، يسيرون دائماً على حافّة الهاوية. كانوا يعرفون أنّ الروس على وشك أن يصلوا وكانوا يخافونهم، لكن ما من أحدٍ منهم قاوم فكرة الاقتراب للمرّة الأخيرة من صليب الجنرال إنترِسكو.

– كيف كان كرجل؟ –سأل ألمانيّ، وهو يعلم أنّ الجوابَ عنده سواء.

– لم يكن شخصاً سيّئاً –قال رومانيّ.

بقي الجميع بعدها منقبضين، بعضهم منخفضَ الرأس وآخرون ينظرون إلى الجنرال بعيون هاذين. لم يخطر لأحد أن يسأل كيف قتلوه. ربّما صفعوه، ثمّ رموه على الأرض وتابعوا ضربه. كان عود

الصليب مسوداً من الدم والقشرة اليابسة تصلُ داكنةً مثل عنكبوت حتى الأرض الصفراء. لم يخطر لأحدٍ أن يقول لهم أن يُنزلوه.

- ستتأخّرون حتى تعثروا على نموذج مثل هذا -قال ألمانيّ.

لم يفهم الرومانيون ما قاله. تأمّل رِيْتِر وجهَ إنترِسكو، كان مغمض العينين، لكنّ الانطباع الذي كان تُخلّفانه هو أنّهما كانت مفتوحتين جدّاً. كانت اليدان مثبتتين إلى الخشب بمسامير كبيرة فضّية اللون، ثلاثة في كلّ يد. كانت القدمان مسمرتين بمسامير حدّادٍ ثخينة. إلى يسار رِيْتِر شابّ روماني، لا يتجاوز الخامسة عشرة من عمره، لباسه الموحّد فضفاض جدّاً، يُصلّي. سأل عمّا إذا كان هناك أحد آخر في البيت. قالوا له هم فقط، فالجيش الثالث أو ما بقي من الجيش الثالث كان قد وصل قبل ثلاثة أيّام إلى محطّة ليتاكز وإنّ الجنرال، بدل أن يبحث عن مكان أكثر أماناً في الغرب، قرّر أن يذهب ليزور القلعة، التي وجدوها خالية. لم يكن فيها خدم ولا أيّ حيوان حيّ يمكن أن يأكلوه. بقي الجنرال يومين مغلقاً على نفسه غرفته ولم يبغِ أن يخرج. راح الجنود يهيمون في البيت، حتى عثروا على قبو الخمور، أطاحوا ببابه. وبالرغم من تحفّظات بعض الضباط راح الجميع يسكرون. في تلك الليلة فرّ ثلثُ الجيش. الذين بقوا فعلوا ذلك بإرادتهم، لم يجبرهم أحد، فعلوا ذلك لأنّهم كانوا يحبون الجنرال إنترِسكو، أو شيئاً من هذا القبيل. بعضهم خرج ليسرق من القرى المجاورة، ولم يعودوا. آخرون صرخوا من الفناء طالبين من الجنرال أن يعود ليتولى القيادةَ ويُقرّرَ ماذا يفعلون. لكنّ الجنرال بقي حابساً نفسه في الغرفة ولا يفتح الباب لأحد. وذات ليلةِ سكرٍ هوى الجنودُ بالباب. كان الجنرال إنترِسكو جالساً على كرسيّ كبير محاطاً بالشمعدانات والشموع يتأمّل ألبوم صور. وعندها حدث ما حدث. . في البداية دافع إنترِسكو عن نفسه، منهالاً عليهم بسوط الحصان. لكنّ الجنود جُنّوا من الجوع والخوف وقتلوه ثمّ سمّروه على الصليب.

- لا بدّ كلّفتكم كثيراً صناعة هذا الصليب الكبير -قال رِيْتِر.

- صنعناه قبل أن نقتل الجنرال -قال رومانيّ-. لا أعرف لماذا صنعناه، لكنّنا صنعناه حتى قبل أن نسكر.

عاد الرومانيون بعدها ليُحمّلوا غنائمهم وساعدهم في ذلك بعض الألمان وقرّر آخرون أن يذهبوا ليقوموا بجولة إلى البيت، ويروا ما إذا كان قد بقي شيء من الكحول في الأقبية وبقي المصلوب من جديد وحده. سألهم رِيْتِر قبل أن يذهبوا عمّا إذا كانوا يعرفون شخصاً يُدعى بوبِسكو، شخصاً كان يذهب دائماً مع الجنرال وربّما كان يعمل كسكرتير له.

-آه، النقيب بوبِسكو -قال روماني هازّاً رأسه بالإيجاب وبنبرة الصوت ذاتها، التي كان من الممكن أن يستخدمها بقوله النقيب أورنيتورّينكو-. هذا يجب أن يكون الآن في بوخارست.

بينما كانوا يتوجّهون إلى منطقة الأدغال مخلفين سحابةً من الغبار في الطريق، اعتقد رِيْتِر أنّه ميّز بعض الطيور السوداء تُحلقُ فوق الفسحة المكشوفة من حيث كان يراقب الجنرال إنترِسكو مجرى الحرب. علّق أحد الألمان، الذي كان يذهب بجانب الرشاش ضاحكاً، قائلاً ماذا سيظنّ الروس عندما يرون ذلك المصلوب. وما من أحد أجاب.

من هزيمة إلى هزيمة، عاد رِيْتِر أخيراً إلى ألمانيا.

استسلمَ في أيار ١٩٤٥، وهو في الخامسة والعشرين من عمره، بعد أن قضى شهرين متخفّياً في الغابة، إلى بعض الجنود الأمريكيين الشماليين وأُدخل إلى معسكر أسرى في ضواحي أنسباخ. هناك استحمّ لأوّل مرّة منذ أيام كثيرة، وكان الطعام جيّداً.

كان نصفُ أسرى الحرب ينامون في عنابر بناها بعضُ الزنوج الأمريكيين الشماليين، والنصفُ الآخر في خيام عسكرية كبيرة. كان يظهر كلَّ يومين زوّار يستعرضون أوراقَ الأسرى، مُتّبِعين نظاماً أبجديّاً

صارماً، . في البداية كانوا يضعون طاولة في الهواء الطلق وكان الأسرى يمرّون ويجيبون على أسئلتهم سؤالاً فسؤالاً. أشاد بعدها الجنود الزنوج، بمساعدة بضعة ألمان عنبراً خاصّاً من ثلاث غرف وصارت الصفوف تقف أمام هذا العنبر. لم يكن رِيتِر يعرفُ أحداً في المعسكر. رفاقه في الفرقة ٧٩ ثمّ في الفرقة ٣٠٣ قُتلوا أو سقطوا أسرى عند الروس أو فرّوا، كما فعل هو نفسه. ما تبقى من الفرقة كان يتوجّه إلى بيلسين، في المحميّة، حين غادر رِيتِر وسط الفوضى وحده. في معسكر أسرى أسباخ حاول ألا يتواصل مع أحد. كان هناك في المساء جنود يُغنّون. كان الزنوج يراقبونهم من أماكن مراقبتهم ويضحكون، لكن وبما أنّه ما من أحد كان يفهم ظاهرياً كلماتِ الأغاني، كانوا يتركونهم يُغنّون حتى تحين ساعة النوم. آخرون اعتادوا أن يتمشوا من طرف المعسكر إلى طرفه الآخر، متأبطين بعضهم بعضاً يتحدّثون عن أكثر الموضوعات تبايناً. يقولون أنّه سرعان ما بدأت العداوات بين السوفيتيين والحلفاء. كانوا يتذاكرون حول ظروف مقتل هتلِر. يتحدّثون عن الجوع، وكيف أنّ محصول البطاطا سينقذُ ألمانيا مرّةً أخرى من الكارثة.

إلى جانب السرير الميداني لِرِيتِر كان ينام شخص في حدود الخمسين من عمره، مقاتل من قوات الاقتحام الوطنية فولكستورم. كان الرجل قد ترك لحيته تطول ولغته الألمانية عذبة وخافتة، كما لو أنّه ما من شيء مما كان يحدث حوله يؤثّر عليه. في النهار كان يتكلّم عادةً مع مقاتِلَيْن آخرَيْن سابقَيْن من قوات الاقتحام الوطنية خلال المشاوير، كانا يرافقانه في المشاوير وفي الطعام. ومع ذلك كان رِيتِر يراه أحياناً يكتب بقلم فحمٍ على ورق من كلّ الأنواع كان يخرجه من جيوبه ويخبّئه بعد ذلك بكثيرٍ من العناية. سأله ذات مرّة قبل النوم ماذا كان يكتب. قال له الرجل إنّه يُحاول أن يكتب أفكاره. وهو شيء، أضافَ، لم يكن بالنتيجة سهلاً أبداً. لم يسأله رِيتِر أكثر، لكن المقاتل السابق في قوات

الاقتحام الوطنية فولكستروم، كان دائماً يجد ليلاً، ودائماً قبل أن ينام، ذريعة كي يتبادل معه بعض الكلمات. بحسب ما حكى له، ماتت زوجته حين دخل الروس في كوسترين، مسقط رأسهه، لكنّه لا يحمل ضغينة ضدّ أحدٍ، فالحربُ هي الحربُ، كان يقول، ومن الأفضل حين تنتهي الحرب أن يسامح بعضنا بعضاً ونبدأ من جديد.

كيف نبدأ؟ أرادَ رِيتِر أن يعرف. نبدأ من الصفر، همس بألمانيته الرصينة، بفرحٍ وأيضاً بخيال. كان الرجلُ يُدعى زيلِر وكان نحيلاً ومنكمشاً. حين رآه يتمشّى في المعسكر، دائماً برفقة المقاتلَيْن السابقين في قوات الاقتحام الوطنية، كانت هيئته، ربما بالتناقض من هيئة رفيقيه، تشعّ كرامة عظيمة. وذات ليلة سأله رِيتِر عمّا إذا كان عنده عائلة.

- زوجتي -أجابه زيلِر.

- لكنّ زوجتك ميتة -قال رِيتِر.

- أيضا كان عندي ولد وابنة -سمعه يهمس-، لكنّهما أيضاً ماتا. ابني في معركة رأس كورسك وابنتي خلال قصف مدينة هامبورغ.

- أوليس عندك أقارب آخرين؟

- حفيدان، توأمان، طفلة وطفل، لكنّهما أيضاً ماتا في القصف الذي ماتت به ابنتي.

- لا حول ولا قوة إلا بالله -قال رِيتِر.

- أيضاً مات صهري، لكن ليس بالقصف، بل بعد أيّام، حزناً على موت ولديه وزوجته.

- شيء رهيب -قال رِيتِر.

- انتحر بتناول سمّ الفئران -همس زيلِر في الظلمة- احتُضِر خلال ثلاثة أيّام وسط أفظع الآلام والعذبات.

لم يعد رِيتِر يعرفُ ماذا يقول، جزئيّاً لأنّ النعاسَ راح يهزمه وكان آخر ما سمعه صوت زيلِر الذي يقولُ الحربُ هي الحرب ومن الأفضل

نسيان كلَّ شيء، كلّ شيء، كلَّ شيء. الحقيقة أنّ زيلِر كان يملك رصانة يُحْسَدُ عليها. كانت هذه الرصانة، من ناحية أخرى، لا تتعَكّر إلا عندما يظهر مزيد من الأسرى، أو عندما يعود الزوّار، الذين كانوا يستجوبونهم واحداً فواحداً داخل العنابر. بعد ثلاثة أشهر جاء دورُ أولئك الذين تبدأ كنياتهم بِ كيو وآر وإس واستطاع رِيْتِر أن يتكلّم مع الجنود ومع بعض الأشخاص الذين يرتدون اللباس المدني، الذين طلبوا منه بتهذيب أن يقف أمامياً وجانبيّاً ثم بحثوا عن زوجٍ من البطاقات في إضبارة كانت مليئة بالصور. سأله بعدها أحدُ المدنيين ماذا فعل خلال الحرب فاضطرّ رِيْتِر لأن يحكي لهم أنّه كان في رومانيا مع الفرقة ٧٩، ثمّ في روسيا، حيث جرّح عدّة مرّات.

أراد العسكريون والمدنيون أن يروا جراحه، فاضطرّ لأن يتعرّى ويريهم إيّاها. سأله أحدُ المدنيين الذي كان يتكلّم الألمانية بنبرة برلينية، عمّا إذا كانوا يأكلون جيّداً في معسكر الأسرى. قال رِيْتِر إنّه كان يأكل مثل ملك، وحين ترجمها الذي وجّه السؤال للبقيّة ضحك الجميع.

- هل يعجبك الطعام الأمريكي؟ -سأله أحد الجنود.

ترجم المدنيُّ السؤال فقال رِيْتِر:

- اللحم الأمريكي هو أفضل لحم في العالم.

عاد الجميع ليضحكوا.

- معك حقّ -قال العسكريّ-، لكنّ هذا الذي تأكله ليس لحماً أمريكياً، بل طعاماً للكلاب.

جعل الضحك المترجمَ (الذي فضّل عدم ترجمة الجواب) يسقط هذه المرّة مع بعض العساكر على الأرض. ظهر في الباب عسكريّ زنجيّ بوجه قلقٍ وسألهم عمّا إذا كان لديهم مشكلة من الأسير. أمروه أن يُغلق الباب ويرحل، إذ لا توجد مشاكل وهم يتبادلون نكاتٍ. أخرج بعدها واحدٌ منهم علبة تبغ وقدّم سيجارة منها إلى رِيْتِر. سأدخنها

لاحقاً. فجأة صار بعدها العساكر جدّيين وبدؤوا يُسَجّلون المعلومات التي راح رِيْتِر يقدّمها إليهم: سنةُ ومكانُ الولادة، اسمُ الأب واسمُ الأمّ، عنوان الوالدين وقريبَيْن أو صديقَيْن له على الأقل، إلخ.

في تلك الليلة سأله زيلِر ماذا جرى في الاستجواب، وحكى له رِيْتِر كلَّ شيء. هل سألوك في أيّ عام وأيّ شهر دخلت في الجيش؟ بلى. هل سألوك أين كانت شعبة تجنيدك. بلى. هل سألوك في أيّ فرقة خدمتَ؟. بلى. هل كان هناك صور؟ بلى. هل رأيتها؟ لا. حين أنّهى زيلِر استجوابَهُ الخاص غطّى وجهه بالبطانية وبدا أنّه نام، لكنّ رِيْتِر سمعه يتمتم بعد قليل في الظلمة.

في الزيارة الثانية، التي تمّت بعد أسبوع جاء إلى المعسكر محقّقان فقط، ولم يكن هناك صفوف ولا استجوابات. جعلا الأسرى يصطفون وراح الجنديان الزنجيان يتفحّصان الصفوف عازلَيْن منها ما مجموعه عشرة رجال، تقريباً، قاداهم إلى سيّارتين مغلقتين، حيث أدخلاهم بعد أن قيّداهم. قال لهم قائد المعسكّر يُشتبهُ بأنَّ هؤلاء مجرمو حرب، ثم أمروهم بالانصراف من الصفوف وبأن يتابعوا مجرى حياتهم العادي.

حين عاد الزوار بعد أسبوع، تفرّغوا للأحرف تي، يو وفي وهذه المرّة توتّر زيلِر حقيقةً. لم ينتب نبرتَهُ العذبة أي تبدّل، لكنّ خطابه وطريقته في الكلام تبدّلتا: كانت الكلمات تخرج من شفتيه متدافعة، هذيانه الليلي أفلت من عقاله. كان يتكلّم بسرعة وكأنّه مدفوع بسبب خارج عن سيطرته ولا يكاد يفهمه. كان يمطّ رقبته باتجاه رِيْتِر ويستند على مرفقه ويبدأ يهمس ويندب نفسه ويتصوّر مشاهد ازدهار تشكل معاً لوحة فوضوية من المكعبات الداكنة يتوضّع بعضها فوق بعض.

كانت الأمور تتغيّر نهاراً، تعودُ صورةُ زيلِر لتُشعَّ كرامة ولياقةً، وبالرغم من أنّه لم يكن يتواصل مع أحدٍ باستثناء رفيقيه القديمين من قوّات الاقتحام الوطنية (فولكستروم)، كان الجميع يحترمونه تقريباً ويعتبرونه شخصاً مهذّباً. ومع ذلك كان بالنسبة إلى رِيْتِر، الذي اضطُرَّ

لأن يتحمّل استجواباته الليلية، كان وجه زيلِر يُظهر تدهوراً تدريجياً، كما لو أنّ في داخله يقوم صراع لا هوادة فيه بين قوتين متعارضتين جدّاً. ما هاتان القوتان ؟ كان رِيْتِر يجهلهما، فقد كان يحدس أنّ كلتي القوّتين مصدرهما واحد ووحيد، هو الجنون. قال له زيلِر ذات ليلة إنّه لا يُدعى زيلِر بل سامّر وإنّه بالمنطق السليم ليس عليه أن يُقدّم نفسه إلى المُسْتَجْوِبين الأبجديين في زيارتهم القادمة.

في تلك الليلة لم يكن رِيْتِر نعساً وكان البدرُ يتسرّب من خلال نسيج الخيمة كما القهوة الساخنة من مصفاة مصنوعة من جورب.

– اسمي ليو سامّر وبعض الأشياء التي قلتها لك صحيحة وأخرى غير صحيحة –قال زيلِر المزيّف وهو يتحرّك في سريره كما لو أنّ جسمه كلّه يخزه– هل سمعت باسمي؟

– لا –قال رِيْتِر.

– ليس عليك أن تكون قد سمعت به، يا بُني، لست ولم أكن رجلاً مشهوراً، بالرغم من أنّ اسمي خلال الوقت الذي كنتَ فيه خارج بيتك، نما مثل ورمٍ سرطانيٍّ ويظهر الآن مكتوباً في أكثر الأوراق مصداقية –قال سامّر بألمانية عذبة وسريعة في كلّ مرّة أكثر–. طبعاً. لم يحدث أن كنتُ في قوات الاقتحام الوطنية. قاتلتُ، لا أريدك أن تعتقد أنّني لم أُقاتل، قاتلتُ، مثل كلّ ألماني ابن حلال، لكنّني خدمتُ في مسارح أخرى، ليس في ميادين المعركة العسكرية، بل في ميدان المعركة الاقتصادية والسياسيّة. زوجتي، والحمد لله، لم تمت –أضاف بعد صمتٍ طويل، راح هو ورِيْتِر يتأمّلان فيه النور الذي كان يلفّ الخيمة العسكرية مثل جناح طائر أو مخلبٍ–. ابني مات، هذا صحيح. ابني المسكين. كان شاباً ذكيّاً يُحبُّ الرياضةَ والقراءة. ماذا يمكن أن يُطلبَ من ابن أكثر من ذلك. كان جدّياً، رياضيّاً، قارئاً جيّداً. مات في كورسك. كنتُ وقتها نائبَ مدير منظّمة مكلّفةٍ بتزويد الرايخ بالعمّال،

كانت مقرات مكاتبها الرئيسية في قرية بولندية على بعد كيلومترات قليلة من مقرّ الحكومة العامّة.

حين أعلموني بالخبر، تخلّيتُ عن الإيمان بالحرب. وللطامّة الكبرى أظهرت زوجتي علامات مرض عقلي. لا أرغب بحالتي لأحد. ولا حتى لأسوأ أعدائي! ابن ميت في زهرة العمر، امرأة مصابة بشقيقة دائمة وعملٌ مُنهك يحتاج إلى أقصى جهدٍ وتركيزٍ من قبلي. لكنّني تجاوزتُ الأمر بفضل نباهتي المنهجية وإصراري. في الحقيقة كنتُ أعملُ كي أنسى مصائبي. كانت النتيجة، على كلّ حال أنّهم عيّنوني مديراً للمنظمة الحكومية التي كنتُ أمنحها خدماتي. بين يومٍ وآخر تضاعف العملُ ثلاثَ مرّات. إذ لم يعد عليّ فقط أن أرسل أيدٍ عاملة في المعامل الألمانية بل وصار عليّ أن أهتمّ بالمحافظة على سير على عملٍ بيروقراطيةٍ تلك المنطقة البولندية حيث تُمطر دائماً، منطقة ريفية حزينة كنّا نُحاول أن نُجَرْمِنَها وحيث كلّ الأيّام رمادية والأرض تبدو مغطاة ببقعة هائلة من السخام ولا أحد يتسلى بطريقة حضارية، والنتيجة كانت أنه حتى الأطفال في العاشرة من أعمارهم كانوا كحوليين، تصوّر، يا للأطفال المساكين، أطفال متوحّشون، وفوق ذلك لا يحبّون، كما سبق وقلتُ لك، غير الكحول وكرة القدم.

كنتُ أراهم أحياناً من نافذةِ مكتبي: يلعبون في الشارع بكرةٍ من الخرق وكانت سباقاتهم وقفزاتهم محزنةً حقيقةً، فالكحول المشروب كان يجعلهم يسقطون كلّ برهة ويخطئون في الأهداف المعلنة. أخيراً، لا أريد أن أضايقك، كانت مباريات كرة قدمٍ عادةً ما تنهي بالضرب بالأيدي، أو بالرفس. أو بكسر زجاجات البيرة الفارغة على رؤوس خصومهم. وكنتُ أرى كلَّ شيء من نافذتي ولا أعرف ماذا أفعل، يا إلهي، كيف يمكن القضاء على هذا الوباء، كيف يمكن تحسين وضعِ هؤلاء البريئين.

أعترفُ: كنتُ أشعر بنفسي وحيداً، وحيداً جدّاً، وحيداً جدّاً. لا

أستطيع أن أعتمد على زوجتي، فالمسكينة لم تكن تخرج من غرفتها المُعتمة، ما لم يكن كي تتوسّل إليّ راكعةً على ركبتيها أن أسمح لها بالعودة إلى ألمانيا، إلى بافاريا، حيث ستجتمع بأختها. ابني كان قد مات. ابنتي كانت تعيش في ميونيخ سعيدةً بزواجها وغريبةً على مشاكلي. كان العملُ يتراكمُ ومساعديَّ يفقدون أعصابهم في كلّ مرّة أكثر. الحرب لم تكن تسير كما يرام ثمّ إنّها ما عادت تهمّني. كيف يمكن أن تهمَّ الحربُ أحداً فقد ابنَه؟ بكلمة واحدة كانت حياتي تسير دائماً تحت سحب سوداء.

عندها جاءني أمرٌ جديد: كان عليّ أن آخذ على عاتقي مجموعةً من اليهود جاؤوا من اليونان. أظنُّهم جاؤوا من اليونان. يمكن أن يكونوا يهوداً هنغاريين أو يهوداً كرواتيين. لا أظنّ، الكرواتيون كانوا يقتلون يهودهم بأنفسهم. ربّما كانوا يهوداً صربيين. لنفترض أنّهم كانوا يونانيين. بالنسبة إليّ! لم يكن عندي أيّ شيء مُعدّ لاستقبالهم وإيوائهم. كان أمراً جاءني فجأة دون سابق إعلام. منظّمتي كانت مدنيّة وليست عسكرية ولا من فرقة الموت. لم يكن عندي خبراء في الموضوع. أنا فقط كنتُ أرسل عمّالاً أجانب إلى معامل الرايخ، لكن ماذا كنتُ سأفعل بأولئك اليهود؟ باختصار، الإذعان للأمر، قلتُ لنفسي، وذهبتُ ذات صباح إلى المحطّة لأنتظرهم. أخذتُ معي قائدَ الشرطة المحلّية وجميع رجال الشرطة الذين استطعتُ أن أجمعهم في اللحظة الأخيرة. القطار الذي كان قادماً من اليونان وتوقّف على سكّة مقطوعة. جعلني ضابط أُوَقّع على بعض الأوراق التي يُسلّمني بحسبها خمسمئة يهوديّ، بين رجال ونساء وأطفال. اقتربتُ بعدها من العربات وكانت الرائحة غير محتملة. منعتهم من أن يفتحوها كلّها. كان من الممكن أن تتحوّل إلى بؤرة موبوءة، قلتُ لنفسي. هتفتُ بعدها لصديقٍ، وصلني مع شخصٍ كان يُديرُ معسكر يهود بالقرب من شيلمنو. شرحتُ له مشكلتي، سألته ماذا يمكنني أن أفعل بيهوديَّ. عليّ أن أقول

لك إنّه لم يبقَ يهود في تلك البلدة البولندية، فقط أطفال سكارى ونساء سكارى وعجائز يكرّسون يومهم كلّه لملاحقة أشعة الشمس الهزيلة. قال لي مدير معسكر شيلمنو أن أهتف له بعد يومين، فهو أيضاً عنده، وإن لم أن أصدّقه، مشاكل يوميّة عليه أن يحلّها.

شكرته وأغلقت الهاتف. عدت إلى السكّة المقطوعة. كان الضابط وسائق القطار ينتظرانني. دعوتهم للإفطار: قهوة ونقانق وبيضاً مقلياً وخبزاً ساخناً. أكلا كخنزيرين. أنا لم آكل. كان رأسي في مكان آخر. قالا لي إنّ علي أن أخلي القطار، وإنّ الأوامر التي معهما هي أن يعودا إلى جنوب أوروبا في تلك الليلة ذاتها. نظرتُ إلى وجهيهما وقلت لهما هذا ما سأفعله. قال الضابط إنّ باستطاعتي أن أعتمد عليه وعلى حراسه كي أُفرغ العربات مقابل أن يساعده مستخدمو المحطّة في تنظيف العربات. قلت له إنّني موافق.

شرعنا بالعمل. جعلت الرائحةُ، التي كانت تنبعث من العربات حين فُتِحَت، حتى المرأة المكلّفة بمغاسل المحطّة تزمُّ أنفَها. خلال الرحلة مات ثمانية يهود. جعل الضابط الباقين أحياء يصطفون. لم يكن مظهرهم حسناً. أمرتُ بأن يأخذوهم إلى مدبغة مهجورة. قلتُ لأحد مستخدِمِيَّ أن يتوجّه إلى المخبز ويشتري كلَّ الخبز المتوفِّر كي يُوزَّع على اليهود. قلتُ له أن يُسجّلوه على اسمي، لكن افعلْ ذلك بسرعة. ذهبتُ بعدها إلى المكتب لأُنجزَ مسائل أخرى مستعجلة. أخبروني عند الظهيرة بأنّ قطار اليونان قد غادر البلدةَ. رأيتُ من نافذة مكتبي أولئك الأطفالَ السكارى يلعبون كرةَ القدم، وللحظة بدا لي أنّني أنا أيضاً أفرطتُ بالشرب.

كرّستُ بقيّةَ الصباح للبحث عن مأوى أقلّ ارتجالاً لليهود. اقترح عليّ أحد سكرتيريّ أن أشغّلهم. في ألمانيا؟، سألت. هنا، قال. لم تكن فكرة سيّئة. أمرتُ بأن تُعطى مكانس لقرابةِ خمسين يهوديّاً، موزّعين على مجموعاتٍ من عشرة وأن يكنسوا بلدتي، بلدة الأشباح.

عدتُ بعدها إلى أعمالي الرئيسيّة: كانوا يطلبون منّي من عددٍ من معامل الرايخ ألفي عاملٍ على الأقل. كان عندي أيضاً رسائل من الحكومة العامّة يطلبون منّي فيها أيدٍ عاملة متوفّرة. أجريتُ عدداً من المكالمات الهاتفية: قلتُ عندي خمسمئة يهوديّ جاهزون، لكنّهم كانوا يريدون بولنديين أو أسرى حرب إيطاليين.

أسرى حرب إيطاليون؟ في حياتي لم أرَ أسيرَ حربٍ إيطاليّاً! وكلّ الرجال البولنديين المتوفّرين سبق وأرسلتهم. لم أُبقِ عندي منهم غير الضروريّ جدّاً. هكذا عدتُ وهتفتُ إلى شيلمنو وسألته مرّة أخرى عمّا إذا كان يهمّه أم لا أمرُ اليهود اليونانيون .

- إذا كانوا قد أرسلوهم إليك فلأمر ما -أجابني صوتٌ معدنيّ-. تحمّل مسؤوليتهم.

- لكن أنا لا أدير معسكر يهود -قلتُ-، ولا أملك لتجربة الضرورية.

- أنت المسؤول عنهم -أجابني الصوتُ-، إذا كان عندك شكّ ما فاسأل من أرسلهم إليك.

- يا سيّدي -أجبتُ-، أعتقدُ أنّ من أرسلهم إليّ في اليونان.

- اسأل الشؤونَ اليونانية في برلين -قال الصوت.

جواب حكيم. شكرته وأغلقتُ. بقيت لثوانٍ أُفكّر بمناسبةٍ أو عدم مناسبةِ أن أهتف إلى برلين. فجأة ظهرت في الشارع مجموعة من الكنّاسين اليهود. توقّف الأطفال السكارى عن اللعب بكرة القدم وصعدوا إلى الرصيف، من حيث نظروا إليهم كما لو أنّ الأمرَ يتعلّقُ بحيواناتٍ. كان اليهود في البداية ينظرون إلى الأرض ويكنسون بوعي، يراقبهم شرطيٌّ من البلدة، لكنّ واحداً منهم رفع بعدها رأسه، لم يكن أكثر من مراهق، ونظر إلى الأطفال وإلى الكرة التي بقيت ساكنة تحت حذاء واحد من أولئك الأشقياء. فكّرت لثوان أنّهم سيبدؤون باللعب. كنّاسون ضدّ سكارى. لكنّ الشرطيّ كان يقوم بعمله بشكل جيّد،

فاختفت بعد برهة مجموع اليهود وعاد الأطفال ليشغلوا الشارع بتقليدهم للعبة كرة القدم.

عدتُ لأغرق في أوراقي. تابعت العملَ حول حمولة بطاطا ضاعت في مكانٍ ما بين المنطقة التي أشرف عليها ولايبزيغ، التي هي محطتها الأخيرة. أمرتُ بالتحقيق في القضيّة. لم أثق قط بسائقي الشاحنات. أيضاً عملت في قضيّة شمندر سكّري. وقضيّة جزر. في قضيّة بديل القهوة. أرسلت في طلب العمدة. جاء أحد سكرتيريّ ومعه ورقة يُؤكّد فيها إنّ شحنةَ البطاطا خرجت من منطقتي في القطار وليس في شاحنات. كان هناك نسخة عن وثيقةِ شحن، لكنّها ضاعت. اعثرْ على هذه النسخة، أمرته. سكرتير آخر جاءني بخبرِ أنّ العمدة كان مريضاً، طريحَ الفراش.

- هل هو في خطر؟ -سألتُ.

- رشح -قال سكرتيري.

- لينهض ويأتي -قلتُ له.

حين بقيتُ وحدي رحتُ أفكّر بزوجتي المسكينة، طريحةَ الفراش، مسدلةَ الستائر وقد جعلني هذا التفكير من العصبيّة بحيث أنّني رحت أجوب مكتبي من طرف إلى طرفه، إذ لو بقيت ساكناً لوقعت في خطر أن أتعرّض لجلطة دماغية. عندها رحت أرى مرّة أخرى مجموعة الكنّاسين تظهر في الشارع النظيف بشكل معقول وشلّني فجأةً الإحساسُ بأن الزمنَ يتكرّر.

لكن الحمد لله لم يكونوا الكنّاسين أنفسهم بل آخرين. المشكلة هي أنّهم كانوا يتشابهون أكثر من اللازم. ومع ذلك فالشرطيّ الذي كان يُراقبهم كان مختلفاً. الشرطيّ الأوّل كان هزيلاً وطويلاً ويمشي منتصبَ القامة جدّاً. الشرطيّ الثاني كان بديناً وقصيرَ القامة، كما أنّه يُقارب الستين من عمره، لكنّه يوحي بأنّه أكبر بعشر سنوات. لا شكّ أنّ الأطفال البولنديين الذين كانوا يلعبون بكرة القدم شعروا كما شعرتُ

أنا، وعادوا ليصعدوا إلى الرصيف كي يفسحوا الطريق لليهود. قال لهم أحدُ الأطفال شيئاً. افترضت وأنا ملتصق بزجاج النافذة أنّه كان يشتم اليهود. فتحت النافذةَ وناديت الشرطيّ.

- يا سيّد ميهنرت -ناديته من الأعلى-، يا سيّد ميهنرت.

في البداية لم يعرف الشرطيُّ من الذي كان يُناديه وراح يُدير رأسه إلى هذا الجانب وذاك، تائهاً، وهو ما أثار ضحك الأطفال السكارى.

- هنا في الأعلى، يا سيّد ميهنرت، هنا في الأعلى.

رآني أخيراً ووقف باستعداد. توقّف اليهودُ عن العمل وانتظروا. جميع الأطفال السكارى راحوا ينظرون إلى نفاذتي.

- يا سيّد ميهنرت، إذا ما شتم أحد هؤلاء الأشقياء عمّالي، أطلق عليهم النار -قلتُ له بصوتٍ عالٍ كي يسمعني كلّ العالم.

- ليس هناك أيّ مشكلة، يا صاحب السيادة -قال السيّد ميهنرت.

- هل سمعتني جيّداً؟ -سألته صارخاً.

- تماماً، يا صاحب السيادة.

- أطلق النار بمطلق الحرّية، بمطلق الحرّية، واضح، يا سيّد ميهنرت؟

- واضح كالماء، يا صاحب السيادة.

أغلقتُ بعدها النافذةَ وعدتُ إلى شؤوني. لم يكن قد مضى عليّ خمس دقائق وأنا أدرس تعميماً من وزارة الدعاية، حين قاطعني أحد سكرتيريّ ليقول لي إنّ الخبزَ قد سُلِّم إلى اليهود، لكنّه لم يكفِ الجميع. ومن ناحية أخرى حين كنتُ أراقب عمليّة التسليم، اكتشفتُ أنّ اثنين منهم قد ماتا. يهوديان ميتان؟، كرَّرتُ مذهولاً. لكن كلّ الذين نزلوا من القطار نزلوا بأنفسهم! هزّ سكرتيري كتفيه. قال ماتا.

- طيّب، طيِّب، طيّب، نحن نعيش في أزمنة غريبة، ألا ترى ذلك؟ -قلتُ.

- كانا عجوزين -قال سكرتيري-. وللدّقة أكثر، كانا أرجل وامرأة طاعنين في السن.

- والخبز؟ -سألتُ.

- لم يكفِ الجميع -قال سكرتيري.

- يجب أن نتدارك الأمر -قلتُ.

- سنُحاول -قال سكرتيري-، لكن اليوم مستحيل، يجب أن يكون غداً.

أزعجتني نبرةُ صوته في أعماقي. وبإيماءة أشرت له أن ينسحب. حاولتُ أن أعود وأركّز على عملي، لكنّني لم أستطع. اقتربتُ من النافذة. كان الأطفال السكارى قد ذهبوا. قرّرتُ أن أخرج لأتمشّى، الهواء البارد يُريح الأعصاب ويُقوّي الصحة، وإن وددت برغبة صادقة لو أذهب إلى بيتي، حيث كانت تنتظرني المدخنة المشتعلة وكتابٌ جيّد كي أُمرّر الساعات. قلتُ لسكرتيرتي قبل أن أخرج إذا كان هناك شيء مستعجل تستطيعون أن تجدوني في بار المحطّة. في الشارع وأنا أنعطف عند إحدى الزوايا صادفت العمدة، اسيّ تيبِّلكيرش، قادماً لزيارتي. كان يرتدي معطفاً ولفافة تُغطيه حتى أنفه وعدداً من الكنزات التي كان تضخم هيئته كثيراً. وضّح لي أنّه لم يستطع أن يأتي قبل ذلك لأنّ درجة حرارته كانت أربعين.

دَعْنا من المبالغة، قلتُ له دون أن أتوقّف عن المشي. اسأل الطبيب، قال هو من خلفي. حين وصلتُ إلى المحطّة وجدتُ عدداً من الفلاحين ينتظرون وصولَ قطار إقليمي القادم من الشرق، من منطقة الحكومة العامّة. بحسب ما أعلموني أنّ القطار، تأخرَ ساعة. كلّ شيء كان أخباراً سيّئة. شربتُ فنجان قهوة مع السيّد تيبِّلكيرش وتكلّمنا عن اليهود. أنا على إطلاع، قال السيد تيبِّلكيرش آخذاً فنجانه بكلتا يديه، شديدتي البياض والناعمتين، اللتين تتقاطع فيهما العروق.

فكّرتُ للحظةٍ بيدي يسوع. يدان جديرتان بأن تُرسما. ثمّ سألته

ماذا نستطيع أن نفعل. نعيدهم، قال السيّد تيبِّلكيرش، من أنفه كان يجري خيط ماء. أشرتُ إليه بإصبعي. لم يبدو أنّه فهم. مخّط، قلتُ له. آه، عفواً، قال ثمّ أخرج بعد أن بحث في جيوب معطفه أخرج منديلاً أبيض، كبيراً جدّاً وليس نظيفاً جدّاً.

- كيف سنعيدهم؟ -قلت-. هل عندي قطار تحت تصرّفي؟ وفي حال كان عندي: أليس عليّ أن أستغله لشيء أكثر إنتاجية؟

أصاب العمدةَ نوعٌ من التشنّج وهزّ كتفيه.

- شغِّلهم -قال.

- ومن يُطعمهم؟ الإدارة؟ لا، يا سيّد تيبِّلكيرش، استعرضتُ كلَّ الاحتمالات ولا يوجد غير واحدة متاحة: ندبهم إلى منظَّمة أخرى.

- وماذا لو أعرنا كلّ فلاح في منطقتنا يهوديين، ألن تكون فكرة جيّدة؟ -قال السيّد تيبِّلكيرش- على الأقل حتى يخطر ببالنا ما الذي سنفعله بهم.

نظرتُ إلى عينيه وخفضتُ صوتي:

- هذا يتعارض مع القانون وأنت تعرف ذلك -قلتُ له.

- حسن -قال هو- أنا أعرف ذلك، وأنت أيضاً تعرف ذلك، ومع ذلك وضعنا ليس حسناً ولن يُضيرنا قليلٌ من المساعدة، ولا أظنّ أنّ الفلاّحين سيحتجّون -قال.

- لا، ولا في الحلم -قلتُ.

لكنّني فكّرت بالأمر وأغرقتني أفكاري في بئرٍ عميقة ومظلمةٍ جدّاً، حيث كنت لا أرى، مُضاءً بومضات لا أدري من أين كانت تأتي، غيرَ وجهِ ابني مرّةً حيّاً ومرّةً ميتاً.

أيقظني اصطكاك أسنان السيّد تيبِّلكيرش. هل أنت مريض؟، سألته. قام بإيماءة الردّ عليّ، لكنّه لم يستطع وأغشي عليه بعد قليل. هتفتُ من البار إلى مكتبي وقلت لهم أن يرسلوا سيارةً. قال لي أحدُ سكرتيريَّ إنّه تمكّن من الاتصال بالشؤون اليونانية في برلين وإنّهم

يرفضون أيّ مسؤولية. حين ظهرت السيارةُ، استطعنا بيني وبين صاحب البار وفلاّح أن نُدخل السيّد تيبِّلكيرش فيها. قلتُ للسائق أن يوصله إلى بيته ويعود بعدها إلى المحطّة. رحتُ خلال ذلك ألعبُ بالزهر بجانب المدخنة. فلاح كان قد هاجر من أستونيا فاز بكلّ الأشواط. كان أولاده الثلاثة في الجبهة وكان في كلّ مرةّ يفوز فيها يلفظ عبارة تبدو لي إنْ لم تكن غريبة جدّاً فغامضة. الحظّ متحالف من الموت، كان يقول. وتصير عيناه عيني خروف مذبوح. كما لو أنّ علينا نحن الآخرين أن نرأفَ بحاله.

أظنّ أنّه كان شخصية شعبيّةً جدّاً في البلدة، وبخاصّة بين البولنديين، الذين لم يكن عندهم ما يخافونه من أرمل عنده ثلاثة أبناء صاروا كباراً وغائبين، عجوز، بحسب ما أعلم، عامّي جدّاً، لكنّه ليس بالشحيح كما هم الفلاحون عادةً، كان يهديهم من حينٍ لآخر شيئاً يأكلونه أو قطعةَ ملابس مقابل أن يذهبوا ليقضوا ليلةً في مزرعته. إنه دون جوان بكل معنى الكلمة. بعد برهة، حين انتهت المباراة ودّعتُ الحضورَ وعدتُ إلى مكاتبي.

عدتُ وهتفتُ إلى شيلْمنو، لكنّني لم أنجح هذه المرّة بالاتصال. قال لي أحد سكرتيريَّ إنّ موظّف الشؤون اليونانيّة في برلين اقترح عليه أن يتصل بثكنة سرايا الدفاع في الحكومة العامّة. النصيحة غير الموفّقة، فعلى الرغم من أنّ بلدتنا ومنطقتنا، بضياعها ومزارعها كانت على بعد كيلومتراتٍ قليلة من الحكومة العامّة، إلاّ أنها كانت تنتمي في الواقع إدارياً إلى مقاطعة ألمانية. ماذا نفعل إذن؟ قرّرت أنّني عمات في ذلك اليوم من العمل ما يكفي، وركّزتُ على مسائل أخرى.

قبل أن أغادر إلى بيتي هتفوا لي من المحطّة. القطارُ لم يصل بعد. صبراً، قلتُ. كنتُ في قرارة نفسي أعرف أنّه لن يصل أبداً. في الطريق إلى البيت بدأت تُثلِجُ.

في اليوم التالي نهضتُ باكراً وذهبتُ لأتناول طعام إفطاري في

كازينو البلدة. جميع الطاولات كانت فارغة. بعد برهة جاء اثنان من سكرتيريَّ، أنيقين تماماً، مُسَرحَيّ الشعر وحليقي الذقن تماماً بخبر أنّه في تلك الليلة مات يهوديان آخران. بماذا؟ سألتهما. كانا يجهلان. ببساطة كانا ميّتَيْن. ولم يكونا هذه المرّة عجوزين بل امرأة شابّة وابنها ابن الثمانية أشهر تقريباً.

خفضتُ رأسي منهاراً وتأمّلتُ لثوانٍ سطحَ قهوتي الداكن والوادِع. ربّما ماتا من البرد، قال. هذه الليلة أثلجت. هذا احتمال، قال سكرتيرايَ. شعرتُ أنّ كلّ شيء كان يدور حولي.

- هيّا بنا نرى هذا المأوى -قلتُ.

- أيّ مأوى؟ -فزع سكرتيريّ

- مأوى اليهود -قلتُ وقد نهضتُ سائراً باتجاه المخرج.

كما تصوّرتُ لم يكن من الممكن لحال المدبغة أن يكون أسوأ مما كان. حتى الشرطيون الذين يحرسون يتذمّرون. قال لي أحد سكرتيريَّ إنّهم يُعانون في الليل من البرد وإنّ المناوبات لم تكن محترمة كما يجب. قلتُ له أن يُسوّي موضوع المناوبات مع قائد الشرطة وأن يأتوهم ببطانيات. بما في ذلك اليهود طبعاً. همس لي السكرتير بأنّه سيكون من الصعب العثور على بطانيات للجميع. قلتُ له أن يُحاول، وإنّني أريد على الأقل أن أرى نصف اليهود عندهم بطانيات .

- وماذا عن النصف الآخر؟ -سألني السكرتير.

- إذا كانوا مُتضامنين فإنّ كلّ يهودي يشارك آخر ببطانيته، وإلا فتلك هي مسألتهم، أنا لا أستطيع أن أفعل أكثر من ذلك -قلتُ.

حين عدتُ إلى مكتبي لاحظتُ أنّ شوارعَ البلدة تظهر أكثر نظافة. مرَّ بقيّة النهار بشكل عاديّ، إلى أن تلقيت مكالمة من وارسو، من مكتب الشؤون اليهودية، وهي منظمة كانت مجهولة حتى تلك اللحظة. صوت له نبرة مراهق ظاهرة سأل عمّا إذا كان حقيقة أنّ اليهود اليونانيين

الخمسمئة عندي. قلت له بلى وأضفتُ لا أعرف ماذا أفعل بهم، إذ لا أحد أعلمني بوصولهم.

- يبدو أنّ خطأً قد حدث - قال الصوت.

- هذا ما يبدو - قلتُ، ولزمتُ الصمتَ.

طال الصمت برهة لا بأس بها.

- كان على ذلك القطار أن يُفرغ حمولته في أوشفيتز - قال صوتُ المراهق -، أو هذا ما أظنّه، لا أعرف جيّداً. انتظر قليلاً.

بقيتْ عشر دقائق والسماعة ملتصقة بأذني. خلال هذا الوقت ظهرت سكرتيرتي ومعها بعض الأوراق كي أوقّعها كما ظهر سكرتير آخر معه مُذكّرة حول شحّ إنتاج الحليب في منطقتنا، والسكرتير الآخر الذي كان يريدُ أن يقولَ لي شيئاً وأمرته أن يسكت فكتب على ورقة ما كان يريد أن يقوله: بطاطا مسروقة من لايبزيغ من قبل زارعيها أنفسهم. وهذا ما فاجأني كثيراً، فتلك البطاطا كانت قد زرعت في مزارع ألمانية، من قبل ناس استقرّوا في المنطقة توّاً ويُحاولون أن يحافظوا على سلوك مثاليّ.

كيف؟، كتبتُ على الورقة ذاتها. لا أعرف، كتب السكرتير تحت سؤالي، من المحتمل أن يكون من خلال تزوير أوراق الشحن.

بلى، لن تكون المرّة الأولى، فكّرتُ، لكنّهم ليسوا فلاحيّ. ثمَّ إنّه إذا كانوا هم فماذا أستطيع أن أفعل؟ أدخلهم جميعاً السجن؟ وماذا سأربح من ذلك؟ أترك الأراضي مهجورة؟ أكتبهم مخالفة وأُفقِرهم، أكثر مما كانوا؟ قرّرتُ أنّني لا أستطيع أن أفعل ذلك. حقّقتُ في القضيّة أكثر تحت رسالته. ثمّ كتبتُ: عمل جيّد.

ابتسم لي السكرتير، رفع يده، حرّك شفتيه كما لو أنّه يقول يحيا هتلر وغادر على رؤوس أصابع قدميه. وهنا سألني صوتُ المراهق:

- هل ما زلت على الخطّ؟

- أنا هنا - قلتُ.

- انظرْ، نظراً للوضع ليس لدينا وسائل نقل كي نذهب في طلب اليهود. إدارياً هم تابعون لسيليزيا العليا. تكلّمتُ مع رؤسائي وكنا متفقين على أنّ الأفضل والأنسب هو أن تتخلّص منهم بنفسك.

لم أجب.

- هل فهمت؟ -قال الصوتُ من وارسو.

- بلى، فهمتُ -قلتُ.

- إذاً كلّ شيء واضح، أليس كذلك؟

- هو كذلك -قلتُ-. لكنّ بودّي أن أستلم هذا الأمرَ مكتوباً - أضفتُ. سمعتُ ضحكة صادحة على الجانب الآخر من الهاتف. يمكن أن تكون ضحكة ابني، فكّرتُ، ضحكة تستحضر مساءات ريفية، أنهاراً زرقاء مليئة بأسماك الترويت ورائحة الأزهار والأعشاب المقتلعة باليد.

- لا تكن ساذجاً -قال الصوت دون أدنى عجرفة-، هذه الأوامر لا تُعطى أبداً مكتوبة.

لم أستطِع في تلك الليلة النوم. فهمتُ أنّ ما يطلبه منّي هو أن أُصفّي اليهودَ اليونانيين بنفسي، وعلى مسؤوليتي. في اليوم التالي هتفتُ من مكتبي لعمدة البلدة، لرئيس الإطفاء، لقائد الشرطة، لرئيس جمعية المحاربين، وتواعدت معهم في كازينو البلدة. قال لي رئيسُ الإطفاء إنّه لا يستطيع أن يذهب، لأنّ عنده فرس على وشك أن تَلِد، لكنّني قلت له إنَّ الأمر لا يتعلّق بلعبة زهر بل بشيء أكثر استعجالاً بكثير. أراد أن يعرف ما المسألة. ستعرف حين نلتقي، قلتُ له.

حين وصلتُ إلى الكازينو كانوا هناك ملتفين حول طاولة يستمعون إلى نكات نادلٍ عجوز. كان على الطاولة خبزٌ ساخن خرجَ توّاً من الفرن وزبدة ومربّى. سكتَ النادلُ حين رآني. كان رجلاً عجوزاً قصيرَ القامة ونحيلاً إلى أقصى الحدود. جلستُ على كرسيّ كان فارغاً وقلتُ له أن يأتيني بفنجان قهوة. وحين فعل قلتُ له أن يذهب. بعدها شرحتُ للبقيّة بكلمات قليلة الوضعَ الذي كنّا فيه.

قال رئيس الإطفاء يجب أن نهتف على الفور إلى سلطات أحدِ معسكرات الاعتقال، حيث يقبلون اليهود. قلتُ لهم إنّني تكلّمت من رجل من شيلمنو، لكّنه قاطعني وقال لي إنّ علينا أن نتواصل مع معسكر في سيليزيا العليا. دار الحديث في هذه الاتجاهات. جميعهم كان لهم أصدقاء يعرفون أحداً كان بدوره صديقاً لأحد، إلخ. تركتُهم يتكلّمون، شربتُ قهوتي بهدوء، قطعت الخبز نصفين، ودهنته بالزبدة وأكلته. وضعت بعدها مربّى على النصف الآخر وأكلته. كانت القهوة جيّدة. لم تكن مثل قهوة ما قبل الحرب، لكنّها جيّدة. قلتُ لهم حين انتهيتُ إنّ جميع الاحتمالات قد أُخِذَت بعين الاعتبار، وإن الأمر بالتخلّص من اليهود اليونانيين كان باتّاً. المشكلة هي كيف، قلت لهم. هل يخطر لكم طريقة ما؟

نظر ندمائي إلى بعضهم بعضاً ولم ينطق أحدٌ منهم بكلمة. سألتُ العمدةَ كي أكسر الصمتَ المزعجَ لا أكثر، كيف كان يسير رشحه. لا أظنّ أنّني سأتخطى هذا الشتاء، قال. ضحكنا جميعاً، ظانّين أنّ العمدةَ كان يمزح، لكنّه في الحقيقة قال ذلك بجدّية. تكلّمنا بعدها عن أمور الريف، بعض مشاكل التخوم القائمة بين مُزارِعَيْن بسبب نهر صغيرٍ غَيَّر مجراه دون أن يستطيع أحدٌ أن يُقَدّم تفسيراً مقنعاً حول ظاهرة أنّه، بين ليلة وضحاها، غير مجراه بحدود العشرة أمتار بطريقة غامضة ومزاجية، تؤثّر على سندات الملكية لمزرعتين متجاورتين كان يحدّهما النهر الصغير الشقيّ، أيضاً سألتُ عن شحنة البطاطا المختفية. لم أعطِ القضية أهمّية. سوف تظهر، قلتُ.

عدتُ في الظهيرة إلى مكتبي وكان الأطفال البولنديون هناك سكارى يلعبون بكرة القدم.

تركت يومين يمرّان دون أن أتخذ أيّ قرار. لم يمت عندي أيّ يهوديّ، ونظّم أحدُ سكرتيريَّ مع هؤلاء ثلاث مجموعات حدائق، إضافة إلى مجموعات الكنّاسين الخمس. كانت كلّ مجموعة مشكلة من

عشرة يهود، راحوا يُزيلون هشيم بعض الأراضي المتاخمة للطريق، الأرض التي لم يزرعها البولنديون قط ولا نحن زرعناها نظراً لعدم توفّر الوقت واليد العاملة. عملت أشياء أخرى قليلة، بحسب ما أتذكّر.

راح يتملّكني إحساس هائل بالملل. في الليالي، حين كنتُ أصلُ إلى البيت، أتناولُ عشائي وحدي في المطبخ، متجمّداً من البرد ونظري ثابت على نقطة غير معيّنة من الجدران البيضاء. ما عدتُ أفكّرُ ولا حتّى بابني الميت في كورسك، ولا أفتح المذياع كي أسمع الأخبار أو كي أسمع موسيقى خفيفة. في الصباحات كنتُ ألعب بزهر الطاولة في بار المحطّة وأسمع، دون أن أفهم تماماً، نكات الفلاحين البذيئة الذين كانوا يجتمعون هناك لقتل الوقت. هكذا مرَّ يومان من العطالة كانا كالحلم وقرّرت تمديدهما يومين آخرين.

ومع ذلك كان العمل يتراكم وأدركتُ ذات صباح أنّه لم يعد باستطاعتي الاستمرار بالتملص من المشاكل. هتفتُ لسكرتيريَّ. هتفتُ لقائد الشرطة. سألته كم من الرجال المسلحين يمكن أن يكون عنده لحلّ المشكلة. قال لي هذا متعلّق بالوقت، لكن حين تحين اللحظة يمكن أن يتوفر عندي ثمانية.

- وماذا نفعل بهم بعدها ؟ -قال أحدُ سكرتيريَّ.

- هذا ما سنحله الآن -قلتُ.

أمرتُ قائد الشرطة أن يذهب، لكن ليُحاول أن يبقى على اتصال دائمٍ بمكتبي. وصلتُ بعدها إلى الشارع يتبعني سكرتيريّ ودخلنا جميعاً في سيارتي. قادنا السائق إلى ضواحي البلدة. بقينا نصف ساعة ندور في طرق محلية ودروب عربات قديمة. كان ما يزال هناك في بعض المناطق ثلج. توقّفت في مزرعتين، بدتا مثاليتين وتكلّمتُ من المزارعين، لكنّ الجميع كان يخترع حججاً ويضع عراقيل.

كنتُ طيّباً أكثر من اللازم مع هؤلاء الناس، كنتُ أقول لنفسي ذهنيّاً، حان الوقت كي أظهر قاسياً. ومع ذلك فقد كانت القسوة على

خصام مع طبيعتي. على بعد خمسة عشر كيلومتراً من البلدة كان هناك وهدة يعرفها أحد سكرتيريَّ. ذهبنا لنراها. لم تكن سيّئة. كانت منطقة معزولة، مليئة بالصنوبر، تربتها داكنة، والجزء الأسفل منها مليئاً بالأعشاب ذات الأوراق اللحمية. بحسب سكرتيري كان بعض الناس يذهبون في الربيع إلى هناك ليصيدوا أرانب. لم يكن المكان بعيداً عن الطريق. حين عدنا إلى المدينة كنتُ قد قرّرت ما يجب عمله.

ذهبتُ في صباح اليوم التالي شخصياً لأبحث عن قائد الشرطة في بيته. اجتمع على الرصيف أمام مكتبي ثمانية شرطيين، انضمّ إليهم أربعة من رجالي (أحدُ سكرتيريَّ وسائقي وإداريان) ومزارعان متطوّعان كانا هناك فقط لأنّهما يرغبان بالمشاركة. قلتُ لهم أن يتصرّفوا بفعالية وأن يعودوا إلى مكتبي كي يُعلموني بما حدث. لم تكن الشمسُ قد بزغت حين غادروا.

في الخامسة مساءً عاد قائد الشرطة وسكرتيري. بدوَا مُتعبيْن. قالا إنّ كلَّ شيء قد تمّ كما خُطّط له. ذهبا إلى المدبغة القديمة وخرجا من البلدة ومعهم مجموعتان من الكنّاسين. ساروا خمسة عشر كيلومتراً. خرجوا عن الطريق وتوجّهوا بخطوات متعبة إلى الوهدة. وحدث هناك ما كان يجب أن يحدث. حدثت فوضى؟ سادت الفوضى؟ عمَّت الفوضى؟، سألتهما. قليلاً، أجاب الاثنان بانزعاج، وفضّلتُ ألا أتعمّق في هذه القضيّة.

في صباح اليوم التالي تكرَّرت العملية ذاتها، مع بعض التغييرات فقط: بدل المتطوّعَيْن كان عندنا خمسة وثلاثة شُرطيين بُدلوا بثلاثة آخرين لم يُشاركوا في أعمال اليوم السابق. بين رجالي حدث تغيير أيضاً: أرسلتُ السكرتير الآخر ولم أرسل أيّ إداريّ وإن استمرّ السائق في مهمّته.

عند العصر اختفت مجموعتان أخريان من الكنّاسين وفي الليل أرسلتُ السكرتير الذي لم يذهب إلى الوهدة ورئيس الإطفاء لينظّما أربع

مجموعات أخرى من بين اليهود اليونانيين. ذهبتُ قبلَ حلول الليل لأقوم بجولة في الوهدة. وقع معنا حادث وخرجنا عن الطريق. كان سائقي، هذا ما لاحظته بسرعة، أكثر توتّراً من المعتاد. سألته ما الذي يجري. تستطيع أن تتكلّم بصراحة، قلتُ له.

- لا أعرف، يا صاحب السيادة -أجاب-. أشعرُ بأنّني لست على ما يرام، لا بدّ أنّه من نقص النوم.

- هل أنت لا تنام؟ -سألته.

- أجدُ صعوبةً، يا صاحب السيادة، أجدُ صعوبةً، يعلم الله أنّني أحاول، لكنّني أجدُ صعوبةً.

أكّدتُ له أنّه ليس هناك ما يجب أن يقلقه. عاد بعدها ليُدْخِلَ السيارة في الطريق وتابعنا رحلتنا. حين وصلنا أخذت مصباحاً يدويّاً ودخلت في ذلك الطريق الشبحي. بدا أن الحيوانات قد انسحبت فجأة من المنطقة التي كانت تُحيط بمنطقة الوهدة. فكّرتُ أنّ المكان سيكون بدءاً من تلك اللحظة مملكة للحشرات. كان سائقي، الذي بدا غير راغب بشيء، يمضي خلفي. سمعته يصفرُ فقلت له أن يسكت. كانت الوهدة تبدو للنظرة الأولى مماثلة للمرّة الأولى التي رأيتها فيها.

- والثقب؟ -سألتُ.

- في ذلك الاتجاه -قال السائق مشيراً بإصبعٍ إلى أحد أطراف المنطقة.

لم أبغِ أن أقوم بتفتيشٍ أكثر دقة وعدتُ إلى البيت. في اليوم التالي عاد إلى العمل فصيل المتطوّعين عندي، مع التعديلات الصارمة التي فرضتها من أجل السلامة العقلية، . في نهاية الأسبوع كانت قد اختفت ثماني مجموعات من الكنّاسين، وهو ما يجعل مجموع اليهود اليونانيين المختفين يبلغ الثمانين. لكن بعد استراحة الأحد ظهرت مشكلة أخرى. بدأ الرجال يمتعضون من قسوة العمل. متطوّعو المزرعة، الذين بلغوا

في لحظة معيّة الستّة رجال، تقلّصوا إلى واحد. شرطيو البلدة تذرّعوا بمشاكل عصبية وحين حاولتُ أن أكلّمهم انتبهت بالفعل إلى أنّ حالة أعصابهم لم تكن تسمح بالمزيد. ناس مكتبي ظهروا كارهين للاستمرار في كونهم جزءاً فعالاً من العمليات أو أنّهم وقعوا فجأة في المرض. صحتي ذاتها، اكتشفت هذا ذاتَ صباح، بينما أنا أحلق ذقني، كانت معلّقة إلى خيط.

ومع ذلك طلبتُ منهم جهداً أخيراً وذهبوا في ذلك الصباح متأخّرين بشكل ملحوظ في طريقهم إلى الوهدة ومعهم مجموعتان أخريان. لم يكن ممكناً أن أعمل بينما أنا أنتظرهم. حاولتُ، لكنّني لم أستطِع. في السادسة مساءً حين حلّ الظلام عادوا. سمعتهم يُغنّون في الشوارع، سمعتُهم يُودِّعُ بعضهم بعضاً، أدركتُ أن الجميع كانوا سكارى. لم أَلُمْهُم.

صعد قائد الشرطة وأحدُ سكرتيريَّ والسائق إلى المكتب حيث كنتُ أنتظرهم تلفّني نُذُرٌ غامضة. أتذكّرُ أنّهم جلسوا (السائق بقي واقفاً، بجانب الباب) ولم يكن ضروريّاً أن يقولوا أيّ شيء كي أفهم كم وإلى أيّ حدٍّ استنفدتهم المهمّة الموكلة إليهم. يجب أن نعمل شيئاً، قلتُ.

لم أنم في تلك الليلة في البيت. قمت بجولةٍ في البلدة صامتاً بينما سائقي يقود السيارة وهو يُدخِّن سيجارةً، كرّمته بها أنا نفسي. في لحظة ما غفوتُ في المقعد الخلفيّ من سيّارتي، ملفوفاً ببطانيّة، وحلمتُ بأنّ ابني كان يصرخ إلى الأمام، إلى الأمام! دائماً إلى الأمام!

استيقظتُ مخدّراً. كانت الساعة الثالثة صباحاً حين مثلتُ في بيت العمدة. في البداية لم يفتح لي أحد وكدتُ أطيح بالباب رفساً. سمعتُ بعدها بعضَ الخطوات المتردّدة. كان العمدة. من؟، قال بصوتٍ تصوّرتُ أنّه صوتُ نِمسٍ. تكلّمنا في تلك الليلة حتى طلع الفجر. يوم الاثنين التالي، وبدل أن يخرج الشرطيون مع مجموعات الكنّاسين

خارجَ البلدة، انتظروا ظهور الأطفال لاعبي كرة القدم. أتوني بما مجمله خمسة عشر طفلاً.

أمرتهم أن يُدخلوهم إلى قاعة الاجتماعات في دار البلدية وتوجّهت إلى هناك يرافقني سكرتيريَّ وسائقي. حين رأيتهم كانوا من الشحوب، ومن الهزال، من الحاجة إلى كرة القدم والكحول، ما جعلني أشعر بالشفقة عليهم. كانوا جامدين هناك يبدون هياكل أطفال عظمية، رسوماً مهجورة، إرادة وعظاماً أكثر مما هم أطفال.

قلتُ لهم يوجد نبيذ وخبز وسجق أيضاً للجميع. لم يصدر عنهم أيّ ردّ فعل. كرّرت موضوع النبيذ والطعام وأضفتُ أنّه ربّما هناك أيضاً شيء يمكن أن يحملوه لعائلاتهم. فسّرتُ صمتهم كجواب إيجابيّ وأرسلتُهم إلى الوهدة على متن شاحنة برفقة خمسة شرطيين وحمولة عشر بنادق ورشاش كان يتعطّل عند أوّل استخدام. ثمّ أمرتُ أن يُنقل بقيّة الشرطيين برفقة أربعة فلاّحين مُسلّحين أجبرتهم على المشاركة تحت طائلة أن أُبلغ عن نصبهم المتواصل للدولة، ثلاثة مجموعات كاملة من الكنّاسين إلى الوهدة. كذلك أصدرتُ أوامر بألاّ يخرج أيّ يهوديّ في ذلك اليوم من المدبغة مهما كانت الذريعة.

عاد رجال الشرطة الذين قادوا اليهود إلى الوهدة في الثانية مساءً. أكلوا جميعاً في بار المحطّة وفي الثالثة كانوا في طريقهم مرّة أخرى إلى الوهدة يحرسون ثلاثين يهوديّاً. عاد الجميعُ في العاشرة ليلاً، الحرّاس والأطفال السكارى والشرطيون والذين حرسوا بدورهم ودرّبوا الأطفال على استخدام السلاح.

كلّ شيء جرى على ما يرام، حكى لي أحد سكرتيريَّ. كان الأطفال يعملون بالقطعة والذين كانوا يريدون أن ينظروا ينظرون والذين كانوا لا يريدون أن ينظروا يبتعدون ويعودون حين يكون كلّ شيء قد انتهى. في اليوم التالي أشعتُ بين اليهود أنّني أنقلهم جميعاً، في مجموعات صغيرة نظراً لنقص الوسائل إلى حقل عمل معدٌ لإقامتهم.

ثمّ تكلّمت مع مجموعة من الأمّهات البولنديات، اللواتي لم يُكلّفني كثيراً طمأنتهم وراقبتُ من مكتبي إرساليتين جديدتين من اليهود إلى الوهدة، كلّ مجموعة مكوّنة من عشرين شخصاً.

لكنّ المشاكل عادت لتظهر حين عادت لتُثْلِج. كان بحسب أحد سكرتيريَّ من المحال حفر حفرة جديدة في الوهدة. . قلت له إنّ هذا يبدو لي محالاً. في النهاية كان أسُّ المسألة يكمن في الطريقة التي حفروا بها الحفر. أفقية وليست شاقولية، بالعرض وليس بالعمق. نظّمت مجموعة وقرّرت معالجة المسألة في ذلك اليوم ذاته. كان الثلج قد محا كلّ أثر لليهود. بدأنا نحفر. بعد فترة قصيرة سمعت مزارعاً عجوزاً يُدعى بارْز يصرخ هناك يوجدُ شيء. ذهبتُ لأراه. بلى كان هناك شيء.

- هل أتابع الحفر؟ -سأل بارز.

- لا تكنْ أحمق -أجبتُه-، عدْ وغطّه كلّه، اتركه تماماً كما كان.

في كلّ مرّة كان يَعثر فيها أحدٌ على شيء كنتُ أُكرّرُ عليه الشيءَ ذاته. اتركه. غطّه. اذهب واحفر في مكان آخر. أتذكّر أنّ المسألة لم تكن تتعلّق بالعثور بل بـعدم العثور. لكنّ جميع رجالي راحوا، الواحد تلو الآخر يعثرون على شيء، وبالفعل وكما كان قد قال سكرتيري، كان يبدو أنّ في عمق الوهدة لم يكن هناك مكان لشيء آخر.

ومع ذلك فعنادي أتى أكلَهُ في النهاية. عثرنا على مكان فارغ وهناك جعلتُ جميع رجالي يعملون. قلتُ لهم أن يحفروا دائماً نحو الأسفل، أكثر إلى الأسفل، كما لو أنّنا نريد أن نصل إلى الجحيم، وأيضاً أردت للحفرة أن تكون عريضة مثل مسبح. في الليل وعلى ضوء المصابيح اليدوية استطعنا أن نعتبر العملَ منجزاً وغادرنا، في اليوم التالي ونظراً لسوء الطقس لم نستطع أن نحمل إلى الوهدة غير عشرين يهوديّاً. سكر الأطفال كما لم يسكروا قط. بعضهم لم يعد باستطاعته أن يبقى واقفاً على قدميه، وآخرون تقيّئوا في طريق العودة. الشاحنة

التي أتت بهم تركتهم في ساحة البلدة الرئيسية، غير بعيد عن مكتبي، وبقي كثيرون منهم هناك تحت رواق الساحة، معانقين بعضهم بعضاً بينما الثلج لا يتوقّف عن الهطول وهم يحلمون بمباريات كرة قدم أثيلية.

في صباح اليوم التالي أظهر خمسةُ من الأطفال أعراضاً تقليدية لالتهاب الرئتين والبقية، منهم من أظهر أكثر ومنهم من أظهر أقل وكانوا في وضع مؤسف يمنعهم من الذهاب إلى العمل. حين أمرتُ قائد الشرطة أن يستبدل الأطفال برجالنا، بدا في البداية رافضاً، لكنّه انتهى مُذعناً. تخلّص في ذلك المساء من ثمانية يهود. بدا لي رقماً تافهاً وهكذا أعلمته. كانوا ثمانية، أجابني، لكن بدا كما لو أنّهم ثمانمئة. نظرتُ إلى عينيه وفهمتُ.

قلتُ له سننتظر حتى يستعيدَ الأطفالُ البولنديون عافيتهم. ومع ذلك فالعاصفة السيّئة التي كانت تُلاحقنا لم يبدُ أنّها كانت مستعدة لأن تتركنا، مهما بذلنا من جهد للتغلّب عليها. مات طفلان بولندیان بالتهاب الرئة، متخبّطين في حرارة كانت بحسب طبيب البلدة مسكونة بمباريات كرة قدم تحت الثلج ويثقوب بيضاء تختفي فيها الكرات واللاعبون. وكدليل على الحزن أرسلت لأميهما بعضاً من شحوم الخنزير المُدخّنة وسلّة بطاطا وجزر. انتظرتُ بعدها. تركتُ الثلج يهطل. تركتُ جسدي يتجمد. ذهبت ذات صباح إلى الوهدة. كان الثلج هناك طريّاً، بل وطرياً بشكل مفرط. بدا لي لثوانٍ أنّني أسير فوق طبق كبير من القشدة، حين وصلت إلى الحافّة ونظرتُ إلى الأسفل وجدتُ أنَّ الطبيعةَ قد قامت بعملها. رائع. لم أرَ أثراً لأيّ شيء. لا شيء غير الثلج. بعدها حين تحسّن الطقسُ، عادت مجموعة الأطفال السكارى إلى العمل.

شجّعتهم. قلتُ لهم إنّهم يعملون جيّداً وإنّه صار عند عائلاتهم طعام أكثر، إمكانيات أكثر. هم نظروا إليّ ولم يقولوا شيئاً. ومع ذلك

كانت تُلمح في حركاتهم الرخاوةُ وعدم الرغبة التي كان يحدثها عندهم كلّ ذلك. أعرف جيّداً أنّهم كانوا يُفضّلون أن يبقوا في الشارع يشربون ويلعبون بكرة القدم. من ناحية أخرى لم يكونوا في بار المحطّةِ يتكلّمون إلا عن اقتراب الروس. كان بعضهم يقول إنّ وارسو ستسقط في أيّ لحظة. كان يهمسون بذلك. لكنّني كنتُ أسمعُ الهمسَ وكنتُ بدوري أهمسُ. نذر شؤمٍ.

قالوا لي ذات مساءٍ إنّ الأطفال السكارى شربوا حتى راحوا يتهاوون على الثلج الواحد تلو الآخر. زجرتُهم. لم يبدُ أنّهم فهموا كلماتي. كان الأمر عندهم سيّان. سألتُ ذات يومٍ كم من اليهود بقي عندنا. بعد نصف ساعة سلّمني أحدُ سكرتيريَّ ورقةً فيها مربع يُفصّل فيه كلّ شيء. خمسمئة يهوديّ وصلوا في قطار الجنوب، الذين ماتوا خلال الرحلة، الذين ماتوا خلال وجودهم في المدبغة القديمة، أولئك الذين تكفّلنا بهم نحن، أولئك الذين تكفّل بهم الأطفال السكارى، إلخ. وكان ما يزال عندي أكثر من مئة يهوديّ وكنّا جميعاً مُستَنْفَدين، رجال شرطتي، المتطوّعون والأطفال البولنديون.

ما العمل؟ طفح بنا كيلُ العمل. هناك بعضُ الأعمال، قلتُ لنفسي وأنا أتأمّل الأفقَ نصفَ الورديّ ونصف الآسن من نافذة مكتبي، لا يتحمّلُها الإنسانُ كثيراً. أنا، على الأقل، لم أكن أتحمّلها. كنتُ أحاولُ، لكنّني لم أكن أستطيع. وكذلك رجال شرطتي. خمسة عشر، لا بأس، ثلاثون أيضاً لا بأس، لكن حين يصل المرء إلى الخمسين فإنّ المعدة تتقلّب والرأس ينقلبُ رأساً على عقب ويبدأ الأرق والكوابيس.

أوقفت الأعمال. عاد الأطفال ليلعبوا بكرة القدم في الشارع. عاد رجال الشرطة إلى أعمالهم. والتحق الفلاحون بمزارعهم. لا أحد في الخارج كان يهمّه اليهود، ولذلك ألحقتهم بمجموعات الكنّاسين وتركتُ عدداً قليلاً منهم، ليس أكثر من عشرين، يقومون ببعض الأعمال في الحقل محمّلاً الفلاحين مسؤوليةَ أمنِهم.

انتزعوني ذات ليلة من فراشي وقالوا لي إنّ هناك مكالمة هاتفية مستعجلة. كان موظّفاً من غاليزيا العليا، لم يسبق أن تكلّمت معه قط. قال لي أنّ أُحَضِّرَ لإجلاء الألمان من منطقتي.

- لا يوجد قطارات -قلتُ له-، كيف أستطيع أن أُجلي الجميع؟

- هذه مشكلتُك -قال لي الموظَّف.

قلتُ له قبل أن يُغلق إنّ عندي مجموعة من اليهود، فماذا أفعل بهم؟ لم يُجبني. كانت الخطوط قد قُطِعت أو أنّ عليهم أن يُكلّموا آخرين مثلي أو أنّ قضيّة اليهود لم تكن تعنيهم. كانت الساعة الرابعة صباحاً. ولم يعد باستطاعتي العودة إلى الفراش. قلتُ لزوجتي إنّنا سنرحل أرسلتُ بعدها في طلب العمدة وقائد الشرطة. حين وصلتُ إلى مكتبي وجدتهما بوجه من نام قليلاً وسيّئاً. كلاهما كان خائفاً.

طمأنتهم، قلتُ لهم إنّنا إذا ما عملنا بسرعة لن يكون هناك خطر على أحد. شغّلنا ناسنا. قبل أن يلوح الفجرُ شرعت طلائع المجليين سيرها نحو الغرب. بقيت حتى النهاية. قضيتُ نهاراً وليلة أخرى في الضيعة. في البعيد كان يُسمع دويّ المدافع. ذهبت لزيارة اليهود المتروكين لقدرهم في المدبغة القديمة. أفترض أنّ هذه هي الحرّية.

قال لي سائقي إنّه رأى بعض جنود ويهرماخت دون أن يتوقّفوا. صعدتُ إلى مكتبي دون أن أعرف جيداً عمّا كنتُ أبحث هناك. في الليلة السابقة كنتُ قد نمتُ على الأريكة ساعاتٍ قليلة وكنتُ قد أحرقتُ كلّ ما كان يجب حرقه. كانت شوارع البلدة خاوية وإن كانت تُلمح خلف بعض النوافذ رؤوس البولنديات. هبطتُ بعدها، صعدتُ إلى السيارة وانطلقنا. قال سامِّر لرِيتِر.

كنتُ إداريّاً عادلاً. قمت ببعض الأعمال الجيّدة تحدوني طبيعتي، وأشياء سيّئة، مكرهاً بمصادفات الحرب. ومع ذلك فالأطفال البولنديون السكارى الآن يتشدّقون بأنّني دمّرتُ طفولتَهم، قال سامِّر

لِرِيْتِر. أنا؟ أنا دمَّرتُ طفولتهم؟ الكحول دمّر طفولتَهم! كرةُ القدم دمّرت طفولتَهم! أولئك الأمهات المزاجيات دمرن طفولتهم ! لستُ أنا.

- لو كان آخر مكاني -قال سامّر لِرِيْتِر- لقتل بيده كلَّ اليهود. أنا لم أفعل. ليس من طبيعتي.

أحد الرجال الذين اعتاد أن يسير معهم طويلاً في معسكر الأسرى كان رئيس الشرطة. كان الآخر رئيس الإطفاء. العمدة، قال له سامّر ذات ليلة، كان قد مات بعد انتهاء الحرب بقليل بالتهاب الرئتين. السائق اختفى على مفرق طرق، بعد أن توقّفت السيارة عن العمل نهائيّاً.

كان رِيْتِر يتأملُ في المساءات سامّر من بعيد وينتبه إلى أنّه كان بدوره يراقبه، نظرة من طرف العين تشفُّ عن قنوط وأعصاب وأيضاً عن خوف وعدم ثقة.

- نعمل أشياء، نقول أشياء لا نلبث أن نندم عليها من أعماق روحنا -قال له سامّر ذات يوم بينما هما يقفان في الصف من أجل الإفطار.

وقال له في يومٍ آخر:

- حين يعود الشرطيون الأمريكيون ويستجوبونني، أنا واثق من أنّهم سيعتقلونني وسأُخضَعُ للسخرية العامّة.

حين كان سامّر يتكلّم مع رِيْتِر، كان قائد الشرطة ورئيس الإطفاء يبقيان جانباً، على بعد بضعة أمتار منهما. كما لو أنّهما لا يُريدان أن يحشرا نفسيهما في مصائب رئيسهما السابق. وذات صباح وجدوا جثّةَ سامّر في منتصف الطريق بين الخيمة والمراحيض. هناك من خنقه. استجوب الأمريكيون الشماليون عشرة أسرى، بينهم رِيْتِر، الذي قال إنّه لم يسمع في تلك الليلة أيّ شيء غير عاديّ، وحملوا بعدها الجثّة وواروها التراب في المقبرة الجماعية من مقبرة أنسباخ.

حين استطاع رِنِتِر أن يُغادر معسكر الاعتقال رحل إلى كولونيا. عاش هناك في بعض العنابر القريبة من المحطّة، ثمّ في قبو تقاسمه مع محارب من الفرقة المدرّعة، وهو رجل صموت نصف وجهه محروق ويستطيع أن يمضي أيّاماً بكاملها دون أن يأكلَ شيئاً، ومع شخص آخر، كان يقول إنّه عمل في صحيفة وكان على العكس من رفيقه لطيفاً وثرثاراً.

المحارب رجل المدرعات يجب أن يقارب الثلاثين أو الخامسة والثلاثين من عمره، بينما الصحفيّ القديم يحوم حول السبعين، وإن بدا الاثنان طفلين أحياناً. كان الصحفيّ قد كتب خلال الحرب سلسلة من المقالات يصف فيها الحياة البطولية لبعض فرق المدرعات في الشرق كما في الغرب، كان يحتفظ بقصاصاتها، أتيحت الفرصة لرجل المدرعات أن يقرأها موافقاً على ما ورد فيها. كان يفتح فمه أحياناً ويقول:

– يا أوتّو، لقد التقطت جوهر حياة رجل المدرعات.

كان الصحفيّ يجيبه بحركة تنمّ عن التواضع:

– يا جوستاف، جائزتي الكبرى هي أن تكون أنت بالضبط، رجل المدرعات السابق، من يؤكّد أنّني لم أخطئ كلّياً.

– لم تخطئ في شيء، يا أوتّو –كان يردّ رجل المدرعات.

– أشكرك على كلماتك، يا جوستاف –كان الصحفيّ يقول له.

كلاهما كان يقوم أحياناً بأعمال رفع الأنقاض لصالح البلدية أو ببيع ما كانا يعثران عليه أحياناً تحت الركام. كانا حين يكون الطقس حسناً يذهبان إلى الريف فيصير القبو لِرِنِتِر وحده أسبوعاً أو أسبوعين. كرّس الأيّام الأولى في كولونيا للحصول على بطاقة قطار كي يعودَ إلى ضيعته، عثر بعدها على عمل كبوّاب في بار يقدّم خدماته لزبائنه من الجنود الأمريكيين الشماليين والإنكليز الذين كانوا يعطون إكرامياتٍ جيّدة، وكانوا يُقدّمون لهم أحياناً خدمات إضافية، كأن يبحثوا لهم عن

شقّة في حيّ معيّن، أو يعرّفوهم على فتيات أو يصلوهم بأناس يعملون في السوق السوداء، كان يرفع أحياناً نظره عن كتابه ويرى أنّ جميع الناس من حوله يقرؤون بدورهم. كما لو أنّ الألمان لا يهتمون بشيء آخر غير القراءة والطعام، وهذا غير صحيح، لكنّه كان يبدو أحياناً صحيحاً، وخاصة في كولونيا.

على العكس كان اهتمامهم بالجنس، لاحظ رِيْتر، قد انخفض بشكلٍ ملحوظ، كما لو أنّ الحرب أتت على احتياطيّ التستوستيرون عند الرجال وعلى الفيرمونات والرغبة، وما عاد هناك من يريد أن يُمارِس الحبَّ. فقط العاهرات، برأي رِيْتر، كنّ يجامعن، لأنّ هذه هي مهنتهنّ وكذلك بعض النساء اللواتي كنّ يخرجن مع قوّات الاحتلال، لكن حتى هؤلاء الأخريات كانت الرغبة عندهنّ تُغطّي في الحقيقة على شيء آخر: مسرح براءة، مسلخ مثلج، شارع مقفر وسينما. كانت النساء اللواتي يراهنّ يبدين طفلاتٍ، استيقظن توّاً من كابوس مريع.

وذات ليلة بينما هو يراقبُ بابَ البار في سبنغلر-ستراس، نطق صوتٌ انبثق من الظلمة باسمه. نظر رِيْتر، فلم يرَ أحداً وفكّر بأن الأمر يتعلق بإحدى العاهرات، اللواتي كنّ يتباهين بمزاج غريب أحياناً غير مفهوم. ومع ذلك حين عادوا ونادوه عرف أنّ ذلك الصوت لا يعود إلى أيّ من النساء اللواتي كنَّ يتردّدن على البار وسألَ الصوتَ ماذا يُريد.

- فقط أن أسلّم عليك -قال الصوتُ،

رأى بعدها ظلاً وبخطوتين كبيرتين كان على الرصيف المقابل واستطاع أن يأخذه من ذراعه ويجرّه إلى منطقة الضوء. كانت الفتاة التي نادته باسمهِ شابّةً جدّاً. حين سألها ماذا تُريدُ منه، أجابته الفتاة بأنها خطيبته وتستغرب بصراحة أنّه لم يعرفها.

- لا بدّ أنّني قبيحة جداً -قالت- لكن لو أنّكَ ما تزال جنديّاً ألمانياً لحاولت أن تُداري.

نظر رِيْتر إليها بانتباه ولم يستطع برغم كلّ الجهد الذي بذله أن يتذكّرها.

- للحربِ علاقة كبيرة بالنسيان -قالت الفتاة.

ثمّ قالت:

- يحدث النسيان عندما يفقدُ المرء ذاكرته فلا يعود يتذكّر شيئاً، لا اسمه ولا اسم خطيبته.

وأضافت:

- أيضاً هناك نسيان اختياري، وهو عندما يتذكّر المرءُ كلّ شيء، أو يظنّ أنّه يتذكّر كلّ شيء وينسى شيئاً واحداً، أهمَّ شيء في حياته.

هذه المرأة أعرفها، فكّر رِيْتر حين سمعها تتكلّم، لكنّه استحال عليه أن يعرف أين وفي أيّ ظروف تعرّف عليها. هكذا قرّر أن يتصرّف بهدوء وسألها عمّا إذا كانت تُحبّ أن تتناول شيئاً. نظرت الفتاة إلى باب البار ثم قبلت بعد أن فكّرت لحظةً. سألت المرأةُ التي خدمتهما رِيْتر من تكون تلك الفرخة.

- خطيبتي -قال رِيْتر.

ابتسمت المجهولةُ للمرأة وحرّكت رأسها بالموافقة.

- إنّها فتاة لطيفة جدّاً -قالت المرأة.

- ونشيطة جدّاً أيضاً -قالت المجهولة.

لمصت المرأة بفمها لاويةً شدقيها إلى الأسفل، كما لو أنّها تقول: سنرى، وذهبت. رفع رِيْتر بعد برهةٍ قبّة سترته الجلدية السوداء وعاد إلى الباب، فقد بدأ الناس يصلون، وبقيت المجهولة جالسة إلى الطاولة، وهي تقرأ من حين لآخر صفحات كتاب وتنظر في أكثر الأحيان إلى النساء والرجال الذين راحوا يملؤون المكان. بعد برهة أخذتها المرأة التي قدمت لها فنجان الشاي من ذراعها وقادتها إلى الشارع بذريعة أنّهم بحاجة لتلك الطاولة للزبائن. ودّعت المجهولة المرأة بلطف، لكنّ هذه لم ترد عليها. كان رِيْتر يتكلّم مع جنديّين أمريكيين ففضّلت الفتاة ألا

تقترب منه. وبدل هذا عبرت الشارع، وتدبرت أمرها في رواق البيت المجاور وبقيت برهة تراقب من هناك الحركة الدائمة في باب البار.

كان رِيْتِر ينظر بطرف عينه إلى عتبة الباب المجاور وكان يظنّ أحياناً أنّه يرى عيني قط، لامعتين، تُحدّقان به من الظلمة وحين خفّ العمل توغّل في الرواق وأراد أن يناديها، لكنّه انتبه إلى أنّه لا يعرف اسمها. وجدها مستعيناً بعود ثقاب نائمةً في زاوية. بقي يراقب وجهها النائم جالساً على ركبتيه بينما عود الثقاب ينفد بين إصبعيه. عندئذ تذكّرها.

حين استيقظت كان رِيْتِر ما يزال إلى جانبها، لكنّ الرواق تحوّل إلى غرفة بجوّ أنثوي خفيف، وصور فنانين ملصقة على الجدران ومجموعة من الدمى ودب قماشي على منضدة صغيرة. على الأرض تتكدّس صناديق ويسكي وقناني نبيذ. ولحاف أخضر اللون يُغطيها حتى رقبتها. أحد ما كان قد خلع لها نعليها. شعرت بنفسها من الراحة بحيث أنّها عادت وأغمضت عينيها. لكّنها سمعت عندئذ صوت رِيْتِر يقول لها: أنت الفتاة التي كانت تعيش في شقّة هوغو هالدِر القديمة.

هزّت رأسها بالإيجاب دون أن تفتح عينيها.

- لا أتذكّر اسمكِ -قال رِيْتِر.

اتخذت وضعية جانبية مديرة له ظهرها وقالت:

- ذاكرتك مؤسفة، اسمي إنجيبورغ باور.

- إنجيبورغ باور -ردّد رِيْتِر، كما لو أنّ القدر يجتمع في هاتين الكلمتين.

نامت بعدها مرّة أخرى وحين استيقظت كانت وحدها.

في ذلك الصباح وبينما كانت إنجيبورغ باور تتمشّى مع رِيْتِر في المدينة المهدّمة، قالت له إنّها تعيش مع بعض المجهولين في بناء قريب

من محطّة القطار. كان أبوها قد مات خلال عملية قصف. أمّها وأخواتها هربن من برلين قبل أن تُحاصر المدينةُ من قبل الروس. في البداية كنّ في الريف، في بيت أخٍ لأمّها، لكنّ الريف بعكس ما كنّ يعتقدن لم يكن فيه ما يؤكل، وعادة ما تُغتصب الفتيات من قبل أعمامهن وأبناء أعمامهنّ. كانت الغابات بحسب إنجيبورغ باور مليئة بالحفر حيث كان أبناءُ المنطقة يقبرون الذين كانوا يأتون من المدينة بعد أن يسرقوهم ويغتصبوهم ويقتلوهم.

- وهل اغتصبوك أنتِ أيضاً؟ -سألها رِيتر.

لا، هي لم يغتصبوها لكنّ أحدَ أبناء أعمامها اغتصب إحدى أخواتها الصغيرات، صبيّ في الثالثة عشرة من عمره كان يريد أن يدخل في الشباب الهتلري ويموت كبطل. هكذا قرّرت أمّها أن تتابع هربها ورحلن إلى مدينة صغيرة في ويستبروالد في هيسه، من حيث كانت أمّها. كانت الحياة هناك مُمِلّة وغريبة في الوقت ذاته، قالت إنجيبورغ لِرِيتر، فسكان تلك المدينة كانوا يعيشون كما لو أنّه لا توجد حرب، بالرغم من أن كثيرين من رجالها ذهبوا إلى الجبهة مع الجيش وتعرّضت المدينة للقصف الجوّي، ما من واحد منها كان ماحقاً، لكّنه كان قصفاً على كلّ الأحوال. راحت أمّها تعملُ في مصنعِ بيرة وعملت الأخوات أعمالاً متفرّقة، يساعدن في مكاتب أو يعملن بدل غائبين بسبب مرض في ورشة أو يعملن ساعياتٍ، وكان عندهن من حين لآخر وقت، الأصغر منها، كي يذهبن إلى المدرسة.

برغم التنقل الدائم كانت الحياة مملّة وحين حلَّ السلام لم تتحمّل إنجيبورغ أكثر فرحلت ذات صباح بينما أمّها وأخواتها في الخارج، إلى كولونيا.

- كنتُ واثقة -قالت لِرِيتر- من أنّني سأعثرُ عليك هنا، أو سأعثر على أحدٍ يشبهك جدّاً.

وكان هذا كلّ الذي جرى بخطوط عامّة، منذ تبادلا القبل في الحديقة العامة، حين كان رِيْتِر يبحث عن هوغو هالدِر وحكت هي له بالمقابل قصّة الأزتيك. طبعاً لم يتأخّر رِيْتِر كثيراً في اكتشاف أنّ إنجيبورغ قد جُنَّت، إن لم تكن كذلك حين تعرّف عليها، كذلك انتبه إلى أنّها كانت مريضة، أو ربّما ما كانت تعاني منه هو الجوع فقط.

أخذها لتعيش معه في القبو، لكن وبما أنّ إنجيبورغ كانت تسعل كثيراً، ولا تبدو سليمةَ الرئتين. بحث عن مأوى آخر فوجده في علّية في بناء شبه مدمّر. لم يكن يوجد فيه مصعد وكانت بعض مناطق الدرج غير آمنة، درجاته تنخسف تدريجياً تحت خطوات المستخدمين، حين لا يكون فيها ثقوب تنفتح على فراغ، فراغ مصنوع من مواد بناء حيث كان ما يزال من الممكن مشاهدة أو توقّع شظايا قنابل. لكنّهما لم يجدا مشاكل في العيش هناك: فإنجيبورغ لا تكاد تزن تسعاً وأربعين كيلوغراماً، ورِيْتِر بالرغم من أنّه طويل جدّاً إلاّ أنّه كان نحيلاً وبارزَ العظام وتتحمّل الدرجاتُ وزنه تماماً. لم يحدث الشيء ذاته مع مستأجرين آخرين. شخص من براندنبورغ صغير وظريف كان يعمل لصالح جيوش الاحتلال سقط في ثقب كان موجوداً بين الطابقين الثاني والثالث وانقصمت رقبته. كان الرجلُ البراندنبورغي يُحيي إنجيبورغ باهتمام ومودة ويهديها في كلّ مرّة زهرة كان يضعها في عروة سترته.

كان رِيْتِر يتأكّد في كلّ ليلة، قبل أن يذهب إلى العمل، من أنّ إنجيبورغ لا ينقصها شيء كيلا تُضطرّ إلى النزول إلى الشارع مضيئة الدرجَ بشمعة فقط، بالرغم من أنّ رِيْتِر كان يعرف في أعماقه أنّ أشياء كثيرة كانت تنقص إنجيبورغ وتنقصه أيضاً وتجعل حيطته تصبح في لحظة اتخاذها غير مجدية إطلاقاً. في بداية استَبْعَدَت علاقتُهما الجنس. فقد كانت إنجيبورغ ضعيفة جدّاً والشيء الوحيد الذي ترغب به هو أن تتكلّم وتقرأ حين تكون وحدها ولا ينذر الشمع. في العادة كان رِيْتِر يمارسُ الجنسَ أحياناً مع الفتيات اللواتي يعملن في البار. لم تكن جلسات

مفرطة في شغفها، بل على العكس تماماً. كانوا يمارسون الحبّ كما لو أنّهم يتكلّمون عن كرة القدم، بل وأحياناً دون أن يتوقفوا عن التدخين أو دون أن يتوقّفوا عن علك العلكة الأمريكية، التي بدأت تُصبح موضة وكانت جيّدة بالنسبة للأعصاب العلكة وممارسة الجنس بهذه الطريقة، بشكل غير شخصيّ، وإن كان الفعل أبعد ما يكون عن غير شخصي وأقرب إلى الموضوعي، كما لو أنّه ببلوغ عري المسلخ يصبح ما عداه تمثيلاً غير مقبول.

كان رِيتِر قبل أن يدخل ليعمل في البار قد ضاجع فتيات أخريات، في محطّة كولونيا، أو في زولينغن أو في ريمشايد أو فوبِرتال، عاملات وفلاحات كنّ يحببن أن يفرغ الرجالُ (دائماً إذا ما كان مظهرهم سليماً) في أفواههن. كانت إنجيبورغ تطلب في بعض المساءات من رِيتِر أن يحكي لها عن تلك المغامرات، هكذا كانت تُسميها، ورِيتِر يحكيها لها وهو يُشعل سيجارة.

- فتيات زولينغن أولئك كنّ يعتقدن أن المني يحتوي على فيتامينات -كانت تقول إنجيبورغ-، مثل الفتيات اللواتي جامعتهنّ في محطّة كولونيا. أتفهّمهن تماماً -كانت إنجيبورغ تقول-، أنا أيضاً بقيت فترة أتسكّع في محطّة كولونيا وتكلّمت معهنّ وتصرّفتُ مثلهنّ.

- أنتِ أيضاً مصصته لمجهولين معتقدة أنّ المني كان سيغذيك؟ - سألها رِيتِر.

- أنا أيضاً -قالت إنجيبورغ-. ما دام مظهرهم سليماً، دائماً ما دام مظهرهم لا يوحي بأنّ السرطان أو الزهري يُفتّتهم -قالت إنجيبورغ-. جميعنا، نحن الفلاحات اللواتي كنّ يتسكّعن في المحطّة، العاملات، المجنونات اللواتي ضعن أو هربن من بيوتهنّ، كنّا نعتقد أنّ المني غذاء رائع، خلاصة كلّ أنواع الفيتامينات، أفضل طريقة كي لا نُصاب بالنزلات الصدرية -قالت إنجيبورغ-. في بعض الليالي وقبل أن أنام، متقوقعة في زاوية من محطّة قطارات كولونيا، كنتُ أفكّر بأوّل فتاة

خطرت لها هذه الفكرة، هذه الفكرة اللامعقولة بالرغم من أنّ بعض الأطباء البارزين يقولون بأنّ فقر الدم يمكن أن يُشفى بشرب المني يومياً -قالت إنجيبورغ-. لكنّني كنتُ أفكّر بالفتاة الفلاحة، بالفتاة القانطة التي توصّلت عن طريق الاستنتاج التجريبي إلى هذه الفكرة. كنتُ أتصوّرها مبهورة في المدينة الصامتة تتأمّل دمارَ كلّ شيء، قائلة لنفسها هذه هي الصورة التي كانت عندها عن المدينة دائماً. كنت أتصوّرها نشيطة بابتسامة على وجهها، تساعد كلّ من يطلب منها المساعدة وفضوليّة أيضاً تجوب الشوارع والساحات وتُعيدُ بناءَ صورة المدينة التي كانت تريد في أعماقها أن تعيش فيها. أيضاً كنتُ خلال تلك الليالي أتصوّرها ميتة بأيّ مرض، بمرض لا يمنحها احتضاراً مفرطاً في بطئه، ولا مفرطاً في سرعته، احتضاراً معقولاً، الوقتَ الكافي كي تتوقّف عن مصّ القضبان وتتقوقع في شرنقتها ذاتها، في آلامها ذاتها.

- ولماذا تظنّين أن هذه الفكرة خطرت لفتاة واحدة أو لكثيرات في وقت واحد؟ -سألها رِيْتِر-. لماذا تعتقدين أن هذه الفكرة خطرت لفتاة، لفلاّحةٍ بالضبط وليس لذكيّ كان بهذا الشكل يحصل على مصّة مجانية؟

وذات صباح مارس رِيْتِر وإنجيبورغ الحبَّ. كانت الفتاة محمومة وبدا ساقاها، تحت قميص النوم لِرِيْتِر أجملَ ساقين رآهما في حياته. كانت إنجيبورغ قد أتمّت للتوّ العشرين من عمرها. من وقتها صارا يمارسان يتجامعان يوميّاً. كان رِيْتِر يُحبّ أن يفعل ذلك جالساً بجانب النافذة وأن تجلس إنجيبورغ فوقه ويمارسا الحبَّ ناظراً كلّ منهما إلى عيني الآخر أو ناظرين إلى خرائب كولونيا. أمّا إنجيبورغ فكانت تحبّ أن تمارسه في السرير، حيث كانت تبكي وتتقلّب وتبلغ النشوة ستّ أو سبع مراتٍ، ورجلاها ناتئتا العظام فوق كتفي رِيْتِر، الذي كانت تقول له، يا حبّي، يا حبيبي، يا رَجُلي، يا عذوبتي، كلمات كانت تُخجل

رِيْتِر، فقد كانت تبدو له هذه الكلمات مفتعلة وكان قد أعلن في تلك المرحلة الحرب ضدّ التكلّف والعاطفية والرخاوة والمُتصَنّع والمُنمَّق والمتحذلق والساذج، لكنّه لم يكن يقول شيئاً، ذلك أنّ الحزن الذي كان يقرؤه في عيني إنجيبورغ والذي لم يكن من الممكن للّذةِ أن تمحوه كلّياً، كان يُجَمّده كما لو أنّه، هو رِيْتِر، فأراً ووقع توّاً في فخّ.

طبعاً كانا يضحكان عادةً، وإن لم يكن دائماً من الشيء ذاته. رِيْتِر مثلاً كان يستظرف جدّاً الجار البرانيتبورغي وهو يسقط في فجوة الدرج. كانت إنجيبورغ تقول إنّ البرندنبورغي كان شخصاً طيّباً، دائماً يحمل الكلمة اللطيفة على شفتيه، ثمّ إنّها لا تستطيع أن تنسى الأزهار التي كان يهديها إليها. عندها كان رِيْتِر يحذّرها بأنّه يجب عدم الثقة بالأشخاص الطيّبين. غالبيتهم مجرمو حرب يستحقّون أن يُشنقوا على الطريق العام، الصورة التي كانت تدبّ القشعريرة عند إنجيبورغ. كيف يمكن لشخص كان يحصل يوميّاً على زهرة كي يضعها في عروة سترته أن يكون مجرمَ حربٍ؟

على العكس منه ما كان يُثير ضحكة إنجيبورغ المدوّية أشياءٌ أو حالات ذات مظهر أكثر تجريداً. كانت إنجيبورغ تضحك أحياناً من الرسوم التي تخطّها الرطوبةُ على جدران العلّية. فقد كانت ترى على الجصّ أو الملاط صفوفاً طويلة من الشاحنات تخرج من نوع من النفق، تُسَمّيه، دون أي سبب، نفق الزمن. مرّات أخرى كانت تضحك من الصراصير التي كان تدخل من وقت لآخر إلى البيت. أو من العصافير التي تُراقب كولونيا واقفة على مقرنصات أعلى الأبنية المسودّة. بل إنّها كانت تضحك أحياناً من مرضها ذاته، المرض الذي لا اسم له (كان هذا يضحكها جدّاً)، وشَخَّصه عندها بطريقة غامضة على أنّه مرض في منتصف الطريق ما بين العصبي والرئوي، الطبيبان اللذان كانت تذهب إليهما، واحد مهما زبون في البار الذي يعمل فيه رِيْتِر والآخر عجوز أبيض الشعر وأبيض اللحية وقويّ ومسرحيّ

الصوت، كان رِيْتِر يدفع له ثمنَ كلِّ زيارة زجاجاتِ ويسكي وكان من الممكن بحسب رِيْتِر، أن يكون مُجرم حرب.

فيما عدا ذلك كانا يقضيان ساعاتٍ كثيرةً معاً، يتكلّمان أحياناً عن أغرب الموضوعات، وأحياناً كان رِيْتِر يجلس إلى الطاولةِ يكتب في دفترٍ غلافُهُ بلون القصب روايتَهُ الأولى بينما إنجيبورغ تقرأ مستلقيةً على السرير. تنظيف البيت عادة ما كان يقوم به رِيْتِر وكذلك المشتريات، بينما تهتمّ إنجيبورغ بالطبخ، وكانت ماهرة في ذلك. أحاديث ما بعد الطعام كانت غريبة وتتحوّل أحياناً إلى مونولوجات طويلة أو مناجاة ذاتية أو اعترافات.

كانا تكلّمان عن الشعر (كانت إنجيبورغ تسأل رِيْتِر لماذا لا يكتب شعراً فيُجيبها رِيْتِر بأنّ الشعر كلّه، في أيٍّ من مدارسه العديدة يمكن أن يكون مضمناً في رواية)، عن الجنس (مارسا الحبَّ بكلّ الطرق المحتملة، أو هذا ما كانا يعتقدانه، ويُنَظِّران حول طرق جديدة، لكنّهما لا يعثران إلا على الموت) وعن الموت. حين كانت السيّدة العجوز تظهر عامّة ما يكونان قد انتهيا من تناول طعامهما والحديث يفتر، بينما يُشعلُ رِيتِر، بمظهر السيّدِ البروسي العظيم، سيجارةً وإنجيبورغ تُقشّر تفاحةً بسكين قصير النصل وخشبيّ المقبض.

كذلك كانت نغمة صوتيهما تنخفض حتى تصبح تمتمة. سألته إنجيبورغ، ذات مرّة، عمّا إذا كان قد قتل أحداً. أجابها رِيْتِر بعد أن فكّر لحظةً بالإيجاب. أمعنت إنجيبورغ النظر فيه لثوانٍ طالت أكثر من اللازم: شفتاه الشاحبتان، الدخان الذي كان يتسلق وجنتيه، عيناه الزرقاوان، شعره الأشقر غير النظيف جدّاً وربّما كان يحتاج إلى قصّ، أذنا المراهق الريفيّ، أنفه المناقض للأذنين بارز ونبيل، جبينه الذي كان يبدو أنّ عنكبوتاً يتنقّل فوقه. قبل ثوانٍ كان باستطاعتها أن تُصدّق أنّ رِيْتِر قتل أحداً، أيّ أحدٍ، خلال الحرب لكنّها بعد أن نظرت إليه كانت متأكّدة من أنّه قصد شيئاً آخر. سألته من قتل.

- ألمانيّاً -قال رِيْتِر.

في عقل إنجيبورغ الخيالي والجاهز دائماً للاضطراب لم يكن من الممكن أن يكون الضحية آخر غير هوغو هالدِر ذاك، مستأجر بيتها القديم في برلين. حين سألته، ضحك رِيْتِر. لا، لا، هوغو هالدِر كان صديقه. لزما بعدها الصمتَ برهةً طويلةً وبدا أن بقايا الطعام على الطاولة تتجمّد. أخيراً سألته إنجيبورغ عمّا إذا كان نادماً فقام رِيْتِر بإشارة من يده يمكن أن تعني أيّ شيء. ثمّ قال:

- لا.

وأضاف بعد وقفة طويلة: بلى أحياناً، وأحياناً أخرى لا.

- هل كنتَ تعرفه؟ -همست إنجيبورغ.

- من؟ -سأل رِيْتِر كما لو أنّهم يوقظونه.

- الشخص الذي قتلته.

- بلى -قال رِيْتِر-، كيف لا أعرفه، كان ينام بجانبي، ليالٍ كثيرة ولم يكن يتوقّف عن الكلام.

- هل كانت امرأة -همست إنجيبورغ.

- لا، لم تكن امرأة -قال رِيْتِر وضحك- كان رجلاً.

ضحكت إنجيبورغ أيضاً. راحا بعدها يتكلّمان عن الجاذبية التي تشعر بها بعض النسوة تجاه قتلة النساء. مكانة قتلة النساء بين العاهرات، مثلاً. أو بين النساء المستعدات للحب إلى حدوده القصوى. كانت هؤلاء النساء بالنسبة إلى رِيْتِر هستيريات. وكانت هؤلاء النساء، بالعكس بالنسبة إلى إنجيبورغ التي كانت تقول إنّها تعرفهنّ، لاعبات، مثل لاعبي الورق تقريباً، ينتهون إلى الانتحار في الفجر، أو مثل المواظبين على سباق الخيول الذين ينتهون إلى الانتحار في غرف نزلٍ رخيص أو فنادق ضائعة في أزقّة لا يتردّ عليها غير قطّاع الطرق أو الصينيين.

- أحياناً -قالت إنجيبورغ-، حين نكون منهمكين في ممارسة

الحبّ وتمسكني من عنقي، يصل بي الأمر حدَّ أنّني أفكّرُ أنّك قاتلُ نساء.

- لم يحدث أن قتلتُ امرأة -قال رِيْتِر-. لم يخطر ببالي قط.

لم يعودا للكلام في المسألة إلا بعد أسبوع.

قال لها رِيْتِر من المحتمل أن تكون الشرطة الأمريكية الشمالية تبحث عنه وكذلك الشرطة الألمانية، أو أن يكون اسمه وارداً في لائحة المشبوهين. الرجل الذي قتلته، قال لها، كان يُدعى سامِّر وكان قاتل يهود. إذن أنت لم ترتكب أيّ جريمة، أرادت أن تقول هي له، لكنّ رِيْتِر لم يدعها.

- كلّ ذلك جرى في معسكر أسرى -قال رِيْتِر-. لا أعرف من ظّنني سامِّر، لكنّه كان لا ينفكّ يحكي لي أشياء. كان متوتّراً، لأنّ الشرطة الأمريكية الشمالية ستستجوبه. غيّر اسمه احتساباً. صار يُدعى زيلِر. لكنّني لم أكن أعتقد أنّ الشرطة الأمريكية الشمالية كانت تبحث عن سامِّر. كما لم تكن تبحث عن زيلر. لأنّ زيلر وسامِّر كانا بالنسبة إل الشرطة الأمريكية الشمالية مواطنين ألمانيّين بعيدين عن أيّ شبهة. كان الأمريكيون الشماليون يبحثون عن مجرمي حرب لهم بعض المكانة، عن ناس من معسكرات الإبادة، ضباط من القوات الخاصّة، أسماك الحزب السمينة. وسامِّر كان مجرّدَ موظّف غير مهم جدّاً. أنا استجوبوني. سألوني ماذا أعرف عنه، وما إذا كان قد كلّمني عن أعداء بين المساجين الآخرين. قلت إنّني لم أكن أعرف شيئاً، وإنّ سامّر لم يكن يتكلّم إلا عن ابنه المتوفى في كورسك وعن الشقيقة التي كانت تُعاني منها زوجته. نظروا إلى يديَّ. كانوا رجال شرطة شباباً ولم يكن عندهم فائض من الوقت يضيعونه في معسكر الأسرى. لكنّهم لم يقتنعوا تماماً. سجّلوا اسمي في دفاترهم وعادوا لاستجوابي. سألوني عمّا إذا كنت عضواً في الحزب القومي الاشتراكي. عما إذا كنتُ أعرف نازيين

كثيرين، ماذا تعمل عائلتي، وأين يعيشون. حاولتُ أن أكون صادقاً وأعطيتُ أجوبةً واضحة. طلبتُ منهم أن يُساعدوني في العثور على والديَّ. راح بعدها معسكر الاعتقال يفرغ كلّما وصل ضيوف جدد. لكنّني بقيت فيه. قال لي رفيق إنّ الحراسة اسمية فقط. فالجنود السود كانت تدور في رؤوسهم أشياء أخرى ولم يكونوا ينشغلون بنا كثيراً. وذات صباح خلال نقل الأسرى تسللت وخرجت دون أيّ مشكلة.

بقيت زمناً أتوه في مدن مختلفة. كنتُ في كوبلنز. عملتُ في المناجم التي بدأت تفتح من جديد. جعتُ. كنت أحسّ بأنّ شبحَ سامّر ملتصق بظلّي. فكّرت أن أبدّل أنا أيضاً اسمي. وصلتُ أخيراً إلى كولونيا وفكّرتُ أنّ أيّ شيء يمكن أن يحدث معي منذ تلك اللحظة قد سبق وحدث معي وأنّ من العبث أن أستمرّ أجرجرُ معي ظلَّ سامّر المنتن. أوقفوني مرّة. حدث هذا بعد شجار في بار. جاءت الشرطة العسكرية وحملوا بعضنا إلى المخفر. بحثوا عن اسمي في إضبارةٍ ولم يجدوا شيئاً فتركوني.

في تلك الأيّام تعرّفت على عجوز تبيع سجائر وأزهاراً في البار. كنتُ أشتري منها أحياناً سيجارة أو سيجارتين ولم أضَعْ قط عراقيلَ أمام دخولها. قالت لي العجوز إنّها كانت خلال الحرب عرّافة. طلبت منّي ذات ليلة أن أُرافقها إلى بيتها. كانت تعيش في ريجيناستراس، في شقّة كبيرة، لكنّها مليئة بالأشياء إلى حدّ أنه كان من الصعب التحرّك فيها. بدت إحدى الغرف كأنّها حانوت ملابس. الآن سأقول لك لماذا. عندما وصلنا صبّت كأسي أغواردينت وجلست إلى الطاولة وأخرجت بعض أوراق اللعب. سوف أفتح لك الورق، قالت لي. وجدت في بعض الصناديق كتباً كثيرة. أتذكّر أنّني أخذت الأعمال الكاملة لنوفاليس وجوديث لفريدريخ هابل، وبينما أنا أتصفّح تلك الكتب قالت لي العجوز إنّني قتلتُ رجلاً، إلخ. القصّة ذاتها.

– كنتُ جنديّاً – قلتُ لها.

- في الحرب كانوا على وشك أن يقتلوك عدّة مراتٍ، إنه مكتوب هنا، لكن أنتَ لم تقتل أحداً، وهذا له فضيلته -قالت العجوز.

أإلى هذا الحدّ يظهر عليّ؟، فكَّرتُ، أإلى هذا الحدّ يظهر عليَّ أنّني قاتل؟ طبعاً لم أكن أشعر بأنّني قاتل.

- أنصحك بأن تُبَدّل اسمك -قالت العجوز-. اعمل بكلامي. كنتُ عرّافةَ كثيرٍ من قادة الوحدات الخاصّة وأعرف ما أقوله لك. لا ترتكب حماقة الروايات البوليسية الإنكليزية التقليدية.

- ماذا قصدين؟ -سألتها.

- الروايات البوليسية الإنكليزية -قالت العجوز-، مغناطيس الروايات البوليسية الإنكليزية التي أصابت بعدواها الروايات البوليسية الأمريكية الشمالية أوّلاً ثم الروايات البوليسية الفرنسية والألمانية والسويسرية.

- وما هي الحماقة؟ -سألتها.

- العقيدة -قالت العجوز-، الاعتقاد الذي يمكن أن يُختصر بهذه الكلمات: القاتل يعود دائماً إلى مكان الجريمة.

ضحكتُ.

- لا تضحكْ -قالت العجوز-، اسمع منّي، فأنا من الأشخاص القليلين في كولونيا الذين يقدّرونَكَ حقيقةً.

توقّفتُ عن الضحك. قلت لها أن تبيعني يوديث وأعمالَ نوفاليس.

- تستطيع أن تأخذها، في كلّ مرّة تأتي فيها لزيارتي تستطيع أن تحمل معك كتابين -قالت-، لكن انتبه الآن إلى شيء أهمّ من الأدب بكثير. من الضروري أن تُغَيّر اسمك. من الضروري جدّاً ألا تعود إلى مكان الجريمة. من الضروري أن تكسر القيد. هل تفهمني؟

- أفهم قليلاً -قلتُ لها، في الحقيقة فهمت فقط وبفرح كبير عرضها الكتب عليّ.

قالت لي العجوزُ بعدها إنّ أمّي حيّةٌ وإنّها تُفكّر بي في كلّ ليلة وإنّ

أختي حيّة وإنّها تحلم بي في كلّ صباح وفي كلّ مساء وفي كلّ ليلة، وإنّ خطواتي مثل خطوات عملاق، تُسمع في قبّة جمجمة أختي. لم تقل لي شيئاً عن أبي.

بدأ بعدها الفجر يطلعُ وقالت لي العجوز:

- سمعتُ بلبلاً يغني.

ثمّ طلبت منّي أن أتبعها إلى غرفة، تلك التي كانت مليئة بالملابس، كغرفة ملابس قديمة وفتّشت بين أكوام الثياب حتى عادت لتظهرَ منتصرة ومعها سترة جلدية سوداء، وقالت لي:

- هذه السترة لك، بقيتُ أنتظرك طوال هذا الوقت، منذ أن مات صاحبها السابق.

أخذتُ السترة وجرّبتها وبالفعل بدت كأنّها فُصّلت لي.

سأل رِيْتِر العجوزَ بعدها من كان صاحب السترة السابق، لكنّ أجوبة العجوز حول هذه النقطة جاءت متناقضة وغامضة.

قالت له مرّةً إنّها كانت لأحدِ أعضاء الجيستابو ومرّة أخرى قالت له كانت لخطيب لها، شيوعي مات في معسكر اعتقال، بل وقالت له ذات مرّة إنّ صاحب السترة السابق كان جاسوساً إنكليزياً، الجاسوس الأوّل (والوحيد) الذي قفز بمظلّةٍ في ضواحي كولونيا خلال العام ١٩٤١، كي يستكشف أرضَ الواقع من أجل تمرّد مستقبليّ لمواطني كولونيا. الأمر الذي بدا للمواطنين الذين سنحت لهم الفرصة للاستماع إليه، غير معقول، فبريطانيا كانت، في تلك المرحلة في رأي مواطني كولونيا ومواطني أوروبا كلّها، خاسرة،، ومع أن هذا الجاسوس، بحسب العجوز، لم يكن إنكليزياً، بل اسكتلندياً، ما من أحد أخذ كلامه على محمل الجد، خاصّة وأنّ من واتته فرصة الاستماع إليه رأوه يشرب (كان يفعل ذلك مثل قوقازي ومع أن تحمّله للكحول كان مدهشاً، إلا أنّ عينيه كانتا تتعكران وكان ينظر إلى سيقان النساء من

طرف عينيه، ويحافظ على بعض الانسجام في كلامه وعلى نوعٍ من الأناقة الباردة بدت للمواطنين الذين تعاملوا معه في كولونيا سمة خاصّة بالطبيعة المتهورة والجسورة، دون أن يكون بالنتيجة أقلّ سحراً)، أي في النهاية لم يكن الوضع مواتياً.

رأت العرّافةُ العجوزُ هذا الجاسوس الإنكليزي، بحسب ما حكت لِرِيْتِر، في مناسبتين اثنتين فقط. في المرّة الأولى منحته مأوى في بيتها وفتحت له ورق اللعب. كان الحظّ لصالحه. في المرّة الثانية والأخيرة قدّمت له ثياباً ووثائق، فالإنكليزي (أو الاسكتلندي) كان عائداً إلى إنكلترا. عندها كان أن تخلّص الجاسوس من سترته الجلديّة. ومع ذلك لم تبغِ العجوز في مرّات أخرى ولا حتى أن تسمع أحداً يتكلّم عن الجاسوس. أحلام، كانت تقول، تخيلات، تهيّؤات بلا جوهر، سراب عجوز يائسة بشكل عقلانيّ. وعندها كانت تعود لتقول إنّ السترة الجلدية كانت لرجل من الجيستابو، لأحد المُكلّفين بالعثور على الفارّين وقمعهم، الذين تحصّنوا (القول بأنّهم تحصّنوا مجرّد كلام) ما بين الأربع وأربعين والخمس والأربعين في مدينة كولونيا النبيلة.

ساءت بعدها صحّة إنجيبورغ وقال طبيب إنكليزي لِرِيْتِر، إنّ الفتاة، هذه الفتاة الجميلة والساحرة قد لا تعيش أكثر من شهرين أو ثلاثة أشهر، وبقي بعدها ينظرُ لِرِيْتِر، الذي راح يبكي دون أن يقول كلمة، وإن كان الطبيب الإنكليزي في الحقيقة ينظرُ ويثمّن بعني خبير بالجلود أو بالجلود المراكشية السترة الجلدية السوداء الرائعة أكثر مما كان ينظر إلى رِيْتِر، وأخيراً بينما كان رِيْتِر ما يزال يبكي، سأله من أين اشتراها. أين اشتريتُ ماذا؟، السترة، آه، من برلين، كذب رِيْتِر، قبل الحرب من محل يُسمى هاهن أند فورستير، قال، وهنا قال له الطبيب ربما استوحى أصحاب محلات الملبوسات الجلدية هاهن أند فورسير أو ورثتهم تصاميمهم من محلات السترات الجلدية ماسون أند كوبّر،

صانعي السترات الجلدية في مانشستر، الذين يملكون فرعاً لهم في لندن، والذين أنزلوا في عام ١٩٣٨ إلى الأسواق سترة مماثلة تماماً للتي كان يرتديها رِيْتِر، بكميها وقبّتها وعدد أزرارها، وهو ما ردّ عليه رِيْتِر بهزّ كتفيه وتنشيف بكمّ السترة دموعَهُ، التي كانت تجري على خدّيه، عندها تقدّم منه الطبيبُ متأثّراً ووضع يده على كتفه وقال له إنّه كان يملك سترة جلدية مثل سترة رِيْتِر، مع فارق وحيد هو أنّها من ماسون أند فورستر، وإن كان لها الملمس ذاته، وكان ممكناً لِرِيْتِر أن يُصدّقه، فهو فهيم وهاوٍ للسترات الجلدية السوداء، كلاهما كانتا متماثلتين ويبدو أنّ مصدرهما هو دفعة الجلد ذاتها الذي استخدمتها ماسون أند كوبّر في عام ١٩٣٨ لصناعة تلك السترات التي كانت عملاً فنّياً حقيقيّاً، ثم إنّها من ناحية أخرى لا تتكرّر، فبالرغم من أنّ ماسون أند كوبّر بقيت ناهضة في الحرب، إلاّ أنّ السيّد ماسون مات، بحسب علمه، خلال إحدى عمليات القصف، ليس بسبب القنابل، سارع للتوضيح، بل بسبب قلبه الرقيق الذي لم يستطع أن يتحمّل الركض نحو الملجأ، أو لم يستطع أن يتحمّل أزيز الهجوم ودويّ التدمير والانفجارات، أو ربّما لم يستطع تحمل ولولة سيارات الإسعاف، من يدري، الأكيد هو أنّ السيد ماسون باغتته نوبة قلبية وتعرّض بيت ماسون أند كوبّر لتدهور طفيف ليس في الإنتاج بل في النوعية، وإن كان القول بالنوعية فيه بعض المبالغة، فيه شيء من الأصولية، فنوعية منتجات بيت ماسون أند كوبّر كانت وستبقى غير قابلة لنقاش، إن لم يكن في التفصيل ففي الاستعداد العقلي، إذا كان هذا التعبير مشروعاً أو مسموحاً، لموديلاتِ السترات الجلدية الجديدة، في ذلك الشيء الاستثنائي، الذي يجعل من سترة جلدية قطعة فنّية، قطعة فنّية تسير مع التاريخ، لكنّها أيضاً تسير بعكس التاريخ، لا أدري ما إذا كنتُ أُوضّح، قال الطبيبُ وعندها خلع رِيْتِر السترة ووضعها بين يديه، تأمّلها كما تشاء، قال في الوقت الذي كان يجلس فيه على أحد الكرسيّين الموجودين في

العيادة وبقي يبكي وبقي الطبيب والسترة متدلية من يديه، وعندها فقط بدا أنّه يستيقظ من حلمه واستطاع أن يقول بعض كلمات المواساة أو بعض الكلمات التي تشكل جملة مواساة، مع علمه بأنّه ما من شيء يمكن أن يُخفّف من ألم رِيْتِر، ثم شرع بوضع السترة على كتفيه وعاد ليُفكّر بأنّ تلك السترة، سترة بوّاب بار عاهرات في كولونيا كانت مماثلة تماماً لسترته، بل وفكّر للحظة أنّها كانت سترته، مع فارق أنّها مستهلكة أكثر قليلاً، كما لو أنّ سترته ذاتها خرجت من الخزانة في شارع من شوارع لندن وعبرت القناة وشمال فرنسا بهدف وحيد هو أن تعود لتراه، تراه هو، مالكها، الطبيب العسكري ذا الحياة الخليعة، الطبيب الذي كان يعالج المعوزين، دائماً وأبداً حين يكون المعوزون أصدقاءه أو على الأقل أصدقاء أصدقائه، بل ومرّت لحظة فكّر فيها أنّ هذا الشابَّ الألمانيّ، الذي كان يبكي كذب عليه وأنّه لم يشترِ السترة من هاهن أند فورستِر، وأنّ تلك السترة كانت سترة أصلية من ماسون أند كوبّر، مشتراة في لندن من بيت ماسون أند كوبّر، لكنّ على كلّ الأحوال، قال الطبيب لنفسه بينما هو يساعد رِيْتِر الباكي على ارتداء السترة (المميّزة جدّاً بملمسها، الممتعة والمألوفة جدّاً)، الحياة هي في الأساس لغز.

خلال الأشهر الثلاثة التالية تدبّر رِيْتِر أمره كي يبقى إلى جانب إنجيبورغ. حصل على فواكه وخضراوات من السود السوداء. حصل على كتب كي تقرأها هي. طبخ ونظّف العليّة التي كانا يتقاسمانها. قرأ كتباً طبّية وبحث عن علاجات من كلّ الأنواع. وذات صباح ظهرت في البيت أختا وأمّ إنجيبورغ. كانت الأمّ قليلة الكلام وأخلاقيّةَ التعامل، لكنّ الأختين، واحدة في الثامنة عشرة وأخرى في السادسة عشرة، كانتا لا تفكّران إلاّ بالخروج والتعرّف على أهمّ الأماكن في المدينة. قال لهما رِيْتِر ذات يوم إنّ أهمّ مكان في كولونيا هو بالضبط علّيته فضحكت أختا إنجيبورغ، وضحك رِيْتِر، الذي كان لا يضحك إلا مع إنجيبورغ.

حملهما ذات ليلة إلى العمل. هيلدِ، ابنة الثامنة عشرة، كانت تنظر إلى العاهرات اللواتي كنّ يتسلّلن إلى البار بفوقيّة، لكنّها ذهبت في تلك الليلة مع ملازمين أمريكيين شابّين ولم تعد حتى ساعة متقدمة من صباح اليوم التالي، أمام رعب أمّها التي اتهمت رِيْتِر بأنّه يعمل قوّاداً.

كان المرض من جهة أخرى قد فاقم الرغبةَ الجنسية عند إنجيبورغ، لكنّ العلّية كانت صغيرة وجميعهم ينامون في الغرفة ذاتها، وهو ما كان يردع رِيْتِر حين يعود من عمله في الخامسة أو السادسة صباحاً وتُطالبه إنجيبورغ بأن يمارس معها الحبَّ. حين كان يؤكّد لها إنّه واثق تماماً تقريباً بأنّ أمّها ستسمعهما، فهي لم تكن صمّاء، كانت إنجيبورغ تغضب وتقول إنّه ما عاد يُحبّها. وذات مساء حملت الأخت الصغرى غريت، ابنة السابعة عشرة، رِيْتِر للتنزه في المنطقة المدمّرة من الحيّ وقالت له إنّ أختها زارها عدد من الأطباء النفسيين والعصبيين في برلين وإنّ الجميع انتهوا بتشخيص الجنون عندها. نظر إليها رِيْتِر: كانت تُشبه إنجيبورغ، لكنّها أكثر امتلاءً وطولاً. عملياً، كان لها من الطول ومن مظهر الرياضية ما يجعلها تشبه رامية رمح.

- كان أبونا نازيّاً -قالت له الأختُ-، وإنجيبورغ أيضاً. خلال ذلك الزمن كانت نازية. اسْألْها. كانت مع الشباب الهتلري.

- هكذا إذن برأيك هي مجنونة؟ -قال رِيْتِر.

- مجنونة يجب أن تُقيَّد -قالت الأختُ.

بعد قليل، قالت هيلدِ لِرِيْتِر إنّ غريتا بدأت تعشقه.

- هكذا إذن برأيك إنّ غريتا عاشقة لي؟

- عاشقة حتى الهذيان -قالت هيلدِ وقد غابت عيناها.

- يا له من أمر مهمّ -قال رِيْتِر.

وذات فجر بعد أن وصل بصمت إلى البيت مُحاولاً ألا يوقظ أياً من النساء الأربعة، دخل رِيْتِر في الفراش والتصق بجسم إنجيبورغ

وانتبه على الفور إلى أنّ حرارة إنجيبورغ مرتفعة فامتلأت عيناه بالدموع وشعر بنفسه يدوخ، لكن بالتدريج بحيث أنّ الإحساس لم يكن مزعجاً تماماً.

لاحظ بعدها أنّ إنجيبورغ تأخذ قضيبه وتستمنيه فرفع بيده قميص نوم إنجيبورغ حتى خصرها ويحث عن بظرها وبدأ بدوره يستمنيها وهو يُفكّر بأشياء أخرى، بروايته التي يتقدّم بكتابتها، ببحار بروسيا وأنهار روسيا وبالمسوخ النافعين الذين كانوا يسكنون أعماق ساحل القرم، إلى أن شعر إلى جانب يده بيد إنجيبورغ تدخل إصبعين في فرجها وتدهن بهذين الإصبعين مدخلَ دُبُرها وتطلبُ منه، لا، بل تأمره بأن يلجها، بأن يلوط بها، لكن على الفور، دون تباطؤ، الأمر الذي فعله رِيتِر دون أن يُفكّر به مرّتين ولا أن يقيس نتائج ما كان يفعله، فهو كان يعرف جيّداً كيف هو ردّ فعل إنجيبورغ حين كان يلجها من دبرٍ، لكنّ إرادته كانت تعمل في تلك الليلة كإرادة رجل نائم، رهين اللحظة، غير قادر على أن يحدس شيئاً وهكذا بينما كان يتجامعان وإنجيبورغ تئنّ رأى في زاوية ليس شبحاً ينهضُ بل عينا قطّ، عينا قط ارتفعتا وبقيتا طافيتين في الظلمة ثمّ عينين أخريين ارتفعا واستقرّتا في العتمة وسمع إنجيبورغ تأمر العيون، بصوت أجشّ، أن تنام وعندها لاحظ رِيتِر أنّ جسد امرأته يتصبّبُ عرقاً وهو أيضاً رائح يتصبّب عرقاً وفكّر أنّ هذا مفيدٌ للحرارة وأغمض عينيه وتابع مداعبته لفرج إنجيبورغ بيده اليسرى وحين فتح عينيه رأى خمسة أزواج من عيون القطط تطفو في الظلمة وبدا له ذلك فعلاً علامة لا تخطئ على أنّه كان يحلمُ، إذ ثلاثة أزواج من العيون، عيون الأختين وعينا أمّ إنجيبورغ، كان فيه شيء من المنطق، لكن خمسة أزواج كان خارج أي اتساق زمكاني، إلا إذا كانت قد دعت كلّ من الأختين عشيقها في تلك الليلة وهذا أيضاً لم يكن يدخل ضمن التوقّعات ولم يكن عملياً ولا معقولاً.

في اليوم التالي أصبحت إنجيبورغ سيّئة المزاج وكلّ الذي كانت

تفعله أو تقوله أختاها وأمُّها بدا لها أنّه كان ضدّها. صار الوضع منذ ذلك الوقت متوتّراً إلى حدّ أنّها لا هي عادت تستطيع أن تقرأ ولا هو عاد يستطيع أن يكتب. كان يتولّد أحياناً عند رِيْتِر انطباعٌ بأنّ إنجيبورغ كانت تغار من هيلدِ في الوقت الذي كان يجب أن يكون التحدّي الحقيقيّ مع غريت. كان يرى أحياناً من نافذة العليّة قبل أن يذهب إلى العمل الضابطين اللذين كانت تخرج معهما هيلدِ يصبحان باسمها من الرصيف المقابل. في أكثر من مناسبة هبط معها الدرج ونصحها بأن تكون حذرة. كانت هيلدِ تجيبه غير قلقة:

- ماذا يمكن أن يفعلا معي؟، يقصفانني بالقنابل؟

ثم كانت تضحك ورِيْتِر يضحك أيضاً من أجوبتها.

- أقصى ما سيفعلانه معي هو ما تفعله أنت مع إنجيبورغ -قالت له مرّةً ويقي رِيْتِر برهة طويلة يُردّد هذا الجواب.

ما كنتُ أفعله مع إنجيبورغ. لكن ما الذي كنتُ أفعلُ مع إنجيبورغ غير أنّني كنتُ أُحبّها؟

أخيراً قرّرت الأمُّ ذات يوم أن تعود مع الأختين إلى قرية فيترفالد، حيث استقرّت العائلة وعاد رِيْتِر وإنجيبورغ ليكونا وحدهما. الآن نستطيع أن نتحابب بهدوء، قالت إنجيبورغ. نظر إليها رِيْتِر: كانت إنجيبورغ قد نهضت وراحت ترتّب البيت قليلاً. كان قميص النوم عاجيَّ اللون وقدماها بارزتي العظام وطويلتين ومن اللون ذاته تقريباً. من ذلك اليوم تحسّنت صحتُها بشكل ملحوظ، وحين جاء اليوم المشؤوم الذي أعلن عنه الطبيب الإنكليزي كانت أفضل من أيّ وقت مضى.

بعد وقت قصير راحت تعمل في ورشة خياطة كانت تحوّل الملابس القديمة إلى ملابس جديدة، الملابس التي مضت تقليعتها إلى ملابس درجت تقليعتها. كان لديهم في الورشة ثلاث آلات خياطة، لكن وبفضل مبادرة المالكة، وهي امرأة قويّة الهمّة ومتشائمة لم يكن يراودها شكّ بأنّ الحرب العالمية الثالثة لن تتأخّر في أن تبدأ في عام

١٩٥٠. كان عمل إنجيبورغ في البداية يقوم على خياطة قطعِ القماش بحسب البترونات التي كانت تجهّزها السيّدة راب، لكن بعد وقت قصير ونظراً إلى حجم العمل الكبير في الورشة الصغيرة، صار عملها هو زيارة حوانيت ملابس النساء الدارجة وتسجّل طلبات تقوم هي بتسليمها لاحقاً.

كان رِئتِر قد انتهى في ذلك الوقت من كتابة روايته الأولى. وسماها *لوديك* واضطر لأن يجوب أزقّة ضائعة في كولونيا بحثاً عن أحدٍ يُؤَجّره آلة كاتبة، فقد قرّر ألا يطلب استعارة ولا أن يستأجر من أيّ شخص يعرفه، أي من أحدٍ يَعْرف أنّه يُدعى هانز رِئتِر. أخيراً عثر على عجوزٍ كانت لديه آلة فرنسية قديمة، ومع أنّه لم يكن يؤجّرها إلا أنّه كان يستثني الكتّابَ من ذلك.

كان المبلغ الذي طلبه العجوزُ عالياً ففكّر رِئتِر في البداية أن يستمرّ في البحث، لكنّه حين رأى الآلة مصانة تماماً، ليس عليها ذرّة غبار، وحروفها جاهزة لأن تترك أثرها على الورق، قرّر أن باستطاعته أن يسمح لنفسه بترف دفع المبلغ. طلب العجوزُ المبلغَ مُقَدّماً فطلب رِئتِر في تلك الليلة ذاتها من فتيات البار أن يقرضنه، وهكذا حصل على عدّة قروض. عاد في اليوم التالي وأراه المبلغ، لكنّ العجوز أخرج دفتراً من مكتبٍ وأراد أن يعرف اسمه. قال له رِئتِر أوّلَ اسم خطر بباله.

- اسمي بِنّو فون أرشيمبولدي.

عندها نظر العجوز إلى عينيه وقال له ألّا يتذاكى، وأن يقول له اسمه الحقيقيّ.

- اسمي بِنّو فون أرشيمبولدي، يا سيّد -قال رِئتِر-، وإذا كنت تعتقد أنّني أمزح فالأفضل أن أذهب.

بقي الاثنان بضع لحظات صامِتَيْن. كانت عينا العجوز بنّيتين داكنتين، وإن كانتا تبدوان تحت نور المشغل الضعيف سوداوين. عينا أرشيمبولدي كانتا زرقاوين وبدتا للعجوز عيني شاعر شاب، عينين

متعبتين، مهملتين ومحمرّتين، لكنّهما شابتين وبمعنى ما نقيّتين، مع أنّ العجوز لم يعد منذ زمن طويل يؤمن بالنقاء.

- هذا البلد -قال لِرِيْتِر، الذي ربّما تحوّل في ذلك المساء إلى أرشيمبولدي- حاول أن يرمي إلى الهاوية بعدد من البلدان باسم النقاء والإرادة. بالنسبة إليّ، كما ستُدرك، النقاء والإرادة حماقة خالصة. بفضل النقاء والإرادة تحوّلنا جميعاً، افهمْها جيّداً، جميعاً، جميعاً إلى بلد من الجبناء والقتلة، الذين هم في نهاية الأمر شيء واحد. الآن نبكي ونتكدّر ونقول لم نكن نعرف! كنّا نجهل ذلك!، إنّهم النازيون!، لو كنّا نحن لتصرّفنا بطريقة مختلفة! نعرف كيف نئنّ، نعرف كيف نُثير العطف والشفقة. لا يهمّنا أن يسخروا منّا، ما دمنا نُعاني ويغفرون لنا. سيكون هناك وقت كي ندشّن جسرَ النسيان. هل تفهم ما أريدُ أن أقوله؟

- أفهمه -قال أرشيمبولدي.

- أنا كنتُ كاتباً -قال العجوز.

- لكنّني تركتها. هذه الآلة الكاتبة أهداها لي أبي. كان أباً حنوناً ومثقّفاً، عاش واستطاع أن يعيش حتى الثالثة والتسعين من عمره. كان رجلاً في الأساس طيّباً؛ رجلاً كان يؤمن، من فائض القول أن أقول ذلك، بالتقدُّم. مسكين أبي. كان يؤمن بالتقدّم وبالطبع كان يؤمن بطيبة الإنسان الأساسية. أنا أيضاً أؤمن بطيبة الإنسان الأساسيّة، لكنّ هذا لا يعني شيئاً. القاتل في الأساس طيّبٌ. وماذا؟ يمكن أن أقضي ليلة أشرب فيها مع قاتل وربّما نشرع ونحن نتأمل الفجر بالغناء أو بدندنة مقطوعة لبتهوفن. وماذا؟ يمكن للقاتل أن يبكي على كتفي. عاديٌّ. أن يكون المرء قاتلاً ليس أمراً سهلاً. نعرف هذا أنا وأنت جيّداً. ليس سهلاً أبداً. يتطلّب نقاءً وإرادةً، إرادة ونقاءً. نقاء البلور وإرادة الحديد. بل ويمكن أن أبدأ أنا بالبكاء على كتف القاتل وأن أهمس له بكلمات عذبة مثل «أخ»، «رفيق»، «رفيق سوء الطالع». في هذه اللحظة

القاتل طيّب بما أنّه أساساً طيب وأنا أبله، بما أنّني أساساً أبله، وكلانا عاطفيّ، بما أنّ ثقافتنا تجنحُ نحو العاطفية. لكن حين ينتهي العملُ وأصبحُ وحدي، سيفتح القاتلُ نافذة بيتي وسيدخل بخطواته الصغيرة، خطواتِ المُمرِّض وسيذبحني حتى لا تبقى قطرة من دمي.

مسكين أبي. كنتُ كاتباً، كنتُ كاتباً، لكنّ دماغي الخمول النهم كان يأكل أحشائي. نسر بروميسيوسي أو بروميسوس نسري، انتبهتُ ذات يوم إلى أنّ من الممكن لي أن أصل إلى أن أنشر مقالات رائعة في المجلات وفي الصحف، بل وكتباً تستحقُّ الورقَ الذي تُطبع عليه. لكنّني أيضاً عرفت أنّني لن أنجح أبداً في أن أقترب أو أدخل في ذلك العمل الذي نسميه عملاً عظيماً. ستقول لي إنّ الأدب لا يقوم فقط على الأعمال العظيمة، بل إنّه مليء بالأعمال، المسماة الصغيرة. أنا أيضاً كنت أظنّ ذلك. الأدب غابة فسيحة والأعمال العظيمة هي البحيرات، الأشجار الهائلة أو النادرة جدّاً، الأزهار الرائعة البليغة أو الكهوف المخفية، لكنّ الغابة أيضاً مكوّنة من أشجار عاديّة ومألوفة، من مساحات عشبية وأغمار، من نباتاتٍ طفيلية، فطورٍ وأزهارٍ بريّة. كنتُ مخطئاً. الأعمال الصغرى، في الحقيقة غير موجودة. أعني: إنّ مؤلفَ عمل صغير لا يُدعى فلان ولا علان، ففلان وعلان موجودان، هذا ما لا يقبل الشكّ ويعانيان ويعملان وينشران في الصحف والمجلات بل وينشران من حين لآخر كتاباً يستحقُّ الورقَ الذي طبع عليه. لكنّ هذه الكتب وهذا المقالات، إذا ما أمعنتَ النظر فيها جيّداً لوجدت *أنّها ليست مكتوبة من قبلهما*.

كلّ عمل صغير له مُؤلّف سرّي وكلّ مُؤلّف سرّي، تعريفاً كاتبُ أعمال عظيمة. من الذي كتب العمل الصغير؟ ظاهرياً كاتب صغير. زوجة هذا الكاتب المسكين يمكنها أن تشهد على ذلك، هي رأته يجلس إلى طاولته، مُنكّباً على صفحاته البيضاء، متلوّياً يزلق ريشته على الورق. تبدو شاهداً لا يُدحض. لكنّ ما رأته هو الجزء الخارجي.

قشرة الأدب. المظهر، -قال الكاتب السابق العجوز لِأرشيمبولدي، وأرشيمبولدي تذكّر أنسكي-. الذي يكتب في الحقيقةِ هذا العمل الصغير هو كاتب سرّي لا يقبل غير إملاءات العمل العظيم.

فنانا الجيد يكتب. إنّه مستغرق في ذلك الذي يصوغه بشكل حسن أو سيّئ على الورق. زوجته، تُراقبه دون أن يعلم. بالفعل هو الذي يكتب. لكن لو كان لزوجته نظرة أشعةِ إكس لانتبهت إلى أنّها لا تحضر تمرين إبداعٍ أدبي بالضبط بل جلسة تنويم مغناطيسي. في داخل الرجل الجالس الذي يكتب لا يوجد شيء. لا شيء يكون هو، أريد أن أقول. كم سيكون من الأفضل لهذا الرجل المسكين لو أنّه يُكرّس نفسه للقراءة. القراءة هي متعةٌ وسعادةٌ أنّهُ حيّ أو حزينٌ لأنّه حيٌّ وهي خاصة معرفة وأسئلة. الكتابة، بالمقابل عادة ما تكون فراغاً. في أعماق الرجل الذي يكتب لا يوجد شيء. أعني لا شيءَ يمكن لزوجته في لحظة معيّنة أن تعرفه. يكتب بالسليقة. روايته أو قصائده، الحسنة، أو الحسنة قليلاً، لا تخرج معه نتيجة التمرّن على أسلوبٍ أو إرادةٍ، كما يعتقد الشقيّ المسكين، بل على التمرّن على الإخفاء، هل من الضروري أن توجدَ كتبٌ كثيرة، أشجارُ صنوبر ساحرة كثيرة، كي تحجبَ الكتابَ الذي يهمُّ حقيقةً عن النظرات الشريرة، كهفَ فاجعتنا اللعين، زهرةَ الشتاء السحرية!

اعذرني على المجازات، فإنا أحياناً أثار وأصبح رومانسياً. لكن اسمعْ. كل عمل لا يكون عظيماً، يكون، كيف سأُعبّر لك، جزءاً من تمويهٍ واسع. أنتَ كنتَ جنديّاً، أتصوّر ذلك، وتعرف إلى ما أُشير. كلّ كتاب لا يكون عملاً عظيماً هو وقود حرب، مشاة مُكْرَهون، جزءٌ يُضحى به، ذلك لأنّه يُعيد أنتاج هيكل العمل العظيم بطرق متعدّدة. حين فهمت هذه الحقيقة تركتُ الكتابة. ومع ذلك عقلي لا يكفّ عن العمل. تساءلتُ: لماذا العمل العظيم يحتاج لأن يكون مخفياً؟، ما القوى الغريبة التي تجرّه إلى السرّ والغموض؟

كنتُ قد صرتُ أعرفُ أنّ الكتابةَ غير مجدية. أو فقط تستحق المعاناة إذا ما كان المرء مستعدّاً لأن يكتب عملاً عظيماً. معظم الكتاب يُخطئون أو يلعبون. ربّما كان الخطأ واللعب شيئاً واحداً، وجهين لعملة واحدة. في الحقيقة نبقى أطفالاً دائماً، أطفالاً مسوخاً، مليئين بالبثور والدوالي والأورام والبقع الجلدية، لكنّنا أولاً وأخيراً أطفال، أي أنّنا لا نتخلّى أبداً عن التمسّك بالحياة، بما أنّنا حياة. أيضاً يمكن أن يُقال: نحنُ مسرح، موسيقى. وبالطريقة ذاتها قليلون هم الكتاب الذين يستقيلون. نلعب لعبةَ الاعتقاد بأنّنا خالدون. نُخطئ بالحكم على عملنا ذاته، وبالحكم دائماً غير الدقيق على أعمال الآخرين. نرى أنفسنا في جائزة نوبل، يقول الكتّابُ، كمن يقول: نرى أنفسنا في الجحيم.

شاهدتُ ذات مرّة فيلم مجرمين أمريكيين شماليين محترفين. في أحد المشاهد يقتل رجلُ تحرٍّ مجرماً، وقبل أن يُطلق عليه الطلقة القاتلة يقول له: نتقابل في الجحيم. إنّه يلعب. رجل التحرّي يلعب ويُخطئ. المجرم الذي ينظر إليه ويشتمه، قبل أن يموت بقليل، أيضاً يلعب ويُخطئ، وإن كان ميدان لعبه وميدان خطئه تقلّص إلى حدود الصفر المُطلَقِ تقريباً، ذلك لأنّه سيموت في المشهد الثاني. مخرج الفيلم أيضاً يلعب. وكاتب السيناريو أيضاً. نلتقي في نوبل؟ صنعنا تاريخاً. الشعب الألماني يشكرنا. معركة تاريخية سوف تذكرها الأجيال القادمة. حبّ خالد. اسم مكتوب على المرمر. ساعة ربّات الإلهام. بل وحتى جملة هي ظاهرياً في غاية البراءة مثل: أصداء النثر الإغريقي ليس فيها غير اللعب والخطأ.

اللعب والخطأ هما الضمادة ودافعُ الكتّاب الصغار. أيضاً: هما الوعد بسعادتهم المستقبلية. غابة تنمو بسرعة مدوّخة، غابة لا أحد يكبحها، ولا حتى الأكاديميات، على العكس تتكفّل الأكاديميات بأن تتركها تنمو دون مشاكل، ورجال الأعمال والجامعات (خالقي

الأفّاقين)، والمكاتب الحكومية ورعاة الثقافة وجمعياتها ومنشدي الشعر، جميعهم يُساهمون في أن تنمو الغابة وتُخفي ما يجب إخفاءه، جميعهم يُساهمون في أن تعيدَ الغابةُ إنتاج ما يجب أن تُعيد إنتاجه بما أنّه لا مفرّ من أن تفعل ذلك، لكن دون أن تكشف أبداً ما هو ذلك الذي تعيد إنتاجه، ذاك الذي تعكسه بوداعة.

هل ستقول إنّه انتحال؟ بلى انتحال بمعنى أنّ كلّ عمل صغير، كلّ عملٍ يخرج من قلم كاتب صغير، لا يمكن أن يكون إلا انتحالاً لأيّ عمل عظيم، الفارق الصغير هو أنّنا نتكلّم هنا عن انتحال مسموح. الانتحال الذي هو تمويه، الذي هو جزء في مشهد مزدحم هو أحجية من المحتمل أن تقودنا إلى الفراغ.

بكلمة واحد الأفضل هو التجربة. لن أقول لك إنّ التجربة لا تُحْرَز بالتعامل المتواصل مع مكتبة، لكن بمعزل عن المكتبة تغلب التجربة. التجربة هي، يُقال عادةً، أمّ العلوم. حين كنتُ شابّاً وكنتُ ما أزال أفكّر أنّني سأدخل في عالم الآداب، تعرّفت على كاتب من المحتمل جدّاً أنّه كتب عملاً عظيماً، مع أنّني أرى أنّ كلّ إنتاجه كان عملاً عظيماً.

لن أقول لك اسمه، كما أنّه ليس لصالحك أن أقوله لك ومعرفته ليست ضرورية لمؤثرات التاريخ. اكتفِ بمعرفة أنّه كان ألمانيّاً وأنّه جاء يوماً إلى كولونيا ليُعْطي بعض المحاضرات. طبعاً لم أُضِعْ واحدة من الدردشات الثلاثة التي قدّمها في جامعة مدينتنا. في الأخيرة حصلت على مقعد في الصفّ الأوّل وتفرّغتُ لمراقبته بالتفصيل، أكثر مما للاستماع إليه، مراقبة يديه، مثلاً، اليدين القويّتين الضامرتين، رقبته رقبة الرجل العجوز الشبيهة برقبة طاووس أو ديك منتوف الريش، وجنتيه السلافيتين قليلاً، شفتيه اللتين يمكن للمرء أن يشطرهما بسكين ولا يخرج منهما قطرة دم واحدة، صدغيه، الرماديين مثل بحر هائج، وعينيه على وجه الخصّوص، العينين العميقتين، اللتين تُشبِهان أحياناً،

إذا ما حرّك رأسه حركات خفيفة، نفقَيْن بلا قاع، نفقين مهجورين ويوشكان على الانهيار.

طبعاً أُحيطَ شخصُهُ بعد انتهاء المحاضرة بوجهاء المدينة ولم أستطِع حتى أن أصافِحَهُ وأقولَ له كم أنا مُعجب به. مرَّ الزمن. مات هذا الكاتبُ وبقيت أنا، كما هو منطقيّ، أقرأ وأعيدُ قراءته. وجاء اليوم الذي قرّرت فيه أن أترك الأدب. تركته. لا توجد صدمة في هذه الخطوة بل تحرّر. سوف أعترفُ لك، هذا بيننا، أنّه كمن لا يعود بتولاً. تركُ الأدب، أي التخلّي عن الكتابة والاكتفاء بالقراءة راحة!

لكن هذا موضوع آخر. سنتكلم عنه حين تُعيدُ إليّ الآلةَ. ومع ذلك فذكرى زيارة هذا الكاتب الكبير إلى مدينتي لا تُفارقني. في تلك الأثناء بدأتُ أعملُ في معملِ أدواتٍ بصرية. كنتُ أكسب مالاً جيّداً. كنتُ أعزب، معي مال، أذهب أسبوعيّاً إلى السينما، وكنتُ، إضافة إلى ذلك، أدرسُ الإنكليزية والفرنسيّةَ وأزور المكتبات التي تخطر ببالي.

حياة رغدة. الحياة رغدة. لكنّ ذكرى زيارة الكاتب الكبير لا تُفارقني والأسوأ من ذلك هو أنّني انتبهت فجأة إلى أنّني لا أتذكّر إلا المحاضرة الثالثة، وأنّ ذكرياتي تدور حول وجهه، كما لو أنّ ذلك الوجه أراد أن يقول لي شيئاً وفي النهاية لم يقله. لكن ما هو؟ وذات يوم، ولأسباب لا علاقة لها بالموضوع، رافقتُ صديقاً طبيباً إلى مستودعِ الجثث في الجامعة. لا أظنّك كنت هناك. كان المستودع في الأقبية وهو رواق طويل جدرانه مغطاة بالبلاط الأبيض وسقفه من الخشب. في الوسط هناك مدرّج حيث يتمُّ التشريح وفصل أجزاء الجسم وبقية الفظاعات العلمية. ثمّ هناك مكتبان صغيران، مكتب رئيس قسم دراسات الطبّ الشرعي وآخر لأستاذ آخر. على الأطراف توجدُ الصالات المبرّدة حيث الجثث، وأجساد المعدَمين أو الأشخاص مجهولي الهويّة زارهم الموتُ في الفنادق العابرة.

في تلك المرحلة أبديتُ اهتماماً لا شكَّ مَرَضِيّاً بهذه المنشآت،

وأخذ صديقي الطبيب بلطفٍ على عاتقه أن يُطلعني عليها بشرحٍ فاخر، بل إنّنا حضرنا آخر تشريح في ذلك اليوم. أغلق بعدها صديقي على نفسه مع رئيس القسم وبقيتُ وحدي في الممرّ أنتظره بينما راحَ الطلابُ يُغادِرون ونوع من سبات الغروبِ راح يتسرّب من تحت الأبواب مثل غازٍ سامّ. بعد عشر دقائق سمعتُ جلبةً قادمة من أحد المستودعات أفزعتني. أؤكّد لك أنّ هذا في تلك المرحلة كان كافياً كي يُفزع أيّ شخص، لكنّني لم أكن أبداً مفرطاً في خوفي وتوجّهتُ إلى هناك.

عندما فتحتُ البابَ لفحني هواءٌ باردٌ ملءَ وجهي. في عمق المستودع، وبجانب سريرٍ فردي رجلٌ يُحاول أن يفتح إحدى الكوى أو أنّ الخليّة لم تتجاوب معه. سألته دون أن أتحرّك من جانب الباب عمّا إذا كان يحتاج إلى مُساعدة. انتصب الرجل، كان طويلاً جدّاً، ونظر إليّ نظرةً بدا لي وقتها أنّها تُمَزّق القلب. ربمّا شجّعني انطباع المفجوع هذا في نظرتهِ على أن أقترب منه. أشعلتُ، بينما كنتُ اقترب منه محاطاً بالجثث، سيجارة كي أهدّئ أعصابي، وحين وصلت إليه، كان أوّل ما فعلته هو أنّني قدّمتُ له سيجارة، ربّما مُقْحِماً رفاقيةً غير موجودة.

عندها فقط نظر إليّ مُستخْدَم مستودع الجثث وبدا لي أنّني رجعت في الزمن إلى الوراء. بدت لي عيناه مماثلتين تماماً لعيني الكاتب العظيم، الذي حضرتُ محاضراته في كولونيا كغريب. أعترفُ لكَ أنّني فكّرتُ في تلك اللحظة أنّني أُجنّ. أخرجني من ورطتي صوتُ مُسْتَخْدَم مستودعِ الجثث، الذي لا يُشبه في شيء الصوت الحميم للكاتب العظيم. قال: التدخين هنا ممنوع.

لم أعرف بماذا أُجيبه. أضاف: الدخان يضرّ بالموتى. ضحكتُ. قدّم ملاحظة توضيحية: الدخان يضرّ بالمحافظة عليها. قمتُ بحركة لا تُحرجني إطلاقاً. هو حاول للمرّة الأخيرة: أتكلّم عن بعض المصافي، أتكلّم عن الرطوبة، لفظ كلمة نقاء. عدتُ وعرضتُ عليه سيجارة فأعلن

برصانة أنّه لا يُدخِّن. سألته عمّا إذا كان يعمل هناك منذ زمن طويل. قال، بنبرة محايدة وصوت صارٌ قليلاً، إنّه يعمل في الجامعة منذ ما قبل حرب الأربعة عشر.

- وهل عملت دائماً في مستودع الجثث؟ -سألته.

- لم أعرف أماكن أخرى -أجابني.

- شيء غريب -قلتُ له-، لكنّ وجهك، وخاصّة عينيك تذكّرانني بعيني كاتب ألمانيّ عظيم -هنا قلتُ اسمَ الكاتب.

- لم أسمع أحداً يتكلّم عنه -كان جوابه.

لو كنتُ في مرحلة أخرى لأثارني هذا الجواب، لكنّني كنتُ والحمد لله أعيش حياةً جديدة. علّقتُ قائلاً لا شكّ أنّ العمل في المشرحة يقود إلى أفكار صائبة أو على الأقل أصيلة فيما يتعلّق بالمصير الإنساني. نظر إلي كما لو أنّني أسخر منه أو أتكلّم بالفرنسية. أصررتُ. ذلك الإطار، قلتُ، مادّاً ذراعيَّ وحائشاً كلّ المستودع، كان بطريقة ما المكان المثالي للتفكير بقصر الحياة، باستحالة سبر غور مصير البشر، بعبثيّة الرهانات الدنيوية.

بشعور بالرعب مخيف انتبهتُ فجأةً إلى أنّني كنتُ أكلّمه كما لو أنّه الكاتبُ الألماني العظيم وأنّ دردشتنا تلك التي لم تحدث قط. ليس عندي وقت كثير، قال لي. عدتُ ونظرتُ إلى عينيه. لم ينتبني أدنى شكّ: كانتا عيني معبودي. وجوابه: ليس عندي وقت كثير. كمْ من الأبوابِ كان يفتحُ ذلك الجواب! كم من الطرق انقشعت فجأةً وانكشفت، بعد هذا الجواب!

ليس عندي وقت كثير، عليّ أن أنقل جثثاً من الأعلى إلى الأسفل. ليس عندي كثير من الوقت، عليّ أن أتنفّس، آكل، أشرب وأنام. ليس عندي وقت كثير، عليّ أن أتحرّك على إيقاع المسننات. ليس عندي وقت كثير، إنّني أعيش. ليس عندي وقت كثير إنّني أموت. كما سَتُدْرِكُ لم يكن هناك أسئلة أخرى. ساعدته في فتح الكوّة. أردت أن أساعده

في إدخال الجثّة لكنّ بلاهتي في تلك الأعمال جعلت الملاحف التي كانت تُغطيها تنسحب وعندها رأيتُ وجه الجثّة وأغمضتُ عينيّ وخفضتُ رأسي وتركته يعملُ بسلام.

حين خرجتُ كان صديقي يراقبني بصمتٍ من باب المستودع. هل كلّ شيء على ما يرام؟، سألني. لم أستطِعْ أو لم أعرف كيف أجيبه. ربّما قلتُ: كلّ شيء سيّئ. لكن لم يكن هذا ما أردتُ قوله.

قبل أن يودّعه أرشيمبولدي، بعد أن شرب فنجان شايٍ، قال له الرجلُ الذي أجّرهُ الآلة الكاتبةَ:

- يسوع هو العمل العظيم. اللصوص هم الأعمال الصغيرة. لماذا هم هناك؟ ليس من أجل رفع الصليب، كما تعتقد بعضُ الأرواحِ الطيّبة، بل من أجل إخفائه.

في إحدى الجولات الكثيرة التي قام بها أرشيمبولدي في المدينة بحثاً عمّن يؤجّره آلة كاتبة عاد والتقى بالصعلوكين اللذين تقاسم معهما القبوَ قبل أن ينتقل إلى العلّية.

ظاهرياً قليل هو الشيء الذي تغيّر في رفيقي شقائه القديمين. كان الصحفي! العجوز قد حاول أن يحصل على عمل في صحيفة كولونيا الجديدة، لكنّهم رفضوه نظراً لماضيه النازيّ. مزاجه المرح والسكير راح يختفي مع استطالة مرحلة سوء الحظّ وبدأت تظهر عليه متاعب العمر. كان رجل الدبابات القديم على العكس من رجل الدبابات القديم الذي صار يعمل في ورشة إصلاح محرّكات ودخل الحزبَ الشيوعيّ.

حين كانا معاً في القبو لم يكونا يتوقّفان عن الشجار. كان رجل الدبابات يؤنّب الصحفي العجوز لانضوائه في الحزب النازي ولجبنه والصحفيّ العجوز يركع ويُقسم بأعلى صوته أنّه فعلاً كان جباناً، لكنّه

لم يكن قط نازيّاً بمعنى النازي. كنّا نكتب ما يُملى علينا. إذا كنّا لا نريد أن نُطرد، كان علينا أن نكتب ما يُملى علينا، كان يئنّ أمام لامبالاة رجل الدبابات، الذي كان يُضيف إلى توبيخاته الحقيقة التي لا تُدحض وهي أنّه بينما كان هو وآخرون مثله يُقاتلون داخل دباباتهم التي كانت تتعطّل وتحترق، كان الصحفيّ وآخرون مثله يُذعنون ويكتبون أكاذيب دعائيّة متجاوزين مشاعر أمّهات رجال الدبابات بل وخطيبات رجال الدبابات.

- لن أغفر لك هذا أبداً، يا أوتّو -كان يقول له.

- لكنّه ليس ذنبي -كان الصحفيّ يئن.

- ابكِ، ابكِ -كان يقول له رجل الدبابات.

- كنّا نُحاول أن نكتب شعراً -كان الصحفيُّ يقول-، كنّا نُحاول أن نترك الزمن يمرّ ونبقى أحياءً كي نرى ما الذي سيأتي بعدها.

- ها قد رأيت، أيّها الخنزير المقرف، ما الذي أتى بعدها -كان يردّ رجل الدبابات.

كان الصحفيُّ يتكلّم أحياناً عن الانتحار.

- لا أرى حَلّاً آخر -قال لِأرشيمبولدي حين ذهب لزيارتهما-. كصحفيّ أنا منتهٍ. كعامل ليس لديّ أدنى إمكانية. كمستخدم في إدارة ما محلّية، سأبقى موشوماً بماضيّ. كعامل مستقل، لا أعرف عملَ شيءٍ محكم. فلماذا إذن سأطيل عذابي؟

- كي تدفع دينك للمجتمع، كي تُكَفّر عن كذبك -صرخ به رجل الدبابات، الذي كان يبقى جالساً إلى الطاولة متظاهراً بأنّ منهمك بقراءة صحيفة، بينما هو في الحقيقة يُصغي إليه.

- أنت لا تعرفُ ما تقول، يا جوستاف -ردّ عليه الصحفيّ- خطيئتي الوحيدة، قلتها لك مئة ألف مرّة، كانت الجبن، وأنا أدفع ثمنه غالياً.

- ما زال عليك أنّ تدفع أغلى.

اقترح أرشيمبولدي على الصحفيّ، خلال تلك الزيارة، أنّه ربّما كان حظّه سيتبدّل إذا ما انتقل إلى مدينة أخرى، مدينة أقل معاناة من كولونيا، مدينة أصغر، لا يعرفه فيها أحد، الاحتمال الذي لم يخطر ببال الصحفيّ والذي بدأ يفكّر به بجدّية.

استغرق أرشيمبولدي في نقل روايته على الآلة الكاتبة عشرين يوماً. عمل نسخة بكربونيّة وبحث في المكتبة العامّة التي عادت لتفتح أبوابها توّاً عن اسم داري نشر، يرسل إليهما المخطوط. بعد كثير من التقليب انتبه إلى أنّ كثيراً من دور النشر التي نشرت كثيراً من كتبه المُفضّلة ما عادت موجودة، بعضها لأسبابٍ اقتصادية أو بسبب خمول أو لامبالاة مالكيها، وأخرى أغلقها النازيون أو سجنوا أصحابها وأخرى لأنّ قصف الحلفاء محاها.

سألته إحدى موظفات المكتبة، التي كانت تعرفُ أنّه يكتب عمّا إذا كان عنده مشكلة، فقال لها أرشيمبولدي إنّه يبحث عن دور نشر أدبية ما زالت تعمل. قالت له موظفة المكتبة إنّها تستطيع أن تُساعده بقيت لحظة تنظر في بعض الأوراق، أجرت بعدها مكالمة هاتفية. حين عادت سلّمت أرشيمبولدي لائحة بعشرين دار نشر، بعددِ الأيام التي استغرقتها كتابةُ روايته على الآلة الكاتبة. وهو ما كان دون شكّ يشكل طالعاً حسناً. لكنّ المشكلة أنّه لم يكن عنده إلا الأصل ونسخة واحدة وبالتالي عليه أن يختار دارين فقط. راح يُخرج في تلك الليلة وهو واقف في باب البار، الورقةَ من حينٍ لآخر ويدرسها. لم يحدث أن بدت له أسماء دور النشر بمثل ذلك الجمال، التميّز وبمثل ذلك الامتلاء بالوعود والأحلام. ومع ذلك قرّر أن يكون حكيماً فلا يترك الحماس يقوده. أخذ النسخة الأصلية شخصيّاً ليتركها في دار نشر في كولونيا. كانت هذه الدار تملك ميّزة أنّها في حال رفضت المخطوط يستطيع أن يذهب ليستردّه ويرسله على الفور إلى دار نشر أخرى. نسخة

ورق الكربون أرسلها إلى دار في هامبورغ كانت قد نشرت كتباً لليسار الألماني حتى عام ١٩٣٣، حين لم تكتفِ الحكومة النازية بإغلاق الدار بل أرادت أن ترسل الناشرَ، جاكوب بوبيس إلى معسكر اعتقالات، الشيء الذي كانوا سيفعلونه لو لا أنّ السيّد بوبيس استبقهم وسلك طريق المنفى.

بعد شهر من إرساله كلا المخطوطين أجابته دار نشر كولونيا بأنّ روايته على الرغم من محاسنها التي لا تُنكر، لا تدخل للأسف في خططِ الدار، على ألا يمتنع عن أن يرسل إليهم روايته القادمة. لم يبغِ أن يقول إلى إنجيبورغ ما حدث معه وذهب أرشيمبولدي في ذلك اليوم ذاته ليستعيد مخطوطه، وهو ما استغرق معه بضع ساعات، فقد بدا أنّه ما من أحدٍ في دار النشر كان يعرف أين هو ولم يبدِ أرشيمبولدي أنّه مستعد لأن يُغادر من دون المخطوط. حمله في اليوم التالي إلى دار نشر أخرى في كولونيا، حيث رفضوه بعد شهر ونصف تقريباً بكلمات دار النشر الأولى ذاتها، ربّما مضيفين مزيداً من الصفات، وربّما متمنّين له حظّاً أفضل في محاولته القادمة.

كانت قد بقيت دار نشر واحدة فقط في كولونيا، دار نشر تنشر من حين لآخر رواية أو كتاباً شعرياً أو كتاباً عن التاريخ، لكنّ القسم الأعظم من كتالوجها كان مكوّناً من كتيبات تعليم عملية للأعمال اليومية، فهي تُعلم الحفاظَ بشكل مناسب على حديقة، كما تُعلّم إدارة الإسعافات الأولية الصحيحة، أو إعادة استخدام أنقاض البيوت المدمّرة. كان اسم الدار المستشار، وعلى العكس من المحاولتين السابقتين، خرج هذه المرّة الناشرُ شخصيّاً لاستلام المخطوط. ولم يكن لنقص في المستخدمين، كما لفت انتباه أرشيمبولدي، ففي دار النشر كان يعمل على الأقل خمسة أشخاص، بل لأنّ الناشر كان يُحبُّ أن يرى وجوهَ الكتّابِ الذين يريدون أن ينشروا في داره. كان الحديث الذي قام بينهما، كما كان يتذكّر أرشيمبولدي، غريباً. كان للناشر وجه

مُجرم. كان رجلاً شابّاً، فقط أكبر منه بقليل، يرتدي طقماً رائع التفصيل، ومع ذلك كان ضيقاً قليلاً عليه، كما لو أنّه بين ليلة وضحاها سمن خلسةً عشر كيلوغرامات.

خدم خلال الحرب في وحدة مظلّيين، بالرغم من أنّه، سارع ليوضّح أنّه لم يقفز قط بالمظلّة، مع أنّه لم تنقصه الرغبة بفعل ذلك. في سجّله العسكري كان هناك مشاركته في عددٍ من المعارك، في مسارح عملياتٍ مختلفة، وخاصّة في إيطاليا وفي نورماندیا. كان يؤكّد أنّه عاش تجربةَ القصفِ الجوي الشامل للطيران الأمريكي الشمالي. وكان يقول إنّه يعرف الطريقة لتحمّله. وبما أنّ أرشيمبولدي كان خلال الحربِ كلّها في المنطقة الشرقية لم يكن عنده فكرة عما يعني القصف الشامل وهكذا عبرّ عنه. الناشر، الذي كان يُدعى ميكائيل بيتِنِر، الذي كان يُحب ويُفرحه أن يناديه أصدقاؤه ميكي، مثل الفأر، وضّح له أنّ القصف الجويَّ الشامل يكون حين تقوم كمية كبيرة من الطائرات المعادية، لكن كميّة كبيرة جدّاً تترك قنابلها تسقط فوق بقعة محدودة من الجبهة، فوق جزء من الميدان مُحدّد مسبقاً إلى ألا يبقى فيه ولا حتى أثر عشبة.

- لا أدري ما إذا كنتُ قد وضّحت جيداً، يا بِنو -قال ناظراً إلى عيني أرشيمبولدي بثباتٍ.

- كان كلامك واضحاً وضوح الظهيرة، يا ميكي -قال أرشيمبولدي في الوقت الذي كان يُفكّر فيه بأنّ الرجل المذكور لم يكن فقط ثقيلاً بل وتافهاً، التفاهة التي لا يملكها غير المهرّجين والشياطين البائسين المقتنعين بأنّهم شاركوا في لحظة من لحظات التاريخ الحاسمة، في الوقت الذي نعرف فيه جيّداً أنّ التاريخ، الذي هو عاهرة بسيطة، ليس فيه لحظات حاسمة، بل تراكمِ لحظات، تراكم ومضات تتنافس فيما بينها على الفظاعة.

لكن ما كان يريدُهُ ميكي بيتنِر، المحشو في طقمه الضيّق، متقنِ

التفصيل، هو أن يوضّح له تأثير القصف الشامل على الجنود والنظام الذي اخترعه لمحاربته. الضجيج. أول شيء هو الضجيج. الجنديّ في خندقه أو موقعه سيّئ التحصين وفجأة يسمع الضجيج. ضجيج الطائرات. لكن ليس ضجيج القاذفات، الذي هو ضجيج سريع، هذا إذا سُمِح لي بأن أتكلّم هكذا، ضجيج طيران منخفض، بل ضجيج يأتي من أعلى أعالي السماء. الضجيج الأجشّ والمبحوح لا ينبئ بشيء حسن، كما لو أنّ عاصفة تقترب والغيوم تتصادم فيما بينها، لكنّ المشكلة أنّه لا توجد غيوم ولا عاصفة. طبعاً يرفع الجنديّ نظره. في البداية لا يرى شيئاً. يرفع رامي الرشاش نظره، وملقمُ مدفع الهاون، والمُستكشِفُ المتقدّم بصرهم ولا يرون شيئاً. سائق العربة المدرّعة أو مدفع الاقتحام يرفع نظره. أيضا لا يرى شيئاً. ومع ذلك وتوخياً للحذر يُخرج السائق عربتَهُ من الطريق. يصفّها تحت شجرة أو يُغطيها بشبكة تمويه. بعدها تماماً تظهر الطائرات الأولى.

ينظر إليها الجنود. إنّها كثيرة، لكنّ الجنود يعتقدون أنّها تتوجّه لتقصف بعض المدن في المؤخّرة. مدناً أو جسوراً أو خطوطاً حديدية. كانت كثيرة، كثيرة إلى حدٍّ أنّها سوّدت السماءَ، لكنّ أهدافها لا شكّ في منطقة صناعية من ألمانيا. وللمفاجأة العامّة تُلقي الطائرات قنابلها والقنابل تسقط في المنطقة المحدودة. وبعد الموجة الأولى تصل الموجة الثانية. وعندها يصبح الضجيج مُصِمّاً. تسقط القنابل وتفتح حفراً في الأرض. الغابات تشتعل. الغابة، الخندق الأساسي لنورماندیا، تبدأ بالاختفاء. كلّ الألغام تنفجر. الشرفات تتضعضع. كثير من الجنود يُصابون بالصمم آنياً. قليلون منهم لا يستطيعون التحمّل فيسلمون سيقانهم للريح. في تلك اللحظة غطت الميدانَ الموجةُ الثالثة من الطائرات مفرغة قنابلها. الضجيج، الذي بدا مستحيلاً، يصبح أعلى. من الأفضل أن نسميه ضجيجاً. يمكن أن نسميه رعوداً، دويّاً، هديراً، طرقاً، عصفاً مطلقاً، جؤارَ الآلهة، لكنّ كلمة ضجيج كلمة بسيطة تسمّي

بشكل سيء شيئاً لا اسم له. يموت رامي الرشاش. فوق جسده الميت تسقط قنبلة أخرى. تنتشر عظامه ومزق لحمه في أماكن سوف تنهال عليها بعد ثلاثين ثانية قنابل أخرى. مخدّم مدفع الهاون تبخّر. سائق العربة المدرّعة يُحرّك آليته ويُحاول أن يبحث عن ملاذ أفضل، لكنّ الطريقَ يتلقى اصطدام قنبلة أخرى ثمّ قنبلتين أخريين تحوّلان العربة والسائق إلى شيء واحد غيرِ محدَّدِ الشكل في منتصف الطريق بين الخردة والحمّم. بعدها تأتي الموجة الرابعة ثمّ الخامسة. كلّ شيء يشتعل. هذا لا يبدو نورماندیا بل القمر. حين انتهى القصف من إفراغ شحناته على الأرض المُحدّدة مسبقاً لم يُسمع عصفور واحد. أيضاً لا يُسمع عصفور واحد عملياً في المناطق المجاورة، حيث لم تسقط قنبلة واحدة، سواء على يسار الفرق العسكرية التي تضرّرت كما على يمينها.

عندها تظهر القوات المعادية. كان التوغّل بالنسبة إليهم في تلك الأرض الرمادية الفولاذية، التي يتصاعد منها الدخان، والمليئة بالحفر، تجربةً لا تخلو من بعض الرعب. من بين تلك الأرض المقلوبة بوحشية ينهض من حين لآخر جنديٌّ ألمانيّ بعينيٌّ مجنون. يستسلم بعضهم وهو يبكي. آخرون. آخرون، المظليون، محاربو فاهرماخت القدماء، بعض كتائب مشاة سرايا الدفاع[1] يفتحون النيران، يُحاولون أن يعيدوا العمل لخطّ القيادة، أن يؤخّروا التقدّم المعادي. قليل من هؤلاء الجنود، الأكثر اندفاعاً، يظهرون علامات سكر واضحة. لا شكّ كان بين هؤلاء المظلّي ميكي بينتِر، فَوَصْفَتُهُ لمقاومة أيّ نوع من القصف هي هذه: شرب الشناب، شرب كونياك، شرب الأغوارديينت، شرب الويسكي، شرب أيّ مشروب قويّ، بما في ذلك النبيذ إذا لم يكن هناك من مناص كي تتخلّص من الضجيج، أو كي تخلط بين الضجيج ونبض ومتاهات الدماغ.

---

(١) شنوتز شتافل.

أراد ميكي بيتنِر بعدها أن يعرف موضوع رواية أرشيمبولدي وما إذا كانت الرواية الأولى أمّ أنّه خلّف وراءه عملاً أدبياً. قال له أرشيمبولدي إنّها روايته الأولى وحكى له بخطوطٍ عريضة موضوعها. أرى أمامك إمكانيات، قال له بيتنِر. وأضاف على الفور: لكنّنا لا نستطيع أن ننشرها لك هذا العام. ثمّ قال: عن السلفة لا كلام أبداً. وأوضح بعدها: سنعطيك خمسة بالمئة من سعر البيع، عقد أكثر من عادل. ثمّ اعترف: في ألمانيا ما عادوا يقرؤون كما في السابق، يوجد الآن أشياء أكثر عملية يُفكرون بها. عندها تيقّن أرشيمبولدي من أنّ ذلك الرجل كان يتكلّم لمجرّد الكلام وأنّ جميع مظلّيي الخراء، كلاب ستودينت يتكلّمون للكلام، فقط كي يَسمعوا صوتَهم ويتأكّدوا أن لا أحد شنقهم بعد.

بقي أرشيمبولدي بضعةَ أيّامٍ يُفكّرُ أنّ ما تحتاجه ألمانيا هو حرب أهلية.

لم يكن عنده أيّ ثقة بأنّ بيتنِر، الذي لا شكّ أنّه لم يكن يعرف شيئاً عن الأدب، سوف ينشر له الرواية. شعر بالتوتر وفقد الشهية للطعام. صار لا يقرأ تقريباً والقليل الذي يقرؤه يُعكّر مزاجه إلى حدّ أنّه ما إن يبدأ كتاباً حتى يُضْطَرَّ لإغلاق صفحاته، إذ كان يبدأ يرتجف ويشعر برغبة جامحة للخروج إلى الشارع والمشي. يمارس الحب، نعم يمارسه، وإن كان يذهبُ أحياناً في منتصف الممارسة إلى كوكبٍ آخر، كوكب مثلج، حيثُ كان يحفظ دفتر أنسكي عن ظهر قلب.

- أين أنت؟ -كانت تسأله إنجيبورغ حين كان يحدث ذلك.

حتى صوت المرأة التي كان يُحبّها كان يصله من بعيدٍ جدّاً. بعد شهرين من عدم استلام ردٍّ سلبيّ ولا إيجابي مثل أرشيمبولدي في دار النشر وطلب أن يتكلّم مع ميكي بيتنِر. قالت له السكرتيرة إنّ السيّد بيتنِر متفرّغ لتجارة استيراد وتصدير مواد الحاجات الماسّة وإنّه نادراً ما يمكن

العثور عليه في دار النشر، وإنّها ما تزال له، وإن كان لا يكاد يحضر إلى هناك. حصل أرشيمبولدي بعد إلحاح شديد على عنوان مكتب بيتنِر الجديد الموجود خارج محيط كولونيا. في حيٍّ معاملَ قديمة من القرن التاسع عشر، كان مكتب تجارة بيتنر الجديد فوق مخزنٍ تتراكم فيه صناديق مغلفة كبيرة، وأيضاً لم يجده هناك.

كان مكانه ثلاثة مظلّيين قدماء وسكرتيرة صبغت شعرها باللون الفضّي. أعلمه المظليون بأنّ بيتنِر كان في تلك اللحظة في أمبيريز يعقد صفقةَ شحنةِ موز، وراح الجميع بعدها يضحكون وتأخّر أرشيمبولدي في الانتباه إلى أنّهم كانوا يضحكون من الموز وليس منه. راح بعدها المظليون يتكلّمون عن السينما، التي كانوا، مثل السكرتيرة، مُغرَمين بها جدّاً، وسألوا أرشيمبولدي في أيّ جبهة كان وفي أيّ سلاح خدم، وهو ما ردّ عليه أرشيمبولدي بالقول بأنّه كان في الشرق، دائماً في الشرق، وفي مشاة عربات الخيول، وإن لم يرَ في السنوات الأخيرة بغلاً ولا حصاناً واحداً ولا حتى بالمصادفة. على العكس منه كان المظليون الذين قاتلوا دائماً في الغرب، في إيطاليا وفرنسا وبعضهم في كريت، وكانت تعلوهم ملامح محاربي الجبهة الغربية القدماء الدوليين، ملامح لاعبي روليت، سهارى، ذوّاقي نبيذ جيّد، ناس يدخلون إلى المواخير ويسلمون على العاهرات بأسمائهنّ، ملامح تتناقض مع الملامح التي تظهر على محاربي الجبهة الشرقية القدماء، الذين كانت ملامحهم أقرب ما تكون إلى ملامح الموتى الأحياء، إلى الزومبيين، سكّان المقابر، جنود بلا عيون ولا أفواه، لكن لهم قضبان، فكّر أرشيمبولدي، لأنّ من المؤسف أنّ القضيبَ، الرغبةَ الجنسية، هي آخر ما يفقده الرجلُ، في الوقت الذي يجب أن يكون الأوّلَ، لكن لا، الكائن البشري يبقى يُضاجعُ ويُضاجع أو يُضاجع نفسه، وهما سيّان، حتى آخر نفس، مثل الجندي الذي بقي محصوراً تحت جبل من الجثث والثلج وعمل برفشه النظامي كهفاً صغيراً، وراح كي يمضي الوقت

يستمني في البداية بخجل كما لو أنّه في عملية إغواءِ عاملة حديقة صغيرة أو راعية صغيرة، بعزيمة هي في كلّ مرّة أكبر، حتى أجبر نفسه على الرضا التام وهكذا بقي خمسةَ عشر يوماً، محبوساً في كهف من الجثث والثلج، خوف ومفاجأة اللحظات الأولى ولا يبقى غير الخوف من الموت والضجر ولكي يقتل السأم بدأ يستمني، في البداية بخجل، كما لو أنّه كان في عملية إغواء جنائنية أو راعية صغيرة، ثم وفي كلّ مرّة بعزيمة أكبر حتى تمكّن من أجبار نفسه على المتعة الكاملة وبقي على هذه الحال خمسة عشر يوماً، محبوساً في كهف صغير من جثث وثلج، مُقنّناً الطعامَ وتاركاً العنان لرغباته، التي لم تكن تُضعفه، بل على العكس، بدا أنّها كانت تتغذّى رجعياً، كما لو أنّ الجنديَّ المذكور كان يشرب منيه ذاته، أو كما لو أنّه عثر، بعد أن جُنَّ، على المخرج المنسيّ إلى سلامة عقله، إلى أن قامت القوّات الألمانية بالهجوم المعاكس وعثروا عليه، وهنا كانت توجد معلومة غريبة، فكَّرَ أرشيمبولدي، فقد قال أحد الجنودِ الذين حرّروه من جبل الجثث النتنة والثلج الذي كان قد تراكم فوقها، إنّ الرجل المذكور كانت تفوح منه رائحة شيء غريب، أيّ أنّه لم تكن تفوح منه رائحة وسخ ولا خراء ولا بول، كما لم تكن تفوح منه رائحة تفسُّخ أو بؤرة ديدان، عجيب، كانت رائحة الرجل طيّبة، كرائحة عطر رخيص، عطر هنغاريّ أو عطر غجري، ربّما رائحة لبنٍ خاثر خفيفة، رائحة جذور خفيفة، لكن ما كان يطغى لم تكن بالضبط رائحةُ لبن خاثر ولا جذور، بل رائحة شيء آخر، شيء أدهش جميع من كانوا هناك، يُزيحون الجثث بالرفوش كي يرسلوها إلى ما وراء الخطوط ويواروها الثرى مسيحياً، رائحة كانت تشقّ الماء كما فعل موسى في البحر الأحمر، كي يستطيع الجنديُّ المذكور، الذي لم يكن يكاد يستطيع أن يقف على قدميه، أن يمضي، لكن يمضي إلى أين؟، كان باستطاعة أيّ شخص أن يعرف، إلى المؤخّرة، لا شكَّ إلى مشفى أمراضٍ عقلية في الوطن.

دعا المظلّيون، الذين لم يكونوا أشخاصاً سيّئين، أرشيمبولدي للمشاركة في مناقشة صفقة تجارية كان عليهم أن ينهوها في تلك الليلة ذاتها. سألهم أرشيمبولدي في أيّ ساعة تنتهي الصفقة، فهو لم يكن يرغب بأن يخسر عمله في البار، وأكّد له المظليون أن كلّ شيء سيكون قد انتهى في الحادية عشرة ليلاً. اتفقوا على أن يلتقوا في بار قريب من المحطّة ثمّ وقبل أن يُغادِر غمزته السكرتيرة بعينها.

كان اسم البار البلبل الأصفر وأوّل شيء لفتَ انتباه أرشيمبولدي هو أنّ المظلّيين حين ظهروا كانوا جميعاً يرتدون سترات جلدية سوداء شبيهة جدّاً بسترته. كان العمل يقوم على تفريغ جزء من عربة قطار من حمولة مواقد صغيرة محمولة للجيش الأمريكي. وجدوا بجانب العربة على سكّةٍ معزولة، أمريكيّاً شمالياً، كان أوّل ما طالبهم به هو مبلغ من المال، عدّه حتى آخر ورقة. ثمّ حذّرهم، كمن يكرّر منعاً كان معروفاً على أطفال قاصري الفهم، أنهم فقط يستطيعون أن يفرعوا تلك العربة وليس غيرها، ومن تلك العربة فقط يستطيعون أن يُفرغوا الصناديق التي تحمل علامة بي ك.

كان يتكلّمُ بالإنكليزية وأجابه أحدُ المظلّيين بالإنكليزية قائلاً له ألا يهتمّ. اختفى بعدها الأمريكيّ الشماليّ في الظلمة وظهر مظلّيٌّ آخر ومعه شاحنة صغيرة، مطفأة الأضواء وبدؤوا العملَ بعد أن فتحوا قفل العربة. انتهوا بعد ساعة فجلس مظلّيان في غرفة القيادة وجلس أرشيمبولدي والمظليّ الآخر في الخلف، في المكان الضيق الذي تركته الصناديق. ساروا في شوارع معزولة، بعضها خال من الإضاءة العامّة حتى المكتب الذي كان يملكه ميكي بيتير خارجَ محيط البلدة. هناك كانت تنتظرهم السكرتيرة، ببراد قهوة ساخنة وزجاجة وسكي. حين فرّغوا كلّ شيء صعدوا إلى المكتب وبدؤوا يتكلّمون عن الجنرال أوديت. أطلق المظليون، بينما كانوا يخلطون الويسكي مع القهوة، العنانَ لذكرياتهم التاريخية، التي كانت في تلك الحالة ذكريات ذكورية تتخلّلها ضحكات

عدم الرضا، كما لو أنّهم قالوا إنني خَبِرْتُ العالم، ولا يستطيع أحدٌ أن يخدعني، فأنا أعرف الطبيعة الإنسانية، اصطدام الإرادات المتواصل، ذكرياتي التاريخية مكتوبة بحروف من نار وهي رأسمالي الوحيد، وهكذا راحوا يستذكرون صورة أوديت، الجنرال أوديت، أسّ الطيران الذي انتحر نتيجة الافتراءات التي بثّها جورينغ.

لم يكن أرشيمبولدي يعرف جيّداً من كان أوديت، لكنّه أيضاً لم يسأل. لم يكن اسمه غريباً عليه، مثله مثل أسماء أخرى، لكن ليس أكثر. اثنان من المظلّيين كانا قد رأيا أوديت ذات مرّة وكانا يتكلّمان عنه بأفضل الكلمات.

- أحد أفضل رجال القوى الجوية الألمانية.

كان المظلّيُّ الثالث يُصغي إليهم ويُحرّك رأسه، غير واثق تماماً مما كان يؤكّده رفيقاه، لكنّه لم يكن مستعداً إطلاقاً لأن يُعاكسهما، وكان أرشيمبولدي يُصغي مذعوراً، فهو إذا كان واثقاً من شيء فمن أنّ في الحرب العالمية الثانية كانت هناك أسباب أكثر من فائضة للانتحار، لكن طبعاً ليس القيل والقال عن شخص مثل جورينغ.

- هكذا إذن أوديت هذا انتحر بسبب مؤامرات صالون جورينغ - قال-. هكذا إذن أوديت هذا لم ينتحر بسبب معسكرات الإبادة ولا بسبب المجازر في الجبهة ولا بسبب المدن المحروقة، بل لأنّ جورينغ أكّد أنّه كان أخرق؟

نظر إليه المظليون الثلاثة كما لو أنّهم يرونه لأوّل مرّة، وإن لم يظهروا دهشة زائدة.

- ربّما كان جورينغ على حقّ -قال أرشيمبولدي، وهو يصبّ قليلاً من الويسكي ويُغطّي الفنجان بقفا يده حين حاولت السكرتيرة أن تملأه له قهوة-. ربّما كان أوديت هذا في الأساس أخرق -قال-. ربّما كان أوديت هذا حقيقةً كتلة أعصاب بطيئة وممزّقة -قال-. ربّما كان أوديت هذا لوطياً، مثل جميع الألمان تقريباً الذين سمحوا لهتلر أن يلوط بهم.

- هل أنت نمساوي؟ -سأل أحدُ المظلّين.

- لا، أنا أيضاً ألماني -قال أرشيمبولدي.

لزم المظليون الثلاثةُ الصمتَ برهة، كما لو أنّهم يسألون أنفسهم هل يقتلونه أم يسحقونه ضرباً. ثقة أرشيمبولدي بنفسه، الذي كان يرمقهم بين فينة وأخرى بنظرات حنق يمكن أن تُقرأ فيها أشياء كثيرة إلا الخوف، صدّهم عن جواب عدواني.

- ادفعي له -قال واحدٌ منهم للسكرتيرة.

نهضت هذه وفتحت خزانة معدنية كان في القسم السفليّ منها صندوق حديدي صغير. كان المبلغ الذي وضعته في يدي أرشيمبولدي يعادل نصف مرتبه الشهري في بار سبينغلرستراس. خبأ أرشيمبولدي النقود في جيب سترته الداخلي على مرأى من نظرة المظليين العصبية (الذين كانوا واثقين من أنّه يخبّئ هناك مسدساً أو على الأقل سكيناً) ثم بحث عن زجاجة الويسكي ولم يجدها. سأل عنها. خبّأتها قالت السكرتيرة، لقد شربت كفايةً، يا ولد. أعجبت كلمة ولد أرشيمبولدي ومع ذلك طلب أكثر.

- اشرب آخر جرعة وانصرف بعدها فعندنا أعمال يجب أن نعملها -قال أحد المظلّيين.

وافق أرشيمبولدي هازّاً رأسه. صبّت له السكرتيرة مقدار إصبعين من الويسكي. شربه أرشيمبولدي متمهّلاً، متذوّقاً المشروب، الذي افترض أنّه أيضاً مهرّب. نهض بعدها ورافقه اثنان من المظلّيين حتى باب الشارع. ومع أنّه كان يعرف إلى أين عليه أن يذهب، إلا أنّه لم يستطع أن يتفادى أن يدخل قدميه في الحفر والمطبات التي كانت تميّز ذلك الحي.

عاد أرشيمبولدي بعد يومين ليمثل في دار نشر ميكي بيتِر فقالت له

سكرتيرةُ المرّة السابقةِ نفسها، التي عرفته، إنّهم عثروا على مخطوطه. كان السيّد بيتِز في مكتبه. سألته السكرتيرة عمّا إذا كان يرغب بمقابلته.

- هل يرغب هو بمقابلتي؟ -سألها أرشيمبولدي.

- أعتقد ذلك -قالت السكرتيرة.

خطر برأسه لبضع ثوان أنّ من المحتمل أن يرغب بيتِز الآن بأن ينشر له روايته. كذلك يمكن أنّه يريد أن يقابله ليعرض عليه عملاً آخر في تجارة الاستيراد والتصدير. ومع ذلك فكّر أيضاً أنّه ربّما إذا ما رآه سيكسر له أنفه وقال لا.

- حظّاً سعيداً، إذن -قالت السكرتيرة.

- شكراً -قال أرشيمبولدي.

أرسل المخطوط المستعادَ إلى دار نشر في ميونيخ. انتبه فجأةً، حين عاد بعد أن وضعه في البريد إلى البيت، أنّه طوال ذلك الوقت لم يكد يكتب شيئاً. كلّم بذلك إنجيبورغ بعد أن مارسا الحبّ.

- يا لضياع الوقت -قالت هي.

- لا أعرف كيف أمكن أم يحدث هذا -قال هو.

في تلك الليلة تسلّى، بينما كان يعمل في باب البار، بالتفكير بزمن بسرعتين، زمن كان بطيئاً وكان الأشخاص والأشياء يمرّون فيه بطريقة لا تكاد تُحس، وزمن آخر كان سريعاً جدّاً جداً كانت حتى الأشياء الجامدة فيه تومِض من السرعة. كان الأوّل يسمّى جنّة والثاني جحيماً والشيء الوحيد الذي كان يرغب به أرشيمبولدي هو ألاّ يعيش أبداً في أيّ منهما.

تلقى ذات صباح رسالة من هامبورغ. كانت الرسالة موقّعة من قبل السيّد بوبيس، الناشر العظيم، وفيها يقول كلمات إطراء، وإن كانت دون مبالغة، لنقُل أشياء مُطْرِية، بخطوط عامّة، عن لوديك، العمل الذي سيلقى اهتمام الناشر، طبعاً إذا كان السيّد بِنو فون أرشيمبولدي لم

ينشرها بعد وفي هذه الحال سيحزن كثيراً، فروايته لا تخلو من القيمة، وكانت بطريقة ما تنطوي على جديد، أي أنّه كتاب كان السيّد بوبيس قد قرأه باهتمام بالغ ويمكن طبعاً أن يُراهن دون شكّ على هذا الانطباع، وإن كان ونظراً للوضع الذي كان فيه النشر في ألمانيا أكثر ما يمكن أن يعطيه له كسلفة هو مبلغ كذا وكذا، وهو رقم مضحك، يعرف ذلك جيّداً، ما كان لينطق به إطلاقاً قبل خمسة عشر عاماً، لكنّه يضمن له بالمقابل طبعة دقيقة وتوزيعاً للكتاب في كلّ المكتبات الجيّدة، ليس في ألمانيا وحدها بل وفي النمسا وسويسرا حيث يتذكّر أصحاب المكتبات الديمقراطيون شعارَ دار بوبيس ويحترمونه، رمزاً للطبعة المستقلة والدقيقة.

ودّعه السيّد بوبيس بعدها بلطف، راجياً منه ألا يتردّدَ، إذا ما مرَّ ذات يومٍ بهامبورغ، في زيارته وأرفق الرسالة بنشرة صغيرة عن الدار مطبوعةً على ورق رخيص لكن بأحرف جميلة. حيث يُعلن عن كتابين «رائعين» سيخرجان إلى السوق قريباً. واحد من أوائل أعمال دوبلن ومجلدّ دراسات لهاينريش مان.

حين أرى أرشيمبولدي الرسالةَ لِإنجيبورغ بدت مندهشة لأنّها كانت تجهل من يكون بِنّو فون أرشيمبولدي ذاك.

- هو أنا، طبعاً - قال لها أرشيمبولدي.

- ولماذا بدّلتَ اسمكَ؟ - أرادت أن تعرف.

ردّ أرشيمبولدي، بعد أن فكّر لحظةً، للأمان.

- ربّما كان الأمريكيون يبحثون عنّي - قال -. ربّما الشرطة الأمريكية والألمانية ربطوا خيوطاً مفلوتة.

- خيوط مفلوتة لمجرم حرب؟ - قالت إنجيبورغ.

- العدالة عمياء - ذكّرها أرشيمبولدي.

- عمياء حين يناسبها - قالت إنجيبورغ -، من الذي يهمّه أن تخرج خرق سامّر الوسخة إلى النور؟ لا أحد.

- هذا ما لا يعرف أبداً - قال أرشيمبولدي - على كلّ الأحوال الأكثر أماناً بالنسبة إليّ هو أن ينسوا رِيْتِر.

نظرت إليه إنجيبورغ مندهشة:

- أنت تكذب - قالت.

- لا، لا أكذب - قال أرشيمبولدي وصدّقته إنجيبورغ، لكنّها قالت له بعدها قبل أن يُغادر إلى عمله، بابتسامة كبيرة:

- أنت واثق من أنّك ستُصبح مشهوراً!

لم يُفكّر أرشيمبولدي قط قبل تلك اللحظة بالشهرة. هتلر مشهور. جورينغ مشهور. الناس الذين كان يُحبّهم أو يتذكّرهم بحنين لم يكونوا مشهورين. بل يغطون بعض الحاجات. كان دوبلين عزاءه. وأنسكي قوّته. إنجيبورغ كانت سعادته. هوغو هالدِر المختفي كان خفّة حياته. أخته، التي لم يكن يعرف عنها شيئاً، كانت براءته ذاته. طبعاً كانوا أشياء أخرى أيضاً. بل إنّهم كانوا أحياناً الأشياء كلّها مجتمعة، لكن ليسوا الشهرة، التي حين لا ترتكز على الوصولية، ترتكز على الخطأ والكذب. ثمّ إنّ الشهرة كانت مُحَجِّمة. لا مناص كلّ الذي ينتهي إلى الشهرة وكلّ الذي يصدر عن الشهرة سوف يتحجّم. كانت رسائل الشهرة أوّلية. الشهرةُ والأدب كانا عدّوين لدودَين.

بقي طوال ذلك اليوم يُفكّرُ لماذا غيّر اسمه. جميعهم في البار كانوا يعرفون أنّ اسمه هو هانز رِيْتِر. إذا ما قرّرت الشرطة أخيراً أن تتعقّبه بسبب مقتل سامّر فلن تنقصها آثار باسم رِيْتِر. لماذا إذن تبنّي اسماً مستعاراً؟ ربّما كانت إنجيبورغ على حق، فكَّرَ أرشيمبولدي، ربّما أنا في أعماقي متيقّن من أنّني سأُصبح مشهوراً وبالاسم الجديد أتخذ الاستعدادات الأولى من أجل أمني المستقبليّ. لكن ربّما كان كلّ هذا يعني شيئاً آخر، ربّما، رُبّما، رُبَّما...

في اليوم التالي من استلامه لرسالة السيّد بوبيس، كتب له أرشيمبولدي مؤكّداً أنّ روايته ليست ملتزمة مع أيّ ناشر آخر وأنّ السلفة التي وعد السيّد بوبيس بأن يُعطيها له تبدو مُرْضِية.

بعد وقت قصير وصلته رسالة من السيّد بوبيس يدعوه فيها إلى هامبورغ كي يتعرّف عليه شخصيّاً ويتخذ بالمناسبة إجراءات توقيع العقد. في هذه الأيّام، قال له السيّد بوبيس، لا أثق بالبريد الألماني ولا بدقّته ولا بتنزّهه عن الخطأ مضرب المثل. في المرحلة الأخيرة، وخاصّة بعد عودتي من إنكلترا كسبت نزوة أن أتعرّف شخصياً على جميع مؤلّفيّ.

قبل العام ٣٣ نشرتُ، يشرح له، كثيراً من الأعمال الأدبية الألمانية الواعدة، وفي عام ١٩٤٠ في وحشة فندقٍ لندنيّ، بدأتُ كي أقتل الملل، أحصي كم من الكتّاب الذين نشرتُ لهم لأوّل مرّة صاروا أعضاء في الحزب النازي، كم منهم صار في سرايا الدفاع، كم منهم نشر في صحف معادية للسامية بشكلٍ عنيف، كم منهم سار في البيروقراطية النازية. كادت النتيجة تقودني إلى الانتحار. كتب السيّد بوبيس.

اقتصرتُ بدل أن أنتحر على صفعي لنفسي. فجأة انطفأت أضواء الفندق، وأنا تابعت لعن وصفع نفسي. لو رآني أي شخص لاعتقد أنّني مجنون. فجأة نقصني الهواء وفتحت النافذةَ. عندها انتشر أمامي مسرح الحرب الليليّ العظيم تأملتُ كيف كانوا يقصفون لندن. كانت القنابل تسقط بالقرب من النهر، لكنّها في الليل تبدو كأنّها تسقط على بعد أمتار من الفندق. حزمة الأضواء العاكسة تعبر السماء. دويّ القنابل كان في كلّ مرّة أقوى. ومن حين إلى آخر، انفجار، لهب نار فوق مناضد الحماية يوحي، وإن كان من المحتمل ألا يكون كذلك، أنّ طائرة لوفتواف أصيبت. تابعتُ، بالرغم من الرعب الذي كان يُحيط بي، صفعي وشتمي لنفسي. قوّاد، قميء، معتوه، أحمق، أخرق، تافه، ها أنت ترى، شتائم أقرب إلى الصبيانية أو التخريفية.

قرع بعدها أحدٌ الباب. كان فتى أيرلندياً في ريعان الشباب. في هبّة جنون اعتقدتُ أنّني أرى في تقاسيمه تقاسم جيمس جويس. شيء مضحك.

- عليك أن تُغلق درفتي النافذة، يا جدّ -قال لي.

- ماذا؟ -قلت محمرّاً مثل حبّة رمان.

- النافذة الإضافية، يا شيخ، وانزلْ مثل الطير إلى القبو.

فهمتُ أنّه يأمرني أن أنزل إلى القبو.

- انتظر لحظةً، يا فتى -قلتُ له، وأعطيته ورقة نقدية إكراميةً.

- سيادتُك مبذِّر -قال لي قبل أن يذهب-، لكن اذهبْ الآن مثل الطير إلى الديماس.

- اذهب أنتَ أوّلاً -أجبته-، الآن ألحق بك.

حين غادر عدت لأفتح النافذة ورحتُ أتأمّل حرائق موانئ النهر ثمّ رحتُ أبكي ما اعتبرته وقتذاك حياةً ضائعة ومُنْقَذَة في لحظة من شعرها.

هكذا طلب أرشيمبولدي إذناً من العمل وسافر في القطار إلى هامبورغ.

كانت دار نشر السيّد بوبيس في البناء ذاته الذي كانت فيه حتى عام ١٩٣٣. البناءان المجاوران دمّرهم القصف وكذلك بضعة أبنية على الرصيف المقابل. كان بعض مستخدمي دار النشر يقولون، طبعاً من وراء ظهر السيّد بوبيس، إنّه كان يُوَجّه شخصياً الغارات الجوّية على المدينة. أو على الأقل على هذا الحيّ بالتحديد. حين تعرّف أرشيمبولدي على السيّد بوبيس كان هذا في الرابعة والسبعين من عمره ويوحي أحياناً بأنّه رجل واهن الجسم، سيّئ المزاج، بخيل، شكوك، تاجر، قليلاً ما يهمّه الأدب أو لا يهمّه أبداً، بالرغم من أنّ طبعه كان مختلفاً جدّاً: كان السيّد بوبيس يتمتعُ أو يتظاهر بأنّه يتمتع بصحة يُحسد عليها، لا يمرض أبداً، مستعدّ دائماً لأن يبتسم لأيّ شيء، يظهر عادة

أنّه حسن الظنّ مثل طفل ولم يكن بخيلاً، وإن لم يكن ممكناً التأكيد على أنّه كان يدفع لمستخَدميه بسخاء.

كان يعمل إلى جانب السيّد بوبيس، الذي يعمل في كلّ شيء، مُصحِّحةٌ، إداريٌّ، يقوم أيضاً على العلاقات مع الصحافة، سكرتيرة، تُساعدُ المُصحّحةَ عادةً، والإداريّ، ومسؤول المستودع، الذي نادراً ما يتواجد في المستودع، في قبو البناء، القبو الذي كان على السيّد بوبيس أن يقوم بإصلاحات مستمرّة فيه، بسبب مياه الأمطار، التي كانت تغرقه أحياناً، وكانت أحياناً حتى طبقة المياه الجوفية، كما كان يوضح مسؤولُ المستودع، تصعدُ وتقيم في القبو على شكل بقع رطوبة كبيرة، مؤذية جدّاً للكتبِ ولصحةِ من يعمل هناك.

بالإضافة إلى هؤلاء المستخدَمين الأربعة في المطبعة، كانت تتواجد هناك عادة سيّدة ذات مظهر محترم، بعمر السيّد بوبيس تقريباً، إن لم تكن أكبر منه قليلاً، عملت لصالح هذا حتى عام ١٩٣٣، السيّدة ماريان غوتليب، المستخدمة الأكثر إخلاصاً لدار النشر، إلى حدّ أنّها، بحسب ما كان يُقال، كانت هي من قاد السيارة التي أقلّت السيد بوبيس وزوجته إلى الحدود الهولندية، حيث تابعوا بعد أن فتّشت شرطةُ الحدودِ السيارةَ ولم تعثر على شيء، طريقهم حتى أمستردام.

كيف استطاع بوبيس وزوجته أن يخدعا الرقابة؟ لم يكن معروفاً، لكنّ الفضل، في جميع روايات القصّة، كان يُعزى دائماً إلى السيّدة غوتليب.

حين عاد السيّد بوبيس إلى هامبورغ في أيلول ١٩٤٥، كانت السيّدة غوتليب تعيش في أدقع فقر، فحملها السيّد بوبيس الذي كان قد ترمّل، لتعيش معه في بيته. راحت السيّدة غوتليب تتعافى شيئاً فشيئاً. أولاً تعافت عقلياً. رأت ذات صباح السيّد بوبيس وعرفته كربُّ عملها السابق، لكنّها لم تقل شيئاً. حين عاد السيّد بوبيس ليلاً من البلدية، وكان يعمل وقتها في شؤون سياسية، وجد العشاء جاهزاً، والسيّدة

غوتليب واقفة بجانب الطاولة، تنتظره. كانت تلك ليلة سعيدة بالنسبة إلى السيّد بوبيس والسيّدة غوتليب، بالرغم من أنّ العشاء انتهى باستحضار المنفى وموت السيّدة بوبيس ونهر من الدموع على قبرها في المقبرة اليهودية في لندن.

استعادت السيّدة غوتليب بعضاً من عافيتها، استغلّته كي تنتقل إلى شقّة صغيرة من حيث كانت تستطيع أن ترى حديقة مدمّرةً، لكنّها تخضوضر في الربيع بفعل قوّة الطبيعة، غيرَ آبهة في أغلب الوقت بأعمال الإنسان، أو آبهةً، بحسب ما كان يقول السيّد بوبيس، الذي كان يحترم مسعى السيّدة غوتليب للاستقلال، لكنّه لا يشاركها فيه. طلبت منه بعد ذلك بوقت قصير أن يساعدها على أن تعثر على عمل، فالسيّدة غوتليب كانت غير قادرة على أن تبقى دون أن تعمل شيئاً. عندها حوّلها السيّد بوبيس إلى سكرتيرة له. لكنّ السيّدة غوتليب، التي لم تكن تتكلّم أبداً عن ذلك، تلقّت بدورها جرعتها من الكوابيس والجحيم فكانت صحّتها تتدهور أحياناً دون ما سبب ظاهر، وتمرض بالسرعة ذاتها التي كانت تستعيد بها عافيتها لاحقاً. ما كانت تعاني منه أحياناً أخرى هو توازنها العقلي. كان على السيّد بوبيس أن يُقابل أحياناً السلطات الإنكليزية في مكانٍ محدّد فترسله إلى الطرف الآخر من المدينة. أو تحدّد له مواعيد مع نازيين منافقين أو تابعين، يريدون أن يُقدّموا خدماتهم إلى بلدية هامبورغ. تبدأ تنام، جالسة في مكتبها، وصدغها متكئ على نشافة الطاولة.

الأسباب التي دفعت السيّد بوبيس لأن يخرجها من هناك ويُشغّلها في أرشيف هامبورغ، حيث على السيّدة غوتليب أن تُعارك كتباً وملفات، بالمجمل أوراقاً، الشيء الذي كانت، بحسب ما افترض السيّد بوبيس، معتادة عليه. على كلّ الأحوال وبالرغم من أنّهم كانوا في الأرشيف أكثر تساهلاً مع الأطوار الغريبة، إلاّ أنّ السيدة غوتليب بقيت محافظة على موقفها الخاطئ أحياناً وأحياناً أخرى المثاليّ في

الإدراك السليم. أيضاً بقيت تزور السيّد بوبيس، في ساعات قريبة من فترة الراحة، ربّما يعود حضورها بفائدة ما. إلى أن سئم السيّد بوبيس من المصالح البلدية وقرّر أن يصبّ نشاطه على ما جعله يعود إلى ألمانيا: إعادة فتح دار النشر.

كثيراً ما كان يردّد حين كانوا يسألونه لماذا عاد، مستشهداً بتاسيتوس: *بمعزل عن خطر البحر المخيف والمجهول، من سيترك آسيا أو أفريقيا أو إيطاليا، كي يعود إلى جرمانيا، بأرضها الصعبة وطقسها القاسي، وسُكّناها وتأملها الكئيبين، إن لم تكن وطنه؟* كان الذين يسمعونه يوافقونه أو يبتسمون ثم يعلّقون فيما بينهم: بوبيس من جماعتنا. بوبيس لم ينسنا. بوبيس لا يكنّ لنا ضغينة. آخرون كانوا يربتون على كتفه ولا يفهمون شيئاً. آخرون كانوا يظهرون وجهاً ممتقعاً ويقولون كم من الحقيقة في هذه الجملة. عظيماً كان تاسيتوس، عظيماً كان بوبيس«نا» الطيّب أيضاً.

الصحيح هو أن بوبيس حين كان يستشهد باللاتيني، كان يلتزم حرفياً بما هو مكتوب. كان عبور القنال دائماً يرعبه. كان بوبيس يدوخ في السفن ويتقيّأ وعلى العموم يظهر غير قادر على مغادرة القمرة، ولذلك حين كان تاسيتوس يتكلّم عن بحرٍ رهيب ومجهول، حتى ولو كان يشير إلى بحرٍ آخر، إلى البلطيق أو إلى بحر الشمال، فإنّ بوبيس كان يُفكّر دائماً بعبور القنال وبكم كان مشؤوماً ذلك العبور بالنسبة إلى معدته المتقلّبة وبالنسبة على صحّته بشكل عام. بالطريقة ذاتها حين كان تاسيتوس يتكلّم عن إيطاليا، كان بوبيس يُفكّر بالولايات المتحدة، بنيويورك بالتحديد، من حيث تلقى عدّة عروض ليست قليلة الشأن كي يعمل في صناعة النشر في التفاحة الكبيرة[1]، وحين يذكر تاسيتوس آسيا وأفريقيا يمرّ برأس بوبيس دولة إسرائيل طبعاً، حيث كان واثقاً من أنّه

(١) نيويورك.

يستطيع بالطبع أن يعمل أشياء كثيرة في مجال النشر، إضافة إلى أنّه مكان كان يعيش فيه كثيرون من أصدقائه القدامى، الذين كان يودّ لو يعود ليراهم.

ومع ذلك اختار جرمانيا، *بكآبة سكناها وتأملها*. لماذا؟ ليس بالضبط لأنّها كانت وطنه، فالسيّد بوبيس على الرغم من أنّه كان يشعر بنفسه ألمانياً، إلاّ أنّه كان يكره الأوطان، أحد الأسباب التي مات لأجلها بحسبه، أكثر من خمسين مليون شخصاً، بل لأنّ دار النشر، أو المفهوم الذي كان يملكه عن دار النشر، موجودة في ألمانيا، دار نشر مقرّها هامبورغ وتنتشر شبكاتها، على شكلِ طلبات، في كلّ المكتبات القديمة في جميع أنحاء ألمانيا، التي كان يعرف بعض أصحابها شخصيّاً والذين كان يتناول معهم الشايَ أو القهوة حين يقوم بجولات عمل، يجلسون في زاوية من المكتبة، يتذمّرون دائماً من الأزمنة السيّئة، ويَشْكون من ازدراء الجمهور للكتب، ويتوجّعون من الوسطاء وباعة الورق، يبكون مستقبلَ بلدٍ لم يكن يقرأ، بكلمة واحدة يمضون وقتاً فائق الروعة بينما هم يقضمون بعض البسكويت أو بعض قطع الكوشن[1] إلى أن ينهض أخيراً السيّد بوبيس ويشدّ مثلاً على يد صاحب مكتبة إيزرلوهن العجوز ويغادر بعدها إلى بوخوم، ليزور صاحب مكتبة بوخوم العجوز، الذي كان يحتفظ بأثرياتٍ، أثريات للبيع، هذا صحيح، كتب عليها علامة دار بوبيس، منشورة في عام ١٩٣٠ أو ١٩٢٧ وكانت بحسب القانون، قانون الغاب الأسود طبعاً، يجب أن تكون قد أُحرقت كأبعد حدّ في العام ١٩٣٥، لكنّ صاحب المكتبة العجوز فضّل أن يُخفيها، حبّاً خالصاً، الشيء الذي كان بوبيس يتفهمه (وناس قليلون آخرون، بمن فيهم مؤلّف الكتاب، من الممكن أن يتفهمه) ويشكر بحركة منه هي أبعد أو أقرب إلى الأدب، كي نسميها

---

(١) حلوى تصنع من مكوّنات مختلفة مثل الجوز وخثارة الجبن وثمرة العليق إلخ.

بهذه الطريقة!، بحركةِ تجّارٍ نزيهين، تجّار يملكون سرّاً ربّما تعود إلى أصول أوروبا، بحركة كانت أسطورة أو تشقّ طريقها إلى الأسطورة، التي كان عموداها الأساسيان صاحب المكتبة والناشر، وليس الكاتب، الطريق النزوي أو الخاضع لتقديرات شبحية عصبية، صاحب المكتبة، بلناشر وطريق طويل متعرّج رسمه رسّام من المدرسة الفلامنكية.

ولذلك لا يبدو غريباً جدّاً أن يملّ السيد بوبيس بسرعة من السياسة ويقرر أن يُعيد افتتاح دار نشره، فما كان يهمه في الأساس حقيقة هي مغامرة طبع الكتب وبيعها.

ومع ذلك تعرّف بوبيس في تلك الأيّام وقبل أن يعود ليفتتح البناء الذي أعادته إليه العدالة، في مانهايم في المنطقة الأمريكية على شابّة لاجئة عمرها أكثر قليلاً من ثلاثين عاماً، من عائلة جيدة وجمال ملحوظ وصارا، دون أن يدري أحدٌ كيف، عشيقين، لأنّ السيّد بوبيس لم يكن مشهوراً بدونجوانيته. التغُّير الذي مرّ به على إثر هذه العلاقة ظهر عليه. طاقته، التي كانت بحدّ ذاتها هائلة، مع الأخذ بعين الاعتبار عمره، تضاعفت ثلاث مرّات. ثقته بنجاح مؤسّسة نشره الجديدة (على الرغم من أنّ السيّد بوبيس كان يُصحّح عادة لمن يتكلّم «عن المؤسّسة الجديدة»، ذلك لأنّها كانت بالنسبة إليه ذات المؤسّسة القديمة تعود الآن إلى السطح بعد توقّفٍ طويل وغير مرغوب) صارت معدية.

في افتتاح دار النشر، ودعوة جميع سلطات وفناني وسياسيي هامبورغ، إضافة إلى وفد من الضباط البريطانيين هواة الرواية (وإن كانوا للأسف أقرب إلى هواة الرواية البوليسية أو إلى فرعها الجورجي، رواية الخيول أو رواة وهواة جمع الطوابع) وهواة الصحف، ليس الألمانية وحسب بل والفرنسية والإنكليزية والهولندية والسويسرية بل وحتى الأمريكية الشمالية، خطيبته كما كان يناديها بحنان بشكل علنيّ وسارت علاماتُ الاحترام جنباً إلى جنب مع الحيرة التي أثارتها مثل

تلك اللقية، فالجميع كان يتوقّع امرأة في الأربعين أو الخمسين وأقرب إلى النوع المثقف، اعتقد بعضهم أن الأمر كان، كما هو معتاد في عائلة بوبيس، يتعلّق بيهودية وفكّر آخرون، تحدوهم التجربة، أنّها لن تكون غير مزحة أخرى من مزاحات السيّد بوبيس، الهاوي جدّاً لمثل هذه الدعابات. لكنّ الأمر كان يسير بجديّة كما توضّح في الحفلة. لم تكن المرأةُ يهودية بل آرية مئة بالمئة، كما لم تكن في الأربعين أو الخمسين بل في الثلاثين ونيّف على الرغم من أنّها كانت تبدو في السابعة والعشرين كحدّ أقصى، وتحوّلت النكتة بعد شهرين إلى أمر واقع حين تمّ الزواج بكلّ التشريفات وبحضور وجهاء المدينة في بناء البلدية القديم وخلال إعادة بنائه، في احتفال مدني لا ينسى ترأسه في تلك المناسبة عمدة هامبورغ بعينه، الذي استغلّ المناسبة وأعلنه في ذروة التملّق ابناً بارّاً ومواطناً نموذجياً.

حين وصل أرشيمبولدي إلى هامبورغ، كانت الدارُ، على الرغم من أنّها لم تُدرك المستوى الذي حدّده السيّد بوبيس كهدف تالٍ (كان الهدف الأوّل ألاّ ينقصه ورق ويحافظ على التوزيع في كلّ ألمانيا، الأهداف الثمانية المتبقية وحده السيّد بوبيس كان يعرفها)، إلاّ أنّها كانت تسير بإيقاع مقبول وكان صاحبها وسيّدها يشعر بالرضا وكان مُتْعَباً.

بدأ يظهر في ألمانيا كتّابٌ كانوا يهمّون السيّد بوبيس، في الحقيقة ليس كثيراً، ليس كثيراً إلى الحدّ الذي كان يهمّه كتّاب اللغة الألمانية في مرحلته الأولى، والذين كان يحتفظ لهم بوفاء حميد، لكنّ بعض الكتاب الجدد لم يكونوا سيّئين، وإن لم يكن يُلمح بينهم (أو أنّ السيد بوبيس لم يكن قادراً على أن يلمح، كما كان هو نفسه يعترف) دوبلن جديد، موسيل جديد، كافكا جديد (حتى ولو ظهر كافكا جديد، كان السيّد بوبيس يقولُ ضاحكاً، لكن بعينين عميقتي الحزن، فإنّني سوف

أرتجف) توماس مان جديد. معظم الكتالوج كان ما يزال، كي نقوله بطريقة ما، رصيد الدار الذي لا ينبض، لكنّ أيضاً بدأ الكتّاب الجدد يطلون بأنوفهم، المقلع الذي لا ينضب للأدب الألماني، إضافة إلى ترجمات الأدب الفرنسي والأدب الأنجلوسكسوني، التي كسبت في تلك الأيّام، بعد القحط النازي الطويل، بعضَ القرّاء المخلصين الذين كانوا يضمنون نجاح الطبعة أو على الأقل ألا تخسر.

على كلِّ الأحوال إن لم يكن إيقاع العمل جنونيّاً فقد كان بالفعل مستداماً، وحين ظهر أرشيمبولدي في دار النشر كان أوّل ما فكّر به هو أنّ السيّد بوبيس، المشغول كما كان يبدو، لن يستقبله. لكنّ السيّد بوبيس أدخله، بعد أن جعله ينتظر عشر دقائق، إلى مكتبه، المكتب الذي لن ينساه أرشيمبولدي أبداً، فالكتب والمخطوطات التي كانت بعد أن استنفدت الأماكن على الرفوف تتكدّس على الأرض مشكلة أكداساً وأبراجاً، بعضها بطريقة مزعزعة راحت بدورها تُشكل أقواساً، فوضى كانت تعكس العالمَ، الغني والعجيب، بالرغم من الحروب والظلم، مكتبة من الكتب الرائعة، ودَّ أرشيمبولدي من كلّ روحه أن يقرأها، الطبعات الأولى لكتابٍ عظماء المهداة والموقّعة بخطّ أيديهم إلى السيّد بوبيس، كتب فنّ منحطّ كانت دور نشر أخرى تعيدها للتداول في ألمانيا، كتب مطبوعة في فرنسا وكتب مطبوعة في إنكلترا، طبعات بسيطة ظهرت في نيويورك وفي بوسطن وفي سان فرانسيسكو، إضافة إلى مجلات أمريكية شمالية بأسماء أسطورية كانت تُشكّل بالنسبة لكاتب شابّ وفقير كنزاً، أقصى استعراض للثراء وكانت تُحوّل مكتب بوبيس إلى شيء أشبه ما يكون بكهف علي بابا.

أيضاً لن ينسى أرشيمبولدي السؤال الأوّلَ الذي وجّهه إليه بوبيس بعد التعارف الجهم:

- ما هو اسمك الحقيقيّ، لأنّك بالطبع لا تُدعى هكذا؟

- هذا هو اسمي -أجابه أرشيمبولدي.

وهو ما ردَّ عليه بوبيس:

- هل تعتقد أنّ سنواتي في إنكلترا أو السنوات بشكل عام حوّلتني إلى أحمق؟ ما من أحد يُسمى هكذا. بِنّو فون أرشيمبولدي. أن تُسمى بِنّو مبدئياً أمر مريب.

- لماذا؟ -أراد أرشيمبولدي أن يعرف.

- لا تعرف؟ حقيقة؟

- حقّاً لا أعرف -أكّد أرشيمبولدي.

- بسبب بنيتو موسوليني، أيّها الطيّب! أين هو رأسك؟

فكّر أرشيمبولدي في تلك اللحظة أنّه أضاعَ الوقتَ والمال بسفره إلى هامبورغ ورأى نفسه مسافراً في تلك الليلة ذاتها في قطار هامبورغ-كولونيا. وإذا ما حالفه الحظّ سيكون في صباح اليوم التالي في بيته.

- أسموني بِنّو لأجل بنيتو خوارِث -قال أرشيمبولدي-، أفترض أنّك تعرف من كان بنيتو خوارِث.

ابتسم بوبيس.

- بنيتو خوارِث -دمدم وبقي يبتسم-. إذن بنيتو خوارِث، هه؟ -قال بنبرة صوتٍ أعلى قليلاً.

هزّ أرشيمبولدي رأسه مؤكّداً.

- فكّرت أنّك ستقول لي تكريماً لسان بِنيتو.

- لا أعرف هذا القدّيس -قال أرشيمبولدي.

- أنا على العكس أعرف ثلاثة -قال بوبيس-. سان بِنيتو دِ أنيانو، الذي نظّم رهبانية البنيدكتيين في القرن التاسع. سان بِنيتو دِ نورسيا، الذي أسّس الرهبانية التي تحمل اسمه في القرن السادس والمعروف بـ«أبي أوروبا»، اسم خطير جدّاً. ألا ترى ذلك؟ وسان بنيتو إل مورو، الذي كان زنجياً من سلالة زنجية، أعني وُلِد ومات في صقليّة في القرن السادس عشر وينتمي إلى رهبانية الفرانسيسكين. من تُفضّل منهم؟

- بنيتو خوارث -قال أرشيمبولدي.

- والكنية، أرشيمبولدي، لا أعتقد أنّك تريدني أنّ أصدّق أنّ كلّ أسرتك تُدعى هكذا؟

- أنا أدعى هكذا -قال أرشيمبولدي وهو يوشك أن يترك الكلمة على شفتي الرجل القصير والمنزعج ويخرج دون أن يودّعه.

- لا أحد يُدعى هكذا -أجابه بوبيس بفتور- أفترض في هذه الحالة أنّ الأمر يتعلّق بتكريم جيوسيب أرشيمبولدو. وما مُبرّر هذه الفون؟ ألا يكتفي بنّو بأنه بِنّو أرشيمبولدي؟ هل يريد بِنّو أن يترك جليّاً انتماءه الجرماني؟ من أيّ مكان من ألمانيا أنت؟

- أنا بروسي -قال أرشيمبولدي بينما هو ينهضُ مُستعِدّاً للذهاب.

- انتظر لحظة -دمدم بوبيس-، أريدك قبل أن تُغادر إلى فندقك أن تذهب لتقابل زوجتي.

- لا أغادر إلى فندقي -قال أرشيمبولدي-، بل أذهب إلى كولونيا. أرجوك أن تسلّمني المخطوط.

عاد بوبيس ليبتسم.

- سيكون لديك متسع من الوقت كي تفعل ذلك.

قرع بعدها جرساً وسأله لآخر مرّة، قبل أن يُفتح الباب:

- هل حقيقة أنّك لا تريد أن تقول لي اسمك الحقيقيّ.

- بِنّو فون أرشيمبولدي -قال أرشيمبولدي ناظراً إلى عينيه.

فتح بوبيس ذراعيه وضمّهما، كما لو أنّه يُريد أن يُصفِّق، لكن دون أيّ صوت، وأطلّت بعدها رأسُ سكرتيرته من الباب.

- خذيه إلى مكتب السيّدة بوبيس -قال.

نظر أرشيمبولدي إلى السكرتيرة، كانت فتاة شقراءَ، متماوجةَ الشعر الطويل، وحين التفت لينظر إلى بوبيس كان هذا قد غرق في قراءة مخطوط. تبع السكرتيرة. كان مكتب السيّدة بوبيس في نهاية ممرّ طويل. قرعت السكرتيرةُ البابَ ببراجم أصابعها ثم فتحته دون أن تنتظر جواباً وقالت: يا آنا، السيّد أرشيمبولدي موجود هنا. أمرها صوتٌ بأن

تُدخِله. أخذته السكرتيرة من ذراعه ودفعت به نحو الداخل. ثمّ غادرت بعد أن خصّته بابتسامة. كانت السيدة آنا بوبيس جالسة خلف مكتب فارغ افتراضاً (خاصة بالمقارنة مع مكتب السيّد بوبيس) حيث لم يكن يوجد غير مرمدة تبغ، وعلبة سجائر إنكليزية وقدّاحة ذهبية وكتاب مكتوب بالفرنسية. عرفها أرشيمبولدي على الفور بالرغم من السنين التي مرّت. إنّها البارونة زومبِ. ومع ذلك بقي ساكناً وقرّر ألا يقول شيئاً. رفعت البارونة النظارة التي، بحسب ما كان يتذكّر أرشيمبولدي، لم تكن تستخدمها سابقاً، وتأمّلته بنظرة في غاية النعومة، كما لو أنّه كان يصعب عليها أن تخرج من ذاك الذي كانت تقرؤه أو تُفَكّر به أو ربّما كانت تلك هي نظرتها دائماً.

- بِنّو فان أرشيمبولدي؟ -سألت.

أكّد أرشيمبولدي بحركةٍ من رأسه. بقيت البارونة بضع ثوان دون أن تقول شيئاً واقتصرت على دراسة تقاسيمه.

- أنا متعبة -قالت-. ما رأيك أن نخرج لنتنزّه برهة، وربّما نتناول فنجان قهوة؟

- يبدو لي جيّداً -قال أرشيمبولدي.

قالت له البارونة بينما هما يهبطان درج البناء المظلم، دون كلفة، إنّها عرفته وإنّها كانت واثقة من أنّه عرفها بدوره.

- على الفور، يا بارونة -قال أرشيمبولدي.

- لكنّ زمناً طويلاً مرَّ -قالت البارونة فون زومبِ- وأنا تغيّرتُ.

- ليس في الجانب الجسدي، يا بارونة -قال أرشيمبولدي من خلفها.

- ومع ذلك لا أتذكّرُ اسمَكَ، كانت أمّك تعمل في بيت الغابة، لكنّني لا أتذكّر اسمك.

بدت الطريقة التي سمّت بها البيت الريفي القديم لِأرشيمبولدي ظريفة. بيتُ الغابة يُذَكِّرُ ببيت دمية، كوخ، ملاذ، شيء بعيد عن مرور

الزمن ويبقى متحجراً في طفولة طوعية وخيالية، لكنّها بالتأكيد لطيفة وسليمة.

- الآن أُدعى بِنّو فون أرشيمبولدي، يا بارونة -قال أرشيمبولدي.

- حسن -قالت البارونة- لقد اخترت اسماً أنيفاً جدّاً، ناشز قليلاً، لكنّه ينطوي على بعض الأناقة، دون شكّ.

كانت بعضُ شوارع هامبورغ، كما استطاع أرشيمبولدي أن يُقَدِّر، أسوأ حالاً من بعض شوارع كولونيا المُدمّرة، وإن أخذ انطباعاً بأنّهم في هامبورغ يجهدون أكثر قليلاً في إعادة الإعمار. بينما كانا يسيران، البارونة خفيفة مثل طالبةِ مدرسةٍ اتخذت خطيباً وأرشيمبولدي حاملاً حقيبة سفره على كتفه، تحدّثا ببعض الأشياء التي حدثت لهما بعد لقائهما الأخير في جبال كارباتوس. كلّمها أرشيمبولدي عن الحرب، كلّمها عن القرم، عن كوبان وأنهارِ الاتحاد السوفييتي الكبيرة، كلّمها عن الشتاء والشهور التي بقي فيها لا يستطيع الكلام، وكلّمها، بطريقة ملتوية قليلاً، عن أنسكي، وإن لم يذكر اسمه.

من جهتها كلّمته البارونة عن أسفارها كما لو كي توازن بين أسفار أرشيمبولدي الإجبارية وبين أسفارها الإرادية والمقصودة جميعها وبالتالي السعيدة، عن أسفارها العجيبة إلى بلغاريا وتركيّا والجبل الأسود واستقبالات السفارات الألمانية في إيطاليا وإسبانيا والبرتغال، واعترفت له أنّها كانت أحياناً تُحاول أن تندم على المتعة التي عاشتها خلال تلك السنوات، لكن وبالرغم من كلّ جهدها في رفض موقف اللذة عقلياً، أو ربّما من الأنسب أن نقول أخلاقياً، إلاّ أنّها في الحقيقة كانت ما تزال ترتعش لذّةً حين تستحضرها ذاكرتُها.

-هل تفهم هذا؟ هل تستطيع أن تفهمني؟ - سألته بينما هما يتناولان الكابوتشينو والبسكويت في مقهى يبدو وكأنّه خرج من حكايات الجنّ بجانب النافذة الكبيرة التي تُطل على النهر والتلال الخضراء الناعمة.

عندها ويدل أن يقول لها أرشيمبولدي إنّه يفهمها أو لا يفهمها، سألها عمّا إذا كانت تعرف ما جرى للجنرال الروماني إنترِسكو. ليس عندي أدنى فكرة، قال البارونة.

- أنا عندي -قال أرشيمبولدي-، إذا رغبت أستطيع أن أحكيه لك.

- أتصوّر أنك لن تقول لي شيئاً حسناً عنه -قالت البارونة-. هل أنا مُخطئة؟

- لا أعرف -اعترف أرشيمبولدي-، بحسب الطريقة التي يُنظر بها إليه يكون سيّئاً جدّاً أو لا يكون بمثل هذا السوء.

- هل رأيته؟ أرأيته أنتَ؟ -همست البارونة ناظرة إلى النهر، حيث كان يعبر في تلك اللحظة مركبان واحد باتجاه البحر والآخر باتجاه الداخل.

- بلى رأيتُهُ -قال أرشيمبولدي.

- إذن لا تحكه لي الآن -قالت البارونة-، سيكون هناك وقت لذلك.

طلب لها أحد ندل المقهى سيارة أجرة. ذكرت البارونة اسمَ فندق. في الاستقبال كان هناك حجز باسم بِنّو فان أرشيمبولدي. تبعا خادم الفندق حتى غرفة فردية. أكتشف أرشيمبولدي مفاجأً مذياعاً فوق إحدى قطع الأثاث.

- افتح حقيبتك -قالت البارونة- ورتّب نفسك قليلاً، سنتناول العشاء مع زوجي.

بينما راح أرشيمبولدي يضع زوجاً من الجوارب وقميصاً وسروالاً داخلياً في كمودينة، أخذت البارونة على عاتقها ضبط موجة إحدى إذاعات موسيقى الجاز. دخل أرشيمبولدي إلى الحمّام، حلق ذقنه، رشّ شعره بقليل من الماء ثمّ سرّحه. حين خرج كانت أضواء الغرفة مطفأة، باستثناء ضوء السرير وأمَرَتْهُ البارونة بأن يتعرّى ويدخل في

الفراش. من هناك، مُغطّى بالبطانيات حتى رقبته وبإحساس لطيف بالتعب رأى البارونة واقفة بسروالٍ داخلي أسود فقط تغيّر المحطات حتى عثرت على موسيقى كلاسيكية.

مكث ما مجمله ثلاثة أيّام في هامبورغ. تناول العشاء في مناسبتين مع السيّد بوبيس. تكلّم في واحدة منها عن نفسه، وفي الأخرى تعرّف على بعض أصدقاء الناشر الشهير لم يكد يفتح فيها فمه خشية أن يرتكب حماقة ما. في الحلقة الحميمة للسيّد بوبيس، على الأقل في هامبورغ، لم يكن يوجد كتّابٌ بل مصرفيٌّ، نبيلٌ مفلس، رسّام صار لا يكتب غير سير رسامي القرن السابع عشر، ومترجمة عن الفرنسية، جميعهم مهتمون بالثقافة، جميعهم مثقفون، لكن ما من كاتب واحد بينهم.

ومع ذلك بالكادِ فتح فمه.

مرّ موقف السيّد بوبيس منه بتحوّلات ملحوظة، عزاها أرشيمبولدي إلى تدخّل البارونة الإيجابي، والتي انتهى بأن قال لها اسمه الحقيقيّ. قاله لها في السرير، بينما هما يمارسان الحبَّ، ولم تحتج البارونة لأن تسأله مرّتين. من ناحية أخرى كان موقفها غريباً وإلى حدّ ما مضيئاً حين طالبته بأن يقول لها ما الذي جرى للجنرال إنترِسكو. ثمّ وبعد أن حكى لها أنّ الروماني مات على يدِ جنوده المتشرذمين ذاتهم الذين ضربوه بالعصي ثمّ صلبوه، كان الشيء الوحيد الذي خطر للبارونة أن تسأل أرشيمبولدي عنه، كما لو أنّ الموت صلباً خلال الحرب العالمية الثانية كان شيئاً يُشاهد كلّ يوم، عمّا إذا كان الجسدُ الذي تأمّله على الصليب عارياً أم بلباسه الموحّد. كان جواب أرشيمبولدي، أنّه كان عارياً عمليّاً كلّياً، لكنّه كان يحتفظ ببعض الخرق من لباسه الموحّد الكافية كي ينتبه الروس، الذين كانوا يتعقبونهم حين يصلون إلى ذلك المكان أن الهدية التي يخلّفها لهم الجنود الرومانيون كانت جنرالاً. لكنّه أيضاً عار بما يكفي كي يتأكّدوا بأمّ أعينهم من الحجم الخارق لأعضاء الرومان

الذكرية، التي كانت في تلك الحالة، قال أرشيمبولدي، تُشكّل نموذجاً مخادعاً، فهو كان قد رأى بعض الجنود الرومان العراة ولم تكن أعضاؤهم تختلف في ميزانها عن متوسّط ما عند الألمان، بينما كان قضيب الجنرال إنترِسكو، الرخو والمزرق كما يحصل لمضروب ومصلوب لاحقاً، يبلغ ضعف أو ثلاثة أضعاف حجم القضيب العام، سواء أكان هذا رومانياً أو ألمانياً، أو فرنسياً كي نضرب مثلاً.

لزم أرشيمبولدي بعد قوله هذا الصمتَ، وقالت السيّدة البارونة لا بدَّ أنّ هذه الميتة ما كانت لتزعج الجنرال الشجاع. وأضافت أنّ إنترِسكو بالرغم من النجاحات التي كانوا يعزونها إليه في المجال العسكري، كتكتيكي وكاستراتيجي كان دائماً كارثة. لكنّه كعاشق كان على العكس، كان أفضل من مرَّ عليّ في حياتي كلّها.

- ليس بسبب حجم عضوه -وضّحت البارونة كي تبعد أيّ تفسير خاطئ يمكن أن يخطر لِأرشيمبولدي الموجود بجانبها في الفراش-، بل بسبب نوعٍ من الميّزة الحيوانيّة: فقد كان أكثر تسلية من غراب في الدردشة وكان يتحوّل في السرير إلى شيطان بحرٍ.

وهو ما ردّ عليه أرشيمبولدي بقوله إنّه من القليل الذي استطاع أن يراقبه خلال زيارة إنترِسكو وحاشيته القصيرةِ إلى قلعة كارباتوس، يعتقد أنّ الغرابَ إنّما هو بالتحديد سكرتيره، المدعو بوبِسكو، الرأي الذي دحضته البارونة على الفور، فقد كان بوبِسكو بالنسبة إليه مجرّد كاكاتوَا[1]، كاكاتوَا يطير خلف أسدٍ. لكنّه أسدٌ بلا مخالب، أو إذا كانت له مخالب فهو لم يكن مستعدّاً لاستعمالها، وبلا أنياب كي يمزّق بها أحداً، كان مجرد معنى مضحك قليلاً لمصيره ذاته، مصيرٍ وفكرةٍ عن المصير هما بطريقة ما صدى لمصير وفكرة مصير بايرون، الشاعر

(١) نوع من الطائر يشبه قليلاً الهدهد توجد منه أكثر من عشرين صنفاً يعيش في إندونيسيا وأستراليا وغينيا ومناطق أخرى.

الذي كان أرشيمبولدي قد قرأه في مصادفة من تلك المصادفات التي تحدث في المكتبات العامة ولم يبدُ له ولا بشكل من الأشكال ممكناً أن يُقارن ولا حتى مموهاً بالصدى مع الجنرال إنترِسكو البغيض، مضيفاً بالمناسبة أنّ فكرة المصير لم تكن شيئاً يمكن أن يُفصل عن مصير الفرد (الفرد البائس)، بل كانت الشيء ذاته بذاته: المصير، المادة التي لا يمكن الإمساك بها حتى تصير حتمية، كانت فكرة المصير التي كان كلّ واحد يملكها عن نفسه.

وهو ما ردّت عليه البارونة قائلة بابتسامة، كيف كان يُلاحَظُ أنّ أرشيمبولدي لم يمارس الحب مع إنترِسكو. وهو ما حدا بِأرشيمبولدي أن يعترف للبارونة بأنّه صحيح لم ينم قط مع إنترِسكو في الفراش، لكنّه بالمقابل كان شاهد عيانٍ لواحدة من أشهر معارك الجنرال في الفراش.

- أفترضُ كانت معي -قالت البارونة.

- حسن ما افترضته -قال أرشيمبولدي مُخاطِباً إيّاها بالشخص الثاني لأوّل مرّة.

- وأنت أين كنتَ؟ -قالت البارونة.

- في غرفة سرّية -قال أرشيمبولدي.

عندها أخذت البارونةَ ضحكةٌ جامحة وقالت بين فواق وفواق إنّها لا تستغرب أنّه اتخذ اسم بِنّو فون أرشيمبولدي اسماً مستعاراً. الملاحظة التي لم يفهمها أرشيمبولدي، لكنّه قبلها بكلّ سرور وراح على الفور يضحك معها.

هكذا عاد أرشيمبولدي بعد ثلاثة أيّام مثمرة جدّاً إلى كولونيا في قطار ليلي، حيث كان الناس ينامون حتى في الممرات وسرعان ما وصل مرّة أخرى إلى علّيته مخبراً إنجيبورغ بالأخبار الرائعة التي جاء بها معه من هامبورغ، الأخبار التي بمشاركتهما فيها أسكرتهما فرحاً، إلى حدّ أنّهما راحا فجأة يغنيان ثمّ يرقصان، دون أن يخافا أن تنخسف

الأرضية تحت قفزاتهما. مارسا بعدها الحبَّ وحكى لها أرشيمبولدي كيف كانت دار النشر والسيّد بوبيس والسيّدة بوبيس، المصحّحة التي تدعى أوتا التي كانت قادرة على تُصحّح الأخطاء النحوية للبسنيغ، الذي كانت تحتقره بحماس هانزيّ، لكنّها لا تحتقر ليشتنبرغ، الذي كانت تُحبّه، الإدارية أو رئيسة قسم العلاقات الصحيفة المدعوّة آنيتا التي كانت تَعرف عمليّاً جميع كُتّاب ألمانيا لكنّها فقط كانت تُحب الأدب الفرنسيّ، السكرتيرة المدعوّة مارتا وكانت لغوية وأهداها بعضَ كتب دار النشر التي كانت تهمّه، أمين المستودع، المدعو راينير ماريا، والذي على الرغم من كونه شاباً كان شاعراً تعبيرياً ورمزياً وانحطاطياً.

أيضاً كلّمها عن أصدقاء السيّد بوبيس وعن كتالوج السيّد بوبيس. وفي كلّ مرّة كان ينهي أرشيمبولدي جملةً كانا يضحكان، كما لو أنّهما يحكيان قصّة لا مناص مضحكة. راح بعدها أرشيمبولدي يعمل بجدّية في كتابه الثاني وأنهاه في أقلّ من ثلاثة أشهر.

لم يكن قد خرج *لوديك* من المطبعة حين استلم السيّد بوبيس مخطوط *الوردة اللامحدودة*، الذي قرأه في ليلتين، أيقظ على أثرها زوجته مضطرباً وقال لها إنّه سيكون عليهم أن يطبعوا الكتابَ الجديد لهذا المدعو أرشيمبولدي.

- هل هو جيّد؟ -سألته البارونة نصف نائمة ودون أن تنهض.

- - أفضل من جيّد -قال بوبيس وهو يدور في الغرفة.

راح بعدها يتكلّم، دون أن يتوقّف عن الحركة، عن أوروبا، عن الأساطير اليونانية، وعن شيء يُشبه بشكل مشوّش التحقيق البوليسي، لكنّ البارونة نامت مرّةً أخرى ولم تسمعه.

فيما تبقّى من الليل حاول بوبيس، الذي كان يُعاني من الأرق الذي كان يعرف كيف يستغلّه إلى أقصى حدّ، أن يقرأ مخطوطات أخرى، حاول أن يُراجعَ حسابات محاسبه، حاول أن يكتب رسائل إلى موزّعي

منشوراته، كلّ شيء كان عبثاً. عاد مع أنوار اليوم الأولى ليوقظ زوجته، وجعلها تعده عندما لا يعود على رأس دار النشر، كناية يشير فيها إلى موته، ألاّ تتخلّى عن أرشيمبولدي هذا.

- أتخلّى عنه بأيّ معنى؟ -سألته البارونة، وهي ما تزال نصف نائمة.

تأخَّر بوبيس بالإجابة.

- احميهِ -قال.

ثمّ أضاف بعد بضع ثوانٍ:

احميه بما تسمح به إمكانياتنا كناشرين.

لم تسمع البارونة فون زومبِ هذه الكلمات الأخيرة، فقد عادت وغرقت في النوم. مكث بوبيس برهة يتأمّل وجهها، الشبيه بلوحة ما قبل رافائيلية. نهض بعدها من عند قدم السرير وتوجّه بدثار نومه إلى المطبخ، حيث حضّر شطيرةَ جبن ومخلّل خيار، وصفة كان قد علّمها لها كاتب نمساوي منفي في إنكلترا.

- ما أسهل تحضير شيء كهذا وكم هو مُرَمِّم -كان قد قال له النمساوي.

بسيطة لا شكّ. ولذيذة، طعمها غريب. أمّا أنّها مُرمّمة ولا بشكل من الأشكال، فكّر بوبيس، فلكي يتحمّل المرء وجبة من هذه الطبيعة عليه أن يملك معدة من فولاذ. توجّه بعدها إلى الصالون وفتح الستائرَ كي يدخل نورُ الصباح الضارب إلى الرمادي. مُرمّمة، مُرمّمَة، مُرَمِّمة، فكّر السيّد بوبيس بينما هو يقضم شطيرته شارداً. نحتاج إلى شيء أكثر ترميماً من شطيرة بمخلّل البصل. لكن أين سنبحث عنه، أين سنجده وماذا سنفعل به حين نعثر عليه؟ عند ذلك سمع باب الخدمةِ يُفتح وسمع، مُغمضَ العينين، خطوات الخادمة الناعمة، التي كانت تأتي في كلّ صباح. كان باستطاعته أن يمكث هكذا ساعات طويلة. تمثال.

وبدل هذا ترك الشطيرة على الطاولة وتوجّه إلى غرفته، حيث راح يرتدي ملابسه كي يبدأ يومَ عملٍ آخر.

كان من نصيب *لوديك* مقالان لصالحها وآخر سلبيّاً وبيع من الطبعة ما مجمله ثلاثمئة وخمسون نسخة. *الوردة اللامحدودة* التي ظهرت بعد خمسة أشهر، كان من نصيبها مقال إيجابي وثلاثة سلبية وبيع منها مئتان وخمس نسخٍ. ما من ناشر آخر كان سيجرأ على أن ينشر لِأرشيمبولدي كتاباً ثالثاً، لكنّ السيّد بوبيس لم يكن مستعداً لأن ينشر له الكتاب الثالث وحسب بل والرابعَ والخامس وكلّ ما يحتاج لنشره أيضاً واستحسنَ أرشيمبولدي أن يأتمنه عليه.

خلال ذلك الوقت وفيما يتعلّق بالمسألة الاقتصادية زادت مداخيل أرشيمبولدي أكثر قليلاً، فقط أكثر قليلاً. دفع له بيت الثقافة في كولونيا عن قراءتين في مكتبتين من مكتبات المدينة، كان صاحباهما، ليس من الفائض القولُ بأنّهما كانا يعرفان السيّد بوبيس شخصياً، قراءتان لم تُثيرا من ناحية أخرى اهتماماً ملحوظاً كبيراً. حضر الأولى، حيث قرأ المؤلّف صفحاتٍ مختارة من *لوديك*، خمسة عشر شخصاً، بمن فيهم إنجيبورغ ولم يتجرّأ على شراء الكتاب غير ثلاثة. وحضر القراءة الثانية صفحات مُختارة من *الوردة اللامحدودة*، تسعة، بمن فيهم مرّة أخرى إنجيبورغ، وعند الانتهاء منها لم يبقَ في الصالة التي ساهم صغرها بالتخفيف قليلاً من الإهانة، غير ثلاثة، طبعاً واحدة منهم كانت إنجيبورغ، التي اعترفت له بعد خمسة عشر ساعة، أنّها هي أيضاً فكّرت في لحظة معيّنة بأن تغادر الصالة.

كذلك نظّم له بيت الثقافة في كولونيا بالتعاون مع السلطات الثقافية لساكسونيا السفلى المشكلة حديثاً والمشوَّشة قليلاً، سلسلةً من المحاضرات والقراءات بدأت في أولدنبورغ بشيء من الأبّهة والعظمة، كي يتابع على الفور جولةً في سلسلة من القرى والضِّيَع، التي كانت في

كلّ مرّة أصغر، في كلّ مرّة متروكة ليد القدر أكثر، وما من كاتب قَبِلَ أن يذهب إليها، انتهت في قرى الصيادين الصغيرة في فريزيا، وجد فيها أرشيمبولدي جمهوراً أكبر، حيث كان الناس الذين خرجوا قبل انتهاء القراءة قليلين جدّاً.

أحرزت كتابة أرشيمبولدي، عمليةُ الإبداع أو الحياة اليومية التي كانت تتطوّر فيها هذه العملية، قوّةً وشيئاً، نظراً لعدم وجود كلمة أفضل، سنسميه «ثقة». هذه «الثقة» لا تعني بالضبط إلغاء الشكّ، ولا أنّ الكاتب يعتقد أنّ عمله ينطوي على قيمة ما، فأرشيمبولدي كانت له رؤية للأدب (وكلمة رؤية أيضاً كلمة طنّانة أكثر من اللازم) ذات أقسام ثلاثة فقط بطريقة ذكية تتواصل فيما بينها، في الأوّل توجد الكتبُ التي كان يقرؤها ويعيد قراءتها ويعتبرها عجيبة وأحياناً مريعة، مثل أعمل دوبلن، الذي بقي أحد كتّابه المُفضّلين، أو مثل أعمال كافكا الكاملة. في القسم الثاني كانت كتبُ المؤلفين المُقلّدين وأولئك الذين كان يسميهم الشرذمة، ويرى فيهم بشكل أساسيّ أعداء له. في القسم الثالث كانت كتبه ذاتها ومشاريع كتبه المستقبلية، التي كان ينظر إليها كلعبٍ وكتجارة أيضاً، لعب على قدّ المتعة التي يمرّ بها خلال كتابته، متعة شبيهة بمتعة رجل التحرّي قبل أن يكتشف القاتلَ وتجارة بقدر ما كان نشر أعماله كان يُساهم في زيادة راتبه كبوّاب بارٍ، وإن كان بشكل متواضع.

طبعاً لم يترك العمل، عملَ بوآب البار، من ناحية لأنّه اعتاد عليه ومن ناحية أخرى لأنّ آلية العمل انسجمت مع آليّةِ الكتابة. *القناع الجلدي*، العجوز الذي كان يؤجّره الآلة الكاتبة والذي أهداه أرشيمبولدي نسخةً من *الوردة اللامحدودة* عرض عليه أن يبيعه الآلة بسعر معقول. لا شكّ كان السعر معقولاً بالنسبة للكاتب السابق، خاصّة إذا ما أخذ المرء بعين الاعتبار أنّه ما من أحد كان يستأجر منه الآلة، لكنّها كانت بالنسبة إلى أرشيمبولدي ما تزال ترفاً وإغواءً أيضاً.

وهكذا كتب إلى بوبيس بعد أن فكّر خلال بضعة أيّام وأجرى حساباته، رسالةً يطلب فيها لأوّل مرّة سُلْفَةً عن كتاب لم يبدأ بكتابته بعد. طبعاً يشرح له في الرسالة لماذا هو بحاجة إلى المبلغ ويعده بوقار أنّه سيسلمه الكتاب خلال ستّة أشهر.

لم يتأخر ردّ بوبيس. وذات صباح سلّمه بعضُ موزّعي فرع أوليفتي في كولونيا آلة كاتبة رائعة ولم يكن على أرشيمبولدي غير أن يُوقّع بعضَ أوراق القبول. وصلته بعد يومين رسالة من سكرتيرة دار النشر تُبلغه فيها أنّه صدر بأمر من المُدير أمرٌ بشراء آلة كاتبة باسمه. الآلة، تقول السكرتيرة، هدية من دار النشر. بقي أرشيمبولدي بضعة أيّام نشوانَ من السعادة. في دار النشر يثقون بي، كان يُردّدُ بصوتٍ عال، بينما الناس يمرّون بجانبه، بصمتٍ أو يكلّمون أنفسهم مثله، وهي صورة معتادة في كولونيا خلال ذلك الشتاء.

بيعَ من رواية *القناع الجلدي* ستة وتسعون نسخة، وهذا لم يكن كثيراً، قال بوبيس مذعناً وهو يراجع الحسابات، لكن هذا لم يجعل الدعم الذي كانت تقدّمه الدارُ لِأرشيمبولدي يتراجع . بالعكس، اضطرّ بوبيس في تلك الأيّام لأن يُسافر إلى فرانكفورت، واستغلّ وجوده وسافر إلى ماينز ليزور الناقد الأدبي لوثر جونغ، الذي كان يعيش في بيت صغير في الضواحي، بجانبِ غابة وتلّ، في بيت صغير يُسمع فيه صدح العصافير، الشيء الذي بدا لِبوبيس عجيباً، انظري، يُسمع حتى صدح العصافير، قال للبارونة فون زومبِ، بعينين مفتوحتين جدّاً وابتسامة عريضة، كما لو أنّ آخر ما كان ينتظر أن يكون ما يجده في ذلك الجزء من ماينز هو غابة وموطن عصافير صادحة وبيت صغير من طابقين، جدرانه مطلية بالكلس وحجمه حجم بيوت قصص الجنيات، أي أنّه بيت صغير، بيت شوكولاتة أبيض بعوارض خشبية ظاهرة مثل قطع شوكولاتة سوداء ومحاط بحديقة صغيرة تبدو فيها الأزهار قصاصات ورقية وعشب معتنى به بهوس رياضيّ ودرب صغير من

الحصى يُصدر صوتاً، صوتاً يُثير الأعصاب أو العُصَيْبات حين يسير عليها المرء، كلّه مرسوم بمسطار، ومثلث زوايا وفرجار، كما لفت بوبيس انتباهَ البارونة بنصف صوت قبل أن يطرقَ بالمطرقةِ (التي كان لها شكل رأسِ خنزير) على الباب الخشبيّ المصمت.

فتح الناقدُ الأدبيّ لوثر جونغ بنفسه الباب. طبعاً كانت الزيارة منتظرة، فقد وجد السيّد بوبيس والبارونة البسكويت مع اللحم المُدخّن، التقليدي في المنطقة، وزجاجتي ليكور. كان طول الناقد الأدبي يبلغ على الأقل مئة وتسعين سنتيمتراً ويسير في بيته كما لو أنّه يخشى أن يطرق رأسه بالأشياء. لم يكن بديناً، لكنّه أيضاً لم يكن نحيلاً، ويرتدي على طريقة أساتذة هايدلبرغ، الذين لم يكونوا يخلعون ربطات العنق إلا في الحالات الحميمة جدّاً. مكثوا برهة بينما هم ينتبهون إلى المقبلات، يتكلّمون عن المشهد الأدبي الألماني العام الحالي، المجال الذي كان يتحرّكُ فيه لوثر جونغ بحذرٍ، مبطلاً فعالية القنابل أو الألغام غير المنفجرة. جاء بعدها كاتبُ شاب من ماينز تُرافقه زوجته وناقدٌ أدبي آخر من صحيفة فرانكفورت ذاتها، التي كان ينشر فيها جونغ تعريفاته بالكتب. أكلوا أرنباً بالفخّار. زوجة كاتب ماينز فتحت فمها مرّةً واحدةً فقط خلال الطعام وكان كي تسأل البارونةَ من أين اشترت الفستان الذي ترتديه. من باريس، أجابتها البارونة، ولم تنطق بعدها زوجةُ كاتبِ ماينز بكلمةٍ واحدة. ومع ذلك تحوّل وجهها منذ تلك اللحظة إلى خطاب أو مذكرة إهانات تعرّضت لها مدينةُ ماينز منذ تأسيسها وحتى ذلك اليوم. لم تمر الحركات والتشنجات التي جابت بسرعة الضوء المسافةَ ما بين الامتعاض الخالص والكراهية المستترة تجاه زوجها، الذي كانت ترى فيه ممثلاً لجميع الأشخاص غير النبلاء، بحسب رأيها، الذين كانوا يجلسون إلى الطاولة، دون أن تلفت انتباه أحد إلاّ الناقد الآخر، المدعو ويلي، الذي كان اختصاصه الفلسفة وبالتالي كان يكتب عن الفلسفة ويأمل أن ينشر ذات يومٍ كتاباً فلسفياً، ثلاثة مشاغل،

كي نقول ذلك بهذا الشكل، كانت تجعله على وجه الخصوص غير حسّاس جزئيّاً ساعة الانتباه إلى ما كان يجري في وجه (أو في روح) نديمته.

عادوا بعد الانتهاء من تناول الطعام إلى الصالون كي يتناولوا القهوةَ أو الشايَ واستغلّ بوبيس بقبول ضمنيّ من جونغ اللحظةَ، دون أن يكون ضمن خططه أن يبقى وقتاً أكثر في بيت الدمى ذاك الذي كان يزعجه، كي يجرَّ الناقد إلى الحديقة الخلفيّة، المشغولة بعنايةٍ مثل الحديقة الأمامية، لكنّها تنطوي على ميزة أنّها أوسع ومشهد الغابة، التي كانت تحتضن تلك المنطقة خارج السور، بدقّة أكثر من تلك، إن أمكن قول ذلك. تكلّما قبل أيّ شيء عن كتابات الناقد، الذي كان يموت لهفة كي ينشر عند بوبيس. ذكر هذا، بطريقة مبهمة، احتمالاً كان يدور في رأسه منذ أشهر، وهو إنشاء مجموعة جديدة، متحفّظاً، هذا صحيح، عن ذكر طبيعة هذه المجموعة. انتقلا بعدها للكلام، مرّةً أخرى، عن الأدب الجديد، الذي كان ينشره بوبيس وزملاء بوبيس في ميونخ، في كولونيا، في فرانكفورت وفي برلين، دون أن ينسى دور النشر العريقة في زيوريخ أو برنا وتلك التي كانت تظهر في فيينا. بعدها، سأله بوبيس، محاولاً أن يكون سؤاله عرضياً، ما رأيه مثلاً بِأرشيمبولدي. لوثر جونغ، الذي كان يسير في الحديقة بالحذر ذاته الذي كان يظهره تحت سقف بيته ذاته، اكتفى في البداية بهزّ كتفيه.

- هل قرأت له؟ -سأل بوبيس.

لم يُجب جونغ. كان يجترّ جوابه منخفضَ الرأس، مستغرقاً في تأمّل العشب أو في اندهاشه به، الذي كان كلّما اقترب من حافة الغابة، يصر أكثر إهمالاً وأقل إزالة للأوراق الساقطة والعيدان بل، ويمكن القول، للحشرات.

- إذا لم تقرأه، قل لي، وسأعمل على أن يرسلوا لك نسخاً من كلّ كتبه -قال بوبيس.

- قرأته -اعترف جونغ.

- وكيف بدا لك؟ -سأله الناشرُ العجوز متوقّفاً بجانب سنديانة مجرّد وجودها بدا أنّه يعلن بصوت متوعّد: هنا تنتهي مملكة جونغ وتبدأ الجمهورية الهيبربورية. جونغ توقّف أيضاً، وإن كان أبعد منه بخطوات، ورأسه شبه منحن، كما لو أنّه يخاف أن يُخرب له غصن شعره القليل.

- لا، أعرف، لا أعرف.

راح بعدها يقوم بحركات كانت تؤاخيه بطريقة غير مفهومة مع زوجة كاتب ماينز، إلى حدٍّ أنّ بوبيس فكّر أنّهما بالفعل يجب أن يكونا أخوين، وأنّه بهذه الطريقة فقط يُفهم تماماً وجود الكاتب وزوجته خلال الطعام. أيضاً يمكن احتمال، فكّر بوبيس، أن يكونا عشيقين، إذ من المعروف أنّ العشاق كثيراً ما يتبنّون حركات الآخر ذاتها، عموماً الابتسامات، الآراء، وجهات النظر، أي الأبهة السطحية التي لا بدّ أن يحملها كلّ كائن بشريّ معه حتى موته، مثل صخرة سيزيف، المعتبر أذكى الرجال، سيزيف، بلى سيزيف، ابن إيولوس وإيناريت، مؤسّس مدينة إيفيرا، التي هي الاسم القديم لكورينثا، المدينة التي حوّلها سيزيف الطيّب إلى جحر للخلاعة السعيدة، فبهذه الليونة الجسدية التي كانت تُميّزه وذلك الاستعداد الفكري الذي يرى في كلّ دورة للقدر مشكلة شطرنج أو حبكة بوليسية يجب أن توضح وبذلك النزوع للضحك والمزاح والنكتة والدعابة والسخرية والاستهزاء والظرافة والمقلب والمرح والتهكّم والتقليد الساخر والسذاجة والهزء والمراوغة، تفرّغ للسرقة، أي لتجريد كلّ المسافرين الذين كانوا يمرّون من هناك من ممتلكاتهم، بل ووصل به الأمر إلى سرقة جاره أوتوليكو، الذي كان يسرق بدوره، ربّما على أمل غير محتمل بأنّ مَنْ يسرق لصّاً يحصل على مئة عام من الغفران والذي شعر بأنّه مفتون بابنته أنتيكليا، فأنتيكليا كانت جميلة جدّاً، سُكّرة، لكنّ أنتيكليا هذه كان عندها خطيب رسميّ،

أي أنّها كانت ملتزمة مع المدعو لايرتِس، الذي صار فيما بعد مشهوراً، وهو ما لم يجعل سيزيف يتراجع، فهو كان يحظى بتواطؤ من والد الفتاة، اللص أوتوليكو، الذي ازداد إعجابه بسيزيف كما يزداد تقدير فنان موضوعيّ ونزيه بفنّان آخر ذي مواهب أعلى، وهكذا لنقل إنّ أوتوليكو، بقي وفيّاً، فقد كان رجلاً شريفاً للكلمة التي أعطاها لِلايرتِس، لكنّه أيضاً لم يكن ينظر بعين السوء أو السخرية والتهكّم إلى صهره المستقبلي بسبب المغازلات الغرامية التي كان يسرف بها سيزيف لابنته، التي تزوّجت، في النهاية، بحسب ما يقال، من لايرتِس، لكن بعد أن سلّمت نفسها لسيزيف مرّةً أو مرّتين، خمس أو سبع مرّاتٍ، ومن الممكن أن تكون عشر أو خمس عشرة مرّة، ودائماً بموافقة أوتوليكو الذي كان يرغب بأن يُخصِب جاره ابنَتَهُ، كي يصير عنده حفيد داهية مثله، وفي واحدة من تلك المرّات حبلت إنتيكليا، وبعد تسعة أشهر، وقد صارت زوجة لِلايرتِس، سيولد ابنُها، ابن سيزيف الذي سُمّي أويسيوس أو عوليس، الذي برهن بالفعل على أنّه داهية كأبيه، الذي لم يهتّم به قط وبقي يُمارس حياته، حياة الإفراط والحفلات والمتعة، تزوّج خلالها من ميروبّ، النجمة الأقل لمعاناً في مجرّة الثريا، بالضبط لأنّها تزوّجت من فانٍ، من فان بائس، من لصّ بائس، من مجرم بائس، متفرّغ للإفراط، مُعمى بالإفراط، الذي كان بينهم، وإن لم يكن الأصغر، يُحكى إغواؤه لصور، ابنة أخيه سالمونيوس، ليس لأنّ صُوْرَ كانت تعجبه، ليس لأنّ صُوْرَ كانت جذابة جنسياً، بل لأنّ سيزيف كان يكره أخاه نفسه ويرغب بإيذائه، ولهذا السبب أُدين بعد موته في الجحيم بدفع صخرة إلى أعلى تلٍّ من حيث كانت تعود لتسقط إلى القاعدة من حيث كان سيزيف يعيد دفعها من جديد إلى أعلى التلّ، من حيث كانت تعود لتسقط إلى القاعدة وهكذا إلى الأبد، عقاب مريع لا يتناسب مع جرائم أو ذنوب سيزيف، وكان بالأحرى انتقاماً من زيوس، ففي مرّة بحسب ما يُروى، مرّ زيوس بكورنث ومعه حورية كان

قد اختطفها وسيزيف الذي كان أذكى من الجوع، احتفظ بها لنفسه، ثمّ مرّ من هناك إيسوبوس، والد الفتاة، مستميتاً في البحث عن ابنته، وحين رآه سيزيف عرض عليه أن يُعطيه اسم خاطف ابنته، هذا صحيح، لكن مقابل أن يُفجّر نبعاً في مدينة كورنث، وهو ما يُبرهن على أنّ سيزيف لم يكن مواطناً سيّئاً، أو أنّه كان عطشاناً، وهو ما استجاب له إيسوبوس وانبثق نبع الماء الرقراق ووشى سيزيف بزيوس، الذي غضب غضباً شديداً وأرسل إليه على الفور، ثاناتوس، ومع ذلك لم يستطع الموتُ التغلب على سيزيف، فهذا، بلعبته لعبة المعلّم التي لم تكن تتناقض مع مزاجه ولا مع ذكائه الذهني، خطف ثاناتوس، المأثرة، التي كانت في متناول القليلين جدّاً، حقيقة في متناول القليلين جدّاً، وأبقى طوال ذلك الوقت عليه مُقيّداً وخلال ذلك الوقت لم يمت كائن بشري على وجه الأرض، كان عصراً ذهبيّاً للبشر، دون أن يتخلوا عن كونهم بشراً، كانوا يعيشون دون الضيق من الموت، أي دون الضيق من الزمن، فالزمن هو الذي كان يفيض، وربّما هو ما يميّز الديمقراطية، الزمن الفائض، فائض قيمة الزمن، زمن للقراءة، زمن للتفكير، إلى أن اضطرّ زيوس للتدخّل شخصيّاً وتحرّر ثاناتوس وعندها مات سيزيف.

لكنّ الحركات التي كان يقوم بها جونغ لم يكن لها أيّ علاقة بسيزيف، فكّر بوبيس، بل باختلاجة وجْهِيَّة مزعجة، حسن، غير مزعجة جدّاً، لكنّها أيضاً غير جليّةِ اللطف، والتي كان قد رآها بوبيس عند مُثقفين ألمان آخرين، كما لو أنّ بعض أولئك المُثقفين عانى بعد الحرب من صدمة عصبية كانت تتبدّى بتلك الطريقة، أو كما لو أنّه خضع خلال تلك الحرب إلى توتّر لا يحتمل، وما إن انتهت الحرب، حتى خلّفت هذه النتيجة الغريبة وغير المؤذية.

- ما رأيك بِأرشيمبولدي؟ -كرّر بوبيس.

احمرَّ وجهُ جونغ مثل الغروب الذي كان يشبُّ خلف التلّ ثمّ اخضرّ مثل أوراق أشجار الغابة دائمة الخضرة.

- هِمّ -قال- هِمّ -اتجهت بعدها عيناه نحو البيت، كما لو أنّه ينتظر أن يصله منه الإلهامُ أو الفصاحة أو مساعدةٌ ما من أيّ نوع كانت-. كي أكون معك صريحاً -قال. ثمّ تابع-. بصراحة رأيي ليس. . . -وأخيراً-. ماذا أستطيع أن أقول لك؟

- أيّ شيء -قال بوبيس-، رأيك كقارئ، رأيك كناقد؟

- حسن -قال جونغ-. قرأته، هذا واقع.

كلاهما ابتسم.

- لكن لا يبدو لي -أضاف- مؤلّفاً. . . أي، أنّه ألماني، هذا ما لا يمكن نكرانه، لغته ألمانية، عامّية، لكنّها ألمانية، ما أريدُ قوله هو أنّه لا يبدو لي مؤلّفاً أوروبيّاً.

- أمريكي، يا ترى؟ -قال بوبيس، الذي كان في تلك الأيام يداعب فكرة شراء حقوق ثلاث روايات لفولكنر.

- لا أيضاً ليس أمريكياً، يبدو لي اقرب إلى الأفريقي -قال جونغ وعاد ليقوم بحركات تحت أغصان الأشجار-. أقرب جداً إلى الأسيوي -تمتم الناقد.

- من أي مكان من آسيا؟ -أراد أن يعرف بوبيس.

- ما أدراني -قال جونغ-، الهندي الصيني، ملايوي، وفي أفضل لحظاته يبدو فارسياً.

- آه، الأدب الفارسي -قال بوبيس، الذي لم يكن في الحقيقة يعرف أو يعلم شيئاً عن الأدب الفارسي.

- ملايوي، ملايوي -قال جونغ.

انتقلوا بعدها للكلام عن مؤلّفين آخرين من دار النشر، أظهر الناقد تقديراً واهتماماً بهم وعادا إلى الحديقة من حيث كانت ترُى السماء المتورِّدة. بعدها بقليل استودع بوبيس والبارونة بضحكات وكلماتٍ لطيفة الحاضرين، الذين لم يرافقوهما حتى السيارة وحسب بل بقوا في

الشارع يلوحون بأيديهما مودّعين إلى أن اختفت سيارة بوبيس في أوّل منعطف.

في تلك الليلة وبعد أن علّق بوبيس باندهاش مزيّف على التفاوت بين جونغ وبيته، وأخبر البارونة قبل أن يدخلا في الفراش بقليل بأنّ الناقد لم يكن معجباً بكتب أرشيمبولدي.

- وهل لهذا أهمّية؟ -سألت البارونة، التي كانت تحبّ على طريقتها، محتفظةً بكامل استقلاليتها، الناشرَ وتُقدّر آراءه عالياً.

- هذا يتوقّف على المنظور -قال بوبيس وهو في سرواله الداخلي، بجانب النافذة بينما هو ينظر إلى الظلمة الخارجية من فتحة صغير جداً في الستارة-. في الحقيقة ليس له، بالنسبة إلينا، أيّ أهمّية. أما بالنسبة إلى أرشيمبولدي فله أهمّية كبيرة.

ردّت البارونة بشيء. بشيء لم يسمعه السيّد بوبيس. كلّ شيء في الخارج كان مظلماً، فكّر، وسحب الستارة قليلاً، فقط أكثر قليلاً. لم يرَ شيئاً. فقط وجهه، وجه السيّد بوبيس المتجعد والناتئ في كلّ مرّة أكثر ومزيداً، مزيداً من الظلمة.

لم يتأخّر كتابُ أرشيمبولدي الرابع في الوصول إلى دار النشر. كان اسمه *أنهار أوروبا*، بالرغم من أنّه يتكلّم أساساً عن نهر واحد، دنيبر، لنقل إنّ نهرَ دنيبر كان بطلَ الكتاب وبقية الأنهار المذكورة تشكّل جزءً من الكورس. قرأه السيد بوبيس دفعة واحدة في مكتبه، والضحكات التي أثارتها قراءته عنده سُمِعَت في كلّ الدار. السُّلفة التي أرسلها هذه المرّة إلى أرشيمبولدي كانت أكبر من كل السُّلَف السابقة، إلى حدّ أنّ مارتا، السكرتيرة، دخلت قبل أن ترسل الشيك إلى كولونيا إلى مكتب السيّد بوبيس وسألته وهي تُريه الشيك (ليس مرّة واحدة بل مرّتين) عمّا إذا كان الرقم صحيحاً، وهو ما ردّ عليه السيّد بوبيس بأنّه بلى صحيح، أو حتى لو لم يكن صحيحاً فالأمر سواء، فالرقم، فكّر

حين عاد ليكون وحده، هو دائماً تقريبيّ، لا يوجد رقم صحيح. وحدهم النازيون كانوا يؤمنون بالرقم الصحيح، وكذلك أساتذة الرياضيات، وحدهم أمناء السكرتاريات، مجانين الأهرامات، جباة الضرائب (أماتهم الله)، الرقميون، الذين يقرؤون القدر بأربعة سنتيمات، يؤمنون بالرقم الصحيح. العلماء على العكس منهم، يعرفون أنّ كلّ رقم هو فقط تقريبي. الفيزيائيون الكبار، الرياضيون الكبار، الكيميائيون الكبار والناشرون يعرفون أن الإنسان يعبر دائماً في الظلام.

في تلك الأيّام وخلال فحص طبيّ روتيني، شُخِّصَ عند إنجيبورغ التهاب رئوي. في البداية لم تقل إنجيبورغ شيئاً لِأرشيمبولدي واقتصرت على تناول الأقراص التي وصفها لها طبيب ليس فطناً جدّاً بطريقة غير منتظمة. حين بدأت تسعل دماً جرّها أرشيمبولدي إلى عيادة الطبيب الإنكليزي، الذي أرسلها على الفور إلى اختصاصيّ ألمانيّ بالرئتين. قال لها هذا إنّها مصابة بالسل، المرض الشائع كثيراً في ألمانيا ما بعد الحرب.

انتقل أرشيمبولدي بالأموال التي حاز عليها عن *أنهار أوروبا* وعملاً بمشورة اختصاصي إلى كيمبتين، وهي بلدة في جبال الألب البافارية، التي سيساهم طقسها البارد والجاف في تحسّن صحة زوجته. حصلت إنجيبورغ على إجازة صحية وترك أرشيمبولدي عمله كبواب في البار. ومع ذلك فصحّة إنجيبورغ لم تشهد تغيرات جوهرية، بالرغم من أنّ الأيام التي قضياها في كيمبتين كانت سعيدة.

لم تكن إنجيبورغ تخاف السلّ فقد كانت واثقة من أنّها لن تموت بسبب هذا المرض. أخذ أرشيمبولدي معه آلته الكاتبة وأنهى وهو يكتب ثمانية صفحات يومياً كتابه الخامس تشعب المتشعب، موضوعها كما يدلّ عنوانه بوضوح يتعلّق بالأُشن. أكثر ما أدهش إنجيبورغ في هذا الكتاب، الذي كان أرشيمبولدي يُخصّص له فقط ثلاث ساعاتٍ يومياً

وأحياناً أربعاً، هو السرعة التي كتبه بها، أو بالأحرى المهارة التي أظهرها أرشيمبولدي في استخدام الآلة الكاتبة، ألفة ضاربة آلة كاتبة مُحنكة، كما لو أنّ أرشيمبولدي كان تجسيداً للسيدة دوروتيا، السكرتيرة التي تعرّفت عليها إنجيبورغ وهي ما تزال طفلة، ذات يوم رافقت فيه والدها، لأسباب ما عادت تتذكرها، إلى المكاتب البرلينية، حيث كان يعمل.

كان في تلك المكاتب، قالت إنجيبورغ لِأرشيمبولدي، صفوفٌ لا نهاية لها من السكرتيرات لا يتوقّفن عن الكتابة بالآلات الكاتبة على رواقٍ ضيقٍ قليلاً لكنّه طويل جدّاً، تجوبه باستمرار كتيبة من الفتية المساعدين، الذين يرتدون قمصاناً خضراء وبنطلونات قصيرة بنّية اللون، يذهبون من هنا إلى هناك حاملين أوراقاً وساحبين وثائق بُيِّضت مسبقاً، من الصواني المعدنية الفضّية كانت تملكها كلُّ سكرتيرة بجانبها. وبالرغم من أنّ كلَّ سكرتيرة كانت تكتب وثيقة مختلفة، قالت إنجيبورغ لِأرشيمبولدي، إلا أنّ الصوت الذي كانت تُحدثه الآلات الكاتبة مجتمعة كان موحّداً، كما لو أنّ الجميع كنّ يكتبن الشيءَ ذاته، أو كنّ جميعاً يملكن السرعة ذاتها. باستثناء واحدة.

عندئذ، وضّحت له إنجيبورغ أنّه كان هناك أربعة صفوف من الطاولات مع سكرتيراتها. ويترأس هذه الصفوف الأربعة أمامها، طاولة منفردة، كما لو قلنا طاولة المديرة، بالرغم من أنّ السكرتيرة التي كانت تجلس إلى تلك الطاولة لم تكن مديرة إطلاقاً، ببساطة فقط كانت الأقدم، التي مضى عليها زمن أكثر في تلك المكاتب أو تلك الوزارة العامّة التي حملها والدها معه إليها والتي ربّما كان يُقدّم إليها خدماته.

حين وصلت مع والدها إلى الرواق، مشدودة هي إلى الضجيج ووالدها إلى رغبة بإشباع فضولها أو ربّما رغبة منه بمفاجأتها، كانت الطاولة الفخمة (بالرغم من أنّها لم تكن طاولة فخمة، وضّحت

إنجيبورغ مُدقّقة) كانت فارغةً ولم يكن في الرواق غير السكرتيرات يكتبن بسرعة جيدة وأولئك الصبية ببنطلوناتهم القصيرة وجواربهم الواصلة حتى الركب يخبون في الممرات بين صفٍّ وآخر، وأيضاً لوحة كبيرة متدلية من السقف العالي، على الطرف الآخر خلف السكرتيرات، تُمثّل هتلر وهو يتأمّل منظراً ريفيّاً. هتلر فيه شيء من المدرسة المستقبلية، الذقن، الأذن، خصلة الشعر، لكنّه كان أكثر من كلّ ذلك هتلراً سابقاً على الرافائلية والأنوار التي تتدلّى من السقف، والتي تبقى، بحسب والدها، مشتعلةً أربعاً وعشرين ساعةً، والزجاج المتسخ لفتحات النور التي تغطي الرواق من أقصاه إلى أقصاه، والتي كان نورها ليس فقط لا يفيد للكتابةِ على الآلة الكاتبة بل لا يفيد لأشياء أخرى أيضاً، في الحقيقة لا يفيد لأيّ شيء. فقط كي يكون هناك ولكي يدلّ على أنّ خارج ذلك الرواق وذلك البناء كان هناك سماء وربّما ناس وبيوت، وبالضبط في تلك اللحظة وبعد أن جابت إنجيبورغ ووالدُها صفّاً حتى العمق حين استدارا وعادا دخلت من الباب الرئيسي السيّدة دوروتيا، وهي عجوز صغيرة، ترتدي الأسود وتنتعل حذاءً منبسط النعل فتحته غير ملائمة جدّاً للبرد الموجود في الخارج، عجوز بيضاء الشعر المجمع في كعكة، عجوز جلست إلى طاولتها وحنت رأسها، كما لو أنّه لا يوجد أحد غيرها وضاربات الآلات الكاتبة، اللواتي قلن تماماً في تلك اللحظة وبصوت واحد صباح الخير، يا سيدة دوروتيا، دون أن يتوقّفن عن الضرب في أيّ لحظة، الأمر الذي بدا لِإنجيبورغ أمراً لا يُصدّق، لم تكن تعرف ما إذا كان جميلاً بشكل لا يُصدّق أو فظيعاً بشكل لا يُصدق، الصحيح هو أنّه وبعد التحية الجماعية بقيت الطفلة إنجيبورغ ساكنة، كما لو أنّ صاعقة صعقتها أو كما لو أنّها كانت أخيراً في كنيسة حقيقيّة حيث كانت الشعائر والطقوس والأبّهة حقيقيّة وتؤلم وتنبض مثل قلبٍ مقتلعٍ من ضحية أزتيكية إلى درجة أنّها، هي الطفلة إنجيبورغ، لم تبق ساكنةً وحسب بل وحملت يدها إلى قلبها، كما لو أنّه

اقتُلِع منها وعند ذلك، بالضبط عند ذلك خلعت السيّدة دوروتيا قفازيها القماشيين، مدّت يديها الشفافتين ثمّ ودون أن تنظر إليهما ونظرها مغروز في وثيقة أو مخطوط كان بجانبها راحت كتب.

أدركتُ خلال ثانية، قالت إنجيبورغ لِأرشيمبولدي، أنّ الموسيقى يمكن أن توجدَ في أيّ شيء. كانت السيّدة دوروتيا من السرعة، ومن التميّز بالضرب على الأحرف بحيث أنّه بالرغم من الضجة أو الصوت أو العلامات الموقّعة لأكثر من ستين ضاربة آلة كاتبة يعملن في آنٍ معاً، كانت الموسيقى التي تخرج من آلة السكرتيرة العجوز تعلو كثيراً فوق الموسيقى الجماعية لزميلاتها، دون أن تفرض نفسها عليهنّ، بل تواثم وتنسّق بينهنّ، لاعبة. كان يبدو أحياناً أنّها تصل إلى المناور[1]، وأخرى تتعرّج على وجه الأرض، مُداعبةً رسغ فتيةِ البنطلوناتِ القصيرة والزائرين. بل وكانت أحياناً تسمح لنفسها بتخفيض الموسيقى وعندها تبدو آلة السيدة دوروتيا الكاتبة قلباً، قلباً هائلاً ينبض وسط الضباب والفوضى.لكنّ هذه اللحظات ليست كثيرة. كانت السيدة دوروتيا تُحبُّ السرعة وكان ضربها عادة ما يسبق كلّ ما عداه، كما لو أنّه يشقّ طريقاً وسطَ أدغال مظلمة جدّاً، قالت إنجيبورغ، مظلمة جدّاً، مُظلمة جدّاً...

تشعب *المتشعب* لم تُعجب السيّد بوبيس، إلى حدّ أنّه لم ينهِ قراءتها، طبعاً بالرغم من أنّه قرَّر أن ينشر الرواية وهو يُفكّر أنّه سيرى ما إذا كانت ستُعجب الأبله لوثر جونغ.

ومع ذلكّ مرَّرها، قبل أن يأخذها إلى المطبعة، إلى البارونة وطلب منها أن تُعطيه رأيها بها بكلّ صراحة. قالت له البارونة بعد يومين إنّها بقت نائمة ولم تتعدَّ في قراءتها الصفحة الرابعة، وهو ما لم يثنِ السيّد بوبيس، الذي إضافة إلى ذلك لم يكن يثق بأحكام زوجته الحسناء

---

(١) الكوى المفتوحة في السقف للإنارة.

الأدبية. بعد فترة قصيرة من إرساله عقد تشعب *المتشعب*، تلقى رسالة من أرشيمبولدي لا يُظهر فيها أنّه غير راضٍ إطلاقاً عن السفلة التي كان يريد أن يدفعها له السيّد بوبيس. بقي ساعة، بينما كان يأكلُ في مطعم يُطلّ على المصبّ، يُفكّر كيف سيردّ على رسالة أرشيمبولدي. بعدها أضحكته الرسالةُ. حزن أخيراً، وهو ما ساهم فيه النهر الذي كان يكتسب في تلك الساعة مسحةَ ذهبٍ عتيق، خبزٍ ذهبي، وبدا أنَّ كلَّ شيء يتفتت، النهر، المراكب، التلال، الغابات الصغيرة وكلّ شيء ينطلق من ناحيته نحو أزمنة مختلفة وفضاءات مختلفة.

لا شيء يدوم، همس بوبيس. لا شيء يبقى طويلاً مع الإنسان. يقول له ارشيمبولدي في رسالته إنّه يأمل أن يتلقى على الأقل سُلفة مساوية لتلك التي تلقاها عن *أنهار أوروبا*.

بعد ثمانية أشهر من رجوع إنجيبورغ وأرشيمبولدي من كيمبتين عادا إليها، لكن لم تبدُ لهما القرية بجمال المرّة الأولى، ولذلك غادراها بعد يومين، حين وجدا نفسيهما في غاية التوتّر، على متن عربة كانت متوجِّهة إلى ضيعة في داخل الجبل.

كان سكّان الضيعة أقل من عشرين نسمة وكانت قريبة جدّاً من حدود النمسا. استأجروا هناك غرفة من فلاّح يبيع الحليبَ ويعيش وحيداً، فَقَدْ فَقَدَ في الحرب ابنيه، واحداً في روسيا والآخر في هنغاريا، وتوُفِّيَت زوجتُهُ، بحسب ما كان يقول، حزناً، بالرغم من أنّ القرويين كانوا يؤكّدون أن الفلاّحَ المذكور رماها من أعلى جرف.

كان الفلاّح يُدعى فريتز ليوبه ويبدو سعيداً بوجود ضيوفٍ عنده، بالرغم من أنّه حين انتبه إلى أنّ إنجيبورغ كانت تسعل دماً قلقَ جدّاً، فقد كان يُفكّر أنّ السلَّ مرض سهل العدوى. على كلّ الأحوال، لم يكونوا يلتقون كثيراً. حين كان يعود ليلاً ببقراته، كان ليوبه يُحضّر قدراً هائلاً من الحساء، يدوم يومين يأكل منه مع ضيفيه. إذا جاعا كان عنده

سواء في القبو أم في المطبخ تنويعة كبيرة من الجبن والمخللات التي يمكن التصرّف بها بتعقّل. الخبز أقراص كبيرة تزن كيلوغرامين أو ثلاثة كيلوغرامات كان يبتاعها من فلاحة أو يأتي بها شخصياً إذا ما مرّ بضيعة أخرى أو نزل إلى كيمبتين.

كان الفلاّح يفتح أحياناً زجاجة أغواردييناتِ ويمكث حتى وقت متأخر يتكلّم مع إنجيبورغ وأرشيمبولدي، يسأل عن المدينة الكبيرة (التي هي بالنسبة إليه أيّ مدينة يتجاوز عدد سكانها الثلاثين ألف نسمة) ويقطب جبينه أمام الأجوبة التي كانت تعطيها إنجيبورغ، بخبث في كثير من الأحيان. كان لويبه يعيد في نهاية تلك السهرات السدادة إلى القنينة، يرفع الأشياء عن الطاولة ثمّ يقول قبل أن يذهب لينام، إنّه ما من شيء يمكن أن يُقارَن بالحياة في الريف. لم تكن إنجيبورغ وأرشيمبولدي في تلك الأيّام يكفّان عن ممارسة الحب، كما لو أنّهما يستشعران بشيء. كانا يمارسانه في الغرفة المظلمة التي أجّرها لهما ليوبه ويمارسانه في الصالون، أمام المدخنة حين يكون ليوبه قد ذهب إلى عمله. استفادا من الأيّام القليلة التي قضياها في كيمبتين أساساً في ممارسة الحب. مارساه ذات ليلة في الضيعة في الإسطبل بين البقرات، بينما كان لويبه والقرويون نياماً. حين كانا يستيقظان في الصباح كانا يبدوان واصلين توّاً من معركة. كلاهما كان عنده كدمات في مناطق مختلفة من جسمه، وكلاهما يحيط بعينيه ازرقاق الناس الذين يعيشون عيشة سيّئة في المدن.

كانا كي يستعيدا عافيتهما يأكلان خبزاً أسود مع الزبدة ويشربان طاسات كبيرة من الحليب الساخن. سألت إنجيبورغ ذات ليلة الفلاّحَ، بعد أن سعلت كثيراً، ممَّ ماتت زوجته. من الألم، أجابها ليوبه، كما كان يفعل دائماً.

- غريب سمعتهم في الضيعة -قالت إنجيبورغ-، يقولون إنّك قتلتها.

لم يبدُ ليوبه مفاجَأً، فهو كان على معرفة بكلّ الثرثرات.

- لو أنّني قتلتُها لكنتُ الآن سجيناً -قال-. كلّ القتلة، بمن فيهم من يملكون دوافع طيّبة، يذهبون عاجلاً أو آجلاً إلى السجن.

- لا أظنُّ ذلك -قالت إنجيبورغ-، هناك ناس كثيرون يقتلون، يقتلون على الأخصّ نساءهم، ولا ينتهون أبداً إلى السجن.

ضحك ليوبه.

- هذا يُرى فقط في الروايات -قال.

- لم أكن أعرف أنّك تقرأ روايات -أجابته إنجيبورغ.

- قرأتُها حين كنتُ شابّاً -قال ليوبِه-، كان باستطاعتي آنذاك أن أُضيع الوقت دون أيّ مشكلة، كان والداي حيَّين. وكيف يحتسبون أنّني قتلتُ زوجتي؟ -سأل ليوبِه بعد صمت طويل لم يكن يُسمع خلاله غير طقطقة النار.

- يقولون إنّك رميتَ بها إلى الجرف -قالت إنجيبورغ.

- إلى أيّ جرف؟ -سأل ليوبه، الذي كان يُضحِكُهُ الحديثُ في كلّ مرّة أكثر.

- لا أعرف -قالت إنجيبورغ.

- هنا يوجد جروف كثيرة، يا سيّدة -قال ليوبه-، هناك جرف النعجة الضائعة، وجرف الأزهار، جرف الظلّ (الذي يُسمى هكذا لأنّه دائماً ملفوف بالظلال وجرف أطفال كريوز، هناك جرف الشيطان وجرف العذراء، جرف سان بِرنارد وجرف الصخور، من هنا وحتى مركز الحدود يوجد أكثر من مئة جرف.

- لا أعرف -قالت إنجيبورغ-، في أيّ واحد منها.

- لا، في أيّ واحدٍ لا، يجب أن يكون في واحد، واحدٌ محدّد، لأنّني إذا كنتُ قد قتلتُ زوجتي رامياً إيّاها من أيّ جرف يعني كما لو أنّني لم أقتلها. يجب أن يكون واحداً، وليس أيّ واحد -كرّر ليوبه-. خاصّة -قال بعد صمتٍ طويل-، وأنّ هناك جروف تتحوّل إلى مجاري

أنهار خلال فترة ذوبان الثلوج وتجرف نحو الوادي كلّ الذي يرميه المرء أو يسقط هناك، كلّ الذي حاول المرء أن يُخفيه. كلاب مندفعة، خراف ضائعة، قطع خشبية -قال ليوبه بصوت شبه مطفأ-. وماذا يقول جيراني أيضاً؟ -سأل ليوبه بعد برهة.

- لا شيء غير ذلك -قالت إنجيبورغ ناظرةً إلى عينيه.

- يكذبون -قال ليوبه-، يصمتون ويكذبون، يستطيعون أن يقولوا أشياء أكثر بكثير، لكنّهم يسكتون ويكذبون. إنّهم كالحيوانات، ألا ترين ذلك؟

- لا، أنا لم يُوَلّدوا عندي هذا الانطباع -قالت إنجيبورغ، التي لم تكد تتبادل الحديث مع عدد قليل من القرويين، فجميعهم مشغولون أكثر من اللازم بأعمالهم بما لا يسمح لهم بإضاعة الوقت مع غريبة.

- لكن ومع ذلك -قال ليوبه-، كان عندهم وقت كي يُخبروك عن حياتي.

- بشكلٍ سطحيّ جداً -قالت إنجيبورغ وأطلقت بعدها قهقهة رنّانة ومُرّةً جعلتها تسعل مرّة أخرى.

أغمض ليوبه عينيه بينما هو يسمعها تسعل.

- حين رفعت المنديل عن فمها كانت بقعة الدم عليه مثل وردة هائلة بنوريات مفتوحة تماماً.

في تلك الليلة خرجت إنجيبورغ بعد أن مارسا الحبَّ من الضيعة وأخذت طريقَ الجبل. كان يبدو أنّ الثلج يكسر ضوءَ البدر. لم يكن هناك ريح وكان البردُ محتملاً، بالرغم من أنّ إنجيبورغ كانت ترتدي كنزتها السميكة وسترة وجزمةً وقبعةً صوفيّة. عند أوّل منعطَف اختفت الضيعة عن النظر ولم يبق غير صف من الصنوبر والجبال، التي كانت تتضاعف في الليل، جميعها بيضاء، مثل راهبات لا ينتظرن شيئاً من العالم.

استيقظ أرشيمبولدي بعد عشر دقائق فزعاً وانتبه إلى أنّ إنجيبورغ لم تكن في السرير. ارتدى ملابسه، بحث عنها في الحمّام، في المطبخ وفي الصالة ثمّ ذهب ليوقِظ ليوبه. كان هذا نائماً مثل خشبة واضطرّ أرشيمبولدي لأنّ يهزّه عدّة مرّات إلى أن فتح الفلاّحُ عينيه ونظر إليه ميتاً من الخوف.

- هذا أنا -قال أرشيمبولدي-، اختفت زوجتي.

- اخرج لتبحث عنها -قال ليوبه.

الشدّة التي شدّه بها كادت تُمزّق قميصَ الفلاّح.

- لا أعرف من أين أبدأ -قال أرشيمبولدي.

عاد بعدها ليصعد إلى غرفته وينتعل جزمته ويرتدي سترته وحين هبط وجد ليوبه أشعثَ الشعر لكنّه ارتدى ملابسه للخروج. حين وصلا إلى وسط الضيعة أعطاه ليوبه مصباحاً يدوياً وقال له إنّ من الأفضل أن ينفصلا. أخذ أرشيمبولدي طريقَ الجبل وليوبه بدأ ينزل إلى الوادي.

عندما وصل أرشيمبولدي إلى المنعطف اعتقد أنّه سمع صرخة. توقّف. عادت الصرخةُ لتتكرّر، بدت صادرة من عمق الفِجاج، لكنّ أرشيمبولدي أدرك أنّه ليوبِ، الذي راح يصيح بينما هو يسير باتجاه الوادي باسم إنجيبورغ. لن أراها ثانية، فكّر أرشيمبولدي وهو يرتعد من البرد. فقد نسي من السرعة أن يلبس قفازيه ويضع اللفافة، ومع اقترابه من المركز الحدودي راحت يداه ووجهه تتجمّد إلى حدّ أنّه ما عاد يشعر بها ولذلك كان يتوقّف بين حين وآخر لينفخ في يديه أو يفركهما ويقرص وجهه دون أيّ نتيجة.

راحت صيحات ليوبِ تتباعد في كلّ مرّة أكثر إلى أن اختفت تماماً. كان للحظاتٍ يتشوّش ويعتقد أنّه يرى إنجيبورغ جالسة على حافّة الطريق، تنظر إلى الهوّات التي كانت تنفتح على الجانبين، لكنّه حين كان يقترب يكتشفُ أنّ الأمر يتعلّق بمجرّد صخرة أو صنوبرة صغيرة

هوى بها الدَّمَقُ. في منتصف الطريق تعطّل المصباح اليدوي فخبّأه في أحد جيوب سترته وإن كان يتمنّى لو يرمي به على السفوح المثلجة. من ناحية أخرى كان القمرُ ينير الطريق إلى حدّ أنّه لم يكن هناك حاجة لاستخدام المصباح. مرّت برأسه فكرة الانتحار والحادث. خرج من الطريق وتأكّد من تماسك الثلج. غاص في بعد الأماكن حتى ركبتيه. في أخرى الأقرب إلى الفِجاج غاص حتى خصره، تصوّر إنجيبورغ تسير دون أن تمعن في شيء. رآها تقترب من أحد الأجراف. تتعثر قدمها. تسقط. فعل الشيء ذاته. ومع ذلك كان ضوء القمر لا ينير غير الطريق: أعماق الفجاج بقيت سوداء، سوداء سواداً متبايناً، حيث يمكن التكهن بكتل وأطياف لا تُعرف ماهيتها.

عاد إلى الطريق وتابع صعوده. انتبه في لحظة من اللحظات إلى أنّه كان يتصبّب عرقاً. يرشح رشحاً يخرج ساخناً من المسامات ويتحوّل فجأة إلى غشاء بارد يزيله بدوره رشح آخر ساخن... على كلّ الأحوال ما عاد يشعر بالبرد. حين لم يعد هناك إلاّ القليل للوصول إلى المركز الحدودي رأى إنجيبورغ، واقفة بجانبِ شجرة ونظرتها ثابتة على السماء. كان عنق إنجيبورغ، وجنتاها، ذقنها تلمع كما لو أنّ جنوناً أبيض قد مسّها. اقترب راكضاً وعانقها.

- ماذا تفعل هنا؟ -سألته إنجيبورغ.

- كنتُ خائفاً -قال أرشيمبولدي.

كان وجه إنجيبورغ بارداً مثل قطعة جليد. قبّلها على خدّيها، إلى أن أفلتت من العناق.

- انظرُ إلى النجوم، يا هانز -قالت له.

أطاعها أرشيمبولدي. كانت السماء مليئة بالنجوم، بنجوم أكثر بكثير من تلك التي كانت تُرى في ليالي كيمبتين وأكثر بكثير من التي يمكن أن تُشاهَد في أكثر ليالي كولونيا صفاء. كانت سماء ساحرة الجمال، محبوبة، قال أرشيمبولدي وحاول بعدها أن يأخذها من يدها

ويجرّها إلى الضيعة، لكنّ إنجيبورغ تشبّثت بغصنٍ، كما لو أنّها تلعبُ ولا تريد أن تذهب.

- هل تنتبه أين نحن، يا هانز؟ -قالت ضاحكة ضحكةً بدت لِأرشيمبولدي شلالاً من جليد.

- في الجبل، يا عزيزتي -قال دون أن يفلت يدها ومحاولاً عبثاً أن يعانقها مرّة أخرى.

- نحن في الجبل -قالت إنجيبورغ-. لكنّنا أيضاً في مكان محاط بالماضي. كلّ هذه النجوم -قالت-، هل يُعقَل أنّك لا تفهم، أنت الذكيّ جدّاً؟

- ألاّ أفهم ماذا؟ -قال أرشيمبولدي.

- انظر إلى النجوم -قالت إنجيبورغ.

رفع نظره: بالفعل، كان هناك نجوم كثيرة، ثمّ عاد ونظر إلى إنجيبورغ وهزّ كتفيه.

- لستُ ذكيّاً جدّاً -قال-، أنت تعرفين ذلك.

- كلّ هذا النور ميت -قالت إنجيبورغ-. كلّ هذا النور انبعث منذ آلاف وملايين السنين. إنّه الماضي، هل فهمت؟ حين انبعث نور هذه النجوم لم نكن موجودين، لم يكن يوجد حياة على الأرض، ولا حتى الأرض كانت موجودة. انبعث هذا النور منذ زمن طويل جدّاً. هل تفهمَ ذلك؟ إنّه الماضي، نحن محاطون بالماضي، الذي ما عاد موجوداً أو موجود فقط في الذكرى أو هناك الآن في التخمين، فوقنا، يُضيء الجبالَ والثلجَ ولا نستطيع أن نفعل شيئاً كي نتفاداه.

- الكتاب القديم ماضٍ أيضاً -قال أرشيمبولدي-، الكتاب المكتوب والمنشور في العام ١٧٨٩ ماضٍ أيضاً، مؤلّفه ما عاد موجوداً، ولا طابِعه ولا قرّاؤه الأوائل ولا العصر الذي كُتِب فيه الكتابُ، لكنّ الكتاب، الطبعة الأولى من هذا الكتاب، ما زال هنا. مثل أهرامات الأزتيك -قال أرشيمبولدي.

- أكره الطبعات الأولى والأهرامات وأكره أيضاً الأزتيكيين الدمويين -قالت إنجيبورغ-. لكنّ نور النجوم تُدوّخني. أرغب بالبكاء -قالت إنجيبورغ بعينين رطّبَهما الجنون.

قامت بعدها بحركة كيلا يضع أرشيمبولدي يده على كتفها وراحت تسير باتجاه مركز الحدود، المكوّن من كوخ خشبيّ صغير من طابقين، كانت تنبعث من مدخنته حلقة من دخان أسود تنحلّ في سماء الليل، ولافتة معلّقة إلى إسفين يُعلن فيها أنّ تلك هي الحدود.

إلى جانب الكوخ كان هناك عنبر بلا جدران، حيث تقف عربة شحن صغيرة. لم يكن هناك أيّ نور غير ضوء شمعة ضعيف يتسرّب من درفة شباك سيّئة الإغلاق في الطابق الثاني.

- تعالي لنرى ما إذا كان عندهم شيء ساخن يقدمونه لنا -قال أرشيمبولدي وطرق الباب.

لم يُجبْهُ أحدٌ. عاد ليطرق هذه المرّة بقوّة أكبر. بدا مركز الحدود خالياً، إنجيبورغ التي كانت تنتظره خارج الطَّنَف شحب وجهها إلى حدّ أنّه اكتسب لونَ الثلج. دار أرشيمبولدي حول الكوخ. في القسم الخلفيّ، بجانب غرفة الحطب، وجد بيت كلب معتبر الأبعاد، لكنّه لم يجد أيّ كلب. حين عاد إلى طَنَف المدخل الأمامي كانت إنجيبورغ ما تزال واقفة تنظر إلى النجوم.

- أظنّ أنّ حراس الحدود قد ذهبوا -قال أرشيمبولدي.

- يوجد نور -أجابته إنجيبورغ دون أن تنظر إليه، وأرشيمبولدي لم يعرف ما إذا كانت تُشير إلى نور النجوم أم إلى النور الذي كان يُرى في الطابق الثاني.

- سأكسر نافذة -قال.

بحث عن شيء قاس ولم يعثر عليه، ولذلك قام بعد أن أزاح درفة الشباك الخشبية بكسر جزء زجاج من النافذة بمرفقه. ثم انتهى بإبعاد شظايا الزجاج بحذر بيديه وفتحها.

رائحة كثيفة وثقيلة صفعته في وجهه بينما هو ينسلّ إلى الداخل. كل شيء في داخل الكوخ كان مظلماً باستثناء بريق مطفأ كان يخرج من المدخنة؛ رأى بجانب هذه على كرسيّ حارسَ حدود مفتوح السترة ومغمض العينين، كما لو أنّه نائم، بالرغم من أنّه لم يكن نائماً بل ميتاً. في غرفة من الطابق الأوّل وجد حارساً آخر نائماً على سرير فرديّ، أبيض الشعر يرتدي قميصاً داخلياً أبيض وسروالاً داخلياً طويلاً من اللون ذاته.

في الطابق الثاني وفي الغرفة التي كانت تستهلك فيها الشمعة، التي رأيا نورها من الطريق لم يكن يوجد أحد. كانت مجرّد غرفة فيها سرير وطاولة وكرسيّ ورف تصطفّ عليه بعض الكتب، معظمها كتب مغامرات الغرب. بحث أرشيمبولدي بشيء من السرعة لكن دارساً خطواته عن مكنسة وصحيفة وكنس بعدها الزجاج الذي سبق وكسره، ووضعه على الصحيفة وتركه يسقط من فراغ النافذة إلى الخارج، كما لو أنّ أحد الميتين -من داخل الكوخ وليس من خارجه- كان مُسَبِّب الكسر. خرج بعدها دون أن يلمس شيئاً وعانق إنجيبورغ وهكذا عاد معانقاً إيّاها إلى الضيعة بينما كلّ ماضي الكون يسقط على رأسيهما.

لم تستطع إنجيبورغ في اليوم التالي أن تنهض من السرير. كانت حرارتها أربعين وراحت في المساء تهذي. عند الظهيرة بينما كانت هي نائمة رأى أرشيمبولدي من نافذة غرفته عربة إسعاف تمرّ باتجاه مركز الحدود. بعدها بقليل مرّت سيارة شرطة ثمّ وبعد ثلاث ساعات نزلت سيارة الإسعاف باتجاه كيمبتين حاملة الجثّتين، لكنّ السيّارة لم تعد حتى السادسة، حين كان الليل قد حلّ وتوقّفت حين دخلت الضيعةَ وتكلّم الشرطيون مع بعض السكان.

ربمّا لم يزعجوهما بفضل تدخّل ليوبه. بدأت إنجيبورغ تهذي في المساء ونقلوها في تلك الليلة ذاتها إلى مشفى كيمبتين. لم يرافقهما

ليوبه، لكنّ أرشيمبولدي في صباح اليوم التالي رآه بينما كان يُدخّن في الممرّ بجانب باب مدخل المشفى، يظهر مرتدياً سترة قماشية قديمة ومستعمَلةً جدّاً وإن لم تكن تخلو من بعض الأبّهة، وربطة عنق وينتعل حذاء خشناً يبدو مصنوعاً يدوياً.

تكلّما لبضع دقائق. قال له ليوبه إنّه ما من أحد في القرية يعرف بهرب إنجيبورغ وإنّ من الأفضل لِأرشيمبولدي إذا ما سأله أحد، ألا يقول شيئاً. ثمّ سأله عمّا إذا كانت المعاملة التي تتلقاها العليلةُ (هكذا قال: العليلة) جيّدة، وإن كان بالحكم من النبرة التي سأل بها يعتبر أنّه لا يمكن أن تكون المعاملة بطريقة أخرى، سأل عن طعام المشفى، الأدوية التي يعطونها لها، ثم غادر بخشونة. قبل أن يذهب ودون أن يقول كلمة واحدة، ترك بين يدي أرشيمبولدي شيئاً ملفوفاً بورق رخيص، فيها قطعة جبن جيّدة وخبز ونوعين من المُخلّل، من النوع ذاته الذي كانوا يأكلونه في بيته.

لم يكن أرشيمبولدي جائعاً وحين رأى الجبن والمخلّل شعر برغبة جامحة بالتقيّؤ. لكنّه لم يبغِ أن يرمي بالطعام وانتهى إلى الاحتفاظ به في درج منضدة إنجيبورغ. عادت هذه لتهذي ليلاً ولم تعرف أرشيمبولدي. في الفجر تقيّأت دماً وحين أخذوها ليلتقطوا لها بعض الصور الشعاعية صاحت له ألا يتركها وحدها، ألا يسمح بأن تموت في مشفى بائس كذلك المشفى. لن أفعلَ، وعدها أرشيمبولدي في الممرّ، بينما الممرضات يتعدن بالنقالة حيث كانت تتخبّط إنجيبورغ. بعد ثلاثة أيّام بدأت الحرارة تخف، وإن صارت التبدلات في مزاج إنجيبورغ أكثر بروزاً.

لم تكن تُكلّم أرشيمبولدي تقريباً وحين كانت تفعل ذلك إنّما كي تقول له أن يُخرجها من هناك. كان في الغرفة ذاتها مريضتا رئة أخريان سرعان ما صارتا عدوّتين لودودتين لِإنجيبورغ. بحسب هذه كانتا تحسدانها لأنّها برلينية. بلغ السيل الزبى عند الممرضات من إنجيبورغ،

وكان هناك طبيب ينظر إليها وهي جالسة في سريرها بشعرها السبط والمنسدل إلى ما تحت الكتفين، كما لو أنّها تحوّلت إلى تجسيد لإلهة الانتقام. قبل يومٍ من تخريجها ظهر ليوبه مرّة أخرى في المشفى.

دخل إلى الغرفة وسأل إنجيبورغ سؤالين ثمّ سلّمها صرّة صغيرة مماثلة لتلك التي أعطاها قبل أيّام لِأرشيمبولدي. مكث بقية الوقت ساكتاً، جالساً بشكل متخشّب على كرسيّ ويلقي بين برهة وأخرى نظرةً على المريضتين الأخريين والزوار الذين كانتا تستقبلانهم. حين غادر قال لِأرشيمبولدي إنّه يريد أن يتكلّم معه على انفرادٍ، لكنّ أرشيمبولدي لم يكن به رغبة لأنّ يتكلّم مع ليوبه، وهكذا وبدل أن يتوجّه إلى مطعم المشفى، بقي معه في الممر تحت إصرار ليوبه الذي كان يأمل أن يتحدّث معه في مكان أكثر خصوصية.

- فقط كنتُ أريد أن أقول لك -قال الفلاّحُ- إنّ السيّدة كانت على حقّ. أنا قتلتُ زوجتي. رميت بها إلى هوّة، إلى هوة جرف العذراء. في الحقيقة ما عدتُ أتذكّر، ربّما كان جرف الأزهار. لكنّني أنا رميت بها من الجرف ورأيت جسدها يسقط، محطّماً على النتوءات والحجارة. فتحتُ عينيّ بعدها وبحثتُ عنها. كانت هناك في الأسفل. بقعة ملوّنة بين الحجارة. بقيتُ أنظر إليها برهة طويلةً. نزلتُ بعدها وحملتُها على كتفيَّ وصعدتُ بها، لكنّها لم تعد تزن شيئاً، كنت كمن يصعد بحزمة أغصان. دخلتُ إلى بيتي من الباب الخلفيّ. لم يرني أحدٌ. غسلتُها بعناية، ألبستها ثياباً جديدة، وأنمتُها. كيف لم ينتبهوا إلى أنّ كلَّ عظامها كانت مكسورة؟ قلتُ ماتت. ممَّ ماتت؟، سألوني. من الألم، قلتُ لهم. عندما يموت المرء من الألم يكون كما لو أنّه محطّم العظام ومكدوماً في كل مكان والجمجمة مهشّمة. هذا هو الألم. صنعتُ التابوت بنفسي خلال ليلة من العمل وفي اليوم التالي قبرتُها. بعدها رتّبت الأوراق في كيمبتين. لن أقول لك إنّه بدا للموظفين أمراً عاديّاً. استغربوا قليلاً. أنا رأيتُ وجوههم المستغرِبة. لكنّهم لم يقولوا

شيئاً وسجّلوا الميتة. عدتُ بعدها إلى الضيعة وبقيت أعيش. وحيداً للأبد -تمتم بعد وقفة طويلة-. كما يجب أن يكون.

- لماذا تحكي لي هذا؟ -سأله أرشيمبولدي.

- كي تحكيه للسيّدة إنجيبورغ. أريد أن تعرف السيّدة هذا. لأجلها أحكيه لك، كي تعرف هي. اتفقنا؟

- اتفقنا -قال أرشيمبولدي- سأحكيه لها.

حين خرجا من المشفى ذهبا في القطار إلى كولونيا، لكنّهما لم يكادا يمكثان ثلاثة أيّام هناك حتى سأل أرشيمبولدي إنجيبورغ إذا كانت تُريد أن تذهب لزيارة أمّها. أجابته إنجيبورغ إنّه لم يكن ضمن خططها أن تعود لترى أمّها ولا أختيها. أرغب بالسفر، قالت. في اليوم التالي قامت إنجيبورغ بإجراءات الحصول على جواز سفرها وحصل أرشيمبولدي على المال من أصدقائه. أولاً زارا النمسا، ثمّ سويسرا ومن سويسرا انتقلا إلى إيطاليا. زارا، كصعلوكين، البندقية وميلان وبين المدينتين توقّفا في فيرونا وناما في النزل الذي نام فيه شكسبير وأكلا في تراتوريا، حيث أكل شكسبير، ويُسمّى الآن تراتوريا شكسبير، أيضاً ذهبا إلى الكنيسة التي كان يذهب إليها شكسبير عادة ليتأمّل أو ليلعب الشطرنج مع قسّ الكنيسة، ذلك أنّ شكسبير كان مثلهما، لا يتكلّم الإيطالية، ولعب الشطرنج لم يكن يحتاج للتكلّم بالإيطالية ولا الإنكليزية ولا الألمانية، ولا حتى الروسية.

وبما أنّ الأشياء التي يجب مشاهدتها في فيرونا كانت قليلة فقد طافا بريشيا وبادوَا وفينيسيا ومدناً أخرى على طول خطّ القطار الذي يربط ميلان بالبندقية، ثمّ زارا مانتوَا وبولونيا وعاشا ثلاثة أيام في بيزا، يمارسان الحبّ كمتلهّفين، واستحمّا في سيزينا وبيومبينو مقابل جزيرة إلبا، زارا بعدها فلورنسا ودخلا روما.

ممَّ عاشا؟ من المحتمل تأنّ أرشيمبولدي، الذي كان قد تعلّم كثيراً

من عمله كبوّاب في بار سيينغلِرستراس، عمل كنشّال صغير. سرقة السياح الأمريكيين كانت سهلة. سرقة الإيطاليين فقط كانت أصعب قليلاً. وربّما طلب أرشيمبولدي سلفة أخرى من دار النشر وأرسلوها إليه وربّما ذهبت البارونة فون زومبِ بنفسها لتسلّمه له باليد، مدفوعة بفضول التعرّف على زوجة مستخدَمِها القديم.

كان اللقاء على كلّ الأحوال في مكان عام وظهر أرشيمبولدي وحده، شرب كأس بيرة وأخذ النقود، شكرها وذهب. أو هكذا وضّحت البارونة لزوجها في رسالة طويلة كتبتها له من قلعة سينيجاليا، حيث قضت خمسة عشر يوماً «تُحمِّص» بشرتها تحت الشمس وأخذت حمامات بحرٍ طويلة. حمامات بحر لم تأخذها إنجيبورغ ولا أرشيمبولدي، أو أنّهما أجّلاها لتقمُّصٍ آخر، فصحّة إنجيبورغ راحت مع مرور الصيف تتراجع في كلّ مرّة أكثرَ واستُبْعِدت إمكانية العودة إلى الجبل ودخول مشفى دون أيّ نقاش ممكن. وجدتهما بداية أيلول في روما، يرتديان بنطلونين قصيرين أصفرين بلون الصحراء أو الكثبان، كما لو أنّهما شبحان من الفيلق الأفريقي، ضائعان في مدافن المسيحيين الأوائل، مدافن خربة وموحشة حيث لم يكن يُسمع غير صوت قطرات غير دقيقة من قناة باطنية مجاورة وسعال إنجيبورغ.

ومع ذلك سرعان ما هاجرا إلى فلورنسا ومن هناك ذهبا سيراً على الأقدام أو بالأوتوستوب إلى البحر الأدرياتيكي. في تلك الأثناء كانت البارونة فون زومبِ في ميلان، ضيفة على بعض الناشرين الميلانيين وكتبت من مقهى، شبيه في كلّ شيء بكاتدرائية رومانية، رسالةً إلى بوبيس تُعلمه فيها عن صحّة مُضيفيها، الذين كان بودّهم لو أن بوبيس معهم هناك، وعن بعض الناشرين من تورين تعرّفت عليهم توّاً، واحد عجوز ومرح جدّاً كان كلّما أشار إلى بوبيس يسميه أخي، وآخر شاب، يساريّ، جميل جدّاً، كان يقول، ولماذا لا، إنّ على الناشرين أيضاً أن يُساهموا في تغيير العالم. أيضاً تعرّفت البارونة في تلك الأيام بين حفلة

وحفلة على بعض الكتّاب الإيطاليين، بعضهم عنده كتب ربّما كان من المهمّ ترجمتها. طبعاً كان باستطاعة البارونة أن تقرأ بالإيطالية وإن كانت نشاطاتها اليومية تمنعها بطريقة ما من القراءة.

في كل ليلة كان هناك حفلة يجب حضورها. وحين لا يكون هناك حفلة كان مُضيفوها يخترعونها. كانوا يغادرون ميلان أحياناً في قافلة من أربع أو خمس سيارات ويذهبون إلى قرية على ضفاف بحيرة غاردا تسمى باردولينو، حيث كان يملكُ أحدهم بيتاً ريفياً. وكثيراً ما كان يجدهم الفجرُ جميعاً منهكين وسعداء، يرقصون في أيّ مطعم من مطاعم ديسينزانو، أمام أعين أبناء المنطقة المحلّيين الذين سهروا (أو استيقظوا توّاً) يشدّهم الصخب.

ومع ذلك تلقت ذات صباح برقيّةً من بوبيس يعلمها فيها بأنّ زوجة أرشيمبولدي ماتت في قرية ضائعة في الأدرياتيكي. راحت البارونة تبكي، دون أن يعرف أحد السبب، كما لو أنّ أختاً لها ماتت فأخبرت في ذلك اليوم ذاته مُضيفيها أنّها ستذهب من ميلان إلى تلك القرية الضائعة، دون أن تعلم ما إذا كانت ستأخذ قطاراً أو حافلة أو سيّارة أجرة، لأنّ تلك القرية لم تكن تظهر في دليل المسافر في إيطاليا. عرض الكاتب الشاب التوريني نفسه ليأخذها في سيارته، والبارونة التي كان لها معه بعض المغازلات شكرته بكلمات كانت من الحزن بحيث أنّ التوريني لم يعرف فجأة ماذا يفعل.

شكّلت الرحلةُ بكائيّةَ غيابٍ أو حضور، بحسب المشهد الذي كانا يمرّان به، منشودة بإيطالية هي في كلّ مرّة أكثر اختلاطاً وعدوى. وصلا أخيراً إلى القرية الغامضة منهكين، بعد أن راجعا لائحة لا تنتهي من الأقرباء المتوفّين (سواء منهم أقرباء البارونة كما أقرباء التوريني) والأصدقاء المختفين، بعضهم ميت، دون أن يعلما. ومع ذلك كان لديهما من القوّة ما سمح لهما بالسؤال عن ألماني ماتت زوجته. قال لهما القرويون المتجهمون والمشغولون بإصلاح شباكهم وفي قلفطة

الزوارق، إنّه بالفعل كان قد وصل قبل بضعة أيّام زوجان ألمانيان وإنّ الرجل قد غادر منذ أيّام قليلة وحده، ذلك لأنّ الزوجة مات غرقاً.

إلى أين ذهب الرجلُ؟ لم يكونوا يعرفون. سألت البارونة والناشرُ القسَّ، لكنّه أيضاً لم يكن يعرف شيئاً. أيضاً سألا حفّارَ القبور فكرّر عليهما هذا ما كانا قد سمعاه كصلاة: أنّ الألماني كان قد غادر منذ وقت قصير وأنّ الألمانية ليست مدفونة في تلك المقبرة، لأنّها ماتت غرقاً ولم يُعثر على جثّتها إطلاقاً.

في المساء أصرّت البارونة قبل أن يُغادرا القرية على أن تصعد إلى جبل كان يُهيمن على المنطقة كلّها. رأت دروباً متعرّجة، لونها من تدرجات الأصفر الداكن، كانت تضيع وسط غابات صغيرة رصاصية اللون، كما لو أنّ الغابات مناطيد منفوخة بالمطر، رأت تلالاً مغطاة بأشجار الزيتون وبقعاً تتنقل ببطء وغرابة، لم تبدُ لها محتملة وإن بدت لها من هذا العالم.

مرّ زمن طويل لم يُعرف فيه عن أرشيمبولدي شيء. بقيت *أنهار أوروبا* تُباع، دون أن يتوقّع أحد ذلك وطُبعت منها طبعة ثانية. بعدها بوقت قصير حدث الشيء ذاته مع *القناع الجلدي*. ظهر اسمه في دراستين عن الرواية الألمانية، وإن كان دائماً بطريقة حصيفة، كما لو أنّ مؤلّف الدراسة لم يكن قط واثقاً من أنّه لم يكن ضحية مزحة. كان بعض الشباب يقرؤونه، قراءة هامشية، نزوة طلابٍ جامعيين.

حين مضى أربع سنوات على اختفائه، تلقى بوبيس في هامبورغ مخطوط *إرث* الضخم، رواية من أكثر من خمسمئة صفحة، مليئة بالتشطيبات والإضافات والزيادات والملاحظات في أسفل الصفحة غير قابلة للقراءة أحياناً كثيرة.

جاء الطرد من البندقية، حيث كان يعمل أرشيمبولدي كما قال في

رسالة مرفقة مع المخطوط، جنائنياً، وهو ما بدا لبوبيس مزحة، لأنّ الجنائنيّ يستطيع، فكّر بوبيس، مع بعض الصعوبة، أن يجد عملاً في أيّ مدينة إيطالية باستثناء البندقية. على كلّ الأحوال جاء ردّ الناشر سريعاً جدّاً. ففي ذلك اليوم ذاته كتب له سائلاً ما السلفة التي يريدها ويطلب منه عنواناً مضموناً كي يرسل إليه النقود، نقوده، التي راحت خلال تلك السنوات الأربعة تتراكم ببطء شديد. جاء ردّ أرشيمبولدي أكثر اقتضاباً. أعطى عنواناً في كاناريجيو ويودّعه بكلمات خشنة متمنياً له عاماً سعيداً، له وللسّيدة زوجته، إذ أنّ شهر كانون الأوّل كان يشرف على نهايته.

قرأ بوبيس خلال تلك الأيّام، وكانت أيّاماً باردة جدّاً في كلّ أوروبا، مخطوط *إرث*. ومع أن النصّ كان فوضويّاً إلاّ أنّ الانطباع الأخير كان مُرْضِياً جدّاً، فأرشيمبولدي يردّ على كلّ التوقعات التي أودعها عنده. أيّ توقّعات كانت تلك؟ بوبيس لم يكن يعرفها، ولم يكن يهمّه أن يعرفها. صحيح أنّها لم تكن توقّعات لعمله الأدبي الجيد، الشيء الذي يمكن أن يتعلّمه أي كاتب متواضع، ولا لقدرته على اختراع القصص التي لم يكن يشك بها منذ ظهرت *الوردة اللامحدودة*؛ ولا لقدرته على ضخّ دماء جديدة في اللغة الألمانية المشلولة، الأمر الذي كان برأي بوبيس، يعمله شاعران وثلاثة أو أربعة روائيين، كان يعدّ أرشيمبولدي بينهم. لكن لم يكن هذا. ماذا كان إذن؟ لم يكن بوبيس يعرفه وإن كان يحدس به، وعدم معرفته به لم يكن يُحدث عنده أدنى مشكلة، ربّما لأن المشاكل تبدأ عند معرفته، بين أشياء أخرى وكان هو ناشر ودروب الله بالتأكيد فقط كانت عويصة.

وبما أنّ البارونة كانت في تلك الأيّام في إيطاليا، حيث كان لها عشيق، هتف لها بوبيس وطلب منها أن تذهب لزيارة أرشيمبولدي.

بكلّ رغبة كان يودّ أن يذهب بنفسه، لكنّ السنين لم تكن تمرّ على

بوبيس عبثاً، فهو لم يعد قادراً على السفر كما كان يفعل لزمن طويل. وهكذا كانت البارونة هي من ظهرت ذات صباح في البندقية يرافقها مهندس روماني أصغر منها بقليل. شخص وسيم ونحيل، برونزي البشرة كان الناس ينادونه أحياناً بالمعماريّ وفي أخرى بالدكتور، بالرغم من أنّه كان مجرّد مهندس، مهندس طرقات وقارئاً مشغوفاً بمورافيا، الذي زار بيته برفقة البارونة، كي يتيح لهذه الفرصةَ للتعرّف على الروائي خلال سهرة كان يُقيمها مورافيا في شقته الواسعة، من حيث كان يتأمل المرء، عند هبوط الليل المليء بالأضواء العاكسة، آثار سيرك، أو ربّما آثار معبد، أضرحة وحجارة مضاءة، كان الضوء ذاته يساهم في اختلاطها وغشاوتها والتي كان ضيوف مورافيا يتأملونها ضاحكين أو على حافة البكاء من شرفة الروائيّ الواسعة. الروائي الذي لم يُدهِش البارونة، أو على الأقل لم يدهِشها إلى الحدّ الذي كان يتوقّعه عشيقها، الذي كان مورافيا بالنسبة إليه يكتب بحروف من ذهب، لكنّ البارونة لم تنقطع عن التفكير به في الأيّام التالية، خاصّة بعد أن استلمت رسالة زوجها وسافرت برفقة المهندس المورافي إلى بندقيّةِ الشتاء، حيث نزلوا في غرفة في فندق دانييلي، من حيث ستخرج البارونة وحدها بعد أن تستحمّ، دون أن تتناول طعام فطورها، بشعرها الجميل الأشعث وبسرعة غير مفهومة.

كان عنوان أرشيمبولدي في شارع تورلونا، في كاناريجيو، فافترضت البارونة بمزاج رائق، أنّ ذلك الشارع لا يمكن أن يكون بعيداً كثيراً عن محطّة القطار، أو إذا لم يكن كذلك فلن يكون بعيداً جدّاً عن كنيسة مادونّا دِل أورتو، التي عمل فيها الرسام تينتوريّتو طوال حياته. وهكذا استقلت جندولاً من سان زكريّا وتركته يحملها، مندهشة من القنال العظيمة، نزلت بعدها أمام المحطّة وبدأت تمشي وتسأل، وكانت خلال ذلك تُفكّر بعيني مورافيا، اللتين كانتا جذّابتين، وبعيني أرشيمبولدي، اللتين اكتشفت فجأة أنّها لم تعد تتذكّرهما، وكذلك

فكّرت كم كانت حياتهما مختلفة، حياة مورافيا وحياة أرشيمبولدي، واحد برجوازي وحكيم ويعايش زمنه ولا يتوانى مع ذلك عن تقديم (لكن ليس لنفسه بل لمشاهديه) بعض المزاح الناعم والأبدي، الآخر، وخاصة بالمقارنة مع الأوّل، هامشي في جوهره، جرماني بربري، فنّان في تأجّج دائم، كما كان يقول بوبيس، شخص لن يرى أبداً الآثار ملفوفة بأوشِحةٍ من نور كان يُستمتع بها من شرفة مورافيا ولن يسمع اسطوانات مورافيا ولن يخرج ليلاً ليتمشى في روما مع أصدقائه، الشعراء والسينمائيين والمترجمين والطلاب والأرستقراطيين والماركسيين، كما كان يفعل مورافيا مع أصدقائه، دائماً هناك كلمة طيبة، ملاحظة ذكية، تعليق مناسب، بينما أرشيمبولدي كان يقيم مونولوجات طويلة مع نفسه، فكّرت البارونة في الوقت الذي كانت تجوب فيه ليستا دِ إسبانيا حتى كامبو سان جيرميا، وتعبر بعدها جسر جوجلي وتهبط بعض الدرجات حتى فوندامِنتا بِسكاريا، مونولوجات غير مفهومة لطفلِ خدمةٍ أو جندي حافٍ تائهٍ في بلاد روسية، جحيم مسكون بالشياطين، فكّرت البارونة، وتذكّرت عندئذ، دون مناسبة، بأنهم الغِلْمانيين في برلينِ مراهقتِها، كان بعض الأشخاص، وبخاصة الخادمات اللواتي كنّ يأتين من الريف، الخادمات، الصبايا اللواتي كنّ يفتحن عيونهنّ الكبيرة جدّاً ويتعبير عن الخوف زائف، الصبايا الصغيرات اللواتي كنّ يتركن عائلاتهنّ ويذهبن إلى البيوت الكبيرة الضخمة في أحياء الأثرياء ويقمن مونولوجات تسمح لهنّ أن يؤمّن عيشَهن ليومٍ آخر، يسمّونهم بالشياطين.

لكن هل كان أرشيمبولدي يقيم حديثاً مع نفسه؟ فكّرت البارونة بينما هي تدخل شارع الغيتو فيتشيو (القديم)، أم أنّه كان يقيم مونولوجات بحضور شخص آخر؟ وإذا كان كذلك، فمن كان هذا الشخص الآخر؟ ميتاً؟ شيطاناً ألمانياً؟ مسخاً اكتشفه هو حين كان يعمل في بيتها الريفيّ في بروسيا؟ مسخاً كان في أقبية بيتها حين كان الطفل

أرشيمبولدي يذهب ليعمل هناك برفقة أمّه؟ مسخاً كان يختبئ في غابة البارونات فون زومبِ؟ شبح حقول السبخ؟ روح الصخور على جانب الطريق الحافل بالحوادث الذي كان يربط بين قرى الصيادين؟

محض كلام فارغ، فكّرت البارونة، التي لم تؤمِن قط بالأشباح ولا بالإيديولوجيات، فقط بجسدها وأجساد الآخرين، بينما هي تعبر ساحة الغيتو الجديد وعبرت بعدها جسر فونداميِنتا ديلجي أورمِسيني، وتنعطف نحو اليسار وتصل إلى شارع تورلونا، لا شيء غير البيوت القديمة، الأبنية التي يسند بعضُها بعضاً مثل عجائز مصابين بالزهايمر، فوضى بيوت وممرات متاهية، حيث تُسمع أصواتٌ بعيدة، أصوات قلقة تسأل وتجيب بكبرياء عظيم حتى تصل إلى باب أرشيمبولدي، في بيت، لا يُعرَف لا من الشارع ولا من الداخل في أيّ طابق كان، في الثالث أو الرابع، ربّما في الثالث والنصف.

فتح أرشيمبولدي الباب. كان شعره طويلاً ومتشابكاً ولحيته تُغطّي كامل عنقه. يرتدي قميصاً صوفيّاً وبنطلوناً عريضاً، مُلَطّخاً بالتراب، وهو أمر غير مألوف في البندقية حيث لا يوجد غير الماء والحجارة. عرفها فوراً وحين دخلت البارونة لاحظت أنّ خيشمَي خادمها القديم يتمطيان، كما لو أنّه يُحاول أن يشمّها. كان البيت مكوّناً من غرفتين صغيرتين، يفصل بينهما حائط من الجصّ، وحمام، أيضاً صغير حديث البناء. في الغرفة التي كانت تفيد للطعام والطبخ كانت النافذة الوحيدة في البيت تُطل على قنال تصبُّ في نهرِ يلا سينسا. كان لون البيت بنفسجياً، يتحوّل في الغرفة الثانية حيث سرير وثياب أرشيمبولدي، إلى أسود، أسود ريفيّ، فكّرت البارونة.

ماذا فعلا في ذلك اليوم وفي اليوم التالي؟ ربّما تكلّما وتجامعا، وتجامعا أكثر مما تكلّما، فالصحيح هو أنّ البارونة لم ترجع ليلاً إلى دانييلي، أمام ضيق مهندسها، الذي كان قد قرأ روايات تتحدّث عن اختفاءات غامضة في البندقية، وخاصّة السياح من الجنس اللطيف،

نساء مغلوبات على أمرهنّ جسديّاً، نساء مُخَدّرات بشبق فوّادي البندقية، نساء إماء يعشن الجدار على الجدار من زوجات المستعبِدين الشرعيات البدينات، نابتات الشارب يتكلّمن بالدارجة ولا يخرجن من كهوفهنّ إلا كي يشترين الخضراوات والأسماك، نساء كرومانيونيات متزوجات من رجال نياندرتاليين وإماء تربين في أوكسفورد أو في مدارس داخلية في سويسرا مقيدات إلى رجل السرير بانتظار الشبح.

لكن الصحيح هو أنّ البارونة لم تعد في تلك الليلة والمهندس سَكِرَ بحشمة في بار دانييلي ولم يلجأ إلى الشرطة، فمن ناحية خاف أن يصير مسخرة ومن أخرى لأنّه كان يحدس بأنّ عشيقته الألمانية كانت من تلك الأرواح اللواتي دائماً ينلن مرادهنّ، دون أن يطلبن أو يسألن شيئاً. وفي تلك الليلة لم يوجد أيّ شبح، بالرغم من أنّ البارونة وجّهت أسئلة، ليست كثيرة، وأظهرت استعداداً لتجيب على الأسئلة التي استحسن توجيهها أرشيمبولدي.

تكلّما عن عمل الجنائنيّ، الذي كان حقيقةً، والذي كان يتمّ إمّا على حساب بلدية البندقية في الحدائق القليلة العامّة، لكن المرعيّة جيداً، أو على حساب أشخاص (أو مُحامين) يملكون حدائق داخلية، بعضها زاه، خلف أسوار قصورهم. عادا بعدها ليُمارِسا الحبَّ. تكلّما بعدها عن البرد القائم والذي كان أرشيمبولدي يتحايل عليه لافّاً نفسه ببطانيات. بعدها قبلّ الواحد منهما الآخر طويلاً ولم تبغِ البارونة أن تسأله منذ متى لم ينم مع امرأة. تحدّثا بعدها عن بعض الكتّاب الأمريكيين الشماليين، الذين كان بوبيس ينشر لهم ويواظبون على زيارة البندقية بالرغم من أنّ أرشيمبولدي لم يكن يعرف أيّاً منهم ولم يقرأ لهم. تحدّثا بعدها عن ابن عمّة البارونة المختفي، عاثر الحظّ هوغو هالدِر، وعن عائلة أرشيمبولدي، التي عثر عليها هذا أخيراً.

حين استعدّت البارونة لتسأله أين عثر على عائلته وتحت أي ظروف وكيف، نهض أرشيمبولدي من السرير وقال لها: اسمعي.

وحاولت البارونة أن تسمع، لكنّها لم تسمع شيئاً، فقط صمتاً، صمتاً تاماً. وعندها قال لها أرشيمبولدي: تلك هي المسألة، مسألة الصمت، هل تسمعينه؟ وأوشكت البارونة على أن تقول له إنّ الصمت لا يمكن أن يُسمَع، وحده الصوت يُسمَع، لكنّه بدا لها تحذلقاً فلم تقل شيئاً. اقترب أرشيمبولدي عارياً من النافذة وفتحها وأخرج نصف جسمه منها، كما لو أنّه يريد أن يرمي نفسه إلى القنال، لكن لم يكن هذا قصده. وحين عاد وأدخل جذعه قالت له البارونة أن يقترب وينظر. ونهضت البارونة، عارية مثله، واقتربت من النافذة ورأت كيف كانتْ تثْلِج فوق البندقية.

آخر زيارة قام بها أرشيمبولدي لدار نشره كانت من أجل أن يُراجع مع المدقِّقة بروفات طبعة *إرث* ويُضيف قرابة المئة صفحة إلى المخطوط الأصلي. كانت تلك المرّة الأخيرة التي رأى فيها بوبيس، الذي سيموت بعدها بسنوات قليلة، ليس قبل أن ينشر أربع روايات أخرى لِأرشيمبولدي، وأيضاً كانت المرّة الأخيرة التي رأى فيها البارونة على الأقل في هامبورغ.

كان بوبيس في تلك الأيّام غارقاً في النقاشات العقيمة الكبيرة والصغيرة التي كانت تتم بين كتّاب الجمهورية الفيدرالية والجمهورية الديمقراطية، وكان يمرّ على مكتبه مثقفون وتصل رسائل وبرقيات وفي الليالي كان يتلقّى، للتنويع، مكالماتٍ هاتفية مستعجلة، كانت بعامّةٍ لا تقود إلى شيء. كان الجوّ الذي يستنشق في دار النشر جوَّ نشاط حماسي. ومع ذلك كان كلّ شيء يتوقّف أحياناً، كانت المُدقِّقة تصنع قهوة لها ولأرشيمبولدي وشاياً لفتاةٍ جديدة تعمل في تصميم خطوط الكتب، فدار النشر في تلك المرحلة كانت قد نمت ولائحة المستخدَمين ازدادت، وكان يوجد أحياناً على طاولة مجاورة مُنَقِّح سويسري، فتى لا أحد كان يعرف سبب عيشه في هامبورغ، كانت

البارونة تغادر مكتبها وتفعلُ رئيسة الصحافة الشيءَ ذاته وأحياناً السكرتيرة أيضاً، فيشرع الجميع يتكلّمون عن أيّ شيء، عن الفيلم الأخير الذي شاهدوه، أو عن الممثّل ديرك بوغارد، تظهر بعده الإدارية بل وحتى السيّدة ماريان غوتليب التي كانت تسمح لنفسها بأن تهبط عليهم مبتسمةً في القاعة الواسعة حيث كان يعمل المُنَقّحون، وإذا كانت الضحكات رنّانة جدّاً كان حتى بوبيس بشخصه يظهر هناك، وفنجان شايه في يده ولم يكونوا يتكلّمون عن ديرك بوغارد فقط بل يتكلّمون أيضاً عن السياسة وعن عمليات الاحتيال التي كانت سلطات هامبورغ الجديدة قادرة على ارتكابها، أو يتكلّمون عن بعض الكتّاب الذين كانوا يجهلون ما هي الأخلاق، المتحلين المعترفين بانتحالهم والمبتسمين وبقناع الطيبِ الذي يُغطّي وجوهاً يختلط فيها الخوف والعدوانية، كتّابٍ مستعدين لأن يغتصبوا أيّ صدى بيقين أنّ هذا سوف يمنحهم شهرة بين الأجيال القادمة، *أيَّ* شهرة بين الأجيال القادمة، وهو ما كان يُثير ضحك المُنَقّحين وضحك بقيّة المستخدمين في دار النشر، بل وابتسامة بوبيس المكرهة، إذ لا أحد مثلهم كان يعرف أنّ الشهرة بين الأجيال اللاحقة نكتة استعراض مسرحي لا يسمعها إلا الذين كانوا يجلسون في الصفّ الأوّل، ثم كانوا يتكلّمون عن زلات القلم، التي جُمِع كثير منها في كتاب مطبوع في باريس، وهذا ما مضى عليه زمن طويل، يحمل عنواناً صائباً: *متحف الأخطاء، الفرنسي* وأخرى اختارها ماكس سينغن، الباحث عن الأخطاء. ومن القولِ إلى الفعل لم تتأخّر المُنقّحاتُ كثيراً في أخذ الكتاب (الذي لم يكن *متحف الأخطاء الفرنسي* ولا كتاب سينغين)، الذي لم يستطِع أرشيمبولدي أن يرى عنوانه، وراحوا يقرؤون بصوت عالٍ مختارات من الدرر المرعية:

- «مسكينة ماريّا! في كلّ مرّة تسمع ضجيجَ حصان يقترب، تكون واثقة من أنّني أنا». دوق مونبازون، شاتوربريان.

- «كان طاقم بحارة السفينة التي ابتلعها الموج مكوّناً من خمسة

وعشرين رجلاً، خلّفوا وراءهم مئات الأرامل محكومات بالبؤس». *مآس بحرية*، غاستون لِروكس.

- «بعون من الله سوف تسطع الشمس من جديد فوق بولندا». *الطوفان*، سينكيفيكز.

- «هيا بنا!، قال بيتِر باحثاً عن قبعته، كي ينشّف دموعه». *لوردس*، زولا.

- «ظهر الدوق تتبعه حاشيته، التي كانت تمضي أمامه». *رسائل من طاحونتي*، ألفونس داوديت.

- «شابكاً يديه وراء ظهره كان إنريك يتنزّه في الحديقة وهو يقرأ رواية صديقه». *اليوم المشؤوم*، روسني.

- «كان يكتب بعين ويقرأ بأخرى». *على ضفاف الراين*، أوباك.

- «كانت الجثّة تنتظر التشريحَ صامتة». *المحظوظ*، أوكتاف فيوليت.

- «لم يكن غبليرم يظنّ أنّ القلبَ يفيد لشيءٍ آخر غير التنفّس». *الموت*، أرجيباشف.

- «سيف الشرف هذا هو اليوم الأجمل في حياتي». *الشرف*، أوكتاف فيوليت.

- «بدأتُ أرى بشكل سيّئ، قالت العمياء المسكينة». *بياتريس*، بلزاك.

- «قبروه حيّاً بعد أن قطعوا رأسه». *موت مونغومِر*، هنري زفيدان.

- «كانت يده باردة مثل يدِ أفعى». بونسون دو تيرّايل-. وهنا لا يُحدّد إلى أيّ رواية تعود هفوةُ القلم هذه.

من مختارات ماكس سينغين أبرزوا الأخطاء التالية، دون أن يُحددوا عملاً ولا مؤلّفاً.

- «كانت الجثّة تُنظر معاتبةً من كانوا يحيطون بها».

- «ماذا يستطيع أن يفعل مقتولٌ برصاصة قاتلة؟».
- «في ضواحي المدينة كان يوجد قطعان كاملة من الدببة التي تسير دائماً وحيدة».
- «من المؤسف أنّ العرس تأجّل خمسة عشر يوماً، هربت خلالها العروس مع النقيب وأنجبت ثمانية أولاد».
- «كان القيام برحلات لثلاثة أو أربعة أيّام عملاً يومياً لهم».
بعدها تأتي التعليقات. السويسري، مثلاً صرّح أنّه جملة شاتوبريان كانت غير متوقّعة إطلاقاً، خاصّة وأنّه تُستشف منها خلفية ذات طبيعةٍ جنسية.
- جنسية بدرجة عالية جدّاً -قالت البارونة.
- شيء يصعب تصديقه، طالما أنّ الأمر يتعلّق بشاتوبريان - اعتبرت المُنقّحة.
- حسن، التلميح إلى الخيول واضح -حَكَمَ السويسريّ.
- مسكينة ماريّا! -انتهت رئيسة قسم الصحافة إلى القول.
تكلّموا بعدها عن إنريك، عن *اليوم المشؤوم* لِروزني، وهو نصّ تكعيبي بحسب بوبيس. أو التعبير الأدق عن العُصابية وفعل القراءة، بحسب مصمّمة الكتب، فإنّ إنريك لم يكن يقرأ ويداه متصالبتان وراء ظهره فقط بل أيضاً وهو يتنزّه في الحديقة. وهذا أمر لطيف جدّاً أحياناً، بحسب السويسري، الذي كان بالنتيجة الوحيد بين الحاضرين الذي كان يقرأ أحياناً وهو يمشي.
- أيضاً هناك احتمال -قالت المنقّحة- أن يكون إنريك هذا قد اخترع طريقة تسمح له بقراءة كتاب دون أن يمسكه بيديه.
- لكن ما الطريقة -سألت البارونة- التي كان يُمرّر بها الصفحات؟
- بسيط للغاية -قال السويسري-، بقشّة أو بقضيب معدنيّ يُستعمل بالفم ويشكل بالطبع جزءاً من عملية القراءة، والذي لا بدّ أن

يكون له شكل صينية -حقيبة ظهر. أيضاً علينا أن نأخذ بالحسبان أنّ إنريك، الذي هو مخترع، أي أنّه ينتمي إلى مرتبة الرجال الموضوعين، كان يقرأ رواية صديق، وهو ما ينطوي على مسؤولية هائلة، فهذا الصديق كان يريد أن يعرف ما إذا كانت أعجبته كثيراً أم لا، وإذا ما أعجبته كثيراً، فإنّه يريد أن يعرف ما إذا كان إنريك يعتبر الرواية عملاً عظيماً أم لا، وإذا ما قبل إنريك بأنّ الرواية تبدو له عملاً عظيماً، فإنّه يريد أن يعرف ما إذا كتب عملاً هو قِمّة من قمم الآداب الفرنسية أم لا، وهكذا حتى يستنفد صبر المسكين إنريك، الذي لا شكّ عنده أشياء أخرى أفضل يقوم بها، إضافة إلى تعليقه ذلك الجهاز المضحك على صدره والتنزّه به إلى أعلى وأسفل الحديقة.

- على كلّ الأحوال -قالت رئيسة قسم الصحافة-، تدلّنا الجملة على أنّ إنريك لا يُحب ما كان يقرؤه. هو قلق، يخاف ألاّ يُحلّقَ كتابُ صديقه عالياً، يرفض أن يقبل الجليّ: وهو أنَّ صديقه كتب ترّهات.

- وكيف تستنتج هذا؟ -أرادت أن تعرف المنقِّحة.

- من الطريقة التي يُقدّمها لنا بها روزني. اليدان متصالبتان وراء ظهره: قلق، تركيز. يقرأ واقفاً ودون أن يتوقّف عن المشي: رفض المُسْتَنْفَد، عصبية.

- -لكنّ استخدامه لآلة القراءة -تقول المُصمّمة المزدرية- ينقذه.

تكلّموا بعدها عن نص دوديت الذي لم تكن، بحسب بوبيس، هفوة قلم بل ظرافة من الكاتب، و*المحظوظ*، لأوكتاف فيوليت (سان-لو ١٨٢١- باريس ١٨٩٠)، الكاتب الناجح في عصره، عدوّ الرواية الواقعية، الذي وقعت أعماله في النسيان الأكثر رعباً، النسيان الأكثر هولاً، في النسيان الأكثر *استحقاقاً*، والذي تُعلن هفوةُ قلمه: «كانت الجثّة تنتظر التشريحَ صامتة» بطريقةٍ ما عن مصير أعامله ذاتها، قال السويسري.

- أليس هناك علاقة بين فيوليت هذا والكلمة الفرنسية فويلتون

(رواية تنشر على حلقات) -سألت العجوز ماريان غوتليب-. أظنّ أنّني أتذكّر أنّ هذا المصطلح كان يدلّ سواءً بسواء على الملحق الأدبي للصحيفة المذكورة، كما على الروايات التي كانت تُنشر على حلقاتٍ في الصحيفة ذاتها.

- ربّما كانا الشيء ذاته، بالتأكيد مشتقة من اسم فيوليت، دلفين الروايات المنشورة على حلقات -أضاء بوبيس، الذي لم يكن متأكّداً تماماً.

- بالنسبة إلي أكثر جملة تعجبني هي جملة أوباك -ارتأت المُنقِّحة.

- بالتأكيد هذا ألماني -قالت السكرتيرة.

- بلى، الجملة جيّدة: «كان يقرأ بعين ويكتب بأخرى» ليست نشازاً في سيرةٍ لغوته -قال السويسري.

- لا تحشر نفسك مع غوته -قال رئيسة قسم الصحافة.

- يمكن أن يكون أوباك هذا فرنسيّاً أيضاً -قالت المنقِّحة، التي عاشت فترة زمنية طويلة في فرنسا.

- أو سويسرياً -قالت البارونة.

- وما رأيكم بـ «كانت يده باردة مثل يدِ أفعى»؟ -سألت الإدارية.

- أُفَضّل جملةَ هنري زفيدان: «دفنوه حيّاً بعد أن قطعوا رأسه» - قال السويسري.

- فيها بعض المنطق -قالت المُنقِّحة-. أولاً يقطعون رأسه. الذين يتصرّفون بهذا الشكل يُفكّرون أنّ الضحية ميتة، لكن من الضروري التخلّص من الجثّة. يحفرون قبراً، يلقون بالجثّة فيه، ويغطونها بالتراب. لكنّ الضحية ليست ميتة. الجثّة لم تُفصَل. قطعوا رأسها. يمكن أن يعني في هذه الحالة أنّهم فصلوه أو فصلوها. لنفترض في هذه الحالة أنّه رجل. يُحاولون أن يفصلوه. يخرج دم كثير. تفقد الضحية وعيها. يعتبره المعتدون ميتاً. أوقف التراب

النزيف. إنّه مدفون حياً. وانتهى. هذا كلّ شيء -قالت المُنقّحة-، هل لهذا معنى؟

- لا، ليس له معنى -قالت رئيسة قسم الصحافة.

- الحقيقة أنّه ليس له معنى -اعترفت المُنقّحة.

- بلى فيه شيء من معنى، يا عزيزتي -قالت ماريان عوتليب-، هناك حالات استثنائية في التاريخ.

- لكن هذا ليس له معنى -قالت المُنقّحة-. لا تُحاولي أن تُشجّعيني، يا سيّدة ماريان.

- أنا أعتقد أنّ فيه شيئاً من المعنى -قال أرشيمبولدي، الذي لم يتوقّف عن الضحك-، وإن لم يكن هذا المفضّل عندي.

- ما هو المفضّل عندك؟ -سأل بوبيس.

- قول بلزاك -قال أرشيمبولدي.

- آه، هذا رائع -قالت المُنقّحة.

وأنشد السويسري:

- «بدأت أرى بشكل سيّئ، قالت العمياء المسكينة».

كان المخطوط التالي الذي سلّمه لِبوبيس بعد *إرث*، هو *سان توماس*، السيرة الزائفة لكاتب سيرة، المكتوب عنه كاتب عظيم من كتاب النظام النازي، حيث أراد بعضُ النقّاد أن يروا تصويراً لإرنست يونغر، وإن لم يكن له بالطبع علاقة بيونغر بل بشخصية متخيَّلة، كي نسميها بطريقة ما. كان في ذلك الوقت ما يزال يعيش في البندقية، بحسب ما تأكّد لبوبيس وربّما بقي يعمل جنائنياً، بالرغم من أنّ السُّلَف والشيكات التي كان يرسلها إليه الناشرُ بين فترة وأخرى كان من الممكن أن تسمح له بأن يتفرّغ كلّياً للأدب.

ومع ذلك وصل المخطوط التالي من جزيرة يونانية، جزيرة إيكاريا، حيث استأجر أرشيمبولدي بيتاً صغيراً وسط أحد التلال

الصخرية، التي كان البحر خلفها. مثل المشهد الأخير لسيزيف، فكّر بوبيس، وهكذا أعلمه في رسالة، يعلمه فيها، كما هو معتاد، بوصول المخطوط، قراءته التالية، وحيث يقترح عليه ثلاث طرق للدفع، كي يختار أرشيمبولدي أكثرها مناسبة له.

فاجأ ردّ أرشيمبولدي بوبيس. يقول له فيه إنّ سيزيف، ما إن مات، حتى فرّ من الجحيم من خلال حيلة ذات طبيعة شرعية. فقبل أن يُحرِّر زيوس تاناتوس، ونظراً لمعرفة سيزيف بأنّ أوّل ما سيفعله الموت هو أنّه سيذهب في طلبه، طلب من زوجته ألاّ تقوم بالواجبات الجنائزية المفروضة. وهكذا حين وصل إلى الجحيم ويّخه هاديس ورفعت كلّ سلطات الجحيم أصواتها حتى السماء أو حتى قبّة الجحيم وشدّوا شعورهم وشعروا بالإهانة. ومع ذلك قال سيزيف إنَّ الذنب لم يكن ذنبه، بل ذنب زوجته وطلبَ، لِنقُلْ، إذناً كي يصعد إلى الأرض ويُعاقبها.

فكّر هاديس بالأمر: كان اقتراح سيزيف معقولاً فأُطْلِق سراحه بكفالة، صالحة فقط لثلاثة أو أربعة أيّام، كافية كي ينتقم انتقاماً عادلاً ويبدأ، وإن كان متأخّراً قليلاً، بالقيام بالواجبات الجنائزية النافذة. طبعاً لم ينتظر سيزيف أن يكرّروا عليه وعاد إلى الأرض، حيث عاش سعيداً إلى أن شاخ جدّاً، ليس عبثاً أنّه كان أدهى رجال العالم، ولم يعد إلى الجحيم إلا بعد أن استنفد جسدُهُ كلَّ قواه.

بحسب بعضهم، عقوبة الصخرة كان لها غاية: الإبقاء على سيزيف مشغولاً وعدم السماح لعقله أن يخترع سفسطات جديدة. لكنّه سيخطر لسيزيف في أقل الأيّام توقّعاً شيئاً، وسيعود ليصعد إلى الأرض، يختم أرشيمبولدي رسالته.

كانت الرواية التي أرسلها إلى بوبيس من إيكاريا تسمّى *العمياء*. تماماً كما يمكن أن نتوقّع، كانت هذه الرواية تدور حول امرأة عمياء،

لا تعرف أنّها عمياء، وحول بعض رجال التحرّي المُبصرين الذين لا يعرفون أنّهم مبصرون. لم تتأخر كتبُ أخرى في الوصول من الجزر إلى هامبورغ. *البحر الأسود*، مسرحية، أو رواية مكتوبة بطريقة مسرحية، يتحاور فيها البحرُ الأسودُ، قبل ساعة من الفجر، مع المحيط الأطلسي. *ليتيا*، روايته الجنسية بشكل أكثر صراحة، ينقل فيها قصّة ليتيا إلى ألمانيا الرايخ الثالث، التي كانت تعتقد أنّها أجمل من الإلهات، وتحوّلت أخيراً مع زوجها إولينو إلى تمثال حجريّ (أُخِذَ على هذه الرواية أنّها خلاعية وتحوّلت بعد أن كسبت دعوى قضائيّة إلى أوّل كتاب لِأرشيمبولدي تنفق منه خمس طبعات). *بائع اليانصيب*، حياة قعيد ألماني يبيع اليانصيب في نيويورك، *والأب*، يُحيي فيها ابنٌ نشاطاتِ والده كمريض نفسيّ قاتل، هذه النشاطات التي تبدأ في ١٩٣٨ وتنتهي في ١٩٤٨ بشكل هو بكل الاعتبارات غامض.

عاش في إيكاريا بعض الوقت. ثمّ عاش في أمارغوس. ثمّ في سانتورين، ثمّ في سيفنوس، في سيروس وفي ميكونوس. ثمّ عاش في جزيرة صغيرة جدّاً، يُسميها هيكاتومب (الكارثة) أو سوبِرإغو (الأنا الأعلى)، بالقرب من جزيرة ناكسوس، لكنّه لم يعِش في ناكسوس أبداً. رحل بعدها عن الجزر وعاد إلى القارّة. كان يأكلُ في تلك المرحلة عنباً وزيتوناً، حبات زيتون كبيرة جافّة كان طعمها وقوامها شبيهين بحثالة الزيت. كان يأكل جبناً أبيض وجبنَ ماعز معتّقاً كانوا يبيعونه ملفوفاً بورق العنب ويمكن لرائحته أن تنتشر في دائرة قطرها ثلاثمئة متر. كان يأكل خبزاً أسود قاسياً جدّاً عليه أن يُطرّيه بالنبيذ. يأكل سمكاً وبندورة. يأكل تيناً. يشرب ماءً. يُخرج الماءَ من بئر. كان عنده دلو وبيدون مثل تلك التي تُستَخدَم في الجيش، يملؤه بالماء. كان يسبح، لكن طفل الأُشُن سبق ومات. ومع ذلك كان يسبح جيّداً. يغطسُ. وأحياناً أخرى يبقى وحده، جالساً على سفوح تلال النباتات

القصيرة، حتى يحلّ الليلُ أو حتى يطلع الفجر، كان يقول إنّه يُفكّر، لكنّه في الحقيقة لم يكن يُفكّر بشيء.

علم ما إن بدأ يعيش في القارّة وهو يقرأ صحيفة ألمانية في شرفة ميسولونغي، بموت بوبيس.

كان تاناتوس قد وصل إلى هامبورغ، المدينة التي كان يعرفها بكلّ تفاصيلها، بينما كان بوبيس في مكتبه يقرأ كتاباً لشابٍّ من دريسدن، كتاباً شرساً بفكاهيته يجعله يرتجّ ضحكاً. كانت قهقهاته، بحسب رئيسة قسم الصحافة في الدار، تُسمع في قاعة الانتظار وفي مكتب الإداريين وأيضاً في مكتب المُنقّحين وفي قاعة الاجتماعات وغرفة القرّاء وفي الحمّام وفي الغرفة التي كانت تقوم بدور المطبخ ومحل الحلوى بل وكانت تصل إلى مكتب زوجة المعلّم، الذي كان أبعدها عنه.

فجأة انقطعت القهقهات. الجميع في دار النشر لسبب أو لآخر يتذكّرون الساعة، الحادية عشرة وخمس وعشرين دقيقة. بعد برهة طرقت السكرتيرة بابَ مكتب بوبيس. لم يجبها أحد. لم تُلحّ خوفاً من إزعاجه. حاولت بعدها أن تُمرِّر إليه مكالمة هاتفية. لم يرفع أحدٌ السماعة في مكتب بوبيس. كانت المكالمة هذه المرّة مستعجلة ففتحت السكرتيرة البابَ بعد أن طرقته عدّة مراتٍ. كان بوبيس منكبّاً على وجهه بين كتبه المبعثرة فنّياً على الأرض وكان ميتاً، بالرغم من أنّ وجه كان يعطي انطباعاً بأنّه سعيد.

أحرق جثمانه ونثر في مياه نهر ألستر. قامت أرملته، البارونة على رأس دار النشر وأعلنت عن عدم رغبتها المطلقة بعرض الدار للبيع. لم يُقل شيء عن مخطوط مؤلّف درسدن الشاب، الذي كان قد تعرّض لمشاكل مع الرقابة في الجمهورية الديمقراطية.

حين انتهى أرشيمبولدي من قراءة الخبر، عاد وقرأه مرّةً أخرى ثمّ

عاد وقرأه مرّة ثالثة، نهض بعدها مرتجفاً وراح يمشي في ميسولونغي، المليء بذكريات بايرون، كما لو أنّ بايرون لم يفعل شيئاً آخر في ميسولونغي غير المضيّ من جانب إلى آخر، من نزلٍ إلى حانة، من زقاق إلى ساحة صغيرة، في الوقت الذي يُعرف فيه جيّداً أنّ الحرارة لم تكن تسمح له بأن يتحرّك وأنّ الذي مشى ورأى وعرف كان تاناتو، الذي بالإضافة إلى أنّه جاء يبحث عن بايرون عمل سياحةً، فتاناتو هو أعظم سائح على وجه الأرض.

فكّر أرشيمبولدي بعد ذلك فيما إذا كان من المناسب أن يُرسل بطاقة تعزية إلى دار النشر. لكنّه بدا له بعدها أنّه لم يكن لذلك أيّ معنى، فلم يكتب ولم يرسل شيئاً.

بعد عام من موت بوبيس، حين عاد أرشيمبولدي ليعيش في إيطاليا وصل إلى دار النشر مخطوط روايته الأخيرة التي تحمل عنوان *العودة*. لم تبغِ البارونة فون زومبِ أن تقرأها. أعطتها للمنقِّحة وطلبت منها أن تُعِدَّها للنشر بعد ثلاثة أشهر.

أرسلت بعدها برقية إلى المرسِل الذي كان عنوانه على المغلّف الذي احتوى على المخطوط، واستقلّت طائرة في اليوم التالي متجهة إلى ميلان. ذهبت من المطار إلى محطّة القطارات في الوقت الدقيق كي تأخذ قطاراً إلى البندقيّة. في المساء التقت بِأرشيمبولدي في مطعم في كاناريجيو، وسلّمته شيكاً بسلفةِ آخرِ روايةٍ وبحقوقِ المؤلّف عن كتبه القديمة.

كان المبلغ معتبراً، لكنّ أرشيمبولدي خبّأ الشيك في جيبٍ ولم يقل شيئاً. راحا بعدها يتكلّمان. أكلا سردِيناً على طريقة أهل البندقّة مع شرائح خبزِ سميدٍ قاس وشربا نبيذاً أبيض. نهضا وسارا في بندقيةٍ مختلفة عن بندقيةِ الشتاء والثلجِ التي تمتّعا بها في آخر لقاء بينهما. اعترفت له البارونة أنّها منذ ذلك الوقت لم تعد إليها.

- أنا وصلت منذ وقت ليس طويلاً -قال أرشيمبولدي.

بدوَا صديقين قديمين ليسا بحاجة لأنّ يتكلّما كثيراً. الخريف، اللطيف، الذي بدأ توّاً لم يكن بحاجة لغير كنزة خفيفةٍ للوقاية من البرد. أرادت البارونة أن تعرف ما إذا كان ما يزال يعيشُ في كاناريجيو. هو كذلك، أجاب أرشيمبولدي، لكن لم يعد في شارع تورلونا.

كان بين خططه الرحيل إلى الجنوب.

كان بيتُ أرشيمبولدي وممتلكاته الوحيدة لسنواتٍ طويلةً هو الحقيبة التي كانت تحتوي على ثياب وخمسمئة ورقة بيضاء والكتابين أو الثلاثة التي كان يقرؤها والآلة الكاتبة التي أهداها إليه بوبيس. كان يحمل الحقيبة باليد اليمنى ويحمل الآلة الكاتبة باليد اليسرى وحين كانت تَقْدُمُ ثيابُهُ قليلاً كان يرميها. حين كان ينتهي من قراءة كتابٍ يهديه أو يتركه على أي طاولة. بقي زمناً طويلاً يرفض أن يشتري حاسوباً. كان يقترب أحياناً من المحلات التي تبيع حواسيب ويسألُ الباعةَ كيف كانت تعمل. لكنّه كان دائماً يتراجع في اللحظة الأخيرة مثل فلاّحٍ حريص على مدخراته. إلى أن ظهرت الحواسيب المحمولة. عندها بلى اشترى واحداً وصار يستخدمه بعد زمن قصير بمهارة. وحين أُضيف إلى الحواسيب المحمولة مودِم بدّل أرشيمبولدي حاسوبه القديم بآخر جديد وصار يمضي ساعات متصلاً بالإنترنيت، يبحث عن أخبار غريبة، عن أسماء ما عاد أحد يتذكّرها، أحداثٍ منسيّةٍ. ماذا فعل بالآلة الكاتبة التي أهداه إليه بوبيس؟ اقترب من أحد الجروف ورمى بها بين الصخور.

وذات يوم بينما كان يُبحر في الإنترنيت، عثر على خبر متعلّق بشخص يُدعى هِرمس بوبِسكو، الذي لم يتأخّر في معرفة أنّه سكرتير إنترِسكو، الذي صادف أن رأى جثّته مصلوبة في عام ١٩٤٤، حين كان

الجيش الألمانيّ يتخبّط في الانسحاب من الجبهة الرومانية. عثر في موقع أمريكيّ شماليّ على سيرته. كان بوبِسكو قد هاجر بعد الحرب إلى فرنسا. تردّدَ في باريس على دوائر المهاجرين الرومانيين. وبالأخصّ على دوائر المثقفين، الذين كانوا لسببٍ أو لآخر يعيشون على الضفّة اليسرى للسين. شيئاً فشيئاً راح بوبِسكو ينتبه إلى أنّ كلّ ذلك كان، بحسب كلماته ذاتها، عبثاً. كان الرومانيون معادين من أعماقهم للشيوعية ويكتبون بالرومانية وكانت حياتهم مرهونة بفشلٍ مُخفّف ببعض أشعة نورِ أمل ذات طبيعة دينية أو جنسيّة.

لم يتأخّر بوبِسكو في العثور على حلٍّ عمليّ. بواسطة حركات ماهرة (حركات يسودها اللامعقول) دخل في صفقات وسخة تختلط فيها الجريمة مع التجسّس مع الكنيسة وإجازات العمل. جاءه المال، المال ملء يديه. لكنّه بقي يعمل. كان يستخدم عصابات رومانية في أوضاع مضطربة. ثمّ هنغاريين وتشيكيين. ثمّ مغاربة. كان يرتدي أحياناً معطفاً جلديّاً، مثل شبحٍ، ويذهب للقائهم في زرائبهم. كانت رائحة الزنوج يصيبه بالدوخة، لكنّها تعجبه. أولئك القوادون رجال حقيقيّون، كان يقول عادة. كان يأمل في قرارة نفسه أن يتشبّع معطفه، لفافة الساتان بتلك الرائحة. كان يبتسم مثل أب، وكان يبكي أحياناً. كان في تعامله مع المجرمين مختلفاً. الكبرياء كانت تُميّزه. ما من خاتم، ما من قلادة، لا شيء يلمع ولا أدنى أثر للذهب.

جمع مالاً، ثمّ جمع مزيداً من المال. كان المثقفون الرومانيون يذهبون لمقابلته كي يقرضهم مالاً، كان عندهم نفقات، حليب الأطفال، الإيجار، عملية ساد للسيدة. وكان بوبِسكو يُصغي إليهم كما لو أنّه نائم ويحلم. كان يعطي كلّ شيء، لكن بشرط، أن يكفّوا عن كتابة كراهياتهم بالرومانية وأن يفعلوا ذلك بالفرنسية. ذهب مرّة نقيب أبتر من الفرقة الخامسة من الجيش الروماني كان تحت أمرة إنترِسكو ليراه.

حين رآه بوبِسكو قفز، مثل طفل، من كرسيٍّ إلى كرسيّ. صعد على الطاولة ورقص رقصة فولكلورية من منطقة كارباتوس. تظاهر كما لو أنّه يبول في زاوية وأفلتت منه عدّة قطرات. لم ينقصه غير أن يتشقلب على السجادة! حاول النقيب الأبتر أن يُقلّده، لكنّ أعاقته الجسدية (كان ينقصه ساق وذراع) وضعفه (كان مصاباً بفقر الدم) منعاه من ذلك.

- آهٍ، على ليالي بودابست -قال بوبِسكو-. آه، على صباحات بيتشتي. آه، على سماوات كلوج المستعادة. آه، على مكاتب تورنو- سيفيرين الفارغة. آه، على حلاّبات باكاو. آه على أرامل كونستانزا.

ذهبا بعدها آخذين بذراعي بعضهما بعضاً إلى شقّة بوبِسكو، في شارع فيرونيل القريب جدّاً من المدرسة العليا للفنون التشكيلية، حيث تابعا الكلام والشراب وملك النقيب الفرصةَ كي يقدّم له موجزاً مفصّلاً عن حياته، البطولية، بلى، لكنّها المليئة بالنوائب. إلى أن قاطعه بوبِسكو مجفّفاً دمعة وسأله عمّا إذا كان هو أيضاً شاهداً على صلبِ إنترِسكو.

- كنتُ هناك -قال النقيب الأبتر-، كنّا هاربين من الدبابات الروسيّة، كنّا قد خسرنا كلّ مدفعيتنا، وتنقصنا الذخيرة.

- إذن كان هناك نقص بالذخيرة -قال بوبِسكو-، وكنتَ هناك؟

- كنتُ هناك -قال النقيب الأبتر-، وكنّا نقاتل على أرض الوطن المقدّسة، على رأس عدد قليل من رثّي الثياب، حين تقلّص الفيلق الرابع إلى حجم فرقة ولم يكن هناك إدارة إمداد وتموين، ولا كشّافة ولا أطباء ولا ممرضات ولا أيّ شيء يذكّر بحرب متحضّرة، فقط رجال متعبون وفرقة من الجنود المجانين راحت تزداد يوماً بعد يوم.

- هكذا إذن فرقة من المجانين -قال بوبِسكو-، وكنتَ هناك؟

- هناك بالذات -قال النقيب الأبتر-، وجميعنا نتبع جنرالنا

إنترِسكو، جميعنا كنّا ننتظر فكرةً، خطاباً، جبلاً، مغارة متوهّجة، برقاً في سماء زرقاء بلا غيوم، برقاً مرتجلاً، كلمة مواساة.

- هكذا إذن كلمة مواسية -قال بوبِسكو-، وكنتَ هناك تنتظر تلك الكلمة المواسية؟

- مثل ماء أيّار -قال النقيب الأبتر-، كنتُ أنتظر والمقدَّمون ينتظرون والجنرالات الذين كانوا ما يزالون معنا ينتظرون والملازمون المُرُدُ ينتظرون، والمجانين أيضاً، الذين كانوا سينشقّون بعد نصف ساعة والذين كانوا يذهبون جارّين بنادقهم على الأرض الجافّة، الذين كانوا يذهبون دون أن يعرفوا ما إذا كانوا في طريقهم إلى الغرب أم إلى الشرق، إلى الشمال أم إلى الجنوب، والذين بقوا يكتبون قصائدَ ستُعرف بعد موتهم برومانيةٍ جيّدة، رسائل إلى الأمهات، بطاقات مبلّلة بالدموع للخطيبات اللواتي لن يرونهنّ أبداً.

- هكذا إذن رسائل وبطاقات، بطاقات ورسائل -قال بوبِسكو-، وأيضاً أصابك الشريان الشعري الغنائي؟

- لا، أنا لم يكن معي ورقة ولا قلم -قال النقيب الأبتر-، كان عليّ واجبات، كان عندي رجال تحت إمرتي، وكان عليَّ أن أفعل شيئاً، وإن لم أكن أعرف جيّداً ماذا أفعل. الفيلق الرابع من الجيش كان قد توقّف عند أحد البيوت الريفية، وأكثر من بيت كان قصراً. كان عليّ أن أتدبّر أمر الجنود السليمين في الإسطبلات والجنود المرضى في زرائب الخيول. في الأهراءات تدبّرت المجانين واتخذت الإجراءات المناسبة كي أُضرِمَ النار فيها في حال أنّ المجانين تخطّوا حدود الجنون ذاته. كان عليّ أن أتكلّم مع قائدي الكولونيل وأعلمه بأنه لم يكن يوجد في ذلك العقار الريفي أيّ غذاء. وكان على قائدي الكولونيل أن يتكلّم مع جنرالي وجنرالي، الذي كان مريضاً، كان عليه أن يصعد الدرج إلى الطابق الثاني من القصر كي يُعلم الجنرال إنترِسكو بأنّ الوضع لم يعد يُحتمل، وأن رائحة التعفّن بدأت تفوح وأنّ من الأفضل لنا أن نُفكّك

المعسكر ونتوجّه إلى الغرب بخطى حثيثة. لكنَّ جنرالي إنترِسكو كان يفتح أحياناً الباب وأحياناً أخرى لا يردّ.

- هكذا إذن كان يردّ أحياناً وأحياناً لا يردّ -قال بوبِسكو-، وهل كان هو شاهداً عياناً على كلّ هذا؟

- أكثر من عيان كنت شاهداً سماعاً -قال النقيب الأبتر-، كنتُ أنا وبقيّة الضباط الذين تبقوا من الفرق الثلاثة من الجيش الرابع، مصعوقين، مندهشين، مرتبكين بعضنا كان يبكي وآخرون يأكلون مخاطهم، وآخرون يتحسرون عن المصير القاسي لرومانيا، التي كان يجب أن تكون نظراً لتضحياتها وخصائصها منارة العالم، وآخرون يقضمون أظافرهم، جميعهم خامدو الهمّة، إلى أن حدث أخيراً ما كان يتكهن به. أنا لم أره. المجانين فاقوا العقلاء عدداً. خرجوا من الأهراءات؛ بعضهم ضباط صفّ، راحوا يعملون صليباً. كان جنرالي إنترِسكو قد ذهب يتكئ على عكّاز، يرافقه ثمانية رجال وشرع مع بزوغ الفجر بالرحيل نحو الشمال، دون أن يقول لأحدٍ كلمة واحدةً. أنا لم أكن في القصر حين حدث كلّ ذلك. كنت في المحيط مع بعض الجنود نُحضّر بعض الدفاعات التي لم تستخدّم قط. أتذكّر أنّنا كنّا نحفر خنادق وعثرنا على عظام. أبقار مريضة، قال أحد الجنود. هي أجساد بشرية، قال آخر. هي عجول مذبوحة، قال الأوّل. لا، هي عظام أجساد بشرية. تابِعوا الحفرَ، قلتُ، أنسوها، تابِعوا الحفرَ. لكن أنّى كنّا نحفر كانت تظهر عِظام. ما الخراء الذي يحدث، زمجرتُ. ما أغربَ هذه من أرض، علّقت صارخاً. توقّف الجنود عن حفر الخنادق في محيط القصر. سمعنا جلبة، لكنّنا كنّا بلا قوّة كي نذهب لنرى ما كان يحدث. قال أحد الجنود ربّما عثر رفاقنا على طعام ويحتفلون به. أو على نبيذ. كان نبيذاً. كان القبو قد فُرّغ وكان هناك ما يكفي للجميع. بعدها وبينما أنا جالس بجانب أحد الخنادق أتفحّص جمجمة رأيتُ الصليب. كان صليباً هائلاً تسير به مجموعة من المجانين في فناء القصر. حين عدنا

بخبر أنّه لا يمكن حفر خنادق لأنّ المكان كان يبدو مقبرة، أو ربّما هو مقبرة . كان كلّ شيء نافداً .

- هكذا إذن كان كلّ شيء نافداً -قال بوبِسكو-، ورأيت جسم الجنرال على الصليب؟

- رأيته -قال النقيب الأبتر-، جميعنا رأيناه، بعدها راح الجميع يرحلون من هناك، كما لو أنّ الجنرال سوف يُبعث بين لحظة وأخرى ويُقبّحهم على موقفهم. قبل أن أغادر وصلت دورية من ألمان كانوا هاربين بدورهم. قالوا لنا إنّ الروس على بعد ضيعتين فقط وإنّهم لا يأسرون. ذهب بعدها الألمان وبعدها بقليل تابعنا نحن أيضاً طريقنا.

لم يقُلْ بوبِسكو هذه المرّة شيئاً.

لزم الاثنان الصمتَ برهةً، ذهب بعدها بوبِسكو إلى المطبخ وحضّر شريحة لحم للنقيب الأبتر، سائلاً إيّاه من المطبخ كيف كان يُفضّل اللحم، قليلة أم كثيرة الشواء.

- متوسط -قال النقيب الأبتر الذي بقي غارقاً في ذكريات ذلك اليوم المنحوس.

قدّم له بوبِسكو بعدها شريحة لحم كبيرة مع بعض الصلصة الحارّة وعرض عليه أن يقطع له اللحم إلى قطع صغيرة، الأمر الذي شكره عليه النقيب الأبتر تعلوه سيماء الغياب. لم يقل أحد منهما شيئاً خلال الطعام. انسحب بوبِسكو لثوان، فقد قال إنّ عليه أن يقوم باتصال هاتفيّ، وحين عاد كان النقيب الأبتر يمضغ آخر قطعة من الشريحة. ابتسم بوبِسكو راضياً. رفع النقيبُ يده إلى جبينه، كما لو أنّه كان يريد أن يتذكّر شيئاً أو أنّ شيئاً كان يؤلمه.

- تَجَشّأْ، تجشّأ إذا كان جسدك يتطلّب ذلك، يا صديقي الطيّب - قال بوبِسكو.

تجشّأ النقيب الأبتر .

- منذ متى لم تأكل شريحة مثل هذه، هه؟ -قال بوبِسكو.

- منذ سنوات - قال النقيب الأبتر.

- وكانت لذيذة؟

- بالتأكيد - قال النقيب الأبتر -، وإن كان الكلام عن جنرالي إنترِسكو كان كما لو أنّني فتحت باباً مغلقاً منذ زمن طويل.

- روّح عن نفسك - قال بوبِسكو -، أنت بين أبناء وطنك.

أفزع استخدام صيغةِ الجمع النقيبَ الأبتر وجعلته ينظر نحو الباب، لكن كان واضحاً أنّه لم يكن في الغرفة أحد غيرهما.

- سوف أضع أسطوانة - قال بوبِسكو -، هل يبدو لك جيداً أن أضع شيئاً لِغلوك[1]؟

- لا أعرف هذا الموسيقيّ - قال النقيب الأبتر.

- شيئاً لباخ؟

- بلى، أحبّ باخ - قال النقيب الأبترُ مسدلاً أجفانه قليلاً.

حين عاد بوبِسكو إلى جانبه صبّ له قدح كونياك نابليون.

- هل هناك من شيء يُقلقك، أيّها النقيب، من شيء يُزعجك، هل ترغب بأن تحكي لي قصّة، هل أستطيع أن أساعدك في شيء؟

شقّ النقيب شفتيه، لكنه أغلقهما بعد ذلك ونفى بحركة من رأسه.

- لستُ بحاجة لشيء.

- لا شيء، أبداً، أبَداً - كرّر بوبِسكو متمدِّداً في كرسيّه الكبير.

- العظام، العظامُ - تمتم النقيب الأبتر -، لماذا جعلنا الجنرال إنترِسكو نتوقّف في قصر، كان محيطه موبوءاً بالعظام؟

صمت.

- ربّما لأنّه كان يعرف أنّه سوف يموت وأراد أن يفعل ذلك في بيته - قال بوبِسكو.

- أنى كنّا نحفر كنّا نجد عظاماً - قال النقيب الأبتر -. محيط

---

(١) هو كريستوف فيليبالد غلوك، موسيقي ألماني (١٧١٤-١٧٨٧).

القصر كان يطفح بالعظام البشرية. لم يكن هناك طريقة لحفر خندق دون العثور على عظام يد، ذراعٍ، جمجمة. أيّ أرض كانت تلك؟ ماذا كان قد حدث هناك. ولماذا كان صليب المجانين، مرئياً من هناك، يرفرف مثل علم؟

- تأثير بصريّ، دون شكّ -قال بوبِسكو.

- لا أعرف -قال النقيب الأبترُ- إنّني مُتعب.

- بالفعل إنّك متعب جدّاً، أيّها النقيب، أغمض عينيك -قال بوبِسكو، لكنّ النقيب كان قد أغمض عينيه قبل برهة طويلة.

- أنا متعب -كرَّر.

- أنت بين أصدقاء -قال بوبِسكو.

- كان طريقاً طويلاً.

هزّ بوبِسكو رأسه مؤكّداً بصمت.

فُتحَ البابُ وظهر هنغاريان. لم يُكلّف بوبِسكو خاطره بالنظر إليهما. بثلاث أصابع، الإبهام والسبابة والوسطى، قريبة جدّاً من الفم والأنف، كان يُتابع إيقاع باخ. بقي الهنغاريان ساكنين يريان المشهد وينتظران إشارة. نام النقيب. حين انتهت الاسطوانة نهض بوبِسكو واقترب على رؤوس أصابعه من النقيب.

- يا ابن التركيّ والعاهرة -قال بالرومانية وإن كان بنبرة لم تكن عنيفة بل انعكاسية.

وبإيماءة أشار للهنغاريين أن يقتربا. كلٌّ من جانب، رفعا النقيب الأبتر وجراه حتى الباب. راح النقيب يشخر بقوّة أكبر وانفصلت رجله الصناعية على السجادة. تركه الهنغاريان يسقط على الأرض وانهمكا عبثاً في تركيبها من جديد.

- يا لكما من أخرقين -قال بوبِسكو-، اتركوني أفعل ذلك.

في دقيقة، كما لو أنّه لم يفعل في حياته كلّها شيئاً آخر، وضع الرجلَ في مكانها، تفحّص بعدها متشجّعاً ذراعه الصناعية.

حاولا ألا يفقد شيئاً في الطريق -قال.
- لا تهتمّ، يا معلّم -قال واحد من الهنغاريين.
- هل نأخذه إلى المكان المعتاد؟
- لا -قال بوبِسكو-، هذا من الأفضل أن يُرمى في السين. وتأكّدوا من أنّه لا يخرج!
- هذا منجز، يا مُعلّم -قال الهنغاري الذي سبق وتكلّم.
فتح النقيب الأبتر في تلك اللحظة عينه اليمنى وقال بصوت مبحوح:
- العظام، الصليب، العظام.
- أغلق له الهنغاريّ الآخر الجفن بنعومة.
- لا تهتمّا -ضحك بوبِسكو-، إنّه نائم.

بعد سنوات كثيرة حين صارت ثروته أكثر من مُعتَبَرَة، عشق بوبِسكو ممثلة من أمريكا الوسطى، تُدعى أسونسيون ريِّس، امرأة ذات جمال خارق، تزوّج منها.

مسيرة أسونسيون ريِّس في السينما الأوروبية (الفرنسية منها كما الإيطالية والإسبانية) كانت قصيرة، لكنّ الحفلات التي أقامتها والتي حضرتها كانت بكلمة واحدة لا تُحصى. وذات يوم طلبت منه أسونسيون ريِّس، بما أنّه كان يملك مالاً كثيراً أن يعمل شيئاً من أجل البلد. في البداية ظنّ بوبِسكو أنّها تقصد رومانيا، لكنّه انتبه بعدها إلى أنّها كانت تتكلّم عن هندوراس. وهكذا سافر في أعياد ميلاد ذلك العام مع زوجته إلى تِغوثيغالبا، المدينة التي بدا لِبوبِسكو، المعجب بالشجاعة وبالتضاد، أنّها مقسّمة إلى ثلاث مجموعات أو بطون مختلفة تماماً فيما بينها: الهنود والمرضى، الذين كانوا يشكلون غالبية السكان والمسمون هكذا بيضاً، في الحقيقة خلاسيون، كانوا الأقلية التي تمسك بزمام السلطة.

جميعهم ناس ظرفاء وفاسدون، متأثرون بالحرّ وبالغذاء، ناس يميلون إلى الكابوس.

كان هناك إمكانيات للاستثمار، انتبه إلى هذا على الفور، لكنّ طبيعة الهندوراسيين، بما فيهم المتعلّمون في هارفارد، كانوا يميلون إلى السرقة، وإن أمكن إلى السرقة العنيفة، لذلك حاول أن ينسى فكرته الأوّلية. لكنّ أسونسيون ريِّس أصرّت إلى حدّ أنّه في رحلة أعياد الميلاد الثانية التي قام بها تواصل مع السلطات الكنسية في البلد، الوحيدة التي كان يثق بها. ما إن وُقِّعَ العقدُ وتكلّم مع عدد من أساقفة تيغوثيغالبا ورئيس أساقفتها، حتى راح بوبِسكو يُفكّر في أيّ فرع من الاقتصاد سوف يستثمر رأس المال. الشيء الوحيد الذي كان يعمل هناك ويدرُّ أرباحاً كان في أيدي الأمريكيين الشماليين. ومع ذلك خطرت لأسونسيون رِيِّس ذات مساء خلال سهرة مع الرئيس ومع زوجة الرئيس فكرة عبقرية. خطر لها ببساطة أنّه سيكون شيئاً جميلاً أن تملك تيغوثيغالبا مترو مثل مترو باريس. بوبِسكو الذي لم يكن يخيفه شيء وكان قادراً على أن يرى الفوائد في أغرب الأفكار، نظر إلى رئيس هندوراس في عينيه وقال له إنّه يستطيع هو أن يبنيه. تحمّس الجميع للمشروع. بدأ بوبِسكو العمل وكسب أموالاً. أيضاً كسب الرئيس وبعض الوزراء وأمناء السكرتاريات أموالاً. أيضاً الكنيسة نالت حصّتها اقتصادياً. تمّ تدشين معامل إسمنت، وقّعت عقود مع شركات فرنسية وأمريكية شمالية. وقع بعض القتلى واختفى بعض آخر. استمرّت الاستهلالات أكثر من خمسة عشر عاماً. لقد عثر بوبِسكو مع أسونسيون رِيِّس على السعادة، لكنّه خسرها بعد ذلك وتطلّقا. نُسِيَ مترو تيغوثيغالبا. فاجأه الموت في مشفى في باريس وهو نائم على فراش من ورد.

لم يُقم أرشيمبولدي علاقة مع كتّاب ألمان تقريباً، لأسباب من بينها أنّ الفنادق التي كان ينزل فيها الكتّاب الألمان حين كانوا يخرجون

من البلد لم تكن الفنادق التي كان يتردّد عليها هو. تعرّف، هذا صحيح، على كاتب فرنسيّ رفيع، كاتب أكبر سنّاً منه، أمّنت له دراساته الأدبية شهرة واعترافاً، حدّثه عن بيت كان يلجأ إليه كلّ كتّاب أوروبا المختفين. هذا الكاتب الفرنسي أيضاً كان كاتباً قد اختفى، لذلك كان يعرف عمّا يتكلّم، ولذلك قبل أرشيمبولدي أن يزور البيت.

وصلا ليلاً، في سيارة أجرة مفكّكة يقودها سائق كان يتكلّم مع نفسه. كان السائق يُكرّر نفسه، يقول فظائع، ويعود ليكرّرها وكان يغضب من نفسه، إلى أن نفد صبر أرشيمبولدي وقال له أن يُركّز على قيادة السيارة ويسكت. رمى كاتبُ الدراسات العجوز، الذي لم يبدُ أن مونولوج السائق كان يزعجه، أرشيمبولدي بنظرة عتاب خفيفة، كما لو أنّ هذا أهان السائقَ، الوحيدَ، بالمناسبة الموجود في البلدة.

البيت الذي كان يعيش فيه الكتّاب المختفون كان محاطاً بحديقة هائلة مليئة بالأشجار والأزهار وفيها مسبح محاط بالطاولات الحديدية المدهونة بالأبيض وبالشماسي وبأسرة الاستلقاء. في الجزء الخلفيّ وتحت ظلال أشجار سنديان مئوية، كان هناك فضاء للعب بالكرة الخشبيّة، ووراءه كانت تبدأ الغابة. حين وصلا كان الكتّاب المختفون في المطعم، يتناولون العشاء وينظرون إلى التلفاز، الذي كان يبثّ الأخبار. كانوا كثيرين ومعظمهم فرنسيون، الأمر الذي فاجأ أرشيمبولدي، الذي لم يكن ليتصوّر أنه يوجد في فرنسا كلّ ذلك العدد من الكتاب المختفين. لكن أكثر ما لفت انتباهه هو عدد النساء. كان هناك الكثيرات، وجميعهن متقدّمات في السن. بعضهنّ معتنيات بلباسهنّ وأنيقات، وأخريات في حالة هجران واضحة، هنّ بالتأكيد شاعرات، فكّر أرشيمبولدي، يرتدين أردية متسخة وأخفافاً وجواربَ حتى الركبتين، دون مكياج، والشعر الأبيض كأنّه مقدّد أحياناً في قبعات صوفية لا شكّ أنّهنّ حكنها بأنفسهنّ.

كان يقوم على خدمة الطاولات نظرياً خادمان يرتديان الأبيض،

بالرغم من أنّ المطعم كان يعمل كبوفيه مفتوح، ويحمل كلّ كاتب معه صينيّة ويصبّ لنفسه ما يشتهي. ما رأيك بجمعيتنا الصغيرة؟ سأله كاتب الدراسات وهو يضحك بصوت خافت، ذلك أنّ أحد الكتّاب كان قد سقط مغميّاً عليه ومصعوقاً بنوبة ما، وراح الخادمان يجهدان في إعادته للوعي. أجاب أرشيمبولدي بأنّه ما زال من المبكّر تكوين فكرة. فتّشا بعدها عن طاولة فارغة وملأ صحنيهما بشيء يبدو مسحوق بطاطا وسبانخ، رافقاه ببيض مسلوق وقطعة لحم مشويّ على الصاج. وللشراب صبّا لنفسهما قدحين من نبيذ المنطقة، نبيذ كثيف وله طعم التراب.

في عمق المطعم وبجانب الكاتب المغشي عليه، يوجد الآن رجلان شابان، يرتديان الأبيض، إضافة إلى الخادمين وإلى حلقة من خمسة كتّاب مختفين يتأمّلون إنعاش رفيقهم. قاد كاتبُ الدراسات بعد أن أكل، أرشيمبولدي إلى الاستقبال كي يثبت وجوده في البيت، لكن وبما أنّه لم يكن هناك من يستقبلهم ذهبا إلى قاعة التلفاز، حيث كان يغفو عدد من الكتّاب المختفين أمام مذيع كان يتكلّم عن الموضة والتعقيدات العاطفية بين ناس مشهورين من عالم السينما والتلفزيون الفرنسي، الذين سمع أرشيمبولدي بالكثيرين منهم لأوّل مرّة. أراه كاتب الدراسات بعدها غرفته، الغرفة الفقيرة، فيها سرير صغير، طاولة، كرسيّ وتلفاز، خزانة، برّاد صغير الحجم وغرفة حمّام فيها مرذاذ استحمام.

كانت النافذةُ تُطلّ على الحديقة، التي كانت ما تزال مضاءة. رائحة أزهار وعشب مبلّل دخلت إلى الغرفة. سمع في البعيد نباح كلبٍ. كاتب الدراسات الذي بقي دون أن يعبر العتبة بينما أرشيمبولدي يفحص الغرفة، سلّمه مفاتيحها، مؤكّداً إنّه إذا لم يجد السعادةَ التي لم يكن يؤمن بها، فإنّه سيجد بالفعل السلام والسكينة. نزل بعدها أرشيمبولدي معه إلى غرفته، التي كانت في الطابق الأوّل وتبدو نسخة

طبق الأصل عن الغرفة التي خصّصت له، ليس بسبب الأثاث والأبعاد بقدر ما بسبب العريّ. أي شخص يراها، فكّر أرشيمبولدي، سيقول إنّه وصل أيضاً لتوّه. لم يكن هناك كتب، لم يكن هناك ملابس مرميّة، لم يكن هناك قمامة ولا أشياء خاصّة، لم يكن فيها أيّ شيء يُميّزها عن غرفته، باستثناء تفاحة في صحن أبيض فوق منضدة السرير.

نظر كاتبُ الدراسات إلى عينيه كما لو أنّه يقرأ أفكاره. كانت نظرة حيرة. يعرف ما كان أُفكِّرُ به وهو الآن يُفكِّر بالشيء ذاته ولا يتمكّن من فهمه، بالطريقة ذاتها التي لا أفهمه فيها، فكّر أرشيمبولدي. في الحقيقة كانت نظرتهما نظرة حزن أكثر مما هي نظرة حيرة. لكنّ التفاحة موجودة في الطبق الأبيض، فكّر أرشيمبولدي.

- هذه التفاحة تفوح رائحتها ليلاً -قال كاتب الدراسات-. حين أُطفئ النور. تفوح رائحتها مثل قصيدة أحرف العلّة. لكنّ كلّ شيء يغوص، أخيراً -قال كاتب الدراسات-. يغوص في الألم. كلّ الفصاحة هي من الألم.

أفهم ذلك، قال أرشيمبولدي، مع أنّه لم يفهم شيئاً. بعدها شدّ كلّ منهما على يد الآخر، وأغلق كاتب الدراسات الباب. وبما أنّه لم يكن نعساً بعدُ (كان أرشيمبولدي ينام قليلاً، وإن كان باستطاعته أن ينام أحياناً ستّ عشرة ساعة متواصلة) فقد ذهب ليتمشّى في مختلف أقسام البيت.

في قاعة التلفاز لم يكن قد بقي غير ثلاثة كتّاب مختفين، الثلاثة كانوا نائمين بعمق والرجل في التلفزيون، الذي كانوا سيقتلونه سريعاً. بقي أرشيمبولدي برهةً يُشاهد الفيلم، لكنّه ملّ بعدها وذهب إلى المطعم، المقفر، جاب بعدها عدّة ممراتٍ إلى أن وصل إلى نوعٍ من الصالة الرياضية، أو التدليك، حيث كان هناك شخص شاب بقميص أبيض وبنطلون أبيض يرفع أثقالاً بينما هو يتكلّم مع عجوز في منامة،

كلاهما نظر إليه من طرف عينه حين رآه يظهر ثمّ تابعا كلامهما، كما لو أنّه غير موجود. كان رجل الأثقال يبدو من مستخدمي البيت وعجوز المنامة تعلوه ملامح روائيّ منسيّ تماماً، أكثر مما هو مفقود، نموذج الروائي الفرنسيّ السيّئ، أو سيّئ الحظّ ربمّا كان مولوداً في غير ساعته.

عندما خرج من البيت عبر الباب الخلفيّ وجد عجوزين جالستين معاً على أريكة هزّازة في مدخل مُضاء. واحدة كانت تتكلّم بصوت صادح وعذب، مثل مياه جدول يجري في مجرى حجريّ. والأخرى تلتزم الصمت وتتأمل ظلمة الغابة التي كانت تمتدّ إلى ما وراء ملاعب الكرات الخشبية. بدت له تلك التي كانت تتكلّم شاعرة غنائيّة، مليئة بالأشياء التي تودّ أن تحكيها ولم تستطع أن تحكيها في قصائدها، والتي كانت تلتزم الصمت بدت له روائيّة مهمّة، سئمة من جملٍ بلا معنى ومن كلمات بلا مدلول. كانت الأولى ترتدي ثياباً لها مظهر شبابي إن لم يكن طفولياً. كانت الأخرى ترتدي دثاراً رخيصاً، وحذاءً رياضيّاً وبنطلونَ جينز.

ألقى عليهما تحية المساء بالفرنسية فنظرتا إليه وابتسمتا، كما لو أنّهما تدعوانه كي يجلس بجانبهما، ولم يحتج أرشيمبولدي لأنّ تتوسلا إليه.

- هل هي ليلتُك الأولى في بيتنا؟ -سألته العجوز المراهقة.

قالت العجوز الصموتة قبل أن يستطيع أن يُجيب إنّ الطقس يتحسّن، وإنّه قريباً سيكون عليهم أن يخرجوا بثياب خفيفة. قال أرشيمبولدي نعم. ضحكت العجوز المراهقة، ربّما وهي تُفكّر بخزانة ملابسها، سألته بعدها ماذا يعمل؟

- أنا روائيّ -قال أرشيمبولدي.

- لكنّك لستَ فرنسياً -قالت العجوز الصموتة.

- بالفعل، أنا ألماني.

- من بافاريا؟ -أرادت العجوز المراهقة أن تعرف-. كنتُ في

مناسبة معيّنة في بافاريا وسحرتني. كلّ شيء فيها رومانسيّ -قالت العجوز المراهقة.

- لا، أنا من الشمال -قال أرشيمبولدي.

تظاهرت العجوز المراهقة بقشعريرة.

- أيضاً كنتُ في هانوفر -قالت-، هل أنت من هناك؟

- تقريباً -قال أرشيمبولدي.

- عندكم طعام مستحيل -قالت العجوز المراهقة.

أراد أرشيمبولدي بعدها أن يعرف ماذا كانتا تعملان، فقالت له العجوز المراهقة إنّها كانت حلاّقة، في روديز، إلى أن تزوّجت وعندها لم يسمح لها زوجها والأولاد بأن تستمرّ في العمل. قالت الأخرى إنّها كانت خيّاطة، لكنّها تكره الكلام عن عملها. يا لهما من امرأتين غريبتين، فكّر أرشيمبولدي. حين ودّعهما دخل إلى الحديقة، مبتعداً في كلّ مرّة أكثر عن البيت، الذي بقي مضاءً جزئيّاً، كما لو أنّه ما يزال ينتظر وصول زائر آخر. وصل، دون أن يعرف ماذا يفعل، لكنّه يستمتع بالليل وبرائحة الريف، إلى باب المدخل، وهو بوّابة خشبية لم تكن تُغْلَقُ جيّداً وكان باستطاعة أيٍّ كان أن يفتحها. اكتشف بجانبها لافتة لم يرها حين وصل مع كاتب الدراسات. كانت اللافتة تقول بحروف داكنة وغير كبيرة جدّاً: *مصح مِرسيير، بيت الراحة-مركز الطب العصبي*. فهم دون مفاجأة أنّ كاتب الدراسات جاء به إلى مشفى مجانين. عاد بعد برهة إلى البيت وصعد الدرج حتى غرفته، حيث أخذ حقيبته وآلته الكاتبة. أراد أن يرى كاتب الدراسات قبل أن يُغادر. دخل إلى الغرفة بعد أن طرق الباب دون أن يردّ عليه أحد.

كان كاتب الدراسات غارقاً في نوم عميق وجميع الأضواء مُطفأة، وإن كان يتسرّب عبر النافذة المسدلة الستارة نور المدخل الأمامي. السرير بالكاد مخرّب، بدا سيجارةً مغطاة بمنديل. كم هو عجوز، فكّر أرشيمبولدي. غادر بعدها دون أن يُحدث ضجّة وحين عاد وعبر

الحديقة بدا له أنّه رأى شخصاً يرتدي الأبيض ينتقل بكلّ سرعة، ويختبئ خلف جذوع الأشجار، في جانب من المكان على حافّة الغابة.

فقط حين صار خارج المشفى، على الطريق العام خفّف خطوه وحاول أن يستعيد تنفّسه الطبيعي. كان الطريقُ الترابي يمرّ عبر غابات وتلال خفيفة الانحدار. من حين لآخر كانت تُحرّك هبّةُ ريحٍ أغصانَ الأشجار وتُخرّب له شعره. كانت الريح حارّة. عَبَرَ مرّةً واحدةً جسراً. حين وصل خارج البلدة راحت الكلاب تنبح. اكتشف بجانب المحطّة سيارة الأجرةَ التي أقلّته إلى المشفى. لم يكن السائق موجوداً، لكنّه حين مرّ بجانب السيّارة رأى في المقعد الخلفيّ كتلة تتحرّك، وتصرخُ من حين لآخر. كانت أبواب المحطّة مفتوحة، لكنّ نوافذ التذاكر لم تفتح للجمهور بعد. رأى ثلاثة مغاربة يجلسون على مقعد ويتكلّمون ويشربون نبيذاً. تبادلوا السلام بحركة من رؤوسهم، خرج بعدها أرشيمبولدي إلى أرصفة القطارات. كان هناك قطاران متوقّفان أمام بعض المستودعات. حين عاد ودخل إلى القاعة كان أحد المغاربة قد غادر. جلس على الطرف المقابل وانتظر أن تُفتح نوافذُ التذاكر. اشترى بعدها تذكرةً لأيّ مكان ورحل عن القرية.

كانت حياة أرشيمبولدي الجنسية تقتصر على التعامل مع عاهرات المدن المختلفة التي كان يعيش فيها. بعض العاهرات لم يكنّ يأخذن منه أجراً. كنّ يأخذن منه أجراً في البداية، لكن حين كانت تبدأ شخصية أرشيمبولدي تشكّل جزءاً من المشهد لا يعدن يأخذن منه، أو لا يأخذن منه دائماً، وهو ما كان يقود إلى سوء فهم كان يُحَلُّ بطريقة عنيفة.

خلال كلّ تلك السنوات، كان الشخص الوحيد الذي حافظ معه أرشيمبولدي على علاقة مستمرّة إلى هذا الحدّ أو ذاك كانت البارونة

فون زومبِ. كان التواصل يتمّ بشكل عام بالتراسل، وإن كانت البارونة تَظهر أحياناً في مدن وقرى يتوقّف فيها أرشيمبولدي ويقومان بمشاوير طويلة، آخذين بذراعي بعضهما بعضاً، كعشيقين سابقين لم يعد عندهما مُسَارّات كثيرة يتبادلانها. كان أرشيمبولدي يُرافق بعد ذلك البارونة إلى الفندق، هو الأفضل في المدينة أو البلدة التي يكونان فيها، ويودّع بعضهما بعضاً بقبلة على الخدّ، وبعناق إذا ما كان اليوم حزيناً بشكل خاص. كانت البارونة تُغادر في الساعة الأولى من اليوم التالي، قبل أن يستيقظَ أرشيمبولدي بكثير ويذهبَ ليبحث عنها في الفندق.

كانت الأمور في الرسائل مختلفةً. كانت البارونة تتكلّم عن الجنس الذي مارسته حتى سنٍّ متقدّمة جدّاً، عن عشّاق كانوا في كلّ مرّة أكثر إثارة للشفقة أو أكثر هشاشة، عن حفلات كانت عادةً ما تضحك فيها، كما كانت تضحك حين كانت في الثامنة عشرة من عمرها، عن أسماء لم يسمع أرشيمبولدي بذكرها قط، بالرغم من أنّها كانت، بحسب البارونة، أسماء شخصيات اللحظة في ألمانيا وأوروبا. طبعاً لم يكن أرشيمبولدي يُشاهِد التلفزيون ولا يسمع الإذاعة ولا يقرأ الصحف. علم بسقوط جدار برلين بفضل رسالة من البارونة التي كانت في تلك الليلة في برلين. كانت البارونة تطلب منه مذعنة للعاطفيّة أن يعودَ إلى ألمانيا. بودّي لو تعود إلى ألمانيا. كان يردّ عليها أرشيمبولدي قائلاً عدتُ. بودّي لو تعود نهائياً، كانت تردّ عليه البارونة. أن تبقى زمناً أطول، أنت الآن مشهور. ولا بأس أن تعقد مؤتمراً صحفياً. ربّما هذا كثير عليك. لكن على الأقل مقابلة حصرية مع إحدى الصحف الثقافية الرفيعة. فقط في أسوأ كوابيسي، كان يردّ عليها أرشيمبولدي.

كان يتكلّمان أحياناً عن القدّيسين، فالبارونة، مثل بعض النساء ذوات الحياة الجنسيّة الكثيفة، كان فيها خيط صوفيّ، بالرغم من أنّ هذا الخيط، البريء كفاية، كان يُحلّ جمالياً أو من خلال دافع هواية جمع اللوحات الثلاثية والمنحوتات القروسطيّة. كانا يتكلّمان عن

إدوارد المُعترف، المتوفّى عام ١٠٦٦، ويعطي خاتمه الملكي كصدقة للقديس يوحنا الإنجيلي بعينه، طبعاً يعيده هذا إليه بعد مرور السنين مع حاجٍّ عائدٍ من الأرض المقدّسة. كانوا يتكلّمون عن بيلاجيا أو بيلايا، الممثلة المسرحية الأنطاكية، التي في تعلّمها من السيّد المسيح تُغيّر اسمها عدّة مراتٍ وتمرّر نفسها كرجل وتتبنى شخصيات لا تُحصى، كما لو أنّها في ومضة صفاء أو جنون تُقرّر أنّ مسرحها هو كلّ البحر الأبيض المتوسّط وعملها الوحيد والشاق هو المسيحية.

مع مرور الزمن راح خطّ البارونة التي كانت تكتب بيدها دائماً يصبح مقلقلاً. كانت تصله منها أحياناً رسائل غير مفهومة؛ يستطيع أرشيمبولدي فقط أن يفكّ لغز بعض كلماتها. جوائز، تشريفات، تمايزات، ترشيحات لجوائز. جوائز مَنْ؟ جوائزه؟ جوائز البارونة؟ بالتأكيد جوائزه، فالبارونة كانت على طريقتها متواضعة إلى أقصى درجة. كذلك كان يستطيع فكّ لغز: عمل، طبعات، نور دار النشر، الذي كان نور هامبورغ، حين رحل الجميع ولم يبقَ سواها وسوى سكرتيرتها، التي كانت تُساعدها على هبوط الدرج حتى الشارع حيث تنتظرها سيّارة شبيهة بسيارة جنائزيّة. لكنّ البارونة كانت دائماً تتعافى وتصله منها بعد رسائل الاحتضار تلك بطاقاتٍ من جامايكا أو من إندونيسيا، تسأله فيها البارونة بخطّ أكثر رسوخاً عمّا إذا زار ذات مرّة أمريكا أو آسيا، علماً بأنّ أرشيمبولدي لم يغادر قط البحر المتوسّط.

كانت الرسائل تتباعد أحياناً فيما بينها. كان أرشيمبولدي إذا ما بدّل عنوانه، كما يحدث بكثرة، يُرسل إليها عنوانه الجديد. كان يستيقظ أحياناً في الليل ويُفكّر فجأة بالموت، لكنّه يتفادى ذكره في رسائله. على العكس من البارونة، ربّما لأنّها أكبر سنّاً منه، كثيراً ما كانت تتكلّم عن الموتى الذين عرفتهم، عن الموتى الذين أحبّتهم ولم يعودوا غير كومة من عظام أو رماد، عن الأطفال الموتى، الذين لم تعرفهم وكانت ترغب كثيراً في أن تعرفهم وتهدهدَ لهم وتربيهم. في لحظات

مثل هذه يستطيع المرء أن يتصوّر أنّها كانت تُجنُّ، لكنّ أرشيمبولدي كان يعرف أنّها كانت تُحافظ على توازنها وأنّها كانت نزيهة وصريحة. بالفعل نادراً ما نطقت البارونة بكذبة. كلّ شيء كان واضحاً منذ المرحلة التي كانت تذهب فيها إلى بيتِ أسرتها الريفي محدثة سحابة من الغبار على الطريق الترابي، برفقة أصدقائها، الشباب البرلينيين الذهبيّين، الجاهلين والمتكبّرين، الذين كان أرشيمبولدي يراهم من بعيد، من إحدى نوافذ البيت حين كانوا ينزلون من سياراتهم ضاحكين.

سألها في إحدى المرّات، بينما كان يتذكّر تلك الأيّام، عمّا إذا كانت قد عرفت شيئاً عن ابن عمّتها هوغو هالدِر. أجابته البارونة بالنفي، وأنّه لم يعرفوا شيئاً قط عن هوغو هالدِر بعد الحرب، وكان أرشيمبولدي يسرح بخياله، خلال بعض الوقت، ربّما خلال ساعات مع فكرة أنّه في الواقع هو هوغو هالدِر. وفي مرّة أخرى بينما كانت البارونة تتحدّث عن كتبه اعترفت له أنّها لم تُزعج قط نفسها في قراءة أيّ منها، فهي نادراً ما تقرأ روايات «صعبة» أو «غامضة» مثل التي يكتبها هو. ثمّ إنّ هذه العادة راحت مع مرور السنين تتفاقم وبعد أن أتمّت السبعين اقتصر مجالُ قراءتها على مجلاّت الموضة أو الواقع الراهن. حين أرادَ أرشيمبولدي أن يعرف لماذا إذن تستمرّ بطباعتها إذا كانت لا تقرؤها، سؤال أقرب إلى السفسطة، كان يعرف جوابه، أجابته البارونة أ) لأنّها كانت تعرف أنّها جيّدة، ب) لأنّ بوبيس أشار عليها بذلك، ج) لأنّ الناشرين الذين يقرؤون للكتّابِ الذين ينشرون لهم قليلون.

عند هذه النقطة يجب أن نقول: قليلون جدّاً من كانوا يعتقدون أنّ البارونة سوف تستمر على رأس دار النشر بعد موت بوبيس. كان يُفكّرون بأنّها ستبيع الدار وتتفرّغ لعشّاقها وأسفارها، هوايتها التي هي أكثر ما يُعرَف عنها. ومع ذلك أمسكت البارونة بزمام الدار ونوعية هذه لم تنحدر قيد أنملة، فقد عرفت كيف تُحيطُ نفسها بقرّاء جيّدين وبرهنت في الجانب المهني الصرف على طبيعة لم يرها أحد عندها حتى ذلك

الوقت. بكلمة واحدة: استمرّت أعمالُ بوبيس في نموّها. كانت البارونة تقول أحياناً لِأرشيمبولدي نصفَ مازحةٍ ونصف جادّة لو أنّه أفتى قليلاً لسمّته وريثاً لها.

حين أتمّت البارونة الثمانين من عمرها كان هذا السؤال يُطرح في الدوائر الأدبية بجدّية تامّة. من سيتولّى مسؤولية دار بوبيس بعد موتها؟ من الذي سيُسَمّى رسمياً وريثاً لها؟ هل قدّمت البارونة وصيّتها؟ من سيرث ثروة بوبيس؟ لم يكن هناك أقرباء. آخر آل فون زومبِ كانت البارونة. بالنسبة إلى بوبيس، إذا استعدنا زوجته الأولى التي توفّيت في إنكلترا، فإنّ بقيّة أسرته اختفت في معسكرات الإبادة. ما من أحدٍ منهما أنجب أولاداً. لم يكن عندهما أخوة ولا أبناء عمومة أو خؤولة (باستثناء هوغو هالدِر، الذي من المحتمل أنّه عند هذا المستوى كان ميتاً) لم يكن هناك أحفاد، ما لم يكن هوغو هالدِر قد أنجب ولداً). كان يُقال إنّ البارونة كانت تُفكّر بأن تورث ثروتها، باستثناء دار النشر، للأعمال الخيرية وإنّ بعض ممثلي منظمة غير حكومية جذّابين كانوا يزورون مكتبها كمن يزور الفاتيكان أو البنك الألماني. بالنسبة إلى من سيرث دار النشر لم يكن ينقصها مرشحون. أكثر من كانوا يتكلّمون عنه هو شاب في الخامسة والعشرين من عمره، له وجه شبيه بوجه تادزيو وجسم سَبّاحٍ، شاعر ومساعد مدرّس في غوتنغين، والذي وضعته البارونة على رأس مجموعة الشعر في الدار. لكن كلّ ذلك بقي في النهاية عند مستوى الشائعات الوهمي.

- أنا لن أموت أبداً -قالت البارونة ذات مرّة لِأرشيمبولدي- أو أنّني سأموت في الخامسة والتسعين من عمري وهذا يساوي أنّني لن أموت أبداً.

آخر مرّة التقيا فيها كانت في مدينة أشباحٍ إيطالية. كانت البارونة فون زومبِ تعتمر قبعة بيضاء وتستعمل عكّازاً. كانت تتكلّم عن جائزة نوبل وتتكلّم أيضاً عن الكتّاب المختفين، هي عادةٌ أو تَعَوُّد أو مزحة

كانت ترى أنّها أمريكية أكثر مما هي أوروبيّة. كان أرشيمبولدي يرتدي قميصاً قصير الكمّين ويُصغي إليها بانتباه، لأنّه راح يفقد سمعه وكان يضحك.

ونصل أخيراً إلى أخت أرشيمبولدي، لوتّ رِيْتِر.

وُلِدت لوتّ في عام ١٩٣٠ وكانت مثل أخيها، شقراء وزرقاء العينين، لكنّها لم تنمُ مثله. حين ذهب أرشيمبولدي إلى الحرب كانت لوتّ في التاسعة من عمرها، وأكثر ما كانت ترغب به هو أن يمنحوه إجازة ويعود إلى البيت، وصدره مليئاً بالميداليات. كانت تسمعه أحياناً في أحلامها. تسمع خطوات عملاق؛ خطوات قدمين كبيرتين تنتعلان أكبر حذاءين عسكريين من قوات الدفاع، كانا من الكبر بحيث أنّهم اضطرّوا لأنّ يصنعوهما خصيصاً له، وهو يطأ أرضَ الريف، دون أن يمعن في الغمار ولا في نبات القريص، بخطّ مستقيم إلى البيت الذي كانت تنام فيه مع والديها.

حين كانت تستيقظُ تشعر بحزن كبير إلى حدّ أنّها تُضطرّ لأن تُجهد نفسها كيلا تبكي. وكانت تحلم أحياناً أخرى بأنّها ذاهبة إلى الحرب، لا لشيء غير أن تعثر على جثة أخيها المثقّبة بالرصاص في ميدان المعركة. كانت تحكي أحياناً هذه الأحلام لوالديها.

- هي مجرّد أحلام -كانت تقول لها العوراء- لا تحلمي هذه الأحلام، يا قطّتي الصغيرة.

كان الأبتر على العكس منها، يسألها عن بعض التفاصيل، مثل وجوه الجنود القتلى، كيف هي؟،كيف كانت؟، هل كوجوه من كأنّهم نيام؟، وهو ما كانت تردّ عليه لوتّ بقولها بلى، بالضبط كما لو أنّهم نيام، وعندها كان والدها يهزُّ رأسَهُ بالنفي ويقول: إذن لم يكونوا ميتين، يا صغيرتي لوتّ، فوجوه الجنود الميتين، كيف سأشرحه لك،

هي دائماً متسخة، كما لو أنّهم عملوا طوال اليوم ولم يملكوا في نهاية يوم العمل الوقتَ كي يغسلوها.

ومع ذلك كان وجه أخيها في الأحلام نظيفاً جدّاً ويعلوه تعبير حزين لكنّه دائماً قويّ، كما لو أنّه بالرغم من أنّه ميت ما يزال قادراً على أن يعمل أشياء كثيرة. كانت لوتّ تعتقدُ في قرارة نفسها أنَّ أخاها قادر على أن يعمل *أيّ شيء*. وكانت دائماً منتبهة كي تسمع وقع خطواته، خطوات العملاق الذي سيقترب ذات يوم من الضيعة ويقترب من البيت، سيقترب من البستان حيث تكون هي بانتظاره، ويقول لها إنّ الحربَ قد انتهت وإنّه عائد إلى البيت للأبد، وإنّ كلّ شيء سوف يتغيّر بدءاً من تلك اللحظة. لكن ما الأشياء التي ستغيَّر؟لم تكن تعرف.

من ناحية أخرى لم تكن الحرب لتنتهي أبداً، وراحت زيارات أخيها تتباعد حتى لم يعد لها وجود. راحت أمّها وأبوها ذات ليلة يتكلّمان عنه، دون أن يعلما أنّها كانت مستيقظة وتسمعهما وهي مغطاة حتى أنفها في الفراش، وكانا يتكلّمان عنه كما لو أنّه مات. لكنّ لوتّ كانت تعرف أنّ أخاها لم يمت، فالعمالقة لا يموتون أبداً، كانت تُفكِّر أو فقط يموتون حين يشيخون جدّاً، يشيخون إلى حدّ أنّ أحداً لا ينتبه إلى أنّهم ماتوا، فقط يجلسون في عتبات أبواب بيوتهم أو تحت شجرة وينامون وعندها يكونون ميتين.

اضطرّوا ذات يوم أن يغادروا ضيعتهم، فقد كان هذا، بحسب الوالدين، الشيءَ الوحيد الذي يستطيعون أن يفعلوه فالحرب تقترب. فكّرت لوتّ أنّه إذا كانت الحربُ تقترب فأخوها الذي كان يعيش داخلَ الحرب مثل جنين حيٍّ في بطن أمٍّ بدينة، يقترب أيضاً، واختبأت كيلا يحملوها معهم، فهي كانت واثقة من أنَّ هانز سيظهر هناك. بقيا يبحثان عنها ساعاتٍ وعثر عليها الأعرج عند المغيب متخفّيَة في الغابة فصفعها وجرّها معه.

بينما كانوا يبتعدون نحو الغرب محاذين للبحر ومرّوا بطابورين من

الجنود الذين سألتهم لوتّ صارخةً عمّا إذا كانوا يعرفون أخاها. كان الطابور الأوّل مؤلّفاً من ناس من مختلف الأعمار، رجال بعمر والدها وفتية في الخامسة عشرة من أعمارهم، بعضهم بنصف ثياب موحّدة، ولا يبدو أيّ منهم متحمّساً جدّاً للذهاب إلى المكان الذي كانوا ذاهبين إليه، وإن ردَّ الجميعُ على سؤال لوتّ بأدب قائلين: لا لم يعرفوا أخاها ولم يروه.

كان الطابور الثاني مكوّناً من أشباح جثثٍ خارجة توّاً من مقبرة، أطيافٍ يرتدون بدلات موحّدة رمادية أو رمادية ضاربة للخضرة وخوذات فولاذية، غير مرئيّين لعيني أحدٍ غير عيني لوتّ، التي عادت وكرّرت السؤال، الذي تشرّف بعضُ الفزّاعات بالردّ قائلين لها بلى، رأوه في بلاد السوفييت، هارباً مثل جبان، أو رأوه يسبح في نهر دنيبر ثم يموت غرقاً. وإنّه كان يستحقّ ذلك تماماً، أو أنّهم رأوه في هضبة كلموكيا، يشرب ماء كما لو أنّه ميتٌ من العطش، أو أنّهم رأوه مقرفصاً في غابة في هنغاريا، يُفكّر كيف سيطلق النار على نفسه ببندقيته ذاتها، أو أنّهم رأوه في محيط مقبرة، الوغد دون أن يجرؤ على الدخول، يدور حولها ويدور إلى أن يحلّ الليل وتفرغ المقبرة من الأقارب عندها فقط، يتوقّف اللوطي جدّاً عن المشي ويطل من على الجدران، غارزاً حذاءه العسكري المسمّر في القرميد الأحمر المقشّر ويُطلّ بأنفه وعينيه الزرقاوين على الجانب الآخر، جانبِ الموتى، حيث يرقد آل غروت، وآل كروز، وآل نيتزك وآل كونزه وآل بارز وآل ويلكه، آل ليمكه، آل نواك، الجانب الذي كان فيه لاديتهاين والشجاع فوس، يتشجّع بعدها ويتسلّق الجدار، ويبقى برهة هناك بساقيه الطويلتين متدلّيتين يُخرج بعدها لسانه على الموتى ثمّ ينزع خوذته ويضغط على صدغيه بيديه ثمّ يُغمض عينيه ويصيح، هذا ما قالته الأشباح لِلوتّ، بينما هم يضحكون ويمضون خلف طابور الأحياء.

أقام والدا لوتّ بعدها في لوبيك، مع كثيرين من ضيعتهما، لكنّ

الأعرج قال إنّ الروس سيصلون إلى هناك وأخذ أسرته وتابع سيره نحو الغرب، وعندها نسيت لوتّ مرورَ الزمن، كانت النهارات تبدو ليالٍ وأحياناً كانت الأيّام والليالي لا تبدو شيئاً، كلّ شيء كان يبدو تتالي إضاءةٍ تعمي ووميض.

رأت لوتّ ذات ليلة بعض الأشباح يستمعون إلى الإذاعة. كان أبوها أحد تلك الأشباح وكانت أمّها شبحاً آخر. أشباح لهم عيون وآذان وأفواه هي لم تكن تعرفهم. أفواه مثل الجَزَرِ، شفاه مقشورة وأنوف مثل حبات بطاطا مبلّلة. والجميع يغطون رؤوسهم وآذانهم بمناديل وبطانيات وفي المذياع صوت رجل يقول إنّ هتلر ما عاد موجوداً، أي أنّه مات. لكنّ عدم الوجود والموت كانا شيئين مختلفين، فكّرت لوتّ. كان قد تأخّر حيضها حتى ذلك الوقت. ومع ذلك بدأت في ذلك الصباح تنزف وتشعر بأنّها ليست على ما يُرام. قالت لها العوراء إنّه أمرٌ طبيعيّ، وإنّ هذا كان سيحدث عاجلاً أو آجلاً لجميع النساء. أخي العملاق، غير موجود، فكّرت لوتّ، لكنّ هذا لا يعني أنّه ميت. لم ينتبه الأشباح إلى وجودها. بعضهم تنهّد. وبعضهم الآخر راح يبكي.

- فوهرري، فوهرري -كانوا يصيحون دون أن يرفعوا أصواتهم، مثل نساء لم يأتيهنّ الحيضُ بعدُ.

أبوها لم يكن يبكي. أمّها بلى كانت تبكي، ودموعها كانت تخرج فقط من عينها السليمة.

- ما عاد موجوداً -قالت الأشباح-، ما عاد موجوداً.

- مات كنجديّ -قال أحد الأشباح.

- ما عاد موجوداً.

رحلوا بعدها إلى بادربورن، حيث كان يعيش أخٌ للعوراء، لكنّهم حين وصلوا إلى البيت كان البيت محتلاً من قبل اللاجئين وأقاموا هم هناك. لم يجدوا أثراً لشقيقِ العوراء. قال لهم جار إمّا أنّه مُخطِئ جدّاً وإمّا أنّهم لن يعودوا ليروه أبداً. عاشوا بعض الوقتِ من الإحسان، مما

كان يهديه لهم الإنكليز. مرض بعدها الأعرج ومات. كانت رغبته الأخيرة أن يُقبَر في قريته بتشريفات عسكرية وقالت له العوراء ولوتٌ إنّ هذا ما سيفعلانه، بلى، بَلى، هذا ما سنفعله، بالرغم من أنّ بقياهُ رميت في حفرة جماعية في مقبرة بادربورن. لم يكن هناك وقت لمثل تلك التفاصيل اللطيفة، بالرغم من أنّ لوتٌ كانت ترى أنّ ذلك الوقت كان بالضبط وقت التفاصيل اللطيفة، التفاصيل، الاهتمامات الرائعة.

رحل اللاجئون وأخذت العوراء بيت أخيها. وجدت لوتٌ عملاً. بعدها درست. ليس كثيراً. عادت إلى العمل. تركته. درست أكثر قليلاً. وجدت عملاً آخر، أفضل كفايةً. تركت الدراسة إلى الأبد. وجدت العوراء خطيباً، عجوزاً كان موظّفاً في مرحلة القيصر وخلال سنوات النازية وسيعود ليكون موظفاً في ألمانيا ما بعد الحرب.

- موظّف ألمانيّ -كان يقول العجوز-، شيء لا يمكن أن يوجد بسهولة، ولا حتى في ألمانيا.

كلّ عبقريته كانت تتلخّص في هذا، كلّ ذكائه، كلّ رهافة فكره. الصحيح هو أنّ هذا كان كافياً بالنسبة إليه. في ذلك الوقت لم تعد العوراءُ تريدُ العودةَ إلى الضيعة، التي صارت في المنطقة السوفييتية. كما لم تكن تريد أن تعودَ لترى البحرَ. كما لم تكن تُظهر اهتماماً بمعرفة مصير ابنها الضائع في الحرب. لا بدّ أنّه مقبور في روسيا، كانت تقول ذلك بإيماءة استسلام وقسوة. بدأت لوتٌ تخرج من البيت. في البداية خرجت مع جنديّ إنكليزيّ. بعدها حين نُقِل الجنديُّ إلى مكانٍ آخر، خرجت مع فتى من بادربورن، فتى، لم تنظر أسرته، التي كانت من الطبقة الوسطى، بعين الرضا إلى علاقته الغرامية مع تلك الفتاة الشقراء، المتهتّكة، فلوتٌ في تلك السنوات كانت تتقن كلَّ الرقصات الدارجة في العالم، فما كان يهمّها هو أن تكون سعيدة ويكون فتاها، وليس عائلته، كذلك، وبقيا معاً إلى أن ذهب هو إلى الجامعة ليدرس وانتهت العلاقة منذ تلك اللحظة.

ظهر أخوها ذات ليلة. كانت لوتّ في المطبخ تكوي فستاناً فشعرت بخطواته. إنّه هانز، فكّرت. حين قرعوا الباب هرعت لتفتحه. هو لم يعرفها، فقد صارت امرأة، كما قال لها فيما بعد، لكن هي لم تحتج لأن تسأله أي شيء وعانقته برهة طويلة. تكلّما في تلك الليلة حتى مطلع الفجر ولم تملك لوتّ وقتاً لكيّ أيّ من الثياب النظيفة غير فستانها. بعد وقت قصير غفا أرشيمبولدي مستنداً برأسه إلى الطاولة، ولم يستيقظ إلاّ عندما ربتت أمّه على كتفه.

غادر بعد يومين وعاد كلّ شيء إلى طبيعته. في ذلك الوقت ما عاد الموظّف خطيباً للعوراء، بل صار خطيبُها ميكانيكياً، وهو رجل مرح وله عمله الخاص به، يسير عمله في إصلاح سيارات قوات الاحتلال وشاحنات الفلاحين وصناعيي بادربورن بشكل جيد. كما كان يقول كان باستطاعته أن يعثر على امرأة أفتى وأجمل، لكنّه كان يُفضّل امرأة نزيهة وعاملة، لا تمتصّ دمه مثل مصاص دماء. كانت ورشة الميكانيكي كبيرة وعثر هناك بناءً على طلب العوراء على عملٍ لِلوتّ، لكنّ هذه لم تقبله. كانت قد تعرّفت قبل أن تتزوّج أمُّها الميكانيكيَّ، على مُستخدَم، يُدعى فارنر هاس، وبما أنّهما كانا معجبين الواحد منهما بالآخر ولَم يتجادلا قط فيما بينهما، بدأا يخرجان معاً، أوّلاً إلى السينما، ثمّ إلى صالات الرقص.

حلمت لوتّ ذات ليلة بأنّ أخاها يظهر على الطرف الآخر من نافذة غرفتها ويسألها لماذا ستتزوّج أمّي. لا أعرف، أجابته لوتّ من فراشها. لا تتزّوجي أنتِ أبداً، كان يقول لها أخوها. كانت لوتّ تُحرّك رأسها بالموافقة وكان رأس أخيها يختفي بعدها ولا يبقى غير النافذة المغبشة بالبخار وصدى خطوات عملاق. لكن حين ذهب أرشيمبولدي إلى بادربورن، بعد زواج أمّه، قدّمته لوتّ لفارنر هاس وبدا أنّ كليهما استلطف الآخر.

حين تزوّجت أمُّها، ذهبتا لتعيشا في بيت الميكانيكي. بحسب ما

كان يرى هذا، كان أرشيمبولدي بالتأكيد نصّاباً، يعيش من النصب والسرقة أو من التهريب.

- أشمُّ رائحة المهرّبين عن بعد مئة متر - قال الميكانيكي.

لم تكن العوراء تقول شيئاً. لوتٌ وفارنر تحدّثا بهذا. المهرّب بحسب فارنر كان الميكانيكيّ، الذي كان يمرّر قطعاً عبر الحدود ويقول في مرّاتٍ كثيرة إنّ سيارة قد أصلحت في الوقت الذي لم تُصلّح فيه. كان فارنر، بحسب لوتٌ، شخصاً طيّباً ويملك كلمة طيّبة لأيّ شخص كان. في تلك الأيّام خطر للوتٌ أنّها هي وفارنر وجميع الشباب الذين ولدوا حوالي العام ٣٠ أو ٣١ كانوا محكومين بألا يكونوا سعداء أبداً.

كان فارنر، الذي كان خِدْنَها، يُصغي إليها دون أن يقول شيئاً، يذهبان بعدها إلى السينما ليشاهدا أفلاماً أمريكية أو إنكليزية، أو يخرجان ليرقصا. كانا في بعض نهايات الأسابيع يخرجان إلى الريف، خاصّة بعد أن اشترى فارنر دراجة نارية، شبه معطلة، أصلحها بنفسه في لحظات فراغه. كانت لوتٌ تُحضّر لهذه الرحلات شطائرَ خبز أسود وخبزٍ أبيض، وقليل من الكوتشن[1] ولم تحمل معها قط أكثر من ثلاث زجاجات بيرة. بينما كان فارنر يملأ مَطَرَةً بالماء ويحمل معه أحياناً حلوى وشوكولاتة. كانا أحياناً يبسطان بطانية على الأرض وسط الغابة، بعد أن يتمشيا ويأكلا، يمسكان بيدي بعضهما بعضاً ويغفيان.

كانت الأحلام التي تراها لوتٌ في الريف مقلقةً. كانت تحلم بسناجبَ ميتة ووعول ميتة وأرانب ميتة، وكانت تعتقد أحياناً أنّها ترى في كثافة الغابة خنزيراً جبلياً، فتقترب منه ببطء، وحين تباعد بين الأغصان ترى خنزيرة هائلة مستلقية على الأرض تُحتَضَر، وبجانبها مئات الخنوص الميتة. حين كان يحدث هذا تنهض قافزة وكان وحده

---

(١) نوع من الحلوى مكوناته متنوعة مثل الجوز والتوت البري والقشدة.

وجود فارنر غافياً بجانبها بمتعة يستطيع طمأنتها. بقيت فترةً تُفكّر بأن تصبح نباتية. لكنّها بدل ذلك اكتسبت عادة التدخين.

في ذلك الوقت كان عاديّاً في بادربورن كما في بقيّة ألمانيا أن تُدخّن النساء، لكنّ اللواتي كنّ يفعلن ذلك في الشارع، بينما هنّ يتمشين أو يتوجّهن إلى أعمالهنّ كنّ قليلات، على الأقل في بادربورن. كانت لوتّ من اللواتي كنَّ يُدخِّنَّ في الشارع، فالسيجارة الأولى كانت تشعلها في ساعة الصباح الأولى، وحين كانت تسير حتى محطة الحافلات كانت تُدخن سيجارتها اليومية الثانية. كان فارنر على العكس منها، لا يُدخِّنُ، وبالرغم من أنّ لوتّ كانت تُصرّ عليه إلا أنّه كان أقصى ما يفعله، كيلا يعاكسها، هو أن يمصّ مصّتين من سيجارتها وهو يكاد يختنق من الدخان.

حين بدأت لوتّ تُدخِّن طلب منها فارنر أن يتزوّجا.

- عليّ أن أفكّر بالأمر -قالت لوتّ-، لكن ليس ليومٍ أو يومين، بل لأسابيع وأشهر.

قال لها فارنر أن تأخذ كلّ الوقت الذي تحتاجه، فهو كان يريد أن يتزوّج منها مدى حياته ويعرف أنّ القرار الذي يتخذه المرء في مسائل مثل هذه مهمّ. منذ تلك اللحظة راح خروج لوتّ مع فارنر يتباعد. حين انتبه هذا سألها عمّا إذا كانت ما عادت تُحبّه، وحين أجابته لوتّ بأنّها تُفكِّر بما إذا كانت ستتزوّج منه أم لا، أسف لأنّه طلب منها ذلك. ما عادا يقومان بالرحلات بالوتيرة السابقة ذاتها، ولا يذهبان إلى السينما ولا يخرجان للرقص. تعرّفت لوتّ في تلك الأيّام على رجلٍ يعمل في شركة لصناعة القساطل استقرَّ في المدينة توّاً وبدأت تخرج مع هذا الرجل، وكان مهندساً يُسمى هينريخ ويعيش في نزل في وسط المدينة، فبيته الحقيقيّ كان في دويسبورغ، حيث كان القسم الأساسي من المعمل.

بعد فترة قصيرة من بدء الخروج معه اعترف لها هينريخ بأنّه كان

متزوّجاً وعنده ولد، لكنّه لا يُحبُّ زوجته ويُفكّر بالطلاق منها. لم يهمّ لوتّ أنّه كان متزوّجاً، لكنّه كان يهمّها فعلاً أن تنجب ولداً فهي كانت تُحبّ الأطفال وكانت فكرة إيذاء طفل حتى ولو بشكل غير مباشر تبدو لها مريعة. ومع ذلك بقيا يخرجان معاً قرابةَ الشهرين، وكانت لوتّ تتكلّم أحياناً مع فارنِر وفارنر يسألها كيف تسير أمورك مع خطيبك الجديد ولوتّ تجيبه عادية جدّاً، مثل جميع الناس. ومع ذلك انتبهت في النهاية إلى أنّ هينريخ لن يُطلق امرأته أبداً فقطعت علاقتها معه، وإن بقيا يذهبان بين فترة وأخرى إلى السينما ويذهبان بعدها لتناول العشاء معاً.

وذات يوم وجدت حين خرجت من العمل فارنِر في الشارع. لم يُكلّمها فارنِر هذه المرّة عن الزواج ولا عن الحبّ بل اكتفى بدعوتها للقهوة وأخذها بعد ذلك إلى بيته. وبالتدريج عادا ليخرجا معاً، الأمر الذي أسعد العوراء والميكانيكيَّ، الذي لم يكن عنده أولاد وكان يُقَدّر فارنِر لأنّه كان جدّياً وشغيّلاً. الكوابيس التي عانت منها لوتّ في طفولتها تقلّصت بشكل معتبر، إلى أنّ لم يعد عندها كوابيس ولا أحلام.

- بالتأكيد أَحْلُمُ -قالت-، ككلّ الناس، لكن من حسن حظّي أنّني عندما أستيقظ لا أتذكّر شيئاً منها.

حين قالت لفارنر إنّها فكّرت كفاية في عرضه وإنّها تقبل الزواج منه، راح هو يبكي واعترف لها متلعثماً أنّه لم يشعر قط بنفسه أكثر سعادة من تلك اللحظة. تزوّجا بعد شهرين وخلال الحفلة التي أقاموها في فناء مطعم، تذكّرت لوتّ أخاها ولم تعرف في تلك اللحظة، ربّما لأنّها شربت أكثر من اللازم، ما إذا كانت قد دعته إلى العرس أم لا.

أمضيا شهر العسل في منتجَعٍ صغير على ضفاف الراين وعادا بعدها كلّ إلى عمله واستمرّت الحياةُ تماماً كما في السابق. سهل العيش مع فارنر حتى في بيت مكون من غرفة واحدة، إذ كلّ الذي كان يفعله زوجها إنّما يفعله لإسعادها. كانا يذهبان في أيّام السبت إلى

السينما، وفي الآحاد عادة ما كانا يذهبان إلى الريف على الدراجة النارية، أو إلى الرقص. خلال الأسبوع كان فارنر يتدبّر أمره، بالرغم من عمله القاسي، لمساعدتها في كلّ أمور البيت. الشيء الوحيد الذي لم يكن فارنر يُتقنه هو الطبخ. عادة ما كان يشتري في نهاية الشهر لها هديّة أو يأخذُها إلى مركز بادربورن كي تختار بنفسها زوجاً من الأحذية أو جزداناً أو منديلاً. ولكي لا ينقصه المال كان فارنر يعمل ساعات إضافية في الورشة وكان يعمل أحياناً لحسابه الخاص، من وراء ظهر الميكانيكي، مصلحاً جرّارات أو حصّادات الفلاحين، الذين لم يكونوا يدفعون له جيّداً لكنّهم كانوا بالمقابل يهدونه مخللات ولحوماً بل وحتى أكياس طحين تجعل مطبخ لوتِ يبدو مخزناً أو أنّهما كانا يستعدان لحرب أخرى.

وذات يوم مات الميكانيكي دون أن يظهر عليه أي علامات مرض، فقام فارنر بتسيير العمل في الورشة. ظهر بعض أقرباء، أبناء عمومة بعيدون طالبوا بجزء من الإرث، لكنّ العوراء ومحاميها تدبّروا كلّ شيء ورحل الريفيون بعد ذلك ومعهم بعض المال وأشياء أخرى قليلة. كان فارنر عند ذلك قد سمن وبدأ يفقد شعره ومع أنّ العمل الجسديّ تقلّص، إلا أنّ المسؤوليات ازدادت، ما جعله أكثر صمتاً من المعتاد. انتقل الاثنان إلى بيت الميكانيكي، الذي كان كبيراً، لكنّه كان فوق الورشة تماماً، وبذلك تلاشت الحدود بين العمل والبيت وهو ما أحدث عند فارنر شعوراً بأنّه دائماً يعمل.

كان في قرارة نفسه يودّ لو أنّ الميكانيكيّ لم يمت، أو لو أنّ العوراء وضعت على رأس العمل أيَّ شخص آخر. طبعاً كان لتغيير العمل تعويضاته. أمضت لوتّ وفارنر في ذلك الصيف أسبوعاً في باريس. وفي أعياد الميلاد ذهبا برفقة العوراء إلى بحيرة كونستانس، فلوتّ كانت تعشق السفر. وعند العودة إلى بادربورن حدث شيء جديد: تحدّثا لأوّل مرّة عن احتمال أن يصير عندهما ابن، الشيء الذي

لم يظهر أيّ منهما ميولاً نحوه بسبب الحرب الباردة وخطر المواجهة النووية، مع أنّ وضعهما الاقتصادي لم يكن قط أفضل مما كان.

بقيا شهرين يناقشان بطريقة أقرب إلى الخمول المسؤولياتِ التي تجرّها معها تلك الخطوة، إلى أن قالت له لوتّ بينما هما يتناولان طعام إفطارهما إنّها كانت حاملاً وإنّه ما عاد هناك شيء يُناقش. اشتريا قبل أن يولد الطفل سيارة وأخذا إجازة لأكثر من أسبوع. زارا جنوب فرنسا وإسبانيا والبرتغال. عند العودة إلى البيت أرادت لوتّ أن تمرّ على كولونيا وبحثا عن العنوان الوحيد الذي كان معها لأخيها.

في مكان العلّية التي كان يعيش فيها أرشيمبولدي مع إنجيبورغ ارتفع بناء شقق جديد وما من أحد ممن كانوا يعيشون هناك كان يتذكّر شاباً بمواصفات أرشيمبولدي، الطويل، الأشقر، البارز العظام، الجندي السابق، والعملاق.

خلال نصف طريق العودة إلى البيت لزمت الصمت، كما لو أنّها متبرّمة، لكنّهما توقّفا بعد ذلك للغداء في مطعم على الطريق وراحا يتكلّمان عن المدن التي عرفاها فتحسّن مزاجها بشكل ملحوظ. تركت لوتّ العمل قبل ثلاثة أشهر من ولادة ابنها. كانت الولادة طبيعية وسريعة، بالرغم من أنّ الطفل كان يزن أكثر من أربعة كيلوغرامات وفي وضعية سيّئة بحسب الأطباء. لكن يبدو أنّ الطفل وضع رأسه بشكل صحيح في اللحظة الأخيرة وخرج سليماً.

أسمياه كلاوس، باسم أب العوراء، مع أنّ لوتّ فكّرت في لحظة ما أن تُسميّه هانز، مثل أخيها. الاسم في الحقيقة، فكّرت لوتّ لا يهمّ كثيراً، ما يهمّ هو الشخص. تحوّل كلاوس منذ البداية إلى المفضّل عند جدّته وأبيه، لكنّ أكثر من كان يُحبّ الصغير هي لوتّ. كانت هذه تنظر إليه أحياناً فتجده شبيهاً بأخيها، كما لو أنّه تجسيد لأخيها، لكن مصغّراً، الأمر الذي كان بالنسبة إليها مريحاً، فصورة أخيها كانت تكتسي دائماً حتى ذلك الوقت صفة الضخامة والعملقة.

عادت لوتّ لتحمل عندما كان كلاوس في الثانية من عمره، لكنّها أجهضت في الشهر الرابع وحدث خطأ في شيء ما، وما عاد باستطاعتها أن تنجب أولاداً. كانت طفولة كلاوس مثل طفولة أيّ طفل من الطبقة الوسطى في بادربورن. كان يُحب أن يلعبَ بكرة القدم مع أطفال آخرين، لكنّه في المدرسة كان يمارس كرة السلّة. وصل مرّة واحدة مزرقَّ العين إلى البيت. بحسب ما وضّح سخر أحد رفاقه من عين جدّته العوراء فتشاجرا. في الدراسة لم يكن لامعاً جدّاً، كلنّه كان يهوى كثيراً الآلات، أيّاً كان نوعها، وكان باستطاعته أن يقضي ساعات في الورشة يتأمّل عملَ الميكانيكيين عند أبيه. لم يكن يمرض تقريباً، وإن كانت حرارته ترتفع جدّاً في المرات القليلة التي يمرض فيها، فيهذي ويرى أشياء لم يكن أحد غيره يراها.

حين صار في الثانية عشرة من عمره توفّيت جدّته بالسرطان في مشفى بادربورن. كانوا يعطونها دائماً مورفين وحين كان كلاوس يذهب لزيارتها كانت تخلط بينه وبين أرشيمبولدي، وتناديه، يا ولدي أو تتكلّم معه بلهجة ضيعتها، مسقط رأسها البروسي. كانت أحياناً تحكي له أشياء عن جدّه، عن الأعرج وعن السنوات التي خدم فيها بإخلاص تحت إمرة القيصر، وعن الحزن الذي رافقه دائماً بسبب قصر قامته ولأنّه لم ينتمِ لفوج نخبة الحرس البروسي، الذي كانوا لا يقبلون فيه إلا من كان يبلغ طوله أكثر من مئة وتسعين سنتيمتراً.

- قصير القامة، لكنّه شجاع جدّاً، هذا هو أبوك -كانت الجدّة تقول بابتسامةِ مدمنةِ مورفين مُنبسِطة.

حتى ذلك الوقت لم يقولوا شيئاً لِكلاوس عن خاله. بعد وفاة جدّته سأل لوتّ عنه. الحقيقة ليس الأمرُ أنّه كان مهتمّاً كثيراً، لكنّه كان يشعر بأنّه حزين إلى حدّ أنّه فكّر أنّ هذا يمكن أن يُسليه حزنَهُ. كان قد مضى وقت طويل لم تُفكّر لوتّ فيه بأخيها وكان سؤال كلاوس بمعنى من المعاني مفاجئاً. كانت لوتّ وفارنر في ذلك الوقت قد دخلا في

تجارة العقارات، التجارة التي لم يكونا يعرفان عنها شيئاً ويخافان أن يخسر مالاً. وهو ما جعل جواب لوتّ عليه غير دقيق: قالت له إنّ خاله كان أكبر منها بعشر سنوات، أو شيئاً من هذا القبيل وإن العائلة لا تعرف عنه شيئاً منذ زمن طويل، فقد اختفى عن وجه الأرض، أو شيئاً من هذا القبيل.

بعدها حكت لكلاوس أنّها في صغرها كانت تعتقد أنّ أخاها كان عملاقاً، لكن هذه الأشياء عادة ما تحدث مع الطفلات.

في مناسبة أخرى تكلّم كلاوس عن خاله مع فارنر فقال له هذا إنّه كان شخصاً ظريفاً، ثاقب النظرة وأقرب إلى الصموت، وإن لم يكن بحسبِ لوتّ دائماً هكذا، بل إنّ مدافع وهاونات ورشقات رشاشات الحرب جعلته صموتاً. حين سألها كلاوس عمّا إذا كان يُشبه خاله، أجابته لوتِ بلى، كانا متشابهين، كلاهما كان طويلاً ونحيلاً، لكنّ شعر كلاوس كان أكثر شقرة بكثير من شعر أخيها، وربّما زرقة عينيه أفتح بكثير. توقّف بعدها كلاوس عن طرح الأسئلة واستمرّت الحياة كما كانت قبل وفاة العوراء.

لم تعطِ تجارة لوتّ وفارنر النتائج المرجوّة، لكنّهما أيضاً لم يخسرا مالاً، بالعكس ربحا بعض المال وإن لم يصبحا ثريَّين. استمرّت الورشة الميكانيكية بعملها بمردود عالٍ وما من أحد كان يستطيع أن يقول إنّ أمورهما كانت تسير بشكل سيّئ.

في السابعة عشرة من عمره دخل كلاوس في مشاكل مع الشرطة. لم يكن طالباً جيداً واستسلم والداه إلى أنّه لن يذهب إلى الجامعة، لكنّه في السابعة عشرة من عمره وجد نفسه متورّطاً مع صديقين له في سرقة سيارة وفي حادث لاحق في عملية عنف جنسي مشينة مع فتاة من أصل إيطاليّ كانت عاملة في معمل صغير للمواد الصحية. أمضى صديقا كلاوس فترة في السجن، إذ كانا بالغين، بينما أدخل كلاوس في إصلاحية أحداث لأربعة أشهر، عاد بعدها إلى بيت أبويه. في الفترة

التي قضاها في الإصلاحية عمل في إصلاح الآلات وتعلّم إصلاح كلّ أنواع الكهربائيات المنزلية، بدءاً من البرّاد وحتى الخلاط. حين عاد إلى البيت بدأ يعمل في ورشة أبيه الميكانيكية وبقي فترة لم يزجّ نفسه في مشاكل.

حاولت لوتِ وفارنر أن يقنع الواحدُ منهما الآخر بأنّ ابنهما صار على السكة الصحيحة. في الثامنة عشرة من عمره بدأ كلاوس يخرج مع فتاة تعمل في حانوت بيع خبز، لكنّ العلاقة بالكاد دامت ثلاثة أشهر، بسبب أنّ الفتاة، بحسب تقييم لوتّ لم تكن جميلة بمعنى الجميلة. بدءاً من تلك اللحظة لم يعرفا خطيبة أخرى لكلاوس وتوصّلا إلى استنتاج أنّه لم يكن عنده خطيبات أو أنّه كان يتفادى المجيء بهنّ إلى البيت لأسباب كانا يجهلانها. أُغرِمَ كلاوس في تلك الأيام بالمشروب وصار بعد انتهاء يوم العمل يذهب عادة إلى حانات البيرة في بادربورن ليشرب مع بعض عمّال ورشة الميكانيك الشباب.

حشر نفسه في أكثر من مرّة، في يوم جمعة أو سبت ليلاً في مشاكل، لم تكن شيئاً خطيراً، مشاجرات مع شباب آخرين، تحطيم محلات عامّة وكان على فارنر أن يذهب ليدفع الغرامة ويخرجه من قسم الشرطة. خطر له ذات يوم أنّ بادربورن صغيرة عليه أكثر من اللازم فذهب إلى ميونخ. كان أحياناً يُجري مع أمّه مكالمات هاتفية مدفوعة من قبلها ويجري أحاديث غير ذات أهمية ومفتعلة تترك لوتّ بشكل غريب أكثر طمأنينة.

مرّت بضعة أشهر حتى عادت لوتّ ورأته. بحسب كلاوس، لم يكن هناك مستقبل في ألمانيا ولا في أوروبا ولم يبق أمامه غير أن يُجرّب حظّه في أمريكا، إلى حيث كان يُفكّر أن يذهب ما إن يوفّر قليلاً من المال. أبحر بعد أن عمل بضعة أشهر في الورشة من كيل في باخرة ألمانية محطتها الأخيرة نيويورك. حين غادر بادربورن راحت لوتّ تبكي، كان ابنها طويلاً جدّاً ولا يبدو رجلاً ضعيفاً، ومع ذلك راحت

تبكي لأنّها كانت تحدس بأنّه لن يكون سعيداً في القارّة الجديدة، حيث الرجال ليسوا طويلين جدّاً ولا كان شعرهم بشقرة شعره، لكنّهم كانوا دُهاة أو بالأحرى ذوي طبيعة شريرة، أسوأ مَن في كلِّ بيت، ناس لا يمكن الوثوق بهم.

أقلّه فارنر في سيارته حتى كيل وحين عاد إلى بادربورن قال لِولتّ إنّ الباخرة جيدة وقوية ولن تغرق وإنّ عمل كلاوس كنادلٍ أو غاسل أطباق لم يكن ينطوي على أيّ خطر. لكنّ كلماته لم تطمئن لوتّ، التي رفضت أن تذهب إلى كيل «كيلا أُطيل احتضاري» قالت.

حين نزل كلاوس في نيويورك أرسل إلى أمّه بطاقة يظهر فيها تمثال الحرّية. هذه السيّدة حليفتي، كتب على ظهر البطاقة. مرّت بعدها شهور لم يعرفا فيها عنه شيئاً، ثمّ أكثر من عام، إلى أن استلما منه بطاقة أخرى يقول فيها إنّه يقوم بإجراءات الحصول على الجنسية الأمريكية الشمالية. وإن عمله جيّد. كان مصدر الرسالة ماكون، في ولاية جورجيا وكتبت له لوتّ وفارنر رسائل مُطَوّلة مليئة بالأسئلة عن صحته، ووضعه الاقتصادي، عن خططه المستقبلية، لم يجب عليها كلاوس قط.

راحا مع مرور الزمن يتكيّفان مع فكرة أنّ كلاوس طار من العشّ وأنّه بخير. كانت لوتّ تتصوّره أحياناً متزوّجاً من أمريكية، يعيش في بيتٍ أمريكيٍّ مُشمس حياةً شبيهةً بتلك التي يستطيع المرء أن يراها في الأفلام الأمريكية التي كانت تُعرض في التلفزيون. ومع ذلك لم يكن لزوجة كلاوس الأمريكية وجها في أحلامها، فهي كانت دائماً تراها من خَلْفٍ، أي أنّها كانت ترى شعرها، الأقل شقرةً بقليل من شعر كلاوس، كتفيها البرونزيين وقوامها النحيل لكنّه القويّ. كانت ترى وجه كلاوس، تراه جدّياً ومترقّباً، لكنّها لا ترى وجه زوجته أبداً ولا وجه أولاده، حين تتصوّره مع أولاده. أولاد كلاوس لم تكن تراهم ولا حتى من خَلْفٍ. كانت تعرف أنّهم موجودون هناك في إحدى الغرف،

لكنّها لا تراهم أبداً، كما لم تكن تسمعهم، وهذا كان الأغرب، لأنّ الأطفال لا يلزمون أبداً الصمتَ برهة طويلة.

في بعض الليالي كانت لوتّ من كثرة ما تُفكّر وتتصوّر حياة كلاوس المفترضة تبقى نائمة وتبدأ تحلم بابنها. كانت ترى عند ذلك بيتاً، بيتاً أمريكياً. كانت حين تقترب من البيت تشعرُ برائحة نافذة، كانت تزعجها في البداية لكنّها لا تلبث أن تُفكّر: لا بدّ أنّ زوجة كلاوس تطبخ طعاماً هندياً. وهكذا تتحوّل الرائحة بعد ثوان إلى رائحة عجائبية ولطيفة بالرغم من كلّ شيء. بعدها ترى نفسها جالسة إلى طاولة. على الطاولة إبريق، صحن فارغ، كأس بلاستيكي وشوكة، ليس أكثر، لكن أكثر ما كان يقلقها هو معرفة من الذي فتح لها الباب. وبالرغم من كلّ الجهد الذي كانت تبذله لم تكن تتذكّره وهذا ما كان يعذّبها.

كان عذابها شبيهاً بصرير الطباشير على السبورة. كما لو أنّ طفلاً يحدث صريراً عمداً على سبورة. أو بالأحرى لم يكن صرير طباشير بل صرير أظافر، أو ربّما لم تكن أظافره بل أسنان. ومع الزمن تحوّل هذا الكابوس، كابوس بيت كلاوس، كما كانت تُسميه، إلى كابوس مُتكرّر. كانت أحياناً تقول في الصباحات لفارزر بينما هي تُساعده في تحضير الفطور:

- رأيتُ كابوساً.

- كابوس بيت كلاوس؟ -كان فارزر يسألها.

وكانت لوتّ تُحرّك رأسها، بالإيجاب، شاردةً، دون أن تنظر إليه. كانا في أعماقهما، سواء هي أو فارزر، يأملان أن يلجأ إليهما طالباً منهما مالاً لكنّ السنوات راحت تمرّ وكلاوس يبدو لا مناصّ ضائعاً في الولايات المتحدة.

- هكذا وكما هو كلاوس -كان يقول فارزر- لا أستغرب أن يعيش الآن في ألاسكا.

مرض فارنر ذات يوم وقال له الأطباء إنّ عليه أن يتوقّف عن العمل. وبما أنّه لم يكن عنده مشاكل اقتصادية وضع على رأس العمل في الورشة أقدم ميكانيكي وتفرّغ هو ولوتّ للسياحة. قاما برحلة عبر النيل، زارا القدس، سافرا في سيارة مستأجرة في جنوب إسبانيا وطافا في فلورنسا وروما والبندقية.

ومع ذلك فالجهة الأولى التي اختاراها كانت الولايات المتحدة. زارا نيويورك ثمّ ماكون، جورجيا، واكتشفا مغمومين أنّ البيت الذي عاش فيه كلاوس كان شقّة في بناء قديم بجانب غيتو الزنوج.

خطر لهما خلال تلك الرحلة، ربّما لكثرة الأفلام الأمريكية التي شاهداها، أنّ الأفضل هو أن يتعاقدا مع رجلٍ تحرّ. زارا واحداً في أتلانتا وعرضا عليه مشكلتهما. كان فارنر يعرف الإنكليزيةَ قليلاً، ولم يكن رجلُ التحرّي متزمّتاً إطلاقاً، كان شرطياً سابقاً في أتلانتا قادراً على أن يخرج ليشتري، تاركاً لهما وهما جالسان في مكتبه قاموساً إنكليزياً-ألمانياً، ويعود مسرعاً ويتابع حديثه كما لو أنّ شيئاً لم يحدث. ثمّ إنّه لم يكن نصّاباً، إذ حذّرهما منذ البداية من أنّ البحث، بعد كلّ ذلك الوقت عن ألماني متجنّس أمريكياً كان كمن يبحث عن إبرة في متبن.

- حتى أنّ من المحتمل أن يكون قد غيّر اسمه -قال.

لكنّهما كانا يريدان أن يُجرِّبا ودفعا له أتعاب شهر واتفق رجل التحرّي معهما على أن يرسل لهما في نهاية هذا الوقت نتيجة تحرّياته إلى ألمانيا. بعد مرور الشهر وصل مغلّف كبير إلى بادربورن، يبيّن لهما حجم المصروفات ويحيطهما علماً بالتحقيقات.

النتيجة: لا شيء.

كان قد نجح في التعرّف على شخص عرف كلاوس (صاحب البناء الذي كان يعيش فيه) ومن خلاله وصل إلى آخرَ شَغَّلَهُ عنده، لكن حين رحل كلاوس عن أتلانتا لم يقل لأيّ منهما إلى أين كان يُفكّر أن

يذهب. يقترح رجل التحرّي مساراتٍ أخرى للتحقيق، لكنّه من أجل هذا يحتاج مالاً وقرّر فارنر ولوتّ أن يردّا عليه شاكرَيْن له إزعاجه نفسه ومنهِيَيْن العقدَ، على الأقل آنياً.

مات فارنِر بعد أعوامٍ قليلة بداء القلب وبقيت لوتّ وحيدة. أيّ امرأة في وضعها ما كانت لتستطيع أن ترفع رأسها، لكنّ لوتّ لم تسمح للقدر أن يهزمها وبدل أن تبقى مكتوفة اليدين، ضاعفت نشاطها اليومي مرّتين بل وثلاث مرّات. ولم تُحافظ فقط على إنتاجية الاستثمارات وعمل الورشة، بل ودخلت بما فاض عنها من رأس المال في صفقات أخرى ونجحت في ذلك.

بدا أنّ العمل، الإفراط في العمل يزيدها شباباً. فقد كانت تحشر أنفها في كيّ شيء، لم تكن تهدأ أبداً. وصل الأمر ببعض مستخدَميها إلى أن صاروا يكرهونها وإن لم يكن هذا يشغل بالها. خلال الأجازات، التي لم تكن تزيد أبداً عن السبعة أو التسعة أيّام، كانت تبحث عن الطقس الدافئ في إيطاليا أو إسبانيا وتتفرّغ للتشمّس على الشاطئ وقراءة أكثر الكتب رواجاً. كانت تذهب أحياناً مع صديقات عَرَضِيّات، لكنّها كانت كقاعدة عامة تخرج من الفندق وحيدة، تعبر شارعاً وتصير على الشاطئ، حيث كانت تدفع لفتى كي يضع لها سرير بحر وشمسية. هناك كانت تخلع القسم العلوي من البكيني، دون أن يهمّها أنّ ثدييها لم يعودا ما كانا من قبل، أو تنزل ثوب السباحة إلى ما تحت كرشها وتغفو تحت الشمس. حين كانت تستيقظ كانت تدير الشمسية كي تحصل على الظلّ وتستهلّه من جديد بالكتاب. كان الفتى الذي يؤجّر الأسرّة والشمسيات يقترب منها فتعطيه لوتّ نقوداً كي يأتيها بكوبا لير من الفندق. كانت تذهب أحياناً في الليل إلى شرفة الفندق أو إلى المرقص، الموجود في الطابق الأوّل، حيث كان الزبائن ألماناً وإنكليزاً وهولنديين تقارب أعمارهم عمرها فتبقى برهة تنظر إلى الأزواج يرقصون أو يستمعون إلى الأركسترا التي كانت تقدّم أحياناً

أغانٍ من بداية السبعينيات. كانت تبدو من بعيد سيّدة جميلة التقاسيم، ممتلئة قليلاً، تعلوها مسحة من الأناقة ومسحة غامضة من الحزن. عن قرب، حين كان يدعوها أرملٌ أو مُطلَّق للرقص أو للقيام بمشوار على ضفاف البحر كانت لوتٌ تبتسم وتقول لا، شكراً، تعود لتصبح طفلة ريفية ويتبخر التميُّز فلا يبقى غير الحزن.

في عام ١٩٩٥ تلقت برقية من المكسيك، من مكان يُدعى سانتا تِرِسا، يبلغونها فيها أنّ كلاوس سجين. كانت البرقية موقّعة من قبل امرأة تُدعى فيكتوريا سانتولايا، محامية كلاوس. الصدمة التي عانت منها لوتٌ بلغت حدّاً اضطرّت معه لأن تترك مكتبها وتصعد إلى البيت وتدخل الفراش، طبعاً بالرغم من أنّها لم تكن قادرة على النوم. كان كلاوس حيّاً. هذا هو كلّ ما كان يهمّها. ردّت على البرقيّة وضمنتها رقم هاتفها وبعد أربعة أيّام وسط حوار بين عامِلَيّ مقسم كانا يريدان أن يعرفا ما إذا كانت تقبل أن تُسَجّل المكالمة على اسمها، سمعت صوت امرأة تتكلّم إنكليزيةً بطيئة جدّاً، تلفظ الكلمات مقطعاً مقطعاً، بالرغم من أنّه كان سيّان عندها لأنّها كانت تجهل هذه اللغة. في النهاية قال صوتُ المرأةِ بنوع من الألمانية: «كلاوس بخير». و: «مترجِم». وشيئاً أكثر كان له وقع الألمانية أو كان له وقع الألمانية في أذن فيكتوريا سانتولايا، وهي لم تفهمه. ورقم هاتف، أملته عليها بالإنكليزية، عدّة مرّاتٍ، سجّلته هي على ورقة، فمعرفة الأرقام بالإنكليزية لم تكن عمليّة صعبة.

في ذلك اليوم لم تعمل لوتِ. هتفت إلى مدرسة سكرتيرات وقالت إنّها تُريد أن تتعاقد مع فتاة تعرف الإنكليزية والإسبانية جيّداً، بالرغم من أنّه كان يعمل في الورشة أكثر من ميكانيكيٍّ يعرف الإنكليزية ويستطيع أن يُساعدها. في مدرسة السكرتيرات قالوا له إنّ لديهم الفتاة التي كانت تبحث عنها، وسألوها متى كانت تريدها. وضّحت لهم لوتٌ أنّها تريدها فوراً. ظهرت في الورشة، بعد ثلاث ساعات، فتاة تقارب

الخامسة والعشرين من عمرها، سبطة الشعر البنيّ الفاتح، ترتدي بنطلون جينز تمزح مع الميكانيكيين قبل أن تصعد إلى مكتب لوتّ.

كانت الفتاة تُدعى إنغريد، وضحت لها لوتّ أنّ ابنها سجين في المكسيك وعليها أن تتكلّم مع محاميته المكسيكية، لكنّ هذه لا تعرف غير الإنكليزية والإسبانية. اعتقدت لوتّ بعد أن تكلّمت أنّ عليها أن تشرح لها كلّ شيء مرّةً أخرى، لكنّ إنغريد كانت فتاة ذكية ولم تحتج لذلك. أخذت الهاتف وهتفت إلى رقم الاستعلامات العامّة كي تستعلم عن الفارق الزمني مع المكسيك. هتفت بعدها للمحامية وبقيت تتكلّم معها بالإسبانية قرابة الخمس عشرة دقيقة وإن كانت تنتقل من حين إلى آخر إلى الإنكليزية كي تستوضح بعض المصطلحات ولم تتوقف عن تسجيل الملاحظات في دفترها. قالت في النهاية: سوف نعود ونتكلّم معكِ وأغلقت الهاتف.

كانت لوتّ جالسة إلى الطاولة فحضَّرت نفسَها، حين أغلقت إنغريد الهاتف، لما هو أسوأ.

- كلاوس سجين في سانتا ترِسا، وهي مدينة من شمال المكسيك، على الحدود مع الولايات المتحدة -قالت- لكنّ صحته جيّدة ولم يعانِ من أذيّاتٍ جسدية

لكن قبل أن تسأل لوتّ لماذا كان سجيناً اقترحت إنغريد أن تتناولا شاياً أو قهوةً. حضّرت لوتّ فنجاني شاي وبينما هي تتحرّك في المطبخ راحت تراقب إنغريد التي كانت تراجع ملاحظاتها.

- يتهمونه بأنّه قتل عدداً من النساء -قالت الفتاة بعد أن شربت رشفتي شاي.

- كلاوس لا يفعل هذا إطلاقاً -قالت لوتّ.

حرّكت إنغريد رأسها بالموافقة ثمّ قالت إنّ المحامية، المدعوّة فيكتوريا سانتولايا، بحاجة إلى مال.

حلمت لوتّ في تلك الليلة لأوّل مرّة منذ زمن طويل بأخيها. رأت

أخاها يسير في الصحراء، ببنطلون قصير وقبّعة قشّ، وكان كلّ ما حوله رملاً، كثباناً تتالى حتى خطّ الأفق. هي تصرخ له بشيء، تقول له توقّف عن الحركة، من هنا لن تصل إلى أيّ مكان، لكنّ أرشيمبولدي راح يبتعد في كلّ مرّة أكثر، كما لو أنّه يُريد أن يضيع إلى الأبد في تلك البلاد المستغلقة والعدوانية.

- مستغلقة وعدوانية *أيضاً* -قالت له، وفي تلك اللحظة وحدها انتبهت إلى أنّها كانت من جديد طفلة تعيش في ضيعة بروسية بين الغابة والبحر.

- لا -قال لها أرشيمبولدي، لكنّه قالها كما لو أنّه يهمس في أذنها-، هذه البلاد هي قبل كلّ شيء مُضجِرة، مضجرة، مُضجرة...

حين استيقظت عرفت أنّ عليها أن تذهب إلى المكسيك دون أن تُضيّع دقيقة واحدة. ظهرت إنغريد عند الظهيرة في الورشة. رأتها لوتّ من خلف زجاج مكتبها. وكعادتها كانت تمزح مع اثنين من الميكانيكيين قبل أن تصعد. ضحكتها المُخفّفة بالزجاج بدت لها طرية وطلقةً. ومع ذلك كانت إنغريد تتصرّفُ حين تصبح أمامها بطريقة أكثر جدّية بكثير. تناولتا الشايَ مع البسكويت قبل أن تهتفا إلى المحامية. لم تكن لوتّ قد ذاقت طعاماً منذ أربع وعشرين ساعة فواتاها البسكويت، كما أنّ وجود إنغريد أراحها: كانت فتاة عقلانية وبسيطة، تعرف كيف تمزح في اللحظة المناسبة وتعرف كيف تصير جدّية حين يكون عليها أن تصير جدّية.

حين اتصلتا بالمحامية أشارت لوتّ إلى إنغريد أن تقول لها، إنّها ستذهبُ شخصيّاً إلى سانتا تِرِسا لتحلّ كلّ ما عليها أن تحلّه. أعطت المحاميةُ، التي كانت تبدو وَسِنَةً، كما لو أنّهم أخرجوها توّاً من الفراش، إنغريد عنوانين، قطعتا بعدها الاتصال. زارت لوتّ في ذلك المساء محاميها وشرحت له القضيّة. أجرى محاميها اتصالين ثمّ طلب منها أن تكون حذرة، فالمحامون المكسيكيون لا يمكن الثقة بهم.

- أعرف هذا - قالت لوتّ بثقة.

كما نصحها بالطريقة الأفضل لإرسال الحوالات المصرفية. هتفت ليلاً إلى إنغريد وسألتها عما إذا كانت ترغب بأن ترافقها إلى المكسيك.

- طبعاً سأدفع لك - قالت.

- كمترجمة؟ -سألتها إنغريد.

- كمترجمة، كترجمانة، كوصيفة مُرافِقة، أو ما كان - قالت لوتّ منزعجة.

- أقبل - قالت إنغريد.

خرجتا بعد أربعة أيّام متجهتين إلى لوس أنجلوس. ومن هناك أخذتا طائرة أخرى إلى توكسون ومن توكسون سافرتا في سيارة مستَأجرة إلى سانتا تِرِسا. عندما استطاعت أن ترى كلاوس كان أوّل شيء قاله لها هذا هو أنّها هرمت، وهو ما أخجل لوتّ.

السنون لا تمرّ عبثاً، كان بودّها أن تُجيبه، لكنّ دموعها منعتها. كانوا أربعتهم، المحامية، وإنغريد وهي وكلاوس، في غرفة أرضها وجدرانها إسمنتية تعلوها بقع الرطوبة، وفيها طاولة بلاستيكية تُقلّد الخشب مسمّرة بالأرض ومقعدان من ألواح خشبية، أيضاً مثبتان إلى الأرض. كانت هي وإنغريد والمحامية جالسات على مقعد وكلاوس على آخر. لم يأتوا به مُقيّداً ولا بما يدلّ على سوء المعاملة. لاحظت لوتّ أنّه سمن عن المرة الأخيرة التي رأته فيها، لكن هذا كان منذ سنوات كثيرة، وكلاوس لم يكن غير فتى. حين عدّدت لها المحامية كلّ جرائم القتل التي يعزونها إليه، فكّرت لوتِ أنّ أولئك الناس قد جُنّوا. ما من أحد سليم العقل قادر على قتل كلّ أولاء النساء، قالت لها.

ابتسمت لها المُحامية وقالت إنّ في سانتا تِرِسا شخصاً، ربّما ليس سليم العقل، يفعل ذلك.

كان مكتب المحامية في المنطقة المرتفعة من المدينة، في الشقّة

ذاتها التي يوجد فيها مسكنها. كان هناك بابا دخول، لكنّ الشقّة هي نفسها بثلاثة أو أربعة جدران حسنة التلييس جدّاً.

- أنا أيضاً أعيش في مكان مثل هذا -قالت لوتٌ ولم تفهم المحامية، مما جعل إنغريد تشرح من جانبها موضوع ورشة الميكانيك والطابق الذي كان فوق الورشة.

نزلنا في سانتا تِرِسا، بنصيحة من المحامية، في أفضل فندق في المدينة، فندق لاس دوناس (الكثبان)، مع أنّه لم يكن في المدينة أي نوعٍ من الكثبان، بحسب ما أعلمتها إنغريد، ولا في محيطها ولا في دائرة قطرها مئة كيلومتر. كانت لوتٌ مستعدةً في البداية لأن تأخذ غرفتين، لكنّ إنغريد أقنعتها كي تأخذ واحدة فقط، فهي أرخص. كان قد مضى عليها زمن طويل لم تشارك فيه لوتٌ أحداً غرفتها، كانت تتأخّر في الليالي الأولى حتى تنام فتُشعل التلفاز، دون صوت، وتنظر إليه من السرير كي تتسلّى: ناس يتكلّمون ويؤشّرون ويُحاولون أن يقنعوا ناساً آخرين بشيء ربّما كان مهمّاً.

في الليل كان هناك برامج وعظ تلفزيوني كثيرة. كان سهلاً تمييز الوعّاظ لتلفزيونيين المكسيكيين: كانوا سمراً ويعرقون كثيراً وتبدو الأطقمُ وربطات العنق التي كانوا يستخدمونها مقتناةً من حوانيت الملابس المستعملة، وإن كان من المحتمل أنّها جديدة. كذلك عظاتهم كانت أكثر مأساوية، أكثر إدهاشاً ومشاركة الجمهور أكبر، جمهور يبدو من ناحية أخرى مخدّراً وشقيّاً، بعكس ما كان يحدث مع جمهور وعّاظ التلفزيونات الأمريكية الشمالية، الذين كانوا يذهبون مثلهم بثياب رثّة، لكن يبدو على الأقل أنّ عملهم ثابت.

ربّما أنا أظنّ هذا، كانت تُفكّر لوتٌ في ليل الحدود المكسيكية، فقط لأنّهم بيض، ربّما كان بعضهم مُتَحَدِّراً من ألمان أو هولنديين وبالتالي هم أقرب إليّ.

حين كان يغلبها النوم دون أن تُطفئ التلفازِ، كانت تحلم

بِأرشيمبولدي. تراه جالساً على بلاطة بركانيّةٍ هائلة، يرتدي الأسمال وفأس في يده، ينظر إليها بحزنٍ. ربّما أنّ أخي مات، كانت تُفكّر لوتّ في حلمها، لكنَّ ابني حيّ.

في اليوم التالي الذي زارت فيه كلاوس حكت له، محاولة ألاّ تكون فجّة، أنَّ فارزر مات. أصغى إليها كلاوس وهزّ رأسه دون أن يغيّر تعبيرات وجهه. كان رجلاً طيّباً قال، لكنّه قال ذلك بالحيادية ذاتها التي يمكن أن يشير فيها إلى رفيق له في السجن.

في اليوم الثالث بينما كانت إنغريد تقرأ كتاباً برصانة في زاوية من الصالة، سألها عن خاله، لا أعرف ماذا حلّ به، قالت لوتّ. ومع ذلك فاجأها سؤال كلاوس ولم تستطع أن تتفادى أن تحكي له أنّها منذ أن وصلت إلى سانتا تِرِسا وهي تحلم به. طلب منها كلاوس أن تحكي له حلماً واحداً. اعترف لها بعد أن حكت له لوتّ أنّه بقي زمناً طويلاً يحلم بِأرشيمبولدي وأنّ الأحلام لم تكن حسنة.

- ما نوع الأحلام التي كنتُ تراها؟ -سألته لوتّ.

- أحلام سيّئة -قال كلاوس.

ابتسم بعدها وانتقلا للحديث عن أشياء أخرى.

حين كانت تنتهي الزيارات كانت لوتّ وإنغريد تذهبان لتقوما بجولة في السيّارة في المدينة وذهبتا مرّة إلى سوق الأعمال اليدوية الهندية. لا شكّ أنّ الأعمال اليدوية الهندية، بحسب لوتّ، تمّت صناعتها في الصين أو في تايلانديا، لكنّها أعجبت إنغريد فاشترت ثلاثة تماثيل صغيرة من الصلصال المشوي، دون طلاء ولا رسوم، ثلاثة تماثيل صغيرة خشنة جدّاً وقويّة جدّاً، تُمثّل أباً وأمّاً وابناً وأهدتها إلى لوتّ قائلة بأنّ هذه التماثيل سوف تأتيها بالحظّ الحسن. وذات صباح ذهبتا إلى تيخوانا، إلى القنصلية الألمانية. فكّرتا أن تقوما بالرحلة في السيارة، لكنّ المحاميةَ نصحتهما بأن تأخذا الطائرة التي تربط بين المدينتين وتخرجُ مرّة واحدة في اليوم. في تيخوانا نزلتا في فندق في

مركز المدينة السياحي، الصاخب والمليء بناس لا يبدون سائحين، بحسب رأي لوتّ، واستطاعت في ذلك الصباح ذاته أن تتكلّم مع القنصل وتُوَضّح له قضيّة ابنها. كان القنصل، بعكس ما كانت تظنّ لوتّ، على اطّلاع على كلّ شيء، وبحسب ما وضّح لهما، زار موظّفٌ في القنصلية كلاوس، الأمر الذي نفته المحامية نفياً قاطعاً.

من المحتمل أنّ المُحامية لم تعلم بالزيارة، أو أنّها لم تكن بعد محامية كلاوس، قال القنصلُ، أو أنّ كلاوس فضّل ألا يقول شيئاً. ثمّ إنّ كلاوس كان يتمتع بكامل حقوق المواطن الأمريكي الشمالي وهذا ما كان يطرح سلسلة من المشاكل. في هذه الحالة يجب أن يذهب المرء بقدمين من رصاص، ختم القنصل قوله، ولم يفد إطلاقاً أن تؤكّد له لوتّ أنّ ابنها كان بريئاً. على كلّ الأحوال كانت القنصلية قد تدخّلت في القضيّة فعادت لوتّ وإنغريد إلى سانتا تِرِسا أكثر طمأنينة.

لم تستطيعا في اليومين الأخيرين أن تزورا كلاوس ولا أن تكلماه بالهاتف، بالرغم من أنّ لوتّ كانت تعرف أنّ كلاوس يملك هاتفاً جوّالاً وأنّه كان يقضي اليوم أحياناً وهو يتكلّم مع الخارج. ومع ذلك لم تكن ترغب بأن تُثير مشاكل ولا أن تُعارض محاميَتَهُ وكرّست ذينك اليومين للتجوال في المدينة، التي بدت لها أكثر برقشة من أيّ وقتٍ مضى وأقل أهميّة. أغلقت قبل أن تنطلقا إلى توكسون، على نفسها غرفة الفندق وكتبت إلى ابنها رسالةً طويلة ستسلمها له المحامية حين تكون هي قد غادرت. ذهبت برفقة إنغريد لترى من الخارج البيتَ الذي عاش فيه كلاوس في سانتا تِرِسا، كمن يزور صرحاً، وبدا لها مقبولاً، بيت من الطراز الكاليفورني، يُسر الناظر. ذهبت بعدها إلى حانوت المعلوماتية والأجهزة الإلكترونية الذي كان يملكه كلاوس في مركز المدينة ووجدته مغلقاً، تماماً كما نوّهت المحامية، فالحانوت كان ملكاً لكلاوس ولم يبغِ هو أن يؤجّره، لأنّه كان يثق بأنّه سيُطلق سراحُهُ قبل المحاكمة.

فجأة شعرت بعد العودة إلى ألمانيا بأنّ الرحلةَ أتعبتها أكثر بكثير مما توقّعت. بقيت عدّةَ أيام في السرير، دون أن تظهر في مكتبها، لكنّها كانت في كلّ مرّة يرنّ فيها الهاتف تسرع إلى الردّ، فربّما كانت المكالمة من المكسيك. في أحد الأحلامِ التي رأتها في تلك الأيّام كان يهمس في أذنها صوتٌ حارّ ورقيقٌ باحتمال أن يكون ابنها هو حقيقةً قاتلُ النساء في سانتا تِرِسا.

- هذا شيء مضحك -كانت تصرخ وتستيقظ على الفور.

من كان يهتف لها أحياناً هي إنغريد. لم تكن تتكلّم أكثر من اللازم، كانت الشابّةُ تسألها عن صحّتها وتُظهر اهتماماً بآخر الأخبار عن قضّية كلاوس. كانت مشكلة اللغة قد حُلَّت من خلال الرسائل الإلكترونية، التي كانت لوتّ تجعل أحد الميكانيكيين يترجمها لها. ظهرت إنغريد في بيتها ذات مساء ومعها هديّة: قاموس ألماني - إسباني، شكرتها عليه لوتّ بتأثّر شديد، بالرغم من أنّها كانت في قرارة نفسها متأكّدة من أنّها هدية غير مجدية إطلاقاً. ومع ذلك بينما كانت بعد قليل تنظر إلى الصور التي راحت تظهر في ملفّ قضية كلاوس، الذي أعطته لها المحامية، أخذت قاموسَ إنغريد وراحت تبحث عن بعض الكلمات. بعد أيّام وليس بقليل من الدهشة انتبهت إلى أنّها تملك سهولة فطرية مع اللغات.

عادت في عام ١٩٩٦ إلى سانتا تِرِسا وطلبت من إنغريد أن تُرافقها. كانت إنغريد تخرج وقتذاك مع فتى يعمل في مكتب عمارة، مع أنّه لم يكن مهندساً معمارياً ودعواها ذات ليلة إلى العشاء. كان الفتى مهتمّاً جدّاً بما كان يجري في سانتا تِرِسا وظنّت لوتّ للحظة بأنّ إنغريد كانت تريد أن تسافر مع خطيبها، لكنّ إنغريد قالت لها إنّه لم يُصبح بعدُ خطيبها، وإنّها مستعدة لأن تُرافقها.

كان على المحاكمة أن تتمّ في عام ١٩٩٦، لكنّها أُجِّلَت أخيراً ومكثت لوتّ وإنغريد تسعة أيّام في سانتا تِرِسا تزوران كلاوس في كلّ

يوم استطاعتا فيه ذلك، تتنزّهان في المدينة وتغلقان على نفسيهما غرفةَ الفندق تشاهدان التلفزيون. كانت إنغريد تُعْلمها أحياناً ليلاً أنّها ذاهبة إلى بار الفندق لتشرب قدحاً، أو أنّها ذاهبة لترقص في مرقص الفندق وعندها كانت لوتّ تبقى لوحدها وتبدّل القناة، فقد كانت إنغريد تضع التلفاز على برامج بالإنكليزية، وهي تُفضّل أن ترى برامج مكسيكية، كانت تُفكّر أنّها طريقةٌ تُقَرّبها من ابنها.

في مناسبتين لم تعد إنغريد إلى الغرفة حتى ما بعد الخامسة صباحاً، وكانت دائماً تجد لوتّ مستيقظة، جالسة عند قدمي السرير أو على كرسيّ والتلفاز مشتعل. وذات ليلة، لم تكن فيها إنغريد موجودة، هتف لها كلاوس وكان أوّل شيء خطر ببال لوتٍّ هو أنّ كلاوس قد فرَّ من ذلك السجن المريع، الموجود على حافّة الصحراء. سألها كلاوس بنبرة صوتٍ عاديّة، أو بالأحرى مسترخية، كيف حالها فأجابته لوتٍّ جيّدة ولم تعرف ماذا تقول أكثر، وحين استعادت سيطرتها على نفسها سألته من أين كان يتكلّم.

- من السجن - قال كلاوس.

نظرت لوتّ إلى ساعتها.

- كيف يسمحون لك أن تهتف في مثل هذه الساعة؟ - قالت.

- لا أحد يسمح لي بشيء - قال كلاوس وضحك -، أهتف لك من جوّالي.

عندئذٍ تذكّرت لوتّ أنّ المحامية قالت لها إنّ كلاوس يملك جوّالاً، وتابعا بعدها كلامهما عن أشياء أخرى، إلى أن قال لها كلاوس إنّه رأى حلماً وتبدّل صوتُهُ، فلم يعد صوتاً رصيناً، عرضيّاً، بل صوتاً ذا نبرات عميقة ذكّر لوتّ بالمرّة التي التقت فيها بممثّلٍ، في ألمانيا يلقي قصيدة. لم تكن تتذكّر القصيدة، قصيدة كلاسيكية، بالتأكيد، لكنّ صوتَ المُمَثّل كان كما لو كيلا يُنسى أبداً.

- بماذا حلمت؟ - سألته.

- ألا تعرفين؟ -سألها كلاوس.
- لا أعرف - قالت لوتّ.
- إذن من الأفضل ألاّ أقوله لك -قال كلاوس وقطع الاتصال.

كان دافع لوتّ الأوّل هو أن تهتف له على الفور وتتابع حديثها معه، لكنّها لم تتأخر في اكتشاف أنّها لم تكن تعرف رقمه، وهكذا هتفت بعد أن تردّدت بضع دقائق، إلى فيكتوريا سانتولايا، المحامية، بالرغم من أنّها كانت تعرف أنّ الاتصال في مثل تلك الساعة قلّة أدب، حين أخذت المحامية السمّاعة أخيراً شرحت لها لوتّ بمزيجٍ من الألمانية والإسبانية والإنكليزية، أنّها تريد أن تعرفَ رقم جوّال كلاوس. وهجّت لها المُحامية بعد صمت طويل الأرقام حتى تأكّدت من أنّ لوتّ قد كتبتها بشكل صحيح ثمّ أغلقت الهاتف.

ومن جهة أخرى بدا للوتّ ذلك «الصمت الطويل» مشحوناً بعلامات استفهام، فالمحامية لم تترك الهاتف لتذهب وتبحث عن مفكّرتها التي تسجل فيها رقم كلاوس، بل لزمت الصمتَ، على الجانب الآخر من الجهاز، ربّما في موقف تَفَكُّرٍ، ريثما تُقرِّر ما إذا كانت ستعطيه لها أم لا. على كلّ الأحوال سمعتها لوتّ تتنفّس وسط ذلك «الصمت الطويل». يمكن القول إنّها سمعتها تتخبّطُ بين احتمالين. هتفت لوتّ بعدها إلى جوّال كلاوس، لكنّ الخطّ كان يُعطي رنّة مشغول. انتظرت عشر دقائق وعادت لتتصل وبقي الخطّ مشغولاً. مع من كان يتكلّم كلاوس في تلك الساعات من الليل؟، فكّرت.

حين ذهبت لزيارته في اليوم التالي فضّلت ألا تتطرّق إلى هذا الموضوع وألاّ تسأل شيئاً. كما أنّ موقف كلاوس كان ذاته دائماً، متحفظّاً وبارداً، كما لو أنّه لم يكن هو السجين.

بالرغم من كلّ شيء لم تشعر لوتّ خلال هذه الزيارة الثانية إلى المكسيك، بنفسها ضائعة كما في المرّة الأولى. كانت تتكلّم أحياناً بينما هي تنتظر في السجن مع النساء الأخريات اللواتي كنّ يذهبن

لزيارة السجناء. تعلّمت أن تقول: طفل جميل، أو ولد حلو، حين كانت النساء يحملن معهنّ طفلاً أو طفلة جرّاً، أو: عجوز طيّبة، أو عجوز لطيفة، حين كانت ترى أمّهات أو جدّات السجناء، ملفوفات بعباءاتهن، ينتظرن في الصف ساعة الدخول بحركات جريئة أو استسلامية. هي ذاتها اشترت في اليوم الثالث عباءة ولم تكن تستطيع أحياناً، بينما هي تسير خلف إنغريد والمُحامية، أن تكبح دموعها فتفيدها العباءة كي تغطي وجهها مختلية بنفسها قليلاً.

عادت في عام ١٩٩٧ إلى المكسيك، لكنّها عادت هذه المرّة وحدها لأنّ إنغريد حصلت على عمل جيّد ولم تستطع أن تُرافقها. كانت لغة لوتّ الإسبانية، التي انكبّت على تعلّمها، أفضل بكثير وصار باستطاعتها أن تتكلّم بالهاتف مع المحامية. مرّت الرحلة دون أيّ طارئ، بالرغم من أنّها ما إن وصلت إلى سانتا تِرِسا حتى فهمت من الوجه الذي استقبلتها به فيكتوريا سانتولايا حين رأتها ثمّ من العناق المفرط في طوله، أنّ شيئاً ما غريباً قد حدث. دامت المحاكمةُ، التي جرت كما في حلم، عشرين يوماً أعلنوا في نهايتها أنّ كلاوس مسؤول عن أربع عمليات قتل.

في تلك الليلة رافقتها المحاميةُ إلى الفندق وبما أنّها لم تقم بأيّ شيء يدلّ على أنّها ستذهب، ظنّت لوتّ أنّها كانت تُريدُ أن تقول لها شيئاً ولا تعرف كيف تقوله، دعتها لتناول كأس في البار، بالرغم من أنّها كانت مُتعبة وأكثر ما ترغب به هو الدخول في الفراش والنوم. بينما كانتا تشربان بجانب النافذة التي تُشاهد منها أضواء السيارات التي راحت تمرّ في الجادّة الكبيرة، المحاطة بالأشجار، بدأت المحامية، التي بدت متعبةً مثلها، تلعن بالإسبانية، أو هذا ما ظنّته لوتِ، ثمّ راحت تبكي دون أيّ تحفّظ. هذه المرأة عاشقةٌ لابني، فكّرت. قالت لها فيكتوريا سانتولايا، قبل أن تُغادر سانتا تِرِسا، إنّ المحاكمة كانت مليئة بالثغرات وإنّ من المحتمل أن تعتبر ملغاة. على كلّ الأحوال،

أكّدت، أنا سأستأنف. فكّرت لوتّ خلال رحلة العودة في السيارة، بينما هي تسوق في الصحراء، بابنها، الذي لم تؤثّر عليه الحكم القضائيّ أدنى تأثير، وبالمحامية، وفكّرت بأن الاثنين، وبطريقة غريبة جدّاً، يشكلان زوجين جيّدين.

في عام ١٩٩٨ اعتُبِرَ الحكمُ ملغيّاً وحُدِّد تاريخٌ لمحاكمة ثانية. وذات ليلة بينما كانت تتحدّث بالهاتف مع فيكتوريا سانتولايا من بادِربورن، سألتها بالفم الملآن عمّا إذا كان هناك شيء أكثر بينها وبين ابنها.

- بلى، هناك شيء أكثر -قالت المحامية.

- ألا تعانين أكثر من اللازم؟ -سألتها لوتّ.

- ليس أكثر منك -قالت فيكتوريا.

- لا أفهم -قالت لوتّ-، أنا أمّه لكن أنت تملكين حرّية الاختيار.

- في الحب لا أحد يختار -قالت فيكتوريا سانتولايا.

- وهل كلاوس متجاوب معك؟ -سألت لوتّ.

- أنا من ينام معه -قات فيكتوريا سانتولايا بفجاجة.

- لم تفهم لوتّ ما كانت تُشير إليه. لكنّها تذكّرت بعدها أنّ في المكسيك كما في ألمانيا، لكلّ سجين الحقّ بزيارة زوجية، أو بزيارة حميمة. كانت قد شاهدت برنامجاً تلفزيونياً حول هذا الموضوع. كانت الغرف التي يختلي فيها السجناءُ مع زوجاتهم كئيبة جدّاً، تذكّرت. كانت النساء ينهمكن في ترتيبها، لكنّهنّ فقط كنّ يتمكن من تحويلها بالأزهار والمناديل من غرف كئيبة ليس فيها بصمات شخصية إلى غرف كئيبة في مواخير رخيصة. وكان هذا في السجون الألمانية الجيّدة، فكّرت لوتّ، سجون ليست مزدحمة، نظيفة، وظيفية، لم تكن تريد ولا حتى أن تُفكّر كيف هي الزيارة الزوجية في سجن سانتا تِرِسا.

- يبدو لي مدهشاً ما تقومين به تجاه ابني -قالت لوتّ.

- ليس شيئاً -قالت المحامية-، ما أتلقاه من كلاوس ليس له ثمن.

فكّرت في تلك الليلة قبل أن تنام بفيكتوريا سانتولايا وبِكلاوس وتخيّلتهما معاً في ألمانيا أو أيّ مكان من أوروبا ورأت فيكتوريا سانتولايا منتفخة البطن تنتظر مولوداً من كلاوس ونامت بعدها مثل طفل رضيع.

في عام ١٩٩٨ سافرت لوتّ مرّتين إلى المكسيك وبقيت في سانتا تِرِسا ما مجمله أربعين يوماً. أجّلت المحاكمة إلى عام ١٩٩٩. حين وصلت من توكسون في رحلة قادمة من لوس أنجلوس، حدثت معها مشاكل مع مستخدمي وكالة تأجير سيارات، رفضت أن تُؤجّرها سيارة بسبب عمرها.

- أنا عجوز، لكنّني أعرف القيادة -قالت لوتّ بالإسبانية- ولم يحدث معي قط أيّ حادث.

- أوقفت لوتّ، بعد أن أضاعت نصف صباح في النقاش، سيارة أجرة وذهبت فيها إلى سانتا تِرِسا. كان السائق يُدعى ستيف هِرناندِث ويتكلّم الإسبانية، سألها بينما كانا يعبران الصحراء ما الذي جاء بها إلى المكسيك.

- جئت لأرى ابني -قالت لوتّ.

- في المرّة القادمة التي تأتين فيها -قال لها السائق-، قولي لابنك أن يذهب إلى توكسون ليبحث عنك، لأنّ الرحلة لن تكون رخيصة.

- وماذا أتمنّى أكثر من ذلك -قالت لوتّ.

في عام ١٩٩٩ عادت إلى المكسيك وذهبت المحامية هذه المرّة لتنتظرها في توكسون. لم يكن ذلك العام عاماً حسناً بالنسبة إلى لوتّ. فالأعمال في بادربورن لم تسِرْ بشكل جيّد وكانت تُفكّر جدّياً بأن تبيع الورشة والبناء، بما في ذلك بيتها. لم تكن صحّتها على ما يرام. لم

يعثر الأطباء الذين فحصوها على شيء. لكنّ لوتّ كانت تشعر أحياناً بأنّها غير قادرة على القيام بأبسط الأعمال. كانت في كلّ مرّة كان يسوء فيها الطقس تُصاب بالزكام ويتوجّب عليها أن تُمضي في الفراش عدّةَ أيّام، مرتفعةَ الحرارة أحياناً.

لم تستطع في عام ٢٠٠٠ أن تذهب إلى المكسيك، لكنّها كانت تتكلّم مع المحامية بالهاتف مرّةً في الأسبوع، فتُطلِعُها هذه على آخر المستجدات المتعلّقة بكلاوس. حين لم تكن تتكلّم بالهاتف تتصل عبر البريد الإلكتروني، بل وركّبت فاكس في بيتها كي تتلقى الوثائق الجديدة التي راحت تظهر حول النساء المقتولات. استعدّت لوتّ في ذلك العام، الذي لم تذهب فيه إلى المكسيك، بوعي وتصميم كي تكون في صحّة جيدة وتستطيع أن تُسافر في العام التالي. أخذت فيتامينات، تعاقدت مع معالج فيزيائي، زارت مرّةً في الأسبوع صينياً يمارس العلاج بالإبر. اتبعت حمية خاصّة تكثر فيها الفواكه والسلطات. تخلّت عن أكل اللحوم، التي استبدلتها بالسمك.

حين حلّ العام ٢٠٠١ كانت مستعدة للشروع برحلة أخرى إلى المكسيك. بالرغم من أنّ صحتها لم تكن كما في السابق، بالرغم من كلّ العناية التي أحاطت بها نفسها. وكذلك أعصابها كما سنرى.

دخلت، بينما كانت تنتظر في مطار فرانكفورت الطائرة التي ستقلّها إلى لوس أنجِلوس، إلى مكتبة واشترت كتاباً ومجلّتين. لم تكن لوتّ قارئة جيّدة، لِيَعْنِ هذا ما يعني، وإذا كانت تشتري بين الحين والآخر كتاباً فعامّة ما يكون من تلك التي يكتبها المُمَثِّلون حين يتقاعدون أو حين يمضون زمناً طويلاً دون أن يمثلوا في فيلم، أو سير ناسٍ مشاهير، أو تلك الكتب التي يكتبها مقدّمو البرامج التلفزيونية والمليئة ظاهرياً بالنوادر المهمّة، لكنّها في الحقيقة لا توجد فيها نادرة واحدة.

ومع ذلك اشترت هذه المرّة سهواً أو بسبب السرعة كيلا تضيع الرحلةُ منها كتاباً عنوانه *ملك الغابة*، كان مؤلّفه يُدعى بِنو فون

أرشيمبولدي. كان الكتابُ، الذي لم يكن يحتوي على أكثر من مئة وخمسين صفحة، يتكلّمُ عن أعرج وعوراء وابنيهما، فتى كان يُحبّ السباحة وطفلة كانت تتبع أخاها إلى الجروف. انتبهت لوتّ بذهولٍ، بينما كانت الطائرة تعبر المحيط الأطلسي، إلى أنّها كانت تقرأ جزءاً من طفولتها.

كان الأسلوب غريباً، كانت الكتابة واضحة بل وشفّافة أحياناً، لكنّ الطريقة التي كانت تتالى فيها القصص لا تقود إلى أيّ مكان: لا يبقى غير الطفلين، والديهما، الحيوانات وبعض الجيران والحقيقة أنّ الشيء الذي يبقى النهاية هو الطبيعة، الطبيعة التي تمضي متفكّكةً في مرجل يغلي حتى تختفي كلّياً.

بينما كان الركّابُ نياماً، بدأت لوتّ تقرأ الروايةَ للمرّة الثانية، متخطّيةً الأجزاء التي لم تكن تتكلّم عن أسرتها أو بيتِها أو جيرانِها أو عن فناء بيتهم وفي النهاية لم ينتبها شكّ بأنّ المؤلّف، هذا المدعو بِنو فون أرشيمبولدي، هو أخوها، وإن كان هناك احتمال أن يكون المؤلّف قد تكلّم مع أخيها، هذا الاحتمال الذي رفضته لوتّ على الفور، لأنّ الكتاب برأيها يحتوي على أشياء ما كان أخوها ليحكيها أبداً لأحد، دون أن تتوقّف عند أنّه بكتابتها كان يحكيها للجميع.

لم يكن الغلاف الأخير يحتوي على صورة للمؤلّف، وإن كان يحتوي فعلاً على تاريخ ميلاده، ١٩٢٠، العام الذي وُلِدَ فيه أخوها ولائحة طويلة من العناوين، جميعها صادرة عن دار واحدة. كما يُخبر عن أنّ بِنّو فون أرشيمبولدي تُرجم إلى أكثر من عشر لغات وعن أنّه مرشَّح منذ بضع سنوات إلى جائزة نوبل. راحت، بينما كانت تنتظر في لوس أنجِلوس الطائرةَ التي ستقلّها إلى توكسون، تبحثُ عن مزيد من كتب أرشيمبولدي، لكن في مكتبات المطارات فقط كانت توجدُ كتبٌ عن سكان الفضاء الخارجي، ناس مختطَفين من قبل رجال الفضاء الخارجي، لقاءات في المرحلة الثالثة ومشاهد أطباق طائرة.

كانت المحامية بانتظارها في توكسون، فراحتا خلال الطريق إلى سانتا تِرِسا تتكلّمان عن القضيّة، التي كانت بحسب المحامية في حالة جمود منذ زمن طويل، وهذا أمر كان جيّداً، وإن لم تفهم لوتّ ذلك، فحالة الجمود بالنسبة إليها كانت أقرب إلى السيئة. ومع ذلك فضَّلَت ألا تناقضها وراحت تتأمّل المنظر. كان زجاج نوافذ السيارة منزّلاً وهواءُ الصحراء، الهواء الحلو، الدبق والحار، كلّ ما كانت تحتاجه لوتّ بعد السفر في الطائرة.

في اليوم ذاته ذهبت إلى السجن وشعرت بالسعادة حين عرفتها امرأةٌ عجوز.

- سعيدة العيون التي تراك، يا سيّدة -قالت العجوز.

- آه، يا مونتشيتا، كيف حالك؟ -قالت لوتّ بينما هي تعانقها طويلاً.

- هنا، كما ترينني هنا، على الجلجة ذاتها دائماً، يا شقرائي - أجابت العجوز.

- الابن هو الابن -حكمت لوتّ، وعادتا لتتعانقا.

وجدت كلاوس كما هو دائماً، متحفّظاً، بارداً، أنحل قليلاً، لكنّه بالقوّة ذاتها، بذات إيماءة الانزعاج غير الملحوظة الموجودة عنده منذ كان في السابعة عشرة من عمره. تكلّما عن أشياء غير ذات أهمّية، عن ألمانيا (بالرغم من أنّ كلّ شيء له علاقة بألمانيا لا يبدو أنّه يهمّ كلاوس قيد أنملة)، عن الرحلة، عن وضع ورشة الميكانيك، وحين غادرت المحامية، لأنّه كان عليها أن تتكلّم مع أحد موظّفي السجن، كلّمته لوتّ عن كتاب أرشيمبولدي، الذي قرأته خلال الرحلة. بدا كلاوس في البداية غير معنيّ، لكن حين أخرجت لوتّ الكتاب من حقيبة اليد وبدأت تقرأ الأقسام التي علّمت تحتها تبدّل محيّا كلاوس.

- إذا كنتَ تريد سأترك لك الكتاب -قالت لوتّ.

هزّ كلاوس رأسه موافقاً وأراد أن يأخذ الكتاب على الفور، لكنّ لوتّ لم تفلته.

- اتركني أوّلاً أسجّل ملاحظة - قالت بينما هي تُخرج مفكّرتها وتكتب عنوان دار النشر عليها. سلّمتهُ الكتابَ بعدها.

في تلك الليلة، بينما كانت لوتّ في الفندق تشرب عصير برتقال وتأكل بسكويتاً وتشاهد برامج بعض القنوات التلفزيونية المكسيكية، عند الفجر، أجرت مكالمة بعيدة إلى مكاتب دار نشر بوبيس في هامبورغ. وطلبت أن تتكلّم مع الناشر.

- الناشرة - قالت السكرتيرة -، السيّدة بوبيس، لكنّها لم تصل بعد، اهتفي لاحقاً من فضلك.

- حسن - قالت لوتّ، سأهتف فيما بعد ثمّ أضافت بعد أن تردّدت لحظة -. قولي لها هتفت لها لوتّ هاس، أخت بِنو فون أرشيمبولدي.

أغلقت الهاتف بعدها وهتفت إلى الاستقبال وطلبت أن يوقظوها بعد ثلاث ساعات. واستعدّت للنوم دون أن تخلع ملابسها. سمعت جلبة في الممر. كان التلفاز ما يزال مشتعلاً، لكن من دون صوت. حلمت بمقبرة فيها قبر عملاقٍ. كانت البلاطة تتصدّع والعملاق يطلّ بيدٍ، ثمّ بأخرى، ثمّ بالرأس، الرأس المزيّن بشعر طويل أشقر مليء بالتراب. استيقظت قبل أن يهتفوا لها من الاستقبال. عادت ورفعت صوت التلفاز وبقيت برهة تدور في الغرفة وترى بطرف عينها برنامج مغنّين هواة.

حين رنّ الهاتف شكرت عامل الاستقبال وعادت لتهتف إلى هامبورغ. ردّت عليها السكرتيرة ذاتها وقالت لها بأنّ الناشرة قد وصلت. انتظرت لوتّ بضع ثوان حتى سمعت صوتَ امرأةٍ حسن التوقيع، تلقّت، هذا ما بدا لها، تربيةً عليا.

- هل أنتِ الناشرة؟ - سألت لوتّ -. أنا أختُ بِنو فون

أرشيمبولدي، أي هانز رِيْتِر -صرّحت، ثم بقيت صامتة لأنّه لم يخطر لها ماذا تقول أكثر.

- هل تشعرين بأنّك بخير؟ هل أستطيع أن أفعل شيئاً لأجلك؟ قالت لي السكرتيرة إنّك تهتفين من المكسيك.

- بلى، أهتف من المكسيك -قالت لوتّ موشكةً على البكاء.

- هل تعيشين في المكسيك؟ من أيّ مكان من المكسيك تهتفين؟

- أنا أعيش في ألمانيا، يا سيّدة، في بادِربورن، وعندي ورشة ميكانيك وبعض الملكيات.

- آه، حسن -قالت الناشرة.

عندها فقط انتبهت لوتّ، دون أن تعرف جيّداً السببَ، ربّما من طريقة استغراب الناشرة، أو طريقة سؤالها، إلى أنّ الأمر يتعلّق بامرأة أكبر منها سنّاً، أي بامرأة عجوز جدّاً.

عندها انفتح بوّابةُ السدّ وقالت لها لوتّ إنّها لم تر أخاها من زمن طويل، وإنّ ابنها في المكسيك وإنّ زوجها مُتَوَفّى، وهي لم تتزوّج ثانية، وإنّ الحاجة واليأس جعلاها تتعلّم الإسبانية، وإنّها حتى الآن ما زالت تتخبّط مع هذه اللغة، وإنّ أمّها ماتت وإنّ من المحتمل أنّ أخاها لا يعرف ذلك حتى الآن، وإنّها تُفكّر ببيع ورشة الميكانيك، وإنّها قرأت كتاباً لأخيها في الطائرة، وكادت تموت من المباغتة، وإنّ الشيء الوحيد الذي فكّرت بِهِ، بينما كانت تعبر الصحراء، كان هو.

اعتذرت بعدها لوتّ وانتبهت في اللحظة ذاتها إلى أنّها كانت تبكي.

- متى تُفكّرين بالعودة إلى بادِربورن؟ -سمعت الناشرةَ تسألها.

ثمّ:

- أعطني عنوانك.

ثمّ:

- كنتِ طفلة شقراء جدّاً وشاحبة جدّاً وكانت أمّك تحملك معها حين كانت تذهب لتعمل في البيت.

فكّرت لوتّ: أيّ بيت تقصدُ؟، و: كيف يمكنني أن أتذكّر؟ لكنّها فكّرت بعدها بالبيت الوحيد، الذي كان يذهب بعض الأشخاص من الضيعة ليعملوا فيه، بيت البارون فون زومبِ الريفي، وعندها تذكّرت البيتَ والأيّام التي كانت تذهب فيها مع أمّها وتُساعدها في نفض الغبار والكنس وتلميع الشمعدانات وتشميع الأرض. لكنّ الناشرة قالت قبل أن تستطيع هي أن تقول شيئاً:

- آمل أن تتلقي قريباً أخباراً عن أخيك. سعيدة بتكلّمي معك. إلى اللقاء.

وأغلقت الهاتف. في المكسيك بقيت لوتّ برهة أخرى والهاتف ملتصق بأذنها. الجلبة التي كانت تسمعها كانت مثل جلبة الهاوية. الجلبة التي يسمعها شخص حين يتحطّم في الهاوية.

وذات ليلة بعد ثلاثة أشهر من عودتها إلى ألمانيا، ظهر أرشيمبولدي.

كانت لوتّ على وشك أن تنام، كانت قد ارتدت قميص النوم وعندها سمعت الجرس. سألت عبر الإنترفون من:

هذا أنا -قال أرشيمبولدي-، أخوك.

مكثا في تلك الليلة يتكلّمان حتى مطلع الفجر. تكلّمت لوتّ عن كلاوس، وعن قتل النساء في سانتا تِرِسا. كذلك تكلّمت عن أحلام كلاوس، تلك الأحلام التي كان يظهر فيها عملاق سينقذه من السجن، وإن ما عدت تبدو عملاقاً، قالت لِأرشيمبولدي.

- لم أكن قط عملاقاً -قال أرشيمبولدي بينما هو يدور في صالون وغرفة طعام بيت لوتّ ويقف بجانب رفّ يصطفّ عليه ما يُقارب الاثني عشر كتاباً من كتبه.

- ما عدت أعرف ماذا أفعل -قالت لوتّ بعد صمت طويل-. ما عاد عندي قوّة. لا أفهم شيئاً والقليل الذي أفهمه يُخيفني. لا شيء له معنى -قالت لوتِ.

- فقط أنت متعبة -قال أخوها.

- عجوز ومتعبة. أحتاج لأن يكون عندي أحفاد -قالت لوتّ-. أنت فعلاً عجوز -قالت لوتّ-. كم عمرك؟

- أكثر من ثمانين -قال أرشيمبولدي.

- أخاف أن أمرض -قالت لوتّ-. هل صحيح أنّك قد تفوز بجائزة نوبل؟ -سألت لوتّ-. أخاف أن يموت كلاوس. إنّه متعجرف، لا أدري لمن خرج. فارزِر لم يكن كذلك -قالت لوتّ-. لا أبي ولا أنت. لماذا حين تتكلّم عن أبينا تسميه الأعرج. وأمّي العوراء؟

- لأنّهما كانا كذلك فعلاً -قال أرشيمبولدي-، هل نسيتِ؟

- أحياناً، بلى -قال لوتّ-. السجن، رهيب، رهيب -قالت لوتّ- حتى ولو رحت تتكيّف شيئاً فشيئاً معه. إنّه كمن يُصاب بمرض -قالت لوتّ- السيّدة بوبيس أظهرت لطفاً كبيراً معي، تكلّمنا قليلاً، لكنّها كانت لطيفة جدّاً -قالت لوتّ-. هل أعرفها؟ هل رأيتُها ذات مرّة؟

- بلى -قال أرشيمبولدي-، لكنّك كنتِ صغيرة وما عدت تتذكّرين لمست بعدها برؤوس أصابعها الكتب. كان بينها من كلّ الأصناف: ما هو قاسي الجلد وخشنه وطبعات جيب.

- هناك أشياء كثيرة لا أتذكّرها -قالت لوتّ-. أشياء جيدة، سيّئة، أسوأ. لكنّني لا أنسى الناس اللطيفين أبداً -قالت لوتّ-، بالرغم من أنّ ابني يتعفّنُ في سجن مكسيكي. ومن سيهتمّ به؟ من سيتذكّره حين أموت؟ -قالت لوتّ-. ابني ليس عنده أبناء، ليس عنده أصدقاء، ليس عنده شيء -قالت لوتّ-. انظر بدأ الفجر يطلع. هل تريد شاياً، قهوةً، كأسَ ماء؟

جلس أرشيمبولدي ومطّ ساقيه. طقطقت عظامه.

- هل ستأخذُ أنتَ على عاتقك كلَّ شيء؟

- بيرة - قال.

- ليس عندي بيرة - قالت لوتّ -. هل ستأخذُ أنتَ على عاتقك كلَّ شيء؟

فورست بوكلر.

إذا أردت أن تتناول بوظة جيّدة من الشوكولاتة والفانيلا والفريز، تستطيع أن تطلب فورست بوكلر. وسيأتونك ببوظة من ثلاثة مذاقات، لكنّها ليست أيّ مذاقات بل بالضبط مذاقات الشوكولاتة والفانيلا والفريز. هذه هي الفورست بوكلر.

حين ترك أرشيمبولدي أخته غادر إلى هامبورغ، حيث كان يُفكّر أن يأخذ رحلة مباشرة إلى المكسيك. وبما أنّ الرحلة لن تخرج حتى اليوم التالي فقد راح يتجوّل في حديقة عامّة لم يكن يعرفها، حديقة كبيرة جدّاً ومليئة بالأشجار والدروب المبلطة، حيث كانت تتنزّه نساء مع أبنائهنّ وشباب متزلجون ومن حين لآخر طلاب على دراجاتهم. وجلس في شرفة بار، شرفة بعيدة كفاية عن البار المذكور، كما لو أنّنا نقول شرفة في وسط الغابة، وراح يقرأ وطلب بعدها شطيرة وبيرة ودفع ثمنها، ثمّ طلب فورست بوكلر ودفع ثمنها، لأنّه في الشرفة يجب أن يُدفع ثمن ما يُستهْلَكُ فوراً.

ومن ناحية أخرى في تلك الشرفة كان هو وحده وثلاث طاولات بعيدة (طاولات حديدية مصبوبة، متينة وأنيقة ويمكن القول تصعب سرقتها) كان هناك سيّد متقدّم في العمر، وإن لم يكن أكثر من أرشيمبولدي، يقرأ مجلةً ويتناول كامبوتشينو. حين أوشك أرشيمبولدي على الانتهاء من تناول بوظته، سأله السيّد عما إذا أعجبه.

- بلى، أعجبني - قال أرشيمبولدي ثمّ ابتسم.

نهض السيّد مدفوعاً أو متشجّعاً بتلك الابتسامة الودية عن كرسيّه وجلس إلى طاولة مجاورة.

- اسمح لي بأن أُقدّم لكَ نفسي -قال له-. اسمي ألكساندر فورست بوكلر. هو، كيف أُسَمّيه؟ مبدع هذه البوظة -قال- كان أحد أسلافي، فورست بوكلر لامعاً جداً، رحّالة عظيماً، رجلاً متنوّراً شهيراً، كانت هواياته الأولى النباتات والحدائق. بالطبع، كان يُفكرُ، هذا إذا فكّر ذات مرّة بهذا، بأنّه سوف يدخل، كيف أُسَمّيه، التاريخَ بسبب أحد كُتَيّباته التي كتبها ونشرها، وقائع أسفار في غالبيتها، لكنّها ليست بالضرورة وقائع أسفار بالمعنى المتعارف عليه، بل كتيبات ما زالت حتى اليوم ساحرة و، كيف أُسَمّيها، واضحة، يعني، واضحة ضمن الممكن، كتيبات يبدو فيها أنّ الهدف النهائي لكلّ رحلة كان دراسة حديقة معينة، وأحياناً حدائق منسية، مهجورة، متروكة لمصيرها، وكان سلفي الشهير يعرفُ كيف يعثر على سحرها وسطَ الأعشابِ البريّة والإهمال الكبير. كُتَيّباته، بالرغم من، كيف أسميه؟ من ردائها النباتي، مليئة بالملاحظات الفذّة التي يستطيع المرء من خلالها أن يُكوّن فكرة تقريبية كفاية عن أوروبا زمانِهِ، عن أوروبا كثيراً ما كانت مزعزعة، تصل عواصفها أحياناً إلى أطراف قلعة العائلة، الواقعة، كما ستعرف، على مقربة من غورليتز. طبعاً لم يكن سلفي غريباً عن العواصف، في الوقت الذي لم يكن فيه بعيداً عن نوائب، كيف أسميها، الشرط الإنساني. وبالتالي كان يكتب وينشر، وكان يرفع صوته، بطريقته المتواضعة لكن بنثر ألمانيّ جيدّ، ضدّ الظلم. أعتقد أنّه لم يكن يهمّه أين تذهب الروح حين يموت الجسد، مع أنّه كتب بعض الصفحات عن هذا. كانت تهمّه الكرامة وتهمّه النباتات. لم يقل كلمة واحدة عن السعادة، أظنّ لأنّه كان يعتبرها شيئاً حصريّاً وربّما، كيف أسميه؟ عويصاً، أو مقلقلاً. كان يملك روحاً فكاهية عالية، وإن كان ممكناً لبعض صفحاته أن تناقضني بسهولة. وبما أنّه لم يكن قدّيساً ولا

حتى رجلاً شجاعاً، قد يكون فكّر فعلاً بالأجيال القادمة. فكّر بالتمثال النصفيّ، بتمثال الفارس على ظهر جواده، بالمَلَازِم المحفوظة في مكتبة. ما لم يُفكّر به قطّ هو أنّه سيدخل التاريخ لإعطائه اسماً لتركيبة من البوظة من ثلاثة مذاقات. هذا ما أستطيع أن أؤكّده لك. والآن، ما رأيك؟

- أنا لا أعرف بماذا سأفكّر - قال أرشيمبولدي.

- ما عاد أحدٌ يتذكّر فورست بوكلر عالم النباتات، لا أحد يتذكّر الجنائنيَّ المثالي. لا أحد قرأ للكاتبَ، لكنّ الجميع، في لحظة ما من حياتهم، تذوّقوا بوظة فورست بوكلر، الجذّابة والطيبة في الربيع والخريف.

- ولماذا ليس في الصيف؟ - سأل أرشيمبولدي.

- لأنّها في الصيف مُبْشِمة قليلاً. الأفضل في الصيف هي مثلجات الماء، وليس مثلجات الحليب.

فجأة اشتعلت أضواء الحديقة، وإن مرّت لحظة ظلمة تامة، كما لو أنّ أحداً نشر بطانية سوداء فوق بعض أحياء هامبورغ.

تنهّد السيّد، لا بدّ أنّه يقارب السبعين من عمره، ثمّ قال:

- يا له من إرث غامض. ألا تعتقد ذلك؟

- بلى، بَلى، بالفعل، هذا ما أعتقده - قال أرشيمبولدي، بينما هو ينهض ويودّع خَلَفَ فورست بوكلر.

خرج بعد قليل من الحديقة وفي صباح اليوم التالي غادر إلى المكسيك.

ملاحظة للطبعة الأولى

تُنشر *2666* لأوّل مرّة بعد أكثر من سنة من وفاة المؤلّف. منطقيّ أن يتساءل المرء إلى أيّ مدى ينطبق النصّ المُقدَّم على النص الذي كان سيُظهره روبرتو بولانيو إلى النور لو أنّه عاش كفاية. الجواب مطمئن: الوضع الذي صارت إليه الرواية عند وفاة بولانيو يُقارب كثيراً الهدف الذي رسمهُ. لا شكّ أنّ بولانيو كان سيستمر وقتاً أكثر في العمل في النص: لكن فقط بضعة أشهر أكثر: هو نفسه صرّح بأنّها توشك على النهاية، بعد أن تجاوز الموعد الذي حدّده لإنهائها. على كلّ الأحوال كان بناء الرواية الكامل، وليس أساساتها فقط، مشاداً: رسمها الإجماليّ، أبعادها، مضمونها العام ما كانت لتكون، بأي حال من الأحوال، مختلفةً جدّاً عن التي لها في النهاية.

قيلَ عند وفاة روبِرتو بولانيو بأنّ مشروع *2666* الكبير كان قد تحوّل إلى سلسلة من خمس روايات، تنطبق على الأقسام الخمسة التي تشكّل هذا العمل. الصحيح هو أنّ بولانيو أصرَّ في الأشهر الأخيرة من حياته على هذه الفكرة، وهو في كلّ مرّة أقلّ ثقة بإمكانيته على تتويج مشروعه الأوّلي. ومع ذلك فمن المناسب أن نلفت الانتباه إلى أنّه تدخّلتْ في هذا القصد اعتباراتٌ من النوع العملي (لنقل بالمناسبة، لم يكن بولانيو خبيراً بها): بدا لِبولانيو أمام احتمال الموت الداهم، أنّ نشر العمل في خمس روايات مستقلّة، بحجم صغير أو متوسّط،أكثرُ قبولاً وأكثرُ

مردوديةً بالنسبة إلى الناشرين كما بالنسبة إلى الورثة مِنْ نشرِهِ في رواية واحدة ضخمة ومسهبة، وللطامة ليست منتهية تماماً.

ومع ذلك بدا بعد قراءة النص أنّ من الأفضل العودة إلى الرواية بمجموعها. بالرغم من أنّها تحتمل قراءة مستقلة إلا أنّ الأقسام الخمسة التي تشكّل *2666*، إضافة إلى العناصر الكثيرة المشتركة بينها (نسيج رقيق من الموضوعات المتكرّرة)، تُساهم بشكل لا لبس فيه في التصميم العام. لا حاجة لأنّ نبرّرَ البناء «المفتوحَ» نسبياً الذي يشملها، خاصّة إذا ما أخذنا بعين الاعتبار سابقتها *رجال التحرّي المتوحّشون*. تُرى لو أنّ هذه الرواية الأخيرة نُشرت بعد وفاة الكاتب أما كانت ستفتح المجال أمام كلّ أنواع التخمينات حول عدم انتهائها؟

ثمّ إنَّ هناك اعتباراً يرجّح قرارَ نشرها مجموعة - دون أن تتأذى إن نُشِرَت أجزاؤها الخمسة منفصلةً، ما إن يُحدّد الإطارُ الكامل لقراءتها، سامحةً بالدمج الذي تُجيزه بل وتنصح به بنيتُها المفتوحة. بولانيو، نفسه الراوي الرائع ومؤلف عدد من *القصص*[١] البارعة، تباهى دائماً، ما إن أبحر في تحرير *2666*، بوجودها ضمن مشروع هائل الأبعاد، يُخَلِّفُ وراءه *رجال التحرّي المتوحّشون* سواء في طموحه كما في أبعاده. لا يمكن فصل باعِ *2666* عن التصوُّر الأصلي لكلّ أجزائها، ولا عن إرادة المجازفة التي تُحرّكه، ولا عن تطلّعه المستعجل للكلية. في هذه النقطة ليس زائداً أن نتذكّر مشهداً من *2666* يُفكّر فيه أمالفيتانو، أحد أبطال الرواية، بخيبةٍ واضحة، بعد حديثه مع صيدلانيّ هاوٍ للقراءة، بالمكانة المتنامية للروايات القصيرة المحكمة (تُذْكَرُ في هذا المشهد عناوين مثل *بارتليبي، النسّاخ*، لمِلفيل، أو *المسخ* لكافكا) على حساب القصص الأطول والأكثر طموحاً وجرأة (مثل *موبي ديك*، ومثل *المحاكمة*). «يا له من تناقض محزن، فكَّر أمالفيتانو. حتى الصيدلانيون

---

(١) يستخدم الكلمة الفرنسية: *nouvelles*

المستنيرون ما عادوا يجرؤون على الأعمال الكبيرة، غير التامّة والجارفة، التي تشقّ طريقاً في المجهول. يختارون التمارين التامّة للمعلمين الكبار. أو ما يساوي الشيء ذاته: يريدون أن يروا المعلمين العِظام في حلقات مبارزة تدريبيّة، لكنّهم لا يريدون أن يعرفوا شيئاً عن المصارعات الحقيقيّة، حيث يُصارع المعلمون العِظام ذاك، ذاك الذي يُخيفنا جميعاً. ذاك الذي يرعب ويشدُّ وهناك دمٌ وجراحٌ قاتلة ونتن» (ص. ٢٨٩-٢٩٠).

ثمّ إنّ هناك العنوان، هذا الرقم الغامض *2666* - في الحقيقة هو تاريخ، -، الذي يعمل كنقطة تلاشي حيث تترتب أجزاء الرواية المختلفة. من دون نقطة الالتقاء هذه فإنّ منظور المجموع يبقى أعرج، مُقلقلاً، عالقاً في العدم.

في إحدى ملاحظاته الكثيرة المتعلّقة بـ *2666* يشير بولانيو إلى وجود «نقطة خفيّة» في الرواية، تختبئ تحت ما يمكن اعتباره، كي نقوله بهذا الشكل، «مركزها المادي». هناك أسباب كي نفكّر بأنّ هذا المركز المادّي قد يكون مدينة سانتا تِرِسا، النسخة طبق الأصل عن مدينة خوارِثْ، على الحدود بين المكسيك والولايات المتحدة. هناك تلتقي في النهاية أجزاء الرواية الخمسة: هناك تتمّ الجرائم التي تُشكّل ستارة الخلفية (والتي تقول عنها إحدى الشخصيات في جزء من الرواية «فيها يختبئ سرّ العالم»). أما بالنسبة إلى «المركز الخفيّ»... ألا يشير إليه بالضبط هذا التاريخ، *2666*، الذي يُظلّلُ الرواية كاملة؟

استغرقت كتابة *2666* السنوات الأخيرة من حياة بولانيو. لكنّ فكرة وتصميم الرواية سابقان جدّاً على هذه السنين وبالعودة إلى الوراء يمكن التعرف على نبضاتها في هذا الكتاب أو ذاك من كتب بولانيو، وبخاصّة بين تلك التي راح ينشرها بدءاً من انتهاء *رجال التحرّي المتوحّشون* (١٩٩٨)، التي ليس مصادفة أنّها تنتهي في صحراء سونورا. ستأتي لحظةُ تَعَقُّبِ هذه النبضات بتأنٍّ. يكفي الآن أن نشير

إلى واحد منها معبّرٍ جدّاً يتردّد في تميمة، عام ١٩٩٩. إنّ إعادة قراءتها تقدّم دليلاً لا يخطئ على المعنى الذي يُسنَد إليه تاريخ ٢٦٦٦. بطلة تميمة، أوكسيليو لاكوتور (الشخصية التي سبق أن تكوّنت، بدورها، في *رجال التحرّي المتوحشون*)، تحكي كيف تبعت أرتورو بِلانو وإرنِستو سان إيبفانيو وهما في طريقهما باتجاه ضاحية غِرِّرو، في مدينة مكسيكو، إلى حيث كان الاثنان يتوجّهان بحثاً عن المدعو ملك اللوطيين: هذا ما تقوله:

«وتبعتُهما: رأيتهما يسيران بخطوات رشيقة من بوكارِلي حتى رِفورما ثمّ رأيتهما يجتازان رِفورما دون أن ينتظرا الضوء الأخضر، كلاهما كان طويلَ ومتفتول الشعر لأنّ ريح الليلية التي تفيض عن الليل كانت تجري في تلك الساعة في رِفورما فتتحوّل جادّة رِفورما إلى أسطوانة شفافة، إلى رئة إسفينيةٍ من حيث تمرّ الانبعاثات المُتَخيّلة للمدينة، ثمّ رحنا نسير في جادة غِرِّرو، هما أبطأ قليلاً وأنا أسرع قليلاً من ذي قبل، وجادّة غِرِّرو في تلك الساعة تشبه مقبرةً أكثر من أيّ شيء آخر، لكن ليس مقبرة من عام ١٩٧٤ ولا مقبرة من عام ١٩٦٨ ولا مقبرة من عام ١٩٧٥ [التاريخ الذي تُكتب فيه قصّة أوكسيليو لاكوتور]، بل مقبرة من عام ٢٦٦٦. مقبرة منسية تحت جفن ميتٍ أو لم يولد بعد، تحت ماء فاترٍ لعينٍ انتهت، لأنّها أرادت أن تنسى شيئاً، بنسيانِ كلّ شيء» (ص. ٧٦-٧٧).

النص المقدّم للقارئ هنا يمثّلُ النسخة الأخيرة من مختلف «أقسام» الرواية. حدّد بولانيو بوضوح كبير ما هي النسخ التي يجب أن تعتبر نهائية بين أرشيفات عمله. ومع ذلك روجعت مسوداتٌ سابقة، بهدف استدراك فجوات أو أخطاء محتملة وبهدف اكتشاف مؤشرات محتملة إلى مقاصد بولانيو الأخيرة. لم تُلقِ عمليات البحث كثيراً من الأضواء على النص ولم تترك غير هوامش قليلة جدّاً للشكّ بطبيعتها النهائية.

كان بولانيو كاتباً دقيقاً جدّاً. عادةً ما كان يكتب عدّةَ مسودات لنصوصه، يكتبها دفعةً واحدة، لكنّه كان يُشذّبها فيما بعد بعناية. بهذا المعنى تُقَدِّمُ آخرُ نسخة من *2666*، ما عدا بعض الاستثناءات، مستوىً مُرْضِياً جدّاً من الوضوح والنظافة: من التروّي. نادراً ما أُدخلت تعديلات دنيا أو صُحّحت أخطاء واضحة، بالثقة يُقدّمها للناشرين تعاملهم الدؤوب والخبير-والمتواطئ قبل كل شيء - مع «نقاط ضعف» و«مزاجيات» الكاتب.

ملاحظة أخيرة، ربّما ليس من نافلة القول إضافتها. بين ملاحظات بولانيو حول *2666* يُقرأ في ورقة منفصلة: «راوي *2666* هو أرتورو بِلانو». ويضيف في مكان آخر، كاقتراح «لنهاية *2666*»: «وهذا هو كلّ شيء، يا أصدقائي. عملتُ كلَّ شيء، عشتُ كلَّ شيء. إذا ما ملكتُ القوّة، سأبكي. يودّعكم، أرتورو بِلانو».

وداعاً، إذاً.

إغناثيو إتشِباريا
أيلول ٢٠٠٤

المحتويات

هذا الكتاب

رأت الأعمالُ الممهورة بإحكام باسمه الغريب: بِنّو فون أرشيمبولدي، النورَ دون أن تحتوي قط على صورةٍ وجهٍ تستند إليه. إنّ الطبعات النادرة لكتاباته، وعدمَ وجود صور لشخصه، وغياب سيرة موثوقة له صبّت بصرامة في خلق متعة موجّهة إلى عقول خاصّة. هالة بدأت تُحاك في الثمانينات، حين كان الحصول على إحدى رواياته مجرّدَ ضربةِ حظّ وقليل من القراء ينصاعون لتأثيرِ سَردِهِ العظيم، مسحورين به إلى حد أنّهم كرّسوا وجودهم لدراسة وترجمة هذا الإبداع الأدبيّ الذي لا يُداخله شك.

لن يتأخر الدارسون اللامعون، بيليتر في باريس، موريني في تورين، إسبينوزا في مدريد ونورتون في لندن في أن يجعلوا من معرفة أرشيمبولدي مسيرة إيمانٍ وموشوراً ينوّعون من خلاله حاجاتهم الفكرية والإنسانية ذاتها. بجهدهم سوف يكسب أرشيمبولدي شيئاً فشيئاً مكانة هي في كلّ مرّة أكثر بروزاً في الرواية المعاصرة، بالرغم من أنّ هناك سؤالاً ما يزال عالقاً في الهواء: أين يختفي العبقريّ؟ آخر المعلومات التي تمّ الوصول إليها تُشير إلى ولاية سونورا الغبراء في المكسيك، حيث سينضمّ أستاذ تشيليّ إلى نادي الأرشيمبولديين، سيقتفون فيما بينهم جميعاً أثر المبدع المراوغ، في مكان محقته آلافُ جرائم قتل النساء وأمَضَّهُ الجفافُ المربك.


ISBN 978-9933354053

